

تصوير أبو عبيد الرحمن المردني

تفسير
القرآن العظيم
(تفسير ابن كثير)

الإمام الحافظ ابن كثير الدمشقي

تتبعني
عبد الرزاق المحمدي

المجلد الثالث

سورة الأنعام - سورة إبراهيم

دار الكتب العربية

بيروت - لبنان

تفسير القرآن العظيم

(تفسير ابن كثير)

للإمام المحافظ أبي الفداء إسماعيل
ابن كثير القرشي الدمشقي
(٧٠١ - ٧٧٤ هـ)

تحقيق

عبد الرزاق المحمدي

المجلد الثالث

سورة الأنعام - سورة إبراهيم

الناشر

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

تفسير القرآن العظيم
(تفسير ابن كثير)

1432 هـ - 2011 م

ISBN: 978-9953-27-015-9

© جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع،
أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير
أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقديماً.



9 789953 270159

الناشر

دار الكتاب العربي

العنوان : بيروت - شارع فردان - بناية بنك بيبيلوس - الطابق الثامن

ص.ب.: 11-5769 بيروت 1107 2200 لبنان

هاتف : 861178 - 862905 - 800811 - 800832 (+9611)

فاكس : 805478 (+9611) بريد إلكتروني daralkitab@idm.net.lb

www.dar-alkitab-alarabi.com

مواقعنا:

www.academiainternational.com



وهي مكية؛ قال العوفي وعكرمة وعطاء، عن ابن عباس: أنزلت سورة الأنعام بمكة.

وقال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة، حولها سبعون ألف ملك يجارون حولها بالتسبيح.

[٢٨٥٩] وقال سفيان الثوري، عن ليث، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: نزلت سورة الأنعام على النبي - ﷺ - جملة وأنا أخذه بزمام ناقة النبي - ﷺ - إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة^(١).

[٢٨٦٠] وقال شريك، عن ليث، عن شهر، عن أسماء قالت: نزلت سورة الأنعام على رسول الله - ﷺ - وهو في مسير، في زجل من الملائكة، وقد نظموا ما بين السماء والأرض^(٢). وقال السدي، عن مرة، عن عبد الله قال: نزلت سورة الأنعام يُشيعها سبعون ألفاً من الملائكة. وزوي نحوه من وجه آخر، عن ابن مسعود.

[٢٨٦١] وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ، وأبو الفضل الحسن بن يعقوب العدل، قالوا: حدثنا محمد بن عبد الوهاب العبدي، أخبرنا جعفر بن عون، حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن السدي، حدثنا محمد بن المنكدر، عن جابر قال: لما نزلت سورة الأنعام سبّح رسول الله - ﷺ - ثم قال: «لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سدّ الأفق»^(٣). ثم قال: صحيح على شرط مسلم.

[٢٨٦٢] وقال أبو بكر بن مزدويه: حدثنا محمد بن مغمر، حدثنا إبراهيم بن دُرستويه الفارسي، حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن سالم، حدثنا ابن أبي فديك، حدثني عمر بن طلحة الرقاشي، عن نافع ابن مالك أبي سهيل، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله - ﷺ - : نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة، سدّ ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح، والأرض بهم ترتج، ورسول الله - ﷺ - يقول: «سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم»^(٤).

[٢٨٦٣] ثم روى ابن مزدويه عن الطبراني، عن إبراهيم بن نائلة، عن إسماعيل بن عمرو، عن

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ١٧٨/٢٤ وفي إسناده شهر بن حوشب غير قوي، وليث بن أبي سليم ضعيف. وأعله الهيثمي في «المجمع» ٢٠/٧ بشهر فقط، مع أن ليث بن أبي سليم أسوأ حالاً منه.

(٢) إسناده ضعيف لضعف ليث وشهر كما سبق.

(٣) ضعيف. أخرجه الحاكم ٣١٥/٢ وصححه، وردّه الذهبي بقوله: لا والله، لم يدرك جعفر، السدي، وأظن هذا موضوعاً اهـ. والسدي روى مناكير كثيرة.

(٤) ضعيف. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٦٤٤٣، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٠/٧: رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبد الله بن عرس عن أحمد بن محمد السالمي، ولم أعرفها، وبقية رجاله ثقات اهـ. قلت: عمر بن طلحة الرقاشي لم أعثر له على ترجمة.

يوسف بن عطية، عن ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «نزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة، وشيئها سبعون ألفاً من الملائكة، لهم زجل بالأنبياء والتحميد»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي
الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾

يقول تعالى مادحاً نفسه الكريمة، حامداً لها على خلقه السموات والأرض قراراً لعباده، وجعلها للظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فجمع لفظ الظلمات ووحد لفظ النور، لكونه أشرف، كما قال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨] وكما قال في آخر هذه السورة: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَكْفُرُوا أَلَسُبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، أي: ومع هذا كله كفروا به بعض عباده، وجعلوا معه شريكاً وعدلاً، واتخذوا له صاحبةً وولداً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾، يعني: أباهم آدم الذي هو أصلهم ومنه خُرُجُوا، فانتشروا في المشارق والمغارب. وقوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾، قال سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾، يعني: الموت، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني الآخرة. وهكذا زوي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم، وعطية، والسدي، ومقاتل ابن حيان، وغيرهم. وقول الحسن، في رواية عنه: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ قال: ما بين أن يُخْلَقَ إلى أن يموت، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ وهو ما بين أن يموت إلى أن يبعث - هو يرجع إلى ما تقدّم، وهو تقدير الأجل الخاص، وهو عُمرُ كلِّ إنسانٍ، وتقدير الأجل العام وهو عُمر الدنيا بأكملها ثم انتهائها وانقضائها وزوالها، والمصير إلى الدار الآخرة. وعن ابن عباس ومجاهد: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾، يعني: مُدَّة الدنيا، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾، يعني: عمر الإنسان إلى حين موته، وكأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]... الآية. وقال عطية، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾، يعني: «النوم، يُقْبَضُ فِيهِ الرُّوحُ، ثم يرجع إلى صاحبه عند اليقظة، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾، يعني: أجل موت الإنسان. وهذا قول غريب. ومعنى قوله: ﴿عِنْدَهُ﴾، أي: لا يعلمه إلا هو، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عَلَّمَهَا حَيْدَ رَبِّي لَا يُحِيطُ بِهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وكقوله: ﴿يَسْتَلْوِكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلًا﴾ ﴿٤١﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَا ﴿٤٢﴾ إِنْ رَبُّكَ مُنْتَهَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النازعات: ٤٢-٤٤]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، قال السدّي وغيره: يعني تشكون في أمر الساعة. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ ﴿٣﴾. اختلف مُفسِّرو هذه الآية على أقوال بعد الاتفاق على تخطئة قول الجهمية الأول القائلين بأنه - تعالى عن قولهم علواً كبيراً - في كل مكان، حيث حَمَلُوا الآية على ذلك، فأصح الأقوال أنه: المدعو الله في السموات وفي الأرض، أي: يَعْبُدُهُ وَيُوَحِّدُهُ وَيُؤَيِّدُهُ بِالْإِلَهِيَّةِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَيَسْمُوهُنَّ اللَّهُ، ويدعوته رَغْباً

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني في «الصغير» ٢٢٠ وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٠/٧ وفيه يوسف بن عطية الصنفار، وهو ضعيف اهـ قلت: بل متروك. وانظر «تفسير الشوكاني» ٨٧٨ و٨٨٢ بتحريمي.

ورهباً، إلا من كفر من الجن والإنس، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، أي: هو إله من في السماء وإله من في الأرض، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرِّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبيراً أو حالاً. والقول الثاني: أن المراد أنه الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، من سرٍّ وجهر. فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، تقديره: وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض ويعلم ما تكسبون. والقول الثالث: أن قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، ثم استأنف الخبر فقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرِّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾. وهذا اختيار ابن جرير. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾، أي: جميع أعمالكم خيراً وشرها.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر المشركين المكذبين المعاندين: إنهم مهما أتتهم ﴿مِنْ آيَةٍ﴾، أي: دلالة ومعجزة وحجة، من الدلالات على وحدانية الرب - عز وجل -، وصدق رُسُلِهِ الكرام، فإنهم يعرضون عنها، فلا ينظرون فيها ولا يباليون بها، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾﴾. وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق، بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب، وليجدن غيبه، وليذوقن وبالَه. ثم قال تعالى واعظاً لهم ومحذراً أن يُصيبهم من العذاب والثكال الذنوبي ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعاً، وأكثر أموالاً وأولاداً، واستغلاًلاً للأرض وعماراً لها، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ﴾، أي: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض، والسعة والجُود، ولهذا قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾، أي: شيئاً بعد شيء، ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾، أي: كثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، أي: استدراجاً وإملاء لهم، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾، أي: بخطاياهم وسيئاتهم التي اجتروحوها، ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، أي: فذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث، ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، أي: جيلاً آخر لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم، فهلكوا كهلاكهم. فاحذروا أيها المخاطبون أن يُصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسوله، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباہنتهم ومنازعتهم فيه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾، أي: عايشوه، ورأوا نزوله، وباشروا ذلك، ﴿لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ

يَعْرَهُونَ ﴿١٢﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٣﴾ [الحجر: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا كِتَابَنَا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يُقْرَأُ وَيُذَكَّرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الطور: ٤٤]. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، قال الله: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَفُتِنَ الْأَعْمَى ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ﴾، أي: لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاهم من الله العذاب، كما قال تعالى: ﴿مَا نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا تُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]... الآية. وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿١٦﴾﴾، أي: ولو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً، أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً، لكان على هيئة رجل ليفهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَتَّبِعُونَ مُطِيعِينَ لَآتَيْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَاتٌ رَسُولًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: ٩٥]، فمن رَحِمَهُ اللهُ تعالى بِخَلْقِهِ أَنَّهُ يُرْسِلُ إِلَى كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْخَلَائِقِ رُسُلًا مِنْهُمْ، لِيَدْعُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَلِيُمْكِنَ لَهُمْ بَعْضٌ أَنْ يَنْتَفِعَ بِبَعْضٍ فِي الْمَخَاطَبَةِ وَالسُّؤَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]... الآية. قال الضجَّاج، عن ابن عباس في الآية: يقول: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور، ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾، أي: ولخَلَطْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَخْلِطُونَ. وقال الوالبي، عنه: ولشبهنا عليهم. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ رَبِّكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٨﴾﴾، هذا تسلية لرسوله محمد - ﷺ - في تكذيب من كذبه من قومه، ووعده وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٩﴾﴾، أي: فكروا في أنفسكم، وانظروا ما أحلَّ اللهُ بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوهم، من العذاب والثكال، والعقوبة في الدنيا مع ما أدخَرَ لهم من العذاب الأليم في الآخرة، وكيف نجى رُسُلَهُ وعباده المؤمنين.

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْزِيَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفِتْمَةِ لَرَبِّ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢١﴾﴾ قُلْ أَغْبَرَ اللَّهُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَدَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٣﴾ مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَمِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَأَنَّهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الْمَقْدَسَةَ الرَّحْمَةَ.

[٢٨٦٤] كما ثبت في الصحيحين، من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي - ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»^(١). وقوله: ﴿لِيَجْزِيَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفِتْمَةِ لَرَبِّ فِيهِ﴾، هذه اللام هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٩٤ و٧٤٠٤ و٧٥٥٣ ومسلم ٢٧٥١ والترمذي ٣٥٤٣ وابن ماجه ٤٢٩٥ وابن حبان ٦١٤٣

٦١٤٤ وأحمد ٣١٣/٢ و٣٨١ و٣٩٧ و٤٣٢ والطبري ١٣٠٩٩ والبخاري في التفسير ٨٦١ من طرق عن أبي هريرة

الكريمة ليجمعن عباده لميقات يوم معلوم، وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه ولا شك عند عباده المؤمنين، فاما الجاحدون المكذبون فهم في ريبهم يترددون.

[٢٨٦٥] وقال ابن مَرْدُويه عن تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا عبيد الله ابن أحمد بن عقبة، حدثنا عباس بن محمد، حدثنا حُسَيْن بن محمد، حدثنا مِخْصَن بن عقبة اليماني، عن الزبير بن شبيب، عن عثمان بن حاضر، عن ابن عباس قال: «سئل رسول الله - ﷺ - عن الوقوف بين يدي رب العالمين، هل فيه ماء؟ قال: والذي نفسي بيده إن فيه لماء، إن أولياء الله ليردون حياض الأنبياء، ويبعث الله تعالى سبعين ألف ملك في أيديهم عصي من نار، يذودون الكفار عن حياض الأنبياء»^(١). هذا حديث غريب.

[٢٨٦٦] وفي الترمذي: «إن لكل نبي حوضاً، وأنهم يتباغون أيهم أكثر واردة، وأرجو أن أكون أكثرهم واردة»^(٢). ولهذا قال: «الَّذِينَ خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ»، أي: يوم القيامة، «فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»، أي: لا يصدقون بالمعاد، ولا يخافون شر ذلك اليوم. ثم قال تعالى: «وَلَمْ يَأْتِ الْيَوْمَ وَالنَّهَارَ»، أي: كل دابة في السموات والأرض، الجميع عباده وخلقه، وتحت قهره وتصرفه وتذبيره، لا إله إلا هو. «وَهُوَ أَسْمِعُ الْكَلِمَةَ»، أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم. ثم قال لعبيده ورسوله محمد - ﷺ - الذي بعثه بالتوحيد العظيم، والشرع القويم، وأمره أن يدعوا الناس إلى صراطه المستقيم: «قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ عِزًّا وَقَدْرًا قَائِمًا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» كما قال: «قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ تَأْمُرُوكُمْ وَأَعْبُدُوا إِلَهًُا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ مِنْ قَبْلُ شَرِكًا» [الزمر: ٦٤]، والمعنى: لا تأخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له، فإنه فاطر السموات والأرض، أي: خالقهما ومبدعهما، على غير مثال سبق. «وَهُوَ يُعَلِّمُ وَلَا يُعَلَّمُ»، أي: وهو الرزاق لخالقه من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: «وَمَا خَلَقْنَا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَهُ» [الذاريات: ٥٦]... الآية. وقرأ بعضهم هاهنا: «وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ»، أي: لا يأكل.

[٢٨٦٧] وفي حديث سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي - ﷺ - قال: فانطلقنا معه، فلما طعم النبي - ﷺ - وغسل يديه قال: «الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، ومن علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا، وكل بلاء حسن أبلانا. الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه. الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام، وسقانا من الشراب، وكسانا من العزى، وهدانا من الضلال، ويصننا من العمى، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً. الحمد لله رب العالمين»^(٣). «قُلْ إِنِّي أُرْسِلْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَدَّ»، أي: من هذه الأمة «وَلَا تَكُونَتْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» [١٤] قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [١٥]، يعني يوم القيامة «مَنْ يُصِرْ عَنْهُ» يعني: العذاب «يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِمَهُ»، يعني: فقد رحمه الله، «وَذَلِكَ أَلْفَوْهُ الْثُلُومِ»، كما قال: «فَمَنْ ذُنِحَ عَنِ الشَّارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ» [آل عمران: ١٨٥]. والفوز: هو حصول الریح ونفي الخسارة.

(١) إسناده ضعيف. عثمان بن حاضر تابعي صدوق ومن دونه مجاهيل لم أعر على ترجمة لواحد منهم.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٤٤٣ من حديث الحسن عن سمرة وضعفه الترمذي بقوله: غريب، وقد رواه الأشعث بن عبد الملك عن الحسن مرسلًا، لم يذكر فيه سمرة، وهو أصح. وضعفه شيخنا في جامع الأصول ٧٩٩٢.

(٣) صحيح. أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» ٣٠١ وابن أبي الدنيا في «الشكر» ١٥ وابن السني ٤٨٥ وصححه ابن حبان ٥٢١٩ والحاكم ٥٤٦/١ على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بَعْثًا لَمْ يَأْتِ بِهَا فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِ اللَّهِ الْكَلِيمِ ﴿١٧﴾ قُلْ أَتَىٰ شَيْءٌ أَكْبَرَٰ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَهَيْبَكُمْ لِتَشْهَدُونَ أَنْتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَهُمْ أَخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلْكَنَّا بِعِفْوَتِهِمْ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه: ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بَعْثًا لَمْ يَأْتِ بِهَا فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِ اللَّهِ الْكَلِيمِ ﴿١٧﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]... الآية.

[٢٨٦٨] وفي الصحيح أن رسول الله - ﷺ - كان يقول: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(١). ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾، أي: هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمته جلاليه وكبريائه وعظمته وعُلُوّه وقُدْرَتِهِ الأشياء، واستكانت وقضاهت بين يديه وتحت حكمه وقهره. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾، أي: في جميع ما يفعله، ﴿الْقَلِيدُ﴾ بمواضع الأشياء ومحالها، فلا يعطي إلا لمن يستحق، ولا يمنع إلا من يستحق. ثم قال: ﴿قُلْ أَتَىٰ شَيْءٌ أَكْبَرَٰ شَهَادَةً﴾، أي: من أعظم الأشياء شهادة ﴿قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: هو العالم بما جنتكم به، وما أنتم قائلون لي، ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، أي: وهو نذير لكل من بلغه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْجِدَةٌ﴾ [هود: ١٧]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع وأبو أسامة وأبو خالد، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب في قوله: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾: من بلغه القرآن فكانما رأى النبي - ﷺ - زاد أبو خالد: وكلمه. ورواه ابن جرير من طريق أبي معشر، عن محمد بن كعب قال: من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد - ﷺ - .

[٢٨٦٩] وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾: إن رسول الله - ﷺ - قال: «بلغوا عن الله، فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله»^(٢). وقال الربيع بن أنس: حق على من أتبع رسول الله - ﷺ - أن يدعو كالذي دعا رسول الله - ﷺ - وأن يذير كالذي أذير. وقوله: ﴿أَهَيْبَكُمْ لِتَشْهَدُونَ﴾ أيها المشركون ﴿أَنْتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَهُمْ أَخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾. ثم قال تعالى مخبراً عن أهل الكتاب أنهم يعرفون هذا الذي جنتهم به كما يعرفون أبناءهم، بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بشرُوا بوجود محمد ﷺ وبعثه وصفته، وبلده ومهاجره، وصفة أمته. ولهذا قال بعد هذا: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾، أي: خسروا كل الخسارة، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء، ونوّهت به في قديم الزمان وحديثه. ثم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٨٤٤ و٦٦١٥ ومسلم ٥٩٣ وأبو داود ١٥٠٥ والنسائي ٧٠/٣ وأحمد ٢٥٠/٤ وابن حبان ٢٠٠٥ والبيهقي ١٨٥/٢ من حديث المغيرة بن شعبة وصدده: «لا إله إلا الله وحده...».

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٧٨١ والطبري ١٣١٢٢ عن قتادة وهو ضعيف لإرساله.

يَأْتِيَهُ، أي: لا أظلم ممن تقول على الله، فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلائله، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، أي: لا يفلح لا هذا ولا هذا، لا المفتري ولا المكذب.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنُ شُرَكَائِكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا إِلَيْهِمْ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَبْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوِي عَنَّهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا﴾ يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه قائلاً لهم: ﴿آيِنُ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُؤَدِبُهُمْ يَقُولُ آيِنُ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [القصص: ٦٦]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾، أي: حُجَّتُهُمْ. وقال عطاء الخراساني، عن ابن عباس: أي مغذرتهم. وكذا قال قتادة. وقال ابن جرير، عن ابن عباس: أي قيلهم. وكذا قال الضحاك. وقال عطاء الخراساني: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ بليثهم حين ابتلوا ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وقال ابن جرير: والصواب ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إليهم، اعتذاراً مما سلف منهم من الشرك بالله ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى الرازي، عن عمرو بن أبي قيس، عن مطرف، عن المنهال، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: يا أبا عباس، سمعت الله يقول: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؟ قال: أما قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا: نعالوا فلتنجد. فيحذون، فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثاً. فهل في قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا قد نزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه. وقال الضحاك، عن ابن عباس: هذه في المنافقين. وفي هذا نظر، فإن هذه الآية مكية، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والتي نزلت في المنافقين آية المجادلة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جِيحًا يَطْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ٨١]. . . الآية. وهكذا قال في حق هؤلاء: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾، كما قال: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ آيِنُ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ بين دوين الله قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا﴾ [غافر: ٧٣ - ٧٤]. . . الآية. وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا إِلَيْهِمْ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ﴾، أي: يجيئون ليسمعوا قراءتك، ولا تجزي عنهم شيئاً لأن الله جعل ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، أي: أعطية لتلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، أي: صمماً عن السماع النافع، فهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْوَيْدِيِّ يُعِيقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاةً وَنِدَاةً﴾ [البقرة: ١٧١]. . . الآية. وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا إِلَيْهِمْ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ﴾، أي: يحاجونك والآيات والدلالات والحجج البينات، لا يؤمنوا بها. فلا فهم عندهم ولا إنصاف، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]. . . الآية. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ﴾، أي: يحاجونك ويناضرونك في الحق بالباطل، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: ما هذا الذي جئت به إلا ما أخذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم. وقوله: ﴿وَهُمْ يَبْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوِي عَنَّهُ﴾، وفي معنى ﴿يَبْهَوْنَ عَنْهُ﴾

قولان: أحدهما: أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق، وتصديق الرُّسُول والانتقاد للقرآن، ﴿وَيَنْتَوَعَتْ عَنْهُ﴾، أي: ويبتعدون هم عنه، فَيَجْمَعُونَ بين الفعلين القبيحين، لا ينتفعون ولا يتركون أحداً ينتفع وَيَبْتَعِدُونَ. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال: ينهون الناس عن محمد - ﷺ - أن يؤمنوا به. وقال محمد بن الحنفية: كان كفاؤ قريش لا يأتون النبي - ﷺ - وينهون عنه. وكذا قال مجاهد وقتادة، والضحاك، وغير واحد. وهذا القول أظهر، والله أعلم، وهو اختيار ابن جرير. والقول الثاني رواه سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عَمَّن سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، قال: نزلت في أبي طالب، كان ينهى عن النبي - ﷺ - أن يؤذى. وكذا قال القاسم ابن مخيمرة، وحبيب بن أبي ثابت، وعطاء بن دينار وغيره: أنها نزلت في أبي طالب. وقال سعيد بن أبي هلال: نزلت في عُمومة النبي - ﷺ - وكانوا عَشْرَةَ، فكانوا أشدَّ الناس معه في العلانية، وأشدَّ الناس عليه في السِّرِّ. رواه ابن أبي حاتم. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، أي: ينهون الناس عن قتله. وقوله: ﴿وَيَنْتَوَعَتْ عَنْهُ﴾، أي: يتباعدون منه. ﴿وَلَنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْتَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: وما يهلكون بهذا الصنيع ولا يعود وبأله إلا عليهم، وما يشعرون.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا: ﴿يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يتمنون أن يُرَدُّوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يُحْفُونَ في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها في الدنيا، أو في الآخرة كما قال قبل هذا بيسير: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿١٦٣﴾ أَظَلُّوا كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾. ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صديق ما جاءت به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يُظهِرون لاتباعهم خلافه، كما قال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلْتَهُمْ لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ الرَّبُّ السَّمَكِينَ وَالْأَرْضَ بِمَآبِرِ﴾ [الإسراء: ١٠٢]... الآية. وقال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿وَمَعَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْسَّتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وظُلُومًا﴾ [النمل: ١٤]. ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يُظهِرون للناس الإيمان ويُبْطِنون الكفر، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار، ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية وهي العنكبوت، فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [العنكبوت: ١١]؛ وعلى هذا فيكون هذا إخباراً عن حال المنافقين في الدار الآخرة، حين يُعَايِشُونَ العذاب، فظهر لهم حينئذ غيب ما كانوا يُبْطِنون من الكفر والشقاق والنفاق، والله أعلم. وأما معنى الإضراب في قوله: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾، فهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه جزاءً على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى

الدنيا لِيَتَخَلَّصُوا مما شاهدوا من النار، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، أي: في تمنِّيهم الرجعة رغبةً ومحبةً في الإيمان. ثم قال مُخْبِرًا عنهم: إنهم لو رُدُّوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نُهُوا عنه من الكفر والمخالفة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، أي: في قولهم: ﴿بَلَّغْنَا نَرْدًا وَلَا تَكْذِبُ يَا رَبَّنَا وَكَوْنُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِبَعِيثِينَ﴾ (٣١). أي: لعادوا لما نهوا عنه، وقالوا: ﴿إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا، ثم لا معادَ بعدها. ولهذا قال ﴿وَمَا نَحْنُ بِبَعِيثِينَ﴾. ثم قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: أوقفوا بين يديه، قال: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْعَمَىٰ﴾، أي: أليس هذا المعاد بحق وليس يباطل كما كنتم تظنون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، أي: كما كنتم تكذبون به فذوقوا اليوم مسه، ﴿أَفَيْسَرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ﴾ (٣٢). [الطور: ١٥].

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا قَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ﴾ (٣١) ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣٢)

يقول تعالى مخبراً عن خسارة من كَذَّبَ بقاء الله، وعن خيبتِهِ إِذَا جَاءَتْهُ السَّاعَةُ بَغْتَةً، وعن نَدَامَتِهِ على ما قَرَطَ من العمل، وما أسلَفَ من قبيح الفِعالِ، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا قَرَطْنَا فِيهَا﴾. وهذا الضميرُ يَحْتَمِلُ عَوْدَهُ على الحياة الدنيا وعلى الأعمال، وعلى الدار الآخرة، أي: في أمرها. وقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ﴾، أي: يحملون. وقال قتادة: يعملون. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن عمرو بن قيس، عن أبي مرزوق قال: وَيَسْتَقْبِلُ الكافر، أو: الفاجر، عند خروجه من قبره كأقبح صورة رآها وأنتنه ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أو ما تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن الله قَبِّحَ وجهك وثننَ ربحك. فيقول: أنا عمك الخبيث، هكذا كنت في الدنيا خبيث العمل مُتَّبِعْتُهُ، فطالما ركبتني في الدنيا، هلُمَّ أركبك، فهو قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾... الآية. وقال أسباط، عن السدي أنه قال: ليس من رجل ظالم يموت فيدخل قبره إلا جاءه رجلٌ قبيح الوجه، أسود اللون، مُتْنَنُ الريح، عليه ثياب دينة، حتى يدخل معه قبره، فإذا رآه قال: ما أقبح وجهك! قال: كذلك كان عمك قبيحاً. قال: ما أنتن ربحك! قال: كذلك كان عمك منتناً. قال: ما أدنس ثيابك! قال فيقول: إن عمك كان ديساً. قال له: من أنت؟ قال: أنا عمك! قال: فيكون معه في قبره، فإذا بُعِثَ يوم القيامة قال له: إني كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات، وأنت اليوم تحملني. قال: فيركب على ظهره فيسوقه حتى يدخله النار، فذلك قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ﴾. وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، أي: إنما غاليها كذلك ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿قَدْ نَعَلَمَ إِنَّهُ لِيَحْزَنكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٣) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنهَمُ نَصْرًا وَلَا مَبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٤) ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَاتٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٥) ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٣٦)

يقول تعالى مُسَلِّياً لِنَبِيِّهِ - ﷺ - في تكذيب قَوْمِهِ له ومخالفتهم إياه: ﴿قَدْ تَلَمَّ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾، أي: قد أحطنا علماً بتكذيب قومك لك، وحزنك وتأسفك عليهم، ﴿فَلَا نَذْهَبُ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨]، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَمَّا كَبُرَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَانَ مُوسَىٰ سَاحِقًا عَلَيْهِمُ غَمًّا أَكْبَرًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِ الْكَافِرِينَ فَقَالَ يَتَّبِعُونَ قَالَ إِنَّكُمْ تُجِيبُونَ اللَّهَ بِكَلِمَاتٍ لَّيْسَ لَهَا عَلَيْكُمْ جُورٌ فَمَا تَتْلَوْنَ إِلَّا الْكُتُبَ وَالْحِجَابَ وَيَحْبُطُونَ بِغَيْرِ حَرْمَةٍ تَحْبُطُونَ﴾ [الكهف: ٦] وقوله: ﴿فَأَنبَأَهُمْ أَنَّ لَهُمْ لَهَا وَجْهًا مَّا لَمْ يُغْنِي عَنْهُمْ وَهُمْ عَلَيْهِمْ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿فَلَمَّا كَبُرَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَانَ مُوسَىٰ سَاحِقًا عَلَيْهِمُ غَمًّا أَكْبَرًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِ الْكَافِرِينَ فَقَالَ يَتَّبِعُونَ قَالَ إِنَّكُمْ تُجِيبُونَ اللَّهَ بِكَلِمَاتٍ لَّيْسَ لَهَا عَلَيْكُمْ جُورٌ فَمَا تَتْلَوْنَ إِلَّا الْكُتُبَ وَالْحِجَابَ وَيَحْبُطُونَ بِغَيْرِ حَرْمَةٍ تَحْبُطُونَ﴾، أي: ولكنهم يعايندون الحق ويدفعونه بصدورهم.

[٢٨٧٠] كما قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن علي قال: قال أبو جهل للنبي - ﷺ - : إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله: ﴿فَأَنبَأَهُمْ أَنَّ لَهُمْ لَهَا وَجْهًا مَّا لَمْ يُغْنِي عَنْهُمْ وَهُمْ عَلَيْهِمْ عَادُونَ﴾^(١). ورَوَاهُ الْحَاكِمُ، مِنْ طَرِيقِ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ: ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخِينَ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ.

[٢٨٧١] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الوزير الواسطي بمكة، حدثنا بشر بن المُبَشَّرِ الواسطي، عن سلام بن مسكين، عن أبي يزيد المدني: أن النبي - ﷺ - لقي أبا جهل فصافحه، فقال له رجل: ألا أراك تصافح هذا الصابي؟ فقال: والله إني لأعلم إنه لثبي، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاً؟! وتلا أبو يزيد: ﴿فَأَنبَأَهُمْ أَنَّ لَهُمْ لَهَا وَجْهًا مَّا لَمْ يُغْنِي عَنْهُمْ وَهُمْ عَلَيْهِمْ عَادُونَ﴾^(٢). وقال أبو صالح وقتادة: يعلمون أنك رسول الله ويجحدون.

[٢٨٧٢] وذكر محمد بن إسحاق، عن الزهري، في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي - ﷺ - من الليل، هو وأبو سفيان صخر بن حرب، والأخنس بن شريق، ولا يشعر واحد منهم بالآخر. فاستمعوا إلى الصباح، فلما هَجَمَ الصُّبْحُ تَفَرَّقُوا، فجمعتهم الطريق، فقال كلُّ منهم للآخر: ما جاء بك؟ فذكر له ما جاء له، ثم تعاهدوا ألا يعُودُوا، لما يخافون من عِلْمِ شَبَابِ قُرَيْشِ بِهِمْ، لثَلَا يُفْتَنُوا بِمَجِيئِهِمْ. فلما كانت الليلة الثانية جاء كلُّ منهم ظنّاً منه أن صاحبه لا يجيئان، لما تقدّم من اليهود، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق، فتلاوموا، ثم تعاهدوا على ألا يعُودُوا. فلما كانت الليلة الثالثة جاؤوا أيضاً، فلما أصبحوا تعاهدوا على ألا يعودوا لمثلها. ثم تفرّقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرّج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني - يا أبا حنظلة - عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يُراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي خلقت به. ثم خرّج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجأنا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى نُدرِكُ هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نُصدّقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه^(٣).

وروى ابن جرير، من طريق أسباط، عن السدي، في قوله: ﴿قَدْ تَلَمَّ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَأَنبَأَهُمْ لَهَا وَجْهًا مَّا لَمْ يُغْنِي عَنْهُمْ وَهُمْ عَلَيْهِمْ عَادُونَ﴾

(١) أخرجه الترمذي ٣٠٦٤ والحاكم ٣١٥/٢ وصححه على شرطهما وقال الذهبي: ما خرّجنا لناجية شيئاً. وأخرجه الترمذي بإثر ٣٠٦٤ عن ناجية دون ذكر علي، وقال: وهذا أصح.

(٢) مرسل. أبو يزيد المدني تابعي، والمرسل من قسم الضعيف عند علماء الحديث.

(٣) مرسل. أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٢٠٦/٢ - ٢٠٧ من طريق ابن إسحاق به.

يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٧﴾: لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لبني زُهرة: يا بني زُهرة، إن محمداً ابنُ أختكم، فأنتم أحق من كَفَّ عنه. فإنه إن كان نبياً لم تقاتلوه اليوم، وإن كان كاذباً كنتم أحق من كَفَّ عن ابن أخته! قِفُوا حتى ألقى أبا الحكم، فإن غلب مُحمد رجعتُم سالمين، وإن غلب محمد فإن قومكم لن يصنعوا بكم شيئاً فيومئذ سُمي الأخنس، وكان اسمه «أبي»، فالتقى الأخنس وأبو جهل، فخلا الأخنس بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد: أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش غَيري وغيرك يسمع كلامنا. فقال أبو جهل: ويحك؟ والله إن محمداً لصادق، وما كَذَبَ محمداً قط، ولكن إذا ذهبت بنو قُصي باللواء والسقاية والحِجَابة والثبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿فَاتَّبَعْتُمُ لَآئِبَةَ اللَّهِ لِيُنزِلَ عَلَيْهَا مِنْ سَحَابٍ مُنِيرٍ﴾. - محمد - ﴿٣٧﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنْتَهُمْ نَصْرًا﴾. هذه تسلية للنبي - ﴿٣٧﴾ - وتعزية له فيمن كَذَبه من قومه، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرُّسل، ووعد له بالنصر كما نصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعدما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾، أي: التي كتبتها بالثبوة في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين، كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِآيَاتِنَا الرُّسُلِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَكُمُ النَّصُورُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿وَلَنْ نُجَنِّبَنَّكُمْ آلَهُمُ النَّاصِرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ [الصفحات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَحْمَدَ أَنَا وَرَسُولِي لَنْ أَكُونَ فِيهِمْ عَرِيبًا﴾ ﴿٣٧﴾ [المجادلة: ٢١]. وقوله: ﴿وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الرُّسُلِينَ﴾، أي: من خَبرهم كيف نصروا وأيدوا على من كَذَبهم من قومهم، فلَك فيهم أسوةٌ وبهم قدوة. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، أي: إن كان شق عليك إعراضهم عنك، ﴿فَإِنْ أَسْأَلْتَهُمْ أَنْ تَنْبِئَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: النَّفْعُ: السَّرْبُ، فتذهب فيه فتأتيهم بآية، أو تجعل لك سلماً في السماء، فنصعدُ فيه فتأتيهم بآية أفضل مما أتيتهم به، فافعل. وكذا قال قتادة، والسدي، وغيرهما. وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْخَالِفِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كَافَّةً﴾ [يونس: ٩٩]... الآية. قال علي بن أبي طلحة، عن عباس في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، قال: إن رسول الله - ﴿٣٧﴾ - كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فاختبر الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، أي: إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه، كقوله: ﴿يُنزِلُ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِي الْقَوْلَ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ [يس: ٧٠]. وقوله: ﴿وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، يعني بذلك الكفار، لأنهم موتى القلوب، فشبَّههم الله بموت الأبدان، فقال: ﴿وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، وهذا من باب التهكم بهم، والإزرار عليهم.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أُنثَاهُمْ مِمَّا فَرَضْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُغُرُوا عَلَيْكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يُشَا اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم كانوا يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، أي: خارق على

مقتضى ما كانوا يريدون وما يتعتنون كما قالوا، ﴿لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَقٌّ تَفْجُرُنَا مِنْ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠]... الآيات. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُزِيلَ آيَةَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: هو تعالى قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك، لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّا نَمُودُ الْآتَاةَ سُبُعًا فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنْ شَأْنًا نُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصَّيْنَهُمْ﴾ [الشعراء: ٤]. وقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغُ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلَمٌ يَبْطِرُ بِحَسْبِجِهِ إِلَّا أَسْمُ أَنْثَالِكُمْ﴾. قال مجاهد: أي أصناف مَصْنُفَةٌ تُعْرَفُ بِأَسْمَائِهَا. وقال قتادة: الطير أُمَّة، والإنس أُمَّة، والجنُّ أُمَّة. وقال السدي: ﴿إِلَّا أَسْمُ أَنْثَالِكُمْ﴾، أي: خلق أمثالكم.

وقوله تعالى: ﴿مَا قَرَّلْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقِهِ وتدبيره، سواء كان برياً أو بحرياً. كما قال: ﴿وَمَا يَنْبَغُ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦٦]، أي: مُفْصِح بِأَسْمَائِهَا وَأَعْدَادِهَا وَمَظَانِهَا، وحاصر لحركاتها وسكناتها، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ أُمَّةٍ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحِيلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [١٠].

[٢٨٧٣] وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حدثنا عُبيد بن واقد القيسي أبو عَبَّاد، حدثني محمد بن عيسى بن كيسان، حدثنا محمد بن الْمُثَنَّى، عن جابر بن عبد الله قال: قُلَّ الْجَرَادُ فِي سَنَةٍ مِنْ سِنِي عُمَرَ - رضي الله عنه - التي ولي فيها، فسأل عنه فلم يُخْبِر بشيء، فاعْتَمَّ لذلك. فأرسل ركباً إلى كذا، وآخر إلى الشام، وآخر إلى العراق يسأل: هل رُوي من الجراد شيء أم لا؟ فأتاه الراكب الذي من قِبَل اليمن بِقَبْضَةِ جَرَادٍ، فألقاها بين يديه، فلما رآها كَبُرَ ثَلَاثًا، ثم قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يقول: «خَلَقَ اللَّهُ - عز وجل - ألف أُمَّةٍ، منها يَسْتَمِتُ فِي الْبَحْرِ، وأربعمئة في البر. وأول شيء يهلك من هذه الأمم الْجَرَادُ، فإذا هَلَكَتْ تَتَابَعَتْ مِثْلَ النَّظَامِ إِذَا قُطِعَ سِلْكُهُ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو نُعَيْمٍ، حدثنا سفيان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، قال: حَشَرُهَا الْمَوْتُ. وكذا رواه ابن جرير من طريق إسرائيل، عن سعيد، عن مسروق، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: موت البهائم حَشَرُهَا. وكذا رواه العوفي عنه. قال ابن أبي حاتم: ورُوي عن مجاهد والضحاك مثله. والقول الثاني: أن حشرها هو بعثها يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَنْفُسُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

[٢٨٧٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن مُنْذِرِ الثوري، عن أشياخ لهم، عن أبي ذَرٍّ: أن رسول الله - ﷺ - رأى شاتين تَتَشَطَّحَانِ، فقال: يا أبا ذَرٍّ، هل تُذْري فيم تتشطحان؟ قال: لا. قال: لكن الله يذري، وسبَّضِي بينهما^(٢).

(١) باطل. أخرجه الخطيب ٢١٨/١١ والدولابي ٥٢/٢ وأبو يعلى في «مسنده الكبير» كما في «المجمع» ١٢٤٣٣ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١٣/٣ - ١٤. وابن عدي ٣٥٢/٥ و٢٤٥/٦ من حديث جابر عن عمر. وقال الهيثمي: فيه عبيد بن واقد القيسي وهو ضعيف اهـ. وأهله ابن حبان بمحمد بن عيسى بن كيسان وقال: شيخ يروي عن ابن المنكر المعائب، وعن الثقات الأوابد، وهذا الحديث لا شك أنه موضوع، ليس من كلام رسول الله ﷺ اهـ ووافقه ابن الجوزي، وهو كما قال.

(٢) أخرجه أحمد ١٦٢/٥ وله طرق أخرى يحسن بها إن شاء الله، راجع المجمع ٣٥١/١٠ - ٣٥٢.

[٢٨٧٥] ورواه عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن الأعمش، عن ذكره، عن أبي ذر قال: بينا نحن عند رسول الله - ﷺ - إذ انتطحت عنزان، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون فيم انتطحتا!». قالوا: لا ندري. قال: «لكن الله يدري وسيقضي بينهما»^(١). ورواه ابن جرير.

[٢٨٧٦] ثم رواه من طريق مُنْذِرِ الثوري، عن أبي ذر، فذكره وزاد: قال أبو ذر: «ولقد تَرَكْنَا رسول الله - ﷺ - وما يُقَلِّبُ طائر جناحيه في السماء إلا دُكِّرْنَا منه عِلْمًا»^(٢).

[٢٨٧٧] وقال عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثني عباس بن محمد وأبو يحيى البزار قالا: حدثنا حجاج بن نصير، حدثنا شُعْبَةُ، عن العوام بن مَرْجَم - من بني قيس بن ثعلبة - عن أبي عثمان التهدي، عن عثمان - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «إِنَّ الْجَمَاءَ لَتَقْتَصَّصَنَّ مِنَ الْقِرْنَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن جعفر بن بُرقان، عن يزيد الأصم، عن أبي هريرة في قوله: ﴿إِلَّا أُمَّ أُمَّنَا لَكُمْ مَا فَطَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، قال: يُحْشَرُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْبَهَائِمُ وَالِدَوَابُّ وَالطَّيْرُ وَكُلُّ شَيْءٍ، فَيُبَلِّغُ مِنْ عَذْلِ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ أَنْ يَأْخُذَ لِلْجَمَاءِ مِنَ الْقِرْنَاءِ. قال: ثم يقول: كوني تراباً. قال: فلذلك يقول الكافر: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾. وقد روي هذا مرفوعاً في حديث الصور^(٤).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سُوءَ بِرِكَمٍ فِي الْظُلُمَاتِ﴾، أي: مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم - وهو الذي لا يسمع - أبكم - وهو الذي لا يتكلم - وهو مع هذا في ظلام لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق، أو يخرج مما هو فيه؟! كما قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزُكَّرَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ بَدَأَ بِكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٧-١٨]، وكما قال تعالى: ﴿أَو كَطُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لَيْلِي يَشْبَهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَابُّ ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠]، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَسْئَلِ اللَّهَ يَضِلْهُ وَمَنْ يَتَّخِذْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، أي: هو المتصرف في خلقه بما يشاء.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْأَسْأَةِ وَالضَّرِّ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ

(١) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ٧٨٦ ومن طريقه الطبري ١٣٢٢٦، وإسناده ضعيف فيه راي لم يسم، وله شاهد عند مسلم سيأتي.

(٢) أخرجه الطبري ١٣٢٢٧ وهو منقطع بين أبي ذر ومنذر الثوري، لكن يتأيد بالآتي. وأخرجه أحمد ١٧٣/٥ والبزار ٣٤٥٠ من وجه آخر عن أبي ذر مرفوعاً وفي إسناده ليث بن أبي سليم غير قوي. والصواب الرواية المتقدمة. حيث رواه منذر عن أشياخ له عن أبي ذر، وبكل حال الحديث حسن بطرقه، وفي الباب أحاديث تعضده، وانظر ما بعده.

(٣) صحيح بشواهد. أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» ٧٢/١ والبزار ٣٤٤٩ وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٥٢/١٠: رواه أبو يعلى في «الكبير» والبزار وعبد الله بن أحمد، وفيه الحجاج بن نصير، وقد وثق على ضعفه وبقية رجال البزار رجال الصحيح غير العوام بن مزاحم، وهو ثقة اهـ. ويشهد له حديث أبي هريرة عند مسلم ٢٥٨٢ والترمذي ٢٤٢٠ وابن حبان ٧٣٦٣ وأحد ٣٢٣/٢ وابن حبان ٧٣٦٣.

(٤) يأتي تخريجه إن شاء الله.

الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾

يخبر تعالى أنه الفَعَال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، وأنه لا مُعَقَّب لحكمه، ولا يُقَدِّر أحدٌ على صَرْفِ حُكْمِهِ عن خَلْقِهِ، بل هو وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، الذي إذا سُئِلَ يَجِيبُ لمن يشاء، ولهذا قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ﴾، أي: أناكم هذا أو هذا ﴿أَعْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: لا تدعون غيره، لعلمكم أنه لا يقدر أحدٌ على دفع ذلك سواه، ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي: في اتخاذكم الهة معه ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي: في وقت الضرورة لا تدعون أحداً سواه، وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]... الآية. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ﴾، يعني: الفقر والضيقة في العيش ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَفِعُونَ﴾، أي: يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا نَقَرُوا﴾، أي: فهلاً إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتَمَسَّكُوا لَدِينَا، ﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ما رقت ولا خشعت، ﴿وَوَيَّسَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: من الشرك والمعاندة والمعاصي. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾، أي: أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون. وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عياداً بالله من مكره، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾، أي: من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: على غفلة ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، أي: آيسون من كل خير. قال الوالبي: عن ابن عباس: المبلِس: الأيس. وقال الحسن البصري: من وسَّع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له، ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأي له، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، قال الحسن: مَكَرَ بِالْقَوْمِ وَزَبَّ الكعبة، أَعْطَوْا حاجتهم ثم أَخَذُوا. رواه ابن أبي حاتم. وقال قتادة: بَغَتِ القومُ أمرُ الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عِنْدَ سَكْرَتِهِمْ وَغِرَّتِهِمْ وَنَعْمَتِهِمْ، فلا تَعْتَرُوا بالله، إنه لا يَغْتَرُ بالله إلا القومُ الفاسقون. رواه ابن أبي حاتم أيضاً.

وقال مالك، عن الزهري، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال: إرخاء الدنيا وسرّها.

[٢٨٧٨] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين - يعني ابن سعد أبا الحجاج المهري - عن حزملة بن عمران التميمي، عن عقبة بن مسلم، عن عقبة بن عامر، عن النبي - ﷺ - قال: «إذا رأيت الله يُعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج. ثم تلا رسول الله - ﷺ -: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾» (١). ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث حزملة وابن لهيعة، عن عقبة بن عامر، به.

(١) أخرجه أحمد ١٤٥/٤ والطبري ١٣٢٤٣ والطبراني ١٧/٣٣٠ (٩١٣) والبيهقي في «الشعب» ٤٥٤٠ من طرق عن حرملة بن عمران به. وأخرجه الطبري ١٣٢٤٤ من طريق ابن لهيعة عن عقبة بن مسلم به، والأول فيه رشدين ضعيف، والثاني فيه ابن لهيعة ضعيف، وله شواهد ستأتي دون ذكر هذه الآية.

[٢٨٧٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عراك بن خالد بن يزيد، حدثني أبي، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن عبادة بن الصامت أن رسول الله - ﷺ - كان يقول: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بِقَوْمٍ بَقَاءً، أَوْ نَمَاءً، رَزَقَهُمُ الْقَصْدَ وَالْعَفَافَ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ اقْتِطَاعاً فَتَحَ لَهُمْ، أَوْ فَتَحَ عَلَيْهِمْ، بَابَ خِيَانَةٍ» ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُجِّحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بِنِقَتِهِ إِذَآ هُمْ مُبْتَلُونَ﴾، كما قال: ﴿فَقَطَّعَ ذَايِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٦﴾. (١) . ورواه أحمد وغيره .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَنَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنَ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرَ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصِدُّونَ﴾ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ بِغَتَّةٍ أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى لرسوله - ﷺ - ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المكذبين المعاندين: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾ أي: سلبكم إياها كما أعطاكموها. كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّنْ نَّعْمٍ لِّكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ [الملك: ٢٣] . . . الآية. ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما النفع الشرعي، ولهذا قال: ﴿وَحَنَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾، كما قال: ﴿أَمَنْ يَبْلُغُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ [يونس: ٣١] وقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وقوله: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾، أي: هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ لا يقدر على ذلك أحد سواه، ولهذا قال: ﴿أَنْظَرَ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ﴾، أي: نبينها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لا إله إلا الله وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال، ﴿ثُمَّ هُمْ يَصِدُّونَ﴾، أي: ثم هم مع هذا البيان يصدفون. أي: يعرضون عن الحق، ويصدون الناس عن اتباعه. قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿يَصِدُّونَ﴾ يغدلون. وقال مجاهد، وقتادة: يعرضون. وقال السدي: يصدون. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ بِغَتَّةٍ﴾، أي: وأنتم لا تشعرون به حتى بغتكم وفجأكم ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أي: ظاهراً عياناً ﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، أي: إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله، وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَرِهُوا لِمَنْ يُهْتَمُّ بِظُلْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٢] . . . الآية. وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، أي: مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات، ومُنذرين من كفر بالله الثنمات والعقوبات. ولهذا قال: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾، أي: فمن آمن قلبه بما جاؤوا به وأصلح عمله باتباعه إياهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، أي: بالنسبة إلى ما يستقبلونه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: بالنسبة إلى ما فاتهم وتزكروه ورآه ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها، الله وليهم فيما خلفوه، وحافظهم فيما تزكروه. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿٤٩﴾، أي: ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرُّسل، وخزجوا عن أوامر الله وطاعته، وارتكبوا محارمه ومناهيه وانتهاك حرمانه.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِشَيْءٍ قُدْرَةً﴾

(١) ضعيف. فيه عراك بن خالد، لين الحديث. وهو منقطع بين إبراهيم بن أبي عبلة وعبادة بن الصامت.

هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَاكِلٌ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيَّ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى لرسوله - ﷺ -: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، أي: لست أملكها، ولا أنا المتصرف فيها، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، أي: ولا أقول: إني أعلم الغيب إنما ذلك من علم الله - عز وجل - لا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ لِي مَلَكٌ﴾، أي: ولا أذيع أنني ملك، إنما أنا بشر، يوحى إلي من الله - عز وجل - شرفني بذلك، وأنعم علي به. ولهذا قال: ﴿إِنْ أَنِجْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، أي: لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾، أي: هل يستوي من أتبع الحق وهدي إليه، ومن ضل عنه ولم يتقده؟ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، وهذه كقوله تعالى: ﴿أَمَنْ يَمْلِكُ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُنْ هُمْ فَيَكُونُوا أَوْ لَوْ أَنَّ لِلنَّاسِ فِي كُلِّ بَلَدٍ بَازِلٌ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ سَبْطٍ وَنُحُوتٍ وَيَقُولُونَ طَاعُوا لَهُ يَتَشَابَهُنَّ الْفُجَارَ﴾ [الرعد: ١٦]. ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الْقُرْآنَ يَا مُحَمَّدُ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَاكِلٌ وَلَا شَفِيعٌ﴾، أي: وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﴿الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] والذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴿[الرعد: ٢١].﴾ ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: يوم القيامة ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾، أي: يومئذ ﴿مِنْ دُونِهِ وَاكِلٌ وَلَا شَفِيعٌ﴾، أي: لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أَرَادَهُ بِهِمْ، ﴿لَهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله - عز وجل - ﴿لَهُمْ يَتَّقُونَ﴾، فيعملون في هذه الدار عملاً يُنجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، أي: لا تبعذ هؤلاء المتصفين بهذه الصفة عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك، كما قال: ﴿وَأَمِيرٌ نَسَكَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ دِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾، أي: يعبدونه ويسألونه ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، قال سعيد بن المسيب، ومجاهد، والحسن، وقتادة: المراد بذلك الصلوات المكتوبات. وهذا كقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، أي: أقبّل منكم. وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، أي: يتبعون بذلك العمل وجه الله الكريم، فهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات. وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، كما قال نوح - عليه السلام - في جواب الذين قالوا: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبِعَكَ الْأَلْدَلُونَ﴾ [١١١-١١٣]، أي: إنما حسابهم على الله - عز وجل - وليس علي من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء. وقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، أي: إن فعلت هذا والحالة هذه.

[٢٨٨٠] قال الإمام أحمد: حدثنا أسباط - هو ابن محمد - حدثنا أشعث، عن كُرْدُوسٍ، عن ابن مسعود قال: مَرَّ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَعِنْدَهُ: حَبَابُ بَنِ الْأَرْتِ وَصُهَيْبٌ، وَبِلَالٌ، وَعِمَارٌ. فَقَالُوا:

يا محمد أَرْضِيَتْ بِهِؤَلَاءَ؟ فنزلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخَسَّرُوا إِلَيْكَ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾^(١).

[٢٨٨١] ورواه ابنُ جرير، من طريق أشعث، عن كُرْدُوس، عن ابن مسعود قال: مرَّ المَلَأُ من فُرَيْش برسول الله - ﷺ - وعنده: ضَهَيْبٌ، وبلالٌ، وعمَّارٌ، وخَبَّابٌ، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أَرْضِيَتْ بِهِؤَلَاءَ من قومك؟ أهؤلاء الذين منَّ اللهُ عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطرَّذهم فَعَلَمَكُ إن طردتهم أن تُتْبِعَكَ: فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾... إلى آخر الآية^(٢).

[٢٨٨٢] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا عمرو بن محمد العنقزي، حدثنا أسباط بن نصر، عن السدي، عن أبي سعيد الأزدي - وكان قارئ الأزد - عن أبي الكنود، عن خَبَّاب في قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدوا رسول الله - ﷺ - مع ضَهَيْبِ وبلال وعمَّار وخَبَّاب قاعداً في ناسٍ من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي - ﷺ - حَقَرُوهُمْ، فأتوه فَخَلَوْا به، وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً نعرفُ لنا به العربُ فضلنا، فإنَّ وفودَ العرب تأتيك فَتَسْتَجِي أن ترانا العرب مع هذه الأعبُد، فإذا نحن جئناك فأقيمهم عتاً، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت. قال: نعم. قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً. قال: فدعا بالصحيفة ودعا علياً ليكتب، ونحن قعودٌ في ناحية، فنزل جبريل فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾... الآية، فرمى رسولُ الله - ﷺ - بالصحيفة من يده، ثم دعانا فأتيناه^(٣). ورواه ابنُ جرير، من حديث أسباط، به. وهذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية، والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدَّهْرٍ.

[٢٨٨٣] وقال سفيان الثوري، عن المقدم بن شريح، عن أبيه قال: قال سعد: نزلت هذه الآية في سبِّه من أصحاب النبي - ﷺ - منهم ابن مسعود، قال: كُنَّا نَسْتَبِقُ إلى النبي - ﷺ - وندنو منه ونسَمَعُ منه، فقالت قريش: يُدْني هؤلاء دوننا! فنزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾^(٤). رواه الحاكم في مستدرِّكه من طريق سفيان، وقال: على شرط الشيخين، وأخرجه ابن جبان في صحيحه من طريق المقدم بن شريح، به.

(١) حسن. أخرجه أحمد ٣٩٨٥ والبزار ٢٢٠٩ والطبراني ١٠٥٢٠ والواحدي في «أسباب النزول» ٤٣٣ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠٩٩٧: رجال أحمد رجال الصحيح، غير كردوس، وهو ثقة اهـ وهو يتأيد بحديث سعد وسياقي.

(٢) أخرجه الطبري ١٣٢٥٨ وانظر الحديث المتقدم.

(٣) منكر. أخرجه الطبري ١٣٢٦١ و١٣٢٦٢ من حديث خباب، وإسناده ضعيف أبو الكنود الأزدي هو عبد الله ابن عامر. مقبول كما في التقريب. أي حيث يتابع، ولم يتابع على هذا السياق، بل خالفه من هو أوثق منه، كما في الخبر المتقدم والآتي. وأبو سعيد الأزدي مجهول، والسدي هو إسماعيل بن عبد الرحمن وثقه أحمد، وقال أبو حاتم: لا يحتج به، وضعفه ابن مهدي. وعنه أسباط بن نصر، وهو سنيء الحفظ، ثم إن الآية مكية كما ذكر ابن كثير، والأقرع أسلم في المدينة، فالخبر منكر، والله أعلم.

(٤) صحيح. أخرجه الحاكم ٣/٣١٩ بهذا اللفظ وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه مسلم ٢٤١٣ والنسائي في «التفسير» ١٨٣ وابن ماجه ٤١٢٨ وأبو يعلى ٨٢٦ والطبري ١٣٢٦٦ والواحدي ٤٣١ بالفاظ متقاربة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، أي: ابتلينا واختبرنا وامتحاننا بعضهم ببعض ﴿يَقُولُوا أَهْتَوْلَاءَ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾، وذلك أن رسول الله - ﷺ - كان غالباً من أتبعه في أول البعثة ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعييد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليلاً، كما قال قوم نوح لنوح: ﴿وَمَا نُرَكَكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاؤُنَا بِأَبْوَىٰ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]... الآية، وكما قال هِرَقْل ملك الروم لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل، فقال له: فهل أتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال: هم أتباع الرُّسُل. والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرُونَ بمن آمن من ضعفائهم، ويُعذَّبون من يقدرُونَ عليهم منهم، وكانوا يقولون: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ أي ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير - لو كان ما صاروا إليه خيراً - ويدعنا كما قالوا: ﴿لَوْ كَان خَيْرًا مَّا سَعَوْنَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَتَّبِعُونَ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَئِن لَّيَدِينَّ مَآئِنًا أَوْ لَتَرْفِقُنَّ حَيْرًا مَقَامًا وَأَحْسَنَ نَوِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧٣]. قال الله تعالى في جواب ذلك: ﴿وَكَذَلِكَ أَفَلَكُنَا قَلْبُهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَتْنَا وَرَبِّيَا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم: ٧٤]. وقال في جوابهم حين قالوا: ﴿أَهْتَوْلَاءَ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾، أي: أليس الله أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيؤفِّقهم ويهديهم سُبُل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

[٢٨٨٤] وفي الحديث الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١).

[٢٨٨٥] وقال ابن جرير: حدثنا القاسم: حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، عن عكرمة في قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾... الآية، قال: جاء عثبة بن ربيعة، وشيبة ابن ربيعة، ومطعم بن عدي، والحارث بن نوفل، وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل، في أشرف من بني عبد مناف من أهل الكفر، إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب، لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وحلفاءنا، فإنما هم عبيدنا وعسفاؤنا، كان أعظم في صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لأتباعنا إياه، وتضديقنا له. قال: فأتى أبو طالب النبي - ﷺ - فحدثه بالذي كلموه، فقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : لو فعلت ذلك، حتى تنظر ما الذي يريدون، وإلام يصيرون من قولهم؟ فأنزل الله - عز وجل - هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾... إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾. قال: وكانوا بلائاً، وعمار بن ياسر، وسالمأ مولى أبي حذيفة، وصبيحاً مولى أسيد - ومن الحلفاء ابن مسعود، والمقداد بن عمرو، ومسعود بن القاري، وواقد بن عبد الله الحنظلي، وعمرو بن عبد عمرو ذو الشمالين، ومزند بن أبي مزند - وأبو مزند الغنوي خليف حمزة بن عبد المطلب - وأشباههم من الحلفاء. ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ يَتُولَآءُ أَهْتَوْلَاءَ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾... الآية. فلما نزلت، أقبل عمر - رضي الله عنه - فاعتذر من مقاله، فأنزل الله - عز وجل - ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾... الآية^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾، أي: فأكرمهم بآية السلام عليهم، وبشركهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم. ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، أي: أوجبها على

(١) تقدم في سورة البقرة عند آية: ٢٧٥.

(٢) مرسل. والمرسل من قسم الضعيف.

نفسه الكريمة، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً. ﴿أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾، قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل. وقال مُعْتَمِرُ بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾، قال: الدنيا كلها جهالة. رواه ابن أبي حاتم. ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَاطِلِهِ وَأَصْلَحَ﴾، أي: رجع عما كان عليه من المعاصي، وأقلع وعزم على ألا يعود، وأصلح العمل في المستقبل ﴿فَأَنذَرْتُ عَفُورًا رَجِيًّا﴾.

[٢٨٨٦] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرُ، عن هَمَّامِ بن مَثَبَةَ قال: هذا ما حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لما قَضَى اللهُ الخَلْقَ، كتب في كتابِهِ فهو عنده فوق العرش: إن رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»^(١). أخرجاه في الصحيحين. وهكذا رواه الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيْرَةَ. ورواه موسى بن عُقْبَةَ عن الأعرج، عن أبي هُرَيْرَةَ. وكذا رواه الليث وغيره، عن مُحَمَّدِ بن عجلان، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي - ﷺ - بذلك.

[٢٨٨٧] وقد رَوَى ابن مَرْزُوقِيه، من طريق الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إذا فَرَّغَ اللهُ من القضاء بين الخلق، أخرج كتاباً من تحت العرش: إن رحمتي سَبَقَتْ غَضَبِي، وأنا أرحم الراحمين. فيقبض قبضة أو قبضتين، فيخرج من النار خلقاً لم يعملوا خيراً، مكتوب بين أعينهم: عتقاء الله»^(٢).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ، عن عاصم بن سليمان، عن أبي عثمان التَّهْدِي، عن سَلْمَانَ في قوله: ﴿كَبَّ رَيْبُكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَرْحَمَةً﴾، قال: إنا نجد في التوراة عطفيتين: أن الله خلق السموات والأرض، وخلق مئة رحمة - أو جعل مئة رحمة - قبل أن يخلق الخلق، ثم خلق الخلق، فوضع بينهم رحمة واحدة، وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، قال: فيها يتراحمون، وبها يتعاطفون، وبها يتباذلون، وبها يتزاورون، وبها تحن الناقة، وبها تتأج البقرة، وبها تتأج الشاة، وبها تتأج الطير، وبها تتأج الحيتان في البحر. فإذا كان يوم القيامة جمع الله تلك الرحمة إلى ما عنده، ورحمته أفضل وأوسع^(٣). وقد روي هذا مرفوعاً من وجه آخر. وسيأتي كثير من الأحاديث الموافقة لهذه الآية عند قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

[٢٨٨٨] ومما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضاً قوله - ﷺ - لمعاذ بن جبل: «أندري ما حق الله على العباد؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»، ثم قال: «أندري ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك؟ ألا يعذبهم»^(٤) وقد رواه الإمام أحمد، من طريق كَمَيْلِ بن زياد، عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

﴿وَكَذَلِكَ نَفَعْنَا لِأَلَيْتِ وَلِتَسْتَتِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَأَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾

(١) تقدم عند آية: ١٢ من هذه السورة.

(٢) الحكم بن أبان فمن فوقه على شرط البخاري، ولم يذكر المصنف من دون الحكم.

ويشهد لصدرة حديث أبي هريرة المتقدم، ولعجزه حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري ٧٤٣٩ ومسلم ١٨٣ ح ٣٠٢ وفيه أنه يقال لهم: «هؤلاء عتقاء الرحمن» وليس أنه مكتوب بين أعينهم والله أعلم.

(٣) أخرجه المروزي في «زيادات الزهد» ١٠٢٠ عن سلمان موقوفاً، وقد أخرجه مسلم ٢٧٥٣ ح ٢١ وابن حبان ٦١٤٦ عن سلمان مرفوعاً، وسيأتي في سورة الأعراف عند آية: ١٥٦.

(٤) تقدم في سورة البقرة عند آية: ٢٢ وفي سورة النساء عند آية ٣٦.

مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْمِلُونَ بِهِ إِنْ أَلْحَمْتُمْ إِلَّا اللَّهُ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا
تَسْتَعْمِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا
يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ
وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى: وكما بيننا ما تقدم بيانه من الحُجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وذمّ المجادلة
والعناد، ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَيَاتِ﴾، أي: التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُتَّعِمِينَ﴾ أي:
ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسول. وقرىء: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾، أي: ولتستبين يا محمد - أو
يا مخاطب - سبيل المجرمين. وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، أي: على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها
إلي ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾، أي: بالحق الذي جاءني من الله ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْمِلُونَ بِهِ﴾، أي: من العذاب،
﴿إِنْ أَلْحَمْتُمْ إِلَّا بِي﴾، أي: إنما يزجج أمر ذلك إلى الله إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك، وإن شاء
أنظركم وأجلكم؛ لما له في ذلك من الحكمة العظيمة، ولهذا قال ﴿إِنْ أَلْحَمْتُمْ إِلَّا بِي يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ
الْفَصِّلِينَ﴾، أي: وهو خير من فصل القضايا وخير الفاتحين الحاكمين بين عباده. وقوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا
تَسْتَعْمِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: لو كان مرجع ما تستعملون به إلي، لأوقعت بكم ما
تستحقونه من ذلك ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾.

[٢٨٨٩] فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت في الصحيحين من طريق ابن وهب، عن
يونس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة أنها قالت لرسول الله - ﷺ -: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم
كان أشد من يوم أُحُدٍ؟ فقال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي
على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت. فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستيق إلا
بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلنتني، فنظرت فإذا فيها جبريل - عليه السلام -، فناداني
فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما زدوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.
قال: فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثني ربك
إليك، لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبق عليهم الأخشبين. فقال رسول الله - ﷺ -: «بل أرجو أن
يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله، لا يُشرك به شيئاً»^(١). وهذا لفظ مسلم. فقد عرض عليه عذابهم
واستصالحهم، فاستأنى بهم، وسأل لهم التأخير، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يُشرك به شيئاً، فما
الجمع بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْمِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾؟. فالجواب، والله أعلم، أن هذه الآية دلّت على أنه لو كان إليه وقوع
العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له، لأوقعه بهم. وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل
عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين، وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوباً وشمالاً،
فهذا استأنى بهم، وسأل الرفق لهم. وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٣١ و ٧٣٨٩ ومسلم ١٧٩٥ والنسائي في «الكبرى» ٧٧٠٦ وابن حبان ٦٥٦١ وأبو نعيم في

[٢٨٩٠] قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه: أن رسول الله - ﷺ - قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾» [لقمان: ٣٤] (١).

[٢٨٩١] وفي حديث عُمر: أن جبريل حين تبدى له في صورة أعرابي فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال له رسول الله - ﷺ - فيما قال له: «خمس لا يعلمهن إلا الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]... الآية (٢). وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، أي: يحيط علمه العظيم بجميع الموجودات برأيها وبحريها، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وما أحسن ما قال الصرصري:

فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ الذَّرُّ إِذَا تَرَأَى لِلنَّوَظِرِ أَوْ تَوَارَى

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، أي: ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسيهم، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن سعيد بن مسروق، عن حسان النمري، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها، يكتب ما يسقط منها. وقوله: ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتٍ إِلَّا يَخَفَى﴾ [الأنعام: ٦٠].

قال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن النضر، عن أبيه، سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إن تحت الأرض الثالثة وفوق الرابعة من الجن ما لو أنهم ظهروا، يعني لكم، لم تروا معهم نوراً، على كل زاوية من زواياها خاتم من خواتيم الله - عز وجل - على كل خاتم ملك من الملائكة يبعث الله - عز وجل - إليه في كل يوم ملكاً من عنده: أن احتفظ بما عندك (٣). قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المسور الزهري: حدثنا مالك بن سَعِير، حدثنا الأعمش، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث قال: ما في الأرض من شجرة ولا يغرز إبرة إلا عليها ملك موكل يأتي الله بعلمها: رطوبتها إذا رطبت، ويابسها إذا يبست. وكذا رواه ابن جرير عن أبي الخطاب زياد بن يحيى الحساني، عن مالك بن سَعِير، به. ثم قال ابن أبي حاتم: دُكِرَ عن أبي حذيفة، حدثنا سفيان، عن عمرو ابن قيس، عن رجل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: خلق الله الثون - وهي الدواة - وخلق الألواح، فكتب فيها أمر الدنيا حتى يتقضي ما كان من خلق مخلوق، أو رزق حلال أو حرام، أو عمل بر أو فجور، وقرأ هذه الآية: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾... إلى آخر الآية.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِقَاضِيٍّ أَجَلَ مَسْمُومٍ ثُمَّ إِلَيْهِ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٢٧ والنسائي في «الكبرى» ٧٧٢٨.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٨ والترمذي ٢٦١٠ والنسائي ٩٧/٨ وابن ماجه ٦٣ وابن حبان ١٦٨.

(٣) لا يصح هذا الأثر عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وفي إسناده ابن إسحاق مدلس وقد عنعن، وعلى فرض صحته يكون قد أخذه من الزاملتين اللتين وقتعا له في الشام يوم اليرموك.

مَرَجِعِكُمْ ثُمَّ يَبْنِيكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدِكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ
الْحَسْبِينَ ﴿٦٢﴾

يخبر تعالى أنه يتوفى عباده في منامهم بالليل، وهذا هو التوفي الأصغر، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسُفُ إِنَّكَ مُتَوَلِّعٌ لِرَأْسِكَ وَرَأَيْكَ إِذْ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَلَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَاللَّهُ لَدَّ تُمَّتْ فِي مَوَاتِهَا فِيمَا نُفِيسُكَ الَّتِي فَغَنَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَجَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، فذكر في هذه الآية الوفايتين الكبرى والصغرى، وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفايتين الصغرى ثم الكبرى، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّىكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾، أي: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار. وهذه جملة معترضة دللت على إحاطة عليه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم، في حال سُكُونِهِمْ وفي حال حَرَكَتِهِمْ، كما قال: ﴿سَوَاءٌ يُنسَكُ مِنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِيحٍ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَنْ رَحِمْتِيهِ جَعَلَ لَكَ الْإِيلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾، أي: في الليل: ﴿وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصاص: ٧٣]، أي: في النهار، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا الْإِيلَ لِيَأْسَا ﴿٦٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿٦١﴾﴾ [النبا: ١٠-١١]. ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّىكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾، أي: ما كسبتم بالنهار ﴿ثُمَّ يَبْنِيكُمْ فِيهِ﴾، أي: في النهار. قاله مجاهد، وقاتدة والسدي. وقال ابن جرير، عن عبد الله بن كثير: أي في المنام. والأول أظهر.

[٢٨٩٢] وقد روى ابن مردويه بسنده، عن الضحاک، عن ابن عباس، عن النبي - ﷺ - قال: «مع كل إنسان ملك إذا نام يأخذ نفسه ويرده إليه، فإن أذن الله في قبض روحه قبضه، وإلا رُدَّ إليه»، فذلك قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّىكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿لِيُقَضَّ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، يعني به أجل كل واحد من الناس، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿ثُمَّ يَبْنِيكُمْ﴾، أي: فيخبركم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: ويجزيكم على ذلك، إن خيراً أو فخيئ وإن شراً فشرًا. وقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾، أي: هو الذي قهر كل شيء، وخصَّع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، أي: من الملائكة يحفظون بدن الإنسان، كقوله: ﴿لَمْ مَعِفَّتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. وحفظه يحفظون عمله ويحفظونه، كقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿٦٠﴾ كِرَامًا كَبِيرِينَ ﴿٦١﴾ يَتْلُونَ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وكقوله: ﴿إِذْ يُلْقَى الَّذِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قِطْعٌ مِمَّا يَلْفُظُونَ مِنْ قَوْلِهِ إِلَّا لَدَيْهِ رِجْبٌ عَبْدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدِكُمُ الْمَوْتُ﴾، أي: إذا احتضر وحن أجله ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، أي: ملائكة موكلون بذلك. قال ابن عباس وغير واحد: لملك الموت أعوان من الملائكة، يُخْرِجُونَ الرُّوحَ مِنَ الْجَسَدِ، فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم. وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿يَشِئْتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الأحاديث المتعلقة بذلك، الشاهدة لهذا المروي عن ابن عباس وغيره بالصحة. وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾، أي: في حفظ رُوح المتوفى، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله - عز وجل - إن كان من

(١) إسناده ضعيف جداً. الضحاک لم يلق ابن عباس، فهو منقطع. ولم يسق المصنف الإسناد إلى الضحاک، وهل الغالب هو جوير، فإنه هو راوية الضحاک وهو متروك الحديث.

الأبرار ففي عليين، وإن كان من العُجَّار ففي سجين، عياداً بالله من ذلك. وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾ قال ابن جرير: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا﴾ يعني الملائكة ﴿إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾.

سندكر هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة في ذكر صعود الملائكة بالروح من سماء إلى سماء، حتى تنتهي بها إلى السماء التي فيها الله - عز وجل - حيث قال:

[٢٨٩٣] حدثنا حسين بن محمد، حدثنا ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد ابن يسار، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - أنه قال: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان. فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان. فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان. فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله - عز وجل - . وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وعساق، وآخر من شكله أزواج. فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء. فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الثاني^(١). هذا حديث غريب. ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا﴾، يعني: الخلائق كلهم ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ يوم القيامة، فيحكم فيهم بعده، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩ - ٥٠]، وقال: ﴿وَسَخَّرْتَهُمْ لِمَنْ نَّشَاءُ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَظِلُّ رُكُوتًا أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧ - ٤٩]. ولهذا قال: ﴿مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ نَدْعُوهُمْ نَضْرَعًا وَخَفِيَةً لَّيْنًا أُنَجِّنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُّشْكِرُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَیْ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ سِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ لَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نَضْرَفُ الْأَلْبَابَ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده في إنجائه المضطربين منهم ﴿مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾، أي: الحائرين الواقعين في المهام البرية، وفي اللجج البحرية إذا هاجت الريح العاصفة، فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ السَّارِبُ فِي الْبَحْرِ مَدَدًا مِّنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِنَاءً﴾ [الإسراء: ٦٧]... الآية. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَرَمْتُمْ مِمَّا رِيحٌ رَّابِحَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَقَالُوا لَنْ نَجِيَهُمُ اللَّهُ مُضِلًّا لَهُ الْوَيْلُ لِمَنْ أَجْمَنَ مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ فَلَمَّا

(١) أخرجه أحمد ٣٦٤/٢ - ٣٦٥ ح ٨٥٥١ وكرره ١٤٠/٦ عقب حديث لعائشة ومداره على محمد بن عمرو بن عطاء وهو ثقة. ولحديثه شواهد كثيرة سوى لفظ «حتى ينتهي به إلى السماء التي فيها الله عز وجل» فهذا تفرد به ولا يتابع عليه. وقد ورد مثل هذا السياق من حديث البراء أخرجه أحمد ٢٨٧/٤ وأبو داود ٣٢١٢ و٤٧٥٣ و٤٧٥٤ ولفظ أحمد «حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة» ليس فيه لفظ. «التي فيها الله عز وجل» وحديث البراء حسنه المنذري في «الترغيب» ٥٢٢١ وقال: رواه محتج بهم، وقال الهيثمي في «المجمع» ٣/٥٠: رجاله رجال الصحيح.

أَجْنَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَثَرِ النَّحْلِ [يونس: ٢٢ - ٢٣]... الآية، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بِشَرِّ لَبَدٍ بَدَىٰ رَحْمَتِيهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَدَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل: ٦٣]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، أي: جهراً وسراً ﴿لَيْنَ أُنْحَنَّا مِنْ هَذِهِ﴾، أي: من هذه الضائقة ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، أي: بعدها. قال الله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ﴾، أي: بعد ذلك ﴿تَشْكُرُونَ﴾، أي: تَدْعُونَ مَعَهُ فِي حَالِ الرَّفَاهِيَةِ إِلَهَةً أُخْرَى. وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْفَاوِرُّ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَتْ عَلَيَّكَ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ﴾، لما قال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ عَقِبَهُ بقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْفَاوِرُّ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَتْ عَلَيَّكَ عَذَابًا﴾، أي: بعد إنجائه إياكم، كما قال في سورة سبحان: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفَلَاحَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَنَبَّأُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ رَجِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَا يَنْجِيكُمْ إِلَّا إِلَٰهٌ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ أَفَأَنْتُمْ أَنْ يَخْفَىٰ بِكُمْ جَانِبَ الْإِلَٰهِ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ أَمْ أَنْتُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا يُجِدُوا لَكُمْ وَاكِيلًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: ٦٦ - ٦٩]. قال ابن أبي حاتم: ذُكِرَ عَنْ مُسْلِمِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا هَارُونَ الْأَعْوَرُ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ الْفَاوِرُّ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَتْ عَلَيَّكَ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ﴾، قال: هذه للمشركين. وقال ابن أبي نجیح، عن مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ الْفَاوِرُّ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَتْ عَلَيَّكَ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ﴾ لَأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ - ﷺ - وَعَفَا عَنْهُمْ. وَنَذَرْنَا هُنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ وَالْآثَارَ، وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانَ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ، وَبِهِ الثَّقَةُ.

[٢٨٩٤] قال البخاري - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْفَاوِرُّ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَتْ عَلَيَّكَ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُزَيِّجُ بَعْضَكُمْ بِأَسْبَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ لِمَا لَهُمْ بِمَقْهُورٍ ﴿٦٥﴾﴾: يَلْبِسُكُمْ: يَخْلِطُكُمْ، مِنَ الْإِلْتِبَاسِ، يَلْبِسُوا: يَخْلِطُوا. شِيْعًا: فِرْقًا. حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ الْفَاوِرُّ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَتْ عَلَيَّكَ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ». «أَوْ يَلْبِسُكُمْ شِيْعًا وَيُزَيِّجُ بَعْضَكُمْ بِأَسْبَعْضٍ»، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «هَذَا أَهْوَنُ، أَوْ قَالَ: هَذَا أَيْسَرُ»^(١). وَهَكَذَا رَوَاهُ أَيْضًا فِي «كِتَابِ التَّوْحِيدِ» عَنْ قُتَيْبَةَ، عَنْ حَمَادٍ، بِهِ. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي «التفسير»، عَنْ قُتَيْبَةَ، وَمُحَمَّدِ بْنِ النَّضْرِ ابْنِ مُسَاوِرٍ، وَيَحْيَى بْنِ حَبِيبٍ ابْنِ عَرَبِيِّ، أَرَبَعْتُهُمْ عَنْ حَمَادِ بْنِ زَيْدٍ، بِهِ. وَقَدْ رَوَاهُ الْحُمَيْدِيُّ فِي مُسْتَدْرِكِهِ، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، سَمِعَ جَابِرًا عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - بِهِ. وَرَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ أَبِي يَعْلَى الْمُوَصَّلِيِّ، عَنْ أَبِي حَنِئِمَةَ، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، بِهِ. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ أَحْمَدَ ابْنِ الْوَلِيدِ الْقُرَشِيِّ، وَسَعِيدِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَسُفْيَانَ ابْنَ وَكَيْعٍ، كُلَّهُمْ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، بِهِ. وَرَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ مَرْزُوقِ، مِنْ حَدِيثِ آدَمَ بْنِ أَبِي إِيسَى، وَيَحْيَى بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، وَعَاصِمِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، بِهِ. وَرَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، عَنْ حَمَادِ بْنِ زَيْدٍ، وَسُفْيَانَ ابْنَ عُيَيْنَةَ، كِلَاهُمَا عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، بِهِ.

[٢٨٩٥] طريق أخرى: قال الحافظ أبو بكر بن مَرْزُوقِ فِي تَفْسِيرِهِ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ، حَدَّثَنَا مِقْدَادُ بْنُ دَاوُدَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَوْسُفَ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهْيَعَةَ، عَنْ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿قُلْ هُوَ الْفَاوِرُّ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَتْ عَلَيَّكَ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ»،

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٢٨ و ٧٤٠٦ و الترمذي ٣٠٦٥ و النسائي في «التفسير» ١٨٤ و أبو يعلى ١٩٨٢ و ابن حبان ٧٢٢٠ و الطبري ١٣٣٦٨ و البغوي في «التفسير» ٨٧٤ من طرق عن عمرو بن دينار به.

﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ آرْجُلِكُمْ﴾، قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من ذلك» ﴿أَوْ يَلْسَمُكُمْ شَيْئًا﴾ قال: «هذا أيسر». ولو استعادته لأعاده^(١). ويتعلق بهذه الآية أحاديث كثيرة:

[٢٨٩٦] أحدها، قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا أبو اليمان، حدثنا أبو بكر، هو ابن أبي مَرْزَمٍ، عن راشد، هو ابن سعد المَقْرَبِيُّ، عن سعد بن أبي وقاص قال: سئل رسول الله ﷺ - عن هذه الآية: «قُلْ هُوَ الْفَاوِرُّ عَلَىٰ أَنْ يَمَسَّ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ آرْجُلِكُمْ»، فقال: «أما إنها كائنة، ولم يأت تأويلها بعد»^(٢). وأخرجه الترمذي، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عياش، عن أبي بكر بن أبي مَرْزَمٍ، به. ثم قال: هذا حديث غريب.

[٢٨٩٧] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعلَى، هو ابن عُبيد، حدثنا عثمان بن حكيم، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ - حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فدخل فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، فَصَلَّيْنَا مَعَهُ، فَنَاجَى رَبَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - طَوِيلًا. ثم قال: «سألتُ ربِّي ثلاثاً: سألتُهُ ألا يَهْلِكَ أُمَّتِي بِالْفِرْقِ فَأَعْطَانِيهَا، وسألتُهُ ألا يَهْلِكَ أُمَّتِي بِالسُّنَّةِ فَأَعْطَانِيهَا، وسألتُهُ ألا يَجْعَلَ بِأَسْهُمِ بَيْنَهُمْ فَمَنْعَيْنِيهَا»^(٣). انفرد بإخراجه مسلم، فرواه في «كتاب الفتن» عن أبي بكر بن أبي شَيْبَةَ، وعن محمد بن عبد الله بن نمير، كلاهما عن عبد الله بن نمير، وعن محمد بن يحيى بن أبي عمَر، عن مَرْوَانَ بنِ مَعَاوِيَةَ، كلاهما عن عُثْمَانَ بنِ حَكِيمٍ، به.

[٢٨٩٨] حديث آخر: قال الإمام أحمد: قرأتُ على عبد الرحمن بن مهدي، عن مالك، عن عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك، عن جابر بن عتيك أنه قال: جاءنا عبد الله بن عمَر في بني معاوية - قَرِيْبٌ مِنْ قُرَى الْأَنْصَارِ - فقال لي: هل تَدْرِي أين صَلَّى رسول الله ﷺ - في مسجدكم هذا؟ فقلت: نعم. فأشرتُ إلى ناحية منه، فقال: هل تَدْرِي ما الثلاثُ التي دعا بهنَّ فيه؟ فقلت: نعم. فقال: فأخبرني بهنَّ، فقلت: دعا بالأُ يَظْهَرُ عليهم عَذَابٌ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَلَا يُهْلِكُهُمْ بِالسِّنِينَ فَأَعْطِيَهُمَا، ودَعَا بِالْأُ يَجْعَلُ بِأَسْهُمِ بَيْنَهُمْ، فَمَنْعَهَا. قال: صَدَقْتُ، فَلَا يَزَالُ الْهَزْجُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٤). ليس هو في شيءٍ من الكُتُبِ السَّنَةِ، وإسناده جَيِّدٌ قَوِيٌّ، والله الحمد والمثنة.

[٢٨٩٩] حديث آخر: قال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيفة، عن علي بن عبد الرحمن، أخبرني حذيفة بن اليمان قال: خرجتُ مع رسول الله ﷺ - إلى حَزْرَةَ بني معاوية، قال: فَصَلَّى ثَمَانِي رَكَعَاتٍ. فأطال فيهنَّ، ثم التفت إلي فقال: حَسْبُنَاكَ يَا حُذَيْفَةُ؟ فقلت: الله ورسوله أعلم. قال: إني سألتُ الله ثلاثاً، فأعطاني اثنتين ومَنَعَنِي واحدةً، سألتُهُ ألا يُسَلِّطَ عَلَيَّ أُمَّتِي عَذَابًا مِنْ غَيْرِهِمْ، فأعطاني. وسألتُهُ ألا يَهْلِكُهُمْ بِعَرَقٍ، فأعطاني، وسألتُهُ ألا يَجْعَلَ بِأَسْهُمِ بَيْنَهُمْ، فَمَنَعَنِي^(٥). رواه ابن مَرْزُومٍ من حديث ابن إسحاق.

[٢٩٠٠] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبيدة بن حميد، حدثني سليمان الأعمش، عن رجاء الأنصاري، عن عبد الله بن شداد، عن معاوية بن جَبَل - رضي الله عنه - قال: أتيتُ رسول الله ﷺ - أَطْلُبُهُ

(١) حديث حسن. فهو وإن كان فيه ابن لهيعة، لكن يشهد له ما قبله.

(٢) ضعيف، أخرجه الترمذي ٣٠٦٦ وأحمد ١٧١/١ من حديث سعد ومداره على أبي بكر بن أبي مريم وهو ضعيف. ومع ذلك قال الترمذي: حسن غريب. ولعل الصواب ما وقع عند ابن كثير قول الترمذي «غريب» ليس فيه حسن، والله أعلم.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٩٠ وأحمد ١٧٥/١ و١٨١ و١٨٢ وأبو يعلى ٧٣٤ وابن حبان ٧٢٣٦ والبغوي في «التفسير» ٨٧٥.

(٤) جيد. أخرجه أحمد ٤٤٥/٥ والطبراني في «الكبير» ١٧٨١ وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٢١/٧: رواه أحمد، ورجاله ثقات.

(٥) حديث حسن. إسناده ضعيف، فيه عن عبد الله بن إسحاق، لكن للحديث شواهد.

فَقِيلَ لِي: خَرَجَ قَبْلُ. قَالَ: فَجَعَلْتُ لَا أَمْرُ بِأَحَدٍ إِلَّا قَالَ: مَرَّ قَبْلُ. حَتَّى مَرَرْتُ فَوَجَدْتُهُ قَائِمًا يَصَلِّي، قَالَ: فَجِئْتُ حَتَّى قَمْتُ خَلْفَهُ، قَالَ: فَأَطَالَ الصَّلَاةَ، فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ صَلَّيْتُ صَلَاةَ طَوِيلَةً؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنِّي صَلَّيْتُ صَلَاةَ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، سَأَلْتُ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَتَّعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُهُ أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتِي غَرَقًا فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُظْهِرَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا لَيْسَ مِنْهُمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يَجْعَلَ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ فَرَدَّهَا عَلَيَّ»^(١). وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ فِي «الْفَيْتَنِ» عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ وَعَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ، كِلَاهُمَا عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، بِهِ. وَرَوَاهُ ابْنُ مَرْدُوَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَوَّانَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - بِمِثْلِهِ أَوْ نَحْوِهِ.

[٢٩٠١] حَدِيثٌ آخَرُ: قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهَبٍ، أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ، عَنْ بُكَيْرِ بْنِ الْأَشْجِ، أَنَّ الضَّحَّاكَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْقُرَشِيَّ حَدَّثَهُ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فِي سَفَرٍ صَلَّى سُبْحَةَ الضُّحَى ثَمَانِي رَكَعَاتٍ، فَلَمَّا انصَرَفَ قَالَ: «إِنِّي صَلَّيْتُ صَلَاةَ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَتَّعَنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُهُ أَلَّا يَبْتَلِي أُمَّتِي بِالسَّنِينِ فَعَمَلٌ، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُظْهِرَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ فَعَمَلٌ، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يَلْبَسَهُمْ شَيْعًا قَابِي عَلَيَّ»^(٢). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي الصَّلَاةِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنِ ابْنِ وَهَبٍ، بِهِ.

[٢٩٠٢] حَدِيثٌ آخَرُ: قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبُ بْنُ أَبِي حَمْزَةَ قَالَ: قَالَ الزُّهْرِيُّ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ تَوْفَلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَبَّابٍ، عَنْ أَبِيهِ خَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِ - مَوْلَى بَنِي زُهْرَةَ - وَكَانَ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فِي لَيْلَةِ صَلَاةِ كُلِّهَا، حَتَّى كَانَ مَعَ الْفَجْرِ، فَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مِنْ صَلَاتِهِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ صَلَّيْتُ اللَّيْلَةَ صَلَاةَ مَا رَأَيْتُكَ صَلَّيْتُ مِثْلَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «أَجَلٌ، إِنَّهَا صَلَاةٌ رَغَبٌ وَرَهَبٌ. سَأَلْتُ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - فِيهَا ثَلَاثَ خِصَالٍ فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَتَّعَنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - أَلَّا يُهْلِكَنَا بِمَا أَهْلَكَ بِهِ الْأُمَّمَ قَبْلَنَا، فَأَعْطَانِيهَا. وَسَأَلْتُ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - أَلَّا يُظْهِرَ عَلَيْنَا عَدُوًّا مِنْ غَيْرِنَا، فَأَعْطَانِيهَا. وَسَأَلْتُ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - أَلَّا يَلْبَسُنَا شَيْعًا، فَمَتَّعَنِيهَا»^(٣). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ شُعَيْبِ بْنِ أَبِي حَمْزَةَ، بِهِ، وَمِنْ وَجْهِ آخَرَ، وَابْنُ جِبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ، بِإِسْنَادَيْهِمَا عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «الْفَيْتَنِ» مِنْ حَدِيثِ النُّعْمَانَ بْنِ رَاشِدٍ، كِلَاهُمَا عَنِ الزُّهْرِيِّ، بِهِ. وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

[٢٩٠٣] حَدِيثٌ آخَرُ: قَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: حَدَّثَنِي زِيَادُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ الْمُرِّيُّ، حَدَّثَنَا مَرْوَانَ بْنَ مُعَاوِيَةَ الْقَزَّارِيَّ، حَدَّثَنَا أَبُو مَالِكٍ، حَدَّثَنِي نَافِعُ بْنُ خَالِدِ الْخَزَاعِيَّ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - صَلَّى صَلَاةَ خَفِيْفَةً تَامَّةَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، فَقَالَ: «قَدْ كَانَتْ صَلَاةَ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، سَأَلْتُ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - فِيهَا ثَلَاثًا،

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٢٤٠/٥ وابن ماجه ٣٩٥١ وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وفي الباب من حديث ثوبان عند مسلم ٢٨٨٩ وأبي داود ٤٢٥٢ والترمذي ٢١٧٦ وابن ماجه ٣٩٥٢ وأحمد ٧٨٨/٥ وابن حبان ٧٢٣٨.

(٢) جيد. أخرجه أحمد ١٤٦/٣ و١٥٦ وقال الهيثمي في «المجمع» ٢/٢٣٦: رواه أحمد، رجاله ثقات.

(٣) جيد. أخرجه الترمذي ٢١٧٥ والنسائي ٣/٢١٦ - ٢١٧ وأحمد ١٠٨/٥ و١٠٩ وابن حبان ٧٢٣٦ والطبراني ٣٦٢١ والمزي في «تهذيب الكمال» ١٤/٤٤٧ - ٤٤٨ وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح. وهو حديث حسن لأجل عبد الله بن خباب، وله شواهد.

أعطاني اثنتين وَمَعْنِي واحدة. سألتُ الله ألا يُصَيِّبكم بعداب أصابَ به من قبلكم، فأعطانيها. وسألتُ الله ألا يُسَلِّطَ عليكم عدواً يَسْتَبِيحُ بيضتكم^(١)، فأعطانيها. وسألتُه ألا يَلْبِسَكم شيعاً ويُذيقَ بعضكم بأسَ بعضٍ، فَمَنَعْنِيهَا قال أبو مالك: فقلتُ له: أبوك سَمِعَ هذا مِن في رسول الله - ﷺ -؟ فقال: نَعَمْ، سَمِعْتَهُ يُحَدِّثُ بها القومَ أنه سمعها مِن في رسول الله - ﷺ -^(٢).

[٢٩٠٤] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبدُ الرزاق قال مَعْمَرُ: أخبرني أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعثِ الصنعاني، عن أبي أسماء الرَحْبِي، عن شَدَّادِ بنِ أوس، أن رَسولَ الله - ﷺ - قال: «إن الله زَوَى لي الأرضَ حتى رأيتُ مشارِقَها ومغارِها، وإن مُلكَ أمتي سَيَّلَعُ ما زَوَى لي منها، وإنِّي أعطيتُ الكنزَينَ الأبيضَ والأحمرَ، وإنِّي سألتُ ربِّي - عزَّ وجلَّ - ألا يُهْلِكَ أمتي بسِنَّةٍ بَعائِمَةٍ والأُ يَلْبِسُهُمْ شيعاً، والأُ يُذِيقُ بعضَهُمْ بأسَ بعضٍ. فقال: يا محمدُ، إنِّي إذا قَضَيْتُ قضاءً فإنه لا يُرَدُّ، وإنِّي قد أعطيتُكَ لأمتِكَ ألا أهْلِكُهُمْ بسِنَّةٍ بَعائِمَةٍ، والأُ أسلَطُ عليهم عَدُوًّا مِن سواهم فيهلِكُوهم بَعائِمَةٍ، حتى يكونَ بعضُهُم يُهْلِكُ بعضاً وبعضُهُم يَقْتُلُ بعضاً وبعضُهُم يَسْبِي بعضاً. قال: وقال النبي - ﷺ -: «إنِّي لا أخافُ على أمتي إلا الأئمَّةَ المُضِلِّينَ، فإذا وُضِعَ السيفُ في أمتي لم يُرْفَعْ عنهم إلى يومِ القيامة»^(٣). ليس في شيءٍ من الكُتُبِ السُنَّةِ، وإسناده جَيِّدٌ قويٌّ. وقد رواه ابنُ مَرْدُويه من حديثِ حَمَّادِ بنِ زيدٍ وَعَبَّادِ بنِ منصورٍ، وقَتادة، ثلاثتهم عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثُوْبَانَ، عن رسول الله - ﷺ -^(٤) بنحوه، فالله أعلم.

[٢٩٠٥] حديث آخر: قال الحافظُ أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم الهاشمي وميمون بن إسحاق بن الحسن الحنفي قالوا: حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا محمد بن فضيل، عن أبي مالك الأشجعي، عن نافع بن خالد الخزاعي، عن أبيه قال - وكان أبوه من أصحاب رسول الله - ﷺ - وكان من أصحاب الشجرة - قال: كان رسول الله - ﷺ - إذا صَلَّى والناسُ حولَه، صَلَّى صلاةً خفيفةً تامَّةَ الركوعِ والسجود، قال: فجلس يوماً فأطال الجلوسَ حتى أوماً بعضنا إلى بعض: أن اسكُتوا، إنه يُنزلُ عليه. فلما فَرَغَ قال له بعضُ القوم: يا رسول الله، لقد أطلت الجلوسَ حتى أوماً بعضنا إلى بعض: إنه يُنزلُ عليك. قال: «لا، ولكنها كانت صلاةً رَغْبَةً وَرَهْبَةً، سألتُ الله فيها ثلاثاً أعطاني اثنتين وَمَعْنِي واحدة، سألتُ الله ألا يُعَذِّبَكم بعداب عَذَّبَ به من كان قبلكم، فأعطانيها. وسألتُه ألا يُسَلِّطَ على أمتي عَدُوًّا يَسْتَبِيحُها، فأعطانيها. وسألتُه ألا يَلْبِسَكم شيعاً والأُ يُذِيقُ بعضكم بأسَ بعضٍ، فَمَنَعْنِيهَا قال: قلتُ له: أبوك سَمِعَها من رسول الله - ﷺ -؟ قال: نَعَمْ، سَمِعْتَهُ يقول: إنه سَمِعَها من رسول الله - ﷺ - عَدَدَ أصابعي هذه، عَشْرَ أصابعٍ^(٥).

(١) أي جماعتهم.

(٢) جيد بشواهد. أخرجه الطبري ١٣٣٧٠ بإسناد لا بأس به لأجل نافع الخزاعي حيث وثقه ابن حبان، وللحديث شواهد وطرق.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ١٢٣/٤ والبخاري ٣٢٩١ وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٢١/٧: رواه أحمد والبخاري، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٨٩ وأبو داود ٤٢٥٢ والترمذي ٢١٧٦ وابن ماجه ٣٩٥٢ وأحمد ٢٧٨/٥ وابن حبان ٧٢٣٨ والبيهقي في «الدلائل» ٥٢٦/٦ - ٥٢٧.

(٥) جيد بشواهد. أخرجه الطبراني ٤١١٢ والبخاري ٣٢٨٩ بنحوه وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٢٣/٧: رواه الطبراني بأسانيد، ورجال بعضها رجال الصحيح، غير نافع بن خالد، وقد ذكره ابن أبي حاتم، ولم يجرحه أحد، ورواه البخاري، وثقه ابن حبان وحده، ولحديثه شواهد وطرق.

[٢٩٠٦] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، هو ابن محمد المؤدب، حدثنا ليث - هو ابن سعد - عن أبي وهب الخولاني، عن رجلٍ قد سمّاه، عن أبي بصرة الغفاري صاحب رسول الله - ﷺ - أن رسول الله - ﷺ - قال: «سألت ربي - عز وجل - أربعا فأعطاني ثلاثا، ومنعني واحدة. سألت الله ألا يجمع أمّتي على ضلالة، فأعطاها. وسألت الله ألا يظهر عليهم عدوا من غيرهم، فأعطاها. وسألت الله ألا يهلكهم بالسّنين كما هلك الأمم قبلهم، فأعطاها. وسألت الله - عز وجل - ألا يلبسهم شيئا ويذيق بعضهم بأس بعض، فمنعنيها»^(١). لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة.

[٢٩٠٧] حديث آخر: قال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة: حدثنا منجاب بن الحارث، حدثنا أبو حذيفة الثعلبي، عن زياد بن علاقة، عن جابر بن سمرة السوائي، عن علي: أن رسول الله - ﷺ - قال: «سألت ربي ثلاث خصال، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، فقلت: يا رب، لا تهلِكَ أمّتي جوعاً. فقال: هذه لك. قلت: يا رب، لا تُسلط عليهم عدوا من غيرهم - يعني أهل الشرك - فيجتاحهم. قال: لك ذلك. قلت: يا رب، لا تجعل بأسهم بينهم. قال: فمَنعني هذه»^(٢).

[٢٩٠٨] حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر بن مرزويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم، حدثنا أبو الدرداء المروزي، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان، حدثني أبي، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسول الله - ﷺ - قال: «دعوت ربي - عز وجل - أن يرفع عن أمّتي أربعا، فرفع الله عنهم اثنتين، وأبي علي أن يرفع عنهم ثنتين. دعوت ربي أن يرفع عنهم الرّجم من السماء والغرق من الأرض، وألا يلبسهم شيئا، وألا يذيق بعضهم بأس بعض. فرفع الله عنهم الرّجم من السماء، والغرق من الأرض، وأبي الله أن يرفع اثنتين: القتل، والهزج»^(٣).

[٢٩٠٩] طريق آخر: عن ابن عباس أيضاً، قال ابن مرزويه: حدثني عبد الله بن محمد بن زيد، حدثني الوليد بن أبان، حدثنا جعفر بن مثير، حدثنا أبو بدر شجاع بن الوليد، حدثنا عمرو بن قيس، عن رجل، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْئًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: فقام النبي - ﷺ - فتوضأ، ثم قال: «اللهم لا تُرسل على أمّتي عذاباً من فوقهم، ولا من تحت أرجلهم، ولا تلبسهم شيئا، ولا تذيق بعضهم بأس بعض. قال: فاتاه جبريل فقال: يا محمد، إن الله قد أجاز أمّتك أن يُرسل عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم»^(٤).

[٢٩١٠] حديث آخر: قال ابن مرزويه: حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الله البزار، حدثنا عبد الله بن أحمد بن موسى، حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد، حدثنا عمرو بن محمد العنقري، حدثنا أسباط، عن السدي، عن أبي المنهال، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - قال: «سألت ربي لأمتي أربع خصال، فأعطاني ثلاثا ومنعني واحدة، سألته ألا يكفر أمّتي واحدة»^(٥) فأعطاها. وسألته ألا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم، فأعطاها.

(١) أخرجه أحمد ٣٩٦/٦ والطبراني في «الكبير» ٢١٧١ وإسناده ضعيف فيه راو لم يُسم وانظر «مجمع الزوائد» ٧/٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) أخرجه الطبراني ١٧٩ وإسناده ضعيف، قال الهيثمي في «المجمع» ٧/٢٢٢: وفيه أبو حذيفة الثعلبي، ولم أعرفه، وبقي رجاله ثقات اهـ. قلت: لأصله شواهد.

(٣) ضعيف بهذا اللفظ. وعلمته عبد الله بن كيسان، فإنه ضعيف، وقد صح بغير هذا السياق.

(٤) إسناده ضعيف، فيه راو لم يُسم، والغريب فيه ذكر جبريل عليه السلام. وأما أصل الحديث، فمحموظ لشواهده المتقدمة.

(٥) أي مجتمعة.

وسأله ألا يُظهِرَ عليهم عَذْوًا من غيرهم، فأعطانيها. وسأله ألا يجعلَ بأسَهُمَ بينهم، فَمَتَّعِيهَا^(١). ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد بن يحيى بن سعيد القَطَّان، عن عمرو ابن محمد العَتَقَزِي، به نحوه.

[٢٩١١] طريق أخرى: وقال ابن مَرْزُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا أبو كَرِيب، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا كَثِيرُ بْنُ زَيْدِ اللَّيْثِيِّ المَدَنِيِّ، حَدَّثَنِي الوَلِيدُ بْنُ رِيَّاحِ مَوْلَى آلِ أَبِي دُبَابٍ، سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ -: «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً. سَأَلْتُهُ أَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيَّ أُمَّتِي عَذْوًا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِي. وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُهْلِكَهُمْ بِالسِّنِينَ، فَأَعْطَانِي، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يَلْبِسَهُمْ شَيْعًا يُذِيقُ بَعْضُهُمْ بِأَسَ بَعْضٍ، فَمَنْعَنِي^(٢)». ثُمَّ رَوَاهُ ابْنُ مَرْزُويهِ بِإِسْنَادِهِ عَنْ سَعْدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدِ الْمُقْبَرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - بِنَحْوِهِ. وَرَوَاهُ الْبَزَّازُ مِنْ طَرِيقِ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - بِنَحْوِهِ.

أَثَرُ آخَرُ: قَالَ سَفِيَانُ الثَّورِيُّ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عَنِ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: أَرْبَعَةٌ فِي هَذِهِ الْأَمَةِ: قَدْ مَضَتْ ثُنْتَانِ، وَبَقِيَتْ ثُنْتَانِ: ﴿قُلْ هُوَ الْفَاعِلُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قَالَ: الرَّجْمُ، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَالَ: الْخَسْفُ، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقُ بَعْضَكُمْ بِأَسَ بَعْضٍ﴾، قَالَ سَفِيَانُ: يَعْنِي الرَّجْمَ وَالْخَسْفَ. وَقَالَ أَبُو جَعْفَرِ الرَّازِيُّ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عَنِ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: ﴿قُلْ هُوَ الْفَاعِلُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقُ بَعْضَكُمْ بِأَسَ بَعْضٍ﴾، قَالَ: فَهِيَ أَرْبَعٌ خِلَالَ، مِنْهَا ثُنْتَانِ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - بِخَمْسٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً، أَلْبَسُوا شَيْعًا، وَذَاقَ بَعْضُهُمْ بِأَسَ بَعْضٍ، وَبَقِيَتْ اثْنَتَانِ لَا بَدَ مِنْهُمَا وَاقِعَتَانِ: الرَّجْمَ وَالْخَسْفَ. رَوَاهُ أَحْمَدُ، عَنْ وَكَيْعٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا الْمُنْذِرُ بْنُ شَادَانَ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا أَبُو الْأَشْهَبِ، عَنِ الْحَسَنِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ الْفَاعِلُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، وَهَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَأَبُو مَالِكٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَالسَّدِّيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ يَعْنِي: الرَّجْمَ، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، يَعْنِي: الْخَسْفَ. وَهَذَا هُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ ابْنِ وَهَبٍ، عَنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ الْفَاعِلُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قَالَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ يَصِيحُ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، أَوْ عَلَى الْمَنْبَرِ، يَقُولُ: أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ قَدْ نَزَلَ بِكُمْ: إِنْ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ الْفَاعِلُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، لَوْ خَسَفَ بِكُمْ الْأَرْضَ أَهْلَكَكُمْ، لَمْ يُبْقِ مِنْكُمْ أَحَدًا، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقُ بَعْضَكُمْ بِأَسَ بَعْضٍ﴾، أَلَا إِنَّهُ نَزَلَ بِكُمْ أَسْوَأَ الثَّلَاثِ.

قَوْلُ ثَانٍ: قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهَبٍ، سَمِعْتُ خَلَادَ ابْنَ سُلَيْمَانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَامَرَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَقُولُ: إِنْ ابْنُ عَبَّاسٍ كَانَ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿قُلْ هُوَ الْفَاعِلُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾، فَامَّا الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِكُمْ فَأَمَّا السُّوءُ، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فَخَدَمَ السُّوءَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾، يَعْنِي: أَمْرًا كَمِ، ﴿عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ يَعْنِي: عَيْدِكُمْ وَسَفَلَتِكُمْ. وَحَكَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنِ أَبِي سَنَانَ وَعُمَيْرِ بْنِ هَانِيءٍ، نَحْوَ ذَلِكَ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا

(١) إسناده غير قوي، لكن لأصله شواهد تعضده. وأخرجه الطبراني في «المصنوع» (١) من وجه آخر وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/٢٢٢: وفيه جنادة بن مروان، وهو ضعيف.

(٢) حديث حسن صحيح.

القول وإن كان له وجه صحيح، لكن الأول أظهر وأقوى. وهو كما قال ابن جرير - رحمه الله - ويشهد له بالصحة قوله تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورٌ ۗ إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ ﴿١٧﴾ [الملك: ١٦ - ١٧].

[٢٩١٢] وفي الحديث: «ليكوننَّ في هذه الأمة قذْفٌ وحَسَفٌ ومَسْحٌ»^(١). وذلك مذكورٌ مع نظائره في أمارات الساعة وأشراطها وظهور الآيات قبل يوم القيامة، وستأتي في موضعيها إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿أَزَّيَلَسَكُمْ شَيْعًا﴾، أي: يجعلكم ملتبسين شيعاً فرقاً متخالفين. قال الوالبي، عن ابن عباس: يعني الأهواء. وكذا قال مجاهد وغير واحد.

[٢٩١٣] وقد ورد في الحديث المروي من طرق عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة»^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَيَذِيرُ بَعْضُكُم بِأَسْبَاطِ بَعْضٍ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني يسلب بعضكم على بعض بالعذاب والقتل. وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَعْيُنَ﴾، أي: نبينها ونوضحها ونفسرها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، أي: يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه، وبزوايته.

[٢٩١٤] قال زيد بن أسلم: لما نزلت: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَوْلِكُمْ﴾... الآية، قال رسول الله - ﷺ -: «لا تزجروا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيف». قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله؟ قال: نعم. فقال بعض الناس: لا يكون هذا أبداً، أن يقتل بعضنا بعضاً ونحن مسلمون. فنزلت: ﴿وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمَكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿١٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾^(٣). رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

﴿وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمَكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿١٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِتَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهٖ﴾، أي: بالقرآن الذي جثت بهم، والهدى والبيان. ﴿قَوْمَكَ﴾ يعني: قريشاً،

(١) يأتي في سورة القمر عند آية: ٤٩ إن شاء الله.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٦٤١ والحاكم ١٢٩/١ والآجري في «الشرعية» ٢١ و٢٢ من طريق عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن عبد الله بن يزيد عن ابن عمرو قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ليأتين على أمتي... ومداره على عبد الرحمن بن زياد، وهو واو، وله شواهد. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب مفسر لا نعرفه إلا من هذا الوجه اهـ، وضعفه الحاكم فقال: إسناده لا تقوم به حجة. لكن للحديث شواهد منها:

حديث أنس عند ابن ماجه ٣٩٩٣ وصححه إسناده البوصيري في «الزوائد»، ومن حديث عمرو بن عوف عند الحاكم ١٢٩/١ وإسناده ضعيف لضعف كثير بن عبد الله المزني، ومن حديث معاوية بن أبي سفيان عند أبي داود ٤٥٩٧ والحاكم ١٢٨/١ وصححه الحاكم والذهبي، وهو كما قال، وانظر «الشرعية» للأجري ١٨ - ٢٦ بتخريري.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبري ١٣٣٨١ عن زيد بن أسلم وهذا مرسل. وفيه أيضاً مؤمل بن إسماعيل البصري فيه ضعف. ثم المعنى بتتمة الآية كفار قريش انظر كلام الطبري رحمه الله عقب حديث ١٣٣٨٢ و١٣٣٨٥ وما قبله. والخبر ضعيف بكل حال لكونه مرسلًا.

﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ ، أي: الذي ليس وراءه حق. ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِكَلِيمٍ﴾ ، أي: لسْتُ عليكم بحفيظ، ولستُ بموكل بكم، كقوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، أي: إنما عليّ البلاغ، وعليكم السمع والطاعة، فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة. ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿لِكُلِّ نَبَلٍ مُّسْتَفِرٌّ﴾. قال ابن عباس وغير واحد: أي، لكل نبا حقيقة، أي: لكل خير وقوع ولو بعد حين، كما قال: ﴿وَلَمَّا نَبَأَ بَعْدَ حِينٍ ﴿٧٠﴾﴾ [ص: ٨٨] وقال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]. وهذا تهديد ووعيد أكيد، ولهذا قال بعده: ﴿وَسَوْفَ تَلْمِزُونَ﴾. ثم قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي بَيْنَانَا﴾ ، أي: بالتكذيب والاستهزاء ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ ، أي: حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب، ﴿وَإِنَّمَا يُبِيتُكَ الشَّيْطَانُ﴾ ، والمراد بهذا كل فرد من آحاد الأمة الأجلوسوا مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعفونها على غير مواضعها، فإن جلس أحد معهم ناسياً ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ﴾ ، بعد التذكر ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

[٢٩١٥] ولهذا ورد في الحديث: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنَّسِيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(١). وقال السدي، عن أبي مالك وسعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَإِنَّمَا يُبِيتُكَ الشَّيْطَانُ﴾ ، قال: إن نسيت فذكرت فلا تجلس معهم. وكذا قال مقاتل بن حيان. وهذه الآية هي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْكَرُوا إِذَا نَسَاهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]... الآية، أي: إنكم إذا جلستم معهم وأقررتهمهم على ذلك، فقد ساريتهمهم في الذي هم فيه. وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِن حِسَابِهِمْ مِن شَيْءٍ﴾ ، أي: إذا تجنّبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك، فقد برئوا من عهدهم، وتخلصوا من إثمهم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن السدي، عن أبي مالك وسعيد بن جبيرة، قوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِن حِسَابِهِمْ مِن شَيْءٍ﴾ ، قال: ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك، أي: إذا تجنّبتهم وأعرضت عنهم. وقال آخرون: بل معناه وإن جلسوا معهم فليس عليهم من حسابهم من شيء. وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية، وهي قوله: ﴿إِذْكَرُوا إِذَا نَسَاهُمْ﴾ ، قاله مجاهد، والسدي، وابن جرير، وغيرهم. وعلى قولهم يكون قوله: ﴿وَلَكِن ذُكِّرُوا لَمَلَهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ، أي: ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذٍ تذكيراً لهم عما هم فيه، لعلهم يتقون ذلك، ولا يتعدون إليه.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ آلِهَةٍ وَلَهُمْ أَعْرَابُهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَن تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعَدَّلَ كُلٌّ لَّا يُؤَخِّذُ مِنهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّن حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ آلِهَةٍ وَلَهُمْ أَعْرَابُهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ ، أي: دَعَهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَأَمْنَهُمْ قَلِيلاً، فإنهم صابرون إلى عذاب عظيم. ولهذا قال: ﴿وَذَكَرَ بِهِمْ﴾ ، أي: وذكر الناس بهذا القرآن، وحذّرهم نعمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿أَن تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ، أي: ليلاً تبسل، قال الضحاك عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، والسدي: تبسل: تسلّم. وقال الوالبي،

(١) إسناده غير قوي، تقدم في سورة البقرة آية: ٢٨٦.

عن ابن عباس: تُفَضَّح. وقال قتادة: تُحَسِّس. وقال مُرَّةُ وابنُ زيد: تُؤَاخِذ. وقال الكلبي: تُجَاوِز. وكلُّ هذه العبارات متقاربة في المعنى، وحاصلها الإسلام للهلكة، والحبس عن الخير، والارتهاق عن ذك المطلوب، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَمْحَصَ النَّبِيُّ ﴿٣٩﴾﴾ [المدر: ٣٨ - ٣٩]. وقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، أي: لا قريب ولا أحد يشفع فيها، كما قال: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفِيعَةً وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وقوله: ﴿وَإِنْ تَدَلَّ كُلُّ عَدْلٍ لَّا يُؤَخِّذُ مِتًّا﴾، أي: ولو بذلت كل مبدول ما قبل منها كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرًا فَكَانَ يُعَذِّبُ مِنْ أَعْدَائِهِمْ يَوْمَئِذٍ ذَهَابًا﴾ [آل عمران: ٩١]... الآية. وهكذا قال هاهنا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابًا مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَيْنَمَا قُلُوا لَهُمْ هُدًى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِتُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي آتَىٰكُمْ مَعْرُوفًا ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَنَّا الْعَنِيْبُ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

قال السدي: قال المشركون للمؤمنين: اتبعوا سبيلنا، واتركوا دين محمد. فانزل الله - عز وجل - ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾، أي: في الكفر ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ﴾، فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض، يقول: مثلكم إن كفرتم بعد الإيمان كمثّل رجل كان مع قوم على الطريق، فضلّ الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض، وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: اتتنا، فإننا على الطريق فأبى أن يأتيهم. فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد - ﷺ - ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام. رواه ابن جرير. وقال قتادة: ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾، أضلته في الأرض. يعني ﴿اسْتَهْوَتْهُ﴾ سيرته، مثل قوله تعالى: ﴿تَهْوَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾... الآية: هذا مثل ضرّبه الله للآلهة ومن يدعو إليها، والدعاة الذين يدعون إلى هدى الله - عز وجل - كمثّل رجل ضلّ عن الطريق تائها ضالاً، إذ ناداه مناد: يا فلان بن فلان، هلّم إلى الطريق، وله أصحاب يدعونه: يا فلان، هلّم إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق. وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلاق. يقول: مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله، فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت، فيستقبل الهلكة والندامة. وقوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾، هم الغيلاق، يدعونه باسمه واسم أبيه وجده، فيتبعها وهو يرى أنه في شيء، فيصبح وقد ألقته في مهلكة، ورزماً أكلته، أو تلقية في مصلّة من الأرض، يهلك فيها عطشاً. فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تُعْبَدُ من دون الله - عز وجل - . رواه ابن جرير. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا﴾، قال: رجل حيران إن يدعوه أصحابه إلى الطريق، وذلك مثل من يضلّ بعد أن هدي. وقال العوفي، عن ابن عباس، قوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ﴾، فهو الذي لا يستجيب لهدي الله، وهو رجل أطاق الشيطان، وعمل في الأرض بالمعصية، وحار عن الحق

وضلَّ عنه، وله أصحاب يذْعونهُ إلى الهدى، ويزْعُمون أن الذي يأمرونه هُدًى، يقول الله ذلك لأوليائهم من الإنس: إن الهدى هدى الله، والضلال ما يدعو إليه الجنُّ. رواه ابن جرير، ثم قال: وهذا يقتضي أن أصحابه يدعونهُ إلى ضلال، ويزْعُمون أنه هُدًى. قال: وهذا خلاف ظاهر الآية؛ فإن الله أخبر أن أصحابه يدعونهُ إلى الهدى، فغير جائز أن يكون ضلالاً، وقد أخبر الله أنه هُدًى. وهو كما قال ابن جرير، فإن سياق الآية يقتضي أن هذا الذي استهوته الشياطين في الأرض حيرانٌ - وهو منصوب على الحال، أي: في حال حيرته وضلاله وجَهله بوجه المَحْجَة - وله أصحاب على المحجَّة سائرون، فجعلوا يدعونهُ إليهم وإلى الذَّهاب معهم على الطريقة المثلَى. وتقدير الكلام: فَيَأْبَى عليهم ولا يلتفت إليهم، ولو شاء الله لهداه، ولردَّ به إلى الطريق. ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾، كما قال: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَمَّ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]، وقال: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧]. وقوله: ﴿وَأَمْرُنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّهِ الْكَلِمَاتِ﴾، أي نخلص له العبادة وحده لا شريك له. ﴿وَأَنْ أَيْمِنُوا الصَّلَاةَ وَأَقْوَمُوا﴾، أي: وأمرونا بإقامة الصلاة وبتقواه في جميع الأحوال، ﴿وَهُوَ الَّذِي آتَىكَ نُحُورَكَ﴾. أي: يوم القيامة. ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾، أي: بالعدل، فهو خالقهما ومالكهما، والمدبِّرُ لهما ولمن فيهما. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، يعني يوم القيامة، الذي يقول الله فيه: كن، فيكونُ عن أمره كلمح البصر أن هو أقرب. «ويوم» منصوبٌ إما على العطف على قوله: ﴿وَأَقْوَمُوا﴾، وتقديره: واتفقوا يومَ يقولُ كُنْ فيكونُ. وإما على قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، أي: وخلق يومَ يقولُ كُنْ فيكونُ. فذكر بدء الخلق وإعادته، وهذا مناسب. وإما على إضمار فعل تقديره: واذكُرْ يومَ يقولُ كُنْ فيكونُ. وقوله: ﴿قَوْلَهُ الْحَقُّ وَكَهْ الْمَلِكُ﴾ جملتان محلَّهما الجرُّ، على أنهما صفتان لربِّ العالمين. وقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكون بدلاً من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ... يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ﴾، وَيَحْتَمِلُ أن يكون ظرفاً لقوله: ﴿وَكَهْ الْمَلِكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ﴾، كقوله: ﴿لَمِنَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ﴾ [غانر: ١٦]، وكقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَ يَوْمِ يَوْمِ الْحَقِّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا﴾ [الفرقان: ٢٦] وما أشبه ذلك.. واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ﴾ فقال بعضهم: المراد بالصور هاهنا جمع سورَة، أي: يوم يُنْفَخُ فيها فتحيًا. قال ابن جرير: كما يقال: سورٌ، لسور البلد، وهو جمع سورَة. والصحيح أن المراد بالصور القُرُونُ الذي يُنْفَخُ فيه إسرافيل - عليه السلام -^(١).

[٢٩١٦] قال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «إن إسرافيل قد التقم الصور وحتى جبهته، ينتظر متى يؤمر فنُفَخُ»^(٢).

[٢٩١٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سليمان التيمي، عن أسلم العجلي، عن بشر ابن شُعَافٍ، عن عبد الله بن عمرو قال: قال أعرابي: يا رسول الله، ما الصور؟ قال: قرُونُ يُنْفَخُ فيه»^(٣).

[٢٩١٨] وقد روينا حديث الصور بطوله، من طريق الحافظ أبي القاسم الطبراني، في كتابه «الطُّوالات» قال: حدثنا أحمد بن الحسن المصري الأيلي، حدثنا أبو عاصم النبيل، حدثنا إسماعيل بن رافع، عن

(١) راجع ذلك مفصلاً في «فتح الباري» بإثر حديث ٦٥١٨.

(٢) انظر ما تقدم في سورة آل عمران عند آية: ١٧٣.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ٤٧٤٢ والترمذي ٣٢٤٣ وأحمد ٣١٢/٢ وصححه ابن حبان ٧٣١٢ والحاكم ٤٣٦/٢

٥٠٦ وكذا الذهبي، وهو حديث حسن.

مُحَمَّدُ بْنُ زِيَادٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْفَرَزِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا فَرَعَ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، خَلَقَ الصُّورَ فَأَعْطَاهُ إِسْرَافِيلَ، فَهُوَ وَاضِعُهُ عَلَى قَبِيهِ شَاخِصاً بِبَصَرِهِ إِلَى الْعَرْشِ، يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤَمَّرُ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الصُّورُ؟ قَالَ: «الْقَرْنُ». قُلْتُ: كَيْفَ هُوَ؟ قَالَ: «عَظِيمٌ، وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ إِنْ عَظُمَ دَارَةٌ فِيهِ كَعَرَضِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَنْفِخُ فِيهِ ثَلَاثَ نَفَخَاتٍ: النَّفْخَةُ الْأُولَى نَفْخَةُ الْفَرْعِ، وَالثَّانِيَةُ نَفْخَةُ الصُّغْقِ، وَالثَّلَاثَةُ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، يَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ بِالنَّفْخَةِ الْأُولَى، فَيَقُولُ: انْفُخْ، فَيَنْفِخُ نَفْخَةَ الْفَرْعِ، فَيَفْرَعُ أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَيَأْمُرُهُ فَيُدِيمُهَا وَيُطِيلُهَا، وَلَا يَفْتَرُ، وَهِيَ كَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَتَّالِكَ إِلَّا صَيَّحَةٌ وَاحِدَةٌ مَأْ لَهَا مِنْ قَوَائِقِ﴾ [ص: ١٥] فَتَسِيرُ الْجِبَالُ، فَتَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ فَتَكُونُ سَرَاباً. ثُمَّ تَرْجِعُ بِأَهْلِهَا رَجْأً فَتَكُونُ كَالسَّفِينَةِ الْمَرْمِيَّةِ فِي الْبَحْرِ تَضْرِبُهَا الْأَمْوَاجُ، تُكْفَأُ بِأَهْلِهَا كَالْقَنْدِيلِ الْمَعْلُوقِ بِالْعَرْشِ، تُرَجَّرُجُهُ الرِّيَّاحُ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ: ﴿يَوْمَ تَرْجِفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾ [النَّازِعَاتِ: ٦ - ٨]، فَيَمِيدُ النَّاسُ عَلَى ظَهْرِهَا، وَتَذْهَلُ الْمَرَضِعُ، وَتَضَعُ الْحَوَامِلُ، وَتَشِييبُ الْوُلْدَانُ، وَتَطِيرُ الشَّيَاطِينُ هَارِبَةً مِنَ الْفَرْعِ، حَتَّى تَأْتِيَ الْأَقْطَارَ، فَتَأْتِيهَا الْمَلَائِكَةُ فَتَضْرِبُ وَجُوهَهَا، فَتَرْجِعُ، وَيُؤَلِّي النَّاسُ مُذْبِرِينَ مَا لَهُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ، يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ النَّوَادِرِ﴾ [غَافِرٍ: ٣٢]. فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ انْصَدَعَتِ الْأَرْضُ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ، فَرَأَوْا أَمْرًا عَظِيمًا لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ، وَأَخَذَهُمْ لَذِكُ مِنَ الْكَرْبِ وَالْهَوْلِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ. ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا هِيَ كَالْمُهْلِ، ثُمَّ انْشَقَّتْ فَانْشَرَّتْ نَجُومُهَا، وَانْخَسَفَتْ شَمْسُهَا وَقَمَرُهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: الْأَمْوَاتُ لَا يَعْلَمُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ اسْتَشْنَى اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - حِينَ يَقُولُ: ﴿فَفَرِّجْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [النَّمْلِ: ٨٧]؟ قَالَ: أَوْلَيْكَ الشَّهَدَاءُ، وَإِنَّمَا يَصِلُ الْفَرْعُ إِلَى الْأَحْيَاءِ، وَهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ اللَّهِ يُرْزَقُونَ، وَقَامَهُمُ اللَّهُ فَرَعَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَأَمَّنْتُمْ مِنْهُ، وَهُوَ عَذَابُ اللَّهِ يَبْعَثُهُ عَلَى شَرَارِ خَلْقِهِ، قَالَ: وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقْنَا رَبِّيكُمْ إِنَّكَ لَرَكُنٌ مِنَ السَّمَاعِ شَفَعٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الْحَجِّ: ١ - ٢]، فَيَكُونُونَ فِي ذَلِكَ الْبَلَاءِ مَا شَاءَ اللَّهُ، إِلَّا أَنَّهُ يَطُولُ. ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ بِنَفْخَةِ الصُّغْقِ، فَيَنْفِخُ نَفْخَةَ الصُّغْقِ، فَيُضَعِقُ أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، فَإِذَا هُمْ قَدْ خَمَدُوا، وَجَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى الْجِبَارِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَدْ مَاتَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شِئْتَ. فَيَقُولُ اللَّهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ بَقِيَ -: فَمَنْ بَقِيَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، بَقِيَتْ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَبَقِيَتْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَبَقِيَ جَبْرِيْلُ وَمِيكَائِيلُ، وَبَقِيَتْ أَنَا. فَيَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: لِمَتِ جَبْرِيْلُ وَمِيكَائِيلُ. فَيُنْطِقُ اللَّهُ الْعَرْشَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، يَمُوتُ جَبْرِيْلُ وَمِيكَائِيلُ؟! فَيَقُولُ: اسْكُتْ، فَإِنِّي كَتَبْتُ الْمَوْتَ عَلَى كُلِّ مَنْ كَانَ تَحْتَ عَرْشِي. فَيَمُوتَانِ. ثُمَّ يَأْتِي مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى الْجِبَارِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَدْ مَاتَ جَبْرِيْلُ وَمِيكَائِيلُ. فَيَقُولُ اللَّهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ بَقِيَ -: فَمَنْ بَقِيَ؟ فَيَقُولُ: بَقِيَتْ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَبَقِيَتْ حَمَلَةُ عَرْشِكَ، وَبَقِيَتْ أَنَا. فَيَقُولُ اللَّهُ: لِمَتِ حَمَلَةُ عَرْشِي. فَيَمُوتُونَ. وَيَأْمُرُ اللَّهُ الْعَرْشَ فَيَقْبِضُ الصُّورَ مِنْ إِسْرَافِيلَ. ثُمَّ يَأْتِي مَلَكُ الْمَوْتِ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَدْ مَاتَ حَمَلَةُ عَرْشِكَ، فَيَقُولُ اللَّهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ بَقِيَ -: فَمَنْ بَقِيَ؟ فَمَنْ بَقِيَ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ: أَنْتَ خَلَقْتَ مِنْ خَلْقِي، خَلَقْتَنِي لَمَّا رَأَيْتَ، فَمُتْ. فَيَمُوتُ. فَإِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، كَانَ آخِرًا كَمَا كَانَ أَوَّلًا، طَوَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ طَيَّ السَّجَلِ لِلْكِتَابِ، ثُمَّ دَحَاهُمَا ثُمَّ يَلْفُفُهُمَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْجَبَّارُ. ثَلَاثًا. ثُمَّ هَتَفَ

بصوته: ﴿لَمِنَ الْمَلَكِ الْيَوْمِ﴾؟ ثلاث مرّات، فلا يُجيبه أحدٌ، ثم يقول لنفسه: ﴿لِلَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ﴾ [غافر: ١٦]، يقول الله: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَرِبَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءُ سَمَوَاتٍ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فيسبطنهما ويسطحنهما، ثم يمدّهما مدّ الأديم العكايطي ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧]. ثم يزرعُ الله الخلقَ زَجْرَةً واحدة، فإذا هم في هذه الأرض المبدلة مثل ما كانوا فيها من الأولى، من كان في بطنها كان في بطنها، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها، ثم ينزل الله - عز وجل - عليهم ماء من تحت العرش، ثم يأمر الله السماء أن تمطر، فتمطر أربعين يوماً، حتى يكون الماء فوقهم اثني عشر ذراعاً، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت فنبتت كنبات الطرائيث - أو: كنبات البقل - حتى إذا تكاملت أجسادهم فكانت كما كانت، قال الله - عز وجل -: لِيُنحَى حِمْلَةُ عَرْشِي. فيخيون، ويأمر الله إسرئيل فيأخذ الصور، فيضعه على فيه، ثم يقول: لِيُنحَى جبريل وميكائيل. فيخيان، ثم يدعو الله الأرواح، فيؤتى بها تتوهج أرواح المسلمين نوراً، وأرواح الكافرين ظلمة، فيقبضها جميعاً ثم يلقيها في الصور. ثم يأمر الله إسرئيل أن ينفخ نفخة البعث، فينفخ نفخة البعث، فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض، فيقول: وعزتي وجلالي لَيَرْجِعَنَّ كُلُّ رُوحٍ إِلَى جَسَدِهِ، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد، فتدخل في الخياشيم، ثم تمشي في الأجساد كما يمسي السم في اللدغ، ثم تشق الأرض عنكم، وأنا أول من تشق الأرض عنه، فتخرجون منها سراعاً إلى ربكم تنسلون، ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَوْمَ السَّاعَةِ﴾ [القمر: ٨]، حفاة عرّاة غزلاً، فتقفون موقفاً واحداً مقداره سبعون عاماً، لا يُنظر إليكم ولا يقضى بينكم، فتبكون حتى تنقطع الدموع، ثم تدمعون دماً وتغزفون حتى يلجمكم العرق، أو يبلغ الأذقان، وتقولون: من يشفع لنا إلى ربنا فيقضي بيننا؟ فيقولون: من أحقّ بذلك من أبيكم آدم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه قبلاً. فيأتون آدم، فيطلبون ذلك إليه فيأبى، ويقول: ما أنا بصاحب ذلك. فيستقرنون الأنبياء نبيّاً، نبيّاً، كلُّما جاؤوا نبيّاً أبى عليهم، قال رسول الله - ﷺ -: حتى يأتوني فأنطلق إلى الفحص فأخر ساجداً - قال أبو هريرة: يا رسول الله، وما الفحص؟ قال: قدام العرش - حتى يبعث إلي ملكاً فيأخذ بعضدي، فيقول لي: يا محمد، فأقول: نعم، يا رب. فيقول الله - عز وجل -: ما شأنك؟ وهو أعلم، فأقول: يا رب، وعدتني الشفاعة فسفعتني في خلقك، فاقض بينهم. قال الله: قد شفعتك، أنا أتيكم أقضي بينكم. قال رسول الله - ﷺ -: فأرجع فأقف مع الناس، فبينما نحن وقوف إذ سمعنا جساً من السماء شديداً فهالنا، فنزل أهل السماء الدنيا بمثلني من في الأرض من الإنس والجن، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم، وأخذوا مصافهم، وقلنا لهم: أفيكم ربنا؟ قالوا: لا، وهو آت. ثم ينزل أهل السماء الثانية بمثلني من نزل من الملائكة، وبمثلني من فيها من الجن والإنس، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم، وأخذوا مصافهم، وقلنا لهم: أفيكم ربنا؟ فيقولون: لا، وهو آت. ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف، حتى ينزل الجبار - عز وجل - في ظلل من الغمام والملائكة، ويحمل عرشه يومئذ ثمانية - وهم اليوم أربعة - أقدامهم في تخوم الأرض السفلى، والأرض والسموات إلى حُجْرَتِهِمْ، والعرش على منابهم، لهم زجل في تسبيحهم، يقولون: سبحان ذي العرش والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميئ الخلاق ولا يموت، سبحان قُدُوسٌ قُدُوسٌ قُدُوسٌ، سبحان ربنا الأعلى، رب الملائكة والروح، سبحان ربنا الأعلى، الذي يميئ الخلاق ولا يموت. فيضع الله كرسيه حيث يشاء من أرضه، ثم يهتف بصوته فيقول: يا معشر الجن والإنس، إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا، أسمع قولكم وأبصر أعمالكم، فأنصتوا إلي، فإنما هي أعمالكم وضحفكم تُقرأ عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. ثم يأمر الله جهنم، فيخرج

منها عُنُقُ ساطعِ مظلَمٍ، ثم يقول: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بِنِعْمَةِ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْهُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ آخَذْنَا مِنْكُمْ بَعْثًا كَثِيرًا أَقَلَّمْ تَكُونُوا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ هَذَا جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوقَدُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: ٦٠ - ٦٣]، أو: بها تكذبون - شك أبو عاصم - ﴿وَأَمْتَرْنَا الْيَوْمَ أَنبِيَاءَ التَّمْذِيرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس: ٥٩]، فيميز الله الناس وتجوئو الأمم، يقول الله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَا كُلَّ آتَمَةٍ حَافِيَةً كُلَّ آتَمَةٍ نَدْعَى إِلَيْنَا يَوْمَ يُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجناتية: ٢٨] فيقضي الله - عز وجل - بين خلقه، إلا الثقلين الجن والإنس، فيقضي بين الوحوش والبهائم، حتى إنه يفتنص للجماء من ذات القرن، فإذا فرغ من ذلك فلم تبق تبععة عند واحدة لأخرى قال الله لها: كوني تراباً. فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠]. ثم يقضي الله بين العباد، فكان أول ما يقضي فيه الدماء، ويأتي كل قتييل في سبيل الله - عز وجل - ويأمر الله عز وجل كل قتييل فيحمل رأسه تشخب أوداجه يقول: يا رب، فيم قتلني هذا؟ فيقول، - وهو أعلم -: فيم قتلتهم؟ فيقول: قتلتهم لتكون العزة لك. فيقول الله له: صدقت. فيجعل الله وجهه مثل نور الشمس، ثم تمر به الملائكة إلى الجنة. ويأتي كل من قتل على غير ذلك يحمل رأسه تشخب أوداجه دماً فيقول: يا رب، فيم قتلني هذا؟ فيقول - وهو أعلم - لم قتلتهم؟ فيقول: يا رب، قتلتهم لتكون العزة لي. فيقول: تعسنت. ثم لا تبقى نفس قتلها إلا قُتِل بها، ولا مظلمة ظلمها إلا أخذ بها. وكان في مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء رجمه. ثم يقضي الله تعالى بين من بقي من خلقه، حتى لا تبقى مظلمة لأحد عند أحد إلا أخذها المظلوم من الظالم، حتى إنه ليكلف شائب اللبن بالماء ثم يبيعه أن يخلص اللبن من الماء. فإذا فرغ الله من ذلك نادى منادٍ يُسْمِعُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ: أَلَا لِيُنْحَقَ كُلُّ قَوْمٍ بِأَكْثَمِهِمْ، وما كانوا يعبدون من دون الله. فلا يبقى أحدٌ عبد من دون الله إلا مثلت له ألهته بين يديه، ويُجعل يومئذ ملك من الملائكة على صورة عذري، ويُجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى ابن مريم. ثم يتبع هذا اليهود وهذا النصراني، ثم قاذبهم ألهتهم إلى النار. وهو الذي يقول: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُوكَآءَ آلِهَةٍ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]. فإذا لم يبق إلا المؤمنون فيهم المنافقون، جاءهم الله فيما شاء من هينئيه، فقال: يا أيها الناس، ذهب الناس فالحقوا بألهتكم وما كنتم تعبدون. فيقولون: والله ما لنا إله إلا الله، وما كنا نعبد غيره. فينصرف عنهم، وهو الله الذي يأتيهم فيمكث ما شاء الله أن يمكث، ثم يأتيهم فيقول: يا أيها الناس، ذهب الناس فالحقوا بألهتكم وما كنتم تعبدون. فيقولون: والله ما لنا إله إلا الله، وما كنا نعبد غيره. فيكشف لهم عن ساقه، ويتجلى لهم من عظمتهم ما يعرفون أنه ربهم، فيخزون للآذان سجداً على وجوههم، ويخر كل منافقٍ على قفاه، ويجعل الله أصلابهم كصياصي البقر. ثم يأذن الله لهم فيرفعون، ويضرب الله الصراط بين ظهراني جهنم كحد الشفرة، أو كحد السيف، عليه كلابيب وخطاطيف وحسك كحسك السعدان، دونه جسرٌ دحض مزلَّة، فيمرون كطرف العين، أو كمنح البرق، أو كمر الریح، أو كجباد الخيل، أو كجباد الركب، أو كجباد الرجال. فجاج سالم، وناج مخدوش، ومكردس على وجهه في جهنم. فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة قالوا: من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة؟ فيقولون: من أحق بذلك من أبيكم آدم - عليه السلام -، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه قبلاً؟ فيأتون آدم فيطلب ذلك إليه، فيذكر ذنباً ويقول: ما أنا بصاحب ذلك، ولكن عليكم بنوح، فإنه أول رسل الله. فيؤتى نوح فيطلب ذلك إليه، فيذكر ذنباً ويقول: ما أنا بصاحب ذلك، بل إبراهيم، فإن الله اتخذه خليلاً. فيؤتى إبراهيم فيطلب ذلك إليه، فيذكر ذنباً ويقول: ما أنا بصاحب ذلك، ويقول: عليكم بموسى فإن الله قربه نجياً، وكلمه وأنزل عليه التوراة. فيؤتى موسى فيطلب ذلك إليه، فيذكر ذنباً ويقول: لست بصاحب ذلك، ولكن عليكم بروح الله وكلمته عيسى ابن مريم. فيؤتى عيسى ابن مريم

فَطَلَّبَ ذَلِكَ إِلَيْهِ، فيقول: ما أنا بصاحبكم، ولكن عليكم بمحمد. قال رسول الله - ﷺ - فيأتوني ولي عند ربي ثلاثُ شفاعاتٍ وَعَدَنِيهِنَّ، فأنطلقُ فَأَتِي الْجَنَّةَ، فأخذ بحلقة الباب، فأستفتحُ فَيُفْتَحُ لي، فأحيا وَيُرْحَبُ بي. فإذا دخلتُ الجنةَ فنظرتُ إلى ربي حَزَزْتُ ساجداً، فيأذن الله لي من حمده وتمجيدِهِ بشيء ما أذن به لأحدٍ من خلقه، ثم يقول: ارفع رأسك يا محمد، واشفعْ تُشَفَّعْ، وسلْ تُعْطَ. فإذا رفعتُ رأسي يقول الله - وهو أعلمُ -: ما شأنك؟ فأقول: يا رب، وَعَدْتَنِي الشفاعةَ، فَشَفَّعْنِي في أهل الجنةِ فَيَدْخُلُونَ الجنةَ. فيقول الله: قد شَفَّعْتُكَ وقد أذنتُ لهم في دُخُولِ الجنةِ. وكان رسول الله - ﷺ - يقول: «والذي نفسي بيده، ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومسكنكم من أهل الجنةِ بأزواجهم ومسكنهم، فيدخل كلُّ رجلٍ منهم على اثنتين وسبعين زوجةً، سبعين مما ينشئ الله - عز وجل - وثنتين آدميتين من ولد آدم، لهما فضلٌ على من أنشأ الله، لعبادتهما الله في الدنيا. فيدخل على الأولى في عُرفة من ياقوتة، على سريرٍ من ذهبٍ مُكَلَّلٍ باللؤلؤ، عليها سبعون زوجاً من سندسٍ وإستبرقٍ، ثم إنه يضع يده بين كتفَيها، ثم ينظر إلى يده من صدرها، من وراء ثيابها وجلبدها ولحمها، وإنه لينظر إلى مَخِّ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السُّلُكِ في قَصْبَةِ الياقوتِ، كَيْدُها له مرآة وكبدُها لها مرآة. فيبينا هو عندها لا يَمَلُّها ولا تَمَلُّه، ما يأتيها من مرّةٍ إلا وَجَدَها عذراءً، ما يفتنُّ ذَكَرُه، وما تشكي قُبَلُها. فيبينا هو كذلك إذ تُودي: إنا قد عَرَفْنَا أنك لا تَمَلُّ ولا تَمَلُّ، إلا إنه لا مَيِّ ولا مَيِّةً، إلا إن لك أزواجاً غيرها. فيخرجُ فيأتيهِنَّ واحدةً واحدةً، كلُّما أتى واحدةً قالت له: والله ما أرى في الجنةِ شيئاً أحسن منك، ولا في الجنةِ شيءٌ أحبُّ إليّ منك. وإذا وقع أهلُ النارِ في النارِ، وَقَعَ فيها خَلْقٌ من خَلْقِ ربك أَوْبَقْتُهُمْ أعمالُهُم، فمنهم من تأخذ النارُ قَدَميه لا تجاوز ذلك، ومنهم من تأخذه إلى أنصافِ ساقيه، ومنهم من تأخذه إلى رُكْبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حَفْوِيه، ومنهم من تأخذُ جَسَدَه كُلَّهُ إلا وَجْهَه، حَرَّمَ اللهُ صُورَتَه عليها. قال رسول الله - ﷺ -: فأقول: يا رب، مَنْ وَقَعَ في النارِ من أمتي؟ فيقول: أخرجوا من عَرَفْتُمْ، فيخرجُ أولئك حتى لا يبقى منهم أحدٌ. ثم يأذن الله في الشفاعة فلا يبقى نبيٌ ولا شهيدٌ إلا شَفَّعَ، فيقول الله: أخرجوا من وَجَدْتُمْ في قلبه زنةَ الدِّينارِ إيماناً. فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد. ثم يَشَفَّعُ اللهُ فيقول: أخرجوا من وَجَدْتُمْ في قلبه إيماناً ثلثي دينار. ثم يقول: ثلثُ دينار. ثم يقول: رُزِعَ دينار. ثم يقول: قيراطاً. ثم يقول: حَبَّةٌ من خَزْدَلٍ. فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحدٌ، وحتى لا يبقى في النارِ من عَمِلَ اللهُ خيراً قطً، ولا يبقى أحدٌ له شفاعةٌ إلا شَفَّعَ، حتى إن إبليسَ ليتطاوَلُ مما يرى من رحمةِ اللهِ رجاءً أن يَشَفَّعَ له، ثم يقول: بقيتُ وأنا أرحمُ الراحمين. فَيُدْخِلُ يده في جَهَنَّمَ فيخرج منها ما لا يُحْصِيه غيره، كأنهم حُمَمٌ، فيلقون على نهرٍ يقال له: نهر الحيوان، فَيَنْبَثُونَ كما تَنْبَثُ الحَبَّةُ في حَمِيلِ السَّيْلِ ما يلي الشمسَ منها أخضرٌ، وما يلي الظلَّ منها أصفرٌ، فَيَنْبَثُونَ ككتابِ الطرائثِ، حتى يكونوا أمثالَ الدُّرِّ، مكتوبٌ في رِقَابِهِم: الجَهَنَّمِيُّونَ عَتَقَاءُ الرَّحْمَنِ، يَغْرِفُهُمُ أَهْلُ الجنةِ بذلك الكتابِ، ما عَمِلُوا خيراً اللهُ قطً. فيمكثون في الجنةِ ما شاء اللهُ، وذلك الكتابُ في رِقَابِهِم، ثم يقولون: ربنا امحُ عَنَّا هذا الكتابَ. فيمحوه اللهُ - عز وجل - عنهم»^(١).

(١) أخرجه الطبراني في «الطوال» ٣٦ وأبو الشيخ في «العظمة» ٣٨٨ و٣٨٩ و٣٩٠ والبيهقي في «البعث» ٦٦٨ و٦٦٩ والطبري ٣٣٠/٢ و٣٣١ و١١٠/١٧ و٣٠/٢٤ و٦١ و٢٦/٣٠ - ٣١ - ٣٢ وإسحق بن راهويه كما في «المطالب العالية» ٢٩٩١ من طرق عن إسماعيل بن رافع، وهو واه، فرواه تارة عن يزيد بن أبي زياد عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة، وتارة عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب بن كعب عن أبي هريرة، وتارة عن محمد بن يزيد بن أبي زياد عن رجل من الأنصار عن محمد بن كعب عن أبي هريرة، وتارة عن محمد بن كعب القرظي عن رجل من الأنصار عن أبي هريرة. وأياً كان فمداره على

هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة، وقد اختلف فيه، فمنهم من وثقه، ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة، كأحمد بن حنبل، وأبي حاتم الرازي، وعمر بن علي الفلاس، ومنهم من قال فيه: هو متروك. وقال ابن عدي: أحاديث كلها فيها نظر، إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء. قلت: وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة، قد أفردتها في جزءي على جدة. وأما سياقه فغريب جداً، ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة، وجعله سياقاً واحداً، فأنكر عليه بسبب ذلك. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني يقول: إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث، فالله أعلم.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّرَ أَنْتَجِدُ أَصْنَامًا ۗ إِلَهًا ۖ إِنِّي أَخَذْتُ مِنَ صُلَيْبٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَاتِ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُرِيدُ بِرَبِّي مَتًّا تَشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۚ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

قال الضحاك، عن ابن عباس: إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه أزر، إنما كان اسمه تارح. رواه ابن أبي حاتم. وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل، حدثنا أبي، حدثنا أبو عاصم، حدثنا شبيب، حدثنا عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّرَ﴾ يعني بأزر الصنم، وأبو إبراهيم اسمه تارح، وأمه اسمها مثاني، وامراته اسمها سارة، وأم إسماعيل اسمها هاجر، وهي سوزة إبراهيم. وهكذا قال غير واحد من علماء النسب: إن اسمه تارح. وقال مجاهد والسدي: أزر: اسم صنم. قلت: كأنه غلب عليه أزر لخدمته ذلك الصنم، فالله أعلم. وقال ابن جرير: وقال آخرون: هو سب وعيب بكلامهم، ومعناه:

إسماعيل بن رافع ولم يتابعه على هذا الحديث بطوله أحد، وهو واه. جاء في الميزان ٨٧٢: ضعفه أحمد ويحيى وجماعة، وقال الدارقطني وغيره: متروك، وقال ابن عدي: أحاديثه كلها مما فيه نظر اه باختصار. وقد نص الحفاظ على وهن هذا الحديث بطوله. فقال الحافظ في «المطالب العالية» ٢٩٩١: فيه ضعف اه وقال البوصيري: في ٢١/١: تابعه مجهول. وجاء في الفتح ٣٦٨/١١ - ٣٦٩ عقب حديث ٦٥١٨ ما ملخصه: وأخرجه عبد بن حميد وأبو يعلى في «الكبير» وعلي بن معبد في «الطاعة والمعصية» ومداره على إسماعيل بن رافع، واضطرب في سنده مع ضعفه، فرواه تارة عن القرظي بلا واسطة، وتارة بذكر رجل مبهم بينهما، وتارة عن القرظي عن أبي هريرة، وتارة بذكر رجل مبهم بينهما، وأخرجه إسماعيل بن أبي زياد الشامي أحد الضعفاء في «تفسيره» عن محمد بن عجلان عن محمد القرظي واعترض منغلطاي على عبد الحق في تضعيفه الحديث بإسماعيل بن رافع، وخفي عليه أن الشامي أضعف منه، ولعله سرقه من إسماعيل، فلزقه بابن عجلان وقد قال الدارقطني: يضع الحديث. وقد صحح الحديث من طريق إسماعيل بن رافع القاضي أبو بكر بن العربي في «سراجه» وتبعه القرظي في «التذكرة» وقول عبد الحق في تضعيفه أول، وضعفه قبله البيهقي اه كلام الحافظ. وتكلم عليه أيضاً ابن كثير رحمه الله في «نهاية البداية» ٢٢٣/٢ ٢٢٤ وخلاصة القول أنه حديث ضعيف بهذا التمام، وبعض ألفاظه في الصحيحين، وغيرهما، وبعضه في الكتب المعتمدة. وبعضه الآخر منكر لا يتابع عليه.

مُغَوَّجٌ، ولم يُسَيِّدْهُ ولا حَكَاهُ عن أَحَدٍ. وقد قال ابنُ أَبِي حاتم: ذُكِرَ عن مُعْتَمِرِ بنِ سُلَيْمان، سَمِعْتُ أَبِي يَقْرَأُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّرَكَ﴾ قال: بلغني أنها أعوجٌ، وأنها أشدُّ كلمة قالها إبراهيمُ - عليه السلام - . ثم قال ابنُ جرير: والصوابُ أن اسمَ أبيه أَرَزَّرُ. ثم أورد على نفسه قَوْلَ النسابين أن اسمه تَارِحُ، ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان، كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقباً. وهذا الذي قاله جيد قوي، والله أعلم. واختلف القراء في أداءِ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّرَكَ﴾، فحكى ابنُ جرير عن الحسن البصري وأبي يزيد المدني أنهما كانا يقرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّرَ﴾، أنتخذُ أصناماً آلهةً، معناه: يا أَرَزَّرُ، أنتخذُ أصناماً آلهةً، أو عطف بيان، وهو أشبه. وعلى قول من جعله نعتاً لا ينصرفُ أيضاً كأحمر وأسود. فأما من زعم أنه منصوبٌ لكونه معمولاً لقوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾، تقديره: يا أبتِ، أنتخذُ أَرَزَّرَ أصناماً آلهةً - فإنه قول بعيد في اللغة؛ لأن «ما» بعد حرف الاستفهام لا يعملُ فيما قبله، لأن له صَدْرَ الكلام، كذا قرَّره ابن جرير وغيره. وهو مشهورٌ في قواعد العربية. والمقصودُ أن إبراهيمَ - عليه السلام - وعظ أباه في عبادةِ الأصنام، وَزَجَرَهُ عنها، ونَهَاهُ فلم يَنْتَه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلهةً﴾ أي: أنتأله لصنم تعبدُهُ من دون الله، ﴿إِنِّي أَنذَرْتُكَ وَوَعَلْتُكَ﴾، أي: السالكين مسلكك ﴿فِي صَلَواتِ مُبِينٍ﴾، أي: تائمين لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيرة وجهل، وأمرهم في الجهالة والضلال بين واضح لكل ذي عقل صحيح. وقال تعالى: ﴿وَأَذَكَّرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ ﴿١٦﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعَالَمِينَ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْلَكَ صِرطاً سوياً ﴿١٧﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيبًا ﴿١٨﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلياً ﴿١٩﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْبَةِ يَا إِبْرَاهِيمُ لِمَ تَرْتَدُّ لِلْأَرْضِ وَأَنْتَ وَالْعَجْرُفِيُّ مَلِكًا ﴿٢٠﴾ قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رِجًّا إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيَّا ﴿٢١﴾ وَأَعَزَّلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدَعْوَتِكُمْ رَبِّي شَهِيدًا ﴿٢٢﴾ [مریم: ٤١ - ٤٨]، فكان إبراهيمُ - عليه السلام - يستغفرُ لأبيه مُدَّةَ حياته، فلما مات على الشرك وتبين إبراهيمُ ذلك رجع عن الاستغفار له، وتبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُ أَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنِ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فُلانًا بَيْنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿١١٤﴾ [التوبة: ١١٤].

[٢٩١٩] وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحِ: أن إبراهيمَ يلقى أباه أَرَزَّرَ يومَ القيامة فيقول له أبوه: يا بُنْتِي، اليومَ لا أغضبك، فيقول إبراهيم: أي رب، ألم تعذبني أنك لا تُخزيني يوم يبعثون، وأي خزي أخزي من أبي الأبعد؟ فيقال: يا إبراهيم، انظر ما وراءك. فإذا هو بِذِيخٍ متلطح، فيؤخذُ بقوائمه، فيُلْقَى في النار^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: تُبَيِّنُ له وَجْهَ الدَّلالةِ في نَظَرِهِ إلى خَلْقِهِمَا على وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ - عز وجل - في ملكه وخلقِه، وأنه لا إله غيرُه ولا رب سواه، كقوله: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُنْفِئُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١١﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِنْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ سَمَاءٍ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَاءُ نَغِشِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنْ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١﴾ [سبا: ٢٩]. فاما

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٥٠ من حديث أبي هريرة بهذا السياق، والنسائي في «الكبرى» ١١٣٧٥ و«التفسير» ٣٩٥

ما حكاه ابن جرير وغيره، عن مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والسدي، وغيرهم قالوا - واللفظ لمجاهد -: فُرِجَتْ له السمواتُ، فَنظَرَ إلى ما فيها، حَتَّى انتهى بصره إلى العرش، وفُرِجَتْ له الأرضونُ السبعُ، فنظر إلى ما فيها - وزاد غيره -: فَجَعَلَ ينظرُ إلى العباد على المعاصي فيدعو عليهم، فقال الله له: إني أرحمُ بعبادي منك، لعلهم أن يتوبوا ويُرْاجعوا. وقد روى ابن مَرْدُوَيْه في ذلك حَدِيثين مَرْفُوعين^(١)، عن معاذٍ وعليٍّ ابن أبي طالب، ولكن لا يصح إسنادهما والله أعلم. وروى ابنُ أبي حاتم من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (٧٥) فإنه - تعالى - جَلَّ لَهُ الأَمْرُ سره وعلايته، فلم يَخَفْ عليه شيء من أعمال الخلاق، فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله: إنك لا تستطيع هذا. فَرَدَّه الله كما كان قبل ذلك. فَيَحْتَمِلُ أن يكونَ هذا بأن كَشَفَ له عن بصره، حتى رأى ذلك عياناً، ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهده بفواذه وتحققه وعزفه، وعَلِمَ ما في ذلك من الحِكم الباهرة والدلالات القاطعة.

[٢٩٢٠] كما رواه الإمام أحمد والترمذي - وصححه - عن معاذ بن جبل في حديث المنام: «أتاني ربي في أحسن صورة فقال: يا محمد، فيم يختصم الملائ الأعلى؟ فقلت: لا أدري يا رب، فوضع كفه بين كتفي، حتى وجدت برد أنامله بين كفي، فتجلى لي كل شيء وعرفت ذلك...»^(٢) وذكر الحديث. وقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾، قيل: الواو زائدة، تقديره: وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين، كقوله: ﴿نُفِصِلُ الْآيَاتِ وَلِنَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾. وقيل: بل هي على بابها، أي: نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ عَلَيْهِ أَيْلٌ﴾، أي: تغشاه وسره ﴿رَبًّا كَوْكَبًا﴾، أي: نجماً، ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾، أي: غاب. قال محمد بن إسحاق بن يسار: الأقول: الذهب. وقال ابن جرير يقال: أفل النجم يأفل ويأفل أفولاً وأفلاً: إذا غاب، ومنه قول ذي الرمة:

مصابيح ليست باللواتي تُقودها نُجُومٌ، ولا بالآفلات الدوالك

ويقال: أين أفلت عنا؟ بمعنى: أين غيبت عنا؟. قال: ﴿لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾، قال قتادة: علم أن ربه دائم لا يزول. ﴿فَلَمَّا رَأَى السَّمَاءَ بَازِعًا﴾، أي: طالماً ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (٧٧) ﴿فَلَمَّا رَأَى السَّمَاءَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾، أي: هذا المنير الطالع ربي ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾، أي: جزءاً من النجم ومن القمر، وأكثر إضاءة ﴿فَلَمَّا أَفَلَّتْ﴾، أي غابت ﴿قَالَ يَقْوِي إِلَيَّ رَبِّي وَمَا تُشْرِكُونَ﴾ (٧٨) إني وجهت وجهي، أي: أخلصت ديني وأفردت عبادتي ﴿لِيَلِدَنِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: خلقتهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿حَيِّيًا﴾، أي: في حال كوني حياً، أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. وقد اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فَرَوَى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾... الآية. وقال محمد بن إسحاق: قال ذلك حين خرج من السرب الذي ولدته فيه أمه، حين

(١) انظرهما في الدر المنثور ٤٥/٣ عند تفسير هذه الآية.

(٢) حسن. أخرجه الترمذي ٣٢٣٣ وأحمد ٣٤٣/٥ من حديث معاذ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وسألت البخاري عن هذا الحديث فقال: هذا الحديث حسن صحيح. وله شاهد من حديث ابن عباس، أخرجه الترمذي ٣٢٣٢ وأبو يعلى ٢٦٠٨ من طريق أبي قلابة عن خالد بن اللجلاج عن ابن عباس مرفوعاً. وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه. وأخرجه الترمذي ٣٢٣١ وأحمد ٣٦٨/١ من طريق أبي قلابة عن ابن عباس مرفوعاً.

تخوفت عليه الثمرد بن كنعان، لما كان قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يديه، فأمر بقتل الغلمان عامنذ. فلما حملت أم إبراهيم به وحان وضعتها، ذهبت به إلى سرب ظاهر البلد، فولدت فيه إبراهيم وتركته هناك. وذكر أشياء من خوارق العادات، كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف. والحق أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل. وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة. فبين أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية، لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يمناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جزم من الأجرام خلقها الله مبيرة، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسيّر فيما بينه وبين المغرب حتى تغيّب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما تقدم في النجم. ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَنْفَوِرُ إِلَيَّ بِرَبِّيَ إِنَّمَا فُتِّرُكُمْ عَلَىٰ أَيْ: أَنَا بِرَبِّيَ مِنْ عِبَادَتِهِمْ وَمَوَالَتِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ آلِهَةٌ فَكَيْدُونِي بِهَا جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾ ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٧٤﴾، أي: إنما أعبد خالق الأشياء ومخترعها ومُسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى الْعِلْمَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ الْكُمُومُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْإِنشَاءُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٥١﴾ [الأعراف: ٥٤]. وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الشَّيْئِلِ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٢]. . . الآيات، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٢٥﴾ شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١٢٦﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَئِنَّ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٢٨﴾ [النحل: ١٢٥-١٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ رَبَّنَا وَبِمَا نَدَعُ آلِهَةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٢٩﴾ [الأنعام: ١٢٩].

[٢٩٢١] وقد ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة»^(١).

[٢٩٢٢] وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله - ﷺ - قال: «قال الله: إني خلقت عبادي حنفاء»^(٢). وقال الله في كتابه العزيز: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلْفَى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

(١) تقدم في سورة النساء عند آية: ١١٩.

(٢) تقدم أيضاً في سورة النساء عند آية: ١١٩.

وقال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِلْعَالَمِينَ وَأَنْذِرْ لَهُمْ عَذَابَ يُصَبُّونَ﴾ [١٧٢]. ومعناه على أحد القولين، كقوله: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ مَلَكًا لَا تَبْدِيلَ لِصَلَاتِ اللَّهِ﴾ كما سيأتي بيانه. فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] ناظرًا في هذا المقام؟! بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، والسجية المستقيمة بعد رسول الله - ﷺ - بلا شك ولا ريب. ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرًا قوله تعالى:

﴿وَحَاجِبُهُ قَوْمُهُ قَالَ اتَّخَذْتُمُ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٧﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم حين جادله قومه فيما دُعب إليه من التوحيد وناظره وبشبهه من القول، أنه: ﴿قَالَ اتَّخَذْتُمُ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾، أي: تجادلوني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو، وقد بصرني وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه؟ فكيف ألثقت إلي أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟! وقوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾، أي: ومن الدلائل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً، وأنا لا أخافها ولا أباؤها، فإن كان لها صنع فكيديوني بها جميعاً ولا تنظرون، بل عاجلوني بذلك. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ استثناء منقطع، أي: لا يضر ولا ينفع إلا الله، - عز وجل - . ﴿وسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، أي: أحاط علمه بجميع الأشياء، فلا تخفى عليه خافية. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: فيما بينت لكم فتعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجوا عن عبادتها؟ وهذه الحجة نظير ما احتج به نبي الله هود - عليه السلام - على قومه عاد، فيما قص عنهم في كتابه، حيث يقول: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِسَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَدْنَا بِبَعْضِ آلِهَتِنَا بِسُوِّ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكْفُرُونَ بِمَا كُفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴿٥٤﴾ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آتِيَةٌ بِبَيِّنَاتٍ﴾ [هود: ٥٣ - ٥٦] الآية. وقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾، أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدون من دون الله ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾؟ قال ابن عباس وغير واحد من السلف: أي حجة؟! وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَنَاكِوْهُمَا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]. وقوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: فأي الطائفتين أصوب؟ الذي عبد من بيده الضر والنفع، أو الذي عبد ما لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة لا شريك له؟ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٧﴾﴾، أي: هؤلاء الذي أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشرِكوا به شيئاً هم الأمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

[٢٩٢٣] قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا ابن عدي، عن شعبة، عن سليمان، عن إبراهيم،

عن عَلْقَمَةَ، عن عبد الله قال: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَلَوْ يَلَيْسُوا لِمَنْتَهُمْ يَظُنُّوْا﴾، قال أصحابه^(١): وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]^(٢).

[٢٩٢٤] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا أَبُو معاوية، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عن إبراهيم، عن عَلْقَمَةَ، عن عبد الله قال: لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَوْ يَلَيْسُوا لِمَنْتَهُمْ يَظُنُّوْا﴾ شَقَّ ذلك على الناس، وقالوا: يا رسول الله، فأينا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تَعْتُونَ! ألم تسمعوا ما قال العبدُ الصالح: ﴿يَبْتَئِي لَا شَرِيكَ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، إنما هو الشرك^(٣).

[٢٩٢٥] وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا أَبُو سعيد الأشج، حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ وابْن إدريس، عن الْأَعْمَشِ، عن إبراهيم، عن عَلْقَمَةَ، عن عبد الله قال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلَوْ يَلَيْسُوا لِمَنْتَهُمْ يَظُنُّوْا﴾ شَقَّ ذلك على أصحاب رسول الله - ﷺ - قالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله - ﷺ - ليس كما تَظُنُّون، إنما قال لقمان لابنه: ﴿يَبْتَئِي لَا شَرِيكَ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٤).

[٢٩٢٦] وَحَدَّثَنَا عُمَرُ بن شَبَّةَ الثَّمَرِي، حَدَّثَنَا أَبُو أحمد، حَدَّثَنَا سفيان، عن الْأَعْمَشِ، عن إبراهيم، عن عَلْقَمَةَ، عن عبد الله عن النبي - ﷺ - في قوله: ﴿وَلَوْ يَلَيْسُوا لِمَنْتَهُمْ يَظُنُّوْا﴾، قال: بِشِرْكِ^(٥). قال: وَرُوِيَ عن أبي بكر الصديق، وَعُمَرُ، وَأَبِي بن كَعْبٍ، وَسَلْمَانَ، وَحُدَيْفَةَ، وابْن عباس، وابْن عَمْرٍ، وَعَمْرُو بن شُرْحِبِيل، وَأَبِي عبد الرحمن السلمي، ومجاهد، وعكرمة، والنخعي، والضحاك، وقتادة، والسدي نحو ذلك.

[٢٩٢٧] وَقَالَ ابن مَرْزُوقٍ: حَدَّثَنَا الشافعي^(٦)، حَدَّثَنَا محمد بن شَدَّاد المسمعي، حَدَّثَنَا أَبُو عاصم، حَدَّثَنَا سفيان الثوري، عن الْأَعْمَشِ، عن إبراهيم، عن عَلْقَمَةَ، عن عبد الله قال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَوْ يَلَيْسُوا لِمَنْتَهُمْ يَظُنُّوْا﴾، قال رسول الله - ﷺ -: قيل لي: أنت منهم^(٧).

[٢٩٢٨] وَقَالَ الإمام أحمد: حَدَّثَنَا إسحاق بن يوسف، حَدَّثَنَا أَبُو جَنَابٍ، عن زاذان، عن جرير بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله - ﷺ - فلما بَرَزْنَا من المدينة إذا رَاكِبٌ يُوضِعُ نَحُونَا، فقال رسول الله - ﷺ -: «كَانَ هذا الرَّاكِبُ يَأْكُمُ يُرِيدُ» فأنتهى إلينا الرجل، فَسَلَّمَ فَرَدَدْنَا عليه، فقال له النبي - ﷺ -: «من أين أَقْبَلْتَ؟» قال: من أهلي وَوَلَدِي وَعَشِيرَتِي. قال: فأين تُرِيدُ؟ قال: أُرِيدُ رسول الله. قال: «فقد أَصَبْتَهُ» قال: يا رسول الله، عَلَّمَنِي ما الإيمان؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت». قال: قد أَقْرَرْتُ. قال: ثم إن بعيره دَخَلَتْ يَدُهُ في شَبَكَةِ جُرْدَانَ، فَهَوَى بعيره وَهَوَى الرجل، فوَقَعَ على هامته فمات. فقال النبي - ﷺ -: «عَلِيَ بالرجل». فوُتِبَ إليه عَمَّار بن ياسر

(١) أي أصحاب رسول الله - ﷺ - كما في الفتح ٢٩٤/٨ ح ٤٦٢٩.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢ و٤٦٢٩ ومسلم ١٢٤ والترمذي ٣٠٦٧ وأحمد ٣٨٧/١.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٣٧٨/١ بإسناد على شرطهما، وانظر ما بعده.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ١٢٤ ح ١٩٧ و١٩٨ وابن حبان ٢٥٣ وابن مندة ٢٦٨.

(٥) إسناده صحيح، رجاله ثقات مشاهير.

(٦) هو غير الإمام الشافعي، فابن مردويه لم يدركه. والمراد هنا أبو بكر الشافعي شيخ ابن مردويه.

(٧) إسناده ضعيف، لأجل محمد بن شداد المسمعي. جاء في الميزان ٧٦٦٥: قال الدارقطني: لا يكتب حديثه، وقال مرة:

ضعيف، وضعفه البرقاني، وقال: كان معتزلياً.

وَحُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ فَأَقْعَدَاهُ، فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فُيَضَ الرَّجُلُ! قَالَ: فَأَعْرَضَ عَنْهُمَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - ثُمَّ قَالَ لِهَمَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «أَمَا رَأَيْتُمَا إِعْرَاضِي عَنِ الرَّجُلِ، فَإِنِّي رَأَيْتُ مَلَكَيْنِ يَدُسُّانِ فِي فِيهِ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مَاتَ جَائِعاً». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «هَذَا مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِيهِمْ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾... الآية. ثُمَّ قَالَ: دُونَكُمْ أَحَاكِم. قَالَ: فَاحْتَمَلْنَا إِلَى الْمَاءِ فَغَسَلْنَاهُ وَحَتَّطْنَاهُ وَكَفَّنَاهُ، وَحَمَلْنَاهُ إِلَى الْقَبْرِ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - حَتَّى جَلَسَ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ فَقَالَ: «الْحُدُوا وَلَا تَشْفُوا، فَإِنَّ لِلْحُدِّ لَنَا وَالشَّقِّ لغيرنا»^(١).

[٢٩٢٩] ثم رواه أحمد عن أسود بن عامر، عن عبد الحميد بن أبي جعفر الفراء، عن ثابت، عن زاذان، عن جرير بن عبد الله، فذكر نحوه، وقال فيه: «هذا ممن عَمِلَ قَلِيلاً وَأَجَرَ كَثِيراً»^(٢).

[٢٩٣٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن موسى القطان، حدثنا مهرا بن أبي عمر، حدثنا علي بن عبد الأعلى، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فِي مَسِيرِ سَارِهِ، إِذْ عَرَضَ لَهُ أَعْرَابِي فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَقَدْ خَرَجْتُ مِنْ بِلَادِي وَتِلَادِي وَمَالِي لَأَهْتَدِيَ بِهَدَاكَ، وَأَخَذَ مِنْ قَوْلِكَ، وَمَا بَلَغْتُكَ حَتَّى مَالِي طَعَامٌ إِلَّا مِنْ خَضِرِ الْأَرْضِ، فَأَعْرَضَ عَلَيَّ. فَعَرَضَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَقَبِلَ. فَازْدَحَمْنَا حَوْلَهُ، فَدَخَلَ خُفَّ بَكَرِهِ فِي بَيْتِ جِرْدَانٍ، فَتَرَدَّى الْأَعْرَابِيُّ، فَانكسرت عنقه. فقال رسول الله - ﷺ -: «صَدَقَ وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، لَقَدْ خَرَجَ مِنْ بِلَادِهِ وَتِلَادِهِ وَمَالِهِ لِيَهْتَدِيَ بِهَدَايِي وَيَأْخُذَ مِنْ قَوْلِي، وَمَا بَلَغَنِي حَتَّى مَالَهُ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ خَضِرِ الْأَرْضِ، أَسْمِعْتُمْ بِالَّذِي عَمِلَ قَلِيلاً وَأَجَرَ كَثِيراً؟ هَذَا مِنْهُمْ. أَسْمِعْتُمْ بِالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أَوْلَتْكُمْ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ؟ فَإِنَّ هَذَا مِنْهُمْ»^(٣).

[٢٩٣١] وروى ابن مَرْزُوقٍ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ مُعَلَّى - وَكَانَ نَزِيلَ الرَّيِّ - حَدِيثًا زِيَادَ بْنَ خَيْثَمَةَ، عَنْ أَبِي دَاوُدَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَخْبِرَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «مَنْ أُعْطِيَ فَشْكْرًا، وَمُنِعَ فَصْبْرًا، وَظَلَّمَ فَاسْتَغْفَرَ، وَظَلِمَ فَعَفَّرَ، وَسَكَتَ»، قَالَ: فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَهُ؟ قَالَ: «أَوْلَتْكُمْ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾، أي: وَجَّهْنَا حُجَّتَهُ عَلَى قَوْمِهِ. قَالَ مُجَاهِدٌ

(١) أخرجه أحمد ٣٥٩/٤ والطبراني ٢٣٢٩ وقال الهيثمي في «المجمع» ٤١/١ - ٤٢: وفي إسناده أبو جناب، وهو مدلس، وقد عنعنه، والله أعلم.. وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه أحمد ٣٥٩/٤ ح ١٨٦٩٦ ورجاله ثقات، غير عبد الحميد بن أبي جعفر، وقد وثقه ابن حبان، ويتأيد بما بعده.

(٣) إسناده غير قوي فيه عبد الأعلى بن عامر الثعلبي، ضعفه أحمد وأبو زرعة، وقال يحيى: ليس بذلك القوي. لكن يتأيد بما قبله.

(٤) ضعيف جداً، أخرجه الطبراني ٦٦١٣ من حديث سخبيرة. وقال الهيثمي في «المجمع» ١٨٠٤٨: وفيه أبو داود الأعمى، وهو متروك. وأخرجه البيهقي في «الشعب» ٤٤٣١ بهذا الإسناد لكن قال: عن عبد الله بن سمرة عن سمرة، ثم أحله بمحمد بن مغل، وقال: ليس بالقوي. وفي ذلك نظر، فمحمد بن مغل وثقه أبو زرعة وأبو حاتم وابن حبان، والشيء الثاني: خفي حال أبي داود على البيهقي، مع أنه أولى أن يعلم به. والشيء الثالث: جعله عن سمرة، وهو خطأ، أو لعله تحريف من النسخ، فقد رواه البغوي في «مجمعه» وابن أبي حاتم وابن قانع وابن مردويه والطبراني فيما ذكر السيوطي في الدرر ٥٠/٣ كلهم من حديث سخبيرة. والخبر واه بكل حال مداره على أبي داود نُفِيعِ بْنِ الْحَارِثِ، وهو متروك كما قال الهيثمي.

وغيره: يعني بذلك قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ الآية. وقد صدقه الله، وحكم له بالأمن والهداية فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٥﴾»، ثم قال بعد ذلك كله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ﴿٨٦﴾. قرىء بالإضافة وبلا إضافة^(١)، كما في سورة يوسف، وكلاهما قريب في المعنى. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٧﴾»، أي: حكيم في أفعاله وأقواله ﴿عَلِيمٌ﴾، أي بمن يهديه ومن يضلّه، وإن قامت عليه الحجج والبراهين، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن دُورَيْتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَذَكَرْنَا وَيْحَ عِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن آيَاتِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ اللَّهُ بِهَدْيِهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالنَّبِيَّةَ فَاِنَّ يَكْفُرُ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمُ افْتَدَتْهُ قُلُوبٌ لَّا آسَأَلْكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامراته «سارة» من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك، وقالت: ﴿يَوَيْلَ لِي وَآلِدٍ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَقِيءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَرُكْنُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّكُمْ حَيْدٌ حَيْدٌ ﴿٧٦﴾﴾ [مرد: ٧٢ - ٧٣]. وبشروهما مع وجوده بنوته، وبأن له نسلاً وعقباً، كما قال تعالى: ﴿وَنَشَرْنَاهُ إِسْحَاقَ وَيُوسُفَ مِن الصَّالِحِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ١١٢]. وهذا أكمل في البشارة، وأعظم في النعمة. وقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مرد: ٧١]، أي: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما، فتقر أعينكما به كما قرأت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب. ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه وقعت البشارة به وبولده باسم «يعقوب»، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم - عليه السلام - حين اعتزل قومه وتركهم، وترج عنهم وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله - عز وجل - عن قومه وعشيرته بأولادٍ صالحين من صلبه على دينه، تفر بهم عينه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَغْرَقْنَا مِمَّا يَبْدُونَ مِنَ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم: ٤٩]، وقال هاهنا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾. وقوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبله، هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذريةً سالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح - عليه السلام - فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به، وهم الذين صجبه في السفينة، جعل الله ذريته

(١) مراده لفظ «درجات» قرىء بدون تنوين، فقط بكسرة، وعلى هذا يكون مضافاً وما بعده مضافاً إليه، والله أعلم. وانظر سورة يوسف، الآية: ٧٦.

هم الباقين، فالناس كلهم من ذرية نوح، وكذلك الخليل إبراهيم - عليه السلام - لم يبعث الله - عز وجل - بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [المنكوت: ٢٧]... الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [مریم: ٥٨].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾، أي: وهدينا من ذريته ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾... الآية... وعود الضمير إلى «نوح» لأنه أقرب المذكورين، ظاهر. وهو اختيار ابن جرير، ولا إشكال عليه. وعوده إلى «إبراهيم» لأنه الذي سبق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل على ذلك «لوط»، فإنه ليس من ذرية إبراهيم، بل هو ابن أخيه ماران بن آزر، اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليبا، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُكُمْ وَإِسْرَائِيلَ وَإِسْحَاقَ لِلَّهِ وَإِلَهِهَا وَجِدَا وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، فإسماعيل عمه، ودخل في آباؤه تغليبا. وكما في قوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود، ودم على المخالفة، لأنه كان قد تشبه بهم، فقومل معاملتهم ودخل فيهم تغليبا، وإلا فهو كان من الجن وطبيعته من النار والملائكة من نور. وفي ذكر عيسى - عليه السلام - في ذريته إبراهيم أو نوح، على القول الآخر، دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجال، لأن عيسى - عليه السلام - إنما ينسب إلى إبراهيم - عليه السلام - بأمه مريم - عليها السلام - فإنه لا أب له. قال ابن أبي حاتم: حدثنا سهل بن يحيى العسكري، حدثنا عبد الرحمن بن صالح، حدثنا علي بن عابس، عن عبد الله بن عطاء المكي، عن أبي حزب بن أبي الأسود قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال: بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي - ﷺ - تجده في كتاب الله، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده؟ قال: أليس تقرأ سورة الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾، حتى بلغ: ﴿وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾؟ قال: بلى. قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم، وليس له أب؟ قال: صدقت. فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته، أو وقف على ذريته أو وهبهم، دخل أولاد البنات فيهم، فاما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم، فإنه يختص بذلك بثو لصلبه وبثو بنيه، واحتجوا بقول الشاعر العربي:

بَثُونَا بَثُوا أَبْنَانَنَا وَبَنَاتَنَا
بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الأَجَانِبِ^(١)

وقال آخرون: ويدخل بثو البنات فيهم أيضاً.

[٢٩٣٢] لما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله - ﷺ - قال للحسن بن علي: «إن ابني هذا سيّد، ولعلّ الله أن يصلح به ففتين عظيمتين من المسلمين»^(٢)؛ فسماه ابناً، فدلّ على دخوله في الأبناء. وقال الآخرون: هذا تجويز. وقوله: ﴿وَمِن ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ ذكر أصولهم وفروعهم. وذوي طبقتهم، وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم، ولهذا قال ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِرِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ﴾ أي: إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إليهم، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا

(١) ويرى «الأبعاد». والبيت من شواهد النحاة، مجهول القائل.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٢٧٠٤ و٣٦٢٩ وأبو داود ٤٦٦٢ والنسائي ١٠٧/٣ والترمذي ٣٧٧٣ وأحمد ٤٩/٥ من حديث

كَافِرًا يَمَكُونُ ﴿١٧﴾، تشديدٌ لأمر الشرك، وتغليظٌ لشأنه، وتعظيمٌ لملاسته، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]... الآية. وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع، كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَوْدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].. وكقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْحَدِثَ لَوْ لَا نَخْتَدِثُهُ مِنْ دُونِكَ إِنْ كُنَّا فَعِيلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧]، وكقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْخُدَّ وَلَكِنَّا لَاضْطَلَقْنَا مِمَّا يَخْتُلِقُ مَا يَسْكَنُهُ سُبْحَتَهُمْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْفِكْرَ وَالنَّبُوءَ﴾، أي: أنعمنا عليهم بذلك رحمةً للعباد بهم، ولطفاً منا بالخليفة، ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾، أي: بالنبوة، ويحتجّل أن يكون الضمير عائداً على هذه الأشياء الثلاثة: الكتاب، والحكم، والنبوة. وقوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يعني: أهل مكة، قاله ابن عباس، وسعيد بن المسيّب، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغير واحد، ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوًّا بِهَا يَكْفُرِينَ﴾ أي إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين وكتائبين، فقد وُكِّلنا بها قوماً آخرين، يعني: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة، ﴿لَيَسُوًّا بِهَا يَكْفُرِينَ﴾، أي: لا يجحدون شيئاً منها، ولا يزدون منها حرفاً واحداً، بل يؤمنون بجميعها: مُحْكَمِهَا وَمُتَشَابِهِهَا، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بَمْنَةً وَكَرَمَةً وَإِحْسَانِيَةً. ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً - ﷺ - ﴿أُولَئِكَ﴾، يعني: الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان، وهم الأشباه، ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾، أي: هم أهل الهداية لا غيرهم، ﴿فِيهِدْهُمْ أُمَّتُهُ﴾، أي: اقتدِ واتبع. وإذا كان هذا أمراً للرسول - ﷺ - فأمرته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به.

[٢٩٣٣] قال البخاري عند هذه الآية: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى، أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ ابْنِ جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ قَالَ: أَخْبَرَنِي سَلِيمَانُ الْأَحْوَلُ، أَن مَجَاهِدًا أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ: أَفِي (ص) سَجْدَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾، إلى قوله: ﴿فِيهِدْهُمْ أُمَّتُهُ﴾، ثم قال: هو منهم - زاد يزيد بن هارون، ومحمد بن عبيد، وسهل بن يوسف، عن العوام، عن مجاهد قال: قلت لابن عباس، فقال: نبيكم - ﷺ - ممن أير أن يقتدي بهم^(١). وقوله: ﴿ثُلُودًا أَشْتَلَكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، أي: لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن ﴿أَجْرًا﴾، أي: أجره، ولا أريد منكم شيئاً، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْمَلَكِيِّتِ﴾، أي: يتذكرون به فيرشدون من العمى إلى الهدى، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الكفر إلى الإيمان.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَ قَرِيطِسُ تَبُوتَهَا وَتُحْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَلَّمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٩١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩٢)

يقول الله تعالى: وما عظموا الله حق تعظيمه، إذ كذبوا رسله إليهم. قال ابن عباس ومجاهد، وعبد الله بن كثير: نزلت في قريش. واختاره ابن جرير. وقيل: نزلت في طائفة من اليهود. وقيل: في فئحة من رجل منهم. وقيل: في مالك بن الصنيف. ﴿قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، والأول هو الأظهر، لأن الآية

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٣٢. وقوله «هو منهم»، قال الحافظ في «الفتح» ٢٩٥/٨ أي داود عن أمر نبيكم أن يقتدي به - اه ومراد ابن عباس إثبات سنية السجود في سورة «ص» إذ سجد داود عليه السلام.

مكيّة، واليهود لا يُنكروُنْ إنزالَ الكُتُب من السماء، وقُرَيْشٌ - والعربُ قاطبةٌ - كانوا يُبْعِدون إرسالَ رسولٍ من البشر، كما قال: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحِيََ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَشَرًا مِثْلُكُمْ بَشَرًا مِثْلُكُمْ﴾ [١١]، ﴿قَدْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَسْمَعُونَ مِثْلَ سَمْعِ نَارِكُمْ لَوَجَدُوا مِنْكُمْ شِرْكًَا وَلَكِنْ عَمِلُوا ظُلْمًا﴾ [١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ؟﴾ [١٣]، ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ لِإِنزَالِ شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فِي جَوَابِ سَلْبِهِمُ الْعَامَ بِإثباتِ قضيّةٍ جزئيةٍ مُوجبةٍ: ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾، يعني التوراة التي قد عَلِمْتُمْ، وكلُّ أحدٍ، أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران ﴿نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾، أي: لِيُسْتَضَاءَ بِهَا فِي كَشْفِ الْمَشْكَلاتِ، وَيُهْتَدَى بِهَا مِنْ ظُلْمِ الشُّبُهَاتِ. وقوله: ﴿يَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ يُتَدَوَّنَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾^(١)، أي: يَجْعَلُونَهَا حَمَلَتَهَا قَرَأِيسَ، أي: قِطْعًا قِطْعًا يَكْتُبُونَهَا مِنَ الْكِتَابِ الْأَصْلِيِّ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ وَيُخْرَفُونَ فِيهَا مَا يُخْرَفُونَ وَيُبْدُلُونَ وَيَتَأَوَّلُونَ، وَيَقُولُونَ يَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ يُتَدَوَّنَهَا وَيُخْفُونَ تَرْتِيبًا هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أي: فِي كِتَابِهِ الْمُنزَلِ، وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. ولهذا قال: ﴿يَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ يُتَدَوَّنَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾. وقوله: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾، أي: وَمَنْ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ الَّذِي عَلَّمَكُمْ اللَّهُ فِيهِ مِنْ خَيْرٍ مَا سَبَقَ، وَنَبَأَ مَا يَأْتِي مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ لَا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ. وقد قال قتادة: هؤلاء مشركو العرب. وقال مجاهد: هذه للمسلمين. وقوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، أي: قُل: الله أنزله. وهذا الذي قاله ابن عباس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة، لا ما قاله بعض المتأخرين، من أن معنى ﴿قُلْ اللَّهُ﴾، أي: لا يكون خطابك لهم إلا هذه الكلمة: «الله». وهذا الذي قاله هذا القائل يكون أمرًا بكلمة مفردة من غير تركيب، والإتيان بكلمة مفردة لا يُفيد في لغة العرب فائدة يحسنُ السكوتُ عليها. وقوله: ﴿ثُمَّ دَرَجَتْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، أي: ثُمَّ دَعَاهُمْ فِي جَهَنَّمَ وَضَلَّاهُمْ يَلْعَبُونَ، حتى يأتيهم من الله اليقين، فسوف يعلمون: ألهم العاقبة، أم لعباد الله المتقين؟ وقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾، يعني القرآن ﴿أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُورًا مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾، يعني: مَكَّةَ ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أحياء العرب، ومن سائر طوائف بني آدم من عربٍ وَعَجَمٍ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولٌ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿لَا تُؤذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْنَاوَهُمْ مَوْعِدَهُمْ﴾ [سود: ١٧]. وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. وقال: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ قُلْ إِنَّمَا أَسْلَمْتُ قَدِيمًا قُلْ إِنَّمَا أَسْلَمْتُكُمْ وَاللَّهُ بَعِيرٌ وَإِلَهِكُمْ﴾ [آل عمران: ٢٠].

[٢٩٣٤] وثبت في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال: «أعطيت خمساً لم يُعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي» وذكر منهن: «وكان النبي يُبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة»^(٢)، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: كلُّ من آمن بالله واليوم الآخر يؤمنُ بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، أي: يقومون بما افترض عليهم، من أداءِ الصلوات في أوقاتها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾

(١) هذه قراءة ابن كثير وأبي عمرو، وقرأ الباقون من السبعة بالتاء.

(٢) تقدم في سورة آل عمران عند آية: ١٥١.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ النَّوَاتِ وَالْمَلَائِكَةُ بِأَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ أَيُّومٍ يُخْرَجُونَ
عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى
كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكَّبْتُمْ مَا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ
شُرَكَاءُ لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، فجعل له شريكاً
أو ولدأ، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يكن أرسله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَو قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ
شَيْءٌ﴾. قال عكرمة وقتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب. ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُولٌ مِثْلُ مَا أُنزِلَ اللَّهُ﴾، يعني: ومن ادعى أنه
يعارض ما جاء من عند الله من الوحي بما يفتره من القول، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ
سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١]... الآية، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ
النَّوَاتِ﴾، أي: في سكراته وغمراته وكربياته، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بِأَيْدِيهِمْ﴾، أي: بالضرب، كما قال: ﴿لَيْسَ
بَسَطَ إِلَيْكَ يَدُكَ لِتَقْتُلِي﴾ [المائدة: ٢٨]... الآية، وقال: ﴿وَيَسْطُرُوا إِلَيْكُمْ أَيُّدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالنَّوَاتِ﴾ [المتحنة: ٢]...
الآية. وقال الضحاك، وأبو صالح: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾، أي: بالعذاب. وكما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ
كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]، ولهذا قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بِأَيْدِيهِمْ﴾، أي:
بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم، ولهذا يقولون لهم: ﴿أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ﴾، وذلك أن الكافر إذا
احتضِرَ بشرته الملائكة بالعذاب والنكال، والأغلال والسلايل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم،
فتتفرق روحه في جسده، وتغصبي وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم،
قائلين لهم: ﴿أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ أَيُّومٍ يُخْرَجُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾... الآية، أي:
اليوم تهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون عن اتباع آياته، والانقياد لرسوله.

وقد وزدت الأحاديث المتواترة في كيفية احتضار المؤمن والكافر عند الموت، وهي مقررّة عند قوله
تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وقد ذكر ابن
مزدويه هاهنا حديثاً مطولاً جداً من طريق غريبة، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعاً^(١)، فإله أعلم.
وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: يقال لهم يوم معادهم هذا، كما قال: ﴿وَعَرِضًا عَلَى
رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨]، أي: كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك
وتستبعدونه، فهذا يوم البعث. وقوله: ﴿وَرَكَّبْتُمْ مَا حَوَّلْنَاكُمْ﴾، أي: من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار
الدنيا ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

[٢٩٣٥] وثبت في الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك
إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فألبيت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذهب وتاركه للناس»^(٢).

(١) ساقه السيوطي في «الدر» ٥٦/٣ - ٥٨ بطوله، وقال: إسناده ضعيف. وفيه الضحاك لم يلق ابن عباس، فهو منقطع، هذا
إن لم يكن الراوي عنه جوير، أو غيره من الضعفاء التروكين.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٥٨، والترمذي ٢٣٤٢، والنسائي ٢٣٨/٦، وأحمد ٢٤/٤، والطبراني ١١٤٨، وابن حبان ٧٠١ وابن
البارك في «الزهد» ٤٩٧، والحاكم ٥٣٤/٢ من حديث عبد الله بن الشخير.

وقال الحسن البصري: يُوتى بابتن آدم يوم القيامة كأنه بذج^(١)، فيقول الله - عز وجل -: أين ما جمعت؟ فيقول: يا رب، جمعته وتركته أوفر ما كان. فيقول له: فأين ما قدمت لنفسك؟ فلا يراه قدّم شيئاً، وتلا هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكُم مَّا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَكَّهُ ظُهُوبِكُمْ﴾^(٢)؛ رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَمَا تَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾، تقرع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أن تلك تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثم معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت الأسباب، وانزاح الضلال، وضل عنهم ما كانوا يفترون، ويناديهم الرب - عز وجل - على رؤوس الخلائق: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كَفَرْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢]، ويقال لهم ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾^(٣) من دون الله هل يضرونكم أو ينصرون^(٤)؟ [الشعراء: ٩٢ - ٩٣]؟ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا تَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: في العبادة، لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم.

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾، قرء بالرفع، أي: شملكم. وقرء بالنصب، أي: لقد تقطع ما بينكم من الوضلات والأسباب والوسائل، ﴿وَمَسَلْ عَنْكُمْ﴾، أي: ودعب عنكم ﴿مَّا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من رجاء الأصنام كما قال: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنَ الذَّيْتِ أَتْبَعًا وَرَأَوْا الْكُذَّابَ وَنَقَطَتْ بِهُمْ الْأَسْبَابُ﴾^(٥) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسَأَلْنَا لَهُمْ مِن الشَّارِ بِمَا عَمِلُوا فَيَنْبَغِي أَنَّكَ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٦٧﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾^(٦) [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَتَلَاعَنُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَمَا أُنزِلُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾^(٧) [المنكفرون: ٢٥]، وقال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَذَعَبُوهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤]... الآية، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا... إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَسَلْ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتُلُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢ - ٢٤]، والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ اللَّيْلِ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ اللَّيْلَ مِنَ النَّوَىٰ وَمُخْرِجُ اللَّيْلِ مِنَ النَّوَىٰ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾^(٨) فالق الإصباح وجعل الليل سكتاً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴿٩٦﴾ وهو الذي جعل لكم النجوم ليتهودوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات ليعلموا يعلمون﴾^(٩)

يخبر تعالى أنه ﴿فالق الليل والنوى﴾، أي: يشقه في الشرى فتنبت الزرور على اختلاف أصنافها من الحبوب، والثمار على اختلاف أشكالها وألوانها وطعمها من النوى. ولهذا فسر قوله: ﴿فالق الليل والنوى﴾ بقوله: ﴿يُخْرِجُ اللَّيْلَ مِنَ النَّوَىٰ﴾، أي: يخرج النبات الحي من الحب والنوى الذي هو كالجماد الميت، كما قال: ﴿وَإِيَّاهُ لَمْ يَلْمِ الْأَرْضَ اللَّيْتَةَ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَيَنْتَهُ بِأَكْلُونِ﴾^(١٠) إلى قوله: ﴿وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٦]. وقوله: ﴿وَيُخْرِجُ اللَّيْلَ مِنَ النَّوَىٰ﴾ معطوف على ﴿فالق الليل والنوى﴾، ثم فسره ثم عطف عليه قوله: ﴿وَيُخْرِجُ اللَّيْلَ مِنَ النَّوَىٰ﴾. وقد عبروا عن هذا بعبارة كلها متقاربة مؤدبة للمعنى، فمن قائل: يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، ومن قائل: يخرج الولد الصالح من الكافر، والكافر من الصالح، وغير ذلك من العبارات التي تتنظمها الآية وتشملها.

(١) البذج: الحمل، وقيل: هو أضعف ما يكون من الحملان؛ شبه به في الذل والهوان.

(٢) تقدم في سورة البقرة عند آية: ٢١٢.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾، أي: فاعل هذه الأشياء هو الله وحده لا شريك له ﴿فَأَن تَوَفَّقُونَ﴾، أي: فكيف تُضَرَّفُونَ عن الحقِّ وتُغْدِلُونَ عنه إلى الباطل فتُعبدون مع الله غيره. وقوله: ﴿فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلَ اللَّيْلِ سَكَنًا﴾^(١)، أي: خالق الضياء والظلام، كما قال في أول السورة: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾، فهو سبحانه يُفَلِّقُ ظِلَامَ اللَّيْلِ عن غُرَّةِ الصَّبَاحِ، فيُضِيءُ الرَّجُودَ، وَيَسْتَبِيرُ الْأَفْقَ، وَيَضْمِلُ الظُّلَامَ، وَيَذْهَبُ اللَّيْلُ بِسِوَاهِ وَظِلَامِ رِوَاقِهِ، وَيَجِيءُ النَّهَارُ بِضِيَاغِهِ وَإِسْرَاقِهِ، كما قال: ﴿يَبْقَى إِلَيْكَ النَّهَارُ يَبْلُغُ حَيْثَا﴾ [الأعراف: ٥٤]، فيبين تعالى قدرته على خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَضَادَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ عَظَمَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ. فذكر أنه فالقُ الْإِصْبَاحِ. وقابل ذلك بقوله: ﴿وجاعل الليل سكوناً﴾، أي: ساجياً مُظْلِماً تسكن فيه الأشياء، كما قال: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى: ١-٢]. وقال: ﴿وَأَلَيْلٍ إِذَا يَتَنَّاهَا ۝٣﴾ [الشمس: ٣-٤]. وقال صُهَيْبُ الرَّومِيُّ رضي الله عنه لامرأته وقد عاتبته في كثرة سهره: إن الله جعل الليل سكوناً إلا لصهيب، إن صهيباً إذا ذكر الجنة طال شوقه، وإذا ذكر النار طار نومه. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾، أي: يجريان بحساب مقنن مُقَدَّرٌ، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فترتّب على ذلك اختلاف الليل والنهار طويلاً وقصراً، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ [يونس: ٥]... الآية، وكما قال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبُئُ لَمَّا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْبَلَدُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، أي: الجميع جارٍ بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالف، العليم بكل شيء، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، يختم الكلام بالعزة والجلل، كما ذكر في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿وَمَا يَسْأَلُهُمْ آلَاتُهُمْ إِذْ سَأَلُوهُمُ الْبَلَدَ مَا سَأَلُوا وَلَا لِيُعَذِّبَهُمُ الْعَذَابَ لَئِنْ كَانُوا يَلْقَوْنَ رَبَّهُمْ لَأَخْرُجَنَّ مِنْهُمْ قُرُونًا وَيَتَّبِعُنَّهمُ الْقُرُونُ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ظَنَنٌّ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا كَلِمَةٌ وَسَخِيبَةٌ لَّئِيْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٦٦]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه: أن الله جعلها زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر. وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾، أي: قد بيناها ووضحناها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: يعقلون ويعرفون الحق ويتجنبون الباطل.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾^(١) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُشْتَبِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَتَّعِبْهُ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني: آدم - عليه السلام -، كما قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَطَقَّ مِنْهَا رَوْحَهَا وَوَكَّلَ مِنْهَا كَثِيرًا مِّنْ رِّسَالَةٍ﴾ [النساء: ١]. وقوله: ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾،

(١) قرأ الكوفيون من السبعة «وجعل الليل»، وقرأ الباقون: «وجاعل الليل».

اختلفوا في معنى ذلك، فعن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي عبد الرحمن السلمي، وقيس بن أبي حازم، ومجاهد، وعطاء، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وقناة، والسدي، وعطاء الخراساني: ﴿فَسْتَقْرُّ﴾، أي: في الأرحام. قالوا - أو أكثرهم -: ﴿وَسْتَوْدَعُ﴾. أي: في الأصلاب. وعن ابن مسعود وطائفة عكس ذلك. وعن ابن مسعود أيضاً وطائفة: فمستقر في الدنيا، ومستودع حيث يموت. وقال سعيد بن جبير: ﴿فَسْتَقْرُّ﴾ في الأرحام وعلى ظهر الأرض، وحيث يموت. وقال الحسن البصري: المستقر الذي قد مات فاستقر به عمله. وعن ابن مسعود: ومستودع في الدار الآخرة. والقول الأول هو الأظهر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفْقَهُونَ﴾، أي: يفهمون ويعون كلام الله ومعناه. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، أي: بقدر مباركاً، رزقاً للعباد وغيثاً للخلائق، ورحمةً من الله لخلقه ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ شَجَرًا يَأْكُلُهُ الْبَاطِلُ كُلُّ شَيْءٍ﴾، كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾. ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ حَبًّا خَضِرًا﴾، أي: زرعاً وشجراً أخضر، ثم بعد ذلك يخلق فيه الحب والشمر، ولهذا قال تعالى: ﴿تُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾، أي: يركب بعضه بعضاً، كالسنابل ونحوها. ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْحِهَا قِثْوَانٌ﴾، أي: جمع قثو، وهي عذوق الرطب ﴿دَائِيَةٌ﴾، أي: قريبة من المتناول، كما قال علي بن أبي طلحة الوالبي، عن ابن عباس، ﴿قِثْوَانٌ دَائِيَةٌ﴾، يعني بالقنوان الدائية قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض. رواه ابن جرير. قال ابن جرير: وأهل الحجاز يقولون: قِثْوَانٌ وقيس يقولون: قِثْوَانٌ، وقال امرؤ القيس:

فَأَثَّ أَعَالِيهِ، وَأَدَّتْ أَصُولُهُ وَمَالَ يَفْقَهُونَ مِنَ الْبُسْرِ أَحْمَرَ^(١)

قال: وتميم يقولون: قِثْوَانٌ بالياء، قال: وهي جمع قنو، كما أن صنواناً جمع صنو. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْنَابٍ﴾، أي: ونخرج منه جنات من أغناب، وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز، وربما كانا خيار الثمار في الدنيا، كما امتن الله تعالى بهما على عباده في قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتَجِدْنَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، وكان ذلك قبل تحريم الخمر. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [يس: ٣٤]... الآية. وقوله: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرَّيْحَانُ مَشْبَاهًا وَغَيْرَ مُشْبِهُهُ﴾، قال قناة وغيره: متشابه في الورق، قريب الشكل بعضه من بعض، ومتخالف في الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً. وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَتَوَبَّ﴾، أي: نضجه، قاله البراء بن عازب، وابن عباس، والضحاك، وعطاء الخراساني، والسدي، وقناة، وغيرهم. أي: فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود، بعد أن كان حطباً صار عنباً ورطباً وغير ذلك مما خلق تعالى من الألوان والأشكال والطعوم والروائح، كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَشْجُورَةٌ وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْنَابٍ وَرِزْقٍ وَنَخِيلٍ صِنَوَانٌ وَغَيْرِ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفْعِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ﴾ [الرعد: ٤]... الآية، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَمْ﴾، أي: أيها الناس ﴿لآيَاتٍ﴾، أي: لدلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: يصدقون به، ويتبعون رسله.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾^(١٠٠)

هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا به في عبادته أن عبدوا الجن، فجعلوهم شركاء الله في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم. فإن قيل: فكيف عبدت الجن وإنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم إنما عبدوا الأصنام عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنْ

(١) وهكذا لفظ الطبري ذكره عقب حديث ١٣٦٦٥. ومعنى «أث» يث، أي كثر والتف.

يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَجْدًا تَرِيدًا ﴿١٠١﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوسًا ﴿١٠٢﴾ وَالْأَسْبَاطَ وَالْأُمِّيَّاتَ وَالْأَمْرِيَّتَ فَلْيَكُنَّ مَاذَاكَ الْأَنْهَادَ وَالْأَمْرِيَّتَ فَلْيَكُنَّ مَاذَاكَ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١٠٣﴾ يَوْمَهُمْ وَمُنِجِيَّتَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوبًا ﴿١٠٤﴾ [النساء: ١١٧-١٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُهُمْ ذُرِّيَّتَهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠]... الآية، وقال إبراهيم لابيه: ﴿يَتَّابِعُونَكَ إِلَّا تَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿١٠٥﴾﴾ [مریم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْنِي وَمَادَّ أَنْ لَا تَقْبَلُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٦﴾ وَأَنْ أَعْتَدِي هَذَا صِرْطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [يس: ٦٠-٦١]، وتقول الملائكة يوم القيامة: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا بِمَعْبُودَاتِ الْوَالِدِينَ أَكْثَرَهُمْ بِيَوْمِ تُقَامُونَ﴾ [سبا: ٤١]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْإِنْسِ وَالطَّاغُوتِ﴾، أي: وقد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يُعبد معه غيره، كما قال إبراهيم - عليه السلام - ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتَضِرُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الصفوات: ٩٥-٩٦]. ومعنى الآية: أنه - سبحانه وتعالى - هو المُستقل بالخلق وحده، فلهذا يجب أن يُفرد بالعبادة وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ بَيْنَ بَيْتَيْنِ وَبَنَاتٍ يَتَذَكَّرْنَ فِيهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، يُتَّبِعُ بِهِ تَعَالَى عَلَى ضَلَالٍ مِنْ ضَلِّ فِي وَصْفِهِ تَعَالَى بِأَنْ لَهُ وَلَدًا، كَمَا يَزْعُمُ مِنْ قَالِهِ مِنَ الْيَهُودِ فِي عُزَيْرٍ، وَمِنْ قَالِهِ مِنَ النَّصَارَى فِي عَيْسَى، وَكَمَا قَالَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْعَرَبِ فِي الْمَلَائِكَةِ: إِنَّهَا بَنَاتُ اللَّهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ﴾، أَي: اخْتَلَفُوا وَاتَّفَقُوا وَتَخَرَّصُوا وَكَذَّبُوا، كَمَا قَالَ عُلَمَاءُ السَّلَفِ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ﴾، يَعْنِي أَنَّهُمْ تَخَرَّصُوا. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْهُ: ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ بَيْنَ بَيْتَيْنِ وَبَنَاتٍ يَتَذَكَّرْنَ فِيهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، قَالَ: جَعَلُوا لَهُ بَيْنَ وَبَنَاتٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ بَيْنَ بَيْتَيْنِ وَبَنَاتٍ﴾، قَالَ: كَذَّبُوا. وَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ: وَقَالَ الضَّحَّاكُ: وَضَعُوا، وَقَالَ السُّدِّيُّ: قَطَعُوا. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ إِذَا: وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْجِنَّ شُرَكَاءَ فِي عِبَادَتِهِمْ إِيَّاهُ، وَهُوَ الْمَنْفَرِدُ بِخَلْقِهِمْ بِغَيْرِ شَرِيكَ وَلَا مُعِينٍ وَلَا ظَلِيمٍ، ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ بَيْنَ بَيْتَيْنِ وَبَنَاتٍ يَتَذَكَّرْنَ فِيهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بِحَقِيقَةِ مَا يَقُولُونَ، وَلَكِنْ جَهْلًا بِاللَّهِ وَبِعَظَمِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِمَنْ كَانَ إِلَهًا أَنْ يَكُونَ لَهُ بَنُونَ وَبَنَاتٌ وَلَا صَاحِبَةٌ، وَلَا أَنْ يُشْرَكَ فِي خَلْقِهِ شَرِيكَ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أَي: تَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَاظَمَ عَمَّا يَصِفُهُ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ الضَّالُّونَ مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْأُنْدَادِ، وَالنُّظَرَاءِ وَالشُّرَكَاءِ.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أَي: مُبْدِعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَالِقُهُمَا وَمُنْشِئُهُمَا وَمُحَدِّثُهُمَا عَلَى غَيْرِ مَثَالٍ سَبَقَ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَالسُّدِّيُّ. وَمِنْهُ سُمِّيَتْ الْبَدْعَةُ بَدْعَةً، لِأَنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهَا فِي مَا سَلَفَ. ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ﴾، أَي: كَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ؟ أَي: وَالْوَلَدُ إِنَّمَا يَكُونُ مُتَوَلِّدًا عَنْ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَنَاسِبُهُ وَلَا يُشَابِهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ، لِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا صَاحِبَةَ لَهُ وَلَا وَلَدٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿١٠٩﴾ لَعَنَ جِثْمَهُمْ سِنِينَ إِنْ مَا ﴿١١٠﴾﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَكُمْ مَائِيَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرَدًّا ﴿١١١﴾﴾ [مریم: ٨٨-٩٥]. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ صَاحِبَةٌ مِنْ خَلْقِهِ تُنَاسِبُهُ؟! وَهُوَ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ فَأَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ! تَعَالَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾
لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾، أي: الذي خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ﴾ أي: فاعبدوه وخذ له لا شريك له، وأقروا له بالوحدانية، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له ولا والد ولا صاحبة له ولا نظير ولا عديل ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظ ورقيب، يدبر كل ما سواه، ويرزقهم ويكلوهم بالليل والنهار. وقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، فيه أقوال للأئمة من السلف: أحدها: لا تدركه في الدنيا، وإن كانت ترآه في الآخرة.

[٢٩٣٦] كما تواترت به الأخبار عن رسول الله - ﷺ - من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد والسُنن، كما قال مسروق، عن عائشة أنها قالت: من زعم أن محمداً أبصر ربه فقد كذب، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^(١). رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي بكر ابن عياش، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي الضحى، عن مسروق. ورواه غير واحد عن مسروق، وثبت في الصحيح وغيره عن عائشة من غير وجه. وقد خلفها ابن عباس، فعنه إطلاق الرؤية، وعنه أنه رآه بفؤاده مرتين. والمسألة تُذكر في أول «سورة النجم» إن شاء الله تعالى. وقال ابن أبي حاتم: ذكر محمد بن مسلم، حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثنا يحيى بن معين قال: سمعت إسماعيل بن علقمة يقول في قول الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، قال: هذا في الدنيا. قال: وذكر أبي، عن هشام بن عبيد الله أنه قال نحو ذلك. وقال آخرون: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، أي: جميعها، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة. وقال آخرون من المعتزلة بمقتضى ما فهموه من هذه الآية: أنه لا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة. فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك، مع ما ارتكبه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله. أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿رَبُّهُ يَوْمَئِذٍ نَاصِرٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ رَبَّهَا نَاطِقَةٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] وقال تعالى عن الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المطففين: ١٥]. قال الإمام الشافعي: قد دل هذا على أن المؤمنين لا يُحجبون عنه تبارك وتعالى. وأما السنة فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وجبرير، وصهيب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبي - ﷺ - أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات، وفي روضات الجنات، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه، آمين.

وقيل: المراد بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، أي: العقول. رواه ابن أبي حاتم، عن علي بن الحسين، عن القلاص، عن ابن مهدي، عن أبي الحصين يحيى بن الحصين قارئ أهل مكة أنه قال ذلك. وهذا غريب جداً، وخلاف ظاهر الآية، وكأنه اعتقد أن الإدراك في معنى الرؤية، والله أعلم. وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك، فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم. ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي، ما هو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته، فالعظيم أولى بذلك، وله المثل الأعلى. وقال آخرون: المراد بالإدراك الإحاطة. قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية، كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ظَنًّا﴾ [طه: ١١٠].

(١) يأتي في سورة النجم، إن شاء الله.

[٢٩٣٧] وفي صحيح مسلم: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(١)، ولا يلزم من هذا عَدَمُ الثناء، فكَذَلِكَ هذا. قال العَوْفِيُّ، عن ابن عباسٍ في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ قال: لا يحيطُ بِبَصَرِ أَحَدٍ بِالْمَلِكِ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عمرو بن حَمَادِ ابن طلحةَ القنَّاذِ، حدثنا أسباط، عن سماك، عن عكرمة، أنه قيل له: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾؟ قال: ألسنت تَرَى السماء؟ قال: بلى. قال: فَكُلُّهَا تَرَى؟ وقال سَعِيدُ بن أَبِي عَرُوبَةَ، عن قتادة في الآية: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾: هو أعظمُ من أن تدركه الأبصار.

وقال ابن جرير: حدثنا سعدُ بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا خالدُ بن عبد الرحمن، حدثنا أبو عَرَفَةَ، عن عطية العَوْفِيِّ في قوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يُؤَيِّدُ تَأْيِذَهُ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿١٠٣﴾﴾، قال: هم ينظرون إلى الله، لا تحيط أبصارهم به من عظَّمته، وبصره محيطٌ بهم. فذلك قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾. وقد ورد في تفسير هذه الآية حديثٌ رواه ابن أبي حاتم هاهنا فقال:

[٢٩٣٨] حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا مُنْجَابُ بن الحارث السهمي، حدثنا بشرُ بن عُمارة، عن أبي رَوْقٍ، عن عطية العَوْفِيِّ، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ، عن رسول الله - ﷺ - في قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، قال: «لو أن الجنَّ والإنسَ والشياطينَ والملائكةَ منذ خُلِقُوا إلى أن فُتُوا صُفُوعاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً»^(٢). غريبٌ لا يُعرَفُ إلا من هذا الوجه، ولم يَرَوْه أحدٌ من أصحابِ الكُتُبِ السَّنة، والله أعلم.

[٢٩٣٩] وقال آخرون في: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ بما رواه الترمذي في جامعه، وابنُ أبي عاصم في كتاب السنة له، وابنُ أبي حاتم في تفسيره، وابنُ مَزْدُويه أيضاً، والحاكم في مستدركه، من حديث الحكم بن أبان قال: سَمِعْتُ عكرمة يقول: سَمِعْتُ ابنَ عباسٍ يقول: رأى مُحَمَّدُ رَبَّهُ تبارك وتعالى. فقلت: أليس الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾... الآية؟ فقال لي: لا أم لك. ذاك نورُه الذي هو نورُه، إذا تَجَلَّى بنوره لا يُدْرِكُهُ شيءٌ^(٣)، وفي رواية: لا يقوم له شيء. قال الحاكم: صحيح على شرطِ الشيخين، ولم يخرجاه.

[٢٩٤٠] وفي معنى هذا الأثر ما ثبت في الصَّحِيحَيْنِ، عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفِضُ القِسْطَ ويرفَعُهُ، ويرْفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حجابه النورُ، أو النار، لو كَسَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(٤). وفي الكتب المتقدمة: إن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية: يا موسى،

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٤٨٦ وأبو داود ٨٧٩ والترمذي ٣٤٩٣ والنسائي ١٠٢/٢ و٢١٠ وأحمد ٥٨/٦ وابن حبان ١٩٣٢ من حديث عائشة وصدرة: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك».

(٢) ضعيف جداً. أخرجه ابن عدي ١٠/٢ والعقيلي في «الضعفاء» ١٧٠/١/١٤٠، وضعفه السيوطي في «الدر» ٦٨/٣ ونقل عن الذهبي قوله: هذا حديث منكر. ووافقه وأعله ابن عدي والعقيلي ببشر بن عمارة الخثعمي، وقال العقيلي: ولا يتابع عليه لا يعرف إلا به. قلت: وعطية العوفي ضعيف.

(٣) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٢٧٩ وابن أبي عاصم في «السنة» ٤٣٧ والحاكم ٣١٦/٢ وصححه وضعفه الذهبي بقوله: بل إبراهيم متروك. قلت: له توابع، وقال الترمذي: حسن غريب. ومدار الحديث على الحكم بن أبان، وفيه ضعف من قبل حفظه.

(٤) تقدم في سورة البقرة عند آية: ٢٥٥.

إِنَّهُ لَا يَرَانِي حَتَّىٰ إِذَا مَاتَ، وَلَا يَأْسُ إِلَّا تَذَفَّهُ. أَي تَدَعَشَرَ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَمَلًا دَكًّا وَخَرَّ مَرْمُومًا صَوْعًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وَنَفِي هَذَا الْإِدْرَاكِ الْخَاصَّ لَا يَنْفِي الرَّوْيَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَتَجَلَّىٰ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا يَشَاءُ، فَأَمَّا جَلَالُهُ وَعَظَمَتُهُ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ - تَعَالَىٰ وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ - فَلَا تُذْرِكُهُ الْأَبْصَارُ. وَلِهَذَا كَانَتْ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - تُثَبِّتُ الرَّوْيَةَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ وَتُنْفِيهَا فِي الدُّنْيَا، وَتَحْتَجُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، فَالَّذِي نَفَتْهُ الْإِدْرَاكُ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى رُؤْيَةِ الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمَكِّنٍ لِلْبَشْرِ، وَلَا لِلْمَلَائِكَةِ، وَلَا لِشَيْءٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أَي: يُحِيطُ بِهَا وَيَعْلَمُهَا عَلَىٰ مَا هِيَ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ خَلَقَهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿١١﴾ [الملك: ١٤]. وَقَدْ يَكُونُ غَيْرَ بِالْأَبْصَارِ عَنِ الْمُبْصِرِينَ كَمَا قَالَ السَّدُذِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾: لَا يَرَاهُ شَيْءٌ وَهُوَ يَرَى الْخَلَائِقَ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾: اللَّطِيفُ بِاسْتِخْرَاجِهَا، الْخَبِيرُ بِمَكَانِهَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ لُقْمَانَ فِيمَا وَعَظَهُ بِابْنِهِ: ﴿يَبْنَؤُا إِنَّمَا إِنَّكَ يُشْقَالُ حَبْرًا مِّنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿١٦﴾ [لقمان: ١٦].

﴿فَدَجَاءَكُمْ بِبَصَائِرٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَلَإِيَّاهُ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ ﴿١٧﴾
وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِتَبَيِّنَنَّ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨﴾

البصائرُ، هي البيناتُ والحججُ التي اشتمَلَ عليها القرآنُ، وما جاء به الرسولُ - ﷺ -، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾. مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَلِنَافَا يَعْزِلُ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَلَإِيَّاهُ﴾، لَمَّا ذَكَرَ الْبَصَائِرَ قَالَ: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَلَإِيَّاهُ﴾ أَي: فَإِنَّمَا يَعُودُ وَيَأْتِي ذَلِكَ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾، أَي: بِحَافِظٍ وَلَا رَقِيبٍ، بَلْ أَنَا مُبَلِّغٌ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَن يَشَاءُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أَي: وَكَمَا فَصَّلْنَا الْآيَاتِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، مِنْ بَيَانِ التَّوْحِيدِ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، هَكَذَا نُوضِّحُ الْآيَاتِ وَنُقَسِّرُهَا وَنُبَيِّنُهَا فِي كُلِّ مَوْطِنٍ لِّجَهَالَةِ الْجَاهِلِينَ، وَلِيقُولَ الْمُشْرِكُونَ وَالْكَافِرُونَ الْمَكْذُوبُونَ: دَارَسْتَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَارَأْتَهُمْ وَتَعَلَّمْتَ مِنْهُمْ. هَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمْ. وَقَدْ قَالَ الطَّبْرَانِيُّ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا سَفِيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ كَيْسَانَ قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: ﴿دَارَسْتَ﴾ تَلَوْتَ، خَاصَمْتَ، جَادَلْتَ. وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ كَذِبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ أُفْكِيْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَكُذُوبًا﴾ ﴿١٧﴾ وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ اسْتَبْتَبَهَا﴾ [الفرقان: ٤-٥]. . . الْآيَةِ. وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ رَجِيمِهِمْ وَكَذَابِهِمْ: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا وَكَذَرُوا﴾ ﴿١٨﴾ فَيَلُّ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَىٰ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ [المدثر: ١٨-٢٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِتَبَيِّنَنَّ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَي: وَلِنُوضِّحْهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَيَتَّبِعُونَهُ، وَالْبَاطِلَ فَيَجْتَنِبُونَهُ. فَلِلَّهِ تَعَالَى الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي إِضْلَالِ أَوْلَادِكَ، وَبَيَانِ الْحَقِّ لِهَوْلَاءِ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُضِلُّ بِرَبِّهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِرَبِّهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]. . . الْآيَةِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِلَى الظَّالِمِينَ لِيَلْقِي شِقَاقَ بَعْثِهِمْ﴾ ﴿٢٧﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ أُوتُوا الْحَقَّ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٢٨﴾ [الحج: ٥٣-٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ

إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِينَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَزَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِقَوْلِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مِرْسًا وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يُغَلِّقُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ [المصدر: ٤٣١]. وقال: ﴿وَيُتْرَكُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الْفَٰكِلِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [١٠٦] [الإسراء: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوذِيَكَ بِآيَاتِنَا مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [نصفت: ٤٤٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين، وأنه يُضِلُّ به من يشاء ويهدي به من يشاء. ولهذا قال هاهنا: ﴿وكذلك نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيُقُولُوا: دَارَسْتُ، ولنبيته لقوم يعلمون﴾^(١).

وقرأ بعضهم: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتُ﴾، قال التميمي، عن ابن عباس: ﴿دَرَسْتُ﴾، أي: قرأت وتعلّمت. وكذا قال مجاهد، والسدي، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال عبد الرزاق، عن مغمر، قال الحسن: «وليقلوا دَرَسْتُ»، يقول: تقادمت وانمحت. وقال عبد الرزاق أيضاً: أنبأ ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، سمعت ابن الزبير يقول: إن صبيانا يقرؤون هاهنا: «دَرَسْتُ»، وإنما هي «دَرَسْتُ». وقال شعبة: حدثنا أبو إسحاق الهمداني قال: هي في قراءة ابن مسعود «دَرَسْتُ»، يعني بغير ألف، ينصب السين، ووقفت التاء. وقال ابن جرير: ومعناه انمحت وتقادمت، أي: إن هذا الذي تلوّه علينا قد مرّ بنا قديماً، وتطاوالت مُدَّتُهُ. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة أنه قرأها: «دَرَسْتُ»، أي: قرئت وتعلّمت. وقال معمر، عن قتادة: «دَرَسْتُ». قرئت. وفي حرف ابن مسعود (دَرَس). وقال أبو عبيد القاسم بن سلام، حدثنا حجاج، عن هارون قال: هي في حرف أبي بن كعب وابن مسعود: (وليقلوا دَرَس)، قال: يعنون النبي - ﷺ - أنه قرأ^(٢). وهذا غريب، فقد روي عن أبي بن كعب خلاف هذا.

[٢٩٤١] قال أبو بكر بن مَرْدَوَيْهِ: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن الليث، حدثنا أبو سلمة، حدثنا أحمد بن أبي بزة المكي، حدثنا وهب بن زَمْعَةَ، عن أبيه، عن حَمِيدِ الأَعْرَجِ، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: أقراني رسول الله - ﷺ -: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتُ﴾^(٣). ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث وهب بن زَمْعَةَ، وقال: يعني بجزم السين، ونصب التاء، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

﴿أَتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِرَٰكِلٍ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالى أمرأ لرسوله - ﷺ - ولمن أتبع طريقته: ﴿أَتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، أي: اقتد به، واقتف أثره، واعمل به؛ فإن ما أوحى إليك من ربك هو الحق الذي لا مزية فيه، لانه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، أي: اعف عنهم واصفح، واحتمل أذاهم، حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم. واعلم أن الله حكمة في إضلالهم، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعاً، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَىٰ

(١) هذه قراءة ابن كثير وأبي عمرو من السبعة، أما الباقر فقرأوا: «دَرَسْتُ».

(٢) لا يصح هذا عن أبي ولا ابن مسعود والأثر معضل. وقد روي خلافة بإسناد متصل وهو الآتي.

(٣) أخرجه الحاكم ٢٣٨/٢ - ٢٣٩ وصححه، ووافقه الذهبي، مع أن فيه زمعة بن صالح، وقد ضعفه أحمد وابن معين وأبو زرعة وغيرهم، فالإسناد إلى الضعف أقرب.

الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥]. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ ، أي: بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، ﴿لَا يَسْتَلْ عَنَّا يَتَعَلَّ وَهُمْ يُشْكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ ، أي: حافظاً يحفظ أعمالهم وأقوالهم. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ، أي: مُوَكَّل على أرزاقهم وأمورهم. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، وقال: ﴿فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ نَجْمٌ إِلَىٰ رَبِّهِمْ تَرْجِعُهُمْ فَيُنشِئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

يقول الله تعالى ناهياً لرسوله - ﷺ - والمؤمنين عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: قالوا: يا محمد، لئن تهين عن سب آلهتنا، أو لنهجون ربك. فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم، ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فيسب الكفار الله عدواً بغير علم، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

[٢٩٤٢] وروى ابن جرير وابن أبي حاتم، عن السدي أنه قال في تفسير هذه الآية: لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش: انطلقوا فلندخل على هذا الرجل، فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه، فلما نستحي أن نقتله بعد موته، فتقول العرب: كان يمنعه فلما مات قتلوه. فانطلق أبو سفيان، وأبو جهل، والنضر بن الحارث، وأميمة وأبي ابنا خلف، وعقبة بن أبي مغيص، وعمرو بن العاص، والأسود بن البخري، وبعثوا رجلاً منهم يقال له: المطلب، قالوا: استاذن لنا على أبي طالب. فأتى أبا طالب فقال: هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك. فأذن لهم عليه، فدخلوا عليه فقالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا، وإن محمداً قد آذانا وأذى آلهتنا، فثحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا، ولنذعه وإلهه. فدعاه فجاء النبي - ﷺ - فقال له أبو طالب: هؤلاء قومك وبنو عمك. قال رسول الله - ﷺ -: ما تريدون؟ قالوا: نريد أن تدعنا وآلهتنا، ولنذعك وإلهك. قال له أبو طالب: قد أنصفك قومك، فاقبل منهم. فقال النبي - ﷺ -: أرايتم إن أعطيتكم هذا، هل أنتم معطي كلمة إن تكلمتم بها ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم وأدت لكم بها الخراج. قال أبو جهل: وأبيك لنعطيتكها وعشرة أمثالها، قالوا: فما هي؟ قال قال: قولوا: لا إله إلا الله. فأبوا واشمازوا، قال أبو طالب: يا بن أخي، قل غيرها، فإن قومك قد فرغوا منها. قال: يا عم، ما أنا بالذي أقول غيرها، حتى يأتوا بالشمس فيضعوها في يدي، ولو أتوا بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها. إرادة أن يؤسهم، فغضبوا وقالوا: لتكفرن عن سب آلهتنا، أو لتشتمتك ونشتم من يأمرك. فذلك قوله: ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (١).

ومن هذا القبيل، وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها، ما جاء في الصحيح:

[٢٩٤٣] أن رسول الله - ﷺ - قال: «لمعون من سب وإلديه». قالوا: يا رسول الله، وكيف يسب

الرجل والديه؟ قال: يَسُبُّ أبا الرجل فيسبُّ أباه، وَيَسُبُّ أمه فَيَسُبُّ أُمَّه. أو كما قال - عليه السلام -^(١). وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾، أي: وكما زَيْنًا لهؤلاء القوم حُبُّ أصنامهم والمحاماة لها والانتصار، كذلك زَيْنًا لكل أمة أي من الأمم الخالية على الضلال عَمَلُهُم الذي كانوا فيه، والله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ تَرْجِعُهُمْ﴾، أي: معاذهم ومصيرهم، ﴿فَيُنشِئُهُم بِمَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾، أي: يُجَازِيهِم بأعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ بِآيَةٍ لَّيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلُوبُهُمْ إِنَّمَا آيَاتُ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَتَقَلَّبَ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَمَّهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين: إنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أي: حلفوا أيماناً مؤكدة ﴿لَئِن جَاءَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي: مُعْجِزَةٌ وُخَارِقٌ ﴿لَّيُؤْمِنَنَّ بِهَا﴾، أي: لَيُصَدِّقُهَا، ﴿قُلُوبُهُمْ إِنَّمَا آيَاتُ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي: قُلُوبُهُمْ - يا محمد - لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعتناً وكُفراً وعناداً، لا على سبيل الهدى والاسترشاد: إنما تَرْجِعُ هذه الآيات إلى الله، إن شاء أجابكم، وإن شاء تَرْكَبُكُمْ.

[٢٩٤٤] كما قال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي قال: كَلَّمَ رسول الله - ﷺ - قريشاً، فقالوا: يا محمد، تُخَيِّرُنَا أن موسى كان معه عصاً يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وتخَيِّرُنَا أن عيسى كان يُحْيِي الموتى، وتُخَيِّرُنَا أن نَمُودَ كانت لهم ناقه، فَأَتَيْنَا من الآيات حَتَّى نُصَدِّقَكَ. فقال رسول الله - ﷺ -: «أي شيء تُحِبُّون أن أتاكم به؟ قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً. فقال لهم: فإن فعلتُ تصدقوني؟ قالوا: نعم، والله لئن فعلتُ لتتبعنك أجمعين. فقام رسول الله - ﷺ - يدعو، فجاءه جبريل - عليه السلام - فقال له: ما شئت؟ إن شئت أصبح الصفا ذهباً، ولئن أرسل آية فلم يُصَدِّقُوا عند ذلك ليعذبنهم، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم. فقال رسول الله - ﷺ -: بل يتوب تائبهم. فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَبْهَلُونَ﴾^(٢). وهذا مرسل، وله شواهد من وُجُوهٍ أُخْرَى. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]... الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، قيل: المخاطب بـ ﴿مَا يُشْعِرُكُمْ﴾ المشركون، وإليه ذهب مجاهد، كأنه يقول لهم: وما يَذْرِيكُمْ بِصِدْقِكُمْ في هذه الأيمان التي تُقْسِمُونَ بها. وعلى هذا القراءة: ﴿إنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾، بكسر «إنها» على استئناف الخبر عنهم بنفي الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها، وقرأ بعضهم: «أنها إذا جاءت لا تؤمنون»، بالتاء المثناة من فوق. وقيل: المخاطب

(١) لم أره بهذا السياق. وإنما صح من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص بلفظ «من الكباثر شتم الرجل والديه. قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم، يسبُّ أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمه فيسبُّ أمه» أخرجه البخاري ٥٩٧٣ ومسلم ٩٠ واللفظ المذكور له وأبو داود ٥١٤١ والترمذي ١٩٠٢ وابن حبان ٤١١. وقوله: «لمعون من سب والديه» هو قطعة من حديث ابن عباس الذي أخرجه أحمد ٣٠٩/١ و٣١٧ وأبو يعلى ٢٥٣٩ وابن حبان ٤٤١٧ والحاكم ٣٥٦ وإسناده صحيح، ويشهد له حديث علي عند مسلم ١٩٧٨ والنسائي ٢٣٢/٧ وأحمد ١٠٨/١ والبيهقي ٩٩/٦.

(٢) مرسل. أخرجه الطبري ١٣٧٥٠ والواحدي ٤٤٧ عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا. ومع إرساله في إسناده أبو معشر، وهو ضعيف، فالخبر واهٍ.

بقوله ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ المؤمنون أي: وما يُدريكُم أيها المؤمنون، وعلى هذا فيجوزُ في قوله: ﴿أَنهَآ﴾ الكسر كالأول والفتح على أنه معمول يشعركم. وعلى هذا فتكون «لا» في قوله: ﴿أَنهَآ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صلة كما في قوله: ﴿مَا تَنكَّهَ أَلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتَهُ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقوله: ﴿وَكُرْهُمُ عَلَىٰ ذَرْبِهِ أَمْلَأْنَا أَنفُسَهُمْ لَآ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]، أي: ما منعك أن تسجدَ إذ أمرتك، وحرام أنهم يرجعون. وتقديره في هذه الآية: وما يُدريكُم - أيها المؤمنون الذين يؤدون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم - أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون؟ وقال بعضهم: «أَنهَآ» بمعنى لعلها. قال ابن جرير: وذكروا أن ذلك كذلك في قراءة أبي بن كعب، قال: وقد ذُكر عن العرب سماعاً: اذهب إلى السوق أتك تشتري لي شيئاً بمعنى: لعلك تشتري. قال: وقد قيل: إن قول عدي بن زيد العبادي من هذا:

أعاذلُ، ما يُذريك أن منيستي إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد
وقد اختار هذا القول ابن جرير، وذكر عليه شواهد من أشعار العرب، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ أَوْلَىٰ مَرَّةً﴾، قال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء، وزدت عن كل أمر. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾: ونحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم كل آية، فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة. وكذا قال عكرمة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه. قال: ﴿وَلَا يَنْفِكَ مِنْ خَيْرٍ﴾ جل وعلا، وقال: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي حُبِّ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ أَنَّكَ لِي كَرِهًا لَأَكْرَهُكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨]، فأخبر الله سبحانه أنهم لو ردوا لم يقدروا على الهدى، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]؛ وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ أَوْلَىٰ مَرَّةً﴾، وقال: ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا. وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾، أي: نتركهم ﴿في طغيانهم﴾. قال ابن عباس والسدي: في كفرهم. وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة: في ضلالهم. ﴿بِمَقْهُونٍ﴾ قال الأعمش: يلعبون. وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، والربيع، وأبو مالك: في كفرهم يترددون.

﴿لَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْوَقْنَ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أُنِ

يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْرَهُمْ بِجَهْلُونَ ﴿١١١﴾

يقول تعالى: ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أفسموا بالله جهد إيمانهم: ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾، فنزلنا عليهم الملائكة، أي تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل، كما سألوا فقالوا: ﴿أَوْ تَأْتِي بآلِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]، وقالوا لئن تؤمن حتى تؤقن نؤقن نؤقن ما أوقن رُسل الله ﴿[الأنعام: ١٢٤]، وقال الذين لا يرجعون لقائنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرسل ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ﴿[الفرقان: ٢١]، وكلمهم الموقن﴾، أي: فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل، ﴿وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا﴾، قرأ بعضهم ﴿قَبِيلًا﴾، بكسر القاف وفتح الباء، من المقابلة والمعانية. وقرأ آخرون: بضمهما، قيل: معناه من المقابلة والمعانية أيضاً، كما رواه علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عباس. وبه قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال مجاهد ﴿قَبِيلًا﴾ أفواجاً، قَبِيلًا قَبِيلًا، أي: تُعرض عليهم كل أمة بعد أمة، فتخبرهم بصدق الرسل فيما جاؤهم به ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، أي: إن الهداية إليه لا إليهم. بل يهدي من يشاء ويُضِل من

يشاء، وهو الفعال لما يريد، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، لعلمه وحكمته، وسلطانه وقهره وعَلَبَتِهِ. وهذه الآية كقولته تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١٢﴾ وَكَوَجَعْتُهُمْ كَسْفًا مَلِكًا حَسْبُ يَوْمًا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَتَوَشَّاهُمْ مَا مُكَّرُوا عَلَيْهِمْ وَمَا يُفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِنَصِّحِيَ إِلَيْهِمْ أَفَعَدَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْتَضُوهُ رَبُّكَ مَا فَعَلُوا فَذَرْنَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يقول تعالى: وكما جعلنا لك - يا محمد - أعداء يخالفونك ويُعانِدُونَكَ، جعلنا لكل نبيٍّ من قبلك أيضاً أعداء، فلا يهيدُكَ ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَكْفُرُوكَ قَدًّا كَذَبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوَدُوا ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٤]... الآية، وقال تعالى: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَخْفِيٌّ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٌ ﴿١١٣﴾﴾ [فصلت: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]... الآية.

[٢٩٤٥] وقال وَرَقَّةُ بن نوفل لرسول الله - ﷺ -: «إنه لم يأت أحدٌ بمثل ما جئت به إلا عودي»^(١). وقوله: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ بَدَلٌ مِنْ «عَدُوًّا»، أي: لهم أعداء من شياطين الإنس والجن. والشيطان كلٌ من خرج عن نظيره بالشر. ولا يعادي الرسل إلا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء، قُبِحَ اللهُ وَلَعَنَهُمْ.

[٢٩٤٦] قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾، قال: من الجن شياطين، ومن الإنس شياطين، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ. قال قتادة: وبلغني أن أبا ذرٍّ كان يوماً يصلي، فقال النبي - ﷺ - «تعوذ يا أبا ذرٍّ من شياطين الإنس والجن؟ فقال: أو إن من الإنس لشياطين؟ فقال رسول الله - ﷺ -: نعم»^(٢). وهذا منقطع بين قتادة وأبي ذرٍّ. وقد روي من وجه آخر عن أبي ذرٍّ - رضي الله عنه -

[٢٩٤٧] قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا أبو صالح، حدثني معاوية بن صالح، عن أبي عبد الله محمد بن أيوب وغيره من المشيخة، عن ابن عائذ، عن أبي ذرٍّ أنه قال: «أتيت رسول الله - ﷺ - في مجلس قد أطلت فيه الجلوس، قال: فقال: «يا أبا ذرٍّ، هل صليت؟» قلت: لا يا رسول الله. قال: «قم فاركع ركعتين». قال: ثم جئت فجلست إليه فقال: «يا أبا ذرٍّ، هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس؟» قال: قلت: لا يا رسول الله وهل للإنس من شياطين؟ قال: «نعم هم شر من شياطين الجن»^(٣). وهذا أيضاً فيه انقطاع.

[٢٩٤٨] وَرَوِي متصلاً كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا المسعودي، أنبأني أبو عمر الدمشقي، عن عبيد بن الخشخاش، عن أبي ذرٍّ قال: أتيت النبي - ﷺ - وهو في المسجد، فجلستُ فقال: «يا أبا ذرٍّ، هل صليت؟» قلت: لا. قال: قم فصل. قال: فقممتُ فصليتُ، ثم جلستُ فقال: يا أبا ذرٍّ، تعوذ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٥٦ ومسلم ١٦٠ وأحمد ٢٣٢/٦ وابن حبان ٣٣ والبيهقي في «الدلائل» ١٣٥/٢ - ١٣٦ من حديث عائشة مطولاً.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٨٤٦ و٨٤٧ وإسناده ضعيف، لانقطاعه، لكنه يمتضد بما بعده.

وأخرجه الطبري ١٣٧٧٤ و١٣٧٧٥ عن قتادة مرسلًا.

(٣) أخرجه الطبري ١٣٧٧٣ وإسناده ضعيف فيه انقطاع كما ذكر المصنف لكنه يمتضد بما قبله وما بعده.

بالله من شر شياطين الإنس والجن. قال قلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: نعم... (١) وذكر تمام الحديث بطوله. وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَزْدُويه في تفسيره، من حديث جعفر بن عَزْون، ويعلى بن عَبِيد، وَعَبِيدُ اللَّهِ بن موسى، ثلاثهم عن المسعودي، به.

[٢٩٤٩] طريق أخرى عن أبي ذَرٍّ، قال ابن جَرِير: حدثني المثنى، حدثنا الْحَجَّاج، حدثنا حماد، عن حَمِيد بن هلال، حدثني رَجُلٌ من أهل دِمَشْق، عن عوف بن مالك، عن أبي ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قال: يا أبا ذَرٍّ، هل تَعَوَّدتُ بالله من شَرِّ شياطينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ؟ قال قلتُ: يا رسول الله، هل للإنس من شياطين؟ قال: نعم (٢).

[٢٩٥٠] طريقٌ أخرى للحديث، قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمدُ بن عوف الجَنَصي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا مُعان بن رفاعه، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله - ﷺ - قال: يا أبا ذَرٍّ تَعَوَّدتُ من شياطينِ الجن والإنس؟ قال: يا رسول الله، وهل للإنس شياطين؟ قال: نعم، ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (٣). فهذه طُرُقٌ لهذا الحديث، ومجموعها يُفيد قوته وصحته، والله أعلم. وقد روى ابنُ جَرِير: حدثنا ابنُ وَكَيْع، حدثنا أبو نعيم، عن شريك، عن سعيد بن مسروق، عن عكرمة: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾، قال: ليس في الإنس شياطين، ولكن شياطين الجن يُوحون إلى شياطين الإنس، وشياطين الإنس يُوحون إلى شياطين الجن. قال: وحدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا إسرائيل، عن السدي، عن عكرمة في قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾. قال: للإنسي شيطان، وللجني شيطان، فيلقى شيطان الإنس شيطان الجن، فيُوحى بعضهم إلى بعض زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا. وقال أسباط، عن السدي في قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ في تفسير هذه الآية: أما شياطين الإنس فالشياطين التي تُضِلُّ الْإِنْسَ، وشياطينُ الجن الذي يُضِلُّونَ الْجِنَّ، يلتقيان، فيقول كلُّ واحدٍ منهما لصاحبه: إني أضللتُ صاحبي بكذا وكذا، فأضلل أنت صاحِبَكَ بكذا وكذا، فيعلم بعضهم بعضاً. ففهم ابنُ جرير من هذا أن المراد بشياطين الإنس عند عكرمة والسدي: الشياطينُ من الجن الذين يُضِلُّونَ النَّاسَ لا أن المراد منه شياطين الإنس منهم. ولا شك أن هذا ظاهر من كلام عكرمة، وأما كلام السدي فليس مثله في هذا المعنى، وهو محتمل، وقد رَوَى ابنُ أبي حاتم نحو هذا عن ابن عباس من رواية الضحاك، عنه، قال: إن للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم، قال: فيلتقي شياطين الإنس وشياطين الجن، فيقول هذا لهذا: أضليله بكذا، وأضليله بكذا. فهو قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾. وعلى كل حال فالصحيح ما تقدّم من حديث أبي ذَرٍّ: إن للإنس شياطين منهم، وشيطان كل شيءٍ مارده.

[٢٩٥١] ولهذا جاء في صحيح مسلم عن أبي ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قال: «الكلبُ الأسودُ شيطان» (٤). ومعناه - والله أعلم - شيطان في الكلاب. وقال ابن جريج: قال مجاهد في تفسير هذه الآية: كفار الجن شياطين يوحون إلى شياطين الإنس - كفار الإنس - ﴿زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

- (١) أخرجه النسائي ٢٧٥/٨ وأحمد ١٧٨/٥ - ١٧٩ وإسناده ضعيف فيه أبو عمر الدمشقي وإو، لكن له طرق أخرى يقوى بها.
- (٢) أخرجه الطبري ١٣٧٧٢ وإسناده ضعيف، فيه راوٍ لم يسم، ويشهد له ما بعده، وانظر ما قبله.
- (٣) أخرجه أحمد ٢٦٥/٥، وإسناده ضعيف لأجل علي بن يزيد الألهاني.
- (٤) صحيح. أخرجه مسلم ٥١٠ وأبو داود ٧٠٢ والترمذي ٣٣٨ والنسائي ٦٣/٢ - ٦٤ وابن ماجه ٩٥٢ وأحمد ١٤٩/٥ وابن حبان ٢٣٨٥.

وروى ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: قَدِمْتُ عَلَى الْمُخْتَارِ فَأُكْرِمَنِي وَأَنْزَلَنِي حَتَّى كَادَ يَتَعَاهَدُ مَبِيتِي بِاللَّيْلِ، قَالَ: فَقَالَ لِي: أَخْرَجَ إِلَى النَّاسِ فَحَدَّثَ النَّاسَ. قَالَ: فَخَرَجْتُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي الْوَحْيِ؟ فَقُلْتُ: الْوَحْيُ وَحْيَانٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٢٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَيَطِيلَنَّ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ يُوحِي بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾. قَالَ: فَهَمُّوا بِي أَنْ يَأْخُذُونِي، فَقُلْتُ: مَا لَكُمْ ذَاكَ، إِنِّي مُفْتِيكُمْ وَضَيْفُكُمْ. فَتَرَكُونِي. وَإِنَّمَا عَرَّضَ عَكْرَمَةُ بِالْمُخْتَارِ، وَهُوَ ابْنُ أَبِي عُبَيْدٍ - قَبَّحَهُ اللَّهُ - وَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَاثِيَةُ الْوَحْيِ، وَقَدْ كَانَتْ أُخْتُهُ صَفِيَّةُ تَحْتَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو، وَكَانَتْ مِنَ الصَّالِحَاتِ، وَلَمَّا أَخْبَرَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو أَنَّ الْمُخْتَارَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُوْحَى إِلَيْهِ قَالَ: صَدَقَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِئَلَّا السَّيِّئِينَ لِيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوْحَى بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، أَي: يَلْقَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ الْمَعْرُوفَ الْمُزْخَرَفَ، وَهُوَ الْمَزْوُوقُ الَّذِي يَغْتَرُّ سَامِعُهُ مِنَ الْجَهْلَةِ بِأَمْرِهِ. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾، أَي: وَذَلِكَ كُلُّهُ بِقَدْرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوٌّ مِنْ هَوْلَاءِ. ﴿فَذَرَهُمْ﴾، أَي: فَذَعَهُمْ، ﴿وَمَا يَقْرَأُونَ﴾، أَي: يَكْذِبُونَ. أَي: ذَغَ إِذَا هَمَّ وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فِي عِدَاوَتِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيَصْحَقَنَّ إِلَيْهِ﴾، أَي: وَلَيُجَمِّلَنَّ إِلَيْهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، ﴿أَعْيُدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، أَي: قُلُوبُهُمْ وَعُقُولُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ. وَقَالَ السَّدِّيُّ: قُلُوبُ الْكَافِرِينَ، ﴿وَلَيَرْضَوْهُ﴾، أَي: يَحِبُّوهُ وَيُرِيدُوهُ. وَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لِذَلِكَ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَالْكَافِرُ وَمَا تَشَاءُ﴾ ﴿١١٤﴾ مَا أَنتَ عَلَيْهِ بِقَاتِلِينَ ﴿١١٥﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَمِيمِ ﴿١١٦﴾ [الصافات: ١٦١ - ١٦٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمْ لِي قَوْلًا مُخْتَلِفًا﴾ ﴿١١٨﴾ يَرْوَاهُ عَنْهُ مِنْ أَيْدِيكُمْ ﴿١١٩﴾ [الذاريات: ٨ - ٩]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَيَقْرَأُوا مَا هُمْ مُقْرَأُونَ﴾، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَلَيَكْتَسِبُوا مَا هُمْ مُكْتَسِبُونَ. وَقَالَ السَّدِّيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ: وَلَيَعْمَلُوا مَا هُمْ عَامِلُونَ.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَدِعِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمُنْتَدِينَ﴾ ﴿١١٨﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

يقول تعالى لنبيه محمد - ﷺ -: قل لهؤلاء المشركين بالله غيره الذين يعبدون غيره: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَدِعِي حَكْمًا﴾، أَي: بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾، أَي: مُبَيَّنًا ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، أَي: مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ، أَي: بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْبَشَارَاتِ بِكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ، ﴿فَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمُنْتَدِينَ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنْ أَمْرِنَا إِلَيْكَ فَسَلِّ الْأَلْيَتِ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمُنْتَدِينَ﴾ ﴿١١٨﴾ [يونس: ٩٤]. وَهَذَا شَرْطٌ، وَالشَّرْطُ لَا يَقْتَضِي وَقُوعَهُ.

[٢٩٥٢] وَلِهَذَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَشْكُ وَلَا أَسْأَلُ»^(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، قَالَ قَتَادَةُ: صِدْقًا فِيمَا وَعَدَ، وَعَدْلًا فِيمَا حَكَمَ. يَقُولُ: صِدْقًا فِي الْإِخْبَارِ وَعَدْلًا فِي الطَّلَبِ، فَكُلُّ مَا أَخْبَرَ بِهِ فَحَقٌّ لَا يَزِيئُهُ فِيهِ وَلَا شَكٌّ، وَكُلُّ مَا أَمَرَ بِهِ فَهُوَ الْعَدْلُ الَّذِي لَا عَدْلَ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَا نَهَى عَنْهُ فَبَاطِلٌ، فَإِنَّهُ لَا يَنْهَى إِلَّا عَنِ مَفْسَدَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

(١) يَأْتِي فِي سُورَةِ يُوسُفَ: آيَةٌ: ٩٤ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

[الأعراف: ١٥٧]... إلى آخر الآية. ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، أي: ليس أحد سواه يُعَقِّبُ حكمه تعالى، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحركاتهم وسكناتهم، الذي يُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

﴿وَإِنْ تَطَّلَعُ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَشَاءُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

يخبرُ تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ حَكَلْ بَقَالَهُمْ أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الصفافات: ٧١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل، ﴿إِنْ يَشَاءُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، فإن الخرص هو الخرز، ومنه خرز النخل، وهو خرز ما عليها من الثمر. وذلك كله عن قدر الله ومشيئته، و﴿هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فَيُبَيِّنُ لَكَ ذَلِكَ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فَيُبَيِّنُ لَكَ، وكل ميسر لما خلق له.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾

هذا إباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه، ومفهومه أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه كما كان يستبيح كفار المشركين من أكل الميتات، وأكل ما ذبح على الثصب وغيرها. ثم نذب إلى الأكل مما ذُكر اسم الله عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: قد بين لكم ما حرّم عليكم ووضّحه. وقرأ بعضهم ﴿فَصَّلَ﴾ بالتشديد، وقرأ آخرون بالتخفيف، والكل بمعنى البيان والوضوح. ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾، أي: إلا في حال الاضطرار، فإنه يباح لكم ما وجدتم. ثم بين تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة، من استحلالهم الميتات وما ذُكر عليه غير اسم الله تعالى، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾، أي: هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافتراءهم.

﴿وَذَرُوا ظِلْهَرَ الْإِنْتِرِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الْأَذْيَاتِ يَكْسِبُونَ الْإِنْتِمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَقْرَفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

قال مجاهد: ﴿وَذَرُوا ظِلْهَرَ الْإِنْتِرِ وَبَاطِنَهُ﴾: معصيته في السرّ والعلانية. وفي رواية عنه قال: هو ما ينوي مما هو عامل. وقال قتادة: ﴿وَذَرُوا ظِلْهَرَ الْإِنْتِرِ وَبَاطِنَهُ﴾، أي: قليله وكثيره، سره وعلانيته. وقال السدي: ظاهره: الزنا مع البغايا ذوات الرايات، وباطنه: الزنا مع الخليفة والصدائيق والأخدان. وقال عكرمة: ظاهره نكاح ذوات المحارم. والصحيح أن الآية عامة في ذلك كله، وهي كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]... الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَذْيَاتِ يَكْسِبُونَ الْإِنْتِمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَقْرَفُونَ﴾، أي: سواء كان ظاهراً أو خفياً، فإن الله سيجزيهم عليه.

[٢٩٥٣] قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، عن الثؤاس بن سيمعان قال: سألت رسول الله - ﷺ -

عن الإثم فقال: «الإثم ما حاك في صدرك، وكبرهت أن تطلع الناس عليه»^(١).

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخَذَ إِلَاقًا أُولَئِكَ هُمُ الْمُجْبَدِلُونَ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أنه لا تحل الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها، ولو كان الذابح مسلماً. وقد اختلف الأئمة - رحمهم الله - في هذه المسألة على ثلاثة أقوال: فمنهم من قال: لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة، وسواء كان متروك التسمية عمداً أو سهواً. وهو مروى عن ابن عمر، ونافع مولا، وعامر الشعبي، ومحمد بن سيرين. وهو رواية عن الإمام مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين، وهو اختيار أبي ثور، وداود الظاهري، واختار ذلك أبو الفتح محمد بن محمد بن علي الطائي، من متأخري الشافعية في كتابه «الأربعين». واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية، وبقوله في آية الصيد: «كُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ» [المائدة: ٤]. ثم قد أكد في هذه الآية بقوله: «وَلَا تَأْكُلُوا». والضمير قيل: عائد على الأكل، وقيل: عائد على الذبح لغير الله، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبح والصيد، كحديثي عدي بن حاتم وأبي ثعلبة:

[٢٩٥٤] «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك»^(٢). وهما في

الصحيحين.

[٢٩٥٥] وحديث رافع بن خديج: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه»^(٣). وهو في الصحيحين

أيضاً.

[٢٩٥٦] وحديث ابن مسعود أن رسول الله - ﷺ - قال للجن: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه»^(٤)

رواه مسلم.

[٢٩٥٧] وحديث جندب بن سفيان البجلي قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من ذبح قبل أن يصلي فليذبح

مكاتها أخرى. ومن لم يكن ذبح حتى صلياً فليذبح باسم الله»^(٥)، أخرجه.

[٢٩٥٨] وعن عائشة - رضي الله عنها - أن ناساً قالوا: يا رسول الله، إن قوماً يأتوننا باللحم لا نذري:

أذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: سموا عليه أنتم وكُلوا. قالت: وكانوا حديشي عهد بالكفر^(٦). رواه البخاري.

ووجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لا بد منها، وأتهم خشوا ألا تكون وجدت من أولئك، لحدائثة إسلامهم،

فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت، وأمرهم

بإجراء أحكام المسلمين على السداد، والله تعالى أعلم.

(١) تقدم في سورة البقرة عند آية: ٢٧٥.

(٢) تقدم في سورة المائدة عند آية: ٤.

(٣) تقدم في سورة المائدة عند آية: ٣.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٤٥٠ وأبو داود ٨٥ والترمذي ١٨ و٤٢٥٨ وابن حبان ١٤٣٢ والبيهقي ١٠٨/١٠.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٩٨٥ ومسلم ٥٥٠٠ والنسائي ١٩٦٠ والسنائي ٢٢٤/٧ وابن ماجه ٣١٥٢ وأحمد ٣١٢/٤ وابن حبان ٥٩١٣.

(٦) صحيح. أخرجه البخاري ٢٠٥٧ وأبو داود ٢٨٢٩ والنسائي ٢٣٧/٧ وابن ماجه ٣١٧٤ والبيهقي ٢٣٩/٩.

والبغوي في «التفسير» ٨٨٩.

والمذهب الثاني في المسألة: أنه لا يُشترطُ التسمية، بل هي مُستحبَّةٌ، فإن تُركت عمداً أو نسياناً لم تضرَّ. وهذا مذهب الإمام الشافعي - رحمه الله - وجميع أصحابه، ورواية عن الإمام أحمد، نقلها عنه حنبل. وهو رواية عن الإمام مالك، ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه، وحكي عن ابن عباس، وأبي هريرة، وعطاء بن أبي رباح، والله أعلم. وحمل الشافعي الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمَاءُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ على ما ذُبح لغير الله، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَسْقَا أَهْلًا يَغَيِّرُ اللَّهُ بِرُؤْيِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وقال ابن جرير، عن عطاء: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمَاءُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، قال: ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش على الأوثان، وينهى عن ذبائح المجوس. وهذا المسلك الذي طرّقه الإمام الشافعي - رحمه الله - قوياً، وقد حاول بعض المتأخرين أن يُقوّيه بأن جعل «الواو» في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ حاليةً، أي: لا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه في حال كونه فسقاً، ولا يكون فسقاً حتى يكون قد أهّل به لغير الله. ثم ادّعى أن هذا متعينٌ، ولا يجوز أن تكون «الواو» عاطفةً، لأنه يلزمُ منه عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية طلبية. وهذا ينتقض عليه بقوله: ﴿وَرَأَى الشَّيْطَانَ يُوحِوْنَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾، فإنها عاطفةٌ لا محالة، فإن كانت «الواو» التي ادّعي أنها حاليةٌ صحيحةً على ما قال امتنع عطفُ هذه عليها، فإن عطفت على الطلبيه وردّ عليه ما أوردَ على غيره، وإن لم تكن «الواو» حاليةً بطل ما قال من أضليه، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبي، حدّثنا يحيى بن المغيرة، أنبأنا جرير، عن عطاء، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمَاءُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، قال: هي المَيْتَةُ.

ثم رواه، عن أبي زرعة، عن يحيى بن بكير، عن ابن لهيعة، عن عطاء، وهو ابن السائب، به.

[٢٩٥٩] وقد استدل لهذا المذهب بما رواه أبو داود في المراسيل، من حديث ثور بن يزيد، عن الصلت السدوسي - مولى سويد بن ميمون، أحد التابعين الذين ذكروهم أبو حاتم بن حبان في كتاب الثقات - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ذبيحة المسلم حلالٌ ذُكر اسم الله أو لم يُذكر، إنه إن ذُكر لم يُذكر إلا اسم الله»^(١). وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطني عن ابن عباس أنه قال: «إذا ذبح المسلم ولم يُذكر اسم الله قليلاً، فإن المسلم فيه اسمٌ من أسماء الله».

[٢٩٦٠] واحتج البيهقي أيضاً بحديث عائشة - رضي الله عنها - المتقدم أن ناساً قالوا: يا رسول الله، إن قوماً حديثي عهدٍ بجاهلية يأتوننا بلحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال: سموا أنتم وكلوا^(٢). قال: فلو كان وجودُ التسمية شرطاً لم يُرخص لهم إلا مع تحققها، والله أعلم.

المذهب الثالث في المسألة: أنه إن ترك التسمية على الذبيحة نسياناً لم يضرَّ، وإن تركها عمداً لم تحل. هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك، وأحمد بن حنبل، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه، وإسحاق بن راهويه. وهو محكي عن علي، وابن عباس، وسعيد بن المسيّب، وعطاء، وطاوس، والحسن البصري، وأبي مالك، وعبد الرحمن بن أبي ليلي، وجعفر بن محمد، وربيع بن أبي عبد الرحمن. ونقل الإمام أبو الحسن المرغيناني في كتابه «الهداية» الإجماع قبل الشافعي، على تحريم متروك التسمية عمداً، فلهذا قال أبو

(١) ضعيف، أخرجه أبو داود في «مراسيله» ٣٤١ عن الصلت السدوسي مرسلًا، ومع ذلك تابعه شبه مجهول. فهو وإن وثقه ابن حبان، فقد قال الزيلعي في نصب الراية ١٨٣/٤: قال ابن القطان: لا يعرف حاله، ولا يعرف بغير هذا الحديث أه، ولينه الحافظ في التريب، فهاتان علتان للحديث.

(٢) تقدم قبل حديث واحد.

يوسف والمشايخ: لو حَكَمَ حاكمٌ بجوازِ بيعه لم يَنْفُذْ لمخالفة الإجماع. وهذا الذي قاله غريبٌ جداً، وقد تقدّم نقلُ الخلافِ عَمَّنْ قَبْلَ الشافعي^(١)، والله أعلم.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: من حَزَمَ ذبيحةَ الناسي، فقد خَرَجَ من قول جميعِ الحُجَّةِ، وخالف الخبرَ الثابت عن رسول الله - ﷺ - في ذلك، يعني ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي:

[٢٩٦١] أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا أبو أمية الطرسوسي، حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا مَعْقِلُ بن عبيد الله، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي - ﷺ - قال: «المسلم يكفيه اسمه، إن نسي أن يُسَمِّي حين يذبح، فَلْيَذْكُرِ اسمَ الله وليأْكُلْهُ»^(٢). وهذا الحديث رفعه خطأ، أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزي، فإنه - وإن كان من رجال مسلم إلا أن سعيد ابن منصور، وعبد الله بن الزبير الحميدي زوياه عن سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن أبي الشعثاء، عن عكرمة، عن ابن عباس، من قوله. فزادا في إسناده «أبا الشعثاء»، ووقفاه. وهذا أصحُّ، نصَّ عليه البيهقي وغيره من الحفاظ، والله تعالى أعلم. وقد نقل ابن جرير وغيره. عن الشعبي ومحمد بن سيرين، أنهما كَرِهَا متروك التسمية نسياناً، والسلف يطلقون الكراهة على التحريم كثيراً والله أعلم؛ إلا أن من قاعدة ابن جرير أنه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين مخالفاً لقول الجمهور، فَيَعُدُّهُ إجماعاً، فَلْيَعْلَمْ هذا، والله الموفق.

قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة، عن جَهِير بن يزيد قال: سُئِلَ الحَسَنُ، سأله رجل: أُنِيْتُ بطير كذا، فمَنه ما قد ذُبِحَ فذُكِرَ اسمُ الله عليه، ومنه ما نُسِيَ أن يُذكَرَ اسمُ الله عليه، واختلط الطيرُ، فقال الحسن: كُلْهُ كُلَّهُ. قال: وسألتُ مُحَمَّدَ بن سيرين فقال: قال الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

[٢٩٦٢] واحتج لهذا المذهب بالحديث المروي من طُرُقٍ عند ابن ماجه، عن ابن عباس، وأبي هريرة، وعن أبي ذرٍّ، وعقبة بن عامر، وعبد الله بن عمرو، عن النبي - ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ والنسيانَ، وما اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(٣). وفيه نظر، والله أعلم.

[٢٩٦٣] وقد رَوَى الحافظُ أبو أحمد بن عدي، من حديث مَرْوَانَ بن سالم الفَرَقَسَانِي، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: جاء رجلٌ إلى النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله، أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ مِمَّا يذْبَحُ وينسى أن يُسَمِّي؟ فقال النبي - ﷺ -: «اسْمُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»^(٤). ولكن هذا إسناده

(١) انظر ذلك في المذهب الثاني في أوله.

(٢) الراجح وقفه. أخرجه الدارقطني ٢٩٦/٤ والبيهقي ٢٣٩/٩ وقال: كذا رواه مرفوعاً، ورواه ابن عيينة وغيره موقوفاً. وقال الزيلعي في نصب الراية ١٨٢/٤: قال ابن القطان: ليس في الإسناد من يتكلم فيه غير محمد بن يزيد بن سنان، وكان صدوقاً صالحاً لكنه كان شديد الغفلة. قال الزيلعي: وقال غيره: معقل بن عبيد الله، وإن كان من رجال مسلم لكنه أخطأ في رفع هذا الحديث، فقد رواه الحميدي وسعيد بن منصور عن ابن عيينة عن عمرو بن أبي الشعثاء عن عكرمة عن ابن عباس موقوفاً. قال الزيلعي: معقل بن عبيد الله ذكره ابن الجوزي في الضعفاء ونقل عن ابن معين قوله: ضعيف. قال: وعبد بن يزيد ضعيف، ووثقه ابن حبان، والصحيح أن هذا الحديث موقوف اهـ.

(٣) غير قوي، تقدم مراراً، وتقدم تخريجه في سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٤) ضعيف. أخرجه الدارقطني ٢٩٥/٤ والبيهقي ٢٤٠/٩ وابن عدي ٣٨٥/٦ من حديث أبي هريرة. قال الدارقطني: مروان بن سالم ضعيف. وقال البيهقي: قال ابن عدي مروان بن سالم، عامة حديثه لا يتابعه عليه الثقات. قال البيهقي: هو ضعيف، وضعفه أحمد والبخاري وغيرهما، وهذا الحديث منكر. اهـ وضعفه ابن القطان ووافقه الزيلعي. راجع نصب الراية ١٨٣/٤.

ضعيف، فإن مروان بن سالم القَرْقَسَانِيُّ أبا عبد الله الشاميَّ ضَعِيفٌ، تَكَلَّمَ فِيهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأُمَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ أُنْفِرْتُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ عَلَى جِدَّةٍ، وَذَكَرْتُ مَذَاهِبَ الْأُمَّةِ وَمَا خَذَهُمْ وَأَدَّتْهُمْ، وَوَجَّهَ الدَّلَالَاتِ وَالْمُنَاقِضَاتِ وَالْمَعَارِضَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال ابن جرير: وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية: هل تُسَخَّخُ مِنْ حَكْمِهَا شَيْءٌ أَمْ لَا؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَمْ يُنْسَخْ مِنْهَا شَيْءٌ وَهِيَ مُحْكَمَةٌ فِيمَا غُيِّبَتْ بِهِ. وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ عَامَّةُ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَعِكْرَمَةَ مَا حَدَّثَنَا بِهِ ابْنُ حُمَيْدٍ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ وَاضِحٍ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ وَاقِدٍ، عَنِ يَزِيدَ عَنِ عِكْرَمَةَ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَا: قَالَ اللَّهُ: ﴿فَكُلُوا وَمِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِبَيِّنَاتٍ مُؤَيَّنِينَ﴾ ﴿١٢١﴾ وَقَالَ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفُتْسٌ﴾، فَتُسَخَّخُ وَاسْتَنْتَى مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٥]. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: قَرِئَ عَلَى الْعَبَّاسِ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ مَرْزُوقٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ شُعَيْبٍ، أَخْبَرَنِي النُّعْمَانُ - يَعْنِي ابْنَ الْمُنْذَرِ - عَنْ مَكْحُولٍ قَالَ: أَنْزَلَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، ثُمَّ نَسَخَهَا الرَّبُّ وَرَجَمَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾، فَنَسَخَهَا بِذَلِكَ وَأَحَلَّ طَعَامَ أَهْلِ الْكِتَابِ. ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالصَّوَابُ أَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَ حِلِّ طَعَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَبَيْنَ تَحْرِيمِ مَا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ صَحِيحٌ، وَمَنْ أَطْلَقَ مِنَ السَّلَفِ النَّسْخَ هَاهُنَا فَإِنَّمَا أَرَادَ التَّخْصِيسَ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيًّا يَهْتَمُّ﴾، قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ عِيَّاشٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمرَ: إِنْ الْمُخْتَارُ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ؟ قَالَ: صَدَقَ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيًّا يَهْتَمُّ﴾. وَحَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو حُدَيْفَةَ، حَدَّثَنَا عِكْرَمَةُ بْنُ عَمَّارٍ، عَنْ أَبِي زُمَيْلٍ قَالَ: كُنْتُ قَاعِدًا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَحَجَّ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا بْنَ عَبَّاسٍ، زَعَمَ أَبُو إِسْحَاقَ أَنَّهُ أُوْحِيَ إِلَيْهِ اللَّيْلَةَ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَدَقَ، فَتَفَرَّضْتُ وَقُلْتُ: يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ صَدَقَ! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمَا وَحِيَانٌ، وَوَحْيُ اللَّهِ، وَوَحْيُ الشَّيْطَانِ، فُوْحِيَ اللَّهُ إِلَى مُحَمَّدٍ - ﷺ - وَوَحْيُ الشَّيْطَانِ إِلَى أَوْلِيَائِهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيًّا يَهْتَمُّ﴾. وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ عِكْرَمَةَ فِي: ﴿يُوحِي بِمَقْصُومَتِهِمْ إِلَيْكَ بِبَعْضِ زُخْرَفِ الْقَوْلِ غَرُورًا﴾ نَحْوَ هَذَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَجْذَلُواكُمْ﴾.

[٢٩٦٤] قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجِيُّ، حَدَّثَنَا عَمْرَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: خَاصَمَتِ الْيَهُودُ النَّبِيَّ - ﷺ - فَقَالُوا: نَأْكُلُ مِمَّا قَتَلْنَا، وَلَا نَأْكُلُ مِمَّا قَتَلَ اللَّهُ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفُتْسٌ﴾. هَكَذَا رَوَاهُ مَرْسَلًا. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مُتَّصِلًا فَقَالَ: حَدَّثَنَا عِشْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَمْرَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَتِ الْيَهُودُ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالُوا: نَأْكُلُ مِمَّا قَتَلْنَا وَلَا نَأْكُلُ مِمَّا قَتَلَ اللَّهُ؟! فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾. . . . الْآيَةَ (١). وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْأَعْلَى وَسَفِيَّانَ بْنِ وَكَيْعٍ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ ٢٨١٩ وَالتِّرْمِذِيُّ ٣٠٦٩ وَالعَطْرِيُّ ١٣٨٢٩، وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ، عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ صَدُوقٌ إِلَّا أَنَّهُ اخْتَلَطَ بِأَخْرَجَهُ، وَقَدْ اضْطَرَبَ فِيهِ، فَتَارَةً ذَكَرَ: قَالَ الْمُشْرِكُونَ. وَتَارَةً: قَالَ الْيَهُودُ. وَرَوَاةُ التِّرْمِذِيِّ: أَنَّى أَنَا. وَهَذَا الْاضْطِرَابُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَطَاءَ بْنَ السَّائِبِ رَوَاهُ بَعْدَ اخْتِلَاطِهِ، وَكَوْنِ السَّائِلِ الْيَهُودَ بَعِيدًا كَمَا ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ. فَانظُرْ كَلَامَهُ الْآخِي. عَقِبَ حَدِيثِ الطَّبْرَانِيِّ.

كلاهما عن عمران بن عُيَيْنة، به. ورواه البزار عن محمد بن موسى الحرْشِيِّ، عن عمران بن عُيَيْنة، به. وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة: أحدها: أن اليهود لا يَزُونَ إباحتها المَيْتَةَ حَتَّى يُجَادِلُوا. الثاني: أن الآية من الأنعام، وهي مكية. الثالث: أن هذا الحديث رواه الترمذِيُّ عن محمد بن موسى الحرْشِيِّ، عن زياد بن عبد الله البكائي، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس. ورواه الترمذِيُّ بلفظ: «أَتَى نَاسَ النَّبِيِّ - ﷺ - . . . فذكره وقال: حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ مَرْسَلًا.

[٢٩٦٥] وقال الطبراني: حدثنا علي بن المبارك، حدثنا زيد بن المَبَارَك، حدثنا موسى بن عبد العزيز، حدثنا الحَكَم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكَرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، أرسلت فارس إلى قُرَيْش: أن خاصموا محمداً وقولوا له: فَمَا تَذْبَح أنت بيدك بسكين فهو حلال، وما ذبح الله - عز وجل - بشمشير من ذهب - يعني الميتة - فهو حَرَام. فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجْبَدُوا لَهُمْ﴾ قال: الشياطين من فارس، وأولياؤهم قُرَيْش^(١).

[٢٩٦٦] وقال أبو داود: حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا إسرائيل، حدثنا سيمك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾، يقولون: ما ذَبَحَ الله فلا تأكلوه. وما ذبحتم أنتم فكلوه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكَرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾^(٢). ورواه ابن ماجه وابن أبي حاتم، عن عمرو بن عبد الله، عن وكيع، عن إسرائيل، به. وهذا إسناد صحيح. ورواه ابن جرير من طُرُقٍ مُتَعَدِّدة، عن ابن عباس، وليس فيه ذكر اليهود، فهذا هو المحفوظ، لأن الآية مكية، واليهود لا يحيون الميتة والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا جرير، عن عطاء عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكَرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، إلى قوله: ﴿لِيُجْبَدُوا لَهُمْ﴾، قال: يوحى الشياطين إلى أوليائهم تأكلون مما قتلتم، ولا تأكلون مما قتل الله! وفي بعض ألفاظه عن ابن عباس: إن الذي قتلتم ذكر اسم الله عليه، وإن الذي قد مات لم يذكر اسم الله عليه.

وقال ابن جُرَيْج: قال عمرو بن دينار، عن عكرمة: إن مشركي قُرَيْش كانوا فارس على الروم، وكتبهم فارس، وكتب فارس إلى مشركي قُرَيْش: «إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله، فما ذبح الله بسكين من ذبح فلا يأكله محمد وأصحابه، للميتة، وأما ما ذبحوا هم يأكلون. فكنت بذلك المشركون إلى أصحاب محمد - ﷺ - فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء، فأنزل الله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ . . . الآية، ونزلت: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾. وقال السدي في تفسير هذه الآية: إن المشركين قالوا للمؤمنين: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله، وما ذبح الله فلا تأكلونه،

(١) أخرجه الطبراني ١١٦١٤ وإسناده ضعيف لضعف علي بن مبارك، وفيه موسى بن عبد العزيز ضعفه علي المدني وغيره، وفيه الحكم بن أبان لينة الذهبي، وأخرجه الترمذي ٣٠٦٩ والنسائي ٢٣٧/٧ من طريقين عن ابن عباس وكلا الطريقين لا تخلوا من ضعف وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وأخرجه الطبري ١٣٨٠٩ و١٣٨١٠ من وجه آخر عن عكرمة مرسلًا، ليس فيه ذكر ابن عباس. فالخبر واه.

الخلاصة: ليس في تعيينهم خبر صحيح. وإسناد أبي داود الآتي صحيح على شرط مسلم، وليس فيه ذكر القوم الذين جادلوا في ذلك رسول الله ﷺ. وانظر كلام ابن كثير الآتي.

(٢) حسن. أخرجه أبو داود ٢٨١٨ وابن ماجه ٣١٧٣ من طريقين عن إسرائيل به وصحح إسناده المصنف، وحسبه أن يكون حسناً لأجل سماك بن حرب.

وما ذبحتم أنتم أكلتموه؟ فقال الله: ﴿وَلَنْ أَلْعَنُوهُمْ لَكُمْ لَمْتَرُونَ﴾، فأكلتم الميتة، ﴿لَكُمْ لَمْتَرُونَ﴾. وهكذا قال مجاهد، والضحاك، وغير واحد من علماء السلف، - رجمهم الله - .

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ أَلْعَنُوهُمْ لَكُمْ لَمْتَرُونَ﴾، أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشزعو إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك، كما قال تعالى: ﴿أَفَكَذَّبُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُفِعَتْهُمْ أَرْكَابًا بَيْنَ ذَوَيْ أَلْفِ﴾ [التوبة: ٣١]... الآية.

[٢٩٦٧] وقد روى الترمذي في تفسيرها عن عدي بن حاتم أنه قال: يا رسول الله، ما عبدوهم، فقال: بل إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال، فأبغروهم، فذلك عبادتهم إياهم^(١).

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

هذا مثل ضربته الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً، أي: في الضلالة هالكا حائراً، فأحياه الله، أي: أحياه قلبه بالإيمان، وهده له ووفقه لاتباع رسله. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾، أي: يهندي كيف يسلك وكيف يتصرف به. والنور هو القرآن، كما رواه العوفي وابن أبي طلحة، عن ابن عباس. وقال السدي: الإسلام، والكل صحيح. ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾، أي: الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾، أي: لا يهندي إلى منفذ، ولا يخلص مما هو فيه.

[٢٩٦٨] وفي مسند الإمام أحمد عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل»^(٢). كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وكما قال تعالى: ﴿أَمَّن يَمْشِي تَوَكُّبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَعْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٢﴾﴾ [الملك: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَلَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [هود: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿٦٧﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٦٨﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا النُّورُ ﴿٦٩﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْيَاءُ وَلَا الْأَنْثَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧٠﴾﴾ إنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٧١﴾﴾ [فاطر: ١٩-٢٣]. والآيات في هذا كثيرة، ووجه المناسبة في ضرب المثلين هاهنا بالنور والظلمات، ما تقدم في أول السورة: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ﴾. وقد زعم بعضهم أن المراد بهذا المثل رجلان معينان، فقيل: عمر ابن الخطاب هو الذي كان ميتاً فأحياه الله، وجعل له نوراً يمشي به في الناس. وقيل: عمار بن ياسر. وأما الذي في الظلمات ليس بخارج منها: أبو جهل عمرو بن هشام، لعنه الله. والصحيح أن الآية عامة، يدخل فيها كل مؤمن وكافر. ووقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي:

(١) تقدم في سورة المائدة.

(٢) جيد. أخرجه الترمذي ٢٦٤٢ وابن أبي عاصم في «السنن» ٢٤١ والأجري في «الشرعية» ٣٥١ من طريق يحيى بن أبي عمرو السيباني عن ابن الديلمي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ، وأخرجه أحمد ١٧٦/٢ وابن حبان ٦١٦٩ والحاكم ٣٠/١ وابن أبي عاصم في «السنن» ٢٤٤ واللالكائي ١٠٧٩ من طرق عن الأوزاعي عن ربيعة بن يزيد عن ابن الديلمي عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً. وصححه الحاكم وقال الهيثمي في «المجمع» ١٩٣/٧ - ١٩٤. رواه أحمد بإسنادين والبخاري والطبراني، ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات اهـ. وفي الباب أحاديث كثيرة.

حَسَنًا لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالَةِ، قَدَّرَ مِنْ اللَّهِ وَحِكْمَةً بِالْفِعْلِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَتَكَبَّرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [٢٣٦] وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [٢٣٧]

يقول تعالى: وكما جعلنا في قريتك - يا محمد - أكبر من المجرمين، ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله، وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]... الآية، قيل: معناه أمرناهم بالطاعات فمخالفوا، فدمرناهم. وقيل: أمرناهم أمراً قديراً، كما قال هاهنا: ﴿يَتَكَبَّرُوا فِيهَا﴾. وقال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِيهَا﴾، قال: سلطنا شرارها فقصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب.

وقال مجاهد وقتادة: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِيهَا﴾ قال: عظماءها. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [٢٤] وَقَالُوا نَحْنُ أَكْبَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [٢٥] ﴿سبا: ٣٤ - ٣٥﴾. وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْقٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. والمراد بالمكر هاهنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال، كما قال تعالى إخباراً عن قوم نوح: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ [٢٢] ﴿نوح: ٢٢﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا عَلَىٰ الْقَلِيلِ لَمَوْفِقُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [٢٦] قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا إِنَّمَنْ سَدَدْتُمْ عَنْ الْفِتْنَةِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلَ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ [٢٧] وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ الْإِنْسَانِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣]... الآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمير، حدثنا سفيان قال: كل مكر في القرآن فهو عمل. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَجْعَلَ لِقَائِهِمْ وَتَفَالًا مَّعَ أَقْبَالِهِمْ﴾ [المنكبات: ١٣]، وقال: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ الَّذِينَ يُبْسِلُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾، أي: إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة، قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾، أي: حتى نأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرسل، كقوله جل وعلا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْغُلَّتِيكَةُ أَوْ نُنزِلُ رِسَالًا﴾ [الفرقان: ٢١]... الآية.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، أي: هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [٢٨] أَمْرٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١ - ٣٢]... الآية، يعنون: لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير متبجل في أعينهم ﴿مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾، أي: مكة والطائف. وذلك لأنهم - قبحهم الله - كانوا يزودون بالرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بغياً وحسداً، وعناداً واستكباراً، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَاتِنَا كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانَ وَمِمَّا يَنْزَغُ الْإِنْسَانَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَاتِنَا كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الفرقان: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ﴾

يُرْسَلُ مِنْ قِبَلِكَ فَهَكَذَا بِالذِّبْرِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ [الأنعام: ١٠]. هذا وهم مُعْتَرِفُونَ بفضلِهِ وَشَرَفِهِ وَنَسَبِهِ، وَطَهَارَةِ بَيْتِهِ وَمَرْبَاهِ وَمَنْشِئِهِ، حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْمُونَهُ بَيْنَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ: الْأَمِينُ. وَقَدْ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ رَئِيسُ الْكُفَّارِ أَبُو سَفْيَانَ، حِينَ سَأَلَهُ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ: كَيْفَ نَسَبُهُ فَيْكُمْ؟ قَالَ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ. قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذْبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ: لَا. الْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ الَّذِي اسْتَدَلَّ بِهِ مَلِكُ الرُّومِ بِطَهَارَةِ صِفَاتِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - عَلَى صِدْقِهِ وَثُبُوتِهِ وَصِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ.

[٢٩٦٩] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُصْعَبٍ، حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ، عَنْ شَدَّادِ أَبِي عَمَّارٍ، عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْعَجِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(١). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسَلِّمٌ مِنْ حَدِيثِ الْأَوْزَاعِيِّ، وَهُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَمْرٍو، إِمَامٌ أَهْلِي الشَّامِ، بِهِ نَحْوُهُ.

[٢٩٧٠] وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قُرْنَا فُقْرْنَا، حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقُرْنِ الَّذِي كُنْتُ مِنْهُ»^(٢).

[٢٩٧١] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو نَعِيمٍ، عَنْ سَفْيَانَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ، عَنْ الْمَطْلَبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ قَالَ: قَالَ الْعَبَّاسُ: بَلَّغَهُ - ﷺ - بَعْضُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَصَعِدَ الْمَنْبِرَ فَقَالَ: «مَنْ أَنَا؟ قَالُوا: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، إِنْ اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ، وَخَلَقَ الْقِبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ. وَجَعَلَهُمْ بَيُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهَا بَيْتًا، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا»^(٣). صَدَقَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

[٢٩٧٢] وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا الْمَرْوِيُّ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «قَالَ لِي جَبْرِيلُ قَلْبْتُ الْأَرْضِ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا فَلَمْ أَجِدْ رَجُلًا أَفْضَلَ مِنْ مُحَمَّدٍ، وَقَلْبْتُ الْأَرْضِ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا فَلَمْ أَجِدْ بَنِي أَبِ أَفْضَلَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(٤). رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَابِيهَقِي.

[٢٩٧٣] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ، حَدَّثَنَا عَاصِمٌ، عَنْ زُرَّارِ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: إِنْ اللَّهُ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ - ﷺ - خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَتْهُ بِرِسَالَتِهِ. ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ - ﷺ - فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٢٧٦ والترمذي ٣٦١٠ وأحمد ١٠٧/٤ وأبو يعلى ٧٤٨٥ والبيهقي في «الدلائل» ١/١٦٦.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٥٧ وأبو يعلى ٦٥٥٣ من حديث أبي هريرة.

(٣) حسن. أخرجه أحمد ١/٢١٠ من طريق أبي نعيم به. وإسناده غير قوي لأجل يزيد، وأخرجه الترمذي ٣٥٣٢ و٣٦٠٨ من هذا الوجه عن المطلب بن أبي وداعة قال: جاء العباس إلى رسول الله - ﷺ - فكانه سمع شيئاً فقام النبي ﷺ على المنبر فقال: من أنا... فذكره. وقال: هذا حديث حسن غريب.

ويشهد له حديث عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث عند أحمد ١٦٥/٤ - ١٦٦ والطبراني في «الكبير» ٢٠/٢٨٦ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٨/٢١٤ - ٢١٥ وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

وفي الباب أحاديث انظر «مجمع الزوائد» ٨/٢١٣ - ٢١٥.

(٤) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ١٧٦/١ والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١٣٨٢٩ كلاهما من حديث عائشة وقال الهيثمي: فيه موسى بن عبيدة الربذي. وقال البيهقي بعد أن ذكر أحاديث أخر: هذه الأحاديث وإن كان في روايتها من لا تصح به، فبعضها يؤكد بعضاً والله أعلم.

وَزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسنٌ، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيئاً^(١).

[٢٩٧٤] وقال أحمدٌ: حَدَّثَنَا شُجَاعُ بْنُ الْوَلِيدِ قَالَ: ذَكَرَ قَابُوسُ بْنُ أَبِي ظَلْيَانَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَلْمَانَ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - «يَا سَلْمَانُ، لَا تُبَغِّضَنِي فَتَفَارِقَ دِينَكَ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ أَبْغِضُكَ وَبِكَ هَدَانَا اللَّهُ؟ قَالَ: تُبَغِّضُ الْعَرَبَ فَتُبَغِّضَنِي»^(٢). وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ذُكِرَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَنْصُورِ الْجَوَّازِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ ابْنِ أَبِي حُسَيْنٍ قَالَ: أَبْصَرَ رَجُلٌ ابْنَ عَبَّاسٍ وَهُوَ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ رَأَاهُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: ابْنُ عَبَّاسِ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -. قَالَ: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ».

وقوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾... الآية، هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد، لمن تكبر عن اتباع رُسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه سيُصيبه يومَ القيامة بين يدي الله ﴿صَغَارٌ﴾ وهو الذلة الدائمة، كما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذُلًا يومَ القيامة لما استكبروا في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [خافر: ٦٠]، أي: صاغرين ذليلين حقيرين. وقوله تعالى: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، لما كان المكفر غالباً إنما يكون خفياً، وهو التلطف في التحليل والخديعة، فويلوا بالعذاب الشديد جزاءً وفاقاً، ﴿وَلَا يَظَلُّرُ رَبُّكَ أَمْدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبَىٰ أَسْرَابُهُمْ﴾ [الطارق: ٩]، أي: تظهر المستترات والمكونات والضمائر.

[٢٩٧٥] وجاء في الصحيحين، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لُؤَاءٌ عِنْدَ اسْتِوَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ بِنِ فُلَانٍ»^(٣). والحكمة في هذا أنه لما كان الغدْرُ خفياً لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، أي: يُيسره له ويُنسطه ويُسهله لذلك، فهذه علامة على الخير كما قال تعالى: ﴿أَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]... الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِيسْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]. قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، يقول: «يُوسِّعُ قَلْبَهُ لِلتَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِهِ». وكذا قال أبو مالك، وغير واحد. وهو ظاهر.

(١) موقوف. أخرجه أحمد ٣٧٩/١ والطبراني في «الكبير» ٨٥٨٣ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٧/١ - ١٧٨: ورجال موثوقون.

(٢) منكر. أخرجه أحمد ٤٤٠/٥ والحاكم ٨٦/٤ ح ٦٩٩٥. صححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: قابوس - بن أبي ظبيان - تكلم فيه اه. وجاء في الميزان ٦٧٨٨ كان ابن معين شديد الخط عليه، على أنه قد وثقه، وقال أبو حاتم: لا يحتج به. وقال ابن حبان: رديء الحفظ، ينفرد عن أبيه بما لا أصل له، وربما رفع المرسل، وأسند الموقوف اه وهو كما قال ابن حبان، فالتمن منكر، وقد رواه عن أبيه.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٨٦ ومسلم ١٧٣٦ وابن ماجه ٢٨٧٢ وابن حبان ٧٣٤١ والبيهقي ١٦٠/٩ من حديث ابن مسعود.

[٢٩٧٦] وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مَرْة، عن أبي جعفر قال: سُئِلَ النَّبِيُّ - ﷺ - : «أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْبَرُ؟» قال: «أَكْبَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ، وَأَكْثَرُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا.» قال: وَسُئِلَ النَّبِيُّ - ﷺ - عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، قالوا: «كَيْفَ يَشْرَحْ صَدْرَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟» قال: «نُورٌ يُقَدِّفُ فِيهِ، فَيَنْشُرِحُ لَهُ وَيَنْفَسِحُ.» قالوا: «فَهَلْ لَذَلِكَ مِنْ أَمَارَةٍ يُعْرَفُ بِهَا؟» قال: «الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ لِقَاءِ الْمَوْتِ»^(١).

[٢٩٧٧] وقال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا قبيصة، عن سفيان، يعني الثوري، عن عمرو بن مَرْة، عن رَجُلٍ يَكْنَى أَبُو جَعْفَرٍ كَانَ يَسْكُنُ الْمَدَائِنَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - عَنْ قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾، فَذَكَرَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ^(٢).

[٢٩٧٨] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن إدريس، عن الحسن بن الفرات القزاز، عن عمرو بن مَرْة، عن أبي جعفر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، قال رسول الله - ﷺ -: «إِذَا دَخَلَ الْإِيمَانُ الْقَلْبَ انْفَسَحَ لَهُ الْقَلْبُ وَانْشَرَحَ صَدْرُهُ.» قالوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لَذَلِكَ مِنْ أَمَارَةٍ؟» قال: «نَعَمْ الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ الْمَوْتِ»^(٣). وقد رواه ابن جرير، عن سوار بن عبد الله العنبري، حدثنا المعتمر ابن سليمان، سمعت أبي يحدث عن عبد الله بن مَرْة، عن أبي جعفر، فذكره.

[٢٩٧٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مَرْة، عن عبد الله بن المسور قال: تلا رسول الله - ﷺ - هذه الآية: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، قالوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا الشَّرْحُ؟» قال: «نُورٌ يُقَدِّفُ بِهِ فِي الْقَلْبِ.» قالوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَهَلْ لَذَلِكَ مِنْ أَمَارَةٍ تُعْرَفُ؟» قال: «نَعَمْ.» قالوا: «وَمَا هِيَ؟» قال: «الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ الْمَوْتِ»^(٤).

[٢٩٨٠] وقال ابن جرير أيضاً: حدثني هلال بن العلاء، حدثنا سعيد بن عبد الملك بن واقد، حدثنا محمد بن سلمة، عن أبي عبد الرحيم، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عمرو بن مَرْة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ انْفَسَحَ وَانْشَرَحَ.» قالوا: «فَهَلْ لَذَلِكَ مِنْ أَمَارَةٍ يُعْرَفُ بِهَا؟» قال: «الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ لِقَاءِ الْمَوْتِ»^(٥).

(١) واه بمره. أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٨٥٢ ومن طريقه الطبري ١٣٨٥٧ و ٣٨٥٦ و ٣٨٥٨ و البيهقي في «الصفات» ٢٥٧/١ وهذا إسناد ساقط فمع إرساله تابعيه، وهو أبو جعفر المدائني ذكره الذهبي في «الميزان» ٤٦٠٨ فقال: قال أحمد وغيره: أحاديثه موضوعة، وقال النسائي والدارقطني: متروك.

(٢) واه بمره. أخرجه الطبري ١٣٨٥٨، وانظر الحديث المتقدم.

(٣) واه بمره. الطبري ١٣٨٥٦ عن أبي جعفر به. وإسناده ساقط.

(٤) أخرجه البيهقي في «الصفات» ٢٥٨/١ بهذا الإسناد، وإسناده ساقط كسابقه، عبد الله بن مسور هو أبو جعفر المدائني نفسه فالروايات المتقدمة كلها تدور على أبي جعفر هذا وهو متهم بالوضع.

(٥) أخرجه الطبري ١٣٨٥٩، وإسناده ساقط. أبو عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود منقطع، وسعيد بن عبد الملك روى موضوعات. وانظر ما بعده.

[٢٩٨١] وقد رواه ابن جرير من وجه آخر عن ابن مسعود متصلاً مرفوعاً، فقال: حدثني ابن سنان القرّاز، حدثنا محبوب بن الحسن الهاشمي، عن يونس، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله - ﷺ - قال: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ»، قالوا: يا رسول الله، وكيف يُشْرَحْ صدره؟ قال: يدخل فيه النورُ فينفسح. قالوا: وهل لذلك علامةٌ يا رسول الله؟ قال: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعدادُ للموت قبل أن ينزل الموت^(١). فهذه طرق لهذا الحديث مرسلةً ومتصلةً^(٢)، يَشُدُّ بعضها بعضاً، والله أعلم.

وقوله تعالى: «وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُبَيِّنَ لَكَ بِمَعْلَمٍ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرِيًّا» قرأ بعضهم «ضَيِّقًا» بفتح الضاد وتسكين الياء، والأكثرون: «ضَيِّقًا» بتشديد الياء وكسرها، وهما لغتان: كَهَيِّنَ وَهَيَّنَ. وقرأ بعضهم: «حَرِيًّا» بفتح الحاء وكسر الراء، قيل: بمعنى أتم. قاله السدي. وقيل: بمعنى القراءة الأخرى «حَرِيًّا» بفتح الحاء والراء، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ولا ينقذ فيه.

وقد سأل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مُذَلِّجٍ: ما الحَرَجَةُ؟ قال: هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية، ولا وُحْشِيَّة، ولا شيء. فقال عمر - رضي الله عنه -: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير. وقال العوفي عن ابن عباس: يجعل الله عليه الإسلام ضَيِّقًا، والإسلام واسع. وذلك حين يقول: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»، يقول: ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق. وقال مجاهد والسدي: «ضَيِّقًا حَرِيًّا»: شاكاً. وقال عطاء الخراساني: «ضَيِّقًا حَرِيًّا»: ليس للخير فيه منفذ. وقال ابن المبارك، عن ابن جرير: «ضَيِّقًا حَرِيًّا»: بلا إله إلا الله، حتى لا يستطيع أن تدخله، كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه. وقال سعيد بن جبّير: يجعل صدره «ضَيِّقًا حَرِيًّا»، قال: لا يجد فيه مسلماً إلا صُعُداً. وقال السدي: «كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ» من ضيق صدره. وقال عطاء الخراساني: «كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ»، يقول: مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد في السماء. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: «كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ»، يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه، حتى يدخله الله في قلبه. وقال الأوزاعي: «كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ»، كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقاً أن يكون مسلماً.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: وهذا مثل ضربَه الله لقلب هذا الكافر في شدة تضيقه إياه عن وصول الإيمان إليه، يقول: فمثله في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصعود إلى

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ١٣٨٦١ بهذا الإسناد وهو معضل بين عبد الرحمن بن عبد الله وجده ابن مسعود وعبد الرحمن هو السعدي، اختلط. وورد موصولاً أخرجه الحاكم ٣١١/٤ ح ٧٨٦٣ والبيهقي في «الشعب» ١٠٥٥٢ وإسناده واه بمره. سكت عليه الحاكم، وقال الذهبي: عدي بن الفضل، ساقط. وذكره في الميزان ٥٥٩٣ فقال: قال ابن معين وأبو حاتم: متروك، وقال يحيى: لا يكتب حديثه، وقال غير واحد: ضعيف اهد وله علة ثانية عبد الرحمن بن عبد الله هو السعدي اختلط بأخرة. فالخير واه جداً لا حجة فيه والله أعلم.

(٢) ليس كما قال الحافظ رحمه الله، فالمرسل مداره على أبي جعفر المدائني، وكأنه خفي حاله على الحافظ رحمه الله، مع أنه متهم بالكذب كما تقدم آنفاً. وأما حديث ٢٩٧٩ فربما ظهر لابن كثير أنه مرسل آخر، وليس كذلك فإنما هو أبو جعفر المدائني نفسه، وأما حديث ابن مسعود فليس بمتصل كما تقدم بيانه. والطريق المتصل ذكرته، وفيه رجل متروك، فالخير واه لا يشد بعضه بعضاً خلافاً للحافظ ابن كثير، ثم إن المتن أشبه بكلام الوعاظ. والله أعلم.

السماء وَعَجَزُوهُ عَنْهُ، لأنه ليس في وُسْعِهِ وطاقته. وقال في قوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، يقول: كما يجعلُ الله صَدْرَ من أراد إضلاله ضَيْقًا حَرْجًا، كذلك يسُلطُ الله الشيطانَ عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمانَ بالله ورسوله، فَيُغْوِيهِ ويصُدُّه عن سبيلِ الله. قال ابنُ أبي طلحة، عن ابنِ عباس: الرِّجْسُ: الشيطان. وقال مجاهد: الرِّجْسُ: كلُّ ما لا خير فيه. وقال عبد الرحمن بنُ زيد بن أسلم: الرِّجْسُ: العذاب.

﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ ﴿لَهُمْ دَارُ السَّكْرَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ

وَلِيُّهُمْ يَمَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

لما ذكر تعالى طريقة الضالين عن سبيله، الصادقين عنها، تَبَّه على أشرف ما أُرسل به رَسوله من الهدى ودين الحق، فقال تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾، منصوبٌ على الحال، أي: هذا الدين الذي شَرَعناه لك - يا محمد - بما أوحينا إليك هذا القرآن، هو صراطُ الله المستقيم.

[٢٩٨٢] كما تقدم في حديث الحارث عن علي في نَعْبِ القرآن: «وهو صراطُ الله المستقيم، وحبلُ الله المتين، وهو الذكرُ الحكيم»^(١). رواه أحمد والترمذي بطوله. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾، أي: قد وَضَحناها وبيَّناها وفسَّرناها، ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، أي: لمن له فَهْمٌ ووعيٌ يعقل عن الله ورسوله. ﴿لَهُمْ دَارُ السَّكْرَةِ﴾، وهي: الجنة، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، أي: يومُ القيامة. وإنما وَصَفَ الله الجنةَ ها هنا بدار السلام لسلامتهم فيما سَلَكَوه من الصُّراطِ المستقيم، المقتضى أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سَلِموا من آفاتِ الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾، أي: والسلام - وهو الله - وليُّهم، أي: حافظُهم وناصرُهم ومؤيدُهم، ﴿يَمَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾، أي: جزاءً على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة، بمنه وكرمه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْرَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَوَلَعْنَا أَلْبَانًا الَّذِي أَجَلْتُمْ لَنَا قَالِ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

يقول تعالى: واذكر - يا محمد - فيما تقصُّه عليهم وتذكِّرهم به ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾، يعني الجن وأولياءهم ﴿مِنَ الْإِنْسِ﴾ الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويعودون بهم ويُطيعونهم، ويُوحي بعضهم إلى بعض زخرف القولِ غروراً: ﴿يَمَعَشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْرَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾، أي ثم يقول: يا معشرَ الجن. وسياقُ الكلام يدلُّ على المحذوف. ومعنى قوله: ﴿قَدْ اسْتَكْرَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾، أي: من إضلالهم وإغوائهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بِنَبِيِّنَا مَاذَمَ أَنْ لَا تَبْذُرُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ وَأَنْ تَعْبُدُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٢٦﴾ وَلَقَدْ أَسْرَلْنَا بِرَبِّكَ كَيْدًا كَثِيرًا أَقْلَمَ تَكْرُورًا تَقُولُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابنِ عباس: ﴿يَمَعَشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْرَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾، يعني: أضللتهم منهم كثيراً. وكذلك قال مجاهد، والحسن، وقتادة. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾، يعني: أن أولياءَ الجنِّ من الإنس قالوا مُجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الأشهب هوذة بن خليفة، حدثنا عوف، عن الحسن في هذه الآية قال: استكثر ربكم أهل النار يوم القيامة، فقال أولياؤهم من الإنس: ربنا استمتع بعضنا ببعض. قال الحسن: وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت، وعملت الإنس. وقال محمد بن كعب في قوله: ﴿رَبَّنَا أَسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾، قال: الصحابة في الدنيا.

وقال ابن جرير: كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض، فيقول: «أعوذ بكبير هذا الوادي». ذلك استمتاعهم، فاعتذروا يوم القيامة. وأما استمتاع الجن بالإنس فإنه كان - فيما ذكر - ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم في استعازتهم بهم، فيقولون: قد سئنا الإنس والجن. ﴿وَيَقْتُلُوا آلَ مَنْ آذَىٰ أَبْلَغَتْ لَأَنَّهُ﴾ قال السدي: أي الموت. قال: ﴿أَنَّا نُرَىٰ مَوْتَنَا﴾، أي: ما واكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم. ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾، أي: ما كاشين فيها مكثاً مخلداً إلا ما شاء الله. قال بعضهم: يرجع معنى الاستثناء إلى البرزخ: وقال بعضهم: هذا رد إلى مدة الدنيا. وقيل غير ذلك من الأقوال التي سيأتي تقريرها عند قوله تعالى في سورة هود: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]. وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن صالح، كاتب الليث: حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: ﴿أَنَّا نُرَىٰ مَوْتَنَا خَلِيلِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾. قال: إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، لا ينزلهم جنة ولا ناراً.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [١٢٩]

قال سعيد، عن قتادة في تفسيرها: إنما يؤلي الله الناس بأعمالهم، فالمؤمن ولي المؤمن أين كان وحيث كان، والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي. واختار هذا القول ابن جرير. وقال معمر، عن قتادة في تفسيرها: ﴿نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾، في النار، يتبع بعضهم بعضاً. وقال مالك بن دينار: قرأت في الزبور: إني أنتقم من المنافقين بالمنافقين، ثم أنتقم من المنافقين جميعاً، وذلك في كتاب الله وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾، قال: ظالمي الجن وظالمي الإنس، وقرأ: ﴿وَمَنْ يَقْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَّهُمْ سَيْطَانًا فَهُوَ لَهُمْ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، قال: ونسب ظلمة الجن على ظلمة الإنس.

[٢٩٨٣] وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الباقي بن أحمد، من طريق سعيد بن عبد الجبار الكرابيسي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود مرفوعاً: «من أعان ظالماً سألته الله عليه»^(١). وهذا حديث غريب، وقال بعض الشعراء:

وما من يدٍ إلا يدُ الله فوقها ولا ظالمٍ إلا سيبلى بظالمٍ

ومعنى الآية الكريمة: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن، كذلك

(١) باطل. ذكره السخاوي في «المقاصد» ١٠٦٣ وقال: أخرجه ابن عساكر في تاريخه من جهة الحسن بن علي بن زكريا عن سعيد بن عبد الجبار الكرابيسي به. قال: وابن زكريا هو العدوي، منهم بالوضع، فهو آفته، وذكره الديلمي بلا سند عن ابن مسعود. وبالجملة فمعناه صحيح اهـ وهو كما قال السخاوي رحمه الله معناه صحيح، فكل من يعين والياً على ظلم المسلمين، وغير ذلك، فلا بد أن ينزله الله ويذله سواء على يدي ذلك الظالم أم غيره، نسأل الله السلامة.

نعمل بالظالمين، نسلط بعضهم على بعض، ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم من بعضهم ببعض، جزاء على ظلمهم وبغيهم.

﴿يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَّا يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَفْصَحُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَنُذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَعَرَّضْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

وهذا أيضاً مما يُقرِّعُ الله - سبحانه وتعالى - به كافرِي الجنِّ والإنس يومَ القيامة، حيث يسألهم - وهو أعلم -: هل بلغتهم الرُّسلُ رسالاته؟ وهذا استفهامٌ تقريرٍ: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَّا يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ﴾، أي: من جملتكم. والرُّسلُ من الإنس فقط، وليس من الجنِّ رُسلٌ، كما قد نصَّ على ذلك مجاهدٌ، وابن جريرٍ وغيرُ واحد من الأئمة، من السلف والخلف. وقال ابنُ عباس: الرُّسلُ من بني آدم، ومن الجنِّ نُذرٌ. وحكى ابنُ جريرٍ، عن الضُّحَّاك بن مَراحِم: أنه زَعَم أن في الجنِّ رُسلًا، واحتجَّ بهذه الآية الكريمة، وفي الاستدلال بها على ذلك نظر، لأنها مُحتملةٌ وليست بصريحية، وهي - والله أعلم - كقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٦١﴾﴾، أي: المالح والحلو ﴿يَلْتَقِيَانِ بَرَجٌ لَا يَبْيِغِيَانِ ﴿١٦٢﴾﴾ إلى أن قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿١٦٣﴾﴾ [الرحمن: ١٩ - ٢٢]، ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما يُستخرجان من الملح لا من الحلو. وهذا واضحٌ والله الحمد. وقد نصَّ على هذا الجواب بعينه ابنُ جريرٍ. والدليلُ على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالذِّكْرَيْنِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى أن قال: ﴿رُسلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجْمَةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته، ولم يقل أحدٌ من الناس: إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل، ثم انقطعت عنهم ببعثته. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ومعلوم أن الجنَّ تبع للإنس في هذا الباب، ولهذا قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنذِرِينَ ﴿١٦١﴾﴾ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَّا طَافُوا فِي سُبُلٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦٢﴾ يَنْقُومُنَا لِيَجِئُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يَتَفَرَّغُونَ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُحْرِكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيبِ ﴿١٦٣﴾ وَمَنْ لَا يُجِيبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنَ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي سَلَاطِنٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [الاحقاف: ٢٩ - ٣٢].

[٢٩٨٤] وقد جاء في الحديث - الذي رواه الترمذي وغيره - أن رسول الله - ﷺ - تلا عليهم سورة الرحمن، وفيها قوله تعالى: ﴿سَنُرِيكُمْ آيَاتِنَا فَتَوَلَّوْنَ ﴿١٦١﴾﴾ فَأَيُّ آيَةٍ رَّبَّكُمَا تَكْفُرَانِ ﴿١٦٢﴾﴾ [الرحمن: ٣١ - ٣٢].^(١) وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَّا يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَفْصَحُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَنُذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾، أي: أقرنا أن الرُّسلُ قد بلغونا رسالاتك، وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة. وقال تعالى: ﴿وَعَرَّضْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، أي: وقد فرطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم للمعجزات، لما اغتروا به من زُخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها، ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: يوم القيامة ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾، أي: في الدنيا، بما جاءتهم به الرُّسلُ، صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين.

(١) سيأتي تحريج الحديث هناك إن شاء الله تعالى، وهو غير قوي.

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ يُظَلِّمِ وَأَهْلَهَا غَفَلُونَ ﴿١٣٦﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ يُظَلِّمِ وَأَهْلَهَا غَفَلُونَ ﴿١٣٦﴾﴾، أي: إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب، لئلا نعاقب أحداً بظلمه وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعذرنا إلى الأمم، وما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلٰوةَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا آتَىٰ فِيهَا نَوْجٌ سَأَلْتُمْ مَنْ رَبَّنَا ۖ لَمْ يَقُولُوا إِلَّا مَا أَكَلْنَا وَمَا كُنَّا بِمُعَذِّبِينَ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: ٨-٩]، والآيات في هذا كثيرة.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير: وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يُظَلِّمِ﴾ وَجِهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّ رَبَّكَ لَمْ يَكُنْ لِيَهْلِكَ الْفَرَىٰ بِظُلْمِ أَهْلِهَا بِالشُّرْكِ وَنَحْوِهِ، وَهَمْ غَافِلُونَ، يَقُولُ: لَمْ يَكُنْ يَعاجلهم بِالْعُقُوبَةِ حَتَّىٰ يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا يُنَبِّئُهُمْ عَلَىٰ حُجُجِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَيُنذِرُهُمْ عَذَابَ اللَّهِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ بِالَّذِي يُؤَاخِذُهُمْ غَفْلَةً فَيَقُولُوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩]. وَالْوَجْهَ الشَّانِي: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ يُظَلِّمِ﴾، يَقُولُ: لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ لِيَهْلِكُهُمْ دُونَ التَّيْبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ بِالرُّسُلِ وَالآيَاتِ وَالْعِبَرِ، فَيُظَلِّمُهُمْ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ غَيْرُ ظَلَامٍ لِعَبِيدِهِ. ثُمَّ شَرَعَ يَرْجِعُ الْوَجْهَ الْأَوَّلَ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ أَقْوَىٰ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقال: قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾، أي: ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من عمله يُبَلِّغُهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، وَيُنَبِّئُهُ بِهَا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ. قُلْتُ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ قَوْلُهُ: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾، أَي: مِنْ كَافِرِي الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، أَي: وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ فِي النَّارِ بِحَسَبِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ذَنبَهُمْ عَذَابٌ قَوِّقَ الْأَعْنَابِ يَمَسُّ مَا كَانُوا يَقْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨]. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَي وَكُلِّ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِمْ - يَا مُحَمَّدُ - بِعِلْمٍ مِنْ رَبِّكَ، يُحْصِيهَا وَيُنَبِّئُهَا لَهُمْ عِنْدَهُ، لِيَجَازِيَهُمْ عَلَيْهَا عِنْدَ لِقَائِهِمْ إِيَّاهُ وَمَعَادِهِمْ إِلَيْهِ.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوِيمٍ أَخْسِرُونَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٧﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ لِي أَخْلِفَ فَرْسَوْكُمْ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿الْغَفِيُّ﴾، أَي: عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَهَمَّ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ، ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾، أَي: وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ رَحِيمٌ بِهِمْ رُؤُوفٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْكَافِرِينَ لَشَدِيدٌ رَجِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، أَي: إِذَا خَالَفْتُمْ أَمْرَهُ ﴿وَيَسْتَخْلِفُ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾، أَي: قَوْمًا آخَرِينَ، أَي: يَعْمَلُونَ بِطَاعَتِهِ، ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوِيمٍ أَخْسِرُونَ﴾، أَي: هُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ ذَلِكَ، سَهْلٌ عَلَيْهِ، يَسِيرٌ لَدَيْهِ، كَمَا أَذْهَبَ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ وَأَتَىٰ بِالَّذِي بَعْدَهَا، كَذَلِكَ هُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ إِذْهَابِ هَؤُلَاءِ وَالْإِتْيَانِ بِآخَرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ

الْفُكْرَاءُ لَئِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾ [محمد: ٣٨]. وقال مُحَمَّد بن إِسْحَاقَ، عن يعقوب بن عُتْبَةَ قال: سَمِعْتُ أَبَانَ بنَ عَثْمَانَ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ مُّاعِزِينَ﴾: الذَّرِيَّةُ: الْأَصْلُ، وَالذَّرِيَّةُ: النَّسْلُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تُوَعَّدُونَ لَأَتِيَنَّ وَمَا أَنْشَأَ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أَي: أَخْبِرَهُمْ - يَا مُحَمَّد - أَنَّ الَّذِي يُوعَدُونَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ كَانَتْ لَا مُحَالَةً، ﴿وَمَا أَنْشَأَ بِمُعْجِزِينَ﴾، أَي: وَلَا تُعْجِزُونَ اللَّهَ، بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ، وَإِنْ صِرْتُمْ تَرَابًا رُفَاتًا وَعِظَامًا هُوَ قَادِرٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

[٢٩٨٥] وقال ابن أبي حاتم في تفسيرها: حدثني أبي، حدثنا محمد بن المصفي، حدثنا محمد بن جُمَيْرٍ، عن أبي بكر بن أبي مُرَيْمٍ، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - أنه قال: «يا بني آدم، إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى. والذي نفسي بيده إن ما توعدون لآت وما أنتم بمُعْجِزِينَ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَقُولُ أَغْلَوْنَا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، أي: استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تطئنون أنكم على هدى، فانا مستمرٌ على طريقي ومنهجي، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَغْلَوْنَا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَايِلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود: ١٢١ - ١٢٢]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿عَلَى مَكَاتِكُمْ﴾، أي: ناحيتكم. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، أي: أنكون لي أو لكم. وقد أنجز موعوده له - صلوات الله عليه - فإنه تعالى مكن له في البلاد، وحكمه في نواصي مخالفه من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناواه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكل ذلك في حياته. ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه، - رضي الله عنهم - أجمعين. كما قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَحْمَدَ أَنَا رَسُولُ ﴿١٤﴾﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١ - ٥٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الْعَادِلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى إخباراً عن رسله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلَهُمْ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ وَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [النور: ١٠٥]... الآية، وقد فعل الله تعالى ذلك بهذه الأمة المحمدية، وله الحمد والمئة أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

(١) ضعيف، أخرجه البيهقي في «الشعب» ١٠٥٦٤ بهذا الإسناد، لكن باتم منه، وهو ضعيف لأجل أبي بكر بن أبي مریم. قال الذهبي في «الميزان» ١٠٠٦: ضعيف عندهم. ضعفه أحمد وغيره لكثرة ما يغلط، وقال ابن حبان: رديء الحفظ، لا يحتج به إذا انفرداه وشيخه محمد بن جبير غير قوي.

هذا ذم وتوبيخ من الله تعالى للمشركين الذي ابتدَعُوا بَدْعًا وَكُفْرًا وَشِرْكَاءَ، وجعلوا له جزءاً من خلقه، وهو خالق كل شيء، سبحانه وتعالى عما يشركون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِثْلَ ذَرًّا﴾، أي: مما خلق ويزاً ﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾ أي: من الزروع والثمار ﴿وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾، أي: جزءاً وقسماً، ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾. وقوله: ﴿فَمَا كَانَتْ لَشُرَكَائِهِمْ فَمَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهَوُ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، والعمري، عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية: إن أعداء الله كانوا إذا حَرَثُوا حَرْثًا، أو كانت لهم ثَمرة، جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثَمرة أو شيء من نصيب الأوثان حَفِظُوهُ وَأَحْصَوْهُ. وإن سقط منه شيء فيما سُمي للصد زِدُوهُ إلى ما جَعَلُوهُ لِلوثن. وإن سَبَقَهُم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جَعَلُوهُ لله جَعَلُوا ذلك للوثن. وإن سقط شيء من الحرث والثمر التي جعلوا لله فاختلط بالذي جَعَلُوهُ للوثن، قالوا: هذا فقير. ولم يزدوه إلى ما جَعَلُوهُ لله. وإن سَبَقَهُم الماء الذي جَعَلُوهُ لله، فسقى ما سُمي للوثن، تَرَكُوهُ للوثن، وكانوا يُحَرِّمُونَ من أموالهم البَجيرة والسائبة والوصيلة والحام، فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يُحَرِّمُونَهُ قربة لله، فقال الله - عز وجل -: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِثْلَ ذَرًّا مِّنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾... الآية. وهكذا قال مجاهد، وقناة، والسدي، وغير واحد. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسيرها: كل شيء جَعَلُوهُ لله من ذبح يذبحونه، لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا مَعَهُ أسماء الآلهة. وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه، وقرأ الآية حتى بَلَغَ: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾. أي: ساء ما يقسمون، فإنهم أخطؤوا أولاً في القسمة، فإن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه، وله الملك، وكل شيء له وفي تصرفه وتحت قدرته ومشيئته، لا إله غيره، ولا رب سواه. ثم لما قَسَمُوا فيما زعموا لم يحفظوا القسمة التي هي فاسدة، بل جَاؤُوا فيها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِمَن يُعْبُدُونَ جُزْءًا مِّنَ الْإِنْسَانِ لِكُفْرٍ مِّمَّنْ ﴿١٥﴾﴾ [الزخرف: ١٥]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ هُمْ كَانُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِثْلٍ خَلْتٍ ﴿١٦﴾﴾ [النجم: ٢١ - ٢٢].

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُرِدُّوهُمْ وَلِيَاسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْعَلُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

يقول تعالى: وكما زَيْنَتِ الشياطينُ لهؤلاء المشركين أن جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، كذلك زَيْنُوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، وأد البنات خشية العار. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءُهُمْ﴾، هم زَيْنُوا لهم قتل أولادهم. وقال مجاهد: شركاؤهم: شياطينهم، يأمرؤنهم أن يَبِيدُوا أولادهم خشية العيلة. وقال السدي: أمرتهم الشياطين أن يَقْتُلُوا البنات وأما ﴿لِيُرِدُّوهُمْ﴾ فيهلكوهم، وأما ﴿وَلِيَاسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾، فيخيلطوا عليهم دينهم. ونحو ذلك قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَشَّرْنَا مَثَلًا لِّقَوْمٍ فَطَّلَوْا وَجْهَهُمْ مُسْوَدًّا وَهُمْ كَاطِمُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩] الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨ - ٩]. وقد كانوا أيضاً يقتلون الأولاد من الإملاق، وهو الفقر؛ أو خشية الإملاق أن يحصل لهم في تلف المال، وقد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك، وإنما كان هذا كله من شرع الشيطان وتزيينه لهم ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾، أي: كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كوناً، وله الحكمة التامة في ذلك، فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

﴿فَدَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، أي: فدَعَهُمْ واجْتَنَبَهُمْ وما هُمْ فيه، فَسَيَحْكُمُ اللهُ بينك وبينهم.
 ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أُنْعَمٌ وَّحَرَّتْ جِبْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعَمُوا حُرِّمَتْ طُهُورُهَا وَأَنْعَمُوا
 لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفْتَرَاءً عَلَيْهِمْ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الجِبْرُ: الحِجْرُ، ما حُرِّمَ من الوصيلة، وتحريم ما حُرِّموا... وكذلك قال مجاهد، والضحاك، والسدي، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أُنْعَمٌ وَّحَرَّتْ جِبْرٌ﴾... الآية: تحريم كان عليهم من الشياطين في أموالهم، وتغليظ وتحديد، وكان ذلك من الشياطين، ولم يكن من الله تعالى. وقال ابن زيد بن أسلم: ﴿جِبْرٌ﴾، إنما احتجروها لآلهمتهم. وقال السدي: ﴿لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِزْقِهِمْ﴾، يقولون: حرام أن نطعم إلا من نشاءنا. وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿قُلْ آيَةُ رَبِّكَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ بَيْنَهُمْ حَرَامًا وَمَلَكًا قُلْ مَا لِلَّهِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِتَقْوَى اللَّهِ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَأَكْرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [المائدة: ١٠٣]. وقال السدي: أما أنعام حُرِّمَتْ طُهُورُهَا فهي البجيرة والسائبة والحام، أما الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها، قال: لا إذا أولدوها، ولا إن تحروها.

وقال أبو بكر بن عبيد، عن عاصم بن أبي النجود، قال لي أبو وائل: تَدْرِي ما في قوله: ﴿وَأَنْعَمُوا حُرِّمَتْ طُهُورُهَا وَأَنْعَمُوا لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾؟ قلت: لا. قال: هي البجيرة، كانوا لا يحجون عليها. وقال مجاهد: كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيء من شأنها، لا إن ركبوا، ولا إن حلبوا، ولا إن حملوا، ولا إن سحبوا، ولا إن عملوا شيئاً. ﴿أَفْتَرَاءً عَلَيْهِمْ﴾، أي: على الله، وكذباً منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعيه، فإنه لم يأذن لهم في ذلك ولا رضيهم منهم، ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: أي: عليه، ويستبدون إليه.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ إِلَيْنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيْنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلَيْهِ ﴿١٣٩﴾﴾

قال أبو إسحاق السبيعي، عن عبد الله بن أبي الهذيل، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ إِلَيْنَا﴾... الآية، قال: اللبن. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ إِلَيْنَا﴾... الآية، فهو اللبن، كانوا يحرمونه على إناثهم، ويشربونه ذكراهم. وكانت الشاة إذا ولدت ولداً ذكراً ذبحوه، وكان للرجال دون النساء. وإن كانت أنثى تركت فلم تُذبح، وإن كانت مَيْتَةً فهم فيه شركاء. فنهى الله عن ذلك. وكذا قال السدي. وقال الشعبي: البجيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء. وكذا قال عكرمة، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ إِلَيْنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيْنَا﴾، قال: هي السائبة والبجيرة. وقال أبو العالية، ومجاهد، وقتادة في قوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ﴾، أي: قولهم الكذب في ذلك. يعني كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَقَدْ تَقَرَّرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [النحل: ١١٦-١١٧]... الآية. ﴿إِنَّهُمْ حَكِيمٌ﴾، أي: في أفعاله وأقواله وشرعيه، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بما قال عباده من خيرٍ وشرٍّ، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفَرَّآءَ عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٤٠)

يقول تعالى: قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فمخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل يكذبهم على الله وافترائهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَقْلِحُونَ﴾ (١٤١) متع في الدنيا ثم إننا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون (١٤٢) ﴿لونس: ٦٩ - ٧٠﴾.

وقال الحافظ أبو بكر بن مرزويه في تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن أيوب، حدثنا عبد الرحمن بن المبارك، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فارقاً ما فوق الثلاثين والمئة من سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفَرَّآءَ عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٤٠) (١). وهكذا رواه البخاري منفرداً في كتاب مناقب قريش من صحيحه، عن أبي النعمان محمد بن الفضل عارم، عن أبي عوانة - واسمه الوضاح بن عبد الله البشكري - عن أبي بشر - واسمه جعفر بن أبي وحشية بن إياس - به.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْلِطًا أَكْلَهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّيْحَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٤١) ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٤٢)

يقول تعالى مبيناً أنه الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام، التي تصرف فيها هؤلاء المشركون بأرائهم الفاسدة وقسموها وجزؤوها، فجعلوا منها حراماً وحلالاً، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: مغروشات: مسموكات. وفي رواية: فالمعروشات ما عرش الناس. وغير معروشات: ما خرج في البر والجبال من الثمرات. وقال عطاء الخراساني، عن ابن عباس: معروشات: ما عرش من الكرم. وغير مغروشات: ما لم يُعرش من الكرم. وكذا قال السدي. وقال ابن جريج: ﴿مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾، قال: متشابهاً في المنظر، وغير متشابه في الطعم. وقال محمد بن كعب: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾، قال: من رطبه وعينه. وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، قال ابن جرير: قال بعضهم: هي الزكاة المفروضة. حدثنا عمرو، حدثنا عبد الصمد حدثنا يزيد بن دهم قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، قال: الزكاة المفروضة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، يعني الزكاة المفروضة، يوم يكال ويعلم كيله. وكذا قال سعيد بن المسيب. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، وذلك أن الرجل كان إذا زرع فكان يوم حصاده، لم يُخرج مما حصد شيئاً فقال الله: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾.

حَقُّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴿١٤٠﴾، وذلك أن يَعلَم ما كيله وحَقُّه، من كلِّ عَشْرَةٍ واحداً، وما يَلْقَطُ الناس من سنبله.

[٢٩٨٦] وقد رَوَى الإمام أحمد، وأبو داود في سنَّته، من حديث مُحَمَّد بن إسحاق: حدثني محمد بن يحيى بن حَبَّان، عن عَمِّه واسع بن حَبَّان، عن جابر بن عبد الله. أَنَّ النبي - ﷺ - أَمَرَ من كُلِّ جَادٍ عَشْرَةَ أَوْسُقٍ من التمر، بِقِيَّتِهِ يعلَقُ في المسجدِ للمساكين^(١). وهذا إسنادٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ. وقال طاووس، وأبو الشعثاء، وقتادة، والحسن، والضحاك، وابن جُرَيْج: هي الزكاةُ. وقال الحسنُ البصريُّ: هي الصدقةُ من الحَبِّ والثمار. وكذا قال ابنُ زيد بن أسلم. وقال آخرون: هو حَقٌّ آخَرُ سِوَى الزكاةِ: قال أشعثُ عن محمد بن سيرين، ونافع عن ابنِ عُمَرَ في قوله: ﴿وَأَتَاؤُا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، قال: كانوا يعطون شيئاً سِوَى الزكاةِ. ورواه ابنُ مَرْزُوبِه. وروى عبد الله بن المبارك وغيره، عن عبد الملك بن أبي سُلَيْمان، عن عَطَاءِ بنِ أَبِي رَبَاحٍ في قوله: ﴿وَأَتَاؤُا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، قال: يُعطي من حَصْرِهِ يَوْمَئِذٍ ما تيسَّر، وليس بالزكاة. وقال مجاهد: إذا حَضَرَكَ المساكين طَرَحْتَ لهم منه. وقال عبد الرزاق، عن ابنِ عُيَيْنَةَ، عن ابنِ أَبِي نَجِيح، عن مجاهد: ﴿وَأَتَاؤُا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، قال: عند الزَّرْعِ يُعطي القَنْصَ، وعند الصَّرَامِ يُعطي القَنْصَ، ويتركهم فيشيعون آثار الصَّرَامِ. وقال الثوري، عن حَمَّاد، عن إبراهيم قال: يُعطي مثل الصُّغْفِث. وقال ابنُ المبارك، عن شريك، عن سالم، عن سعيد بن جُبَيْر ﴿وَأَتَاؤُا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، قال: كان هذا قبل الزكاة، للمساكين القبضة، والضغثُ لعلْفِ دابَّته.

[٢٩٨٧] وفي حديث ابن لهيعة، عن دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد مرفوعاً: ﴿وَأَتَاؤُا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، قال: «ما سَقَطَ من السُّبُلِ»^(٢). رواه ابن مَرْزُوبِه.

وقال آخرون: هذا شيءٌ كان واجباً، ثم نَسَخَهُ اللهُ بالعُشْرِ أو نصف العشر. حكاه ابنُ جرير عن ابن عباس، ومحمد بن الحنفية، وإبراهيم التَّخَمِي، والحسن، والسدي، وعطية العوفي، واختاره ابنُ جرير، - رحمهم اللهُ - . قلتُ: وفي تسمية هذا نسخاً نظراً، لأنه قد كان شيئاً واجباً في الأصل، ثم إنه فُصِّلَ بيانه وبين مقدار المَخْرَجِ وكَمِيَّتِهِ. قالوا: وكان هذا في السنة الثانية من الهجرة، فالله أعلم.

وقد ذَمَّ اللهُ سبحانه الذين يَضْرُمُونَ ولا يتَصَدَّقُونَ، كما ذُكِرَ عن أصحاب الجَنَّةِ في سُورَةِ (ن): ﴿إِذْ أَتَاؤُا لَبِئْرَهُمْ مَّصِيْبِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ طَلَفَ عَلَيَا طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَهُمْ قَائِلُونَ ﴿١٩﴾ فَاصْبَحْتَ كَالصَّيْحِ ﴿٢٠﴾﴾، أي: كالليل المذللهم سوداء محترقة، ﴿تَنَادَا مَّصِيْبِينَ ﴿٢١﴾ أَوِ اتَّخَذُوا عَلَى حَرْوِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَاتَّطَلَقُوا وَهُمْ يَخْتَفِنُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّ الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِنٌ ﴿٢٤﴾ وَوَدَّاعِلَى حَرْوِكُمْ﴾، أي: قُوَّةٌ وَجِلْدٌ وَهِيمةٌ ﴿قَدِيْرُونَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَسَاءِلُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ نَكُنْ لَكُمْ قَوِيًّا قَبْلَ هَذَا أَقَالُوا سَبِيْحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سَبِيْحَنَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ يَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَبْرَأَتْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا حَبْرًا بَيْتًا إِنَّا إِنَّا لَمِنَّا رَضِيْعُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَنَابُ وَالْعَنَابُ الْكَبِيْرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَلْمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ التَّسْرِيفَ﴾ قيل: معناه: ولا تُسْرِفُوا في الإِيعَاءِ، فَتَعْطُوا فوق المعروف، قال أبو العالية: كانوا يعطون يَوْمَ الحَصَادِ شيئاً، ثم تباروا فيه وأسرفوا، فأنزل اللهُ: ﴿وَلَا

(١) حسن. أخرجه أبو داود ١٦٦٢ وأحمد ٣/٣٥٩ - ٣٦٠ وأبو يعلى ٢٠٣٨، ورجال رجال الصحيح غير أن ابن إسحاق مدلس وقد صرح بالتحديث في رواية أحمد فانضت شبهه التذليل.

(٢) إسناده ضعيف. له علتان ضعف ابن لهيعة. ودراج وبخاصة في روايته عن أبي الهيثم العتواري. فإنه روى عنه من أكبر كثيرة.

شُرْفُوا^(١). وقال ابن جُرَيْج: نزلت في ثابت بن قيس بن شَمَّاس، جَدُّ نَخْلَاهُ. فقال: لا يأتيني اليوم أحدٌ إلا أطعمته. فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُشْرِفُوا إِنَّمَا لَكُمْ لِيُحِبَّ الْمُسْرِفِينَ﴾. رواه ابنُ جرير، عنه. وقال ابنُ جُرَيْج، عن عطاء: ينهى عن السُرْفِ في كُلِّ شيء. وقال إياسُ بن معاوية: ما جاوزت به أمرُ الله فهو سُرْفٌ. وقال السُّدِّي في قوله: ﴿وَلَا تُشْرِفُوا﴾، قال: لا تعطوا أموالكم، فَتَقْعُدُوا قُرَاءً. وقال سَعِيدُ بن المسيَّب، ومحمدُ بن كعب، في قوله: ﴿وَلَا تُشْرِفُوا﴾، قالوا: لا تمنعوا الصدقة فَتَقْعُصُوا رِيعكم. ثم اختار ابنُ جرير قول عطاء: إنه نهى عن الإسراف في كُلِّ شيء. ولا شك أنه صحيح، لكن الظاهر - والله أعلم - من سياق الآية حيث قال الله تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآثِرُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُشْرِفُوا﴾ أن يكون عائداً إلى الأكل، أي: ولا تُشرفوا في الأكل لما فيه من مَضَرَّةِ العقلِ والبَدَنِ، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].. الآية.

[٢٩٨٨] وفي صحيح البخاري تعليقاً: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَابْسُتُوا وَتَصَدَّقُوا﴾، في غير إسرافٍ ولا مَخِيلَةٍ^(١)، وهذا من هذا، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ﴾، أي: وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حَمُولَةٌ وما هو فَرَشٌ، قيل: المراد بالحَمُولَةُ ما يُحْمَلُ عليه من الإبل، والفَرَشُ الصُّغَارُ منها. كما قال الثَّورِيُّ، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله في قوله: ﴿حَمُولَةٌ﴾: ما حُمِلَ عليه من الإبل، ﴿وَفَرَشَاتٌ﴾ قال: الصُّغَارُ من الإبل. رواه الحاكمُ وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال ابنُ عباس: الحَمُولَةُ هي الكِبار، والفَرَشُ الصُّغَارُ من الإبل. وكذا قال مجاهد. وقال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ﴾، فاما الحَمُولَةُ فالإبل والخيل والبغال والحمير، وكلُّ شيء يُحْمَلُ عليه، واما الفَرَشُ فالعَنَمُ. واختاره ابنُ جرير، قال: وأحسبه إنما سُمِّيَ فرشاً لدثوه من الأرض. وقال الربيعُ بن أنس، والحسن، والضحاك، وقناةٌ وغيره: الحَمُولَةُ الإبل والبقر، والفَرَشُ الغنم. وقال السُّدِّي: أما الحَمُولَةُ فالإبل، وأما الفَرَشُ فالفُضْلان والعَجَاجِيل والعَنَمُ. وما حُمِلَ عليه فهو حَمُولَةٌ. وقال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم: الحَمُولَةُ ما تَرَكِبُونَ، والفَرَشُ ما تَأْكُلُونَ وَتَحْلِبُونَ، شاةٌ لا تحمل، تأكلون لحمها، وَتَتَّخِذُونَ مِنْ صُوفِهَا لِحافاً وَفَرِشاً.

وهذا الذي قاله عبدُ الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حسنٌ يشهد له قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَت آيَاتِنَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٦-٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِيُعَبَّرَ بِهَا فِي طُغْيَانِهِمْ مِنْ بَيْنِ قَرْنَيْهِ وَدَرِ لَبْنَا خَالِصًا سَابِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١١٦]، إلى أن قال: ﴿وَمِنَ اسْمِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْمَالٌ إِلَى عَيْنٍ﴾ [النحل: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٨١﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُوفِهَا وَعَطِيَّتَهَا وَعَلَى الْغُلَامِ يَتَخَلَّصُونَ ﴿٨٢﴾ وَرِيحِكُمْ آيَاتِيهِ فَأَمَّا آيَاتِ اللَّهِ فَتَشْكُرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [خافز: ٧٩-٨١]. وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنَّا رِزْقَكُمْ اللَّهُ﴾، أي: من الثمار والزروع والأنعام، فَكُلُّهَا خَلَقَهَا اللهُ تعالى وَجَعَلَهَا رِزْقاً لَكُمْ،

(١) حسن، ذكره البخاري قبل ح ٥٧٨٣ معلقاً بصيغة الجزم، ووصله الطيالسي ٢٢٦١ فقال: حدثنا همام عن رجل عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً، وزاد «فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». وهذا فيه رجل لم يسم، لكن أسنده البيهقي في «الشعب» عن رجل - قال - أظنه قتادة. ثم كرره من وجه آخر عن همام عن قتادة عن عمرو بن شعيب به، وهذا إسناد حسن رجاله كلهم ثقات معروفون، وكرره ٤٥٧١ عن همام عن قتادة عن عمرو به. وللحديث شواهد كثيرة تقويه. وانظر ما قاله الحافظ في الكلام عليه ٢٥٣/١٠.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ، أي طرائقه وأوامره كما أتبعها المشركون الذين حرّموا ما رزقهم الله ، أي : من شمار والزروع افتراء على الله ، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ﴾ ، أي : إن الشيطان - أيها الناس - لكم ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ، أي : بين ظاهر العداوة ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر : ٦] ، وقال تعالى : ﴿يَبْنَیْءَ آدَمَ لَا يَفِيئَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف : ٢٧] . . . الآية ، وقال تعالى : ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف : ٥٠] . والآيات في هذا كثيرة في القرآن .

﴿ثُمَّ نَبَّيْنَا أَزْوَاجَ مِنَ الضَّالِّينَ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِضِينَ قُلْ أَلَمْ يَكْرِهْ حَرَمَ أَيْرِ الْأُنثَيْنِ أَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ نَبَّيْنَا بِعَلِيٍّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١٤٣] وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَمْ يَكْرِهْ حَرَمَ أَيْرِ الْأُنثَيْنِ أَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَلَكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِعَمْرِ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [١٤٤]

وهذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرّموا من الأنعام ، وجعلوها أجزاء وأنواعاً : بحيرة ، وسائبة ، ووصيلة ، وحامياً ، وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والشمار ، فبين أنه تعالى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً . ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض وهو الضأن ، وسواد وهو المعز ، ذكره وأنثاه ، وإلى إبل ذكورها وإناثها ، وبقر كذلك . وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ولا شيئاً من أولادها ، بل كلُّها مخلوقة لبني آدم ، أكلاً ، وركوباً ، وحمولة ، وحلباً ، وغير ذلك من وجوه المنافع ، كما قال : ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ قَمِيصَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر : ٦] . . . الآية . وقوله تعالى : ﴿أَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ﴾ ، ردّ عليهم في قولهم : ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلذَّكُورِ وَالْحَرَمُ عَلَى الْأُنثَى﴾ . وقوله تعالى : ﴿نَبَّيْنَا بِعَلِيٍّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ، أي : أخبروني عن يقين : كيف حرّم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك ؟!

وقال العوفي ، عن ابن عباس : قوله تعالى : ﴿ثُمَّ نَبَّيْنَا أَزْوَاجَ مِنَ الضَّالِّينَ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِضِينَ﴾ فهذه أربعة أزواج ، ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَمْ يَكْرِهْ حَرَمَ أَيْرِ الْأُنثَيْنِ﴾ ، يقول : لم أحرّم شيئاً من ذلك ﴿أَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ﴾ ، يعني هل يشتمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى فلم تحرموا بعضاً وتحلون بعضاً ؟ ﴿نَبَّيْنَا بِعَلِيٍّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ، يقول تعالى : كلُّه حلال . وقوله : ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَلَكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾ ، تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله ، من تحريم ما حرّمه من ذلك ، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِعَمْرِ عَلَيْهِ﴾ ، أي : لا أحد أظلم منه ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ . وأول من دخل في هذه الآية عمرو بن لُحَيِّ بن قَمْعَةَ ، لأنه أول من غير دين الأنبياء ، وأول من سبب السوائب ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامية^(١) ، كما ثبت ذلك في الصحيح .

﴿قُلْ لَا أَعْبُدُ فِي مَا أُرْحَى إِلَى مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ

خَيْرِ قَائِلُهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِعَيِّرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ عَلَيْهِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

يقول تعالى أمراً عبده ورسوله محمداً - صلوات الله وسلامه عليه - . ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين حَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللهُ افتراءً على الله: ﴿لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ ، أي: أكل يأكله. قيل: معناه: لا أجد شيئاً مما حَرَّمْتُمْ حراماً سوى هذه. وقيل: معناه لا أجد شيئاً من الحيوانات حراماً سوى هذه، فعلى هذا يكون ما وُزِدَ من التحريمات بعد هذا في سورة «المائدة»، وفي الأحاديث الواردة، رافعاً لمفهوم هذه الآية. ومن الناس من يُسَمِّي ذلك نسخاً، والاكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخاً، لأنه من باب رَفْع مباح الأصل، والله أعلم. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ ، يعني: المَهْرَاق. وقال عكرمة في قوله: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾: لولا هذه الآية لتشيع الناس ما في العُرُوق كما تتبَّعه اليهود. وقال حماد، عن عمران بن حدير قال: سألت أبا مجليز عن الدم، وما يتلطح من الذبح من الرأس، وعن القدر يُرى فيها الخُمرة، فقال: إنما نهى الله عن الدَّم المسفوح. وقال قتادة: حَرَّمَ من الدماء ما كان مسفوحاً، فأما لحم خالطه دَمٌ فلا بأس به. وقال ابن جرير: حَدَّثَنَا المثنى، حَدَّثَنَا حجاج ابن منهال، حَدَّثَنَا حماد، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم، عن عائشة: أنها كانت لا ترى بلُحُوم السباع بأساً، والحمرة والدَّم يكونان في أعلى القدر بأساً، وقُرأت هذه الآية. صحيح غريب.

[٢٩٨٩] وقال الحميدي: حَدَّثَنَا سفيان، حَدَّثَنَا عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن عبد الله: إنهم يزعمون أن رسول الله - ﷺ - نهى عن لُحُوم الحُمُر الأهلية زَمَن خَبِيرٍ، فقال: قد كان يقول ذلك الحَكَم بنُ عَمْرٍو، عن رسول الله - ﷺ - ، ولكن أبا ذلك البحر - يعني ابن عباس - . وقرأ: ﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ . . . الآية^(١). وكذا رواه البخاري عن علي بن المديني، عن سفيان، به. وأخرجه أبو داود من حديث ابن جريج، عن عمرو بن دينار. ورواه الحاكم في مستدرکه مع أنه في صحيح البخاري، كما رأيت.

[٢٩٩٠] وقال أبو بكر بن مَرْدُويه والحاكم في مُستدرکه: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بنُ علي بن دُحيم، حَدَّثَنَا أحمد بن حازم، حَدَّثَنَا أبو نُعيم الفضل بن دُكين، حَدَّثَنَا محمد بن شريك، عن عمرو بن دينار، عن أبي الشعثاء، عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تُقَدَّرُ، فبعث الله نبيه وأنزل كتابه، وأحلَّ وحَرَّمَ حرامه، فما أحلَّ فهو حلالٌ، وما حَرَّمَ فهو حَرَامٌ، وما سَكَت عنه فهو عَفْوٌ، وتلا هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ . . . إلى آخر الآية^(٢). وهذا لفظ ابن مَرْدُويه، ورواه أبو داود منفرداً به، عن محمد بن داود بن صبيح، عن أبي نُعيم، به. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرِجه.

[٢٩٩١] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا أبو عَوَّانَةَ، عن سيماء بن حَرْبٍ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ماتت شاة لسودة بنت زَمعة، فقالت: يا رسول الله، ماتت فلانة - تعني الشاة - . فلو لا أخذتُم مسكها؟ قالت: نأخذُ مسك شاةٍ قد ماتت؟! فقال لها رسول الله - ﷺ - : إنما قال الله: ﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا

(١) صحيح . أخرجه البخاري ٥٥٢٩، لكن عنده عن عمرو بن دينار عن جابر بن زيد بدل جابر عبد الله. وأخرجه أبو داود ٣٨٠٨ من طريق ابن جريج عن عمرو بن دينار قال أخبرني رجل عن جابر بن عبد الله . . . فذكره.

(٢) جيد . أخرجه أبو داود ٣٨٠٠ والحاكم ١١٥/٤ وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قاله.

أَوْحَىٰ إِلَيْكَ غَمْرًا عَلَىٰ طَائِعٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُورًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ، وَإِنَّكُمْ لَا تَطْعَمُونَهُ، أَنْ تَدْبَغُوهُ فَتَنْتَفِعُوا بِهِ. فَأرسلت فسألخت مسكها فدبغته، فاتخذت منه قزبة، حتى تحرقت عندها^(١). ورواه البخاري والنسائي، من حديث الشعبي، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن سودة بنت زمعة، بذلك أو نحوه.

[٢٩٩٢] وقال سعيد بن منصور: حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن عيسى بن نائلة الفزاري، عن أبيه قال: كنت عند ابن عمر، فسأله رجل عن أكل القنفذ، فقرأ عليه: ﴿قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ غَمْرًا عَلَىٰ طَائِعٍ﴾... الآية، فقال شيخ عنده: سمعت أبا هريرة يقول: ذُكر عند النبي - ﷺ - فقال: «خبيثة من الخباث». فقال ابن عمر: إن كان النبي - ﷺ - قاله فهو كما قال^(٢). ورواه أبو داود عن أبي ثور عن سعيد بن منصور، به.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، أي: فمن اضطر إلى أكل شيء مما حرم الله في هذه الآية الكريمة، وهو غير متلبس ببغي ولا عدوان، ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أي: غفور له، رحيم به. وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية. والمقصود من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه، من تحريم المحرمات على أنفسهم بأرائهم الفاسدة من البجيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك، فأمر رسوله أن يُخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك مُحَرَّم، وإنما حُرِّم ما ذكر في هذه الآية، من الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به. وما عدا ذلك فلم يُحرِّم، وإنما هو غفوة مسكوت عنه، فكيف تزعمون أنتم أنه حرام، ومن أين حرمتوه ولم يحرمه؟ وعلى هذا فلا ينفي تحريم أشياء أحرز فيما بعد هذا، كما جاء النهي عن لحوم الحمر الأهلية ولحوم السباع، وكل ذي مخلب من الطير، على المشهور من مذاهب العلماء.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَنِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَائِ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾

قال ابن جرير: يقول تعالى: وحرمننا على اليهود كل ذي ظفر، وهو من البهائم والطيور ما لم يكن مشقوق الأصابع، كالإبل والنعام والإوز والبط. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾، وهو البعير والنعام. وكذا قال مجاهد والسدي في رواية. وقال سعيد بن جبير: هو الذي ليس بمنفرج الأصابع - وفي رواية عنه: كل شيء متفرق الأصابع، ومنه الديك. وقال قتادة في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾. وكان يقال: البعير والنعام وأشياء من الطير والحيتان. وفي رواية: البعير والنعام، وحرَّم عليهم من الطير البط وشبهه، وكل شيء ليس بمشقوق الأصابع. وقال ابن جرير، عن مجاهد: ﴿كَلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾، قال: النعام والبعير، شقاً شقاً. قلت للقاسم بن أبي بزة وحذثني: ما شقاً شقاً؟ قال: كل ما لم ينفرج من قوائم البهائم. قال: وما انفرج أكلته اليهود؟ قال:

(١) صحيح. أخرجه البخاري وغيره، وتقدم.

(٢) ضعيف، أخرجه أبو داود ٣٧٩٩ والبيهقي ٣٢٦/٩، وإسناده ضعيف، فيه عيسى بن نائلة عن أبيه، وكلاهما مجهول كما في التريب. والشيخ الذي أخبرهم عن أبي هريرة لم يسم أيضاً. قال البيهقي: فيه ضعف، ولم يرو إلا بهذا الإسناد. وذكره الحافظ في تلخيص الحبير ٢٠٠٧ ونقل عن القفال قوله: إن صح الخبر فهو حرام، وإلا رجعنا إلى العرب، والمنقول عنهم أنهم كانوا يستطيعونه، وقال غيره: هذا الشيخ مجهول. وقال الخطابي: ليس إسناده بذلك اه باختصار.

انفِرَجَتْ قِوَامِ الْبِهَائِمِ وَالْعَصَافِيرِ، قَالَ: فِيهِوْدُ تَأْكُلُهَا. قَالَ: وَلَمْ تَنْفَرِجْ قَائِمَةُ الْبَعِيرِ - حُفَّةٌ - وَلَا حُفَّتِ النِّعَامَةُ وَلَا قَائِمَةُ الْوَرَزِ، فَلَا تَأْكُلُ الْيَهُودُ الْإِبِلَ وَلَا النِّعَامَ وَلَا الْوَرَزَ، وَلَا كُلُّ شَيْءٍ لَمْ تَنْفَرِجْ قَائِمَتَهُ، وَلَا تَأْكُلُ جِمَارَ وَحْشٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبَّكَ الْأَبْعَرُ وَالْقَنَرِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحْوَهُمَا﴾، قَالَ السَّدِّيُّ: يَعْنِي الثَّرْبَ وَشَحْمَ الْكُلَيْتَيْنِ. وَكَانَتِ الْيَهُودُ يَقُولُونَ: إِنَّهُ حَرَمُهُ إِسْرَائِيلَ، فَنَحْنُ نُحَرِّمُهُ. وَكَذَا قَالَ ابْنُ زَيْدٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: الثَّرْبُ وَكُلُّ شَحْمٍ كَانَ كَذَلِكَ لَيْسَ فِي عَظْمٍ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾: يَعْنِي مَا عَلِقَ بِالظَّهْرِ مِنَ الشُّحُومِ. وَقَالَ السَّدِّيُّ وَأَبُو صَالِحٍ: الْأَيْتَةُ مِمَّا حَمَلَتْ ظُهُورَهُمَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ الْحَوَايِكَا﴾، قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بِنُ جَرِيرٍ: الْحَوَايَا جَمْعٌ، وَاحِدُهَا حَاوِيَاءٌ، وَحَاوِيَةٌ، وَحَوِيَةٌ وَهُوَ مَا تَحْوَى مِنَ الْبَطْنِ فَاجْتَمَعَ وَاسْتَدَارَ، وَهِيَ بَنَاتُ اللَّبَنِ، وَهِيَ الْمَبَاعِزُ، وَتَسْمَى الْمَرَابِضُ، وَفِيهَا الْأَمْعَاءُ. قَالَ: وَمَعْنَى الْكَلَامِ: وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحْوَهُمَا، إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورَهُمَا، أَوْ مَا حَمَلَتْ الْحَوَايَا. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَوْ الْحَوَايَا، وَهِيَ الْمَبْعُزُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «الْحَوَايَا الْمَبْعُزُ، وَالْمَرْبِضُ» وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ، وَأَبُو مَالِكٍ، وَالسَّدِّيُّ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: «الْحَوَايِكَا»، الْمَرَابِضُ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الْأَمْعَاءُ، تَكُونُ وَسَطُهَا، وَهِيَ بَنَاتُ اللَّبَنِ، وَهِيَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ تُدْعَى الْمَرَابِضُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِظَلَرٍ﴾، أَي: وَإِلَّا مَا اخْتَلَطَ مِنَ الشُّحُومِ بِالْعِظَامِ فَقَدْ أَخْلَلْنَاهُ لَهُمْ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: شَحْمُ الْأَيْتَةِ اخْتَلَطَ بِالْمُضْعَصِ فَهُوَ حَلَالٌ. وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْقِوَامِ وَالْحَنْبِ وَالرَّأْسِ وَالْعَيْنِ وَمَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ، فَهُوَ حَلَالٌ. وَنَحْوَهُ قَالَ السَّدِّيُّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَيْتِهِمْ﴾، أَي: هَذَا التُّضْيِيقُ إِنَّمَا فَعَلْنَاهُ بِهِمْ وَالزَّمَانَهُمْ بِهِ، مَجَازَةٌ لَهُمْ عَلَى بَغْيِهِمْ وَمَخَالَفَتِهِمْ أَوْامِرَنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَيُظَلَرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ كَيْبَتِ أَجَلَتْ لَهُمْ وَيَصِدَّهُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، أَي: وَإِنَّا لَعَادِلُونَ فِيمَا جَازَيْنَاهُمْ بِهِ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ - يَا مُحَمَّدُ - مِنْ تَحْرِيمِنَا ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، لَا كَمَا زَعَمُوا مِنْ أَنَّ إِسْرَائِيلَ هُوَ الَّذِي حَرَّمَهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[٢٩٩٣] وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: بَلَغَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ سَمْرَةَ بَاعَ خَمْرًا، فَقَالَ: قَاتِلِ اللَّهُ سَمْرَةَ! أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا»^(١). أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ سَفِيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ طَاوُوسٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ، بِهِ.

[٢٩٩٤] وَقَالَ اللَّيْثُ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ قَالَ: قَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ عَامَ الْفَتْحِ: «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخَنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ. فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهُ يُدَهَّنُ بِهَا الْجُلُودَ وَيُطْلَى بِهَا السِّفْنَ، وَيَسْتَصْبَحُ بِهَا النَّاسُ. فَقَالَ: لَا، هُوَ حَرَامٌ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عِنْدَ ذَلِكَ: قَاتِلِ اللَّهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا جَمَلُوهَا، ثُمَّ بَاعُوهَا وَأَكَلُوهَا لَعْنَةُ اللَّهِ»^(٢). وَرَوَاهُ الْجَمَاعَةُ مِنْ طَرُقٍ، عَنْ يَزِيدِ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، بِهِ.

[٢٩٩٥] وَقَالَ الزُّهْرِيُّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «قَاتِلِ اللَّهُ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٢٢٣ ومسلم ١٥٨٢ والنسائي ١٧٧/٧ وأحمد ٢٥/١ وأبو يعلى ٢٠٠.

(٢) تقدم في سورة المائدة، برقم ٢٤٢٧.

اليهودا حُرِّمَتْ عليهم الشحومُ، فباعوه وأكلوا ثَمَنَهُ^(١). ورواه البخاريُّ ومسلمٌ جميعاً، عن عبدانَ، عن ابن المبارك، عن يونسَ، عن الزهريِّ، به.

[٢٩٩٦] وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن إسحاق، حدثنا سُلَيْمان بن حرب، حدثنا وَهَيْبٌ، حدثنا خالد الحذاء، عن بركة أبي الوليد، عن ابن عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - كَانَ قَاعِدًا خَلْفَ الْمَقَامِ، فَرَفَعَ بَصْرَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ - ثَلَاثًا - إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الشُّحُومَ، فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا. وَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَى قَوْمٍ أَكَلَ شَيْءٌ إِلَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ثَمَنَهُ^(٢)».

[٢٩٩٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، أنبأنا خالد الحذاء، عن بركة أبي الوليد، أنبأنا ابن عباس قال: كان رسول الله - ﷺ - قاعداً في المسجد مستقبلاً الجحز، فنظر إلى السماء فضحك فقال: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا حَرَّمَ عَلَى قَوْمٍ أَكَلَ شَيْءٌ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ثَمَنَهُ^(٣)». وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، مِنْ حَدِيثِ خَالِدِ الْحَذَاءِ.

[٢٩٩٨] وقال الأعمش، عن جامع بن شداد، عن كلثوم، عن أسامة بن زيد قال: دخلنا على رسول الله - ﷺ - وهو مريض نعوده، فوجدناه نائماً قد غطى وجهه بيض عذني، فكشف عن وجهه وقال: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ، يُحَرِّمُونَ شَحُومَ الْغَنَمِ وَيَأْكُلُونَ أَثْمَانَهَا»، وفي رواية: «حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا^(٤)».

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٤٧)

يقول تعالى: فإن كذبك - يا محمد - مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم، فقل: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة، وأتباع رسوله، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ترهيب لهم في مخالفتهم الرسول خاتم النبيين. وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْبَرَةٍ لَأَنَّا بِعَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿تَوَجَّاهُ عِبَادِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٤٨) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (١٤٩) ﴿[الحجر: ٤٩ - ٥٠]، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الْقَوْلِ﴾ [خافر: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٥٠) إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُئْتِي (١٥١) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ (١٥٢) [البروج: ١٢ - ١٤]. والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُنَا لَوْ لَمْ نَسْمَعُ مِنَ الظَّنِّ لَمَّا أَنْتُمْ إِلَّا نَحْرُصُونَ﴾ (١٥٣) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُكْمُ الْبَلِيغُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٥٤) قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمْ الَّذِينَ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٢٢٤ ومسلم ١٥٨٣ وأحمد ٢٤٧/١.

(٢) إسناده صحيح، وانظر ما بعده.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٣٢٢/١ وأبو داود ٣٤٨٨ وابن حبان ٤٩٣٨ والبيهقي ١٣/٦ - ١٤ من طرق عن خالد الحذاء به وإسناده صحيح وأصله عند مسلم برقم: ١٥٧٩.

(٤) أخرجه الحاكم ١٩٤/٤ من طريق الأعمش به، وصححه، ووافقه الذهبي، مع أن في الإسناد كلثوم الخزازي، وهو مقبول. أي حيث يتابع، وقد توبع على اللفظ المرفوع، دون صدره الفعلي.

يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى، وشبهة تشبث بها المشركون في شيزكهم وتحريم ما حرموا: فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، أو يحول بيننا وبين الكفر، فلم يُغيّرهُ، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه بنا ذلك، ولهذا قال: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠]... الآية، وكذلك الآية التي في «التحل» مثل هذه سواء قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أي: بهذه الشبهة ضل من ضل من قبل هؤلاء. وهي حجة داحضة باطلة، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، وذمهم عليهم، وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من اليم الانتقام. ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾، أي: بأن الله راضٍ عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخْرِجُوهُنَّ﴾، أي: فتظهروه لنا وتبينوه. وتبرزوه، ﴿إِنْ تَكْفُرُونَ إِلَّا أَنْتُمْ﴾، أي: الوهم والخيال. والمراد بالظن هاهنا الاعتقاد الفاسد، ﴿وَرَأَى أَنَّ تَكْفُرُونَ﴾، أي: تكذبون على الله فيما ادعىتموه. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾، وقال: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، ثم قال: ﴿رَأَى شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾، فإنهم قالوا: عبادتنا الآلهة نُقْرِبُنَا إِلَى اللَّهِ زَلْفَى. فأخبرهم الله أنها لا تُقْرِبُهُمْ، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾، يقول تعالى: لو شئت لجمعتمهم على الهدى أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمِينَ﴾، يقول تعالى لنبيه - ﷺ -: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ﴾، أي: له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى، وإضلال من أضل، ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمِينَ﴾، وكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين، ويبيح الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿رَأَى شَاءَ رَبُّكَ لَأَمِّنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جِئِمًا﴾ [يسونس: ٢٩٩]. وقوله: ﴿رَأَى شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَلَ النَّاسِ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُنَ تَحِيلِينَ﴾ [١١٨]، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴿١١٧﴾ [هود: ١١٨-١١٩]. قال الضحاك: لا حجة لأحد عصى الله، ولكن لله الحجة البالغة على عباده. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلَمْ شُهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ حَرَّمَ هَذَا﴾، أي: أحضروا شهداءكم ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾، أي: هذا الذي حرمتموه وكذبتم وافتريت على الله فيه، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾، أي: لأنهم إنما يشهدون - والحالة هذه - كذباً وزوراً، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، أي: يشركون به، ويجعلون له عديلاً.

﴿قُلْ تَمَالَوْا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا
أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا
تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٥١﴾

قال داود الأودي، عن الشعبي، عن علقمة، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: من أراد أن يقرأ صحيفة رسول الله - ﷺ - التي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَمَالَوْا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وقال الحاكم في مستدرکه: حدثنا بكر بن محمد الصيرفي

بَمَزَوْ، حدثنا عبد الصَّمَد بنُ الفَضْلِ، حدثنا مالك بن إسماعيلَ التُّهَدِيُّ، حدثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن خَلِيفَةَ قال: سَمِعْتُ ابنَ عَبَّاسٍ يقول: إنَّ في الأنعام آياتٍ محكماتٍ هنَّ أم الكتاب، ثم قرأ: ﴿قُلْ تَمَكَّلُوا أُمَّلٌ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾... الآيات، ثم قال: صحیح الإسناد، ولم يخرجناه. قلت: ورواه زهير وقيس بن الربيع، كلاهما عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن قيس، عن ابن عباس، به. فإله أعلم.

[٢٩٩٩] وروى الحاكم أيضاً في مُسْتَدْرَكِهِ من حديث يزيد بن هارون، عن سفيان بن حسين، عن الزهري، عن أبي إدريس، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أيكم يُبَايِعُنِي على ثلاث؟ ثم تلا رسول الله - ﷺ -: ﴿قُلْ تَمَكَّلُوا أُمَّلٌ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، حتى قرغ من الآيات. فمن وقى فأجره على الله، ومن انتقص منهم شيئاً فأدرکه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه»^(١). ثم قال: صحیح الإسناد، ولم يخرجناه، وإنما اتفقا على حديث الزهري، عن أبي إدريس، عن عبادة: «بايعوني على أن لا تُشركوا بالله شيئاً... الحديث. وقد روى سفيان بن حسين كلا الحديثين، فلا ينبغي أن ينسب إلى الوهم في أحد الحديثين إذا جَمَعَ بينهما، والله أعلم»^(٢).

وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد - ﷺ -: قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، وحرموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم، وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم - ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿تَمَكَّلُوا﴾، أي: هَلُمُّوا وأقبلوا ﴿أُمَّلٌ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، أي: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً لا تخزوا ولا ظناً، بل وحيأ منه وأمرأ من عنده: ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ﴾، وكان في الكلام محذوفاً دل عليه السياق، وتقديره: وأوصاكم ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ذَلِكُمْ وَمَنْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ﴾، وكما قال الشاعر:

حَجَّ وَأَوْصَى بِسُلَيْمِ الْأَعْبُدَا أَنْ لَا تَرَى وَلَا تُكَلِّمَ أَحَدَا
وَلَا يَزَلْ شَرَابُهَا مُبْرَدَا

وتقول العرب: أمرتك أن لا تقوم.

[٣٠٠٠] وفي الصحيحين من حديث أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أتاني جبريلُ فبشّرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، وإن شرب الخمر». قلت: وفي بعض الروايات أن القائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله - ﷺ -، وأنه - عليه السلام - قال في الثالثة: «وإن زعم أنف أبي ذر». فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث: «وإن زعم أنف أبي ذر»^(٣).

[٣٠٠١] وفي بعض المسانيد والسنن عن أبي ذر قال: قال رسول الله - ﷺ -: يقول الله تعالى: «يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني فإني أغفر لك على ما كان منك ولا أبالي، ولو أتيتني بقراب الأرض خطيئةً أتيتك بقرابها مغفرة ما لم أشرك بي شيئاً. وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء ثم استغفرتني، غفرت

(١) أخرجه الحاكم ٣١٨/٢ وصححه! ووافقه الذهبي، وإسناده ضعيف لضعف سفيان بن حسين في الزهري. وانظر ما تقدم في النساء آية: ٥٩.

(٢) إلى هنا كلام الحاكم في «المستدرک».

(٣) صحیح. أخرجه البخاري ٥٨٢٧ ومسلم ٩٤ ح ١٥٤ وأحمد ١٦٦/٥.

لك»^(١). ولهذا شاهد في القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

[٣٠٠٢] وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود: «من مات لا يُشرك بالله شيئاً، دَخَلَ الجنة»^(٢). والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

[٣٠٠٣] وروى ابن مَرْدُويه من حديث عُبَادَةَ أَبِي الدرداء: «لا تُشركوا بالله شيئاً، وَإِنْ قُطِعْتُمْ أَوْ صُلِبْتُمْ أَوْ جُرِّقْتُمْ»^(٣).

[٣٠٠٤] وقال ابنُ أَبِي حَاتِمٍ: حدثنا مُحَمَّدُ بن عوف الجِنَسي، حدثنا ابنُ أَبِي مَرِيَمٍ، حدثنا نافع ابن يزيد، حدثني سَيَّار بن عبد الرحمن، عن يزيد بن قُوَظِرٍ، عن سلمة بن شُرَيْحٍ، عن عبادة بن الصامت قال: أوصانا رسول الله - ﷺ - بسبع خِصَالٍ: «ألا تُشركوا بالله شيئاً، وإن حُرِّقْتُمْ وَقُطِعْتُمْ وَصُلِبْتُمْ»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا﴾، أي: وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً، أي: أن تُحسنوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تُعْبَدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقرأ بعضهم: «وَوَصَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تُعْبَدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا». والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبراء الوالدين، كما قال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَبِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْعَصِيرِ﴾ [١] وَلَئِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَتُهَا فِي اللَّهِ تَا مَعْرُوفًا وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤-١٥]. فأمر بالإحسان إليهما وإن كانا مشركين يَحْتَسِبُهُمَا، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]... الآية، والآيات في هذا كثيرة.

[٣٠٠٥] وفي الصحيحين عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: «سألت رسول الله - ﷺ -: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها قلت: ثم أي؟ قال: براء الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قال ابن مسعود: حدثني بهن رسول الله - ﷺ - ولو استزدته لزادني»^(٥).

[٣٠٠٦] وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه بسنده عن أبي الدرداء، وعن عبادة بن الصامت، كل منهما

(١) حسن. أخرجه أحمد ١٧٢/٥ والبيهقي في «التفسير» ٤٥٣ من طريق شهر بن حوشب عن معد يكره. عن أبي ذر به، وأخرجه أحمد ١٥٤/٥ من طريق شهر عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي ذر به، وفي إسناده ضعف لأجل شهر بن حوشب، ومعد يكره لم أجد من ذكر أنه يروي عن أبي ذر إلا أنه توبع وله شاهد من حديث أنس أخرجه الترمذي ٣٥٣٥ واستغربه وفي إسناده لين لأجل كَثِيرِ بن قائد، ويحسن حديثه بالمتابعة وله شاهد آخر من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني ١٢٣٤٦، وانظر «صحيح مسلم» ٢٦٨٧.

(٢) هكذا جاء في صحيح مسلم برقم ٩٢ من كلام ابن مسعود وذلك حديث مرفوع ولفظه «سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار، وقلت أنا: ومن مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة» هكذا استدلل ابن كثير رحمه الله بالموثوق، مع أن مسلماً رحمه الله أسنده عقبه (٩٣) عن جابر مرفوعاً. وقد جاء مرفوعاً عن جماعة من الصحابة فالاستدلال بالمرفوع أولى، والله الموفق.

(٣) لم أقف على إسناده. وانظر ما بعده فله شاهدان.

(٤) أخرجه الطبراني كما في «المجمع» ٧١١٤، وإسناده ضعيف. فيه سلمة بن شريح ذكره الذهبي في «الميزان» ٣٤٠٢ وقال: عن عبادة بن الصامت، لا يُعرف اهـ وله شاهد بعد حديث عن أبي الدرداء وعن أميمة.

(٥) تقدم في سورة البقرة عند آية: ٨٣.

يقول: أوصاني خليلي - ﷺ -: «أطيع والديك، وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا فافعل»^(١). ولكن في إسناديهما ضعف، والله أعلم. وقوله تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ» لَمَّا أوصى تعالى ببر الآباء والأجداد، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ»، وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سئلت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يتدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار.

[٣٠٠٧] ولهذا جاء في الصحيحين، من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني خليلة جارك. ثم تلا رسول الله - ﷺ -: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ»^(٢). الآية. وقوله تعالى: «مَنْ إِمْلَاقٍ»، قال ابن عباس، وقتادة، والسدي: هو الفقر. أي: ولا تقتلوه من فقركم الحاصل، وقال في سورة «سبحان»: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ» أي: خشية فقر في الآجل، ولهذا قال هناك: «نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ» [الإسراء: ٣١]، فبدأ يرزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقركم بسببهم، فرزقهم على الله، وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلًا، قال: «نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ»، لأنه الأهم هاهنا، والله أعلم. وقوله تعالى: «وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ»، كقوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» [الأعراف: ٣٣]. وقد تقدم تفسيرها عند قوله تعالى: «وَذَرُوا ظُلْمَهُمُ الْإِثْمَ وَبَاطِنَهُ» [الأنعام: ١٢٠].

[٣٠٠٨] وفي الصحيحين عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»^(٣).

[٣٠٠٩] وقال عبد الملك بن عمير، عن ورايد، عن مولاة المغيرة قال: «قال سعد بن عبادة: لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مُضْمَح. فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فقال: أتعجبون من غيرة سعد؟! والله لانا أغير من سعد، والله أغير مني، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»^(٤) أخرجاه.

[٣٠١٠] وقال كامل أبو العلاء، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، إنا نغاز. قال: «والله إني لأغاز، والله أغير مني، ومن غيرته نهي عن الفواحش»^(٥). رواه ابن مردويه، ولم يخرجها أحد من أصحاب الكتب الستة، وهو على شرط الترمذي:

[٣٠١١] فقد روى بهذا السنيد: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين»^(٦).

(١) حديث عبادة بن الصامت هو المتقدم قبل حديث. وأما حديث أبي الدرداء، فأخرجه الطبراني كما في «المجمع» ٧١١٥ وقال الهيثمي: فيه شهر بن حوشب، وحديثه حسن، وبقيه رجاله ثقات. وله شاهد أخرجه الطبراني ١٩٠/٢٤ من حديث أميمة مولاة رسول الله ﷺ، وقال الهيثمي في «المجمع» ٧١١٧: فيه يزيد بن سنان الرهاوي وثقه البخاري وغيره، والأكثر على تضعيفه اهـ.

(٢) تقدم في سورة البقرة عند آية: ٢٢ و ١٦٥.

(٣) تقدم في سورة النساء عند آية: ١٦٥.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٧٤١٦ ومسلم ١٤٩٩ والبيهقي في «الأسماء والصفات» ٦٣٠.

(٥) في إسناده كامل بن العلاء أبو العلاء، وثقه يحيى، ولينه النسائي، وضعفه ابن حبان. فالحديث فيه ضعف، والله أعلم.

(٦) يأتي في سورة فاطر عند آية: ٣٧ إن شاء الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، وهذا مما نصّ تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيداً، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

[٣٠١٢] فقد جاء في الصّحيحين، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة». وفي لفظ لمسلم: «والذي لا إله غيره لا يحل دم رجل مسلم»^(١). . . وذكره، قال الأعمش: فحدّث به إبراهيم، فحدّثني عن الأسود، عن عائشة، بمثله.

[٣٠١٣] وروى أبو داود والنسائي، عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال: زان محصن يؤجّم، ورجل قتل رجلاً متعمداً فيقتل، ورجل يخرج من الإسلام حارب الله ورسوله، فيقتل أو يصلب أو ينقى من الأرض»^(٢)، وهذا لفظ النسائي.

[٣٠١٤] وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أنه قال وهو محصور: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفساً بغير نفس». فوالله ما زينت في جاهلية ولا إسلام، ولا تمّيت أن لي بدني بدلاً منه بعد إذ هداني الله، ولا قتلت نفساً، فيم تقتلونني؟^(٣). رواه الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهد - وهو المستامن من أهل الحرب.

[٣٠١٥] كما رواه البخاري، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال: «من قتل معاهداً لم يرخ رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً»^(٤).

[٣٠١٦] وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «من قتل معاهداً له ذمّة الله وذمّة رسوله، فقد أخفر بدمه الله، فلا يرخ رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة سبعين خريفاً»^(٥). رواه ابن ماجه، والترمذي وقال: حسن صحيح. وقوله: ﴿ذَلِكَ وَصَّنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ﴾، أي: هذا ما وصاكم به لعلكم تقولون عنه أمره ونهيه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُمْ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكِلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَيَهْدِ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

(١) تقدم في سورة النساء عند آية: ٩٢.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ٤٣٥٣ والنسائي ٩٠/٧ وأحمد ١٨١/٦ من طريقين من حديث عائشة.

وأخرجه النسائي ٩١/٧ وأحمد ٢٠٥/٦ وأبو يعلى ٤٦٧٦ من وجه آخر من حديث عائشة بنحوه.

(٣) حسن. أخرجه الترمذي ٢١٥٨ والنسائي في «الكبرى» ٣٤٨٢ وابن ماجه ٢٥٣٣ وأحمد ٦٥/١ وصححه الحاكم ٣٥٠/٤ على شرطهما، ووافقه الذهبي وقال الترمذي: حديث حسن. وهو كما قال.

(٤) أخرجه البخاري ٣١٦٦ والنسائي ٢٥/٨ وابن ماجه ٢٦٨٦ وأحمد ١٨٦/٢.

(٥) حسن. أخرجه الترمذي ١٤٠٣ وابن ماجه ٢٦٨٧ وأبو يعلى ٦٤٥٢ وقال الترمذي: حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. مع أن في إسناده معدني بن سليمان ضعفه النسائي وغيره، وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد. ومع ذلك يتأيد بما قبله، وفي الباب أحاديث.

[٣٠١٧] قال عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتِيمِ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠]... الآية، فانطلق من كان عنده يتيماً فَعَزَلَ طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يُفَضِّل الشيء فيحبس له حتى يأكله، ويفسد. فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله - ﷺ - فأنزل الله: ﴿وَسَتَلُونَكُمْ عَنْ الْيَتِيمِ كَلَّامًا مَلَّاحًا ثُمَّ خَيْرَ وَإِنْ تَحَايَلْتُمْ فَلَا تَخَافُونَهُمْ فَاخُونَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم، رواه أبو داود.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾، قال الشعبي، ومالك، وغير واحد من السلف: يعني حتى يحتلم. وقال السدي: حتى يبلغ ثلاثين سنة. وقيل: أربعون سنة، وقيل: ستون سنة. قال: وهذا كله بعيد هاهنا، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾، يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء، كما تَوَعَّد على تزكيه في قوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطْفَيْنِ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ١-٦]. وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان.

[٣٠١٨] وفي كتاب الجامع لأبي عيسى الترمذي، من حديث الحسين بن قيس أبي علي الرحبي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ - لأصحاب الكيل والميزان: «إنكم وليتم أمراً هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم»^(١). ثم قال: «لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسين، وهو ضعيف في الحديث، وقد روي بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفاً».

[٣٠١٩] قلت: وقد رواه ابن مردويه في تفسيره، من حديث شريك، عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ - «إنكم - معشر الموالي - قد بشركم الله بخصلتين بهما هلكت القرون المتقدمة: المكيال والميزان»^(٢). وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أي: من اجتهد في أداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه.

[٣٠٢٠] وقد روى ابن مردويه من حديث بقره، عن مبشر بن عبيد، عن عمرو بن ميمون بن مهران، عن أبيه، عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله - ﷺ - «إنكم - معشر الموالي - لا تكلف نفساً إلا وُسْعَهَا»، فقال: من أوفى على يده في الكيل والميزان، والله يعلم صحة نيته بالوفاء فيهما، لم يؤخذ. وذلك تأويل «وُسْعَهَا»^(٣)، هذا مرسل غريب. وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ كما قال

(١) تقدم الحديث هناك..

(٢) أخرجه الترمذي ١٢١٧ والبيهقي في «الشعب» ٥٢٨٨. وضعفه الترمذي بقوله: لا نعرفه إلا من حديث حسين ابن قيس، وهو يضعف في الحديث، وروي عن ابن عباس بإسناد صحيح موقوفاً أهـ وقد تويع حسين على هذا الحديث فانظر ما بعده.

(٣) ظاهره الصحة فإن رجاله ثقات كلهم. لكن أخرجه البيهقي في «الشعب» ٥٢٨٧ عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن كريب عن ابن عباس موقوفاً من قوله، وقد جعل واسطة بين سالم وابن عباس، فعلة المرفوع إما من سالم، فإنه وإن كان ثقة لكنه يرسل كثيراً، أو من شريك، فإنه لما تولى القضاء ساء حفظه، فالراجع في هذا الحديث الوقف كما ذهب إليه الترمذي. والله أعلم.

(٤) باطل. عزاه أيضاً السيوطي في «الدر» ١٠٥/٣ لابن مردويه عن ابن السيب، وهذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف، لكن مراسيل ابن المسيب قوية، لو صح إليه السند، وههنا لم يصح، فإن فيه مبشر بن عبيد الحمصي. جاء في الميزان

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨] وكذا التي تشبهها في سورة النساء، يأمر تعالى بالعدل في الفَعَالِ والمَقَالِ، على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد، في كل وقت، في كل حال. وقوله: ﴿وَيَمَهِّدِ اللَّهُ أَوْفُوا﴾، قال ابن جرير: يقول ويوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا، وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بم عهد الله. ﴿ذَلِكَ وَمَنْ لَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، يقول تعالى: هذا ووصاكم به، أو أمركم به، وأكد عليكم فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: تتغظون وتتنبهون عما كنتم فيه قبل هذا، وقرأ بعضهم بتشديد الدال، وآخرون بتخفيفها.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، وقوله: ﴿أَنَّ أَيْفُوا الَّذِينَ وَلَا تَتَّقُوا فِيهِ﴾، ونحو هذا في القرآن. قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله. ونحو هذا قاله مجاهد، وغير واحد.

[٣٠٢١] وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا الأسود بن عامر - شاذان - حدثنا أبو بكر - هو ابن عياش - عن عاصم - هو ابن أبي النجود - عن أبي وائل، عن عبد الله - هو ابن مسعود، - رضي الله عنه - قال: حط رسول الله - ﷺ - حطاً بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً»، وحط عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(١). وكذا رواه الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار، عن أبي بكر ابن عياش، به. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وهكذا رواه أبو جعفر الرازي، وورقاء، وعمرو بن أبي قيس، عن عاصم، عن أبي وائل شقيق بن سلمة، عن ابن مسعود، به، مرفوعاً نحوه. وكذا رواه يزيد بن هارون ومسدد والنسائي، عن يحيى بن حبيب بن عربي، وابن حبان من حديث ابن وهب، أربعتهم عن حماد بن زيد، عن عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، به. وكذا رواه ابن جرير، عن المشنى، عن الجعفي، عن حماد بن زيد، به. ورواه الحاكم عن أبي بكر بن إسحاق، عن إسماعيل بن إسحاق القاضي، عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، به كذلك، وقال: صحيح ولم يخرجاه. وقد روى هذا الحديث النسائي والحاكم، من حديث أحمد بن عبد الله بن يونس، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن مسعود، به مرفوعاً. وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مزيه من حديث يحيى الجعفي، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن زر، به. فقد صححه الحاكم كما رأيت من الطريقتين، ولعل هذا الحديث

٧٠٥٢: قال أحمد: كان يضع الحديث، وقال البخاري: روى عنه بقية، منكر الحديث. اهـ والمتن غريب جداً، فهو باطل. والله تعالى أعلم.

(١) جيد. أخرجه أحمد ٤٦٥/١ والحاكم ٢٣٩/٢ من طريقين عن أبي بكر بن عياش، به، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وأخرجه النسائي في «الكبرى» ١١١٧٤ والطيلوسي ٢٤٤ وأحمد ٤٣٥/١ والدارمي ٦٧/١ - ٦٨ وابن حبان ٦ و٧ والحاكم ٣١٨/٢ والبيهقي ٢٤١٠ من طرق عن حماد بن زيد عن عاصم، به، وإسناده حسن لأجل عاصم. وأخرجه النسائي في «الكبرى» ١١١٧٥ من طريق زر بن حبيش عن ابن مسعود. وله شاهد من حديث جابر، وهو الآتي.

عند عاصم بن أبي النجود، عن زُرِّ، وعن أبي وائل شقيق بن سلمة، كلاهما عن ابن مسعود، به. والله أعلم.

[٣٠٢٢] وقال الحاكم: وشاهد هذا الحديث حديث الشعبي عن جابر، من وجه غير معتمد، يشير إلى الحديث الذي قال الإمام أحمد وعبد بن حُميد جميعاً - واللفظ لأحمد -: حدثنا عبد الله بن محمد - وهو أبو بكر بن أبي شيبة - أنبأنا أبو خالد الأحمر، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: كنا جلوساً عند النبي - ﷺ - فخط خطاً هكذا أمامه، فقال: «هذا سبيلُ الله». وخطين عن يمينه، وخطين عن شماله، وقال: «هذه سبيلُ الشيطان». ثم وُضع يده في الخط الأوسط، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَ مِنْكُمْ بِدِهِ لَمَّا كُنْتُمْ تَتَفَرَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾^(١). ورواه ابن ماجه في كتاب السنّة من سنّته، والبراز عن أبي سعيد عبد الله بن سعيد، عن أبي خالد الأحمر، به.

[٣٠٢٣] قلت: ورواه الحافظ بن مَزْدويه من طريقين، عن أبي سعيد الكِنْدِيِّ، حدثنا أبو خالد، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: خط رسول الله - ﷺ - خطاً، وخط عن يمينه خطاً، وخط عن يساره خطاً، ووضع يده على الخط الأوسط، وتلا هذه الآية: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾^(٢). ولكن العمدّة على حديث ابن مسعود، مع ما فيه من الاختلاف إن كان مؤثراً، وقد روي موقوفاً عليه. قال ابن جرير: حدثنا مُحَمَّد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَر، عن أبان بن عثمان: أن رجلاً قال لابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: تزكنا محمد - ﷺ - في أدناه، وطرقة في الجنة، وعن يمينه جواد، وعن يساره جواد، وتم رجال يدعون من مَرَبهم. فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة. ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(٣). الآية. وقال ابن مَزْدويه: حدثنا أبو عمرو، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، حدثنا آدم، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا أبان بن أبي عياش، عن مُسَلِّم بن أبي عمران، عن عبد الله بن عُمر: سأل عبد الله عن الصراط المستقيم، فقال له ابن مسعود: تزكنا محمد - ﷺ - في أدناه، وطرقة في الجنة. . . وذكر تمام الحديث كما تقدم، والله أعلم. وقد روي من حديث النَّوَّاس بن سَمْعَانَ نحوه.

[٣٠٢٤] قال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن سوار أبو العلاء، حدثنا ليث - يعني ابن سعد - عن معاوية ابن صالح: أن عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نُفَيْر حَدَّثَهُ، عن أبيه، عن النَّوَّاس بن سَمْعَانَ، عن رسول الله - ﷺ - قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعن جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، هلموا ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً، ولا تمترجوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك! لا تفتح، فإنك إن تفتحته تلجئه. فالصراط الإسلام، والسوران حدودُ الله، والأبواب المفتحة محارمُ الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتابُ الله، والداعي من فوق واعظُ الله في قلب كل مسلم»^(٤). ورواه الترمذي والنسائي، عن علي بن حُجْر - زاد النسائي: وعمر بن عثمان - كلاهما عن بَقِيَّة بن الوليد، عن بَجِير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن جُبَيْر بن نُفَيْر، عن النَّوَّاس بن سَمْعَانَ، به. وقال الترمذي: حسن غريب.

(١) حسن. أخرجه ابن ماجه ١١ وأحمد ٣/٣٩٧ وإسناده غير قوي، لأجل مجالد، لكن يشهد لما قبله، ويتأيد به.

(٢) إسناده لين كسابقه، لكن يصلح شاهداً لما قبله.

(٣) تقدم في سورة الفاتحة عند آية: ٦.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾، وإنما وُحِدَ سَبِيلُهُ لَأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ، ولهذا جَمَعَ السُّبُلَ لِمُتَفَرِّقِهَا وَتَشَعُّبِهَا، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧].

[٣٠٢٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا سفيان ابن حسين، عن الزهري، عن أبي إدريس الخولاني، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إيكم يُبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا: ﴿قُلْ تَكَلَّفُوا ثَمَلًا مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾، حتى فرغ من ثلاث الآيات ثم قال: «ومن وفى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه، وإن شاء عفا عنه»^(١).

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَالَمٍ يَلِفَاءَ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ مَّبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَأَتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾

قال ابن جرير: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، تقديره: ثم قل يا محمد مخبراً عننا بأننا آتينا موسى الكتاب، بدلالة قوله: ﴿قُلْ تَكَلَّفُوا ثَمَلًا مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾. قلت: وفي هذا نظر. و«ثم» هاهنا إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر، لا للترتيب هاهنا، كما قال الشاعر:

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ

وهاهنا لما أخبر الله تعالى عن القرآن بقوله: ﴿وَأَن هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾، عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾. وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة، كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: ١٧]. وقوله تعالى في أول هذه السورة: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَوهُ قَرَابِسُ لِيُدُونَهَا وَمَنْ نُحْمِلُوهُ كَثِيرًا﴾... الآية، وبعدها: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا﴾ [الأنعام: ٩٢]... الآية، وقال تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ بِشَيْءٍ مَّا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَيْفٍ مِّنْهُ لَنُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٤٨]؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣٠]... الآية.

وقوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾، أي: آتيناها الكتاب الذي أنزلناه إليه تماماً كاملاً جامعاً لجميع ما يحتاج إليه في شريعته، كما قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْجَامِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]... الآية. وقوله: ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾، أي: جزءاً أعلى إحسانه في العمل، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا، كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿١٦١﴾﴾ [الرحمن: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَإِذْ أَنْتَ إِذْ يَرْوَعُ رُؤْيُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَّمَنَّهُ قَالَ إِنِّي جَاءَكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَمَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾، يقول: أحسن فيما أعطاه الله. وقال قتادة: من أحسن في الدنيا تمم له ذلك في الآخرة. واختار ابن جرير أن تقدير

(١) إسناده ضعيف لضعف سفيان بن حسين في روايته عن الزهري، وتقدم بغير هذا السياق في الصحيح.

الكلام: ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على إحسانه. فكانه جعل «الذي» مصدرية، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَضَعَفْتُمْ كَأَلَدِيٰ خَعَاثَةً﴾ [التوبة: ٦٩] أي: كخوضيهم. وقال ابن زواحة:

فَسُبَّتْ اللهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ فِي الْمُرْسَلِينَ وَتَضَرَّ كَالَّذِي تَضَرُّوا

وقال آخرون: «الذي» هاهنا بمعنى «الذين». قال ابن جرير: وقد ذُكر عن عبد الله بن مسعود: أنه كان يقرؤها: «تماماً على الذين أحسنوا». وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: «تَمَامًا عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنَ»، قال: على المؤمنين والمحسنين. وكذا قال أبو عبيدة. قال البغوي: والمحسنون: الأنبياء والمؤمنون، يعني: أظهرنا فضله عليهم. قلت: كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَكُونُ لِي أَسْطَقْتِكَ عَلَى النَّاسِ يَرْسَلَنِي وَيَكَلِّمُنِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ولا يلزم اصطفاؤه على محمد - ﷺ - خاتم الأنبياء والخليل - عليهما السلام - لأدلة أخر.

قال ابن جرير: وَرَوَى أَبُو عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ، عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرؤها: «تماماً على الذي أحسن»، رفعاً، بتأويل: «على الذي هو أحسن»، ثم قال: وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها، وإن كان لها في العربية وجهٌ صحيح. وقيل: معناه: تماماً على إحسان الله إليه زيادةً على ما أحسن الله إليه. حكاه ابن جرير والبغوي. ولا منافاة بينه وبين القول الأول، وبه جمع ابن جرير كما بيناه، والله الحمد. وقوله تعالى: ﴿وَتَقْسِمًا لِّكُلِّ شَيْءٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾، فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا فَآتِيهِمْ وَأَتَقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾، فيه الدعوة إلى اتباع القرآن، يُرْعَبُ سبحانه عباده، في كتابه، ويأمرهم بتدبره والعمل به والدعوة إليه، وَوَضِعُهُ بِالْبُرْكَ لِمَنْ اتَّبَعَهُ وَعَمِلَ بِهِ، في الدنيا والآخرة، لأنه حبل الله المتين.

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ﴾ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُنَّ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾

قال ابن جرير: معناه: وهذا كتاب أنزلناه لثلاثين قولاً: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾. يعني: لينقطع عذرهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصاص: ٤٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هم اليهود والنصارى. وكذا قال مجاهد، والسدي، وقتادة، وغير واحد. وقوله: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ﴾، أي: وما كنا نفهم ما يقولون، لأنهم ليسوا بلساننا، ونحن مع ذلك في شغلٍ وغفلةٍ عما هم فيه. وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾، أي: وقطعاً لتعللهم أن تقولوا: لو أننا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكانا أهدى منهم فيما أوتوه، كقوله: ﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْتِهِمْ لَيْتَ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِبْدَىٰ الْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢]... الآية، وهكذا قال هاهنا: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمد - ﷺ -

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٣٥ و٦٥٠٦ ومسلم ١٥٧ وأبو داود ٤٣١٢ وابن ماجه ٤٠٦٨ وأحمد ٢٣١/٢ و٣١٣ وابن حبان ٦٨٣٨ من طرق عن أبي هريرة مرفوعاً.

النبي العربي قرآن عظيم، فيه بيان للحلال والحرام، وهُدَى لما في القلوب، ورحمة من الله بعباده الذين يتبعونه ويقتنون ما فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾؛ أي: لم ينتفع بما جاء به الرسول، ولا اتبع ما أُرسل به، ولا ترك غيره، بل صدَف عن اتباع آيات الله، أي: صَرَف الناس وصدَّهم عن ذلك، قاله السدي. وعن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾: أغْرَضَ عنها. وقول السدي هاهنا فيه قوة، لأنه قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾: كما تقدَّم في أول السورة: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٦]، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زَنَاحًا مِمَّا كَانُوا يَصَدِّقُونَ﴾. وقد يكون المراد كما قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾، أي: لا آمن بها ولا عمل بها، كقوله تعالى: ﴿فَلَا سَلْطَنَ لَكَ سَلْطَنٌ﴾ [٦١] ولكن كَذَبَ وَقَوْلًا ﴿١٥٨﴾ [القيامة: ٣١ - ٣٢]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على اشتغال الكافر على التكذيب بقلبه، وترك العمل بجوارحه. ولكن المعنى الأول أقوى وأظهر، والله تعالى أعلم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتِنَانًا لَوْ تَكَنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ لَنْظُرُوا إِنَّمَا نُنظُرُوا﴾ [١٥٨]

يقول تعالى متوعدا للكافرين به، والمخالفين رُسُلَهُ والمكذِّبين بآياته، والصادقين عن سبيله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾، وذلك كائن يوم القيامة، ﴿أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾، وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها.

[٣٠٢٦] كما قال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد، حدثنا عُمَارَةُ، حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا أبو هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمنَ مَنْ عَلَيْهَا، فذلك حين لا ينفع نفسا إيتنانيا لو تكن ءامنت من قبل» (١).

[٣٠٢٧] حدثنا إسحاق، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن هَمَّامِ بْنِ مُتَبِّهِ، عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورأها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفسا إيتنانيا لو تكن ءامنت من قبل» (٢)، ثم قرأ هذه الآية. هكذا روي هذا الحديث من هذين الوجهين، ومن الوجه الأول أخرجه بَقِيَّةُ الجماعة في كتبهم إلا الترمذي، من طُرُقٍ، عن عُمَارَةَ بْنِ الْقَعْقَاعِ بْنِ شُبْرَمَةَ، عن أبي زُرْعَةَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ جَرِيرٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ، به. وأما الطريق الثاني فرواه عن إسحاق، غير منسوب، فقليل: هو ابن منصور الكوسج، وقيل: إسحاق بن نصر. والله أعلم. وقد رواه مسلم عن محمد بن رافع الجنديسابوري، كلاهما عن عبد الرزاق، به. وقد ورد هذا الحديث من طُرُقٍ أُخَرَ عن أبي هُرَيْرَةَ، كما انفرد مسلم بروايته من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب مولى الحرقة، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ، به.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٣٦ من هذا الوجه، وانظر الحديث المتقدم.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٥٨ والترمذي ٣٠٧٤ وأحمد ١٠٧/١ وأبو يعلى ٦١٧٢ والطبري ١٤٢٥٢.

[٣٠٢٨] وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن فضيل، عن أبيه، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ثلاث إذا خرجن ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها﴾: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض»^(١). ورواه أحمد، عن وكيع، عن فضيل بن غزوان، عن أبي حازم سلمان، عن أبي هريرة، به. وعنده: «والدخان» ورواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، وزهير بن حرب، عن وكيع. ورواه هو أيضاً والترمذي، من غير وجه، عن فضيل بن غزوان، به. ورواه إسحاق بن عبد الله الفزوي، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة. ولكن لم يخرججه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه، لضغف الفزوي، والله أعلم.

[٣٠٢٩] وقال ابن جرير: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا شعيب بن الليث، عن أبيه، عن جعفر بن زبيدة، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت آمن الناس كلهم، وذلك حين ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل﴾... الآية»^(٢). ورواه ابن لهيعة، عن الأعرج، عن أبي هريرة، به. ورواه وكيع، عن فضيل بن غزوان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، به. أخرج هذه الطرق كلها الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره.

[٣٠٣٠] وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن يحيى، أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن أيوب عن ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها، قبل منه»^(٣). لم يخرججه أحد من أصحاب الكتب الستة.

[٣٠٣١] حديث آخر: عن أبي ذر الغفاري، في الصحيحين وغيرهما، من طريق، عن إبراهيم بن يزيد ابن شريك التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر جندب بن جنادة - رضي الله عنه - قال: قال لي رسول الله - ﷺ -: «تدري أين تذهب الشمس إذا غربت؟ قلت: لا أدري. قال: إنها تنتهي دون العرش، ثم تخر ساجدة، ثم تقوم حتى يقال لها: ارجعي، فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت، وذلك حين: ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل﴾»^(٤).

[٣٠٣٢] حديث آخر عن حذيفة بن أسيد الغفاري، - رضي الله عنه - قال الإمام أحمد ابن حنبل: حدثنا سفيان، عن قرأت، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: «أشرف علينا رسول الله - ﷺ - من عرفة، ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تزوا عشر آيات: طلوع الشمس من

(١) أخرجه الطبري ١٤٢٢٤ من هذا الوجه، وانظر ما تقدم.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٢٧٥/٢ والطبري ١٤٢٢٥ من طريق عبد الرزاق، به، ولم يخرججه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه، وقد أخرجه مسلم ٢٧٠٣ وأحمد ٤٢٧/٢ و٥٠٦ وابن حبان ٦٢٩ والبخاري في «التفسير» ٩٠٦ من طرق عن هشام بن حسان عن ابن سيرين.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٥٩ والنسائي في «الكبرى» ١١١٧٦ وابن حبان ٦١٥٣ من طرق عن إبراهيم التيمي بأتم منه وصدره «أتدرون أين تذهب هذه الشمس...». وأخرجه البخاري ٣١٩٩ ومسلم بإثر ١٥٩ والترمذي ٢١٨٦ وأحمد ٥/١٧٧ وابن حبان ٦١٥٤ من طرق عن الأعمش عن إبراهيم التيمي، به، لكن ليس فيه ذكر هذه الآية، وإنما ذكر بدلاً عنها «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا...» [يس: ٣٨].

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٠١ وأبو داود ٤٣١١ والترمذي ٢١٨٣ والنسائي في «الكبرى» ١١٣٨٠ وابن ماجه ٤٠٤١ وأحمد ٦/٧ وابن حبان ٦٧٩١ و٦٨٤٣.

مغربها، والدخان، والدابة، وخروجُ ياجوجَ ومأجوجَ، وخروجُ عيسى ابن مريمَ، وخروج الدجال، وثلاثة خسوف: خَسَفَ بالمغرب، وخَسَفَ بالمشرق، وخَسَفَ بجزيرة العرب. ونازَ تخرج من قَعْرِ عَدَنَ تسوقاً - أو تحشراً - الناسَ، تَبَيَّتْ معهم حيثُ باتوا، وتَقَبَّلَ معهم حيثُ قالوا^(١). وهكذا رواه مسلم وأهل السنن الأربعة، من حديث فُرَاتِ الْقَرَّازِ، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة بن أسيد، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

[٣٠٣٣] حديث آخر: عن حذيفة بن اليمان، - رضي الله عنه - قال الثوري، عن منصور، عن ربيعة، عن حذيفة قال: «سألت النبي - ﷺ - فقلت: يا رسول الله، ما آية طلوع الشمس من مغربها؟ فقال النبي - ﷺ -: تَطُولُ تلك الليلة حتى تكونَ قدرَ ليلتين، فينتبهُ الذين كانوا يُصَلُّونَ فيها فيعملونَ كما كانوا يعملونَ قبلها والنجومُ لا تُسري، قد قامت مكانها، ثم يرقُدون، ثم يقومون فيصلون، ثم يرقُدون، ثم يقومون فتَبَطُلُ عليهم جنوبهم، حتى يتناول عليهم الليل، فيفرع الناس ولا يُصْبِحُونَ. فبينما هم ينتظرون طلوع الشمس من مشرقها إذ طلعت من مغربها، فإذا رآها الناس آمنوا، ولا ينفعهم إيمانهم»^(٢). رواه ابن مردويه، وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه، والله أعلم.

[٣٠٣٤] حديث آخر: عن أبي سعيد الخدري، واسمه سعد بن مالك بن سنان، - رضي الله عنه - وأرضاه: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا ابن أبي ليلى، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي - ﷺ -: «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ مَا يَكُتَبُ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتَابًا»، قال: طلوع الشمس من مغربها^(٣). ورواه الترمذي، عن سفيان بن وكيع، عن أبيه، به. وقال: غريب، ورواه بعضهم ولم يرفعه^(٤).

[٣٠٣٥] وفي حديث طلوت بن عباد، عن فضال بن جبير، عن أبي أمامة صدي بن عجلان قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(٥).

[٣٠٣٦] وفي حديث عاصم بن أبي النجود، عن زر بن حبيش، عن صفوان بن عسال قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إِنَّ اللَّهَ فَتَحَ بَابًا قَبْلَ الْمَغْرِبِ عَرْضُهُ سَبْعُونَ عَامًا لِلثَّوْبَةِ، قَالَ: لَا يَغْلُقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ»^(٦). رواه الترمذي وصححه، والنسائي وابن ماجه، في حديث طويل.

[٣٠٣٧] حديث آخر عن عبد الله بن أبي أوفى: قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن علي بن دحيم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا ضرار بن صرد، حدثنا ابن فضيل، عن سليمان بن زيد، عن عبد الله بن أبي أوفى

(١) الثوري فمن فوقه رجال البخاري ومسلم، ولم يذكر المصنف من دون الثوري، وعزاه لابن مردويه، وتفسيره لم يطبع، وبكل حال للمتن شواهد.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٠٧٣ وأحمد ٣١/٣ وأبو يعلى ١٣٥٣، وإسناده ضعيف لضعف عطية العوفي، لكن يشهد له حديث أبي هريرة المتقدم قبل خمسة أحاديث.

(٣) قد صح من طرق عدة مرفوعاً كما ترى، فرواية من رواه موقوفاً لا تغلظ المرفوع، والله أعلم.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٨٠٢٢ وقال الهيثمي في «المجمع» ٩/٨: وفيه فضالة بن جبير، وهو ضعيف، وأنكر هذا الحديث اهـ لكن يشهد له حديث عبد الله بن عمرو الآتي بعد حديثين.

(٥) أخرجه الترمذي ٣٥٣٦ وابن ماجه ٤٠٧٠ وأحمد ٢٤١/٤ والطبري ١٤٢١٢ وابن حبان ١٣٢١ والبغوي في «التفسير» ٩٠٧ من طرق عن عاصم بن أبي النجود، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وإسناده غير قوي لأجل عاصم بن أبي النجود. وذكر عرض الباب غريب.

قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يقول: «لَيَاتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ لَيْلَةٌ تَعْدِلُ ثَلَاثَ لَيَالٍ مِنْ لَيَالِكُمْ هَذِهِ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ يَوْمَهَا الْمُتَنَفِّلُونَ، يَوْمَ أَحَدُهُمْ فَيَقْرَأُ حَزْبَهُ، ثُمَّ يَنَامُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَقْرَأُ حَزْبَهُ، ثُمَّ يَنَامُ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ صَاحَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَقَالُوا: مَا هَذَا؟ فَيَفْزَعُونَ إِلَى الْمَسَاجِدِ، فَإِذَا هُمْ بِالشَّمْسِ قَدْ طَلَعَتْ، مِنْ مَغْرِبِهَا، فَضَجَّ النَّاسُ ضَجَّةً وَاحِدَةً حَتَّى إِذَا صَارَتْ فِي وَسْطِ السَّمَاءِ رَجَعَتْ وَطَلَعَتْ مِنْ مَطْلَعِهَا - قال: حيثُذْ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا»^(١). هذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَلَيْسَ هُوَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ السَّنَةِ.

[٣٠٣٨] حَدِيثٌ آخَرُ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: حَدَّثَنَا أَبُو حَيَّانَ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ جَرِيرٍ قَالَ: جَلَسَ ثَلَاثَةَ نَهْرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَرْوَانَ بِالْمَدِينَةِ فَسَمِعُوهُ يَقُولُ: وَهُوَ يَحَدِّثُ فِي الْآيَاتِ - إِنَّ أَوْلَهَا خُرُوجُ الدُّجَالِ. قال: فَانصَرَفَ النَّفْرُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، فَحَدَّثُوهُ بِالَّذِي سَمِعُوهُ مِنْ مَرْوَانَ فِي الْآيَاتِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَمْ يَقُلْ مَرْوَانَ شَيْئًا. قَدْ حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فِي مِثْلِ ذَلِكَ حَدِيثًا لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: إِنَّ أَوْلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجَ الدَّابَّةِ ضَحَى، فَأَيُّهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْآخَرَى عَلَى أَثَرِهَا. ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ - وَكَانَ يَقْرَأُ الْكُتُبَ -: وَأَظُنُّ أَوْلَاهَا خُرُوجًا طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَذَلِكَ أَنَّهَا كَلِمَا غَرِبَتْ أَتَتْ تَحْتَ الْعَرْشِ فَسَجَدَتْ وَاسْتَأْذَنْتَ فِي الرَّجُوعِ، فَأُذِنَ لَهَا فِي الرَّجُوعِ، حَتَّى إِذَا بَدَأَ اللَّهُ أَنْ تَطْلُعَ مِنْ مَغْرِبِهَا فَعَلَتْ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ، أَتَتْ تَحْتَ الْعَرْشِ فَسَجَدَتْ وَاسْتَأْذَنْتَ فِي الرَّجُوعِ، فَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهَا شَيْءًا، ثُمَّ تَسْتَأْذِنُ فِي الرَّجُوعِ فَلَا يَرُدُّ عَلَيْهَا شَيْءًا، ثُمَّ تَسْتَأْذِنُ فَلَا يَرُدُّ عَلَيْهَا شَيْءًا، حَتَّى إِذَا دَقَبَ مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ أَنْ يَذْهَبَ، وَعَرَفَتْ أَنَّهُ إِنْ أُذِنَ لَهَا فِي الرَّجُوعِ لَمْ تَدْرِكِ الْمَشْرِقَ، قَالَتْ: رَبِّي، مَا أَبْعَدَ الْمَشْرِقُ! مَنْ لِي بِالنَّاسِ؟ حَتَّى إِذَا صَارَ الْأَفْقُ كَأَنَّهُ طُورٌ اسْتَأْذَنْتَ فِي الرَّجُوعِ، فَيُقَالُ لَهَا: مِنْ مَكَانِكَ فَاطْلُعِي. فَطَلَعَتْ عَلَى النَّاسِ مِنْ مَغْرِبِهَا. ثُمَّ تَلَا عَبْدُ اللَّهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَرَّ تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾... الآية^(٢). وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ، فِي سُنَنِهِمَا، مِنْ حَدِيثِ أَبِي حَيَّانَ التَّمِيمِيِّ - وَاسْمُهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدِ بْنِ حَيَّانَ - عَنْ أَبِي زُرْعَةَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ جَرِيرٍ، بِهِ.

[٣٠٣٩] حَدِيثٌ آخَرُ: عَنْهُ: قَالَ الطَّبْرَانِيُّ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ خَالِدِ بْنِ حَيَّانَ الرَّقْمِيُّ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ زَبْرِيقَ الْجَنْصِيِّ، حَدَّثَنَا عَثْمَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ كَثِيرِ بْنِ دِينَارٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهْيَعَةَ، عَنْ حُيَيْبِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبَلِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: «إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا حَرَّ إِبْلِيسُ سَاجِدًا يَنَادِي وَيَجْهَرُ: إِلَهِي، مُرِّنِي أَنْ أَسْجُدَ لِمَنْ شِئْتَ. قال: فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ زَبَانِيَّتُهُ فَيَقُولُونَ: يَا سَيِّدَهُمْ، مَا هَذَا التَّضَرُّعُ؟ فَيَقُولُ: إِنَّمَا سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُنْظِرَنِي إِلَى الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ، وَهَذَا الْوَقْتُ الْمَعْلُومُ. قال: ثُمَّ تَخْرُجُ دَابَّةُ الْأَرْضِ مِنْ صَدْعٍ فِي الصَّفَا، قَالَ: فَأَوَّلُ خَطْوَةٍ تَضَعُهَا بِأَنْطَاكِيَّةَ، فَتَأْتِي إِبْلِيسَ فَتَلْطُمُهُ»^(٣). هذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ جَدًّا وَسَنَدُهُ ضَعِيفٌ، وَلَعَلَّهُ مِنَ الزَّامِلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ أَصَابَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو يَوْمَ الْيَرْمُوكِ، فَأَمَّا رَفَعُهُ فَمُنْكَرٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

(١) إسناده ضعيف جداً. فيه ضرار بن صرد، جاء في الميزان ٣٩٥١: قال البخاري وغيره: متروك، وقال ابن معين: كذابان بالكوفة: ضرار بن صرد، وأبو نعيم النخعي اهـ فالإسناد ساقط والمتن غريب.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٢٠١/٢ بتمامه. والمرفوع منه أخرجه مسلم ٢٩٤١ وأبو داود ٤٣١٠ وابن ماجه ٤٠٦٩.

(٣) باطل. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٩٤. قال الهيثمي في «المجموع» ١٢٥٧٨: فيه إسحاق بن إبراهيم بن زبيري وهو ضعيف اهـ وله علة ثانية، وهي ابن لهيعة، والظاهر أنه روى هذا الحديث بعد اختلاطه، فإنه منكر جداً، والله أعلم.

[٣٠٤٠] حديث آخر: عن عبد الله بن عمرو، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، - رضي الله عنهم - أجمعين. قال الإمام أحمد: حدثنا الحَكَمُ بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمَضَم بن زُرْعَةَ، عن شَرِيح بن عُبيد يرده إلى مالك بن يُخامر، عن ابن السَّعدي أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يُقاتل». فقال معاوية، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمرو ابن العاص: إن النبي - ﷺ - قال: إن الهجرة خُصَلَّتَان: إحداهما تهجر السيئات، والأخرى تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع ما تُقبِلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طُبع على كل قلب بما فيه، وكفي الناس العمل^(١). هذا الحديث حسن الإسناد، ولم يُخرجه أحد من أصحاب الكُتُب الستة، والله أعلم.

حديث آخر: عن ابن مسعود - رضي الله عنه -: قال عوف الأعرابي، عن مُحَمَّد بن سيرين، حدثني أبو عبيدة، عن ابن مسعود أنه كان يقول: ما ذُكر من الآيات فقد مضى غير أربع: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض، وخروج يأجوج ومأجوج. قال: وكان يقول: الآية التي تُختم بها الأعمال طلوع الشمس من مغربها، ألم تر أن الله يقول: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾... الآية كُلُّها، يعني طلوع الشمس من مغربها.

[٣٠٤١] حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - رواه الحافظ أبو بكر بن مَزْدويه في تفسيره من حديث عبد المنعم بن إدريس عن أبيه، عن وهب بن مُتبه، عن ابن عباس مرفوعاً، فذكر حديثاً طويلاً غريباً منكراً رفعه، وفيه: «أن الشمس والقمر يطلعان يومئذ من المغرب مرفوعين، فإذا نَصَفَا السماء رَجَعَا ثم عادا إلى ما كانا عليه^(٢)». وهو حديث غريب جداً، بل مُنكر، بل موضوع إن ادَّعي أنه مرفوع، فأما وثقه على ابن عباس أو وهب بن مُتبه - وهو الأشبه - فغير مدفوع، والله أعلم.

وقال سفيان، عن منصور، عن عامر، عن عائشة قالت: إذا خَرَجَ أول الآيات، طُرحت الأقلام، وحُجست الحَفَظَةُ، وشهدت الأجساد على الأعمال. رواه ابن جرير. فقوله: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَوْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾، أي: إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يُقبل منه، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك، فإن كان مُضليحاً في عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مُخَلطاً فأحدث توبةً حينئذ لم تُقبل منه توبته، كما دلت عليه هذه الأحاديث المتقدمة، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾، أي: ولا يُقبل منها كَسْبُ عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا إِنَّا مُنظَرُونَ﴾، تهديد شديد للكافرين، ووعيد أكيد لمن سَوَّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا يَنْفَعُه ذلك. وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها، لا اقتراب

(١) أخرجه أحمد ١٩٢/٢ وإسناده حسن كما قال المصنف رحمه الله، وأخرجه ٩٩/٤ من وجه آخر من حديث معاوية، وهو شاهد لما قبله.

(٢) لا أصل له في الرفوع. ذكره السيوطي في «الدر» ١١٤/٣ - ١١٥ مطولاً في رقات، وعزاه لابن مردويه، واكتفى بقوله: بسند واو! وليس كما قال، ففي إسناده عبد المنعم بن إدريس اليماني. جاء في «الميزان» ٥٢٧٠: قصاص، ليس يعتمد عليه، تركه غير واحد، وأفصح أحمد أنه كان يكذب على وهب بن منبه، وقال البخاري: ذاهب الحديث: وقال ابن حبان: يضع الحديث على أبيه وحل غيره اهـ فالحمل في هذا الحديث عليه، فإنه التهم به، وقد قال الإمام أحمد: يكذب على وهب، وهذا رواه عن أبيه عن وهب كما ترى، وقد ذكر ابن كثير أن الرفوع موضوع، وصبوب الوقف على وهب بن منبه، والله أعلم.

وقت القيامة، وظهور أشراطها، كما قال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْتُمْ لَهَا جَاهِلُونَ﴾ [محمد: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكُنَّا مِنْكُمْ قَوْمًا مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥]... الآية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُقِئْتُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٥٩)

قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾، وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل أن يبعث محمد - ﷺ - ففرقوا. فلما بعث محمد - ﷺ - أنزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (١) ... الآية.

[٣٠٤٢] وقال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد: كتب إلي عباد ابن كثير، حدثني ليث، عن طاووس، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ - في هذه الآية: ﴿الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، وليسوا منك، هم أهل البدع، وأهل الشبهات، وأهل الضلالة (٢)، من هذه الأمة. ولكن هذا الإسناد لا يصح، فإن عباد بن كثير متروك الحديث، ولم يختلق هذا الحديث، ولكنه وهم في رفعه. فإنه رواه سفيان الثوري، عن ليث - وهو ابن أبي سليم - عن طاووس، عن أبي هريرة، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾، قال: نزلت في هذه الأمة.

[٣٠٤٣] وقال أبو غالب، عن أبي أمامة، في قوله: ﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾، قال: هم الخوارج (٣). وروى عنه مرفوعاً، ولا يصح.

[٣٠٤٤] وقال شعبه، عن مجالد، عن الشعبي، عن شريح، عن عمر أن رسول الله - ﷺ - قال لعائشة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾، قال: هم أصحاب البدع (٤). وهذا رواه ابن مردويه، وهو غريب أيضاً، ولا يصح رفعه. والظاهر أن الآية في كل من فارق دين الله، وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشركه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾، أي: فرقا كأهل الجمل والتحلل - وهي الأهواء والضلالات - فإن الله تعالى قد برأ رسوله مما هم فيه. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣]... الآية.

[٣٠٤٥] وفي الحديث: «نحن - معاشر الأنبياء - أولاد علات، ديننا واحد» (٥). فهذا هو الصراط

(١) قرأ بذلك علي وقتادة وغيرهما كما في الطبري ١٤٢٥٧ و ١٤٢٥٨ و ١٤٢٥٩، وهي قراءة حمزة والكسائي. وقراءة حفص «فرقوا» وهي الأشهر في هذه الأيام.

(٢) المرفوع ضعيف، والصواب موقوف. أخرجه الطبري ١٤٢٧١ بهذا الإسناد، وأعله ابن كثير رحمه الله بعباد بن كثير، وأنه متروك. وصوب وقفه، وهو كما قال، حيث أسنده الطبري ١٤٢٦٩ من طريق ليث عن أبي هريرة موقوفاً بنحوه.

(٣) إسناده ضعيف لضعف أبي غالب، واسمه حزور، وتقدم تخريجه، والصواب موقوف على أبي أمامة.

(٤) ضعيف. أخرجه الطبراني في «الصغير» ٥٦٠ والحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» ص ٢٠٩ وأبو نعيم ١٣٨/٤ وابن الجوزي في «اللوحيات» ٢٠٩ من حديث عمر، وقال ابن الجوزي: لا يثبت، وبقية مدلس، والظاهر أنه سمعه من ضعيف، فأسقطه. وأهله الهشيمي في «المجمع» ٨٩٦ بضعف بقية ومجالد.

(٥) تقدم في سورة البقرة عند آية: ١٣٣ وفي سورة المائدة عند آية: ٤٨.

المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل، من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وأراءه وأهواءه، الرسل بُرأه منها، كما قال: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾. وقوله: ﴿إِنَّمَا أُنزِلَتْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُؤْمِنَاتِ الْوَالِدِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ... [الحج: ١٧]... الآية، ثم بين فضله يوم القيامة في حُكْمه وغذله فقال تعالى:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١١٦)

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى، وهي قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا﴾، وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية، كما قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله -:

[٣٠٤٦] حدثنا عفان، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا الجعد أبو عثمان، عن أبي رجاء العطاردي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن رسول الله - ﷺ - فيما يزوي عن ربه - عز وجل - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إِنَّ رَبَّكُمْ رَحِيمٌ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِئَةٍ، إِلَى أَصْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةٌ، أَوْ يَمْحُوهَا اللَّهُ - عز وجل - وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ»^(١). ورواه البخاري، ومسلم، والنسائي، من حديث الجعد أبي عثمان، به.

[٣٠٤٧] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المغرور بن سويد، عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «يقول الله - عز وجل -: من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد. ومن عمل سيئة فجزاؤها مثلها أو أغفر. ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيئاً جعلت له مثلها مغفرة، ومن اقترب إلي شبراً اقتربت إليه ذراعاً، ومن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(٢). ورواه مسلم عن أبي كريب، عن أبي معاوية، به. وعن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن الأعمش، به. ورواه ابن ماجه، عن علي بن محمد الطنافسي، عن وكيع، به.

[٣٠٤٨] وقال الحافظ أبو يعلى المؤصلي: حدثنا شيبان، حدثنا حماد، حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ»^(٣). واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام: تارة يتركها لله، فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها الله تعالى، وهذا عمل وثية. ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة، كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح:

[٣٠٤٩] «فإنما تركها من جرأتي، أو: من أجلي»^(٤). وتارة يتركها نسياناً ودُهوراً عنها، فهذا لا لله ولا عليه، لأنه لم ينو خيراً ولا فعل شراً. وتارة يتركها عجزاً وكسلاً عنها بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها، فهذا يتنزل منزلة فاعلها، كما جاء في الحديث، في الصحيحين:

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٩١ ومسلم ١٣١ والنسائي في «الكبرى» ٧٦٧٠ وأحمد ١/٢٧٩.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٨٧ وابن ماجه ٣٨٢١ وأحمد ١٥٣/٥ و١٦٩.

(٣) صحيح. أخرجه أبو يعلى ٣٤٥١، وأخرجه مسلم ١٦٢ في حديث الإسراء عن أنس مرفوعاً.

(٤) صحيح. وهو قطعة من حديث أبي هريرة عند مسلم ١٢٩.

[٣٠٥٠] «إذا تواجَه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(١).

[٣٠٥١] وقال الإمام أبو يعلى الموصلي: حدثنا مجاهد بن موسى، حدثنا علي - وحدثنا الحسن ابن الصباح وأبو خيثمة - قالوا: حدثنا إسحاق بن سليمان، كلاهما عن موسى بن عبيدة، عن أبي بكر بن عبيد الله بن أنس، عن جده أنس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من همَّ بحسنة كتَّبت الله له حسنة، فإن عملها كُتبت له عشرًا. ومن همَّ بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها، فإن عملها كُتبت عليه سيئة، فإن تركها كُتبت له حسنة. يقول الله تعالى: إنما تركها من مخافتى»^(٢). هذا لفظ حديث مجاهد. يعني ابن موسى.

[٣٠٥٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن، عن الركين بن الربيع، عن أبيه، عن عمه فلان بن عميلة، عن خريم بن فاتك الأسدي: أن النبي - ﷺ - قال: الناس أربعة والأعمال ستة. فالناس موصَّغ له في الدنيا والآخرة، وموصَّغ له في الدنيا مَقْتورٌ عليه في الآخرة، ومَقْتورٌ عليه في الدنيا موصَّغ له في الآخرة، وشقي في الدنيا والآخرة. والأعمال مَوْجِبَاتان، ومثل بمثل، وعشرة أضعاف، وسبعمئة ضعف، فالموجبتان من مات مسلماً مؤمناً لا يُشرك بالله شيئاً وَجِبَتْ له الجنة، ومن مات كافراً وَجِبَتْ له النار. ومن همَّ بحسنة فلم يعملها، فَعَلِمَ الله أنه قد أشعرها قلبه وحرَّص عليها، كُتبت له حسنة، ومن همَّ بسيئة لم تكتب عليه، ومن عملها كُتبت واحدة ولم تُضاعف عليه. ومن عمل حسنة كانت عليه بِعَشْرِ أمثالها. ومن أنفق نَفَقَةً في سبيل الله - عز وجل - كانت له بسبعمئة ضعف»^(٣). ورواه الترمذي والنسائي، من حديث الركين بن الربيع، عن أبيه، عن بشير بن عميلة، عن خريم بن فاتك، به ببعضه. والله أعلم.

[٣٠٥٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا حبيب المعلم، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي - ﷺ - قال: «يحصُرُ الجمعة ثلاثة نَفَرٍ: رجل حَضَرها يَلْغُو فهو حَظُّه منها، ورجل حَضَرها بدعاء، فهو رجل دعا الله، فإن شاء أعطاه وإن شاء مَنَعه. ورجل حَضَرها بإنصات وسكوت ولم يَتَحَطَّ رِقَبَةً مسلم ولم يُؤذِ أحداً، فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام، وذلك لأن الله يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالسُّنَّةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا﴾»^(٤).

[٣٠٥٤] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن مرثد، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثني أبي، حدثني ضَمَضُمُ بن زُرْعَةَ، عن شُرَيْحِ بن عُبَيْد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله - ﷺ -:

(١) تقدم في سورة المائدة عند آية: ٢٨.

(٢) إسناده ضعيف لضعف موسى بن عبيدة الربذي، وأصل الحديث صحيح، له شواهد كثيرة، وعجزه غريب لكن يشهد له ما تقدم قبل حديث واحد.

(٣) أخرجه أحمد ٤/٣٤٥ ح ١٨٥٥٦ ورجاله ثقات معروفون سوى فلان بن عميلة، فلم أجد من ترجمه. وأخرجه الحاكم ٢/٨٧ ح ٢٤٤٢ عن مسلمة بن جعفر عن الركين عن عمه عن خريم مرفوعاً به. وقال الذهبي: فيه مسلمة - بن جعفر من بجيلة - تمت عليه فلم أعرفه اه أي هو مجهول. والحديث بطوله غريب وإسناده مجهول بطريقه وقد ورد عن الركين عن الربيع عن يسير بن عميلة عن خريم مرفوعاً لكن باختصار شديد وإسناده حسن ورجاله ثقات. وقد صحح الحاكم ٢٤٤١ الحديث المختصر، ووافقه الذهبي، وهو كما قال. وهو عند الترمذي والنسائي مختصر، وقد تقدم.

(٤) حسن. أخرجه أبو داود ١١١٣، وإسناده حسن للاختلاف المعروف في عمرو بن شعيب عن أبيه.

«الْجُمُعَةَ كَفَارَةً لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا وَزِيَادَةٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿مَنْ جَاءَهُ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا﴾^(١).

[٣٠٥٥] وعن أبي ذرٍّ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله». رواه الإمام أحمد - وهذا لفظه - والنسائي، وابن ماجه، والترمذي وزاد: «فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: ﴿مَنْ جَاءَهُ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا﴾، اليوم بعشرة أيام»^(٢). ثم قال: هذا حديث حسن. وقال ابن مسعود: «مَنْ جَاءَهُ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا»، من جاء بلا إله إلا الله، ومن جاء بالسيئة يقول: بالشرك. وهكذا ورد عن جماعة من السلف. وقد ورد في حديث مرفوع^(٣)، والله أعلم بصحته، لكنني لم أراه من وجه يثبت، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً، وفيما ذكرنا كفاية، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

يقول الله تعالى أمرأ نبيه - ﷺ - سيّد المرسلين أن يُخبر بما أنعم الله به عليه، من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف: «دِينًا قِيَمًا»، أي: قائماً ثابتاً، «مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» كقوليه: «وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ» [البقرة: ١٣٠]، وقوله: «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِن حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ» [الحج: ٧٨]، وقوله: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦٢﴾ وَمَا تَنبَأُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَاللَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٦٣﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٣﴾» [النحل: ١٢٠ - ١٢٣]، وليس يلزم من كونه - عليه السلام - أميراً باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها، لأنه - عليه السلام - قام بها قياماً عظيماً، وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال. ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيّد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرغّب إليه الخلق كلهم حتى إبراهيم الخليل - عليه السلام -.

[٣٠٥٦] وقد قال ابن مَرْدَوِيَّة: حدثنا محمد بن عبد الله بن حفص، حدثنا أحمد بن عاصم، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا شعبه، أنبأني سلمة بن كهيل، سمعتُ ذرَّ بن عبد الله الهمداني، يُحدِّث عن ابن أبيزى، عن أبيه قال: كان رسول الله - ﷺ - إذا أصبح قال: «أصبحنا على ملة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين»^(٤).

(١) أخرجه الطبراني ٣٤٥٩، وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٠٥٨: وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش. لم يسمع من أبيه شيئاً اهـ لكن يشهد له ما قبله، وفي الباب أحاديث تقويه، والله أعلم.

(٢) حسن. أخرجه الترمذي ٧٦٢ والنسائي في «الكبرى» ٢٧١٧ وابن ماجه ١٧٠٧ من حديث أبي ذر، وقال الترمذي: حسن صحيح. وأخرجه أحمد ١٥٤/٥ ح ٢٠٨٥٧ بلفظ «صوم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر، ويذهب مغلة الصدر...». وله شاهد من حديث قرة الزني أخرجه أحمد ٣٥/٥ وابن حبان ٣٦٥٢ ولم يذكر فيه الآية، وإسناده صحيح وله شاهد آخر من حديث عبد الله بن عمرو أخرجه البخاري ١٩٧٦ ومسلم ١١٥٩ ح ١٨١ وليس فيه ذكر الآية.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» ١١٩/٣ وعزاه لأبي الشيخ عن أبي هريرة أراه رفعه اهـ. وذكره عن ابن مسعود موقوفاً، وكذا عن ابن عباس، وتفرد أبي الشيخ برفعه يدل على وهنه، والله أعلم.

(٤) حسن. أخرجه أحمد ٤٠٦/٣ وابن السنني ٣٣ والنسائي (١) كلاهما في اليوم والليل، كلهم من حديث عبد الله بن =

[٣٠٥٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «قيل لرسول الله - ﷺ -: «أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: الحنيفية السنحة»^(١).

[٣٠٥٨] وقال أحمد أيضاً: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «وضع رسول الله - ﷺ - ذفتي على منكبيه، لأنظر إلى زفن الحبشة، حتى كنت التي ملئت فانصرفت عنه. قال عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال لي عروة: إن عائشة قالت: قال رسول الله - ﷺ - يومئذ: «لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، إني أرسلت بحنيفية سمنحة»^(٢). أصل الحديث مخرج في الصحيحين، والزيادة لها شواهد من طرق متعددة، وقد استقصيت طرقها في شرح البخاري، والله الحمد والمئة. وقوله تعالى: «قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦١﴾»، يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه، أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله ونُسُكه على اسمه وحده لا شريك له. وهذا كقوله تعالى: «فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ﴿٢﴾» [الكوثر: ٢]، أي: أخلص له صلاتك وذبيحتك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والإنحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى. قد مجاهد في قوله: «إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي»، قال: «النسك»: الذبح في الحج والعمرة. وقال الثوري، عن السدي، عن سعيد بن جبيرة «ونُسُكِي»، قال: ذبحي. وكذا قال السدي والضحاك.

[٣٠٥٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أحمد بن خالد الوهبي، حدثنا محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي عياش^(٣)، عن جابر بن عبد الله قال: ضحى رسول الله - ﷺ - في يوم عيد بكشين، وقال حين ذبحهما: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض خنيماً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» وقوله عز وجل: «وَأَنَا أَوَّلُ الْمَسْلُومِينَ»، قال قتادة: أي من هذه الأمة. وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، كما قال: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١٦٢﴾» [الأنبياء: ٢٥]، وقد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه: «فَإِنْ قِيلَ لَكَ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ آجُرٍ إِنْ آجُرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُورِثُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾» [يونس: ٧٢]، وقال تعالى: «وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَكِنَّا الصَّالِحِينَ ﴿١٦٤﴾» [آل عمران: ٦٤]، وقال لئله أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴿١٦٥﴾ ووعدن بها إبراهيم نبيو ويعقوب بنبيو إن الله اصطق لكم الذين فلا تموتن إلا

= أبزي، وحسنه ابن حجر والسيوطي، وصححه العراقي في «الإحياء» ١/٣٢٧ والنووي في «الأذكار» ١٩١ وقال: كذا وقع في كتاب ابن السني «ودين نبينا محمد»، وهو غير متنوع، ولعله قال ذلك جهراً لیسعه غيره فيتعلمه، والله أعلم.

(١) حسن. أخرجه أحمد ١/٢٣٦ والطبراني في «الكبير» ١١٥٧٢ وفي إسناده ابن إسحاق، وهو مدلس، ولم يصرح بالسماع كما في «المجمع» ١/٦٠ وفي الباب من حديث أبي هريرة عند الطبراني في «الأوسط» ٧٣٤٧ وإسناده ضعيف فيه عبد الله بن إبراهيم الغفاري منكر الحديث كما في «المجمع» ١/٦٠ وله شواهد. وانظر الحديث المتقدم في سورة البقرة عند آية: ١٨٥.

(٢) أخرجه أحمد ١/١١٦ و٢٣٣ وإسناده جيد، وانظر «فتح الباري» ٢/٤٤٤. وأصله في الصحيحين دون عجزه كما ذكر المصنف، انظر «صحيح البخاري» ٥١٩٠ و«صحيح مسلم» ٨٩٢.

(٣) وقع في سائر النسخ «ابن عباس»، والتصويب عن سنن البيهقي ٩/٢٨٧.

وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٦٦﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢]، وقال يوسف - عليه السلام -: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ الْإِنْسَانِ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَمَا عَلَيْكُمْ قَوْلَا إِنْ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ فَقَالُوا عَلَ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِكُمُ الظَّالِمِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [يونس: ٨٤-٨٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ بِحُكْمِهَا آتَيْنَاهُ الَّذِينَ آسَلُوا اللَّهَ لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيَّةَ وَالْأَحْبَابَ ﴿١٧٠﴾﴾ [المائدة: ٤٤]... الآية. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَارِثِيِّنَ أَنْ أَمْسُوا إِلَى بَيْتِ يَرْسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [المائدة: ١١١]. فأخبر تعالى أنه بعث رُسُلَهُ بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي يَنْسَخُ بعضها بعضاً، إلى أن نُسِخَتْ بشريعة محمد - ﷺ - التي لا تَنْسَخُ أَبَدَ الأبدِين، ولا تزال قائمة منصورَةً، وأعلامها مشهورة إلى قيام الساعة.

[٣٠٦٠] ولهذا قال - عليه السلام -: «نحن - معاشر الأنبياء - أولادُ عَلَاتٍ، دِيننا واحدٌ»^(١)، فإن أولادِ العَلَاتِ هم الأخوة من أب واحد وأمّهاتٍ شتى، فالدينُ واحدٌ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تَنَوَّعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات، كما أن إخوة الأخياف عكسُ هذا، بنو الأم الواحدة من آباءٍ شتى، والإخوة الأعيانُ الأشقاء من أب واحد وأم واحدة، والله أعلم.

[٣٠٦١] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الماجشون، حدثنا عبد الله بن الفضل الهاشمي، عن الأعرج، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن علي - رضي الله عنه -: أن رسول الله - ﷺ - كان إذا كَبُرَ استفتح، ثم قال: ﴿وَجَهَّتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الشُّرَكِيِّنَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ لَا شَرِيكَ لَمْ وَيَذَلِكَ بُرْهَانِي أَنَا أَوَّلُ الْكَلْبِيِّينَ ﴿١٦٨﴾﴾، اللهم أنت المليك، لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفتُ بذنبي، فأغفر لي ذنوبي جميعاً، لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت. واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت. واصبرْ عني سيئها لا يصرِفْ عنه سيئها إلا أنت. تباركت وتعاليت، أستغفرُكَ وأتوبُ إليك^(٢). ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والشهيد. وقد رواه مسلمٌ في صحيحه.

﴿قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ آبِيَّ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا زُرَّةُ وَاِزْرَةَ وَاِزْرَةَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ تَرْجِعُكُمْ فَيَتَّبِعُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادَةِ له والتوكل عليه: ﴿أَعْيَرَ اللَّهُ آبِيَّ رَبًّا﴾، أي: أطلبُ ربًّا سواه، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُرَبِّيني ويحفظني ويكلوني ويدبُرُ أمري. أي: لا أتوكلُ إلا عليه، ولا أنيبُ إلا إليه، لأنه ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه، وله الخلق والأمر. ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل، كما تَقَدَّمت الآية التي قبلها إخلاص العبادَةِ لله وحده لا شريك له. وهذا المعنى يُقرَن بالآخر كثيراً في القرآن، كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا له: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ [الملك: ٢٩]، وقوله: ﴿رَبُّهُ لِكثِيرٍ وَالْقَرِيبُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿١٦٦﴾﴾ [الزمل: ٩]، وأشباه ذلك من الآيات.

(١) تقدم في سورة البقرة عند آية: ١٣٣.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٧٧١ وأبو داود ٧٦٠ والترمذي ٣٤٢٢ والنسائي ١٢٩٢ وأحمد ١٠٢/١ وابن حبان ١٧٧١.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَأَنْزَرُهَا وَنَزَّ أَنْزَرُهَا﴾، إخباراً عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تُجَازَى بأعمالها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وأنه لا يُحْمَلُ من خطيئة أحد على أحد. وهذا من عذبه تعالى، كما قال: ﴿وَلَنْ نَدْعُ مَثَلَهُ إِنْ جِئْنَا بِهَا بِحَمَلٍ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ عُذَابًا وَلَا هَضَمًا﴾ [طه: ١١٢]، قال علماء التفسير: أي فلا يُظَلَمُ بأن يُحْمَلَ عليه سيئات غيره، ولا يُهْضَمُ بأن يُنْقَصَ من حسناته. وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَمَّانَ الْيَمِينِ﴾ [الدثر: ٣٨-٣٩]، معناه: كل نفس مُرْتَهَنَةٌ بعملها السيء إلا أصحاب اليمين، فإنه قد تعود بركة أعمالهم الصالحة على ذراريهم وقراباتهم، كما قال في سورة الطور: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ قَدَرُوا لِيَوْمِهِمْ وَمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، أي: ألحقتنا بهم ذرياتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة، وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال، بل في أصل الإيمان، وما ألتناهم، أي: ما أنقضنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئاً حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلةً، بل رَفَعْتُهُمْ تعالى إلى منازل الآباء ببركة أعمالهم، بِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ. ثم قال: ﴿كُلُّ أُنْفُسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [الطور: ٢١]، أي: من شر. وقوله: ﴿ثُمَّ لَنْ يَكُنَّ يَمِينُكُمْ مُنْفَكَّةً مِنْكُمْ فِيهِ تَخْلَفُونَ﴾، أي: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه، فَسَعَرَضُونَ وَنُعْرَضُ عَلَيْهِ، وَتَبَيَّنَّا وَإِيَّاكُمْ بِأَعْمَالِنَا وَأَعْمَالِكُمْ، وما كُنَّا نختلف فيه في الدار الدنيا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تَشْكُرُونَ عَمَّا أُعْرِمْتُمْ وَلَا تُشْكُرُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [٢٥] قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَقْتَعُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٥-٢٦].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَعَكُمْ خَلْقًا مِنَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْأَلَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٦٥]

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَعَكُمْ خَلْقًا مِنَ الْأَرْضِ﴾، أي: جعلكم تَعْمُرُونَ الأرضَ جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، وخلقاً بعد سلف. قاله ابن زيد وغيره، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَشْرًا مَلَكًا فِي الْأَرْضِ يَخْلَفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَيَجْمَعُكُمْ خَلْقًا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدَّتْكُمْ وَنَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾، أي: فاوَتْ بَيْنَكُمْ فِي الْأَرْزَاقِ وَالْأَجَالِ، والمحاسن والمساويء، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْأَلَهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، وقوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿لِيَسْأَلَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾، أي: ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به، ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره.

[٣٠٦٢] وقد روى مسلم في صحيحه، من حديث أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها لينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»^(١).

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٤٢ والترمذي ٢١٩١ وابن ماجه ٤٠٠٠ وأحمد ١٩/٣ ٢٢ وأبو يعلى ١١٠١ وابن حبان ٣٢٢١ والقضاعي ١١٤٢.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّكَ لَفُتُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ترهيبٌ وترغيبٌ، أن جِسَابَهُ وَعِقَابَهُ سَرِيعٌ مِمَّنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ رُشْلَهُ. ﴿وَإِنَّكَ لَفُتُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن والاه واتبع رُشْلَهُ فيما جاؤوا به من خَيْرٍ وَطَلَبٍ. وقال محمد بن إسحاق: يرحم العباد على ما فيهم. رواه ابن أبي حاتم. وكثيراً ما يقرب الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين، كما قال: ﴿يَوْمَ عِبَادَتِي أَيُّ أَنَا الْعَفْوُ الرَّحِيمُ ﴿١١﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَكَادِبُ الْأَلِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠]، وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِّنَّاسٍ عَلَى ظَلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وغير ذلك من الآيات المشتملة على التَّوْبِ والتَّوْبِ، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والتَّوْبِ فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة ويذكر النار وأنكالتها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهذا وبهذا لينجح في كل بحسبه. جَعَلْنَا اللهُ مِمَّنْ أَطَاعَهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَرَكَ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، وَصَدَّقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ، إنه قريبٌ مجيبٌ سميعٌ الدعاء، جَوَادٌ كَرِيمٌ وَهَابٌ.

[٣٠٦٣] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا زهير، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بالجنة أحد. ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من الجنة أحد. خلق الله مئة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها، وعند الله تسعة وتسعون»^(١). ورواه الترمذي، عن قتيبة، عن عبد العزيز الدراوردي، عن العلاء، به. وقال: حسن. ورواه مسلم، عن يحيى بن يحيى، وقتيبة، وعلي بن حجر وثلاثهم عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء.

[٣٠٦٤] وعنه أيضاً قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لما خلق الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي»^(٢).

[٣٠٦٥] وعنه أيضاً قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشيةً من أن تصيبه»^(٣). رواه مسلم.

آخر تفسير سورة الأنعام، ولله الحمد والمنة

(١) تقدم في سورة الفاتحة عند آية: ٣.

(٢) صحيح، أخرجه مسلم ٢٧٥١ عن أبي هريرة، وقد تقدم عند آية: ١٢ و ٥٣ من هذه السورة.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٠٠٠ ومسلم ٢٧٥٢ وابن حبان ٦١٤٨ والبيهقي في «الآداب» ٣٥.



وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿التَّص ١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ، وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾

قد تقدّم الكلام في أول «سورة البقرة» على ما يتعلق بالحروف وبسطه، واختلاف الناس فيه. وقال ابن جرير: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا أبي، عن شريك، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى، عن ابن عباس: «التص»، «أنا الله أفصل»^(١). وكذا قال سعيد بن جبير. قوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾، أي: هذا كتاب أنزل إليك، أي: من ربك، ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾، قال مجاهد، وقتادة، والسدي: شك منه. وقيل: فلا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به، واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ولهذا قال: ﴿لِئُنذِرَ بِهِ﴾، أي أنزل إليك لتندر به الكافرين، ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل من رب كل شيء ومليكه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، أي: لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٥٦﴾ [يوسف: ١٠٣] الآية، وقوله: ﴿وَلَنْ نُطِيعَ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾ [يوسف: ١٠٦].

﴿وَكَمْ مِّن قَرِيبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ﴿١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصِنَّ عَلَيْهِمْ بِمَا عَمِلُوا ﴿٧﴾ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾

يقول تعالى: ﴿وَكَمْ مِّن قَرِيبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾: أي: بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً ببدل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾ [الأنعام: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَكَانَ مِّن قَرِيبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَائِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَلِّقٌ وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ﴾ ﴿١٥٥﴾ [الحج: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرِيبٍ مَّا بَدَّرْتَ

(١) موقوف ضعيف. أخرجه الطبري ١٤٣١٥ بإسناد واه، وله ثلاث علل: سفيان بن وكيع تغير حفظه، لذا وضعه غير واحد، وشريك صدوق إلا أنه سيء الحفظ، وعطاء بن السائب اختلط بأخرة. والوارد عن سعيد ابن جبير فيه أيضاً عطاء بن السائب.

مَيْمَنَتَهَا فَيَلَاكُ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تَشْكُرْ مِنْ بَدِيدِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ [القصاص: ٥٨]. وقوله: ﴿فَمَا كَانُوا بِأَسْنَا بَيْنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾، أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بَيْنًا﴾، أي: ليلاً. ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾، من القيلولة، وهي: الاستراحة وسط النهار. وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو، كما قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرْعَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٥٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرْعَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٨]، وقال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخِفَّ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٩﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٦٠﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٤٥ - ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾، أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا. كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَوْمٍ كَانَتْ ظَالِمَةً . . . إِلَى قَوْلِهِ: ﴿خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١].

[٣٠٦٦] قال ابن جرير: في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله - ﷺ - من قوله: «ما هلك قوم حتى يُعذروا من أنفسهم». حدثنا بذلك ابن حميد، حدثنا جرير، عن أبي سنان، عن عبد الملك بن ميسرة الزرادي قال: قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال رسول الله - ﷺ -: «ما هلك قوم حتى يُعذروا من أنفسهم». قال: قلت لعبد الملك: كيف يكون ذلك؟ قال: فقرأ هذه الآية: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ أُزِيلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأْذِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦١﴾﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصاص: ٦٥]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْقُلُوبَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا أَنْتُمْ عَلَىٰ عِلْتَابٍ الْأَلْبُوبِ ﴿٦١﴾﴾ [المائدة: ١٠٩]، فالرَّبُّ تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته. ولهذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية: ﴿فَلَنَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ أُزِيلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأْذِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦١﴾﴾، وقال: يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المرسلين عما بلغوا.

[٣٠٦٧] وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا أبو سعيد الكِنْدِي، حدثنا المحاربي، عن ليث، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ يُسْأَلُ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ يُسْأَلُ عَنْ أَهْلِهِ، وَالْمَرْأَةُ تُسْأَلُ عَنْ بَيْتِ زَوْجِهَا، وَالْعَبْدُ يُسْأَلُ عَنْ مَالِ سَيِّدِهِ». قال الليث: وحدثني ابن طاووس، مثله، ثم قرأ: ﴿فَلَنَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ أُزِيلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأْذِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦١﴾﴾^(٢). وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون هذه الزيادة. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِمِثْلِهِمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٦١﴾﴾: يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون. ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾، يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا،

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري ١٤٣٢٨، وفيه انقطاع. عبد الملك بن ميسرة تابعي صغير، لم يدرك ابن مسعود، وصحة معنى الحديث، أو صحة الكلام، لا يعني صحة رفعه إلى النبي ﷺ، خلافاً لأبي جعفر الطبري رحمه الله، وقد خالفه ابن أبي حاتم، فرواه موقوفاً على ابن مسعود كما في الدر المنثور ١٢٦/٣ وهو أصح من الرفع، والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري ٨٩٣ و٢٤٠٩ ومسلم ١٨٢٩ وأبو داود ٢٩٢٨ والترمذي ١٧٠٥ وابن حبان ٤٤٧٢ والبيهقي ٢٨٧/٦ دون ذكر الآية.

من قليل وكثير، وجليل وحقير، لأنه تعالى شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخاتنة الأعين وما تخفي الصدور، ﴿وَمَا تَسْطَعُ مِنْ رَدَقَةٍ إِلَّا بِمَلَكُهَا وَلَا حَبْوَةٍ فِي ظِلْمَتِكَ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ تُبِينُ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَالْوَزْنَ بِوِزْنِ الْحَقِّ فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَالْوَزْنَ﴾، أي: للأعمال يوم القيامة ﴿الْحَقِّ﴾، أي: لا يظلم تعالى أحداً، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكُنَّا بِهَا حَسِيبِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً جُودِغْنَا بِهَا وَكُنْتُ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأَتَاهُ هَكَوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾ [القارعة: ٦-١١]. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ ﴿١٥١﴾ فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٣].

فصل: والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال وإن كانت أعراضاً، إلا أن الله تعالى يقبلها يوم القيامة أجساماً. قال البغوي: يُرَوَى هذا عن ابن عباس.

[٣٠٦٨] كما جاء في الصحيح من أن «البقرة» و«آل عمران» يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان - أو غيابتان - أو فزقان من طير صواف^(١).

[٣٠٦٩] وكذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: «أنا القرآن الذي أشهرت ليلك وأظلمات نهارك»^(٢).

[٣٠٧٠] وفي حديث البراء، في قصة سؤال القبر: «فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح»^(٣)، وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق.

[٣٠٧١] وقيل: يوزن كتاب الأعمال، كما جاء في حديث البطاقة، في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: «لا إله إلا الله» فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: «إنك لا تظلم». فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان، قال رسول الله - ﷺ -: «فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة»^(٤). رواه الترمذي بنحو من هذا، وصححه.

(١) تقدم في سورة البقرة.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٣٧٨١ وأبو عبيد بن سلام في «فضائل القرآن» ص ٣٦ - ٣٧ وأحمد ٣٤٨/٥ وأبو الفضل الرازي في «فضائل القرآن» ١٣٠ من حديث بريدة، وصححه الحاكم على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، وفي إسناده بشير بن مهاجر الغنوي مختلف فيه.

(٣) حسن. أخرجه أحمد ٢٨٧/٤ والبيهقي في «عذاب القبر» ٥٥ وذكره المنذري في «الترغيب» ٥٢٢١ وقال: هذا الحديث حديث حسن، رواه محتج بهم في الصحيح. وفي الباب أحاديث كثيرة.

(٤) يأتي في سورة الأنبياء عند آية: ٤٧ إن شاء الله.

[٣٠٧٢] وقيل: يُوزَنُ صاحبُ العمل. كما في الحديث: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالرَّجُلِ السَّمِينِ، فَلَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ» ثم قرأ: ﴿فَلَا تَقِيمُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾^(١).

[٣٠٧٣] وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن رسول الله - ﷺ - قال: «أَتَعَجِبُونَ مِنْ دِقَّةِ سَاقِيهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهَمَّا فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُخْدٍ»^(٢). وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة تُوزَنُ الأعمال، وتارة تُوزَنُ مَحَالُّهَا وتارة يُوزَنُ فاعِلُهَا، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾^(١٠)

يقول تعالى مُمْتَنِّئًا على عبيده فيما مَكَّنَ لهم من أنه جعل الأرض قراراً، وجعل لها رواسي وأنهاراً، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً، وأباح لهم منافعها، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم ﴿فِيهَا مَعْيِشًا﴾ أي: مكاسب وأسباباً يتنجرون فيها، ويتسببون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَمْتَنِّ اللَّهُ لَا تُشْكِرُونَ إِلَّا لِمَا كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وقد قرأ الجميع ﴿مَعْيِشًا﴾ بلا هَمْزٍ، إلا عبد الرحمن بن هرمز الأعرج فإنه هَمْزها. والصواب الذي عليه الأكثر بلا هَمْزٍ، لأن معاش جمع معيشة، من عاش يعيش عيشاً، ومعيشة أصلها مَعْيِشَةٌ فاستثقلت الكسرة على الياء، فثقلت إلى العين فصارت مَعْيِشَةٌ، فلما جُمعت رَجَعَتِ الحركة إلى الياء لزوال الاستقبال، فقيل: معاش، ووزنه مفاعِلٌ، لأن الياء أصلية في الكلمة بخلاف مدائن وصحائف وبصائر، جمع مَدِينَةٍ وصحيفة وبصيرة، مِنْ مَدَنٍ وَصَحَّفَ وَأَبْصَرَ، فإن الياء فيها زائدة، ولهذا تُجْمَعُ على فعاثِلٍ، وتهمز لذلك. والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ

السَّاجِدِينَ﴾^(١١)

يُنَبِّه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبيِّن لهم عُدُوهم إبليس، وما هو مُنْطَوٍ عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿رَبُّ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْئُورٍ﴾^(١٢) فإذا سَوَّيْتُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾^(١٣) [الحجر: ٢٨ - ٢٩]، وذلك أنه تعالى لما خَلَقَ آدم - عليه السلام - بيده من طين لازب، وصَوَّرَهُ بَشَرًا، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الرب تعالى وجلاله، فَسَمِعُوا كُلَّهُمْ وَأَطَاعُوا، إلا إبليس لم يكن من الساجدين. وقد تقدَّم الكلام على إبليس في أول تفسير «سورة البقرة». وهذا الذي قرَّرناه هو اختيار ابن جرير، أن المراد بذلك كله آدم عليه السلام. وقال سُفيان الثوري، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، قال: خُلِقُوا فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَصُوِّرُوا فِي أَرْحَامِ النِّسَاءِ. رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ونقله ابن جرير عن بعض السلف أيضاً أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم: الذرية.

(١) الكهف: ١٠٥. والحديث أخرجه البخاري ٤٧٢٩ ومسلم ٢٧٨٥ من حديث أبي هريرة.

(٢) جيد. أخرجه أحمد ٤٢٠/١ والطيالسي ٢٥٦١ وأبو يعلى ٥٣١٠ وإسناده حسن لأجل عاصم بن بهدلة انظر «مجمع الزوائد» ٢٨٩/٩. ويشهد له حديث علي عند أحمد ١١٤/١ وأبو يعلى ٥٣٩ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٨٨/٩ وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجالهم رجال الصحيح. غير أم موسى، وهي ثقة اهد.

وقال الربيع بن أنس، والسدي، وقتادة، والضحاك في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، أي: خلقنا آدم ثم صورنا الذرية. وهذا فيه نظر، لأنه قال بعده: ﴿ثُمَّ قَلْنَا لِمَأْتِكُمْ آسَجِدُوا لِآدَمَ﴾، فدل على أن المراد بذلك آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر، كما يقول تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن الرسول - ﷺ -: ﴿وَعَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: ٥٧]، والمراد آباؤهم الذين كانوا في زمان موسى، ولكن لما كان ذلك مئة على الآباء الذين هم أصل صار كأنه واقع على الأبناء. وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]... الآية، فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة، وذريته مخلوقون من نطفة، وصح هذا لأن المراد في ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ الجنس لا معيناً. والله أعلم.

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [١٢]

قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: «لا» هاهنا زائدة. وقال بعضهم: زيدت لتأكيد الجحد، كقول الشاعر:

ما إن رأيت ولا سمعتُ بمثله

فأدخل «إن»، وهي للنفي، على «ما» النافية لتأكيد النفي، قالوا: وكذلك هاهنا: ﴿مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ﴾، مع تقدم قوله: ﴿لَوْ يَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. حكاها ابن جرير، وردّها، واختار أن «منعك» تضمن معنى فعل آخر تقديره: ما أخرجك وألزمتك واضطرك ألا تسجد إذ أمرتك؟ ونحو ذلك. وهذا القول قوي حسن، والله أعلم. وقول إبليس - لعنه الله -: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله: وأنا خير منه، فكيف تأمرني بالسجود له؟! ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه، وهو الطين. فنظر اللعين إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم. وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فَقَوْمًا لَمْ يَكُنِ لَهُمْ مَعَادٌ فِي هَذِهِ أُولَئِكَ جَاءُوا الْإِسْلَامَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَذَلِكُمْ أَجْرٌ عَلَيْهِمْ لَمَّا تَوَلَّوْا الْبَيْتَ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْفٰسِقِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، فشذ من بين الملائكة بتزك السجود، فلهذا أبلس من الرحمة، أي: أوبس من الرحمة، فأخطأ قبحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبيت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح. والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة. ولهذا خان إبليس عنصره ونفع آدم عنصره في الرجوع والإنابة والاستكانة والانتقاد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.

[٣٠٧٤] وفي صحيح مسلم، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال - ﷺ -: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»^(١). هكذا رواه مسلم.

[٣٠٧٥] وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: قال رسول الله - ﷺ -: «خُلِقَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ مِنْ نُورِ الْعَرْشِ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» قلت لنعيم بن حماد: أين سمعت هذا من عبد الرزاق؟ قال: باليمن^(٢).

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٩٦/٦ وأحمد ١٥٣/٦ و١٦٨ وابن حبان ٦١٥٥. والبيهقي في «الصفات» ١٢٦/٢.

(٢) إسناده ضعيف. عبد الله بن مسعود الراوي عن نعيم لم أعثر على ترجمة له، وشيخه نعيم بن حماد الحزامي وثقه أحمد =

[٣٠٧٦] وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في غير الصحيح: «وَحُلِقَتِ الْحَوْرُ الْعَيْنُ مِنَ الزُّعْفَرَانِ»^(١). وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن كثير، عن ابن شَوَدْب، عن مطر الرزاق، عن الحسن في قوله: «حَلَقْتَنِي بَيْنَ ثَارٍ وَحَلَقْتَنِي بَيْنَ يَلِينٍ»، قال: قاس إبليس، وهو أول من قاس. إسناده صحيح. وقال: حدثني عمرو بن مالك، حدثني يحيى بن سليم الطائفي، عن هشام، عن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عُبِدَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ إِلَّا بِالْمَقَائِسِ. إسناده صحيح أيضاً.

﴿قَالَ قَاهِطٌ مِتَّهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾^(١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴿١٤﴾
﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾^(١٥)

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قدرتي كوني: ﴿قَاهِطٌ مِتَّهَا﴾، أي: بسبب عصيانك لأمري، وخروجك عن طاعتي، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى، ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، أي: الذليلين الحقييرين، معاملة له بنقيض قضيده، ومكافأة لمراده بضده. فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النَّظْرَةَ إلى يوم الدين، وقال: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ﴾^(١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾، أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمنع، ولا مُعَقَّبٌ لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١٦) ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى أنه لما أنذر إبليس ﴿إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ﴾، واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرّد، فقال: ﴿فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أي: كما أغويتني. قال ابن عباس: كما أضللتني. وقال غيره: كما أهلكنتي لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه، على صراطك المستقيم، أي: طريق الحق وسبيل النجاة، فأضللتهم عنها لئلا يعبدوك ولا يؤخدوك بسبب إضلالك إياي. وقال بعض النحاة: الباء هاهنا قسمية، كأنه يقول: فبإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم. قال مجاهد: ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، يعني: الحق. وقال محمد بن سرقه، عن عون بن عبد الله: يعني طريق مكة. قال ابن جرير: والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك كله.

[٣٠٧٧] قلت: لما روى الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عقيل - يعني الثقفني عبد الله بن عقيل - حدثنا موسى بن المسيب، أخبرني سالم بن أبي الجعد، عن سبرة بن أبي فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين

= ويحيى. لكن ذكر يحيى أنه يخطئ. وقال أبو داود: كان عند نعيم نحو عشرين حديثاً عن رسول الله ﷺ ليس لها أصل. وقال النسائي: ضعيف. لا يحتج به. وقال الأزدي: كان ممن يضع الحديث لتقوية السنة. وقال ابن يونس: روى مناكير عن الثقات. وذكر له ابن عدي مناكير. راجع الميزان ٩١٠٢. وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ٢٠٩٠٤ عن معمر به دون قوله «العرش». وهذا اللفظ تفرد به ابن مردويه عن نعيم بن حماد، ولا يتابع عليه.

(١) ضعيف جداً، أخرجه الخطيب ٩٩/٧ من حديث أنس، ومداره على الحارث بن خليفة، وهو مجهول كما في الميزان ١٦١٤ وقد ورد عن مجاهد وزيد بن أسلم موقوفاً عليهما، وسيأتي، والأشبه أنه متلقى عن أهل الكتاب، والله أعلم.

آبائك؟ قال: فعصاه وأسلم. قال: وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتذرُّ أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفارس في الطَّوَل. فعصاه وهاجر - ثم قعد له بطريق الجهاد - وهو جهاد النفس والمال - فقال: تقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال؟ قال: فعصاه فجاهد - قال رسول الله - ﷺ -: فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن قُبل كان حقاً على الله - عز وجل - أن يدخله الجنة. وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة^(١).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾... الآية. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، أشككهم في آخرتهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، أرغبهم في دنياهم، ﴿وَعَنْ أَيْتِهِمْ﴾، أشبه عليهم أمر دينهم، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾، أشتهي لهم المعاصي. وقال ابن أبي طلحة - وفي رواية - والعوفي، كلاهما عن ابن عباس: أما ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، فمن قبل دنياهم، وأما ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، فأمر آخرتهم، وأما ﴿وَعَنْ أَيْتِهِمْ﴾، فمن قبل حسناتهم، وأما ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾، فمن قبل سيئاتهم. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: أتاهم ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، من أمر الدنيا فزئنها لهم ودعاهم إليها، و﴿وَعَنْ أَيْتِهِمْ﴾ من قبل حسناتهم بطأهم عنها، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾، زين لهم السيئات والمعاصي، ودعاهم إليها، وأمرهم بها. أتاك يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله. وكذا روي عن إبراهيم النخعي، والحكم بن عتيبة، والسدي، وابن جريج، إلا أنهم قالوا: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الدنيا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآخرة. وقال مجاهد: من بين أيديهم وعن إيمانهم: حيث يبصرون، ومن خلفهم وعن شمائليهم: حيث لا يبصرون. واختار ابن جرير أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصددهم عنه، والشر يحببهم لهم. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْتِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾، ولم يقل: من فوقهم، لأن الرحمة تنزل من فوقهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَحِذُ أَكْثَرَهُمْ شَكْرِيكَ﴾، قال: موحدين. وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّيهِمْ بِالْآخِرَةِ مَتَى مَوْتُهَا فِي سَكْنٍ وَرَيْكٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَاطِطٌ ﴿٢١﴾ [سبأ: ٢٠ - ٢١]. ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، كما قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده:

[٣٠٧٨] حدثنا نصر بن علي، حدثنا عمرو بن مَجْمَع، عن يونس بن خَبَاب، عن ابن جُبَيْر بن مطعم - يعني نافع بن جُبَيْر - عن ابن عباس، - وحدثنا عمر بن الخطاب - يعني السجستاني - حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن زيد بن أبي أنيسة، عن يونس بن خَبَاب - عن ابن جُبَيْر بن مطعم - عن ابن عباس قال: كان رسول الله - ﷺ - يقول: «اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي. اللهم استر عورتِي وأمين رُوعتي، واحفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقِي، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي»^(٢). تفرد به البزار، وحسنه.

(١) أخرجه النسائي ٢١/٦ - ٢٢ وأحمد ٤٨٣/٣ وابن حبان ٤٥٩٣ وإسناده لا بأس به، انظر «أحكام القرآن» لابن العربي ١٠٩٢. بتخريري، طبع دار الكتاب العربي.

(٢) حديث حسن، وهو في كشف الأستار ٦٠/٤. وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ٦٩٨ من طريق عبيد الله بن عمرو به، لكن جعله من حديث ابن عمر وانظر الحديث الآتي.

[٣٠٧٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا عبادة بن مسلم الفزاري، حدثنا جبير بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم، سمعت عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسول الله يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة. اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي. اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي. اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»^(١) قال وكيع: يعني الخسف. ورواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن جبان، والحاكم من حديث عبادة بن مسلم، به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

﴿قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْهُومًا مَذْحُورًا لَمَنْ يَمَعَكَ مِنْهُمْ لِأَمَلَانِ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٨)

أكد تعالى اللعنة والطرْد والإبعاد والنفي عن محلّ الملا الأعلى بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْهُومًا مَذْحُورًا﴾. قال ابن جرير: «أما «المذموم»، فهو المعيّب، والدَّام - غير مشدّد - العيبُ يقال: ذامه يذامه ذاماً فهو مذموم». ويرتكون الهمز فيقولون: «ذمته أذيمه ذيماً وذاماً، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم. قال: «والمذحور: المُقْضَى، وهو المبعد المطرود». وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف «المذموم» و«المذموم» إلا واحداً. وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْهُومًا مَذْحُورًا﴾، قال: مَقِيْتًا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: صَغِيرًا مَقِيْتًا. وقال السدي: مَقِيْتًا مطروداً. وقال قتادة: لَعِينًا مَقِيْتًا. وقال مجاهد: مَثْفِيًّا مطروداً. وقال الربيع بن أنس: مذموماً: منقياً، والمذحور المصغر. وقوله تعالى: ﴿لَمَنْ يَمَعَكَ مِنْهُمْ لِأَمَلَانِ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. كقوله: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَمَعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ قَرَّبَ وَتَوَفُّورًا﴾ (١٩) وَأَسْفَرُوا مِنْ أَسْطَعَتِ مِنْهُمْ بَصَوْتِكَ وَأَلْبَسَ عَلَيْهِمْ جَنَّةَكَ وَرَبَّيْكَ وَشَارَكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٢٠) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٢١)﴾ [الإسراء: ٦٣ - ٦٥].

﴿وَبَقَادُمْ أَتَكُنُّ أَنْتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) فَوَسَّوَسَ لَهَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَتَيْهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَئِنِ النَّاصِحَاتِ﴾ (٢١)

يذكر تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة. وقد تقدّم الكلام على ذلك في «سورة البقرة»، فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والخديعة والوسوسة ليُشلبا ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن، وقال كذباً وافتراء: ما نهاكما ربكما عن أكل هذه الشجرة إلا لتكونا ملكين أي: لثلا تكونا ملكين خالدين هائنا. ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلك، كقوله: ﴿قَالَ يَكْفَادُمْ هَلْ أَذْكَ عَلَى شَجَرَةِ الْغُلْدِ وَمَلِكٍ لَا يَبَلُ﴾ [طه: ١٢٠] أي، لثلا تكونا ملكين، كقوله: ﴿يَبِيئُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَقُولُوا﴾ [النساء: ١٧٦] أي: لثلا تفضلوا. ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوِيًّا أَنْ يَبَدِيَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] أي: لثلا تميد بكم. وكان ابن عباس ويحيى بن أبي كثير يقرآن: «إلا أن تكونا ملكين» بكسر اللام. وقرأ الجمهور بفتحها. ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾، أي: حلف لهما بالله، ﴿إِنِّي لَكُمَا لَئِنِ النَّاصِحَاتِ﴾، فإني من قبلكما ها

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٥٠٧٤ والنسائي ٢٨٢/٨ وابن ماجه ٣٨٧١ وأحمد ٢٥/٢ والبخاري في «الأدب المفرد» ١٢٠٠ وصححه ابن جبان ٩٦١ وكذا الحاكم ٥١٧/١ - ٥١٨ ووافقه الذهبي، وإسناده حسن، رجاله ثقات.

هنا، وأعلم بهذا المكان. وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين، كما قال خالد بن زهير، ابن عم أبي ذؤيب:

وَقَاسَمَهَا بِاللَّهِ جَهْدًا لَأَنْتُمْ أَلَدُ مِنَ السُّلُوى إِذَا مَا نَشُورَهَا
أي: حلف لهما بالله على ذلك. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَينَ النَّصِيحِينَ﴾ (٦١):
فحلف لهما بالله حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله، فقال: إني خُلِقت قبلكما، وأنا أعلم منكما،
فاتبعاني أُرشدكما. وكان بعض أهل العلم يقول: «من خادعنا بالله خدعنا له».

﴿فَدَلَّيْنَهُمَا بِعُرْوَةٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطُوفُوا بِخِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ رِزْقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ
أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّآ تَغْفِرَ لَنَا
وَتَرْحَمَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

[٣٠٨٠] قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب - رضي الله عنه قال: كان
آدم رجلاً طَوَّالاً، كأنه نخلة سَحُوق، كثير شعر الرأس. فلما وقع بما وقع به من الخطيئة، بدت له عورته عند
ذلك، وكان لا يراها، فانطلق هارباً في الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شَجَرِ الجنة، فقال لها: أرسليني.
فقلت: إني غير مرسلتك. فناده ربه عز وجل: يا آدم، أمتي تفر؟ قال: رب إني استحيتك. وقد رواه ابن
جرير، وابن مَرْدُويه، من طُرُق، عن الحسن، عن أبي بن كعب، عن النبي - ﷺ - (١)، والموقوف أصح
إسناداً. وقال عبد الرزاق: أخبرنا سفيان بن عيينة وابن المبارك، عن الحسن بن عمار (٢)، عن المنهال بن
عمرو، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كانت الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته، السنبلة، فلما
أكلا منها ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾، وكان الذي وارى عنهما من سواتهما أظفارهما، ﴿وَطُوفُوا بِخِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ رِزْقِ
الْجَنَّةِ﴾ وَرَقِ التين، يلزقان بعضه إلى بعض، فانطلق آدم - عليه السلام - مولياً في الجنة، فعلقت برأسه شجرة
من الجنة، فناده الله: يا آدم، أممي تفر؟ قال: لا، ولكني استحيتك يا رب. قال: أما كان لك فيما منحتك
من الجنة وأبحتك منها مندوحة عما حرمت عليك؟ قال: بلى يا رب، ولكن وعزتك ما حبسبت أن أحداً
يُحَلِّفُ بك كاذباً. قال: وهو قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَينَ النَّصِيحِينَ﴾ (٦١). قال: فبعزتي لأهبطنك إلى
الأرض، ثم لا تنال العيش إلا كدّاً. قال: فأهبط من الجنة، وكانا يأكلان منها رغداً، فأهبط إلى غير رغد من
طعام وشراب، فعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث، فحرث وزرع ثم سقى، حتى إذا بلغ حصد، ثم داسه،
ثم ذراه، ثم طحنه، ثم عجنه، ثم خبزه، ثم أكله، فلم يتلعه حتى بلع منه ما شاء الله أن يتلعه.

وقال الثوري، عن ابن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَطُوفُوا
بِخِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ رِزْقِ الْجَنَّةِ﴾، قال: ورق التين. صحيح إليه. وقال مجاهد: جملاً يَخِصِفَانِ عليهما من ورق
الجنة كهية الثوب. وقال وهب بن منبه في قوله: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾، قال: كان لباس آدم وحواء نوراً على
فُروجهما، لا يَرَى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا. فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سواتهما. رواه ابن
جرير بإسناد صحيح إليه. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة قال: قال آدم: أي رب، أرايت إن ثبتت
واستغفرت؟ قال: إذا أدخلك الجنة. وأما إبليس فلم يسأله التوبة، وسأله النَّظْرَةَ، فأعطى كل واحد منهما

(١) الصواب موقوف، وتقدم في سورة البقرة.

(٢) الحسن بن عماره متروك، وهذا الخبر وما بعده، من كتب الأقدمين.

الذي سأله. وقال الضحّاك بن مزاحم في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٣): هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أكل آدم من الشجرة قيل له: لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني. قال: فإني قد أعقبتها ألاّ تحمل إلاّ كرهاً، ولا تضع إلاّ كرهاً. قال: قرئت^(١) عند ذلك حواء، فقيل لها: الرئة عليك وعلى ولدك.

﴿قَالَ أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (١٤) ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنهَا تُخْرَجُونَ﴾ (١٥)

قيل: المراد بالخطاب في ﴿أَهْبَطُوا﴾: آدم، وحواء، وإبليس، والحية. ومنهم من لم يذكر الحية، والله أعلم. والعمدة في العداوة آدم وإبليس، ولهذا قال تعالى في سورة طه: ﴿أَهْبَطْنَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾... الآية، وحواء تبع لآدم. والحية - إن كان ذكرها صحيحاً - فهي تبع لإبليس. وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها. ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ. وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، قال: قرآن وأعمار مضمومة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم، وأحصاها القدر، وسطرت في الكتاب الأول. وقال ابن عباس: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: القبور. وعنه: وجه الأرض وتحتها. رواهما ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنهَا تُخْرَجُونَ﴾ (١٥)، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَاكُمْ فِيهَا نُفُوسًا وَمِنهَا نُفُوسُكُمْ وَمِنهَا تُخْرَجُونَ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ (٥٥) طه: [٥٥] - يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ويجازي كلأ بعمله.

﴿يَبْقَىٰ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَرِّقُ سَوَاءَ تَكُم مِّنْ رِّيشًا وَلِبَاسٌ الْقَوِيُّ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِمَّنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٦)

يَمْتَنُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ اللَّبَاسِ وَالرِّيشِ، فاللباس المذكور هاهنا لستر العورات - وهي السواك - والرياش والريش: هو ما يَتَّجَمَلُ به ظاهراً، فالأول من الضروريات، والريش من التكميلات والزيادات. قال ابن جرير: الرياش في كلام العرب: الأثاث، وما ظهر من الثياب. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - وحكاية البخاري - عنه: الريش: المال. وكذا قال مجاهد، وعروة ابن الزبير، والسدي، والضحاك: (الرياش: المال). وقال العوفي، عن ابن عباس: الرياش: اللباس، والعيش، والنعيم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرياش: الجمال.

[٣٠٨١] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أصبغ، عن أبي العلاء الشامي قال: «لبس أبو أمامة ثوباً جديداً، فلما بلغ ترقوته قال: الحمد لله الذي كساني ما أوارني به عورتني، وأتجمل به في حياتي. ثم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله - ﷺ -: من استجد ثوباً فلبسه، فقال حين يبلغ ترقوته: «الحمد لله الذي كساني ما أوارني به عورتني، وأتجمل به في حياتي»، ثم عمد إلى الثوب الذي

خَلَقَ أَوْ: أَلْقَى، فتصدق به، كان في ذمة الله، وفي جوار الله، وفي كَتَفِ الله حياً وميتاً^(١). ورواه الترمذي، وابن ماجه، من رواية يزيد بن هارون، عن أصبغ - هو ابن زيد الجهني - وقد وثقه يحيى بن معين وغيره، وشيخه «أبو العلاء الشامي» لا يعرف إلا بهذا الحديث، ولكن لم يجرحه^(٢) أحد، والله أعلم.

[٣٠٨٢] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عبيد: حدثنا مختار بن نافع التمار، عن أبي مطر: أنه رأى علياً - رضي الله عنه - أتى غلاماً حدثاً، فاشتري منه قميصاً بثلاثة دراهم، ولبسه إلى ما بين الرسغين إلى الكعبين، يقول حين لبسه: الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأوارى به عورتى. فقيل: هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن نبي الله ﷺ؟ قال: هذا شيء سمعته من رسول الله - ﷺ - يقول عند الكسوة: «الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأوارى به عورتى»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسٍ الْقَوِيُّ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ - قرأ بعضهم: «ولباس التقوى»، بالنصب. وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء، و﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ خبره. واختلف المفسرون في معناه، فقال عكرمة: يقال: هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة. رواه ابن أبي حاتم. وقال زيد بن علي، والسدي، وقائدة، وابن جزيغ: ﴿وَلِبَاسٍ الْقَوِيُّ﴾: الإيمان. وقال العوفي، عن ابن عباس - رضي الله عنه - ﴿وَلِبَاسٍ الْقَوِيُّ﴾: العمل الصالح. وقال ذياب بن عمرو، عن ابن عباس: هو السُّنْمُ الْحَسَنُ في الوجه. وعن عروة بن الزبير ﴿وَلِبَاسٍ الْقَوِيُّ﴾: خشية الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلِبَاسٍ الْقَوِيُّ﴾: يتقي الله، فيوارى عورته، فذلك لباس التقوى. وكل هذه مقاربة.

[٣٠٨٣] ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه ابن جرير حيث قال: حدثني المثنى، حدثني إسحاق بن الحجاج، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، عن سليمان بن أرقم، عن الحسن قال: رأيت عثمان بن عفان - رضي الله عنه - على مِثْرَبِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - عليه قميص قوهي^(٤) محلول الزر، وسمعت يأمُر بقتل الكلاب، وينهى عن اللعب بالحمام، ثم قال: يا أيها الناس، اتقوا الله في هذه السرائر، فإني سمعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: «والذي نفسُ محمدٍ بيده، ما عمل أحدٌ قط سراً إلا ألبسه الله رداءً علانية، إن خيراً فخييراً وإن شراً فشراً». ثم

(١) أخرجه الترمذي ٣٥٦٠ وابن ماجه ٣٥٥٧ والحاكم ١٩٣/٤ وابن السني في «اليوم والليلة» ٢٧٢ والبيهقي في «الأداب» ٦٤١ وأحد ٤٤/١. قال الترمذي: غريب، ورواه يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن علي بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة اهـ وعلي بن زيد متروك وابن زحر فيه ضعف وكذا القاسم. فهذه متباينة واهية. وهي في المستدرک ١٩٣/٤ ح ٧٤١٠. وقال المنذري عن الإسناد الأول: أبو العلاء مجهول اهـ. وكذا قال الحافظ عنه في التقریب: مجهول. والخبر منكر بهذا التمام، وللدكر عند لبس الثوب فقط شواهد تقويه، ومنها ما يأتي، والوهن فقط في عجزه، والله أعلم.

(٢) وقع في كافة النسخ «يجرجه» وهذا إما سبق قلم، أو سهو من الناسخ، والله الموفق.

(٣) حسن لشواهد. أخرجه أبو يعلى ٢٩٥ وأحد ١٥٨/١ ح ١٣٥٤ وعبد الله ١٣٥٢ من حديث علي، وإسناده ضعيف، قال الهيثمي في «المجمع» ٨٤٩١: فيه مختار بن نافع، وهو ضعيف اهـ وفيه أبو مطر البصري مجهول كما قال أبو حاتم والذهبي. لكن يشهد للمرفوع منه ما قبله. وله شاهد من حديث ابن عمر أخرجه الطبراني في «الأوسط» ١٠٧٧ لكن فيه أبو داود الأعمى وهو متروك. وله شاهد من حديث معاذ بن أنس أخرجه أبو داود ٤٠٢٣ والحاكم ١٩٢/٤ ح ٧٤٠٩، وصححه الحاكم، وتقبه الذهبي بقوله: أبو مرحوم ضعيف، وهو عبد الرحيم بن ميمون اهـ فهذا الحديث يرقى إلى الحسن بمجموع هذه الشواهد، والله تعالى أعلم.

(٤) القوهي: ثياب بيض.

تلا هذه الآية^(١): «وريشاشاً» ولم يقرأ «وريشاشاً»، «ولِيَأْسَ النَّفْقَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنَّ ءَايَاتِ اللَّهِ» قال: السميت الحسن. هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمان بن أرقم، وفيه ضعف. وقد رَوَى الأئمة: الشافعي، وأحمد، والبخاري في «كتاب الأدب» من طُرُقٍ صَحِيحَةٍ، عن الحسن البصري، أنه سمع أمير المؤمنين عثمان بن عفان يأمرُ بقتل الكلاب وذبح الحمام - يوم الجمعة - على المنبر. وأما المرفوع منه، فقد روى الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير له شاهداً من وجه آخر، حيث قال: حدثنا...^(٢).

﴿يَبْقَىٰ ءَادَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى محذراً بني آدم من إبليس وقبيله، ومبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام، في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم، إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: «أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَنتُمْ لَكُمْ عَذَابٌ يُسَّ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا» [الكهف: ٥٠].

﴿وَإِذَا فَسَلُوا فَجَسَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۗ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فتضع المرأة على قُبْلِهَا النُّسْعَةَ، أو الشيء وتقول:

اليوم يبئو بعضه أو كله وما بدأ منه فلا أجله

فأنزل الله: «وَإِذَا فَسَلُوا فَجَسَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا»... الآية. قلت: كانت العرب - ما عدا قريشاً - لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عَصُوا الله فيها، وكانت قريش - وهم الخمس^(٣) - يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوباً، طاف فيه، ومن معه ثوب

(١) أخرجه الطبري ١٤٤٥١ بهذا الإسناد، وهو ضعيف لأجل سليمان بن أرقم. جاء في الميزان ٣٤٢٧. تركوه. قال أحمد: لا يروى عنه. وقال ابن معين: ليس بشيء. وقال الجوزجاني: ساقط. وقال أبو داود والدارقطني: متروك. وانظر كلام ابن كثير الآتي، وما رواه الطبراني.

(٢) بياض في كافة النسخ. والظاهر أنه أراد ما أخرجه في «الكبير» ١٧٠٢ حدثنا محمود بن محمد المروزي ثنا حامد بن آدم المروزي حدثنا الفضل بن موسى عن محمد بن عبيد الله العرزمي عن سلمة بن كهيل عن جندب ابن سفيان قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما أسر عبيد سريرة، إلا ألبسه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر». قال الهيثمي في «المجمع» ١٧٦٧٦: فيه حامد بن آدم كذاب اه وفيه العرزمي متروك. قلت: ولعل ابن كثير رحمه الله لما رأى في إسناد هذا الحديث رجلاً متهماً بالكذب. ترك الحديث، أو سقط من النسخ، فالله أعلم. وله شاهد أخرجه أحمد ٢٨/٣ وأبو يعلى ١٣٧٨ من حديث أبي سعيد وإسناده ضعيف فإنه من رواية دراج عن أبي الهيثم. لكن يستأنس به، والله أعلم.

(٣) سُمُوا بذلك لتشدهم في دينهم.

جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يملكه أحد، فمن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحسبي ثوباً، طاف عرياناً. وربما كانت امرأة فطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئاً يستره بعض الشيء وتقول:

اليوم يبذو بعضُهُ أو كُلُّهُ وما بدأ منه فلا أجُلَّهُ

وأكثر ما كان النساء يطفن بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آباؤهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا قَالُوا فَجِئْنَا قَالُوا وَبَدَنَّا عَيْنِنَا آيَاتِنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَذَا﴾، فقال تعالى رداً عليهم: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لمن ادعى ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾. أي: هذا الذي تصنعونه فاحشة منكورة، والله لا يأمر بمثل ذلك. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل والاستقامة، ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، أي: أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله، وما جاؤوا به من الشرائع، وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من الشرك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾... إلى قوله: ﴿الضَّلَالَةَ﴾ - اختلف في معنى قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، فقال ابن نجيب، عن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: يحييكم بعد موتكم. وقال الحسن البصري: كما بدأكم في الدنيا، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء. وقال قتادة: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، قال: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً، ثم ذهبوا، ثم يعيدهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً، كذلك يعيدكم آخراً.

[٣٠٨٤] واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، وأيده بما رواه من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج كلاهما، عن المغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله - ﷺ - بموعظة فقال: «يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة غرأة غزلاً»، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُبِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾^(١). وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، من حديث شعبة، وفي صحيح البخاري أيضاً من حديث الثوري به. وقال وقاء بن إياس أبو يزيد، عن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، قال: يُبعث المسلم مسلماً، والكافر كافراً. وقال أبو العالية: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: رُذوا إلى علمه فيهم. وقال سعيد بن جبير: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: كما كُتِبَ عليكم تكونون. وفي رواية: كما كنتم تكونون عليه تكونون. وقال محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدء عليه خلقه، وإن عمل بأعمال أهل السعادة. كما أن إبليس عمل بأعمال أهل السعادة، ثم صار إلى ما ابتدء عليه خلقه. ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدء عليه خلقه، وإن عمل بأعمال أهل الشقاء، كما أن السحرة عملت بأعمال أهل الشقاء، ثم صاروا إلى ما ابتدئوا عليه. وقال السدي: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾^(٢) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ، يقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما خلقناكم، فريق مهتدون وفريق ضلّال، كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾^(٣) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ

الضَّلَكَةُ، قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكَّرَ كَائِدًا وَمُنْكَرًا مُؤْمِنًا﴾ [التغابن: ٢٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم، مؤمناً وكافراً.

[٣٠٨٥] قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري: «فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو: ذراع - فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة»^(١).

[٣٠٨٦] وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو غسان، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله - ﷺ - «إن العبد ليعمل - فيما يرى الناس - بعمل أهل الجنة، وإنه من أهل النار. وإنه ليعمل - فيما يرى الناس - بعمل أهل النار، وإنه من أهل الجنة. وإنما الأعمال بالخواتيم»^(٢). هذا قطعة من حديث رواه البخاري من حديث أبي غسان محمد بن مطرف المدني، في قصة «فُزَّمان» يوم أحد.

[٣٠٨٧] وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي - ﷺ - أنه قال: «تبعث كل نفس على ما كانت عليه»^(٣). وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه، عن الأعمش، به، ولفظه: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ»^(٤)، وعن ابن عباس مثله؛ قلت: ويتأيد بحديث ابن مسعود.

قلت: ولا بد من الجمع بين هذا القول - إن كان هو المراد من الآية - وبين قوله تعالى: ﴿قَافِرًا وَجَهَنَّمَ لِلَّذِينَ خَنِيفًا فَظَلَّتْ أَلَّهُ أَلَىٰ قَلْبِهِ أَتَىٰ النَّاسَ سَلْبًا﴾ [الروم: ٣٠].

[٣٠٨٨] وما جاء في الصحيحين، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «كلُّ مولودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيَمَجْسَانِهِ»^(٥).

[٣٠٨٩] وفي صحيح مسلم، عن عياض بن جَمَار قال: قال رسول الله - ﷺ - يقول الله تعالى: «إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»^(٦). . . الحديث. ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خَلَقَهُمْ لِيَكُونَ مِنْهُمْ مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ فِي ثَانِي الْحَالِ، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده، والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم بذلك الميثاق، وجعله في غرائزهم وفطرهم، ومع هذا قدر أن يكون منهم شقي ومنهم سعيد، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكَّرَ كَائِدًا وَمُنْكَرًا مُؤْمِنًا﴾ [التغابن: ٢٢].

[٣٠٩٠] وفي الحديث: «كل الناس يُغَدُّو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها»^(٧)، وقدر الله نافذ في بريته،

(١) تقدم في سورة البقرة عند آية: ١٣٢.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٢٨٩٨ و٤٢٠٢ ومسلم ١١٢ وأحمد ٣٣٥/٥ والبيهقي في «الدلائل» ٤/٢٥٢ من حديث سهل بن سعد مطوَّلاً.

(٣) صحيح. أخرجه الطبري ١٤٤٩٥ بهذا الإسناد. وانظر ما بعده.

(٤) أخرجه مسلم ٢٨٧٨ وأحمد ٣٣١/٣ وابن حبان ٧٣١٩ من حديث جابر. وأخرجه ابن ماجه ٤٢٣٠ بلفظ «يحشر الناس على نياتهم».

(٥) تقدم في سورة النساء عند آية: ١١٩.

(٦) تقدم في سورة البقرة عند آية: ١٦٨ في أثناء حديث عياض بن حمار.

(٧) صحيح. أخرجه مسلم ٢٢٣ والترمذي ٣٥١٧ وأحمد ٣٤٢/٥ وابن حبان ٨٤٤ من حديث أبي مالك الأشعري بأتم منه.

فإنه هو الذي ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣]، و﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلَقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

[٣٠٩١] وفي الصحيحين: «فأما من كان منكم من أهل السعادة، فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة»^(١). ولهذا قال تعالى: ﴿قَرِيبًا هَدَىٰ وَقَرِيبًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، ثم علل ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيْطَانَ أُزْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ . . . الآية. قال ابن جرير: وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعدب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عناداً منه لربه فيها. لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه هادٍ، وفريق الهدى، فرق. وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية الكريمة.

﴿يَبْنِي آدَمَ خُدُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

هذه الآية الكريمة رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة، كما رواه مسلم والنسائي وابن جرير - واللفظ له - من حديث شعبة، عن سلمة بن كهيل، عن مسلم البطين، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء: الرجال بالنهار، والنساء بالليل. وكانت المرأة تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدأ منه فلا أجله

فقال الله تعالى: ﴿خُدُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿خُدُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ . . . الآية، قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة، فأمرهم الله بالزينة، والزينة: اللباس، وهو ما يُوارى السوءة، وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد. وكذا قال مجاهد، وعطاء وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدي، والضحاك، ومالك عن الزهري، وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها: أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة.

[٣٠٩٢] وقد روى الحافظ ابن مَرْدُودِيَه، من حديث سعيد بن بشير والأوزاعي، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً: أنها أنزلت في الصلاة في النعال^(٢). ولكن في صحته نظر، والله أعلم. ولهذه الآية، وما ورد في معناها من السنة يستحب التجميل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل اللباس البياض، كما قال الإمام أحمد:

[٣٠٩٣] حدثنا علي بن عاصم، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ - «البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم، وإن من خير أكحالكم الإثم، فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر»^(٣). هذا حديث جيد الإسناد، رجاله على شرط

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٦٢ ومسلم ٢٦٤٧ وأبو داود ٤٦٩٤ والترمذي ٢١٣٧ وابن ماجه ٧٨ وأحمد ٨٢/١ وأبو يعلى ٣٧٥ من حديث علي بن عاصم.

(٢) ورد ذلك من حديث أبي هريرة، أخرجه ابن عدي ١٦٢/٦ بإسناد ساقط لأجل محمد بن الفضل الخراساني، وهو مخرج في «فتح القدير» ٩٧٠ و٩٧١ للشوكاني بتخريري.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ٣٨٧٨ والترمذي ٩٩٤ وابن ماجه ١٤٧٢ وأحمد ٣٢٨/١ وصححه ابن حبان ٥٤٢٣ والحاكم ١/٣٥٤ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح. وإسناده حسن لأجل عبد الله بن عثمان، وصدره صحيح لشواهد.

مسلم. ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

[٣٠٩٤] وللإمام أحمد أيضاً، وأهل السنن بإسناد جيد، عن سُمرة بن جندب قال: قال رسول الله - ﷺ -: «عليكم بالثياب البياض فالبسوها؛ فإنها أطهر وأطيب، وكفُنوا فيها موتاكم»^(١). وروى الطبراني بسند صحيح، عن قتادة، عن محمد بن سيرين: أن تميمًا الداري اشترى رداءً بألف فكان يُصلي فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾... الآية، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾. وقال البخاري: قال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: أحل الله الأكل والشرب، ما لم يكن سرفاً أو مخيلة. إسناده صحيح.

[٣٠٩٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز، حدثنا همام، عن قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن رسول الله - ﷺ - قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا سرف؛ فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده»^(٢).

[٣٠٩٦] ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي - ﷺ - قال: «كُلُوا وَتَصَدَّقُوا وَالبَسُوا، في غير إسرافٍ ولا مخيلة»^(٣).

[٣٠٩٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا سليمان بن سليم الكناني، حدثنا يحيى بن جابر الطائي، سمعت المقدم بن معد يكرب الكندي قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكالات يُقمن ضلبه، فإن كان فاعلاً لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»^(٤). ورواه النسائي والترمذي، من طرقي، عن يحيى بن جابر، به. وقال الترمذي: حسن. وفي نسخة: حسن صحيح.

[٣٠٩٨] وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا سويد بن عبد العزيز، حدثنا بَقِيَّةُ، عن يوسف بن أبي كثير، عن نوح بن ذكوان، عن الحسن، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتَهيت»^(٥). ورواه الدارقطني في الأفراد، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ تفرَّد به بَقِيَّةُ.

(١) جيد. أخرجه النسائي في «الكبرى» ٩٦٤٣ و٩٦٤٤ وأحمد ١٢/٥ و٢١ والحاكم ٤/١٨٥ وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ١٨١/٢ - ١٨٢ والحاكم ٤/١٣٥ من طريق همام به، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) حسن. أخرجه النسائي ٥/٧٩ وابن ماجه ٣٦٠٥ وقال المنذري في «الترغيب» ٣١٧٤: ورواته إلى عمرو ثقات محتج بهم في الصحيح.

(٤) جيد. أخرجه الترمذي ٢٣٨٠ والنسائي في «الكبرى» ٦٧٦٨ وأحمد ٤/١٣٢ وابن حبان ٦٧٤ وقال الترمذي: حسن صحيح. وإسناده جيد.

(٥) وإبصرة. أخرجه ابن ماجه ٣٣٥٢ وأبو يعلى ٢٧٦٥ وابن عدي ٧/٤٤ وابن الجوزي في «الموضوعات» ٣/٣٠ من حديث أنس، وزاد السيوطي في «اللآلئ» ٢/٢٤٦ نسبه للخراطي في «اعتلال القلوب» كلهم عن بقية بهذا الإسناد، وإسناده ضعيف جداً، بقية مدلس وقد عنعن، ويوسف بن أبي كثير مجهول كما في التقريب، وشيخه نوح بن ذكوان، قال عنه أبو حاتم: ليس بشيء. وقال ابن عدي: أحاديثه ليست محفوظة. وقال ابن حبان: منكر الحديث جداً. واكتفى البوصيري في زوائد ابن ماجه بتوهين هذا الحديث، في حين حكم ابن الجوزي بوضعه، وهو الأقرب، والله تعالى أعلم.

وقال السدي: كان الذين يطوفون بالبيت عراة، يحرمون عليهم الودك ما أقاموا في الموسم. فقال الله تعالى لهم: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾... الآية، يقول: لا تسرفوا في التحريم. وقال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا شَرِبُوا﴾، يقول: ولا تأكلوا حراماً، ذلك الإسراف. وقال عطاء الخراساني، عن ابن عباس قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، في الطعام والشراب. وقال ابن جرير: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، يقول الله: إن الله لا يحب المتعدين حذاه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل أو حرم، بإحلال الحرام، وبتحريم الحلال، ولكن يجب أن يحل ما أحل، ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢)

يقول تعالى رداً على من حرم شيئاً من المآكل والمشرب والملابس من تلقاء نفسه، من غير شرع من الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يُحَرِّمُونَ ما يُحَرِّمُونَ بآرائهم الفاسدة وابتداعهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾... الآية، أي: هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا، وإن شربهم فيها الكفار حياً في الدنيا، فهي لهم خاصة يوم القيامة، لا يشربهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين.

قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو حصين محمد بن الحسين القاضي، حدثنا يحيى الجعاني، حدثنا يعقوب القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة، يُصَفَّرُونَ وَيُصَفَّقُونَ، فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾، فَأَمَرُوا بالثياب.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَنَا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ (٣٣)

[٣٠٩٩] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا أحد أغبر من الله فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المذبح من الله»^(١). أخرجاه في الصحيحين، من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن شقيق أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود. وتقدم الكلام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن في سورة الأنعام.

وقوله تعالى: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، قال السدي: أما الإثم فالمعصية، والبغي أن تبغي على الناس بغير الحق. وقال مجاهد: الإثم المعاصي كلها، وأخبر أن الباغي بغية كائن على نفسه. وحاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي هو التعدي إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا. وقوله: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَنَا﴾، أي: تجعلوا له شريكاً في عبادته، ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك مما لا علم لكم به، كما قال تعالى: ﴿فَأَجْكِبُوا الْبَاطِلَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] الآية.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ يَبْقَى مَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ مَا لَبِيقُوا فَمَنْ آتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾، أي: قَرْنٍ وَجِيلٍ ﴿أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾، أي: ميقاتهم المقدَّر لهم ﴿لَا يَسْتَأْذِرُونَ سَاعَةً﴾ عن ذلك ﴿وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾. ثم أُنذِر تعالى بني آدم بأنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته، وَيَسْرُ وَحَدَّر فقال: ﴿فَمَنْ آتَقَى وَأَصْلَحَ﴾، أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾، أي: كذبت بها قلوبهم، واستكبروا عن العمل بها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، أي: ماكنون فيها مكثاً مخلداً.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ آتَقَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ يَتْلَوْنَ نَصِيحَتَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوهُمْ قَالُوا آيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا فَنُفِيسُهم أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ آتَقَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا﴾، أي: لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله، أو كذب بآيات الله المنزلة. ﴿أُولَئِكَ يَتْلَوْنَ نَصِيحَتَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾، اختلف المفسرون في معناه، فقال العوفي عن ابن عباس: ينالهم ما كتب عليهم، وكتب لمن يفترى على الله أن وجهه مسود. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: نصيبتهم من الأعمال، من عمل خيراً جزي به، ومن عمل شراً جزي به. وقال مجاهد: ما وعدوا فيه من خير وشر. وكذا قال قتادة، والضحاك، وغير واحد. واختاره ابن جرير.

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿أُولَئِكَ يَتْلَوْنَ نَصِيحَتَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾، قال: عمله وورقه وعمره. وكذا قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول قوي في المعنى، والسياق يدل عليه، وهو قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوهُمْ﴾ ويصير المعنى في هذه الآية كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٦﴾﴾ متع في الدنيا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ (يونس: ٦٩-٧٠)، وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنْفِثُهُمْ فِي مَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦٣﴾﴾ نُنْفِثُهُمْ قَلِيلًا ﴿القمان: ٢٣-٢٤﴾. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوهُمْ﴾... الآية، يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تزعجهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار، يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله؟ ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه. قالوا: ضلُّوا عَنَّا﴾ أي: ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم. ﴿وَشَهِدُوا عَلَيْنَا فَنُفِيسُهم﴾، أي: أقرروا واعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَارُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأَوْلِيَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَحُوا فَآتَيْنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ وَقَالَتْ أَوْلِيَهُمْ لِأَخْرِيَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه المكذِّبين بآياته: ﴿أَدْخُلُوا فِي أَسْرِكُمْ﴾، أي: من أشكالكم وعلى صفاتكم، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ﴾، أي: من الأمم السالفة الكافرة. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ وَالِئِينَ فِي النَّارِ﴾، يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: ﴿فِي أَسْرِكُمْ﴾، ويحتمل أن يكون ﴿فِي أَسْرِكُمْ﴾، أي: مع أمم. وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَّا لَحْنَهَا﴾، كما قال الخليل عليه السلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ يَوْمَ الْأَسْتِثَابِ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ عَذَابٍ مُّضَاعَفٍ مِنَ النَّارِ﴾، أي: أضغيف عليهم العقوبة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَّا اللَّهُ وَالْأَلْعَنَّا الرَّسُولَ ﴿١٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاتَنَا فَاخْلُونا سَبِيلاً ﴿١٦٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا إِتَيْنَا مِنْ عَذَابٍ مُّضَاعَفٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨]... الآية. وقوله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: قد فعلنا ذلك وجازينا كلَّ بحسبه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذَّكَّرُهُمْ عَذَابًا﴾ [النحل: ٨٨]... الآية، وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ أَتَقَالَمُ وَتَقَالَمَ مَعَ أَتَقَالَمُ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال: ﴿وَمِنَ أَوْلَادِ الَّذِينَ يُبْغِلُونَهُمْ يَقْبِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٢٥]... الآية.

﴿وَقَالَ أَوْلَادُهُمْ لِخِزْمَتِهِمْ﴾، أي: قال المتبوعون للاتباع: ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، قال السدي: فقد ضللتكم كما ضللنا. ﴿فَدَرَوْهُمُ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وهذا الحال كما أخبر تعالى عنهم في حال محشرهم، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لَكَ بِبَعْضٍ أَلْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوا أَمْنٌ مَّسَدَدْنَاكَ عَنِ الْمَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكَ بِلَ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٌ وَالنَّهَارُ إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَنَعَّمْنَا الْأَعْقَلُ فِي أَصْحَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجَزَّوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبا: ٣١-٣٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَنْئَةِ الْغِيَاظِ وَكَذَلِكَ تَجْرِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ تُجْرَى الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾، قيل: المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء. قاله مجاهد، وسعيد بن جبيرة. ورواه العوفي وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وكذا رواه الثوري، عن ليث، عن عطاء، عن ابن عباس. وقيل: المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء. رواه الضحاك، عن ابن عباس. وقاله السدي وغير واحد، ويؤيده ما قال ابن جرير:

[٣١٠٠] حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن المنهال - هو ابن عمرو - عن زاذان، عن البراء: أن رسول الله - ﷺ - ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يُضَعَدُ بها إلى السماء، قال: فيصعدون بها، فلا تمر على ملا من الملائكة إلا قالوا: «ما هذه الروح الخبيثة؟» فيقولون: «فلان» - بأقبح أسمائه التي

كان يُدعى بها في الدنيا - حتى ينتهوا بها إلى السماء، فَيَسْتَفْتِحُونَ بابها له فلا يُفْتَحُ له. ثم قرأ رسول الله - ﷺ - ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾... الآية^(١). هكذا رواه، وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، من طرق، عن المنهال بن عمرو، به.

[٣١٠١] وقد رواه الإمام أحمد بطوله فقال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: خرجنا مع رسول الله - ﷺ - في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولمَّا يُلْحَد. فجلس رسول الله - ﷺ - وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعينوا بالله من عذاب القبر - مرتين أو ثلاثاً - ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر. ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيء السماء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط. ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجِدَّت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون - يعني بها - على ملا من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: «فلان بن فلان»، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: «اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى». قال: فتعاد روحه: فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: «من ربك؟» فيقول: «ربي الله». فيقولان له: «ما دينك؟» فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: «ما هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟» فيقول: هو رسول الله - ﷺ - فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنتُ به وصدقتُ. فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة. فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مدَّ بصره. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعده. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عمك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي. قال: وإن العبد الكافر، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب. قال: فَتَفْرَقُ في جسده، فيتزعاها كما يُتَزَعُ السُّفُودُ^(٢) من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأن تن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملا من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: «فلان بن فلان»، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى يُنْتَهَى به إلى السماء الدنيا، فَيَسْتَفْتِحُ له، فلا يُفْتَحُ له. ثم قرأ رسول الله - ﷺ - : ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبَسَ الْجَمَلُ فِي سَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾، فيقول الله عز وجل: «اكتبوا كتابه في سبعين في الأرض السفلى». فَتَطْرُقُ رُوحُهُ

(١) حسن. أخرجه الطبري ١٤٦٢٠، ورجاله ثقات، وله طرق وشواهد، وانظر ما بعده.

(٢) السفود: السبخ، حديدة يشوى بها.

طرحاً، ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَلَّفَهُ الطُّيُورُ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ﴾ [الحج: ٣١]. فتعاد رُوحه في جسده. ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: «من ربك؟» فيقول: هاهاه! لا أدري: فيقولان: «ما دينك؟» فيقول: هاهاه! لا أدري. فيقولان: «ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟» فيقول: هاهاه! لا أدري. فينادي منادٍ من السماء: «أن كذب، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار». فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلأعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، مُتَبَتِنٌ الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك. هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر. فيقول: أنا عمك الخبيث، فيقول: رب لا تُقِم الساعة^(١).

[٣١٠٢] وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن يونس بن خباب، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان. عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله - ﷺ - إلى جنازة - فذكر نحوه. وفيه: حتى إذا خرج رُوحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبليهم. وفي آخره: ثم يقبض له أعمى أصم أبكم، في يده مَزْرَبَةٌ لو ضرب بها جبل كان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيده الله عز وجل كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصبح صبيحاً صبيحاً يسمعها كل شيء إلا الثقلين - قال البراء: ثم يفتح له باب من النار، ويُمنهَدُ له من قُرْشِ النار^(٢).

[٣١٠٣] وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن ماجه وابن جرير - واللفظ له - من حديث محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال: «الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بزُوح وريحان، ورب غير غضبان». فيقولون ذلك حتى يُعْرَجَ بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان. فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بزُوح وريحان، ورب غير غضبان»، فيقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل. وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وعَسَاق وآخر من شكله أزواج»، فيقولون ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَجَ بها إلى السماء فَيُسْتَفْتَحُ لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان. فيقولون: لا مرحباً بالنفس الخبيثة التي كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لم تفتح لك أبواب السماء. فترسل بين السماء والأرض، فتصير إلى القبر^(٣).

وقد قال ابن جرير في قوله: ﴿لَا تُفْنَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾، قال: لا تفتح لأعمالهم، ولا لأرواحهم. وهذا

- (١) حسن. أخرجه أحمد ٤/٢٨٧ - ٢٨٨ و ٢٩٥ - ٢٩٦ وأبو داود ٤٧٥٣ والآجري في «الشرعية» ٨٧٨ والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» ٢٠ - ٢٧ وصححه الحاكم ١/٣٧ - ٤٠ ووافقه الذهبي وصححه ابن القيم في «تهذيب سنن أبي داود» ٤/٣٣٧ وقد أعله ابن حبان في «صحيحه» بإثر ٣١١٧ بالانقطاع بين زاذان والبراء، لكن فيه نظر، وقد صرح زاذان في رواية الحاكم بالسماع من البراء وقال الحاكم: وله شواهد على شرطهما يستدل بها على صحته.
- (٢) أخرجه أحمد ٤/٢٩٥ - ٢٩٦، وفيه يونس بن خباب صدوق يخطيء، لكن توبع، فالحديث قوي.
- (٣) حسن. أخرجه أحمد ٢/٣٦٤ والنسائي في «الكبرى» ١١٤٤٢ وابن ماجه ٤٢٦٢ والطبري ١٤٦٢١ وإسناده حسن لأجل محمد بن عمرو، وفي الباب أحاديث.

فيه جمع بين القولين، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، هكذا قرأه الجمهور، وفسروه بأنه البعير. قال ابن مسعود: هو الجمل ابن الناقة. وفي رواية: زوج الناقة. وقال الحسن البصري: حتى يدخل البعير في خُزُق الإبرة. وكذا قال أبو العالية، والضحاك. وكذا روى علي بن أبي طلحة، والعمري عن ابن عباس. وقال مجاهد، وعكرمة، عن ابن عباس: أنه كان يقرأها «يلج الجمل في سم الخياط» - بضم الجيم، وتشديد الميم - يعني: الحبل الغليظ في خرم الإبرة. وهذا اختيار سعيد بن جبير. وفي رواية أنه قرأ: «حتى يَلِجَ الْجَمَلُ» يعني فُلُوس السُّنَنِ، وهي: الحبال الغلاظ. وقوله: ﴿لَمْ يَنْ جَهَنَّمَ مَهَادٌ﴾، قال محمد بن كعب القُرظي: ﴿لَمْ يَنْ جَهَنَّمَ مَهَادٌ﴾، قال: الفُرَش، ﴿وَمِنْ قَوْفِهِمْ عَوَاشٍ﴾، قال: اللُّحْف. وكذا قال الضحاك بن مزاحم، والسُدِّي، ﴿رَكَذَلِكَ تَجْرِي الظَّلِيمِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، عطف بذكر حال السعداء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله، واستكبروا عنها. ويثبته تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل، لأنه تعالى قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾، أي: من حسد وبغضاء، كما جاء في الصحيح للبخاري، من حديث قتادة، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال:

[٣١٠٤] قال رسول الله - ﷺ -: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَاقْتَصَّ لَهُمْ مِظَالِمٌ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِبُوا وَنُقُوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ أَحَدُهُمْ بِمَنْزِلَةٍ فِي الْجَنَّةِ أَدْلُ مِنْهُ بِمَسْكَنَةٍ كَانَ فِي الدُّنْيَا»^(١). وقال السُدِّي في قوله: ﴿وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾... الآية: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة فبلغوا، وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان، فشربوا من إحدهما، فينزع ما في صدورهم من غل، فهو «الشراب الطهور»، واغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم نضرة النعيم، فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبداً. وقد روى أبو إسحاق، عن عاصم، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب نحواً من ذلك، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وَسِيِّئَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَهْمٌ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

وقال قتادة: قال علي - رضي الله عنه -: «إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا وَعِثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾». رواه ابن جرير. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، عن إسرائيل قال: سمعت الحسن يقول: قال علي: فينا والله - أهل بدر - نزلت: ﴿وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾.

[٣١٠٥] وروى النسائي وابن مردويه - واللفظ له - من حديث أبي بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «كُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنْ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٤٠ والمحاكم ٣٥٤/٢ وأبو يعلى ١١٨٦ وابن حبان ٧٤٣٤ والبغوي في «التفسير» ٩٢١.

الله هداني، فيكون له شكراً، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني، فيكون له حسرة»^(١). ولهذا لما أورشوا مقاعد أهل النار في الجنة نودوا: ﴿أَنْ يَلِكُمْ الْمَنَّةُ أَوْرِشْتُمْوَهَا يَمَا كَثُرَتْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة، وتبواتم منزلكم بحسب أعمالكم.

[٣١٠٦] وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عن رسول الله - ﷺ -: «واعلموا أن أحدكم لن يَدْخِلَهُ عملُهُ الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»^(٢).

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ قَالُوا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا﴾، «أَنْ يَلِكُمْ الْمَنَّةُ أَوْرِشْتُمْوَهَا يَمَا كَثُرَتْ تَعْمَلُونَ»^(٣) ﴿أَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾^(٤)

يخبر تعالى بما يخاطب أهل الجنة أهل النار إذا استقروا في منازلهم، وذلك على وجه التقرير والتوبيخ: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا﴾، «أَنْ يَلِكُمْ الْمَنَّةُ أَوْرِشْتُمْوَهَا يَمَا كَثُرَتْ تَعْمَلُونَ»^(٥)، «فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ»؛ كما أخبر تعالى في سورة «الصفات» عن الذي كان له قرين من الكفار: ﴿فَطَالَعَ قَرِينَهُ فِي سَوَاءِ الْحَبِيرِ﴾^(٦) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرِينَ ﴿٥١﴾ وَلَوْلَا إِيمَانُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٢﴾ أَمَّا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿٥٣﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلُ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿٥٤﴾، أي: ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا، ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال، وكذا تقرر عنهم الملائكة يقولون لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾^(٧) أفسح هذا أم أنت لا تبصرون ﴿١٥﴾ أصولها فأصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٤ - ١٦].

[٣١٠٧] وكذلك قرع رسول الله - ﷺ - قنلى القلب يوم بدر، فنادى: «يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبه بن ربيعة - وسمى رؤوسهم -: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً. فقال عمر: يا رسول الله، تخاطب قوماً قد جئفوا؟! فقال: والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا»^(٨).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا﴾، أي: أعلم معلّم ونادى مُتَاد: ﴿أَنْ لَأَنتَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، أي: مستقرة عليهم. ثم وصفهم بقوله: ﴿أَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، أي: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله ورسوله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾، أي: وهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرين، أي: جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به. فهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل، لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً، فهم شر الناس أعمالاً وأقوالاً.

(١) حسن. أخرجه النسائي في «الكبرى» ١١٤٥٤ بإسناد حسن، رجاله ثقات.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٦٧٣ ومسلم ٢٨١٦ وأحمد ٢٦٤/٢ و٥٢٤ وابن حبان ٣٤٨ عن أبي هريرة.

وأخرجه البخاري ٦٤٦٤ ومسلم ٢٨١٨ عن عائشة، وأخرجه مسلم ٢٨١٧ وأحمد ٣٣٧/٣ عن جابر.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٧٤ وابن حبان ٦٤٩٨.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، نبه أن بين الجنة والنار حجاباً، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة. قال ابن جرير: وهو السور الذي قال الله تعالى فيه: ﴿فَقَرَّبَ بَيْنَهُمْ إِسْوِرَ لَمْ يَأْبُ بَابُهَا بَابُهَا فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَلْمُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]. وهو الأعراف الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾. ثم روى بإسناده عن السدي أنه قال في قوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وهو السور، وهو الأعراف. وقال مجاهد: الأعراف: حجاب بين الجنة والنار، سور له باب. قال ابن جرير: والأعراف جمع عُرْف، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عُرْفًا، وإنما قيل للعُرْفِ الديك عُرْفًا لارتفاعه.

وحدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن عيينة، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَزِيدٍ، سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: الْأَعْرَافُ: هُوَ الشَّيْءُ الْمَشْرُفُ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْأَعْرَافُ: سُورٌ كَعُرْفِ الدِّيكِ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْأَعْرَافُ تَلُّ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حُسِبَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: هُوَ سُورٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. وَكَذَلِكَ قَالَ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ. وَقَالَ السَّدِّيُّ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْأَعْرَافُ أَعْرَافًا، لِأَنَّ أَصْحَابَهُ يَعْرِفُونَ النَّاسَ. وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ فِي أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ: مَنْ هُمْ؟ وَكُلُّهَا قَرِيبَةٌ تَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ، وَهُوَ أَنَّهُمْ قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ، نَصَّ عَلَيْهِ حُذَيْفَةُ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

[٣١٠٨] وقد جاء في حديث مرفوع رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْزُوقٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا سَلِيمَانُ بْنُ دَاوُدَ، حَدَّثَنَا النُّعْمَانُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ، حَدَّثَنَا شَيْخٌ لَنَا يُقَالُ لَهُ: أَبُو عَبَادٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - عَمَّنْ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ، فَقَالَ: «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ، لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ»^(١). وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

[٣١٠٩] ورواه من وجه آخر، عن سعيد بن سلمة بن أبي الحسام، عن محمد بن المنكدر، عن رجل من مُزَيْنَةَ قَالَ: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - عَنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ، فَقَالَ: إِنَّهُمْ قَوْمٌ خَرَجُوا عَصَاةَ بَغْيٍ مِنْ إِذْنِ آبَائِهِمْ، فَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

[٣١١٠] وقال سعيد بن منصور: حَدَّثَنَا أَبُو مَعْشَرٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ شَيْبَةَ، عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُرَزِينِيِّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - عَنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ، فَقَالَ: «هُمْ نَاسٌ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَعْصِيَةِ آبَائِهِمْ، فَامْنَعَهُمْ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ مَعْصِيَةَ آبَائِهِمْ، وَمَنْعَهُمْ مِنَ النَّارِ قَتْلَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٣). هَكَذَا رَوَاهُ

(١) إسناده ضعيف. فيه أبو عباد مجهول. وعبد الله بن محمد بن عقيل ضعيف يحيى وغيره. وعزه السيوطي في «الدر» ١٦٢/٣ لأبي الشيخ وابن عساكر وانظر ما بعده.

(٢) إسناده ضعيف. فيه سعيد بن سلمة. وضعفه الثنائي فقال: شيخ ضعيف، وقال أبو حاتم: سألت عنه ابن معين فلم يعرفه. وذكره ابن حبان في الثقات، وللحديث علة أخرى شيخ ابن المنكدر مجهول لم يسمه، وانظر ما بعده.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبري ١٤٧١٣ والبيهقي في «البعث» ١١٢ و١١٣ و١١٤ والطبراني كما في «المجمع» ١١٠١٤ من حديث عبد الرحمن المزني. قال البيهقي: أبو معشر نجيب المزني ضعيف، وكذا وضعفه الهيثمي بأبي معشر، وله علة ثانية

ابن مَرْذُوبِهِ، وابن جَرِيرٍ، وابن أبي حاتم من طرق، عن أبي معشر، به. وكذلك رواه ابن ماجه مرفوعاً من حديث ابن عباس وأبي سعيد الخدري^(١). والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة وقصاراها أن تكون موقوفة، وفيه دلالة على ما ذكر.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب: حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا حُصَيْنٌ، عن الشعبي، عن حُذَيْفَةَ: أنه سُئِلَ عن أصحاب الأعراف، قال: فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، وخُلِّفَتْ بهم حسناتهم عن النار. قال: فوقفوا هناك على السور حتى يقضي الله فيهم. وقد رواه من وجه آخر أبسط من هذا فقال: حدثنا ابن حُمَيْدٍ، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يونس بن أبي إسحاق قال: قال الشعبي: أرسل إليَّ عبد الحميد بن عبد الرحمن - وعنده أبو الزناد عبد الله بن ذكوان مولى قريش - وإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذُكِرَ أليس كما ذكرا، فقلت لهما: إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة، فقالا: هات. فقلت: إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال: هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار، وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، فإذا صُرِفَتْ أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فبيناهم كذلك، اطلع عليهم ربك اطلاعةً فقال لهم: اذهبوا فادخلوا الجنة، فإني قد غفرت لكم.

وقال عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر الهذلي قال: قال سعيد بن جبير - وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود - قال: يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار. ثم قرأ قول الله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾... الآية، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: سلام عليكم، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا إلى أصحاب النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فتعوذوا بالله من منازلهم. قال: فأما أصحاب الحسَنَاتِ، فإنهم يُعْطَوْنَ نوراً فيمشون به بين أيديهم وبأيامانهم، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً، وكل أمة نوراً، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة. فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا نَارَ نُورِنَا﴾ [التحریم: ٨]. وأما أصحاب الأعراف، فإن النور كان في أيديهم فلم ينزع، فهناك يقول الله تعالى: ﴿لَنْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يظلمُونَ﴾، فكان الطمع دخولاً. قال: وقال ابن مسعود:

مداره على يحيى بن شبل وهو مجهول. وأخرجه الخرائطي في «مساريء الأخلاق» ٢٥١ بهذا الإسناد، لكن جعله مرسلاً، وكرره الطبري ١٤٧١٢ وفيه يحيى بن شبل لا يعرف، وفيه مجاهيل أيضاً. وورد من حديث أبي سعيد أخرجه الطبراني في «الصغير» ٦٦٦ وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٠١٣: فيه محمد بن غلغل الرعيني وهو ضعيف اهـ. قلت: بل هو شديد الضعيف، قال ابن عدي عن الرعيني: حدث بأباطيل. وورد من حديث أبي هريرة أخرجه البيهقي ١١٥ وفيه أبو معشر نجيب السندي وإياه وضعفه البيهقي. وورد من حديث حذيفة أخرجه البيهقي ١١١ وإسناده ضعيف فيه مجاهيل، وانقطاع بين الشعبي وحذيفة، وقد شك في رفعه، وأخرجه ١١٠ من وجه آخر عن الشعبي عن حذيفة موقوفاً، ثم أخرجه ١٠٩ عن الشعبي عن صلة بن زفر عن حذيفة موقوفاً، وهو أصح. وورد عن ابن مسعود وابن عباس وعبد الله بن الحارث والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم موقوفاً عليهم، والوقف فيه على بعض الصحابة أو التابعين أشبه من المرفوع، فليس في المرفوع ما يحتج به. وهو الذي اختاره ابن كثير رحمه الله. والله تعالى أعلم.

(١) تقدم حديث أبي سعيد، وأما حديث ابن عباس، فقد ورد موقوفاً، وقد تقدم، ولم أره مرفوعاً، ولم أجد من عزاه لابن عباس مرفوعاً. تنبيه: عزاهما المصنف لابن ماجه، ولم أجدهما في سننه، ولا عزاهما السيوطي في الدر ١٦٢/٣ - ١٦٣. ولا غيره له، فالله أعلم. ولو وجد حديث أبي سعيد عند ابن ماجه لما ذكره الهيثمي في «المجمع». وقد تقدم.

على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة. ثم يقول: هلك من غلبت آحاده أعشاره. رواه ابن جرير، وقال أيضاً: حدثني ابن وكيع وابن حُميد قالا: حدثنا جرير، عن منصور، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس قال: الأعراف: السور الذي بين الجنة والنار، وأصحاب الأعراف بذلك المكان، حتى إذا بدا لله أن يعافيه، أنطلق بهم إلى نهر يقال له: الحياة حافته قصب الذهب، مكلل باللؤلؤ، ترابه المسك، فالتقوا فيه حتى تصلح ألوانهم، وتبدوا في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال: تمنوا ما شئتم. فيتمنون، حتى إذا انقطعت أمانيهم قال لهم: لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفاً. فيدخلون الجنة وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، يسمون مساكين أهل الجنة. وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن يحيى بن المغيرة، عن جرير، به. وقد رواه سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن مجاهد، عن عبد الله بن الحارث، من قوله. وهذا أصح، والله أعلم. وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد.

[٣١١١] وقال سُنيِد بن داود: حدثني جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير قال: سُئِلَ رسولُ الله - ﷺ - عن أصحاب الأعراف قال: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من فصله بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار، ولم تدخلوا الجنة، فأنتم عتقائي فارعوا من الجنة حيث شئتم»^(١). وهذا مرسل حسن. وقيل: هم أولاد الزنا. حكاه القرطبي.

[٣١١٢] وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الوليد بن موسى، عن شيبه بن عثمان، عن عروة بن رويم، عن الحسن، عن أنس بن مالك، عن النبي - ﷺ -: «أَنْ مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب، فسألناه عن ثوابهم وعن مؤمنيتهم، فقال: على الأعراف، وليسوا في الجنة مع أمة - محمد - ﷺ - . فسألناه: ما الأعراف؟ فقال: حائط الجنة تجري فيه الأنهار، وتنبت فيه الأشجار والثمار»^(٢). رواه البيهقي، عن ابن بشران، عن علي بن محمد المصري، عن يوسف بن يزيد، عن الوليد بن موسى، به.

وقال سفيان الثوري، عن خُصيف، عن مجاهد قال: أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليّة، عن سليمان التيمي، عن أبي مجلز في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حَبَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَرَوْنَ كَلًّا بِسِينَتِهِمْ﴾، قال: هم رجال من الملائكة، يعرفون أهل الجنة وأهل النار، قال: ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوا وَهُمْ يَلْمُزُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا ﴿٤٨﴾ فِي النَّارِ ﴿يَرَوْنَهُمْ بَاسِينَ﴾ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ أَهْلُؤَلَاءِ الَّذِينَ أَسْتَسْتُرُ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾، قال: فهذا حين دخل أهل الجنة الجنة: ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. وهذا صحيح إلى أبي مجلز لاحق بن حميد أحد التابعين، وهو غريب من قوله، وخلاف الظاهر من السياق، وقول الجمهور مقدّم على قوله، بدلالة الآية على ما ذهبوا إليه. وكذا قول مجاهد: إنهم قوم صالحون علماء فقهاء. فيه غرابة أيضاً، والله أعلم. وقد حكى القرطبي وغيره فيهم

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ١٤٧٢٣ عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير مرسلًا، والمرسل من قسم الضعيف عند أهل الحديث. ثم إن سُنيِد بن داود ضعفه غير واحد.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه البيهقي في «البعث» ١١٧ وفيه الوليد بن موسى هو الدمشقي جاء في الميزان ٩٤١٢: قال الدارقطني: منكر الحديث، وقواه أبو حاتم، وقال غيره: متروك، ووهاه العقيلي وابن حبان. وشيبة لم أجد له ترجمة، والخبر شبه موضوع.

انني عَشَرَ قولاً منها: أنهم شهداء، وأنهم صلحاء تَفَرَّغُوا عن فَرْعِ الآخرة، وخلوا يَطَّلِعُونَ على أخبار الناس. فقيل: هم أنبياء. وقيل: ملائكة. وقوله تعالى: ﴿يَمْرُؤُنَ كَلًّا يَسِينُكُمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه. وكذا روى الضحاك، عنه. وقال العوفي، عن ابن عباس: أنزلهم الله بتلك المنزلة، ليعرفوا من في الجنة والنار، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه، ويعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين. وهم في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام، لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله. وكذا قال مجاهد، والضحاك، والسدي، والحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال معمر، عن الحسن: إنه تلا هذه الآية: ﴿تَرَىٰ يَدْعُوهُمْ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم، إلا لكرامة يريدها بهم. وقال قتادة: أنبأكم الله بمكانهم من الطمع. وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾، قال الضحاك عن ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وقال السدي: وإذا مروا بهم يعني بأصحاب الأعراف - بزمرة يُدْعَبُ بها إلى النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وقال عكرمة: تُجْرَدُ وجوههم في النار، فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، فرأوا وجوههم مُسْوَدَّة، وأعينهم مُزْرَقَةٌ ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَأَذَىٰ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَانِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْتُولَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى مُخْبِرًا عن تفريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم، يعرفونهم في النار بسيماهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي: كثرتكم، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما صرتم فيه من العذاب والنكال. ﴿أَهْتُولَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني أصحاب الأعراف - ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سعد، حدثني أبي، حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾... الآية. قال: فلما قالوا لهم الذي قضى الله أن يقولوا - يعني أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار - قال الله لأهل التكبر والأموال: ﴿أَهْتُولَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

[٣١١٣] وقال حذيفة: إن أصحاب الأعراف قوم تكافأت أعمالهم، فقَصُرَتْ بهم حسناتهم عن الجنة، وَقَصُرَتْ بهم سيئاتهم عن النار، ففُجِعُوا على الأعراف، يعرفون الناس بسيماهم. فلما قضى الله بين العباد أذن لهم في طلب الشفاعة، فأتوا آدم فقالوا: يا آدم، أنت أبونا، فاشفع لنا عند ربك. فقال: هل تعلمون أن أحدا خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وسبقت رحمته إليه غضبه، وسجدت له الملائكة غيري؟ فيقولون: لا. قال: فيقول: ما علمت كُنْهه، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن اتوا ابني إبراهيم. فيأتون إبراهيم - ﷺ - فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم، فيقول: هل تعلمون من أحد اتخذه الله خليلاً؟ هل تعلمون أن أحدا أحرقه قومه في النار في الله غيري؟ فيقولون: لا. فيقول: ما علمت كُنْهه، ما أستطيع أن أشفع لكم. ولكن اتوا ابني موسى. فيأتون موسى عليه السلام، فيقول: هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليماً وقربه نجياً غيري؟ فيقولون: لا. فيقول: ما علمت كُنْهه، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن اتوا عيسى. فيأتونه عليه السلام

فيقولون له: اشفع لنا عند ربك. فيقول: هل تعلمون أحداً خلقه الله من غير أب غيري؟ فيقولون: لا. فيقول: هل تعلمون من أحد كان يُرىء الأكمة والأبرص ويُحيي الموتى بإذن الله غيري؟ قال: فيقولون: لا. فيقول: هل أنا حَجِيجٌ نفسي، ما علمت كُنْهَهُ، ما أستطيع أن أشفع لكم. ولكن اتنوا محمداً ﷺ. فيأتونني، فأضرب بيدي على صدري، ثم أقول: أنا لها. ثم أمشي حتى أقب بين يدي العرش، فأتي ربي عز وجل، فَيُفْتَحُ لي من الثناء ما لم يسمع السامعون بمثله قط، ثم أسجد فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تُعْطَه، واشفع تُشْفَعُ. فأرفع رأسي ثم أنبي على ربي عز وجل ثم أخرج ساجداً فيقال لي: ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع. فأرفع رأسي، فأقول: رَبِّي أُمْتِي. فيقول: هم لك. فلا يبقى نبي مرسل، ولا ملك مقرب، إلا غبطني بذلك المقام، وهو المقام المحمود. فأتي بهم الجنة، فاستفتح فيفتح لي ولهم، فيذهب بهم إلى نهر يقال له: نهر الحيوان حافتها قَصَبٌ مَكْلَلٌ باللؤلؤ، ترابه المسك، وحصاؤه الياقوت. فيغتسلون منه، فتعود إليهم ألوان أهل الجنة وريح أهل الجنة، فيصيرون كأنهم الكواكب الدرّية، ويبقى في صدورهم شامات بيض يُغْرِقُونَ بها، يقال لهم: مساكين أهل الجنة^(١).

﴿وَنَادَى أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَيْسَابًا وَعَجَّرْتَهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا قَالِئَوْمَ نَسْتَنْهَرُ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَابِعِينَ يَحْدُوثُ ﴿٥١﴾﴾

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرايبهم وطعامهم، وأنهم لا يجابون إلى ذلك. قال السدي: ﴿وَنَادَى أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، يعني: الطعام. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم. وقال الثوري، عن عثمان الثقفي، عن سعيد بن جبّير في هذه الآية قال: ينادي الرجل أباه أو أخاه فيقول: قد احترقت، أفض عليّ من الماء. فيقال لهم: أجيبوهم. فيقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وزوي من وجه آخر عن سعيد، عن ابن عباس، مثله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾: يعني طعام الجنة وشرايبها.

[٣١١٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نصر بن علي، أخبرنا موسى بن المغيرة، حدثنا أبو موسى الصفار في دار عمرو بن مسلم قال: سألت ابن عباس - أو: سُئِلَ -: أي الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله - ﷺ - «أفضل الصدقة الماء، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله»^(٢).

[٣١١٥] وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح قال: لما مرض أبو طالب قالوا له: لو أرسلت إلى ابن أخيك هذا، فيرسل إليك بعنقود من الجنة، لعله أن يشفيك

(١) أصله في الصحيح بنحو هذا السياق، انظر «صحيح مسلم» رقم ١٩٥.

(٢) ضعيف. أخرجه أبو يعلى ٢٦٧٣ والطبراني في «الأوسط» ١٠١٥ ومداره على موسى بن المغيرة عن أبي موسى الصفار، وكلاهما مجهول. كما في البزان ٢٢٤/٤. وأعله الهيثمي في المجمع ٤٧٢٧ بجهالة موسى ابن مغيرة فحسب. والخبر وإو بكل حال.

به . فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبي - ﷺ - فقال أبو بكر: إن الله حَرَمَهما على الكافرين^(١) .

ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا من اتخاذهم الدين لهواً ولعباً، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للدار الآخرة . وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوْا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ ، أي: نعاملهم معاملة من نسيهم، لأنه تعالى لا يشد عن علمه شيء ولا ينساه، كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَعْضِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسِي﴾ [طه: ٥٢] . وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿سُئِلَ اللَّهُ فَنَسِيهِمْ﴾ [التوبة: ٦٧] ، وقال: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْنُنَا فَنَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ لُنْسِي﴾ [طه: ١٢٦] ، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسَوْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤] . وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا سَأُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ ، قال: نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر . وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: نتركهم، كما تركوا لقاء يومهم هذا . وقال مجاهد: نتركهم في النار . وقال السدي: نتركهم من الرحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا .

[٣١١٦] وفي الصحيح أن الله - تعالى - يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوِّجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك تراساً وتزنج؟ فيقول: بلى . فيقول: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا . فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسييتي^(٢) .

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلْنَاهُ عَلَىٰ عَلَيْهِ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِي نَسُوهُ مِنْ قَبْلٍ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن إعداره إلى المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول، وأنه كتاب مُفْصَلٌ مُبَيِّنٌ، كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ ثُمَّ فَصَّلْتُمْ فِيهِ آيَاتٍ ثُمَّ قُرِئَتْ﴾ [مرد: ١] . . . الآية . وقوله: ﴿فَصَلْنَاهُ عَلَىٰ عَلَيْهِ﴾ ، أي: على علم منا بما فصلناه به، كما قال تعالى ﴿أَنْزَلْنَاهُ يَتْلُوهُ﴾ [النساء: ١٦٦] . قال ابن جرير: وهذه الآية مردودة على قوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ٢] . . . الآية، ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ﴾ . . . الآية . وهذا الذي قاله فيه نَظَرٌ، فإنه قد طال الفصل، ولا دليل على ذلك، وإنما لما أخبر عما صاروا إليه من الخسار في الدار الآخرة، ذكر أنه قد أراح عِلَلَهُمْ في الدار الدنيا، بإرسال الرسل وإنزال الكتب، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ ، أي: ما وعدوا من العذاب والنكال والجنة والنار . قاله مجاهد وغير واحد . وقال مالك: ثوابه . وقال الربيع: لا يزال يجيء من تأويله أمر، حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ .

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ ، أي: يوم القيامة، قاله ابن عباس، ﴿يَقُولُ الَّذِي نَسُوهُ مِنْ قَبْلٍ﴾ ، أي: تركوا العمل به، وتناسوه في الدار الدنيا: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ ، أي: في خلاصنا مما نحن فيه، ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ

(١) هذا معضل . فهو ضعيف، لا حجة فيه .

(٢) صحيح . أخرجه مسلم ٢٩٦٨ وأحمد ٤٩٢/٢ وابن حبان ٧٤٤٦ من حديث أبي هريرة .

فَقَالُوا بَلَيْنَا نَرُّهُ وَلَا نَكَدُبُ بِكَائِتِ رَبَّنَا وَكَوْنِ مِنَ الْمُكذِبِينَ ﴿٥٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَتَوَّ رُدُّوْا لِمَا كَانُوا يُنْفَوْنَ عَنْهُ
وَأَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٥٨﴾ [الأنعام: ٢٧ - ٢٨]، كما قال هاهنا: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾،
أي: خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، أي: ذهب عنهم ما كانوا
يعبدونهم من دون الله فلا ينصرونهم، ولا يشفعون لهم، ولا يُقَدِّونهم مما هم فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ السَّمَاءَ
يَطْلُبُ حَيْثُ شَاءَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْآخِرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ

الْمَلَكِينَ ﴿٥٩﴾

يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم، سماواته وأرضه وما بين ذلك، في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير
ما آية من القرآن. والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة. وفيه
اجتمع الخلق كله، وفيه خلقت آدم عليه السلام. واختلفوا في هذا الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام؟ كما هو
المتبادر إلى الأذهان، أو كل يوم كالف سنة؟ كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد ابن حنبل، ويروى
ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق، لأنه اليوم السابع، ومنه سمي
السبت، وهو القطع.

[٣١١٧] فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا حجاج، حدثنا ابن جريج،
أخبرني إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع - مولى أم سلمة - عن أبي هريرة قال:
«أخذ رسول الله - ﷺ - بيدي فقال: خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر
فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس،
وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى
الليل»^(١). فقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه والنسائي - من غير وجه - عن حجاج - وهو ابن محمد
الأعور - عن ابن جريج به. وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال في ستة أيام. ولهذا تكلم
البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة، عن كعب الأحمري، ليس
مرفوعاً، والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً، ليس هذا موضع
بسطها، وإنما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك والأوزاعي، والثوري، والليث ابن سعد،
والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها
كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله
لا يشبهه شيء من خلقه، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بل الأمر كما قال
الأئمة - منهم نعيم بن حماد الخزازي شيخ البخاري -: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله
به نفسه فقد كفر. وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات
الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد

(١) تقدم في سورة البقرة، آية: ٢٩. وهو أحد الأحاديث المتكلم فيها، وهو في صحيح مسلم، وانظر الكلام عليه فيما مضى
مستوفياً. والله الحمد والمنة.

سَلِّكَ سَبِيلَ الْهُدَى . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿يَتَّبِعُوا آيَاتِ النَّهَارِ يَلْبِغُوا حَيْثُ مَا هُمْ﴾ ، أَي : يَذْهَبُ ظِلَامُ هَذَا بَضِيَاءُ هَذَا ، وَضِيَاءُ هَذَا بِظِلَامِ هَذَا ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلْبًا حَيْثُ مَا هُمْ : سَرِيعًا لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ ، بَلْ إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا ، وَإِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ هَذَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَأَيَّاهُ لَبِغُوا لَبِغًا لَمَّا سَلَّخْنَا مِنْهُ آيَاتِ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُقِيلُونَ ﴿٥٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٥٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْشُونِ الْقَدِيرِ ﴿٥٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَلْبِغِي لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيَاتُ السَّائِغِ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠] ، فَقَوْلُهُ : ﴿وَلَا آيَاتُ السَّائِغِ النَّهَارِ﴾ ، أَي : لَا يَفُوتُهُ بَوَاقٍ يَتَأَخَّرُ عَنْهُ ، بَلْ هُوَ فِي أَثَرِهِ لَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُ مَا هِيَ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ مَسْحَرَاتٍ بِأَثَرِهِ﴾ . - مِنْهُمْ مَنْ نَصَبَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ ، وَكِلَاهُمَا قَرِيبُ الْمَعْنَى ، أَي : الْجَمِيعُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَمَشِيتَتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ مُنْبِهًا : ﴿يَتَّبِعُوا آيَاتِ النَّهَارِ﴾ ، أَي : لَهُ الْمَلِكُ ، وَالتَّصَرُّفُ ، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ﴾ ، كَمَا قَالَ : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَمَعَكَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١] . . . الآية .

[٣١١٨] وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ ، حَدَّثَنَا هِشَامُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، حَدَّثَنَا بَقِيَّةُ ابْنِ الْوَلِيدِ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْغَفَّارِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْأَنْصَارِيُّ ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشَّامِيِّ ، عَنْ أَبِيهِ - وَكَانَتْ لَهُ صَحْبَةٌ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «مَنْ لَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ عَلَى مَا عَمِلَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ ، وَحَمِدَ نَفْسَهُ ، فَقَدْ كَفَرَ وَحَبِطَ عَمَلُهُ . وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِلْعِبَادِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ» ، لِقَوْلِهِ : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ﴾ (١) .

[٣١١٩] وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ - وَرُوِيَ مَرْفُوعًا - : «اللَّهُمَّ لَكَ الْمَلِكُ كُلُّهُ ، وَلَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ، أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ» (٢) .

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْعُنْدِيكَ ﴿٥٩﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

أَرشَد تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى دُعَائِهِ ، الَّذِي هُوَ صِلَاحُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأَخْرَاجُهُمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ ، مَعْنَاهُ : تَذَلُّلاً وَاسْتِكَانَةً ، وَ«خُفْيَةً» ، كَمَا قَالَ : ﴿وَأَذْكُرُ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] . . . الآية .

[٣١٢٠] وَفِي الصَّحِيحِينَ ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ : رَفَعَ النَّاسُ أَصْوَاتَهُمْ بِالدُّعَاءِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «أَيُّهَا النَّاسُ ، ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصْمًا وَلَا غَائِبًا ، إِنْ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ» (٣) . . . الْحَدِيثُ . وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ ، عَنْ عَطَاءِ الْخِرَاسَانِيِّ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ ، قَالَ : السِّرُّ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : ﴿تَضَرُّعًا﴾ : تَذَلُّلاً وَاسْتِكَانَةً لِعِطَاعَتِهِ . «وَخُفْيَةً» ، يَقُولُ : بِخُشُوعِ قُلُوبِكُمْ ، وَصِحَّةِ الْيَقِينِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَرَبُوبِيَّتِهِ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ ، لَا جِهَارًا وَمِرَاءةً . وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ ، عَنْ الْمُبَارَكِ بْنِ فَضَالَةَ ، عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ ، وَمَا يَشْعُرُ بِهِ النَّاسُ . وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ

(١) ضَعِيفٌ جَدًّا . أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ١٤٧٨٤ ، وَهُوَ مَعْلُولٌ ، عَبْدُ الْغَفَّارِ شَيْخٌ بَقِيَّةٌ لَمْ أَجِدْ مِنْ تَرْجَمِهِ ، وَكَذَا شَيْخُهُ ، وَشَيْخُ شَيْخِهِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ إِسْنَادٌ مَصْنُوعٌ . وَبَقِيَّةٌ يَرُوي عَنْ مَجَاهِيلٍ لَا يَعْرِفُونَ ، رَاجِعٌ تَرْجَمَتُهُ فِي الْمِيزَانِ .

(٢) وَرَدَّ مَرْفُوعًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ . أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الشَّعْبِ» ٤٤٠٠ ، وَفِيهِ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ الْعَمْرِيُّ ، وَهُوَ مَتَمُّهُ بِالْكَذْبِ . وَوَرَدَ مُخْتَصَرًا مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ ٤٣٩٩ ، وَفِي الْبَابِ أَحَادِيثٌ .

(٣) تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ آيَةِ : ١٨٦ .

لقد فقه الفقه الكثير، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزور. وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عملٍ يقدرُونَ أن يعملوه في السرِّ، فيكونَ علانيةً أبداً. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمَع لهم صوتٌ، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربِّهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَةً خَوْفِيًا﴾ [مريم: ٣]. وقال ابن جرير: يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء، ويؤمر بالتضرُّع والاستكانة، ثم روى عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُتَضَرِّعِينَ﴾: في الدعاء ولا في غيره. وقال أبو مجلز: ﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُتَضَرِّعِينَ﴾: لا يُسأل منازل الأنبياء.

[٣١٢١] وقال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله -: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا شعبة، عن زياد ابن مخرق، سمعتُ أبا نعامة، عن مولى لسعد: أن سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول: «اللهم، إني أسألك الجنة ونعيمها وإستيرقها، ونحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها». فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً وتعوذت بالله من شر كثير؛ وإني سمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء» وقرأ هذه الآية: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾... الآية، وإن بحسبك أن تقول: «اللهم إني أسألك الجنة وما قُرب إليها من قولٍ أو عملٍ، وأعوذُ بك من النار وما قُرب إليها من قولٍ أو عملٍ»^(١). ورواه أبو داود، من حديث شعبة، عن زياد بن مخرق، عن أبي نعامة، عن ابن لسعد، عن سعد... فذكره، والله أعلم.

[٣١٢٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا الجريري، عن أبي نعامة: أن عبد الله بن مغلل سمع ابنه يقول: «اللهم، إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة، إذا دخلتها. فقال: يا بَنِي، سأل الله الجنة، وعُدَّ به من النار؛ فإني سمعت رسولَ الله - ﷺ - يقول: «يكون قوم يعتدون في الدعاء والظهور»^(٢). وهكذا رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عفان به. وأخرجه أبو داود، عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن سعيد بن إياس الجريري، عن أبي نعامة - واسمه: قيس بن عباية الحنفي البصري - وهو إسناده حسن لا بأس به، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾، ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضره بعد الإصلاح فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضر ما يكون على العباد. فنهى تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرُّع إليه والتذلل لديه، فقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، أي: خوفاً مما عنده من وبيل العقاب، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: إن رحمته مُزْصِدة للمحسنين، الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبَهَا لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]... الآية. وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾، ولم يقل: «قريبة»، لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: قريب من المحسنين. وقال مطر الوراق: تَنَجَّرُوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين. رواه ابن أبي حاتم.

(١) حسن. أخرجه أحمد ١/١٧٢، وإسناده ضعيف لجهالة مولى سعد. وأخرجه أبو داود ١٤٨٠ من طريق أبي نعامة عن ابن لسعد عن سعد، وهو معلول بجهالة ابن سعد لكن يتأيد بما بعده.

(٢) حسن. أخرجه أبو داود ٩٦ وابن ماجه ٣٨٦٤ وأحمد ٤/٨٧ و٥/٥٥ والحاكم ١/١٦٢ و٥٤٠ وابن حبان ٦٧٦٤ من طرق عن حماد بن سلمة به. وحسن إسناده المصنف، وهو كما قال.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَتْهُ لِبَدْرِ مَيْتٍ فَنَزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

﴿يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المُدَبِّر المُسَخِّر، وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر - نُبِّه تعالى على أنه الرزاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: «وهو الذي يرسل الرياح بُشْرًا»، أي: ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر. ومنهم من قرأ: «بُشْرًا»، كقوله: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ بُشْرًا» [الروم: ٤٦]. وقوله: «بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ» أي: بين يدي المطر، كما قال: «وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَدَا مَا فَنُطِرُوا وَيَشْرَبُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَكِيلُ الْحَمِيدُ ﴿٥٨﴾» [الشورى: ٢٨]، وقال: «فَانظُرْ إِلَىٰ مَا نُتِرَ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمَعْجَمُ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٩﴾» [الروم: ٥٠]. وقوله: «حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا»، أي: حملت الرياح سحاباً ثِقَالاً أي: من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل رَجِمَهُ اللهُ:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ الْمُزْنُ تَحْمَلُ عَذْبًا زُلَالًا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ الْأَرْضُ تَحْمَلُ صَخْرًا ثِقَالًا

وقوله تعالى: «سُقِنَتْهُ لِبَدْرِ مَيْتٍ» أي: إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها، كما قال تعالى: «وَأَيُّكُمْ هُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا» [يس: ٣٣]... الآية، ولهذا قال: «فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ»، أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها زبيماً يوم القيامة، يُنَزِّلُ اللهُ سبحانه وتعالى ماء من السماء، فتمطر الأرض أربعين يوماً، فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض. وهذا المعنى كثير في القرآن، يضرب الله مثلاً للقيامة بإحياء الأرض بعد موتها، ولهذا قال: «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ». وقوله: «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ»، أي: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً، كما قال: «فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا» [آل عمران: ٣٧]. «وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا»، قال مجاهد وغيره: كالسباخ ونحوها. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.

[٣١٢٣] وقال البخاري: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا حماد بن أسامة، عن بُرَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عن أَبِي بُرَيْدَةَ، عن أَبِي مُوسَى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «مِثْلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمِثْلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا نَقِيَةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَانْبَتَتْ الْكَلَّا وَالْعُشْبُ الْكَثِيرُ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبٌ أَسْنَكِبَتِ الْمَاءَ، فَفَنَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَرَزَعُوا. وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُسَبِّكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مِثْلُ مَنْ فَعَّهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلِمَ، وَمِثْلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُزِيلَتْ بِهِ»^(١). رواه مسلم والنسائي من طرق، عن أبي أسامة حماد بن أسامة، به.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَلَيْسَ لَكُمْ رَسُولٌ لَّكُمْ وَأَعَلَّمَكُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة، وما يتعلّق بذلك ويتصلّ به، وفرغ منه، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء - عليهم السلام - الأول فالأول، فابتدأ بذكر نوح عليه السلام فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام، وهو «نوح بن لامك بن متوشلح بن أخنوخ - وهو إدريس عليه السلام - كما يزعمون، وهو أول من خط بالقلم - ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم عليه السلام. هكذا نسبة ابن إسحاق وغير واحد من أئمة النسب، قال محمد بن إسحاق: ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قتل. وقال يزيد الرقاشي: إنما سُمي نوحاً لكثرة ما نوح على نفسه. وقد كان بين آدم إلى زمان نوح عليهما السلام عشرة قرون، كلهم على الإسلام.

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عُبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صورة أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان جعلوا تلك الصور أجساداً على تلك الصور. فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسَمَّوها بأسماء أولئك الصالحين: وذو سواعاً ويَعُوثُ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى - وله الحمد والمنة - رسوله نوحاً يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أي: من عذاب يوم القيامة إن لقيتم الله وأنتم مشركون، به. ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾، أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا. وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَسَاءُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المطففين: ٣٢]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُوا إِلَيْكَ وَإِنَّكَ لَن تَهْتَدُوا بِهِمْ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ فَيَدَّبُّهُ ﴿٦٤﴾﴾ [الاحقاف: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾﴾، أي: ما أنا ضال، ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه، ﴿أَلَيْسَ لَكُمْ رَسُولٌ لَّكُمْ وَأَعَلَّمَكُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾. وهذا شأن الرسول أن يكون بليغاً فصيحاً ناصحاً بالله، لا يدرِكهم أحد من خلق الله في هذه الصفات.

[٣١٢٤] كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله - ﷺ - قال لأصحابه يوم عرفة، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً: «أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد»^(١).

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَجْتَبَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عِيبًا ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ﴾... الآية، أي: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحى الله إلى رجل منكم، رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم، لإنذاركم ولتتقوا نعمة الله ولا تشركوا به، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فتمادوا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه

(١) هو بعض حديث جابر في صفة حجة النبي ﷺ، وهو عند مسلم برقم ١٢١٨.

منهم إلا قليل، كما نص عليه تعالى في موضع آخر، ﴿فَأَجْبِئْتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلَيْنِ﴾، وهي السفينة، كما قال: ﴿فَأَجْبِئْتُهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]، ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾، كما قال: ﴿يَمَّا خَلَّيْتَنِيهِمْ أَعْرَفُوا فَأَذَلُّوا نَارًا فَكَلِمَةً يَمُدُّوهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]. وقوله: ﴿إِنَّمِمْ كَانُوا قَوْمًا عَجِيبًا﴾، أي: عن الحق، لا يبصرونه ولا يهتدون له. فبيّن تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾... الآية إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَّوهُ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٥١ - ٥٢].

وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة، أن العاقبة للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز. وقال ابن وهب: بلغني عن ابن عباس: أنه نجا مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً، أحدهم «جُزهم»، وكان لسائنه عربياً. رواه ابن أبي حاتم. وقد روي هذا الأثر الأخير من وجه آخر متصلاً عن ابن عباس، رضي الله عنهما.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُودًا قَالَ يَبْعُرُونَ آبِدُوا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّنَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَبْعُرُونَ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أَلَيْسَ لَكُمْ رَسُولٌ رَبِّي وَإِنَّا لَكُرُ نَاصِعٌ آمِينَ (٦٨) أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْعَةً فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٩)

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً. كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. قال محمد بن إسحاق: هم ولد عاد بن إزم بن عوص بن سام بن نوح. قلت: وهؤلاء هم عاد الأولى، الذين ذكرهم الله، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمدة في البر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَا (٦٥) لِمَ ذَاكَ الْوَادِ (٦٧) أَلَيْسَ لَمْ يَخْلُقْ يَتْلُمَا فِي الْبَلَدِ (٦٨)﴾ [الفجر: ٦ - ٨] وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّلِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٦٥). [فصلت: ١٥]. وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل. قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزاعي، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، سمعت علي بن أبي طالب يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيراً أحمر تخالطه مدرة حمراء ذا أزازك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت، هل رأيت؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. والله إنك لتنتعته نعت رجل قد رآه. قال: لا، ولكنني قد حدثت عنه، فقال الحضرمي: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبر هود عليه السلام. رواه ابن جرير. وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، وأن هوداً - عليه السلام - دُفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسباً، لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق، ولهذا دعاهم هود - عليه السلام - إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾، والملا هم: الجمهور والسادة والقادة منهم، ﴿إِنَّا لَنَرُّنَاكَ فِي

سَفَاهَةً وَإِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٧٠﴾، أي: في ضلالةٍ حيثُ دعوتنا إلى ترك عبادة الأصنام، والإقبال إلى عبادة الله وحده، كما تعجب الملائكة من قريش من الدعوة إلى إله واحد فقالوا: ﴿أَجْمَلُ آلِهَةٍ إِلَهًا وَوَجَّأًا﴾ [ص: ٥]... الآية. ﴿قَالَ يَفْقَهُ لَيْسَ بِسَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾، أي: لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه ﴿أَتَيْتُكُمْ بِسُلْطَانٍ مِنْ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٧٢﴾﴾. وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة. ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يَنْكُرُ لَكُمْ يُنذِرُكُمْ﴾، أي: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمذوا الله على ذاكم، ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾، أي: واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم من ذرية نوح، الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته، لئما خالفوه وكذبوه، ﴿وَرَأدَكُمْ فِي الْخَلْقِ بِسُطَّةٍ﴾، أي: زاد طولكم على الناس بسطة، أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كما قال تعالى في قصة طالوت: ﴿وَرَأدَهُمْ بِسُطَّةٍ فِي الْوَالِدِ وَالْجُوسِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. ﴿فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾، أي: نعمه ومنته عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. والآلاء جمع إلى، وقيل: إلى.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَنَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا يِمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَظْبٌ أَتَجِدِلُونَنِي فِي أَسْمَائِهِ سَبَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ فَأَجْمَعْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّْا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَنَحْدَهُ﴾... الآية، كما قال الكفار من قريش: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَآتِنَا عَذَابَ نَارٍ أَوْ نَسْأَلُكَ أَوْ آتِنَا بِمَدَابِ أَيْرٍ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]. وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أنهم كانوا يعبدون أصناماً، فصنمٌ يقال له: صُدَاء، وآخر يقال له: صُمُود، وآخر يقال له: الهباء. ولهذا قال هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَظْبٌ﴾، أي: قد وجب عليكم بمقاتلتكم هذه من رجم رجس، قيل: هو مقلوب من رجز. وعن ابن عباس: معناه السخط والغضب. ﴿أَتَجِدِلُونَنِي فِي أَسْمَائِهِ سَبَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾، أي: أتجاجوني في هذه الأصنام التي سميتوها أنتم وآبائكم آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً، ولهذا قال: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ﴾. وهذا تهديد ووعد من الرسول لقومه، ولهذا عقب بقوله: ﴿فَأَجْمَعْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّْا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

وقد ذكر الله - سبحانه - صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالريم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَاتَّبَعُوا مَأْمُورَ رَبِّهِمْ فَاصْبِرْ عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَكَلْبِيَّةَ آيَاتِهِمْ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا مَرْعًى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ تَقَلُّ حَاوِيَةٌ ﴿٧٤﴾﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٧٥﴾﴾ [الحاقة: ٦ - ٨] لما تمردوا وعتوا أهلهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتبلغ رأسه حتى ثبته من جنته، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ تَقَلُّ حَاوِيَةٌ﴾. وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن من عمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد نشأوا في الأرض وقهرها أهلها، بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثانٍ يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام، وهو من أوسطهم نسباً، وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يؤحدوا الله ولا يجعلوا معه إلهاً غيره، وأن يكفوا عن

ظلم الناس. فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة؟ واتبعه منهم ناس، وهم يسير مكتمون بإيمانهم، فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه، وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا، وبنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع، كلمهم هود فقال: ﴿أَتَيْتُكُمْ بِكَلِمَةٍ رِيحٍ مَائَةٍ تَبْتَئُونَ ﴿٧٨﴾ وَتَجِدُونَ مَصَاحِقَ لَكُمْ تَقْتُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَإِنَّا بِكَلِمَتٍ مِّنْ رَبِّنَا لَجَائِزِينَ ﴿٨٠﴾ فَاتَّبَعُوا اللَّهَ وَالْيُسُوفَ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣١]. ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَاتٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ إن تقول إلا اعتدك بعض آلِهتنا يسوء، أي: بجنون، ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَآلِهَتُهُمَا أَنَّى بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٨٣﴾﴾ من دؤوبه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴿٨٤﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِنَا إِنَّا رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: ٥٣ - ٥٦].

قال محمد بن إسحاق: فلما أبوا إلا الكفر به، أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين، فيما يزعمون، حتى جهدهم ذلك، قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان، فطلبوا من الله الفرج، إنما يطلبونه بحرمته ومكان بيته، وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عِمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال له: معاوية بن بكر، وكانت له أم من قوم عاد، واسمها كلهدة ابنة الخيبري، قال: فبعثت عاد وفدأ قريباً من سبعين رجلاً إلى الحرم، ليستسقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنهم الجرادتان - قينتان لمعاوية - وكانوا قد وصلوا إليه في شهر، فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف، عمل شعراً يُعرض لهم بالانصراف، وأمر القيتين أن تغنياهم به، فقال:

ألا يا قَيْلُ، وَيَحْكُ! قُمْ فَهَيْنِمُ
فَيْسَقِي أَرْضَ عَادٍ، إِنَّ عَاداً
مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيدِ، فَلَيْسَ نَرْجُو
وَقَدْ كَانَتْ نَسَاؤُهُمْ بِخَيْرِ
وَإِنِ الْوَحْشَ تَأْتِيهِمْ جِهَاراً
وَأَنْتُمْ هَاهُنَا فِيمَا اسْتَهَيْتُمْ
فَقُبِّحَ وَفَدُّكُمْ مِنْ وَفْدِ قَوْمِ

لعل الله يُضْبِحُنَا غَمَامَا
قَدْ اَمْسُوا لَا يُبَيِّثُونَ الْكَلَامَا
به الشيخ الكبير ولا الغلامَا
فقد أمست نساؤهم عِيَامَا
ولا تخشى لعادي سِهَامَا
نهازكم ولينلکم الثَمَامَا
ولا لُقُوا التحية والسلامَا

قال: فعند ذلك تنبأ القوم لما جاؤوا له، فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم فدعا داعيهم، وهو قَيْلُ ابنِ عِثْرَ، فأنشأ الله سبحانه ثلاثاً: بيضاء، وسوداء، وحَمْرَاءَ، ثم ناداه مناد من السماء: اختر لنفسك - أو لقومك - من هذا السحاب. فقال: اخترت هذه السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماء. فناداه مناد: اخترت زماماً ومردداً، لا تبقى من عاد أحداً، ولا والداً تترك ولا ولداً، إلا جعلته همدأ، إلا بني اللوذية المهذا - قال: وبنو اللوذية: بطن من عاد مقيمون بمكة، فلم يصيبهم ما أصاب قومهم - قال: وهم من بقي من أنسالهم وذريتهم عاد الآخرة - قال: وساق الله السحابة السوداء - فيما يذكرون - التي اختارها قَيْلُ بنِ عِثْرَ بما فيها من النعمة إلى عاد، حتى تخرج عليهم من واد يقال له: المغيث، فلما رأوها استبشروا، وقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطِرًا﴾ يقول: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْظَمْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٢﴾ تَدِيرُ كُلَّ نَفْسٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤ - ٢٥]، أي: تهلك كل شيء مرت به، فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح، فيما يذكرون، امرأة من عاد يقال لها: مهدد، فلما تبينت ما فيها صاحت، ثم صبغت فلما أفادت قالوا: ما رأيت يا مهدد؟ قالت: ريحاً فيها شهب النار، أمامها رجال يقودونها. فسخرها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، كما قال

الله - والحسوم: الدائمة - فلم تَدْعُ من عاد أحداً إلا هَلَكَ واعتزل هُود عليه السلام - فيما ذُكِرَ لي - ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومن معه إلا ما تلين عليه الجلود، وتَلْتَدُ الأنفُس، وإنها لتمر على عاد بالظعن ما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة». وذكر تمام القصة بطولها، وهو سياق غريب فيه فوائد كثيرة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أُمَّرُنَا بِجَنَّتِنَا هُوْدًا وَآلِذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَبِحَيْثِنَا مِمَّنْ غَلِظَ ۝٥٨﴾ [هود: ٥٨].

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله.

[٣١٢٥] قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي، حدثنا عاصم بن أبي النُجُود، عن أبي وائل، عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ - فمررت بالربذة فإذا عجوزٌ من بني تميم مُنْقَطِعٌ بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله ﷺ - حاجة، فهل أنت مُبْلِغِي إليه؟ قال: فَحَمَلْتُهَا فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ، فإذا المسجدُ غاصُّ بأهله، وإذا رايةٌ سوداءٌ تُخَفِقُ، وإذا بلالٌ متقلدٌ السيفَ بين يدي رسول الله - فقلت: ما شأن الناس؟ فقالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً. قال: فجلست، فدخل منزله - أو قال: رَحَلَهُ - فاستأذنتُ عليه، فأذِنَ لي، فدخلتُ فسَلَّمْتُ، فقال: هل بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الذبيرة عليهم. ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها. فسألني أن أحملها إليك، وما هي الباب. فأذن لها، فدخلتُ، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً، فاجعل الدهناء. فَحَمَيْتُ الْعَجُوزَ وَاسْتَوْفَزْتُ، فقالت: يا رسول الله، فإلى أين يُضَطَّرُّ مُضْطَرُّوك؟ قال: قلت: إن مثلي ما قال الأول: «مَغْرَى حَمَلْتُ حَتْفَهَا»، حَمَلْتُ هَذِهِ وَلَا أَشْعُرُ أَنَّهَا كَانَتْ لِي خِصْماً، أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد! قال: هيه، وما وافد عاد؟ - وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يَسْتَطْعِمُهُ - قلت: إن عاداً قُحِطُوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيْلٌ، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنييه جاريتان، يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرَةَ، فقال: «اللهم إنك تعلم أنني لم أجيء إلى مريض فادأويه، ولا إلى أسير فأنادي به. اللهم اسقِ عاداً ما كنت تسقيه فمررت به سحابات سود، فنودي منها: اختر. فأوما إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رماداً رمديداً لا يُبْقِي من عاد أحداً. قال: فما بلغني أنه بُعِثَ عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا، حتى هلكوا - قال أبو وائل: وصدق - قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد^(١). هكذا رواه الإمام أحمد في المسند، ورواه الترمذي، عن عبد بن حميد، عن زيد بن الحُبَاب، به نحوه، ورواه النسائي من حديث سلام أبي المنذر، عن عاصم - وهو ابن بهدلة - ومن طريقه رواه ابن ماجه أيضاً، عن أبي وائل، عن الحارث بن حسان البكري، به. ورواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن زيد بن

(١) حسن. أخرجه أحمد ٤٨٢/٣ والترمذي ٣٢٧٤ والطبري ١٤٨١٤ من طريق زيد بن الحباب به وقال الترمذي عقب الحديث: ويقال له الحارث بن حسان أيضاً (أي عن الحارث بن يزيد). وأخرجه أحمد ٤٨٢/٣ ح ١٥٥٢٣ من طريق سلام أبي المنذر به لكن من حديث الحارث بن حسان.

وأخرجه ابن ماجه ٢٨١٦ مختصراً والطبري ١٤٨١٣ من طريق أبي بكر بن عياش عن عاصم عن الحارث بن حسان البكري به. وهو حديث حسن الإسناد. وأخرجه الترمذي ٣٢٧٣ من طريق عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن رجل من ربيعة قال: قدمت المدينة... فذكره.

حُبَاب، به. ووقع عنده: عن الحارث بن يزيد البكري فذكره. ورواه أيضاً عن أبي كريب، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن الحارث بن حسان البكري. فذكره. ولم أر في النسخة أبا وائل، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَمَرُوا بِالْقَوْلِ الْغَيْرِ الْمُبِينِ﴾ قَالَ يَنْقُورِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسْوَءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ نَتَبَخَّثُ مِنْ سُهُولِهَا فُصُورًا وَنَنْجُوْنَ الْجِبَالَ يُوْتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتُمْ مَأْمُورُونَ أَنْتُمْ صَالِحًا مَرَّسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحْ آثِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيَّةً ﴿٧٨﴾

قال علماء التفسير والنسب: ثمود بن عاثر بن إزم بن سام بن نوح، وهو أخو جديس بن عاثر، وكذلك قبيلة طنم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل - عليه السلام - وكانت ثمود بعد عاد، ومسكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مرَّ رسول الله - ﷺ - على قراهم ومسكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع.

[٣١٢٦] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صخر بن جويرية، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله - ﷺ - بالناس على تبوك، نزل بهم الجحجر عند بيوت ثمود فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور. فأمرهم النبي - ﷺ - فأهراقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا قال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»^(١).

[٣١٢٧] وقال أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله - ﷺ - وهو بالجحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»^(٢). وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين من غير وجه.

[٣١٢٨] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا المسعودي، عن إسماعيل بن أوسط، عن محمد بن أبي كبشة الأنماري، عن أبيه قال: لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الجحجر يدخلون عليهم. فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فنادى في الناس: الصلاة جامعة. قال: فأتيت رسول الله - ﷺ -

(١) صحيح. أخرجه أحمد ١١٧/٢ وابن حبان ٦٢٠٣ من طريق صخر بن جويرية به. وأخرجه البخاري ٣٣٧٩ ومسلم ٢٩٨١ وابن حبان ٦٢٠٢ والدلائل ٣٤/٥ من طرق عن عبيد الله عن نافع به.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٧٤/٢ بهذا الإسناد، وأصله عند البخاري ٤٣٣ و٤٤٢٠ ومسلم ٢٩٨٠ وابن حبان ٦٢٠٠ والبيهقي في «الدلائل» ٥/٢٣٣.

وهو ممسكٌ بعيره وهو يقول: ما تدخلون على قوم غَضِبَ اللهُ عليهم. فناده رجلٌ منهم: نعجبُ منهم يا رسول الله. قال: أفلا أنبئكم بأعجبٍ من ذلك، رجلٌ من أنفسكم ينبتكم بما كان قبلكم، وبما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسُدُّوا. فإن الله لا يعبا بعدايبكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً^(١). لم يخرج أحد من أصحاب السنن الستة، وأبو كبشة اسمه: عمرو بن سعد، ويقال: عامر بن سعد، والله أعلم.

[٣١٢٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرُ، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن أبي الزبير، عن جابر قال: «لما مرَّ رسول الله - ﷺ - بالحجر قال: لا تسألوا الآيات، فقد سألتها قومٌ صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفَجِّ، وتضدُّ من هذا الفَجِّ، فَعَتَّوْا عن أمر ربهِم فَعَقَّرُوها، وكانت تشربُ ماءهم يوماً ويشربون لَبْنها يوماً، فَعَقَّرُوها، فأخذتُهم صيحةً أهدم الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله. فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: أبو رِغَال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه^(٢). وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم. فقوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَمُودُ أَهْلَهُمْ صَالِحًا﴾، أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلةِ ثمودٍ أخاهم صالحاً، ﴿فَقَالَ يَقْوَرُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَّ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، جميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِيه نَاقَةٌ آلَ لَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ أي: قد جاءكم حجةٌ من الله على صدق ما جئتكم به. وكانوا هم الذين سألتوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرة صمَاء عَيْنُها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الجِجْر، يقال لها: الكاتبة، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقةً عَشْرَاءَ تَمَخَّضُ، فأخذ عليهم صالح العهد والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهدهم ومواثيقهم قام صالحٌ - عليه السلام - إلى صلته ودعا الله عز وجل، فتحرَّكت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جَوْفَاءَ وبرَّاء يتحرك جنيئها بين جنبيها، كما سألتوا، فعند ذلك آمن رئيس القوم وهو: جُنْدَعُ بن عمرو ومن كان معه على أمره، وأراد بقية أشارف ثمود أن يؤمنوا فصَدَّهم «ذؤاب بن عمرو بن لبيد» و«الحُبَاب» صاحب أوثانهم، و«ريان بن صَمْعَرِ بن جلمس»، وكان «الجندع بن عمرو» ابنُ عَمِّ يقال له: «شهاب بن خليفة بن مخللة بن لبيد بن جواس»، وكان من أشرف ثمود وأفاضلها، فأراد أن يُسلم أيضاً فنهاه أولئك الرهط، فأطاعهم، فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود، يقال له: مَهْوش بن عَنَمَةَ بن الدَّمِيلِ رَجَمَهُ اللهُ:

وكانت عُضْبَةٌ من آلِ عَمْرٍو
عَزِيْزٌ ثَمُوْدٌ كُلُّهُمُ جَمِيْعاً
لأصْبَحَ صالِحٌ فِينا عَزِيْزاً
ولكنَّ العُتُوَّةَ مِن آلِ جَجْرِ
إلى دين النبي دَعَوْا شَهَاباً
فَهُمُ بَأَن يُجِيْبَ قَلُوْا أَجَاباً
وما عَدَلُوا بصاحبهم ذؤاباً
تَوَلَّوْا بعد رُشْدِهِم ذؤاباً
فأقامت الناقةً وفصيلها بعدما وضعت بين أظهرهم مدةً، تشرب ماء بثرها يوماً، وتدعه لهم يوماً. وكانوا

(١) أخرجه أحمد ٢٣١/٤ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٩٤/٦ وقال: وفيه عبد الرحمن بن عبد الله السمودي وقد اختلط. فالإسناد ضعيف. وله علة أخرى إسماعيل بن أوسط، لا يحتج به.

(٢) أخرجه أحمد ٢٩٦/٣ وابن حبان ٦١٩٧ والحاكم ٣٤٠/٢ - ٣٤١ والطبري ١٤٨٢٤، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي وقال ابن كثير: على شرط مسلم. مع أن في إسناده أبي الزبير مدلس، وقد عنعن.

يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيتهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَتَيْتُهُمْ أَنْ الْمَاءَ فَسَنَ يَتَيْتُهُمْ كُلُّ شَرِبٍ تُحَضَّرُ ۗ﴾ [الغمر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَمْلُوءٍ ۗ﴾ [الشعراء: ١٥٥]. وكانت تسرحُ في بعض تلك الأودية ترد من فجج وتصدُر من غيره ليسعها، لأنها كانت تتصلعُ من الماء، وكانت - على ما ذكر - خلقاً هائلاً ومنظراً رائعاً، إذا مرّت بأنعامهم نفرت منها. فلما طال عليهم ذلك واشتدّ تكذيبهم لصالح النبي - عليه السلام - عزموا على قتلها، ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها. قال قتادة: بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كلهم، أنهم راضون بقتلها، حتى على النساء في خدورهن، وعلى الصبيان أيضاً. قلت: وهذا هو الظاهر لأن الله تعالى يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۗ﴾ [الشمس: ١٤]، وقال: ﴿وَمَا آتَيْنَا لَكُمْ مِنْ مِثْمِرَةٍ فَظَلَمْتُمْوهَا ۗ﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال: ﴿فَعَقَرُوهَا نَاقَةً ۗ﴾. فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة، فدل على رضا جميعهم بذلك، والله أعلم.

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير - رحمه الله - وغيره من علماء التفسير في سبب قتل الناقة: أن امرأة منهم يقال لها: عنيزة ابنة غنم بن مجلز، وتكنى أم غنم، وكانت عجوزاً كافرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام، وكانت لها بناتٌ حسانٌ ومالٌ جزيل، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرى يقال لها: «صدوف ابنة المحيا» بن دهر بن المحيا ذات حسب ومال وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود، ففارقته، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت «صدوف» رجلاً يقال له: «الحباب» وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها. فدعت ابن عم لها يقال له: «مصدع بن مهرج بن المحيا»، فأجابها إلى ذلك - ودعت «عنيزة بنت غنم» «قدار بن سالف ابن جندع»، وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه كان ولد زنية، وأنه لم يكن من أبيه الذي يُنسب إليه، وهو سالف، وإنما كان من رجل يقال له: صهياد، ولكن ولد على فراش سالف، وقالت له: أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة! فعند ذلك انطلق «قدار بن سالف» و«مصدع بن مهرج» فاستفزا غواةً من ثمود، فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي آلِ يَبُوسَ إِسْمُهُ رَهْطٌ يُفِيدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلِّهُونَ ۗ﴾ [النمل: ٤٨]، وكانوا رؤساء في قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكما لها، فطاعوهم على ذلك، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء، وقد كمن لها «قدار» في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها «مصدع» في أصل أخرى، فمرت على «مصدع» فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها وخرجت «أم غنم» عنيزة، وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجهاً، فسفرت عن وجهها لقدار ودمرته فشد على الناقة بالسيف، فكسف عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض، وورغت رعاةً واحدة تحذر سقبتها، ثم طعن في لبتّها فنحرها، وانطلق سقبتها - وهو فصيلها - حتى أتى جبلاً منيعاً، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا. فروى عبد الرزاق، عن معمر، عن سمع الحسن البصري أنه قال: يا رب، أين أمي؟ ويقال: إنه رغا ثلاث مرات، وإنه دخل في صخرة فغاب فيها، ويقال: بل اتبعوه فعقروه مع أمه، فإله أعلم.

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة، بلغ الخبرُ صالحاً عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال: ﴿تَمَتُّوا فِي دَارِكُمْ فَلَنَّةَ آيَاتٍ ۗ﴾ [هود: ٦٥]... الآية، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح، وقالوا: إن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً الحقناه بناقته! ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۗ﴾

وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٧٣﴾ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كُنَّا عَاقِبَةَ مَكْرِهِمْ ﴿٧٤﴾ [النمل: ٤٩ - ٥٠] . . . الآية . فلما عزموا على ذلك وتواطؤوا عليه، وجاؤوا من الليل ليفتِكُوا بنبي الله صالح، أرسل الله - سبحانه وتعالى، وله العزة ولرسوله - عليهم حجارة فرضختهم سلفاً وتعجلاً قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس، وهو اليوم الأول من أيام النُّظرة، ووجوههم مُضْفَرَةٌ كما وعدهم صالح عليه السلام. وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل، وهو يوم الجمعة، ووجوههم محمّرة. وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت، ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنّطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه - عياداً بالله من ذلك - لا يدرون ماذا يُفَعَلُ بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس، جاءتهم صيحة من السماء وزجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس في ساعة واحدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيًّا﴾، أي: صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى. قالوا: إلا جارية كانت مقعدة - واسمها: «كلبة ابنة السُّلُك»، ويقال لها: «الدَّرْبَعَةُ» - وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت ما رأت من العذاب، أُطْلِقَتْ رجلاها، فقامت تسمى كأسرع شيء، فأنت حياً من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حلَّ بقومها، ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت ماتت.

قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد، سوى صالح - عليه السلام - ومن اتبعه - رضي الله عنهم - إلا رجلاً كان يقال له: «أبو رِغَال»، كان لما وقعت النقمة بقومه مقيماً إذ ذاك في الحرم، فلم يصبه شيء، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحِلِّ جاءه حجر من السماء فقتله. وقد تقدم في أول القصة حديث «جابر بن عبد الله» في ذلك، وذكروا أن أبا رِغَالٍ هذا هو والد ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف.

[٣١٣٠] قال عبد الرزاق: قال مَعْمَرُ: أخبرني إسماعيل بن أمية: أن النبي - ﷺ - مرَّ بقبر أبي رِغَالٍ فقال: أتدرون من هذا؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا قبر أبي رِغَالٍ، رجل من ثمود، كان في حرم الله، فمنعه حرمُ الله عذاب الله. فلما خرج أصابه ما أصاب قومه، فذُفِنَ هاهنا، ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسياهم، فبحثوا عنه، فاستخرجوا الغصن. وقال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رِغَالٍ، أبو ثقيف^(١). هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روي متصلاً من وجه آخر:

[٣١٣١] كما قال محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن بُجَيْرِ بْنِ أَبِي بُجَيْرٍ قال: سمعتُ عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال: «هذا قبر أبي رِغَالٍ، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم فدَفَعَ عنه، فلما خرج أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فذُفِنَ فيه، وآية ذلك أنه دُفِنَ معه غُصْنٌ من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه، فابتدراه الناس فاستخرجوا منه الغصن»^(٢). وهكذا رواه أبو داود، عن يحيى بن معين، عن وهب بن جرير بن حازم، عن أبيه، عن ابن إسحاق به. قال شيخنا أبو الحجاج المزي: وهو حديث حسنٌ عزيزٌ. قلت: تفرد بوصله بُجَيْرِ بْنِ أَبِي بُجَيْرٍ هذا، وهو شيخ لا يُعْرَفُ إلا بهذا الحديث، قال يحيى ابن معين: ولم أسمع أحداً روى عنه غير إسماعيل بن أمية. قلت: وعلى هذا فيخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما يكون

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٩١٦ عن إسماعيل بن أمية، وهذا معضل. وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٠٨٨ وابن حبان ٦١٩٩ والبيهقي ١٥٦/٤ والذهبي في الميزان ١١٢٤ والمزي في «تهذيب الكمال» ١٠/٤

- ١١ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. وإسناده ضعيف. ابن إسحاق مدلس، ولم يصرح بالتحديث. لكن توبع عند البيهقي، وفيه بجير بن أبي بجير مجهول كما في الميزان، والتقريب، للإسناد وإو. وانظر تعليق ابن كثير رحمه الله.

من كلام عبد الله بن عمرو، مما أخذه من الزاملتين. قال شيخنا أبو الحجاج، بعد أن عرضت عليه ذلك: وهذا محتمل، والله أعلم. وقوله تعالى:

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّكُمْ وَصَحَّحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ التَّصْحِيحَ ﴿٧٩﴾﴾

هذا تفرغ من صالح - عليه السلام - لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتعمد لهم على الله، وإبانهم عن قبول الحق وإعراضهم عن الهدى إلى العمى. قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريباً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك.

[٣١٣٢] كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - لما ظهر على أهل بدر، أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر بإحلاته فشددت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها، ثم سار حتى وقف على القلب قليب بدر، فجعل يقول: «يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبه بن ربيعة، ويا فلان بن فلان: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً. فقال له عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أقوام قد جئفوا؟! فقال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيئون»^(١).

[٣١٣٣] وفي السيرة أنه - عليه السلام - قال لهم: «بنس عشيرة النبي كتتم لنيكم، كذبتوني وصدقتني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقتلتوني ونصرني الناس، فبنس عشيرة النبي كتتم لنيكم!»^(٢).

وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّكُمْ وَصَحَّحْتُ لَكُمْ﴾، أي: فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحاً. ولهذا قال: ﴿وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ التَّصْحِيحَ﴾. وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلكت أمته كان يذهب فيقيم في الحرم، حرم مكة، فإله أعلم.

[٣١٣٤] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا زمنة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «لما مر رسول الله - ﷺ - بوادي عسفان حين حج قال: يا أبا بكر، أي واد هذا؟ قال: هذا وادي عسفان. قال: لقد مرَّ به هوذٌ وصالح - عليهما السلام - على بكرات حُمُرٍ حُطِمَها اللَّيْفُ، أُرْزُمَ الْعَبَاءُ، وَأُرْدِيَتْهُمُ النَّمَارُ^(٣)، يُلْبُونُ، يَحْتَجُونَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ^(٤). هذا حديث غريب من هذا الوجه، لم يخرج أحد منهم.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفِتْحَةَ مَا سَبَقْتُكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ

الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿لوطاً﴾، أو تقديره: واذكر لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفِتْحَةَ مَا سَبَقْتُكُمْ

(١) صحيح. وقد تقدم عند آية: ٤٤ من هذه السورة.

(٢) ذكره ابن هشام في «السيرة» ٢/ ٢١٢، وهو معضل.

(٣) البكرات: جمع بكرة، وهي الفتية من الإبل. والحطم: الحبل الذي تؤخذ به الناقة.

والنمار: شملة مخططة من مآزر الأعراب.

(٤) أخرجه أحمد ٢٠٦٧ «بتقديم شاكر»، وقال الهيثمي في «المجمع» ٥٣٤٧: فيه زمة بن صالح، وفيه كلام، وقد وثق اهـ.

وجاء في «الميزان» ٢٩٠٤: ضعفه أحمد وابن معين، وقال في رواية: ضويلح الحديث. وقال أبو زرعة: لين واهي الحديث.

وقال البخاري: يخالف في حديثه، تركه ابن مهدي أخيراً. وقال النسائي: ليس بالقوي وقال أبو داود: ضعيف اهـ وبهذا يتحصل أن الرجل ضعيف، لما ذكره الهيثمي فيه نظر.

بِهَا مِنْ أَمْوَاتِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٠﴾. ولوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل - عليها السلام - وكان قد آمن مع إبراهيم - عليه السلام - وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أهل سدّوم وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث. وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل سدّوم عليهم لعائن الله. قال عمرو بن دينار: قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَمْوَاتِ الْكَافِرِينَ﴾، قال: ما نزا دُكْرَ على ذكر، حتى كان قوم لوط. وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق: لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً. ولهذا قال لهم لوط عليه السلام: ﴿اتَّأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾، أي: عدلتم عن النساء، وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال، وهذا إسراف منكم وجهل، لأنه وضع الشيء في غير محله، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى: ﴿قَالَ هُوَ لَوْلَا بَنَاتِي إِنْ كُنْتُ فَعَالِيَةً﴾ [الحجر: ٧١]، فأرشدهم إلى نسايتهم، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقِّ وَرَثَتِكُمْ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]، أي: لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك. وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغنى بعضهن ببعض أيضاً.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٨١﴾

أي: ما أجابوا لوطاً إلا أن قنعوا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالماً، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظُرُونَ﴾، قال قتادة: عابوهم بغير عيب. وقال مجاهد: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظُرُونَ﴾، من أدبار الرجال وأدبار النساء. وروي مثله عن ابن عباس أيضاً.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ

عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٣﴾

يقولُ تعالى: فأنجينا لوطاً وأهله، ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ فَأَمْطَرْنَا فِيهَا عَرَصًا مِنْ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦١﴾ [الذاريات: ٣٥ - ٣٦]، إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تماثلتهم عليه وتعلمهم بمن يُقدّم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم، ولهذا لما أمر لوط - عليه السلام - أن يسري بأهله أمرٌ ألا يعلم امرأته ولا يخرجها من البلد. ومنهم من يقول: بل اتبعتمهم، فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم. والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: الباقين. ومنهم من فسر ذلك ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ الهالكين، وهو تفسير باللازم. وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾، مفسر بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مَنشُودٍ﴾ ﴿٨٢﴾ سُؤْمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا مِنْ مِنَ الْفَالِطِينَ يَبْسُودُ ﴿٦١﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣]، ولهذا قال: ﴿فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾، أي: انظر - يا محمد - كيف كان عاقبة من يجترى على معاصي الله وكذب رسله.

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - إلى أن اللَّأُطُ يُلْقَى مِنْ شَاهِقٍ، وَيَتَّبِعُ بِالْحِجَارَةِ كَمَا فُعِلَ بِقَوْمِ لُوطٍ. وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يُرْجَمُ سِوَاهُ كَانَ مُحْصَنًا أَوْ غَيْرَ مُحْصَنٍ. وهو أحد قولَي الشافعي رحمه الله.

[٣١٣٥] والحجة ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث الدراويزي، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به»^(١). وقال آخرون: هو كالزاني، فإن كان محصناً رُجِمَ، وإن لم يكن مُحْصَنًا جُلِدَ مئة جلدة. وهو القول الآخر للشافعي. وأما إتيان النساء في الأدبار فهو اللوطية الصغرى وهو حرام بإجماع العلماء، إلا قولاً شاذاً لبعض السلف، وقد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله - ﷺ - وقد تقدم الكلام عليها في سورة البقرة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَعْبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُنْفِسُوا فِي الْأَرْضِ بِعَدْوٍ مِمَّا بَلَغْتُمْ بِهَا فَإِنَّكُمْ تَكُونُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

قال محمد بن إسحاق: هم من سلالة مدين بن مديان بن إبراهيم. وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجن قال: واسمه بالسريانية «بثرون». قلت: وتطلق مدين على القبيلة، وعلى المدينة - وهي التي يقرب مَعَان من طريق الحجاز، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وهم أصحاب الأيكة، كما سنذكره إن شاء الله تعالى، وبه الثقة. ﴿قَالَ يَقْتَوِرُ أَعْبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

(١) يشبه الحسن. أخرجه أبو داود ٤٤٦٢ والترمذي ١٤٥٦ وابن ماجه ٢٥٦١ والدارقطني ١٢٢/٣ وابن الجارود ٨٢٠ والحاكم ٣٥٥/٤ وأحمد ٣٠٠/١ والبيهقي ٣٠٨/١٠ والبغوي ٣٠٨/٨، وإسناده غير قوي ومع ذلك صححه الحاكم وسكت الذهبي. وجاء في نصب الراية ٣/٣٤٠ ما ملخصه: قال البخاري: عمرو هذا روى عن عكرمة منكير، وقال النسائي: ليس بالقوي. وقال شيخنا الذهبي في الميزان: وثقه ابن معين لكن قال: ينكر عليه حديث ابن عباس هذا.

وجاء في تلخيص الحبير ٤/٥٤ ما ملخصه: حديث ابن عباس استكره النسائي، وفي ثبوته اختلاف. وتابعه عباد بن منصور أخرجه أحمد ٣٠٠/١ ح ٢٧٢٣ والبيهقي ٢٣٢/٨، وقد اغتر الألباني بذلك في «الإرواء» ٢٣٥٠ بهذا المتابعة فصححه. وهذا ليس بجيد. جاء في الميزان ٢/٣٧٦: عباد بن منصور لم يرضه القطان، وقال يحيى: ليس بشيء، وقال ابن الجنيد: متروك قدرى. وضعفه النسائي. وقال أبو حاتم الرازي وابن حبان: نرى أنه أخذ هذه الأحاديث عن إبراهيم بن أبي يحيى عن داود بن حصين عن عكرمة اهـ «لفظ أبي حاتم الرازي» وإبراهيم هذا ضعيف. وداود روى عن عكرمة منكير. فهذه المتابعة لا فائدة منها. ومع ذلك فقد أخرجه أحمد ٢٧٢٨ عن عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس موقوفاً عليه.

ورود من حديث أبي هريرة. أخرجه ابن ماجه ٢٥٦٢ وعلقه الترمذي بإثر حديث ١٤٥٦ وفيه عاصم بن عبد الله العمري وهو متروك، وتابعه عبد الرحمن بن عبد الله العمري في المستدرک ٤/٣٥٥ وهو متروك وقال الذهبي: ساقط، ثم إن لفظه «فارجعوا...» بدل «فاقتلوا».

الخلاصة: لا يثبت هذا الحديث. ولو صح لما اختلف الصحابة والأئمة الفقهاء في ذلك. حيث ذهب بعضهم إلى أنه يلحق من شاقق. وقال بعضهم: يرجم، وقال بعضهم: يقتل بالسيف، ورواية عن أحمد: حكمه حكم الزاني. ورواية أخرى عنه: يرجم ثبياً كان أو بكرأ. وقال ابن أبي حاتم في «العلل» ١٣٦٧: سألت أبي عن حديث رواه ابن أبي حبيبة عن داود بن حصين عن عكرمة به، فقال أبي: هذا حديث منكر لم يروه غير ابن أبي حبيبة اهـ. وقد اضطرب فيه عمرو بن عمرو. قال الترمذي عقب الحديث ١٤٥٦: ورواه محمد بن إسحق عن عمرو بن أبي عمرو، فقال «لملعون من عمل قوم لوط» لم يذكر فيه القتل. وقال الترمذي: اختلف أهل العلم في حد اللوطي، فرأى بعضهم عليه الرجم أحسن أو لم يحصن، وهذا قول مالك والشافعي وأحمد وإسحق، وقال الحسن والنخعي وعطاء وأهل الكوفة والثوري: حد اللوطي حد الزاني.

غيرهم، هذه دعوة الرسل كلهم، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: قد أقام الله الحجج والبيّنات على صدق ما جئتكم به. ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أي: لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو: نقص المكيال والميزان خفية وتدليسا، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُظَلِّمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿رَبِّزِ الْأَمْنِينَ﴾ [المطففين: ١-٦]، وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه. ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب، الذي يقال له: خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته، وجزالة مواعظه:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا نَّكَرْتُمْ وَأَنْظَرْتُمْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٦) وَإِنْ كَانَ
طَلَابِقَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِأَلَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَلَابِقَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧)

ينهاهم شعيب - عليه السلام - عن قطع الطريق الحسبي والمعنوي بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾، أي: تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم. قال السدي وغيره: كانوا عشارين. وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾، أي: تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه. والأول أظهر، لأنه قال: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾، وهي الطرق، وهذا الثاني هو قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، أي: وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة. ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا نَّكَرْتُمْ﴾، أي: كنتم مستضعفين لقتلكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك، ﴿وَأَنْظَرْتُمْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، أي: من الأمم الخالية والقرون الماضية، ما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله. وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ طَلَابِقَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِأَلَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَلَابِقَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا﴾ أي: قد اختلفتم علي، ﴿فَاصْبِرُوا﴾، أي: انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: يفصل، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي
مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَافِرِينَ﴾ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا
يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ
قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (٨٩)

هذا إخبار من الله عما واجهت به الكفار نبي الله شعيباً ومن معه من المؤمنين، في توعدهم إياه ومن معه بالنفي من القرية، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه. وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معهم على الملة. وقوله: ﴿أُولَئِكَ كَافِرِينَ﴾، يقول: أو أنتم فاعلوا ذلك ولو كنا كارهين ما تدعوننا إليه؟ فإننا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمتنا على الله الفرية في جعل الشركاء معه أنداداً، وهذا تعبير منه عن أتباعه. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾، وهذا رد إلى المشيئة، فإنه يعلم كل شيء، وقد أحاط بكل شيء علماً، ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، أي: في أمورنا ما نأتي منها

وما نذر ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾، أي: افصل بيننا وبين قومنا، وانصرنا عليهم، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاعِلِينَ﴾، أي: خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِذْكَرُ إِذَا لَخَيْرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثيمين ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا يَمُنُّونَ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يخبرُ تعالى عن شِدَّةِ كُفْرِ قَوْمِ شُعَيْبٍ وَتَمْرُدِهِمْ وَعُتُوبِهِمْ، وما هم فيه من الضلال، وما جُبِلَتْ عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أفسموا وقالوا: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِذْكَرُ إِذَا لَخَيْرُونَ﴾، فلهذا عَقَّبَ ذلك بقوله: ﴿فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثيمين ﴿٩١﴾﴾، أخبر تعالى هاهنا أنهم أخذتهم الرجفة كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة «هود» فقال: ﴿وَلَكُنَّا جَاةً أَمْرًا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جثيمين ﴿٩١﴾﴾. والمناسبة في ذلك - والله أعلم - أنهم لما تهكّموا بنبي الله شعيب في قولهم: ﴿أَمْ لَوْلَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي ءَمْرَيْنَا مَا نَشْتَوِي إِنَّكَ لَأَنْتَ الْكَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، فجاءت الصيحة أسكتهم.

وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذْتُمُ عَذَابَ يَوْمِ الظُّلُمِ إِنَّهُ كَان عَذَابٌ عَظِيمًا ﴿٨٩﴾﴾، وما ذلك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فَأَسْوَطَ طَيْنًا كِثْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الشعراء: ٤١٨٧]... الآية، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلّة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله - أصابهم عذاب يوم الظلّة، وهي سحابة أظلمتهم فيها شرّ من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزَهَقَتِ الأرواحُ، وفاضت النفوسُ، وخمدت الأجسادُ، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثيمين﴾. ثم قال تعالى: ﴿كَانَ لَمْ يَمُنُّوا فِيهَا﴾، أي: كانوا لما أصابتهم النعمة لم يُقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها. ثم قال تعالى مقابلاً لقليلهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي رَبِّي وَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَأَسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ

كافرين ﴿٩٣﴾﴾

أي: فتولى عنهم شعيب - عليه السلام - بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب، والنعمة والنكال، وقال مفرعاً لهم وموبخاً: ﴿وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي رَبِّي وَصَحْتُ لَكُمْ﴾، أي: قد أدبْتُ إليكم ما أرسلت به، فلا أسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به، ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ ءَأَسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كافرين﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسِءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاؤُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية، الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء، يعني: ﴿وَالْبَاسِءِ﴾ ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام. ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾، أي: يذعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم.

وتقدير الكلام أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا، فما فعلوا شيئاً من الذي أراد الله منهم، فقلب الحال إلى

الرخاء ليختبرهم فيه، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ لَمَسَّةً﴾، أي: حولنا الحال من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك، فما فعلوا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَا﴾، أي: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر، ﴿وَقَالُوا قَدْ مَتَّكَ ءَابَاؤُنَا الْعَرْزَةَ وَالسَّرَّاءَ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. يقول تعالى: ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا ويُنبئوا إلى الله، فما نَجَحَ فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، بل قالوا: قد مسنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء، مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر، وإنما هو الدهرُ تاراتٌ وتاراتٌ. ولم يتفطنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضراء.

[٣١٣٦] كما ثبت في الصحيحين: «عجبا للمؤمن. لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»^(١) فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من السراء والضراء.

[٣١٣٧] ولهذا جاء في الحديث: «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقيبا من ذنوبه، والمنافق مثله كمثل الحمار لا يدري فيم زبطه أهله، ولا فيم أرسلوه»^(٢)، أو كما قال. ولهذا عَقَّبَ هذه الصفة بقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: أخذناهم بالعقوبة بغتة، أي: على بغتة منهم، وعدم شعور، أي: أخذناهم فجأة.

[٣١٣٨] كما جاء في الحديث: «موت الفجأة راحة»^(٣) للمؤمن، وأخذة أسفٍ للكافر»^(٤).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَعْفَىٰ وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٥٣.

(٢) أما صدره فصحيح، أخرجه مسلم ٢٨٠٩ والترمذي ٢٨٦٦ وابن حبان ٢٩١٥. وأما عجزه، فغريب، لم أجده بهذا اللفظ، وعجز حديث مسلم المتقدم هو «ومثل المنافق مثل شجرة الأرز لا تتهتز حتى تستحصده». وانظر «الترغيب» ٤٩٨١ و ٤٩٨٢ وما بعده.

(٣) وقع في الأصل «رحمة» والتصويب من «المقاصد الحسنة» ١٢١٢ و«مسند أحمد» ١٣٦/٦.

(٤) أخرجه أحمد ١٣٦/٦ ح ٢٤٥٢١ من طريق عبيد الله بن الوليد عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن عائشة به وإسناده ضعيف جداً فيه عبد الله بن الوليد الوصافي، وهو متروك قاله الهيثمي في «المجمع» ٣١٨/٢. وأخرجه ابن الجوزي في «العلل» ١٤٩٣ من وجه آخر، وأعله بصالح بن موسى، ونقل عن يحيى قوله: ليس بشيء، واتمه ابن حبان. وورد من حديث أنس أخرجه ابن الجوزي في «العلل» ١٤٩٠ وأعله بسمعان بن مهدي، وأنه مجهول منكر الحديث.

وورد بلفظ «موت الفجأة أخذة أسف» أخرجه أبو داود ٣١١٠ عن عبيد بن خالد رفعه مرة ووقفه أخرى فهذا اضطراب يوهن الحديث، ونقل ابن الجوزي في «العلل» ٨٩٥/٢ عن الأزدي قوله: ولهذا الحديث طرق، وليس فيها صحيح عن رسول الله ﷺ ووافقه الحافظ ابن الجوزي، وهو كما قال، والله أعلم. انظر «فتح الباري» ٢٥٤/٣ - ٢٥٥.

يقول تعالى مُخْبِرًا عَنْ قَلَّةٍ إِيمَانِ أَهْلِ الْقُرَى الَّذِينَ أُرْسِلَ فِيهِمُ الرَّسُولُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَمَعْنَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَفَفْنَا عَدَابَ الْغُرَى فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾﴾ [يونس: ٩٨]، أي: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا، وذلك بعد ما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مَادْيَةَ إِلَيَّ أَوْ يَزِيدَةَ ﴿١٧٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٧ - ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴿سبأ: ٣٤﴾... الآية. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا ﴿سبأ: ٣٤﴾﴾ آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسلُ وصدقت به وأتبعته، وأتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات، ﴿فَتَحَنَّنَّا عَلَيْهِمْ بِرَحْمَتِنَا مِن السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: فطهر السماء ونبت الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي: ولكن كذبوا رسلهم، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم. ثم قال تعالى مخوفًا ومحدراً من مخالفة أوامره، والتجرؤ على زواجه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾، أي: الكافرة ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾، أي عذابنا ونكالنا، ﴿يَتِيئًا﴾، أي: ليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا سَهَاحًا وَهُمْ يَلْمِزُونَ ﴿١٧٨﴾﴾، أي: في حال شغلهم وغفلتهم، ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، أي: بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذَه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّو نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾: أو لم يتبين، وكذا قال مجاهد والسُّدِّي. وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها: يقول تعالى: أو لم يتبين للذين يستخلفون في الأرض من بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربه: ﴿أَن لَّو نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾، يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم. ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، يقول: ونختم على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، موعظة ولا تذكيراً. قلت: وهكذا قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٧٨﴾﴾ [طه: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٧٩﴾﴾ [السجدة: ٢٦]، وقال: ﴿أَوَلَمْ نَكُورُوا أَفْسَنتُمْ مِن قَبْلِ مَا لَكُم مِّن زُرَالٍ ﴿١٨٠﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴿١٨١﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤ - ٤٥]... الآية، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرُونٍ هَلْ نُحِشُّ بِتَنبِهِم مِّن أَمَلٍ أَوْ نَسَعُ لَهُمْ وَكْرًا ﴿١٨٢﴾﴾ [مریم: ٩٨]، أي: هل ترى لهم شخصاً أو نسمع لهم صوتاً.

وقال تعالى: ﴿إِن يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرُونٍ مَّا كُنْتُمْ فِي الْأَرْضِ مِمَّا تَرَىٰ تُحْرَقُونَ لَكُمُ الرِّجَاءُ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِيًا مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنفَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ۗ آخِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأنعام: ٦]، وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مُسَكِّنَاتِهِمْ كَذَلِكَ تَجْرِي الْقَوْمُ النَّاجِيِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ ولقد مكنتهم فيما إن مكنتكم فيه وجعلنا لهم سمًا وأصنارًا وأخذةً فما أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمُهُمْ وَلَا أَصْنَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّتَابِعُهَا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ ولقد آهلكنا ما حولكم من القري وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴿١٨٤﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥ - ٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا تَلَوْا مِن شَأْنٍ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ كَذَّبُوا رُسُلًا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨٥﴾﴾ [سبأ: ٤٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨٦﴾﴾ [الملك: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَكَانَ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَارِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَوْمَ تُطْمَسَخُونَ فِيهَا يُصْعِقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠]

فَكَوْنُ لَمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾
 [الحج: ٤٥ - ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا مِنْ قَبْلِكَ فَكَافَى بِاللَّيْلِ سَجْرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٧﴾ [الأنعام: ١٠]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نعمة بأعدائه، وحصول نعمة
 لأولياته. ولهذا عَقِبَ ذلك بقوله، وهو أصدق القائلين ورب العالمين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي كَفَرُوا بِهَا لَعَنَ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَهَا لَا يَتَّخِذُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْحِسَابَ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾
 ﴿وَمَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا
 أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

لما قَصَّ تعالى على نبيه - ﷺ - خَبَرَ قوم نوح، وهود وصالح، ولوط، وشعيب، وما كان من إهلاكه
 الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحُجج على السنة الرسل - صلوات الله
 عليهم أجمعين - قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي كَفَرُوا بِهَا لَعَنَ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَهَا
 لَا يَتَّخِذُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْحِسَابَ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾، أي: يا محمد ﴿مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ﴾، أي: من أخبارها،
 ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: بالحُجج على صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ
 حَتَّىٰ تَبَيَّنَ لِرَسُولِنَا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُفُصُهُمْ عَلَيْكَ وَمِنَّا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٢﴾ وَمَا
 ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠٠ - ١٠١]. وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾،
 الباء سببية، أي: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم. حكاة ابن
 عطية رحمه الله. وهو مُتَّجِهٌ حَسَنٌ، كقوله: ﴿وَمَا يُشِيرُكُمْ أَنَّهُمَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصُرَهُمْ
 كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١٠٩ - ١١٠]... الآية، ولهذا قال هنا: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ
 الْكَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ﴾، أي: لأكثر الأمم الماضية ﴿مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾، أي:
 ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال. والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم
 عليه، وأخذ عليهم في الأصحاب أنه ربهم ومليكمهم، وأنه لا إله إلا هو، وأقرؤوا بذلك، وشهدوا على أنفسهم
 به، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حُجَّةٍ، لا من عقل ولا شرع. وفي
 الفِطْرَةِ السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك، كما جاء في
 صحيح مسلم:

• [٣١٣٩] يقول الله تعالى: «إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم، وحزمت
 عليهم ما أحللت لهم»^(١).

[٣١٤٠] وفي الصحيحين: «كُلُّ مولود يُولد على الفطرة، فأبواه يهودانه ويُنصرانه ويمجسانه»^(٢)...
 الحديث، وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ
 ﴿٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ
 ﴿٢٥﴾ [الزخرف: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ﴾
 [النحل: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

(١) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١١٩.

(٢) تقدم أيضاً في تفسير سورة النساء.

وقد قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا يَتُوبُونَ يَمَّا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ﴾، ما روى أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب في قوله: ﴿فَمَا كَانُوا يَتُوبُونَ يَمَّا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: كان في علمه تعالى يوم أقرأ له بالميثاق، أي: فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك، وكذا قال الربيع بن أنس، واختاره ابن جرير. وقال السدي: ﴿فَمَا كَانُوا يَتُوبُونَ يَمَّا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ﴾، قال: ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فأمنوا كرمها. وقال مجاهد في قوله: ﴿فَمَا كَانُوا يَتُوبُونَ يَمَّا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ﴾: هذا كقولهم: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَمَادُوا﴾ [الأنعام: ٢٨]... الآية.

﴿ثُمَّ بَشَّرْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِتَائِبِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ

الْمُفْسِدِينَ ﴿١١٣﴾

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَشَّرْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، أي: الرسل المتقدم ذكرهم، كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب - صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين - ﴿ثُمَّ بَشَّرْنَا﴾، أي: بحُججنا ودلائلنا البينة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك مصر في زمان موسى، ﴿وَمَلَئِهِ﴾، أي: قومه، ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾، أي: جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً، كقوله تعالى: ﴿وَمَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، أي: الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أي: انظر - يا محمد - كيف فعلنا بهم، وأغرقتهم عن آخرهم، بمرأى من موسى وقومه. وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْفِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١١٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِتَائِبَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ

الصَّادِقِينَ ﴿١١٦﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون، وإلجائه إياه الحجة، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْفِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾﴾، أي: أرسلني الذي هو خالق كل شيء وربّه ومليكه. ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾، فقال بعضهم: معناه حقيق بالآقول على الله إلا الحق: أي جدير بذلك وحرّي به. قالوا: والباء و«على» يتعاقبان، فيقال: رميت بالقوس وعلى القوس، وجاء على حال حسنة وبحال حسنة. وقال بعض المفسرين: معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق. وقرأ آخرون من أهل المدينة ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ﴾ بمعنى واجب وحق عليّ ذلك أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من عزة جلاله وعظيم سلطانه. ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، أي: بحجة قاطعة من الله، أعطانيها الله دليلاً على صدقي فيما جئتكم به، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أي: أطلقهم من أشرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم؛ فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل، وهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن. ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِتَائِبَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، أي: قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كان معك حجة فأظهرها لنراها، إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

﴿قَالَ قَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١١٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِينَ ﴿١١٨﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿تُبَاكُّ مَيْمِنُ﴾، الحية الذكر. وكذا قال السدي، والضحاك. وفي حديث الفُتُون^(١)، من رواية يزيد بن هارون، عن الأصمغ بن زيد، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جببير، عن ابن عباس قال: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رأى فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه، ففعل. وقال قتادة: تحولت حية عظيمة مثل المدينة. وقال السدي في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ تَبَاكُّ مَيْمِنُ﴾: والثعبان الذكر من الحيات، فاتحة فاها، واضعة لحيها الأسفل في الأرض، والآخر على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها دُعر منها، ووثب وأحدث، ولم يكن يُحدث قبل ذلك، وصاح: يا موسى، خذها وأنا أؤمن بك، وأرسل معك بني إسرائيل. فأخذها موسى - عليه السلام - فعادت عصا. وروي عن عكرمة، عن ابن عباس نحو هذا. وقال وهب بن مئبته: لما دخل موسى على فرعون، قال له فرعون: أعرُفك؟ قال: نعم. قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِتْنًا وَوَلَدْنَاكَ﴾ [الشعراء: ١٨]؟ قال: فرد إليه موسى الذي ردّ. فقال فرعون: خذوه. فبادره موسى فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبین فَحَمَلَتْ عَلَى النَّاسِ فَانْهَزَمُوا مِنْهَا، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، قتل بعضهم بعضاً، وقام فرعون منهزماً حتى دخل البيت. رواه ابن جرير، والإمام أحمد في كتابه «الزهد»، وابن أبي حاتم، وفيه غرابة في سياقه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَرَجَّ يَدَيْهِ فَإِذَا هِيَ بِيَعْنَاءَ لِلنَّاطِرِينَ﴾، أي: نزع يده: أخرجها من درعه بعد ما أدخلها فيه فخرجت بيضاء تتلألاً من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بِيَعْنَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢]. الآية. وقال ابن عباس في حديث الفتون ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾، يعني من غير برص، ثم أعادها إلى كفه، فعادت إلى لونها الأول، وكذا قال مجاهد وغير واحد.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا تَأْمُرُونَ ﴿(١١٦)﴾

أي: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ وهم الجمهور والسادة ﴿مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ موافقين لقول فرعون فيه، بعدما رجع إليه روعه، واستقر على سريره مملكته بعد ذلك، قال للملأ حوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾، فوافقوه وقالوا كميلته، وتشاوروا في أمره، وماذا يصنعون في أمره، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبه وافتراءه، وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم، والذي خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَرُئِيَ فِرْعَوْنُ وَهُنَّكَ وَهَوَّاهُمْ مَا بَيْنَهُمْ مَا كَانُوا يَحَدِّثُونَ﴾ [القصص: ٦]. فلما تشاوروا في شأنه، واتمروا فيه، اتفق رأيهم على ما حكاها الله - تعالى - عنهم في قوله تعالى:

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (١١١) يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿(١١٦)﴾

قال ابن عباس: ﴿أَرْجِهْ﴾: أخره. وقال قتادة: احبسه. ﴿وَأَرْسِلْ﴾ أي: ابعث ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾، أي: في الأقاليم ومدائن ملكك، ﴿حَاشِرِينَ﴾، أي: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم. وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً، واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم، أن ما جاء به موسى - عليه السلام - من قبيل ما تُشعِبُهُ سَحَرَتَهُمْ. فلهدا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البيئات، كما

أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿أَجْنَتْنَا لِيُتَفَرِّجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا أَيْتَنَكَ بِسِحْرِ مَجَلِّهِ فَأَجْمَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ مَغْنٌ وَلَا أَنْتَ مَكَا سَوَىٰ ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَىٰ ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه: ٥٧ - ٦٠]. وقال تعالى هاهنا:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ لَمِنَ الْمَقْرِبِينَ ﴿١١٤﴾﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى - عليه السلام - إن غلبوا موسى ليُبيئهم وليُعطيهم عطاء جزيلًا. فوعدهم ومناهم أنه يُعطيهم ما أرادوا، ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده، فلما تواتقوا من فرعون لعنه الله:

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾، أي: قبلك. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَىٰ مِنَ الْقِيِّ ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ٦٥]. فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿أَلْقُوا﴾، أي: أنتم أولاً قبلي. والحكمة في هذا - والله أعلم - ليرى الناس صبيغهم ويتأملوه، فإذا فرغوا من بهرجتهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلب له وانتظار منهم لمحبيته، فيكون أوقع في النفوس. وكذا كان، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾، أي: حثلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجردة صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِمْ يَنْسَوْنَ ﴿١١٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿١١٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفَ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿١١٨﴾ وَالْقِيَّ مَا فِي يَمِينِكَ نَلَقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: ٦٦ - ٦٩]. قال سفيان بن عيينة: حدثنا أبو سعد، عن عكرمة، عن ابن عباس: ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً. قال: فأقبلت يُخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. وقال محمد بن إسحاق: صَفَّ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ سَاحِرٍ، مَعَ كُلِّ سَاحِرٍ حَبَالُهُ وَعَصِيْبُهُ، وَخَرَجَ مُوسَىٰ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَعَهُ أَخُوهُ يَتَكَيءُ عَلَىٰ عَصَاهُ، حَتَّىٰ أَتَى الْجَمْعَ، وَفِرْعَوْنُ فِي مَجْلِسِهِ مَعَهُ أَشْرَافُ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، ثُمَّ قَالَ السَّحَرَةُ: ﴿يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَىٰ مِنَ الْقِيِّ ﴿١١٥﴾﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ ﴿١١٦﴾﴾ [طه: ٦٥ - ٦٦]، فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصَرَ موسى وبَصَرَ فرعون، ثم أبصار الناس بعد. ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من العصي والحبال، فإذا حيات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً. وقال السدي: كانوا بضعةً وثلاثين ألف رجل، ليس رجلٌ منهم إلا ومعه جبلٌ وعصا، ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾، يقول: فرقومهم أي: من الفرق. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عليه، عن هشام الدستوائي، حدثنا القاسم بن أبي بزة قال: جمع فرعون سبعين ألف ساحر^(١)، فألقوا سبعين ألف جبل، وسبعين ألف عصا، حتى جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

(١) هذا رقم خيالي من مجازفات بني إسرائيل.

﴿وَأَرْحَبَنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلِيَّ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَّ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ ءَأَمَّا رَبِّ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ، الَّذِي فَرَّقَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، بِأَمْرِهِ بِأَن يَلْقَى مَا فِي يَمِينِهِ وَهِيَ عَصَاهُ، ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾، أَي: تَأْكُلُ ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾، أَي: مَا يَلْقَوْنَهُ وَيُوْهَمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ، وَهُوَ بَاطِلٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَجَعَلْتَ لَا تُثْمَرُ بِشَيْءٍ مِنْ حِبَالِهِمْ وَلَا مِنْ خُشْبِهِمْ إِلَّا التَّقَمَّتْ، فَعَرَفَتِ السَّحْرَةَ أَنَّ هَذَا أَمْرٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَيْسَ هَذَا بِسِحْرٍ، فَخَرُّوا سُجَّدًا وَقَالُوا: ﴿ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: جَعَلْتَ تَتَبَّلِعُ تِلْكَ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، حَتَّى مَا يُرَى بِالْوَادِي قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ مِمَّا أَلْقَوْا، ثُمَّ أَخَذَهَا مُوسَى فَإِذَا هِيَ عَصَا فِي يَدِهِ كَمَا كَانَتْ، وَوَقَعَ السَّحْرَةَ سُجَّدًا ﴿قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾، لَوْ كَانَ هَذَا سَاحِرًا مَا غَلِبْنَا. وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ أَبِي بَرَّةَ: أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّ أَلْقِ عَصَاكَ، فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مَبِينٌ فَاعْرَفَاهُ، يَبْتَلِعُ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَهُمْ. فَالْقَى السَّحْرَةَ عِنْدَ ذَلِكَ سُجَّدًا، فَمَا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ حَتَّى رَأَوْا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَثَوَابَ أَهْلِهَا.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَّنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَادَنْ لَكُمْ إِنْ هَذَا لَكُرٌّ لَكُمْ فَرِحْتُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنِّي ءَأَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلْفٍ ثُمَّ لِأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَٰك رَبِّنَا مُتَّعِلُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا لِنُعْجِبُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ ءَأَمَّا رَبَّنَا بِأَيِّ رَبِّ نَحْنُ ءَأَمَّا رَبَّنَا أَنفِرْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّئْنَا لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَوَعَّدَ بِهِ فِرْعَوْنَ - لَعْنَهُ اللَّهُ - السَّحْرَةَ لَمَّا آمَنُوا بِمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - وَمَا أَظْهَرَهُ لِلنَّاسِ مِنْ كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُرٌّ لَكُمْ فَرِحْتُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنِّي ءَأَهْلَهَا﴾، أَي: إِنَّ غَلِبْتَهُ لَكُمْ فِي يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّمَا كَانَ عَنْ تَشَاوُرٍ مِنْكُمْ وَرِضَاً مِنْكُمْ لِذَلِكَ، كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿إِنَّهُ لَكَيْدٌ كَرِيمٌ الَّذِي عَلَّمَكَ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، وَهُوَ يَعْلَمُ - وَكُلٌّ مِنْ لَهْ نُبِّ - أَنَّ هَذَا الَّذِي قَالَهُ مِنْ أَبْطَالِ الْبَاطِلِ، فَإِنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - بِمَجْرَدِ مَا جَاءَ مِنْ مَدِينٍ دَعَا فِرْعَوْنَ إِلَى اللَّهِ، وَأَظْهَرَ الْمَعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةَ وَالْحُجُجَ الْقَاطِعَةَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَرْسَلَ فِرْعَوْنَ فِي مَدَائِنِ مَلِكِهِ وَمُعَامَلَةِ سُلْطَنَتِهِ، فَجَمَعَ سَحْرَةَ مُتَفَرِّقِينَ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ بِيَلَادِ مِصْرَ، مِمَّنِ اخْتَارَ هُوَ وَالْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ، وَأَحْضَرَهُمْ عِنْدَهُ وَعَوَّدَهُمْ بِالْعِطَاءِ الْجَزِيلِ. وَقَدْ كَانُوا مِنْ أَحْرَصِ النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَى الظُّهُورِ فِي مَقَامِهِمْ ذَلِكَ وَالتَّقَدُّمُ عِنْدَ فِرْعَوْنَ. وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْهُمْ وَلَا رَأَى وَلَا اجْتَمَعَ بِهِ، وَفِرْعَوْنَ يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا تَسْتِرًا وَتَدْلِيْسًا عَلَى رِجَالِهِ وَجَهْلَتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فَإِنَّ قَوْمًا صَدَّقُوهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا رَبُّكُمْ الْأَحْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] مِنْ أَجْهَلِ خَلْقِ اللَّهِ وَأَضْلَمِهِ.

وَقَالَ السَّدْيِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ بِإِسْنَادِهِ الْمَشْهُورِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الصَّحَابَةِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُرٌّ لَكُمْ فَرِحْتُمْ فِي الْمَدِينَةِ﴾، قَالُوا: التَّقَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَمِيرُ السَّحْرَةِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَرَأَيْتَ إِنْ غَلِبْتَكَ أَنْتَ مِنْ بِي، وَتَشْهَدُ أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ حَقٌّ؟ قَالَ السَّاحِرُ: لِأَتَيْنَ غَدًا بِسِحْرٍ لَا يَغْلِبُهُ سِحْرٌ، فَوَاللَّهِ لَنْ غَلِبْتَنِي لِأَوْمَنْتُ بِكَ وَلَا شَهِدْتَ أَنَّكَ حَقٌّ. وَفِرْعَوْنَ يُنْظَرُ إِلَيْهِمَا، قَالُوا: فَلِهَذَا قَالَ مَا قَالَ. وَقَوْلُهُ: ﴿لِخُرُوجِهَا﴾

يَنْبَأَ أَهْلَهَا ﴿١٢٧﴾ أي: تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصوله، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ما أصنع بكم. ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأَقْبِلَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾، يعني: يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس، ﴿وَلَأَصْلَبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، أي: على الجذوع. قال ابن عباس: وكان أول من صلب، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف، فرعون، وقول السحرة: ﴿إِنَّا لَكُمْ رَبَّنَا عُقَيْبُونَ﴾، أي: قد تحققنا أنا إليه راجعون، وعذابه أشد من عذابك، ونكأه مما تدعوننا إليه اليوم ومما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْ عَيْنَنَا صَبْرًا﴾، أي: عمننا بالصبر على دينك، والثبات عليه، ﴿وَتَوَقْنَا مُسْلِمِينَ﴾، أي: متابعين لنبيك موسى عليه السلام. وقالوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْقَمْرَةَ الذَّيْبَةَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَابْتِغَى ﴿١٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ بَابِ رَبِّهِ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣٠﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ٧٢ - ٧٥]، فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء بررة. قال ابن عباس، وعبيد بن عمير، وقتادة. وابن جرير: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء.

﴿وَقَالَ الْكَلْبُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَتَقْبِلُ آيَاتَهُمْ وَتَسْتَجِيءُ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٣٢﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِيبُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ قَالُوا أَوْدِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

يخبر تعالى عما تمألا عليه فرعون وملؤه، وما أظهره لموسى - عليه السلام - وقومه من الأذى والبغضة: ﴿وَقَالَ الْكَلْبُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾، أي: لفرعون ﴿أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾، أي: أتدعهم ليفسدوا في الأرض، أي: يفسدوا أهل رعيك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك، يا لله للعجب! صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه! إلا إن فرعون وقومه هم المفسدون، ولكن لا يشعرون. ولهذا قالوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ﴾، قال بعضهم: الواو هاهنا حالية، أي: أئذره وقومه يفسدون في الأرض وقد ترك عبادتك؟ وقرأ ذلك أبي بن كعب: «وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك»، حكاه ابن جرير. وقال آخرون: هي عاطفة، أي لا تدع موسى يصنع هو وقومه من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى تزكيتهم آلهتك. وقرأ بعضهم: «إلاهتك»، أي: عبادتك، وزوي ذلك عن ابن عباس ومجاهد. وعلى القراءة الأولى قال بعضهم: كان لفرعون إله يعبد. قال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبد في السر. وقال في رواية أخرى: كان له جمانة في عنقه معلقة يسجد لها. وقال السدي في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ﴾: وآلهته - فيما زعم ابن عباس - كانت البقر، كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها، فلذلك أخرج لهم السامري عجلاً جسداً له خوار. فأجابهم فرعون فيما سأله بقوله: ﴿سَتَقْبِلُ آيَاتَهُمْ وَتَسْتَجِيءُ نِسَاءَهُمْ﴾، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع، وقد كان تكلم بهم قبل ولادة موسى - عليه السلام - حذراً من وجوده، فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون. وهكذا عومل في صنيعه أيضاً، إنما أراد قهر بني إسرائيل وإذلالهم، فجاء الأمر على خلاف ما أراد، نصرهم الله عليه وأذله، وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده. ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل، ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِيبُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾، ووعدهم بالعاقبة، وأن الدار ستصير لهم في قوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ

يَسْأَلُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْمَنْفِيَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٠﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، أَي: قد جرى علينا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قَبْلِ ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك . فقال مِنْهَا لَهُمْ عَلَى حَالِهِمْ الْحَاضِرَةُ وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ فِي ثَانِي الْحَالِ : ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذُّكُمْ﴾ . . . الآية ، وهذا تَخْفِيفٌ لَهُمْ عَلَى الْعَزْمِ عَلَى الشُّكْرِ عِنْدَ حُلُولِ النِّعَمِ وَزَوَالِ النِّقَمِ .

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْسِّنِينَ وَنَقَّصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣١﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ۗ آلَآ إِنَّمَا طَلَيْهِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ ، أَي: اختبرناهم وامتحانهم وابتليناهم ﴿بِالسِّنِينَ﴾ ، وهي سني الجوع بسبب قلة الزروع ، ﴿وَنَقَّصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ ، قال مجاهد : وهو دون ذلك . وقال أبو إسحاق ، عن رجاء بن خيرة : كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة . ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣١﴾﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ ، أَي: من الخصب والرزق ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ ، أَي هذا لنا بما نستحقه ، ﴿وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ﴾ ، أَي: جَذِبَتْ وَقْضَتْ ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ ، أَي: هذا بسببهم وما جاؤوا به . ﴿آلَآ إِنَّمَا طَلَيْهِمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ، قال علي ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿آلَآ إِنَّمَا طَلَيْهِمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يقول : مصابهم عند الله ، قال : ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . وقال ابن جرير ، عن ابن عباس قال : ﴿آلَآ إِنَّمَا طَلَيْهِمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال : أَي من قَبْلِ الله .

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَاتِهِ لِنَسْرِحْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٣﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ ۗ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٤﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يُحْمَسِيُّ آدُعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهَدْتَ عِنْدَكَ لِيُنزِلَ عَلَيْنَا الرِّجْزَ إِنَّا نَحْنُ الْمُغْلَبُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

هذا إخبارٌ من الله - عز وجل - عن تَمَرُدِ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَعُتُوهِمْ ، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل في قولهم : ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَاتِهِ لِنَسْرِحْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ، يقولون : أي آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها زدناها فلا نقبلها منك ، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به ، قال الله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ . اختلفوا في معناه ، فعن ابن عباس في رواية : كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والشمار . وبه قال الضحاك بن مزاحم . وقال ابن عباس في رواية أخرى : هو كثرة الموت ، وكذا قال عطاء . وقال مجاهد : ﴿الطُّوفَانَ﴾ : الماء ، والطاعون على كل حال .

[٣١٤١] وقال ابن جرير : حدثنا أبو هشام الرفاعي ، حدثنا يحيى بن يمان ، حدثنا المنهال بن خليفة ، عن الحجاج ، عن الحكم بن مينا ، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : «الطوفان الموت»^(١) . وكذا رواه ابن مَرْدُويه ، من حديث يحيى بن يمان ، به . وهو حديث غريب . وقال ابن عباس في

(١) وإه بمره . أخرجه الطبري ١٥٠٠٥ و ١٥٠٠٩ وإسناده ساقط ، ابن يمان وشيخه وشيخه ثلاثتهم ضعفاء ، والصحيح كونه من كلام مجاهد ، كذا أخرجه الطبري عنه من طرق .

رواية أخرى: هو أمرٌ من الله طافَ بهم، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا طَغَى طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَنُزِّلَتْ سَحَابٌ مِّن سَمَاءٍ﴾ [القلم: ١٩]. وأما الجرادُ فمعروفٌ مشهورٌ، وهو مأكولٌ، لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفور قال:

[٣١٤٢] سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد، فقال: «غزونا مع رسول الله - ﷺ - سبع غزوات نأكل الجراد»^(١).

[٣١٤٣] وروى الشافعي، وأحمد بن حنبل، وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي - ﷺ - قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوتُ والجرادُ، والكبدُ والطحالُ»^(٢). ورواه أبو القاسم البَغَوِيُّ، عن داود بن رُشيد، عن سُوَيْد بن عبد العزيز، عن أبي تمام الأيلي، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر أن عمر مرفوعاً، مثله.

[٣١٤٤] وروى أبو داود عن محمد بن الفرَج، عن محمد بن الزبيرِ القان الأهوازي، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: سُئِلَ رسول الله - ﷺ - عن الجراد فقال: «أكثر جنود الله، لا آكله، ولا أحرّمه»^(٣). وإنما تركه - عليه السلام - لأنه كان يعافه، كما عافت نفسه الشريفة أكل الضبِّ، وأذن فيه.

[٣١٤٥] وقد روى الحافظ ابن عساكر في جزء جمعه في الجراد، من حديث أبي سعيد الحسن بن علي العدوي: حدثنا نصر بن يحيى بن سعيد، حدثنا يحيى بن خالد، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: كان رسول الله - ﷺ - لا يأكل الجرادَ، ولا الكُلُوتين، ولا الضبِّ، من غير أن يُحرّمها. أما الجرادُ فرجز وعذاب، وأما الكُلُوتان فلقربهما من البول، وأما الضبُّ فقال: «أتخوف أن يكون مسخاً»^(٤)؛ ثم قال: غريب، لم أكتبه إلا من هذا الوجه. وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشتهي ويحبه، فروى عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن عمر سئل عن الجراد فقال: ليت أن عندنا منه قفعة أو قفعتين نأكله.

[٣١٤٦] وروى ابن ماجه: حدثنا أحمد بن مَنِيع، عن سفيان بن عُيينة، عن أبي سعد سعيد بن المرزبان البقال، سَمِعَ أَنَسَ بن مالك يقول: كان أزواجُ النبي - ﷺ - يتهاذبن الجرادَ على الأطباق^(٥).

[٣١٤٧] وقال أبو القاسم البَغَوِيُّ: حدثنا داود بن رُشيد، حدثنا بقية بن الوليد، عن ثُمَيْر بن يزيد القينبي، حدثني أبي، عن صُدِّي بن عَجَلان، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن مريم بنت

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٤٩٥ ومسلم ١٩٥٢ وأبو داود ٣٨١٢ والترمذي ١٨٢٢ والنسائي ٢١٠/٧ وأحمد ٣٥٧/٤ وابن حبان ٥٢٥٧ والبيهقي ٢٥٧/٩.

(٢) تقدم في سورة البقرة. آية: ١٧٣. المرفوع ضعيف، وصح موقوفاً، وله حكم الرفع.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٨١٣ وقال بإثراء: رواه المعتز عن أبيه عن أبي عثمان عن النبي ﷺ لم يذكر سلمان اه وهو أصح من الموصول، وانظر ضعيف أبي داود ٨١٩.

(٤) لا أصل له، في إسناده يحيى بن خالد مجهول كما في الميزان ٩٤٩٣ وفيه الحسن بن علي العدوي قال ابن عدي: يضع الحديث، حدث عن جماعة لا يدري من هم، وحدث عن الثقات بالبواطيل. راجع الميزان ١٩٠٤ وقال الدارقطني: متروك. وكذب الحسن بن علي البصري اه والمتن غريب وأمانة الوضع لافحة عليه. والله أعلم.

(٥) ضعيف. أخرجه ابن ماجه ٣٢٢٠ والبيهقي ٢٥٨/٩ من حديث أنس. قال البوصيري في «الزوائد»: سعيد بن المرزبان ضعيف. وجاء في «الميزان» ٣٢٧١: تركه الفلاس، وقال ابن معين: لا يكتب حديثه. وقال أبو زرعة: صدوق مدلس. وقال البخاري: منكر الحديث.

عمران - عليها السلام - سألت ربها - عز وجل - أن يطعمها لحماً لا دم له، فأطعمها الجراد، فقالت: اللهم أعشه بغير رَضَاع، وتابع بيته بغير شِيَاع وقال نُعْمير: «الشِّيَاع»، الصوت^(١).

[٣١٤٨] وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا أبو تقيّ هشام بن عبد الملك التيزني، حدثنا بقية بن الوليد، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضمضم بن زُرْعَةَ، عن شُرَيْح بن عُبَيْد، عن أبي زُهَيْر التُّمَيْرِي قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تقاتلوا الجراد، فإنه جندُ الله الأعظم»^(٢). غريب جداً. وقد قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، في قوله تعالى: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الْطُوفَانَ وَالْجُرَادَ»، قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم، وتدع الخشب. وروى ابن عساكر من حديث علي بن زيد الخرائطي، عن محمد بن كثير، سمعت الأوزاعي يقول: خرجت إلى الصحراء، فإذا أنا برجل من جراد في السماء، وإذا برجل راكب على جراد منها، وهو شاك في الحديد، وكلما قال بيده هكذا مال الجراد مع يده، وهو يقول: الدنيا باطل باطل ما فيها، الدنيا باطل باطل ما فيها، الدنيا باطل باطل ما فيها. وروى الحافظ أبو الفرج المعافى ابن زكريا الجريري، حدثنا محمد بن الحسن بن زياد، حدثنا أحمد بن عبد الرحيم، أخبرنا وكيع، عن الأعمش، أنبأنا عامر قال: سئل شُرَيْح القاضي عن الجراد، فقال: قَتِحَ الله الجراد. فيها خلقة سبعة جبابرة: رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وصدورها صدر أسد، وجناحها جناح نسر، ورجلاها رجلا جمل، وذنبها ذنب حية. ويطننها بطن عقرب. وقد قدمنا عند قوله تعالى: «أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدٌ الْبَعْرِ وَطَعَامُهُم مِّنَّا لَكُمْ وَلِلنَّيَّاتِ»^(٣) [المائدة: ٩٦]، حديث حماد بن سلمة، عن أبي المُهَزَّم، عن أبي مُزَيْرَةَ قال:

[٣١٤٩] خرجنا مع رسول الله - ﷺ - في حج أو عمرة، فاستقبلنا رجلُ جراد، فجعلنا نضربه بالعصي، ونحن محرمون، فسألنا رسول الله - ﷺ - فقال: «لا بأس بصيّد البحر».

[٣١٥٠] وروى ابن ماجه، عن هارون الحمّال، عن هاشم بن القاسم، عن زياد بن عبد الله بن عُلَاثَةَ، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أنس وجابر، عن رسول الله - ﷺ -: أنه كان إذا دعا على الجراد قال: «اللهم أهلك كبارَه، واقتل صغاره، وأفسد ببيضَه، واقطع دابره»، وخذ بأفواهه عن معاشنا وأرزاقنا، إنك سميع الدعاء». فقال له جابر: يا رسول الله، أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال:

(١) وبهذا الإسناد أخرجه البيهقي ٢٥٨/ وفي إسناده نمير بن يزيد القيني، وهو مجهول قال الذهبي في «الميزان» ٩١٢٢: قال الأزدي: ليس بشيء. قال الذهبي: تفرد عنه بقية اه أي مجهول أيضاً. فالخبر واه. وهو عند الطبراني ٧٦٣١ وقال الهيثمي في «المجمع» ٦٠٧٥: فيه بقية ثقة لكنه مدلس. ويزيد القيني، لم أعرفه. وبقية رجاله ثقات اه.

(٢) منكر. أخرجه الطبراني ٢٢/٢٩٧ وفي «مسند الشاميين» ١٦٥٦ والأوسط ١٥٩ «مجمع البحرين» من طريقين عن إسماعيل بن عياش به، وأعله الهيثمي في «المجمع» ٣٩/٤ (٦٠٧٣) بمحمد بن إسماعيل بن عياش، وقال: ضعيف اه. لكن ليس في «الكبير» محمد بن إسماعيل، وإنما فيه سليمان بن عبد الرحمن، وتابعهما بقية عند أبي بكر بن أبي داود، لكن مداره على إسماعيل بن عياش، وقد وثقه قوم، وضعفه آخرون. وله علة ثانية شريح بن عبيد ثقة إلا أنه كثير الإرسال، ولم يصرح بالتحديث، وقد روى عن جماعة من الصحابة ولم يدرکہم، والمتن منكر. فإن الجراد إذا جاء بكميات كبيرة وأكل الزرع تجب مقاومته، والقضاء عليه بكافة الوسائل والمبيدات، ومن تركه مع قدرته على القضاء عليه حال أكل الزرع، يكون مبذراً يهدر ماله وأموال المسلمين، وبهذا يتبين وهم الألباني إذ حسنه، ووافقته تلميذه السلفي في تخريمه للمعجم الكبير ومسند الشاميين، والظاهر أنهما لم ينظرا إلى المتن وما يحتويه من معنى مخالف لأحكام الشريعة. والله تعالى أعلم.

(٣) تقدم الحديث الآتي أثناء تفسيرها، وهو ضعيف..

إنما هو نثرة حوت في البحر. قال هاشم: أخبرني زياد أنه أخبره من رآه ينثره الحوت^(١). قال: من حقق ذلك أن السمك إذا باض في ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدا للشمس، أنه يفقس كله جراداً طياراً.

[٣١٥١] وَقَدَّمْنَا عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أُمَّةً أَمَّاكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]^(٢). حديث عُمَرُ - رضي الله عنه -: «إن الله خَلَقَ أَلْفَ أُمَّةٍ، سَمَتَهُ فِي الْبَحْرِ وَأَرْبَعَمِئَةَ فِي الْبَرِّ، وَإِنْ أَوْلَاهَا هَلَاكًا الْجَرَادُ».

[٣١٥٢] وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي دَاوُدَ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ الْمُبَارَكِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ قَيْسٍ، حَدَّثَنَا سَالِمُ بْنُ سَالِمٍ، حَدَّثَنَا أَبُو الْمَغْيِرَةِ الْجَوْزْجَانِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ مَالِكٍ، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «لَا وَبَاءَ مَعَ السَّيْفِ، وَلَا نَجَاءَ مَعَ الْجَرَادِ»^(٣). حديث غريب.

وَأَمَّا «الْقُمَّلُ» فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ السُّوسُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْجِحْطَةِ. وَعَنْهُ أَنَّهُ الدَّبِيُّ - وَهُوَ الْجَرَادُ الصَّغِيرُ الَّذِي لَا أَجْنِحَةَ لَهُ. وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعُكْرَمَةٌ، وَقَتَادَةُ. وَعَنْ الْحَسَنِ وَسَعِيدِ بْنِ جَبْرِ: الْقُمَّلُ، دَوَابُّ سَوْدٍ صَغِيرَةٌ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: الْقُمَّلُ، الْبِرَاغِيثُ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: الْقُمَّلُ: جَمْعٌ وَاحِدَتُهَا «قُمَّلَةٌ»، وَهِيَ ذَابَّةٌ تَشْبهُ الْقُمَّلَ، تَأْكُلُهَا الْإِبِلُ فِيمَا بَلَّغْنِي، وَهِيَ الَّتِي عَنَّا الْأَعْشَى بِقَوْلِهِ:

قَوْمٌ تُعَالِجُ قُمَّلًا أَبْنَاءَهُمْ
وَسَلَّاسَلًا أَجْدًا وَيَابَأَ مُؤَصَّدًا

قال: وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القُمَّل عند العرب «الحَمَنان»، وواحدتها «حَمَنانة»، وهي صغار القِرْزَدَانِ فَوْقَ الْقُمَّمَاتَةِ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ الرَّازِيُّ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ الْقُمِّيُّ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي الْمَغْيِرَةِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ قَالَ: لَمَّا أَتَى مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِرْعَوْنَ قَالَ لَهُ: أَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ - وَهُوَ الْمَطَرُ - فَصَبَّ عَلَيْهِمْ مِنْهُ شَيْئًا، خَافُوا أَنْ يَكُونَ عَذَابًا، فَقَالُوا لِمُوسَى: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَكْشِفُ عَنَّا الْمَطَرَ فَنُؤْمِنُ لَكَ، وَنُرْسِلُ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَدَعَا رَبَّهُ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا، وَلَمْ يَرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَنْبَتَ لَهُمْ فِي تِلْكَ السَّنَةِ شَيْئًا لَمْ يُنَبِّئْهُ قَبْلَ ذَلِكَ مِنَ الزَّرْعِ وَالشَّمْرِ وَالْكَلَأِ. فَقَالُوا: هَذَا مَا كُنَّا نَتَمَنَّى! فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَرَادَ، فَسَلَطَهُ عَلَى الْكَلَأِ، فَلَمَّا رَأَوْا أَثَرَهُ فِي الْكَلَأِ عَرَفُوا أَنَّهُ لَا يُبْقِي الزَّرْعَ، فَقَالُوا: يَا مُوسَى، ادْعُ لَنَا رَبَّكَ لِيَكْشِفَ عَنَّا الْجَرَادَ فَنُؤْمِنُ لَكَ، وَنُرْسِلُ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَدَعَا رَبَّهُ، فَكَشَفَ عَنْهُمْ الْجَرَادَ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا، وَلَمْ يَرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَدَاسُوا وَأَحْرَزُوا فِي الْبُيُوتِ، فَقَالُوا: قَدْ أَحْرَزْنَا. فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقُمَّلَ - وَهُوَ السُّوسُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ - فَكَانَ الرَّجُلُ يَخْرُجُ عَشْرَةَ أَجْرِيَةِ إِلَى الرَّحَى، فَلَا يَرِدُ مِنْهَا ثَلَاثَةٌ أَقْفَزَةٌ. فَقَالُوا لِمُوسَى: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَكْشِفُ عَنَّا الْقُمَّلَ، فَنُؤْمِنُ لَكَ، وَنُرْسِلُ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَدَعَا رَبَّهُ، فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يَرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَبَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ عِنْدَ فِرْعَوْنَ إِذْ سَمِعَ نَقِيْقَ ضَفْدَعٍ، فَقَالَ لِفِرْعَوْنَ: مَا تَلْقَى أَنْتَ وَقَوْمُكَ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ كَيْدٌ هَذَا؟ فَمَا أَمْسُوا حَتَّى كَانَ الرَّجُلُ يَجْلِسُ إِلَى ذُقْنِهِ فِي الضَّفَادِعِ، وَيَهْمُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فَتُصَبُّ الضَّفْدَعُ فِي فِيهِ. فَقَالُوا لِمُوسَى: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَكْشِفُ عَنَّا هَذِهِ الضَّفَادِعَ، فَنُؤْمِنُ لَكَ، وَنُرْسِلُ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَدَعَا رَبَّهُ، فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الدَّمَ، فَكَانَ مَا اسْتَقْوَا مِنَ الْأَنْهَارِ وَالْأَبَارِ، وَمَا كَانَ فِي أَوْعِيَّتِهِمْ، وَجَدُوهُ دَمًا عَبِيْطًا، فَشَكُّوا إِلَى فِرْعَوْنَ فَقَالُوا: إِنَّا قَدْ ابْتَلَيْنَا بِالْدَمِ، وَلَيْسَ لَنَا شَرَابٌ فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ سَحَرَكُمُ! فَقَالُوا: مِنْ أَيْنَ سَحَرْنَا، وَنَحْنُ لَا نَجِدُ فِي أَوْعِيَّتِنَا شَيْئًا مِنَ الْمَاءِ إِلَّا وَجَدْنَاهُ دَمًا

(١) إلى هنا لفظ ابن ماجه ٣٢٢١ فعمل الزيادة التي ذكرها المصنف من كتب أخرى أو سقطت من نسخ ابن ماجه المطبوعة، وبكل حال إسناده ضعيف جداً وتقدم تحريمه.

(٢) تقدم الحديث أثناء تفسيرها، وهو خبر باطل.

(٣) إسناده ضعيف جداً، محمد بن مالك، ذكره الذهبي في «الميزان» ٨١٠٨ وقال: قال أبو حاتم بن حبان: لا يحتج به انه وعنه سالم بن سالم لم أجده من ترجمه، وعنه عبد الرحمن بن قيس متروك، فالخبر واه.

عبيطاً^(١)؟ فاتوه وقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل. وقد روي نحو هذا عن ابن عباس، والسدي، وقتادة، وغير واحد من علماء السلف أنه أخبر بذلك. وقال محمد بن إسحاق بن يسار - رحمه الله -: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر، والتماذي في الشر، فتابع الله عليه الآيات، وأخذ بالسنين، فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات. فأرسل الطوفان - وهو الماء - ففاض على وجه الأرض ثم ركد، لا يقدر على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئاً، حتى جهدوا جوعاً، فلما بلغهم ذلك ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرِيَنَّكَ مَلَكًا يَخْرُجُ مِنِّي إِسْرَءِيلَ﴾، فدعا موسى ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر، فيما بلغني، حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد، حتى تقَع دورهم ومسكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا. فأرسل الله عليهم القمل، فذكر لي أن موسى - عليه السلام - أمر أن يمشي إلى كتيب حتى يضربه بعصاه، فمشى إلى كتيب أهيل عظيم، فضربه بها، فانتأل عليهم قملًا، حتى غلب على البيوت والأطعمة، ومنعهم النوم والقرآن فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا. فأرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع، قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا، فسأل ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا. فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون دماً، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء، إلا عاد دماً عبيطاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزي، أنبأنا النضر، أنبأنا إسرائيل، أنبأنا جابر بن يزيد، عن عكرمة، قال عبد الله بن عمرو: لا تقتلوا الضفادع، فإنها لما أرسلت على بني إسرائيل انطلق صفدع منها، فوقع في تنور فيه نار، يطلب بذلك مرضاة الله. فأبدلهن الله أبرد شيء نعلمه من الماء، وجعل نقيقهن التسبيح. وروي من طريق عكرمة، عن ابن عباس، نحوه. وقال زيد بن أسلم: يعني بالدم: الرعاف. رواه ابن أبي حاتم.

﴿فَأَنفَعْنَا مِنْهُمُ فَأَعْرَفْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ مَشْرِكَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا أَلَىٰ بَدْرِكُنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة، انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم، وهو البحر الذي فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم وزده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها. وأخبر تعالى أنه أورت ﴿الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿مَشْرِكَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّهُ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَمُّوا فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلُهُمْ أُيُوتًا وَيَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَتُنَكِّنَ لَمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّي فِرْعَوْنَ وَهَنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٥ - ٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَرَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعَيْبُونَ ﴿٧٥﴾ وَذُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَتَمَّوْا كَانُوا فِيهَا نَكَيِبِينَ ﴿٧٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٧٨﴾﴾

[الدخان: ٢٥ - ٢٨]. وعن الحسن البصري وقتادة، في قوله: ﴿مَشْكُورَ الْأَرْضِ وَمَكْرِيهَا أَلَىٰ بَدْرِكُنَا فِيهَا﴾، يعني: الشام. وقوله: ﴿وَوَكَّمْتُ كَلِمَتَ رَبِّكَ الْحُسْنَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾، قال مجاهد وابن جرير: وهي قوله تعالى: ﴿وَرَبُّدُ أَنْ تَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتَضَيْعُوا فِي الْأَرْضِ وَجَمَلْتُمْ أَيْمَنَهُمْ وَجَعَلْتُمُ الْوَارِثِينَ ﴿١٣٨﴾ وَتَكُنَّ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ نُورًا وَنُورَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمِرَانَ وَجُوذُومًا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿١٣٩﴾﴾. وقوله: ﴿وَدَدَّمْرَنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾، أي: وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع، ﴿وَمَا كَانُوا يَمْرِشُونَ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: ﴿يَمْرِشُونَ﴾: يبنون.

﴿وَجَوَوزَنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَانَا عَلَىٰ قَوْمٍ يَمْكُونُ عَلَىٰ أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَذِهِ أَمْثَلُ مَا هُمْ فِيهِ وَيَطِلُّ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا، ﴿فَأَتَانَا﴾، أي: فمروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَمْكُونُ عَلَىٰ أَصْنَانٍ لَهُمْ﴾، قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين. وقيل: كانوا من لخم. قال ابن جرير: وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر. فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾. أي: تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن يُنزه عنه من الشريك والمثيل. ﴿إِنَّ هَذِهِ أَمْثَلُ مَا هُمْ فِيهِ﴾، أي: هالك ﴿وَيَطِلُّ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾.

[٣١٥٣] وروى الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسير هذه الآية من حديث محمد بن إسحاق وعقيل ومعمار كلهم، عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان، عن أبي واقد الليثي: أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله - ﷺ - إلى حنين، قال: وكان للكفار سِدْرَةٌ يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال: «قلتم، والذي نفسي بيده، كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَذِهِ أَمْثَلُ مَا هُمْ فِيهِ وَيَطِلُّ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾»^(١).

[٣١٥٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان الدبلي، عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله - ﷺ - قبل حنين، فمررنا بسدرة، فقلت: يا نبي الله، اجعل لنا هذه ذات أنواط، كما للكفار ذات أنواط. وكان الكفار ينطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولهم. فقال النبي - ﷺ - : «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ إنكم تركبون سنن من قبلكم»^(٢). ورواه ابن أبي حاتم، من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه، عن جده، مرفوعاً.

(١) صحيح. أخرجه الطبري ١٥٠٦٥ من طريق معمر و١٥٠٦٧ من طريق محمد بن إسحاق و١٥٠٦٨ من طريق عقيل عن الزهري به؛ وإسناده على شرط الصحيح. وانظر ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٢١٨٠ والنسائي في «الكبرى» ١١١٨٥ وابن أبي شيبة ١٠١/١٥ وأحمد ٢١٨/٥ وأبو يعلى ١٤٤١ وابن حبان ٦٧٠٢ والبيهقي في «التفسير» ٩٣٩ وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وهو على شرط البخاري ومسلم.

﴿ قَالَ أَعْبَدَ اللَّهَ أُنْبِيَاكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴿١٤١﴾ وَإِذْ أَمَجْنَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يُسْؤُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ
عَظِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾

يُذَكِّرُهُمْ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، مِنْ إِنْقَاذِهِمْ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ، وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنْ
الْهَوَانِ وَالذَّلَّةِ، وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعِزَّةِ وَالْإِسْتِفَاءِ مِنْ عَدُوِّهِمْ وَالنَّظَرِ إِلَيْهِ فِي حَالِ هَوَانِهِ وَهَلَاكِهِ، وَغَرَقِهِ
وَدِمَارِهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي الْبَقْرَةِ.

﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمَ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَتَمَّ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ
هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مِمَّنَّا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْهَدَايَةِ، بِتَكْلِيمِهِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَإِعْطَانِهِ
التَّوْرَةَ وَفِيهَا أَحْكَامُهُمْ وَتَفَاصِيلُ شَرْعِهِمْ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ وَاعَدَ مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً. قَالَ الْمَفْسُرُونَ: فَصَّامُهَا
مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَطَوَّأَهَا فَلَمَّا تَمَّ الْمِيقَاتُ اسْتَأْذَنَ بِلِحَاءِ شَجَرَةٍ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَكْمَلَ بِعَشْرِ أَرْبَعِينَ.
وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمَفْسُرُونَ فِي هَذِهِ الْعَشْرِ مَا هِيَ؟ فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الثَّلَاثِينَ هِيَ ذُو الْقَعْدَةِ، وَالْعَشْرُ عَشْرُ ذِي
الْحِجَّةِ. قَالَه مُجَاهِدٌ، وَمَسْرُوقٌ، وَابْنُ جَرِيرٍ. وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. فَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَدْ كَمَلَ الْمِيقَاتُ يَوْمَ
النَّحْرِ، وَحَصَلَ فِيهِ التَّكْلِيمُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِيهِ أَكْمَلَ اللَّهُ الدِّينَ لِمُحَمَّدٍ - ﷺ - كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلْيَوْمَ
أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. فَلَمَّا تَمَّ الْمِيقَاتُ عَزَمَ مُوسَى عَلَى
الذَّهَابِ إِلَى الطُّورِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ قَدْ أَمَجْنَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ [طه:
٨٠]. . . الآية، فَحِينَئِذٍ اسْتَخْلَفَ مُوسَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَاهُ هَارُونَ، وَأَوْصَاهُ بِالْإِصْلَاحِ وَعَدَمِ الْإِفْسَادِ،
وَهَذَا تَنْبِيهُ وَتَذَكِيرٌ، وَإِلَّا فَهَارُونَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - نَبِيٌّ شَرِيفٌ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَلَهُ وَجَاهَةٌ وَجَلَالَةٌ، صَلَوَاتُ اللَّهِ
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ.

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ
اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِنِي فَلَمَّا كَجَلَّ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَبَقًا فَلَمَّا آفَقَ قَالَ
سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ لَمَّا جَاءَهُ لِمِيقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَحَصَلَ لَهُ التَّكْلِيمُ مِنْ اللَّهِ، سَأَلَ
اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِنِي ﴾. وَقَدْ أَشْكَلَ حَرْفُ «لَنْ» هَاهُنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ
الْعُلَمَاءِ، لِأَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ لِنَفْيِ التَّأْيِيدِ، فَاسْتَدَلَّ بِهِ الْمَعْتَزِلَةُ عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَهَذَا أَوْضَعُفُ
الْأَقْوَالِ، لِأَنَّهُ قَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ اللَّهَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، كَمَا
سَنُورُهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ رُؤْيُوهُ يَوْمَئِذٍ نُظُرٌ ﴾ [١٦] لَكَ رَبِّهَا نَاطِقَةٌ ﴿١٤٤﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ
الْكَفَّارِ: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴾ [المطففين: ١٥]. وَقِيلَ: إِنَّهَا لِنَفْيِ التَّأْيِيدِ فِي الدُّنْيَا، جَمْعًا بَيْنَ
هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ الدَّلِيلِ الْقَاطِعِ عَلَى صِحَّةِ الرُّؤْيَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ فِي هَذَا الْمَقَامِ كَالْكَلامِ
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَا تَذَرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وَقَدْ تَقَدَّمَ

ذلك في الأنعام. وفي الكتب المتقدمة، أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام - : «يا موسى، إنه لا يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده»، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ .

[٣١٥٥] قال أبو جعفر ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: حدثنا أحمد بن سهيل الواسطي، حدثنا قرة بن عيسى، حدثنا الأعمش، عن رجل، عن أنس، عن النبي - ﷺ - قال: «لما تجلَّى ربه للجبل أشار بإصبعه، فجعله دكاً». وأرانا أبو إسماعيل بإصبعه السبابة^(١). هذا الإسناد فيه رجل مبهم لم يسم.

[٣١٥٦] ثم قال: حدثني المثنى، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد، عن ليث، عن أنس: أن النبي - ﷺ - قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، قال: هكذا بإصبعه ووضع النبي - ﷺ - إصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل. هكذا وقع في هذه الرواية: حماد بن سلمة، عن ليث^(٢)، عن أنس، والمشهور: حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس.

[٣١٥٧] كما قال ابن جرير أيضاً: حدثني المثنى، حدثنا هذبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قرأ رسول الله - ﷺ - : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، قال: وضع الإبهام قريباً من طرف خنصره، قال: فساخ الجبل. قال حميد لثابت: تقول هذا؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد، وقال: يقوله رسول الله - ﷺ - ويقوله أنس، وأنا أكتمه؟^(٣).

[٣١٥٨] وهكذا رواه الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو المثنى معاذ بن معاذ العنبري، حدثنا حماد ابن سلمة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك، عن النبي - ﷺ - في قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾، قال: قال هكذا - يعني أنه أخرج طرف الخنصر - قال أحمد: أرانا معاذ، فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدره ضربة شديدة وقال: من أنت يا حميد؟! وما أنت يا حميد؟! يحدثني به أنس بن مالك عن النبي - ﷺ - فتقول أنت ما تريد إليه؟!^(٤) وهكذا رواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن عبد الوهاب بن الحكم الوراق، عن معاذ بن معاذ، به. وعن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن سليمان بن حرب، عن حماد، به، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث حماد. وكذا رواه الحاكم في مستدركه من طرق، عن حماد بن سلمة، به. وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ورواه أبو محمد الحسن بن محمد الخلال، عن محمد بن علي ابن سويد، عن أبي القاسم البغوي،

(١) أخرجه الطبري ١٥٠٩٦، وإسناده ضعيف فيه رجل لم يسم، لكن توبع.

(٢) ليس في تفسير الطبري ١٥٠٩٧ ذكر ليث، والظاهر أنه فقط في النسخة التي وقعت لابن كثير رحمه الله. والإسناد الآتي هو الصواب.

(٣) أخرجه الطبري ١٥٠٩٨ ورجاله ثقات، وانظر ما بعده.

(٤) أخرجه أحمد ١٢٥/٣ والترمذي ٣٠٧٤ والحاكم ٣٢٠/٢ وابن عدي في «الكامل» ٢٦٠/٢ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١٠/١٢٢ من طريقين عن حماد بن سلمة به، وهذا إسناد ظاهره الصحة، رجاله رجال مسلم، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن غريب صحيح. وأعله ابن عدي، وعده من غرائب حماد بن سلمة، وأنه مما دُرس في كتبه. وقال ابن الجوزي: لا يثبت. قال الحافظ ابن عدي: كان ابن أبي العرجاء ربيب حماد بن سلمة، فكان يدس في كتبه هذه الأحاديث اهـ. وقد ذكره الألباني في صحيح الترمذي ٢٤٥٨. والذي أراه أنه معلول، لكن لا يتهيأ للحكم عليه بالوضع.

عن هدية بن خالد، عن حماد بن سلمة، فذكره، وقال: هذا إسناد صحيح لا علة فيه. وقد رواه داود بن المحبر، عن شعبة، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً. وهذا ليس بشيء، لأن داود بن المحبر كذاب. ورواه الحافظان أبو القاسم الطبراني وأبو بكر بن مَرْدُويه من طريقين، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً بنحوه، وأسنده ابن مردويه من طريق ابن البيلماني، عن أبيه، عن ابن عمر مرفوعاً^(١)، ولا يصح أيضاً. وقال السدي، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾، قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر - ﴿جَمَلَكُمْ دَكًّا﴾، قال: تراباً ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَوْغًا﴾، قال: مغشياً عليه. رواه ابن جرير. وقال قتادة: ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَوْغًا﴾، قال: مَيْتًا. وقال سفيان الثوري: سأخ الجبل في الأرض، حتى وقع في البحر فهو يذهب معه. وقال سنيدي، عن حجاج بن محمد الأعمور، عن أبي بكر الهذلي: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَمَلَكُمْ دَكًّا﴾، انقمر فدخل تحت الأرض، فلا يظهر إلى يوم القيامة. وجاء في بعض الأخبار أنه سأخ في الأرض، فهو يهوي فيها إلى يوم القيامة، رواه ابن مَرْدُويه.

[٣١٥٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شَبَّة، حدثنا محمد بن يحيى أبو غسان الكنعاني، حدثنا عبد العزيز بن عمران، عن معاوية بن عبد الله، عن الجلد بن أيوب، عن معاوية بن قُرَّة، عن أنس بن مالك: أن النبي - ﷺ - قال: «لما تجلى الله للجبال طارت لعظمته ستة أجبل، فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة، بالمدينة: أحد، وورقان، ورضوى. ووقع بمكة: حراء، وثبير، وثور»^(٢). وهذا حديث غريب، بل منكر. قال ابن أبي حاتم: ذكر عن محمد بن عبد الله بن أبي الثلج، حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا عثمان بن حصين بن عَلاق، عن عروة بن رُويم قال: كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى على الطور صُماً مُلساً، فلما تجلى الله لموسى على الطور دُك، وتفطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف. وقال الربيع بن أنس: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَمَلَكُمْ دَكًّا وَحَرَّ مُوسَى صَوْغًا﴾، وذلك أن الجبل حين كُشف الغطاء ورأى النور، صار مثل دَآك من الدكاك. وقال بعضهم: ﴿جَمَلَكُمْ دَكًّا﴾ أي: فَتَتَّهُ. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَكِنْ أَنْظَرْنَا إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوَّى رَبِّي﴾، فإنه أكبر منك وأشد خلقاً، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾، فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فدك على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل، فخر صعقاً. وقال عكرمة: جعله دكاً قال: نظر الله إلى الجبل، فصار صحراء تراباً. وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء، واختارها ابن جرير، وقد ورد فيها حديث مرفوع^(٣) رواه ابن مَرْدُويه. والمعروف أن الصُعق هو العُشي هاهنا، كما فسره ابن عباس وغيره، لا كما فسره قتادة بالموت، وإن كان ذلك صحيحاً في اللغة، كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي

(١) انظر الدر المنثور ٣/ ٢٢١ - ٢٢٢ فقد عراه لابن مردويه أيضاً عن ابن عمر. وقال ابن كثير لا يصح. وذلك لأن فيه عبد الرحمن بن البيلماني. ضعفه الدارقطني وصالح جزرة والأزدي، ولينه أبو حاتم، وثقه ابن حبان.

(٢) وإه بكرة. أخرجه الخطيب ١/ ٤٤١ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١/ ١٢٠ وابن حبان في «المجروحين» ١/ ٢١١، وقال ابن حبان: هذا حديث موضوع، ولا أصل له، وعبد العزيز بن عمران، يروي المناكير عن المشاهير. وكرره ابن الجوزي من طريق آخر، وأعله بأبيوب بن خوط ونقل عن يحيى بن عمار: لا يكتب حديثه. وقال أبو حاتم والنسائي والسعدي والدارقطني: متروك.

وورد من حديث ابن عباس. أخرجه ابن الجوزي ١/ ١٢١ وأعله بطلحة بن عمرو، وقال: لا شيء متروك الحديث قال أحمد بن حنبل، وقال ابن حبان: لا يحمل الرواية عنه إلا على سبيل التعجب اهـ.

(٣) مراده ما أخرجه ابن مردويه كما في «الدر» ٣/ ٢٢٢ من حديث أنس. قال: قرأ النبي ﷺ «فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً» مثقلة بمدودة اهـ. لكن ذكر ابن كثير رحمه الله، أنه لا يصح.

الشُّورِ فَصَبِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِنُظُرِهِمْ ﴿٦٨﴾ [الزمر: ٦٨] فَإِنَّ هُنَا قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى الْمَوْتِ كَمَا أَنَّ هُنَاكَ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى الْغَشْيِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾، وَالْإِنْفَاقَةُ إِنَّمَا تَكُونُ مِنْ غَشْيٍ. ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾، تَنْزِيهًا وَتَعْظِيمًا وَاجْتِلَالًا أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا إِلَّا مَاتَ. وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَّتْ إِلَيْكَ﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: أَنْ أَسْأَلَكَ الرَّوْيَةَ. ﴿وَأَنَا أَوْلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَىٰ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَأَنَا أَوْلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَنَّهُ لَا يِرَاكُ أَحَدٌ. وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: قَدْ كَانَ قَبْلَهُ مُؤْمِنُونَ، وَلَكِنْ يَقُولُ: أَنَا أَوْلَىٰ مِنْ أَمْنِ بَكَ أَنَّهُ لَا يِرَاكُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ لَهُ اتِّجَاهٌ. وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ هَاهُنَا أَثْرًا طَوِيلًا فِيهِ غَرَائِبٌ وَعَجَائِبٌ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَّارٍ، وَكَأَنَّهُ تَلَقَّاهُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَزَرَ مَوْسَىٰ صَوِّفًا﴾، فِيهِ أَبُو سَعِيدٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - فَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ فَأَسْنَدُهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ هَاهُنَا، فَقَالَ:

[٣١٦٠] حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ، حَدَّثَنَا سَفْيَانُ، عَنْ عَمْرٍو بْنِ يَحْيَى الْمَازِنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - قَدْ لَطَمَ وَجْهَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ مِنَ الْأَنْصَارِ لَطَمَ وَجْهِي. قَالَ: ادْعُوهُ. فَدَعَا، قَالَ: لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي مَرَزْتُ بِالْيَهُودِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَىٰ مُوسَىٰ عَلَى الْبَشَرِ. قَالَ، فَقُلْتُ: وَعَلَى مُحَمَّدٍ؟ فَأَخَذْتَنِي غَضَبَةً فَلَطَمْتُهُ، قَالَ: لَا تَخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ أَخَذَ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِي بِصَعْقَةِ الطُّورِ^(١)؟. وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي أَمَاكِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ صَحِيحِهِ، وَمُسْلِمٌ فِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ صَحِيحِهِ، وَأَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ «السَّنَةِ» مِنْ سَنَنِهِ مِنْ طَرُقٍ، عَنْ عَمْرٍو بْنِ يَحْيَى بْنِ عِمَارَةَ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ الْمَازِنِيِّ الْأَنْصَارِيِّ الْمَدَنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ سَعْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ سَنَانَ الْخَدْرِيِّ، بِهِ.

[٣١٦١] وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ: حَدَّثَنَا أَبُو كَامِلٍ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ شَهَابٍ، عَنْ أَبِي سَلْمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ: رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَىٰ مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ وَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَىٰ مُوسَىٰ عَلَى الْعَالَمِينَ، فَغَضِبَ الْمُسْلِمُ عَلَى الْيَهُودِيِّ فَلَطَمَهُ، فَآتَى الْيَهُودِيُّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ، فَدَعَا رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فَاعْتَرَفَ بِذَلِكَ، فَقَالَ - ﷺ -: «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَفِيقُ، فَأَجِدُ مُوسَى مُمْسِكًا بِجَانِبِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ مَمْنٌ صُبِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ كَانَ مَمْنٌ اسْتَثْنَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؟»^(٢). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ، مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، بِهِ.

وَقَدْ رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي الدُّنْيَا - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّ الَّذِي لَطَمَ الْيَهُودِيُّ فِي هَذِهِ الْقَضِيَةِ هُوَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَلَكِنْ تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَهَذَا هُوَ أَصْحُ وَأَصْرَحُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالْكَلَامُ فِي قَوْلِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «لَا تَخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى»، كَالْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ: «لَا تَفْضَلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى»، قِيلَ: مِنْ بَابِ التَّوَضُّعِ. وَقِيلَ: قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ بِذَلِكَ. وَقِيلَ: نُهِيَ أَنْ يَفْضَلَ بَيْنَهُمْ عَلَى وَجْهِ الْغَضَبِيَّةِ وَالتَّعَصُّبِ، وَقِيلَ: عَلَى وَجْهِ الْقَوْلِ بِمَجْرَدِ الرَّأْيِ وَالتَّشْهِي، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: «فَإِنَّ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٣٨ و ٦٩١٧ و مسلم ٢٣٧٤ و أبو يعلى ١٣٦٨.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٢٤١١ و ٣٤٠٨ و مسلم ٢٣٧٣ و البيهقي في «الأسماء والصفات» ٣٠٤.

الناس يُصَعَّقُونَ يوم القيامة»، الظاهر أن هذا الصُّعْق يكون في عَرَصات القيامة، يحصل أمر يُصَعَّقُونَ منه، والله أعلم به. وقد يكون ذلك إذا جاء الربُّ - تبارك وتعالى؛ لفصل القضاء، وتَجَلَّى للخلائق الملكُ الديان، كما صُعِق موسى من تَجَلَّى الربُّ عز وجل، ولهذا قال عليه السلام: «فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزي بصَغْفَةٍ الطور؟»

[٣١٦٢] وقد رَوَى القاضي عياض في أوائل كتابه «الشفاء» بسنده عن محمد بن محمد بن مرزوق: حدثنا قتادة حدثنا الحسن، عن قتادة، عن يحيى بن وثاب، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - قال: «لما تجلَّى الله لموسى عليه السلام، كان يبصر النملة على الصُّفا في الليلة الظلماء، مسيرة عشرة فراسخ»^(١)، ثم قال: ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والخُطوة بما رأى من آيات ربه الكبرى. انتهى ما قاله، وكأنه صَحَّح هذا الحديث، وفي صحته نظر، ولا يخلو رجال إسناده من مجاهيل لا يعرفون، ومثل هذا إنما يقبل من رواية العدل الضابط عن مثله، حتى يتهي إلى متناه، والله أعلم.

﴿قَالَ يَمْؤُوسَ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(١٤٤)
 وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا
 بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١٤٥)

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على عالمي زمانه برسالاته وكلامه تعالى، ولا شك أن محمداً - ﷺ - سيّد ولد آدم من الأولين والآخرين، ولهذا اختصه تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل - عليه السلام - ثم موسى كليم الرحمن - عليه السلام - ولهذا قال تعالى له: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾، أي: من الكلام والمناجاة ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾، أي: على ذلك، ولا تطلب ما لا طاقة لك به. ثم أخبر تعالى أنه كتَب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، قيل: كانت الألواح من جوهر، وأن الله تعالى كتَب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مُبَيَّنَّة للحلال من الحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله فيها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣]. وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة، فالله أعلم. وعلى كل تقدير كانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومُنْع منه، والله أعلم. وقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾، أي: بعزم على الطاعة، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾، قال سفيان بن عُيينة: حدثنا أبو سَعْد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أمر موسى عليه السلام أن يأخذ بأشد ما أمر قومه. وقوله: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، أي سترون عاقبة من خالف أمرى، وخرج عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب؟. قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، كما يقول القائل لمن يخاطبه: سأريك غداً إلام يصيرُ إليه حال من خالف أمرى؟ على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره. ثم نَقَلَ معنى ذلك عن مجاهد، والحسن البصري. وقيل: معناه ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، أي: من أهل الشام، وأعطيتكم إياها. وقيل: منازل قوم فرعون، والأول أولى،

(١) ضعيف جداً. ساقه المصنف بهذا الإسناد نقلاً عن «الشفاء» وفي الإسناد قلب، لذا لم يعرف المصنف بعض رجاله. وهو في «الشفاء» ١/٦٩ لكن فيه هام بدل قتادة شيخ ابن مرزوق. وهو عند الطبراني في «الصغير» ٧٧ من طريق ابن مرزوق عن هاني بن يحيى عن الحسن بن أبي جعفر عن قتادة عن ابن وثاب به، والحسن هذا متروك.

والله أعلم؛ لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم الثيه، والله أعلم.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي. وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون عن الناس بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق أدلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَقَلْبُكَ أَتَيْتَهُمْ وَأَبْصَرْتَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَئِكَ مَرَّةٌ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقال بعض السلف: لا ينال العلم حبي ولا مستكبر. وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة، بقي في ذل الجهل أبداً. وقال سفيان بن عيينة في قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، قال: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي. قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة. قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة، ولا فرق بين أحد وأحد في هذا، والله أعلم. وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٤٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كَلِمٌ آيَةٌ حَقًّا يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٤٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧] وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، أي: وإن ظهر لهم سبيل الرشد، أي: طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً. ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، أي: كذبت بها قلوبهم، ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾، أي: لا يعملون شيئاً مما فيها. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، أي: من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات، حبط عمله. وقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وكما تدبّر تذان.

﴿وَأَخَذَ قَوْمَ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُم خُورٌ آلَهُ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا أَخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ضَلَالٍ مِنْ ضَلَّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ، الَّذِي أَخَذَهُ لَهُمُ السَّامِرِيُّ مِنْ حُلِيِّ الْقَبِيطِ، الَّذِي كَانُوا اسْتَعَارُوهُ مِنْهُمْ، فَشَكَلَ لَهُمْ مِنْهُ عِجْلًا، ثُمَّ أَلْقَى فِيهِ الْقَبِضَةَ مِنَ التَّرَابِ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ أَثْرِ فَرَسِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَصَارَ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ وَالْخُورُ صَوْتُ الْبَقْرِ. وَكَانَ هَذَا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى لِمِيقَاتِ رَبِّهِ تَعَالَى، وَأَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ وَهُوَ عَلَى الطُّورِ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَسْلَمْنَا السَّامِرِيُّ ﴿١٤٨﴾﴾ [طه: ٨٥]. وَقَدْ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْعِجْلِ: هَلْ صَارَ لِحْمًا وَدَمًا لَهُ خُورٌ؟ أَوْ اسْتَمَرَ عَلَى كَوْنِهِ مِنْ ذَقَبٍ، إِلَّا أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ الْهَوَاءُ فَيَصَوْتُ

كالبقر؟ على قولين، والله أعلم. ويقال: إنهم لما صوّت لهم العجل رَقَصُوا حوله وافتننوا به، وقالوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُؤْمِنٍ فَنَسِيَ﴾، فقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (١٥١) [طه: ٨٩]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾، ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل، ودُهولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خُور لا يكلمهم، ولا يرشدهم إلى خير. ولكن غَطَّى على أعينُ بصائرهم عَمَى الجهل والضلال.

[٣١٦٣] كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبي داود، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله - ﷺ -: «حُبُّك الشيء يُغَيِّبُ وَيُصِمُّ»^(١). وقوله: ﴿وَكَمَا سُقِطَ فِي آيِدِيهِمْ﴾، أي: ندموا على ما فعلوا، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ صَكَلُوا قَالُوا لَيْنَ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾، وقرأ بعضهم: «لئن لم ترحمنا»، بالثاء المثناة من فوق، «رَبُّنَا»، منادى، «وتغفر لنا»، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، أي: من الهالكين. وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعْمَلْتُمْ أَمْرًا رَّبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلَا تَجْعَلْ لِي رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)

يخبر تعالى أن موسى - عليه السلام - رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسيف. قال أبو الدرداء: والأسف: وأشد الغضب. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾، يقول: بش ما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم. وقوله: ﴿أَعْمَلْتُمْ أَمْرًا رَّبِّكُمْ﴾، يقول: استعجلتم مجيئي إليكم، وهو مقدر من الله تعالى. وقوله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾، قيل: كانت الألواح من زُمُرْد. وقيل: من ياقوت. وقيل: من برّد.

[٣١٦٤] وفي هذا دلالة على ما جاء في الحديث «ليس الخبر كالمعاينة»^(٢). ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً. وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولاً غريباً، لا يصح إسناده إلا^(٣) حكاية قتادة^(٤)، وقد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء، وهو جدير

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٩٣.

(٢) حسن صحيح. أخرجه أحمد ٢٧١/١ والخطيب ٥٦/٦ وصححه ابن حبان ٦٢١٣ و٦٢١٤ والحاكم ٣٢١/٢ وقال: على شرطهما، ووافقه الذهبي، كلهم من حديث ابن عباس. والحديث بتمامه: «ليس الخبر كالمعاينة». قال الله لموسى: إن قومك صنعوا كذا وكذا، فلم يبال - وفي رواية: فلم يلق الألواح -، فلما عين ألقى الألواح. وقال في «المجمع» ١٥٣/١: رجاله رجال الصحيح. وله شاهد من حديث أنس أخرجه الطبراني كما في «مجمع البحرين» ٢٨ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٥٣/١: رجاله ثقات.

(٣) وقع في الأصول «إلى» والمثبت أقرب للسياق، وبه يستقيم الكلام. لأن إسناده إلى قتادة صحيح.

(٤) باطل. أسنده الطبري ١٥١٤٢ و١٥١٤٣ عن قتادة فذكر خبراً طويلاً ركيكاً وآخر الرواية الثانية «فألقى موسى عليه السلام الألواح، وقال: اللهم اجعلني من أمة محمد ﷺ» وهذا لم يعزه قتادة لصحابي، ولا للنبي ﷺ، وهو لا شك من الإسرائيليات المرذودة، وقد احتج بمثل هذا بعض الناس، والعجب إذا كان أهل الحديث لا يقبلون مرسل الزهري، فكيف يقبل هؤلاء مراسيل بني إسرائيل، وهم المعروفون بالكذب والتدليس وتحريف الوقائع!! فهذا الخبر أحسن حاله أنه من مراسيل أهل الكتاب.

بالرد، وكأنه تلقاه فتادة عن بعض أهل الكتاب، وفيهم كذابون ووضاعون وأفاكون وزنادقة. وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قد قصر في نهيهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَهَكُرُونَ مَا مَعَكُمْ لِمَ كَذَبْتُمْ صَلَواتاً﴾ [١٥٢] أَلَا تَتَذَكَّرُونَ أَمْصَيْتَ أَمْرِي ﴿١٥٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿١٥٤﴾ [طه: ٩٢ - ٩٤]، وقال هامنا: ﴿إِنَّ أُمَّ إِنْ الْقَوْمَ لَسْتُمْ تَعْمَلُونَ وَكَادُوا يَفْتَلُونَنِي فَلَا تُشْعِمُ بِكَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾، أي: لا تُسْقِنِي مَسَاقِمَهُمْ، ولا تَخْلَطْنِي مَعَهُمْ، وإنما قال: ﴿إِنَّ أُمَّ﴾ ليكون أراف وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه. فلما تحقَّق موسى - عليه السلام - براءة ساحة هارون - عليه السلام - كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقْوَمُوا لِأُمَّاتِكُمْ أَيُّهَا وَإِلَى رَبِّكُمُ الرَّجْعُ فَالْتَمِعُوا بِأَمْرِي﴾ [طه: ٩٠]، فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَتِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

[٣١٦٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال النبي - ﷺ -: «يرحم الله موسى، ليس المعادين كالمخبر؛ أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده، فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعانينهم ألقى الألواح»^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعَهْلَ سَيِّئَاتِهِمْ غَضِبَ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [١٥٢] وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله - تعالى - لم يقبل لهم توبة، حتى قتل بعضهم بعضاً، كما تقدم في سورة البقرة: ﴿فَتَوَّابُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤]. وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افتري بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كسفيه، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هملجت^(٢) بهم البغلاث، وطفطقت بهم البرادين. وهكذا روى أيوب السخيتاني، عن أبي قلابة الجزمي أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾، قال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة. وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل. ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق. ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أي: يا محمد، يا رسول الرحمة ونبى النور ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾، أي: من بعد تلك الفعلة ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا أبان، حدثنا قتادة، عن عذرة، عن الحسن الغرنبي، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود: أنه سئل عن ذلك - يعني عن الرجل يزني بالمرأة، ثم يتزوجها - فتلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٥٣]، فتلاها عبد الله عشر مرات، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُحُوتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [١٥٤]

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هملجت: سارت سيراً حسناً في سرعة.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾، أي: سَكَنَ ﴿عَنْ مُوسَى الْغَضَبِ﴾، أي: غَضِبَهُ عَلَى قَوْمِهِ ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ﴾، أي: التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل، غيرة الله وغضباً له ﴿وَوَفِي نُشْحَابٍ مَهْدَى وَرَحْمَةٍ﴾. يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسرت، ثم جمعها بعد ذلك. ولهذا قال بعض السلف: فوجد فيها هدى ورحمة. وأما التفصيل فذهب، وزعموا أن رُضاضها لم يزل موجوداً في خزائن الملوك لبني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية، والله أعلم بصحة هذا، وما الدليل القاطع على أنها تكسرت حين ألقاها، وهي من جوهر الجنة، وقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعدما ألقاها وجد فيها هدى ورحمة؟ ١٩. ﴿الَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، ضَمَّنَ الرهبة معنى الخضوع، ولهذا عداها باللام.

وقال قتادة: في قوله تعالى ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ﴾، قال: ربّ إني أجد في الألواح أمة خيرة أمة أخرجت للناس، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون - أي آخرون في الخلق - سابقون في دخول الجنة، ربّ اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها وكان من قبلهم يقرؤون كتابهم نظراً، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً، ولم يعرفوه - قال قتادة: وإن الله أعطاكم آيتها الأمة من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم - قال: رب، اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: ربّ، إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فصول الضلالة، حتى يقاتلوا الأعرور الكذّاب، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: ربّ، إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم، ويؤجرون عليها - وكان من قبلهم إذا تصدّق بصدقة فقيلت منه، بعث الله عليها ناراً فأكلتها، وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطيور، وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم - قال: رب، اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: ربّ، إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمئة، ربّ اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: ربّ، إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها، فإذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: ربّ، إني أجد في الألواح أمة هم المستجيبون والمستجاب لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: ربّ، إني أجد في الألواح أمة هم المشفقون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال قتادة: فذكر لنا أن نبي الله موسى نبذ الألواح، وقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد^(١).

﴿وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ
وَأَيُّ أَهْلِكْنَا بِمَا فَعَلَ السَّعْيَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ
لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴿وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً، فاختار سبعين رجلاً فبرز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دعوا الله قالوا: اللهم أعطينا ما لم تُعطه أحداً قبلنا، ولا تعطه أحداً بعدنا. فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة، قال موسى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ

(١) قد وقع ابن كثير رحمه الله فيما أبى، فإنه قبل قليل أشار لأثر قتادة هذا، وحكم بعدم صحته، وأنه رده غير واحد، ولكن عاد ههنا، فذكره بتمامه، ولم ينبه عليه، مع أن الذي رده آنفاً هو هذا.

أَهْلَكْتَهُمْ مِّنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُهُمْ مِّنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُهُمْ مِّنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُهُمْ مِّنْ قَبْلُ. . . الآية. وقال السدي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعداً، فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته، فأرآناه. فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُهُمْ مِّنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُهُمْ مِّنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُهُمْ مِّنْ قَبْلُ﴾. وقال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً، الخَيْرَ فَالْخَيْرَ، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا، وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء، لميقات وقته له ربه. وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم. فقال السبعون - فيما دُكِرَ لي حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربه - لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا. فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام، حتى تغشى الجبل كله. ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع، ولا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه. فَضُرِبَ دُونَهُ بِالْحِجَابِ. ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سُجُوداً، فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه أفعال، ولا تفعل. فلما فرغ إليه من أمره، انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة: فأخذتهم الرجفة - وهي الصاعقة - فافتلثت أرواحهم، فماتوا جميعاً. فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُهُمْ مِّنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُهُمْ مِّنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُهُمْ مِّنْ قَبْلُ﴾. قد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل.

وقال سفيان الثوري: حدثني أبو إسحاق، عن عمارة بن عبد السلولي، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: انطلق موسى وهارون وشبّر وشبّير، فانطلقوا إلى سفح جبل، فنام هارون على سرير، فتوفاه الله عز وجل. فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا له: أين هارون؟ قال: توفاه الله عز وجل. قالوا: أنت قتلته، حَسَدْنَا عَلَى خُلُقِهِ وَلِينِهِ - أو كلمة نحوها - قال: فاختاروا من شئتم. قال: فاختاروا سبعين رجلاً. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾، فلما انتهوا إليه قالوا: يا هارون، من قتلك؟ قال: ما قتلني أحد، ولكن توفاني الله. قالوا: يا موسى لن تعصى بعد اليوم. قال: فأخذتهم الرجفة. قال: فجعل موسى عليه السلام يرجع يمينا وشمالاً، وقال: يا ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُهُمْ مِّنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُهُمْ مِّنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُهُمْ مِّنْ قَبْلُ﴾. وقوله: ﴿إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾، قال: فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلهم. هذا أثر غريب جداً، وعمارة بن عبد هذا لا أعرفه. وقد رواه شعبة، عن أبي إسحاق، عن رجل من بني سلول، عن علي، فذكره. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جرير: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزيلوا قومهم في عبادتهم العجل، ولا نهوهم. ويتوجه هذا القول بقول موسى: ﴿أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الشُّفَهَاءُ مِنَّا﴾. وقوله: ﴿إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾، أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبّير، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وغير واحد من علماء السلف والخلف. ولا معنى له غير ذلك؛ يقول: إن الأمر إلا أمرُك، وإن الحكم إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لمن منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر. وقوله: ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ سَرِيعُ الْغَفْرِ﴾، الغفر هو: الستر، وترك المواخذة بالذنب. والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها ألا يوقعه في مثله في المستقبل، ﴿وَأَنْتَ سَرِيعُ الْغَفْرِ﴾، أي: لا يغفر الذنوب إلا أنت. ﴿وَكَتُبْنَا فِي هَذِهِ الْكِتَابِ حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾، هناك الفصل الأول من الدعاء في دفع المحذور، وهذا

لتحصيل المقصود، ﴿وَأَكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾، أي: أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة، وقد تقدم تفسير الحسنة في سورة البقرة. ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾، أي: تبنا ورجعنا وأنبأنا إليك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وأبو العالية، والضحاك، وإبراهيم التيمي، والسدي، وقتادة، وغير واحد. وهو كذلك لغة. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن شريك، عن جابر، عن عبد الله بن نجيب، عن علي قال: إنما سميت اليهود لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾. جابر - هو ابن يزيد الجعفي -: ضعيف.

﴿قَالَ عَدَائِي أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءِ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦)

قال تعالى مجيباً لموسى في قوله: ﴿إِن مِنْ إِلَا فِتْنَةٌ﴾... الآية: ﴿عَدَائِي أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءِ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، أي: أفعل ما أشاء، وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك. سبحانه لا إله إلا هو. وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله إخباراً عن حمله العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

[٣١٦٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا الجزي، عن أبي عبد الله الجشمي، حدثنا جندب - هو ابن عبد الله البجلي رضي الله عنه - قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقلاها. ثم صلى خلف رسول الله - ﷺ -. فلما صلى رسول الله - ﷺ -. أتى راحلته فأطلق عقالها، ثم ركبها، ثم نادى: اللهم، ارحمني ومحمداً، ولا تشرك في رحمتنا أحداً. فقال رسول الله - ﷺ -: أتقولون: هذا أضل أم بعيره؟ ألم تسمعوا ما قال؟ قالوا: بلى. قال: لقد حظرت رحمة واسعة؛ إن الله عز وجل خلق مئة رحمة، فأنزل رحمة واحدة يتعاطف بها الخلق جنبها وإنسها وبها تمها، وأخر عنده تسعاً وتسعين رحمة، أتقولون هو أضل أم بعيره؟^(١) ورواه أبو داود، عن علي بن نصر، عن عبد الصمد ابن عبد الوارث، به.

[٣١٦٧] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يحيى بن سعيد، عن سليمان، عن أبي عثمان، عن سلمان، عن النبي - ﷺ -: قال: ﴿إن لله عز وجل مئة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة﴾^(٢). انفرد بإخراجه مسلم، فرواه من حديث سليمان - هو ابن طرخان - وداود بن أبي هند، كلاهما عن أبي عثمان - واسمه عبد الرحمن بن مِلْ - عن سلمان، هو الفارسي، عن النبي - ﷺ - به.

[٣١٦٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أن النبي - ﷺ -: قال: ﴿الله مئة رحمة، عنده تسعة وتسعون، وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين الجن والإنس وبين الخلق، فإذا كان يوم القيامة ضمها إليه﴾^(٣). تفرد به أحمد من هذا الوجه.

[٣١٦٩] وقال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله - ﷺ -: ﴿الله مئة رحمة، فقس منها جزءاً واحداً بين الخلق، فبه يتراحم الناس والوحش

(١) أخرجه أبو داود ٤٨٨٥ وأحمد ٤/٣١٢ وإسناده ضعيف لجهالة أبي عبد الله الجشمي، والوهن فقط في لفظ «أتقولون»... قالوا بلى» وآخره «أتقولون»... وأما باقي الحديث فصحيح - له شواهد وطرق.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٥٣ وأحمد ٥/٤٣٩ وابن حبان ٦١٤٦ والطبراني ٦١٢٦.

(٣) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٦٥. وهو حديث حسن.

والطير^(١). ورواه ابن ماجه من حديث أبي معاوية، عن الأعمش، به.

[٣١٧٠] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا سعد أبو غيلان الشيباني، عن حماد بن أبي سليمان، عن إبراهيم، عن صلة بن زفر، عن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «والذي نفسي بيده ليدخلن الجنة الفاجر في دينه، الأحق في معيشته. والذي نفسي بيده ليدخلن الجنة الذي قد مَحَشْتُهُ النار بذنبه. والذي نفسي بيده ليغفرن الله يوم القيامة مغفرةً يتناول لها إبليس رجاءً أن تُصيبه»^(٢). هذا حديث غريب جداً: وسعد هذا لا أعرفه. وقوله: «فَسَأَكْتُمُا لِلَّذِينَ يَنْقُوتُ»... إلى آخرها يعني: فسأوجب حصول رحمتي مني وإحساناً إليهم، كما قال تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ» [الأنعام: ١٢]. وقوله: «لِلَّذِينَ يَنْقُوتُ» أي: سأجعلها للمتصفيين بهذه الصفات، وهم أمة محمد - ﷺ - الذين يتقون، أي: الشرك والعظائم من الذنوب. قوله: «وَيُؤْتُونَكَ الزَّكَاةَ»، قيل: زكاة النفوس. وقيل: الأموال. ويحتمل أن تكون عامة لهما، فإن الآية مكية، «وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» أي: يصدقون.

﴿الَّذِينَ يَنْبَغُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا الَّذِي أُنزِلَ اللَّهُ بِهِ الْكُتُبَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿الَّذِينَ يَنْبَغُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾، وهذه صفة محمد - ﷺ - في كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثه، وأمروهم بمتابعته. ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم.

[٣١٧١] كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، عن الجريري، عن أبي صخر العقيلي، حدثني رجل من الأعراب قال: جليت جلوبةً إلى المدينة في حياة رسول الله - ﷺ - فلما فرغت من بيعتي قلت: لألقين هذا الرجل فلاسمع منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمسون، فقتبتهم حتى أتوا على رجل من اليهود، ناشراً التوراة يقرؤها، يعزي بها نفسه على ابن له في الموت كأحسن الفتیان وأجمله، فقال رسول الله - ﷺ -: «أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك ذا صفتي ومخرجي؟ فقال برأسه هكذا، أي: لا. فقال ابنه:

(١) صحيح. أخرجه ابن ماجه ٤٢٩٤ وأحمد ٥٥/٣ وأبو يعلى ١٠٩٨ وإسناده صحيح، قال البوصيري في «الزوائد» حديث أبي سعيد صحيح، ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٣٠٢٢ والأوسط كما في «المجمع» ٢١٦/١٠ من حديث حذيفة. قال الهيثمي: في إسناده الكبير سعد بن طالب أبو غيلان، وثقه أبو زرعة وابن حبان، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات اهـ ووافقته الشيخ حمدي السلفي في تخريج الكبير، وفي ذلك نظر فإن شيخ الطبراني محمد بن عثمان بن أبي شيبة، وإن وثقه صالح جزرة، وقال ابن عدي: لم أر له حديثاً منكراً، وهو على ما وصفه عبدان لا بأس به، فقد قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: كذاب. وقال ابن جرش: كان يضع الحديث. وقال مطين: هو عصا موسى تلقف ما يأفكون، وقال البرقاني: لم أزل أسمعهم يذكرون أنه مقدوح فيه. وقال ابن عقدة: سمعت عبد الله بن أسامة الكلبي وإبراهيم بن إسحق وداود بن يحيى يقولون: محمد بن عثمان كذاب اهـ راجع الميزان ٧٩٣٤، فالرجل أشد ضعفاً من سعد أبي غيلان، الذي أعله الهيثمي به.

إني، والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرَجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله. فقال: أقيموا اليهودي عن أخيكم. ثم ولي كَفَتَهُ والصلاة عليه^(١). هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح، عن أنس.

[٣١٧٢] وقال الحاكم صاحبُ المستدرَك: أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِسْحَاقَ الْبَغَوِيِّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْهَيْثَمِ الْبَلْدِيِّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ مُسْلِمٍ بْنِ إِدْرِيسَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِدْرِيسَ، عَنْ شُرْحَبِيلِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهَلِيِّ، عَنْ هِشَامِ بْنِ الْعَاصِ الْأُمَوِيِّ قَالَ: بُعِثْتُ أَنَا وَرَجُلٌ آخَرُ إِلَى هِرَاقِلَ صَاحِبِ الرُّومِ نَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَخَرَجْنَا حَتَّى قَدِمْنَا الْعُوَطَةَ - بِعِنِي عُوُطَةُ دِمَشْقَ - فَزَلْنَا عَلَى جَبَلَةٍ بَنِ الْأَيْهَمِ الْغَسَانِيِّ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ عَلَى سَرِيرٍ لَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا بِرَسُولٍ يَكَلِّمُهُ، فَقَلْنَا: وَاللَّهِ لَا نَكَلِّمُ رَسُولًا، إِنَّمَا بُعِثْنَا إِلَى الْمَلِكِ، فَإِنْ أَدَانَ لَنَا كَلِمَانَهُ، وَإِلَّا لَمْ نَكَلِّمِ الرَّسُولَ. فَرَجَعَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، قَالَ: فَأَذِنَ لَنَا فَقَالَ: تَكَلَّمُوا. فَكَلَّمَهُ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِ، وَدَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِذَا عَلَيْهِ ثِيَابٌ سَوَادٌ، فَقَالَ لَهُ هِشَامُ: وَمَا هَذِهِ الَّتِي عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: لِبِسْتَهَا وَحَلَفْتُ أَلَّا أَنْزِعَهَا حَتَّى أُخْرِجَكُم مِّنَ الشَّامِ. قَلْنَا: وَمَجْلِسُكَ هَذَا، فَوَاللَّهِ لِنَأْخُذَنَّكَ مِنْكَ، وَلِنَأْخُذَنَّ مُلْكَ الْمَلِكِ الْأَعْظَمِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، أَخْبَرْنَا بِذَلِكَ نَبِيْنَا مُحَمَّدٌ ﷺ. قَالَ: لَسْتُمْ بِهِمْ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَصُومُونَ بِالنَّهَارِ، وَيَقُومُونَ بِاللَّيْلِ، فَكَيْفَ صَوْمُكُمْ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ، فَمَلَىءَ وَجْهَهُ سَوَادًا، فَقَالَ: قَوْمُوا. وَبِعَثْ مَعَنَا رَسُولًا، فَخَرَجْنَا، حَتَّى إِذَا كُنَّا قَرِيبًا مِنَ الْمَدِينَةِ، قَالَ لَنَا الَّذِي مَعَنَا: إِنَّ دَوَابِكُمْ هَذِهِ لَا تَدْخُلُ مَدِينَةَ الْمَلِكِ، فَإِنْ شِئْتُمْ حَمَلْنَاكُمْ عَلَى بَرَاذِينَ وَبِغَالٍ؟ قَلْنَا: وَاللَّهِ لَا نَدْخُلُ إِلَّا عَلَيْهَا. فَأَرْسَلُوا إِلَى الْمَلِكِ: إِنَّهُمْ يَأْتُونَ ذَلِكَ. فَدَخَلْنَا عَلَى رَوَاحِلِنَا مُتَقَلِّدِينَ سِيوفَنَا، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى غُرْفَةٍ، فَأَنْخَأْنَا فِي أَصْلِهَا وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْنَا، فَقَلْنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ. فَاللَّهُ يَعْلَمُ لَقَدْ تَنَفَّضْتُ الْغُرْفَةَ حَتَّى صَارَتْ كَأَنَّهَا عِدْقٌ تُصَفِّقُهُ الرِّيَّاحُ. فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا: لَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَجْهَرُوا عَلَيْنَا بِدِينِكُمْ. وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا: أَنْ ادْخُلُوا. فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ عَلَى فَرَاشٍ لَهُ، وَعِنْدَهُ بَطَارِقَتُهُ مِنَ الرُّومِ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِي مَجْلِسِهِ أَحْمَرٌ، وَمَا حَوْلُهُ حَمْرَةٌ، وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ مِنَ الْحَمْرَةِ. فَدَنَوْنَا مِنْهُ فَضَحِكُ، فَقَالَ: مَا كَانَ عَلَيْكُمْ لَوْ حَيَّيْتُمُونِي بِتَحِيَّتِكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ؟! وَإِذَا عِنْدَهُ رَجُلٌ فَصِيحٌ بِالْعَرَبِيَّةِ، كَثِيرُ الْكَلَامِ، فَقَلْنَا: إِنَّ تَحِيَّتَنَا فِيمَا بَيْنَنَا لَا تَحِلُّ لَكَ، وَتَحِيَّتِكَ الَّتِي تُحَيَّا بِهَا لَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نَحْيِيكَ بِهَا. قَالَ: كَيْفَ تَحْيِيَّتُكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ؟ قَلْنَا: السَّلَامُ عَلَيْكَ. قَالَ: وَكَيْفَ تُحْيُونَ مَلِكَكُمْ؟ قَلْنَا: بِهَا. قَالَ: وَكَيْفَ يَزُودُ عَلَيْكُمْ؟ قَلْنَا: بِهَا. قَالَ: فَمَا أَعْظَمُ كَلَامِكُمْ؟ قَلْنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ. فَلَمَّا تَكَلَّمْنَا بِهَا - وَاللَّهُ يَعْلَمُ - لَقَدْ تَنَفَّضْتُ الْغُرْفَةَ حَتَّى رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهَا، قَالَ: فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الَّتِي قَلْتُمُوهَا حَيْثُ تَنَفَّضْتُ الْغُرْفَةَ، كَلَّمَا قَلْتُمُوهَا فِي بَيْوتِكُمْ تَنَفَّضْتُ عَلَيْكُمْ غُرْفَكُمْ؟ قَلْنَا: لَا، مَا رَأَيْنَاهَا فَعَلْتُ هَذَا قَطُّ إِلَّا عِنْدَكَ، قَالَ: لَوَدِدْتُ أَنْكُمْ كَلَّمَا قَلْتُمْ تَنَفَّضْتُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَيْكُمْ، وَأَنْتِي خَرَجْتُ مِنْ نِصْفِ مَلِكِي. قَلْنَا: لِمَ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ كَانَ أَيْسَرُ لَشَأْنِهَا، وَأَجْدَرُ أَلَّا تَكُونَ مِنْ أَمْرِ النَّبُوَّةِ، وَأَنْ تَكُونَ مِنْ جَيْلِ النَّاسِ. ثُمَّ سَأَلْنَا عَمَّا أَرَادَ، فَأَخْبَرَنَا. ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ صَلَاتُكُمْ وَصَوْمُكُمْ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ، فَقَالَ: قَوْمُوا. فَقَمْنَا فَأَمَرَ لَنَا بِمَنْزِلٍ حَسَنٍ وَنَزَلَ كَثِيرٌ، فَأَقَمْنَا ثَلَاثًا. فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا لَيْلًا، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، فَاسْتَعَادَ قَوْلَنَا، فَأَعَدَّنَاهُ. ثُمَّ دَعَا بِشَيْءٍ كَهَيْئَةِ الزُّبَيْعَةِ الْعَظِيمَةِ مُدْهَبَةً، فِيهَا بَيْوتٌ صَغَارٌ عَلَيْهَا أَبْوَابٌ، فَفَتَحَ بَيْتًا وَقَفَّلًا، فَاسْتَخْرَجَ حَرِيرَةً سَوْدَاءَ، فَتَشَرَّهَا، فَإِذَا فِيهَا صُورَةٌ حَمْرَاءَ، وَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ ضَخْمُ الْعَيْنَيْنِ عَظِيمُ

(١) أخرجه أحمد ٤١١/٥ وفي إسناده أبو صخر العقيلي، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٣٤/٨: وأبو صخر لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح. وقول المصنف: «له شاهد في الصحيح عن أنس» لعله يشير إلى حديث أنس عند البخاري ١٣٥٦ وأبي داود ٣٠٩٥ وأحمد ٣٨٠/٣.

الألثتين، لم أر مثل طولِ عُنُقِهِ، وإذا ليست له لحيَةٌ، وإذا له ضفيريّتان أحسنَ ما خلق الله. قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا آدم عليه السلام. وإذا هو أكثر الناس شَعْرًا. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج حريرة سوداء وإذا فيها صورة بيضاء وإذا له شعر كشعر القطط، أحمر العينين، ضخم الهامة، حسن اللحية فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا نوح عليه السلام. ثم فتح باباً آخر فاستخرج حريرة سوداء، وإذا فيها رجلٌ شديدُ البياض، حسن العينين، صَلَّتُ الجبين، طويل الخد، أبيض اللحية كأنه يَتَبَسَّمُ، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إبراهيم عليه السلام. ثم فتح باباً آخر فإذا فيه صورة بيضاء، وإذا والله رسول الله - ﷺ - فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، محمد رسول الله - ﷺ - قال: وبكينا. قال: والله يعلم أنه قام قائماً ثم جلس، وقال: والله إنه لهو؟ قلنا: نعم، إنه لهو، كأنك تنظر إليه. فأمسك ساعةً ينظر إليها، ثم قال: أما إنه كان آخِرَ البيوت، ولكني عَجَلتُه لكم لأنظر ما عندكم. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، فإذا فيها صورة آدماء سحماء، وإذا رجلٌ جعد قَطَطٌ، غائرُ العينين، حديد النظر عابس، متراكب الأسنان، مُقْلَصٌ^(١) الشفة كأنه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا موسى عليه السلام. وإلى جنبه صورة تشبهه، إلا أنه مِذْهَانُ الرأس، عريضُ الجبين، في عينيه قَبْلٌ، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا هارون بن عمران عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجلٍ أَدَمٌ سَبِيحٌ رَبَعَةٌ. كأنه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا لوط عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجلٍ أبيض مُشْرَبٍ حُمْرَةً، أقمى، خَفِيفُ العارضين، حَسَنُ الوجه، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسحاق عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة تشبه إسحاق، إلا أنه على شفته خَالٌ، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يعقوب عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة رجلٍ أبيض حسن الوجه، أقمى الأنف، حسن القامة، يعلو وجهه نورٌ، يعرف في وجهه الخشوع، يضرب إلى الحمرة، قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسماعيل جَدُّ نبيكم، عليهما السلام. ثم فتح باباً آخر فاستخرج حريرة بيضاء فيها صورة كأنها صورة آدم عليه السلام، كأن وجهه الشمس، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يوسف عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجلٍ أحمَرٌ حَمَشُ الساقين، أخفش العينين، ضخم البطن، رَبَعَةٌ، متقلد سيفاً، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا داود عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فيها صورة رجلٍ ضخم الألتين، طويل الرجلين، راكب فرساً فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا سليمان بن داود، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء، فيها صورة بيضاء، وإذا رجلٌ شاب شديد سَوَادِ اللحية، كثير الشعر، حسن العينين، حسن الوجه، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا عيسى ابن مريم، عليه السلام. قلنا: من أين لك هذه الصُورُ؟ لأننا نعلم أنها على ما صُوِّرت عليه الأنبياء عليهم السلام، لأننا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله. فقال: إن آدم - عليه السلام - سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده، فأنزل عليه صورهم فكان في خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال. ثم قال: أما والله إن نفسي طابت بالخروج من مُلْكِي، وإن كنت عبداً لا يسوءكم ملكه حتى أموت. ثم أجازنا فأحسن جائزتنا، وسرّحنا. فلما أتينا أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - فحدثنا بما

(١) الأسجم: الأسود. القطط: القصير الجعد من الشعر. قَلِصَتْ شفته: انزوت وشمرت.

أرانا، وبما قال لنا، وما أجازنا، قال: فبكى أبو بكر وقال: مسكين، لو أراد الله به خيراً لفعل. ثم قال: أخبرنا رسول الله - ﷺ - أنهم واليهود يجذون نعت محمداً رسول الله - ﷺ - عندهم^(١). وهكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي رحمه الله في كتاب «دلائل النبوة»، عن الحاكم إجازة، فذكره، وإسناده لا بأس به.

[٣١٧٣] وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا عثمان بن عُمر، حدثنا فليح، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله - ﷺ - في التوراة. قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحزواً للأمينين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: «لا إله إلا الله»، ويفتح به قلباً عُلقاً، وأذناً صُمّاً، وأعيناً عمياً، قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك، فما اختلفا حرفاً، إلا أن كعباً قال بِلُغْتِهِ، قال: قلبوا عُلقوياً، وأذناً صُمومياً، وأعيناً عُومياً^(٢). وقد رواه البخاري في صحيحه، عن محمد بن سنان، عن فليح، عن هلال بن علي - فذكر بإسناده نحوه، وزاد بعد قوله ليس بفظ ولا غليظ: ولا صحاب في الأسواق، ولا يخزّي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح». ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق «التوراة» على كتب أهل الكتاب. وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا. والله أعلم.

[٣١٧٤] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا مُحَمَّد بن إدريس بن عمر وَرَأَى الحُمَيْدي، حدثنا محمد بن عمر بن إبراهيم - من ولد جُبَيْر بن مطعم - قال: حدثني أم عثمان بنت سعيد - وهي جدتي - عن أبيها سعيد بن محمد بن جُبَيْر، عن أبيه محمد بن جُبَيْر، عن أبيه جُبَيْر بن مطعم قال: خرجت تاجرأ إلى الشام، فلما كنت بأدنى الشام لقيني رجلٌ من أهل الكتاب، فقال: هل عندكم رجلٌ تَبِيّاً؟ قلت: نعم. قال: هل تعرف صورته إذا رأيتها؟ قلت: نعم. فأدخلني بيتاً فيه صور، فلم أر صورة النبي - ﷺ - فبينما أنا كذلك إذ دخل رجلٌ منهم علينا، فقال: فيم أنتم؟ فأخبرناه، فذهب بنا إلى منزله، فساعة ما دخلت نظرتُ إلى صورة النبي - ﷺ - وإذا رجل أخذ يعقب النبي - ﷺ - قلت: من هذا الرجل القابض على عقبيه؟ قال: إنه لم يكن نبي إلا كان بعده نبي إلا هذا النبي، فإنه لا نبي بعده، وهذا الخليفة بعده، وإذا صفة أبي بكر رضي الله عنه^(٣).

[٣١٧٥] وقال أبو داود: حدثنا حفص بن عمر^(٤) أبو عُمر الضرير، حدثنا حَمَاد بن سَلَمَةَ أن سعيد ابن إلياس الجُزيري أخبرهم، عن عبد الله بن شَقِيق العُقيلي، عن الأقرع مُؤذِن عُمر بن الخطاب قال: بعثني عُمر إلى الأسقف فدعوته، فقال له عُمر: هل تجدني في الكتاب؟ قال: نعم. قال: كيف تجدني؟ قال: أجدك

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ١/ ٣٨٥ - ٣٩٠، وقول المصنف: «لا بأس به» فيه نظر، فإن عبد العزيز بن مسلم بن إدريس لم أجد من ترجمه، والمثنى غريب، وفي بعض ألفاظه نكارة، فإله أعلم. وعلى العموم مداره على عبد العزيز بن مسلم، وهو مجهول لا يحتاج بما يتفرد به، والله أعلم.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٣٨ والطبري ١٥٢٣٦ وابن سعد في «الطبقات» ١/ ٢٧١ والبيهقي في «التفسير» ٩٤٦ من طرق عن فليح به.

(٣) منكر. أخرجه الطبراني في «الكبير» ١٥٣٧ و«الأوسط» ٨٢٢٧ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٨/ ٢٣٣ - ٢٣٤ وقال: وفيه من لم أعرفهم.

(٤) في الأصول: «عمر بن حفص» والتصحيح عن سنن أبي داود وكتب الرجال.

قَرْنَا. قال: فرجع عمر الدَّرَّةَ وقال: قَرْنَا مَهْ؟ قال: قَرْنَا حديد، أمير شديد. قال: فكيف تجد الذي بعدي؟ قال: أجد خليفة صالحاً غير أنه يؤثر قرابته. قال عمر: يَرَحُمُ الله عثمان، ثلاثاً. قال: كيف تجد الذي بعده؟ قال: أجدُه صَدًّا حديد. قال: فَوَضَعَ عَمْرُ يده على رَأْسِهِ وقال: يا دَفْرَاهُ! يا دَفْرَاهُ! (١) قال: يا أمير المؤمنين، إنه خليفة صالح، ولكنه يُسْتَخْلَفُ حين يُسْتَخْلَفُ والسيف مسلول، والدم مهراق (٢).

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، هذه صفةُ الرسول - ﷺ - في الكُتُبِ المتقدِّمة، وهكذا كان حاله عليه الصلاة والسلام، لا يأمرُ إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَأَزْعِمَا سَمْعَكَ، فإنه خيرٌ يأمر به أو شرٌّ ينهى عنه. ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

[٣١٧٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر - هو العَقْدِيُّ عبد الملك بن عمرو - حدثنا سليمان - هو ابن بلال - عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد، عن أبي حميد وأبي أسيد - رضي الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبِكُمْ، وَتَلِينَ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ، فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ. وَإِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبِكُمْ، وَتَنْفِرُ مِنْهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ، فَأَنَا أْبَعْدَكُمْ مِنْهُ» (٣). هذا جيد الإسناد، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب.

[٣١٧٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مَرْة، عن أبي البَخْتَرِيِّ، عن علي - رضي الله عنه - قال: إِذَا حُدِّثْتُمْ عَن رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - حَدِيثًا فَظَنُّوا بِهِ الَّذِي هُوَ أَهْدَى، وَالَّذِي هُوَ أَهْنَا، وَالَّذِي هُوَ أَتْقَى (٤).

[٣١٧٨] ثم رواه عن يحيى بن سعيد، عن مسعَرٍ، عن عمرو بن مرة، عن أبي البَخْتَرِيِّ، عن أبي عبد الرحمن، عن علي - رضي الله عنه - قال: إِذَا حُدِّثْتُمْ عَن رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - حَدِيثًا، فَظَنُّوا بِهِ الَّذِي هُوَ أَهْدَاهُ وَأَهْنَاهُ وَأَتَقَاهُ (٥). وقوله: ﴿وَيُحِبُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، أي: يُحَلِّ لهم ما كانوا حَرَموه على أنفسهم من البَحَائِثِ والسَوَائِبِ والوَصَائِلِ والحام ونحو ذلك، مما كانوا ضَيَّقُوا به على أنفسهم. ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كلحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من

(١) الدرر: الذل والتن.

(٢) لا يصح هذا الخبر. أخرجه أبو داود ٤٦٥٦، وفي إسناده الأفرع مؤذن عمر. قال عنه الذهبي في الميزان ١٠٢٦: لا يعرفه ثم مثل هذا لا يقبل إلا برواية العدل الضابط عن مثله، فإن فيه بعض علم الغيب، ثم إن عمر لم يكن يعلم أن عثمان هو الذي سبى بعده الخلافة، ولا علم أن بعده علياً، والنبي ﷺ لم يذكر شيئاً من ذلك، فكيف يأتي في التوراة؟! فالخبر منكر غير صحيح.

(٣) أخرجه أحمد ٤٢٥/٥ و٤٩٧/٣، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٤٩/١ - ١٥٠: ورجاله رجال الصحيح. قلت: عبد الملك بن سعيد روى له مسلم حديثاً واحداً، وله حديث آخر في السنن استكرهه الذهبي، وحديثه هذا غريب. فالله أعلم، والرجل غير مشهور.

(٤) موقوف. أخرجه أحمد ١٢٢/١.

(٥) أخرجه أحمد ١٢٢/١.

المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى. وقال بعض العلماء: كل ما أحل الله تعالى فهو طيب نافع في البدن والدين، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين. وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقيح العقليين، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضوع له. وكذا احتج بها من ذهب من العلماء إلى أن المرجع في حل المآكل التي لم يُنص على تحليلها ولا تحريمها، إلى ما استطابتها العرب في حال رفاهيتها، وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبتته. وفيه كلام طويل أيضاً. وقوله: ﴿وَيَنْصَحُ عَنْهُمْ إِضْرَهُمْ وَالْأَعْلَلُ أَلْيَ كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: إنه جاء بالتيسير والسماحة.

[٣١٧٩] كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة»^(١).

[٣١٨٠] وقال ﷺ لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعري - رضي الله عنهما - لما بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تُفرا، وبسرا ولا تُعسرا، وتطوعا ولا تختلعا»^(٢).

وقال صاحبه أبو بزرّة الأسلمي: إني صُحبت رسول الله - ﷺ - وشهدت تيسيره، وقد كانت الأمم الذين كانوا قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها، وسهّلها لهم؛

[٣١٨١] ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدّثت به أنفسها، ما لم تفل أو تفعل»^(٣).

[٣١٨٢] وقال: «رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكروها عليه»^(٤). ولهذا أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

[٣١٨٣] وثبت في صحيح مسلم «أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه: قد فعلت، قد فعلت»^(٥).

وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾، أي: عظموه، ووقروه، ﴿وَاتَّبَعُوا النَّورَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ﴾، أي: القرآن والوحي الذي جاء به مبلغاً إلى الناس، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، أي: في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

﴿١٥٨﴾

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد - ﷺ - : ﴿قُلْ يا محمد: ﴿يَتَّيِبُهَا النَّاسُ﴾، وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والعجمي، ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، أي: جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ يَنْكُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْئِنْ مَوَّعِدْتُمْ﴾ [هود: ١٧] وقال تعالى:

(١) تقدم في سورة البقرة عند آية: ١٨٥.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة، عند الآية: ١٨٥.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة، عند الآية: ٢٨٤.

(٤) تقدم في سورة البقرة: ٢٨٦ وسورة الأنعام: ١٢١.

(٥) تقدم في آخر سورة البقرة.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُمُ؟ إِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ أَمْتَكِدُوا قَرَاتٍ قَوْلًا فَايْمًا عَلَيْكَ الْبَلْعُ﴾ [آل عمران: ٢٠]. والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه - صلوات الله وسلامه عليه - رسول الله إلى الناس كلهم.

[٣١٨٤] قال البخاري رحمه الله في تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله، حدثنا سُلَيْمان بن عبد الرحمن وموسى بن هارون قالا: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الله بن العلاء بن زُبَيْر، حدثني بُسْرُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، حدثني أبو إدريس الخَوْلاني قال: سمعتُ أبا الدرداء - رضي الله عنه - يقول: كانت بين أبي بكر وعمَرَ - رضي الله عنهما - محاورَةٌ، فأغضب أبو بكر عمَرَ، فانصرفَ عمَرُ عنه مُغَضَّباً، فاتَّبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعلْ حتى أغلَقَ بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ - فقال أبو الدرداء: ونحن عنده، فقال رسول الله ﷺ -: «أما صاحبكم هذا فقد غامرَ» أي: غاضب وحاقد - قال: وَنَدِمَ عمَرُ على ما كان منه، فأقبل حتى سَلَّمَ وجلس إلى النبي ﷺ - وقصَّ على رسول الله ﷺ - الخير، قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله ﷺ - وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لَأَنَا كُنْتُ أَظْلَمُ. فقال رسول الله ﷺ -: «هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ إنني قلت: يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعاً. فقلتُم: كذبت. وقال أبو بكر: صدقتُ»^(١). انفرد به البخاري.

[٣١٨٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا يزيد بن أبي زياد، عن مِقْسَم، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ - قال: «أعطيْتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ نبيُّ قبلي - ولا أقوله فخرًا - بُعثت إلى الناس كافةً، الأحمر والأسود، ونصرتُ بالزَّعْبِ مَسِيرَةَ شهر، وأجَلتُ لي الغنائم ولم تحلْ لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيْتُ الشفاعة فأخرتها لأمتي فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً»^(٢)؛ إسناده جَيِّدٌ، ولم يخرجوه.

[٣١٨٦] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا بكر بن مضر، عن ابن الهاد، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: أن رسول الله ﷺ - عام غزوة تبوك، قام من الليل يُصَلِّي، فاجتمع وَرَاءَهُ رجال من أصحابه يحرسونه، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أعطيت الليلة خمساً ما أُعْطِيَهُنَّ أحد قبلي، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة، وكان من قبلي إنما يُرسل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لَمُلِيَء مني رعباً. وأجَلتُ لي الغنائم أَكْلُهَا، وكان من قبلي يُعْظَمُونَ أَكْلُهَا، كانوا يَحْرِقُونَهَا. وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، أينما أدركتني الصلاة تَمَسَّحْتُ واصلتُ، وكان من قبلي يعظمون ذلك، إنما كانوا يصلون في بيعهم وكنائسهم. والخامسة هي ما هي، قيل لي: «سل؛ فإن كل نبي قد سأل». فأخرت مسألتني إلى يوم القيامة، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله»^(٣). إسناده جيد قَوِيٌّ أيضاً ولم يخرجوه.

[٣١٨٧] وقال أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعْبَةَ، عن أبي بَشْرِ، عن سعيد بن جُبَيْر، عن أبي

(١) صحيح . أخرجه البخاري ٤٦٤٠، وتقديم.

(٢) صحيح . أخرجه أحمد ٣٠١/١ والبخاري ٣٤٦٠ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٦٥٨/٨ وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح غير يزيد بن أبي زياد، وهو حسن الحديث. قلت: يزيد، صدوق لكنه سيء الحفظ، لذا ضعفه غير واحد، لكن للمتن شواهد كثيرة.

(٣) صحيح . أخرجه أحمد ٢٢٢/٢ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٦٧/١٠ وقال: ورجاله ثقات.

موسى الأشعري - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال: «من سمع بي من أمتي أو يهودي أو نصراني، فلم يؤمن بي، لم يدخل الجنة»^(١).

[٣١٨٨] وهذا الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر، عن أبي موسى قال: رسول الله - ﷺ - : «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي رجل من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»^(٢).

[٣١٨٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس - وهو سليم بن جبير - عن أبي هريرة عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي أو نصراني، ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»^(٣) تفرد به أحمد.

[٣١٩٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي بريدة، عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «أعطيت خمسا: بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهوراً، وأُجِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحُلْ لِمَنْ كَانَ قَبْلِي، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ شَهراً، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وليس من نبي إلا وقد سأل الشفاعة، وإنني قد اختبأت شفاعتي، ثم جعلتها لمن مات من أمتي لم يشرك بالله شيئاً»^(٤). وهذا أيضاً إسناد صحيح، ولم أرهم خرجوه، والله أعلم. وله مثله من حديث ابن عمر بسند جيد أيضاً.

[٣١٩١] وهذا الحديث ثابت في الصحيحين أيضاً، من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله - ﷺ - : «أعطيت خمسا لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهوراً، فأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ، وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وكان النبي يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَيُبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً»^(٥). وقوله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ صفة الله تعالى. في قوله: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: إن الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربّه ومليكه، والذي بيده الملك والإحياء والإماتة، وله الحكم. وقوله: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ﴾، أخبرهم أنه رسول الله إليهم، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به، ﴿النَّبِيِّ الْأَمِينِ﴾، أي: الذي وعدتم به وبُشِّرْتُمْ به في الكتب المتقدمة، فإنه منعوت بذلك في كتبهم، ولهذا قال ﴿النَّبِيِّ الْأَمِينِ﴾ وقوله: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾، أي: يُصَدِّقُ قَوْلَهُ عَمَلَهُ، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿وَأَتَّخِذُوهُ﴾، أي: اسلكوا طريقه واقتفوا أثره، ﴿لَمَلَكِكُمْ لَمَلَكَةٌ تَهْتَادُونَ﴾، أي: الصراط المستقيم.

﴿وَمِنْ قَوْرِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ مِنْ أَهْلِ

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٣٩٨/٤، وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه مسلم ١٥٣ لكن من حديث أبي هريرة، وقد تقدم في سورة آل عمران: ٢٠.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٣٥٠/٢، وتقدم في سورة آل عمران آية: ٢٠.

(٤) صحيح. أخرجه أحمد ٤١٦/٤ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٥٨/٨ وقال: رواه أحمد متصلاً ومرسلاً والطبراني، ورجاله رجال الصحيح. وله شواهد.

(٥) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٥١.

الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعُونَ لِلَّهِ لَا يَشْكُرُونَ بِعَائِدَتِ اللَّهِ تَمَكًّا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٦١﴾ ﴿آل عمران: ١٩٩﴾، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ فَلَمَّا بَلَغَ عَلَيْهِمْ قَوْلًا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَكَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴿٥٨﴾﴾ [التقصص: ٥٢ - ٥٤]... الآية، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَتَّى يَتْلُوهُ مِنْهُ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]... الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آتَوْا آلِمَانَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا سُئِلَ عَلَيْهِمْ جِزْيُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٥٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٥٨﴾ وَيَجِزُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكْفُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٥٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وقد ذكر ابن جرير في تفسيرها خبراً عجيباً، فقال: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جريج قوله: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾، قال: بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم، وكفروا - وكانوا اثني عشر سبطاً - تبرأ سبطاً مما صنعوا، واعتذروا، وسألوا الله - عز وجل - أن يُفَرِّقَ بينهم وبينهم. ففتح الله لهم نفقاً في الأرض، فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين، فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا قال ابن جريج: قال ابن عباس: فذلك قوله: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَنبَأَ إِسْرَائِيلَ أَتَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِنَّا جَاءَةٌ وَعَدَّ الْآخِرَةَ جَنَاتٍ يَكْفُرُ لَيْفِيًا ﴿١٥٧﴾﴾ [الإسراء: ١٠٤]، وَوَعَدُ الْآخِرَةِ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ. قال ابن جريج: قال ابن عباس: ساروا في السَّربِ سنةً ونصفاً. وقال ابن عيينة، عن صدقة أبي الهذيل، عن السدي: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾، قال قومٌ بينكم وبينهم نهر من شُهد.

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَاقَ عَشْرَةِ أَسْبَاطًا أُمَّةً وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَلَهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَهْنَأَ عَشْرَةَ عِزَّةً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَزَلَّنا عَلَيْهِمُ الْمَرَآءَ وَالسَّلْوَىٰ كَلُوا مِنْ طِينَتٍ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَقَرْنَا لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ فَذَلَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة، وهي مدينة، وهذا السياق مكِّي، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته هنا، والله الحمد والمنة.

﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

هذا السياق هو بسنط لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ٦٥]، يقول تعالى لنبئهم - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ﴾، أي: وأسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قِصَّةِ أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نعمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة. وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم؛ لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم. وهذه القرية هي «أيلة»، وهي على شاطئ بحر القلزم. قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ

البَحْرِيَّ، قال: هي قرية يقال لها «أيلة» بين مَدين والطور. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وقتادة، والسدي. وقال عبد الله بن كثير القاري: سمعنا أنها أيلة. وقيل: هي مدين، وهو رواية عن ابن عباس. وقال ابن زيد: هي قرية يقال لها: «مقنا» بين مدين وعينوثي. وقوله: ﴿إِذْ يَمْدُودُونَ فِي النَّبْتِ﴾، أي: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاتُهُمْ يَوْمَ سُبْحَتِهِمْ سُورًا﴾، قال الضحاک، عن ابن عباس: أي ظاهرة على الماء. وقال العوفي، عن ابن عباس ﴿سُرْعًا﴾: ظاهرة من كل مكان. قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ﴾، أي: نخبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في التيمز المحرّم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في التيمز المَحْلَل لهم صيده، ﴿كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ﴾: نخبرهم، ﴿يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، يقول: بفسقهم عن طاعة الله، وخروجهم عنها. وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام.

[٣١٩٢] وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة رحمه الله: حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»^(١). وهذا إسناد جيد، فإن أحمد بن محمد بن مسلم هذا ذكره الخطيب في تاريخه، ووثقه، وياقي رجاله مشهورون ثقات، ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيراً.

﴿وَإِذْ قَالَتِ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّاكَ رَبُّكَ وَعَلَّمَهُمُ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْبَنَّا الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنِ الشُّرُوعِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَيْبِيسَ ﴿١٦٥﴾ يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٦﴾ فَلَمَّا عَزَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٧﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ أَنَّهُمْ صَارُوا إِلَى ثَلَاثِ فِرْقٍ: فِرْقَةٌ ارْتَكَبَتِ الْمَحْذُورَ، وَاحْتَالُوا عَلَى اصْطِيَادِ السَّمَكِ يَوْمَ السَّبْتِ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَفِرْقَةٌ نَهَتْ عَنْ ذَلِكَ، وَاعْتَزَلْتَهُمْ. وَفِرْقَةٌ سَكَتَتْ فَلَمْ تَفْعَلْ وَلَمْ تَنْهَ، وَلَكِنَّهَا قَالَتْ لِلْمَنْكَرَةِ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا؟﴾ أَي: لِمَ تَنْهَوْنَ هَؤُلَاءِ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ هَلَكُوا وَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ مِنْ اللَّهِ؟ فَلَا فَائِدَةَ فِي نَهَيْكُمْ إِيَّاهُمْ. قَالَتْ لَهُمُ الْمَنْكَرَةُ: ﴿مَعذِرَةٌ إِيَّاكَ رَبُّكَ﴾ - قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالرَّفْعِ، كَأَنَّهُ عَلَى تَقْدِيرِهِ: هَذَا مَعذِرَةٌ. وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالنَّصْبِ، أَي: نَفْعَلْ ذَلِكَ ﴿مَعذِرَةٌ إِيَّاكَ رَبُّكَ﴾، أَي: فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، ﴿وَعَلَّمَهُمُ يَتَّقُونَ﴾ يَقُولُونَ: وَلَعَلَّ بِهَذَا الْإِنْكَارِ يَتَّقُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَيَتْرَكُونَهُ، وَيَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ تَائِبِينَ، فَإِذَا تَابُوا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾، أَي: فَلَمَّا أَبَى الْفَاعِلُونَ الْمَنْكَرَ قَبُولَ النَّصِيحَةِ، ﴿أَجْبَنَّا الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنِ الشُّرُوعِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أَي: ارْتَكَبُوا الْمَعْصِيَةَ ﴿بِعَدَابِ بَيْبِيسَ﴾، فَنَصَّ عَلَى نَجَاةِ النَّاهِيْنَ وَهَلَكَ الظَّالِمِينَ، وَسَكَتَ عَنِ السَّاكِتِينَ؛ لِأَنَّ الْجِزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَهَمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ مَدْحًا فِيمَدَحُوا، وَلَا ارْتَكَبُوا عَظِيمًا فَيُذَمُّوا، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ ائْتَمَّتْ الْأُمَّةُ فِيهِمْ: هَلْ كَانُوا مِنَ الْهَالِكِينَ أَوْ مِنَ النَّاجِينَ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، هِيَ قَرْيَةٌ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ بَيْنَ مِصْرَ وَالْمَدِينَةِ، يُقَالُ لَهَا: «أَيْلَةُ»، فَحُرِّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْحَيْثَانَ يَوْمَ سَبْتِهِمْ، وَكَانَتِ الْحَيْثَانُ تَأْتِيهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا فِي سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَإِذَا مَضَى يَوْمُ السَّبْتِ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا. فَمَضَى عَلَى

(١) إسناده حسن، رجاله ثقات. وجوده ابن كثير.

ذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فَنَهَتْهُم طائفة وقالوا: تأخذونها وقد حَرَّمَهَا اللهُ عليكم يوم سبتكم؟! فلم يزدادوا إلا غِيًّا وَعُتُوًّا، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاء: تَعْلَمُونَ أن هؤلاء قوم قد حَقَّ عليهم العذابُ، ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وكانوا أشدَّ غضباً لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: ﴿مَمْدَرَةٌ لِمَا رَزَقْنَاكَ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ﴾، وكلَّ قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ والذين قالوا: ﴿مَمْدَرَةٌ لِمَا رَزَقْنَاكَ﴾، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان، فجعَلَهُم قِرْدَةً. ورَوَى العوفي، عن ابن عباس قريباً من هذا. وقال حَمَادُ بن زيد، عن داود بن الحُصَيْنِ، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: «اتعظون قوماً الله مهلكهم»، أم لا؟ قال: فلم أزل به حتى عَرَفْتَهُ أنهم قد نَجَوْا، فكساني حُلَّةً. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جُرَيْجٍ، حَدَّثَنِي رَجُلٌ، عن عكرمة قال: جثت ابن عباس يوماً وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره، فاعظمت أن أدنو، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدّمت فجلست، فَقُلْتُ: ما يبكيك يا ابن عباس؟ جعلني الله فداك! قال: فقال: هؤلاء الورقات. قال: وإذا هو في سورة الأعراف، قال: تعرف أيلة؟ قلت: نعم. قال: فإنه كان بها حيٌّ من يهود سبقت الحيتان إليهم يوم السبت، ثم غاصت لا يقدرُونَ عليها حتى يَغُوصُوا بعد كَدٍّ ومؤنة شديدة، كانت تأتيهم يوم السبت شرعاً يضيأ سماناً كأنها الماخض، تَبْطُحُ ظهورها لبطونها بأفئنتهم، فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نُهَيْتُمْ عن أكلها يوم السبت، فخذوها فيه، وكلوها في غيره من الأيام. فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة: بل نُهَيْتُمْ عن أكلها يوم وأخذها وصيدها يوم السبت. فكانوا كذلك، حتى جاءت الجمعة المقبلة، فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين وتَنَحَّتْ، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكنت. وقال الأيمنون: ويلكم! الله، الله، ننهاكم عن أن تتعرضوا لعقوبة الله، وقال الأيسرون: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟ قال الأيمنون: ﴿مَمْدَرَةٌ لِمَا رَزَقْنَاكَ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ﴾، إن ينتهوا فهو أحبُّ إلينا ألا يصابوا ولا يهلكوا، وإن لم ينتهوا فمعدرة إلى ربكم. فمضوا على الخطيئة. وقال الأيمنون: فقد فعلتم، يا أعداء الله. والله لا تُبَايِعْتُمْ الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب. فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا، فلم يجابوا، فوضعوا سلماً، وأعلوا سور المدينة رجلاً، فالتفت إليهم فقال: أي عباد الله، قردة والله تَعَاوَى لها أذنان. قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسابها من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القردة يأتيها نسيبها من الإنس فَتَشَمُّ ثيابه وتبكي، فتقول: ألم ننهكم عن كذا؟ فتقول برأسها أي نعم. ثم قرأ ابن عباس: ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَقْبَمْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَئِيسٍ﴾، قال: فأرى الذين نَهَوْا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذُكِرُوا، ونحن نرى أشياء نكرها ولا نقول فيها. قال: قلت: جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليهم، وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾؟ قال: فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين. وكذا روى مجاهد، عنه. وقال ابن جرير: حدثنا يونس، أخبرنا أشهب بن عبد العزيز، عن مالك، قال: زعم ابن رومان أن قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جِثَاءُ نَهْمٍ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْئُرُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾، قال: كانت تأتيهم يوم السبت، فإذا كان المساء ذهب، فلا يُرَى منها شيء إلى يوم السبت الآخر. فاتخذ لذلك رجل خيطاً وَوَتَدًا، فربط حوتاً منها في الماء يوم السبت، حتى إذا أمسوا ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجد الناس ريحه، فأتوه فسألوه عن ذلك، فجعَلَهُم، فلم يزالوا به حتى قال لهم: فإنه جلد حوتٍ وجدناه. فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك - ولا أدري لعلة

قال: ربط حوثين - فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجدوا راتحة، فجاؤوا فسألوه، فقال لهم: لو شتمت صنعتكم كما أصنع. فقالوا له: وما صنعت؟ فأخبرهم، ففعلوا مثل ما فعل، حتى كثر ذلك. وكانت لهم مدينة لها رَيْضٌ يغلقونها عليهم، فأصابهم من المسخ ما أصابهم. فعدوا عليهم جيرانهم ممن كانوا حولهم، يطلبون منهم ما يطلب الناس، فوجدوا المدينة مغلقة عليهم، فنادوا فلم يجيبوهم، فتسوروا عليهم، فإذا هم قردة، فجعل القرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك، ويدنو منه ويتمسح به. وقد قدمنا في سورة البقرة من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مَثْنَعٌ وكفاية، والله الحمد والمنة. القول الثاني: أن الساكتين كانوا من الهالكين: قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحُصَيْن، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: ابتدعوا السبت فابتلوا فيه، فحرمت عليهم فيه الحيتان، فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر. فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تُر حتى السبت المقبل، فإذا جاء السبت جاءت شُرْعاً، فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك، ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتاً فَخَزَمَ أنفه، ثم صَرَبَ له وتداً في الساحل، وربطه وتركه في الماء. فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله، ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون، ولا ينهاهم أحد، إلا عصبه منهم نَهْو، حتى ظهر ذلك في الأسواق، ففعل علانية. قال: فقالت طائفة للذين يهونهم: ﴿لِمَ تَبْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِنْ رَزَقُوكُمْ﴾، فقالوا: نسخط أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَوْنَ ﴿١٦٧﴾ فَلَمَّا سَأُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُرْدَةٌ خَسِيصٌ﴾، قال ابن عباس: كانوا اثلاثاً: ثلث نَهْو، وثلث قالوا: ﴿لِمَ تَبْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نَهْو وهلك سائرهم. وهذا إسناد جيد عن ابن عباس، ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا، لأنه تبين حالهم بعد ذلك، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الْأَيْمَانَ مِنْكُمْ بِإِيْمَانٍ﴾، فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا. و﴿بِإِيْمَانٍ﴾ فيه قراءات كثيرة، ومعناه في قول مجاهد «الشديد»، وفي رواية: «أليم». وقال قتادة: «موجع». والكل متقارب، والله أعلم. وقوله: ﴿خَسِيصٌ﴾، أي: ذليلين حقيرين مُهَانِينَ.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْيَقِينَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿تَأَذَّنَ﴾: تَقَلَّلَ من الإذن، أي: أعلم، قاله مجاهد. وقال غيره: أمر. وفي قُوَّة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا تُلَقِّتُ باللام في قوله: ﴿لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾، أي: على اليهود ﴿إِنَّ يَوْمَ الْيَقِينَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم. ويقال: إن موسى - عليه السلام - ضرب عليهم الخراج سبع سنين - وقيل: ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج - ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشديانيين والكلدانيين، ثم صاروا في قهر النصارى وإذلالهم إياهم، وأخذهم منهم الجزية والخراج. ثم جاء الإسلام ومحمد - عليه أفضل الصلاة والسلام - فكانوا تحت خُفَارته وذيمنته يؤدون الخراج والجزية. قال العوفي، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: هي الْمَسْكَنَةُ وأخذ الجزية منهم. وقال علي بن أبي طلحة، عنه: هي الجزية، والذين يسومونهم سوء العذاب: محمد رسول الله - ﷺ - وأمه، إلى يوم القيامة. وكذا قال سعيد بن جبيرة، وابن جرير، والسدي، وقاتدة. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن عبد الكريم الجزري، عن سعيد بن المسيب قال: يستحب أن تبعث الأنباط في الجزية. قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يَخْرُجُونَ أنصاراً للدُّجَالِ، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم - عليه السلام - وذلك آخر الزمان. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾، أي: لمن عصاه وخالف

شرعه، ﴿وَأِنَّهُمْ لَمَعَزُورٌ رَّجِيحٌ﴾، أي: لمن تاب إليه وأنااب. وهذا من باب قَرْنِ الرُّحْمَةِ مع العقوبة، لتلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً، لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أَصْماً مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَدْوِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

يذكر تعالى أنه فرَّقهم في الأرض ﴿أَصْماً﴾، أي: طوائف وفرقا، كما قال: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَدْوِهِمْ لِيَقْ أِمْشَرَكَيْلَ اسْكُرُوا الْأَرْضَ إِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةُ جُنَا يَكْرُ لَيْفِيًّا ﴿١٦٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٤]. ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾، أي: فيهم الصالح وغير ذلك، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١٦٩﴾﴾ [الجن: ١١]، ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ﴾ أي اختبرناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي: بالرِّخَاءِ والشَّدَّةِ، والرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ، والعَافِيَةِ والبَلَاءِ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدْوِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾، يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطلّاح، خلف آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة - وقال مجاهد: هم النصراني - وقد يكون أعم من ذلك، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾، أي: يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه. ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾، وكما قال سعيد بن جبير: يعملون الذنب، ثم يستغفرون الله منه، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه. وقال مجاهد في قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾، قال: لا يُشْرَفُ لهم شيء في الدنيا إلا أخذوه، حلالاً كان أو حراماً، ويتمنون المغفرة، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾، وقال قتادة في ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدْوِهِمْ خَلْفٌ﴾، إني والله، لخلف سؤء، ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ بعد أنبيائهم ورسولهم، ورَّثَهُمُ اللهُ وَعَهْدَ إِلَيْهِمْ، وقال الله في آية أخرى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَدْوِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ [سريم: ٥٩]، قال: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، تمنوا على الله أمانى، وغرّة يغترون بها ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾، لا يشغلهم شيء عن شيء، ولا ينهاهم شيء عن ذلك، كلما هَفَّ لهم شيء من الدنيا أكلوه، ولا يباليون حلالاً كان أو حراماً. وقال السدي قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدْوِهِمْ خَلْفٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾، قال: كان بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض اليهود ألا يفعلوا ولا يَرْتَشُوا، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى، فيقال له: ما شأنك ترتشي في الحكم؟ فيقول: سيغفر لي، فيطعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نُزِعَ وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه، فيرتشي، يقول: وإن يأت الآخري عرض الدنيا يأخذوه. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾، يقول تعالى منكرأ عليهم في صنيعهم هذا، مع ما أخذ عليهم من الميثاق لِيُبَيِّنَنَّ الْحَقَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِنْهُمَا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وقال ابن جرير: قال ابن عباس: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾، قال: فيما يُوجِبُونَ على الله

من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعددون فيها، ولا يتوبون منها. وقوله تعالى: ﴿وَالذَّارُ الْآخِرَةُ حَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُورُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، يرغبهم تعالى في جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه، أي: وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، يقول: أفليس لهؤلاء - الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي - عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير، ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد - ﷺ - كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ بِالْكِتَابِ﴾، أي: اعتصموا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أجرَ الْمُصَلِّينَ﴾.

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُمْ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ وَقِيعٌ حَرٌّ لَّهُمْ فَيَسْتَدِرُّوكُم مِّنْ حُدُودِ آلِهِمْ فَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾

نُفَقُوا ﴿١٧١﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: قوله: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾، يقول: رفعناه، وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ١٥٤]. وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم. وقال القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ثم سار بهم موسى - عليه السلام - متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكنت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمره الله تعالى أن يبلغهم من الوظائف، فنقلت عليهم، وأبوا أن يقرأوا بها حتى ينشق الله الجبل فوقهم ﴿كَأَنَّهُمْ ظُلَّةٌ﴾، قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم. رواه النسائي بطوله. وقال سنيدي بن داود في تفسيره، عن حجاج بن محمد، عن أبي بكر بن عبد الله قال: هذا كتاب، أتقبلونه بما فيه، فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم، وما أمركم وما نهاكم؟ قالوا: أنشر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها يسيرة، وحدودها خفيفة قبلناها. قال: اقبلوها بما فيها. قالوا: لا، حتى نعلم ما فيها، كيف حُدودها وفرائضها. فراجعوا موسى مراراً، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء، حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى: ألا تزرون ما يقول ربِّي عز وجل؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأزيمتكم بهذا الجبل قال: فحدثني الحسن البصري قال: لما نظروا إلى الجبل حَزَّ كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل، فرحاً من أن يسقط، فكذلك ليس اليوم في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التي رُفِعَتْ بها العقوبة. قال أبو بكر: فلما نُشِرَ الألواح فيها كتاب الله كتبه بيده، لم يبق على وجه الأرض جَبَلٌ ولا شَجَرٌ ولا حَجَرٌ إلا اهتز، فليس اليوم يهودي على وجه الأرض صغيرٌ ولا كبيرٌ تُقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونَغَضَ لها رأسه أي: حَزَّ، كما قال تعالى: ﴿فَسَيَنْوَسُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥١] والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

يُخْبِرُ تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقْرَهُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

[٣١٩٣] وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «كل مولود يولد على الفطرة - وفي رواية: على هذه الملة - فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء؟»^(١)

[٣١٩٤] وفي صحيح مسلم، عن عياض بن جمار قال: قال رسول الله - ﷺ -: «يقول الله: إني خلقت عبادي خنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم، وخرّمت عليهم ما أحللت لهم»^(٢).

[٣١٩٥] وقال الإمام أبو جعفر بن جرير - رحمه الله -: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني السري بن يحيى: أن الحسن بن أبي الحسن حدثهم، عن الأسود بن سريع من بني سعد قال: غزوت مع رسول الله - ﷺ - أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المكاتلة، فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فاشتد عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية؟» فقال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إن خياركم أبناء المشركين! ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو ينصرانها» قال الحسن: ولقد قال الله في كتابه: ﴿وَلَا أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَيْتِ آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾... الآية^(٣). وقد رواه الإمام أحمد، عن إسماعيل بن علقمة، عن يونس بن عبيد، عن الحسن بن علي، عن الحسن البصري، به. وأخرج النسائي في سننه من حديث هشيم، عن يونس بن عبيد، عن الحسن قال: حدثنا الأسود بن سريع، فذكره، ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك. وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفي بعضها الإشهاد عليهم بأن الله ربههم.

[٣١٩٦] قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «يقال لرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مُتديباً به؟ قال: فيقول نعم. فيقول: قد أردت منك أهونَ من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي»^(٤). أخرجه في الصحيحين، من حديث شعبة، به.

[٣١٩٧] حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا جرير - يعني ابن حازم - عن كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، عن النبي - ﷺ - قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام - بنعمان - يعني عرفة - فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قبلاً، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٧٧﴾ أَوْ تَقُولُوا ﴿٥﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾»^(٦). وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه، عن محمد بن عبد الرحيم -

(١) تقدم في سورة النساء آية: ١١٩.

(٢) تقدم في سورة الأنعام آية: ٧٩.

(٣) أخرجه الطبري ١٥٣٦٤، ورجاله ثقات، لكن فيه عنعنة الحسن. وأخرجه أحمد ٤٣٥/٣ والنسائي في «الكبرى» ٨٦١٦ كلاهما من طريق الحسن به دون ذكر الآية وصححه الحاكم ١٢٣/٢ على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٣٤ ومسلم ٢٨٠٥ وأحمد ١٢٧/٣ و١٢٩ وأبو يعلى ٤١٨٦.

(٥) هذه قراءة أبي عمرو «أن يقولوا» و«أو يقولوا»، وقرأ الباقون بالتاء.

(٦) الرجوع وقفه. أخرجه أحمد ٢٧٢/١ ح ٢٤٥١ والنسائي في «الكبرى» ١١١٩١ والطبري ١٥٣٤٩ والحاكم ٢٧/١/٢.

صاعقة - عن حُسَيْن بن محمد المروزي، به. ورواه ابْنُ جَرِيرٍ وابن أبي حاتم من حديث حُسَيْن بن محمد، به، إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفاً. وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره، عن جرير ابن حازم، عن كلثوم بن جَبْرِ، به. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جَبْرِ. هكذا قال، وقد رواه عبد الوارث، عن كلثوم بن جَبْرِ، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس، فوقفه، وكذا رواه إسماعيل بن عُليّة ووكيع، عن ربيعة بن كلثوم، عن أبيه، به. وكذا رواه عطاء بن السائب، وحبيب بن أبي ثابت، وعلي بن بذيمة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس، قوله. وكذا رواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس. فهذا أكثر وأثبت، والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن أبي هلال، عن أبي جَمْرَةَ الضَّبْعِي، عن ابن عباس قال: أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر، وهو في آذني من الماء. وقال أيضاً: حدثنا علي بن سهل، حدثنا ضَمْرَةَ بن ربيعة، حدثنا أبو مسعود، عن جُوَيْرٍ قال: مات ابنُ للضحاك بن مزاحم، ابنُ ستة أيام. قال: فقال: يا جابر، إذا أنت وضعت ابني في لَحْدِهِ، فأبرز وجهه، وحلّ عنه عقده، فإن ابني مُجَلْسٌ ومَسْوُولٌ. ففعلت به الذي أمر، فلما قرغت قلت: يرحمك الله، عم يسأل ابئك؟ من يسأله إياه؟ قال: يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم. قلت: يا أبا القاسم، وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم؟ قال: حدثني ابنُ عباس أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نَسَمَةٍ هو خلقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق: أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً، وتكفل لهم بالأرزاق، ثم أعادهم في صلبه. فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به، نفعه الميثاق الأول. ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به لم ينفعه الميثاق الأول، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر، مات على الميثاق الأول على الفطرة. فهذه الطرق كلها ما يقوي وقف هذا على ابن عباس، والله أعلم.

[٣١٩٨] حديث آخر: وقال ابنُ جرير: حدثنا عبد الرحمن بن الوليد، حدثنا أحمد بن أبي طَيِّبَةَ، عن سفيان بن سعيد، عن الأجلح، عن الضحاك، وعن منصور، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله - ﷺ -: ﴿وَأَدْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، قال: أخذوا من ظهره، كما يؤخذ بالمشط من الرأس، فقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾. قالت الملائكة: ﴿شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(١). أحمد بن أبي طَيِّبَةَ هذا هو: أبو محمد الجرجاني قاضي قومس، كان أحد الزهاد، أخرج له النسائي في سننه، وقال أبو حاتم الرازي: يُكْتَبُ حديثه. وقال ابنُ عَدِيٍّ: حَدَّثَ بأحاديث كثيرة أكثرها غرائب. وقد رَوَى هذا الحديث عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، قوله. وكذا رواه جرير، عن منصور، به. وهذا أصح، والله أعلم.

٥٤٤ من حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبر عن ابن عباس مرفوعاً. صححه الحاكم، وقال: احتج مسلم بكلثوم بن جبر، ووافقه الذهبي. وأما النسائي، فقال: كلثوم هذا غير قوي، وحديثه غير محفوظ. والظاهر أن الوهم في رفعه، إنما هو من جهة جرير بن حازم، فإنه ثقة لكن له أوهام إذا حدث من حفظه، أو الوهم عن دونه فقد أخرجه الطبري ١٥٣٥٠ عن عبد الوارث عن كلثوم عن سعيد بن جبر عن ابن عباس موقوفاً. وتابعه ابن علي برقم ١٥٣٥١ عن كلثوم به موقوفاً. و١٥٣٥٢ وبرقم ١٥٣٥٣ و١٥٣٥٤ تابعه عطاء بن السائب، فرواه عن سعيد بن جبر عن ابن عباس موقوفاً. فالصواب في هذا الحديث الوقف، كما رواه غير واحد، والله أعلم.

(١) أخرجه الطبري ١٥٣٦٥ بهذا الإسناد، وفيه أحمد بن أبي طيبة غير قوي، وقد خالفه غير واحد فرواه موقوفاً أخرجه الطبري ١٥٣٦٦ و١٥٣٦٧ وكلا الإسنادين صحيح، والله أعلم.

[٣١٩٩] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا روح - وهو ابن عُبادة - حدثنا مالك - وحدثنا إسحاق، أخبرنا مالك - عن زيد بن أبي أنيسة: أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره. عن مسلم بن يسار الجهني: أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ...﴾ الآية، فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله - ﷺ - سئل عنها، فقال: «إن الله خلق آدم - عليه السلام - ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذُرِّيَّةً، قال: خلقت هؤلاء للجنة، ويعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذُرِّيَّةً، قال: خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون». فقال رجل: يا رسول الله، فقيم العمل؟ قال رسول الله - ﷺ -: «إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة. وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار»^(١). وهكذا رواه أبو داود عن القعقبي - والنسائي عن قتيبة - والترمذي عن إسحاق بن موسى، عن مغن - وابن أبي حاتم، عن يونس بن عبد الأعلى، عن وهب - وابن جرير من حديث روح بن عباد وسعد بن عبد الحميد بن جعفر - وأخرجه ابن حبان في صحيحه، من رواية أبي مصعب الزبيري، كلهم عن الإمام مالك بن أنس، به. قال الترمذي: وهذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع عمر. وكذا قاله أبو حاتم وأبو زرعة. زاد أبو حاتم: وبينهما نعيم بن زبيعة.

[٣٢٠٠] وهذا الذي قاله أبو حاتم رواه أبو داود في سننه، عن محمد بن مصفى، عن بقية، عن عمر ابن جعثم القرشي، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يسار الجهني، عن نعيم بن زبيعة قال: كنت عند عمر بن الخطاب، وقد سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾ فذكره^(٢). وقال الحافظ الدارقطني: وقد تابع عمر بن جعثم يزيد بن سنان أبو فزوة الرهاوي، وقولهما أولى بالصواب من قول مالك، والله أعلم. قلت: الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر نعيم بن زبيعة عمداً لما جهل حاله ولم يعرفه، فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث، وكذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم، ولهذا يرسل كثيراً من المرفوعات، ويقطع كثيراً من الموصولات، والله أعلم.

[٣٢٠١] حديث آخر: قال الترمذي عند تفسيره هذه الآية: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا أبو نعيم، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذرئته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان

(١) أخرجه أبو داود ٤٧٠٣ والترمذي ٣٠٧٥ وأحمد ٤٤/١ - ٤٥ والطبري ١٣٥٦٨ والحاكم ٢٧/١ ٥٤٤/٢ وابن حبان ٦١٦٦ كلهم من طريق مالك به، وفيه إرسال بين مسلم بن يسار وعمر، لكن جاء موصولاً في رواية أبي داود الآتية، وللحديث شواهد تقويه إن شاء الله، وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٧٠٤ والطبري ١٥٣٦٩ وابن عبد البر في «التمهيد» ٤/٦ - ٤ - ٥ وقال: هذا الحديث منقطع بهذا الإسناد، لأن مسلم بن يسار لم يلق عمر بن الخطاب، وزيادة من زاد فيه نعيم بن زبيعة ليست حجة، لأن الذي لم يذكره أحفظ، وإنما تقبل الزيادة من الحافظ المتقن، وجملة القول في هذا الحديث: إنه حديث ليس إسناده بالقائم، لأن مسلم بن يسار ونعيم بن زبيعة جميعاً غير معروفين بحمل العلم، ولكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة يطول ذكرها اهـ. وللحديث شواهد كثيرة انظر تفسير القرطبي ٣١٣٩ و ٣١٤٠ بتخريري.

منهم وَيَبْصَأُ مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، مِنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ. فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعَجَبَهُ وَيَبْصَأُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، مِنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأَمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ. قَالَ: رَبِّ، وَكَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً. قَالَ: أَيُّ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً. فَلَمَّا انْقَضَى عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ قَالَ: أَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوْ لَمْ تُعْطِهَا ابْنُكَ دَاوُدَ؟ قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ آدَمُ فَحَسِبَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِيءُ آدَمَ فَحَطَّتْ ذُرِّيَّتُهُ^(١). ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رَوَى مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي نُعَيْمٍ الْفَضْلِيِّ بْنِ دُكَيْنٍ، بِهِ، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يَخْرُجْهُ.

[٣٢٠٢] وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنِ أَبِيهِ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - فَذَكَرَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ، إِلَى أَنْ قَالَ: «ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: يَا آدَمُ هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ. وَإِذَا فِيهِمُ الْأَجْدُمُ وَالْأَبْرَصُ وَالْأَعْمَى، وَأَنْوَاعُ الْأَسْقَامِ، فَقَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا بِذُرِّيَّتِي؟ قَالَ: كَيْ تَشْكُرَ نِعْمَتِي. وَقَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ، مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَرَاهُمْ أَظْهَرَ النَّاسِ نُورًا. قَالَ: هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ يَا آدَمُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ»^(٢). ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ دَاوُدَ، كَنَحْوِ مَا تَقَدَّمَ.

[٣٢٠٣] حَدِيثٌ آخَرُ: قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ قَتَادَةَ التُّصْرِيُّ، عَنِ أَبِيهِ، عَنْ هِشَامِ بْنِ حَكِيمٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَبْتَدَأُ الْأَعْمَالَ، أَمْ قَدْ قُضِيَ الْقَضَاءُ؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَخَذَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ، ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ أَفَاضَ بِهِمْ فِي كُفْيِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ»، فَأَهْلُ الْجَنَّةِ مَيْسُورُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ»^(٣). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ مَرْزُوقٍ، مِنْ طَرَفٍ، عَنْهُ.

[٣٢٠٤] حَدِيثٌ آخَرُ: رَوَى جَعْفَرُ بْنُ الزَّيْبِرِ - وَهُوَ ضَعِيفٌ - عَنِ الْقَاسِمِ، عَنِ أَبِي أَمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، وَقَضَى الْقَضِيَّةَ، أَخَذَ أَهْلَ الْيَمِينِ بِيَمِينِهِ وَأَهْلَ الشَّمَالِ بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: يَا أَصْحَابَ الْيَمِينِ. فَقَالُوا: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: يَا أَصْحَابَ الشَّمَالِ. قَالُوا: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى. ثُمَّ خَلَطَ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ قَاتِلُ: يَا رَبِّ، لِمَ خَلَطْتَ بَيْنَهُمْ. قَالَ: «لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ، أَنْ يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، ثُمَّ رَدَّاهُمْ فِي صُلْبِ آدَمَ»^(٤). رَوَاهُ ابْنُ مَرْزُوقٍ.

(١) غريب. أخرجه الترمذي ٣٠٧٦ وابن سعد ٢٧/١ - ٢٨ والحاكم ٢٨٦/٢ من طرق عن هشام بن سعد به، وهذا إسناد لين هشام بن سعد روى له مسلم في الشواهد، قال أحمد: لم يكن بالمحافظ. وورد من وجه آخر من طريق سعيد المقبري عن أبي هريرة عند الترمذي ٣٣٦٨ وابن حبان ٦١٦٧ والحاكم ٦٤/١ في أثناء حديث، وفي إسناده لين أيضاً الحارث بن عبد الرحمن، وإن روى له مسلم، ووثقه غير واحد فقد قال أبو حاتم: ليس بالقوي. وقال ابن حزم: ضعيف. والحديث صححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن غريب. وانظر «أحكام القرآن» لابن العربي ٩٢٨ بتخريري.

(٢) إسناده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد تفرد فيه بالفاظ ليست في شيء من شواهد.

(٣) أخرجه الطبري ١٥٣٧٧ والبخاري ٤٣٤ و٤٣٥ والآجري في «الشرعية» ٣٤٣ وإسناده حسن رجاله ثقات، وصرح بقية بن الوليد بالتحديث، ولاكثر هذا المتن شواهد وطرق، راجع «المجمع» ١٨٦/٧ و«أحكام القرآن» ٩٢٧ لابن العربي بتخريري.

(٤) إسناده ضعيف جداً، لضعف جعفر بن الزبير: كذبه شعبة، وقال يحيى: ليس بثقة. وقال البخاري: تركوه.

أثر آخر: قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَيِّ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ . . . الآية والتي بعدها، قال: فَجَمَعَهُمْ لَهُ يَوْمَئِذٍ جميعاً، ما هو كائن منه إلى يوم القيامة، فجمعهم أرواحاً، ثم صورهم، ثم استنطقهم فتكلموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ . . . الآية، قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع، والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا. اعلموا أنه لا إله غيري، ولا ربٌ غيري، ولا تشركوا بي شيئاً، وإني سأرسل إليكم رُسُلًا يُذَكِّرُونَكُمْ عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتبي. قالوا: نشهد أنك ربُّنا وإلهنا، لا ربٌ لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك. فأقروا له يومئذٍ بالطاعة، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم، فرأى فيهم الغني والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك. فقال: يا رب، لو سويت بين عبادك؟ قال: إني أحببت أن أشكر. ورأى فيهم الأنبياء مثل السُّرُج عليهم النور، وخُصُّوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذي يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧] . . . الآية، وهو الذي يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، ومن ذلك قال: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٦]، ومن ذلك قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِن عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]. رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه، ورواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مَرْذُوبِيه في تفاسيرهم، من رواية أبي جعفر الرازي، به. وروى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبَّير، والحسن، وقتادة، والسدي، وغير واحد من علماء السلف سياقات توافق هذه الأحاديث، اكتفينا بإيرادها عن التطويل بتلك الآثار كلها، وبالله المستعان. فهذه الأحاديث دالة على أن الله - عز وجل - استخرج ذرية آدم من صلبه. وميَّز بين أهل الجنة وأهل النار. وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربُّهم فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبَّير، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس، وفي حديث عبد الله ابن عمرو، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، كما تقدم. ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما تقدَّم في حديث أبي هريرة وعياض بن جَمَار المَجَاشِعِي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سَرِيح. وقد فسر الحسن البصري الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَيِّ آدَمَ﴾، ولم يقل: من آدم، ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾، ولم يقل: من ظهره ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، أي: جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَعَكُمْ خَلْقًا مِّنَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿وَيَجْمَعُكُمْ خُلُقَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّتِكُمْ قَوْمٍ مَّخْلُوقِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]. ثم قال: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾، أي: أوجدتهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً وقالاً: والشهادة تارة تكون بالقول، كما قال: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] . . . الآية، وتارة تكون حالاً، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]، أي: حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا لُؤْلُؤًا مِّن ذُنُوبِهِمْ﴾ [العديات: ٧]، كما أن السؤال تارة يكون بالقول، وتارة يكون بالحال، كما في قوله: ﴿وَأَنذَرْتَكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراف، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال، لكان كلُّ أحدٍ يذكره، ليكون حجة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول به كاف في وجوده. فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، ويجعل هذا حجة مستقلة عليهم، فدلَّ على أن الفطرة التي فُطِرُوا عليها هي الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال: ﴿أَن تَقُولُوا﴾، أي:

لثلاً يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾، أي: التوحيد ﴿غَافِلِينَ﴾ ﴿١٧٧﴾ أَوْ قَوْلُوا إِنَّمَا أَشْرَكْنَا آبَاءَنَا... الآية.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَآسَلَخُوا مِنهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

قال عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن الأعمش ومنصور، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - في قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَآسَلَخُوا مِنهَا﴾... الآية، قال: هو رجل من بني إسرائيل، يقال له: بلعم بن أبر. وكذا رواه شعبة وغير واحد، عن منصور، به. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن ابن عباس: هو صيفي بن الراهب. قال قتادة: وقال كعب: كان رجلاً من أهل البلقاء، وكان يعلم الاسم الأكبر، وكان مقيماً ببيت المقدس مع الجبارين. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو رجل من أهل اليمن، يقال له: بلعم، آتاه الله آياته فتركها. وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجاب الدعوة، يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى إلى ملك مدين يدعو إلى الله، فأقطعاه وأعطاه، فقتل دينه وترك دين موسى عليه السلام. وقال سفيان بن عيينة، عن حصين، عن عمران بن الحارث، عن ابن عباس: هو بلعم بن باعور. وكذا قال مجاهد وعكرمة. وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا إسرائيل، عن مغيرة، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: هو بلعام. وقالت ثقيف: هو أمية بن أبي الصلت. وقال شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن نافع بن عاصم، عن عبد الله بن عمرو في قوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ﴾... الآية، قال: هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت. وقد روي من غير وجه، عنه. وهو صحيح إليه، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، ولكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله - ﷺ - وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته. وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه، وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم، ورثى أهل بدر من المشركين بمائة بليغة، قبحه الله.

[٣٢٠٥] وقد جاء في بعض الأحاديث: «أنه ممن آمن لسأته، ولم يؤمن قلبه»^(١)؛ فإن له أشعاراً ربانية، وحكماً وفصاحة، ولكن لم يشرح الله صدره للإسلام. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمير، حدثنا سفيان، عن أبي سعيد الأعور، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَآسَلَخُوا مِنهَا﴾، قال: هو رجل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن، وكانت له امرأة له منها ولد، فقالت: اجعل لي منها واحدة. قال: فلك واحدة، فما الذي تريد؟ قالت: ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل. فدعا الله، فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه،

(١) لم أتف عليه بهذا اللفظ. وأخرج مسلم ٢٢٥٥ من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: استشدني رسول الله ﷺ... وفيه «إن كاد ليسلم» وفي رواية «فلقد كاد يسلم في شعره». وانظر حديث أبي هريرة الآتي في سورة القصص عند آية: ٨٨ وحديث ابن عباس الآتي في سورة غافر عند آية: ٧.

وأرادت شيئاً آخر، فدعا الله أن يجعلها كلبة، فصارت كلبة، فذهبت دعوتان. فجاء بنوها فقالوا: ليس بنا على هذا قرار، قد صارت أئماً كلبة يُعِيرُنا الناس بها، فداع الله أن يردّها إلى الحال التي كانت عليها، فدعا الله، فعادت كما كانت، فذهبت الدعوات الثلاث، وسُمِّيت البَسُوسُ. غريب. وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجلٌ من المتقدمين في زمان بني إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هورجلٌ من مدينة الجبارين، يقال له: بلعام، وكان يعلم اسم الله الأكبر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره من علماء السلف: كان مجابِّ الدعوة، ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه. وأغرب، بل أبعد، بل أخطأ من قال: كان قد أوتِيَ النبوةَ فانسلخ منها. حكاها ابن جرير، عن بعضهم. ولا يصح. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لما نزل موسى بهم - يعني بالجبارين - ومن معه، آتاه - يعني بلعام - آتاه بنو عمه وقومه، فقالوا: إن موسى رجلٌ حديدٌ، معه جنود كثيرة، وإنه إن يَظْهَرُ علينا يُهْلِكُنَا، فداع الله أن يرُدَّ عَنَّا موسى ومن معه. قال: إني إن دعوتُ الله أن يرُدَّ موسى ومن معه، ذهبت دنياي وآخرتي. فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾. . . الآية. وقال السدي: إن الله لما انقضت الأربعون سنة التي قال الله: ﴿فَاتَّبَعَهَا مَحْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: ٢٦]، بعث يوشع بن نون نبياً، فدعا بني إسرائيل، فأخبرهم أنه نبي، وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين، فبايعوه وصَدَّقوه - وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له: بلعام وكان عالماً يُعَلِّمُ الاسم الأعظم المكتوم، فكفّر - لعنه الله - وأتى الجبارين، وقال لهم: لا ترهبوا بني إسرائيل، فإنني إذا خرجتم تقاتلونهم أَدْعُو عليهم دعوة فيهلكون! وكان عندهم فيما شاء من الدنيا، غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء، ليعظيهم، فكان ينكح أتاناً له، وهو الذي قال الله تعالى: ﴿فَأَنسَلَخَ مِنْهَا﴾. وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾، أي: استحوذ عليه وغلبه على أمره، فمهما أمره امتثل وأطاعه، ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْفَٰرِثِينَ﴾، أي: من الهالكين الحائرين البائسين.

[٣٢٠٦] وقد وَرَدَ في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حيث قال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَرْزُوقٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ، عَنِ الصُّلَيْبِيِّ بْنِ بَهْرَامٍ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ، حَدَّثَنَا جُنْدُبُ بْنُ الْجَبَلِيِّ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ: أَنَّ حُذَيْفَةَ - يَعْنِي ابْنَ الْيَمَانِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حَدَّثَهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنْ مِمَّا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ، حَتَّى إِذَا زُرِّيْتُمْ بِهِجْتُهُ عَلَيْهِ - وَكَانَ رِذَّةَ الْإِسْلَامِ أَعَزَّهُ - إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ - انْسَلَخَ مِنْهُ، وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسِّيفِ، وَرَمَاهُ بِالشَّرْكِ». قال: قلت يا نبي الله، أيهما أولى بالشرك: المرمي أو الرامي؟ قال: «بل الرامي»^(١). هذا إسنادٌ جيّدٌ. والصُّلَيْبِيُّ بْنُ بَهْرَامٍ كَانَ مِنْ ثِقَاتِ الْكُوفِيِّينَ، وَلَمْ يُزَمَّ بِشَيْءٍ سِوَى الْإِرْجَاءِ، وَقَدْ وَثَّقَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَيَحْيَى بْنُ مَعِينٍ وَغَيْرُهُمَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾، أي: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناها إياها، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾، أي: مال إلى زينة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهي. وقال أبو الزاهرية في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾، قال: تراءى له الشيطان على غلوة من قنطرة بانياس، فسجدت الحمارة لله، وسجد بلعام للشيطان. وكذا قال عبد الرحمن بن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، وغير واحد.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: وكان من قصة هذا الرجل ما حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَأَتَلُّوا مِنْ ثَمَرِهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾، فَحَدَّثَ عَنْ سَيَّارٍ: أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ: بِلْعَامُ، وَكَانَ مُجَابِبَ الدَّعْوَةِ، قَالَ: وَإِنْ مُوسَى أَقْبَلَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَرِيدُ الْأَرْضَ الَّتِي فِيهَا بِلْعَامُ - أَوْ قَالَ: الشَّامُ - قَالَ: فَرُغِبَ النَّاسُ مِنْهُ رَغْبًا شَدِيدًا، قَالَ: فَأَتَوْا بِلْعَامَ، فَقَالُوا: ادْعُ اللَّهَ عَلَيَّ هَذَا الرَّجُلَ وَجَيْشِهِ! قَالَ: حَتَّى أُوَامِرَ رَبِّي، أَوْ: حَتَّى أُؤَامَرَ - قَالَ: فَأَمَرَ فِي الدَّعَاءِ عَلَيْهِمْ، فَقِيلَ لَهُ: لَا تَدْعُ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ عِبَادِي، وَفِيهِمْ نَبِيَّتِهِمْ. قَالَ: فَقَالَ لِقَوْمِهِ: إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ رَبِّي فِي الدَّعَاءِ عَلَيْهِمْ، وَإِنِّي قَدْ نُهِيتُ. فَأَهْدُوا لَهُ هَدِيَّةَ فِقْبَلِهَا، ثُمَّ رَاجِعُوا فَقَالُوا: ادْعُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: حَتَّى أُوَامِرَ رَبِّي. فَأَمَرَ، فَلَمْ يَخْزُ إِلَيْهِ شَيْءٌ. فَقَالَ: قَدْ أَمَرْتُ فَلَمْ يَخْزُ إِلَيَّ شَيْءٌ! فَقَالُوا: لَوْ كَرِهَ رَبُّكَ أَنْ تَدْعُو عَلَيْهِمْ لَنَهَاكَ كَمَا نَهَاكَ الْمَرْءَ الْأَوَّلَى. قَالَ: فَأَخَذَ يَدْعُو عَلَيْهِمْ، فَإِذَا دَعَا عَلَيْهِمْ جَرَى عَلَى لِسَانِهِ الدَّعَاءُ عَلَى قَوْمِهِ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُو أَنْ يُفْتَحَ لِقَوْمِهِ، دَعَا أَنْ يُفْتَحَ لِمُوسَى وَجَيْشِهِ، أَوْ نَحْوًا مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. قَالَ: فَقَالُوا مَا نَرَاكَ تَدْعُو إِلَّا عَلَيْنَا. قَالَ: مَا يَجْرِي عَلَى لِسَانِي إِلَّا هَكَذَا، وَلَوْ دَعَوْتُ عَلَيْهِ أَيْضًا مَا اسْتَجِيبَ لِي، وَلَكِنْ سَأَلْتُكُمْ عَلَى أَمْرٍ عَسَى أَنْ يَكُونَ فِيهِ هَلَاكُكُمْ. إِنْ اللَّهُ يُبْغِضُ الزَّانَا، وَإِنَّهُمْ إِنْ وَقَعُوا بِالزَّانَا هَلَكُوا، وَرَجَوْتُ أَنْ يَهْلِكَهُمُ اللَّهُ، فَأَخْرَجُوا النِّسَاءَ يَسْتَقْبِلْنَهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ مُسَافِرُونَ. فَعَسَى أَنْ يَزْنُوا فِيهِلِكُوا. قَالَ: فَفَعَلُوا. قَالَ: فَأَخْرَجُوا النِّسَاءَ يَسْتَقْبِلْنَهُمْ. قَالَ: وَكَانَ لِلْمَلِكِ ابْنَةٌ، فَذَكَرَ مِنْ عَظَمَتِهَا مَا اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ! قَالَ: فَقَالَ أَبُوهَا - أَوْ بِلْعَامُ -: لَا تُثْمَكْنِي نَفْسِكَ إِلَّا مِنْ مُوسَى! قَالَ: وَوَقَعُوا فِي الزَّانَا. قَالَ: وَأَتَاهَا رَأْسٌ سَبِيطٌ مِنْ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَالَ: فَأَرَادَهَا عَلَى نَفْسِهَا. فَقَالَتْ: مَا أَنَا بِمُكْنِيَّةٍ نَفْسِي إِلَّا مِنْ مُوسَى. قَالَ: فَقَالَ: إِنْ مَنَزَلْتِي كَذَا وَكَذَا، وَإِنْ مِنْ حَالِي كَذَا وَكَذَا. قَالَ: فَأَرْسَلْتُ إِلَى أَبِيهَا تَسْتَأْمِرُهُ، قَالَ: فَقَالَ لَهَا: فَأَمَكْنِيهِ قَالَ: وَيَأْتِيهِمَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَارُونَ وَمَعَهُ الرَّمْحُ فَيُطْعِمُهُمَا. قَالَ: وَأَيْدِيَهُ اللَّهُ بِقُوَّةٍ، فَانْتَضَمَهُمَا جَمِيعًا، وَرَفَعَهُمَا عَلَى رَمْحِهِ، فَرَأَاهُمَا النَّاسُ - أَوْ كَمَا حَدَّثَ - قَالَ: وَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الطَّاعُونَ. فَمَاتَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا. قَالَ أَبُو الْمُعْتَمِرِ: فَحَدَّثَنِي سَيَّارٌ: أَنَّ بِلْعَامًا رَكِبَ حِمَارًا لَهُ حَتَّى أَتَى الْعَلُولِيَّ - أَوْ قَالَ: طَرِيقًا مِنَ الْعَلُولِيِّ - جَعَلَ يَضْرِبُهَا وَلَا تُقَدِّمُ، وَقَامَتْ عَلَيْهِ فَقَالَتْ: عَلَامُ تَضْرِبُنِي؟ أَمَا تَرَى هَذَا الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ! فَإِذَا الشَّيْطَانُ بَيْنَ يَدَيْهِ. قَالَ: فَنَزَلَ وَسَجَدَ لَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتَلُّوا مِنْ ثَمَرِهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. قَالَ: فَحَدَّثَنِي بِهَذَا سَيَّارٌ، وَلَا أُدْرِي لَعَلَّهُ قَدْ دَخَلَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ حَدِيثٍ غَيْرِهِ^(١). قُلْتُ: وَهُوَ بِلْعَامُ - وَيُقَالُ: بَلَعَمٌ - بِنِ بَاعُورَاءَ، وَيُقَالُ: ابْنِ أَبْرَ. وَيُقَالُ: ابْنِ بَاعُورِ بْنِ شَهُومِ بْنِ قُوشْتَمِ بْنِ مَابِ بْنِ لُوطِ بْنِ هَارَانَ - وَيُقَالُ: ابْنِ حِرَانَ - بِنِ آزَرَ. وَكَانَ يَسْكُنُ قَرْيَةً مِنْ قَرْيِ الْبَلْقَاءِ. قَالَ ابْنُ عَسَاكِرَ: وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَعْرِفُ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمِ، فَانْسَلَخْنَا مِنْ دِينِهِ، لَهُ ذِكْرٌ فِي الْقُرْآنِ. ثُمَّ أُورِدَ مِنْ قِصَّتِهِ نَحْوًا مِمَّا ذَكَرْنَا هَاهُنَا، أُورِدَهُ عَنْ وَهْبٍ وَغَيْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن سالم أبي النضر: أنه حَدَّثَ أَنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا نَزَلَ فِي أَرْضِ بَنِي كَنْعَانَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، أَتَى قَوْمَ بِلْعَامٍ إِلَيْهِ فَقَالُوا لَهُ: هَذَا مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَدْ جَاءَ يَخْرُجُنَا مِنْ بِلَادِنَا وَيَقْتُلُنَا وَيُحِلُّهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِنَّا قَوْمُكَ، وَلَيْسَ لَنَا مَنْزِلٌ، وَأَنْتَ رَجُلٌ مُجَابِبُ الدَّعْوَةِ، فَخَرَجَ فَادَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. قَالَ: وَيَلِكُمْ! نَبِي اللَّهِ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ، كَيْفَ أَذْهَبَ أَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَأَنَا أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا أَعْلَمُ! قَالُوا لَهُ: مَا لَنَا مِنْ مَنْزِلٍ! فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ يُرْفِقُونَهُ وَيَضْرَعُونَهُ إِلَيْهِ، حَتَّى فَتَنُوهُ فَافْتَتِنَ، فَرَكِبَ حِمَارًا لَهُ مَتَّوَجًا إِلَى الْجَبَلِ الَّذِي يُطْلِعُهُ عَلَى عَسْكَرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ جَبَلُ حُسْبَانَ، فَلَمَّا سَارَ عَلَيْهَا غَيْرَ

(١) هذا الأثر متلقى عن أهل الكتاب. وكذا ما بعده.

كثير رَزَيْتَ به، فنزل عنها فضربها، حتى إذا أذْلَقَهَا قامت فَرَكِيهَا. فلم تَسِرْ به كثيراً حتى رَزَيْتَ به. فضربها حتى إذا أذْلَقَهَا أذن الله لها فكلمته حُجَّةٌ عليه، فقالت: ويحك يا بلعم، أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي تُرْذِنِي عن وجهي هذا؟ أتذهب إلى نبيِّ الله والمؤمنين لتدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها يضربها، فخلَّى الله سبيلها حين فَعَلَ بها ذلك، فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حُسْبَانَ، على عسكر موسى وبني إسرائيل، جعل يدعو عليهم، ولا يدعو عليهم بشرٌ إلا صرف به لسانه إلى قومه، ولا يدعو لغيره إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل. فقال له قومه: أتدري يا بلعم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم، وتدعو علينا! قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غَلَبَ الله عليه! قال: واندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لهم: قد دَهَبَتْ مني الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكرُّ والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال: جَمَلُوا النساء وأعطوهن السَّلْع، ثم أرسلوهن إلى العسكر يَبْعَثُها فيه، ومَرُوهُن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كُفِّيَتْموهم. ففعلوا. فلما دخل النساء العسكر، مَرَّت امرأة من الكنعانيين اسمها كَسْبَى ابنة صور، رأس أمته - برجل من عظماء بني إسرائيل، وهو زَمْرِي بن شلوم، رأس سبط بني شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، فقام إليها، فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى عليه السلام، فقال: إني أظنك ستقول: هذا حرامٌ عليك؟ قال: أجل، هي حَرَامٌ عليك، لا تقربها. قال: فوالله لا نُطِيعُكَ في هذا. ثم دَخَلَ بها قُبَّتَهُ فَوَقَعَ عليها. وأرسل الله - عز وجل - الطاعونَ في بني إسرائيل، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون، صاحب أمر موسى، وكان غائباً حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء الطاعون يَجُوسُ في بني إسرائيل، فأخبر الخبر، فأخذ حَزْبَتَهُ - وكانت من حديد كلها - ثم دخل القبة وهما متضاجعان، فانظمتها بحرْبته، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء، والحربة قد أخذها بذراعه، واعتمد يَمْرُقُهُ على خاصرته، وأسند الحربة إلى لَحْيَيْهِ - وكان يَكْرَهُ العيزار - وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك. ورفَعَ الطاعون، فحسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فَنُحِصَ، فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفاً - والمقلل لهم يقول: عشرون ألفاً - في ساعة من النهار. فمن هنالك تُعْطَى بنو إسرائيل ولد فَنُحِصَ على كل ذبيحة ذبحوها الرُّقبة والذراع واللَّحْيَ - لاعتماده بالحربة على خاصرته، وأخذَه إياه بذراعه، وإسناده إياها إلى لَحْيَيْهِ - والبكر من كل أموالهم وأنفسهم، لأنه كان يَكْرَهُ أبِيهِ العيزار. ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله: ﴿وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ تِبْأَ الَّذِيءِ ءَاتَيْنَهُ ءَايَاتِنَا فَاَنْسَلَخَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿لَمَلَهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَشَلَلَهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ ذَرَكَهُ يَلْهَثُ﴾، اختلف المفسرون في معناه، فأما على سياق ابن إسحاق، عن سالم بن أبي النضر: أن بلعاماً اندلع لسانه على صدره، فتشبيهه بالكلب في لهثه في كلتا حالتيه إن رُجِرَ وإن تُرِكَ. وقيل معناه: فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه، وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء، كالكلب في لهثه في حالتيه، إن حَمَلَتْ عليه وإن تَرَكَته، وهو يلهث في الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه، كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، ونحو ذلك. وقيل: معناه أن قلب الكافر والمنافق والضالَّ ضعيفٌ فارغٌ من الهدى، فهو كثير الراجيب، فعُيِّرَ عن هذا بهذا. نُقِلَ نحوه عن الحسن البصري وغيره. وقوله تعالى: ﴿فَأَنْصَبِ الْقَصَصَ

لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»، يقول تعالى لنبيه محمد - ﷺ -: ﴿فَأَقْصِبْ قَلْبَكَ لَعَلَّهُمْ﴾، أي: لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام، وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه - في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سُئِلَ به أُعْطِيَ، وإذا دُعِيَ به أجاب - في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن، وشَغِبَ الإيمان، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان، كليم الله موسى بن عمران - عليه السلام - ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: فيحذروا أن يكونوا مثله؛ فإن الله قد أعطاهم علماً، وميّزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد - ﷺ - يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرتة وموازرتة، كما أخبرتهم أنبياءهم بذلك وأمرتهم به، ولهذا من خالف منهم في كتابه وكتمه فلم يُعَلِّمْ به العباد أحلَّ الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة. وقوله: ﴿سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، يقول تعالى: ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، أي: ساء مثلهم أن شُبِّهوا بالكلاب التي لا هِمة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حَيِّزِ العلم والهدى، وأقبل على شهوة نفسه، وأتبع هواه، صار شبيهاً بالكلب، وبش المثل مثله.

[٣٢٠٧] ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال: «ليس لنا مثلُ السَّوءِ، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه»^(١). وقوله: ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾، أي: ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم، بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضلَّ له، ومن أضله فقد خاب وخسر وضلَّ لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

[٣٢٠٨] ولهذا جاء في حديث ابن مسعود: «إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغديه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله لا مضلَّ له، ومن يضلل الله فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»^(٢). . . الحديث بتمامه، رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، وغيرهم.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ

ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾، أي: خلقنا وجعلنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾، أي: هيئاتهم لها، ويعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٦٢٢ والترمذي ١٢٩٨ والنسائي ٢٦٧/٦ وأحمد ٢١٧/١ من حديث ابن عباس. وأخرجه البخاري ٢٥٨٩ ومسلم ١٦٢٢ ح ٧ وأبو داود ٣٥٣٨ وابن ماجه ٢٣٨٥ وأحمد ٢٨٠/١ من حديث ابن عباس أيضاً لكن بلفظ «العائد في هبته كالعائد في قيئه».

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ٢١١٨ والترمذي ١١٠٥ والنسائي ٨٩/٦ وابن ماجه ١٨٩٢ وأحمد ٤٣٢/١ والبيهقي ٢١٤/٣ من طرق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود به.

[٣٢٠٩] كما ورد في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله - ﷺ - قال: «إن الله قدر مقادير الخلاق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»^(١).

[٣٢١٠] وفي صحيح مسلم أيضاً، من حديث عائشة بنت طلحة، عن خالتها عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - أنها قالت: دُعِيَ رسول الله - ﷺ - إلى جنازة صَبِيٍّ من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طُوبَى لهُ، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال: «أَوْ غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم»^(٢).

[٣٢١١] وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود: «ثم يُنْعَثُ إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات، فيكْتَبُ: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيداً»^(٣).

[٣٢١٢] وتقدم: أن الله لما استخرج ذرية آدم من ضلبي وجعلهم فريقين: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، قال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي»^(٤). والأحاديث في هذا كثيرة، ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها. وقوله تعالى: «لَمْ يَلْمِزْكُمْ عَمَلَكُمْ وَلَا تَبْغَىٰ عَلَيْكُمْ سَمْعَهُمْ وَلَا أَبْصَارَهُمْ وَلَا أَفْئِدَتَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ» [الأحقاف: ٢٦]... الآية. وقال تعالى: «لَمْ يَلْمِزْكُمْ عَمَلَكُمْ وَلَا يَرْجُمُونَ» [البقرة: ١٧٨]، هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: «لَمْ يَلْمِزْكُمْ عَمَلَكُمْ وَلَا يَقُولُونَ» [البقرة: ١٧١]، ولم يكونوا صماً ولا بكماً ولا عمياً إلا عن الهدى، كما قال تعالى: «وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ» [الأنفال: ٢٣]، وقال: «فَإِنَّمَا لَا تَمَنَّى الْأَبْتَرُ وَلَكِن تَمَنَّى الْقَلُوبُ الَّتِي فِي السُّدُورِ» [الحج: ٤٦]، وقال: «وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضَ لَمْ يَسْتَلْنَا لَهُمْ لَمْ فَرِين» [٣٦] «وَأَنَّهُمْ لَيَصَدِّقُنَّ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ» [الزخرف: ٣٦ - ٣٧]. وقوله تعالى: «أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ»، أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يؤمنونه ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يعيها من ظواهر الحياة الدنيا كما قال تعالى: «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِذْيِ يُتَوَقَّأُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاةً وَنِدَاةً» [البقرة: ٢٧١]، أي: ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان، كمثال الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول. ولهذا قال في هؤلاء: «بَلْ هُمْ أَصْلٌ»، أي: من الدواب؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبس بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء؟ ولأن الدواب تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر، كانت الدواب أتم منه، ولهذا قال تعالى: «أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَصْلٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ».

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٥٣ والترمذي ٢١٥٦ وأحمد ١٦٩/٢ وابن حبان ٦١٣٨ والبيهقي في «الصفات» ٧٩٩.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٦٢ وأبو داود ٤٧١٣ والنسائي ٥٧/٤ وابن ماجه ٨٢ وأبو يعلى ٤٥٥٣ وأحمد ٤١/٦ و٢٠٨ وابن حبان ١٢٨.

(٣) تقدم في سورة البقرة عند آية: ٢٣٤ وصدده «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه...».

(٤) تقدم عند آية: ١٧٢ من هذه السورة.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

[٣٢١٣] عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مثته إلا واحداً من أحصاها دَخَلَ الجنة، وهو وثر يحبُّ الوثر»^(١). أخرجاه في الصحيحين من حديث سُفيان بن عُيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عنه. ورواه البخاري، عن أبي اليمان، عن شعيب بن أبي حمزة، عن أبي الزناد، به.

[٣٢١٤] وأخرجه الترمذي، عن الجوزجاني، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شعيب فذكر بسنده مثله، وزاد بعد قوله: «يحبُّ الوثر»: هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المُذِل، السميع، البصير، الحَكَم، العَدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المُقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المُجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المُحصي، المُبدئ، المُعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقدر، المُقدِّم، المُؤخِّر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البَرُّ، التواب، المنتقم، العَفْو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المُقسِط، الجامع، الغني، المُغني، المانع، الضارُّ، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور»^(٢). ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب... وقد روي من غير وجهٍ عن أبي هريرة، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. ورواه ابن جِبَّان في صحيحه، من طريق صفوان، به. وقد رواه ابن ماجه في سننه، من طريق آخر، عن موسى بن عقبة، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً، فسرد الأسماء كنعو ما تقدم بزيادة ونقصان. والذي عَوَّل عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مُدرَج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن، كما ورد عن جعفر بن محمد، وسفيان بن عُيينة، وأبي زيد اللغوي، والله أعلم.

ثمَّ لِيَعْلَمَ أن الأسماء الحسنَى ليست منحصرة في التسعة والتسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده، عن يزيد بن هارون، عن فضيل بن مرزوق، عن أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - أنه قال:

[٣٢١٥] «ما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حُزُنٌ فقال: اللهم، إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سَمَّيتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو أعلمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي،

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤١٠ ومسلم ٢٦٧٧ والترمذي ٣٥٠٦ وابن ماجه ٣٨٦٠ وأحمد ٢٦٧/٢ و٤٢٧ وابن حبان ٨٠٧ والبخاري في «التفسير» ٩٥٤ من طرق من حديث أبي هريرة.

(٢) تقدم تحريجه والكلام عليه في سورة الفاتحة «فصل البسملة».

ونورَ صَدْرِي، وجَلَاءَ حَزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي - إلا أذهب الله هَمَّهُ وحَزَنَهُ، وأبدله مكانه فَرَحًا. فقيل: يا رسول الله، أفلا تتعلمها؟ فقال: بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها^(١). وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن جَبَّان البُسْتِي في صحيحه، بمثله. وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه «الأحوذِي في شرح الترمذي» أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَذُرُّوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي آسَمْتِهِ﴾ قال: إلحاد الملحدين: أن دَعَوْا «اللات» في أسماء الله. وقال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: ﴿وَذُرُّوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي آسَمْتِهِ﴾، قال: اشتقوا «اللات» من الله، واشتقوا «العزى» من العزيز. وقال قتادة: ﴿يَلْحَدُونَ﴾، يشركون. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب. وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١)

يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾، أي: ومن الأمم ﴿أُمَّةً﴾ قائمة بالحق، قولاً وعملاً، ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، يقولونه ويدعون إليه، ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾، يعملون ويقضون. وقد جاء في الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية هي هذه الأمة المحمدية.

[٣٢١٦] قال سعيد، عن قتادة في تفسير هذه الآية: بلغنا أن نبي الله - ﷺ - كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هذه لكم، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها: ﴿وَمِمَّنْ قَوْمٌ مَوْسَى أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾» (٢).

[٣٢١٧] وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١)، قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن من أمتي قوماً على الحق، حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل» (٣).

[٣٢١٨] وفي الصحيحين، عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة» (٤) - وفي رواية -: «حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» - وفي رواية -: «وهم بالشام» (٥).

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٢) وَأَمْلِي لَهُمْ لِيَّتْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (١٨٣)

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٢)، ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا، حتى يفتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى: ﴿فَلَسْنَا

(١) جيد. أخرجه أحمد ١/٣٩١ و٤٥٢ وأبو يعلى ٥٢٩٧ والحاكم ٥٠٩/١ وابن حبان ٩٧٢ من طرق عن فضيل ابن مرزوق به، وإسناده صحيح. أبو سلمة الجهني هو موسى بن عبد الله ويقال: ابن عبد الرحمن، وهو ثقة من رجال مسلم وقد وصفه الذهبي بالجهالة فلم يعرفه.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبري: ١٥٤٧٠ عن قتادة مرسلًا بصيغة التمرير، فهو ضعيف.

(٣) هذا مرسل. عزاه السيوطي في «الدرر» ٣/٢٧٢ لابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس مرسلًا.

(٤) تقدم في سورة البقرة عند آية: ١٢٠ و١٢٩.

(٥) لفظ «وهم بالشام» ليس في الصحيحين، ولم يصح مرفوعاً، وإنما هو من قول معاذ بن جبل، وتقدم الكلام على ذلك.

فَسُوا مَا دُخِرُوا بِهِ فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَنْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أَوْتُوا لَعَنَدْنَهُمْ بَعَثْنَا إِذَا هُمْ مُتَلِسُونَ ﴿١٨٤﴾ فَطَعَلَجَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٥﴾ [الأنعام: ٤٤ - ٤٥]. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأْمُرِي لَهُمْ﴾، أي: وسألمي لهم، أي: أطول لهم ما هم فيه ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: قوي شديد.

﴿أَوْلَمْ يَنْفَكُرُوا مَا بَصَّاحِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَنْفَكُرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بَصَّاحِهِمْ﴾ يعني محمداً - صلوات الله وسلامه عليه - ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾، أي: ليس به جنون، بل هو رسول الله حقاً، دعا إلى حق، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، أي: ظاهر لمن كان له قلب ولب يعقل به ويعي به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَجْدَةِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْفِقِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الأنعام: ٢٢٢]، ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، ﴿نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢٢٣﴾﴾ [سبأ: ٤٦]، يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا لله، أي: قياماً خالصاً لله ليس فيه تعصب ولا عناد، ﴿مَشْفِقِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾، أي: مجتمعين ومتفرقين، ﴿ثُمَّ نَنْفَكُرُوا﴾ في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله: أله يجنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول الله ﷺ حقاً وصدقاً.

[٣٢١٩] وقال قتادة بن دعامة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ - ﷺ - كَانَ عَلَى الصِّفَا، فَدَعَا قُرَيْشًا، فَجَعَلَ يُفْخَذُهُمْ فِخْذًا: «يَا بَنِي فَلان... يَا بَنِي فَلان». فَخَذَرَهُمْ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَوَقَائِعِ اللَّهِ، فَقَالَ قَائِلُهُمْ: إِنْ صَاحِبُكُمْ هَذَا لِمَجْنُونٍ! بَاتَ يَصُوتُ إِلَى الصَّبَاحِ - أَوْ: حَتَّى أَصْبَحَ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوْلَمْ يَنْفَكُرُوا مَا بَصَّاحِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٦﴾﴾ (١).

﴿أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ

فِي آيَةِ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

يقول تعالى أَوْلَمْ يَنْظُرُوا هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض، وفيما خلق الله من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله، ويُنِيبُوا إلى طاعته، وَيَخْلَعُوا الأنداد والأوثان، وَيَحْذَرُوا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه. وقوله: ﴿فِي آيَةِ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب - بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه، الذي أتاهم به من عند الله في أي كتابه - يصدقون؟ إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله، عز وجل.

[٣٢٢٠] وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ حَسَنِ بْنِ مُوسَى، وَعَقَّانَ بْنِ مُسْلِمٍ، وَعَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ عَبْدِ الْوَارِثِ، عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلْمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدِ بْنِ جُدْعَانَ، عَنْ أَبِي الصَّلْتِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «رَأَيْتَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي، لَمَّا أَتَيْتُنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَنَظَرْتُ فَوْقِي، فَإِذَا أَنَا بِرَعْدٍ وَبَرْقٍ وَصَوَاقِقٍ، قَالَ: وَأَتَيْتُ عَلَى قَوْمٍ بَطُونُهُمْ كَالْبَيْوتِ فِيهَا الْحَيَاثُ تُرَى مِنْ خَارِجِ بَطُونِهِمْ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيْلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ أَكَلَةُ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ١٥٤٧٢ عَنْ قَتَادَةَ مَرْسَلًا بِصِيغَةِ التَّمْرِيزِ، وَهَذَا ضَعِيفٌ، وَالتَّنْ غَرِيبٌ بِهَذَا اللَّفْظِ، وَحَدِيثٌ وَقُوفُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الصَّفَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بِغَيْرِ هَذَا اللَّفْظِ.

الربا. فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل مني، فإذا أنا برهج ودخان وأصوات، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لראوا المعجائب^(١). علي بن زيد بن جُدعان له منكرات. ثم قال تعالى:

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَهِدَى لِمَنْ وَيَدْرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

يقول تعالى: من كُتِبَ عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزى عنه شيئاً، ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْقِبُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [يونس: ١٠١].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفِهَا إِلَّا هُوَ نُفِثَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَافِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾. قيل: نزلت في قريش. وقيل: في نفر من اليهود. والأول أشبه، لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها، وتكذيباً بوجودها؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَوْلُوكَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ آلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِسُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشورى: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿أَيَّانَ مُرْسِنُهَا﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: منتهاها، أي: متى محطها وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفِهَا إِلَّا هُوَ﴾، أمر تعالى نبيه - ﷺ - إذا سُئِلَ عن وقت الساعة، أن يرد علمها إلى الله تعالى؛ فإنه هو الذي يجليها لوقتها، أي: يعلم جليلة أمرها، ومتى يكون على التحديد، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى، ولهذا قال: ﴿نُفِثَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿نُفِثَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قال: نُفِثَ علمها على أهل السموات والأرض، إنهم لا يعلمون. قال معمر: قال الحسن: إذا جاءت نُفِثَتْ على أهل السموات والأرض. يقول: كُتِبَتْ عليهم. وقال الضحاک، عن ابن عباس في قوله: ﴿نُفِثَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة. وقال ابن جرير: ﴿نُفِثَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قال: إذا جاءت انشقت السماء، وانتشرت النجوم، وكُوتت الشمس، وسُيرت الجبال، وكان ما قال الله عز وجل، فذلك ثقلها. واختار ابن جرير رحمه الله: أن المراد: نُفِثَ علم وقتها على أهل السموات والأرض، كما قال قتادة. وهو كما قاله، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً﴾، ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض، والله أعلم. وقال السدي: ﴿نُفِثَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يقول: حَفِيَّتْ في السموات والأرض، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نبي مرسل. ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً﴾، بيغتهم قيامها، تأتيمهم على غفلة.

[٣٢٢١] وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً﴾، قضى الله أنها ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً﴾، قال:

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٢/٣٥٣ ح ٨٤٢٦ و٨٥٣٩ وإسناده ضعيف، له علتان أبو الصلت مجهول لا يعرف كما في «المجمع» ١٣٣٦٠ وفيه علي بن زيد ضعيف، روى مناكير كثيرة كما ذكر ابن كثير رحمه الله.

وَذَكِّرْ لَنَا أَنْ نَبِيَّ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «إِنَّ السَّاعَةَ تَهَيِّجُ بِالنَّاسِ وَالرَّجُلَ يُصْلِحُ حَوْضَهُ، وَالرَّجُلَ يَسْقِي مَا شِئْتَهُ، وَالرَّجُلَ يَقِيمُ سِلْعَتَهُ فِي السُّوقِ، وَيَخْفِضُ مِيزَانَهُ وَيَرْفَعُهُ»^(١).

[٣٢٢٢٢] وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن عبد الرحمن، عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلِ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلَا يَتَبَايَعَانَهُ وَلَا يَطْوِيَانَهُ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انصَرَفَ الرَّجُلُ بَلْبِنَ لِفَحْتِهِ فَلَا يَطْعُمُهُ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلْبِطُ^(٢) حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ قَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعُمُهَا»^(٣).

[٣٢٢٢٣] وقال مسلم في صحيحه: حدثني زهير بن حرب، حدثنا سفيان بن عيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة يبلغ به النبي - ﷺ - قال: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ يَحْلُبُ اللَّفْحَةَ، فَمَا يَصِلُ الْإِنَاءَ إِلَى فِيهِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالرَّجُلَانِ يَتَبَايَعَانِ الثَّوبَ فَمَا يَتَبَايَعَانَهُ حَتَّى تَقُومَ، وَالرَّجُلُ يَلُوطُ حَوْضَهُ فَمَا يَصْدُرُ حَتَّى تَقُومَ»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، اختلف المفسرون في معناه، فقبل معناه كما قال العوفي عن ابن عباس: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، يقول: كان بينك وبينهم مودة، كأنك صديق لهم. قال ابن عباس: لما سأل الناس محمداً - ﷺ - عن الساعة، سأله سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم، فأوحى الله إليه: إنما علمها عنده، استأثر بعلمها، فلم يطلع عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً. وقال قتادة: قالت قريش لمحمد - ﷺ -: إن بيننا وبينك قرابة، فأسير إلينا متى الساعة؟ فقال الله عز وجل: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾. وكذا زوي عن مجاهد، وعكرمة، وأبي مالك، والسدي، وهذا قول. والصحيح عن مجاهد - من رواية ابن أبي نجیح وغيره -: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، قال: استخفيت عنها السؤال، حتى علمت وقتها. وكذا قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، يقول: كأنك عالم بها، لست تعلمها، ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾. وقال معمر، عن بعضهم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ كأنك عالم بها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ كأنك عالم بها، وقد أخفى الله علمها على خلقه، وقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ لقمان: ٣٤ الآية. وهذا القول أرجح في المعنى من الأول، والله أعلم. ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

[٣٢٢٢٤] ولهذا لما جاء جبريل - عليه السلام - في صورة أعرابي، ليُعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله - ﷺ - مجلس السائل المسترشد، وسأله ﷺ عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله - ﷺ -: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»، أي: لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبي - ﷺ -: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية. وفي رواية: فسأله عن أشرط الساعة، فبيّن له أشرط الساعة، ثم قال: في خمس لا يعلمهن إلا الله. وقرأ هذه الآية، وفي هذا

(١) هذا مرسل. لكن يشهد له ما بعده.

(٢) يلط حوضه: أي يصلحه، كما صرح بذلك قتادة رحمه الله في الحديث السابق.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٠٦ و٧١٢١ وأحد ٣٦٩/٢ وأبو يعلى ٦٢٧١ والبخوي في «التفسير» ٩٥٨.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٥٤ وانظر ما تقدم.

كله يقول له بعد كل جواب: «صدقت»، ولهذا عَجِبَ الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه، ثم لما انصرف قال رسول الله - ﷺ -: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». وفي رواية قال: «وما أتاني في صورة إلا عَرَفْتُهُ فيها، إلا صورته هذه»^(١). وقد ذَكَرْتُ هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد، في أول شرح صحيح البخاري، والله الحمد والمنة.

[٣٢٢٥] ولما سأله الأعرابي وناداه بصوت جَهْوَرِيٍّ فقال: يا مُحَمَّدُ! قال له رسول الله - ﷺ -: «هَازِمٌ» - على نحو من صوته - قال: يا محمد، متى الساعة؟ قال له رسول الله - ﷺ -: ويحك! إن الساعة آتية، فما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله. فقال له رسول الله - ﷺ -: «المرء مع من أحب»^(٢). فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث. وهذا له طرق متعددة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله - ﷺ -: أنه قال: «المرء مع من أحب»، وهي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقين. ففيه أنه عليه السلام كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه، أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته.

[٣٢٢٦] ولهذا قال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالوا: حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كانت الأعراب إذا قَدِمُوا على رسول الله - ﷺ - سأله عن الساعة: متى الساعة؟ فتَنَظَّرَ إلى أحدثِ إنسانٍ منهم فقال: «إن يعيش هذا لم يُدْرِكْ الهَرَمَ، قامت ساعتكم»^(٣). يعني بذلك موتهم الذي يُفْضِي بهم إلى الحصول في بَرَزَخِ الدار الآخرة.

[٣٢٢٧] ثم قال مسلم: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يونس بن محمد، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس: أن رجلاً سأل رسول الله - ﷺ - عن الساعة وعنده غلام من الأنصار يقال له: محمد، فقال رسول الله - ﷺ -: «إن يعيش هذا الغلام فعسى ألا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة»^(٤). انفرد به مسلم.

[٣٢٢٨] وحدثني حجاج بن الشاعر، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا مغيب ابن هلال العنزي، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلاً سأل النبي - ﷺ - قال: متى الساعة؟ فسكت رسول الله - ﷺ - هُنَيْهَةً، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة، فقال: «إن عُمَرَ هذا لم يدركه الهَرَمَ حتى تقوم الساعة»^(٥). قال أنس: ذلك الغلام من أترابي.

[٣٢٢٩] وقال: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن أنس قال: مرَّ غلامٌ للمغيرة بن شعبَةَ - وكان من أقراني - فقال النبي - ﷺ -: «إن يُؤَخَّرَ هذا لم يُدْرِكْ الهَرَمَ حتى تقوم الساعة»^(٦).

(١) متفق عليه، وقد تقدم.

(٢) حسن. أخرجه الترمذي ٣٥٣٦ والطبراني ١١٦٧ وابن حبان ٥٦٢ من حديث صفوان بن عسال المرادي، وله شواهد كثيرة.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥١١ ومسلم ٢٩٥٢.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٥٣ ح ١٣٧.

(٥) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٥٣ ح ١٣٨.

(٦) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٥٣ ح ١٣٩.

[٣٢٣٠] ورواه البخاري في كتاب «الأدب» من صحيحه، عن عمرو بن عاصم، عن همام بن يحيى، عن قتادة، عن أنس: أن رجلاً من أهل البادية قال: يا رسول الله، متى الساعة؟... فذكر الحديث، وفي آخره: فَمَرَّ غَلامٌ لِلْمُغِيرَةِ بنِ شُعْبَةَ، وذكره^(١). وهذا الإطلاق في هذه الروايات محمول على التقييد بـ «ساعتكم» في حديث عائشة رضي الله عنها.

[٣٢٣١] وقال ابن جريج: أخبرني أبو الزبير: أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سَمِعْتُ رسول الله - ﷺ - قبل أن يموت بشهرٍ قال: «تسألوني عن الساعة، وإنما عَلِمَها عند الله، وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفسٍ مُفَوَّسَةٍ، تأتي عليها مئة سنة...»^(٢). رواه مسلم.

[٣٢٣٢] وفي الصحيحين، عن ابن عمر مثله، قال ابن عمر: وإنما أراد رسول الله - ﷺ - انخراط ذلك القرن^(٣).

[٣٢٣٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، أنبأنا العوام، عن جبلة بن سحيم، عن مؤثر بن عفازة، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال: «لَقِيتُ ليلة أُسري بي إبراهيم وموسى وعيسى، قال: فتذاكروا أمر الساعة، قال: فَرَدُّوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام، فقال: لا علم لي بها. فَرَدُّوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لي بها. فَرَدُّوا أمرهم إلى عيسى، فقال عيسى: أما وَجِبَتْها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل، وفيما عهد إلي ربي - عز وجل - أن الدجال خارج، قال: ومعني قضيبان، فإذا رأيته ذاب كما يذوب الرصاص، قال: فيهلكه الله عز وجل إذا رأيته، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتي كافرًا فتعال فاقتله. قال: فيهلكهم الله عز وجل، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، قال: فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطؤون بلادهم، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس إلي فيشكونهم، فادعوا الله - عز وجل - عليهم فيهلكهم ويميتهم، حتى تجزى الأرض من ثنن ريحهم - أي: تثنن - قال: فينزل الله عز وجل المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر. قال أحمد: قال يزيد بن هارون: ثم تَنَسَّفَ الجبال، وتَمَدَّتْ الأرضُ مَدَّ الأديم - ثم رجع إلى حديث هشيم قال: ففيما عهد إلي ربي - عز وجل - أن ذلك إن كان كذلك، فإن الساعة كالحامل الميتم لا يدرى أهلها متى تَفْجُؤُهُم بولادها ليلاً أو نهاراً^(٤). ورواه ابن ماجه، عن بNDAR عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب بسنده، نحوه. فهؤلاء أكابر أولي العزم من المرسلين، ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين، وإنما رَدُّوا الأمر إلى عيسى - عليه السلام - فتكلَّم على أشراتها، لأنه ينزل في آخر هذه الأمة

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦١٦٧ وأحمد ٣/١٩٢.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٣٨ والترمذي ٢٢٥٠ وأحمد ٣/٣٢٢ و٣٨٥ وابن حبان ٢٩٨٧.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٠١ ومسلم ٢٥٣٧ وأبو داود ٤٣٤٨ والترمذي ٢٢٥١ وأحمد ٨٨/٢ وابن حبان ٢٩٨٩.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٤٠٨١ وأحمد ١/٣٧٥ والحاكم ٤/٤٨٨ ح ٨٥٠٢ وصححه، وسكت الذهبي. ورجاله ثقات مشهورون، سوى مؤثر بن عفازة، وثقه ابن حبان، وقال عنه الحافظ في التقریب: مقبول. وقال البوصيري: إسناده صحيح رجاله ثقات مؤثر بن عفازة وثقه ابن حبان، وصحح الحاكم إسناده.

قلت: مؤثر بن عفازة. قال عنه الحافظ: مقبول. أي حيث يتابع، ولا يتابع على كون هذا اللفظ عن عيسى عليه السلام، وقد صح عند مسلم وغيره عن النبي ﷺ، ليس فيه ذكر عيسى عليه السلام. فالحديث غير قوي بهذا الإسناد.

منفذاً لأحكام رسول الله - ﷺ - ويقتل المسيح الدجال، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به.

[٣٢٣٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا عبيد الله بن إباد بن لقيط قال: سمعتُ أبي يذكر عن حُدَيْفَةَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - «عَنْ السَّاعَةِ فَقَالَ: «عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي عِزَّ وَجَلَّ لَا يُجَلِّيهَا لَوْ قَتَلَهَا إِلَّا هُوَ وَلَكِنْ سَأَخْبِرُكُمْ بِمَشَارِيطِهَا، وَمَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهَا: إِنْ بَيْنَ يَدَيْهَا فِتْنَةٌ وَهَرَجًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْفِتْنَةُ قَدْ عَرَفْنَاها، فَالْهَرَجُ مَا هُوَ؟ قَالَ: بِلِسَانِ الْحَبِشَةِ: الْقَتْلُ. قَالَ: «وَيُلْقَى بَيْنَ النَّاسِ التَّنَاكُرُ، فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يَعْرِفُ أَحَدًا»^(١). لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه.

[٣٢٣٥] وقال وكيع: حدثنا ابن أبي خالد، عن طارق بن شهاب، قال: كان رسول الله - ﷺ - لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت: «يَتَكُونُ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانٌ مُرْسِنًا»^(٢). . . الآية. ورواه النسائي من حديث عيسى بن يونس، عن إسماعيل بن أبي خالد، به: وهذا إسناد جيد قوي. فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم - صلوات الله عليه وسلامه - نبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب والمُقَفِّي، والحاشر الذي تُحَشِّرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِيهِ، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما:

[٣٢٣٦] «بعثت أنا والساعة كهاتين» وقرن بين أصبعيه السبابة والتي تليها،^(٣) ومع هذا كله قد أمره الله تعالى أن يَرُدَّ عِلْمَ وَقْتِ السَّاعَةِ إِلَيْهِ إِذَا سئِلَ عَنْهَا، فَقَالَ: «قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: «عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أُسْداً ﴿١٦١﴾﴾ [الجن: ٢٦] . . . الآية. وقوله: «وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ»، قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن منصور، عن مجاهد: «وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ»، قال: لو كنت أعلم متى أموت، لعملت عملاً صالحاً وكذلك روى ابن أبي نجيح عن مجاهد. وقال مثله ابن جريج. وفيه نظر.

[٣٢٣٧] لأن «عمل رسول الله - ﷺ - كان ديمة»^(٤) - وفي رواية - «كان إذا عمل عملاً أثبتته»، فجميع عمله كان على منوال واحد، كأنه ينظر إلى الله - عز وجل - في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المراد أن

(١) أخرجه أحمد ٣٨٩/٥.

(٢) أخرجه النسائي ١١٦٤٥ «كبرى» عن طارق بن شهاب، وفيه إرسال. قال أبو داود: رأى النبي ﷺ، ولم يسمع منه، قاله في التقريب. لكن مراسيل الصحابة صحيحة، وله شواهد، فهو قوي إن شاء الله.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٠٤ ومسلم ٢٩٥١ والترمذي ٢٢١٤ وأحمد ٢٢٢/٣ وأبو يعلى ٢٩٢٥ وابن حبان ٦٦٤٠ من حديث أنس، وأخرجه البخاري ٤٩٣٦ ومسلم ٢٩٥٠ وأحمد ٣٣٠/٥ وابن حبان ٦٦٤٢ من حديث سهل.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ١٩٨٧ و٦٤٦٦ ومسلم ٧٨٣ وأبو داود ١٣٧٠ وأحمد ٤٣/٦ وابن حبان ٣٢٢ من حديث عائشة. وفي لفظ عند مسلم ٧٨٢ «وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه».

يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم. والأحسن في هذا ما رواه الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمَ الْقَيْبِ لَكُنْتَ عَرَفْتَ مِنَ الْعَتْرِ﴾، أي: من المال. وفي رواية: لعلمت إذا اشترت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، ﴿وَمَا مَسَّنِي الشُّوْبُ﴾، قال: ولا يصيبني الفقر. وقال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمَ الْقَيْبِ﴾، لأعددت للسنة المجدبة من الْمُخْصِيَّةِ، ولعرفت الغلاء من الرُّخْصِ، فاستعددت له من الرُّخْصِ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا مَسَّنِي الشُّوْبُ﴾، قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون، واطيقته. ثم أخبر أنه إنما هو نذيرٌ وبشيرٌ، أي: نذيرٌ من العذاب، وبشيرٌ للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا يَسَّرْنَاهُ بَلِّغْنَاكَ إِنَّا فَتْرَنَاهُ بِهِ الشُّعُوبَ وَنَذَرْنَا بِهِ قَوْمًا لُذًّا﴾ ﴿١٨٧﴾ [مریم: ٩٧].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا لِنَءَاتِيْنَا صَالِحًا لَتُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٨٨﴾ ﴿فَلَمَّا ءَاتَتْهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَكُم شُرَكَآءَ فِيمَا ءَاتَتْهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٨٩﴾

يُنْبِئُهُ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ خَلَقَ جَمِيعَ النَّاسِ مِنْ أَدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَنَّهُ خَلَقَ مِنْهُ زَوْجَهُ حَوَاءَ، ثُمَّ انْتَشَرَ النَّاسُ مِنْهُمَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]. الآية. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، أي: ليألفها ويسكن بها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فلا ألفة بين زوجين أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيدته إلى التفرقة بين المرء وزوجه. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾، أي: وطنها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا﴾، وذلك أول الحمل، لا تجد المرأة له الماء، إنما هي النطفة، ثم العلقة، ثم المضة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾، قال مجاهد: استمرت بحمله. وزوي عن الحسن، وإبراهيم التميمي، والسدي، نحوه. وقال ميمون بن مهران، عن أبيه: استخفته. وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾، قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي؟ إنما هي: فاستمرت به. وقال قتادة: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾، واستبان حملها. وقال ابن جرير: استمرت بالماء، قامت به وقعدت. وقال العوفي، عن ابن عباس: استمرت به، فشكت: أحملت أم لا؟. ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾، أي: صارت ذات ثقلٍ بحملها. وقال السدي: كبر الولد في بطنها. ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا لِنَءَاتِيْنَا صَالِحًا﴾، أي: بشرأ سويًا، كما قال الضحاك، عن ابن عباس: أشفقاً أن يكون بهيمة. وكذلك قال أبو البختري وأبو مالك: أشفقاً ألا يكون إنساناً. وقال الحسن البصري: لئن آتينا غلاماً. ﴿لَتُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٨٨﴾ ﴿فَلَمَّا ءَاتَتْهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَكُم شُرَكَآءَ فِيمَا ءَاتَتْهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٨٩﴾، ذكر المفسرون ما هنا آثاراً وأحاديث ساوردها وأبين ما فيها، ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح في ذلك، إن شاء الله، وبه الثقة.

[٣٢٣٨] قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي - ﷺ - قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس - وكان لا يعيش لها ولد - فقال: سميه عبد الحارث، فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث، فعاش. وكان ذلك من وحي الشيطان

وأمره^(١). وهكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن بشار - بن دار - عن عبد الصمد بن عبد الوارث، به. ورواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى، عن عبد الصمد، به. وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبد الصمد، ولم يرفعه. ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث عبد الصمد مرفوعاً ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره، عن أبي زُرْعَةَ الرَّازِي، عن هلال بن قِيَاض، عن عُمر بن إبراهيم، به مرفوعاً. وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدَوِيَه في تفسيره من حديث شاذ بن قِيَاض، عن عُمر بن إبراهيم، به مرفوعاً. قلت: وشاذ، هو: هلال، وشاذ لقبه. والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه: أحدها: أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري، وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به. ولكن رواه ابن مَرْدَوِيَه من حديث المعتمر، عن أبيه، عن الحسن، عن سمرة، مرفوعاً^(٢). فالله أعلم. الثاني: أنه قد رُوِيَ من قول سَمُرَةَ نفسه، ليس مرفوعاً، كما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه - وحدثنا ابن عُلَيَّة، عن سُلَيْمَانَ التَّيْمِي - عن أبي العلاء ابن الشَّخِير، عن سَمُرَةَ بن جُنْدُب قال: سمى آدم ابنه عبد المحارث. الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سَمُرَةَ مرفوعاً، لما عدل عنه. قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا سهل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن: ﴿جَعَلَا لَكُمْ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمْ﴾، قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم. وحدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر قال: قال الحسن: عَنَى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده. يعني: ﴿جَعَلَا لَكُمْ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمْ﴾. وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً، فهودوا ونصروا. وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن - رحمه الله - أنه فسر الآية

(١) المرفوع ضعيف منكر. والصواب موقوف. أخرجه الترمذي ٣٠٧٧ والحاكم ٥٤٥/٢ ح ٤٠٠٣ والطبري ١٥٥٢٤. قال الترمذي: حسن غريب، ورواه بعضهم فلم يرفعه، وصححه الحاكم، وسكت الذهبي. في حين رجح الذهبي فذكره في الميزان ٦٠٤٢ في ترجمة عمر بن إبراهيم، فقال: صححه الحاكم، وهو منكر كما ترى. وجاء في تهذيب التهذيب ٣٧٣/٧ ما ملخصه: قال أحمد ثقة. ورواية عن أحمد: يروي عن قتادة أحاديث منكرية يخالف فيها. ووثقه ابن معين، وقال أبو حاتم: لا يحتج به. ووثقه عبد الصمد. وقال ابن عدي: يروي عن قتادة أشياء لا يوافق عليها، وحديثه عن قتادة مضطرب. وذكره ابن حبان في الثقات فقال: يخطيء ويخالف، وذكره في الضعفاء فقال: كان ممن يتفرد عن قتادة بما لا يشبه حديثه فلا يعجبني الاحتجاج به إذا انفرد، وقال الدارقطني: لئن يترك. وقال البزار: ليس بالحافظ. اهـ. وقد خالفه من هو أوثق منه وأحفظ فرواه موقوفاً على سمرة، أخرجه الطبري ١٥٥٢٥ و١٥٥٢٦ وموقوفاً على ابن عباس ١٥٥٢٧ و١٥٥٢٨ وموقوفاً على قتادة ١٥٥٣١ و١٥٥٣٢ وموقوفاً على عكرمة ١٥٥٣٠ وعن مجاهد ١٥٥٣٣ وعن سعيد بن جبير ١٥٥٣٤ و١٥٥٣٥ وعن السدي ١٥٥٣٦ وهذا هو الراجح، وهو متلقى عن أهل الكتاب، وقد وهم عمر العبدي فرفعه ولم يتابعه عليه أحد سوى ما ذكر ابن كثير عن ابن مردويه أنه رواه من طريق المعتمر عن أبيه عن الحسن، وفي هذا نظر، والظاهر أن الوهم من أحد رجال ابن مردويه، فقد أخرجه الطبري من طريقين وكلاهما صحيح عن المعتمر عن أبيه عن أبي العلاء بن الشخير عن سمرة من قوله. وهو أشبه، والله أعلم.

(٢) لا يصح رفعه من طريق المعتمر وقد تقدم بما فيه الكفاية. وللحديث علة ثلاثة كما ذكر ابن كثير وهي: أن الحسن فسر الآية بغير هذا فقد أخرجه الطبري ١٥٥٣٧ عن عمرو عن الحسن قال: كان ذلك في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم. و١٥٥٣٨ عن معمر عن الحسن: عنى بهذا ذرية آدم. و١٥٥٣٩ عن قتادة: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى. اهـ. فهذه روايات ثلاث من ثلاثة وجوه مختلفة عن الحسن في معنى هذه الآية، وهو يخالف ما رواه مرفوعاً، وبهذا تنحصر علة المرفوع بعمر العبدي وهو من منكراته، والله أعلم.

بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ - لما عدل هو ولا غيره عنه، لا سيما مع تقواه لله ووزعه، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل: كعب أو وهب بن منبه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله، إلا أننا برثنا من عهدة المرفوع، والله أعلم.

فأما الآثار فقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم - عليه السلام - أولاداً فَيَعْبُدُهُمُ اللهُ وَيُسَمِّيهِمُ: عبد الله، وعبيد الله، ونحو ذلك، فيصيبهم الموت فأتاها إبليس وأدم فقال: إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه به لعاش، قال: فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث، ففيه أنزل الله، يقول الله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿جَمَلًا لَكُمْ شُرَكَاءَ فِيمَا أَنْتُمْهُمْ﴾... إلى آخر الآية. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله في آدم: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾، سُكَّتْ: أَحْبَلَتْ أم لا؟ ﴿فَلَمَّا أَتَتْكَ دَعَاَ اللهُ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْنَا صَلِيلًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، فأتاهما الشيطان، فقال: هل تدریان ما يولد لكما؟ أم هل تدریان ما يكون؟ أهيممة يكون أم لا؟ وزين لهما الباطل؛ إنه غوي مبين. وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي، لم يخرج سويًا، ومات كما مات الأولان فسميا ولدهما عبد الحارث، فذلك قول الله: ﴿فَلَمَّا أَنْتَهُمَا صَلِيلًا جَمَلًا لَكُمْ شُرَكَاءَ فِيمَا أَنْتُمْهُمْ﴾... الآية. وقال عبد الله بن المبارك، عن شريك، عن خُصِيف، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَمَّا أَنْتَهُمَا صَلِيلًا جَمَلًا لَكُمْ شُرَكَاءَ فِيمَا أَنْتُمْهُمْ﴾، قال: قال الله - عز وجل -: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَشَانَا﴾ آدم ﴿حَمَلَتْ﴾، فأتاهما إبليس - لعنه الله - فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعني أو لأجعلن له قرني أيل فيخرج من بطنك فيشقه، ولا فعلن ولا فعلن - يخوفهما - فسمياه عبد الحارث. فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً. ثم حملت الثانية، فأتاهما أيضاً فقال: أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت، لتفعلن أو لأفعلن - يخوفهما - فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً. ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضاً، فذكر لهما، فأدرکہما حبُّ الولد، فسمياه «عبد الحارث»، فذلك قوله: ﴿جَمَلًا لَكُمْ شُرَكَاءَ فِيمَا أَنْتُمْهُمْ﴾. رواه ابن أبي حاتم. وقد تَلَقَى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه، كمجاهد، وسعيد بن جبیر، وعكرمة. ومن الطبقة الثانية: قتادة، والسدي، وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يُحْصَوْنَ كثرة، وكأنه - والله أعلم - أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب، كما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجُمَاهِر، حدثنا سعيد - يعني ابن بشير - عن عقبة، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: لما حملت حواء أتاهما الشيطان، فقال لها: أنطيعيني ويسلم لك ولدك؟ سميته عبد الحارث. فلم تفعل، فولدت فماتت، ثم حملت فقال لها مثل ذلك، فلم تفعل، ثم حملت الثالث فجاءها فقال: إن تطيعيني يسلم، وإلا فإنه يكون بهيممة، فهبيهما فاطاعا. وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب.

[٣٢٣٩] وقد صَحَّ الحديث عن رسول الله ﷺ - أنه قال: «إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلَ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكْذِبُوهُمْ»^(١). ثم أخبرهم على ثلاثة أقسام، فمنها: ما عَلِمْنَا صِحَّتَهُ بما دَلَّ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ من كتاب الله أو سنة

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٣٦٤٤ وأحمد ١٣٦/٤ وابن حبان ٦٢٥٧ من حديث أبي نملة بآتم منه وإسناده جيد. رجاله ثقات

وانظر حديث أبي هريرة للمقدم في سورة البقرة آية: ١٣٦.

رسوله. ومنها ما علمنا كذبه بما دُلَّ على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً. ومنها ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام:

[٣٢٤٠] «وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»^(١). وهو الذي لا يُصدّق ولا يُكذّب، لقوله «فلا تُصدّقوهم ولا تُكذّبوهم». وهذا الأثر هل هو من القسم الثاني أو الثالث؟ فيه نظر، فأما من حدّث به من صحابي أو تابعي، فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري - رحمه الله في هذا - والله أعلم، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذُرّيته. ولهذا قال الله ﴿تَمَتَّلَى اللَّهُ عَنَّا يُشْرِكُونَ﴾. وذكر تعالى آدم وحواء كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالأستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]. ومعلوم أنّ المصابيح - وهي النجوم التي زُيّنت بها السماء - ليست هي التي يُزَمَى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر كثيرة في القرآن، والله أعلم. ثم قال:

﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهْمَ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْتَجِيبُوا سِوَاكَ عَلَيْهِمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتَ صَلِيمٌ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكَ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ اللَّهُمَّ أَزْجَلُ يَسْئُونَ بِهَا أَمْ لَّهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنظِرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

هذا إنكارٌ من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربيةٌ مصنوعةٌ، لا تملك شيئاً من الأمر، ولا تضرُّ ولا تنفعُ، ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١٩١)، أي: أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِّثْلَ مَا فَتَسْتَجِيبُوا لَهُ إِنَّكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُمْ وَإِن يَسْتَجِيبُوا لَكَ شَيْئًا لَآ يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَمُكَ الطَّلَابِ وَالطَّلُوبُ﴾ (١٩٦) مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَعَزِيزٌ عَرِيبٌ ﴿١٩٥﴾ [الحج: ٧٣ - ٧٤] أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلها ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو استأنبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطارت لما استطاعوا إنقاذ ذلك منها، فمن هذه صفته وحاله كيف يُعبد ليرزق ويستنصر؟! ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]، أي: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهْمَ نَصْرًا﴾، أي: لعابديهم ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾، يعني: ولا لأنفسهم

ينصرون ممن أراهم بسوء، كما كان الخليل - عليه الصلاة والسلام - يكسر أصنام قومه ويُهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿قَرَأَ عَلَيْهِمْ مَثَرًا بِاللَّيْلِ﴾ ﴿١٩١﴾ ﴿الصفوات: ٩٣﴾، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كِبْرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿١٩٨﴾ ﴿الأنبياء: ٥٨﴾.

[٣٢٤١] وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ - رضي الله عنهما - وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ - المدينة - فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حَطْبًا لِلرَّامِلِ، ليعتبر قومهما بذلك، وَيَرْتَوُوا لِأَنفُسِهِمْ، فكان لعمرو بن الجموح - وكان سيِّدًا في قومه - كان له صنم يعبده ويطلبه، فكانا يجيئان في الليل فَيُنْكَسَانِ عَلَى رَأْسِهِ، ويلطخانها بالعذيرة، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنَّع به، فيغسله ويطلبه ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر. ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه أيضاً حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت، ودلِّياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

نَالَهُ لَوْ كُنْتَ إِلَهَا مُسْتَدْنُ لَمْ تَكُ وَالْكَلْبُ جَمِيعاً فِي قَرْنِ

ثم أسلم فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وقتل يوم أحد شهيداً، رضي الله عنه وأرضاه، وجعل جنة الفردوس ماواه^(١). وقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْتَجِيبُوا﴾ ... الآية، يعني: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحأها، كما قال إبراهيم: ﴿يَأْتِي لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مریم: ١٤٢]! ثم ذكر تعالى أنها عبیدٌ مثل عابديها، أي: مخلوقات مثلهم، بل الأناسي أكمل منها، لأنها تسمع وتبصر وتبطلش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك. وقوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ ... الآية، أي: استنصروا بها علي فلا تُوْخِرُونِي طرفه عين، واجهدوا جهدكم! ﴿إِنَّ إِلَهِي اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٦٦﴾، أي: الله حسبي وكفائي، وهو نصيري، وعليه متكلي، وإليه ألجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة، وهو ولي كل صالح بعدي، وهذا كما قال هود - عليه السلام - لما قال له قومه: ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوْرٍ قَالَ إِنَّ أُمَّتِي أَدْبَأُ إِلَّا هُوَ مَا خِذْ بِمَا تُصِيبُ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥١﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦]، وكقول الخليل: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ وَمَا بُرِّئَكُمْ مِنَ الْآفَلْتُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿إِنِّي بَرَاءٌ لِمَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ ... إلى آخر الآية، مُؤَكِّدٌ لِمَا تَقَدَّمَ، إلا أنه بصيغة الخطاب، وذلك بصيغة الغيبة، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَلِيمُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٩٨﴾، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَةَ كَرٍّ﴾ [فاطر: ١٤] ... الآية. وقوله: ﴿وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، إنما قال: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، أي: يقابلونك بعيون مضمورة كأنها ناظرة، وهي جماد ولهذا عاملهم مُعَامَلَةً مِنْ يَعْقِلُ؛ لأنها على صُورٍ مضمورة كالإنسان، ﴿وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، فعبر عنها بضمير من يعقل. وقال السدِّي: المراد بهذا المشركون ورؤي عن مجاهد نحوه. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير، وقاله قتادة.

(١) انظر «دلائل النبوة» لليهقي ٤٥٦/٢ - ٤٥٧.

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١٩٩) وَإِنَّمَا يَزْعَمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾، يعني: خذ ما عفا لك من أموالهم، وما أتوك به من شيء فخذ. وكان هذا قبل أن تنزل «براءة» بفرائض الصدقات وتفصيلها، وما انتهت إليه الصدقات. وقال السدي. وقال الضحاک، عن ابن عباس ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾: أتيتي الفضل. وقال سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾، قال: الفضل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾: أمره الله بالعمو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم، واختار هذا القول ابن جرير. وقال غير واحد، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾، قال: من أخلاق الناس وأعمالهم بغير تحسس. وقال هشام بن عروة، عن أبيه: أمر الله رسوله - ﷺ - أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وفي رواية قال: خذ ما عفا لك من أخلاقهم. وفي صحيح البخاري، عن هشام، عن أبيه عروة، عن أخيه عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ من أخلاق الناس. وفي رواية لغيره: عن هشام، عن أبيه، عن ابن عمر. وفي رواية: عن هشام، عن أبيه، عن عائشة أنهما قالوا مثل ذلك، والله أعلم. وفي رواية سعيد بن منصور، عن أبي معاوية، عن هشام، عن وهب بن كيسان، عن ابن الزبير: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ قال: من أخلاق الناس، والله لا أخذنه منهم ما صحبتهم. وهذا أشهر الأقوال.

[٣٢٤٢] ويشهد له ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم جميعاً: حدثنا يونس، حدثنا سفيان - هو ابن عيينة - عن أمي قال: «لما أنزل الله عز وجل على نبيه - ﷺ - : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١٩٩) ، قال رسول الله - ﷺ - : ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله أمرك أن تعفو عن ظلمك، وتُعطي من حرمك، وتصل من قطعك»^(١). وقد رواه ابن أبي حاتم أيضاً، عن أبي يزيد القراطيسي كتابة، عن أصبغ بن الفرج، عن سفيان، عن أمي، عن الشعبي، نحوه وهذا على كل حال مرسل، وقد روي له شواهد من وجوه آخر، وقد روي مرفوعاً عن جابر وقيس بن سعد بن عبادة، عن النبي - ﷺ - ، أسندهما ابن مَرْدُويه^(٢).

[٣٢٤٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معاذ بن رفاعة، حدثني علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة الباهلي، عن عتبة بن عامر - رضي الله عنه - قال: لقيت رسول الله - ﷺ - فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله، أخبزني بفواضل الأعمال. فقال: «يا عتبة، صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عن ظلمك»^(٣). وروى الترمذي نحوه من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، به. وقال: حسن.

(١) أخرجه الطبري ١٥٥٥٩ هكذا مرسلًا عن أمي. وكرره ١٥٥٥٨ عن ابن عيينة عن رجل. وأخرجه ابن المنذر كما في الدر ٢٨٠/٣ عن أمي عن الشعبي مرسلًا، فهو ضعيف؛ وللحديث شواهد دون ذكر «جبريل» أو نزول الآية، وستأتي إن شاء الله عقب حديث عتبة بن عامر.

(٢) انظر الدر المنثور ٢٨٠/٣ - ٢٨١. وما يفرده به ابن مردويه يكون غالباً واهياً.

(٣) جيد. أخرجه أحمد ١٤٨/٤ والطبراني ٢٦٩/١٧ وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» ١٩ والبيهقي في «الشعب» ٧٩٥٩، وهذا الإسناد ضعيف لضعف علي بن يزيد الألهاني. وورد من وجه آخر أخرجه أحمد ١٤٨/٤ - ١٥٨ - ١٥٩ والطبراني ٢٧٠/١٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٨٨/٨: أحد إسنادي أحمد رجاله ثقات. وأخرجه ابن أبي الدنيا ٢٠ من طريق آخر، وفيه إسماعيل بن عياش، رواه عن غير الشاميين. وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه ابن أبي الدنيا ٢١ =

قلت: ولكن علي بن يزيد وشيخه القاسم أبو عبد الرحمن، فيهما ضعف. وقال البخاري قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (١٩٩)، العرف: المعروف. حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: أن ابن عباس قال: قدم عُيَيْنَةُ بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحُرَب بن قيس - وكان من النفر الذين يُذَيِّبُهُمْ عُمَرُ، وكان القراء أصحابَ مَجَالِسِ عُمَرُ ومشاورته - كهُولاً كانوا أو شباناً - فقال عُيَيْنَةُ لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وَجْهٌ عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الحُرُ لِعُيَيْنَةَ، فأذن له عُمَرُ، فلما دخل قال: هني يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجَزَلَ، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغَضِبَ عمر حتى هَمَّ أن يُوقِعَ به. فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، قال الله لنبيه - ﷺ -: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (١٩٩). وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عُمَرُ حين تلاها عليه، وكان وثاقاً عند كتاب الله عز وجل. انفراد بإخراجه البخاري.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس، عن عبد الله بن نافع: أن سالم بن عبد الله بن عمر: مرَّ على عَيْرٍ لأهل الشام وفيها جَرَسٌ، فقال: إن هذا منهبي عنه، فقالوا: نحن أعلمُ بهذا منك، إنما يكره الجُلُجَل الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به. فسكَّتْ سالم وقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ﴾. وقول البخاري: العرف: المعروف، نَصَّ عليه عُرْوَةُ بن الزبير، والسدي، وقاتدة، وابن جرير، وغير واحد. وحكى ابن جرير أنه يقال: أوليته عُرْفًا، وعارفاً، وعارفةً، كل ذلك بمعنى: المعروف، قال: وقد أمر الله نبيه - ﷺ - أن يأمر عباده بالمعروف. ويدخل في ذلك جميع الطاعات، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه - ﷺ - فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم، لا بالإعراض عن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عن كفر بالله وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حُرْبٌ. وقال سعيد بن أبي عُرْوَةَ، عن قتادة في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (١٩٩)، قال: هذه أخلاقُ أمر الله بها نبيه - ﷺ - ودلَّه عليها. وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى، فسبكه في بيتين، فيهما جناس فقال:

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ كَمَا
وَلَنْ فِي الْكَلَامِ لِكُلِّ الْأَنَامِ
أَمِزْتَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ
فَمُسْتَحْسَنٌ مِنْ ذَوِي الْجَاهِ لِينَ

وقال بعض العلماء: الناس رجلان: فرجل محسن، فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تُكَلِّفه فوق طاقته ولا ما يحرجه، وإما مسيء فمُزَّهُ بالمعروف، فإن تماذى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله، فأعرض عنه، ففعل ذلك أن يرذ كيدَه، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيَّةَ تَحْتَ أَكْمِ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَضْحَكُوا ﴿٩٨﴾ ﴿المؤمنون: ٩٦ - ٩٨﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ السَّعِيَّةُ وَلَا السَّبِيَّةُ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٦) وَمَا يُلْقِنَهَا ﴿٣٦﴾

= والحاكم ٥١٨/١ وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: سليمان بن داود ضعيف. وورد من حديث علي، أخرجه البيهقي في «الشعب» ٧٩٥٦ والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١٣٦٩١، وقال الهيثمي: فيه الحارث الأعور، ضعيف. وورد من حديث معاذ بن أنس، أخرجه أحمد ٤٣٨/٣ والطبراني ١٨٨/٢٠ وقال الهيثمي ١٣٦٩٣: فيه زيان بن فائد، وهو ضعيف. وورد من حديث أبي بن كعب، أخرجه الطبراني في «الكبير» ٥٣٤ وقال الهيثمي ١٣٦٩٦: فيه أبو أمية بن يعلى، ضعيف. وورد من حديث أنس، أخرجه البيهقي ٧٩٥٧. وهناك أحاديث واهية أخرى تركتها خشية التطويل، فالحديث كما ترى يرقى بهذه الشواهد إلى درجة الحسن الصحيح؛ والله أعلم.

- أي هذه الوصية - ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُغْنِيهَا إِلَّا دُرٌّ حَقْلٍ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَزْعَمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٦] وقال في هذه السورة الكريمة أيضاً: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعَمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ ، فهذه الآيات الثلاث في «الأعراف»، «والمؤمنون». «وحم السجدة»، لا رابع لهن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف والتي هي أحسن، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا أَلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه عنك الإحسان، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك. قال ابن جرير في تفسير قوله: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعَمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾: «وَأَمَّا يُغْضِبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ غَضَبٌ يَصُدُّكَ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِلِينَ، وَيَحْمِلُكَ عَلَى مَجَازَاتِهِمْ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ»، يقول: فاستعج باله من نزعه، ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، يقول: إن الله الذي تستعيز به من نزغ الشيطان - سميع لجهل الجاهل عليك، والاستعاذة به من نزعه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان. وغير ذلك من أمور خلقه.

[٣٢٤٤] وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل: ﴿خُذِ الصَّوْرَ وَأَمْرًا بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ ، قال رسول الله - ﷺ -: يا رب، كيف بالغضب؟ فأنزل الله: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعَمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ (١).

[٣٢٤٥] قلت: وقد تقدم في أول الاستعاذة حديث الرجلين الذين تسابا بحضرة النبي - ﷺ - فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزغ غضباً، فقال رسول الله - ﷺ -: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فقيل له، فقال: ما بي من جنون (٢). وأصل النزغ الفساد، إما بالغضب أو غيره، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِيُبَادِيَ يَقُولُوا أَلَيْسَ مِنِّي أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَزْعُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، والعياذ: الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر، وأما الملاذ ففي طلب الخير، كما قال المثنبي في شعره:

يَا مَنْ أَلْوَدُّ بِهِ فِيمَا أَوْلَاهُ وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أَحَازَرُهُ
لَا يَجْبُرُ النَّاسَ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ وَلَا يَهَيِّضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٦١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر، أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ ، أي: أصابهم ﴿طَلِيفٌ﴾ - وقرأ آخرون: ﴿طَلِيفٌ﴾ ، وقد جاء فيه حديث، وهما قراءتان مشهورتان، فقيل: بمعنى واحد. وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسّر ذلك بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهتّم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب. وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ ، أي: عقاب الله وجزيل ثوابه ووعده ووعيدته فتأبوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب. ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ ، أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه.

(١) معضل، ومع ذلك عبد الرحمن بن زيد متروك، فهذا واو.

(٢) تقدم في أول الاستعاذة كما ذكر المصنف.

[٣٢٤٦] وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مَرْدَوِيَه هاهنا حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: جاءت امرأة إلى النبي - ﷺ - وبها طَيْفٌ فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يَشْفِيَنِي. فقال: إن شئت دعوتُ الله فشفاك، وإن شئت فاصبري ولا حسابَ عليك. فقالت: بل أصبر، ولا حساب علي^(١).

[٣٢٤٧] ورواه غير واحد من أهل السنن، وعندهم: قالت: يا رسول الله، إني أَضْرَعُ وَأَتَكَشَّفُ، فادع الله أن يشفيني. فقال: إن شئت دعوتُ الله أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة؟ فقالت: بل أصبر، ولي الجنة، ولكن ادع الله أن لا أتكشَّف، فدعا لها، فكانت لا تَتَكَشَّفُ^(٢). وأخرجه الحاكم في مُسْتَدْرَكه. وقال: صحيحٌ على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وقد ذكر الحافظُ ابنُ عساكر في ترجمة عمرو بن جامع من تاريخه: أن شاباً كان يتعبد في المسجد، فهويته امرأة فدعته إلى نفسها، وما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل، فذكر هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا سَأَهُم طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْتَلُونَ﴾^(٣)، فخر مغشياً عليه، ثم أفاق فأعادها، فمات. فجاء عُمَرُ فعرزى فيه أباه، وكان قد ذُفِنَ ليلاً، فذهب فصلى على قبره بمن معه، ثم ناداه عمر فقال: يا فتى ﴿وَلَمَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦]، فأجابه الفتى من داخل القبر: يا عمر، قد أعطانيهما ربي عز وجل، في الجنة مرتين.

وقوله تعالى: ﴿وَالِخْوَانَهُمْ يُمدُّوهُمْ﴾، أي: وإخوان الشياطين من الإنس، كقوله: ﴿إِنَّ الْمُبَدِّينَ كَانُوا لِإِخْوَانِ الشَّيْطَانِ﴾ وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم ﴿يُمدُّوهُمْ فِي النَّارِ﴾، أي: تساعدهم الشياطين في المعاصي، وتسهلها عليهم وتحسنها لهم. وقال ابن كثير: المد الزيادة. يعني: يزيدونهم في الغي، يعني: الجهل والسفه. ﴿ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾، قيل معناه: إن الشياطين تُمدُّ، والإنس لا تُقْصِرُ في أعمالهم بذلك. كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالِخْوَانَهُمْ يُمدُّوهُمْ فِي النَّارِ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾^(٤). الآية، قال: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تمسك عنهم. وقيل: معناه كما رواه العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يُمدُّوهُمْ فِي النَّارِ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾، قال: هم الجن، يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾، يقول: لا يسأمون. وكذا قال السدِّي وغيره: يعني أن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم في الشر؛ لأن ذلك طبيعة لهم وسجية ﴿لَا يَقْصِرُونَ﴾، لا تفتقر فيه ولا تنبطل عنه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيْطَانَ عَلَى الْكٰفِرِينَ فَوَضَّعَهُمْ أَرَاكُنًا﴾ [مريم: ٨٣]، قال ابن عباس وغيره: تُزْعِجُهُمْ إِلَى المعاصي إزعاجاً.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّيكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٥)

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾، يقول: لولا تَلَقَّيْتَهَا. وقال مرة أخرى: لولا أحدثتها فأنشأتها. وقال ابن جرير، عن عبد الله بن كثير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا

(١) حديث حسن لأجل محمد بن عمرو، وانظر ما بعده.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٤٤١/٢ والحاكم ٢١٨/٤ وابن حبان ٢٩٠٩ وإسناده حسن من أجل محمد بن عمرو، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٠٧/٢ وقال: رواه البزار، وإسناده حسن.

لَمْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا، قال: لولا اقتضبتُها، قالوا: تخرجها من نفسك. وكذا قال قتادة، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾، يقول: تَلَقَّيْتَهَا من الله تعالى. وقال الضحَّاك: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾، يقول: لولا أخذتها أنت فجنحت بها من السماء. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ﴾، أي: معجزة وخارق، كما قال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَظُلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصِبَتْ﴾ [الشعراء: ٤٤]، يقولون للرسول - ﷺ - ألا تجهد نفسك في تطلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها؟ قال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا آتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾، أي: أنا لا أقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبع ما أمرني به فأمثل ما يوحيه إلي فإن بعث آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداءً إياها؛ إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم. ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبيانات، فقال: ﴿هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٤)

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان يتعمده كفار قريش المشركون في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَىٰ فَيُوقَ﴾ [نصفت: ٢٦] الآية... ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة.

[٣٢٤٨] كما ورد الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إنما يجعل الإمام ليؤتم به، فإذا كَبُرَ فَكَبُرُوا، وإذا قرأ فأنصتوا»^(١). وكذلك رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة، وصححه مسلم بن الحجاج أيضاً، ولم يخرج في كتابه.

[٣٢٤٩] وقال إبراهيم بن مسلم الهجري، عن أبي عياض، عن أبي هريرة قال: كانوا يتكلمون في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ﴾، والآية الأخرى، أمروا بالإنصات^(٢).

[٣٢٥٠] وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياض، عن عاصم، عن المسيب بن رافع، قال ابن مسعود: كنا نُسَلِّمُ بعضنا على بعض في الصلاة، فجاء القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٣).

[٣٢٥١] وقال أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا المحاربي، عن داود بن أبي هند، عن بشير بن جابر قال: صلى ابن مسعود، فسمع ناساً يقرؤون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما أن لكم أن تفهموا؟ أما أن لكم أن تعقلوا؟ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَنْصِتُوا﴾، كما أمركم الله^(٤).

[٣٢٥٢] قال: وحدثني أبو السائب، حدثنا حفص، عن أشعث، عن الزهري قال: نزلت هذه الآية في فتى من الأنصار، كان رسول الله - ﷺ - كلما قرأ شيئاً قرأه، فنزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَنْصِتُوا﴾^(٥).

(١) تقدم في سورة الفاتحة (المقدمة).

(٢) أخرجه الطبري ١٥٥٩٣ وإسناده غير قوي لأجل إبراهيم الهجري، لكن يتأيد بما بعده.

(٣) أخرجه الطبري ١٥٥٩٢ وإسناده ضعيف لانقطاعه بين المسيب وابن مسعود. وانظر حديث زيد بن أرقم عند البخاري ٤٥٣٤ ومسلم ٥٣٩، وحديث ابن مسعود عند البخاري ١١٩٩ ومسلم ٥٣٨ أيضاً.

(٤) موقوف. أخرجه الطبري ١٥٥٩٥.

(٥) أخرجه الطبري ١٥٥٩٤ والواجدي ٤٦٥ عن الزهري مرسلًا، وورد بنحوه أحاديث كثيرة بعضها مرسل وبعضها موصل.

[٣٢٥٣] وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث الزهري، عن ابن أكيمة الليثي، عن أبي هريرة: أن رسول الله - ﷺ - انصرف من صلاة جَهْرَ فيها بالقراءة، فقال: هل قرأ أحد منكم معي آنفاً؟ قال رجل: نعم يا رسول الله. فقال: إني أقول: ما لي أتأزع القرآن؟! قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله - ﷺ - فيما جهر فيه رسول الله - ﷺ - بالقراءة من الصلوات، حين سَمِعُوا ذلك من رسول الله، ﷺ^(١). وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وصححه أبو حاتم الرازي. وقال عبد الله بن المبارك، عن يونس عن الزهري، قال: لا يقرأ مَنْ وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يُسمعهم صوته، ولكنهم يقرؤون فيما لا يجهر به سرّاً في أنفسهم، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرّاً ولا علانية، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَكُمْ تَرْمُونَ﴾. قلت: هذا مذهب طائفة من العلماء: أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها، وهو أحد قولي الشافعي، وهو القديم كمذهب مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة. وقال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية.

[٣٢٥٤] لما ورد في الحديث: «من كان له إمام فقراءته له قراءة»^(٢). وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعاً، وهو في موطأ مالك عن وهب بن كيسان، عن جابر موقوفاً، وهذا أصح. وهذه المسألة مبسوطَةٌ في غير هذا الموضع، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفاً على حدة، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضاً، والله أعلم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، يعني: في الصلاة المفروضة. وكذا روي عن عبد الله بن المغفل. وقال ابن جرير: حدثنا حميد بن مسعدة، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا الجُرَيْرِي، عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز قال: رأيت عُبَيْد بن عُمَيْر وعطاء بن أبي رباح يتحدّثان، والقاصُّ يقصُّ، فقلت: ألا تسمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود؟ قال: فنظرنا إليّ، ثم أقبلنا على حديثهما. قال: فأعدت الثالثة، قال: فنظرنا إليّ فقالا: إنما ذلك في الصلاة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾. وقال سفيان الثوري: عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، قال: في الصلاة. وكذا رواه غير واحد عن مجاهد. وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن ليث، عن مجاهد قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم. وكذا قال سعيد بن جُبَيْر، والضحاك، وإبراهيم النَّخَعِي، وقتادة، والشعبي، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بذلك في الصلاة.

وقال شعبة، عن منصور، سمعت إبراهيم بن أبي حُرّة يحدث أنه سَمِعَ مجاهداً يقول في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، قال: في الصلاة والخطبة يوم الجمعة. وكذا روى ابن جُرَيْج، عن عطاء، مثله. وقال هشيم، عن الربيع بن صُبَيْح، عن الحسن قال: في الصلاة وعند الذكر. وقال ابن

(١) جيد. أخرجه البخاري في «القراءة خلف الإمام» ٩٦ وأبو داود ٨٢٦ والترمذي ٣١٢ والنسائي ١٤٠/٢ و١٤١ وابن ماجه ٨٤٩ وأحمد ٢٨٤/٢ وابن حبان ١٨٤٩ من طرق عن الزهري به، وإسناده جيد.

(٢) غير قوي. وقد تقدم في سورة الفاتحة وفي المقدمة.

المبارك، عن بقية: سمعت ثابت بن عجلان يقول: سمعت سعيد بن جبير يقول في قوله: ﴿وَإِذَا قُورِيهِ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، قال: الإنصات يوم الأضحى، ويوم الفطر، ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة. وهذا اختيار ابن جرير أن المراد بذلك الإنصات في الصلاة وفي الخطبة، لما جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة. وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن ليث، عن مجاهد أنه كره إذا مر الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئاً، قال: السكوت. وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: إذا جلست إلى القرآن فأنصت له.

[٣٢٥٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عباد بن ميسرة، عن الحسن، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: أن رسول الله - ﷺ - قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله، كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة»^(١). تفرد به أحمد، رحمه الله.

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾
 ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾. وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية. وقال هانئ: ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ وهو أوائل النهار، ﴿وَالْآصَالِ﴾: جمع أصيل، كما أن الأيمان جمع يمين. وأما قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، أي: اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة، وبالقول لا جهراً، ولهذا قال: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾. وهكذا يُستحب أن يكون الذكر، لا يكون نداء وجهرأً بليغاً؛ ولهذا لما سألوا رسول الله - ﷺ - فقالوا: أقریب ربنا فنناجیه أم بعيد فننادیه؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

[٣٢٥٦] وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار فقال لهم النبي - ﷺ - «أيها الناس، أزيغوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي تدعون سمع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»^(٢). وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَوْتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه، وسبوا من أنزله ومن جاء به؛ فأمره الله تعالى ألا يجهر به، لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يُسمعهم، ولتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار. وكذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾. وقد زعم ابن جرير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله: أن المراد بهذه الآية أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة. وهذا بعيد مناف للإنصات للمأمور به،

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٣٤١/٢ ح ٨٢٨٩ والبغوي في «التفسير» ١٧. قال الهيثمي في «المجمع» ١١٦٥٠: فيه عباد بن ميسرة، ضعفه أحمد وغيره، وثقه يحيى في رواية وضعفه في أخرى. وثقه ابن حبان اهـ والمجب فإن له علة قادمة لم يذكرها الهيثمي، وهي الانقطاع، الحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة، وقد أجاد الحفاظ العراقي إذ قال في «الإحياء» ٢٨٠/١: فيه ضعف وانقطاع.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٨٦.

ثم المراد بذلك في الصلاة، كما تقدم، أو الصلاة والخطبة، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان، سواء كان سراً أو جهرأ. فهذا الذي قالاه لم يتأبعا عليه، بل المراد الحَضُّ على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لثلا يكون من الغافلين. ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾... الآية. وإنما ذكرهم بهذا لِيَتَشَبَهَ بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم. ولهذا شرع لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله - عز وجل - .

[٣٢٥٧] كما جاء في الحديث: «الآتُصَفُونَ كما تُصَفُ الملائكةُ عند ربها، يُيْمُونَ الصفوفَ الأول، ويتراضون في الصَّفِّ»^(١). وهذه أول سجدة في القرآن، مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع. [٣٢٥٨] وقد وَرَدَ في حديث رواه ابن ماجه، عن أبي الدرداء، عن النبي - ﷺ - أنه عَدَّها في سجدات القرآن^(٢).

* * *

آخر تفسير سورة الأعراف، ولله الحمد والمنة

(١) يأتي في أول سورة الصافات إن شاء الله تعالى.

(٢) أخرجه ابن ماجه ١٠٥٦ وقال البوصيري في «الزوائد»: في إسناده عثمان بن فائد، وهو ضعيف.



وهي مدنية؛ آياتها ست وسبعون آية. كلماتها ألف كلمة، وستمئة كلمة، وإحدى وثلاثون كلمة. حروفها خمسة آلاف ومثان، وأربعة وتسعون حرفاً، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

قال البخاري: قال ابن عباس: الأنفال الغنائم: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان. حدثنا هشيم، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر. أما ما علقه عن ابن عباس فكذلك رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: «الأنفال» الغنائم، كانت لرسول الله - ﷺ - خالصة، ليس لأحد منها شيء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقتادة، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد أنها المغنم. وقال الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه قال: «الأنفال»: الغنائم، قال فيها لبيد:

إِنْ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَقَلْ وَإِذَنْ لَهِ رَبِّي وَعَجَلْ

وقال ابن جرير: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنِ ابْنِ شَهَابٍ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا يَسْأَلُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنِ الْأَنْفَالِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: الْفَرَسُ مِنَ النَّفْلِ، وَالسَّلْبُ مِنَ النَّفْلِ. ثُمَّ عَادَ لِمَسْأَلَتِهِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ذَلِكَ أَيْضًا. ثُمَّ قَالَ الرَّجُلُ: الْأَنْفَالُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، مَا هِيَ؟ قَالَ الْقَاسِمُ: فَلَمْ يَزَلْ يَسْأَلُهُ حَتَّى كَادَ يُحْرِجُهُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنْتَدِرُونَ مَا مَثَلُ هَذَا؟ مَثَلُ صَبِيغٍ الَّذِي ضَرَبَهُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ قَالَ: لَا أَمْرُكَ وَلَا أَنْهَاكَ، ثُمَّ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَاللَّهِ مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا - ﷺ - إِلَّا زَاجِرًا أَمْرًا مُحَلًّا مُحَرَّمًا. قَالَ الْقَاسِمُ: فَسَلَّطَ عَلَيَّ ابْنُ عَبَّاسٍ رَجُلًا يَسْأَلُهُ عَنِ الْأَنْفَالِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ الرَّجُلُ يُنْقَلُ فَرَسَ الرَّجُلِ وَسِلَاحَهُ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ، فَقَالَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ حَتَّى أَغْضَبَهُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنْتَدِرُونَ مَا مَثَلُ هَذَا؟ مِثْلُ صَبِيغٍ الَّذِي ضَرَبَهُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ، حَتَّى سَالَتِ الدَّمَاءَ عَلَى عَقْبِيهِ - أَوْ عَلَى: رَجُلِيهِ - فَقَالَ الرَّجُلُ: أَمَا أَنْتَ فَقَدْ انْتَقَمَ اللَّهُ لِعَمْرٍ مِنْكَ. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ فَسَّرَ النَّفْلَ بِمَا يُنْقَلُ مِنَ الْإِمَامِ لِبَعْضِ الْأَشْخَاصِ مِنْ سَلْبٍ أَوْ نَحْوِهِ بَعْدَ قَسْمِ أَصْلِ الْمَغْنَمِ، وَهُوَ الْمُتَبَادَرُ إِلَى فِهْمٍ كَثِيرٍ مِنَ الْفُقَهَاءِ مِنْ لَفْظِ النَّفْلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: إنهم سألوا رسول الله - ﷺ - عن الخمس بعد الأربعة الأخماس،

نزلت: ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾. وقال ابن مسعود ومسروق: لا تُفَلُّ يوم الزحف، إنما التفل قبل التقاء الصفوف. رواه ابن أبي حاتم عنهما. وقال ابن المبارك وغير واحد، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح: ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾، قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع، فهو نفل للنبي - ﷺ - يصنع به ما يشاء. وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال. وقال ابن جرير: وقال آخرون: هي أنفال السرايا. حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا علي بن صالح بن حَيٍّ قال: بلغني في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾، قال: السرايا. ويعني هذا ما ينقله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسّمهم مع بقية الجيش، وقد صرح بذلك الشعبي، واختار ابن جرير أنها الزيادات على القسّم، ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية:

[٣٢٥٩] وهو ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا أبو إسحاق الشيباني، عن محمد بن عبيد الله الثقفي، عن سعد بن أبي وقاص وقال: لما كان يوم بدر، وقُتِلَ أخي عمير، وقُتِلَت سعيذ بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكَيْفَةِ، فأتيت به نبي الله - ﷺ - فقال: «أذهب فاطرحه في القُبْصِ». قال: فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلمي، قال: فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله - ﷺ -: «أذهب فَخُذْ سَيْفَكَ»^(١).

[٣٢٦٠] وقال الإمام أحمد أيضاً: حَدَّثَنَا أسودُ بن عامر، أخبرنا أبو بكر، عن عاصم بن أبي النجود، عن مُصعب بن سعد، عن سعد بن مالك قال: قلت: يا رسول الله، قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهُبَّ لي هذا السيف، فقال: إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضَعُه. قال: فوضعتُه. ثم رجعت قلت: عسى أن يُعطيني هذا السيفَ اليوم من لا يُبلي بلاتي! قال: إذا رجلٌ يدعوني من ورائي، قال: قلت: قد أنزل الله فيّ شيئاً؟ قال: كنت سألتني السيف، وليس هو لي وإنه قد وهب لي، فهو لك. قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٢). ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن أبي بكر بن عياش، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

[٣٢٦١] وهكذا رواه أبو داود الطيالسي: أخبرنا شعبة، أخبرنا سيماك بن حرب، قال: سمعتُ مُصعبَ بن سَعْدٍ، يُحَدِّثُ عن سعد قال: نزلت في أربع آيات: أصبت سيفاً يوم بدر، فأتيت النبي - ﷺ - فقلت: نَقْلِيهِ. فقال: ضَعُه من حيث أخذته، مرتين، ثم عاودته فقال النبي - ﷺ -: ضعه من حيث أخذته. فنزلت هذه الآية: ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾. وتام الحديث في نزول: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [المنكوب: ٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كُنْتُمْ وَآلِيَّيْرُ﴾ [المائدة: ٩٠]، وآية الوصية^(٣). وقد رواه مسلم في صحيحه، من حديث شعبة، به.

[٣٢٦٢] وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة يقول: أصبْتُ سيفَ ابن عائذ يوم بدر، وكان السيف يدعى بالمرزبان، فلما أمر رسول

(١) صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة ٣٧٠/١٢ وسعيد بن منصور ٢٦٨٩ وأحمد ١٨٠/١ والطبري ١٥٦٧١ والواحدي ٤٦٨ من طرق عن أبي إسحاق الشيباني به. ورجاله ثقات، وانظر ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ٢٧٤٠ والترمذي ٣٠٧٩ والنسائي في «التفسير» ٢١٦ وأحمد ١٧٨/١ و١٨١ و١٨٥ من طرق عن أبي بكر بن عياش به.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٤٨ والطيالسي ٢٠٨.

الله - ﷺ - الناس أن يَرُدُّوا ما في أيديهم من الثَّغَلِ، أَقْبَلْتُ به فَالْقَيْتَهُ فِي الثَّغَلِ، وَكَانَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - لَا يَمْنَعُ شَيْئاً يُسْأَلُهُ، فَرَأَى الْأَرْقَمُ بْنُ أَبِي الْأَرْقَمِ الْمُخَزُومِي، فَسَأَلَهُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ^(١). وَرَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ مِنْ وَجْهِ آخَرَ.

سبب آخر في نزول الآية:

[٣٢٦٣] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلْمَةَ، عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ سَلِيمَانَ بْنِ مُوسَى، عَنْ مَكْحُولٍ، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ قَالَ: سَأَلْتُ عُبَادَةَ عَنِ الْأَنْفَالِ، فَقَالَ: فِينَا - أَصْحَابَ بَدْرٍ - تَزَلَّتْ، حِينَ اخْتَلَفْنَا فِي النَّفْلِ، وَسَاءَتْ فِيهِ أَخْلَاقُنَا، فَانْتَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ أَيْدِينَا، وَجَعَلَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَسَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ بَوَّاءٍ. يَقُولُ: عَنْ سِوَاهُ^(٢).

[٣٢٦٤] وَقَالَ أَحْمَدُ أَيْضاً: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ عَمْرٍو، أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِيَّاشِ بْنِ أَبِي رَيْبَعَةَ، عَنْ سَلِيمَانَ بْنِ مُوسَى، عَنْ أَبِي سَلَامٍ، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ - فَشَهِدْتُ مَعَهُ بَدْرًا، فَالْتَقَى النَّاسُ، فَهَزَمَ اللَّهُ الْعَدُوَّ، فَانْطَلَقَتْ طَائِفَةٌ فِي آثَارِهِمْ يَهْزِمُونَ وَيَقْتُلُونَ. وَأَكْبَتُ طَائِفَةٌ عَلَى الْعَسْكَرِ يَحْوِزُونَهُ وَيَجْمَعُونَهُ. وَأَحْدَقَتْ طَائِفَةٌ بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - لَا يَصِيبُ الْعَدُوَّ مِنْهُ غَرَةٌ. حَتَّى إِذَا كَانَ اللَّيْلُ، وَفَاءَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ الَّذِينَ جَمَعُوا الْغَنَائِمَ: نَحْنُ حَوِينَاهَا، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا نَصِيبٌ. وَقَالَ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ: لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهِ مِنَّا، نَحْنُ نَفِينَا عَنْهَا الْعَدُوَّ وَهَزَمْنَاهُمْ. وَقَالَ الَّذِينَ أَحْدَقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -: لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهَا مِنَّا، نَحْنُ أَحْدَقْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَخَفْنَا أَنْ يَصِيبَ الْعَدُوَّ مِنْهُ غَرَةٌ، فَاسْتَغْلَنَّا بِهِ. فَنَزَلَتْ: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلُ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَمْلِكُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِذَا أَغَارَ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ نَفْلَ الرَّبِيعِ، فَإِذَا أَقْبَلَ وَكُلَّ النَّاسُ رَاجِعاً، نَفَلَ الثَّلَاثَ، وَكَانَ يَكْرَهُ الْأَنْفَالَ وَيَقُولُ: «لِيَرِدَ قَوِيُّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى ضَعِيفِهِمْ»^(٣). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، مِنْ حَدِيثِ سَفِيَّانِ الثَّوْرِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بِهِ نَحْوَهُ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَرَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ، وَقَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يَخْرُجْ بِهِ.

[٣٢٦٥] وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ جُرَيْرٍ، وَابْنُ مَرْزُوقٍ - وَاللَّفْظُ لَهُ - وَابْنُ حِبَّانَ، وَالْحَاكِمُ مِنْ طَرَفٍ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هِنْدٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «مَنْ صَنَعَ كَذَا وَكَذَا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا»، فَتَسَارَعَ فِي ذَلِكَ شِبَّانُ الرَّجَالِ وَبَقِيَ الشَّيْخُ خَتَمَ الرَّايَاتِ، فَلَمَّا كَانَتْ الْمَغَانِمُ، جَاؤُوا يَطْلُبُونَ الَّذِي جَعَلَ لَهُمْ، فَقَالَ الشَّيْخُ: لَا تَسْتَأْثِرُوا عَلَيْنَا؛ فَإِنَّا كُنَّا رِذْءاً لَكُمْ لَوْ انْكَشَفْتُمْ لَفُتِّمْتُمْ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ١٥٦٧٢ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بِهِ، وَفِي الْإِسْنَادِ جِهَالَةٌ «عَنْ بَعْضِ بَنِي سَاعِدَةَ».

(٢) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ ٩٣٣٤ وَأَحْمَدُ ٣١٩/٥ - ٣٢٢٢ - ٣٢٣٣ وَالدَّرِمِيُّ ٢٢٩/٢ وَ٢٣٠ وَالْحَاكِمُ ١٣٦/٢ وَ٣٢٦ وَالطَّبْرِيُّ ١٥٦٦٧ وَالبَيْهَقِيُّ ٢٩٢/٦ مِنْ طَرَفٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بِهِ، وَإِسْنَادُهُ لَا بَأْسَ بِهِ.

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ٣٢٣/٥ - ٣٢٤ وَالْحَاكِمُ ١٣٥/٢ وَابْنُ حِبَّانَ ٤٨٥٧ وَالبَيْهَقِيُّ ٢٩٢/٦ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، مَعَ أَنَّ فِي إِسْنَادِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ، وَهُوَ صَدُوقٌ لَهُ أَوْهَامٌ وَسَلِيمَانَ بْنِ مُوسَى، وَهُوَ صَدُوقٌ فِي حَدِيثِهِ لَيْنٌ كَمَا فِي «التَّقْرِيبِ». وَالحَدِيثُ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ ١٥٦١ وَابْنُ مَاجَةَ ٢٨٥٢ وَأَحْمَدُ ٣١٨/٥ مِنْ طَرَفٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بِاخْتِصَارٍ شَدِيدٍ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

إلينا. فتنازعوا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

[٣٢٦٦] وقال الثوري، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: «لما كان يوم بدر قال رسول الله - ﷺ -: «من قتل قتيلاً فله كذا وكذا، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا». فجاء أبو اليسر بأسيرين، فقال: يا رسول الله صلى الله عليك أنت وعدتنا. فقام سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر، ولا جبن عن العدو، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك، نخاف أن يأتوك من ورائك. فتشاجروا، ونزل القرآن: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، قال: ونزل القرآن: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرًا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ مِثْمَسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١]^(٢) إلى آخر الآية. وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام - رحمه الله - في كتاب «الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصاريها»: أما الأنفال فهي المغنم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب. فكانت الأنفال الأولى إلى النبي - ﷺ -، يقول الله تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، فقسّمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يخمسها على ما ذكرناه في حديث سعد. ثم نزل بعد ذلك آية الخمس، فنسخت الأولى. قلت: هكذا روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، سواء. وبه قال مجاهد، وعكرمة، والسدي. وقال ابن زيد: ليست منسوخة بل هي محكمة. قال أبو عبيد: وفي ذلك آثار... والأنفال أصلها جماع الغنائم، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب، وجرت به السنة. ومعنى الأنفال في كلام العرب: كل إحسان فَعَلَهُ فاعِلٌ تفضلاً من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم، وإنما هو شيء خصّهم الله به تظلاً منه عليهم، بعد أن كانت المغنم مُحَرَّمَةً على الأمم قبلهم، فَنَفَّلَهَا اللهُ تعالى هذه الأمة، فهذا أصل النفل.

[٣٢٦٧] قلت: شاهد هذا في الصحيحين عن جابر: أن رسول الله - ﷺ - قال: «أعطيت خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحد قبلي.. فذكر الحديث إلى أن قال: وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي»^(٣)، وذكر تمام الحديث. ثم قال أبو عبيد: ولهذا سُمِّي ما جعل الإمام للمقاتلة نَفْلاً، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض شيء سوى سهامهم، يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والتكاي في العدو. وفي النفل الذي ينقله الإمام سنن أربع، لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى: فإحداهن في النفل لا خمس فيه. وذلك السلب. والثانية في النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس. وهو أن يُوجَّه الإمام السرايا في أرض الحرب، فتأتي بالغنائم، فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس. والثالثة في النفل من الخمس نفسه. وهو أن تُحَازَ الغنيمة كلها، ثم تُخَمَّس، فإذا صار الخمس في يدي الإمام، نُفِّلَ منه على قدر ما يرى. والرابعة في النفل في جُمْلَةِ الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء، وهو أن يعطي الأدلاء ورعاة الماشية والسواق لها، وفي كل ذلك اختلاف.

قال الربيع: قال الشافعي: الأنفال ألا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السلب قال أبو

(١) أخرجه أبو داود ٢٧٣٧ و ٢٧٣٨ و ٢٧٣٩ والنسائي في «التفسير» ٢١٧ والحاكم ١٣١/٢ - ١٣٢ وابن حبان ٥٠٩٣ والطبري ١٥٦٦٢ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) الحديث أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ٩٨٨ وفي «المصنف» ٩٤٨٣ وفي إسناده الكلبي محمد بن السائب وهو متروك الحديث منهم، وأبو صالح لم يلق ابن عباس، فالخير واه بكرة، لكن صدر الحديث صحيح له شواهد.

(٣) تقدم في سورة النساء عند آية: ٤٣:

عَبِيد: والوجه الثاني من النفل هو شيء زيدوه غير الذي كان لهم، وذلك من خمس النبي - ﷺ - فَإِنْ لَهْ خَمْسَ الْخَمْسِ مِنْ كُلِّ غَنِيمَةٍ، فينبغي للإمام أن يجتهد، فإذا كثر العدو واشتدت شوكتهم، وقل من بإزائه من المسلمين، نُقِلَ مِنْهُ اتِّبَاعاً لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وإذا لم يكن ذلك لم يُتَمَلَّ. والوجه الثالث من النفل: إذا بعث الإمام سرية أو جيشاً، فقال لهم قبل اللقاء: من غنم شيئاً فله بعد الخمس. فذلك لهم على ما شرط الإمام؛ لأنهم على ذلك غَزَوْا، وبه رَضُوا. انتهى كلامه. وفيما تقدم من كلامه وهو قوله: إن غنائم بدر لم تُخَمَّسَ نَظَرًا، ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شارقيه^(١) اللذين حصلوا له من الخمس يوم بدر، وقد بَيَّنْتُ ذلك في كتاب السيرة، بياناً شافياً. والله الحمد والمنة. وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، أي: اتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، أي: في نفسه بينكم على ما أراه الله، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف. وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم. وكذا قال مجاهد. وقال السدي: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، أي: لا تستبوا.

[٣٢٦٨] ونذكر هاهنا حديثاً أورده الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي - رحمه الله - في مسنده فإنه قال: حدثنا مجاهد بن موسى، حدثنا عبد الله بن بكر، حدثنا عباد بن شيبَةَ الْحَبِطِيِّ، عن سعيد بن أنس، عن أنس - رضي الله عنه - قال: بينا رسول الله - ﷺ - جالس، إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما أضحكك - يا رسول الله - بأبي أنت وأمي؟ فقال: رجلان جثياً من أمتي بين يدي رب العزة تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من أخي. قال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته. قال: يا رب، لم يبق من حسناتي شيء. قال: رب، فليحمل عني من أوزاري - قال: وفاضت عينا رسول الله - ﷺ - بالبكاء، ثم قال: إن ذلك ليومٍ عظيم، يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم - فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك فانظر في الجنان، فرفع رأسه فقال: يا رب، أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا؟ لأي صديق هذا؟ لأي شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى الثمن؟ قال: يا رب، ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه. قال: ماذا يا رب؟ قال: تعفو عن أخيك. قال: يا رب، فإني قد عفوت عنه. قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فادخله الجنة. ثم قال رسول الله - ﷺ -: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة﴾^(٢).

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾، قال:

(١) الشارف من النوق: المسنة الهرمة.

(٢) أخرجه الحاكم ٥٧٦/٤ ح ٦٧١٨ ونسبه السيوطي في الدر ٢٩٦/٣ لأبي يعلى، ولعله في الكبير. حيث لم أجده في الصغير ولا المجمع، والحديث صحيحه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: عباد بن شيبَةَ ضعيف، وشيخه لا يعرف. وذكره الذهبي في الميزان ٣١٤٠ سعيد بن أنس، وقال: قال البخاري: لا يتابع على حديثه إه فالخبر وإه.

المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم. فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف الله المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾، فأدوا فرائضه ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، يقول: تصديقاً، ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، يقول: لا يرجون غيره. وقال مجاهد: ﴿وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾، فرقت. أي: فرغت وخافت. وكذا قال السدي وغير واحد. وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعل أومره، وترك زواجره، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا قِيلُوا لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَاسْتَفْتَرُوا لِيُذْهِبَهُمْ غَمُّهُمُ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأَنَّ اللَّهَ سَدَّى قُلُوبَهُمْ﴾. وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْفَوَاحِشِ إِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النزاعات: ١٣٥]. ولهذا قال سفيان الثوري: سمعت السدي يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾، قال: هو الرجل يريد أن يظلم - أو قال: يهجم بمعصية - فيقال له: اتق الله. فيجمل قلبه. وقال الثوري أيضاً، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾، قالت: الوجل في القلب كاحتراق السعفة^(١)، أما تجدل لها قشعيرة؟ قال: بلى. قالت لي: إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك، فإن الدعاء يذهب ذلك. وقوله: ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، كقوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَيَنْهَوْنَ عَنْهَا وَيَقُولُونَ آيَاتُنَا فَمَاذَا كُنَّا عَنْهَا مَسْئُومِينَ﴾ [التوبة: ١٢٤]. وقد استدلل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها، على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة، كالشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي عبيد كما بينا ذلك مستقصى في أول شرح البخاري، والله الحمد والمنة. ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجانبه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب. ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان. وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَمُنُّونَ بِمَا أُوتُوا﴾، ينفقون، ينفقون على أعمالهم، بعد ما ذكر اعتقادهم. وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة، وهو حق الله تعالى. وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها، وسجودها. وقال مقاتل بن حيان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي - ﷺ - هذا إقامتها. والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقهم. قال قتادة في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا بن آدم أوشكت أن تفارقها.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان.

[٣٢٦٩] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا أبو كريب، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا ابن لهيعة، عن خالد بن يزيد السكسكي، عن سعيد بن أبي هلال، عن محمد بن أبي الجهم، عن الحارث بن مالك الأنصاري: أنه مر برسول الله - ﷺ - فقال له: كيف أصبحت يا

حارث؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً. قال: انظر ما تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقال: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي، وأظمأت نهارى، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال: يا حارث، عرفت فالزم، ثلاثاً^(١). وقال عمرو بن مرة في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، إنما أنزل القرآن بلسان العرب، كقولك: فلان سيد حقاً، وفي القوم سادة. وفلان تاجر حقاً، وفي القوم تجار. وفلان شاعر حقاً، وفي القوم شعراء. وقوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، أي: منازل ومقامات ودرجات في الجنات، كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾ [آل عمران: ١٦٣]. أي: يغفر لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات. وقال الضحاك في قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفل أنه أفضل عليه أحد.

[٣٢٧٠] ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال: «إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء. قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم؟ فقال: بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(٢).

[٣٢٧١] وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن أهل الجنة ليراهون أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعماء»^(٣).

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّا كَانَمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ

(١) أخرجه الطبراني ٣٣٦٧ والبيهقي في «الشعب» ١٠٥٩١. قال الهيثمي في «المجمع» ٥٧/١ ح ١٨٩: فيه ابن لهيعة، ومن يحتاج إلى الكشف عنه اهـ فيه غير واحد من المجهولين. وورد من طريق آخر. أخرجه البيهقي في «الزهد» ٩٧٣ وفي إسناده يزيد بن محمد بن سنان، ضعفه ابن معين وأحمد وعلي المدني، وتركه النسائي، وقال البخاري: مقارب الحديث، وفيه عبد الأكرم مجهول. وورد من حديث أنس أخرجه البيهقي في «الشعب» ١٠٥٩٠ والبيزار ٣٢، وأعله الهيثمي: يوسف بن عطية، وقال: لا يحتج به. وقال عنه في الميزان ٩٨٧٧: مجمع على ضعفه، وقال النسائي: متروك. وقال يحيى: ليس بشيء. ثم ذكر الذهبي له مناكير وعذ هذا منها. وورد مرسلأ أخرجه ابن أبي شيبه ٤٣/١١ وفي «الإيمان» ص ٤٣ عن مالك بن مغول عن زبيد، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» ٣١٤، والبيهقي ١٠٥٩٢ عن صالح بن مسمار مرسلأ، وأخرجه عبد الرزاق ١٢٩/١١ عن معمر بن صالح بن مسمار وجعفر بن برقان مرسلأ، وأخرجه في «التفسير» كما في الإصابة ١٤٧٨/٢٨٩٨/١ عن الثوري عن عمرو بن قيس اللاتني عن يزيد السلمي. وأخرجه أبو عاصم في كتاب «الاستقامة» عن مالك بن مغول عن فضيل بن غزوان وذكر ابن حجر كلاماً حوله، وسكت على المراسيل وضعف الأحاديث الموصولة، فقال عن حديث أنس فيه عطية الصنفار، وهو ضعيف جداً وختم كلامه بقوله: لا يثبت موصولاً. وقال العراقي في تخريج الإحياء ٢٢٠/٤ عن حديث أنس والحارث: كلا الحديثين ضعيف. اهـ.

الخلاصة: ورد مرفوعاً من طريقين وكلاهما واو. وورد مرسلأ من وجوه واختلاف مخارجه يشعر بأن له أصلاً، وأنه حديث ليس بشديد الضعف.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٥٦ ومسلم ٢٨٣١ وابن حبان ٧٣٩٣ من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) ضعيف. أخرجه أبو داود ٣٩٨٧ والترمذي ٣٦٥٨ وابن ماجه ٩٦ وأحمد ٢٧/٣ و٥٠ وأبو يعلى ١١٣٠ من طرق عن عطية العوفي به، وإسناده ضعيف، لضعف عطية.

أَنَّ عَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُوْثُ لَكُمْ وَيُرِيْدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِيْنَ ﴿٧﴾
لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُوْنَ ﴿٨﴾

قال الإمام أبو جعفر الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾، فقال بعضهم: شُبِّهَ به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم رَبِّهِمْ، وإصلاحهم ذات بيئهم، وطاعتهم الله ورسوله. ثم روى عن عكرمة نحو هذا. ومعنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغامم وتشاحتم فيها فانتمزعاها الله منكم وجعلها إلى قسمة وقسم رَسُولُهُ - ﷺ - فقسما على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم. وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة - وهم النفيز الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز عيبرهم - فكان عاقبة كراحتكم للقتال - بأن قدره لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد - رَشْدًا وَهْدَى، ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالَ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٦]. قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْنِكَ بِالْحَقِّ﴾ على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم كارهون للقتال فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم. ثم روى نحوه عن مجاهد أنه قال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾، قال: كذلك يجادلونك في الحق. وقال السدي: أنزل الله في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْنِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ قَرِيبًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاهِنُونَ﴾ [٥]، لطلب المشركين ﴿يَجِدِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ﴾. وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة، كما جادلوك يوم بدر فقالوا: أخرجتنا للغير، ولم تعلمنا قتالاً فستعد له.

قلت: رسول الله - ﷺ - إنما خرج من المدينة طالباً لغير أبي سفيان، التي بلغه خَيْرُهَا أنها صادرة من الشام، فيها أموال جزيلة لقريش، فاستنهض رسول الله - ﷺ - المسلمين من خَفِّ منهم، فخرج في ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله - ﷺ - في طلبه، فبعث ضَمَضَمَ بن عمرو نذيراً إلى أهل مكة، فنهضوا في قريب من ألف مُقْتَعٍ ما بين التسعمئة إلى الألف، وتيامن أبو سفيان بالغير إلى سيف البحر فنجا، وجاء النفيز فورودوا ماء بدر، وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم، والتفرقة بين الحق والباطل، كما سيأتي بيانه. والغرض أن رسول الله - ﷺ - لما بلغه خروج النفيز، أوحى الله إليه يَعْذُهُ إحدى الطائفتين: إما العير وإما النفيز، وزغب كثير من المسلمين إلى العير، لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿وَوَدُّوْنَ أَنْ عَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُوْثُ لَكُمْ وَيُرِيْدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِيْنَ﴾.

[٣٢٧٢] قال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره: حدثنا سليمان بن أحمد الطبراني، حدثنا بكر ابن سهل، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا ابن لهيعة؛ عن يزيد بن أبي حبيب، عن أسلم أبي عمران، حدثنا أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول: قال رسول الله - ﷺ - ونحن بالمدينة: «إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة؛ فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله يُغْنِمَنَاها؟ فقلنا: نعم. فخرج وخرجنا، فلما سيرنا يوماً أو يومين قال لنا: ما ترون في قتال القوم؛ فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟ فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال العدو؛ ولكننا أردنا العير. ثم قال: ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد ابن عمرو: إذا لا نقول

لك، يا رسول الله، كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَأَذَهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. قال: فتمنينا - معشر الأنصار - أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم. قال: فأنزل الله على رسوله - ﷺ -: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾﴾ (١) . . . وذكر تمام الحديث. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث ابن لهيعة، بنحوه.

[٣٢٧٣] وروى ابن مَزْدُوَيْهٍ أيضاً من حديث محمد بن عمرو بن علقمة بن وَقَّاصِ اللَّيْثِيِّ، عن أبيه، عن جَدِّه قال: خرج رسول الله - ﷺ - إلى بدر، حتى إذا كان بالروحاء - خطب الناس - فقال: كيف ترون؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا، قال: ثم حَظَبَ الناس فقال: كيف ترون؟ فقال عُمَرُ مثل قول أبي بكر، ثم حَظَبَ الناس فقال: كيف ترون؟ فقال سعدُ بن معاذ: يا رسول الله، إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب، ما سلكتها قَطَ ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي «بِرِكَ الْعُمَاد» من ذي يَمَنٍ لنسيرن معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى: ﴿فَأَذَهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون. ولعلك أن تكون خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك، فامض له، فَصَلِّ جِبَالَ من شِثْتِ، واقطع جِبَالَ من شِثْتِ، وعادِ من شِثْتِ، وسالِمِ من شِثْتِ، وحُذِّ من أموالنا ما شِثْتِ. فنزل القرآن على قول سعد: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾﴾ . . . الآيات (٢).

[٣٢٧٤] وقال العوفي، عن ابن عباس: لما شاور النبي - ﷺ - في لقاء العدو، وقال له سعد بن عبادة ما قال، وذلك يوم بدر، أمر الناس فتعبوا للقتال، وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان، فأنزل الله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَافُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ (٣).

وقال مجاهد: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾: في القتال. وقال محمد بن إسحاق: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ أي: كراهية للقاء المشركين، وإنكاراً لِمَسِيرِ قريش حين ذكروا لهم. قال السدِّي: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ﴾، أي بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به. قال ابن جرير: وقال آخرون: عني بذلك المشركين. حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَافُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾﴾، قال: هؤلاء المشركون، جادلوه في الحق - ﴿كَأَنَّمَا يُسَافُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾، حين يدعون إلى الإسلام - ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾، قال: وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر. ثم قال ابن جرير: ولا معنى لما قاله! لأن الذي قيل قوله: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ خَبَرٌ عن أهل الإيمان، والذي يتلوه خَبَرٌ عنهم، والصواب قولُ ابن عباس وابن إسحاق أنه خبر عن المؤمنين. وهذا الذي نصره ابن جرير هو الحق، وهو الذي يدل عليه سياق الكلام، والله أعلم.

[٣٢٧٥] وقال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا يحيى بن أبي بكير وعبد الرزاق قالا: حدثنا إسرائيل، عن

(١) إسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة، لكن له ما يقويه.

(٢) محمد بن عمرو حسن الحديث، ومن فوقه ثقات، وله شواهد.

(٣) أخرجه الطبري ١٥٧٢٤ بإسناد ضعيف لضعف عطية العوفي، وأصله شواهد.

سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ - حين فرغ من بدر: عليك بالغير ليس دونها شيء، فناداه العباس بن عبد المطلب - قال عبد الرزاق: وهو أسير في وثاقه -: إنه لا يصلح لك. قال: ولم؟ قال: لأن الله - عز وجل - إنما وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك^(١). إسناده جيد، ولم يخرجوه. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَوَدُّوا أَنْ عَرَبَ دَاتِ الشُّوْكَ تَكُوْتُ لَكَ﴾، أي: يُحِبُّونَ أَنْ الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا قتال، تكون لهم، وهي العير. ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾، أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوك والقتال، ليُظْفِرَكُمْ بِهِمْ وَيَنْصُرَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَيُظْهِرَ دِينَهُ، وَيَرْفَعَ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ، ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلمُ بعواقب الأمور، وهو الذي يُدَبِّرُكم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يُحِبُّونَ خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالَ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾.

[٣٢٧٦] وقال محمد بن إسحاق رحمه الله: حدثني محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن غمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن عبد الله بن عباس - كل قد حدثني بعض هذا الحديث، فاجتمع حديثهم فيما سُقْتُ من حديث بدر، قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ - بأبي سفيان مقبلاً من الشام نذَّب المسلمين إليهم، وقال: هذه عيرُ قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلَّ الله أن ينفلكموها. فانتدب الناس، فحخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ - يلقى حرباً، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذِر عند ذلك، فاستأجر ضَمَضَم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه. فخرج ضَمَضَم بن عمرو سريعاً إلى مكة. وخرَج رسول الله ﷺ - في أصحابه حتى بَلَغَ وادياً يقال له «ذَفِرَان»، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم، فاستشار النبي ﷺ - الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر - رضي الله عنه - فقال فأحسن، ثم قام عمر - رضي الله عنه - فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله به، فنحنُ معك، والله لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى «بِزْك الغمام» - يعني مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبغته. فقال له رسول الله ﷺ - خيراً، ودعا له بخير. ثم قال رسول الله ﷺ -: «أشيروا عَلَيَّ أيها الناس» وإنما يريد الأنصار - وذلك أنهم كانوا عدَد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذِمَّامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت من ذِمَّامنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ - يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة، من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍ من بلادهم. فلما قال رسول الله ﷺ - ذلك قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال: فقد أمتنا بك وصدقتك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٠٨٠ وأحد ٢٢٩/١ و٣١٤ و٣٢٦ وأبو يعلى ٢٣٧٣، وإسناده ضعيف لأن رواية سماك عن عكرمة فيها اضطراب، ومع ذلك جود إسناده المصنف! وقال الترمذي: حسن صحيح. والصواب أنه ضعيف منكر، وسماك اختلط. وكيف يعلم العباس ذلك!؟

على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق إن استعزضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لضبُّر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يُريك منا ما تقرُّ به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسر رسول الله - ﷺ - بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم^(١). وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا. وكذلك قال السدي، وقتادة، عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكتفاءً بسياق محمد بن إسحاق.

﴿إِذْ تَسْتَعِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

[٣٢٧٧] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح فراد، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا سماك الحنفي أبو زميل، حدثني ابن عباس، حدثني عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: لما كان يوم بدر نظر النبي - ﷺ - إلى أصحابه، وهم ثلاثمائة وثيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي - ﷺ - القبلة ثم مَدَّ يديه وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً. قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فاتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَعِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴿٩﴾﴾. فلما كان يومئذ والتقوا، فهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً. واستشار رسول الله - ﷺ - أبا بكر وعلياً وعمر، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإنني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً. فقال رسول الله - ﷺ -: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال، قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تُمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هودة للمشركين، هؤلاء صنائدهم وأئمتهم وقادتهم. فهوي رسول الله - ﷺ - ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء. فلما كان من الغد قال عمر: فعدت إلى النبي - ﷺ - وأبي بكر وهما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، ما يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاءً تبكيت لبكائكما. قال النبي - ﷺ -: للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، قد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة - وأنزل الله - عز وجل -: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَن يَكُونَ لَهُ أَشْرَىٰ حَتَّىٰ يُنْخَبَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿أَوَلَا كُتِبَ مِنَّا اللَّهُ سَبَقَ لَكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٨] من الفداء، فأحل لهم الغنائم. فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر، من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وقر أصحاب النبي - ﷺ - عن النبي - ﷺ - وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله - عز وجل -: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ

(١) أخرجه الطبري ١٥٧٣٢ من طريق محمد بن إسحاق به. وهو حديث حسن، صرح فيه ابن إسحاق بالتحديث.

مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّ هَذَا قَوْلُ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ [آل عمران: ١٦٥] (١)،
بِأَخْذِكُمْ الْفِدَاءَ. ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذي وابن جرير وابن مَرْذُويه من طرق عن عكرمة بن عمار
به، وصححه علي بن المديني والترمذي، وقالوا: لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني. وهكذا
رَوَى علي بن أبي طلحة والعمري، عن ابن عباس: أن هذه الآية الكريمة قوله: ﴿إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبِّكُمْ﴾ أنها في
دعاء النبي - ﷺ - . وكذا قال زيد بن يُثَيْع، والسدي، وابن جُرَيْج .

[٣٢٧٨] وقال أبو بكر بن عياش، عن أبي حُصَيْن، عن أبي صالح قال: لما كان يوم بدر جعل
النبي - ﷺ - يناشد ربه أشدَّ النَّشْدَةِ يدعو، فاتاه عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، بعضُ يُشَدِّتْك! فوالله
ليُفَيِّنَ الله لك بما وعدك (٢).

[٣٢٧٩] وقال البخاري في كتاب المغازي، باب قول الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبِّكُمْ فَأَسْتَجَابَ
لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿كَانَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: حدثنا أبو نُعَيْم، حدثنا إسرائيل، عن مَخَارِق، عن طارق
ابن شهاب قال: سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليّ
مما عدل به. أتى النبي - ﷺ - وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى لموسى:
﴿فَأَذَهَبَ آتٌ وَرَبُّكَ فَغَدَلًا﴾ [المائدة: ٢٤] (٣)، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك.
فرايت النبي - ﷺ - أشرق وجهه وسرّه.

[٣٢٨٠] وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَوْشَبٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ، حَدَّثَنَا خَالِدُ الْحِذَاءِ، عَنْ عَكْرَمَةَ،
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يوم بدر: اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعْبِد.
فأخذ أبو بكر بيده فقال: حَسْبُكَ. فخرَجَ وهو يقول: ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيَوْلُونَ الذُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] (٤). ورواه
النسائي عن بُنْدَارٍ، عن عبد الوهَّاب بن عبد المجيد الثقفي. وقوله تعالى: ﴿وَأَلْفٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّبِينَ﴾،
أي: يُرَدِّفُ بعضهم بعضاً، كما قال هارون بن عَنَتْرَةَ، عن ابن عباس ﴿مُرَوِّبِينَ﴾: متتابعين. ويحتمل أن
المراد ﴿مُرَوِّبِينَ﴾ لكم، أي: نجدة لكم، كما قال العمري، عن ابن عباس: ﴿مُرَوِّبِينَ﴾، يقول: المدد،
كما تقول: انت الرجل فزده كذا وكذا. وهكذا قال مجاهد، وابن كثير القاري، وابن زيد: ﴿مُرَوِّبِينَ﴾،
مُمدِّين. وقال أبو كُدَيْبَةَ، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس ﴿مُرَوِّبِينَ﴾: ﴿مُرَوِّبِينَ﴾، قال:
وراء كل ملك ملك. وفي رواية بهذا الإسناد: ﴿مُرَوِّبِينَ﴾، قال: بعضهم على أثر بعض. وكذا قال أبو
ظبيان، والضحاك، وقاتة.

[٣٢٨١] وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري، حدثني
عبد العزيز بن عمران، عن الزُّمَعِيِّ، عن أبي الحويرث، عن محمد بن جُبَيْر، عن علي - رضي الله عنه -
قال: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن مِيْمَنَةِ النَّبِيِّ - ﷺ - وفيها أبو بكر. ونزل ميكائيل في ألف من

(١) الحديث أخرجه مسلم ١٧٦٣ وابن حبان ٤٧٩٣ والبيهقي في «الدلائل» ٥١/٣ - ٥٢ مطوَّلاً. وأخرجه أبو داود ٢٦٩٠
والترمذي ٣٠٨١ مختصراً.

(٢) أخرجه الطبري ١٥٧٥٤، وهذا مرسل.

(٣) قد تقدم الحديث في تفسير سورة المائدة عند آية: ٢٤.

(٤) الحديث صحيح. أخرجه البخاري ٣٩٥٣ والنسائي في «الكبرى» ١١٥٥٧.

الملائكة عن مَيْسِرَةِ النبي - ﷺ - ، وأنا في الميسرة^(١) . وهذا يقتضي - لو صَحَّ إسناده - أن الألف مُرَدَّفَةٌ بمثلها، ولهذا قرأ بعضهم: «مُرَدَّفِينَ» بفتح الدال، فالله أعلم. والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه - ﷺ - والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمئة من الملائكة مُجَنَّبَةٌ، وميكائيل في خمسمئة مُجَنَّبَةٌ . .

[٣٢٨٢] وروى الإمام أبو جعفر بن جرير، ومسلم، من حديث عكرمة بن عمار، عن أبي زُمَيْلِ سَمَّاكِ بن وليد الحَنَفِيِّ، عن ابن عباس، عن عمر الحديث المتقدم. ثم قال أبو زُمَيْلِ: حَدَّثَنِي ابن عباس قال: بينا رجل من المسلمين يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةَ بِالسُّوْطِ فَوْقَهُ، وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: «أَقْدَمَ حَيْزُومٌ». إِذْ نَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ، فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا قَالَ فَظَنَرُ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ حُطِمَ أَنْفُهُ، وَشَقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السُّوْطِ، فَاحْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: صَدَقْتُ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّلَاثَةِ، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ، وَأَسْرُوا سَبْعِينَ^(٢) .

[٣٢٨٣] وقال البخاري: «باب شهود الملائكة بَدْرًا»: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بن إبراهيم، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ يَحْيَى بن سعيد، عَنْ مَعَاذِ بن رِفَاعَةَ بن رَافِعِ الزُّرْقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ - وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ - قَالَ: جَاءَ جَبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَ: مَا تَعْدُونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قَالَ: مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - قَالَ: وَكَذَلِكَ مِنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ^(٣) . انفراد بإخراجه البخاري، وقد رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث رافع بن خديج، وهو خطأ، والصواب رواية البخاري، والله أعلم.

[٣٢٨٤] وفي الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة: «إنه قد شهيد بَدْرًا، وما يدريك لعل الله قد أطلع على أهل بَدْرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٤) .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ . . . الآية، أي: وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بُشْرَى، ﴿وَلَيَطْمَئِنَّ بِهٖ قُلُوبُكُمْ﴾؛ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَنتَشَوْهُمْ فَنُذِرُوا أَلْبَانًا فَلَمَّا مَتَّ بَعْدُ وَاِمَّا يَدَاهُ حَتَّىٰ نَضَعُ الْمِرْوَاتَ بِأَنْوَاعِهَا ذَلِكَ لِكَلِمَةٍ أَلَنَّا اللَّهُ لِأَنْصَرَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُبَدِّلَ أَعْمَلَانَهُمْ ﴿٤١﴾ سَيِّئَاتِهِمْ وَنُصَلِّحُ بِالْمَلِكِ ﴿٤٢﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٤٣﴾﴾ [محمد: ٤ - ٦]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلِيَمِخَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمَحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠ - ١٤١]، فهذه جُكْمُ شَرَعِ اللَّهِ جِهَادِ الْكُفَّارِ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِهَا. وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعاداً الأولى بالدُّبُورِ، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شُعَيْبِ بِيَوْمِ الظَّلَّةِ، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق

(١) أخرجه الطبري ١٥٧٦٩، وفيه عبد العزيز بن عمران الزهري، ذكره الذهبي في الميزان ٥١١٩ وقال: قال البخاري: لا يكتب حديثه، وقال النسائي وغيره: متروك. وقال يحيى: ليس بثقة اهـ. فلم يصح إسناده، وقد تناول ابن كثير هذا الخبر لكن علق ذلك بصحة الحديث، ولم يصح كما تقدم.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٦٣ وتقدم برقم ٣٢٧٧.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٩٩٢.

(٤) يأتي في سورة الممتحنة عند آية: ١ إن شاء الله، وسيأتي تخريجه عند آية: ٢٨ من هذه السورة.

في اليوم، ثم أنزل على موسى التوراة، شرع فيها قتال الكفار، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ﴾ [القصص: ٤٣]، وقتل المؤمنين الكافرين أشد إهانة للكافرين، وأشقى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: ﴿فَتِلْكَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ آيَاتُهُمْ مِنْ يَدَيْهِمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ يَشْفَوْنَ لَهُمْ وَأَسْفَىٰ لَهُمْ لَصَدُورُهُمْ كَالْحَصِيرِ﴾ [التوبة: ١٤]، ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدراهم أنكى لهم وأشقى لصدور حزب الإيمان. فقتل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى أشد إهانة له من أن يموت على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب - لعنه الله - بالعدسة^(١) بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، وإنما غسلوه بالماء قذفاً من بعيد، ورجموه حتى دفنوه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾، أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدَاءُ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم، بحوله وقوته، سبحانه وتعالى.

﴿إِذْ يَغْشَىٰ كُفْرًا النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُرِيكَ عَلَيْكَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ. وَيُدْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَيَلْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَبَيَّنَّتْ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [١١] ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَيَّ مَعَكُمْ فَاتَّبِعُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَشْجَارِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [١٢] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [١٣] ﴿ذَلِكَ بِمَا كَفَرُوا وَأَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [١٤]

يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم، أمناً من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً مَأْسَاً يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرت إليهم يميّدون وهم تحت الحجف.

[٣٢٨٥] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا ابن مهدي، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مضرب، عن علي - رضي الله عنه - قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله - ﷺ - يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح^(٢).

وقال سفيان الثوري، عن عاصم، عن أبي زرين، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: النعاس في القتال أمانة من الله وفي الصلاة من الشيطان. وقال قتادة: النعاس في الرأس، والنوم في القلب. قلت: أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد، وأمر ذلك مشهور جداً، وأما يوم بدر فهذه الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر، وهي دالة على وقوع ذلك أيضاً، وكان ذلك كان سجية للمؤمنين عند شدة البأس، لتكون

(١) العدسة: بشرة تخرج باليدن كالطاعون.

(٢) جيد. أخرجه أحمد ١٢٥/١ و١٣٨ وأبو يعلى ٢٨٠ وابن حبان ٢٢٥٧ وإسناده جيد.

قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله . وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمه عليهم ، وكما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ - ٦] .

[٣٢٨٦] ولهذا جاء في الصحيح : أن رسول الله - ﷺ - لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق - رضي الله عنه - وهما يدعوان ، أخذت رسول الله - ﷺ - سنة من النوم ، ثم استيقظ مبتسماً فقال : أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل على ثنياه النُّقْعُ . ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ سَيَهْرُمُ الْبَطْنُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ ﴾ [القمر : ٤٥] ^(١) .

[٣٢٨٧] وقوله تعالى : ﴿ وَبُرِّئَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكَلْبِ الْمَذْمُومِ ﴾ ، قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : نزل النبي - ﷺ - يعني : حين سار إلى بدر - والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دَغَصَّة ^(٢) ، فأصاب المسلمون ضعفاً شديداً ، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ ، يُوسِسُ بينهم : تَزْعُمُونَ أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون مُجَنَّبِينَ ! فأمطر الله عليهم مطراً شديداً ، فَشَرِبَ المسلمون وَتَطَهَّرُوا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان وثبت الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم ، وأمد الله نبيه - ﷺ - والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل في خمسمئة مُجَنَّبِيَّة ، وميكائيل في خمسمئة مُجَنَّبِيَّة ^(٣) . وكذا قال العوفي ، عن ابن عباس : إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها ، نزلوا على الماء يوم بدر ، فَغَلَبُوا الْمُؤْمِنِينَ عليه . فأصاب المؤمنين الظم ، فجعلوا يصلون مُجَنَّبِينَ مُخْلِثِينَ ، حتى تعاطوا ذلك في صدورهم ، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي ، فشرب المؤمنون ، وملؤوا الأسقية ، وسقوا الركاب . واغتسلوا من الجنابة ، فجعل الله في ذلك طهوراً ، وثبتت به الأقدام . وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة ، فبعث الله المطر عليها ، فضربها حتى اشتدت ، وثبتت عليها الأقدام . ونحو ذلك زوي عن قتادة ، والضحاك ، والسدي . وقد زوي عن سعيد بن المسيب ، والشعبي ، والزهري ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أنه طَشُّ ^(٤) أصابهم يوم بدر .

[٣٢٨٨] والمعروف : أن رسول الله - ﷺ - لما سار إلى بدر ، نزل على أدنى ماء هناك ، أي : أول ماء وجدته ، فتقدم إليه الجباب بن المنذر فقال : يا رسول الله ، هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلك الله فليس لنا أن نجاوزه ، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال : بل منزل نزلته للحرب والمكيدة . فقال : يا رسول الله ، إن هذا ليس بمنزل ، ولكن سر بنا حتى نزل على أدنى ماء يلي القوم ، ونُقَوِّرَ ما وراءه من القلوب ، ونستقي

(١) لم أجد الحديث في الصحيح بهذا السياق ، وإنما أخرجه البخاري ٢٩١٥ من حديث ابن عباس قال : قال النبي ﷺ وهو في قبة : اللهم إني أشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم . فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك يا رسول الله ، فقد ألححت على ربك . وهو في الدرع ، فخرج وهو يقول : ﴿ سَيَهْرُمُ الْبَطْنُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ ﴾ . وأخرج البيهقي في «الدلائل» ٣ / ٨٠ - ٨١ من طريق ابن إسحاق عن يزيد ابن رومان عن عروة عن الزهري محمد بن يحيى وعاصم «كان رسول الله ﷺ في العريش هو وأبو بكر وما معهما غيرهما وقد تدانى القوم بعضهم من بعض فجعل رسول الله - ﷺ - يناشد ربه ما وعده من نصره . . . وفيه : وخفق رسول الله - ﷺ - خفقة ثم هب فقال رسول الله ﷺ : أبشر يا أبا بكر ، أنك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنياه النقع . . . » وليس فيه ذكر الآية .

(٢) الدغص : قطعة من الرمل مستديرة ، أو الكتيب منه .

(٣) ضعيف . أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣ / ٧٨ والطبري ١٥٧٨٣ وإسناده منقطع بين ابن عباس وعلي بن أبي طلحة .

(٤) الطش : المطر الضعيف .

الحياض، فيكون لنا ماء وليس لهم ماء. فسار رسول الله - ﷺ - ففعل كذلك^(١).

[٣٢٨٩] وفي «مغازي» الأموي: أن الحباب لما قال ذلك نزل ملك من السماء وجبريل جالس عند رسول الله - ﷺ - فقال ذلك الملك: يا محمد، إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن الرأي ما أشار به الحباب بن المنذر. فالتفت رسول الله - ﷺ - إلى جبريل - عليه السلام - فقال: هل تعرف هذا؟ فنظر إليه فقال: ما كل الملائكة أعرفهم، وإنه ملك وليس بشيطان^(٢).

[٣٢٩٠] وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب «المغازي» رحمه الله: حدثني يزيد بن زومان، عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء وكان الوادي دُفَساً، فأصاب رسول الله - ﷺ - وأصحابه ما لُبِد لهم الأرض ولم يمنعمهم من المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه. وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس، فأطفأ بالمطر الغبار، وتلبدت به الأرض، وطابت نفوسهم، وثبتت به أقدامهم.

[٣٢٩١] وقال ابن جرير: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا مُصْعَبُ بن المقدام، حدثنا إسرائيل، حدثنا أبو إسحاق، عن حارثة، عن علي - رضي الله عنه - قال: أصابنا من الليل طَشُّ من المطر - يعني الليلة التي كانت في سبيحتها وقعة بدر - فانطلقنا تحت الشجر والحَجَفِ^(٣)، نستظل تحتها من المطر. ويات رسول الله - ﷺ - يدعو ربه: «اللهم، إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض!» فلما أن طلع الفجر، نادى: الصلاة، عباد الله! فجاء الناس من تحت الشجر والحَجَفِ، فصلى بنا رسول الله - ﷺ - وحَرَّضَ على القتال^(٤). وقوله: ﴿يُظهِرْكُمْ بِهِ﴾، أي: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر، ﴿وَيُذْهِبْ عَنْكُمْ رِيْزَ الْجِنَّةِ﴾، أي: من وسوسة أو خاطر سييء، وهو تطهير الباطن، كما قال تعالى في حق أهل الجنة: ﴿عَلَيْهِمْ يُبَاسُ سُدُنٍ حُفْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾، فهذا زينة الظاهر، ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ سَرَاوِيحًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]، أي: مطهراً لما كان من غِلٍّ أو حَسَدٍ أو تباغض، وهو زينة الباطن وطهارته. ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾، أي: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء، وهو شجاعة الباطن، ﴿وَلِيُذْهِبَ بِلَاذِكُمْ﴾، وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَرَادَ أَبُو بَكْرٍ رَأَى إِلَى الْمَلِيكَةِ أَنْ مَعَهُمْ قِسْمٌ الْبَرِّ عَسَا﴾، وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم، ليشكروه عليها وهو أنه - تعالى وتقدس وتبارك وتمجد - أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يشبوا الذين آمنوا. قال ابن إسحاق: وأزروهم. وقال غيره: قاتلوا معهم. وقيل: كثروا سوادهم. وقيل: كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي - ﷺ - يقول سمعت هؤلاء القوم - يعني المشركين - يقولون: والله لئن حَمَلُوا علينا لتتكشفن. فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك، فتقوى أنفسهم. حكاه ابن جرير، وهذا لفظه بحروفه. وقوله: ﴿سَأَلْتِي فِي قُرْبِ اللَّهِ لَكُمْ كَرَامًا تَرْضَوْنَهَا﴾، أي: تَبْتُوا أَنْتُمْ الْمُسْلِمِينَ وَقَوُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، عن أمري لكم

أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣/ ٣١ - ٣٥ من طريق ابن إسحاق عن يزيد بن زومان عن عروة بن الزبير والزهرى وعاصم مرسلاً.

لم يسقه بإسناد، والظاهر أن الأموي ساقه بلا سند، فلا حجة فيه، وهو غريب جداً.
الحجف: التروس من جلود بلا خشب.

أخرجه الطبري ١٥٧٧٧، وإسناده جيد، رجاله ثقات.

بذلك: سألقي الرعبَ والمذلةَ والصغارَ على من خالفَ أمري، وكذبَ رسولي، ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، أي: اضربوا الهامَ ففلقوها، واحتزوا الرقابَ فقطعوها، وقطعوا الأطرافَ منهم، وهي أيديهم وأرجلهم. وقد اختلف المفسرون في معنى: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ فقيل: معناه اضربوا الرؤوس، قاله عكرمة. وقيل: معناه أي: على الأعناق، وهي الرقاب، قاله الضحاک، وعطية العوفي. ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَيْسَ مِنَ الْقُرْبَىٰ فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْتَضَرْتُمُوهُ فَشَدُّوا أَوْلَاقَهُ﴾ [محمد: ٤].

[٣٢٩٢] وقال وكيع، عن المسعودي، عن القاسم قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «إني لم أبعثُ لأعذبَ بعذابِ الله، إنما بُعثتُ بضربِ الرقابِ وشدِّ الوثاقِ»^(١). واختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام.

[٣٢٩٣] قلت: وفي مغازي الأموي أن رسول الله - ﷺ - جعل يمر بين القتلى يوم بدر فيقول:

نُفْلِقُ هَامًا.....

فيقول أبو بكر:

..... مِنْ رَجَالِ أَعْرَءِ عَلَيْنَا، وَهُمْ كَانُوا أَعْتَى وَأَظْلَمَا

فابتدىء رسول الله - ﷺ - بأول البيت، ويستطيعُ أبا بكر - رضي الله عنه - إنشادَ آخره، لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر^(٢)، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩]. وقال الربيع بن أنس: كان الناس يومَ بدرٍ يُغرفون قَتلى الملائكة ممن قتلوا هم بضرب فوق الأعناق، وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به. وقوله: ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، قال ابن جرير: معناه: واضربوا أيها المؤمنون من عدوكم كل طرفٍ ومفصلٍ من أطراف أيديهم وأرجلهم. والبنان: جمع بنانة، كما قال الشاعر:

أَلَا لَيْتَنِي قَطَعْتَ مِنِّي بِنَانَةً وَلَا قَيْتُهُ فِي الْبَيْتِ يَحْفَظَانِ حَاذِرَا

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعني بالبنان: الأطراف. وكذا قال الضحاک وابن جُرَيج. وقال السدي: البنان الأطراف، ويقال: كل مفصل. وقال عكرمة، وعطية العوفي والضحاک - في رواية أخرى -: كل مفصل. وقال الأوزاعي في قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، قال: اضرب منه الوجه والعين، وارمه بشهاب من نار، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك. وقال العوفي، عن ابن عباس - فذكر قصة بدر إلى أن قال -: فقال أبو جهل: لا تقتلوهم قتلاً، ولكن خذوهم أخذاً، حتى تُعرفوهم الذي صنعوا من طعنهم في دينكم، ورغبتهم عن اللات والعزى. فأوحى الله إلى الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَيَبِئسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، فقتل أبو جهل - لعنه الله - في تسعة وستين رجلاً، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبراً، فوفى ذلك سبعين، يعني قتيلاً. ولذلك قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، أي: خالفوهما فساروا في شقِّ، وتركوا الشرع والإيمان به وأتباعه في شقِّ. وماخوذ أيضاً من شقِّ العصا، وهو جعلها فرقتين - ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَارِبْهُ إِنَّهُ شَرِيذُ الْوَقَابِ﴾، أي: هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه، لا يفوته شيء، ولا يقوم

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ١٥٧٩٨ وهو مرسل، ومع إرساله، المسعودي اختلط.

(٢) عزاه المصنف لمغازي الأموي، ولم أقف عليه، فلينظر.

لغضبه شيء، تبارك وتعالى، لا إله غيره ولا رب سواه. ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿١٤﴾
هذا خطاب للكفار، أي: ذُوقُوا هذا العذاب والثكال في الدنيا، واعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في
الآخرة.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَيْسَتْهُمُ الذَّرِبُ كَفَرُوا رَحَقًا فَلَا تُولُوهُمْ الْاَدْبَارَ﴾ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤْمِرْهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ
إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقُنَالٍ أَوْ مُتَحَرِّيًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِقَضِيْبٍ مِّنَ اللّٰهِ وَمَا وَءَهُ جَهَنَّمُ وِبَسُّ
الْمَصِيْرُ ﴿١٦﴾

يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَيْسَتْهُمُ الذَّرِبُ
كَفَرُوا رَحَقًا﴾، أي: تقاربت منهم ودنوتهم إليهم، ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْاَدْبَارَ﴾ أي: تفرّوا وتركوا أصحابكم. ﴿وَمَنْ
يُؤْمِرْهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقُنَالٍ﴾، أي: يفر بين يدي قزينة مكيدة، ليريه أنه خاف منه فيتبعه، ثم يكرّ عليه
فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك، نص عليه سعيد بن جبیر، والسُدّي. وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه
ليرى غرة من العدو فيصيبها. ﴿أَوْ مُتَحَرِّيًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾، أي: فرّ من هاهنا إلى فتنة أخرى من المسلمين،
يعاونهم ويعاونوه، فيجوز له ذلك، حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه
الرخصة.

[٣٢٩٤] قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زهير، حدثنا يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن ابن
أبي ليلى، عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله - ﷺ - فحاص
الناس حِيصَةً وكنت فيمن حاص، فقلنا: كيف نضنع وقد قررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا
المدينة ففئنا؟ ثم قلنا: لو عرّضنا أنفسنا على رسول الله - ﷺ - فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا؟ فأتيناه قبل صلاة
الغداة، فخرج فقال: من القوم؟ فقلنا: نحن الفرّارون. فقال: لا، بل أنتم العكّارون، أنا فئتكم، وأنا فئته
المسلمين. قال: فأتيناه حتى قبلنا يده^(١). وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من طرُقٍ عن
يزيد بن أبي زياد، وقال الترمذي: حسن لا نعرفه إلا من حديثه.

[٣٢٩٥] ورواه ابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن أبي زياد، به، وزاد في آخره: وقرأ رسول الله - ﷺ -
هذه الآية: ﴿أَوْ مُتَحَرِّيًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾^(٢). قال أهل العلم: معنى قوله: «العكّارون»، أي: العطفون. وكذلك
قال عمّر بن الخطاب - رضي الله عنه - في أبي عبيد لما قُتل على الجسر بأرض فارس، لكثرة الجيش من
ناحية المجوس، فقال عمر: لو انحاز إليّ كنتُ له فئته. هكذا رواه مُحَمَّد بن سيرين، عن عمر. وفي رواية
أبي عثمان التُّهَدِيّ، عن عمّر قال: لما قتل أبو عبيد قال عمّر: يا أيها الناس، أنا فئتكم. وقال مجاهد: قال
عمر: أنا فئته كل مسلم. وقال عبد الملك بن عمير، عن عمر: أيها الناس، لا تغرنكم هذه الآية، فإنما كانت
يوم بدر، وأنا فئته لكل مسلم.

(١) أخرجه أبو داود ٢٦٤٧ والترمذي ١٧١٦ والبخاري في «الأدب المفرد» ٩٧٢ وأحمد ٧٠/٢ - ٨٦ - ١٠٠ - ١١١ والشافعي
ج ٢ ح ٣٨٨ والحميدي ٦٨٧ وابن الجارود ١٠٥٠ والبيهقي ٧٦/٩ والبخاري ٦٨/١١ وأبو نعيم ٥٧/٩ من طرق عن
يزيد بن أبي زياد بهذا الإسناد، ومداره على يزيد، وهو ضعيف، كبر فتغير، فصار يتلقن. قاله في التقريب. وليس
للحديث طريق آخر، فهو ضعيف، والله أعلم.

(٢) إسناده ضعيف لضعف يزيد بن أبي زياد كما تقدم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حسان بن عبد الله المصري، حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي، حدثنا نافع: أنه سأل ابن عمر قلت: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندرى من الفئة: إماننا أو عسكرنا؟ فقال: إن الفئة رسول الله - ﷺ -. فقلت: إن الله يقول: ﴿إِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَحَقًا﴾ . . . الآية، فقال: إنما نزلت هذه الآية في يوم بدر، لا قبلها ولا بعدها. وقال الضحاك في قوله: ﴿أَوْ مَتَحَنِّنًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾: المتحيز: الفار إلى النبي وأصحابه، وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه. فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب، فإنه حرام وكبيرة من الكبائر.

[٣٢٩٦] لما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «اجتنبوا السبع الموبقات». قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(١). ولهذا الحديث شواهد من وجوه أخرى، ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَفَرَ﴾، أي: رجع ﴿بِعَصْبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأُونَةٍ﴾، أي: مصيره ومنقلبه يوم مياعده ﴿جَهَنَّمَ وَنَسِيَ الْمَوَدَّةَ﴾.

[٣٢٩٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا عبيد الله بن عمرو الرقي، عن زيد بن أبي أنيسة، حدثنا جبلة بن سحيم عن أبي المثنى العبدي، سمعت السدوسي - يعني ابن الخصاصية، وهو بشير بن مَعْبُد - قال: أتيت النبي - ﷺ - لأبايه، فاشترط عليّ: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدى الزكاة، وأن أحجّ حجة الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله. فقلت: يا رسول الله، أما اثنان فوالله لا أطيقهما: الجهاد، فإنهم زعموا أنه من ولّى الدُّبُر فقد باء بعَضْبٍ من الله، فأخاف إن حضرت ذلك جَشِعَتْ نفسي وكِرِهْتُ الموت - والصدقة، فوالله ما لي إلا عُتِمَةٌ وعَشْرُ دُودٍ هُنَّ رَسَلُ أهلي وحَمُولَتِهِمْ. فقبض رسول الله - ﷺ - يده ثم حَزَكَ يده، ثم قال: فلا جهاد ولا صدقة، فبم تدخل الجنة إذًا؟! فقلت: يا رسول الله، أنا أبايك. فبايعته عليهنّ كلهنّ^(٢). وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ولم يخرجوه في الكتب الستة.

[٣٢٩٨] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم أبو النضر، حدثنا يزيد بن ربيعة، حدثنا أبو الأشعث، عن ثوبان، عن النبي - ﷺ - قال: «ثلاثة لا ينفع معهنّ عمل، الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف»^(٣). وهذا أيضاً حديث غريب جداً.

[٣٢٩٩] وقال الطبراني أيضاً: حدثنا العباس بن الفضل الأسفاطي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حَفْصُ بن عُمَرَ الشُّتَيْبِي، حدثني عُمَرُ بن مُرَّة قال: سمعت بلال بن يسار بن زيد - مولى رسول الله - ﷺ - قال: سمعت أبي يحدث عن جدّي قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من قال: «استغفر الله الذي لا إله إلا هو

(١) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١٠.

(٢) أخرجه أحمد ٢٢٤/٥ والطبراني في «الكبير» ١٢٣٣ و«الأوسط» ١١٤٨ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٤٢/١ وقال: رجال أحمد موثوقون.

(٣) أخرجه الطبراني ١٤٢٠، وأعله الهيثمي في «المجمع» ٣٨٧ بيزيد بن ربيعة، وقال: ضعيف جداً.

وأتوب إليه، غفر له وإن كان قد فرّ من الزحف^(١). وهكذا رواه أبو داود، عن موسى بن إسماعيل، به. وأخرجه الترمذي، عن البخاري، عن موسى بن إسماعيل، به. وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قلت: ولا يعرف لزيد مولى النبي - ﷺ - عنه سواه. وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراماً على الصحابة؛ لأنه كان فرض عين عليهم. وقيل: على الأنصار خاصة، لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره. وقيل: إنما المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة، يُزوى هذا عن عمر، وابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي سعيد وأبي نضرة، ونافع مولى ابن عمر، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وغيرهم. وحجّتهم في هذا أنه لم تكن عصاة لها شوكة يفيثون إليها سوى عصابهم تلك.

[٣٣٠٠] كما قال النبي - ﷺ -: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض»^(٢)، ولهذا قال عبد الله بن المبارك، عن مبارك بن فضالة، عن الحسن في قوله: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمَهُ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾، قال: ذلك يوم بدر، فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر، أحسبه قال: فلا بأس عليه. وقال ابن المبارك أيضاً، عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب قال: أوجب الله تعالى لمن فرّ يوم بدر النار، قال: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمَهُ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّراً لِقَائِ أَوْ مُتَحَيِّراً إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِعَضْبٍ مِنَ اللَّهِ﴾، فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين، قال: ﴿ثُمَّ وَكَيْتُمْ مُدْرِيَةَ... ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: ٢٥]. وفي سنن أبي داود، والنسائي، ومستدرک الحاكم، وتفسير ابن جرير، وابن مردويه، من حديث داود بن أبي هند، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد أنه قال في هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمَهُ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾: إنما أنزلت في أهل بدر. وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حراماً على غير أهل بدر، وإن كان سبب النزول فيهم، كما دلّ عليه حديث أبي هريرة المتقدم، من أن الفرار من الزحف من الموبقات، كما هو مذهب الجمهور والله أعلم.

﴿فَمَنْ تَقَاتَلْتُمْ وَلَقَدْ قَاتَلْتُمُوهُمْ فَلَقَدْ قَاتَلْتُمُوهُمْ وَإِنَّمَا تَأْكُلُ أَمْوَالَهُمْ خِيَارًا وَمَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا وَلَا كَسَبْتُمْ فِيهَا مِن شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

يُبين تعالى أنه خالئ أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير، لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم، ولهذا قال: ﴿لَقَدْ تَقَاتَلْتُمْ وَلَقَدْ قَاتَلْتُمُوهُمْ﴾، أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أي: بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. . . الآية، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَكَيْتُمْ مُدْرِيَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

(١) حسن. أخرجه أبو داود ١٥١٧ والترمذي ٣٥٧٧ والطبراني ٤٦٧٠ وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه اهـ. وإسناده لين لأجل بلال بن يسار، لكن له شاهد، أخرجه الحاكم ١١٨/٢ من حديث ابن مسعود، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي وانظر صحيح أبي داود ١٣٤٣.

[التوبة: ٢٥] يُعلم - تبارك وتعالى - أن النصر ليس عن كثرة العَدَدِ، ولا بلبس الأَلَمَةِ والعُدَدِ، وإنما النصر من عند الله تعالى، كما قال: ﴿كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَبْلَتْ فَلَيْسَ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّكِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ثم قال لنبيه - ﷺ - أيضاً في شأن القبضة من التراب، التي حَصَبَ بها وجوه المشركين يوم بدر، حين خرج من العريش بعد دعائه وتَضَرُّعه واستكانته، فرماهم بها، وقال: «شاهت الوجوه». ثم أمر أصحابه أن يَصُدُّوا الحملة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شَغَلَهُ عن حاله. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾، أي: هو الذي بلغ ذلك إليهم، وكَتَبَهُم بها لا أنت.

[٣٣٠١] قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: رفع رسول الله - ﷺ - يديه، يعني يوم بدر، فقال: «يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً. فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين»^(١).

[٣٣٠٢] وقال السدي: قال رسول الله - ﷺ - لعلي - رضي الله عنه - يوم بدر: «أعطني حصباً من الأرض». فناوله حصباً عليه تراب، فرمى به في وجوه القوم، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء، ثم رَدِفَهُم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، وأنزل الله: ﴿فَلَمَّا تَفَتَّوهُنَّ يُكْرِمُ اللَّهُ فِتْنَهُمْ وَرَدَّ رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾^(٢).

[٣٣٠٣] وقال أبو معشر المدني، عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض، أخذ رسول الله - ﷺ - قبضة من تراب، فرمى بها في وجوه القوم، وقال: «شاهت الوجوه». فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله - ﷺ - يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله - ﷺ - فانزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾^(٣).

[٣٣٠٤] وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾، قال: هذا يوم بدر، أخذ رسول الله - ﷺ - ثلاث حصيات فرمى بحصاة في ميمنة القوم، وحصاة في ميسرة القوم، وحصاة بين أظهرهم، وقال: «شاهت الوجوه»^(٤). فانهزموا. وقد روي في هذه القصة عن عروة بن الزبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وغير واحد من الأئمة: أنها نزلت في رمية النبي - ﷺ - يوم بدر، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضاً.

[٣٣٠٥] وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا عبد العزيز بن عمران، حدثنا موسى بن يعقوب بن عبد الله بن زُمَعَةَ، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي بكر بن

(١) أخرجه الطبري ١٥٨٤٠ والبيهقي في «الدلائل» ٧٨/٣ - ٧٩ وإسناده ضعيف لانقطاعه بين ابن أبي طلحة وابن عباس. لكن له شواهد مرسله يتأيد بها.

(٢) أخرجه الطبري ١٥٨٣٨ وهذا مرسل. لكن هذه الرويات تتقوى بمجموعها، وأصلها في الصحيح.

(٣) مرسل. أخرجه الطبري ١٥٨٣٦.

(٤) مرسل. أخرجه الطبري ١٥٨٣٩ وهو شاهد لما قبله.

سليمان بن أبي حثمة، عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر، سَمِعْنَا صوتاً وَقَعَ من السماء، كأنه صوت حصاة وقعت في طست، ورمى رسول الله - ﷺ - تلك الرمية فانهمزنا^(١). غريب من هذا الوجه. وهاهنا قولان آخران غريبان جداً، أحدهما:

[٣٣٠٦] قال ابن جرير: حدثني محمد بن عوف الطائي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثنا عبد الرحمن بن جُبَيْر: أن رسول الله - ﷺ - يوم ابن أبي الحُقَيْقٍ بخيبر، دعا بقوس، فأتي بقوس طويلة، وقال: جيتوني بقوس غيرها. فجاوزه بقوس كبداء، فرمى النبي - ﷺ - الحصن، فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحُقَيْق، وهو في فراشه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا مَنَّكَ إِلَّا أَنْتَ وَاللَّهُ رَئِيْفٌ﴾^(٢). وهذا غريب، وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نُفَيْر، ولعله اشتبه عليه، أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله، وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدرٍ لا محالة، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم، والله أعلم. والثاني:

[٣٣٠٧] روى ابن جرير أيضاً، والحاكم في مستدركه، بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب والزهري أنهما قالا: أنزلت في رمية رسول الله - ﷺ - يوم أحد أبي بن خلفٍ بالحربة وهو في لأمته، فخدشه في تزقوته، فجعل يتدأداً عن قرسه مراراً، حتى كانت وفاته بعد أيام قاسى فيها العذاب الأليم^(٣)، موصولاً بعذاب البرزخ، المثصل بعذاب الآخرة. وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضاً جداً، ولعلهما أرادا أن الآية تتناولهما بعمومها، لا أنها نزلت فيه خاصة كما تقدم، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَلِيْسَلِي الْقُرْبَانَ بِنَاءٍ كَذِبًا﴾، أي: ليعرف المؤمنون من نعمته عليهم، من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم، وقلة عدوهم، ليعرفوا بذلك حقّه، ويشكروا بذلك نعمته. وهكذا فسر ذلك ابن جرير أيضاً.

[٣٣٠٨] وفي الحديث: «وكل بلاءٍ حسن أبلانا»^(٤). وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أي: سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر والعلب. وقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَأَنْتَ لَمَنْ كَذَّبْتُمْ عَنْهُ كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾^(٥): هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر: أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضْعَفُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ فيما يستقبل، مُضْعَفُ أَمْرِهِمْ، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار، والله الحمد والمنة.

﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَبْدُؤُا لَهُمْ سَبِيلُ لِقَائِهِ وَإِنْ تَسْتَأْذِنُوا فَمَا عَلَى الْكُفَّارِينَ﴾^(٦)

يقول تعالى للكفار: ﴿إِنْ تَسْتَأْذِنُوا﴾، أي: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم،

[٣٣٠٩] كما قال محمد بن إسحاق وغيره، عن الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير: أن أبا جهل

^(١) أخرجه الطبري ١٥٨٣٥ بإسناد ضعيف لضعف عبد العزيز بن عمران.

^(٢) سعيد بن عبد الرحمن بن جبيرة، في عداد التابعين، فخبه مرسل، فهو ضعيف، وكون سبب نزول الآية في خيبر منكر.

^(٣) ضعيف. أخرجه الحاكم ٣٢٧/٢ عن الزهري عن ابن المسيب بنحوه، وصححه على شرطهما، وهو مرسل.

وأخرجه الطبري ١٥٨٤٢ عن الزهري مرسلًا بمعناه، ومراسيل الزهري ضعيفة.

^(٤) لم أقف على إسناده بعد، فليظنر.

قال يوم بدر: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فأجحه الغداة. وكان ذلك استفتاحاً منه فتركت: ﴿إِنْ نَسْتَفِئِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾... إلى آخر الآية^(١).

[٣٣١٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد - يعني ابن هارون - أخبرنا محمد بن إسحاق، حدثني الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة: أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم، أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فأجحه الغداة. فكان المستفتح^(٢). وأخرجه النسائي في التفسير من حديث صالح بن كيسان، عن الزهري، به. وكذا رواه الحاكم في مستدركه من طريق الزهري، به، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وروى نحو هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ويزيد بن رومان، وغير واحد.

وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر، أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: «اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين». فقال الله: ﴿إِنْ نَسْتَفِئِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾، يقول: قد نصرت ما قلت، وهو محمد ﷺ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو قوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢]... الآية. وقوله: ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا﴾، أي: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، أي: في الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَدُّوْا نَعْدَ﴾ كقوله: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة، نعد لكم بمثل هذه الواقعة. وقال السدي: ﴿وَإِنْ تَوَدُّوْا﴾، أي: إلى الاستفتاح ﴿نَعْدُ﴾ إلى الفتح لمحمد ﷺ - والنصر له وتظفيره على أعدائه. والأول أقوى. ﴿وَلَنْ نُنْفِئَنَّ عَنْكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾، أي: ولو جمعت من الجموع ما عسى أن تجمعوها، فإن من كان الله معه فلا غالب له، فإن الله مع المؤمنين، وهم الحزب النبوي، والجناب المصطفوي.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ إِلَيْكُمْ وَالَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ يُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾، أي: تتركوا طاعته وامتنال أوامره وتترك زواجره، ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾، أي: بعدما علمتم ما دعاكم إليه. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، قيل: المراد المشركون. واختاره ابن جرير. وقال ابن إسحاق: هم المنافقون؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا، وليس كذلك. ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة، فقال: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ﴾، أي: عن سماع الحق ﴿إِلَيْكُمْ﴾ عن فهمه. ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، فهؤلاء شر البرية، لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا. ولهذا شبههم بالأنعام في قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِذِيِّ يَتَّقِي بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاةً وَبِدَاةً﴾ [البقرة: ١٧١]... الآية. وقال في الآية

(١) انظر ما بعده.

(٢) حسن. أخرجه النسائي في «التفسير» ٢٢١ وأحمد ٤٣١/٥ والطبري ١٥٨٥٢ والحاكم ٣٢٨/٢ والبيهقي في «الدلائل» ٣/٧٤ من طرق عن الزهري به، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وعبد الله بن ثعلبة صحابي صغير لم يثبت له سماع، لكن للحديث شواهد مراسيل تعضده. فهو حديث حسن.

الأخرى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نَفَرٌ من بني عبد الدار من قريش. رُوِيَ عن ابن عباس، ومجاهد، واختاره ابن جرير. وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون. قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا، لأن كلاً منهم مسلوب الفهم الصَّحِيح والقصد إلى العمل الصالح. ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح لو فرض أن لهم فهماً، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾، أي: لأفهمهم، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم، لأنه يعلم أنه ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾، أي: أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عن ذلك قصداً وعتاداً بعد فهمهم ذلك، ﴿وَهُمْ مُرْضُونَ﴾ عنه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ
الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ مَحْذُورٌ﴾

[٣٣١١] قال البخاري: ﴿اسْتَجِيبُوا﴾: أجيبوا، ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: لما يضلحكم. حدثنا إسحاق، حدثنا روح، حدثنا شعبه، عن حُبيِّب بن عبد الرحمن قال: سمعت حفص بن عاصم يُحدِّث عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي، فمر بي رسول الله - ﷺ - فدعاني، فلم آتِه حتى صليت، ثم أتيتُه فقال: ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، ثم قال: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج. فذهب رسول الله - ﷺ - ليخرج، فذكرت له - وقال معاذ: حدثنا شعبه، عن حُبيِّب بن عبد الرحمن سمع حفص بن عاصم، سمع أبا سعيد رجلاً من أصحاب النبي - ﷺ - بهذا - وقال: ﴿الْمَسْئِدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هي السبع المثاني^(١). هذا لفظه بحروفه، وقد تقدّم الكلام على هذا الحديث بذكر طُرقه في أول تفسير الفاتحة. وقال مجاهد في قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، قال: الحق. وقال قتادة: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، قال: هو هذا القرآن، فيه النجاة والبقاء والحياة. وقال السدي: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، ففي الإسلام إحيائهم بعد موتهم بالكفر. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، أي: للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم. وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان. رواه الحاكم في مستدركه موقوفاً، وقال: صحيح ولم يخرجاه. ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعاً^(٢)، ولا يصح لضعف إسناده، والموقوف أصح. وكذا قال مجاهد، وسعيد، وعكرمة، والضحاك، وأبو صالح، وعطية، ومقاتل بن حيان، والسدي. وفي رواية عن مجاهد في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، حتى تزكاه لا يعقل. وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه، فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه. وقال قتادة هو كقوله: ﴿وَمَنْ أَرْبُّ إِلَهٍ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. وقد وردت الأحاديث عن رسول الله - ﷺ - بما يناسب هذه الآية.

[٣٣١٢] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: كان النبي - ﷺ - يكثُر أن يقول: «يا مُقَلَّبَ القلوب، ثبَّتْ قلبي على دينك». قال:

(١) أخرجه البخاري ٤٦٤٧. وتقدم في سورة الفاتحة.

ذكره السيوطي في «الدر» ٣/٣٢٠، وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً.

فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به. فهل تخاف علينا، فقال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يُقلبها»^(١). وهكذا رواه الترمذي في كتاب القدر من «جامعه»، عن هناد بن السري، عن أبي معاوية محمد بن حازم الضرير، عن الأعمش - واسمه سليمان بن مهران - عن أبي سفيان - واسمه طلحة بن نافع - عن أنس، ثم قال: حسن. وهكذا زوي عن غير واحد عن الأعمش، رواه بعضهم عنه، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي - ﷺ - . وحديث أبي سفيان عن أنس أصح.

[٣٣١٣] حديث آخر: وقال الإمام عبد بن حميد في مسنده: حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن ابن أبي ليل، عن بلال - رضي الله عنه - : أن النبي - ﷺ - كان يدعو: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»^(٢). هذا حديث جيد الإسناد إلا أن فيه انقطاعاً. وهو مع ذلك على شرط أهل السنن، ولم يخرجوه.

[٣٣١٤] حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم قال: سمعت ابن جابر يقول: حدثني بسر بن عبد الله الحضرمي: أنه سمع أبا إدريس الخولاني يقول: سمعت الثؤانس بن سمعان الكلابي - رضي الله عنه - يقول: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع رب العالمين إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يُزيغه أزاغه». وكان يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبونا على دينك»، قال: «والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه»^(٣). وهكذا رواه النسائي وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، فذكر مثله.

[٣٣١٥] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا حماد بن زيد، عن المعلّى بن زياد، عن الحسن أن عائشة قالت: دعوات كان رسول الله - ﷺ - يدعو بها: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قالت، فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء. فقال: «إن قلب آدمي بين أصبعين من أصابع الله، فإذا شاء أزاغه، وإذا شاء أقامه»^(٤).

[٣٣١٦] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا عبد الحميد، حدثني شهر، سمعت أم سلمة تحدث أن رسول الله - ﷺ - كان يكثر في دعائه يقول: «اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قالت: فقلت: يا رسول الله، أو إن القلوب لتقلب؟ قال: «نعم، ما خلق الله من بشر من بني آدم إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله - عز وجل - فإن شاء أقامه. وإن شاء أزاغه فنسأل الله ربنا ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب - قالت: قلت: يا رسول الله، ألا تعلمني دعوة أدعو

(١) صحيح. أخرجه الترمذي ٢١٤١ وأحمد ٣/١١٢ و٢٥٧ وأبو يعلى ٣٦٨٧ وصححه الحاكم ١/٥٢٦ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حديث حسن. والصواب أنه صحيح، له شواهد كثيرة.

(٢) أعله المصنف بالانقطاع. أي بين ابن أبي ليل وبلال، ومع ذلك فللحديث شواهد كثيرة كما ترى، فهو يعتضد بها، والله أعلم.

(٣) متن صحيح. أخرجه النسائي في «الكبرى» ٧٧٣٨ وابن ماجه ١٩٩ وأحمد ٤/١٨٢ وابن أبي عاصم في «السنة» ٢١٩ وصححه ابن حبان ٩٤٣ وكذا الحاكم ١/٥٢٥ ووافقه الذهبي وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح.

(٤) أخرجه أحمد ٦/٩١ ح ٢٤٠٨٣ وهو منقطع، الحسن البصري لم يسمع من عائشة، لكن الحديث حسن بشواهد، والله أعلم. وأخرجه الآجري ٧٤٧ من وجه آخر وإسناده ضعيف.

بها لنفسي؟ قال: بلى، قولي: اللهم رب النبي محمد، اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجزني من مضلات الفتن ما أحسبتي»^(١).

[٣٣١٧] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حنيفة، أخبرني أبو هانئ أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي: أنه سمع عبد الله بن عمرو: أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يُصْرَفُ كيف شاء». ثم قال رسول الله - ﷺ -: «اللهم مُصْرَفِ القلوب، صْرَفِ قلوبنا إلى طاعتك»^(٢). انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري، فرواه مع النسائي من حديث حنيفة ابن شريح المصري، به.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٥﴾﴾

يُحذِرُ تعالى عباده المؤمنين ﴿فِتْنَةً﴾، أي: اختباراً ومحنة، يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب، بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع، كما قال الإمام أحمد:

[٣٣١٨] حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا شداد بن سعيد، حدثنا غيلان بن جرير، عن مُطَرَف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذي قُتِل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير - رضي الله عنه -: إنا قرأنا على عهد رسول الله - ﷺ - وأبي بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم -: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾، لم تكن نحسب أنها أهلها حتى وَقَعَتْ منا حيث وَقَعَتْ^(٣). وقد رواه البزار من حديث مُطَرَف، عن الزبير، وقال: لا نعرف مُطَرَفاً روى عن الزبير غير هذا الحديث. وقد روى النسائي من حديث جرير بن حازم، عن الحسن، عن الزبير نَحْوَ هذا. وروى ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا مبارك بن فضالة، عن الحسن قال: قال الزبير: لقد خُوفنا بها. يعني قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾، ونحن مع رسول الله - ﷺ - وما ظننا أننا خُصِصْنَا بها خاصة. وكذا رواه حميد، عن الحسن، عن الزبير رضي الله عنه.

وقال داود بن أبي هند، عن الحسن في هذه الآية قال: نزلت في علي، وعثمان، وطلحة، والزبير، رضي الله عنهم. وقال سفيان الثوري عن الصلت بن دينار، عن عقبة بن صهبان، سمعت الزبير يقول: لقد قرأت هذه الآية زماناً وما أَرَانَا من أهلها فإذا نحن المعنيتون بها: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَسَى أَنْ تُكَلِّمَ بِهِ شَكِيمَ الْعِقَابِ ﴿١٥﴾﴾. وقد رُوِيَ من غير وجه، عن الزبير بن العوام. وقال السدي: نزلت في أهل بذر خاصة، فأصابتهن يوم الجمل، فاقتلوا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾؛ يعني أصحاب النبي - ﷺ - خاصة. وقال في رواية له، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين ظهرانيهم. فَيَعْمَهُمُ الله بالعذاب. وهذا تفسير حسن جداً، ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا

(١) إسناده لا بأس به، شهر بن حوشب صدوق يخطيء. أخرجه أحمد ٣٠٢/٦ ح ٢٦٠٣٦ والآجري في «الشرية» ٧٤٣، والظاهر أن ما بين المعترضتين مدرج، فقد أخرجه أحمد ٣١٥/٦ من وجه آخر عن شهر ابن حوشب عن أم سلمة ليس فيه ما بين المعترضتين. والحديث دون ما بين المعترضتين حسن لشواهد.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٥٤ وأحمد ١٦٨/٢ وابن حبان ٩٠٠٢ والآجري في «الشرية» ٧٤١.

(٣) أخرجه أحمد ١٦٥/١، وإسناده لا بأس به. وأخرجه النسائي في «التفسير» ٢٢٦ وأحمد ١٦٧/١ من طريقين عن الحسن قال: قال الزبير به، وهذا منقطع، لكن يشهد لما قبله.

مِنْكُمْ خَاصَّةً: هي أيضاً لكم. وكذا قال الضحاك، ويزيد بن أبي حبيب، وغير واحد. وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْرُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، فأياكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن. رواه ابن جرير. والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم - وإن كان الخطاب معهم - هو الصحيح، ويدل على ذلك الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن، ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالى، كما فعله الأئمة وأفرده بالتصنيف.

[٣٣١٩] ومن أخص ما يذكر هاهنا ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله - يعني ابن المبارك - أنبأنا سيف بن أبي سليمان، سمعت عدي بن عدي الكندي يقول: حدثني مولى لنا أنه سمع جدي - يعني عدي بن عميرة - يقول: سمعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: «إن الله - عز وجل - لا يُعذّب العامة بِعَمَلِ الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن يُنكروهُ فلا يُنكروهُ، فإذا فعلوا ذلك عذّب الله الخاصة والعامة»^(١). فيه رجل مبهم، ولم يُخرجه في الكتب الستة، ولا واحد منهم، والله أعلم.

[٣٣٢٠] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان الهاشمي، حدثنا إسماعيل - يعني ابن جعفر - أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل، عن حذيفة بن اليمان: أن رسول الله - ﷺ - قال: «والذي نفسي بيده لتأمرنُ بالمعروف، ولتنهونَ عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله أن يبيّنَ عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم»^(٢). ورواه عن أبي سعيد، عن إسماعيل بن جعفر، وقال: «أو ليعين الله عليكم قوماً ثم تدعونه فلا يستجيب لكم».

[٣٣٢١] وقال أحمد: حدثنا عبد الله بن ثُمير، حدثنا زرين بن حبيب الجهني، حدثني أبو الرقاد قال: خرجتُ مع مولاي، فدفعتُ إلى حذيفة وهو يقول: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله - ﷺ - فيصيرُ منافقاً، وإني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات، لتأمرنُ بالمعروف، ولتنهونَ عن المنكر، ولتَحَاضِرُنَّ على الخير، أو لِيُسَجِّتُنَّكُمْ الله جميعاً بعذاب، أو ليؤمرنَّ عليكم شراركم، ثم يدعوا خياركم فلا يُستجاب لهم^(٣).

[٣٣٢٢] حديث آخر: قال الإمام أحمد أيضاً: حدثني يحيى بن سعيد، عن زكريا، حدثنا عامر قال: سمعت النعمان بن بشير - رضي الله عنه - يُخطب يقول - وأوماً بإضبعه إلى أذنيه - سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «مثلُ القائم على حدود الله والواقع فيها - أو المذْهَبِ فيها - كمثل قوم ركبوا سفينة، فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مرّوا على من فوقهم

(١) أخرجه أحمد ١٩٢/٤ والطبراني ١٣٩/١٧ بهذا الإسناد، ورواه الطبراني ح ٣٤٢ عن عدي بن عدي عن أبيه عن العرس بن عميرة، وكرره ٣٤٣ عن عدي بن عدي عن العرس، وهذا منقطع، وكذا رواه ٣٤٥ هكذا، وهو منقطع أيضاً، لكن عدي هذا ثقة، ورواه عن مولى لهم عن العرس، وللحديث شواهد يتقوى بها، والله أعلم.

تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٠٤.

(٢) أخرجه أحمد ٣٩٠/٥ ح ٢٢٨٠١ وإسناده ضعيف لجهالة أبي الرقاد، والخبر موقوف، لكن له شواهد في المرفوع، وتقدم أكثرها.

فَأَذَوْهُمْ، فقالوا: لو خَرَقْنَا فِي نَصِينَا خَرْقًا، فاستقينَا منه، ولم نُؤْذِ من فوقنا فإن تركوهم وأمرهم هَلَكُوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَّوْا جميعاً»^(١). انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم، فرواه في «الشركة» و«الشهادات» والترمذي في «الفتن»، من غير وجه، عن سليمان بن مهران الأعمش، عن عامر بن شراحيل الشعبي، به.

[٣٣٢٣] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حُسَيْن، حدثنا خَلْفُ بن خَلِيفَةَ، عن ليث، عن علقمة بن مَرْزَد، عن المعرور بن سُويد، عن أم سلمة زوج النبي - ﷺ - قالت: سَمِعْتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «إِذَا ظَهَرَتِ المعاصي في أُمَّتِي، عَمَّهم اللهُ بعذاب من عنده. فقلت: يا رسولَ الله، أما فيهم أناسٌ صالحون؟ قال: بلى. قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: يُصِيبهم ما أصابَ الناسَ، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان»^(٢).

[٣٣٢٤] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج بن محمد، أخبرنا شريك، عن أبي إسحاق، عن المنذر بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما من قوم يعملون بالمعاصي، وفيهم رجل أعز منهم وأمنع لا يغيرون، إلا عَمَّهم اللهُ بعقاب - أو: أصابهم العقاب»^(٣). ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن أبي الأحوص، عن أبي إسحاق، به.

[٣٣٢٥] وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبه، سمعتُ أبا إسحاق يحدث، عن عُبيد الله بن جَرِير، عن أبيه. أن رسول الله - ﷺ - قال: «ما من قوم يُعْمَلُ فيهم بالمعاصي، هم أعزُّ وأكثر ممن يعمله، ثم لم يغيروه، إلا عَمَّهم اللهُ بعقاب»^(٤). ثم رواه أيضاً عن وكيع، عن إسرائيل - وعن عبد الرزاق، عن معمر - وعن أسود، عن شريك ويونس - كلهم عن أبي إسحاق السبيعي، به. وأخرجه ابن ماجه، عن علي بن محمد، عن وكيع، به.

[٣٣٢٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا جامع بن أبي راشد، عن مُنذِر، عن الحسن بن محمد، عن امرأته، عن عائشة تبلغ به النبي - ﷺ -: «إِذَا ظَهَرَ السُّوءُ فِي الأَرْضِ، أَنْزَلَ اللهُ بِأَهْلِ الأَرْضِ بِأسه. قالت: وفيهم أهل طاعة الله؟ قال: نعم، ثم يصيرون إلى رحمة الله»^(٥).

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

يُنَبِّهُ تعالى عبادة المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثروهم، ومُستضعفين خائفين فقوَّاهم ونصَّروهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٦٨٦ والترمذي ٢١٧٣ وأحمد ٤/٢٦٨ و٢٧٠ و٢٧٣ وابن حبان ٢٩٧.

(٢) جيد. أخرجه أحمد ٦/٢٩٤ - ٢٩٥ و٣٠٤ و٤١٨، وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/٢٦٨: رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح.

(٣) جيد. أخرجه أبو داود ٤٣٣٩ وأحمد ٤/٣٦١ و٣٦٣ والطبراني ٢٣٧٩، وإسناده حسن في الشواهد.

(٤) جيد. أخرجه أحمد ٤/٣٦٤ و٣٦٦ وابن ماجه ٤٠٠٩ وابن حبان ٣٠٠ والطبراني ٢٣٨٠ والبيهقي ١٠/٩١، وإسناده حسن في الشواهد والمتابعات. وفي الباب أحاديث.

(٥) أخرجه أحمد ٦/٤١، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٢١٤٦: فيه امرأة لم تسم. اهـ. وله شواهد يعتضد بها، مثل حديث أم سلمة السابق، وحديث أم حبيبة المخرج في البخاري ٣٣٤٦ ومسلم ٢٨٨٠ وغيرهما.

وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مُضطهدين، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله، من مشرك ومجوسي ورومي، كُلُّهم أعداء لهم لِقَلَّتْهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك ذَابْهم حتى أُذِن لهم في الهجرة إلى المدينة، فأواهم إليها، وقِيض لهم أهلها، آووا ونَصَرُوا يوم بدر وغيره وآسُوا بأموالهم، وبَدَلُوا مُهْجَهم في طاعة الله وطاعة رسوله. قال قتادة بن دِعامَة السُّدُوسِيّ - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَمُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، قال: كان هذا الحي من العَرَبِ أَذْلَ الناس ذُلًّا، وأشقاء عيشًا، وأجوعه بطونًا، وأعره جلودًا، وأبينه ضلالًا، من عاش منهم عاش شقيًا، ومن مات منهم رُدِّي في النار، يؤكلون ولا يأكلون. والله ما نَعَلَم قَبِيلًا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام فَمَكَّن به في البلاد، وَوَسَّع به في الرزق، وجعلهم به ملوكًا على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم. فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم منعمٌ يحبُّ الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَخَوَّنُوا آمَنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

[٣٣٢٧] قال عبد الله بن أبي قتادة والزُّهري: أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله - ﷺ - إلى بني قُرَيْظَةَ لينزلوا على حكم رسول الله - ﷺ - فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك - وأشار بيده إلى حلقة - أي: إنه الدُّبْح. ثم فطن أبو لبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذوقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه. وانطلق إلى مسجد المدينة، فَرَبَط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتى كان يَخْرُ مغشياً عليه من الجَهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله. فجاء الناس يُبَشِّرُونَهُ بتوبة الله عليه، وأرادوا ليحلوه من السارية، فحلف لا يَحُلُّه منها إلا رسول الله - ﷺ - بيده، فحلّه، فقال: يا رسول الله، إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقةً. فقال: «يجزيك الثلث أن تصدق به»^(١).

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا يونس بن الحارث الطائفي، حدثنا محمد بن عبيد الله أبو عون الثقفي، عن المغيرة بن شعبة قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان - رضي الله عنه -: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾... الآية^(٢).

[٣٣٢٨] وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا القاسم بن بشر بن معروف، حدثنا شَبَابَةُ بن سَوَّار، حدثنا محمد بن المحرم^(٣) قال: لقيتُ عطاء بن أبي رباح فحدثني قال: حدثني جابر بن عبد الله: أن أبا سفيان خَرَجَ من مكة، فأتى جبريل رسول الله - ﷺ - فقال: إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا. فقال رسول الله - ﷺ - لأصحابه: إن أبا سفيان في موضع كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكْتُمُوا. فكتب رجل من المنافقين إليه: إن

(١) أخرجه الطبري ١٥٩٣٧ عن الزهري مرسلًا، وكرره ١٥٩٣٨ عن عبد الله بن أبي قتادة، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٤٧٧ بدون سند.

(٢) لا يصح هذا الأثر عن المغيرة. أخرجه الطبري ١٥٩٣٩، وفي إسناده يونس بن الحارث الطائفي، جاء في الميزان ٩٩٠٢: ضعفه يحيى في رواية عباس، وفي رواية أحمد بن أبي مريم عن يحيى: ليس به بأس يكتب حديثه، وقال أحمد: ضعيف. وكذا قال النسائي، وقال علي المدني: كنا نضعفه ضعفاً شديداً. ثم ذكر له الذهبي حديثاً غير هذا وعده من منكيره. فالأثر السابق عن الزهري وابن أبي قتادة أرجح.

(٣) كذا في سائر النسخ، وفي الطبري «عمد المحرم» ليس فيه لفظ «بن».

محمدًا يريدكم، فخذوا جذركم. فأنزل الله: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَتِكُمْ﴾ الآية. هذا حديث غريب جداً، وفي سنده وسياقه نظر^(١).

[٣٣٢٩] وفي الصحيحين قصة حاطب بن أبي بلتعة أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله - ﷺ - إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه، واستحضر حاطباً فأقر بما صنع، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: «دعه»، فإنه قد شهد بديراً، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم^(٢). قلت: والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجمهور من العلماء. والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَتَحُونُوا أَمْنَتِكُمْ﴾: الأمانة التي اتتمن الله عليها العباد، يعني الفريضة. يقول: ﴿لَا تَخُونُوا﴾ لا تنقضوها. وقال في رواية أخرى: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، يقول: بترك سنته وارتكاب معصيته.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في هذه الآية: أي: لا تظهروا لله من الحق ما يرضى به منكم، ثم تخالفوه في السر إلى غيره؛ فإن ذلك هلاك لأماناتكم، وخيانة لأنفسكم. وقال السدي: إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم، وقال أيضاً: كانوا يسمعون من النبي - ﷺ - الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين. وقال عبد الرحمن بن زيد: نهاكم أن تخونوا الله والرسول، كما صنع المنافقون. وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَ أَوْلَاكُمْ وَأُولَدَكُمْ فَشَنَءَ﴾، أي: اختار وامتحان منه لكم؛ إذ أعطاكموها ليتعلم أتشكرونها عليها وتطيعونها فيها؟ أو تشتغلون بها عنه، وتعتاضون بها منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا آمَنَ أَوْلَاكُمْ وَأُولَدَكُمْ فَشَنَءَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال: ﴿وَيَلُوكُم بِالنَّيْرِ وَالْخَبِيرِ فَشَنَءَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَلْهَكُوا أَمْوَالَكُم وَلَا أَوْلَادَكُم عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]... الآية. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، أي: ثوابه وعطاؤه. وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئاً، والله - سبحانه - هو المتصرف المالك للدينا والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة. وفي الأثر يقول الله تعالى: «ابن آدم، اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتئت فأتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء».

[٣٣٣٠] وفي الصحيح عن رسول الله - ﷺ -: «ثلاث من كن فيهن وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرأة لا يحبها إلا لله، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه

(١) هذه العبارة ذكرها السيوطي في «أسباب النزول» ٥٢٢ ولم يعزها لابن كثير. والحديث أخرجه الطبري ١٥٩٣٦، وفي إسناده محمد المحرم أو ابن المحرم، لم أجد من ترجمه، وبقية رجال الإسناد ثقات معروفون. والآية عامة، وهو ما اختاره الطبري وابن جرير.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٠٠٧ ومسلم ٢٤٩٤ وأبو داود ٢٦٥٠ والترمذي ٣٣٠٢ وأحمد ٧٩/١ وأبو يعلى ٣٩٤ من حديث علي.

من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه^(١). بل حُبُّ الله ورسوله مقدّم على الأولاد والأموال والنفوس، كما ثبت في الصحيح أنه - عليه السلام - قال:

[٣٣٣١] «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله والناس أجمعين»^(٢).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنفُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

قال ابن عباس، والسدي، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، ومقاتل بن حيان: ﴿فُرْقَانًا﴾، مخرجاً. زاد مجاهد: «في الدنيا والآخرة». وفي رواية عن ابن عباس: فرقاناً: نجاة، وفي رواية عنه: نصرأ. وقال محمد بن إسحاق: ﴿فُرْقَانًا﴾ أي: فضلاً بين الحق والباطل. وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدّم، وقد يستلزم ذلك كله، فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره، ووفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة. وتكفير ذنوبه - وهو محوها. وغفرتها: سترها عن الناس - سبباً لنيل ثواب الله الجزيل، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَعُوا اللَّهَ ءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِيهِمْ كَيْفَاتٍ مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٢٨].

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ

الْمَكْرِينِ ﴿٣٠﴾﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾، لِيُثْبِتُوكَ. وقال عطاء، وابن زيد: ليحبسوك. وقال السدي: الإثبات هو الحبس والوثاق. وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء. وهو يجمع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء.

[٣٣٣٢] وقال سنيّد، عن حجاج، عن ابن جريج، قال عطاء: سمعت عبيد بن عمير يقول: لما اتتمروا بالنبي - ﷺ - ليشبوه أو يقتلوه أو يخرجوه، قال له عمه أبو طالب: هل تذرني ما اتتمروا بك؟ قال: «يريدون أن يسحروني أو يقتلوني أو يخرجوني». فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: «رؤي». قال: نعم الرب ربك، استوص به خيراً. فقال: «أنا استوصي به! بل هو يستوصي بي»^(٣).

[٣٣٣٣] وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني محمد بن إسماعيل البصري المعروف بالوساسي، أخبرنا عبد الحميد^(٤) بن أبي رواد، عن ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن المطلّب بن أبي وداعة: أن

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢١ و٦٠٤١ ومسلم ٤٣ والنسائي ٩٦/٨ وابن ماجه ٤٠٣٣ وأحمد ١٧٢/٣ وابن حبان ٢٣٧ من حديث أنس.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٤٤ والنسائي ١١٥/٨ من طريق عبد العزيز عن أنس مرفوعاً بهذا اللفظ. وأخرجه البخاري ١٥ ومسلم ٤٤ ح ٧٠ والنسائي ١١٤/٨ - ١١٥ وابن ماجه ٦٧ وأحمد ١٧٧/٣ و٢٠٧ وأبو يعلى ٣٠٤٩ من طريق قتادة عن أنس مرفوعاً بلفظ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».

(٣) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ١٥٩٧٨، وفي إسناده ثلاث علل: حجاج هو ابن أوطاة اختلط بأخزة، وهو مدلس وقد عنعن، وابن جريج مدلس وقد عنعن، وعبيد بن عمير تابعي، فهو مرسل.

(٤) وقع في الأصول «عبد الحميد» والتصحيح عن الطبري وكتب الرجال.

أبا طالب قال لرسول الله - ﷺ -: ما يَأْتِمرك قومك؟ قال: يريدون أن يُسحروني أو يقتلوني أو يُخرجوني. فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: ربي. قال: نعم الرب ربك، فاستوص به خيراً. قال: أنا أستوصي به؟! بل هو يستوصي بي. قال: فنزلت: ﴿وَرَادَ يَمَكُّرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية^(١). وِذَكَرُ أَبِي طَالِبٍ فِي هَذَا غَرِيبٌ جَدًّا، بَلْ مَنْكُرٌ، لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَدْنِيَّةٌ، ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ وَاجْتِمَاعَ قُرَيْشٍ عَلَى هَذَا الْإِتِّمَارِ وَالْمَشَاوِرَةِ عَلَى الْإِثْبَاتِ أَوْ النَّفْيِ أَوْ الْقَتْلِ، إِنَّمَا كَانَ لَيْلَةَ الْهَجْرَةِ سِوَاءَ، وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِي طَالِبٍ بِنَحْوِ مِنْ ثَلَاثِ سِنِينَ، لَمَّا تَمَكَّنُوا مِنْهُ وَاجْتَرَوْا عَلَيْهِ بَعْدَ مَوْتِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، الَّذِي كَانَ يَحُوطُهُ وَيَنْصُرُهُ وَيَقُومُ بِأَعْبَائِهِ.

[٢٣٣٤] والدليل على صحة ما قلنا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب «المغازي» عن عبد الله بن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس - قال^(٢): وحدثني الكلبي، عن باذان مولى أم هانئ، عن ابن عباس: أن نفرًا من قريش من أشرف كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمعت أنكم اجتمعتم، فأردت أن أحضركم ولن يقدّمكم رأيي ونصحي. قالوا: أجل، ادخل. فدخل معهم فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يوائبكم في أمركم بأمره. فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: زهير والنابعة، إنما هو كأحدهم. قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال: والله ما هذا لكم برأي، والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يشبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم، فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم، قال: فانظروا في غير هذا. قال: فقال قائل منهم: فأخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره في غيركم. فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوليه، وطلاقة لسانه، وأخذ القلوب ما تستمتع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم، قالوا: صدق والله. فانظروا رأياً غير هذا. قال: فقال أبو جهل لعنه الله: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، ما أرى غيره. قالوا: وما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهدأ، ثم يُعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضرّبونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يَفُوتُونَ على حرب قريش كلها. فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العَقْلَ واسترحنا وقطعنا عنا أذاه. قال: فقال الشيخ النجدي: هذا - والله - الرأي، القول ما قال الفتى، لا رأي غيره. قال: فَتَفَرَّقُوا على ذلك وهم مجمعون له. فأتى جبريل النبي - ﷺ - فأمره ألا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم. فلم يبيت رسول الله - ﷺ - في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل الله عليه بعد قدمه المدينة «الأنفال» يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده: ﴿وَرَادَ يَمَكُّرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمَكُّرُونَ وَمَكَّرَ اللَّهُ وَنَالَهُ خَيْرَ الْمَكْرِيِّينَ﴾، وأنزل في قولهم: تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرْنَاهُ يَدِ رَبِّهِ الْمُنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، وكان ذلك اليوم يُسَمَّى يوم

(١) أخرجه الطبري ١٥٩٧٧، وإسناده ضعيف: عبد المجيد بن أبي رواد ضعفه غير واحد، وابن جريج مدلس وقد عنعن. فالخبر واه من جهة الإسناد، منكر من جهة المتن كما ذكر المصنف رحمه الله.

(٢) القائل هو ابن إسحاق.

الزحمة، لِّلَّذِي اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ مِنَ الرَّأْيِ^(١). وعن السدِّيِّ نحو هذا السياق، وأنزل الله في إرادتهم إخراجَه قوله تعالى: ﴿وَأَنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ يُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْفُتُوكَ يَخْلَفُكَ إِلَّا قَلِيلًا ۗ﴾ [الإسراء: ٧٦]. وكذا روى العوفي، عن ابن عباس. وروى عن مجاهد، وعروة بن الزبير، وموسى بن عقبة، وقاتدة، ومقسَم، وغير واحد، نحو ذلك.

[٣٣٣٥] وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق: فأقام رسولُ الله - ﷺ - ينتظر أمر الله، حتى إذا اجتمعت قريشُ فمكرت به، وأرادوا به ما أرادوا، أتاه جبريل - عليه السلام - فأمره ألا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه. فدعا رسولُ الله - ﷺ - علي بن أبي طالب، فأمره أن يبيت على فراشه وأن يتسجى ببرد له أخضر، ففعل. ثم خرج رسول الله - ﷺ - على القوم وهم على بابه، وخرج معه بحفنة من تراب، فجعل يذرها على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد - ﷺ - وهو يقرأ: ﴿يَسَّ ۝ وَالْقُرْآنَ الْمَكِّيَّ ۝﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١٩]^(٢). وقال المحافظ أبو بكر البيهقي: وروى عن عكرمة ما يؤكد هذا.

[٣٣٣٦] وقد روى ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جببر، عن ابن عباس قال: دخلت فاطمة على رسول الله - ﷺ - وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك يا بنية؟» قالت: يا أبت، مالي لا أبكي؟ وهؤلاء الملا من قريش في الحجر يتعاقدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، لو قد أروك لقاموا إليك فيقتلونك، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك. فقال: «يا بنية، اتني بوضوء». فتوضأ رسول الله - ﷺ - ثم خرج إلى المسجد. فلما رأوه قالوا: إنما هو ذا. فطأطؤوا رؤوسهم، وسقطت أذقانهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم. فتناول رسولُ الله - ﷺ - قبضة من تراب فمحصبهم بها، وقال: شامت الوجوه. فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياتِه إلا قُتل يوم بدر كافراً^(٣). ثم قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجه. ولا أعرف له علة.

[٣٣٣٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، أخبرني عثمان العجزي، عن مقسَم مولى ابن عباس، أخبره عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾. قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبته بالوثاق، يريدون النبي - ﷺ - وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخرجه. فأطلع الله نبيه على ذلك، فبات علي - رضي الله عنه - على فراش رسول الله - ﷺ - وخرج رسول الله - ﷺ - حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً، يحسبونه النبي - ﷺ - فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً ردَّ الله تعالى مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري. فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل فمزوا بالغار، فرأوا علي بابه نسج العنكبوت

(١) أخرجه في «الدلائل» ٤٦٨/٢ - ٤٦٩ من طريق الحاكم، وإسناده ضعيف. ففي الطريق الأول ابن إسحاق مدلس وقد عنعن، وفي الطريق الثانية الكلبي، وهو متروك متهم. وأخرجه البيهقي في «الدلائل» ٤٦٦/٢ - ٤٦٧ عن ابن إسحاق مرسلًا. وانظر سير «ابن هشام» ٤٨٠/١.

(٢) الحديث أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٤٦٩/٢ - ٤٧٠ عن ابن إسحاق معضلاً، وانظر ما بعده.

(٣) جيد. أخرجه الحاكم ١٦٣/١ وأحمد ٣٠٣/١ و٣٦٨ وابن حبان ٦٥٠٢ والبيهقي في «الدلائل» ٢٤٠/٦. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

فقالوا: لو دخلها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه. فمكث فيه ثلاث ليال^(١). وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْجِبَالَ فَقُلْ سَوْفَ يَحْتَفِلُ فِيهَا النَّاسُ خَلِيفَةٌ لَكَ فِيهَا حَمِيمٌ﴾، أي: فمكثت بهم بكيدي المتين، حتى خلصتكم منهم.

﴿وَإِذَا نَسَلْتُمْ عَلَيْهِمْ ۖ إِيْتَيْنَا قَالُوا قَدْ سَجَعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِ قَرِيشٍ وَعَثْوِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَدَعْوَاهُمْ الْبَاطِلَ عِنْدَ سَمَاعِ آيَاتِهِ حِينَ تَتْلَى عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿قَدْ سَجَعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾. وهذا منهم قولٌ بلا فعل، وإلا فقد تحدوا غير ما مرّة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً. وإنما هذا قولٌ منهم يَفْتَرُونَ به أنفسهم ومن اتبعهم على باطلهم. وقد قيل: إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث - لعنه الله - كما قد نصّ على ذلك سعيد بن جبّير، والسديّ وابن جرّيج وغيرهم؛ فإنه - لعنه الله - كان قد ذهب إلى بلاد فارس، وتعلّم من أخبار ملوكهم رستم وإسفنديار، ولما قدم وجدّ رسول الله - ﷺ - قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس القرآن، فكان إذا قام - ﷺ - من مجلس، جلس فيه النضر فيُحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أيهما أحسن قَصَصاً، أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر وقع في الأسارى، أمر رسول الله - ﷺ - أن تُضْرَبَ رقبته صبراً بين يديه، ففعل ذلك، والله الحمد. وكان الذي أسره المقداد بن الأسود رضي الله عنه، كما قال ابن جرير:

[٣٣٣٨] حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبّير قال: قُتِلَ النَّبِيُّ - ﷺ - يوم بدر صبراً عقبة بن أبي معيط، وطعيمة بن عديّ، والنضر بن الحارث. وكان المقداد أسر النضر، فلما أمر بقتله قال المقداد: يا رسول الله، أسيري! فقال رسول الله - ﷺ -: إنه كان يقول في كتاب الله - عز وجل - ما يقول. فأمر رسول الله - ﷺ - بقتله، فقال المقداد: يا رسول الله، أسيري! فقال رسول الله - ﷺ -: اللهم أغن المقداد من فضلك. فقال المقداد: هذا الذي أردت. قال: وفيه أنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا نَسَلْتُمْ عَلَيْهِمْ ۖ إِيْتَيْنَا قَالُوا قَدْ سَجَعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾^(٢). وكذا رواه هشيم، عن أبي بشر جعفر بن أبي وحشية، عن سعيد بن جبّير أنه قال: المطعم بن عديّ بدل طعيمة. وهو غلط، لأن المطعم بن عدي لم يكن حيّاً يوم بدر، ولهذا قال رسول الله - ﷺ - يومئذ:

[٣٣٣٩] «لو كان المُطْعِمُ حَيًّا، ثم سألتني في هؤلاء الثّثي، لو هبتهم له»^(٣). يعني الأسارى؛ لأنه كان

(١) أخرجه أحمد ٣٢٥١ والطبراني ١٢١٥٥، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٠٢٨: فيه عثمان بن عمرو الجزري وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله ثقات. وقال الشيخ أحمد شاكر: في إسناده نظر. وانظر الضعيفة ١١٢٨ و ١١٢٩.

(٢) أخرجه الطبري ١٥٩٩٣ وإسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم، لكن ذكر المطعم وهم من أحد الرواة، وقد نبه على ذلك ابن كثير رحمه الله.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٣٩ و ٤٠٢٤ وأبو داود ٢٦٨٩ وأحمد ٨٠/٤ وأبو يعلى ٧٤١٦ والبيهقي ٦٧/٩ من حديث جبّير بن مطعم.

قد أجاز رسول الله ﷺ - يوم رجع من الطائف . ومعنى: «أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ»، وهو جمعُ أسطورة، أي: كتبهم اقتبسها، فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس . وهذا هو الكَذِبُ البَحْثُ، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى: «وَقَالُوا أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ أَكْتَنَبَهَا فَهِيَ تَمُكِّنُ عَلَيْكَ بِحُكْمِهِ وَأَجْسِلَا ﴿١٦﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا رَحِيمًا ﴿١٧﴾» [الفرقان: ٥ - ٦]، أي: لمن تاب إليه وأتاب؛ فإنه يتقبل منه ويصفح عنه . وقوله: «وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِمَذَابِ آيِرٍ ﴿١٧﴾»، هذا من كثرة جهلهم وغشومهم وعنادهم وشدة تكذيبهم، وهذا مما عيَّبوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: «اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له، وَوَقِّنَا لاتباعه». ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب، وتقديم العقوبة كما قال تعالى: «وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْمَذَابِ وَأُولَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَمَاعِهِ الْمَذَابُ وَإِيَّانِهِمْ يَبْتَغَىٰ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧﴾» [المنكوت: ٥٣]. «وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَلْبَنَا بِقَوْلِ الْكَاذِبِينَ ﴿١٦﴾» [ص: ١٦]، «سَأَلْ سَائِلٌ بِمَذَابِ وَاقِعٍ ﴿١٦﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿١٧﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿١٦﴾» [المعارج: ١ - ٣]. وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة، كما قال قوم شعيب له: «فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنْ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧﴾» [الشعراء: ١٨٧]، وقال هؤلاء: «اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِمَذَابِ آيِرٍ» .

قال شعبه، عن عبد الحميد صاحب الزبدي، عن أنس بن مالك قال: هو أبو جهل بن هشام قال: «اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِمَذَابِ آيِرٍ»، فنزلت: «وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ لَمُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٧﴾» ... الآية . رواه البخاري، عن أحمد ومحمد بن النضر كلاهما عن عبيد الله بن معاذ عن أبيه عن شعبه به، وأحمد هذا هو أحمد بن النضر بن عبد الوهاب، قاله الحاكم أبو أحمد، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري . والله أعلم .

وقال الأعمش، عن رجل، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: «وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِمَذَابِ آيِرٍ ﴿١٧﴾»، قال: هو النضر بن الحارث ابن كلدة، قال: فأنزل الله: «سَأَلْ سَائِلٌ بِمَذَابِ وَاقِعٍ ﴿١٦﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿١٧﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿١٦﴾» . وكذا قال مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، والسدي؛ إنه النضر بن الحارث . زاد عطاء: فقال الله تعالى: «وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَلْبَنَا بِقَوْلِ الْكَاذِبِينَ ﴿١٦﴾» ، وقال عز وجل: «وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرْدًا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿١٦﴾» [الأنعام: ٩٤]، وقال تعالى: «سَأَلْ سَائِلٌ بِمَذَابِ وَاقِعٍ ﴿١٦﴾ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾» . قال عطاء: ولقد أنزل فيه بضع عشرة آية من كتاب الله عز وجل .

[٣٣٤٠] وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن أحمد بن الليث، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو نُمَيْلة، حدثنا الحسين، عن ابن بُرَيْدة، عن أبيه قال: رأيت عمرو بن العاص واقفاً يوم أحد على فرس، وهو يقول: اللهم، إن كان ما يقول محمد حقاً فاحسب بي وبفرسي^(١) . وقال قتادة في قوله: «وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ» ... الآية، قال: قال ذلك سَفَهة هذه الأمة وجهلتها، فعاد الله بعانده ورحمته على سَفَهة هذه الأمة وجهلتها . وقوله تعالى: «وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ لَمُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٧﴾» .

(١) فيه راو لم يسم، وهو ابن بريدة، ففي الإسناد جهالة، والخبر غريب .

[٣٣٤١] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود، حدثنا عكرمة بن عمار، عن أبي زُمَيْل سماك الحنفي، عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك. فيقول النبي - ﷺ -: «قَدْ قُدَّ» ويقولون: لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. ويقولون: غفرانك، غفرانك^(١). فأنزل الله: «وَمَا كَانَتْ أَلَلُهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلُهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣١﴾». قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبي - ﷺ - والاستغفار، فذهب النبي - ﷺ - وبقي الاستغفار. وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا أبو معشر، عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قالا: قالت قُرَيْشٌ بعضُها لبعض: محمد أكرمه الله من بيننا، «أَلَلَهُ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمَطَرْنَا عَلَيْكَ حِجَابَهُ مِنْ أَسْكَالِهِ أَوْ أَثْبَتْنَا بِعَذَابِ أَيْسِرٍ»، فلما أمسوا نديموا على ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللهم! أنزل الله عز وجل: «وَمَا كَانَتْ أَلَلُهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» إلى قوله: «وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «وَمَا كَانَتْ أَلَلُهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ»، يقول: ما كان الله ليُعَذِّبَ قوماً وأنبياءهم بين أظهرهم حتى يخرجهم، ثم قال: «وَمَا كَانَتْ أَلَلُهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ»، يقول: وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان، وهو الاستغفار «يَسْتَغْفِرُونَ» يعني: يصلون، يعني بهذا أهل مكة. ورؤي عن مجاهد، وعكرمة، وعطية العوفي، وسعيد بن جبير، والسدي، نحو ذلك. وقال الضحاك وأبو مالك: «وَمَا كَانَتْ أَلَلُهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ»، يعني: المؤمنين الذين كانوا بمكة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الغفار بن داود، حدثنا النضر بن عَرَبِي، قال: قال ابن عباس: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مُجَارِينَ من قوارع العَذَابِ ما دام بين أظهرهم، فأمان قبضه الله إليه، وأمان بقي فيكم، قوله: «وَمَا كَانَتْ أَلَلُهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلُهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣١﴾». وقال أبو صالح عبد الغفار: حدثني بعض أصحابنا أن النضر بن عربي حَدَّثَهُ هذا الحديث، عن مجاهد، عن ابن عباس. وروى ابن مَرْدُويه وابن جرير، عن أبي موسى الأشعريّ نحواً من هذا. وكذا روي عن قتادة وأبي العلاء النحويّ المقرئ.

[٣٣٤٢] وقال الترمذي: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن ثَمِير، عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، عن عَبَادِ بْنِ يَوْسُفَ، عن أبي بُرْدَةَ بن أبي موسى، عن أبيه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَمَانِينَ لِأُمَّتِي: «وَمَا كَانَتْ أَلَلُهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلُهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣١﴾»، فإذا مضيت تركت فيكم الاستغفار»^(٢).

[٣٣٤٣] ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه، من حديث عبد الله ابن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد أن رسول الله - ﷺ - قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ، لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، فَقَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أُغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»^(٣) ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(١) ضعيف. إسناده غير قوي من أجل موسى بن مسعود، حيث ضعفه غير واحد. والخبر منكر فإن الآية نزلت عقب بدر، والحديث يدل على أنه كان قبل الهجرة.

(٢) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٠٨٣ وضعفه بقوله: غريب، وإسماعيل بن مهاجر يضعف في الحديث أنه وله علة ثانية: عبادة بن يوسف الكوفي، مجهول كما في التقريب. وعلة ثالثة: سفيان بن وكيع ضعفه غير واحد. فالخبر ضعيف. وقد ورد عن ابن عباس موقوفاً كما تقدم آنفاً، وهو أصح.

(٣) إسناده ضعيف لأنه من رواية دراج عن أبي الهيثم، وتقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١٧ - ١٨.

[٣٣٤٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا رشدين هو ابن سَعِيدٍ، حدثني معاوية ابن سَعِيدِ التُّجِيبِيُّ، عن حَدَّثِهِ، عن فَضَالَةَ بنِ عُبَيْدٍ، عن النُّبِيِّ - ﷺ - أنه قال: «العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله عز وجل» (١).

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاةً وَتَصَدِيحَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام رسول الله - ﷺ - بين أظهرهم، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم، أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقتل صناديدهم وأسيرت سرايتهم. وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب، التي هم مُتَلَبِّسُونَ بها من الشرك والفساد. قال قتادة والسدي وغيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون لما عذبوا. واختاره ابن جرير، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لأوقع بهم البأس الذي لا يُرَدُّ، ولكن دُفِعَ عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى في يوم الحديبية: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدِينِ مَكْرُوهًا أَنْ يَبْلُغَ حِلْمٌ وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَرِسَالَةٌ مُؤْمِنَةٌ لَرَأَوْهُمُ أَنْ تَقُولَهُمْ قَتَيْبِيكُمْ يَنْتَهَرُ مَعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُنْزِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَكَوْا لَمَدَدْنَا أَلْيَدًا كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الفتح: ٢٥]. قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن ابن أنزى قال: كان النبي - ﷺ - بمكة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلْيَدُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، قال: فخرج النبي - ﷺ - إلى المدينة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلْيَدُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. قال: وكان أولئك البقية من المؤمنين الذين بقوا فيها يستغفرون - يعني بمكة - فلما خرجوا أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾، قال: فأذن الله في فتح مكة، فهر العذاب الذي وعدهم. وزوي عن ابن عباس، وأبي مالك، والضحاك، وغير واحد، نحو هذا. وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلْيَدُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم. قال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْدٍ، حدثنا يحيى بن واضح، عن الحسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة والحسن البصري قالا: قال في الأنفال: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلْيَدُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلْيَدُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾، فنسختها الآية التي تليها: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، فقوتلوا بمكة، فأصابهم فيها الجوع والضرر. وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي نميلة يحيى بن واضح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، عن ابن جُرَيْجٍ، وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلْيَدُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، ثم استثنى أهل الشرك فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾، أي: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام، أي الذي بمكة، يصدون المؤمنين الذين هم أهلهم عن الصلاة عنده والطواف به. ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا

(١) أخرجه أحمد ٦/٢٠ ح ٢٣٤٣٤، وإسناده ضعيف له علتان رشدين بن سعد وإيه، وفيه رجل لم يسم.

أُولِيَاءَهُمْ، أي: هم ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهله النبي - ﷺ - وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَوَّطْنَا عَنْهُمْ أَنْ يُفْتَنُوا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٧-١٨]، وقال تعالى: ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفِّرُ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامِ لِإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]... الآية.

[٣٣٤٥] وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيْهِ في تفسير هذه الآية: حدثنا سليمان بن أحمد - هو الطبراني - حدثنا جعفر بن إلياس بن صدقة المصري، حدثنا نُعَيْم بن حماد، حدثنا نوح بن أبي مريم، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: سئل رسول الله - ﷺ -: من ألك؟ قال: كل نقي، وتلا رسول الله - ﷺ -: ﴿إِنْ أُولِيَاءَهُمْ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ﴾^(١).

[٣٣٤٦] وقال الحاكم في مستدرکه: حدثنا أبو بكر الشافعي، حدثنا إسحاق بن الحسن، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن إسماعيل بن عُبَيْد بن رفاعه، عن أبيه، عن جده قال: جمع رسول الله - ﷺ - قريشاً فقال: هل فيكم من غيركم؟ قالوا: فينا ابن أختنا، وفينا حليفنا، وفينا مولانا. فقال: حليفنا منا، وابن أختنا منا، ومولانا منا، إن أوليائي منكم المتقون^(٢). ثم قال: هذا صحيح، ولم يُخْرِجَاهُ. وقال عروة، والسدّي، ومحمد بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿إِنْ أُولِيَاءَهُمْ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ﴾، قال: هم محمد - ﷺ - وأصحابه، رضي الله عنهم. وقال مجاهد: هم المجاهدون من كانوا، وحيث كانوا.

ثم ذكر تعالى ما كانوا يَعتَمِدُونَهُ عند المسجد الحرام وما كانوا يعاملونه به، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾. قال عبد الله بن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبّير، وأبو رجاة العطاردي، ومحمد بن كعب القرظي، وحُجْر بن عَنَبَس، ونُبَيْط بن شَرِيْط، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الصفير. وزاد مجاهد: وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم. وقال السدّي: المُكَاءُ الصَّفِيرُ على نحو طير أبيض يقال له: المُكَاءُ، يكون بأرض الحِجَازِ. ﴿وَتَصَدِيَةً﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو خَلَادٍ سليمان بن خَلَادٍ، حدثنا يونس بن محمد المؤدّب، حدثنا يعقوب - يعني ابن عبد الله الأشعري - حدثنا جعفر بن المغيرة، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾، قال: كانت قريش تطوف بالكعبة عراة تُصْفِرُ وَتُصَفِّقُ - والمكء: الصفير، وإنما شبهوا بصفير الطير، وتصديّة: التصفيق. وهكذا روى علي بن أبي طلحة والعمري، عن ابن عباس، وكذا روى عن ابن عُمَرَ، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، والضحاك، وقتادة وعطية العوفي، وحُجْر بن عَنَبَس، وابن أبزى نحو هذا. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا أبو عامر،

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني في «الصغير» ٣١٨ و«الأوسط» كما في «المجمع» ١٧٩٤٦ من حديث أنس. قال الهيثمي: فيه نوح بن أبي مريم، وهو ضعيف اهـ واتهمه الحاكم بالوضع. راجع اليزان ٩١٤٣. وما بعده أصح منه، وفي الباب أحاديث.

(٢) أخرجه أحمد ٣٤٠/٤ والحاكم ٣٢٨/٢ والطبراني في «الكبير» ٤٥٤٤ واليزان ٢٧٨٠ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٦/١٠ وقال: ورجال أحمد واليزان وإسناد الطبراني ثقات! وصححه الحاكم! ووافقه الذهبي! والصواب أنه ضعيف، مداره على إسماعيل بن عبيد، وقد وثقه ابن حبان وحده، وأبو حذيفة، ضعفه غير واحد. وكونه عليه السلام جمع قريشاً غريب، وقد صح بغير هذا السياق.

حدثنا قرة، عن عطية، عن ابن عمر في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾، قال: المكاء: الصفيير، والتصديّة: التصفيق. قال قرة: وحكى لنا عطية فعل ابن عمر، فصفر ابن عمر، وأمال خذه. وصفق بيديه. وعن ابن عمر أيضاً أنه قال: كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون. رواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عنه. وقال عكرمة: كانوا يطوفون بالبيت على الشمال. قال مجاهد: وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي - ﷺ - صلاته. وقال الزهري: يستهزئون بالمؤمنين. وعن سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد: ﴿وَتَصَدِيَةً﴾، قال: صدّهم الناس عن سبيل الله عز وجل. قوله: ﴿فَذَوْقُوا أَلْمَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، قال الضحّاك، وابن جرير، ومحمد بن إسحاق: هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي. واختاره ابن جرير، ولم يحك غيره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمّار، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: عذاب أهل الإقرار بالسيف، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكَبُكُمْ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قال محمد بن إسحاق: حدثني الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ - قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجع قلوبهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بغيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، في رجال من قريش أصيب آبائهم وأبنائهم وإخوانهم ببدر، فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على خزبه، لعلنا أن ندرک منه ثاراً بمن أصيب منا ففعلوا، قال: ففيهم - كما ذكر عن ابن عباس - أنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾. وهكذا زوي عن مجاهد، وسعيد بن جبير، والحكم بن عتيبة، وقاتدة، والسدي، وابن أبيزى: أنها نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله - ﷺ -. وقال الضحّاك: نزلت في أهل بدر. وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصاً، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق، فيسفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم، ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾، أي: ندامة، حيث لم تُجد شيئاً. لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه، ومغلن كلمته، ومظهر دينه على كل دين. فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار. فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي. ولهذا قال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾: فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء. وقال السدي: يميز المؤمن من الكافر. وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُنْفِقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الروم: ١٤]. وقال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَ يُبَدِّلُ بَعْضُهُمْ أَلْسِنَ﴾ [الروم: ٤٣]،

وقال تعالى: ﴿وَأَمْسُرُوا أَيْمَانَهُمْ إِلَىٰ الْمَعْرُورِ﴾ ﴿٣٨﴾ [يس: ٥٩]. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا التَّمْيِيزُ فِي الدُّنْيَا، بِمَا يَظْهَرُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَتَكُونُ اللَّامُ مُعَلَّلَةٌ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِ مِنْ مَالٍ يَنْفِقُونَهُ فِي الصَّدَقَاتِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، أَيْ: إِنَّمَا أَقْدَرْنَا هُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ ﴿يُمَيِّرُ اللَّهُ الْحَيَاتِ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، أَيْ: مَنْ يُطِيعُهُ بِقِتَالِ أَعْدَائِهِ الْكَافِرِينَ، أَوْ يَعْتَصِمُهُ بِالنُّكُولِ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْفَرَسَانِ فَيُؤْذِنُ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ لَقَاتَلْنَا لِأَنَّا كَفَرْنَا﴾ [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧]... الآية، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْطِيَكَ عَلَىٰ الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] الآية، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَوْلَاكُمْ مِنْكُمْ وَلَيْسَ اللَّهُ بِغَافِلٍ عَنِ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وَنَظِيرُهَا فِي بَرَاءةٍ أَيْضًا. فَمَعْنَى الْآيَةِ عَلَىٰ هَذَا: إِنَّمَا ابْتَلَيْنَاكُمْ بِالْكَفَرِ يَقَاتِلُونَكُمْ، وَأَقْدَرْنَا هُمْ عَلَىٰ إِفْتِاقِ الْأَمْوَالِ وَتَبْذِيلِهَا فِي ذَلِكَ، لِتَمْيِيزِ الْخَبِيثِ مِنَ الطَّيِّبِ، فَيَجْعَلُ الْخَبِيثُ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ، ﴿فَيَرْكَبُكُمْ﴾، أَيْ: يَجْمَعُهُمْ كَلَّهُ، وَهُوَ جَمْعُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي السَّحَابِ: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رِجَامًا﴾ [النور: ٤٣] أَيْ: مُتْرَاكِمًا مُتْرَاكِبًا، ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلِيَّتَكَ هُمْ الْخَبِيرُونَ﴾، أَيْ: هَؤُلَاءِ هُمُ الْخَاسِرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ وَقُلُوبُهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ فَإِنَّ آتَتْهُمُ آيَاتُ اللَّهِ بِمَا يَعْمَلُونَ بَعِيرٌ﴾ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَغْمِ الْمَوْلَىٰ وَيَغْمِ النَّصِيرُ﴾ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى لنبئهم محمد - ﷺ -: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾، أَيْ: عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَشَاقِقِ وَالْعِنَادِ، وَيَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ وَالْإِنَابَةِ، يَغْفِرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ، أَيْ: مِنْ كُفْرِهِمْ، وَذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ.

[٣٣٤٧] كما جاء في الصحيح، من حديث أبي وائل، عن ابن مسعود: أن رسول الله - ﷺ - قال: «مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ»^(١).

[٣٣٤٨] وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله - ﷺ - قال: «الْإِسْلَامُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ، وَالتَّوْبَةُ تَجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهَا»^(٢). وقوله: ﴿وَإِنْ يُودُوا﴾، أَيْ: يَسْتَمِرُّوا عَلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾، أَيْ: فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُنَا فِي الْأَوَّلِينَ أَنَّهُمْ إِذَا كَذَّبُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَىٰ عِنَادِهِمْ أَنَا نُعَاجِلُهُمْ بِالْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ. قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾، أَيْ: فِي قَرِيشٍ يَوْمَ بَدْرٍ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ، وَقَالَ السُّدِّيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ أَيْ: يَوْمَ بَدْرٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾.

[٣٣٤٩] قال البخاري: حدثنا الحسن بن عبد العزيز، حدثنا عبد الله بن يحيى، حدثنا خزيمة بن شريح، عن بكر بن عمرو، عن بكير، عن نافع، عن ابن عمر: أن رجلاً جاءه فقال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٩٢١ ومسلم ١٢٠ وابن ماجه ٤٢٤٢ وأحمد ٤٠٩/١ و٤٢٩ وابن حبان ٣٩٦.

(٢) لم أنف عليه في الصحيح بهذا السياق، وإنما أخرجه الطبراني ٥/١٨ - ٦ من حديث عمرو بن العاص مطوّلاً وفيه «إن الإسلام يجب ما كان قبله، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها» وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٥١/٩: رواه أحمد والطبراني... ورجالهما ثقات. وفي صحيح مسلم ١٢١ ومسنده أحمد ٢٠٥/٤ في أثناء حديث إسلام عمرو بن العاص «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله»...

ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٤٩]... الآية، فما يَمْنَعُكَ أَلَا تَقَاتِلَ كَمَا ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ؟ فَقَالَ: يَا بَنَ أَخِي، أُعَيِّرُ بِهِذِهِ الْآيَةَ وَلَا أَقَاتِلُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعَيِّرَ بِالْآيَةِ الَّتِي يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣]... إِلَى آخِرِهَا - قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾؟ قَالَ ابْنُ عَمْرٍو: قَدْ فَعَلْنَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ - إِذْ كَانَ الْإِسْلَامَ قَلِيلًا، وَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ: إِمَّا أَنْ يَقْتُلُوهُ، وَإِمَّا أَنْ يُوثِقُوهُ، حَتَّى كَثُرَ الْإِسْلَامَ فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةً. فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا يُوَافِقُهُ فِيمَا يَبْرِيْدُ، قَالَ: فَمَا قَوْلُكَ فِي عَلِيٍّ وَعِثْمَانَ؟ قَالَ ابْنُ عَمْرٍو: مَا قَوْلِي فِي عَلِيٍّ وَعِثْمَانَ؟ أَمَّا عِثْمَانُ فَكَانَ اللهُ قَدْ عَفَا عَنْهُ، وَكَرِهْتُمْ أَنْ تَعْفُوا عَنْهُ، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ - وَحَتَّتَهُ - وَأَشَارَ بِيَدِهِ - وَهَذِهِ ابْنَتُهُ - أَوْ: بِنْتُهُ - حَيْثُ تَرَوْنَ^(١).

[٣٣٥٠] وَحَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ، حَدَّثَنَا بِيَانُ أَنَّ ابْنَ وَبْرَةَ حَدَّثَهُ قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا - أَوْ إِلَيْنَا - ابْنُ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فَقَالَ رَجُلٌ: كَيْفَ تَرَى فِي قِتَالِ الْفِتْنَةِ؟ فَقَالَ: وَهَلْ تَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ - يَقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ الدَّخُولُ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً، وَلَيْسَ بِقِتَالِكُمْ عَلَى الْمَلِكِ^(٢). هَذَا كُلُّهُ سِيَاقُ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

[٣٣٥١] وَقَالَ عُبَيْدُ اللهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عَمْرٍو: أَنَّهُ أَتَاهُ رَجُلَانِ فِي فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَقَالَا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ صَنَعُوا مَا تَرَى، وَأَنْتَ ابْنُ عَمْرٍو بِنَ الْخَطَابِ، وَأَنْتَ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ - فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَخْرُجَ؟ قَالَ: يَمْنَعُنِي أَنَّ اللَّهَ حَزَمَ عَلَيَّ دَمَ أَخِي الْمُسْلِمِ. قَالُوا: أَوْ لِمَ يَقُولُ اللهُ: ﴿وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلِمَةُ اللَّهِ﴾؟ قَالَ: قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَةً، وَكَانَ الدِّينُ كُلُّهُ لَهٗ. وَأَنْتُمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةً، وَيَكُونَ الدِّينُ لِغَيْرِ اللهِ^(٣).

[٣٣٥٢] وَكَذَا رَوَاهُ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ بْنِ عَبْدِ اللهِ اللَّخْمِيِّ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلِمَةُ اللَّهِ﴾ فَقَالَ ابْنُ عَمْرٍو: قَاتَلْتُ أَنَا وَأَصْحَابِي حَتَّى كَانَ الدِّينُ كُلُّهُ لَهٗ، وَذَهَبَ الشُّرْكُ وَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةً، وَلَكِنَّكَ وَأَصْحَابُكَ تَقَاتِلُونَ حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةً، وَيَكُونَ الدِّينُ لِغَيْرِ اللهِ^(٤). رَوَاهُمَا ابْنُ مَرْزُوقٍ.

[٣٣٥٣] وَقَالَ أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّمِيمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ ذُو الْبَطِينِ - يَعْنِي أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ -: لَا أَقَاتِلُ رَجُلًا يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ أَبَدًا». قَالَ: فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ: وَأَنَا وَاللَّهِ لَا أَقَاتِلُ رَجُلًا يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ أَبَدًا. فَقَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ يَقُلْ اللهُ: ﴿وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلِمَةُ اللَّهِ﴾؟ فَقَالَا: قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَةً، وَكَانَ الدِّينُ كُلُّهُ لَهٗ^(٥). رَوَاهُ ابْنُ مَرْزُوقٍ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾، يَعْنِي: لَا يَكُونُ شُرْكٌ. وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ، وَمُجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالسُّدِّيُّ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: بَلَّغَنِي عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ وَغَيْرِهِ مِنْ عُلَمَائِنَا: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾: حَتَّى لَا يُفْتَنَ مُسْلِمٌ عَنْ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٥٠.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٥١.

(٣) رجاله ثقات، وهو يشهد لما قبله.

(٤) علي بن زيد ضعيف، لكن يتأيد بما قبله.

(٥) فيه إرسال، ومن دون أبي عوانة لا يعرف حاله.

دينه. وقوله: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قال الضحاک، عن ابن عباس في هذه الآية: قال: يَخْلُصُ التوحيد لله. وقال الحسن وقتادة، وابن جريج ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أن يقال: لا إله إلا الله. وقال محمد بن إسحاق: ويكون التوحيد خالصاً لله، ليس فيه شرك، ويخلع ما دونه من الأنداد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لا يكون مع دينكم كفر.

[٣٣٥٤] ويشهد له ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل»^(١).

[٣٣٥٥] وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: سئل رسول الله - ﷺ - عن الرجل يقاتل شجاعةً ويقاتل حميةً، ويقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله عز وجل؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾، أي: بقتالكم إياهم عما هم فيه من الكفر، فكفروا عنه وإن كنتم لا تعلمون بواطنهم، ﴿فَلَاكُ اللَّهُ بِمَا يَمْكُرُونَ بَصِيرًا﴾، كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَاخْرُجْكُمْ فِي الَّذِينَ﴾ [التوبة: ١١]، وقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئْتَهُ وَيَكُونَ الَّذِينَ لَدَيْكُمْ أَتَائِبِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

[٣٣٥٦] وفي الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال: لا إله إلا الله. فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال لأسامة -: أقتلته بعد ما قال: «لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟ قال: يا رسول الله، إنما قالها تَعَوُّذًا. قال: هلا شَقَقْتَ عن قلبه؟ وجعل يقول ويكرر عليه: من لك بـ لا إله إلا الله يوم القيامة؟ قال أسامة: حتى تَمَيَّثْتُ أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ^(٣). وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نِعْمَ الْكَوَلُونَ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾^(٤)، أي: وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ﴾: سيدكم وناصركم على أعدائكم، فنعم المولى ونعم النصير.

[٣٣٥٧] وقال محمد بن جرير: حدثني عبد الوارث بن عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا أبان العطار، حدثنا هشام بن عروة، عن عروة: أن عبد الملك بن مزوان كتب إليه يسأله عن أشياء، فكتب إليه عروة: سلامٌ عليك، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعدُ فإنك كتبت إليّ تسألني عن مخرج رسول الله - ﷺ - من مكة، وسأخبرك به، ولا حول ولا قوة إلا بالله: كان من شأن مخرج رسول الله - ﷺ - من مكة، أن الله أعطاه النبوة، فَنِعِمَّ النَّبِيُّ، ونعم السيد، ونعم العشيرة، فجزاه الله خيراً، وَعَرَفْنَا وجهه في الجنة، وأحياناً على مِثْلِهِ، وأمانتنا عليها، وبعثنا عليها. وإنه لما دعا قومه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذي أنزل عليه، لم يبعثوا منه أول ما دعاهم إليه، وكانوا يسمعون له حتى ذكر طواغيتهم. وَقَدِمَ نَاسٌ من الطائف من قُرَيْشٍ، لهم أموال، أنكر ذلك عليه ناسٌ واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال، وأغروا به من أطاعهم، فانعطف عنه عامة الناس، فتركوه إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل. فمكث بذلك ما قَدَّرَ الله أن يمكث، ثم انتشرت

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٠.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٩٢.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٢٦٩ و٦٨٧٢ ومسلم ٩٦ وأبو داود ٢٦٤٣ وأحمد ٢٠٠/٥ وابن حبان ٤٧٥١.

رؤوسهم بأن يفتنوا من أتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال، فافتن من افتن، وعصم الله من شاء منهم. فلما قُبل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله ﷺ - أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي، لا يُظلم أحد بأرضه، وكان يُثني عليه مع ذلك، وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش، يتجرون فيها، ومسكن لتجارهم، يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأماناً ومتجراً حسناً، فأمرهم بها النبي ﷺ - فذهب إليها عامتهم لما قهرّوا بمكة، وخاف عليهم الفتنة. ومكث هو فلم يترج، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم. ثم إنه فسأ الإسلام فيها، ودخل فيه رجال من أشرافهم ومعتتهم. فلما رأوا ذلك استرخوا استرخاءة عن رسول الله ﷺ - وعن أصحابه. وكانت الفتنة الأولى هي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ - قبل أرض الحبشة مخافتها، وفراراً مما كانوا فيه من الفتنة والزلزال. فلما استخرجي عنهم ودخل في الإسلام من دخل منهم، تُحدّث باسترخائهم عنهم، فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ - : أنه قد استخرجي عن من كان منهم بمكة، وأنهم لا يُفتنون، فرجعوا إلى مكة، وكادوا يأمنون بها، وجعلوا يزدادون ويكثرون. وإنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير، وفسأ بالمدينة الإسلام، وطُفيق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ - بمكة. فلما رأت قريش ذلك تأمرت على أن يفتنوهم ويشتدوا، فأخذوهم، فحرضوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جهد شديد، فكانت الفتنة الأخيرة، فكانت فتنتان: فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة، حين أمرهم النبي ﷺ - بها، وأذن لهم في الخروج إليها، وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة. ثم إنه جاء رسول الله ﷺ - من المدينة سبعون نقيباً، رؤوس الذين أسلموا، فوافوه بالحج، فبايعوه بالعقبة، وأعطوه عهدهم على أنّا منك وأنت منا، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جتتنا، فإنّا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا، فاشتدت عليهم قريش عند ذلك، فأمر رسول الله ﷺ - أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ - أصحابه، وخرج هو، وهي التي أنزل الله - عز وجل - فيها: ﴿وَقَالُوا هُمْ هَؤُلَاءِ لَا تَكُونُ فِتْنَةً وَيَكُونُوا الَّذِينَ كَلَّمُوا لَكُمْ﴾^(١). ثم رواه عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عروة بن الزبير: أنه كتب إلى الوليد - يعني ابن عبد الملك بن مروان - بهذا، فذكر مثله. وهذا صحيح إلى عروة رحمه الله.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُكْمَهُ وَاللرَّسُولِ وَالَّذِي أَلْقَرَكَ وَالْيَتَمَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَيْكُمْ عَبْدَانَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

يُبين تعالى تفصيل ما شرّعه مخصصاً لهذه الأمة الشريفة، من بين سائر الأمم المتقدمة، من إحلال المغنم. والغنيمة: هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب، والفِيء: ما أخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصالحون عليها، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك، هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف. ومن العلماء من يطلق الفِيء على ما تطلق عليه الغنيمة، والغنيمة على الفِيء أيضاً، ولهذا ذهب قتادة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية الحشر: ﴿مَا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ

(١) مرسل. أخرجه الطبري ١٦٠٩٧ بإسناد حسن عن عروة، وكرره ١٦٠٩٨ من وجه آخر عنه، ومراسيل عروة حسان.

أَهْلِي الْقَرْيَةِ فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ ﴿٧٤﴾ [الحشر: ٧٤] الآية، قال: فنسخت آية الأنفال تلك، وجعلت الغنائم: أربعة أخماسها للمجاهدين وخمساً منها لهؤلاء المذكورين. وهذا الذي قاله بعيداً، لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، وتلك نزلت في بني النضير، ولا خلاف بين علماء السير والمغازي قاطبة أن بني النضير بعد بدر. هذا أمر لا يُشكَّ فيه ولا يُرتاب، فمن يفرق بين معنى الفية والغنيمة يقول: تلك نزلت في أموال الفية وهذه في المغانم. ومن يجعل أمر المغانم والفية راجعاً إلى رأي الإمام يقول: لا منافاة بين آية الحشر وبين التخصيس إذا رآه الإمام والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ توكيداً لتخصيس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخييط، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَالرَّسُولِ﴾، اختلف المفسرون هاهنا، فقال بعضهم: لله نصيب من الخمس يجعل في الكعبة.

[٣٣٥٨] قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية الرياحي قال: كان رسول الله - ﷺ - يؤتى بالغنيمة فيقسمها على خمسة، تكون أربعة أخماس لمن شهدها، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه الذي قبض كفه، فيجعله للكعبة، وهو سهم الله. ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم، فيكون سهم للرسول، وسهم لذوي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل^(١). وقال آخرون: ذكر الله هاهنا استفتاحاً كلاماً للتبرُّك، وسهمه للرسول عليه السلام.

[٣٣٥٩] قال الضحاك، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كان رسول الله - ﷺ - إذا بعث سرية فغنموا، خُمس الغنيمة، فُضرب ذلك الخمس في خُمسة. ثم قرأ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَالرَّسُولِ﴾^(٢)، قال: وقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾، مفتاح كلام، لله ما في السموات وما في الأرض، فُجعل سهم الله وسهم الرسول واحداً. وهكذا قال إبراهيم النخعي، والحسن بن محمد بن الحنفية. والحسن البصري، والشعبي، وعطاء بن أبي رباح، وعبد الله بن بريدة، وقتادة، ومغيرة، وغير واحد: أن سهم الله ورسوله واحد.

[٣٣٦٠] ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بَلَقِينَ قال: أتيت رسول الله - ﷺ - وهو بوادي القري، وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: لله خمسها، وأربعة أخماس للجيش. قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال: لا، ولا السهم تستخرجه من جَنِيكَ، ليس أنت أحق به، من أخيك المسلم^(٣).

وقال ابن جرير: حدثنا عمران بن موسى، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أبان، عن الحسن قال: أوصى أبو بكر بالخمسة من ماله، وقال: ألا أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه.

ثم اختلف قائلو هذا القول، فروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة: فربيع لله وللرسول. فما كان

(١) مرسل. أخرجه الطبري ١٦١١٧.

(٢) مرسل. أخرجه الطبري ١٦١٠٩.

(٣) صحيح. أخرجه البيهقي في «السنن» ٣٢٤/٦ و٣٣٦ وأبو يعلى ٧١٧٩. وقال الهيثمي في «المجمع» ٤٨/١ - ٤٩: رواه أبو يعلى، وإسناده صحيح.

لله وللرسول فهو لقرابة رسول الله ﷺ، ولم يأخذ النبي ﷺ - من الخمس شيئاً... وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو معمر المنقري، حدثنا عبد الوارث بن سعيد، عن حسين المعلم، عن عبد الله بن بريدة في قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْلُغَ إِلَيْكُمْ مَحْضُكُمْ﴾، قال: الذي لله فلنبيه، والذي للرسول لأزواجه. وقال عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح قال: خمسُ الله والرسول واحدٌ، يُخْمَلُ منه وَيُصْنَعُ فيه ما شاء. يعني النبي ﷺ. وهذا أعمُّ وأشملٌ، وهو أن الرسول - ﷺ - يتصرفُ في الخمس الذي جعله الله له بما شاء، ويُرَدُّه في أمته كيف شاء.

[٣٣٦١] ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عيَّاش، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، عن أبي سلام الأعرج، عن المقدم بن معد يكرب الكندي: أنه جلس مع عبادة بن الصامت، وأبي الدرداء، والحارث بن معاوية الكندي - رضي الله عنهم - فتذاكروا حديث رسول الله - ﷺ - فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة، كلمات رسول الله - ﷺ - في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس؟ فقال عبادة: إن رسول الله - ﷺ - صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله - ﷺ - فتناول وبرة بين أنمليته فقال: إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيطة، وأكبرَ من ذلك وأصغرَ، ولا تَغْلُوا فإن الغلول نارٌ وعازٌّ على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس في الله القريبَ والبعيدَ، ولا تبالوا في الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله في الحَضْر والسَفَرِ، وجاهدوا في الله، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم، يُنْجِي به الله من الهمِّ والغَمِّ^(١). هذا حديث حسن، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه.

[٣٣٦٢] ولكن روى الإمام أحمد أيضاً، وأبو داود، والنسائي، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، عن رسول الله - ﷺ - نحوه في قصة الخُمسِ، والنهي عن الغلول^(٢).

[٣٣٦٣] وعن عمرو بن عَبَسَةَ أن رسول الله - ﷺ - صَلَّى بهم إلى بعير من المغنم، فلما سَلِمَ أخذ وبرة من هذا البعير ثم قال: ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذه إلا الخمس، والخمس مردودٌ فيكم^(٣)، رواه أبو داود والنسائي. وقد كان للنبي - ﷺ - من المغنم شيء يصطفيه لنفسه، عبداً أو أمةً أو فرساً أو سيفاً، أو نحو ذلك، كما نصَّ على ذلك محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء.

[٣٣٦٤] وروى الإمام أحمد، والترمذي - وحسنه - عن ابن عباس: أن رسول الله - ﷺ - تَقَلَّ سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد^(٤).

(١) أخرجه أحمد ٣١٦/٥ وإسناده ضعيف، لضعف أبي بكر بن أبي مريم كما في «المجمع» ٣٣٨/٥ وينحوه أخرجه أحمد ٥/٣٢٤ - ٣٢٣ وابن حبان ٤٨٥٥ من وجه آخر عن أبي سلام عن أبي أمامة الباهلي عن عبادة به، وإسناده لا بأس به، وأخرجه ابن ماجه ٢٨٥٠ من طريق يعلى بن شداد عن عبادة به. ويشهد له حديث عبد الله بن عمرو، وعمرو بن عبسة كما سيأتي.

(٢) حسن. أخرجه أبو داود ٢٦٩٤ والنسائي ٢٦٣/٦ - ٢٦٤ وأحمد ١٨٤/٢ و٢١٨ والبيهقي في «الدلائل» ١٩٥/٥ - ١٩٦ وإسناده حسن.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ٢٧٥٥ وإسناده صحيح.

(٤) حسن. أخرجه الترمذي بإثر ١٥٦١ وابن ماجه ٢٨٠٨ وأحمد ٢٧١/١ وابن سعد في «الطبقات» ١/٣٧٧ وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» ٤٠٥ والبخاري في «الأنوار» ٨٧٥ من طرق عن ابن أبي الزناد عن أبيه عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

[٢٣٦٥] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كانت صَفِيَّةَ من الصَّفِيِّ»^(١). رواه أبو داود في سننه.

[٢٣٦٦] وروى أيضاً بإسناده، والنسائي أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالجزيرة إذ دخل رجلٌ معه قطعة أديم، فقرأناها فإذا فيها: «من محمد رسول الله إلى بني زُهَيْرِ بن أقيش، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله، وأقمتم الصلاة، وأديتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهّم النبيّ وسهّم الصَّفِيِّ، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله». فقلنا: من كتَبَ لك هذا؟ فقال: رسولُ الله ﷺ^(٢). فهذه أحاديث جيّدة تدل على تقرر هذا وثبوتها، ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه.

وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف في مال الفيء. قال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمه الله: وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال. فإذا ثبت هذا وعلم، فقد اختلف أيضاً في الذي كان يناله - عليه السلام - من الخمس، ماذا يُصنَعُ به من بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلي الأمر من بعده. زوي هذا عن أبي بكر، وعلي، وقتادة، وجماعة، وجاء فيه حديث مرفوع.

وقال آخرون: يُصرف في مصالح المسلمين. وقال آخرون: بل هو مردودٌ على بقية الأصناف: ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، واختاره ابن جرير.

وقال آخرون: بل سهم النبي - ﷺ - وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل. قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق. وقيل: إن الخمس جميعه لذوي القربى، كما رواه ابن جرير: حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا عبد الغفار، حدثنا المنهال بن عمرو: سألتُ عبد الله بن محمد بن عليّ، وعليّ بن الحسين، عن الخمس فقالوا: هو لنا. فقلتُ لعليّ: فإن الله يقول: ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، فقالوا: يتامانا ومساكيننا. وقال سفيان الثوري، وأبو نعيم، وأبو أسامة، عن قيس بن مسلم: سألت الحسن بن محمد بن الحنفية - رحمه الله تعالى - عن قول الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾، قال: هذا مفتاح كلام، لله الدنيا والآخرة. ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله - ﷺ - فقال قائلون: سهم النبي - ﷺ - تسليمياً - للخليفة من بعده، وقال قائلون: لقرباة النبي - ﷺ - وقال قائلون: سهم القرباة لقرباة الخليفة. فاجتمع قولهم على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والغدة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال الأعمش، عن إبراهيم: كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي - ﷺ - في الكراع والسلاح، فقلت لإبراهيم: ما كان عليّ يقول فيه؟ قال: كان أشدهم فيه. وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء رجمهم الله. وأما سهم ذوي القربى فإنه يُصرف إلى بني هاشم وبني المطلب، لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية، في أول الإسلام ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول الله - ﷺ - وحماية له: مُسلمهم طاعةً لله ورسوله، وكافؤهم حميةً للعشيرة وأنفةً وطاعةً لأبي طالب عم رسول الله. وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل - وإن كانوا أبناء عمهم - فلم يوافقهم على ذلك، بل حاربهم وناذوهم، ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول، ولهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم، لشدة قربهم. ولهذا يقول في أثناء قصيدته:

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٢٩٩٤. ويشهد له حديث أنس عند أبي داود ٢٩٩٥ وأبي يعلى ٣٧٠٤ وإسناده صحيح. ومرسل قتادة عند أبي داود برقم ٢٩٩٣.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ٢٩٩٩ وإسناده جيد، وفي الباب أحاديث.

جَزَى اللهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَتَوَفَّلَا
بِمِيزَانٍ قَنِطٍ لَا يَخِيْسُ شَعِيرَةَ
لَقَدْ سَفِهَتْ أَحْلَامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا
وَنَحْنُ الصَّمِيمُ مِنْ ذُوَابَةِ هَاشِمٍ

[٣٣٦٧] وقال جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ بنِ عَدِيٍّ: مَشَيْتُ أَنَا وَعِثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ - يَعْنِي ابْنَ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمِيَّةِ ابْنَ عَبْدِ شَمْسٍ - إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْطَيْتَ بَنِي الْمُطَّلِبِ مِنْ خُمْسِ خَيْبَرَ وَتَرَكْتَنَا، وَنَحْنُ وَهُمْ مِنْكَ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ! فَقَالَ: إِنَّمَا بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ شَيْءٌ وَاحِدٌ^(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَفِي بَعْضِ رَوَايَاتِ هَذَا الْحَدِيثِ: «إِنَّهُمْ لَمْ يُفَارِقُونَا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ»^(٢). وَهَذَا قَوْلُ جَمْهُورِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ آخَرُونَ هُمُ بَنُو هَاشِمٍ. ثُمَّ رَوَى عَنْ خُصَيْفٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: عَلَّمَ اللَّهُ أَنْ فِي بَنِي هَاشِمٍ فَقَرَاءً، فَجَعَلَ لَهُمُ الْخُمْسَ مَكَانَ الصَّدَقَةِ. وَفِي رَوَايَةٍ عَنْهُ قَالَ: هُمْ قَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - الَّذِينَ لَا تَحِلُّ لَهُمُ الصَّدَقَةُ. ثُمَّ رَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ نَحْوَ ذَلِكَ.

[٣٣٦٨] قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هُمْ قَرِيشٌ كُلُّهَا: حَدَّثَنِي يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَافِعٍ، عَنْ أَبِي مَعْشَرٍ، عَنْ سَعِيدِ الْمُقْبِرِيِّ قَالَ: كَتَبَ نَجْدَةَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ يَسْأَلُهُ عَنْ «ذِي الْقَرْبَى»، فَكَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُنَّا نَقُولُ: إِنَّا هُمْ، فَأَبَى ذَلِكَ عَلَيْنَا قَوْمُنَا، وَقَالُوا: قَرِيشٌ كُلُّهَا ذُوو قَرْبَى^(٣). وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، وَأَبِي دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيِّ، وَالنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ الْمُقْبِرِيِّ عَنْ يَزِيدَ بْنِ هُرْمُزٍ أَنَّ نَجْدَةَ كَتَبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ يَسْأَلُهُ عَنْ ذِي الْقَرْبَى، فَذَكَرَهُ إِلَى قَوْلِهِ: «فَأَبَى ذَلِكَ عَلَيْنَا قَوْمُنَا». وَالزِّيَادَةُ مِنْ أَفْرَادِ أَبِي مَعْشَرٍ نَجِيحِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَدَنِيِّ، وَفِيهِ ضَعْفٌ.

[٣٣٦٩] وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَهْدِيٍّ الْمُصْبِيصِيُّ، حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ بْنُ سَلِيمَانَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ حَنْشٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «رَغِبْتُ لَكُمْ عَنْ غَسَّالَةِ الْأَيْدِي، لِأَنَّ لَكُمْ مِنْ خُمْسِ الْخُمْسِ مَا يَغْنِيكُمْ أَوْ يَكْفِيكُمْ»^(٤). هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ الْإِسْنَادِ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ مَهْدِيٍّ هَذَا وَتَقَّهَ أَبُو حَاتِمٍ، وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ: يَأْتِي بِمَنَاقِيرٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: «وَأَلَيْسَتَنِي»، أَي: يَتَامَى الْمُسْلِمِينَ. وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ: هَلْ يَخْتَصُّ بِالْأَيْتَامِ الْفُقَرَاءُ، أَوْ يَعْمُ الْأَغْنِيَاءُ وَالْفُقَرَاءُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: «وَالْمَسْكِينِ»، هُمُ الْمُحَاوِيحُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَسُدُّ خَلْتَهُمْ وَمَسْكَتَهُمْ. «وَأَبَى السَّبِيلِ»، هُوَ: الْمَسَافِرُ، أَوْ الْمُرِيدُ لِلسَّفَرِ، إِلَى مَسَافَةٍ تَقْصُرُ فِيهَا الصَّلَاةُ، وَلَيْسَ لَهُ مَا يُنْفِقُهُ فِي سَفَرِهِ ذَلِكَ. وَسَيَأْتِي تَفْسِيرُ ذَلِكَ فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثَّقَةُ، وَعَلِيهِ التَّكْلَانُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنْ كُنْتُمْ تَوَدُّونَ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكُمْ مِنْ آيَاتِهِ، أَنْ تَكُونَ لَكُمْ مِنَ الْخُمْسِ مِنَ الْغَنَائِمِ، إِنْ كُنْتُمْ تَوَدُّونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أُنزِلَ عَلَى رَسُولِهِ».

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٤٠ و٤٢٢٩ والنسائي في «الكبرى» ٤٤٣٩ وأحمد ٨١/٤ وأبو داود ٢٩٧٨ وأبو يعلى ٧٣٩٩ من حديث جبير بن مطعم، ولم أره في «صحيح مسلم».

(٢) هذه الرواية عند النسائي ١٣٠/٧ - ١٣١ وأبي داود ٢٩٨٠.

(٣) أخرجه الطبري ١٦١٣١ وفي إسناده نجيح السندي ضعيف، وقد تفرد بجزءه، ورواه مسلم وغيره دون لفظ «قالوا». وقد ضعف ابن كثير رحمه الله هذه الزيادة.

(٤) فيه ضعف، لكن له شواهد تقويه، والله أعلم.

[٣٣٧٠] ولهذا جاء في الصحيحين، من حديث عبد الله بن عباس، في حديث وفد عبد القيس: أن رسول الله - ﷺ - قال لهم: «وأمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: أمركم بالإيمان بالله... ثم قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخُصْنَ من المغنم...»^(١) الحديث بطوله، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان، وقد بَوَّب البخاري على ذلك في كتاب الإيمان من صحيحه فقال: باب: أداء الخمس من الإيمان، ثم أورد حديث ابن عباس هذا، وقد بسطنا الكلام عليه في شرح البخاري، والله الحمد والمنة. وقال مقاتل بن حيان: «وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَنَ عَبْدَنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ»، أي: في القسمة. وقولته: «يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَنَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، يُنَبِّه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه، بما فَرَّقَ به بين الحقِّ والباطل بيدر، وسُمِّيَ الفرقان، لأن الله تعالى أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل، وأظهر دينه، ونصر نبيه وحزبه. قال علي بن أبي طلحة والعمري، عن ابن عباس: «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» يوم بدر، فَرَّقَ الله فيه بين الحقِّ والباطل، رواه الحاكم. وكذا قال مجاهد، ومقسم، وعبيد الله بن عبد الله، والضحاك، وقتادة، ومقاتل ابن حيان، وغير واحد: أنه يوم بدر. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري، عن عُرْوَةَ بن الزبير في قوله: «يَوْمَ الْفُرْقَانِ»: يوم فرق الله بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله - ﷺ - وكان رأسَ المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة - أو: سبع عشرة - مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله - ﷺ - يومئذ ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسعمئة. فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين، وأسر منهم مثل ذلك. وقد روى الحاكم في مستدركه، من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن ابن مسعود قال في ليلة القدر: تحزوها لإحدى عشرة بقين فإن صبيحتها يوم بدر. وقال علي شرطهما. وزوي مثله عن عبد الله ابن الزبير أيضاً، من حديث جعفر بن برقان عن رجل عنه. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، يحيى بن واضح، حدثنا يحيى بن يعقوب أبو طالب، عن أبي عون محمد بن عبيد الله الثقفي، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: قال الحسن بن علي: كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من رمضان، إسناد جيد قوي. ورواه ابن مَرْدُويه، عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب، عن علي قال: كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان، في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان. وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير. وقال يزيد بن أبي حبيب إمام أهل الديار المصرية في زمانه: كان يوم بدر يوم الاثنين. ولم يتابع على هذا، وقول الجمهور مُقَدَّم عليه، والله أعلم.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمَيْعَدِ وَلَكِنَّ لِقَاضِيَ اللَّهِ أَصْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان: «إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا»، أي: إذ أنتم تُزُولون بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة، «وَهُمْ»، أي: المشركون نزول «بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى»، أي: البعيدة من المدينة التي من ناحية مكة، «وَالرَّكْبُ»، أي: العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة «أَسْفَلَ مِنْكُمْ»، أي: مما

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٣ و١٣٩٨ و٣٠٩٥ ومسلم ١٧ وأبو داود ٣٦٩٢ والترمذي ٢٦١١ والنسائي ١٢٠/٨ وأحمد

يلي سيف البحر ﴿وَلَوْ تَوَاصَدْتُمْ﴾، أي: أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيمَةِ﴾.

قال مُحَمَّد بن إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بن عَبَّاد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في هذه الآية، قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عَدُوِّهم وَقَلَّةَ عَدَدِكُمْ، ما لقيتموهم، ﴿وَلَكِنَّ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، أي: ليقضِي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، عن غير مَلَأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه. وفي حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله - ﷺ - والمسلمون يريدون عَيْرَ قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عَدُوِّهم على غير ميعاد.

[٣٣٧١] وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُليَّة، عن ابن عَوْن، عن عُمَيْر بن إِسْحَاقَ قال: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمتنعه من رسول الله - ﷺ - وأصحابه، فالتقوا ببدر، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التَقَّتِ السَّفَاةُ، ونَهَدَ النَّاسُ بعضهم لبعض^(١).

وقال محمد بن إِسْحَاقَ في السيرة: ومضى رسول الله - ﷺ - على وجهه ذلك، حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث نَسْبَس بن عمرو، وعَدِي بن أَبِي الرُّغْبَاءِ الجُهَيْنِيِّ، يلتمسان الخبر عن أبي سفيان، فانطلقا حتى إذا وَرَدَا بدرًا فأناخا بغيريهما إلى تَلٍّ من البطحاء، فاستقيا في شَنْ لهما من الماء، فسمعا جارتين تختصمان، تقول إحداهما لصاحبتها: افضيني حقي. وتقول الأخرى: إنما تأتي العير غدًا أو بعد غد، فأفضيك حقك. فَخَلَصَ بَيْنَهُمَا مَجْدِي بنُ عَمْرُو، وقال: صدقت. فسمع ذلك نَسْبَس وعَدِي، فجلسا على بغيريهما، حتى أتيا رسول الله - ﷺ - فأخبراه الخبر. وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حُذِر، فتقدم أمام عيره وقال لمجدي بن عمرو: هل أَحْسَسْتَ على هذا الماء من أحدٍ تُنْكِرُهُ؟ فقال: لا والله، إلا أني قد رأيتُ راكبين أناخا إلى هذا التل، فاستقيا في شَنْ لهما، ثم انطلقا، فجاء أبو سفيان إلى مُنَاخِ بغيريهما، فأخذ من أبعارهما، فَقَتَّهُ، فإذا فيه الثَّوِي، فقال: هذه والله علائِفُ يَثْرَب. ثم رجع سريعاً فضرب وجه عيره، فانطلق بها فَسَاخِل، حتى إذا رأى قد أحرز عَيْرَهُ بعث إلى قريش فقال: إن الله قد نَجَّى عَيْرَكُمْ وأموالكم ورجالكم، فارجعوا. فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نأتي بدرًا - وكانت بدرٌ سوقاً من أسواق العرب - فنقيم بها ثلاثاً، فنطعمُ بها الطعام، وننحرُ بها الجُزْر، ونسقى بها الخمر، وتَعْرِفُ علينا القِيَان، وتسمع بنا العربُ ويسيرنا، فلا يزالون يهابونا بعدها أبداً. فقال الأحنس بن شيربي: يا معشر بني زُهْرَةَ، إن الله قد نَجَّى أموالكم، ونَجَّى صاحبكم، فارجعوا. فأطاعوه. فرجعت بنو زُهْرَةَ، فلم يشهدوها ولا بنو عَدِي^(٢).

[٣٣٧٢] قال محمد بن إِسْحَاقَ: وحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: وبعث رسول الله - ﷺ - حين دنا من بدر - علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، في نفر من أصحابه، يتحسسون له الخير، فأصابوا سَفَاةً لقريش: غلاماً لبني سعيد بن العاص، وغلاماً لبني الحجاج، فاتوا بهما رسول الله - ﷺ - فوجدوه يُصَلِّي، فجعل أصحاب رسول الله - ﷺ - يسألونهما: لمن أنتما؟ فيقولان: نحن سَفَاةُ لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء. فَكَّرَهُ القَوْمُ خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما فلما أذلقوهما قالوا: نحن لأبي سفيان. فتركوهما، وركع رسول الله - ﷺ - وسجد سجدةً، ثم سَلَّمَ وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما. صدقا، والله إنهما لِقريش، أخبراني عن

(١) مرسل. أخرجه الطبري ١٦١٦٣.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣١/٣ - ٣٣ من طريق ابن إِسْحَاقَ عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير والزهري وغيرها مرسلًا.

قُرَيْشٍ. قالوا: هم وراء هذا الكَيْبِ الذي تَرَى بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى - الكَيْبِ: العَقَنْقَلُ - فقال رسول الله - ﷺ -: كم القوم؟ قالوا: كثيرٌ. قال: ما عدتْهم؟ قالوا: ما نَدْرِي. قال: كم يَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ؟ قالوا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً. قال رسول الله - ﷺ -: القوم ما بين التسعمئة إلى الألف. ثم قال لهما: فمن فيهم من أشرف قريش؟ قالوا: عُنْبَةُ بن رَيْبِعة، وشَيْبَةُ بن رَيْبِعة، وأبو الْبَخْتَرِيِّ ابن هشام، وَحَكِيمُ بن حِزَام، ونوفلُ بن خُوَيْلِدٍ، والحَارِثُ بن عامر بن نُوْفَل، وطَعِيمَةُ بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وَرَمْعَةُ بن الأسود، وأبو جَهْل بن هشام، وأمِيَةُ بن خَلْفٍ، وَنُبَيْهَةٌ ومُنْبَةُ ابنا الحجاج، وَسَهَيْلُ بن عمرو، وَعَمْرُو بن عَبِيدٍ وَذ. فأقبل رسول الله - ﷺ - على الناس فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها^(١).

[٣٣٧٣] قال محمد بن إسحاق - رحمه الله تعالى -: وَخَدَّثَنِي عبد الله بن أبي بكر بن حزم: أن سعد بن معاذ قال لرسول الله - ﷺ - لَمَّا تَقَى النَّاسَ يَوْمَ بَدْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَبِيٌّ لَكَ عَرِيشًا تَكُونُ فِيهِ، وَنُبَيْخُ إِلَيْكَ رِكَابِكُ، وَنَلْقَى عَدُوَّنَا؟ فَإِنْ أَظْهَرْنَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَعَزَّنَا فَذَكَ مَا نَحْبُ، وَإِنْ تَكُنَ الْآخِرَى فَتَجْلِسُ عَلَي رِكَابِكُ، وَتَلْحَقُ بِمَنْ وَرَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا، فَقَدْ - وَاللَّهِ - تَخَلَّفَ عَنْكَ أَقْوَامٌ مَا نَحْنُ بِأَشَدَّ لَكَ حَبِيبًا مِنْهُمْ، لَوْ عَلِمُوا أَنَّكَ تَلْقَى حَرْبًا مَا تَخَلَّفُوا عَنْكَ، وَيَوَادُّونَكَ وَيَنْصُرُونَكَ. فَأَثْنَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - خَيْرًا، وَدَعَا لَهُ. فَبَنِي لَهُ عَرِيشًا، فَكَانَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَأَبُو بَكْرٍ، وَمَا مَعَهُمَا غَيْرُهُمَا^(٢).

قال ابن إسحاق: وارتحلت قُرَيْشٌ حِينَ أَصْبَحَتْ، فَلَمَّا أَقْبَلَتْ وَرَأَتْ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - تَصُوبًا مِنَ الْعَقَنْقَلِ - وَهُوَ الْكَيْبُ - الَّذِي جَاؤُوا مِنْهُ إِلَى الْوَادِي قَالَ: «اللَّهُمَّ، هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِفَخْرِهَا وَخِيَلَانِهَا تُحَادِّثُكَ وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ أَجْنِبْهُمْ الْغَدَاةَ»^(٣). وقوله: «لَيْتَ لَكَ مِنْ هَلَاكٍ عَنْ بَيْنَتِي وَبَيْنَتِي مَنْ حَرَمَ عَنْ بَيْنَتِي»، قال محمد بن إسحاق: أَي لِيَكْفُرَ مِنْ كَفَرٍ بَعْدَ الْحُجَّةِ، لَمَّا رَأَى مِنَ الْآيَةِ وَالْعِبْرَةِ، وَيُؤْمِنُ مِنْ أَمَنٍ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ. وَهَذَا تَفْسِيرٌ جَيِّدٌ، وَيَسْتَطِيعُ ذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: إِنَّمَا جَمَعْتُمْ مَعَ عَدُوِّكُمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، لِيَنْصُرَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَيَرْفَعُ كَلِمَةَ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ، لِيَصِيرَ الْأَمْرُ ظَاهِرًا، وَالْحُجَّةُ قَاطِعَةً، وَالْبِرَاهِينُ سَاطِعَةً، وَلَا يَبْقَى لِأَحَدٍ حِجَّةٌ وَلَا شِبْهَةٌ، فَحِينَئِذٍ يَهْلِكُ مَنْ هَلَكَ، أَي: يَسْتَمِرُّ فِي الْكُفْرِ مِنْ أَمَنٍ، «عَنْ بَيْنَتِي»، أَي: حِجَّةٌ وَبِصِيرَةٌ. وَالْإِيمَانُ هُوَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ» [الأنعام: ١٢٢]. وَقَالَتْ عَائِشَةُ فِي قِصَّةِ الْإِنْفِكِ: فَهَلْكَ فِيَّ مِنْ هَلَاكٍ أَي: قَالَ فِيهَا مَا قَالَ مِنَ الْكُذْبِ وَالْبَهْتَانِ وَالْإِنْفِكِ. وَقَوْلُهُ: «وَرَأَى اللَّهُ لَسِيعًا»، أَي: لِدَعَائِكُمْ وَتَضَرُّعِكُمْ وَاسْتِغَاثَتِكُمْ بِهِ، «عَلَيْهِ» أَي: بِكُمْ، فَإِنَّكُمْ تَسْتَجِفُّونَ النَّصْرَ عَلَى أَعْدَائِكُمُ الْكُفْرَةَ الْمَعَانِدِينَ.

﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَأَنشَأْتُمْ وَلَكِنَّتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الشُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّمَيُّمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَقَلِيلَكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ يَقْنِصُ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٤٢/٣ - ٤٣ هكذا مرسلًا. وأصله عند مسلم ١٧٧٩ وأبو داود ٢٦٨١ وأحمد ٣/٢١٩ - ٢٢٠ وابن جبان ٤٧٢٢ من حديث أنس.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٤٤/٣ عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم مرسلًا.

(٣) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣١/٣ - ٣٥ من طريق ابن إسحاق مطولًا.

قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلاً، فأخبر النبي - ﷺ - أصحابه بذلك، فكان تثبيتاً لهم. وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد. وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه رآهم بعينه التي ينام بها وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا يوسف بن موسى الشنقري، حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج، عن الحسن في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾، قال: بعينك. وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام هاهنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه. وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ كَفَّيْنَاكَ لَأَضَعْتَنِي﴾، أي، لَجَبَّئْتُمْ عَنْهُمْ واختلقتهم فيما بينكم، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَكَنٌ﴾، أي: من ذلك، بأن أراهم قليلاً، ﴿وَإِنَّكُمْ عَيْدٌ يَدَاتِ الْأَشْدُوْدِ﴾، أي: بما تجئه الضمائر، وتَنطوي عليه الأحشاء، فيعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ إِذِ الْفَتْحِمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾، وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم قليلاً في رأي العين، لِيَجْرَتَهُمْ عليهم، وَيُطَبِّعَهُمْ فِيهِمْ. قال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنابي: تراهم سبعين؟ قال: لا، بل هم مئة. حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، قال: كنا ألفاً. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. وقوله: ﴿وَيَقَالُ كَفَرْتُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا سليمان بن حزم، حدثنا حماد بن زيد، عن الزبير بن الخزيم، عن عكرمة: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ إِذِ الْفَتْحِمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقَالُ كَفَرْتُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ قال: حَضَّضَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ. إسناد صحيح. وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَتَّوْلًا﴾، أي: ليلقي بينهم الحرب، للنعمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته. ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلاً من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة. فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مُزِدِّين، بقي حزب الكفار يَرَى حَزْبَ الْإِيمَانِ ضِعْفِيهِ، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِئَةً سَبِيلَ اللَّهِ أَنْتُمْ حَرَضْتُمْ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ رَأْيَكُمْ أَلْبَنٍ وَاللَّهُ بِبَصَرِهِمْ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّأُولِ الْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾﴾ قال عمران: [١٣]. وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلاً منها حق وصدق، والله الحمد والمنة.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلِبُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْرِعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

هذا تعليم من الله عباده المؤمنين آداب اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلِبُوا﴾.

[٣٣٧٤] ثبت في الصحيحين، عن عبد الله بن أبي أوفى، عن رسول الله - ﷺ - أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: «يا أيها الناس، لا تَتَمَتَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ، ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ - ﷺ - قَالَ: «اللَّهُمَّ، مُنَزَّلُ الْكِتَابِ، وَمُجْرِي السَّحَابِ، وَهَازِمِ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ»^(١).

[٣٣٧٥] وقال عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله - ﷺ - «لا تَتَمَتَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا

لقيمومهم فاثبتوا، واذكروا الله، فإن أجلبوا وضجوا فعليكم بالصمت»^(١).

[٣٣٧٦] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي، حدثنا أمية بن بسطام، حدثنا معتمر بن سليمان، حدثنا ثابت بن زيد، عن رجل، عن زيد بن أرقم، عن النبي - ﷺ - قال: «إن الله يُحِبُّ الصمَّتَ عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الزحف، وعند الجنائز»^(٢).

[٣٣٧٧] وفي الحديث الآخر المرفوع: يقول الله تعالى: «إنَّ عِبْدِي كُلَّ عَبْدِي الَّذِي يَذْكُرُنِي وَهُوَ مُنَاجِرٌ قِرْنَهُ»^(٣) أي: لا يشغله ذلك الحال عن ذكرني ودعائي واستعائتي.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في هذه الآية، قال: افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون، عند الضراب بالسيوف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، عن ابن جريج، عن عطاء قال: وجب الإنصات والذكر عند الزحف، ثم تلا هذه الآية، قلت: يجهرون بالذكر؟ قال: نعم. وقال أيضاً: قُرى على يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عياش، عن يزيد بن قوذر، عن كعب الأحبار قال: ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٤). قال الشاعر:

ذَكَرْتُكَ وَالْخَطِيئَةَ يَخْطِرُ بَيْنَنَا
وَقَدْ نَهَلْتُ فِينَا الْمُتَّقَةَ السُّمْرُ
وقال عثرة:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرَّمَاخَ شَوَاجِرَ
فِينَا وَبَيْضُ الْهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي

فأمر الله تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكثوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا به ويتكلموا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك. فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم. ﴿وَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ﴾، أي: قوتكم وحذتكم وما كنتم فيه من الإقبال، ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. وقد كان للصحابة - رضي الله عنهم - في باب الشجاعة والائتمار بأوامر الله ورسوله وامتنال ما أرشدهم إليه. ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنه ببركة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً

(١) عجزه ضعيف. أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ٩٥١٨ والبيهقي ١٥٣/٩ وإسناده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن زياد، وصدوره صحيح له شواهد. ولفظ «فإن أجلبوا...» ضعيف.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبراني ٥١٣٠ وابن الجوزي في «العلل» ٩٥٩ من حديث زيد بن أرقم. قال الهيثمي في «المجمع» ٤١٢٩: فيه رجل لم يسمه قلت: سماه ابن الجوزي فقال: عن ثابت بن زيد عن أخ له يقال له: الصباح، عن زيد بن أرقم. لكن الصباح مجهول. وقال ابن الجوزي: قال أحمد: ليس بصحيح، قال: ولثابت بن زيد أحاديث منكرة. وقال ابن حبان: الغالب على حديثه الوهم، والصباح مطعون فيه.

(٣) أخرجه الترمذي ٣٥٨٠ من حديث عمارة بن زعكرة. قال الترمذي: غريب ليس إسناده بالقوي اهـ فيه أبو دوس عثمان بن عبيد مقبول كما في التبريد، وقال أبو حاتم: ما أرى بحديثه بأساً، وذكره ابن حبان في الثقات. قاله في تهذيب التهذيب ١٢٥/٧ فالحديث لا بأس به، وفي معناه أحاديث. والله أعلم. وقوله «مناجز قرنه» قال الترمذي: يعني عند القتال اهـ باختصار.

وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والخُبوش وأصناف السودان والقبط، وطوائف بني آدم، قَهَرُوا الجميع حتى علت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وَحَشَرْنَا فِي زَمْرَتِهِمْ، إنه كريم تواب.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيشَةً النَّاسِ وَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم ﴿بَطَرًا﴾، أي: دفاعاً للحق، ﴿وَرِيشَةَ النَّاسِ﴾، وهو: المفخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل - لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا - فقال: لا، والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر، وَنَشَخَ الْجُرُزُ، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً. فانعكس ذلك عليه أجمع، لأنهم لما وَرَدُوا ماء بدر وَرَدُوا به الجَمَامَ، ورموا في أطواء بَدْرٍ مهانين أذلاء، صَغَرَةَ أَشْقِيَاءٍ في عذاب أبدِيٍّ سَرْمِدِيٍّ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، أي: عالم بما جاؤوا به وله، ولهذا جازاهم على ذلك شر الجزاء لهم. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدّي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيشَةَ النَّاسِ﴾، قالوا: هم المشركون، الذين قاتلوا رسول الله - ﷺ - يوم بدر. وقال محمد بن كعب: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدخوف، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيشَةَ النَّاسِ وَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾... الآية، حَسَنَ لَهُمْ - لعنة الله - ما جاؤوا له وما هموا به. وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يُؤْتُوا في ديارهم من عدوهم بني بكر فقال: أنا جار لكم. وذلك أنه تَبَدَّى لهم في صورة سراقه بن مالك بن جُعْشَم، سيد بني مُدَلِج، كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه، كما قال تعالى عنه: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُنَبِّئُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوبًا ﴿١٥٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠]. قال ابن جريج: قال ابن عَبَّاس في هذه الآية: لما كان يوم بدر سار إبليس بريته وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم، وإني جار لكم. فلما التقوا، ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة، ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ - قال: رجع مدبراً - وقال ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾... الآية.

[٢٣٧٨] وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر في جُنْدٍ من الشياطين، معه رايته، في صورة رجل من بني مُدَلِج، والشيطان في صورة سُرَاقَةَ بن مالك بن جُعْشَم، فقال الشيطان للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله - ﷺ - قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين. وأقبل جبريل - عليه السلام - إلى إبليس، فلما رآه - وكانت يده في يد رجل من المشركين - انتزع يده، ثم ولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقه،

أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وذلك حين رأى الملائكة^(١).

[٣٣٧٩] وقال محمد بن إسحاق: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: أن إبليس خرج مع قريش في صورة سراقه بن مالك بن جُعشم، فلما حَضَرَ القتال ورأى الملائكة، نَكَصَ على عَقْبِهِ، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾، فَتَشَبَّهَ به الحارث بن هشام فَتَخَرَّ في وجهه، فَخَرَّ صَعِقًا، فقيل له: ويلك يا سراقه! على هذه الحال تَخَذَلْنَا وَتَبَرَأَ مِنَّا. فقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٢).

[٣٣٨٠] وقال محمد بن عمر الواقدي: أخبرني عُمَرُ بن عقبة، عن شعبة - مولى ابن عباس - عن ابن عباس قال: لما تَوَاقَفَ الناسُ أَعْمِي على رسول الله - ﷺ - ساعة ثم كَشِيفَ عنه، فَبَشَّرَ الناسُ بجبريل في جند من الملائكة ميمنة الناس، وميكائيل في جند آخر ميسرة الناس، وإسرافيل في جند آخر ألف، وإبليس قد تصور في صورة سراقه بن مالك بن جُعشم المدلجي، يُذَمَّرُ المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس. فلما أبصر عدو الله الملائكة، نَكَصَ على عَقْبِهِ، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، فَتَشَبَّهَ به الحارث بن هشام، وهو يرى أنه سراقه، لِمَا سَمِعَ من كلامه، فَضْرَبَ في صَدْرِ الحارث، فَسَقَطَ الحارث، وانطلق إبليس لا يُرَى حَتَّى سَقَطَ في البحر، ورفع يديه وقال: يا رب، مَوَعِدَكَ الذي وَعَدْتَنِي^(٣). وفي الطبراني، عن رفاعة بن رافع، قريب من هذا السياق، وأبسط منه، ذكرناه في السيرة.

[٣٣٨١] وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان، عن عُرْوَةَ بن الزبير قال: لما أجمعت قريش المسير، ذكرت الذي بينها وبين بني بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يشبههم، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جُعشم المدلجي - وكان من أشراف بني كنانة - فقال: أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه. فخرجوا سراعا. قال محمد بن إسحاق: فَذَكَرَ لي أنهم كانوا يَرَوْنَهُ في كُلِّ منزل في صورة سراقه بن مالك لا يُتَّكِرُونَهُ، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان، كان الذي رآه - حين نَكَصَ - الحارث بن هشام - أُرَى: عُيَيْرُ بن وهب - فقال: أين، أي سراق؟ وَمَثَلٌ^(٤) عَدُوُّ الله فذهب - قال: فأوردتهم ثم أسلمهم - قال: ونظر عدو الله إلى جنود الله، قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين فنكص على عقبه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وصدق عدو الله، وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٥). وهكذا رُوِيَ عن السدي، والضحاك، والحسن البصري، ومحمد بن كعب القُرَظِيُّ، وغيرهم، رَجَمَهُمُ اللهُ. وقال قتادة: وَذَكَرَ لنا أنه رأى جبريل - عليه السلام - تنزل معه الملائكة، فَعَلِمَ عدو الله أنه لا يَدَانِ له بالملائكة فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، وكَذَّبَ عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك

(١) أخرجه الطبري ١٦١٩٨ بإسناد منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عباس.

(٢) في إسناده محمد بن السائب الكلبي، وهو متروك، وأبو صالح اسمه باذام لم يلق ابن عباس، وورد مرسلًا من وجوه كما سيأتي، والله أعلم.

(٣) رواه محمد بن عمر الواقدي متروك الحديث إلا أنه إمام في المغازي والسير، وله علة ثانية: شعبة مولى ابن عباس فيه كلام، وضعفه الأكثر.

(٤) أي اختفى في الأرض.

(٥) مرسل، ولعله يتأيد بما قبله، وبما بعده، كما ذكر ابن كثير رحمه الله.

عادةً عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلّم، وتبرأ منهم عند ذلك. قلت: يعني بعبادته لمن أطاعه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكِ الَّذِي بَعَثْنَا لِدَاعِكِ لَأَلْزَمِيَنَّكَ أَكْفَرًا فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي بَعَثْنَا لِمَافِي الْأَمْرِ إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ كُفْرًا فَخَلَقْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِئِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِئِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَتْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلِ إِنَّ الْفَالِغِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

[٣٣٨٢] وقال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعدما أصيب بصره يقول: لو كنت معكم الآن ببدر ومعني بصري، لأخبرتكم بالشعب الذي خَرَجَتْ منه الملائكة، لا أشك ولا أتمارى^(١). فلما نزلت الملائكة ورأها إبليس، وأوحى الله إليهم: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَنِيئُوا إِلَيْهِمْ﴾ وتبشئهم أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه، فيقول له: أنبش فإنهم ليسوا بشيء، والله معكم، كروا عليهم. فلما رأى إبليس الملائكة تكص على عقبه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَزَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وهو في صورة سراقه، وأقبل أبو جهل يُحَضِّضُ أصحابه ويقول: لا يهولتكم خذلاًن سراقه إياكم، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه. ثم قال: والآلات والعزى لا ترجع حتى نقرن محمداً وأصحابه في الحبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً. وهذا من أبي جهل - لعنه الله - كقول فرعون للصحرة لما أسلموا: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُفْرٌ مَكْرُومٌ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنْهَا أَهْلُهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وكفوله: ﴿إِنَّهُ لَكَيْدٌ الَّذِي عَلَّمَكُمُ الْيَحْرَ﴾ [طه: ٧١]، هو من باب البهت والافتراء، ولهذا كان أبو جهل فرعون هذه الأمة.

[٣٣٨٣] وقال مالك بن أنس، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن طلحة بن عبيد الله بن كريب: أن رسول الله - ﷺ - قال: «ما رُئي إبليس في يوم هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أذحر ولا أعظف من يوم عرفة. وذلك مما يرى من تنزل الرحمة والعتق عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر. قالوا: يا رسول الله، وما رأى يوم بدر؟ قال: أما إنه رأى جبريل عليه السلام يزع السلام يزع الملائكة^(٢). هذا مرسل من هذا الوجه.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَكْفُرُ الْمُنَافِقُونَ وَأَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ وَبَنُوهُ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية قال: لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: «غَرَّ هَوَاهُ وَبَنُوهُ». وإنما قالوا ذلك من قتلهم في أعينهم، فظنوا أنهم سيهزمونهم، لا يشكون في ذلك، فقال الله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وقال قتادة: رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله، وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه قال: والله لا تمبدوا الله بعد اليوم. قسوة وعتواً. وقال ابن جريج في قوله: ﴿إِذْ يَكْفُرُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾: هم قوم كانوا من المنافقين بمكة، قالوه يوم بدر. وقال عامر الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: «غَرَّ هَوَاهُ وَبَنُوهُ». وقال مجاهد في قوله عز وجل: ﴿إِذْ يَكْفُرُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ﴾

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٥٢/٣ - ٥٣ وإسناده ضعيف فيه راو لم يسم، وأخرجه البيهقي ٥٣/٣ من وجه آخر عن سهل بن سعد قال: قال أبو أسيد الساعدي... فذكره.

(٢) أخرجه مالك في «الوطأ» ٤٢٢/١ والطبري ١٦٢٠٤ والبغوي في «التفسير» ١٠١١ هكذا مرسلأ. ووصله البيهقي في «الشعب» ٤٠٧٠ بذكر أبي الدرداء لكن في إسناده أيوب بن سويد الرملي، وهو ضعيف، والصواب مرسل كما رواه مالك.

يُنْهَرُ، قال: فئة من قريش: أبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زَمْعَةَ بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن مُتَبِّه بن الحجاج، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب، فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قِلَّةَ أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: ﴿عَرَّ هَوَلَاءَ يَنْهَرُ﴾، حتى قدموا على ما قدموا عليه، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم. وهكذا قال محمد بن إسحاق بن يسار، سواء. وقال ابن جرير: حدثنا مُحَمَّد بن عبد الأعلى، حدثنا مُحَمَّد بن ثور، عن مَعْمَرٍ، عن الحسن في هذه الآية، قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر، فَسُمُّوا منافقين. قال مَعْمَرٌ: وقال بعضهم: هم قوم كانوا أقروا بالإسلام، وهم بمكة، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قِلَّةَ المسلمين قالوا: ﴿عَرَّ هَوَلَاءَ يَنْهَرُ﴾. وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، أي: يعتمد على جنبه، ﴿فَأَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾، أي: لا يُضَام من التجأ إليه، فإن الله عزيزٌ منيعُ الجَنابِ، عظيمُ السلطانِ، حكيمٌ في أفعاله، لا يُضَعِّفُهَا إلا في مواضعها، فينصر من يستحقُّ النَّصْرَ، ويخذل من هو أهل لذلك.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾
 ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

يقول تعالى: ولو عاينت - يا محمد - حال تَوَقَّى الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيماً منكرأ، إذ يصرّبون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. قال ابن جرير، عن مجاهد: ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾: أستاذهم، قال: يوم بدر. قال ابن جرير، قال ابن عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين، صرّبوا وجوههم بالسيف. وإذا ولّوا أدركتهم الملائكة فصرّبوا أدبارهم. قال ابن أبي نجیح، عن مجاهد في قوله: ﴿إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾: يوم بدر. وقال وكيع، عن سفیان الثوري، عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير، عن مجاهد، عن شعبة، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبیر: ﴿يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ قال: وأستاذهم، ولكن الله يَكْنِي. وكذا قال عمر مولى عُفْرَةَ.

[٣٣٨٤] وعن الحسن البصري قال: قال رجل: يا رسول الله، إنني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشُرْكِ^(١) قال: ذاك ضرب الملائكة^(٢). رواه ابن جرير، وهو مرسل. وهذا السياق - وإن كان سببه وقعة بدر - ولكنه عامٌ في حق كل كافر: ولهذا لم يُخصَّصه تعالى بأهل بدر. بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾. وفي سورة القتال مثلها، وتقدم في سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَلَوْ إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْكُوفِ وَالْمَلَائِكَةُ بِأَيْسُوهُمُ أَيْدِيَهُمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]، أي: باسطو أيديهم بالضرب فيهم، يأمرؤهم إذا استعصت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً. وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله.

[٣٣٨٥] كما جاء في حديث البراء: إن ملك الموت - إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة - يقول: أخرجني أيتها النفس الخبيثة إلى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ، وظلٌّ من يحموم. فتتفرق في بدنه،

(١) في الطبري: «الشراك»، وهو سير النعل، والجمع: شُرْك.

(٢) أخرجه الطبري ١٦٢٢٠ عن الحسن مرسلأ، والمرسل من قسم الضعيف، ثم إن مراسيل الحسن واهية.

يستخرجونها من جسده، كما يخرج السَّقُود من الصوف المبلول. فتخرج معها العروق والعصب^(١). ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ﴾، أي: هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جزاكم الله بها هذا الجزاء، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِّتَمِيدٍ﴾، أي: لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحَكَمُ العدل الذي لا يجور - تبارك وتعالى وتقدس وتنزه - الغني الحميد.

[٣٣٨٦] ولهذا جاء في الحديث الصحيح عند مسلم - رحمه الله - من رواية أبي ذر - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمَن وجد خيراً فليحمد الله، ومَن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»^(٢). ولهذا قال تعالى:

﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ^١ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدٌ

الْعِقَابِ^(٥٢)

يقول تعالى: فَعَلَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الْمَكذِبُونَ بِمَا أُرْسِلَتْ بِهِ يَا مُحَمَّد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو ذأبنا، أي: عادتنا وسُنَّتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسول، الكافرين بآيات الله. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، أي بسبب ذنوبهم وأهلكهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، أي: لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبِراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعْذِرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(٥٣)

كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ^٢ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ^٣

وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ^(٥٤)

يخبر تعالى عن تمام عدله، وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يُعْذِرُ نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُعْذِرُ مَا يَقُولُ حَتَّى يُعْذِرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]. وقوله: ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، أي: كضنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^(٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ

فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ^(٥٦) فَإِنَّمَا تَشَفَعْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِنَّ مَن خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ^(٥٧)

أخبر تعالى أن شَرَّ ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلَّموا عاهدوا عهداً نقضوه، وكلَّموا أكدوه بالإيمان نكثوه، ﴿وَمَنْ لَا يَتَّقُونَ﴾، أي: لا يخافون من الله في شيء ارتكبه من

(١) تقدم برقم ٣١٠١.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٧٧ والبخاري في «الأدب المفرد» ٤٩٠ والترمذي ٢٤٩٥ وابن ماجه ٤٢٥٧ وأحمد ١٦٠/٥ وابن حبان ٦١٩ من طرق من حديث أبي ذر مغلطاً.

الآثام. ﴿وَإِنَّمَا تَتَّقَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾، أي: تغلبهم وتظفر بهم في حرب، ﴿فَشَرِّبَهُمْ مِّنْ حَلْفَتِهِمْ﴾، أي: نكل بهم، قاله ابن عباس، والحسن البصري، والضحاك، والسدي، وعطاء الخراساني، وابن عيينة - ومعناه غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً - ليخاف من سواهم من الأعداء، من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾. وقال السدي: يقول: لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك.

﴿وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنَ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَإِنِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ (٥٨)

يقول تعالى لنبيه - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةٌ﴾، أي: نقضاً لما بينك وبينهم من الموائيق والعهود، ﴿فَأَئِذْ إِلَيْهِمْ﴾، أي: عهدهم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾، أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حزب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك، قال الراجز:

فَأَضْرَبَ وَجْوهَ الْعُدْرِ الْأَعْدَاءِ حَتَّى يُجِيبُوكَ إِلَى السُّوَاءِ
وعن الوليد بن مسلم أنه قال في قوله: ﴿فَأَئِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾، أي: على مهل، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾، أي: حتى ولو في حق الكافرين، لا يجبها أيضاً.

[٣٣٨٧] قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي الفيض، عن سليم بن عامر، قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر الله أكبر، وفاء لا غدرأ، إن رسول الله ﷺ قال: ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عُقْدَةً ولا يشدها حتى ينقضى أمدها، أو يئذ إليهم على سواء. قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عَبَسَةَ، رضي الله عنه^(١). وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة. وأخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان في صحيحه من طرق عن شعبة، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

[٣٣٨٨] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الله الزُّبَيْرِي، حدثنا إسرائيل، عن عطاء بن السائب، عن أبي البَخْتَرِيِّ، عن سلمان - يعني الفارسي - رضي الله عنه: أنه انتهى إلى حِضْن - أو: مدينة - فقال لأصحابه: دَعُونِي أَدْعُوهُمْ كَمَا رَأَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُوهُمْ، فقال: إنما كنت رجلاً منكُم، فهداني الله - عَزَّ وَجَلَّ - للإسلام، فإذا أسلمتم فلنكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أنتم أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون، فإن أبيتم نابذناكم على سواء، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾، يفعل بهم ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها، ففتحوها بعون الله^(٢).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ (٥٩) ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ
الْحَيْلِ تَرَاهُونَ يَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ﴾ (٦٠)

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٢٧٥٩ والترمذي ١٥٨٠ والنسائي في «الكبرى» ٨٧٣٢ وأحمد ٤/١١١ و١١٣ وأبو عبيد في «الأموال» ٤٤٨ والبيهقي ٩/٢٣١، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد ٥/٤٤٠ بإسناد ضعيف، أبو البختري، هو سعيد بن فيروز، لم يدرك سلمان.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ - يا محمد - ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾، أي: فاتونا فلا تقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا وفي قبضة مشيتنا فلا يعجزوننا، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ أَلْسِنَاتٍ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [المنكوت: ٤٤]، أي: يظنون، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أَوْلَتْهُمْ أَنْزَارٌ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْأَلْبَانِ﴾ [الأنفال: ١٧]، ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، أي: مهما أمكنكم، ﴿بَيْنَ قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾.

[٣٣٨٩] قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ، عَنْ أَبِي عَلِيٍّ ثُمَامَةَ بْنِ شُعْبَةَ [أخي عقبة بن عامر]، أَنَّهُ سَمِعَ عَقِبَةَ بْنَ عَامِرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبِرِ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ (١). رواه مسلم، عن هارون بن معروف، وأبو داود عن سعيد بن منصور وابن ماجه عن يونس بن عبد الأعلى، ثلاثتهم عن عبد الله بن وهب به. ولهذا الحديث طرق أخر، عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، مِنْهَا مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، مِنْ حَدِيثِ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْهُ.

[٣٣٩٠] وروى الإمام أحمد وأهل السنن، عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ارْمُوا وَارْكَبُوا، وَأَنْ تَرْمُوا خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا» (٢).

[٣٣٩١] وقال الإمام مالك، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: «الخيال ثلاثة: لرجل أجزر، ولرجل ستر، وعلى رجل وِزْرٌ. فأما الذي له أجر فرجل رَيطها في سبيل الله، فأطال لها في مَرَجٍ - أو: روضة - فما أصابت في طيلها ذلك من المَرَجِ - أو: الروضة - كانت له حسنات، ولو أنها قَطَعَتْ طيلها فاستتت شرفاً أو شرفين، كانت آثارها وأروائها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يُرد أن يسقي به، كان ذلك حسنات له؛ فهي لذلك الرجل أجر. ورجل ريطها تَعْتِيّاً وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظُهورها، فهي له ستر. ورجل ريطها فخرأ ورياء وِنِوَاءً فهي على ذلك وِزْرٌ. وسئل رسول الله ﷺ عن الخمر فقال: «ما أنزل الله عليّ فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفأدة: ﴿فَمَنْ يَمَسَّ مِنْ شِقَاقِ دَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَمَسَّ مِنْ شِقَاقِ دَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨] (٣). رواه البخاري - وهذا لفظه - ومسلم، كلاهما من حديث مالك.

[٣٣٩٢] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا حُجَّاجٌ، أَخْبَرَنَا شَرِيكٌ، عَنْ الرُّكَيْنِ بْنِ الرِّبِيعِ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ حَسَانَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الخيال ثلاثة: ففَرَسٌ لِلرَّحْمَنِ، وَفَرَسٌ لِلشَّيْطَانِ، وَفَرَسٌ لِلْإِنْسَانِ. فأما فرسُ الرَّحْمَنِ فالذي يربط في سبيل الله، فَعَلَّمَهُ وَرَوَّاهُ وَبَوَّأَهُ، وَذَكَرَ مَا شَاءَ اللَّهُ. وأما

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٩١٧ وأحمد ٤/١٥٧ وأبو يعلى ١٧٤٣ وأبو داود ٢٥١٤ وابن ماجه ٢٨١٣ من طرق عن ابن وهب به. وأخرجه الترمذي ٣٠٨٣ والطبري ١٦٢٤١ من طريق صالح بن كيسان عن رجل عن عقبة بن عامر به.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ٢٥١٣ والنسائي في «الكبرى» ٤٤٢٠ وأحمد ٤/١٤٨ والحاكم ٢/٩٥، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي؛ وهو كما قال. وأخرجه الترمذي ١٦٣٧ عن عبد الله بن عبد الرحمن مرسلاً.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٢٣٧١ و٢٨٦٠ ومسلم ٩٨٧ والنسائي ٦/٢١٦ - ٢١٧ ومالك ٢/٤٤٤ وابن حبان ٤٦٧٢ والبيهقي ٤/١١٩.

فرس الشيطان فالذي يقامر أو يراهن عليها، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي له ستر من فقر^(١). وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم.

[٣٣٩٣] وقال أحمد: حدثنا حجاج وهشام قالوا: حدثنا ليث، حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن ابن شماس: أن معاوية بن حديج مر على أبي ذر، وهو قائم عند فرس له، فسأله: ما تعالج من فرسك هذا؟ فقال: إنني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته! قال: وما دعاء بهيمة من البهائم؟ قال: والذي نفسي بيده، ما من فرس إلا وهو يدعو كل سحر فيقول: اللهم، أنت خولتني عبداً من عبادك، وجعلت رزقي بيده، فاجعلني أحب إليه من أهله وماله وولده^(٢).

[٣٣٩٤] قال: وحدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الحميد بن جعفر؛ حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن سويد بن قيس؛ عن معاوية بن حديج، عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليس من فرس عربي إلا يؤدُّ له مع كل فجر، يدعو بدعوتين، يقول: اللهم، إنك خولتني من خولتني من بني آدم، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه، أو: أحب أهله وماله إليه^(٣). رواه النسائي، عن عمرو بن علي الفلاس، عن يحيى القطان به.

[٣٣٩٥] وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا المطعم بن المقدم الصنعاني، عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال لابن الحنظلية - يعني سهلاً: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها ممتانون عليها، ومن ربط فرساً في سبيل الله كانت النفقة عليه، كالماد يد به بالصدقة لا يقبضها^(٤). والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة.

[٣٣٩٦] وفي صحيح البخاري، عن عروة بن أبي الجعد البارقى: أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغرم^(٥). وقوله: «تَرْهَبُونَ»، أي: تُخَوِّفُونَ ﴿يَوْمَ عُدُوْا لِلَّهِ وَعَدُوْكُمْ﴾ أي: من الكفار ﴿وَالْمَكْرِبِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ - قال مجاهد: يعني بني قريظة. وقال السدي: فارس، وقال سفيان الثوري: قال ابن يمان: هم الشياطين التي في الدور. وقد ورد حديث بمثل ذلك.

[٣٣٩٧] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عتبة أحمد بن الفرغ الحمصي، حدثنا أبو حنيفة - يعني شريح بن

(١) أخرجه أحمد ٣٩٥/١ وجوّد إسناده المنذري في «الترغيب» ١٨٧٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ٥/٢٦٠ - ٢٦١: رواه أحمد، ورجاله ثقات فإن كان القاسم بن حسان سمع من ابن مسعود فالحديث صحيح اهـ. قلت: لم يدرك ابن مسعود ولا طبقته، ووثقه ابن حبان وحده. وقال ابن القطان: لا يُعرف حاله. وشريك سيء الحفظ، لكن يتأيد بما قبله.

(٢) موقوف صحيح، أخرجه أحمد ٥/١٦٢ وإسناده إلى أبي ذر صحيح.

(٣) الراجح وقفه. أخرجه أحمد ٥/١٧٠ والنسائي ٦/٢٢٣، ورجاله ثقات، لكن الراجح الوقف، لأن الليث هو ابن سعد رواه موقوفاً، وهو أثبت من ابن جعفر.

(٤) أخرجه الطبراني ٥٦٢٣ وإسناده لا بأس به، يمين بن حمزة، روى له الشيخان، لكن عنده غرائب، وأخرج عجزه أبو داود ٤٠٨٩ وأحمد ٤/١٧٩ من حديث سهل بن الحنظلية، وإسناده أبي داود ضعيف.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٢٨٥٠ و٣١١٩ ومسلم ١٨٧٣ والترمذي ١٦٩٤ والنسائي ٦/٢٢٢ وابن ماجه ٢٣٠٥ وأحمد ٤/٣٧٥ و٣٧٦.

يزيد المقرئ - حدثنا سعيد بن سنان، عن ابن عَرَبٍ - يعني يزيد بن عبد الله بن عَرَبٍ - عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ كان يقول في قول الله تعالى: ﴿وَمَأخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَقْلُوبُهُمْ﴾، قال: هم الجن^(١).

[٣٣٩٨] ورواه الطبراني، عن إبراهيم بن دُحَيْم؛ عن أبيه، عن محمد بن شعيب؛ عن سعيد بن سنان؛ عن يزيد بن عبد الله بن عَرَبٍ، به، وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لَا يُخْبَلُ بَيْتٌ فِيهِ عَتِيقٌ مِنَ الْخَيْلِ»^(٢). وهذا الحديث منكر، لا يصح إسناده ولا مثنه. وقال مقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون. وهذا أشبه الأقوال، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَقْلُوبُهُمْ مِّمَّنْ تَقْلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١]. وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلَبُونَ﴾، أي: مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال،

[٣٣٩٩] ولهذا جاء في حديث رواه أبو داود: أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمئة ضعف، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْتَ سَعِجَ سَكَابِلٍ فِي كُلِّ سُكُوفٍ مِائَةٌ حَبًّا وَاللَّهُ يَضْعَفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]^(٣).

[٣٤٠٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي، حدثنا أبي، عن أبيه، حدثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه كان يأمر ألا يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سأل من كل دين^(٤). وهذا أيضاً غريب.

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتِنِحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [١١] وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَتَصَوَّرُ بِالْمُؤْمِنِينَ [١٢] وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [١٣]

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على خزيك ومناذتك فقاتلهم، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾، أي: مالوا ﴿لِلسَّلَامِ﴾، أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة، ﴿فَاجْتِنِحْ لَهَا﴾، أي: قبل إليها، واقبل منهم ذلك. ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين؛ أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخرى.

[٣٤٠١] وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا فضيل بن سليمان - يعني النميري - حدثنا محمد بن أبي يحيى، عن إياس بن عمرو الأسلمي، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه سيكون بعدي اختلاف - أو: أمر - فإن استطعت أن يكون السلم،

(١) انظر ما بعده.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه الطبراني ١٨٩/١٧ وابن عدي ٣/٣٦٠، له علتان، ضعف سعيد بن سنان الحمصي، فقد أعله ابن عدي به، وفيه مجاهيل كما في «المجمع» ١١٠٣٠.

(٣) تقدم تخريج الحديث هناك.

(٤) في إسناده جعفر بن أبي المغيرة غير قوي، ثم إن سياق الآية يدل على الإنفاق في سبيل الله لأجل الجهاد، لا على الإنفاق على الناس، ولذا استغربه ابن كثير رحمه الله.

فافعل^(١). وقال مجاهد: نزلت في بني قريظة. وهذا فيه نظر، لأن السياق كله في وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كله. وقول ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة: أن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ [التوبة: ٢٩] الآية - فيه نظر أيضاً؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفاً فإنه تجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم. وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، أي: صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقوا ويستعدوا، ﴿فَارْتَحِبْكَ اللَّهُ﴾، أي: كافيك وحده. ثم ذكر نعمته عليه بما أيد به من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصَبْرٍ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك ومؤازرتك. ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء؛ فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا لِمَتَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

[٣٤٠٢] وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضللاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألمكم الله بي؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن^(٢). ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ آتَاكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ إِتْمَانًا كَبِيرًا﴾، أي: عزيز حكيم، الجنب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه. وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا علي بن بشر الصيرفي القزويني في منزلنا، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن الحسين القنديلي الإستراباذي، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن النعمان الصفار، حدثنا ميمون بن الحكم، حدثنا بكر بن الشروذ، عن محمد بن مسلم الطائفي، عن إبراهيم بن ميسرة، عن طاووس، عن ابن عباس قال: قرابة الرّحم تقطع، ومئة النعمة تكفر، ولم ير مثل تقارب القلوب؛ يقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، وذلك موجود في الشعر:

إذا مت ذو القريتي إليك برحمة
ولكن ذا القريتي الذي إن دعوته

فغشك واستغنى فليس بذي رحم
أجاب ومن يزمي العدو الذي تزمي

قال: ومن ذلك قول القائل:

ولقد صحبت الناس ثم سببتهم
فإذا القرابة لا تقرب قاطعاً

ويلوت ما وصلوا من الأسباب
وإذا المودة أقرب الأسباب

قال البيهقي: لا أدري هذا موصول بكلام ابن عباس، أو هو من قول من دونه من الرواة. وقال أبو

(١) أخرجه عبد الله في مسند أبيه ٦٩٥ من حديث علي. قال الهيثمي في «المجمع» ١٢٠٢٣: رجاله ثقات أه فيه فضيل بن سليمان النميري صدوق، وفيه كلام حيث إنه أبو حاتم وأبو زرعة، وقال يحيى: ليس بثقة، وفيه أيضاً إياس بن عمرو الأسلمي، والظاهر أنه مجهول، حيث ذكره ابن أبي حاتم، فقال: روى عن علي روى عنه محمد بن أبي يحيى، وذكره ابن حبان في الثقات بهذه العبارة، وتفرد محمد بن أبي يحيى عنه يدل على أنه مجهول، والله أعلم.

(٢) تقدم في سورة آل عمران عند آية: ١٠٣.

إسحاق السبيعي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبَهُمْ﴾... الآية، قال: هم المتحابون في الله. وفي رواية: نزلت في المتحابين في الله. رواه النسائي والحاكم في مستدركه، وقال: صحيح. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه عن ابن عباس قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر؛ وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبَهُمْ﴾. رواه الحاكم أيضاً.

وقال أبو عمرو الأوزاعي: حدثني عبدة بن أبي لبابة، عن مجاهد، ولقيته فأخذ بيدي فقال: إذا تراءى المتحابان في الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، وضحك إليه تحانت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسيراً! فقال: لا تقل ذلك؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبَهُمْ﴾! قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن إبراهيم الخوزي، عن الوليد بن أبي مغيث، عن مجاهد قال: إذا التقى المسلمان فتصافحا غفر لهما، قال: قلت لمجاهد: بمصافحة يغفر لهما؟ فقال مجاهد: أما سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبَهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بِتَبَهُمْ؟﴾، فقال الوليد لمجاهد: أنت أعلم مني. وكذا روى طلحة بن مضرّف، عن مجاهد. وقال ابن عون، عن عمير بن إسحاق قال: كنا نحدث أن أول ما يرفع من الناس الألفة.

[٣٤٠٣] وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني رحمه الله: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا سالم بن غيلان، سمعت جعداً أبا عثمان، حدثني أبو عثمان النهدي، عن سلمان الفارسي: أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم، فأخذ بيده، تحانت عنهما ذنوبهما، كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زبد البحر^(١)».

﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَأْتِيهَا النَّيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلْفَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ صَعْفًا إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يحرص تعالى نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم، أي: كافيتهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وتراذفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم، حدثنا عبيد الله بن موسى، أنبأنا سفيان، عن ابن شوذب، عن الشعبي في قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾، قال: حسبك الله، وحسب من شهد معك. قال: ورؤي عن عطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد، مثله.

(١) وقع في سائر النسخ «البحار» والتصويب من مصادر التخريج. والحديث حسن، أخرجه الطبراني ٦١٥٠ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٧/٨ وقال: ورجاله رجال الصحيح، غير سالم بن غيلان، وهو ثقة اه وحسن إسناده المنذري في «الترغيب»، ٤٠١٢، وله شواهد.

ولهذا قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّارُ حَرِيصٍ مُّزَيَّجَتٍ عَلَى الْقِتَالِ﴾، أي: حثهم وذمهم عليه.

[٣٤٠٤] ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال عند ضعفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر، حين أقبل المشركون في عددهم وعددهم: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض. فقال عمير بن الحُمَام: عرضها السموات والأرض؟! فقال رسول الله ﷺ: نعم. فقال: يخ يخ، فقال: ما يحملك على قولك يخ يخ؟ قال: رجاء أن أكون من أهلها! قال: فإنك من أهلها. فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه. وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن. ثم ألقى بقيتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها حياة طويلة! ثم تقدم فقاتل حتى قُتِل، رضي الله عنه^(١). وقد روي عن سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبيرة: أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب، وكمل به الأربعون. وفي هذا نظر؛ لأن هذه الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة، والله أعلم.

ثم قال تعالى مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَمْرًا: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ يَأْتِيُوا يَأْتِيَنَّ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ يَأْتِيَنَّ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وكل واحد بعشرة. ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة. قال عبد الله بن المبارك، حدثنا جرير بن حازم، حدثني الزبير بن الخزيم، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ يَأْتِيُوا يَأْتِيَنَّ﴾، شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم ألا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿أَلَنْ يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ عَنكُمْ﴾... إلى قوله: ﴿يَأْتِيُوا يَأْتِيَنَّ﴾، قال: خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم. وروى البخاري من حديث ابن المبارك، نحوه. وقال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس قال: كتب عليهم ألا يفرّ عشرون من مائتين، ثم خفف الله عنهم، فقال تعالى: ﴿أَلَنْ يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّكُمْ صَمْعًا﴾، فلا ينبغي لمائة أن يفرّوا من مئتين. وروى البخاري، عن علي بن عبد الله، عن سفيان، به ونحوه.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني ابن أبي نجیح، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظّموا أن يقاتل عشرون مئتين، ومئة ألفاً، فخفف الله عنهم. فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿أَلَنْ يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّكُمْ صَمْعًا﴾... الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم يتنبّ لهم أن يفرّوا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوّزوا عنهم. وروى علي بن أبي طلحة والعمري، عن ابن عباس، نحو ذلك، قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، والضحاك، نحو ذلك. وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، من حديث المسيب بن شريك، عن ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر - رضي الله عنه -: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ يَأْتِيُوا يَأْتِيَنَّ﴾ قال: نزلت فينا أصحاب محمد ﷺ.

[٣٤٠٥] وروى الحاكم في مستدرکه، من حديث أبي عمرو بن العلاء، عن نافع، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿أَلَنْ يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّكُمْ صَمْعًا﴾^(٢)، رَفَعَ. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(١) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٤٨.

(٢) أما عاصم وحمزة فقد قرأ بفتح الضاد. قال الفراء: الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم. قال الزجاج: والمعنى في القراءتين واحد (زاد المسير). والحديث ضعيف. أخرجه الحاكم ٢/٢٣٩ وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: سلام بن سليمان نزل دمشق: واو.

﴿مَا كَانَتْ لِيُنَبِّئَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْخَبِتَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾
 وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
 فَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَمْرًا إِلَى اللَّهِ يُدْعَى تَوْفِيقَهُ وَكَرَاهِيَتَهُ وَقَدْرَهُ قُلْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَدْعَى إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَهُ الْفُتُوحُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

[٣٤٠٦] قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، عن حميد، عن أنس - رضي الله عنه - قال: استشار رسول الله ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر، فقال: إن الله قد أمكنكم منهم. فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس، إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس. فقام عمر فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ ثم عاد النبي ﷺ فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فقال: يا رسول الله، نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء. قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم، وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾... الآية^(١). وقد سبق في أول السورة حديث ابن عباس في صحيح مسلم بنحو ذلك.

[٣٤٠٧] وقال الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟» قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استتبقهم واستتبقهم، لعل الله أن يتوب عليهم. قال: وقال عمر: يا رسول الله، أخرجوك، وكذبوك، فقدّمهم فاضرب أعناقهم. قال: قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، أنت في وإد كثير الحطب، فأضرم الوادي عليهم ناراً، ثم ألقهم فيه. قال: فقال العباس: قطعت رجمك. قال: فسكت رسول الله ﷺ فلم يردّ عليهم شيئاً، ثم قام فدخل فقال ناس: ياخذ بقول أبي بكر. وقال ناس: ياخذ بقول عمر، وقال ناس: ياخذ بقول عبد الله بن رواحة. ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: إن الله ليولين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم [عليه السلام]، قال: ﴿فَنَنْبِئُكَ بِمَا فَعَلَ مُتَيْبٌ بِئْتِي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى [عليه السلام] قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الْكَرِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وإن مثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام، قال: ﴿رَبَّنَا أَلِيْسَ عَلَيْنَا أَسْرٌ وَأَشَدُّ عَلَيْنَا قُلُوبُهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام، قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكٰفِرِيْنَ دِيَارًا﴾ [نوح: ٢٦]. أنتم عائلة فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عُنُق. قال ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، إلا سهيل بن بيضاء، فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف [من] أن تقع علي حجارة من السماء بي في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: إلا سهيل بن بيضاء. فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيُنَبِّئَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾... إلى آخر الآية^(٢). رواه الإمام أحمد والترمذي، من حديث أبي معاوية، عن

(١) جيد. أخرجه أحمد ٢٤٣/٣ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٨٧/٦ وقال: رواه أحمد عن شيخه علي بن عاصم بن صهيب، وهو كثير الغلط والخطأ، لا يرجع إذا قيل له الصواب، ويقية رجال أحمد رجال الصحيح. قلت: لكن للحديث طرق وشواهد، وأصله عند مسلم، وتقدم.

(٢) إسناده ضعيف، أخرجه أحمد ٣٨٣/١، والترمذي ٣٠٨٤، والحاكم ٢١/٣ من حديث ابن مسعود، وإسناده ضعيف لانتقاعه، أبو عبيدة لم يسمع من أبيه، وقد ذكر ذلك الترمذي ومع ذلك قال: حديث حسن! وصححه الحاكم! =

الأعمش، والحاكم في مستدركه، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وروى الحافظ أبو بكر بن مَزْدُوِيَه، عن عبد الله بن عمر، وأبي هريرة - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ نحوه، وفي الباب عن أبي أيوب الأنصاري.

[٣٤٠٨] وروى ابن مَزْدُوِيَه أيضاً - واللفظ له - والحاكم في مستدركه، من حديث عبيد الله بن موسى: حدثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: لما أَمَرَ الأَسَارَى يوم بدر، أَمَرَ العباس فيمن أَمَرَ أَسْرَهُ رجل من الأنصار، قال: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: إني لم أتم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه. فقال له عمر: فأتهم؟ قال: نعم. فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس. فقالوا: لا، والله لا نرسله. فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رَضَى قالوا: فإن كان لرسول الله ﷺ رَضَى فخذ. فأخذ عمر فلما صار في يده قال له: يا عباس، أسلم، فوالله لأن تُسَلِّمَ أحب إلي من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبني إسلامك، قال: فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر فيهم، فقال أبو بكر: عشيرتك، فأرسلهم، فاستشار عمر، فقال: اقتلهم. ففاداهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَتْ لِيُنِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَمْرِي حَتَّى يُتَخَذَ فِي الْأَرْضِ﴾^(١) الآية. قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

[٣٤٠٩] وقال سفيان الثوري، عن هشام - هو ابن حسان - عن محمد بن سيرين، عن عبيدة، عن علي - رضي الله عنه - قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر فقال: خَير أصحابك في الأَسَارَى: إن شَاوُوا الفداء، وإن شَاوُوا القتل، على أن يقتل مقبلاً مثلهم. قالوا: الفداء ويقتل منا^(٢). رواه الترمذي، والنسائي، وابن حبان في صحيحه من حديث الثوري، به. وهذا حديث غريب جداً.

[٣٤١٠] وقال ابن عون، عن عبيدة، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ في أسارى يوم بدر: «إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء، واستشهد منكم بعدتهم». قال: فكان آخر السبعين

= ووافقه الذهبي! مع أنه منقطع وفي بعض ألفاظه غرابة. ولصدره شواهد، وكذا لعجزه، والوهن في أثناءه فقط، والله أعلم. والحديث الآتي عن ابن عمر يشهد لبعضه.

(١) لكن الحاكم أخرجه ٣٢٩/٢ مختصراً بذكر عجزه فقط دون التعرض لخبر العباس، وصححه الحاكم وقال الذهبي: على شرط مسلم.

(٢) متن غريب. أخرجه ابن أبي شيبة ٣٦٨/١٤ - ٣٦٩ - والترمذي ١٥٦٧ وصححه ابن حبان ٤٧٩٥، وقال الترمذي: حسن غريب، قلت: إسناده على شرط مسلم. لكن المتن غريب، تفرد بوصله عمر بن سعد الحفري عن يحيى بن زكرياء عن الثوري عن هشام بن حسان في حين أخرجه ابن سعد ٢٢/٢ عن هشام بن حسان عن عبيدة مرسلًا. وأخرجه ابن أبي شيبة ٣٦٨/١٤ والطبري ١٦٣٠٣ من طريق أشعث و١٦٣٠٥ من طريق ابن عون، وعبد الرزاق ٩٤٠٢ من طريق أيوب ثلاثتهم عن ابن سيرين عن عبيدة مرسلًا. وهذا هو الراجح وليس فيه ذكر جبريل عند الأكثر. وأخرجه الحاكم ٢/١٤٠ والبيهقي ٦/٣٢١ وفي «الدلائل» ١٣٩/٣ - ١٤٠ عن ابن عون عن ابن سيرين عن عبيدة عن علي، وصححه، ووافقه الذهبي، وليس فيه ذكر جبريل أيضاً وإنما هو عن النبي ﷺ ولفظه هو الآتي.

وأما الحديث الأول، فقد ذكر العلامة القاري في «شرح المشكاة» ٢٥١/٤ نقلاً عن التوريشتي ما ملخصه: هذا الحديث مشكل جداً لمخالفته ما يدل على ظاهر التنزيل، ولما صح من الأحاديث في أمر أسارى بدر، وأن أخذ الفداء كان رأياً رأوه، وقد هوتبوا عليه، ولو كان هناك تخيير بوحى سماوي لم تتوجه المعاتبه عليه، وقد قال تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيُنِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَمْرِي...﴾ ﴿لَسْتُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. اهـ.

ثابت بن قيس، قتل يوم اليمامة، رضي الله عنه^(١). ومنهم من روى هذا الحديث عن عبيدة مرسلًا، فالله أعلم. وقال محمد بن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَى﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قال: غنائم بدر، قبل أن يُحْلَهَا لَهُمْ، يقول: لولا أنني لا أعذب من عصاني حتى أتقدم إليه، لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم. وكذا روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد. وقال الأعمش: سَبَقَ مِنْهُ أَنْ لَا يَعْذِبَ أَحَدًا شَهِدَ بَدْرًا. وروى نحوه عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن جبيرة، وعطاء. وقال شعبة، عن أبي هاشم، عن مجاهد: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾، أي: لهم بالمغفرة. ونحوه عن سفيان الثوري رحمه الله. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾، يعني: في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الأسارى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾... الآية. وكذا روى العوفي، عن ابن عباس. وروى مثله عن أبي هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبيرة، وعطاء، والحسن البصري، وقتادة، والأعمش أيضاً: أن المراد ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ لهذه الأمة بإحلال الغنائم. وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

[٣٤١١] ويستشهد لهذا القول بما أخرجه في الصحيحين، عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا، لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَأَجَلْتُ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبُيْعَتْ إِلَى النَّاسِ عَامَةً»^(٢).

[٣٤١٢] وقال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تحل الغنائم لسود الرؤوس غيرنا»^(٣). ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٤)، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء.

[٣٤١٣] وقد روى الإمام أبو داود في سننه: حدثنا عبد الرحمن بن المبارك العيشي، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن أبي العنبر، عن أبي الشعثاء، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمئة^(٥).

وقد استقر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء: أن الإمام مخير فيهم: إن شاء قتل - كما فعل ببني قريظة - وإن شاء فادي بمال - كما فعل بأسرى بدر - أو بمن أسير من المسلمين:

[٣٤١٤] كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابتنها اللتين كانتا في سبني سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين^(٥)، وإن شاء استرق من أسير. هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه.

(١) تقدم مع ما قبله، وهو غير قوي، هناك اضطراب في المتن والإسناد، وتقدم ما فيه كفاية، والله أعلم.

(٢) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٤٣.

(٣) صحيح. أخرجه الترمذي ٣٠٨٥ والنسائي في «الكبرى» ١١٢٠٩ وابن حبان ٤٨٠٦ وإسناده صحيح، وأصله عند البخاري ٣١٢٤ ومسلم ١٧٤٧ من وجه آخر من حديث أبي هريرة مطوّلًا.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٦٩١ والبيهقي في «الدلائل» ١٤٠/٣ وهو صحيح دون لفظ «أربعمئة».

(٥) صحيح. هو بعض حديث أخرجه مسلم ١٧٥٥ وغيره، وتقدم.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَمِنَ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَسْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

[٣٤١٥] قال محمد بن إسحاق: حدثني العباس بن عبد الله بن مَعْبُدٍ، عن بعض أهله، عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: إني قد عرفتُ أن أناساً من بني هاشم وغيرهم، قد أخرجوا كُرْهًا، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً منهم - أي: من بني هاشم - فلا يقتله، ومن لقي أبا البخترى ابن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه أُخْرِجَ مستكرهاً. فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس؟! والله لئن لقيته لألجمته بالسيف! فبَلَّغْتُ رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص - قال عمر: والله إنه لأول يوم كُنَّاني فيه رسول الله ﷺ أ يضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فأضرب عنقه، فوالله لقد نافق. فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: والله ما آمنُ من تلك الكلمة التي قلت، ولا أزال منها خائفاً، إلا أن يكفرها الله عني بشهادة. فقتل يوم اليمامة شهيداً، رضي الله عنه^(١).

[٣٤١٦] وبه، عن ابن عباس قال: لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر، والأسارى محبوسون بالوثاق، بات رسول الله ﷺ ساهراً أول الليل، فقال له أصحابه: يا رسول الله، ما لك لا تنام؟ - وقد أسر العباس رجلٌ من الأنصار - فقال رسول الله ﷺ: سمعت أنين عمي العباس في وثاقه. فأطلتُوه، فسكت، فنام رسول الله ﷺ^(٢). قال محمد بن إسحاق: وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب، وذلك أنه كان رجلاً موسراً فافتدى نفسه بمئة أوقية ذهباً.

[٣٤١٧] وفي صحيح البخاري، من حديث موسى بن عقبة، قال ابن شهاب: حدثني أنس بن مالك أن رجلاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلتترك لابن أختنا عباس فداءه. قال: لا، والله لا تَدْرُونَ منه درهماً^(٣).

[٣٤١٨] وقال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة - وعن الزهري، عن جماعة - سماهم - قالوا: بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله، قد كنت مسلماً! فقال رسول الله ﷺ: الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفسك وابني أخيك: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو وأخي بني الحارث بن فهر. قال: ما ذاك عندي يا رسول الله! قال: فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل، فقلت لها: إن أصببت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبتني: الفضل، وعبد الله، وقثم؟ قال: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنك

(١) إسناده ضعيف. أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣/ ١٤٠ - ١٤١ في إسناده «عن بعض أهله» وهذا من قسم المجاهيل. والله أعلم.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣/ ١٤١ بالإسناد المذكور وهو ضعيف بهذا اللفظ. ولبعضه شواهد.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٢٥٣٧ و٤٠١٨ وابن حبان ٤٧٩٤ والبيهقي ٦/ ٢٠٥.

رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني، عشرين أوقية من مال كان معي؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك»، ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، وأنزل الله عز وجل فيه: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ يَكُ الْأَمْرُ إِذْ يَسْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُّؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠)﴾، قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً، كلهم في يده مال يضرّب به، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل^(١). وقد روى ابن إسحاق أيضاً، عن ابن نجيج، عن عطاء، عن ابن عباس في هذه الآية بنحو ما تقدم.

[٣٤١٩] وقال أيضاً أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا ابن إدريس، عن ابن إسحاق عن ابن أبي نجيج، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال العباس: «في نزلت: ﴿مَا كَانَتْ لِيَّيْنِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَمْرِي حَتَّى يُتَخَذَ فِي الْأَرْضِينَ﴾، فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي، وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذ مني، فأبى، فأبدلني الله بها عشرين عبداً، كلهم تاجرٌ، مالي في يده^(٢).

[٣٤٢٠] وقال ابن إسحاق أيضاً: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله بن رثاب قال: كان العباس بن عبد المطلب يقول: «في نزلت - والله - حين ذكرت لرسول الله ﷺ إسلامي^(٣). ثم ذكر نحو الحديث كالذي قبله.

[٣٤٢١] وقال ابن جرّيج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ يَكُ الْأَمْرُ إِذْ يَسْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُّؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾، إيماناً وتصديقاً، يخلف لكم خيراً مما أخذ منكم، ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ الشرك الذي كنتم عليه. قال: فكان العباس يقول: ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لي الدنيا، لقد قال: ﴿يُّؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾، فقد أعطاني خيراً مما أخذ مني مئة ضعف، وقال: ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾، وأرجو أن يكون غفر لي^(٤).

[٣٤٢٢] وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: كان العباس أسر يوم بدر فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين قرئت هذه الآية: لقد أعطانا الله عز وجل خصلتين، ما أحب أن لي بهما الدنيا، إني أسرت يوم بدر ففديت نفسي بأربعين أوقية، فأتاني أربعين عبداً، وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله جل ثناؤه^(٥).

[٣٤٢٣] وقال قتادة في تفسير هذه الآية: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفاً، وقد توضعاً لصلاة الظهر، فما أعطى يومئذ ساكتاً ولا حرم سائلاً، وما صلى يومئذ حتى قرّقه، فأمر

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣/ ١٤٢ - ١٤٣ من طريق يونس بن بكير به. ويشهد له ما أخرجه الحاكم ٣/ ٣٢٤ والبيهقي في «السنن» ٦/ ٣٢٢ من حديث عائشة، صححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الطبري ١٦٣٣٥ ورجاله ثقات، لكن فيه عنونة ابن إسحاق.

(٣) أخرجه الطبري ١٦٣٣٦ وإسناده ساقط، الكلبي منهم، وأبو صالح لم يلق ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري ١٦٣٤٠ وعطاء الخراساني روى منكري. وفي روايته عن ابن عباس إرسال.

(٥) أخرجه الطبري ١٦٣٣٨ ورجاله ثقات، لكن فيه إرسال، ومع ذلك له شواهد كثيرة، وهو أحسن الروايات سياقاً.

العباس أن يأخذ منه وَيَخْتِي فَأخذ. قال: فكان العباس يقول: هذا خير مما أخذ منا، وأرجو المغفرة^(١).

[٣٤٢٤] وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال قال: بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفاً، ما أتاه مال أكثر منه لا قبل ولا بعد، قال: فثرت على خصير وتؤدي بالصلاة. قال: وجاء رسول الله ﷺ فمئل قائماً على المال، وجاء أهل المسجد فما كان يومئذ عدد ولا وزن، ما كان إلا قبضاً، وجاء العباس بن عبد المطلب يخفي في خميصة عليه، وذهب يقوم فلم يستطع، قال: فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ارفع علي. قال: فتبسم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكه - أو: نابه - وقال له: أعذ من المال طائفة، وقم بما تطيق. قال: ففعل، وجعل العباس يقول - وهو منطلق - : أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا، وما ندري ما يصنع في الأخرى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ قُل لَّيْنِ فِي أَيْدِيكُمْ يَرِكُ الْأَسْرَى﴾... الآية، ثم قال: هذا خير مما أخذ منا، ولا أدري ما يصنع الله في الأخرى. فما زال رسول الله ﷺ مائلاً على ذلك المال، حتى ما بقي منه درهم، وما بعث إلى أهله بدرهم، ثم أتى الصلاة فصلّى^(٢).

[٣٤٢٥] حديث آخر في ذلك: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو الطيب محمد بن محمد بن عبد الله السعيدى، حدثنا مَحْمِش بن عصام، حدثنا حفص بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عبد العزيز بن ضَهَبِيب، عن أنس بن مالك قال: أتى رسول الله ﷺ بمال من البحرين، فقال: انثروه في المسجد. قال: وكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاء العباس فقال: يا رسول الله، أعطني، فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً. فقال له رسول الله ﷺ: خذ فحثاً في ثوبه، ثم ذهب يُقَلِّه فلم يستطع، فقال: مُز بعضهم يرفعه إلي. قال: لا. قال: فارفعه أنت علي قال: لا. فنثر منه ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق، فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفي عنه، عَجَباً من جزسه، فما قام رسول الله ﷺ وثم منها درهم^(٣). وقد رواه البخاري في مواضع من صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم، يقول: وقال إبراهيم بن طهمان ويسوقه في بعض السياقات أنتم من هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾، أي: فيما أظهروا لك من الأقوال، ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: من قبل بدر بالكفر به، ﴿فَأَنْتَ كُنَّ يَتَّبِعُكَ﴾، أي: بالإسار يوم بدر، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. أي: عليم بما يفعله، حكيم فيه. قال قتادة: نزلت في عبد الله بن أبي سَرْح الكاتب حين ارتد، ولحق بالمشركين. وقال ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: نزلت في عباس وأصحابه، حين قالوا: لننصحن لك على قوما. وفسرها السدي على العموم، وهو أشمل وأظهر، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بِمَعْزِمِهِمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ

(١) هذا مرسل. أخرجه الطبري ١٦٣٣٧ لكن يعتضد بما بعده، وأصله في الصحيح تعليقاً كما سيأتي.

(٢) مرسل حسن. حميد تابعي ثقة، وهو يتأيد بما بعده.

(٣) حسن. أخرجه البيهقي ٣٥٦/٦ وإسناده حسن، وذكره البخاري ٣١٦٥ عن إبراهيم بن طهمان به تعليقاً.

فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقسمهم إلى مهاجرين خَرَجُوا من ديارهم وأموالهم، وجاؤوا لنصر الله ورسوله، وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك، وإلى أنصار، وهم: المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، أووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسوهم في أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض، أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد. ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إراثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في صحيح البخاري، عن ابن عباس، ورواه العوفي، وعلي بن أبي طلحة، عنه. وقال به مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقادة وغيرهم.

[٣٤٢٦] قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن جرير - هو ابن عبد الله الجلي، رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار أولياء، بعضهم لبعض، واللقاء من قريش، والعتقاء من ثقيف، بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة»^(١). تفرد به أحمد.

[٣٤٢٧] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا شيبان، حدثنا عكرمة - يعني ابن إبراهيم الأزدي - حدثنا عاصم، عن شقيق، عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهاجرون والأنصار واللقاء من قريش، والعتقاء من ثقيف، بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة»^(٢). هكذا رواه في مسند عبد الله بن مسعود.

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه، فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾ [التوبة، الآية ١٠٠] الآية، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنْتَهَى...﴾ [التوبة، الآية ١١٧] الآية، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ مِنْ حِصَّةٍ...﴾ [الحشر: ٨-٩] الآية. وأحسن ما قيل في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾، أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك،

[٣٤٢٨] ولهذا قال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا محمد بن

(١) جيد. أخرجه أحمد ٣٦٣/٤ والطبراني ٢٢٨٤ و٢٣٠٢ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٥/١٠: رواه أحمد والطبراني بأسانيد، وأحد أسانيد الطبراني رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه أبو يعلى ٥٠٣٣ من حديث ابن مسعود، وإسناده ضعيف عكرمة بن إبراهيم ضعفه يحيى وأبو داود والنسائي وزاد: ليس بشقة، وذكره ابن حبان في المجروحين ١٨٨/٢، وقال: كان ممن يقبل الأخبار اهد راجع الميزان، والمتن محفوظ من حديث جرير، ولعله وهم، فجعله من حديث ابن مسعود والله أعلم.

معمر، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن حذيفة قال: خيرني رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة، فاخترت الهجرة^(١). ثم قال: لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن لَّحْمٍ مِّن بَهِيمٍ﴾، قرأ حمزة: وَلَا يَتَّبِعُهُم بِالْكَسْرِ، والباقون بالفتح. وهما واحد كالدلالة والدلالة، ﴿مِن مَّنْ هَاجَرُوا﴾، هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بواديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغنم نصيب، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال.

[٣٤٢٩] كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه بريدة بن الحصيب الأسلمي - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وَمَن مَّعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خيراً، وقال: اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال - أو: خلال - فأيتهم ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم. ادعهم إلى الإسلام، فإن أجاوبك فاقبل منهم، وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفياء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجاوبوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم^(٢). انفرد به مسلم، وعنده زيادات أخر. وقوله: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ مِّنْ بَيْنِكُمْ وَمِنْكُمْ يُشْنِقُوا وَاللَّهُ يُمَاقِلُونَ بَصِيرَةً﴾. يقول تعالى: وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني، على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم، لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ﴿بَيْنَكُمْ وَمِنْكُمْ يُشْنِقُوا﴾، أي: مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا في ذمتكم، ولا تقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مروى عن ابن عباس رضي الله عنه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِمَعْثُرِهِمْ أَوْلِيَائِهِمْ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنَّ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٣)

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما قال الحاكم في مستدركه:

[٣٤٣٠] حدثنا محمد بن صالح بن هاني، حدثنا أبو سعد يحيى بن منصور الهروي، حدثنا محمد بن أبان حدثنا محمد بن يزيد وسفيان بن حسين، عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة، عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر مسلماً»، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ

(١) أخرجه البزار ٢٧١٨ والطبراني ٣٠١٠ من حديث حذيفة، وقال البزار: ما تعلم رواه إلا حذيفة، ولا له إلا هذا الإسناد. اهـ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٥٨٠٤: رجاله رجال الصحيح غير علي بن زيد، وهو حسن الحديث كذا قال الهيثمي رحمه الله وعلي بن زيد ضعفه الحافظ في التريب. وقال البخاري وأبو حاتم: لا يحتج به. راجع الميزان ٥٨٤٤.

(٢) تقدم في سورة البقرة عند آية: ١٩٠.

كَفَرُوا بِمَنَّهُمْ أَوْلِيَاءَهُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾^(١). ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

[٣٤٣١] قلت: الحديث في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»^(٢).

[٣٤٣٢] وفي المسند والسنن من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى»^(٣). وقال الترمذي: حسن صحيح.

[٣٤٣٣] وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد، عن محمد بن ثور، عن معمر، عن الزهري: أن رسول الله ﷺ أخذ على رجل دخل في الإسلام فقال: تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان، وأنت لا ترى نار مشرك إلا وأنت له حرب»^(٤). وهذا مرسلٌ من هذا الوجه.

[٣٤٣٤] وقد رُوِيَ مُتَّصِلاً من وجه آخر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنا بريءٌ من كلِّ مسلم بين ظهراني المشركين»، ثم قال: «لا يتراءى»^(٥) ناراهما.

[٣٤٣٥] وقال أبو داود في آخر كتاب الجهاد: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، أخبرني يحيى بن حسان، أنبأنا سليمان بن موسى أبو داود، حدثنا جعفر بن سعد بن سُمرة بن جندب، حدثني خبيب بن سليمان، عن أبيه سليمان بن سمره، عن سُمرة بن جندب: أما بعد، قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»^(٦).

[٣٤٣٦] وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيْهِ، من حديث حاتم بن إسماعيل، عن عبد الله بن هُرْمُز، عن محمد وسعيد ابني عبید، عن أبي حاتم المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من تَرْضَوْنَ دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض». قالوا: يا رسول الله، وإن كان...؟ قال: إذا أتاكم من تَرْضَوْنَ دينه وخلقه فأنكحوه ثلاث مرات»^(٧). وأخرجه أبو داود والترمذي، من حديث حاتم بن إسماعيل، به بنحوه.

[٣٤٣٧] ثم رَوَى من حديث عبد الحميد بن سليمان، عن ابن عجلان، عن ابن وَثِيْمَةَ النضري، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من تَرْضَوْنَ دينه وفروا وجهه، إلا تفعلوا

(١) جيد. أخرجه الحاكم ٢/٢٤٠ وصححه، ووافقه الذهبي، وهو حسن الإسناد، وانظر ما يأتي.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٧٦٤ ومسلم ١٦١٤ وأبو داود ٢٩٠٩ والترمذي ٢١٠٧ والنسائي في «الكبرى» ٦٣٧٢ و٦٣٧٤ وأحمد ٥/٢٠٠ و٢٠٨ وابن حبان ٦٠٣٣ والبيهقي ٦/٣١٧.

(٣) جيد. أخرجه أبو داود ٢٩١١ والنسائي في «الكبرى» ٦٣٨٤ وابن ماجه ٢٧٣١ وأحمد ٢/١٧٨ و١٩٥.

وأخرجه الترمذي ٢١٠٨ من حديث جابر، وتقدم.

(٤) مرسل. أخرجه الطبري ١٦٣٥٣ لكن يشهد له ما بعده، وفي الباب أحاديث كثيرة تعضده.

(٥) وفي رواية «لا تراءى»، وتقدم الكلام على معناه في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١١٨.

(٦) تقدم الكلام على هذا الحديث وبيان معناه أيضاً في تفسير سورة آل عمران.

(٧) حسن. أخرجه الترمذي ١٠٨٥ وقال: حسن غريب اهـ. إسناده ضعيف لضعف عبد الله بن هرمز، لكن يتأيد بما بعده.

تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»^(١). ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْقَهُوا تَكَفُّرًا فِي الْأَرْضِ وَفَسَادًا كَبِيرًا﴾، أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

لما ذكر تعالى حُكْمَ المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر ما لهم في الآخرة؛ فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان، كما تقدم في أول السورة، وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن ذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبداً، لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يُسَامُ ولا يُمَلُّ، لحسنه وتنوعه. ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح، فهم معهم في الآخرة، كما قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ وَعَسَوْا وَعَدَّ لَهُمْ جَذَبًا عَسِيراً تَحْتَهَا الْآنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠٠]... الآية، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا إِعْلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

[٣٤٣٨] وفي الحديث المتفق عليه. بل المتواتر، من طرق صحيحة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب»^(٢).

[٣٤٣٩] وفي الحديث الآخر: «من أحب قوماً حُشِرَ معهم»^(٣).

[٣٤٤٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة»^(٤). قال شريك: فحدثنا الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عبد الرحمن بن هلال، عن جرير، عن النبي ﷺ مثله. تفرد به أحمد من هذين الوجهين. وأما قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، أي: في حكم الله، وليس المراد بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة، الذين لا فرض لهم ولا هم عصبية، بل يُدْلون بوارث، كالخال، والخال،

(١) حسن. أخرجه الترمذي ١٠٨٤ وابن ماجه ١٩٦٧ وأخرجه الحاكم ١٦٥/٢ من طريق عبد الحميد به، لكن قال فيه «وثيمة البصري» وصححه قال الذهبي: عبد الحميد هو أخو فليح قال أبو داود كان غير ثقة. وثيمة لا يعرف اهـ. وكرره الترمذي من وجه آخر عن ابن عجلان عن أبي هريرة، وهذا منقطع. وورد عن يحيى بن أبي كثير مرسلأ عند عبد الرزاق في «المصنف» ١٠٣٢٥. وأخرجه ابن عدي في «الكامل» ٧٣/٥ من حديث ابن عمر، وأعله ابن عدي بـ «عمار بن مطر العنبري». الخلاصة: هو حديث حسن بطرقه وشواهده.

(٢) تقدم مراراً.

(٣) أخرجه الطبراني في «الصغير» ٨٧٤ من حديث علي بن أنس منه وصدقه: «ثلاث من حق...» وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٧٩/١٠: ورجال رجال الصحيح غير محمد بن ميمون الخياط، وقد وثق اهـ.

- وأخرجه الطبراني ٢٥١٩ من حديث أبي قريظة. وقال الهيثمي: وفيه من لم أعرفه.

(٤) تقدم عند آية: ٧٢ من هذه السورة.

والعمة، وأولاد البنات، وأولاد الأخوات، ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية، ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات. كما نص عليه ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغير واحد: على أنها ناسخة للإرث بالحلْف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص. ومن لم يورثهم يحتج بأدلة، من أقواها. [٣٤٤١] حديث: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث»^(١)، قالوا: فلو كان ذا حق لكان له فرض في كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً، والله أعلم.



آخر تفسير سورة الأنفال، والله الحمد والمنة، وعليه التكلان.
وهو حسبنا ونعم الوكيل

(١) صحيح. أخرجه سعيد بن منصور ٤٢٧ وأبو داود ٣٥٦٥ والترمذي ٢١٢٠ وابن ماجه ٢٧١٣ والطيايبي ١١٢٧ وأحمد ٥/٥
٢٦٧ والبيهقي ٦/٢٦٤ من حديث أبي أمامة. وانظر تفسير القرطبي ٨٥٨ بتخريري طبع دار الكتاب العربي.



﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ
غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، كما قال البخاري:

[٣٤٤٢] حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلْتَلَةِ﴾، وآخر سورة نزلت براءة^(١).

وإنما لم يبسمل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا بالبسملة في أولها في المصحف الإمام، والافتداء في ذلك بأمر المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه وأرضاه -، كما قال الترمذي:

[٣٤٤٣] حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، ومحمد بن جعفر، وابن أبي عدي، وسهل بن يوسف قالوا: حدثنا عوف بن أبي جميلة، أخبرني يزيد الفارسي، أخبرني ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المثنين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ووضعتموها في السبع الطول، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضَعُوا هذه الآيات في السورة التي يُذَكَّرُ فيها كذا وكذا. فإذا نزلت عليه الآية فيقول: ضَعُوا هذه في السورة التي يُذَكَّرُ فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وحسبت أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرئت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فوضعتها في السبع الطول^(٢). وكذا رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من طرق أخر، عن عوف الأعرابي، به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم، فبعث أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - أميراً على الحج هذه السنة، ليقم للناس مناسكهم، ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٨٠.

(٢) ضعيف. أخرجه أبو داود ٧٨٦ و٧٨٧ والترمذي ٣٠٨٦ والنسائي في «الكبرى» ٨٠٠٧ وأحمد ٥٧/١ و٦٩ وابن حبان ٤٣ والبخاري في «التفسير» ١٠٢٨ وحسنه الترمذي وصححه الحاكم على شرطهما! ووافقه الذهبي! وإسناده ضعيف مداره على يزيد الفارسي، وهو مجهول.

هذا، وأن ينادي في الناس ببراءة، فلما قفل اتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عَصْبَةً له، كما سيأتي بيانه.

ف قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: هذه براءة، أي: تَبْرُؤٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ: اختلف المفسرون ها هنا اختلافاً كثيراً، فقال قائلون: هذه الآية لذوي المهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته، مهما كان، لقوله تعالى: ﴿فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

[٣٤٤٤] ولما سيأتي في الحديث: «ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهدة إلى مدته»^(١). وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله. ورُوي عن الكلبي، ومحمد بن كعب القرظي، وغير واحد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَىٰ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ: قال: حَدَّثَنَا اللَّهُ لِلَّذِينَ عَاهَدُوا رَسُولَهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، يَسِيحُونَ فِي الْأَرْضِ حَيْثَمَا شَاءُوا، وَأَجَلٌ أَجَلٌ مِنْ لَيْسَ لَهُ عَهْدٌ أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحَرَمَ، مِنْ يَوْمِ النَّحْرِ إِلَىٰ أَنْسَلَاخِ الْمُحْرَمِ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ لَيْلَةً، فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحَرَمَ أَمْرُهُ بِأَنْ يَضَعَ السِّيفَ فَيَمْنُ لَا عَهْدَ لَهُ. وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس. وقال الضحاك بعد قوله: «فذلك خمسون ليلة»: فأمر الله نبيه إذا أنسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام. وأمر بمن كان له عهد إذا أنسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر، أن يضع السيف فيهم أيضاً، حتى يدخلوا في الإسلام.

[٣٤٤٥] وقال أبو معشر المدني: حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع، وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس، يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحون في الأرض، فقرأها عليهم يوم عرفة، أجل المشركين عشرين من ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشراً من ربيع الآخر، وقرأها عليهم في منازلهم، وقال: لا يحجُّ بعد عامنا هذا مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان^(٢).

[٣٤٤٦] وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى أهل العهد: خزاعة، ومذلاج، ومن كان له عهد أو غيرهم. أقبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ، فأراد رسول الله ﷺ الحج، ثم قال: «إنما يحضر المشركون فيطوفون عرّة، فلا أحب أن أحجَّ حتى لا يكون ذلك». فأرسل أبا بكر وعلياً - رضي الله عنهما - فطافا بالناس في ذي المجاز وبأمكناتهم التي كانوا يتبايعون بها بالمواسم كلها، فأذتوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر، فهي الأشهر المتواليات: عشرون من ذي الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم، وأذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا^(٣). وهكذا رُوي عن السدي، وقناة. وقال الزهري: كان ابتداء التاجيل من شوال وآخره سلخ المحرم. وهذا القول غريب، وكيف يحاسبون بمدة

(١) يأتي برقم ٣٤٥١.

(٢) هذا مرسل. أخرجه الطبري ١٦٣٧٦ وقد ورد موصولاً كما سيأتي. وكذا ما بعده.

(٣) هذا مرسل، أخرجه الطبري ١٦٣٧٧ وانظر ما سيأتي بعده.

لم يبلغهم حكمها، وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر، حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك، ولهذا قال تعالى:

﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مَعْجِزِي اللَّهِ وَنَشِيرَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آيَةِ ﴿٣﴾﴾

يقول تعالى: وإعلام ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وتقدّم وإنذار ﴿إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾، وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعاً، ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾، أي: بريء منهم أيضاً. ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال: ﴿فَإِنْ تَبْتُمْ﴾، أي: مما أنتم فيه من الشرك والضلال، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: استمررتم على ما أنتم عليه، ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مَعْجِزِي اللَّهِ﴾، بل هو قادر عليكم، وأنتم في قبضته، وتحت قهره ومشيتته، ﴿وَنَشِيرَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آيَةِ﴾، أي: في الدنيا بالخزي والنكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال.

[٣٤٤٧] قال البخاري رحمه الله: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، حدثني عقييل، عن ابن شهاب قال: أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر - رضي الله عنه - في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر، يؤذنون بمعنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. قال حميد: ثم أوقف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب، فأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبو هريرة: فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة، وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان^(١).

[٣٤٤٨] ورواه البخاري أيضاً: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمعنى: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل: الأكبر، من أجل قول الناس: الحج الأصغر، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك^(٢). وهذا لفظ البخاري في كتاب الجهاد.

[٣٤٤٩] وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - في قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، قال: لما قفل النبي ﷺ زمن حنين، اعتمر من الجعرانة، ثم أمر أبا بكر على تلك الحجة - قال معمر: قال الزهري: وكان أبو هريرة يحدث أن أبا بكر أمر أبا هريرة أن يؤذن ببراءة في حجة أبي بكر. قال أبو هريرة: ثم أتبعنا النبي ﷺ علماً، وأمره أن يؤذن ببراءة، وأبو بكر على الموسم كما هو - أو قال: على هيئته^(٣). وهذا السياق فيه غرابة، من جهة أن أمير الحج كان سنة عمرة الجعرانة إنما عتاب بن أسيد، فأما أبو بكر إنما كان أميراً سنة تسع.

[٣٤٥٠] وقال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن مغيرة، عن الشعبي، عن مخرر بن أبي هريرة، عن أبيه قال: كنت مع علي بن أبي طالب، حين بعث رسول الله ﷺ إلى مكة بـ «براءة»، فقال:

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٦٩ و٤٦٥٥ ومسلم ١٣٤٧ وأبو داود ١٩٤٦ والنسائي ٢٣٤/٥ وأبو يعلى ٧٦ والبخاري في التفسير ١٠٣١.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٧٧ بهذا الإسناد.

(٣) أخرج عبد الرزاق في التفسير ١٠٣٧ صدره عن ابن المسيب مرسلًا، ليس فيه ذكر أبي هريرة.

ما كنتم تنادون؟ قال: كنا ننادي: أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله - أو أمده - إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك - قال: فكنتم أنادي حتى صَحَلَ صوتي^(١).

[٣٤٥١] وقال الشعبي: حدثني محرر بن أبي هريرة، عن أبيه قال: كنت مع ابن أبي طالب - رضي الله عنه - حين بعث رسول الله ﷺ ينادي، فكان إذا صَحَلَ ناديث. قلت: بأي شيء كنتم تنادون؟ قال: أربع: لا يطوف بالكعبة عريان، ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهدته إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد عامنا مشرك^(٢). رواه ابن جرير من غير ما وجه، عن الشعبي. ورواه شعبة، عن مغيرة، عن الشعبي، به، إلا أنه قال: «ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فعهدته إلى أربعة أشهر، وذكر تمام الحديث^(٣). قال ابن جرير: وأخشى أن يكون وهماً من بعض نقلته، لأن الأخبار متظاهرة في الأجل بخلافه.

[٣٤٥٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن سَمَاك، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ بعث بـ «براءة» مع أبي بكر، فلما بلغ ذا الحليفة قال: لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي. فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٤). ورواه الترمذي في التفسير، عن بُنْدَار، عن عفان وعبد الصمد كلاهما عن حماد بن سلمة، به ثم قال: حسن غريب من حديث أنس رضي الله عنه.

[٣٤٥٣] وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: حدثنا محمد بن سليمان - لُؤِين - حدثنا محمد بن جابر، عن سَمَاك، عن حَشَش، عن علي - رضي الله عنه - قال: لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي ﷺ دعا النبي ﷺ أبا بكر، فبعثه بها ليقراها على أهل مكة، ثم دعاني فقال: أدرك أبا بكر، فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه، فاذهب إلى أهل مكة فاقرأه عليهم. فلجفته بالجحفة، فأخذت الكتاب منه، ورجع أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، نزل في شيء؟ فقال: لا، ولكن جبريل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك^(٥). هذا إسناد فيه ضعف. وليس المراد أن أبا بكر - رضي الله عنه - رجع من فوره، وإنما رجع بعد قضائه المناسك التي أمره عليها رسول الله ﷺ كما جاء مبيناً في الرواية الأخرى.

(١) أخرجه النسائي في «التفسير» ٢٣٤ والدارمي ٣٣٢/١ - ٣٣٣ وابن حبان ٣٨٠٩ وأحمد ٢/٢٩٩ والطبري ١٦٣٨٤ من طريقين عن شعبة به، وصححه الحاكم ٢/٣٣١ ووافقه الذهبي وإسناده لين لأجل معزو، فإنه شبه مجهول. وقال الطبري: وأخشى أن يكون وهماً من بعض نقلته لأن الأخبار متظاهرة في الأجل بخلافه اهـ. ولفظ «أربعة أشهر» ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري ١٦٣٨٢ من طريق الشعبي به، وإسناده لين لأجل محرر، لكن لأصله شواهد.

(٣) هو المتقدم قبل حديث واحد.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٠٩٠ وأحمد ٣/٢١٢ - ٢٨٣، وإسناده ضعيف فيه سماك بن حرب. جاء في «الميزان» ٣٥٤٨ ما ملخصه: صدوق صالح، ضعفه الثوري، وقال جرير الضبي: أثبت سماكاً فرأيت يبول قائماً، فرجعت ولم أسأله، فقلت: خرف، ووثقه يمين وقال: كان شعبة يضعفه، وقال أحمد: مضطرب الحديث. وقال صالح جزرة: ضعيف، وقال النسائي: إذا انفرد بأصل لم يكن بحجة اهـ. فالرجل مختلف فيه، والأكثر على وهنه، وقد تفرد بهذا اللفظ، وهو غير حجة كما قال النسائي.

(٥) أخرجه عبد الله بن أحمد في «المسند» ١/١٥١ ح ١٢٩٩ وإسناده ضعيف جداً. له ثلاث علل، حنش هو ابن المعتز، غير قوي، وثقه أبو داود، وقال أبو حاتم صالح لا أراهم يحتجون به، وقال البخاري: يتكلمون في حديثه، وقال ابن حبان: لا يمتح به، يتفرد عن علي بأشياء، لا يشبه حديث الثقات، وعلة ثالثة: محمد بن جابر صدوق لكن ذهب كتبه، وساء حفظه، وخلط كثيراً فصار يلقن.

[٣٤٥٤] وقال عبد الله أيضاً: حدثني أبو بكر، حدثنا عمرو بن حماد، عن أسباط بن نصر، عن سماك، عن حنّس، عن علي - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ حين بعثه بـ «براءة» قال: يا نبي الله، إني لسئت بالليسن ولا بالخطيب. قال: ما بد لي أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت. قال: فإن كان ولا بد فسأذهب أنا. قال: «انطلق، فإن الله يُبثُّ لسانك ويهدي قلبك». قال: ثم وُضِعَ يده على فيه^(١).

[٣٤٥٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يُثيَع - رجل من همدان - : سألتنا علياً: بأي شيء بعثت؟ يعني يوم بعثه النبي ﷺ مع أبي بكر في الحجة. قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا^(٢). ورواه الترمذي عن قِلَابَةَ، عن سفيان بن عُيينة، به، وقال: حسن صحيح. كذا قال. [ثم قال]^(٣) وروى^(٤) شعبة، عن أبي إسحاق [عن زيد غير هذا الحديث]^(٥)، فقال: عن زيد بن أثل، وهِمَ فيه. ورواه الثوري، عن أبي إسحاق، عن بعض أصحابه، عن علي رضي الله عنه.

[٣٤٥٦] وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة عن زكريا، عن أبي إسحاق عن زيد بن يُثيَع، عن علي قال: بعثني رسول الله ﷺ حين أنزلت براءة بأربع: أن لا يطوف بالبيت عريان، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة^(٦). ثم رواه ابن جرير، عن محمد بن عبد الأعلى، عن محمد بن ثور، عن معمر، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: أمِرتُ بأربع... فذكره.

[٣٤٥٧] وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يُثيَع قال: نزلت براءة فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر، ثم أرسل علياً، فأخذها منه فلما رجع أبو بكر قال: نزل في شيء؟ قال: لا، ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي، فانطلق إلى أهل مكة، فقام فيهم بأربع: لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فعهده إلى مدته^(٧).

- (١) إسناده ضعيف، أخرجه عبد الله في «المسند» ١٢٨٩ بهذا الإسناد، وهو ضعيف وتقدم الكلام على حنّس وسماك، وفيه عمرو بن حماد صدوق، لكن رماه أبو داود بالرفض، وفيه أسباط بن نصر غير قوي.
- (٢) جيد. أخرجه الترمذي ٣٠٩٢ والحاكم ٥٢/٣ والطبري ١٦٣٨٧ وأبو يعلى ٤٥٢ و ٦٣٩٣ من طرق عن أبي إسحاق به، وإسناده حسن، زيد بن يُثيَع قال عنه الحافظ في «التقريب»: ثقة. وأما الذهبي فقال في «الميزان» ٣٠٣٢: ما روى عنه سوى أبي إسحاق. وهذا منه إشارة إلى جهالة. لكنه تويع على هذا المتن وانظر «أحكام القرآن» ١٠٨٣ لابن العربي بتخريري.
- (٣) زيادة يقتضيها السياق.
- (٤) وقع في بعض النسخ «رواه» وفي بعض «ورواه» والتصويب عن سنن الترمذي.
- (٥) مستدرک من جامع الترمذي ٣٠٩٢ وبه يستقيم سياق كلام الترمذي.
- (٦) أخرجه الطبري ١٦٣٨٧ وإسناده حسن في الشواهد.
- (٧) أخرجه الطبري ١٦٣٨٦ وفيه لفظ «قال أبو بكر: نزل في شيء؟ قال: لا ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي» فقد رواه غير واحد عن أبي إسحاق، دون هذه الزيادة والظاهر أن الهمم ممن دون أبي إسحاق السبيعي فقد أخرجه الترمذي ٣٠٩٢ والطبري ١٦٣٨٧ عن أبي إسحاق عن زيد عن علي دون تلك الزيادة. وكرره الطبري ١٦٣٨٥ و ١٦٣٨٨ من طريق آخر عن الحارث الأعور عن علي دون تلك الزيادة، فهي زيادة غريبة، والله أعلم.

[٣٤٥٨] وقال محمد بن إسحاق: عن حكيم بن حكيم بن عَبَادِ بْنِ حُثَيْفٍ، عن أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ بَرَاءَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ كَانَ بَعَثَ أَبَا بَكْرٍ لِيَقِيمَ الْحَجَّ لِلنَّاسِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ بَعَثْتَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ. فَقَالَ: لَا يُؤَدِّي عَنِّي إِلَّا رَجُلٌ مِّنْ أَهْلِ بَيْتِي. ثُمَّ دَعَا عَلِيًّا فَقَالَ: أَخْرِجْ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ صَدْرِ بَرَاءَةَ، وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ يَوْمَ النَّحْرِ إِذَا اجْتَمَعُوا بِمَنْى: أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَافِرًا، وَلَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكًا، وَلَا يَطُفُّ بِالْبَيْتِ عَرِيَانًا، وَمَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَهَوَّ لَهُ إِلَى مَدَّتِهِ. فَخَرَجَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَلَى نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَضْبَاءِ، حَتَّى أَدْرَكَ أَبَا بَكْرٍ فِي الطَّرِيقِ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ؟ قَالَ: بَلْ مَأْمُورٌ. ثُمَّ مَضَى، فَأَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ الْحَجَّ، وَالْعَرَبُ إِذْ ذَاكَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ عَلَى مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْحَجِّ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمَ النَّحْرِ، قَامَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالَّذِي أَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَافِرًا، وَلَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكًا، وَلَا يَطُفُّ بِالْبَيْتِ عَرِيَانًا. وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهَوَّ إِلَى مَدَّتِهِ. فَلَمْ يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكًا، وَلَمْ يَطُفُّ بِالْبَيْتِ عَرِيَانًا، ثُمَّ قَدَمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَانَ هَذَا مِنْ بَرَاءَةِ فَيَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّرِكِ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ الْعَامِ، وَأَهْلِ الْمُدَّةِ إِلَى الْأَجَلِ الْمَسْمُومِ^(١).

[٣٤٥٩] وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا أبو زُرْعَةَ وَهَبُ اللَّهِ بْنِ رَاشِدٍ، أَخْبَرَنَا حَيَّوَةَ بْنُ شُرَيْحٍ: أَخْبَرَنَا أَبُو صَخْرٍ: أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا مَعَاوِيَةَ الْبِجَلِيَّ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الصَّهْبَاءِ الْبَكْرِيَّ وَهُوَ يَقُولُ: سَأَلْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَنِ «يَوْمِ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا بَكْرَ بْنَ أَبِي قُحَافَةَ يَقِيمَ لِلنَّاسِ الْحَجَّ، وَيَعْنِي مَعَهُ بَارِعِينَ آيَةً مِنْ بَرَاءَةِ، حَتَّى أَتَى عِرْقَةَ فَخَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ عِرْقَةَ، فَلَمَّا قَضَى خُطْبَتَهُ التَّفَتَّ إِلَيَّ فَقَالَ: قُمْ، يَا عَلِيُّ، فَأَذْرَسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَمْتُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ آيَةً مِنْ بَرَاءَةِ، ثُمَّ صَدَرْنَا فَأَتَيْنَا مَنْى، فَرَمَيْتُ الْجَمْرَةَ وَنَحَرْتُ الْبَدَنَةَ، ثُمَّ حَلَقْتُ رَأْسِي، وَعَلِمْتُ أَنَّ أَهْلَ الْجَمْعِ لَمْ يَكُونُوا حَاضِرُوا كُلَّهُمْ خُطْبَةَ أَبِي بَكْرٍ يَوْمَ عِرْقَةَ، فَطَفْتُ أَنْتَبِعَ بِهَا الْفَسَاطِيطَ أَقْرُوها عَلَيْهِمْ، فَمَنْ تَمَّ إِخَالَ حَسِبْتُمْ أَنَّهُ يَوْمَ النَّحْرِ، وَهُوَ يَوْمَ عِرْقَةَ^(٢).

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي إسحاق: سألت أبا جحيفة عن «يَوْمِ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» قال: يوم عرفة. فقلت: أمن عندك، أم من أصحاب محمد ﷺ؟ قال: كل في ذلك. وقال عبد الرزاق أيضاً، عن ابن جرير، عن عطاء قال: يوم الحج الأكبر: يوم عرفة. وقال عُمَرُ بْنُ الْوَلِيدِ الشُّنِّيُّ: حَدَّثَنَا شَهَابُ بْنُ عَبَادِ الْعَصْرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ: هَذَا يَوْمَ عِرْقَةَ، يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، فَلَا يَصُومُهُ أَحَدٌ. قَالَ: فَحَجَّجْتُ بَعْدَ أَبِي فَاتَيْتُ الْمَدِينَةَ، فَسَأَلْتُ عَنْ أَفْضَلِ أَهْلِهَا، فَقَالُوا: سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ، فَاتَيْتُهُ فَقُلْتُ: إِنِّي سَأَلْتُ عَنْ أَفْضَلِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَقَالُوا: سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ، فَأَخْبَرْتَنِي عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عِرْقَةَ؟ فَقَالَ: أَخْبَرَكَ عَمَّنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي مِثَّةَ ضَعْفٍ: عَمْرٌ - أَوْ: ابْنُ عَمْرٍ - كَانَ يَنْهَى عَنْ صَوْمِهِ، وَيَقُولُ: هُوَ يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَمُجَاهِدٍ، وَعُكْرَمَةَ، وَطَاوُوسٍ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَوْمَ عِرْقَةَ هُوَ يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ.

(١) أخرجه الطبري ١٦٣٩١ هكذا معضلاً، والمعضل من قسم الضعيف، وفيه ابن إسحاق مدلس وقد عنعن، وفيه حكيم بن حكيم بن عبد الله بن عباد وثقه ابن حبان، وقال ابن سعد: لا يجتمعون به أحد. فالخبر واه، وصدرة منكر، وبقية المتن صحيح له شواهد.

(٢) أخرجه الطبري ١٦٣٩٦. بإسناد لين لأجل أبي الصهباء؛ فإنه مقبول.

[٣٤٦٠] وقد ورد فيه حديث مرسل رواه ابن جُرَيْج: أَخْبِرْتُ عن محمد بن قيس بن مخزومة أن رسول الله ﷺ حَطَبَ يوم عرفة، فقال: هذا يومُ الحجِّ الأكبر^(١).

[٣٤٦١] وروي من وجه آخر عن ابن جريج، عن محمد بن قيس، عن المسور بن مخزومة، عن رسول الله ﷺ: أنه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن هذا يوم الحج الأكبر^(٢).

والقول الثاني: أنه يوم النحر. قال هشيم، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن علي - رضي الله عنه - قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وقال أبو إسحاق السبيعي، عن الحارث الأعور، سألت علياً - رضي الله عنه - عن يوم الحج الأكبر، فقال: يوم النحر. وقال شعبة، عن الحكم: سمعت يحيى بن الجزار يحدث عن علي - رضي الله عنه -: أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة، فجاء رجل فأخذ بلجام دابته، فسأله عن الحج الأكبر، فقال: هو يومك هذا، خل سبيلها. وقال عبد الرزاق، عن سفيان وشعبة، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وروى شعبة وغيره، عن عبد الملك بن عمير، به نحوه. وهكذا رواه هشيم وغيره، عن الشيباني، عن عبد الله بن أبي أوفى. وقال الأعمش، عن عبد الله بن سنان قال: خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال: هذا يوم الأضحى، وهذا يوم النحر، وهذا يوم الحج الأكبر. وقال حماد بن سلمة، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: الحج الأكبر، يوم النحر. وكذا روي عن أبي جحيفة، وسعيد بن جبير، وعبد الله بن شداد بن الهاد، ونافع بن جبير بن مطعم، والشعبي، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، وعكرمة، وأبي جعفر الباقر، والزهرري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: يوم الحج الأكبر هو يوم النحر. واختاره ابن جرير. وقد تقدم الحديث عن أبي هريرة، في صحيح البخاري: أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى. وقد ورد في ذلك أحاديث أخر.

[٣٤٦٢] كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني سهل بن محمد السجستاني، حدثنا أبو جابر الحرّمي، حدثنا هشام بن الغاز الجُرشي، عن نافع، عن ابن عمر قال: وقف رسول الله ﷺ يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع، فقال: هذا يوم الحج الأكبر^(٣). وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن مَرزويه من حديث أبي جابر - واسمه محمد بن عبد الملك، به. ورواه ابن مردويه أيضاً من حديث الوليد بن مسلم، عن هشام بن الغاز، به. ثم رواه من حديث سعيد بن عبد العزيز، عن نافع، به.

[٣٤٦٣] وقال شعبة، عن عمرو بن مُرّة، عن مُرّة الهمداني، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قام

(١) ضعيف، فمع إرساله، شيخ ابن جريج لم يسمه. أخرجه الطبري ١٦٤٠٧.

(٢) أخرجه الطبري ١٦٤٠٣ وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» ٣/٣٨٢ لابن أبي حاتم وابن مردويه. وابن جريج مدلس، وقد عنعن، وقد ظهر في المرسل المتقدم أنه لم يسمه من محمد بن قيس، فالخير وإو، وقد صح موقوفاً كما تقدم، وسيأتي خلافه موقوفاً ومرفوعاً.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ١٩٤٥ والطبري ١٦٤٦١ من طريقين عن هشام به، وإسناده أبي داود، رجاله ثقات مشاهير سوى مؤمل بن الفضل شيخ أبي داود، وهو صدوق، وأخرجه ابن ماجه ٣٠٥٨ من وجه آخر عن هشام به، وإسناده صحيح، رجاله رجال البخاري سوى هشام بن الغاز، وهو ثقة كما في «التقريب» وعلقه البخاري في «صحيحه» بإثر ١٧٤٢، وانظر صحيح أبي داود ١٧١٤.

فينا رسول الله ﷺ على ناقه حمراء مخضمة، فقال: أتدرون أي يوم يومكم هذا؟ قالوا: يوم النحر. قال: صدقتم، يوم الحج الأكبر^(١).

[٣٤٦٤] وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن المقدم، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا ابن عون، عن محمد بن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال: لما كان ذلك اليوم، قعد رسول الله ﷺ على بعير له، وأخذ الناس بخطامه - أو: زمامه - فقال: أي يوم هذا؟ قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيستمي سوي اسمه، فقال: أليس هذا يوم الحج الأكبر؟^(٢). وهذا إسناد صحيح وأصله مخرج في الصحيح.

[٣٤٦٥] وقال أبو الأحوص، عن شبيب بن غزقة، عن سليمان بن عمرو بن الأحوص، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فقال: أي يوم هذا؟ فقالوا: اليوم الحج الأكبر^(٣). وعن سعيد بن المسيب أنه قال: يوم الحج الأكبر اليوم الثاني من يوم النحر. رواه ابن أبي حاتم. وقال مجاهد أيضاً: يوم الحج الأكبر أيام الحج كلها. وكذا قال أبو عبيد: قال سفيان: يوم الحج، ويوم الجمل، ويوم صفين، أي: أيامه كلها. وقال سهل السراج: سئل الحسن البصري عن يوم الحج الأكبر، فقال: ما لكم وللحج الأكبر، ذاك عام حج فيه أبو بكر، الذي استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة، عن ابن عون: سألت محمداً - يعني ابن سيرين - عن يوم الحج الأكبر فقال: كان يوماً وافق فيه حج رسول الله ﷺ حج أهل الوبر.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ
عَاهِدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر، لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله أربعة أشهر، يسبح في الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت، فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث: ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهدة إلى مدته. وذلك بشرط ألا ينقض المعاهد عهده، ولم يظاهر على المسلمين أحداً، أي: يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفى له بدمته وعهده إلى مدته، ولهذا حرص الله تعالى على الوفاء بذلك فقال: إن الله يحب المتقين، أي: الموفين بعهدهم.

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ
مَرْصِدٍ فَإِنْ تَأَبَّوْا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم ها هنا، ما هي؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله

(١) صحيح. أخرجه الطبري ١٦٤٦٢ ورجاله ثقات، وجهالة الصحابي لا تضر.

(٢) صحيح. أخرجه الطبري ١٦٤٦٠ ورجاله ثقات، وجهالة الصحابي لا تضر.

(٣) متن صحيح. أخرجه الترمذي ٢١٥٩ و٣٠٨٧ والنسائي في «التفسير» ٢٢٣ وابن ماجه ٣٠٥٥. وإسناده لين لأجل سليمان بن عمرو. وله شاهد من حديث أبي حزة الرقاشي عن عمه أخرجه أحمد ٧٢/٥ - ٧٣ وإسناده ضعيف لضعف علي بن زيد، لكن يصلح حديثه في الشواهد، ولهذا المتن شواهد أكثرها في الصحيح. فهو حديث صحيح إن شاء الله. وانظر «أحكام القرآن» ١٠٨٠ لابن العربي.

تعالى: ﴿وَمِنَهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الْبَيْتُ الْحَرَامُ فَلَا تَقْلِبُوا فِيهِ تَأْسَفًا﴾ [التوبة: ٣٦]... الآية، قاله أبو جعفر الباقر. ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقه المَحْرَم. وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وإليه ذهب الضحاك أيضاً. وفيه نظر، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه، وبه قال مجاهد، وعمرو بن شعيب، ومحمد بن إسحاق، وقتادة، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها في قوله: ﴿فَيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾. ثم قال: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ﴾، أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمت فيها عليكم قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم، لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر- ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعد في هذه السورة الكريمة. وقوله: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي: من الأرض. وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ عِنْدَ التَّوْبَةِ لِمَرَارٍ حَتَّى يُقْبَلُوكُمْ فِيهَا فَإِن قَتَلْتُمُوهُمْ فَاتَّكَلْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]. وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي: وأسروهم، إن شئتم قتلاً، وإن شئتم أسراً. وقوله: ﴿وَاحْضَرُواهُمْ وَأَقْبَدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾، أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدهم بالحصار في معابدهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تُضَيِّقُوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام. ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. ولهذا اعتمد الصديق - رضي الله عنه - في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي الدخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته. ونَبَّهَ بأعلاها على أدائها، فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة، التي هي حق الله عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع مُتَعَدِّ إلى الفقراء والمحاييج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة.

[٣٤٦٦] وقد جاء في الصحيحين، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ»^(١) الحديث. وقال أبو إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يُزَكْ فلا صلاة له. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: يرحم الله أبا بكر، ما كان أفتقه.

[٣٤٦٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا حُمَيْد الطويل، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا شَهِدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ، وَاسْتَقْبَلُوا قِبَلْتَنَا، وَأَكَلُوا ذَيْبِحَتَنَا، وَصَلُّوا صَلَاتَنَا، فَقَدْ حَرَّمْتُ عَلَيْنَا دِمَاؤَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ»^(٢). ورواه البخاري في صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث عبد الله بن المبارك، به.

[٣٤٦٨] وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْأَعْلَى بْنُ وَاصِلِ الْأَسَدِيِّ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، أَخْبَرَنَا أَبُو جَعْفَرِ الرَّازِيِّ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عَنِ أَنَسِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الْإِحْلَاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَعِبَادَتِهِ لَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، فَارَقَهَا وَاللَّهُ عَنْهُ رَاضٍ»، قَالَ: وَقَالَ أَنَسٌ: هُوَ دِينُ اللَّهِ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٥ ومسلم ٢٢ وابن حبان ١٧٥ والبيهقي ٣/٣٦٧.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٩٢ وأبو داود ٢٦٤١ والترمذي ٢٦٠٨ وأحمد ٣/١٩٩ و٢٢٤ وابن حبان ٥٨٩٥.

الذي جاءت به الرسلُ وبلغوه عن ربهم، قبل هزج الأحاديث، واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، قال: توبتهم خلع الأوثان، وعبادة ربهم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم قال في آية أخرى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ١١] (١). ورواه ابن مَرْدُويه. ورواه محمد بن نصر المروزي في كتاب «الصلاة» له: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أنبأنا حَكَّام بن سَلَم، حدثنا أبو جعفر الرازي، به سواء. وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مَرَّاحم: إنها نَسخت كلَّ عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين، وكلَّ عَهْدٍ، وكلَّ مَدَّةٍ. وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: لم يبق لأحد من المشركين عهدٌ ولا ذمَّةٌ، منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما كان سَمَى لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إسحاق بن موسى الأنصاري قال: قال سفيان بن عيينة: قال علي بن أبي طالب: بُعث النبي ﷺ بأربعة أسياف، سيف في المشركين من العرب، قال الله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا دِينًا كَانَتْ أَبَوَاتُكُمْ عَلَىٰهَا حَنُوفًا وَأَكْثَرُ النَّاسِ بِهِمْ غَبَابًا﴾. هكذا رواه مختصراً، وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب في قوله: ﴿فَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾. هكذا رواه مختصراً، وأظن أن الله ورسوله ولا يدبوت دين الحق من الذين أوثقوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴿١١﴾ [التوبة: ٢٩]، والسيف الثالث: قتال المنافقين في قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣] الآية، والرابع: قتال الباغين في قوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتِلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَتَّ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَقِيَةَ إِلَهَ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]. ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه، فقال الضحاك والسدي: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا مَتَا بَعْدَ وَإِنَّمَا فِتْنَةٌ﴾ [محمد: ٤]، وقال قتادة بالعكس.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْنِ أَلْيَهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى لنبيه - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم، ﴿اسْتَجَارَكَ﴾، أي: استأمنك، فأجبه إلى طلبته ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾، أي: تقرأه عليه، وتذكر له شيئاً من الدين تقيم عليه به حجة الله، ﴿ثُمَّ ابْنِ أَلْيَهُ مَأْمَنَهُ﴾، أي: وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله في عباده.

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد، في تفسير هذه الآية، قال: إنسان يأتيك يسمع ما تقول وما أنزل عليك، فهو آمن حتى يأتيك فيسمع كلام الله، وحتى يبلغ مأمنه، حيث جاء. ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً أو في رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم واحداً بعد واحد، يترددون في قضية بينه

(١) الحديث أخرجه الطبري ١٦٤٨٩، وفي إسناده عيسى بن أبي عيسى أبو جعفر الرازي ضعفه أحمد، وقال الفلاس والنسائي: متروك. وقال أحمد: لا يساري شيئاً.

وبين المشركين، فأروا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم.

[٣٤٦٩] ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل ضربت عنقك». وقد قويض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة، وأمر به فضربت عنقه^(١) لا رحمه الله ولعنه. والغرض أن من قديم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمته ووطنه. لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان، عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء، رحمهم الله.

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٧)

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظيرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين تقفوا، فقال تعالى: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾ وأمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله، ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾، يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدْيَنَ مَكْرُوهًا أَنْ يَبْلُغَ مِحْلَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٥]... الآية، ﴿ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾، أي: مهما تمسكوا بما عاهدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست، إلى أن نقضت قريش العهد ومالوا وحلفاءهم بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوه معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصيهم والله الحمد والمنة فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره وفرّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء: منهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرْضَوْنَكُمْ بِأَقْوَابِهِمْ وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٨)

(١) صحیح. أخرجه أبو داود ٢٧٦٢ والنسائي في «الكبرى» ٨٦٧٥ وأحمد ٣٨٣/١ وابن حبان ٤٨٧٩ والطحاوي في «المشکل» ٢٨٦٢ من حديث ابن مسعود. وأخرجه أحمد ٤٠٤/١ والطحاوي في «المشکل» ٢٨٦١ من وجه آخر عن ابن مسعود به. ويشهد له حديث سلمة بن نعيم عن أبيه عند أبي داود ٢٧٦١ وأحمد ٤٨٧/٣ - ٤٨٨ والحاکم ٥٢/٣ - ٥٣ والطحاوي ٢٨٦٣ وإسناده حسن. وانظر «تفسير البغوي» ٨٨٢ بتخریجی.

يقول تعالى مُحَرَّضاً للمؤمنين على معاداة المشركين والتبري منهم، ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله، ولو أنهم إذ ظهروا على المسلمين وأدبلوا عليهم، لم يبقوا ولم يذروا، ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة. قال علي بن أبي طلحة، وعكرمة، والعمري عن ابن عباس: الإل: القرابة، والذمة: العهد. وكذا قال الضحاك والسدي، كما قال تميم بن مقبل:

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفَ خَلْفُوا قَطُّوا الْإِلَّ وَأَغْرَاقَ الرَّجِمِ

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وَجَدْنَاكُمْ كَاذِبًا إِلَهُمْ وَدُو الْإِلَّ وَالْمَهْدِ لَا يَكْذِبُ

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا﴾ قال: الله. وفي رواية: لا يرقبون الله ولا غيره. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، عن سليمان، عن أبي مجلز في قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾. مثل قوله: جبرائيل، ميكائيل، إسرافيل. كأنه يقول: يضيف جبر، وميكا، وإسراف، إلى إيل، يقول: عبد الله ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا﴾ كأنه يقول: لا يرقبون الله. والقول الأول أشهر وأظهر، وعليه الأكثر. وعن مجاهد أيضاً: الإل: العهد. قال قتادة: الإل: الحلف.

﴿أَشْرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلاً فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخِوَانُكُمْ فِي الْآيَاتِ وَأَنْتُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذمّاً للمشركين وحنفاً للمؤمنين على قتالهم: ﴿أَشْرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلاً﴾، يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهموا به من أمور الدنيا الخسيسة، ﴿فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ﴾، أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق، ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ تقدم تفسيره، وكذا الآية التي بعدها: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إلى آخرها، تقدمت.

[٣٤٧٠] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المنثري، حدثنا يحيى بن أبي بكر، حدثنا أبو جعفر الرازي، حدثنا الربيع بن أنس قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته، لا يشرك به، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة - فارقها والله عنه راضٍ». وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل مزج الأحاديث واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾، يقول: فإن خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخِوَانُكُمْ فِي الْآيَاتِ﴾^(١). ثم قال البزار: آخر الحديث عندي، والله أعلم: «فارقها وهو عنه راضٍ»، وبقية عندي من كلام الربيع بن أنس^(٢).

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾

(١) تقدم قبل حديث واحد، وإسناده ضعيف.

(٢) جعل الطبري هذه الزيادة في روايته عن أنس بن مالك، والأشبه في مثل هذا الكلام من قول الربيع بن أنس كما ذكر البزار، والله أعلم.

يقول تعالى: وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم، أي: عهدهم ومواثيقهم، ﴿وَلَطَمُوا فِي دِيبِكُمْ﴾، أي: عابوه وانتقصوه. ومن ها هنا أخذ قتل من سب الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بتقصص، ولهذا قال: ﴿فَقَتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾، أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال. وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمّية بن خلف. وعدد رجالاً. وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: مر سعد برجل من الخوارج، فقال الخارجي: هذا من أئمة الكفر. فقال سعد: كذبت، بل أنا قاتلت أئمة الكفر. رواه ابن مَرْدُويه. وقال الأعمش، عن زيد بن وهب، عن حذيفة أنه قال: ما قُوتل أهل هذه الآية بعد. وروى عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - مثله. والصحيح أن الآية عامة، وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم.

وقال الوليد بن مسلم: حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نَفِير: أنه كان في عهد أبي بكر - رضي الله عنه - إلى الناس حين وجههم إلى الشام، قال: إنكم ستجدون قوماً مُحَوَّفَةً رؤوسهم، فاضربوا معاهد الشيطان منهم بالسيوف، فوالله لأن أقتل رجلاً منهم أحب إلي من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: ﴿فَقَتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾. رواه ابن أبي حاتم.

﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوْلَكِ مَرْفُءٌ أَخْتَشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَتَلْتَهُمْ يَْعَذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

وهذا أيضاً تهيج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم، الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَمَكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِئِيْتَاكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: ١]. الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِسُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ٧٦]. وقوله: ﴿وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوْلَكِ مَرْفُءٌ﴾، قيل: المراد بذلك يوم بدر، حين خرجوا لنصر غيرهم، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم طلباً للقتال، بغياً وتكبراً، كما تقدم بسط ذلك. وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح، وكان ما كان، والله الحمد والمنة. وقوله: ﴿أَخْتَشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون، فانا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوتي، فيبيدي الأمر، وما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن. ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين، وبيانا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿قَتَلْتَهُمْ يَْعَذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾. وهذا عام في المؤمنين كلهم. وقال مجاهد، وعكرمة، والسدي في هذه الآية: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾، يعني: خزاعة. وأعاد الضمير في قوله: ﴿وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم أيضاً.

[٣٤٧١] وقد ذكر ابن عساكر في ترجمة مؤذن لعمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - عن مسلم بن

يسار، عن عائشة رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها، وقال: «يا عَوْشُ، قولي: اللهم، رب النبي محمد، اغفر ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مُضلات الفتن»^(١). ساقه من طريق أبي أحمد الحاكم، عن الباغندي، عن هشام بن عمار، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الجون، عنه. ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾، أي: من عباده، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: بما يصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبداً، ولا يُضيع مثقال ذرّة من خيرٍ وشرٍّ، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦)

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين، لا نختبركم بأمر يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؟ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾، أي: بطانته ودخيلة، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، فافتنى بأحد القسمين عن الآخر، كما قال الشاعر:

وَمَا أَذْرِي إِذَا يَمُنُّنْتَ أَرْضاً أَرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) ولَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾ [المنكوت: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾ (١٧) [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذَكِّرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِقَكُمْ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [آل عمران: ١٧٩]... الآية. والحاصل أنه - تعالى - لما شرع الجهاد لعباده، بين أن له فيه حكمة، وهو اختبار عبيده: مَنْ يُطِيعُهُ مَتْنٌ بِعَصِيهِ، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؟ فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خٰلِدُونَ﴾ (١٧) ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَىٰ الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (١٨)

يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمرُوا مساجد الله التي بُنيت على اسمه وحده لا شريك له. ومن قرأ: «مسجد الله»، فأراد به المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذي بُني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له. وأسسهُ خليل الرحمن، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أي: بحالهم وقالهم، كما قال السدي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني. واليهودي: ما دينك؟ لقال: يهودي. والصابئي، لقال: صابئ. والمشرك، لقال: مشرك. ﴿أُولَٰئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، أي: بشرتهم، ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خٰلِدُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعْلَمُهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا

(١) في إسناده عبد الرحمن بن أبي الجون، لم أعثر له على ترجمة، وموذن عمر بن عبد العزيز، لم يسم، فالخير وإياه، والله أعلم.

كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ؛ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا النُّفُورُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ [الأنفال: ٣٤]، ولهذا قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَمُزُّ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمْسِكِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فشهد تعالى بالإيمان لعمارة المساجد.

[٣٤٧٢] كما قال الإمام أحمد: حدثنا سُريج، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث: أن دراجاً أبا السمع حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان» قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَمُزُّ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمْسِكِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(١). ورواه الترمذي وابن مَرزُويه، والحاكم في مستدركه، من حديث عبد الله بن وهب، به.

[٣٤٧٣] وقال عبد بن حُميد في مسنده: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا صالح المُرِّي، عن ثابت البناني، عن ميمون بن سيّاه وجعفر بن زيد، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عمار المساجد هم أهل الله»^(٢).

[٣٤٧٤] ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الواحد بن غياث، عن صالح بن بشير المُرِّي، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عمار المساجد هم أهل الله»^(٣). ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت غير صالح.

[٣٤٧٥] وقد روى الدارقطني في الأفراد من طريق حكامة بنت عثمان بن دينار، عن أبيها، عن أخيه مالك بن دينار، عن أنس مرفوعاً: «إذا أراد الله بقوم عاهةً نظر إلى أهل المساجد، فصَرَفَ عنهم»^(٤) ثم قال: غريب.

[٣٤٧٦] وروى الحافظ البهاء في المستقصى، عن أبيه بسنده إلى أبي أمية الطرسوسي: حدثنا منصور بن صُقَيْرٍ، حدثنا صالح المري، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً: «يقول الله: وعزتي وجلالي، إني لأهَمُّ بأهل الأرض عذاباً، فإذا نظرت إلى عمار بيوتي وإلى المتحابين في، وإلى المستغفرين بالأسحار، صرفت ذلك عنهم»^(٥). ثم قال ابن عساكر: حديث غريب.

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٦١٧ و٣٠٩٣ وابن ماجه ٨٠٢ وصححه ابن حبان ١٧٢١ وابن خزيمة ١٥٠٢ والحاكم ١/ ٢١٢ و٣٣٢/٢ وأحد ٦٨/٣ كلهم من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعاً، قال الترمذي: حديث حسن! وقال الذهبي: دراج كثير المناكير، وقال الحافظ في التقریب في ترجمة دراج: في روايته عن أبي الهيثم ضعف اهـ فالخير ضعيف، وضعفه غير واحد، والله أعلم.

(٢) في إسناده صالح بن بشير المري، وهو ضعيف. جاء في الميزان ٣٧٧٣: وضعفه ابن معين والدارقطني، وقال أحمد: هو صاحب قصص، وليس هو صاحب حديث. وقال الفلاس: منكر الحديث جداً، وقال النسائي: متروك. وقال البخاري: منكر الحديث، وانظر ما بعده.

(٣) أخرجه ابن عدي ٦١/٤ وأبو يعلى والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ٢٠٣٠، وأعله الهيثمي بصالح المري، وضعفه، وكذا أعله ابن عدي به، وتقدم ترجمته في الذي قبله، وهو ضعيف.

(٤) في إسناده عثمان بن دينار ذكره الذهبي في «الميزان» ٥٥٠٢ فقال: أخو مالك بن دينار والد حكامة، لا شيء، والخبر كذب، اهـ، ولعله أراد هذا المتن والله أعلم. وانظر ما بعده.

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» ٩٠٥١ من طريق آخر عن صالح المري عن ثابت عن أنس مرفوعاً به، وصالح ضعيف جداً كما تقدم، وأخرجه ابن عدي ٦١/٤ من طريق آخر عن صالح المري وأعله به.

ورود عن معمر عن رجل من قریش يرفعه أخرجه البيهقي ٩٠٥٢ وهذا ضعيف جداً، معمر ليس له رواية عن الصحابة، فشيخه تابعي، فهو مرسل، ومع إرساله الشيخ هذا لم يسم، فهو مجهول، والخبر ضعيف بكل حال، والله أعلم.

[٣٤٧٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا سعيد، عن قتادة، حدثنا العلاء بن زياد، عن معاذ بن جبل: أن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان ذئب الإنسان، كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناجية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعمامة والمسجد»^(١). وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأودي، قال: أدركت أصحاب النبي ﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها. وقال المسعودي، عن حبيب بن أبي ثابت وعدي بن ثابت، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: من سمع النداء بالصلاة ثم لم يُجِبْ ولم يأت المسجد ويصلي، فلا صلاة له، وقد عصى الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾... الآية. رواه ابن مَرْدُويه. وقد رُوِيَ مرفوعاً من وجه آخر^(٢)، وله شواهد من وجوه أخرى ليس هذا موضع بسطها. وقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾، أي: التي هي أكبر عبادات البَدَن، ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾، أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بز الخلائق، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾، أي: ولم يخف إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه، ﴿فَمَسَّحَ أَوْلِيكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، يقول: من وُحِدَ اللهُ، وآمن باليوم الآخر. يقول: من آمن بما أنزل الله، ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾، يعني الصلوات الخمس، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾، يقول: لم يعبد إلا الله، ثم قال: ﴿فَمَسَّحَ أَوْلِيكَ﴾، يقول: إن أولئك هم المفلحون، كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهي الشفاعة، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة. وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: و «عسى» من الله حق.

﴿أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلِيكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

قال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية، قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله، وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره. فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: ﴿فَدَّ كَانَتْ ءَابِيَتُكَ تَنَلُّ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَغْلَبِكُمْ تَنَكَّبُونَ ﴿١٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَبِيْرًا تَهْجُرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون: ٦٦ - ٦٧]، يعني أنهم كانوا يستكبرون بالحرم، قال: ﴿بِهِ سَبِيْرًا﴾، كانوا يسمرون به، ويهجرون القرآن والنبي ﷺ، فَخَيَّرَ اللهُ الإِيمَانَ وَالجِهَادَ مَعَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ عَلَى عِمَارَةِ الْمَشْرِكِينَ الْبَيْتِ وَقِيَامِهِمْ عَلَى السَّقَايَةِ. ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به أن كانوا يعمرن بيته ويخدمونه. قال الله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، يعني: الذين زعموا أنهم

(١) أخرجه أحمد ٢٣٢/٥ - ٢٣٣ والطبراني ١٦٤/٢٠ - ١٦٥، قال الهيثمي في «المجمع» ٩١٠٨: رجال أحمد ثقات إلا أن العلاء بن زياد، قيل: لم يسمع من معاذ اهـ. وجزم بذلك الحافظ في التهذيب حيث قال: أرسل عن معاذ، ويدل على ذلك أيضاً هو ما أخرجه أحمد ٢٤٣/٥ عنه عن رجل يثق به عن معاذ، فهذا متصل والرجل، وإن لم يسم لكن وثقه العلاء، وأصل الحديث شواهد، والله أعلم.

(٢) يأتي في سورة النور إن شاء الله.

أهل العمارة، فسامهم الله «ظالمين» بشركهم. فلم تُغن عنهم العمارة شيئاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية، قال: نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسرى يوم بدر، قال: لئن كنتم سبقتونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعلم المسجد الحرام، ونسقي الحاج، ونفك العاني، قال الله عز وجل: ﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، يعني أن ذلك كان في الشرك، ولا أقبل ما كان في الشرك. وقال الضحاک بن مزاحم: أقبل المسلمون على العباس وأصحابه، الذين أسروا يوم بدر، ويعيرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنا نعلم المسجد الحرام، ونفك العاني، ونحج البيت، ونسقي الحاج، فأنزل الله: ﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾... الآية. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، عن إسماعيل، عن الشعبي قال: نزلت في علي، والعباس - رضي الله عنهما - تكلموا في ذلك. وقال ابن جرير: حدثني يونس، حدثنا ابن وهب، أخبرت عن أبي صخر قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يقول: افتخر طلحة بن شيبه من بني عبد الدار، وعباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب فقال طلحة: أنا صاحب البيت، معي مفتاحه، ولو أشاء بت فيه. وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، ولو أشاء بت في المسجد، فقال علي رضي الله عنه: ما أدري ما تقولان، لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾... الآية كلها. وهكذا قال السدي، إلا أنه قال: افتخر علي والعباس وشيبه بن عثمان... وذكره نحوه.

[٣٤٧٨] وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن عمرو، عن الحسن قال: نزلت في علي وعباس وعثمان وشيبه، تكلموا في ذلك، فقال العباس: ما أراني إلا تارك سقائتنا. فقال رسول الله ﷺ: أقيموا على سقائتكم، فإن لكم فيها خيراً^(١). ورواه محمد بن ثور، عن معمر، عن الحسن فذكر نحوه. وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع، فلا بد من ذكره ها هنا.

[٣٤٧٩] قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن يحيى بن أبي كثير، عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - أن رجلاً قال: ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام، إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلت. فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة - ولكن إذا صلت الجمعة دخلنا عليه. فنزلت: ﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٢).

[٣٤٨٠] طريق أخرى: قال الوليد بن مسلم: حدثني معاوية بن سلام، عن جدّه أبي سلام الأسود، عن النعمان بن بشير الأنصاري قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نقر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي ألا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام. وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلت. فزجرهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة - ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ١٠٦١ و ١٠٦٣ والطبري ١٦٥٧٥ و ١٦٥٧٨ عن الحسن هكذا مرسلًا، ومراسيل الحسن فيها ضعف، لأنه يحدث عن كل أحد، كما هو مقرر في كتب التراجم. واختلاف علي والعباس وشيبه في ذلك دون المرفوع له طرق أخرى مراسيل، لكن ما بعده أصح رواه مسلم وغيره.

(٢) متن صحيح؛ أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ١٠٦٠ وفيه إرسال بين يمين وبين النعمان لكن المتن صحيح بما بعده.

اختلفتم فيه. قال: ففعل، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَجْمَلْتُمْ مَقَايَةَ الْمَلَأَجِّ وَصَارَ الْمَسْجِدَ الْمَكْرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١). رواه مسلم في صحيحه، وأبو داود - وابن جرير وهذا لفظه - وابن مردويه، وابن أبي حاتم في تفسيرهم، وابن حبان في صحيحه.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ ءَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

أمر تعالى بمباينة الكفار به، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إذا ﴿اسْتَحَبُّوا﴾، أي: اختاروا ﴿الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾، وتوعد على ذلك كما قال تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنَّا وَيَدَّخِرُهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المجادلة: ٢٢]... الآية.

[٣٤٨١] وروى الحافظ البيهقي من حديث عبد الله بن شوذب قال: جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعته له الآلهة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾^(٢)... الآية. ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من أثر أهله وقربائه وعشيرته على الله وعلى رسوله وجهاد في سبيله، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾، أي: اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾، أي تحبونها لطبيعتها وحسنها. أي: إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾، أي: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم، ولهذا قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

[٣٤٨٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لهيعة، عن زهرة بن مَعْبِد، عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: واللَّهِ لَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه». فقال عمر: أنت الآن والله أحب إلي من نفسي. فقال رسول الله: «الآن يا عمر»^(٣). انفرد بإخراجه البخاري، فرواه عن يحيى بن سليمان، عن ابن وهب، عن حيوة بن شريح، عن أبي عَقِيل زُهْرَةَ بن مَعْبِد، أنه سمع جده عبد الله بن هشام، عن النبي ﷺ بهذا.

(١) صحيح أخرجه مسلم ١٨٧٩ ح ١١١، وأحمد ٢٦٩/٤، والطبري ١٦٥٥٧، والواحدي في أسباب النزول رقم ٤٩٢ من حديث النعمان بن بشير.

(٢) ضعيف. أخرجه البيهقي في «السنن» ٢٧/٩ وقال عقبه: هذا منقطع. قلت: وسبب انقطاعه أن عبد الله ابن شوذب لم يرو عن أحد من الصحابة وهو صدوق.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٦٣٢، وأحمد ٢٣٣/٤ وفي إسناده أحمد ابن لهيعة وهو ضعيف، وقد تابعه حيوة ابن شريح عند البخاري، وهذا يكون الحديث صحيحاً.

[٣٤٨٣] وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»^(١).

[٣٤٨٤] وروى الإمام أحمد، وأبو داود؛ واللفظ له - من حديث أبي عبد الرحمن الخراساني، عن عطاء الخراساني، عن نافع، عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»^(٢).

[٣٤٨٥] وروى الإمام أحمد أيضاً عن يزيد بن هارون، عن أبي جناب، عن شهر بن حوشب أنه سمع عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ بنحو ذلك^(٣). وهذا شاهد للذي قبله، والله أعلم.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

قال ابن جريج، عن مجاهد: هذه أول آية نزلت من براءة. يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى، وتأييده وتقديره، لا بعمددهم ولا بمؤيديهم. وتبهم على أن النصر من عنده، سواء قُتل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ مع رسول الله ﷺ ثم أنزل نصره وتأييده على رسول الله وعلى المؤمنين الذين معه، كما سنينيه إن شاء الله تعالى مفصلاً، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده ويأمده وإن قُتل الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

[٣٤٨٦] قال الإمام أحمد: حدثنا وهب بن جريح، حدثنا أبي، سمعت يونس يحدث عن الزهري، عن عبيد الله، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمئة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن تُغلب اثنا عشر ألفاً من قلة»^(٤). وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، ثم قال: هذا

(١) صحيح. أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، وأبو عوانة (١/٣٣)، وأحمد (٣/١٧٧ و٢٧٥)، والنسائي (٨/١١٤ و١١٥)، وابن ماجه (٦٧)، والدارمي (٢/٣٠٧)، وابن حبان (١٧٩) عن أنس بن مالك.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، وفيه إسحاق بن أسيد أبو عبد الرحمن الخراساني قال الحافظ في التقریب: فيه ضعف. وصححه الشيخ عبد القادر الأرناؤوط في تعليقه على جامع الأصول رقم ٩٤٦٥ وأخرجه أحمد رقم ٤٨٢٥ من وجه آخر بنحوه عن ابن عمر، وصححه الشيخ أحمد شاكر إسناده وهو كما قال.

(٣) أخرجه أحمد (٢/٨٤)، وإسناده ضعيف لضعف أبي جناب، لكن يصلح شاهداً لما قبله.

(٤) حسن، أخرجه أبو داود (٢٦١١) وأحمد (١/٢٩٤) والترمذي (١٥٥٥) وصححه ابن خزيمة (٢٥٣٨) وابن حبان (٤٧١٧) والحاكم (١/٤٤٣ و٢/١٠١) والطحاوي في «المشكّل» (١/٢٣٨) والبيهقي (٩/١٥٦)، وإسناده على شرطهما، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وقول الترمذي «لا يسنده كبير أحد...» فيه نظر فقد قال ابن التركماني: هذا ممنوع لأن جريراً ثقة، وقد تابعه عليه غيره اهـ، وتابعه عقيل على الزهري عند الدارمي (٢/٢١٥) وأحمد (١/٢٩٩) وأبو يعلى (٢٧١٤) وقال المناوي في «فيض القدير» (٣/٤٧٤): قال ابن القطان: الأقرب صحته، وصححه الضياء في المختارة (٢/٦٢/٢٩٢).

والمرسل هو عند عبد الرزاق (٩٦٩٩) والطحاوي (١/٣٣٩) لكن إسناده الموصول صحيح على شرطهما، فمن وصله إنما =

حديث حسن غريب، لا يسنده كبير أحد غير جرير بن حازم، وإنما روي عن الزهري، عن النبي ﷺ مرسلًا. وقد رواه ابن ماجه والبيهقي وغيره، عن أكثم بن الجؤن، عن رسول الله ﷺ بنحوه. والله أعلم. وقد كانت وقعة حُنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة.

[٣٤٨٧] وذلك لما فرغ عليه السلام من فتح مكة، وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضْرِي، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جُشم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والثَّعْم، وجاؤوا بِقُضْمِهِمْ وَقُضْيِهِمْ. فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين أيضاً، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بوادٍ بين مكة والطائف يقال له حنين، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غَلَسِ الصَّبح، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجها لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم، ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم. فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين، كما قال الله عز وجل، وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه أخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بركابها الأيسر، يشقلانها لئلا تسرع السير، وهو ينوه باسمه - عليه الصلاة والسلام - ويدعو المسلمين إلى الرجعة: أين يا عباد الله؟ إليّ أنا رسول الله. ويقول في تلك الحال:

أنا النبيُّ لا كَذِبُ أنا ابن عبد المطلبِ

وثبت معه من أصحابه قريب من مئة، ومنهم من قال: ثمانون، فمنهم: أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - والعباس وعلي، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن، وأسامة بن زيد، وغيرهم، رضي الله عنهم. ثم أمر رسول الله ﷺ عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادي بأعلى صوته - يا أصحاب الشجرة - يعني شجرة بيعة الرضوان، التي يابعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على ألا يفروا عنه - فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السُّمرة، ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك، يا لبيك. وانعطفت الناس فجعلوا يترجعون إلى رسول الله ﷺ حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بغيره على الرجوع لبس درعه وانحدر عنه، وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله. فلما رجعت شردمة منهم، أمرهم - عليه السلام - أن يصدّقوا الحملة، وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال: اللهم أنجز لي ما وعدتني. ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع المسلمون أقباهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ^(١).

[٣٤٨٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن يسار أبي همام، عن أبي عبد الرحمن الفهري - واسمه يزيد بن أسيد، ويقال: يزيد بن أنيس، ويقال: كُزْز - قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة حُنين، فسيرنا في يوم قاتل شديد الحر، فنزلنا تحت

= هو زيادة ثقة، وهي مقبولة عند علماء هذا الفن. وله شاهد من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قاله لأكثم بن الجؤن أخرجه ابن ماجه ٢٨٢٧ لكنه واو، فيه عبد الملك بن محمد وأبو سلمة العاملي، وكلاهما ضعيف، والحجة الحديث الأول، والله أعلم.

(١) ساق المصنف هذا الخبر بالمعنى، وانظر «السيرة النبوية» ٦٢/٤ - ٧٠.

ظلال الشجر، فلما زالت الشمس لبست لأمتي وركبت فرسي، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو في قُسطاطه، فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، حان الرواح. فقال: أجل. فقال: يا بلال. فثار من تحت سُمرة كأن ظله ظل طائر، فقال: لبيك وسعديك، وأنا فداؤك. فقال: أسرج لي فرسي. فأخرج سرجاً دقته من ليف، ليس فيهما أشر ولا بظر. قال: فأسرج، فركب وركبنا، فصافقناهم عشيئنا وليتنا، فتشامت الخيلان، فولى المسلمون مدبرين، كما قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ وَاَنْتُمْ مُدْبِرُونَ﴾. فقال رسول الله ﷺ: يا عبد الله، أنا عبد الله ورسوله، ثم قال: يا معشر المهاجرين، أنا عبد الله ورسوله. قال: ثم اقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه، فأخذ كفاً من تراب، فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني: أنه ضرب به وجوههم، وقال: شامت الوجوه. فهزمهم الله - عز وجل - قال يعلى بن عطاء: فحدثني أبناؤهم، عن آبائهم، أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلات عيناه وفمه تراباً، وسمعنا صلصلةً بين السماء والأرض، كإمرار الحديد على الطنست الجديد^(١). وهكذا رواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة من حديث أبي داود الطيالسي، عن حماد بن سلمة، به.

[٣٤٨٩] وقال محمد بن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله قال: فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين، فسبق رسول الله ﷺ، فأعدوا وتهيؤوا في مضايق الوادي وأنحائه، وأقبل رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى انحط بهم الوادي في عمأة الصبح، فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل، فاشتدت عليهم، وانكفأ الناس منهزمين، لا يقبل أحد على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول: أيها الناس، هلموا إلي أنا رسول الله، أنا رسول الله. أنا محمد بن عبد الله^(٢). فلا شيء، وركبت الإبل بعضها بعضاً، فلما رأى رسول الله ﷺ أمر الناس قال: يا عباس، اصرخ: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة. فأجابوه: لبيك، لبيك. فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره، فلا يقدر على ذلك، فيقذف درعه في عنقه، ويأخذ سيفه وقوسه، ثم يؤم الصوت، حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مئة، فاستعرض الناس فاقتلوا، وكانت الدعوة أول ما كانت: يا للأنصار، ثم جعلت آخراً: يا للخزرج - وكانوا صُبراً عند الحرب - وأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلي مُجتئد القوم، فقال: الآن حمي الوطيس - قال: فوالله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله ملقون، فقتل الله منهم من قتل، وانهزم منهم من انهزم، وأفاء الله على رسوله أموالهم وأبناءهم^(٣).

[٣٤٩٠] وفي الصحيحين من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب - رضي الله عنهما - أنه قال له رجل: يا أبا عمار، أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟! فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن

(١) أخرجه أحمد ٢٨٦/٥ رقم ٢٢٣٦٦ و٢٢٣٦٧. وإسناده ضعيف لجهالة عبد الله بن يسار أبي همام الكوفي، على أن ابن حبان ذكره في الثقات، لكن جهله إمام هذا الشأن ابن الديني. وفي المتابعات يقبل مثل هذا على أن الحديث عن غزوة حنين روي من طرق صحيحة وانظر الأحاديث الآتية.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٣٧٦/٣، وأبو يعلى ١٨٦٢، والبخاري (١٨٣٤) وقال: لا نعلمه يروي عن جابر إلا بهذا الإسناد، وذكره الهيثمي في المجمع ١٧٩/٦ وقال: رواه أحمد وأبو يعلى ورواه البزار باختصار، وفيه ابن إسحاق وقد صرح بالسماع في رواية أبي يعلى، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٧٥ وأحمد ٢٠٧/١ وعبد الرزاق في المصنف ٩٧٤١، وابن هشام في السيرة ٤٤٤/٢ والحاكم في المستدرک ٣٢٧/٣، ٣٢٨ من حديث العباس بن عبد المطلب.

هوازن كانوا قوماً رُماة، فلما لقيناهم وَحَمَلْنَا عَلَيْهِم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهم، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وهو يقول:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ^(١)

قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم من حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه، هو مع ذلك على بغلة وليست سريعة الجزي، ولا تصلح لكر ولا لفر ولا لهرب، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه - صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين - وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكلاً عليه، وعلماً منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾، أي: طمأنينته وثباته على رسوله، ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: الذين معه، ﴿وَأَنْزَلَ جُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾، وهم الملائكة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير:

[٣٤٩١] حدثنا القاسم قال: حدثني الحسن بن عرفة قال: حدثني المعتمر بن سليمان، عن عوف - هو ابن أبي جَمِيلَةَ الأعرابي - قال: سمعتُ عبد الرحمن مولى ابن بُرثن، حدثني رجلٌ كان من المشركين يوم حُتَيْن قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا نَحْلَب شاة - قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم، حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه، فقالوا لنا: شامت الوجوه، ارجعوا. قال: فانهزمنا، وركبوا أكثافنا، فكانت إياها^(٢).

[٣٤٩٢] وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، حدثني محمد بن أحمد بن بَالُوِيه، حدثنا إسحاق بن الحسن الحربي، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحارث بن حَصِيرَةَ، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حُتَيْن، فولّى عنه الناس، وبقيتُ معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار، قدمنا ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة - قال: ورسول الله ﷺ على بغلته يمضي قُدماً، فحادّت بغلته، فمال عن السرج، فقلت: ارتفع رفعك الله. قال: ناولني كفاً من التراب. فناولته، قال: فضرب به وجوههم، فامتلات أعينهم تراباً، قال: أين المهاجرون والأنصار؟ قلت: هم هناك. قال: اهتف بهم. فَهَتَفَتْ بهم، فجاؤوا وسيوفهم بأيامانهم، كأنها الشُّهب، وولّى المشركون أديبارهم^(٣). ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عَفَّان، به نحوه.

[٣٤٩٣] وقال الوليد بن مسلم: حدثني عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر الهذلي، عن عكرمة مولى ابن عباس، عن شيبه بن عثمان قال: لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حُتَيْن قد عَرِي، ذكرت أبي وعمي وقتل

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٣١٥ و ٤٣١٦ و ٤٣١٧، ومسلم ١٧٧٦، والترمذي ١٦٨٨.

(٢) أخرجه الطبري ٣١٥١ وفيه عبد الرحمن هذا، لم أجد له ترجمة.

(٣) أخرجه أحمد ٤٥٤/١، والبزار ١٨٢٩ (كشف الأستار) والحاكم ١١٧/٢، والبيهقي في «الدلائل» ١٤٢/٥. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٨٠/٦ وقال: رواه أحمد، والبزار والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير الحارث بن حصيرة وهو ثقة. وصحح إسناده الشيخ أحمد شاکر في تعليقه على المسند رقم (٤٣٣٦). وفيه نظر، فإن عبد الرحمن سمع من أبيه ابن مسعود أحرفاً يسيرة وعامة ما يرويه عن أبيه مرسل، والذي في الصحيح أن العباس هو الذي نادى.

عليّ وحزمة إياهما، فقلت: اليوم أدرك ثأري منه. قال: فذهبت لأجيته عن يمينه، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً، عليه درعٌ بيضاء كأنها فضة، يكشف عنها العجاج، فقلت: عمُّه ولن يخذله. قال: فنجته عن يساره، فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فقلت: ابنُ عمه ولن يخذله. فنجته من خلفه، فلم يبقَ إلا أن أسوره سوزةً بالسيف، إذ رُفِعَ لي شواظ من نار بيني وبينه، كأنه برق، فخفت أن تمحّسني، فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقري، فالتفت رسول الله ﷺ وقال: يا شيب، يا شيب، ادن مني، اللهم أذهب عنه الشيطان. قال: فرفعت إليه بصري، ولهو أحبُّ إليّ من سمعي وبصري، فقال: يا شيب، قاتل الكفار^(١). رواه البيهقي من حديث الوليد، فذكره.

[٣٤٩٤] ثم روى من حديث أيوب بن جابر، عن صدقة بن سعيد، عن مصعب بن شيبة، عن أبيه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، والله ما أخرجني إسلام، ولا معرفة به، ولكني أبيتُ أن تظهر هوازن على قريش، فقلت وأنا واقف معه: يا رسول الله، إنني أرى خيلاً بلقاً، فقال: يا شيبة، إنه لا يراها إلا كافر. فضرب بيده على صدري، ثم قال: اللهم اهد شيبة، ثم ضربها الثانية، ثم قال: اللهم، اهد شيبة، ثم ضربها الثالثة ثم قال: اللهم اهد شيبة. قال: فوالله ما رفع يده عن صدري في الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحبُّ إليّ منه، وذكر تمام الحديث، في التقاء الناس وانهزام المسلمين ونداء العباس، واستنصار رسول الله ﷺ حتى هزم الله المشركين^(٢).

[٣٤٩٥] وقال محمد بن إسحاق: حدثني أبي إسحاق بن يسار، عن حدثه، عن جبير بن مطعم - رضي الله عنه - قال: إننا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين، والناس يقتتلون، إذ نظرت إلى مثل البجاد الأسود يهوي من السماء، حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور قد ملا الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة^(٣). وقال سعيد بن السائب بن يسار، عن أبيه قال: سمعت يزيد بن عامر السؤاني - وكان شهد حنيناً مع المشركين ثم أسلم بعد - فكنا نسأله عن الرعب الذي ألقى الله في قلوب المشركين يوم حنين، فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطنست فيطن، فيقول: كنا نجد في أجوافنا مثل هذا^(٤). وقد تقدم له شاهد من حديث الفهري يزيد بن أسيد، فالله أعلم.

[٣٤٩٦] وفي صحيح مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن همام قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُوتِيْتُ جِوَامِعَ الْكَلِمِ»^(٥)، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾. وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾، قد تاب الله على

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ١٤٥/٥ وإسناده ضعيف لضعف أبي بكر الهنلي.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ١٤٥/٥ - ١٤٦، وهو ضعيف، له علتان: أيوب بن جابر وشيخه صدقة بن سعيد، كلاهما واه.

(٣) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ١٤٦/٥ عن ابن إسحاق بهذا الإسناد، وهو ضعيف لجهالة الواسطة بين إسحاق ابن يسار وجبير بن مطعم. لكن له شواهد.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/٢٣٧ - ٢٣٨ رقم ٦٢٣ وقال الهيثمي في المجمع ٦/١٨٣: رواه الطبراني، ورجاله ثقات. وهزه في المطالب العالية رقم ٤٣٧١ لعبد بن حيد.

(٥) صحيح أخرجه مسلم ٥٢٣ ح ٨ وأحمد رقم ٧٦٢٠، وعبد الرزاق في مصنفه ٢٠٠٣٣ عن أبي هريرة.

بقية هوازن، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجِعْرَانَة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوماً، فعند ذلك خيّرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فرده عليهم، وقسم أموالهم بين الغانمين، ونفل أناساً من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مئة مئة من الإبل، وكان من جملة من أعطى مئة مالك بن عوف النَّصْرِي، واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

مَا إِنْ زَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ بِمِثْلِ مُحَمَّدٍ
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلجَزِيلِ إِذَا اجْتَدِي وَمَتَى تَشَأُ يُخْبِرُكَ عَمَّا فِي عَدِي
وَإِذَا الكَنْيَبَةُ عَزَدَتْ أَنْيَابَهَا بِالسُّنْهَرِيِّ وَضُرْبِ كُلِّ مُهَنْدٍ
فَكَأَنَّهُ لَيْتَ عَلَى أَشْبَالِهِ وَسَطَ الهَبَاءِ خَادِرٌ فِي مَرْصِدِ

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَنِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

أمر تعالى عبادة المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين، الذين هم نجس ديناً، عن المسجد الحرام، وألا يقربوه بعد نزول هذه الآية. وكان نزولها في سنة تسع.

[٣٤٩٧] ولهذا بعث رسول الله ﷺ علينا صحبة أبي بكر - رضي الله عنهما - عامئذ، وأمره أن ينادي في المشركين: الأيحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان^(١). فاتم الله ذلك، وحكم به شرعاً وقدرأ. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾: إلا أن يكون عبداً، أو أحداً من أهل الذمة.

[٣٤٩٨] وقد روي مرفوعاً من وجه آخر: فقال الإمام أحمد: حدثنا حُسين، حدثنا شريك، عن الأشعث - يعني ابن سوار - عن الحسن، عن جابر قال: قال النبي ﷺ: ﴿لا يدخل مسجدنا بعد عامنا هذا مشرك، إلا أهل العهد وخدمهم﴾^(٢). تفرد به أحمد مرفوعاً، والموقوف أصح إسناداً.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهييه قول الله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ﴾. وقال عطاء: الحرم كله مسجد، لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾. ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك.

(١) صحيح. أخرجه أحمد رقم ٥٩٤، والحميدي ٤٨، والدارمي ١٩١٩، والترمذي ٨٧١ و٨٧٢ و٣٠٩٢ وأبو يعلى ٤٥٢، والبيهقي ٢٠٧/٩ من حديث علي بن أبي طالب وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند وكذا شعيب الأرنؤوط. وتقدم.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٣٣٩/٣ و٣٩٢. وقال في المجمع ١٠/٤: رواه أحمد وفيه أشعث بن سوار وفيه ضعف وقد وثق. قلت: جزم الحافظ في الترتيب: بضعفه، والحسن عن جابر منقطع.

[٣٤٩٩] كما وَرَدَ في الصحيح: «المؤمن لا ينجس»^(١). وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات، لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم. وقال أشعث، عن الحسن: من صافحهم فليتوضأ. رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، قال ابن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا: لتنتقم عننا الأسواق، ولتهلكن التجارة، وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق، فنزلت: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، من وجه غير ذلك. ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَاعِرُونَ﴾، أي: إن هذا عرض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله مما قُطِعَ بامر الشرك، وما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب، من الجزية. وهكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾، أي: بما يصلحكم، ﴿حَكِيمٌ﴾، أي: فيما يأمر به وينهى عنه، لأنه الكامل في أفعاله وأقواله، العادل في خلقه وأمره، تبارك وتعالى. ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة، فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(٢). فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد - صلوات الله وسلامه عليه - لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاؤوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً، لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد - صلوات الله عليه - لأن جميع الأنبياء بشروا به، وأمروا باتباعه، فلما جاء كفروا به، وهو أشرف الرسل، عُلم أنهم ليسوا متمسكين بشرح الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم، ولهذا قال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾. وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب، بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا. فلما استقامت جزيرة العرب، أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابيين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع، ولذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم، ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فأزعبوا معه، واجتمع من المقاتلة نحو ثلاثين ألفاً، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جدب، ووقت قيظ وحر، وخرج عليه السلام يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك فنزل بها وأقام على مائتي قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله في الرجوع، فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله. وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، أو من أشبههم كالمجوس.

[٣٥٠٠] كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر^(٢). وهذا مذهب الشافعي،

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٨٣ ومسلم ٣٧١، وابن أبي شيبة ١٧٣/١، وأحمد ٢٣٥/٢ و٣٨٢ و٤٧١ وأبو داود ٢٣١، والترمذي ١٢١ والنسائي ١٤٥/١، وأبو عوانة ٢٧٥/١ وابن حبان ١٢٥٩ عن أبي هريرة مرفوعاً، وله قصة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٥٦ وأبو داود ٣٠٤٣ وأبو يعلى ٨٦١ من حديث عبد الرحمن بن عوف.

وأحمد - في المشهور عنه - وقال أبو حنيفة رحمه الله: بل تؤخذ من جميع الأعاجم، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب.

وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي، ومجوسي، ووثني، وغير ذلك. ولما أخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا، والله أعلم. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْطُغُوا الْبِحْرَيْنِ﴾ أي: إن لم يسلموا، ﴿عَنْ يَدَيْهِ﴾، أي: عن قهر لهم وغلبة، ﴿وَهُمْ صَاحِبُونَ﴾، أي: ذليلون حقيرون مهانون. فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صَفْرَةَ أَشْقِيَاءَ.

[٣٥٠١] كما جاء في صحيح مسلم، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه»^(١). ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - تلك الشروط المعلومة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم.

[٣٥٠٢] وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ، من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين صالح نصارى من أهل الشام: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائعنا، وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة، ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما حُرب منها، ولا نحبي منها ما كان حُطط المسلمين، وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ينزل من مرتنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نُؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نُظهر شركاً، ولا ندعو إليه أحد، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نُوقر المسلمين، وأن نُقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم، في قلنسوة، ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكتابهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا نُنقش خواتمنا بالعربية، ولا نبيع الخمر. وأن نُجزّ مقادير رؤوسنا، وأن نلزم زيننا حيثما كنا، وأن نُشدّ الزنانير على أوساطنا، وألا نظهر الصليب على كنائسنا، وألا نظهر صليباً ولا كُتبتاً في شيء من طريق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانين ولا بعوثاً، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نُرشد المسلمين، ولا نُطّلع عليهم في منازلهم. قال: فلما أتيت عمر بالكتاب، زاد فيه: ولا نُضرب أحداً من المسلمين، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا، فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَتَلَّهُمْ اللَّهُ أَنْ يَأْتُوا بَأْسَكُمْ فَإِذَا هُمْ خَالِدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أَخَذُوا أَحْبَابَهُمْ

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢١٦٧، وأحمد ٨٥٤٢، و٩٨٨١، وأبو داود ٥٢٠٥، والترمذي ١٦٠٢. وتقدم.

وَرَهْبَتُهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا
لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

وهذا إغراء من الله - تعالى - للمؤمنين على قتال المشركين الكفار من اليهود والنصارى، لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة، والفرية على الله تعالى، فأما اليهودُ فقالوا في الغزير: إنه ابن الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً. وذكر السدي وغيره أن الشبهة التي حصلت لهم في ذلك، أن العمالقة لما غلبت على بني إسرائيل، فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم، بقي الغزير يبكي على بني إسرائيل وذهاب العلم منهم، حتى سقطت جفون عينيه، فبينما هو ذات يوم إذ مرَّ على جبانته، وإذا امرأة تبكي عند قبر وهي تقول: وامطعماه! واكاسياه! فقال لها: ويلك، ويحك! من كان يطعمك قبل هذا؟ قالت: الله. قال: فإن الله حي لا يموت! قالت: يا غزير فمن كان يعلم العلماء قبل بني إسرائيل؟ قال: الله. قالت: فلم تبكي عليهم؟، فعرف أنه شيء قد وعظ به. ثم قيل له: اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه، وصلِّ هناك ركعتين، فإنك ستلقى هناك شيخاً، فما أطعمك فكله. فذهب ففعل ما أمر به، فإذا شيخ فقال له: افتح فمك. ففتح فمه، فألقى فيه شيئاً كهيئة الجمرة العظيمة، ثلاث مرّات، فرجع غزير وهو من أعلم الناس بالتوراة، فقال: يا بني إسرائيل، قد جتتكم بالتوراة. فقالوا: يا غزير ما كنت كذاباً. فعمد فربط على إصبع من أصابعه قلماً، وكتب التوراة بأصبعه كلها، فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء، أخبروا بشأن غزير، فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال، وقابلوها بها، فوجدوا ما جاء به صحيحاً، فقال بعض جهلتهم: إنما صنع هذا لأنه ابن الله. وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، أي: لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلاقهم، ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: يشابهون ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبلهم من الأمم، ضلوا كما ضل هؤلاء، ﴿فَتَنَلَّهُمُ اللَّهُ﴾ - قال ابن عباس: لعنهم الله، ﴿أَن يَوْفُقُونَ﴾، أي: كيف يضلون عن الحق، وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل!؟ ﴿أَتَعْبُدُوا أَجْبَارَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾.

[٣٥٠٣] روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن جرير من طرق، عن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرأى إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأبترت أخته وجماعة من قومه، ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما، فرجعت إلى أخيها، ورعبت في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عدي المدينة، وكان رئيساً في قومه طيء، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدمه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿أَتَعْبُدُوا أَجْبَارَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، قال فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم. وقال رسول الله ﷺ: «يا عدي، ما تقول: أيفرك؟ أيفرك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يفرك؟ أيفرك أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله إلا الله؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم، وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال: إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون^(١). وهكذا قال حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٣٠٩٥ والطبري ١٦٦٣١ و١٦٦٣٢ والطبراني ٩٢/٧ من حديث عدي بألفاظ متقاربة وقال الترمذي: غريب. وغطف ليس بمعروف. قلت: تابعه غير واحد على عامة هذه المتن. وانظر «أحكام القرآن» ١١٠٤ لابن العربي بتخريري.

عباس، وغيرهما في تفسير: ﴿أَتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُفِقَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾: إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا. وقال السدّي: استنصحو الرجال، وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَسْرَوْا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾، أي: الذي إذا حُرِّم الشيء فهو الحرام، وما حلَّه حلٌّ، وما شرَّعه أثبَح، وما حَكَم به نَفَذ. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: تعالى وتقدَّس وتنزَّه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾، أي: ما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافتراءتهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس، أو نور القمر بتفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسوله لا بُدَّ أن يتم ويظهر، ولهذا قال - تعالى - مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. والكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ومنه سُمي الليل كافراً، لأنه يستر الأشياء، والزراع كافراً، لأنه يغطي الحب في الأرض، كما قال: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنِجَاتِهِ﴾ [الحديد: ٢٠] (١). ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾، فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع. ودين الحق: هي الأعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة. ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، أي: على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال:

[٣٥٠٤] «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَلِغُ مَلِكٌ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا» (٢).

[٣٥٠٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن محمد بن أبي يعقوب: سمعت شقيق بن حيان يحدث عن مسعود بن قبيصة - أو: قبيصة بن مسعود - يقول: صَلَّى هَذَا الْحَيُّ مِنْ مُحَارِبِ الصَّبْحِ، فَلَمَّا صَلَّى قَالَ شَابُّ مِنْهُمْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّهُ سَيُفْتَحُ لَكُمْ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا، وَإِنَّ عَمَالَهَا فِي النَّارِ، إِلَّا مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ» (٣).

[٣٥٠٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنا سليم بن عامر، عن تميم الداري - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لِيَلْبَغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرِكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبَرَ إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّينَ، بَعْرُ عَزْرِي، أَوْ بَدَلُ ذَلِيلٍ، عَزْرٌ يَعْرِزُ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلٌّ يَذُلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ» - فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذلُّ والصغارُ والجزية (٤).

[٣٥٠٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربّه، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثني ابن جابر، سمعتُ

(١) في المطبوع «يعجب الكفار بنبأته».

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٨٩ وأبو داود ٤٢٥٢ وأحمد ٢٧٨/٥ وابن حبان ٧٢٣٨. عن ثوبان.

(٣) ضعيف. أخرجه أحمد ٣٦٦/٥ - ٣٦٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٣٣/٥: وفيه شقيق بن حيان قال أبو حاتم: مجهول.

(٤) أخرجه أحمد ١٠٣/٤ والطبراني ١٢٨٠ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٤/٦: ورجاله رجال الصحيح.

سليم بن عامر قال: سمعت المقداد بن الأسود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيتٌ مَدْر ولا وَتْر، إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعزٍّ عزيز، أو ذُلٌّ ذليل، إما يُعزَّهُم الله فيجعلهم أهلها، وإما يُذلُّهم فيُديثون لها»^(١).

[٣٥٠٨] وفي المسند أيضاً: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن ابن عَوْن، عن ابن سيرين، عن أبي حُدَيْفة، عن عَدِي بن حاتم سَمِعَهُ يقول: دخلتُ على رسول الله ﷺ فقال: «يا عدي، أسلم تسلم». فقلت: إني من أهل دين. قال: «أنا أعلم بدينك منك». فقلت: أنت أعلم بديني مني؟! قال: «نعم، ألت من الرُّكوسية»^(٢)، وأنت تأكل مِربع قومك؟. قلت: بلى. قال: «فإن هذا لا يحل لك في دينك». قال: فلم يَعدُ أن قالها فتواضعت لها، قال: «أما إني أعلم ما الذي يمنحك من الإسلام تقول: إنما اتبعه صَعْفَةُ الناس ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد سمعت بها. قال: «فوالذي نفسي بيده ليتَمَنَّ الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتُفْتَحَنَّ كنوزُ كسرى بن هرمز». قلت: كسرى بن هُرْمُز؟! قال: «نعم، كسرى بن هُرْمُز، ولْيُنْذَلَنَّ المال حتى لا يقبله أحد» - قال عَدِي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة، فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله ﷺ قد قالها^(٣).

[٣٥٠٩] وقال مسلم: حدثنا أبو معن زيد بن يزيد الرقائشي، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن الأسود بن العلاء، عن أبي سلمة، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعَبَّدَ اللَّاتُ والعُزَّى». فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظنُّ حين أنزل الله عز وجل: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ»، إلى قوله: «وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل، ثم يبعث الله رجلاً طَيِّبَةً فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حَبَّةِ خردلٍ من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم»^(٤).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفقونها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قال السدي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى. وهو كما قال، فإن الأحبار هم علماء اليهود، كما قال تعالى: «لَوْلَا يَتَّبِعُهُمُ الْوَقِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِ الْآيَةُ وَأَكْبَهُمُ الشَّعْتُ» [المائدة: ٦٣]، والرهبان: عباد النصارى، والقسيسون علماءهم، كما قال تعالى: «ذَلِكَ بِأَن مِنْهُمْ قَبِيلٌ وَهَبْنَاكَ وَأَنْتُمْ لَا تَسْمَعُونَ»

(١) أخرجه أحمد ٤/٦، وقال الهيثمي ١٤/٦: رجاله رجال الصحيح.

(٢) الركوسية: دين بين دين النصارى والصابئين. والمربع: ربع الغنيمة.

(٣) أخرجه أحمد ٤/٣٧٨ والبيهقي في «الدلائل» ٣٤٢/٥، ورجاله ثقات وله طرق كثيرة عن عدي. وأخرجه الحاكم ٥١٨/٤ من وجه آخر دون ذكر الركوسية والمربع، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٠٧ وأبو يعلى ٤٥٦٥.

[المادة: ٨٢]. والمقصود: التحذير من علماء السوء وعِبَاد الضلال، كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبة من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبة من النصارى.

[٣٥١٠] وفي الحديث الصحيح: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذُو الْقَذَى بِالْقَذَى». قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟ - وفي رواية: فارس والروم؟ قال: وَمَنْ النَّاسُ إِلَّا هَوْلَاءُ؟^(١). والحاصل التحذير من التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم، ولهذا قال تعالى: «لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ»، وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأخبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خزج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - استمرؤا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة، وسلبهم إياها، وعرضهم بالذلة والمسكنة، وبأوا بغضب من الله تعالى.

وقوله تعالى: «وَيَصْدُرُونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ»، أي: وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون. وقوله: «وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»، هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العباد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، كما قال بعضهم: **وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ وَأَحْبَارُ سُوءِ وَرُهْبَانُهَا؟**

وأما الكثر فقال مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنه قال: هو المال الذي لا تؤدي منه الزكاة.

[٣٥١١] وروى عن الثوري وغيره عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: ما أدي زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهراً لا تؤدي زكاته فهو كنز. وقد روي هذا عن ابن عباس، وجابر، وأبي هريرة موقوفاً ومرفوعاً، وعمر بن الخطاب، نحوه - رضي الله عنهم -: أيما مال أديت زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفوناً في الأرض، وأيما مال لم تؤدي زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض. وروى البخاري من حديث الزهري، عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر، فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة؛ فلما نزل جعلها الله طهراً للأموال. وكذا قال عمر بن عبد العزيز، وعزالك بن مالك: نسخها قوله تعالى: «حُذِّمْنَ أَمْوَالَهُنَّ صَدَقَةً» الآية.

[٣٥١٢] وقال سعيد، عن محمد بن زياد، عن أبي أمامة أنه قال: حلية السيوف من الكنز، ما أخذتكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ. وقال الثوري، عن أبي حصين، عن أبي الضحى، عن جعدة بن هبيرة،

(١) هو في الصحيح دون قوله «حذو القذة بالقذة» فقد أخرجه البخاري ٣٤٥٦ و ٧٣٢٠ ومسلم ٢٦٦٩ وأحمد ٨٤/٣ وابن حبان ٦٧٠٣ من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال «لتبعين سنن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟». وأخرجه أيضاً البخاري ٧٣١٩ وابن ماجه ٣٩٩٤ وأبو يعلى ٦٢٩٢ من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر، وذراعاً بذراع فقيل: يا رسول الله، كفارس والروم. فقال: ومن الناس إلا أولئك». أما قوله «حذو القذة بالقذة» فهو في مسند أحمد ١٢٥/٤ و«الشريعة» لأجري ٣٠ من حديث شداد بن أوس.

عن علي - رضي الله عنه - قال: أربعة آلاف فما دونها نفقة، فما كان أكثر منه فهو كثر^(١). وهذا غريب. وقد جاء في مدح التقلل من الذهب والفضة وذم التكثُر منهما، أحاديث كثيرة؛ وتُورِدُ منها هنا طرفاً يدل على الباقي.

[٣٥١٣] فقال عبد الرزاق: [عن منصور، عن عمرو بن مرة، عن سالم بن أبي الجعد قال: لما نزلت هذه الآية^(٢) ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُؤْتُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، قال النبي ﷺ: تَبَأُ لِلذَّهَبِ تَبَأٌ لِلْفِضَّةِ، بقولها ثلاثاً، قال؛ فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: قَائِي مال نتخذ؟ فقال عمر - رضي الله عنه: أنا أعلم لكم ذلك، فقال: يا رسول الله، إن أصحابك قد شق عليهم، وقالوا: قَائِي المال نتخذ؟ قال: لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة تعين أحدكم على دينه^(٣).

[٣٥١٤] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثني سالم، حدثني عبد الله بن أبي الهذيل، حدثني صاحب لي أن رسول الله ﷺ قال: تَبَأُ لِلذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ - قال: فحدثني صاحبي أنه انطلق مع عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، قولك: تَبَأُ لِلذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، ماذا ندخر؟ قال رسول الله ﷺ: لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة تُعين على الآخرة^(٤).

[٣٥١٥] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبد الله بن عمرو بن مُرَّة، عن أبيه، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان قال: لما نزل في الفضة والذهب ما نزل قالوا: قَائِي المال نتخذ؟ قال عُمرُ: أنا أعلم ذلك لكم. فأوضح على بعير فأدركه، وأنا في أثره، فقال: يا رسول الله، أَيُّ المال نتخذ؟ قال: ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً، وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة^(٥). ورواه الترمذي، وابن ماجه، من غير وجه، عن سالم بن أبي الجعد، وقال الترمذي: حسن، وحكي عن البخاري أن سالمًا لم يسمعه من ثوبان. قلت: ولهذا رواه بعضهم عنه مرسلًا، والله أعلم.

[٣٥١٦] حديث آخر، قال ابن أبي حاتم: حدثنا حميد بن مالك، حدثنا يحيى بن يعلى المحاربي، حدثنا أبي، حدثنا غيلان بن جامع المحاربي، عن عثمان بن أبي اليقظان، عن جعفر بن إياس، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾... الآية، كَبُرَ ذلك على المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحد منا أن يترك لولده مالاً يبقى بعده. فقال عمر: أنا أفزج عنكم، فانطلق عمر واتبعه ثوبان، فأتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، إنه قد كَبُرَ على أصحابك هذه الآية، فقال نبي الله ﷺ.

(١) الراجح وقفه، أخرجه البيهقي ٨٢/٢ بإسناد صحيح عن ابن عمر موقوفاً، وقال: هذا هو الصحيح موقوف، وقد رواه سويد بن عبد العزيز، وليس بالقوي، مرفوعاً، ثم ساق إسناده اهـ وسويد هذا ضعيف متروك الحديث. وتويع، فقد أخرجه البيهقي ٨٣/٢ من وجه آخر عن ابن عمر مرفوعاً، وقال: ليس هذا بمحفوظ، والمشهور عن ابن عمر موقوفاً اهـ، وفي إسناده محمد بن كثير المصيصي الثقفي، وهو ضعيف، فالراجح فيه الوقف كما قال البيهقي رحمه الله. والله أعلم.

(٢) وقع في المطبوع: «أخبرنا الثوري، أخبرني أبو حصين عن أبي الضحى عن جعدة بن هبيرة عن علي رضي الله عنه في قوله» وهذا إسناد الحديث السابق، والتصويب من «تفسير عبد الرزاق» ١٠٧٦.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ١٠٧٦ والطبري ١٦٦٧٦ و١٦٦٧٧ وهذا مرسل، رجاله ثقات مشاهير.

(٤) أخرجه أحمد ٣٦٦/٥ وفيه راوٍ لم يسم فالإسناد ضعيف، وانظر ما بعده.

(٥) منقطع. أخرجه الترمذي ٣٠٩٤ وابن ماجه ١٨٥٦ وأحمد ٢٨٢/٥ وأبو نعيم ١٨٣/١ وقال البوصيري: قال الترمذي: سألت البخاري، فقلت له: سالم بن أبي الجعد سمع من ثوبان؟ فقال: لا.

«إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فَرَضَ الموارث من أموال تبقى بعدكم». قال: فكبر عمر، ثم قال له النبي ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكتز المرأة الصالحة التي إذا نظرت إليها سرتها، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته»^(١). ورواه أبو داود، والحاكم في مستدركه، وابن مَرزُويه من حديث يحيى بن يعلى، به. وقال الحاكم: صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه.

[٣٥١٧] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا الأزاعي، عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس - رضي الله عنه - في سفر، فنزل منزلاً، فقال لغلامه: اتنا بالشفرة نعبث بها. فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطئها وأزعمها غير كلمتي هذه، لا تحفظوها علي، واحفظوا ما أقول لكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكثروا هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُرُوعًا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾، أي: يقال لهم هذا الكلام تبيكياً وتقريعاً وتهكماً، كما في قوله: ﴿ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنَ عَذَابِ الْحَبِيرِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٨ - ٤٩]، أي: هذا بذاك، وهو الذي كنتم تكنزون لأنفسكم. ولهذا يقال: من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله، عذب به. وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم، عذبوا بها، كما كان أبو لهب لعنه الله جاهداً في عداوة الرسول ﷺ وامرأته تعينه في ذلك، كانت يوم القيامة عوناً على عذابه أيضاً ﴿فِي جِيدِهَا﴾، أي: عنقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَكٍ﴾ [السد: ٥]، أي: تجمع من الحطب في النار وتلقي عليه، ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه - كان - في الدنيا، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها، كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة، فيحصى عليها في نار جهنم، وناهيك بحرهما، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

[٣٥١٨] قال سفيان، عن الأعمش، عن عبد الله بن عمرو بن مَرزُوة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود: والله الذي لا إله غيره، لا يكوى عبد بكنز، فَمَسَّ ديناراً ديناراً، ولا درهم درهماً، ولكن يوسع جلده، فيوضع كل دينار ودرهم على حذته^(٣). وقد رواه ابن مَرزُويه، عن أبي هريرة مرفوعاً، ولا يصح رفعه^(٤)، والله أعلم. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه قال: بلغني أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعاً يتبع صاحبه، وهو يفر منه ويقول: أنا كنزك! لا يدرك منه شيئاً إلا أخذه.

(١) أخرجه أبو داود ١٦٦٤ والحاكم ٣٣٣/٢ وأبو يعلى ٢٤٩٩ والبيهقي ٨٣/٤ وإسناده ضعيف، لضعف عثمان ابن عمير، وله علة ثانية جمفر بن إياس كان شعبة يطعن في حديثه عن مجاهد، والحديث صححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: عثمان لا أعرفه، والخبر عجب اهـ.

(٢) أخرجه أحمد ١٢٣/٤ وفيه روح بن عبادة فيه كلام، والمتن غريب. وأخرجه أيضاً الطبراني ١١٧٢ من حديث البراء، وإسناده ضعيف فيه موسى بن مطير، وهو متروك كما في «المجمع» ١٧٣/١٠.

(٣) موقوف حسن، رجاله ثقات.

(٤) هو الآتي برقم ٣٥٢٧.

[٣٥١٩] وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن معدان بن أبي طلحة، عن ثوبان أن نبي الله ﷺ كان يقول: من ترك بعده كنزاً مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان، يتبعه، يقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذي تركته بعدك! ولا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضهما ثم يتبعها سائر جسده^(١). ورواه ابن حبان في صحيحه، من حديث يزيد، عن سعيد، به. وأصل هذا الحديث في الصحيحين من رواية أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٣٥٢٠] وفي صحيح مسلم، من حديث سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله، إلا جعل يوم القيامة صفائح من نار يكوى بها جنبه وجبته وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين الناس، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»^(٢). . . وذكر تمام الحديث.

وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن حصين، عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالربيعة، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض، قال: كنا بالشام، فقرأت: ﴿وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ الذَّهَبَ وَالْأَفْصَةَ وَلَا يُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، فقال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا في أهل الكتاب! قال قلت: إنها لفينا وفيهم. ورواه ابن جرير من حديث عتب بن القاسم، عن حصين، عن زيد بن وهب، عن أبي ذر - رضي الله عنه - فذكره وزاد: فارتفع في ذلك بيني وبينه القول، فكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إلي عثمان أن أقبل إليه، قال: فأقبلت، فلما قدمت المدينة ركبني الناس كأنهم لم يروني قبل يومئذ، فشكوت ذلك إلى عثمان، فقال لي: تنح قريباً قلت: والله لن أدع ما كنت أقول. قلت: كان من مذهب أبي ذر - رضي الله عنه - تحريم أذخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يفتي بذلك، ويحثهم عليه، ويأمرهم به، ويغلظ في خلافه، فنهاه معاوية فلم ينته، فخشى أن يضمر بالناس في هذا، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان، وأن يأخذه إليه، فاستقدمه عثمان إلى المدينة، وأنزله بالربيعة وحده، وبها مات - رضي الله عنه - في خلافة عثمان وقد اختبره معاوية - رضي الله عنه - وهو عنده، هل يوافق عمله قوله؟ فبعث إليه بألف دينار، ففرقها من يومه، ثم بعث إليه الذي أتاه بها فقال: إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت، فهات الذهب! فقال: ويحك! إنها خزجت، ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به. وهكذا روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنها عامة. وقال السدي: هي في أهل القبلة. وقال الأحنف بن قيس: قدمت المدينة، فبينما أنا في حلقة فيها ملاً من قريش، إذ جاء رجل أخشن الثياب، أخشن الجسد، أخشن الوجه، فقام عليهم فقال: بئس الكنازين برضف^(٣) يحتمى عليه من نار جهنم، فيوضع على حلمة تذي أحدهم حتى يخرج من نفص كتفه، ويوضع على نفص^(٤) كتفه حتى يخرج من حلمة تديه يتزلزل - قال: فوضع القوم رؤوسهم، ما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً. قال: وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية، فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم. فقال: إن هؤلاء لا يعلمون شيئاً.

(١) تقدم في سورة آل عمران عند آية: ١٨٠.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٩٨٧ وأبو داود ١٦٥٨ وأحمد ٢٦٢/٢ و٢٧٦ وابن حبان ٣٢٥٣.

(٣) الرضف: الحجارة المحماة.

(٤) النفص: غضروف الكتف.

[٣٥٢١] وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبي دَرٍّ: «ما يسرني أن عندي مثل أحدٍ ذهباً يمرُّ عليه ثالثةٌ وعندي منه شيء، إلا دينارٌ أرصده لدين»^(١). فهذا - والله أعلم - هو الذي حدا أبا ذر على القول بهذا.

[٣٥٢٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن سعيد بن أبي الحسن، عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه: أنه كان مع أبي دَرٍّ، فخرج عطاؤه ومعه جارية له، فجعلت تقضي حوائجه، ففضلت معها سبعة، فأمرها أن تشتري به فلوساً. قال: قلت: لو ادخرته للحاجة تتوبك وللضيف ينزل بك! قال: إن خليلي عهد إلي أن أيما ذهب أو فضة أوكي عليه، فهو جمر على صاحبه، حتى يفرغه في سبيل الله عز وجل^(٢). ورواه عن يزيد، عن همام، به. وزاد: إفراغاً.

[٣٥٢٣] وقال الحافظ ابن عساكر بسنده إلى أبي بكر الشبلي في ترجمته، عن محمد بن مهدي: حدثنا عمر بن أبي سلمة، عن صدقة بن عبد الله، عن طلحة بن زيد، عن أبي فروة الزهاوي، عن عطاء، عن أبي سعيد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «التي الله فقيراً ولا تلقه غنياً». قال: يا رسول الله، كيف لي بذلك؟ قال: «ما سئلت فلا تمنع، وما رزقت فلا تخبأ». قال: يا رسول الله، كيف لي بذلك؟ قال رسول الله ﷺ: «هو ذاك وإلا فالنار»^(٣). إسناده ضعيف.

[٣٥٢٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا عيينة، عن بُرَيْدِ بْنِ أَسْرَمَ قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: مات رجل من أهل الصُّفَّة، وترك دينارين - أو: درهمين - فقال رسول الله ﷺ: كَيْتَانِ، صلوا على صاحبكم^(٤). وقد روي هذا من طرقٍ أخرى.

[٣٥٢٥] وقال قتادة عن شهر بن حوشب، عن أبي أمامة صدي بن عجلان قال: مات رجل من أهل الصُّفَّة، فوجد في منزله دينار، فقال رسول الله ﷺ: «كَيْة! ثم توفي رجل آخر فوجد في منزله ديناران، فقال رسول الله ﷺ: كَيْتَانِ»^(٥).

[٣٥٢٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الفَرَادِيسِي، حدثنا معاوية بن يحيى الأَطْرَابَلِيسِي، حدثني أَرْطَاءُ، حدثني أبو عامر الهَوْزَنِي، سمعت ثُوبَانَ مولى رسول الله ﷺ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٣٨٨ ومسلم ٩٩١ ح ٣٢ والترمذي ٢٦٤٤ وأحد ١٥٢/٥ وابن حبان ٣٣٢٦.

(٢) حسن. أخرجه أحد ١٧٦/٥ ورجاله ثقات، رجال البخاري ومسلم.

(٣) إسناده ضعيف جداً، طلحة بن زيد هو الزقي. قال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك. وقال علي المدني: يضع الحديث، وورد من حديث بلال أخرجه الدليمي ١٧٦٩ وزاد العراقي في تخريج «الإحياء» نسبته للحاكم في كتاب «علامات أهل التحقيق»، وقال: إسناده ضعيف.

(٤) حسن لشواهد. أخرجه أحد ١٠١/١ ح ٧٨٩ وابنه ١١٥٩ و١١٦٩ والبخاري ٣٦٥١ من حديث علي، وإسناده ضعيف، فيه عتية الضرير مجهول، قاله في «المجمع» ١٧٧٦٤.

ورود من حديث ابن مسعود أخرجه أحد ٤١٢/١ - ٤٥٧ وأبو يعلى ٥٠٣٧ والبخاري ٣٦٥٢ قال الهيثمي ١٧٧٦٥: فيه عاصم بن بهدلة وثقه غير واحد، وبقية رجاله وثقوا له ويشهد له ما بعده.

(٥) جيد. أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ١٠٧٨ وأحد ٢٥٢/٥ و٢٥٣ والطبري ١٦٦٨ والطبراني ٧٥٧٣ من حديث أبي أمامة وفي إسناده شهر بن حوشب، وحديثه حسن في الشواهد، قال الهيثمي في «المجمع» ٢٣٩/١٠ - ٢٤٠ رواه أحمد بأسانيد، ورجال بعضها رجال الصحيح غير شهر بن حوشب، وقد وثق له.

قال: ما من رجل يموت وعنده أحمرٌ أو أبيضٌ، إلا جعل الله بكل قيراطٍ صفحةً من نارٍ يُكوى بها من قدمه إلى ذقنه^(١).

[٣٥٢٧] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمود بن خدّاش، حدثنا سيف بن محمد الثوري، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يوضع الدينار على الدينار، ولا الدرهم على الدرهم، ولكن يُوسّع جلده فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكذبون»^(٢). سيف هذا: كذاب، متروك.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الْدِينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

[٣٥٢٨] قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، أخبرنا أيوب، أخبرنا محمد بن سيرين، عن أبي بكر: أن النبي ﷺ خطب في حجّته، فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. ثم قال: ألا أتى يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيُسَمِّيهِ بغير اسمه، قال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى. ثم قال: أتى بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيُسَمِّيهِ بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟»، قلنا: بلى. ثم قال: «أي شهر هذا؟». قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيُسَمِّيهِ بغير اسمه، قال: وأحسبه قال: وأعراضكم - عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ ألا ليلنغ الشاهد منكم الغائب منكم، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه»^(٣). ورواه البخاري في التفسير وغيره، ومسلم من حديث أيوب، عن محمد - وهو ابن سيرين - عن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه به.

[٣٥٢٩] قال ابن جرير: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا روح، حدثنا أشعث، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، ورجب مضر، بين جمادى وشعبان»^(٤). ورواه البزار، عن محمد بن معمر، به. ثم

(١) إسناده ضعيف، فيه إسحاق بن إبراهيم الفراءيسي غير قوي، وشيخه معاوية بن يحيى وثقه غير واحد، وضعفه البغوي والدارقطني، وقال: هو أكثر مناكير من الصدفيّ اهـ.

(٢) في إسناده سيف بن محمد الثوري متهم بالكذب، كما ذكر ابن كثير، والصواب أنه موقوف. كما تقدم برقم ٣٥١٨. أنه موقوف على ابن مسعود.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ١٧٤١ و٤٤٠٦ ومسلم ١٦٧٩ وأبو داود ١٩٤٨ وابن ماجه ٢٣٣ وأحمد ٣٧/٥ و٣٩ وابن حبان ٣٨٤٨.

(٤) متن صحيح. أخرجه الطبري ١٦٧٠٠ وإسناده غير قوي لأجل أشعث، وهو ابن سوار، لكن للمتن شواهد.

قال: لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه، وقد رواه ابن عون وثقة وابن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، به.

[٣٥٣٠] وقال ابن جرير، أيضاً: حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي، حدثنا زيد بن حباب، حدثنا موسى بن عبيدة الرُبَدي، حدثني صدقة بن يسار، عن ابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق فقال: «أيها الناس، إن الزمان قد استدار، فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، أولهن رَجَبُ مضر بين جمادى وشعبان، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم»^(١). وروى ابن مَرزُويه من حديث موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، مثله أو نحوه.

[٣٥٣١] وقال حماد بن سلمة: حدثني علي بن زيد، عن أبي حرة الرقاشي، عن عمه - وكانت له صحبة - قال: كنت أخذاً بزمام ناقة رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق، أذود الناس عنه، فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم»^(٢).

وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معاوية، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمِنهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ﴾، قال: محرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة.

وقوله ﷺ في الحديث: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»، تقرير منه - صلوات الله وسلامه عليه - وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل.

[٣٥٣٢] كما قال في تحريم مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»، وهكذا قال ما هنا: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»^(٣)، أي: الأمر اليوم شرعاً كما ابتدأ الله في ذلك في كتابه يوم خلق السموات الأرض.

وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث: إن المراد بقوله: «قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»، إنه اتفق أن حج رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة، وأن العرب قد كانت نسأت النسيء، يحجون في كثير من السنين، بل أكثرها، في غير ذي الحجة، وزعموا أن حجة الصديق في سنة تسع كانت في ذي القعدة. وفي هذا نظر، كما سئبته إذا تكلمنا على النسيء. وأغرب منه ما رواه الطبراني، عن بعض السلف، في جملة حديث: أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد، وهو يوم النحر، عام حجة الوداع، والله أعلم.

فصل: ذكر الشيخ علم الدين السخاوي^(٤) في جزء جمعه سماه «المشهور في أسماء الأيام والشهور»: أن

(١) صحيح. أخرجه الطبري ١٦٦٩٩ وفي إسناده موسى بن عبيدة الرُبَدي ضعيف، لكن للمتن شواهد.

(٢) متن صحيح. إسناده ضعيف لضعف علي بن زيد، لكن للمتن شواهد.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٦.

(٤) هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري السخاوي الشافعي، عالم بالقراءات والأصول واللغة والتفسير، سكن دمشق وتوفي فيها سنة ٦٤٣ هـ. له عدة مؤلفات.

المحرم سمي بذلك لكونه شهراً محرماً، وعندني أنه سمي بذلك تأكيداً لتحريمه، لأن العرب كانت تتلعب به، فتحله عاماً وتحرمه عاماً. قال: ويجمع على محرمات، ومحارم، ومحاريم. صفر: سمي بذلك لخلو بيوتهم منهم، حين يخرجون للقتال والأسفار، يقال: صَفَرُ المكان: إذا خلا، ويجمع على أصفار كَجَمَل وأجمال. شهر ربيع الأول: سمي بذلك لارتباعهم فيه، والارتباع: الإقامة في عمارة الرِّيع. ويجمع على أربِعاء كنعيب وأنصاء وعلى أربِعة، كرعيف وأزغفة. ربيع الآخر: كالأول. جمادى: سمي بذلك لجمود الماء فيه. قال: وكانت الشهورُ في حسابهم لا تدور. وفي هذا نظر؛ إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة، ولا بد من دورانه، فلعلهم سمّوه بذلك، أول ما سُمِّي عند جمود الماء في البرد، كما قال الشاعر:

وَلَيْلَةٌ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أُنْدِيَةِ لَا يُبْصِرُ الْعَبْدُ فِي ظُلُمَائِهَا الطُّنْبَا
لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ حَتَّى يَلْفَ عَلَى خُرْطُومِهِ الذُّنْبَا

ويُجمع على جُمَادِيَات، كحبارى وحَبَارِيَات، وقد يذكر ويؤنث، فيقال: جمادى الأولى والأولى، وجمادى الآخر والأخرة. رَجَب: من الترجيب، وهو التعظيم، ويجمع على أرجاب، ورجاب، وزَجَبَات. شعبان: من تَشَعُّبِ القبائل وتَفَرُّقِها للغارة ويجمع على شَعَابِين وشَعْبَانَات. رمضان: من شدة الرمضاء، وهو الحر، يقال: رَمَضَتِ الفصالُ: إذا عَطِشَتْ، ويجمع على رَمَضَانَات ورَمَاضِين وأرْمَضَةٌ. قال: وقول من قال: إنه اسم من أسماء الله، خطأ لا يعرَّجُ عليه، ولا يَلْتَمِثُ إليه. قلت: قد وَرَدَ فيه حديث؛ ولكنه ضعيف، وبيته في أول كتاب الصيام. سُؤَالٌ: من شالت الإبل بأذنانها للطراق، قال: ويجمع على سُؤَالٍ وسؤاويل وسؤالات. القعدة: بفتح القاف - قلت: وكسرهما - لِقَعُودِهِمْ فيه عن القتال والتَّرْحَالِ، ويجمع على ذوات القعدة. الحِجَّةُ: بكسر الحاء - قلت: وفتحها - سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه، ويجمع على ذوات الحجة. أسماء الأيام: أولها الأحد، ويجمع على آحاد، وأحاد ووحيد. ثم يوم الاثنين، ويجمع على أثنين. الثلاثاء: يمد، ويُذكَر ويؤنث، ويجمع على ثلاثاوات وأثالث. ثم الأربعاء بالمد، ويجمع على أربعاوات وأرابع. والخميس: يجمع على أخمسة وأخامس. ثم الجمعة - بضم الميم، وإسكانها، وفتحها أيضاً - ويجمع على جُمَع وجُمُعَات. السبت: مأخوذ من السَّبْتِ، وهو القطع، لانتهاء العدد عنده. وكانت العرب تسمي الأيام: أوَّل، ثم أفوَن، ثم جُبَار، ثم دُبَار، ثم مؤنس، ثم العروبة، ثم شِيَار. قال الشاعر، من العرب العرابة المتقدمين:

أرْجِي أَنْ أَعِيشَ وَأَنْ يَسْزُوِي بِأَوَّلِ أَوْ بِأَفْوَنَ أَوْ جُبَارِ
أَوْ التَّلَالِي دُبَارَ فَإِنَّ أَفْتَهُ فَمُؤْنَسَ أَوْ عَرُوبَةَ أَوْ شِيَارِ

وقوله تعالى: ﴿يَتَبَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ﴾، فهذا مما كانت العرب أيضاً في جاهليتها تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم، إلا طائفة منهم يقال لهم: «البسُل»، كانوا يُحَرِّمُونَ من السنة ثمانية أشهر، تعمقاً وتشديداً. وأما قوله: «ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»، فإنما أضافه إلى مضر، ليبين صحة قولهم في رجب: إنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا كما كانت تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم. فبين - عليه السلام - أنه رجب مضر لا رجب ربيعة. وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة، ثلاثة سَرْدٌ وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل شهر الحج شهر، وهو ذو القعدة، لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحُرِّمَ شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهر آخر، وهو المحرم، ليرجعوا

فيه إلى نائي أقصى بلادهم آمنين، وحُرْم رجب في وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتبار به. لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾، أي: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحدُّو بها على ما سبق في كتاب الله الأول. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾، أي: في هذه الأشهر المحرمة، لأنه أكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكْمِ يُظْلَمِ نُفُوسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام، ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي، وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا في حق من قتل في الحرم أو قتل ذا محرم. وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾، قال: في الشهور كلها. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾... الآية، ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾: في كلهن. ثم اخص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراماً، وعظّم حرّمتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم. وقال قتادة في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾: إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء. وقال: إن الله اصطفى صفائاً من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فعظّموا ما عظم الله، فإنما تعظم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل. وقال الثوري، عن قيس بن مسلم، عن الحسن بن محمد بن الحنفية: بأن لا تحرموهن كحرمتهن. وقال محمد بن إسحاق: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾، أي: لا تجعلوا حرامها حلالاً ولا حلالها حراماً كما فعل أهل الشرك، ف ﴿إِنَّمَا لِلَّهِ﴾ الذي كانوا يصنعون من ذلك، ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. وهذا القول اختيار ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾، أي: جميعكم، ﴿كَمَا بَدَّلْنَاكُمْ كَافَّةً﴾، أي: جميعهم، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾. وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام: هل هو منسوخ أو محكم؟ على قولين: أحدهما، وهو الأشهر: أنه منسوخ، لأنه تعالى قال ها هنا: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾، وأمر بقتال المشركين. وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً، فلو كان محرماً في الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها، ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام - وهو ذو القعدة.

[٣٥٣٣] كما ثبت في الصحيحين: أنه خرج إلى هوازن في شوال، فلما كسرهم واستفاه أموالهم، ورجع فأنهم فلدجوا إلى الطائف - عمد إلى الطائف فحاصرها أربعين يوماً، وانصرف ولم يفتتحها^(١). فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام.

والقول الآخر: أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام، وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام، لقوله

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٠٥٩ ح ١٣٦ من حديث أنس بن مالك، وسيأتي.

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]. الآية، وقال: ﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ فَمَنْ آمَنَ عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا آعَدْتُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. الآية، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنْسَخَ الْأَشْهُرَ الْحَرَامَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]. الآية. وقد تقدم أنها الأربعة المقررة في كل سنة، لا أشهر التيسير^(١) على أحد القولين. وأما قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُبَدِّلُونَكُمْ كَافَّةً﴾، فيحتمل أنه منقطع عما قبله، وأنه حكم مستأنف، ويكون من باب التهييج والتحضيض، أي: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضاً لهم إذا حاربتوهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون. ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم، كما قال تعالى: ﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ فَمَنْ آمَنَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ عِدَّةً حَتَّى يَمُنُّوا بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَقْبَلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]. الآية. وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تنمة قتال هوازٍ وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدؤوا القتال، وجمعوا الرجال، ودَعَوْا إلى الحرب والنزال، فعندها قَصَدَهُم رسولُ الله ﷺ كما تقدم، فلما تحصَّنوا بالطائف ذهب إليهم ليُنزِلَهُمْ من حصونهم، فنالوا من المسلمين، وقتلوا جماعةً، واستمرَّ الحصارُ بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً. وكان ابتداءه في شهر حلال، ودخل الشهرُ الحرامُ، فاستمرَّ فيه أياماً، ثم قفلَ عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا أمر مقررٌ، وله نظائرٌ كثيرة، والله أعلم. ولتذكر الأحاديث الواردة في ذلك^(٢). وقد حررنا ذلك في السيرة، والحمد لله.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٧)

هذا مما ذم الله - تعالى - به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله. فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية، ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم وتأخيرها إلى صفر. فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال، ليواطئوا عِدَّةَ الأشهر الأربعة، كما قال شاعرهم، وهو عمير بن قيس المعروف بجذل الطعان:

لَقَدْ عَلِمْتَ مَعَدُّ أَنْ قَوْمِي كَرَامَ النَّاسِ أَنْ لَهُمْ كِرَامَا
السُّنَا النَّاسِئِينَ عَلَى مَعَدِّ شُهُورَ الْحِلِّ نَجْعَلُهَا حَرَامَا
فَأَيُّ النَّاسِ لَمْ تُذْرِكْ بَوْتِرًا؟ وَأَيُّ النَّاسِ لَمْ تُغْلِكْ لَجَامَا؟

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، قال: النسِيءُ أَنْ جُنَادَةَ بن عوف بن أمية الكناني، كان يوافي الموسم في كل عام، وكان يُكْنَى أبا ثُمَامَةَ، فينادي: أَلَا إِنَّ أَبَا ثُمَامَةَ لَا يُحَابُّ وَلَا يُعَابُّ، أَلَا وَإِنْ صَفَرَ الْعَامَ الْأَوَّلَ الْعَامَ حَلَالًا. فيحله للناس، فيحرم صفرًا عامًا، ويحرم المحرم عامًا، فذلك قول الله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿الْكَافِرِينَ﴾. وقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ

(١) المراد بالتيسير ﴿تَيْسِيرًا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

(٢) بعد هذه الفقرة بياض، ولعل المؤلف صرف النظر عن إثبات الأحاديث المذكورة اكتفاءً منه بإيرادها في السيرة النبوية.

زِيَادَةً فِي الْكُفْرِ، يقول: يتركون المحرم عاماً، و عاماً يحرمونه. وروى العوفي، عن ابن عباس نحوه. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: كان رجل من بني كنانة يأتي كُلَّ عام إلى الموسم على جِمَارٍ له، فيقول: أيها الناس، إنني لا أعاب ولا أحاب، ولا مَرَدٌ لما أقول، إنا قد حَرَمْنَا المحرم، وأخرنا صفر. ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته، ويقول: إنا قد حَرَمْنَا صفر، وأخرنا المحرم، فهو قوله: ﴿لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، قال: يعني الأربعة - ﴿فِيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، لتأخير هذا الشهر الحرام. وروي عن أبي وائل، والضحاك، وقتادة، نحو هذا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾... الآية، قال: هذا رجل من بني كنانة يقال له: الْقَلَمَسُ، وكان في الجاهلية. وكانوا في الجاهلية لا يُغَيِّرُ بعضهم على بعض في الشهر الحرام، يلقي الرجل قاتل أبيه ولا يُمَدُّ إليه يده، فلما كان هو، قال: اخْرُجُوا بنا. قالوا له: «هذا المحرم»! قال: نُتَسِّئُهُ العام، هما العام صفران، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما مُحْرَمِينَ. قال: ففعل ذلك، فلما كان عام قابل قال: لا تغزوا في صفر، حرّموه مع المحرم، هما محرمان. فهذه صفة غريبة في النسب، وفيها نظر، لأنهم في عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط، وفي العام الذي يليه يحرمون خمسة أشهر، فأين هي من قوله تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وقد روي عن مجاهد صفة أخرى غريبة أيضاً.

فقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية، قال: فَرَضَ اللهُ - عز وجل - الْحَجَّ فِي ذِي الْحِجَّةِ. قال: وكان المشركون يُسَمُّونَ الأشهر: ذا الحجة، والمحرم، وصفر، وربيع، وربيع، وجُمَادَى، وجُمَادَى، ورَجَب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذا القعدة، وذا الحجة، يحجون فيه مرة أخرى، ثم يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه، ثم يعودون فيسمون صفر، ثم يسمون رجب جمادى الآخرة، ثم يسمون شعبان رمضان، ثم يسمون شوالاً رمضان، ثم يسمون ذا القعدة شوالاً، ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة، ثم يسمون المحرم ذا الحجة، فيحجون فيه، واسمه عندهم ذو الحجة. ثم عادوا بمثل هذه القصة فكانوا يحجون في كل شهر عامين، حتى وافق حجة أبي بكر الآخر من العامين في ذي القعدة. ثم حج النبي ﷺ حجته التي حج فوافق ذا الحجة فذلك حين يقول النبي ﷺ في خطبته: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»، وهذا الذي قاله مجاهد فيه نظر وكيف تصح حجة أبي بكر وقد وقعت في ذي القعدة، وأتى هذا؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِلَّهِ رَسُولَهُ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾... الآية، وإنما نُؤدِّي بذلك في حجة أبي بكر، فلو لم تكن في ذي الحجة لما قال تعالى ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾. ولا يلزم من فعلهم النسب هذا الذي ذكره من دوران السنة عليهم وحجهم في كل شهر عامين؛ فإن النسب حاصلٌ بدون هذا. فإنهم لما كانوا يُحِلُّونَ شَهْرَ المحرم عاماً يحرمون عَوْضَهُ صفرًا، وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة. بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها، ثم في السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه، وبعده صفر، وربيع وربيع إلى آخرها فيحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليؤاطفوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، أي: في تحريم أربعة أشهر من السنة، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم، وتارة يُتَسَبَّوْنَ إلى صفر، أي: يؤخرونه.

[٣٥٣٤] وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب

مضراً^(١)، أي: إن الأمر في عدة الشهور وتحريم ما هو محرم منها، على ما سبق في كتاب الله من العدد والتوالي، لا كما يعتمده جهلة العرب، من فصلهم تحريم بعضها بالنسيء عن بعض، والله أعلم.

[٣٥٣٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا صالح بن بشر بن سلمة الطبراني، حدثنا مكّي بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنه قال: وقف رسول الله ﷺ بالعقبة، فاجتمع إليه من شاء الله من المسلمين، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: «إنما النسيء من الشيطان زيادة في الكفر، يُضَلُّ به الذين كفروا، يُحَلُّونه عاماً ويُحَرِّمونه عاماً»^(٢). فكانوا يحرمون المحرم عاماً، ويستحلون صفر، ويُحَرِّمون صَفَرَ ويستحلون المحرم، وهو النسيء.

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في كتاب السيرة كلاماً جيداً ومفيداً حسناً، فقال: كان أول من نسأ الشهور على العرب، فأحل منها ما حرم الله، وحرم منها ما أحل الله - عز وجل - القلمس، وهو: حذيفة بن عبيد بن قُقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مذكرة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد، ثم من بعد عباد ابنه: قلغ بن عباد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه: عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف، وكان أخزهم، وعليه قام الإسلام. فكانت العرب إذا فرغت من حجبها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيباً، فحرم: رجياً، وذا القعدة، وذا الحجة، ويحل المحرم عاماً، ويحل مكانه صفر، ويحرمه عاماً ليواطىء عدة ما حرم الله، فيحل ما حرم الله، يعني: ويحرم ما أحل الله، والله أعلم.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ أَقَاتِلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا لَنَنْفِرُوا
بِعَذَابِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَسَتَبَدِّلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حين طابت شمار والظلال في شدة الحر وحمازة القيظ، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: إذا دُعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿أَنْ أَقَاتِلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾، أي: تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب شمار، ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: مالكم فعلتم هكذا؟! أرضاً منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة؟ ثم زهد تبارك وتعالى في الدنيا، ورغب في الآخرة، فقال: ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

[٣٥٣٦] كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبته هذه في اليم، فليُنظَر بِمَ تَرَجِعُ»^(٣)؟ وأشار بالسبابة. انفرد بإخراجه مسلم.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٧ و ١٠٥، ومسلم ١٦٧٩، وأبو داود ١٩٤٨، وابن ماجه ٢٣٣، وأحمد ٣٧/٥ و ٣٩ و ٤٥ و ٤٩ من حديث أبي بكر.

(٢) في إسناده موسى بن عبيدة، وهو الرندي ضعفه الجمهور.

(٣) أخرجه أحمد ٢٢٨/٤ و ٢٢٩، ومسلم ٢٨٥٨، والترمذي ٢٣٢٣، وابن ماجه ٤١٠٨.

[٣٥٣٧] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا بشر بن مسلم بن عبد الحميد الحمصي بحمص، حدثنا الربيع بن روح حدثنا محمد بن خالد الوهبي، حدثنا زياد - يعني الجصاص - عن أبي عثمان قال: قلت يا أبا هريرة، سمعت من إخواني بالبصرة أنك تقول: سمعت نبي الله ﷺ يقول: «إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة؟ قال أبو هريرة: بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حسنة»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١). فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل. وقال الثوري، عن الأعمش في الآية: ﴿وَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. قال: كتراد الراكب.

وقال عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة قال: اتتوني بكفني الذي أكفن فيه، انظر إليه. فلما وُضع بين يديه نظرت إليه فقال: أما لي من كثير ما أُخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولّى ظهره فيكى وهو يقول: أف لك من دارا إن كان كثيرك لقليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك لفي غرور. ثم توعدت تعالى على ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوا بِمُؤَدَّبِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب، فثاقبوا عنه، فأمسك الله عنهم القطر، فكان عذابهم. ﴿وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا عَذَابَهُمْ﴾، أي: لنصرة نبيه وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا﴾، أي: ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، وتكولكم وتتأفلكم عنه، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: قادر على الانتصار على الأعداء بدونكم. وقد قيل: إن هذه الآية، وقوله: ﴿انصُرُوا خِفَاءً وَنَجَاً﴾، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْإِسْرَائِيلَ أَنْ يَنْتَفِلُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾: إنهن منسوخات بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْصُرُوا كَاللَّذِينَ نَفَرُوا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾، روي هذا عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، ورده ابن جرير وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد، فتعين عليهم ذلك، فلو تركوه لعوقبوا عليه، وهذا له اتجاه، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ إِذْ هُمَا فِي الْفَكَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُجْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ

حِكْمَةٌ

يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾، أي: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ إِذْ هُمَا﴾، أي: عام الهجرة، لما همَّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هارباً صحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلّب الذين خرجوا في آثارهم. ثم يسير نحو المدينة، فجعل أبو بكر - رضي الله عنه - يجزع أن يُطلع عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - منهم أذى، فجعل النبي ﷺ يسكنه ويثبته ويقول: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

[٣٥٣٨] كما قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، أنبأنا ثابت، عن أنس أن أبا بكر حدثه قال:

(١) إسناده ضعيف لضعف زياد الجصاص، وتقدم في سورة البقرة.

قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. قال: فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(١). أخرجاه في الصحيحين. ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ، تَأْيِيدَهُ وَنَصْرَهُ عَلَيْهِ، أَي عَلَى الرَّسُولِ فِي أَشْهُرِ الْقَوْلِينَ. وَقِيلَ: عَلَى أَبِي بَكْرٍ. وَرُوي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ، قَالُوا: لِأَنَّ الرَّسُولَ لَمْ تَزَلْ مَعَهُ سَكِينَةٌ. وَهَذَا لَا يَنَافِي تَجَدُّدَ سَكِينَةٍ خَاصَّةٍ بِتِلْكَ الْحَالِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾، أَي: الْمَلَائِكَةَ، وَجَمَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا الشُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هَكَذَا الْكَلِمَاتُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي بِـ ﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: الشُّرْكَ، وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

[٣٥٣٩] وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً، ويقاتل حميةً، ويقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(٢). وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾، أَي: فِي انتِقَامِهِ وَانْتِصَارِهِ، مَنِيعُ الْجَنَابِ، لَا يُضَامُ مِنْ لَدَيْبِهِ، وَاحْتَمَى بِالتَّمَسُّكِ بِخَطَابِهِ، ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ.

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

قال سفيان الثوري، عن أبيه، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح: هذه الآية: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أَوْلَىٰ مَا نَزَلَ مِنْ سُورَةِ بَرَاءةٍ. وَقَالَ مَعْتَمِرُ بْنُ سَلِيمَانَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: زَعَمَ حَضْرَمِي أَنَّهُ ذَكَرَ لَهُ أَنَّ نَاسًا كَانُوا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ عَلِيلاً أَوْ كَبِيراً، فَيَقُولُ: إِنِّي لَا أَمُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾... الآية. أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِالنَّفِيرِ الْعَامِ مَعَ الرَّسُولِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - عَامَ غَزْوَةِ تَبُوكَ، لِقِتَالِ أَعْدَاءِ اللَّهِ مِنَ الرُّومِ الْكُفْرَةِ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَحَثَّمَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْخُرُوجِ مَعَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي الْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَالْعَسْرِ وَالْيَسْرِ، فَقَالَ: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وقال علي بن زيد، عن أنس، عن أبي طلحة: كُهِولاً وَشَبَاباً، مَا أَسْمَعَ اللَّهُ عَدْرَ أَحَدًا. ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ فِقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ. وَفِي رِوَايَةٍ: قَرَأَ أَبُو طَلْحَةَ سُورَةَ بَرَاءةٍ، فَاتَى عَلَى هَذَا الْآيَةِ: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فَقَالَ: أَرَى زَيْنًا يَسْتَنْفِرُنَا شَبَابًا وَشَبَاباً، جَهَّزُونِي يَا بَنِي. فَقَالَ بَنُوهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ! قَدْ غَزَوْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى مَاتَ، وَمَعَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى مَاتَ، وَمَعَ عَمْرٍو حَتَّى مَاتَ، فَنَحْنُ نَغْزُو عَنْكَ. فَأَبَى، فَزَكَّبَ الْبَحْرَ فَمَاتَ، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ جَزِيرَةً يَدْفِنُوهُ فِيهَا إِلَّا بَعْدَ تِسْعَةِ أَيَّامٍ، فَلَمْ يَتَّخِرْ، فَدَفِنُوهُ بِهَا. وَهَكَذَا رُوي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعُكْرَمَةَ، وَأَبِي صَالِحٍ، وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَشُمَيْرِ بْنِ عَطِيَّةٍ، وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ، وَالشَّعْبِيِّ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ: أَنَّهُمْ قَالُوا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، قَالُوا: كُهِولاً وَشَبَاباً. وَكَذَا قَالَ عُكْرَمَةُ، وَالضُّحَاكُ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: شَبَاباً وَشَبَاباً، وَأَغْنِيَاءَ وَمَسَاكِينَ. وَكَذَا قَالَ أَبُو صَالِحٍ، وَغَيْرُهُ. وَقَالَ الْحَكَمُ بْنُ عُثَيْبَةَ: مَشَاغِيلٌ وَغَيْرُ مَشَاغِيلٍ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، يَقُولُ: انْفِرُوا نَشَاطاً وَغَيْرَ نَشَاطٍ.

(١) أخرجه البخاري ٣٦٥٣ و ٣٩٢٢ و ٤٦٦٣، ومسلم ٢٣٨١، والترمذي ٣٠٩٦، وأحمد ٤/١.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٣ و ٢٨١٠ و ٣١٢٦ و ٧٤٥٨، ومسلم ١٩٠٤، وأبو داود ٢٥١٧، والترمذي ١٦٤٦، والنسائي ٢٣١٦، وابن ماجه ٢٧٨٣، وأحمد ٤/٣٩٢ و ٣٩٧ و ٤٠٢ و ٤٠٥ و ٤١٧.

وكذا قال قتادة. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، قالوا: فإن فينا الثَّقِيلَ، وذا الحاجة والضيعة والشغل، والتمتسر به أمره؟ فأنزل الله وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ وعلى ما كان منهم. وقال الحسن بن أبي الحسن البصري أيضاً: في العسر واليسر. وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: إذا كان النفير إلى دُروب الروم نَفَرَ الناس إليها خفافاً وركباناً، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافاً وثقلاً، وركباناً ومشاة. وهذا تفصيل في المسألة. وقد زوي عن ابن عباس، ومحمد بن كعب، وعطاء الخراساني وغيرهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله. وقال السدي قوله: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، يقول: غنياً وفقيراً، وقويماً وضعيفاً. فجاءه رجل يومئذ - زعموا أنه المقداد - وكان عظيماً سميماً، فشكا إليه وسأله أن يأذن له، فأبى. فنزلت يومئذ: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس شأنها، فنسخها الله تعالى، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١]. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب، عن محمد قال: شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرأ ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا وهو في آخرين إلا عاماً واحداً قال: وكان أبو أيوب يقول: قال الله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً.

وقال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرة السُّكُونِي، حدثنا بَقِيَّة، حدثنا حَرِيزٌ، حدثني عبد الله بن ميسرة، حدثني أبو راشد الخُبْرَانِي قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وقد فضل عنها من عظمه، يريد الغزو، فقلت له: لقد أعذر الله إليك. فقال: أبث علينا سورة البُحُوث: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾. وبه قال حريز: حدثني حَبَّان بن زيد الشرعبي قال: نَفَرْنَا مع صفوان بن عمرو، وكان والياً على حمص قِبَلِ الأَسُوس، إلى الجراجمة فلقيت شيخاً كبيراً هماً، وقد سقط حاجباه على عينيه، من أهل دمشق، على راحلته، فيمن أغار. فأقبلت إليه فقلت: يا عم، لقد أعذَرَ الله إليك. قال: فرفع حاجبيه فقال: يا ابن أخي، استنفرنا الله خفافاً وثقلاً، إنه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده الله فييقه، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله عز وجل. ثم رَغِبَ تعالى في النفقة في سبيله، وبَذَلَ المِهْجَ في مرضاته ومرضاه رسولهُ، فقال: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: هذا خيرٌ لكم في الدنيا والآخرة، ولأنكم تُغْرَمُونَ في النفقة قليلاً فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يذخر لكم من الكرامة في الآخرة.

[٣٥٤٠] كما قال النبي ﷺ: «وَتَكْفَلُ اللهُ للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يُدْخِلَهُ الجنة، أو يرده إلى منزله نائلاً ما نال من أجر أو غَنِيمَةٍ»^(١). ولهذا قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ بِسَلْمٍ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١١﴾.

(١) أخرجه البخاري ٣١٢٣ و٧٤٥٧، ومسلم ١٨٧٦ ح ١٠٤ ومالك ٤٤٣/٢ - ٤٤٤ وأحمد ٣٩٩/٢ و٤٢٤، والنسائي ٦/

[٣٥٤١] ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم». قال: «أجدني كارهاً. قال: «أسلم، وإن كنت كارهاً»^(١).

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَدَدْتَ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةَ وَسَيَّحِلَفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا مَخْرَجًا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى موتخا للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا عن النبي ﷺ بعدما استأذنه في ذلك، مظهرين أنهم ذور أعدار، ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾. قال ابن عباس: غنيمة قريبة. ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾، أي: قريباً أيضاً، ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾، أي: لكانوا جاؤوا معك لذلك، ﴿وَلَكِنْ بَدَدْتَ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةَ﴾، أي: المسافة إلى الشام، ﴿وَسَيَّحِلَفُونَ بِاللَّهِ﴾، أي: لكم إذا رجعتهم إليهم ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا لَمَخْرَجًا مَعَكُمْ﴾، أي: لو لم تكن لنا أعدار لخرجنا معكم. قال الله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿عَمَّا آتَاكَ اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ يُولُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَرْزَأَتْ قُلُوبُهُمْ فُهُمْ فِي رِيبِهِمْ يَرْذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حصين بن سليمان الرازي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن مسعر، عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبية أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبية فقال: ﴿عَمَّا آتَاكَ اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ؟﴾ وكذا قال موزق العجلي وغيره. وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال تعالى: ﴿وَإِذَا اسْتَشْتَذَرُوا بَعْضَ شَأْنِهِمْ فَأَذْنِ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ الآية. وكذا زوي عن عطاء الخراساني. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا. ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾، أي: في إبداء الأعدار، ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾، يقول تعالى: فلا تتركهم لما استأذنوك، فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مضميرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه. ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال: ﴿لَا يَسْتَغْنِيكَ﴾، أي: في القعود عن الغزو ﴿الَّذِينَ يُولُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾، لأن أولئك يزورون الجهاد قربةً، ولما نذبهم إليه بادروا وامتلوا، ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَغْنِيكَ﴾، أي: في القعود ممن لا عذر له ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، أي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم، ﴿وَأَرْزَأَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: شككت في صحة ما جتتهم به، ﴿فُهُمْ فِي رِيبِهِمْ يَرْذَرُونَ﴾، أي: يتحIRON، يُقَدِّمُونَ رَجُلًا وَيُؤَخِّرُونَ أُخْرَى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم خيارى هلكى، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً.

(١) أخرجه أحد ٣/١٠٩ و ١٨١ وأبو يعلى ٣٧٦٥، وذكره الهيثمي في «الجمع» ٣٠٥/٥ وقال: رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا لَكُمْ بَغْتَةً وَفِيكُمْ سَخَنُونَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾، أي: معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾، أي: لكانوا تأهبوا له، ﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾، أي: أبغض أن يخرجوا معك قدراً، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾، أي: أخرجهم، ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾، أي: قدراً. ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، أي: لأنهم جناء مخدولون، ﴿وَلَا أُضْعَفُوا لَكُمْ بَغْتَةً﴾، أي: ولا أسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، ﴿وَفِيكُمْ سَخَنُونَ لَكُمْ﴾، أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحوونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير. وقال مجاهد، وزيد بن أسلم، وابن جرير: ﴿وَفِيكُمْ سَخَنُونَ لَكُمْ﴾، أي: عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم. وهذا لا يبقى له اختصاص لخروجهم معهم، بل هذا عام في جميع الأحوال، والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

وقال محمد بن إسحاق: كان - فيما بلغني - من استأذن من ذوي الشرف منهم: عبد الله بن أبي بن سلول والجد بن قيس، وكانوا أشرفاً في قومهم، فثبَّطهم الله، لعلمه بهم، أن يخرجوا معه، فيفسدوا عليه جنده. وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم، فقال: ﴿وَفِيكُمْ سَخَنُونَ لَكُمْ﴾. ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، فأخبر بأنه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن - لو كان كيف كان يكون. ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَمَدُّوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ لَمَّا كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا قَمَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَمَلُوا مَا يُوعَدُونَ لَمَّا كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ وَأَشَدَّ تَلِيماً﴾ [٤٦] وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيماً ﴿٤٧﴾ وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيماً ﴿٤٨﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨]، والآيات في هذا كثيرة.

﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ

كَرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى مُحَرِّضاً لنبيه - عليه السلام - على المنافقين: ﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾، أي: لقد عملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة، وذلك أول مَقْدَمِ النبي ﷺ المدينة، رَمَتْهُ العرب عن قَوْسٍ واحدة، وحاربه يهود المدينة ومنافقوها، فلَمَّا نَصَرَ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد تَوَجَّه. فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كَلَّمَا أَعَزَّ اللهُ الإِسْلَامَ وأهلهم غاظهم ذلك وساءهم، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أُنذَرَ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ
بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩)

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: ﴿أُنذَرَ لِي﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ بالخروج معك، بسبب الجواري من نساء الروم، قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾، أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا.

[٣٥٤٢] كما قال محمد بن إسحاق، عن الزهري، ويزيد بن زومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عُمَر بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم، وهو في جهازه، للجَدِّ بن قيس أخي بني سَلَمَةَ: «هل لك يا جَدُّ العام في جِلَادِ بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عَرَفَ قومي ما رجلٌ أشدُّ عجباً بالنساء مِنِّي، وإني أخشى إن رأيتُ نساء بني الأصفر إلا أُصِبرَ عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنتُ لك». ففي الجَدِّ بن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أُنذَرَ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾... الآية، أي: إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم^(١). وهكذا رُوِيَ عن ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: أنها نزلت في الجَدِّ بن قيس، وقد كان الجَدِّ بن قيس هذا من أشرف بني سَلَمَةَ.

[٣٥٤٣] وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لهم: «من سيدكم يا بني سَلَمَةَ؟» قالوا: الجَدُّ بن قيس، على أنا نُبخله. فقال رسول الله ﷺ: وأي داء أذوأ من البخل؟! ولكن سيدكم الفتى الأبيض الجعد، بشرُّ بن البراء بن مغزور^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، أي: لا محيد لهم عنها، ولا محيص، ولا مهرب.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُؤِهِمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَكْتُولُوا
وَهُمْ قَرِحُونَ﴾ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥١)

يُعلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء له، لأنه مهما أصابه من حسنة، أي: فتح ونصر وظفر على الأعداء، مما يسره ويسر أصحابه، ساءهم ذلك، ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ﴾، أي: قد احترزنا من متابعتنا من قبل هذا، ﴿وَيَكْتُولُوا وَهُمْ قَرِحُونَ﴾. فأرشد الله تعالى رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة. فقال: ﴿قُلْ﴾، أي: لهم ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، أي: نحن تحت مشيئة الله وقدره، ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾، أي: سيدنا وملجونا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٦٨٠٣، وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٥١٦/٤ عن غير واحد من التابعين، وله شواهد مرسله أخر يتأيد بها.

(٢) الحديث ليس في الصحيح، إنما أخرجه الطبراني في الكبير ١٦٣/١٩ و١٦٤ من حديث كعب بن مالك وقال الهيثمي في المجمع ٣١٥/٩ رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح غير شيخي الطبراني ولم أر من ضعفهما. وله شواهد وطرق، راجع «الإصابة» ١/١٥٠/٦٥٤، فهو حسن.

﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّمَا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَتَمَحْنُ نَرْتَبِصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِتِّكُمُ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّمَا﴾ أي: تنتظرون بنا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾: شهادة أو ظفر بكم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم. ﴿وَتَمَحْنُ نَرْتَبِصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾، أي: نتظر بكم هذا أو هذا، إما أن يصيبكم الله بقارعة من عنده أو بأيدينا، بقتل أو بسبي، ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾. وقوله: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، أي: مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِتِّكُمُ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾. ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يتقبل منهم، لأنهم ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي قد كفروا، والأعمال إنما تصح بالإيمان، ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾، أي: ليس لهم قصد صحيح، ولا همة في العمل، ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ نفقة ﴿إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ﴾.

[٣٥٤٤] وقد أخبر الصادق المصدوق عليه السلام، أن الله لا يمل حتى تملأوا، وأنه طيب لا يقبل إلا طيباً،^(١) لهذا لا يتقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً، لأنه إنما يتقبل من المتقين.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ عَيْنَاكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ١٣١]، وقال ﴿أَيْسِبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُمْ بِهِ مِنْ نَالٍ وَيَتَّبِعُونَ ﴿٥٥﴾ نَكَاةً لَهُمْ فِي الْمَغْرِبِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، قال الحسن البصري: بزكاتها، والنفقة منها في سبيل الله. وقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. واختار ابن جرير قول الحسن، وهو القول القوي الحسن. وقوله: ﴿وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾، أي: ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم، عياداً بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَعِدُونَ مَلَجَةً أَوْ مَعْرَاتٍ أَوْ مَدْحَلًا لَوْلُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يخبر تعالى نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - عن جزعهم وفرعهم وفرقهم وعلعهم أنهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾، يميناً مؤكدة، ﴿وَمَا هُمْ بِكُمْ﴾، أي: في نفس الأمر، ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾، أي: فهو الذي حملهم على الحلف. ﴿لَوْ يَعِدُونَ مَلَجَةً﴾، أي: حبسناً يتحصنون به. وجززاً يحترزون به، ﴿أَوْ

مَعْتَرَبَتْ، وهي التي في الجبال، ﴿أَوْ مَدَّخَلًا﴾، وهو السَّرَب في الأرض والتنفق. قال ذلك في الثلاثة ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة ﴿لَوْلَا إِلَيْهِ وَهَمَّ يَمْحُوتُونَ﴾، أي: يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام، ولهذا لا يزالون في همٍّ وحزنٍ وغمٍّ، لأن الإسلام وأهله لا يزال في عزي ونصر ورفعة، فلهذا كلما سُرَّ المؤمنون ساءهم ذلك، فهم يودون ألا يخالطوا المؤمنين، ولهذا قال: ﴿لَوْ يَخْدُونَكَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْتَرَبًا أَوْ مَدَّخَلًا لَوْلَا إِلَيْهِ وَهَمَّ يَمْحُوتُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

اللَّهُ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾، أي: ومن المنافقين ﴿مَنْ يَلْمِزُكَ﴾، أي: يعيب عليك ﴿فِي﴾ قَسَمِ ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ إذا فرقتها، ويتهمك في ذلك، وهم المتهمون المأبوثون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم، ولهذا إن أعطوا من الزكاة رضوا، ﴿وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ أي: يغضبون لأنفسهم. [٣٥٤٥] قال ابن جرير: أخبرني داود بن أبي عاصم قال: أتى النبي ﷺ بصدقة قسمها ما هنا وما هنا حتى ذهبت. قال: ووراء رجل من الأنصار فقال: ما هذا بالعدل! فنزلت هذه الآية^(١).

[٣٥٤٦] وقال قتادة في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾، يقول: ومنهم من يطعن عليك في الصدقات. وذكر لنا أن رجلاً من البادية حديث عهد بأعرابية، أتى رسول الله ﷺ وهو يقسم ذهباً وفضة، فقال: يا محمد، والله لئن كان الله أمرك أن تعدل، ما عدلت. فقال نبي الله ﷺ: «ويلك. فمن ذا يعدل عليك بعدي؟!» ثم قال نبي الله: «احذروا هذا وأشباهه فإن في أمتي أشباه هذا، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، فإذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم»، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم». وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «والذي نفسي بيده، ما أعطيتكم شيئاً ولا أمتعكموه، إنما أنا خازن».

[٣٥٤٧] وهذا الذي ذكره قتادة شبيه بما رواه الشيخان من حديث الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة - واسمه خُرْقُوصٌ - لما اعترض على النبي ﷺ حين قَسَمَ غَنَائِمَ حنين، فقال له: اعدل، فإنك لم تعدل. فقال: «لقد حَبِئْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ». ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مُقْفِيًا: «إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين مُرُوقَ السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء»^(٢). . . وذكر بقية الحديث. ثم قال تعالى مُنْبِئًا لهم على ما هو خَيْرٌ من ذلك لهم، فقال: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةَ أَدْبًا عَظِيمًا وَسِرًّا شَرِيفًا، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده، وهو قوله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾. وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتنال أوامره، وترك زواجره، وتصديق أخباره، والاقتفاء بآثاره.

(١) هذا مرسل، وكذا ما بعده.

(٢) أخرجه البخاري ٣٦١٠ و٦١٦٣ و٦٩٣٣ ومسلم ١٠٦٤ ح ١٤٨، وأحمد ٥٦/٣ و٦٥ دون لفظ «فإنهم شر قتلى...» وتقدم مستوفياً.

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَعْلُومِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرْمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦٠)

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولزمهم إياه في قسمة الصدقات، بين تعالى أنه هو الذي قسّمها وبين حكمها، وتولّى أمرها بنفسه، ولم يكَل قسّمها إلى أحدٍ غيره، فجزأها لهؤلاء المذكورين.

[٣٥٤٨] رواه الإمام أبو داود في سننه من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم - وفيه ضعف - عن زياد بن نعيم، عن زياد بن الحارث الصدائي - رضي الله عنه - قال: أتيت النبي ﷺ فبايعته، فأتى رجل فقال: أعطني من الصدقة فقال له: «إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حُكِمَ فيها هو، فجزأها ثمانية أصناف، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك»^(١).

وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية: هل يجب استيعاب الدفع إليها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين:

أحدهما: أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعي وجماعة.

والثاني: أنه لا يجب استيعابها، بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويُعطى جميع الصدقة مع وجود الباقيين. وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف، منهم: عمر، وحذيفة، وابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبيرة، وميمون بن مهران. قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف ها هنا لبيان المصروف لا لوجوب استيعاب الإعطاء. ولوجوه الحجاج والمآخذ مكان غير هذا، والله أعلم. وإنما قدّم الفقهاء ها هنا لأنهم أحوج من البقية على المشهور، لشدة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير، وهو كما قال، قال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علقمة، أنبأنا ابن عون، عن محمد قال: قال عمر - رضي الله عنه -: الفقير ليس بالذي لا مال له، ولكن الفقير الأخلق الكسب. قال ابن علقمة: الأخلق: المحارّف عندنا. والجمهور على خلافه. ورؤي عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن البصري، وابن زيد. واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً، والمسكين هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس. وقال قتادة: الفقير من به زمانة، والمسكين الصحيح الجسم. وقال الثوري، عن منصور، عن إبراهيم: هم فقراء المهاجرين. قال سفيان الثوري: يعني ولا يُعطى الأعراب منها شيئاً. وكذا رؤي عن سعيد بن جبيرة، وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزي.

وقال عكرمة: لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين، وإنما المساكين مساكين أهل الكتاب. ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية: فأما الفقراء:

[٣٥٤٩] فمن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مزة سوي»^(٢). رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي. ولأحمد أيضاً، والنسائي، وابن ماجه عن أبي هريرة، مثله.

(١) أخرجه أبو داود ١٦٣٠، وفي إسناده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي ضعيف الحديث.

(٢) أخرجه أحمد ١٦٤/٢ و١٩٢، وأبو داود ١٦٣٤، والترمذي ٦٥٢، والدارمي ٣٨٦/١ والحاكم ٤٠٧/١ من حديث عبد الله بن عمرو؛ وقال الترمذي: حديث حسن، وأخرجه من حديث أبي هريرة أحمد ٣٧٧/٢ و٣٨٩ والنسائي ٩٩/٥، وابن ماجه ١٨٣٩، والدارقطني ١١٨/٢، وصححه ابن حبان ٨٠٦ (موارد).

[٣٥٥٠] وعن عبيد الله بن عدي بن الخيار: أن رجلين أخبراه: أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة، فقلَّبَ فيهما البصرَ، فرأهما جَلْدَيْنِ. فقال: «إن شئتما أعطيتكما، ولا حَظَّ فيها لغني ولا لقوي مكتسب»^(١). رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي بإسناد جيد قوي.

وقال ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل: أبو بكر العَبْسِيُّ^(٢) قال: قرأ عمر - رضي الله عنه - ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفَقْرَاءِ﴾، قال: هم أهل الكتاب، روى عنه عمر بن نافع، سمعت أبي يقول ذلك^(٣). (قلت): وهذا قول غريب جداً بتقدير صحة الإسناد، فإن أبا بكر هذا، وإن لم ينص أبو حاتم على جهالته، لكنه في حكم المجهول. وأما المساكين:

[٣٥٥١] فمن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكينُ بهذا الطَّوافِ الذي يطُوفُ على الناسِ، فترُدُّه اللقمةُ واللقمتان، والتمرَّةُ والتمرتان». قالوا: فما المسكينُ يا رسولَ الله؟ قال: «الذي لا يجذُ غِنَى يُغْنِيهِ، ولا يُقَطَّنُ له فَيُتَّصَدَّقُ عليه، ولا يسألُ الناسَ شيئاً»^(٤). رواه الشيخان البخاري ومسلم. وأما العاملون عليها فهم الجبابة والسعاة يستحقون منها قسطاً على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة.

[٣٥٥٢] ثبت في صحيح مسلم، عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث: أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إنَّ الصدقةَ لا تجلُّ لمحمَّدٍ ولا لآلِ مُحَمَّدٍ، إنما هي أوساخُ الناسِ»^(٥). وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام: منهم من يعطى ليُسلم، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حُنين، وقد كان شهدها مشركاً، قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحبَّ الناسِ إليَّ بعد أن كان أبغضَ الناسِ إليَّ.

[٣٥٥٣] قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عدي، أخبرنا ابنُ المبارك، عن يونس، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسولُ الله ﷺ يوم حُنين، وإنه لأبغضَ الناسِ إليَّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحبُّ الناسِ إليَّ^(٦). ورواه مسلم والترمذي، من حديث يونس، عن الزهري، به. ومنهم من يُعطى ليحسن إسلامه، ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرفهم: مئة من الإبل، مئة من الإبل.

(١) إسناده جيد كما قال المصنف، وتقدم.

(٢) كذا وقع في الأصول، وفي «الجرح والتعديل»، ووقع في «التهذيب» و«التقريب» العنسي.

(٣) لا يصح هذا الأثر عن عمر. فأبو بكر العبسي مجهول، لم يرو عنه سوى عمر بن نافع الثقفي.

وله علة ثانية: الراوي عنه عمر بن نافع ضعفه يحيى، ووثقه ابن حبان، وذكره الساجي وابن الجارود في الضعفاء، فلا يقبل توثيق ابن حبان له بمخالفته من هو أرجح منه.

(٤) أخرجه البخاري ١٤٧٦ و٤٥٣٩ ومسلم ١٠٣٩ ح ١٠٢، وأبو داود ١٦٣١، والنسائي ٨٤/٥ - ٨٥، وأحمد ٣٩٥/٢ و٤٥٧ و٤٩٣ من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه مسلم ١٠٧٢ و١٠٧٣، وأبو داود ٢٩٨٥، والنسائي ١٠٥/٥، وأبو عبيد ٨٤١، والطحاوي ٢٩٩/١، والبيهقي ٣١/٧، وأحمد ١٦٦/٤ عن المطلب بن ربيعة بن الحارث.

(٦) أخرجه أحمد ٤٠١/٣ و٤٦٥/٦ ومسلم ٢٣١٣، والترمذي ٦٦٦.

[٣٥٥٤] وقال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه، خشية أن يكبّه الله على وجهه في نار جهنّم»^(١).

[٣٥٥٥] وفي الصحيحين عن أبي سعيد: أن علياً بعث إلى النبي ﷺ بدُهَيَّيَّة في تربتها من اليمن فقسما بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعُيَيْنَة بن بدر، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخير، وقال: «أتألفهم»^(٢). ومنهم من يُعطى لما يرجى من إسلام نظرائه. ومنهم من يُعطى ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد. ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم.

وهل تعطى المؤلفَة على الإسلام بعد النبي ﷺ؟ فيه خلاف، فرؤي عن عُمَر، وعامر الشَّعبي وجماعة: أنهم لا يُعطون بعده، لأن الله قد أعز الإسلام وأهله، ومكّن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد. وقال آخرون: بل يُعطون؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليه. وأما الرقاب: فرؤي عن الحسن البصري، ومقاتل بن حَيان، وعُمَر بن عبد العزيز، وسعيد بن جُبَيْر، والنَّخعي، والزهرّي، وابن زيد: أنهم المكاتبون، ورؤي عن أبي موسى الأشعري نحوه، وهو قول الشافعي والليث. وقال ابن عباس، والحسن: لا بأس أن تُعتق الرقبة من الزكاة، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ومالك، وإسحاق، أي: إن الرقاب أعم من أن يُعطي المكاتب، أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً. وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وإن الله يُغتنق بكل عضو منها عضواً من مُعتقها حتى الفرج بالفرج، وما ذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل، «وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» ﴿١٣٨﴾ [الصافات: ٣٩].

[٣٥٥٦] وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة حقّ على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداة، والناكح الذي يريد العفاف»^(٣). رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود.

[٣٥٥٧] وفي المسند عن البراء بن عازب قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، دُلّني على عمل يُقرّني من الجنة ويباعدني عن النار. فقال: «أعتق النسمة وفك الرقبة». فقال: يا رسول الله، أوليسوا واحداً؟ قال: «لا، عتق النسمة أن تُفرد بعقها، وفك الرقبة أن تُعين في ثمنها»^(٤). وأما الغارمون، فهم أقسام: فمنهم من تحمّل حمالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله، أو غرم في أداء دينه أو معصية ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم.

[٣٥٥٨] والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مُخارق الهلالي قال: تحمّلت حمالة، فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أتم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها». قال: ثم قال: «يا قبيصة، إن المسألة لا

(١) أخرجه البخاري ٢٧ و١٤٧٨ ومسلم ١٥٠ وأبو داود ٤٦٨٣ و٤٦٨٤ و٤٦٨٥ والنسائي ١٠٣/٨ و١٠٤، وأحمد ١٧٦/١ من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٢) هو بعض حديث أخرجه البخاري ٣٣٤٤ ومسلم ١٦٤ ح ١٤٤، وأحمد ٧٣/٣، وأبو داود ٤٧٦٤ والنسائي ١١٨/٧ و٥/٨٧ وأبو يعلى ١١٦٣.

(٣) أخرجه أحمد ٢٥١/٢ و٣٤٧ والترمذي ١٦٥٥، والنسائي ٦١/٦، وابن ماجه ٢٥١٨ وابن حبان ٤٠٣٠ والحاكم ١٦٠/٢ و٢١٧ وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وقال الترمذي هذا حديث حسن.

(٤) أخرجه أحمد ٢٩٩/٤، والطيالسي ٧٣٩ والبيهقي ٢٧٢/١٠، وصححه ابن حبان برقم ٣٧٤ وقال الهيثمي في المجمع ٢٤٠/٤: رواه أحمد ورجاله ثقات.

تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة فحلّت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمكس. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال: سداداً من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه، فيقولون: لقد أصابت فلاناً فاقة فحلّت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال: سداداً من عيش - فما سواهن من المسألة سُخِتْ يأكلها صاحبها سُخْتاً^(١). رواه مسلم.

[٣٥٥٩] وعن أبي سعيد قال: أصيب رجلٌ في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها، فكثُرَ دينُه، فقال النبي ﷺ: «تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ». فَتَصَدَّقَ النَّاسُ، فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم، وليس لكم إلا ذلك»^(٢). رواه مسلم.

[٣٥٦٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، أنبأنا صدقة بن موسى، عن أبي عمران الجوني، عن قيس بن زيد، عن قاضي المضرين^(٣)، عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يُوقَفَ بين يديه، فيقول: يا ابن آدم، فيم أخذت هذا الدين؟ وفيم ضيعت حقوق الناس؟ فيقول: يا رب، إنك تعلمتُ أنني أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم أضيّع، ولكن أتى على يدي إما حَرَقَ وإما سَرَقَ وإما وَضِيعَةً. فيقول: الله: صدق عبدي، أنا أحق من قضى عنك اليوم، فيدعو الله بشيء فيضعه في كِفَّةٍ ميزانه، فترجح حسناته على سيئاته، فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته»^(٤). وأما في سبيل الله: فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان، وعند الإمام أحمد، والحسن، وإسحاق: «والحج من سبيل الله» للحديث. وكذلك ابن السبيل: وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيُعْطَى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال. هكذا الحكمُ فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء، فيُعْطَى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه. والدليل على ذلك: الآية، وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه من حديث معمر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد - رضي الله عنه - قال:

[٣٥٦١] قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: العامل عليها، أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غازٍ في سبيل الله، أو مسكين تُصَدَّقَ عليه منها فأهدى لغني»^(٥). وقد رواه السفينان، عن زيد بن أسلم، عن عطاء مرسلًا.

[٣٥٦٢] ولأبي داود عن عَطِيَّةِ العَوْفِي، عن أبي سعيد الخُدْرِي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل

(١) أخرجه مسلم ١٠٤٤، والطيلالسي ١٣٢٧، وابن أبي شيبه ٣/٢١٠ - ٢١١، وأبو داود ١٦٤٠ والنسائي ٨٨/٥ - ٨٩ والدارمي ٣٩٦/١ من حديث قبيصة بن مخارق الهلالي.

(٢) أخرجه مسلم ١٥٥٦ ح ١٨، وأبو داود ٣٤٦٩، والترمذي ٦٥٥، والنسائي ٧/٢٦٥ - ٣١٢، وابن ماجه ٢٣٥٦، وأحمد ٣٦/٣ و٥٨ من حديث أبي سعيد الخُدْرِي.

(٣) هو شريح القاضي، كما بينه أحمد في روايته الأولى. قال والمصران: البصرة والكوفة.

(٤) أخرجه أحمد ١٩٧/١ - ١٩٨ ح ١٧٠٩ و١٧١٠ والبخاري ١٣٣٢، وقال الهيثمي في «المجمع» ٦٦٦٢: فيه صدقة الدقيقي وثقه مسلم بن إبراهيم، وضعفه جماعة اهـ. وجاء في الميزان ٣٨٧٩: ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه، وليس بقوي اهـ. وفيه قيس بن زيد. قال الذهبي في «الميزان» ٦٩١٣: قال الأزدي: ليس بالقوي اهـ فالخبر غير قوي، والله أعلم.

(٥) إسناده قوي، ويشهد له حديث أبي سعيد الآتي، وانظر جامع الأصول ٢٧٥٧.

الصدقة لغني إلا في سبيل الله، وابن السبيل، أو جار فقير فيهدي لك أو يدعوك^(١). وقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾، أي: حكماً مقدرأ بتقدير الله وفرضه وقسمه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي. عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله ويقوله ويشرعه ويحكم به، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٦١﴾

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾، أي: من قال له شيئاً صدقه، ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جننا وحلفنا له صدقنا. روي معناه عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: هو أذن خير، يعرف الصادق من الكاذب، ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ويصدق المؤمنين، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾، أي: وهو حجة على الكافرين، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَسْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُكَادِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبَى لَهُمْ تَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٦٣﴾

[٣٥٦٣] قال قتادة في قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ﴾... الآية، قال: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَالَ: وَاللَّهِ إِنْ هُوَ لَخِيَارُنَا وَأَشْرَافُنَا، وَإِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقًّا لَهُمْ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ. قَالَ: فَسَمِعَهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنْ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ لِحَقٍّ، وَلَا نَتَّأَسَّرُ مِنَ الْحَمَارِ. قَالَ: فَسَمِعَ بِهَا الرَّجُلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى الرَّجُلِ فَدَعَاهُ فَقَالَ: «مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي قُلْتَ؟» فَجَعَلَ يَلْتَمِنُ، وَيَحْلِفُ بِاللَّهِ مَا قَالَ ذَلِكَ. وَجَعَلَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ صَدِّقِ الصَّادِقِ وَكُذِّبِ الْكَاذِبِ. فَانزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَسْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُكَادِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبَى لَهُمْ تَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا﴾، أي: ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله، أي: شاقه وحاربه وخالفه، وكان في حدِّ الله ورسوله في حدِّ ﴿فَأَبَى لَهُمْ تَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا﴾، أي مهاناً معذباً، ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾، أي: وهذا هو الذل العظيم، والشقاء الكبير.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ نُنزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ ﴿٦٤﴾

قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألا يفشي علينا سرنا هذا. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَوَّكًا يَمْأَلُ بِكَ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبْنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبْتُمْ أَن نَّجْعَلَكُم مِّنَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [المجادلة: ٨]. وقال في هذه الآية: ﴿قُلِ اسْتَزِرُوا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾، أي: إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين له أمركم كما قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَنْ لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ

(١) أخرجه أحمد ٣١/٣، وأبو داود ١٦٣٧، وابن أبي شيبة ٢١٠/٣، والبيهقي ٢٣/٧ من حديث أبي سعيد الخدري. وإسناده ضعيف لأجل عطية العوفي، لكن يشهد له الحديث الذي قبله.

(٢) أخرجه الطبري ١٦٩٢٢ عن قتادة مرسلأ، والمرسل من قسم الضعيف، والله أعلم.

﴿أَصْنَعْتَهُمْ﴾ ﴿١٥﴾ إلى قوله: ﴿وَلَتَرْفَقْتَهُمْ فِي لَعْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩ - ٣٠]. ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة «الفاضحة»: فاضحة المنافقين.

﴿وَلِينَ سَأَلْتَهُمْ لِيَقُولُوا: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١٥﴾ لَا تَمْنَدُوهَا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا

تَجْرِيبٌ ﴿١٦﴾

[٣٥٦٤] قال أبو معشر المدني، عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى قُرَآنًا هؤلاء إلا أَرغبنا بطونًا، وأكذبنا السنة، وأجبنا عند اللقاء. فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء إلى رسول الله وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. قال: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ إلى قوله: ﴿تَجْرِيبٌ﴾ وإن رجليه لتتسنان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بنسعة^(١) رسول الله ﷺ^(٢).

[٣٥٦٥] وقال عبد الله بن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأيت مثل قُرَآننا هؤلاء، أَرغب بطونًا، ولا أكذب السنة، ولا أجبين عند اللقاء. فقال رجل في المسجد: كذبت، ولكك منافق. لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقًا بحَقَبِ ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١٥﴾ لَا تَمْنَدُوهَا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿٣٦﴾ الآية. وقد رواه الليث، عن هشام بن سعد، بنحو من هذا.

[٣٥٦٦] وقال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت، أخو بني أمية بن زيد، من بني عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له: مخشي^(٤) بن حُمَيْر يُشِيرُونَ إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحمسون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكانا بكم غداً مُقَرَّنِينَ في الحبال. إرجافاً وترهيباً للمؤمنين. فقال مخشي بن حُمَيْر: والله لو ددت أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مئة جلدة، وإنا نُثَقِّلُكُ أن ينزل فينا قرآن لمقاتلكم هذه. وقال رسول الله ﷺ فيما بلغني - لعمار بن ياسر: «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فسلمهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتكم كذا وكذا»، فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت - ورسول الله ﷺ واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحَقَبِهَا: يا رسول الله، إنما كنا

(١) التُّسْعُ: سير ينسج عريضاً على هيئة أجنة النعال تشدُّ به الرحال، والقطعة منه نِسْعَةٌ.

(٢) أخرجه الطبري ١٦٩٣٢ هكذا مرسلًا، وانظر ما بعده.

(٣) أخرجه الطبري ١٦٩٢٨ بهذا الإسناد وفيه هشام بن سعد ضعفه غير واحد، وقد تابعه إسماعيل بن داود عند الواحدي ٥١٣، وإسماعيل هذا ضعيف، وأسند الطبري ١٦٩٢٧ عن زيد بن أسلم مرسلًا، ويعتضد بالمرسل المتقدم عن محمد بن كعب، والله أعلم.

(٤) كذا وقع في «الأصل» وفي سيرة ابن هشام، وقال ابن هشام ١٢١/٤: ويقال «مخشي» ووقع في بعض النسخ «مخشي» وكله صحيح.

نخوض ونلعب، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ سَاءَ لَكُمْ لِمَقُولِكُمْ إِنَّمَا كُنَّا نَعُوشُ وَنَلْعَبُ﴾. فقال مخشى بن حُمير: يا رسول الله، قَعَدَ بي اسمي واسم أبي. فكان الذي عُفِيَ عنه في هذه الآية مخشى بن حُمير، فتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يُعْلَمُ بمكانه، فقُتِلَ يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر^(١).

[٣٥٦٧] وقال قتادة: ﴿وَلَكِنَّ سَاءَ لَكُمْ لِمَقُولِكُمْ إِنَّمَا كُنَّا نَعُوشُ وَنَلْعَبُ﴾، قال: بينا رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها، هيئات هيئات! فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فقال: «عَلَيْهِمْ بِهَوْلَاءِ النَّفْرِ». فدعاهم، فقال: «قلتم كذا وكذا؟ فحلّفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب^(٢)». وقال عكرمة في تفسير هذه الآية: كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول: اللهم، إني أسمع آية أنا أعنى بها، تُشْعِرُ منها الجلود، وتُجِبُ^(٣) منها القلوب، اللهم، فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك، لا يقول أحد: أنا عَسَلْتُ، أنا كُنْتُ، أنا دَفَنْتُ. قال: فأصيب يوم اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا وقد وُجِدَ غيره. وقوله: ﴿لَا تَسْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِسْرِكُمْ﴾، أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿إِنْ تَقُفْ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُصِرَتْ طَائِفَةٌ﴾، أي: لا يُعْفَى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضهم، ﴿يَأْتِيهِمْ كَأَنَّهُمْ مَجْرِمُونَ﴾، أي: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بِصُغُرٍ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكٰفِرَ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى منكرأ على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرُونَ بالمعروف وينهَوْنَ عن المنكر، كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، أي: عن الإنفاق في سبيل الله، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: نسوا ذكر الله، ﴿فَنَسِيهِمْ﴾، أي: عاملهم معاملة من نسيهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَلِ الْيَوْمَ نَسِيكَرٌ كَمَا نَسِيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا﴾، ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ﴾، أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة. وقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكٰفِرَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾، أي: على هذا الصنيع الذي ذُكر عنهم، ﴿خٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها مخلدين، هم والكفار، ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾، أي: كفايتهم في العذاب، ﴿وَلَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أي: طردهم وأبعدهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِحُلِيِّهِمْ فَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِحُلِيِّكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِحُلِيِّهِمْ وَخَضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، وقوله: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِحُلِيِّهِمْ﴾، قال الحسن البصري: بدينهم، وقوله: ﴿كَأَنَّ

(١) أورده ابن هشام في السيرة ١٢١/٤ - ١٢٢ عن ابن إسحاق، هكذا مرسلأ.

(٢) هذا مرسل.

(٣) وجب القلب وجباً: حقت.

أَسْتَمَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِعَقْلِهِمْ وَخُضِعَتْ كَأَلْيِ حَاشَاتِهِمْ، أي: في الكذب والباطل، ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾، أي: بطلت مساعيهم، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب. قال ابن جريج، عن عُمَرُ بن عطاء، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾... الآية، قال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة، ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، هؤلاء بنو إسرائيل، شَبَّهْنَا بِهِمْ، لا أعلم إلا أنه قال: «والذي نفسي بيده، لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه».

[٣٥٦٨] قال ابن جريج: وأخبرني زياد بن سعد، عن محمد بن زيد بن مهاجر، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتتبعن سنن الذين من قبلكم، شبيراً بشير، وذراعاً بذراع، وبيعاً ببيع، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه». قالوا: ومن هُم يا رسول الله؟ أهل الكتاب؟ قال: «فمه»^(١).

[٣٥٦٩] وهكذا رواه أبو معشر، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ فذكره وزاد: قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم القرآن: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِعَقْلِهِمْ فَأَسْتَمْتَمَ بِعَقْلِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِعَقْلِهِمْ﴾ - قال أبو هريرة: الخلائق: الدين - ﴿وَخُضِعَتْ كَأَلْيِ حَاشَاتِهِمْ﴾، قالوا: يا رسول الله، كما صنعت فارس والروم؟ قال: «فهل الناس إلا هم»^(٢). وهذا الحديث له شاهد في الصحيح.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٧٠)

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسول: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أي: ألم تُخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسول ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وما أصابهم من العرق العام لجميع أهل الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام، ﴿وَعَادٍ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم، لما كذبوا هوداً عليه السلام، ﴿وَتَمُودَ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً - عليه السلام - وعقروا الناقة، ﴿وقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلك ملكهم النمرود بن كنعان بن كوش الكنعاني لعنه الله، ﴿وأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب - عليه السلام - وكيف أصابتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة. ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾: قوم لوط، وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَمْوِي﴾ (٥٣)، أي: الأمة المؤتفكة، وقيل: أم قراهم، وهي «سدوم». والغرض: أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين. ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: بالحجج والدلائل القاطعات، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، أي: بإهلاكه إياهم، لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

(١) أخرجه البخاري ٣٤٥٦ و٧٣٢٠، ومسلم ٢٦٦٩ والطبري ١٦٩٤٧ واللفظ له.

(٢) أخرجه أحمد رقم ٨٣٢٢ (ترقيم أحمد شاكر) وابن ماجه ٣٩٩٤، وابن أبي عاصم في السنة ٧٢ من حديث أبي هريرة، وهو صحيح يشهد له حديث أبي سعيد المتقدم في الصحيحين.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، أي: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الصحيح:

[٣٥٧٠] «المؤمن للمؤمن كالبيان يشدُّ بعضه بعضاً»، وشبك بين أصابعه^(١).

[٣٥٧١] وفي الصحيح أيضاً: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»^(٢). وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]. قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، أي: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه، ﴿وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، أي: فيما أمر، وترك ما عنه زجر، ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: ﴿عَزِيزٌ﴾ من أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله، تبارك وتعالى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين فيها أبداً، ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾، أي: حسنة البناء، طيبة القرار.

[٣٥٧٢] كما جاء في الصحيحين من حديث أبي عمران الجوني، عن أبي بكر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهبٍ آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضةٍ آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءً الكبرياء على وجهه في جنة عدن»^(٣).

[٣٥٧٣] وبه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدةٍ مُجَوَّفَةٍ، طولها ستون ميلاً في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوفون عليهم، لا يرى بعضهم بعضاً»^(٤). أخرجه.

[٣٥٧٤] وفي الصحيحين أيضاً، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن حقاً على الله أن يَدْخُلَهُ الجنة، هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد

(١) أخرجه البخاري ٢٤٤٦ ومسلم ٢٥٨٥، والترمذي ١٩٢٨، والنسائي ٧٩/٥، وابن أبي شيبة ٢٢/١١، وأحد ٤٠٤/٤ - ٤٠٥ من حديث أبي موسى الأشعري.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠١١، ومسلم ٢٥٨٦، وأحد ٢٧٠/٤، والحميدي ٩١٩، والطيلوسي ٧٩٠ من حديث النعمان بن بشير.

(٣) أخرجه البخاري ٤٨٧٨ ومسلم ١٨٠، والترمذي ٢٥٢٨، وابن ماجه ١٨٦، وأحد ٤١١/٤.

(٤) أخرجه البخاري ٤٨٧٩ ومسلم ١٨٠.

فيها». قالوا: يا رسول الله، أفلا تُخَبِّرُ النَّاسَ؟ قال: «إن في الجنة مئة درجة، أعدّها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفِرْدَوْسَ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنة، وفوقه عرشُ الرَّحْمَنِ»^(١).

[٣٥٧٥] وعند الطبراني والترمذي وابن ماجه، من رواية زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه -: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول... فذكر مثله^(٢). وللترمذي، عن عبادة بن الصامت، مثله^(٣).

[٣٥٧٦] وعن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون العُرفَةَ في الجنة، كما تراءون الكوكب في السماء»^(٤). أخرجاه في الصحيحين. ثم ليعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكان يقال له: الوسيلة لقربه من العرش، وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة.

[٣٥٧٧] كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن ليث، عن كعب، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليتم علي فسلوا الله لي الوسيلة». قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: «أعلى درجة في الجنة، لا يتأهلها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو»^(٥).

[٣٥٧٨] وفي صحيح مسلم، من حديث كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر، عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا علي، فإنه من صلَّى علي صلاةً صلَّى الله عليه بها عشراً، ثم سلُّوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تَنْبَغِي إلا لعبد من عباد الله. وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حَلَّتْ عليه الشفاعة يوم القيامة»^(٦).

[٣٥٧٩] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن علي الأبار، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني، حدثنا موسى بن أعين، عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سلُّوا الله لي الوسيلة، فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيداً - أو شفيعاً - يوم القيامة»^(٧).

(١) أخرجه البخاري ٢٧٩٠ و٧٤٢٣، وأحمد ٢/٣٣٥ و٣٣٩ من حديث أبي هريرة.

(٢) إسناده منقطع. أخرجه أحمد ٥/٢٣٢ - ٢٤٠ - ٢٤١، والترمذي ٢٥٣٠، وابن ماجه ٤٣٣١، والطبراني في الكبير ٢٠/٣٢٧، والبزار ٢٦ وقال الترمذي: هكذا روي هذا الحديث عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار عن معاذ بن جبل، وهذا عندي أصح من حديث مام عن زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار عن عبادة بن الصامت وعطاء لم يدرك معاذ بن جبل ومعاذ قديم الموت مات في خلافة عمر. وقال الهيثمي في المجمع ٤٧/١: وهو من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يسمع منه.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٥٣١، والحاكم ١/٨٠ وفيه انقطاع أيضاً، انظر تخريج الحديث السابق.

(٤) أخرجه البخاري ٦٥٥٥ ومسلم ٢٨٣٠ وأحمد ٥/٣٤٠ من حديث سهل بن سعد.

(٥) أخرجه أحمد ٧٥٨٨، والترمذي ٣٦١٢ من حديث أبي هريرة وقال الترمذي: حديث غريب وإسناده ليس بالقوي، وكعب: ليس بمعروف ولا نعلم أحداً روى عنه غير ليث بن أبي سليم. وصحح العلامة أحمد شاکر الحديث في تعليقه على المسند. وله شواهد كما ترى يصحح بها.

(٦) أخرجه مسلم ٣٨٤، وأبو عوانة ١/٣٣٦، وأبو داود ٥٢٣، والنسائي ٢/٢٥، وفي عمل اليوم والليلة ٤٥، وأحمد ٦٥٦٨ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٧) أخرجه الطبراني في الأوسط كما في المجمع ١/٣٣٣ من حديث ابن عباس وقال الهيثمي: وفيه الوليد بن عبد الملك

[٣٥٨٠] وفي مسند الإمام أحمد من حديث سعد أبي مجاهد الطائي، عن أبي المدله، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قلنا يا رسول الله حَدَّثْنَا عَنْ الْجَنَّةِ، مَا بَنَّاؤُهَا؟ قال: «لَبَنَةٌ ذَهَبٌ، وَلَبَنَةٌ فِضَّةٌ، وَمِلَاطُهَا الْمَسْكُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللَّوْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتَرَابُهَا الزُّعْفَرَانُ. مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ»^(١). وروى عن ابن عمر مرفوعاً، نحوه.

[٣٥٨١] وعند الترمذي، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَعُرْفًا يُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بَطُونِهَا، وَبَطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا». فقام أعرابي فقال: يا رسول الله، لمن هي؟ فقال: «لِمَنْ طَيَّبَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»^(٢). ثم قال: حديث غريب. ورواه الطبراني، من حديث عبد الله بن عمرو^(٣) وأبي مالك الأشعري^(٤)، كلٌّ منهما عن النبي ﷺ بنحوه، وكل من الإسنادين جيد حسن، وعنده أن السائل هو أبو مالك، فالله أعلم.

[٣٥٨٢] وعن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا هَلْ مُشَمَّرٌ إِلَى الْجَنَّةِ؟ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، هِيَ - رَبِّ الْكَعْبَةِ - نَوْرٌ يَتَلَأَلُ، وَرِيحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهْرٌ مَطْرُودٌ، وَثَمَرَةٌ نُصِيجَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسَنَاءٌ جَمِيلَةٌ، وَحُلٌّ كَثِيرَةٌ، وَمَقَامٌ فِي أَبَدٍ، فِي دَارِ سَلِيمَةٍ، وَفَاكِهِةٍ وَخَضْرَاءٍ وَخَيْرَةٍ، وَنِعْمَةٌ فِي مَحَلَّةٍ عَالِيَةٍ بِهَيْمَةٍ». قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها، قال: «قُولُوا: إِنْ شَاءَ اللَّهُ». فقال القوم: إِنْ شَاءَ اللَّهُ^(٥). رواه ابن ماجه. وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، أي: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم.

[٣٥٨٣] كما قال الإمام مالك - رحمه الله - عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ - يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ.

الخراني، وقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال مستقيم الحديث إذا روى عن الثقات، قلت: وهذا من روايته عن موسى بن أعين وهو ثقة. ا.هـ.

(١) أخرجه أحمد ٨٠٣٠ والترمذي ٢٥٢٦، والطيالسي ٢٥٨٣ و٢٥٨٤ وابن حبان ٧٣٨٧، وصححه العلامة أحمد شاکر في تعليقه على المسند وشعيب الأرنؤوط في تعليقه على الإحسان.

(٢) إسناده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن إسحاق وأخرجه أحمد رقم ١٣٣٧ والترمذي ١٩٨٤ و٢٥٢٧ وابن أبي شيبة ٦٢٥/٨ و١٣/١٠١، وأبو يعلى ٤٢٨ وابن عدي في الكامل ٤/١٦١٣ - ١٦١٤ من حديث علي بن أبي طالب. وله شاهدان من حديث أبي مالك الأشعري وعبد الله بن عمرو وفي إسنادهما ضعف لكن الحديث يحسن بمجموع هذه الشواهد والله أعلم، وانظر ما بعده.

(٣) أخرجه أحمد ٦٦١٥، والحاكم ١/٣٢١ وقال الهيثمي في المجمع ١٠/٤٢٠: رواه أحمد ورجاله وثقوا على ضعفه في بعضهم، وصحح إسناده أحمد شاکر في تعليقه على المسند. وانظر ما بعده.

(٤) أخرجه أحمد ٥/٣٤٣، والطبراني في الكبير ٣٤٦٦، وعبد الرزاق ٢٠٨٨٣، وابن حبان ٥٠٩، وقال الهيثمي في المجمع ٢/٢٥٤: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

(٥) أخرجه ابن ماجه ٤٣٣٢، وابن حبان ٧٣٨١ من حديث أسامة بن زيد وقال البوصيري في مصباح الزجاجة ٣/٣٢٥: هذا إسناده في مقال الضحاک المعافري ذكره ابن حبان في الثقات وقال الذهبي في «طبقات التهذيب» مجهول، وسليمان بن موسى الأموي مختلف فيه، وباقي رجال الإسناد ثقات. وقال البزار: لا نعلم من رواه عن النبي ﷺ إلا أسامة بن زيد ولا نعلم له طريقاً عن أسامة إلا هذا الطريق ولا نعلم رواه عن الضحاک إلا هذا الرجل محمد بن مهاجر.

فيقولون: لبيك يا ربنا وسعدنيك، والخير في يدك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أجل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً^(١). أخرجاه من حديث مالك.

[٣٥٨٤] وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي: حدثنا الرُّخامي، حدثنا الفريابي، عن سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله - عز وجل -: هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ قالوا: يا ربنا، ما خيرٌ ما أعطيتنا؟ قال: رضواني أكبر^(٢). ورواه البزار في مسنده، من حديث الثوري. وقال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «صفة الجنة»: هذا عندي على شرط الصحيح، والله أعلم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلُفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَمْزِجْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة. وقد تقدّم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف، سيف للمشركين، سيف للمشركين^(٣) [التوبة: ٥]. وسيف لكفار أهل الكتاب: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة: ٢٩]. وسيف للمنافقين: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾. وسيف للبغاة: ﴿فَقَاتِلُوا آلِي بَنِي سَعْدَةَ إِذْ أَمَرَ اللَّهُ﴾ [الحجرات: ٩]، وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيف إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾، قال: بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فليكنهز في وجهه. وقال ابن عباس: أمره الله بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم، وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف، واغلظ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم. وعن مقاتل، والربيع مثله. وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم. وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يواخذهم بهذا، وتارة بهذا، بحسب الأحوال، والله أعلم. وقوله: ﴿يَخْلُفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾.

[٣٥٨٥] قال قتادة: نزلت في عبد الله بن أبي، وذلك أنه اقتتل رجلاً من جُهني وأنصاري، فعلا الجُهني على الأنصاري، فقال عبد الله للأنصار: ألا تنصروا أخاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، وقال: ﴿لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنِّي الْأَدْلَ﴾. فسعى بها رجل من

(١) أخرجه البخاري ٦٥٤٩ و٧٥١٨ ومسلم ٢٨٢٩، والترمذي ٢٥٥٥، وأحمد ٨٨/٣.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ٨٢/١ من حديث جابر بن عبد الله، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقد تابع الأشجعي محمد بن يوسف الفريابي على إسناده ومثته. ووافقه الذهبي.

المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية^(١).

[٣٥٨٦] وَرَوَى إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ عَمِّهِ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ قَالَ: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْفَضْلِ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ: حَزِنْتُ عَلَى مَنْ أُصِيبَ بِالْحَرَّةِ مِنْ قَوْمِي، فَكُتِبَ إِلَيَّ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ، وَبَلَغَهُ شِدَّةُ حَزْنِي، يَذْكُرُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْأَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ» - وَشَكَ ابْنَ الْفَضْلِ فِي «أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ» - قَالَ ابْنُ الْفَضْلِ: فَسَأَلَ أَنَسًا بَعْضَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ، فَقَالَ: هُوَ الَّذِي يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَوْفَى اللَّهُ لَهُ بِأَذْنِهِ» وَذَلِكَ حِينَ سَمِعَ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ يَقُولُ - وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ: لَئِنْ كَانَ هَذَا صَادِقًا فَنَحْنُ شَرُّ مِنَ الْحَمِيرِ. فَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ: فَهُوَ وَاللَّهُ صَادِقٌ، وَلَأَنْتَ شَرُّ مِنَ الْحَمَارِ. ثُمَّ رُفِعَ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَحَدَهُ الْقَائِلُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ تَصْدِيقًا لَزَيْدٍ، يَعْنِي قَوْلَهُ: «يَخْتَلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا»^(٢). . . الْآيَةَ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي أُوَيْسٍ، عَنْ إِسْمَاعِيلِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عُقْبَةَ، إِلَى قَوْلِهِ: «هَذَا الَّذِي أَوْفَى اللَّهُ لَهُ بِأَذْنِهِ». وَلَعَلَّ مَا بَعْدَهُ مِنْ قَوْلِ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ، وَقَدْ رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ قُلَيْبٍ، عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ بِإِسْنَادِهِ ثُمَّ قَالَ: قَالَ ابْنُ شَهَابٍ. فَذَكَرَ مَا بَعْدَهُ عَنْ مُوسَى، عَنْ ابْنِ شَهَابٍ. وَالْمَشْهُورُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّهَا كَانَتْ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمَصْطَلِقِ، فَلَعَلَ الرَّوَايَةَ وَهَمَّ فِي ذِكْرِ الْآيَةِ، وَأَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ غَيْرَهَا، فَذَكَرَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[٣٥٨٧] قَالَ الْأُمَوِيُّ فِي مِغَازِيهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَخَذَنِي قَوْمِي فَقَالُوا: إِنَّكَ أَمْرٌ شَاعِرٌ، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَعْتَذِرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِبَعْضِ الْعُلَّةِ، ثُمَّ يَكُونُ ذَنْبًا تَسْتَغْفِرُ اللَّهُ مِنْهُ. وَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوْلِهِ، إِلَى أَنْ قَالَ: وَكَانَ مِمَّنْ تَخَلَّفَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَنَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ مِنْهُمْ مِمَّنْ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ: الْجُلَّاسُ بْنُ سُؤَيْدِ بْنِ الصَّامِتِ، وَكَانَ عَلَى أُمِّ عَمِيرِ بْنِ سَعْدٍ، وَكَانَ عَمِيرُ فِي حِجْرِهِ، فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ بِمَا ذَكَرَ مَا أَنْزَلَ فِي الْمُنَافِقِينَ، قَالَ الْجُلَّاسُ: وَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ صَادِقًا فِيمَا يَقُولُ لَنَحْنُ شَرُّ مِنَ الْحَمِيرِ. فَسَمِعَهَا عَمِيرُ بْنُ سَعْدٍ فَقَالَ: وَاللَّهِ - يَا جُلَّاسُ - إِنَّكَ لِأَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَأَحْسَنُهُمْ عِنْدِي بِلَاءٍ، وَأَعَزَّهُمْ عَلَيَّ أَنْ يَصِلَهُ شَيْءٌ يَكْرَهُهُ، وَلَقَدْ قَلْتُ مَقَالَةً لَئِنْ ذَكَرْتُمَا لِأَفْضَحْتُكُمْ وَلَئِنْ كَتَمْتُمَا لِتَهْلِكُنِي. وَإِلْحَادُهُمَا أَمْرٌ عَلَيَّ مِنَ الْآخِرَى. فَمَشَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ لَهُ مَا قَالَ الْجُلَّاسُ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْجُلَّاسُ خَرَجَ حَتَّى يَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ فَحَلَفَ بِاللَّهِ مَا قَالَ مَا قَالَ عَمِيرُ بْنُ سَعْدٍ، وَلَقَدْ كَذَبَ عَلَيَّ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ فِيهِ: «يَخْتَلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ»، إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. فَتَوَقَّفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهَا. فَزَعَمُوا أَنَّ الْجُلَّاسَ تَابَ فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ، وَنَزَعَ فَأَحْسَنَ النَّزْوَعُ^(٣). هَكَذَا جَاءَ هَذَا مُذْرَجًا فِي الْحَدِيثِ مُتَّصِلًا بِهِ. وَكَانَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ إِسْحَاقَ نَفْسَهُ، لَا مِنْ كَلَامِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ.

[٣٥٨٨] وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْجُلَّاسِ بْنِ سُؤَيْدِ بْنِ الصَّامِتِ، أَقْبَلُ هُوَ وَابْنُ أَمْرَاتِهِ مُصْعَبُ بْنُ قُبَاءٍ، فَقَالَ الْجُلَّاسُ: إِنْ كَانَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ حَقًّا فَنَحْنُ أَشْرُ مِنْ حُمْرِنَا هَذِهِ الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا. فَقَالَ مُصْعَبُ: أَمَا وَاللَّهِ - يَا عَدُوَّ اللَّهِ - لِأَخْبَرُنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَا قُلْتَ. فَاتَّيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَخَفْتُ أَنْ يَنْزَلَ فِيَّ

(١) أسنده الطبري ١٦٩٨٩ عن قتادة، وهذا مرسل. وساقه الواحدي ٥١٥ عنه بلا سند.

(٢) أخرجه البخاري ٤٩٠٦ وأحمد ٣٧٤/٤ مختصراً.

(٣) أخرجه الطبري ١٧٤٦٤ من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد مختصراً ولم يذكر فيه قصة الجلّاس. وأصله في الصحيحين دون

القرآن، أو تصيبي قارعة، أو أن أخلط بخطيئته، فقلت: يا رسول الله، أقبلت أنا والجلّاس من قباء، فقال كذا وكذا، ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبي قارعة ما أخبرتك. قال: فدعا الجلّاس فقال: «يا جلّاس، أقلت الذي قاله مصعب؟» فحلف، فأنزل الله: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾^(١)... الآية. وقال محمد بن إسحاق: كان الذي قال تلك المقالة - فيما بلغني - الجلّاس بن سويد بن الصامت، فرفعها عليه رجل كان في حجره، يقال له: عمير بن سعيد، فأنكرها، فحلف بالله ما قالها. فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسنت توبته، فيما بلغني.

[٣٥٨٩] وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني أيوب بن إسحاق بن إبراهيم، حدثني عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن سماك عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة، فقال: «إنه سيأتيكم إنسانٌ ينظر إليكم بعيني الشيطان، فإذا جاء فلا تكلموه». فلم يلبثوا أن طلع رجلٌ أزرق، فدعا رسول الله ﷺ فقال: «علام تشتمني أنت وأصحابك؟» فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾^(٢)... الآية. وقوله: ﴿وَهُمْ أَوْ يَمَاتُ يَسْأَلُونَ﴾، قيل: نزلت في الجلّاس، وذلك أنه همّ بقتل ابن امرأته حين قال: لأخبرن رسول الله ﷺ. وقيل: في عبد الله بن أبي، همّ بقتل النبي ﷺ. وقال السدي: نزلت في أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي، وإن لم يرض رسول الله ﷺ. وقد ورد أن نفرًا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك، في بعض تلك الليالي، في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً، قال الضحاك: ففيهم نزلت هذه الآية.

[٣٥٩٠] وذلك بيّن فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة» من حديث محمد بن إسحاق، عن الأعمش، عن عمرو بن مروة، عن أبي البخري، عن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - قال: كنت أخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به، وعمار يسوق الناقة - أو أنا: أسوقه، وعمار يقوده - حتى إذا كُنّا بالعقبة فإذا بآثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها، قال: فأتبهُت رسول الله ﷺ بهم، فصرخ بهم فَوَلَّوْا مديرين، فقال لنا رسول الله ﷺ: «هل عرفتم القوم؟» قلنا: لا، يا رسول الله، قد كانوا مُتَلَمِّينَ، ولكننا قد عرفنا الرُكَّابَ. قال: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة. وهل تَدْرُونَ ما أرادوا؟» قلنا: لا. قال: «أرادوا أن يَزْحَمُوا رسول الله في العقبة، فَيَلْقُوهُ منها». قلنا: يا رسول الله، ألا تبعث إلى عشائهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: «لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبيل عليهم يقتلهم». ثم قال: «اللهم ارمهم بالدبيلة». قلنا: يا رسول الله، وما الدبيلة؟ قال: «شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك»^(٣).

[٣٥٩١] وقال الإمام أحمد - رحمه الله - : حدثنا يزيد، أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جَمِيع، عن أبي الطُّفَيْل قال: لما أقبِل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أمر منادياً فنَادَى: «إِنَّ رسول الله أخذ العقبة فلا يأخذها أحد». فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار، إذ أقبِل رهط متلثمون على الرواحل، فغشوا عماراً وهو يسوق رسول الله ﷺ وأقبِل عمار - رضي الله عنه - يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ

(١) أخرجه الطبري ١٦٩٨٢ عن هشام بن عروة مرسلًا.

(٢) أخرجه الطبري ١٦٩٨٨ من حديث ابن عباس وإسناده لا بأس به.

(٣) إسناده ضعيف، أبو البخري اسمه سعيد بن فيروز لم يسمع من حذيفة.

لحذيفة: «قَدْ، قَدْ». حتى هبط رسول الله ﷺ فلما هبط نزل ورجع عمار، فقال: «يا عمار، هل عرفت القوم؟» فقال: قد عرفت عامة الرواحل، والقوم مثلثون. قال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أرادوا أن يَنْفِرُوا برسول الله ﷺ راحلته فيطرحوه». قال: فسأل عمار رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فقال: نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر. فقال: إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر. قال: فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله، وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر الباقيين حرب لله - عز وجل - ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد^(١).

[٣٥٩٢] وهكذا روى ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير نحو هذا، وأن رسول الله ﷺ أمر أن يمشي الناس في بطن الوادي، وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة، فتبعهم هؤلاء النفر الأزدلون، وهم مثلثون، فأرادوا سلوك العقبة، فأطلع الله على مرادهم رسوله، فأمر حذيفة فرجع إليهم، فضرب وجوه رواحلهم، ففرعوا ورجعوا مقبوحين، وأعلم رسول الله ﷺ حذيفة وعماراً بأسمائهم، وما كانوا هموا به من الفتك به - صلوات الله وسلامه عليه - وأمرهما أن يكتما عليهما^(٢). وكذلك روى يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، إلا أنه سَمَى جماعة منهم، فالله أعلم. وكذا قد حُكِيَ في معجم الطبراني، قاله البيهقي.

[٣٥٩٣] ويشهد لهذه القصة بالصحة ما رواه مسلم: حدثنا زهير بن حرب، حدثنا أبو أحمد الكوفي، حدثنا الوليد بن جُمَيْع، حدثنا أبو الطفيل قال: كان بين رجلٍ من أهل العقبة؟ وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس. فقال: أنشدك بالله، كم كان أصحاب العقبة، قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك. قال: كنا نُخْبِر أنهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وعَدْر ثلاثة، قالوا: ما سَمِعنا منادي رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم. وقد كان في حَرَّة فَمَشَى فقال: «إن الماء قليل، فلا يسبقني إليه أحد»، فوجد قوماً قد سبقوه، فلعنهم يومئذٍ^(٣).

[٣٥٩٤] وما رواه مسلم أيضاً، من حديث قتادة، عن أبي نَصْرَةَ، عن قيس بن عباد، عن عمار بن ياسر قال: أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً، لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط: ثمانية منهم تكفيكم الدبيلة: سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم»^(٤). ولهذا كان حذيفة يُقالُ له: «صاحب السر الذي لا يعلمه غيره». أي: من تعيين جماعة من المنافقين، وهم هؤلاء، قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره، والله أعلم. وقد ترجم الطبراني في مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة، ثم روى عن علي بن عبد العزيز، عن الزبير بن بكار أنه قال: هم مُعْتَب بن قُشَيْر، وَوَدِيعَة بن ثابت، وَجَدُّ بن عبد الله بن تَبْتَل بن الحارث، من بني عمرو بن عوف، والحارث بن يزيد الطائي، وأوس بن قَيْظِي، والحارث بن سُؤيد، وسعد بن زَرَّارة، وقيس بن فُهْد، وسُؤيد

(١) أخرجه أحمد ٤٥٣/٥ - ٤٥٤ من حديث أبي الطفيل الليثي، وقال الهيثمي في المجمع ١٩٥/٦ رجاله ثقات، وهو كما قال، لكن الوليد فيه لين، وهو من رجال مسلم.

(٢) إسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة.

(٣) أخرجه مسلم ٢٧٧٩ ح ١١، وأحمد ٣٩٠/٥ - ٣٩١ ح ٢٣٢١٤ من حديث أبي الطفيل.

(٤) أخرجه مسلم ٢٧٧٩، وأحمد ٢٦٢/٤ - ٢٦٣ - ٣١٩ و ٣٢٠، وأبو داود ٤٦٦٦.

وداعس من بني الحبلى، وقيس بن عمرو بن سهل، وزيد بن اللصبيت، وسلالة بن الحمام، وهما من بني قينقاع، أظهروا الإسلام.

وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، أي: وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويؤمن سيفارته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به.

[٣٥٩٥] كما قال عليه السلام للأنصار: «الم أجدكم ضللاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟»، كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمّن^(١). وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

[٣٥٩٦] وكما قال عليه السلام: «وما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فآغناه الله»^(٢). ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبَا إِلَيْكَ خَيْرٌ لَمَّْا وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَمُدُّهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، أي: وإن يستمروا على طريقهم ﴿يَمُدُّهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾، أي: بالقتل والهم والغم، ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ أي: بالعذاب والنكال والهوان والصغار، ﴿وَمَا لَمَّْا فِي الْأَرْضِ مِنْ وَرَثَةٍ وَلَا نَصِيرَةٍ﴾، أي: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، ولا يحصل لهم خيراً، ولا يدفع عنهم شراً.

﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَاهُ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخُلُوءًا بِهِمْ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه، لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين. فما وفى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل، يوم القيامة، عياداً بالله من ذلك. وقد ذكر كثير من المفسرين، منهم ابن عباس، والحسن البصري أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في ثعلبة بن حاطب الأنصاري.

[٣٥٩٧] وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ما هنا وابن أبي حاتم، من حديث معان بن رفاعه، عن علي بن يزيد، عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن - مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية - عن أبي أمامة الباهلي، عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالا. فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة! قليل تؤذي شكره خير من كثير لا تطيقه». قال: ثم قال مرة أخرى، فقال: «أما ترضى أن تكون مثل نبي الله، فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة لسارت». قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالا». قال: فاتخذ غنماً، فتمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها، فنزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة، ويترك ما سواهما. ثم نمت وكثرت، فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدود، حتى ترك الجمعة. فطلق يتلقى الركبان يوم الجمعة،

(١) تقدم تخريجه فيما سبق.

(٢) متفق عليه، وتقدم.

يسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله ﷺ: «ما فعل ثعلبة؟» فقالوا: يا رسول الله، اتَّخَذَ غَنَمًا فضاقت عليه المدينة. فأخبروه بأمره فقال: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة! وأنزل الله جل ثناؤه: ﴿حُدِّثُوا عَنْ آلِيكُمْ صَدَقَاتِهِمْ لِيُرْجَوْا وَيُرْجَىٰ إِلَيْكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].. الآية، قال: ونزلت عليه فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة: رجلاً من جهينة، ورجلاً من سليم، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين، وقال لهما: مُرَّا بثعلبة، ويفلان - رجل من بني سليم - فخذوا صدقاتهما. فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ فقال: ما هذه إلا جزية. ما هذه إلا أخت الجزية. ما أدري ما هذا؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلي. فانطلقا وسَمِعَ بهما السلمي، فنظر إلى خيار أسنان إبله، فَعَزَلَهَا للصدقة، ثم استقبلهما بها. فلما رأوها قالوا: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك. قال: بلى. فخذوها فإن نفسي بذلك طيبة، وإنما هي له، فأخذوها منه، فلما فَرَّغَا من صدقاتهما رجعا حتى مرَّا بثعلبة، قال: أروني كتابكما. فنظر فيه، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية. انطلقا حتى أرى رأيي. فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رأهما قال: «يا ويح ثعلبة! قبل أن يكلمهما، ودعا للسلمي بالبركة، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَنْ مِّنْ عَهْدٍ إِلَى اللَّهِ لَمَّا أَتَيْنَا مِنْ فَعَلِهِ لَتَلَصَّدَّقَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانُوا بِكَيْدٍ مُّبِينِينَ﴾. قال: وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة! قد أنزل الله فيك كذا وكذا. فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: «إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك». فجعل يحثو على رأسه التراب، فقال له رسول الله ﷺ: «هذا عمَلُكَ، قد أمرتك فلم تطعني». فلما أبى أن يقبض رسول الله ﷺ رجع إلى منزله، فقَبِضَ رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً. ثم أتى أبو بكر - رضي الله عنه - حين استخلف، فقال: قد عَلِمْتُ منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار، فاقبل صدقتي. فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ وأبى أن يقبلها، فقَبِضَ أبو بكر ولم يقبلها. فلما ولي عمر - رضي الله عنه - أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، أقبل صدقتي. فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر، فانا أقبلها منك! فقَبِضَ ولم يقبلها. ثم ولي عثمان - رضي الله عنه - فسأله أن يقبل صدقته، فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر، وأنا أقبلها منك. فلم يقبلها منه، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان^(١).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَعْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدْنَاهُ وَإِنَّا لَمَّا كَانُوا بِكَيْدٍ مُّبِينِينَ﴾، أي: أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم، كما جاء في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال:

(١) إسناده وإبهمة، والمثنى باطل، أخرجه الواحدى ٥١٧ والطبراني ٧٨٧٣ وفي «الطوال» (٢٠) والطبري ١٧٠٠٢ من حديث أبي أمامة، وإسناده ضعيف جداً، وهو مسلسل بالضعفاء. فيه معان بن رفاعه وثقه أحمد وأبو داود، وضعفه ابن معين، وقال أبو حاتم: لا يحتج به. وشيخه علي بن يزيد هو الألهاني الشامي. جاء في الميزان ٥٩٦٦ ما ملخصه: قال البخاري: منكر الحديث، وقال الترمذي: ليس بثقة. وقال أبو زرعة: ليس بثقة. وقال الدارقطني: متروك. وله علة ثالثة: القاسم بن عبد الرحمن ذكره الذهبي في «الميزان» ٦٨١٧: وثقه يحيى والترمذي وقال يعقوب بن شيبة: منهم من يضعفه، وقال أحمد: روى عنه علي بن يزيد أعاجيب، وما أراها إلا من قبل القاسم. وقال ابن حبان: كان القاسم يزعم أنه لقي أربعين بدرياً، كان ممن يروي عن أصحاب النبي ﷺ المعضلات، ويأتي عن الثقات بالقلوب، حتى يسبق إلى القلب أنه كان المعتمد لها. اهـ فالحديث ضعيف جداً كما ترى. وقال الهيثمي في «المجمع» ٣١٧/٣٢: فيه علي بن يزيد الألهاني: متروك. وقال ابن حجر في «تفريج الكشاف» ٢/٢٩٢: إسناده ضعيف جداً. وقال ابن حزم في «السيرة» ص ٩٨ هذا باطل. اهـ. وهو كما قالوا.

[٣٥٩٨] «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوتمن خان»^(١). وله شواهد كثيرة، والله أعلم. وقوله: «أَلَمْ يَلْمُوكُمْ أَنْ قَالَ اللَّهُ بِرَبِّكُمْ سِرًّا وَنَجْوَاهُ وَأَنْ قَالَ اللَّهُ عَلَنُ الْغُيُوبِ»^(٢)، يخبرهم تعالى أنه يعلم السرّ وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنهم إن حصل لهم أموال تصدّقوا منها وشكروا عليها، فإنه أعلم بهم من أنفسهم، لأنه تعالى علام الغيوب، أي: يعلم كل غيب وشهادة، وكل سرّ ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٧٩)

وهذه أيضاً من صفات المنافقين: لا يسلم أحد من عيبتهم ولمنزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مرأء. وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، كما قال البخاري:

[٣٥٩٩] حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو النعمان البصري، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن أبي وائل، عن أبي مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نُحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مُرّاني. وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية^(٢). وقد رواه مسلم أيضاً في صحيحه، من حديث شعبة، به.

[٣٦٠٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا الجريري، عن أبي السليل قال: وقف علينا رجل في مجلسنا بالبيع فقال: حدثني أبي - أو عمي - أنه رأى رسول الله ﷺ بالبيع، وهو يقول: «من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة؟» قال: فمحللت من عماتي لوثاً أو لوثين، وأنا أريد أن أتصدق بهما، فأدركني ما يدرك ابن آدم، ففعدت على عماتي، فجاء رجل لم أر بالبيع رجلاً أشد سواداً ولا أقصر قمّة، ولا أدم بعين منه يقود ناقه، لم أر بالبيع ناقه أحسن منها، فقال: يا رسول الله، أصدقة؟ قال: «نعم». فقال: دونك هذه الناقه. قال: فلمزّه رجلٌ فقال: هذا يتصدق بهذه. فوالله لهي خير منه. قال: فسَمِعَهَا رسولُ الله ﷺ فقال: «كذبت، بل هو خير منك ومنها» - ثلاث مرات - ثم قال: «ويل لأصحاب المثين من الإبل» - ثلاثاً - قالوا: إلا من يا رسول الله، قال: «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا». وجمّع بين كُفْيهِ عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «قد أفلح المُزهد المُجهد - ثلاثاً - المُزهد في العيش، المُجهد في العبادة»^(٣).

[٣٦٠١] وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاءه رجلٌ من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعضُ المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء. وقالوا: إن كان الله ورسوله لَعَنَيْنِ عن هذا الصاع^(٤).

(١) أخرجه البخاري ٣٣ و٢٦٨٢ و٧٢٤٩ ومسلم ٥٩ ح ١٠٩ و١١٠ وأحمد رقم ٨٦٧٠ والترمذي ٢٦٣٣ والنسائي ١١٧/٨ من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٦٨.

(٣) ضعيف، أخرجه أحمد ٣٤/٥ بهذا الإسناد، قال الهيثمي في «المجمع» ٤٦٧٠: فيه رجل لم يسم اهـ فالإسناد ضعيف، والمتن غريب. وقوله: لوثاً أو لوثين: أي لفة أو لفتين.

(٤) أخرجه الطبري ١٧٠١٨ وفيه إرسال بين علي بن أبي طلحة وابن عباس.

[٣٦٠٢] وقال العوفي، عن ابن عباس: إن رسول الله خرج إلى الناس يوماً فنادى فيهم: أن اجمعوا صدقاتكم، فجمع الناس صدقاتهم، ثم جاء رجلٌ من آخرهم بصاع من تمر، فقال: يا رسول الله، هذا صاعٌ من تمرٍ بئ ليأتي أجرٌ بالجبر الماء، حتى نلتُ صاعين من تمرٍ فأمسكتُ أحدهما، وأتيتك بالآخر. فأمره رسول الله ﷺ أن يثره في الصدقات. فسخر منه رجالٌ، وقالوا: إن الله ورسوله لغنيان عن هذا. وما يصنعان بصاعك من شيء. ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ: هل بقي أحد من أهل الصدقات؟ فقال له رسول الله ﷺ: «لم يبق أحد غيرك». فقال له عبد الرحمن بن عوف: فإن عندي مئة أوقية من ذهب في الصدقات. فقال له عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: أمجنون أنت؟! قال: ليس بي جنون. قال: أفعلت ما فعلت؟ قال: نعم، مالي ثمانية آلاف، أما أربعة آلاف فأقرضها ربي، وأما أربعة آلاف فلي. فقال له رسول الله ﷺ: «بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ وَفِيمَا أَعْطَيْتَ». ولمزه المنافقون فقالوا: والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء. وهم كاذبون، إنما كان به مُتَطَوِّعاً، فأنزل الله - عز وجل - وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر، فقال تعالى في كتابه: ﴿الَّذِينَ يَكْمُرُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾^(١)... الآية. وكذا روي عن مجاهد^(٢)، وغير واحد.

[٣٦٠٣] وقال ابن إسحاق: كان المُطَّوِّعون من المؤمنين في الصدقة: عبد الرحمن بن عوف، تصدق بأربعة آلاف درهم، وعاصم بن عدي أخا بني العجلان، وذلك أن رسول الله ﷺ رَغِبَ في الصدقات، وحَضَّ عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف، وقام عاصم بن عدي فتصدق بمئة وسق من تمر، فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء. وكان الذي تصدق بجهده: أبو عَقِيل أخو بني أُنَيْف الإراشي - حليف بني عمرو بن عوف - أتى بصاع من تمر فأقرغه في الصدقة، فتضاحكوا به وقالوا: إن الله لغنيٌ عن صاع أبي عَقِيل^(٣).

[٣٦٠٤] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا طالوت بن عباد، حدثنا أبو عوانة، عن عُمَر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «تَصَدَّقُوا، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُبْعَثَ بَعْشاً». قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال: يا رسول الله، عندي أربعة آلاف، ألفان أقرضهما ربي، وألفان لعيالي. فقال رسول الله ﷺ: «بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَبَارَكَ لَكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ. وَبَاتَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَصَابَ صَاعِينَ مِنْ تَمْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَصَبْتُ صَاعِينَ مِنْ تَمْرٍ: صَاعٌ أَقْرَضَهُ لِرَبِّي، وَصَاعٌ لِعِيَالِي. قَالَ: فَلَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ وَقَالُوا: مَا أَعْطَى الَّذِي أَعْطَى ابْنَ عَوْفٍ إِلَّا رِيَاءً وَقَالُوا: أَلَمْ يَكُنِ اللهُ وَرَسُولُهُ غَنِيِّينَ عَنْ صَاعٍ هَذَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿الَّذِينَ يَكْمُرُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَحْدُرُونَ إِلَّا جُهْدُهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾... الآية. ثم رواه عن أبي كامل، عن أبي عوانة، عن عُمَر بن أبي سلمة، عن أبيه مرسلًا. قال: ولم يسنده أحد إلا طالوت^(٤).

- (١) أخرجه الطبري ١٧٠١٩ وفيه عطية بن سعد العوفي ضعيف، وذكر «مئة أوقية» غريب لا يتابع عليه العوفي، وقد أخرجه الطبري ١٧٠٢٠ و١٧٠٢١ عن مجاهد، وفيه «جاء عبد الرحمن بصدقة ماله أربعة آلاف فلمزه المنافقون...».
- (٢) تقدم ما ورد عن مجاهد ليس فيه «مئة أوقية» والذي أراد ابن كثير أنه ورد عن مجاهد أيضاً أنها نزلت في ابن عوف، والله أعلم.
- (٣) هذا معضل لكن يشهد له ما قبله، وورد عن قتادة مرسلًا أخرجه الطبري ١٧٠٢٣.
- (٤) إسناده غير قوي لأجل عمر بن أبي سلمة، لكن لأصله شواهد.

[٣٦٠٥] وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابنُ وكيع، حدثنا زيد بن الحُبَاب، عن موسى بن عُبيدة، حدثني خالد بن يسار، عن ابن أبي عَقِيل، عن أبيه قال: بت أجرُ الجَرِير على ظهري، على صاعين من تمر، فانقلبت بأحدهما إلي أهلي يتبَلغون به، وجئتُ بالآخر أتقرب به إلى رسول الله ﷺ فأتيته فأخبرته، فقال: «انثروه في الصدقة». قال: فسَجَرَ القوم وقالوا: لقد كان الله غَنِيًّا عن صدقة هذا المسكين. فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾... الآيةين^(١). وكذا رواه الطبراني من حديث زيد بن الحباب، به. وقال: اسم أبي عقيل: حَبَاب، ويقال: عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة. وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾، وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر بهم، انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم. وقد قيل: إن السبعين إنما ذُكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها. وقيل: بل لها مفهوم.

[٣٦٠٦] كما رَوَى العَوْفِيُّ عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «أسمع ربي قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرون أكثر من سبعين مرة، لعل الله أن يغفر لهم! فقال الله تعالى من شدة غضبه عليهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾»^(٢).

[٣٦٠٧] وقال الشعبي: لما ثقل عبد الله بن أبي، انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي قد احتضِر، فأحب أن تشهده وتُصلي عليه. فقال النبي ﷺ: «ما اسمك؟» قال: الحباب بن عبد الله. قال: «بل أنت عبد الله بن عبد الله، إن الحباب اسم شيطان». قال: فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق، وصلى عليه، فقيل له: أتصلي عليه وهو منافق؟ قال: «إن الله تعالى قال: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾، ولأستغفرون له سبعين وسبعين وسبعين»^(٣). وكذا رَوَى^(٤) عن عروة بن الزبير، ومجاهد بن جبر، وقتادة بن دَعَامَةَ. رواها ابن جرير بأسانيده.

(١) أخرجه الطبري ١٧٠٢٩ وإسناده ضعيف لضعف موسى بن عبيدة الربذي.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري ١٧٠٤٥ من حديث ابن عباس، وفيه مجاهيل، وعلية العوفي ضعيف، وسيأتي بغير هذا اللفظ عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْأَلْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ آية ٨٤.

(٣) منكر. أخرجه الطبري ١٧٠٤٤ عن الشعبي هكذا مرسلًا، ومع إرساله فيه هشيم ومغيرة وكلاهما مدلس. ثم إن المتن منكر، ولا يصح حتى عن الشعبي وذلك من وجوه:

الأول: سيأتي هذا الخبر في الصحيحين وليس فيه أنه سأله عن اسمه.

والثاني: أنه ﷺ كيف لا يعرف اسمه قبل ذلك مع أنه قديم الإسلام؟ بل ذكر غير واحد أنه شهد بدرًا. كما في الإصابة ٣٣٦/٢ وهو الذي استأذن رسول الله ﷺ في قتل أبيه.

الثالث: قوله: «حباب اسم شيطان» فيه نظر، فإن جماعة من الصحابة تسموا بذلك ولم يغير رسول الله ﷺ أسماءهم، ومن أشهر هؤلاء الحباب بن المنذر. راجع الإصابة ٣٠١/١ - ٣٠٢/١٠٤٥ - ١٥٥٣.

(٤) مراده أن الآية نزلت في شأن ابن سلول، لا أنهم ذكروا ما ذكره الشعبي.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه، ﴿وَكُرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾، أي: بعضهم لبعض: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾. وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلماذا قالوا: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾، قال الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ لَهُمْ﴾: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر، بل أشد حراً من النار.

[٣٦٠٨] كما قال الإمام مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نارُ بني آدم التي يُوقدون بها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم». فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية. فقال: «فُضِّلَتْ عليها بتسعة وستين جزءاً». ^(١) أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك، به.

[٣٦٠٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد». ^(٢) وهذا أيضاً إسناده صحيح.

[٣٦١٠] وقد روى الإمام أبو عيسى الترمذي وابن ماجه، عن عباس الدوري، عن يحيى بن أبي بكير، عن شريك، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء كالليل المظلم» ^(٣). ثم قال الترمذي: لا أعلم أحداً رقبه غير يحيى. كذا قال. وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه عن إبراهيم بن محمد، عن محمد بن الحسين بن مكرم، عن عبيد الله بن سعد، عن عمه، عن شريك - وهو ابن عبد الله النخعي -، به.

[٣٦١١] وروى أيضاً ابن مردويه من رواية مبارك بن فضالة، عن ثابت، عن أنس قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، قال: «أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى اسودت، فهي سوداء كالليل لا يُضيءُ لهنها» ^(٤).

[٣٦١٢] وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث تمام بن نجيع - وقد اختلف فيه - عن الحسن،

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٢/٩٩٤، والبخاري ٣٢٦٥، ومسلم ٢٨٤٣ وابن حبان ٧٤٦٢ والبخاري ٤٣٩٨.

(٢) أخرجه أحمد ٢/٢٤٤، والحميدي ١١٢٩ وابن حبان ٧٤٦٣، والبيهقي في البعث ٥٠٠ من طرق عن سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٥٩١، وابن ماجه ٤٣٢٠، وإسناده حسن لأجل عاصم بن أبي النجود فهو صدوق كما في التقريب، وللحديث شواهد.

(٤) مبارك بن فضالة غير قوي، لكن للحديث شواهد.

عن أنس مرفوعاً: «لو أن شرارةً بالشرق - أي: من نار جهنم - لوجدَ حرَّها من المغرب»^(١).

[٣٦١٣] وروى الحافظ أبو يعلى عن إسحاق بن أبي إسرائيل، عن أبي عبيدة الحداد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن شبيب، عن جعفر بن أبي وحشية، عن سعيد بن جبَّير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان في هذا المسجد مئة ألف أو يزيدون، وفيهم رجلٌ من أهل النارِ فتنفَس، فأصابهم نَفْسُه، لاحترق المسجدُ ومن فيه»^(٢). غريب.

[٣٦١٤] وقال الأعمش، عن أبي إسحاق، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهوَنَ أهل النار عذاباً يوم القيامة لمن له نعلان وشِرَاكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المِرْجَلُ»^(٣)، لا يَزِي أن أحداً من أهل النار أشدَّ عذاباً منه، وإنه أهوَنُهم عذاباً»^(٤). أخرجاه في الصحيحين، من حديث الأعمش.

[٣٦١٥] وقال مسلم أيضاً: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن أبي بُكير، حدثنا زهير بن محمد، عن سهيل بن أبي صالح، عن النعمان بن أبي عياش، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة يَنْتَعِلُ بِنَعْلين من نار، يَغْلِي دِمَاغُه من حَرارة نعليه»^(٥).

[٣٦١٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن ابن عجلان، سمعت أبي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذاباً رجل يُجَعَلُ له نعلان يَغْلِي منهما دماغه»^(٦). وهذا إسناد جيد قوي، رجاله على شرط مسلم، والله أعلم. والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة، وقال الله تعالى في كتابه

(١) ضعيف، أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١٨٥٧٤ وابن عدي ٨٤/٢ من حديث أنس، قال المنذري في «ترغيبه» ٥٣٦٨: في إسناده احتمال للتحسين. وقال الهيثمي: فيه تمام بن نجیح، وهو ضعيف، وقد وثق، وبقية رجاله أحسن حالاً منه اهـ. قلت: تمام ضعيف الحديث. جزم الحافظ بذلك في التقريب، وجاء في الميزان ١٣٤١: وثقه يحيى، وقال البخاري: فيه نظر، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه، وهو غير ثقة. وقال أبو حاتم: ذاهب الحديث، وقال أبو زرعة: ضعيف. وقال ابن حبان: يروي أشياء موضوعة اهـ فتحصل من أقوالهم أنه ضعيف.

(٢) منكر. أخرجه أبو يعلى ٦٦٧٠ وأبو نعيم ٣٠٧/٤ من حديث أبي هريرة. قال الهيثمي في «المجمع» ٣٩١/١٠: رواه أبو يعلى عن شيخه إسحاق، ولم ينسبه، فإن كان ابن راهويه، فرجاله رجال الصحيح، وإلا فلم أعرفه اهـ وهو إسحاق بن أبي إسرائيل كما بينه أبو نعيم، واستغربه أبو نعيم عقب روايته. وقال المنذري في «الترغيب» ٥٣٦٧: إسناده حسن، وفي متنه نكارة. وعزاه الحافظ في «المطالب العالية» ٤٦٦٧ ونقل الأعظمي عن البوصيري قوله: إسناده حسن اهـ قلت: إسحاق بن أبي إسرائيل صدوق. وأبو عبيدة هو عبد الواحد بن واصل، وثقه يحيى وغيره، وقال أحمد: أخشن أن يكون ضعيفاً اهـ، ولعله وهم في هذا الحديث فرفعه، والله أعلم، فإنه غريب. وورد من وجه آخر أخرجه البزار ٣٤٩٩ وفي إسناده عبد الرحيم بن هارون قال الدارقطني: متروك يكذب اهـ الميزان، فلا يعتبر بمتابعته، والإسناد الأول فيه ضعف، فالخبر غير قوي، وقد استنكره المنذري كما تقدم. ثم رأيت ابن الجوزي أخرجه في «الواحيات» ١٦٦٤/٢/٩٣٨ وقال: قال أحمد بن حنبل: هذا حديث منكر، ومحمد بن شبيب لا يعرف اهـ فنوزع بقول الإمام أحمد إنه حديث منكر والله أعلم.

(٣) الرجل: قنر من نحاس، وقيل: يطلق على كل قنر يطبخ فيه.

(٤) أخرجه البخاري ٧١٧، ومسلم ٩٩٤، وأحمد ٢٧١/٤ من حديث النعمان بن بشير.

(٥) أخرجه مسلم ٢١١ وأبو عوانة ٩٨/١ وأحمد ٧٨/٣ والحاكم ٥٨١/٤ وابن منده في الإيمان ٩٦٣.

(٦) أخرجه أحمد ٤٣٢/٢ و٤٣٩، وابن حبان ٧٤٧٢، والحاكم ٥/٤ من حديث أبي هريرة وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/٣٩٥: رواه الطبراني في «الأوسط» ورجال الصحيح غير يزيد بن خالد بن موهب، وهو ثقة اهـ. وإسناده جيد قوي كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى.

العزیز: ﴿كَلَّا إِنَّمَا لَطَىٰ ۖ ﴿١٥﴾ تَزَاعَةَ لَلشَّرَىٰ ۖ ﴿١٦﴾﴾ [المعارج: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَصْبُ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۖ ﴿١١﴾ يُصَهَّرُ بِوَيْءِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَلِبَلْوَدٍ ۖ ﴿١٢﴾ وَكَمْ مَقْنَعٍ مِنْ حَبِيبٍ ۖ ﴿١٣﴾ كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ لَلشَّرِيفِ ۖ ﴿١٤﴾﴾ [الحج: ١٩ - ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كُلَّمَا نَبِهَتْ جُلُودُهُمْ بِذَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾، أي: لو أنهم يفقهون ويفهمون لَنَفَرُوا مع الرسول في سبيلِ الله في الحر، لِيَتَّقُوا به من حَرِّ جَهَنَّمَ، الذي هو أضعافُ أضعافِ هذا، ولكنهم كما قال الآخرُ:

كالمستجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ

وقال الآخر:

عُمْرُكَ بِالْجَنَمَةِ أَفْنَيْتَهُ مَخَافَةُ الْبَارِدِ وَالْحَارِ
وَكَانَ أَوْلَىٰ بِكَ أَنْ تَتَّقِي مِنَ الْمَقَاصِي حَذَرَ النَّارِ

ثم قال تعالى - جلَّ جلاله - متوعداً لهؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۖ ﴿٨٢﴾﴾. قال ابنُ أبي طَلْحَةَ، عن ابن عباس: الدنيا قليل، فَلْيَضْحَكُوا فيها ما شاؤوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله - عز وجل - استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً. وكذا قال أبو زَرِين، والحسنُ، وقادة، والربيع بن خُثَيْم، وعَوْن العُقَيْلي، وزيد بن أسلم.

[٣٦١٧] وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبي خدّاش، حدثنا محمد بن حُمَيْد، عن ابن المبارك، عن عمران بن زيد، حدثنا يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس، ابكوا، فإن لم تبكوا فتابكوا، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول، حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون، فلو أن سفناً أرخيت فيها لجرت»^(١). ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش عن يزيد الرقاشي، به.

[٣٦١٨] وقال الحافظ أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن العباس، حدثنا حماد الجزري، عن زيد بن رفيع - رفعه - قال: إن أهل النار إذا دخلوا النار - بكوا الدموع زماناً، ثم بكوا القَيْحَ زماناً - قال: فتقول لهم الحَزْنَةُ: يا معشرَ الأشقياء، تركتم البكاء في الدار المرحوم فيها أهلها في الدنيا، هل تجدون اليوم من تستغيثون به؟ قال: فيرفعون أصواتهم: يا أهل الجنة، يا معشرَ الآباء والأمهات

(١) أخرجه أبو يعلى ٤١٣٤ بهذا الإسناد، وهو واه بمرّة. فيه محمد بن حيد الرازي ضعيف جداً، وعمران بن زيد لين، ويزيد الرقاشي واه. ومن وجه آخر أخرجه ابن ماجه ٤٣٢٤ عن يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً، وقال البوصيري في الزوائد: في إسناده يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف اهـ ولصدره شواهد. ولعجزه شاهد أيضاً أخرجه الحاكم ٦٠٦/٤ من حديث أبي موسى وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي والمنذري في «ترغيبه» ٣٤٣٥. ولفظ الحاكم «إن أهل النار لي يكون، حتى لو أجريت السفن في دموعهم، لجرت، وأنهم لي يكون الدم. يعني مكان الدمع» اهـ. وإسناده على شرطهما، اللهم إن كان سلام بن مسكين سمعه من أبي بردة، حيث لم أجد في التهذيب وغيره أنه روى عنه، هذا شيء. والشئ الثاني: ساقه عنه بعبارة توهم الانقطاع حيث فيه «سلام بن مسكين». قال: حدث أبو بردة عن عبد الله بن قيس - أي أبي موسى - فقوله «حدث» لا تدل على أنه سمعه منه، والله أعلم. وقد جرى الألباني على ظاهره دون أن ينبه على ما ذكرت، فذكره في الصحيحة ١٦٧٩ وفي ذلك نظر، والله أعلم.

والأولاد، خرجنا من القبور عطاشاً، وكنا طول الموقف عطاشاً، ونحن اليوم عطاش، فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فيذعون أربعين سنة لا يجيبهم، ثم يجيبهم: ﴿إِنَّكَ تَكُونُ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فيأسون من كل خير^(١).

﴿فَإِنْ رَجَمَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَدْرَكَ لِّلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ نَّخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَئِن تَقْتُلُونَا مَعِيَ عَدُوًّا
إِنَّكَ رَضِيئَةٌ بِالْقُعُودِ أَوْلَىٰ مَرَّةً فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾

يقول تعالى أمر الرسول - عليه الصلاة والسلام - : ﴿فَإِنْ رَجَمَكَ اللَّهُ﴾ ، أي : ردك الله من غزوتك هذه ﴿إِنَّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ - قال قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً - ﴿فَاسْتَدْرَكَ لِّلْخُرُوجِ﴾ ، أي : منعك إلى غزوة أخرى ، ﴿فَقُلْ لَّنْ نَّخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَئِن تَقْتُلُونَا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ . أي : تعزيراً لهم وعقوبة . ثم علل ذلك بقوله : ﴿إِنَّكَ رَضِيئَةٌ بِالْقُعُودِ أَوْلَىٰ مَرَّةً﴾ ، وهذا كقوله تعالى : ﴿وَتَقُولُ آبَاءُهُمْ رَبَّنَا لِمَا نَفَعْنَا مِنْ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ﴾ [الأنعام: ١١٠] ، فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، كما قال في غمرة الحديبية : ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِكَّ مَكَانِهِمْ لِمَا تَدْرُونَ مَا نَفَعْنَا مِنْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَةَ اللَّهِ فَلَئِنْ هُمُ لَن تَدْعُونَنَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ يَنْبَغِي لَكُمْ قَالَ اللَّهُ يَنْبَغِي لَكُمْ﴾ [الفتح: ١٥] . وقوله تعالى : ﴿فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ ، قال ابن عباس : أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة ، وقال قتادة : ﴿فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ ، أي : مع النساء . قال ابن جرير : وهذا لا يستقيم ، لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون ، ولو أريد النساء لقال : فاقعدوا مع الخوالف ، أو الخالفات ، ورجع قول ابن عباس رضي الله عنهما .

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا نَفَعٌ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ

فَلَسِيقُونَ﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين ، والأصل يصلي على أحد منهم إذا مات ، والأصل يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له ؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا عليه . وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه ، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين .

[٣٦١٩] كما قال البخاري : حدثنا عبيد بن إسماعيل ، عن أبي أسامة ، عن عبيد الله ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله - هو ابن أبي - جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، تُصَلِّي عليه وقد نهاك ربك أن تُصَلِّي عليه؟ قال رسول الله ﷺ : ﴿إِنَّمَا خَيْرِنِي اللَّهُ فَقَالَ : ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ، وسأزيده على السبعين . قال : إنه منافق؟ قال : فصلي عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل آية : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا نَفَعٌ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ . وكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن أبي أسامة حماد بن أسامة ، به . ثم رواه البخاري عن إبراهيم بن المنذر ، عن أنس بن عياض ، عن عبيد الله - وهو ابن عمر العمري - به ،

(١) لا أصل له ، فهو مرسل ، ومرسله زيد بن رُفيع ، ضعفه الدارقطني ، وقال النسائي : ليس بالقوي ، وحماد هو ابن عمر النصيبي متهم بالكذب ، وقال البخاري منكر الحديث ، وقال ابن حبان : يضع الحديث وضعاً . فالخبر باطل مرفوعاً .

وقال: فصلّى عليه، وصلينا معه، وأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا﴾^(١)... الآية. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن يحيى بن سعيد القطان، عن عبيد الله، به.

[٣٦٢٠] وقد روي من حديث عُمر بن الخطاب نفسه أيضاً بنحوٍ من هذا، فقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حَدَّثَنِي الزَّهْرِيُّ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ عُمرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ: لَمَّا تُوفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي دُعَيْبٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ، فَقَامَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِ يَرِيدُ الصَّلَاةَ تَحَوَّلْتُ حَتَّى قَمْتُ فِي صَدْرِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْلَى عَدُوِّ اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي الْقَاتِلِ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا؟ يُعَدُّ أَيَّامَهُ - قَالَ: وَرَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَبَسَّمُ، حَتَّى إِذَا أَكْثَرَتْ عَلَيْهِ قَالَ: «أَخْرَعَنِي يَا عَمْرُ، إِنِّي خَيْرْتُ فَاخْتَرْتُ، قَدْ قِيلَ لِي: «اسْتَفْزِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَفْزِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَفْزِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ»، لَوْ أَعْلَمْتُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ». قَالَ: ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، وَمَشَى مَعَهُ، وَقَامَ عَلَى قَبْرِهِ حَتَّى فُرِغَ مِنْهُ. قَالَ: فَعَجِبْتُ لِي وَجَرَأَتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاللَّهِ وَرَسُولَهُ أَعْلَمُ! قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا كَانَ إِلَّا سَيِّراً حَتَّى نَزَلَتْ هَاتَانِ الْآيَاتَانِ: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٢). فَمَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَهُ عَلَى مَنْفَقٍ، وَلَا قَامَ عَلَى قَبْرِهِ، حَتَّى قَبَّضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ^(٣). وهكذا رواه الترمذي في التفسير من حديث محمد بن إسحاق، عن الزهري، به، وقال: حسن صحيح.

[٣٦٢١] ورواه البخاري، عن يحيى بن بكير، عن الليث، عن عُقَيْلٍ، عن الزُّهْرِيِّ، به - فذكر مثله - وقال: «أَخْرَعَنِي يَا عَمْرُ». فلما أكثرت عليه قال: «إِنِّي خَيْرْتُ فَاخْتَرْتُ، وَلَوْ أَعْلَمْتُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهِا». قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ انصرفت، فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت الآياتان من براءة: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾... الآية، فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ أعلم^(٣).

[٣٦٢٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عبيد، حدثنا عبد الملك، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أبي، أتى ابنه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك إن لم تأتاه لم نزل نُعْمِرُ بهذا. فاتاه النبي ﷺ فوجده قد أدخل في حفرة، فقال: «أفلا قبل أن تدخلوها!» فأخرج من حفرة، وتَمَلَّ عليه من ريقه من قَرْنِهِ إِلَى قَدَمَيْهِ، وَأَلْبَسَهُ قَمِيصَهُ^(٤). ورواه النسائي، عن أبي داود الحراني، عن يعلى بن عبيد، عن عبد الملك - وهو ابن أبي سليمان - به.

[٣٦٢٣] وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن عثمان، أخبرنا ابن عُيَيْنَةَ، عن عمرو، سمع جابر بن عبد الله قال: أتى النبي ﷺ عبد الله بن أبي بعدما أدخل في قبره، فأمر به فأُخْرِجَ، ووُضِعَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَنَفَتْ

(١) أخرجه البخاري ٤٦٧٠ ومسلم ٢٧٧٤ والطبراني ١٧٠٥١ والبيهقي في «الدلائل» ٢٨٧/٥ من طريقين عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر. وأخرجه البخاري ١٢٦٩، وأحمد ١٨/٢، ومسلم ٢٧٧٤ ح ٤، والنسائي ٣٦/٤، والترمذي ٣٠٩٨ وابن ماجه ١٥٢٣ من طرق عن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد الله به.

(٢) أخرجه أحمد ٩٥ وعبد بن حميد ١٩، والترمذي ٣٠٩٧، والبزار ١٩٣، والطبري ١٧٠٧٠، وابن حبان ١٣٧٦، وإسناده حسن، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث فزال شبهة تدليسه.

(٣) أخرجه البخاري ١٣٦٦ و٤٦٧١، والنسائي في المجتبى ٦٧/٤، وفي الكبرى ١١٢٢٥.

(٤) صحيح. أخرجه أحمد ٣٧١/٣ من حديث جابر بن عبد الله، ورجاله ثقات.

عليه من ريقه، وألبسه قميصه، والله أعلم^(١). وقد رواه أيضاً في غير موضع مع مسلم والنسائي، من غير وجه، عن سفيان بن عيينة به.

[٣٦٢٤] وقال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى، حدثنا مجالد، حدثنا جابر (ح) وحدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبد الرحمن بن مغراء الدوسي، حدثنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: لما مات رأس المنافقين - قال يحيى بن سعيد: بالمدينة - فأوصى أن يُصلي عليه النبي ﷺ فجاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أبي أوصى أن يكفن في قميصك - وهذا الكلام في حديث عبد الرحمن بن مغراء - قال يحيى في حديثه: فصلّى عليه، وألبسه قميصه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّأَبْدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ وزاد عبد الرحمن: وخلع النبي ﷺ قميصه، فأعطاه إياه، ومشى فصلّى عليه، وقام على قبره، فأتاه جبريل - عليه السلام - لَمَّا وُلِيَ قال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّأَبْدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾^(٢). وهذا إسناد لا بأس به، وما قبله شاهد له.

[٣٦٢٥] وقال الإمام أبو جعفر الطبري: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا حماد بن سلمة، عن يزيد الرقاشي، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أراد أن يُصَلِّيَ على عبد الله بن أبي، فأخذ جبريل بشوبه وقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّأَبْدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾^(٣). ورواه الحافظ أبو يعلى في مسنده، من حديث يزيد الرقاشي، وهو ضعيف.

[٣٦٢٦] وقال قتادة: أرسل عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ وهو مريض، فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ: «أهلكك حُبُّ يهودة». قال: يا رسول الله، إنما أرسلت إليك لتستغفر لي، ولم أرسل إليك لتؤنّبني! ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه إياه، وصلى عليه، وقام على قبره، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّأَبْدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾^(٤). وقد ذكر بعض السلف أنه إنما ألبسه قميصه، لأن عبد الله بن أبي لما قَدِمَ العباس طَلِبَ له قَمِيصًا، فلم يُوجَدَ على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبي، لأنه كان ضخمًا، طويلاً، ففعل ذلك به رسول الله ﷺ مكافأة له، فالله أعلم. ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلي على أحد من المنافقين، ولا يقوم على قبره.

[٣٦٢٧] كما قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن أبيه، حدثني عبد الله بن أبي قتادة، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دُعِيَ لجنّازة سأل عنها، فإن أُنِّيَ عليها خيرٌ قام فصلّى عليها، وإن أُنِّيَ عليها غير ذلك قال لأهلها: «شأنكم بها»، ولم يُصَلِّ عليها^(٥). وكان عمر بن الخطاب لا يُصَلِّي على جنازة من

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٢٧٠ و ١٣٥٠ و ٣٠٠٨ و ٥٧٩٥، ومسلم ٢٧٧٣، والنسائي ٣٧/٤.

(٢) إسناده لا بأس به لأجل مجالد.

(٣) متن باطل، وإسناده ضعيف. أخرجه الطبري ١٧٠٦٨ وأبو يعلى ٤١٢٢ بهذا الإسناد، واكتفى ابن كثير رحمه الله بقوله: ضعيف. والصواب أنه متن باطل فإنه عارض أحاديث صحاح، وقد تقدم بعضها، وأنه صلّى عليه، ثم نزلت الآية. وأما هذا الخبر ففيه أنه لم يصلّ عليه، وهذا الخبر من منكرين يزيد بن أبان الرقاشي، فقد روى أحاديث منكري عن أنس.

(٤) أخرجه الطبري ١٧٠٧٤ عن قتادة، وهذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف، ثم إن صدره غريب، فالأحاديث الصحيحة تذكر أن عبد الله أعلم رسول الله ﷺ بعد موت أبيه - ابن سلول.

(٥) صحيح. أخرجه أحمد ٢٩٩/٥ و ٣٠٠ وصححه ابن حبان ٣٠٥٧، والحاكم ٣٦٤/١ ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع ٣/٣ - ٤: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

جُهَل حاله، حتى يُصَلِّيَ عليها حُدَيْفَةُ بن اليمان، لأنه كان يعلم أعيان منافقين قد أخبره بهم رسول الله ﷺ ولهذا كان يقال له: صاحب السر الذي لا يعلمه غيره، أي: من الصحابة.

وقال أبو عُبَيْد في كتاب الغريب في حديث عُمَرُ أنه أراد أن يصلي على جنازة رَجُلٍ، فَمَرَّه حُدَيْفَةُ، كأنه أراد أن يَصُدَّهُ عن الصلاة عليها. ثم حَكَى عن بعضهم أن المَرَزَّ بلغة أهل اليمامة هو: القَرَضُ بأطراف الأصابع. ولما نهى الله - عز وجل - عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصنيعُ من أكبر القُرْبَاتِ في حق المؤمنين، فشرع ذلك. وفي فعله الأجرُ الجزيل، لما ثبت في الصحاح وغيرها، من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

[٣٦٢٨] «من شهد الجنائزَةَ حتى يُصَلِّيَ عليها فله قيراطٌ، ومن شهدها حتى تُدْفَنَ فله قيراطان». قيل: وما القيراطان؟ قال: «أصغرُهما مثل أحد»^(١).

[٣٦٢٩] وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات، فقد قال أبو داود: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي، أخبرنا هشام، عن عبد الله بن بَحِيرٍ، عن هانئ - وهو أبو سعيد البربري، مولى عثمان بن عفان - عن عثمان - رضي الله عنه - قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وَفَّ عليه وقال: «استغفروا لأخيكم، وسلوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل»^(٢). انفرد بإخراجه أبو داود رحمه الله.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ

كٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

وقد تقدم تفسير نظير هذه الآية، والله الحمد والمنة^(٣).

﴿وَإِذَا أَنْزَلْنَا سُورَةَ آءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّلُولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ

الْقَاتِلِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُغِيَ عَلَيْ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾

يقول تعالى منكرًا وذامًا للمتخلفين عن الجهاد، الناكِلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السَّعَةِ والطَّوْلِ، واستأذِنوا الرسول في القعود، وقالوا: «ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاتِلِينَ»، ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلامًا، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: «فَإِذَا جَاءَ لِكُوفُ رَأْيِهِمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ لِكُوفُ سَلَفِهِمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ» [الأحزاب: ١٩]، أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء، كما قال الشاعر:

أفسي السَّلم أعياراً جَفَاءَ وَغَلْظَةً وفي الحزب أشباه النِّسَاءِ العَوَارِكِ^(٤)

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧ و١٣٢٥ ومسلم ٩٤٥ ح ٥٢، وأبو داود ٣١٦٨، والترمذي ١٠٤٠ والنسائي ٧٦/٤، وابن ماجه ١٥٣٩، وأحد ٤٠١/٢ و٢٣٢ و٢٨٠ و٤٧٠ و٥٠٣ من حديث أبي هريرة.

(٢) حسن، أخرجه أبو داود ٣٢٢١، والحاكم ٣٧٠/١، والبيهقي ٥٦/٤ وإسناده لا بأس به لأجل عبد الله بن بحير، وله ما يؤيده، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٣) انظر الآية ٥٥ من هذه السورة.

(٤) الأعيار: جمع عير، وهو الحمار. ونساء عوارك: نساء حيفن.

وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿رَبُّهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِنَّا أَنْزَلْنَا سُورَةَ مُحْكَمَةً وَذَكَرْنَا فِيهَا الْقِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ضَلَاةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حَيْرًا لَهُمْ ﴿٨٨﴾﴾ [محمد: ٢٠-٢١]. الآية، وقوله: ﴿وَطَلَبَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، أي: بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله، ﴿فَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾، أي: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.

﴿لَكِنِ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩٠﴾﴾

لما ذكر تعالى ذم المنافقين بين ثناء المؤمنين، وما لهم في آخرتهم، فقال: ﴿لَكِنِ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا﴾... إلى آخر الآيتين، من بيان حالهم ومآلهم. وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾، أي: في الدار الآخرة، في جنات الفردوس والدرجات العلى.

﴿رَبَّاءَ الْمَعْدُونِ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩١﴾﴾

ثم بين تعالى حال ذوي الأعدار في ترك الجهاد، الذين جاؤوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة. قال الضحاک، عن ابن عباس: أنه كان يقرأ: «وجاء المعذرون»، بالتخفيف، ويقول: هم أهل العذر. وكذا روى ابن عيينة، عن حميد، عن مجاهد سواء. قال ابن إسحاق: وبلغني أنهم نفر من بني غفار، منهم خفاف بن إيماء بن رخصة. وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية، لأنه قال بعد هذا: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، أي: لم يأتوا فيعتذروا. وقال ابن جريج، عن مجاهد: «رَبَّاءَ الْمَعْدُونِ مِنَ الْأَعْرَابِ»، قال: نفر من بني غفار، جاؤوا فاعتذروا فلم يُعذرهم الله. وكذا قال الحسن، وقادة، ومحمد بن إسحاق. والقول الأول أظهر - والله أعلم - لما قدمنا من قوله بعده: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، أي: وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار، ثم أوعدهم بالعذاب الأليم، فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِدٌ مَّا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ فَيُضِضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْزًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٣﴾﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

ثم بين تعالى الأعدار التي لا حرج على من قعد فيها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به وما هو عارض بسبب مرض عن له في بدنه، وشغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره، لا يقدر على التجهز للحرب، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يُزجفوا

بالناس، ولم يُبْطِطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا، ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقال سفيان الثوري، عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي ثمامة - رضي الله عنه - قال: قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا عن الناصح لله؟ قال: الذي يُؤثر حق الله على حق الناس، وإذا حدث له أمران، أو: بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة، بدأ بالذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا.

وقال الأوزاعي: خرج الناس للاستسقاء، فقام فيهم بلال بن سعد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر من حضر، أستم مُقْرَبِينَ بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم. فقال: اللهم إنا نسئُكَ تقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، اللهم وقد أقرنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا. ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا. وقال قتادة: نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني.

[٣٦٣٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازي، حدثنا ابن جابر، عن ابن فروة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب براءة، فإني لو اضعُ القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾^(١)... الآية.

[٣٦٣١] وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه، فيهم عبد الله بن مَعْقِلُ المزني، فقالوا: يا رسول الله، احملنا. فقال لهم: «والله لا أجد ما أحملكم عليه». فتولوا ولهم بكاء. وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملاً. فلما رأى الله حزهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾: نزلت في بني مَرْزَنٍ من مزينة. وقال محمد بن كعب: كانوا سبعة نفر، من بني عمرو بن عوف: سالم بن عُمَيْرٍ، ومن بني واقف: هَرَمِي بن عمرو. ومن بني مازن بن النجار: عبد الرحمن بن كعب، ويكنى أبا ليلى. ومن بني الْمُعَلَى: سلمان بن صخر. ومن بني حارثة: عبد الرحمن بن زيد، أبو عبلة، وهو الذي تصدق بعرضه فقبله الله منه. ومن بني سَلِمَةَ: عمرو بن عَمَّة، وعبد الله بن عمرو المزني.

[٣٦٣٢] وقال محمد بن إسحاق في سياق غزوة تبوك: «ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بني عمرو بن عوف: سالم بن عُمَيْرٍ، وعُلبَةَ بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، أخو بني مازن بن النجار، وعَمْرُو بن الحُمَامِ بن الجَمُوحِ، أخو بني سَلِمَةَ، وعبد الله بن المغفل المزني وبعض الناس يقول: بل هو عبد الله بن عمرو المزني، وهَرَمِي بن عبد الله، أخو بني واقف، وعزْباض بن سارية الفزاري، فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة، فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه». فولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون.

(١) وعزاء السيوطي في «الدر المنثور» ٤٧٨/٣ لابن مردويه والدارقطني في «الأفراد» ولم يتكلم عليه، وابن جابر هذا لم أعرفه، وكذا ابن فروة، ولعله إسحاق بن أبي فروة، فإنه واو، والله أعلم، والخبر غريب بكل حال، لم يذكره السيوطي في أسباب النزول ولا الواحدي، والله أعلم.

(٢) أخرجه الطبري ١٧٠٩٤ بسند ضعيف لضعف عطية العوفي.

[٣٦٣٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن [عبد الله] (١) الأودي، حدثنا وكيع، عن الربيع، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خَلَفْتُمْ بِالْمَدِينَةِ اقْوَامًا، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ، وَلَا قَطَعْتُمْ وادِيًا، وَلَا نَلْتُمْ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا وَقَدْ شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ» ثُمَّ قَرَأَ: «وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِدٌ مَّا لِحُمْلِكُمْ عَلَيْهِ» الآية (٢).

[٣٦٣٤] وأصل هذا الحديث في الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ اقْوَامًا مَا قَطَعْتُمْ وادِيًا، وَلَا سَبَرْتُمْ مَسِيرًا إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ». قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نعم، حَسِبَهُمُ الْعَدُوَّ» (٣).

[٣٦٣٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خَلَفْتُمْ بِالْمَدِينَةِ رَجَالًا، مَا قَطَعْتُمْ وادِيًا وَلَا سَلَكْتُمْ طَرِيقًا إِلَّا شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ، حَسِبَهُمُ الْمَرَضُ» (٤). ورواه مسلم، وابن ماجه، من طرق، عن الأعمش، به. ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وآتبه في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالم في الرحال، «وَوَلَّجَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ».

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةُ فَيَنْتَقِمُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانِ عَنْهُمْ فَإِنَّ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم، «قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ»، أي: لن نصدقكم، «قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ»، أي: قد أعلمنا الله أحوالكم، «وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ»، أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا، «ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةُ فَيَنْتَقِمُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، أي: فيخبركم بأعمالكم، خيرا وشرها، ويجزيكم عليها. ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم، «فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ»، احتقارا لهم، «إِنَّهُمْ رَجِسٌ»، أي: خُبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم، «وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ» في آخرتهم «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»، أي: من الآثام والخطايا. وأخبر أنهم وإن رضوا عنهم بحلفهم لهم، «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ»، أي: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفارة قوسقة لخروجها من جحرها للإفساد، ويقال: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ: إذا خرجت من أكمامها.

(١) سقط من سائر النسخ، والاستدراك عن كتب الرجال، منها «الجرح والتعديل» ٢٤٤/٦.

(٢) مرسل. وهو يتأيد بما بعده.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٤٢٣ و٢٨٣٩، وأبو داود ٢٥٠٨، وابن ماجه ٢٧٦٤، وأحمد ١٠٣/٣ و١٠٦ و١٨٢ و٣٤١، وابن أبي شيبة ١٨٨٥٦، وابن سعد ١٢١/٢/١.

(٤) صحيح أخرجه أحمد ٣/٣٠٠، ومسلم ١٩١١، وابن ماجه ٢٧٦٥، والبيهقي في «الدلائل» ٢٦٧/٥.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَٰلِكُمْ أَسْوَأُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ ۗ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّمَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيَجْزِيهِمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، ﴿وَأَجْدَرُ﴾، أي أحرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، كما قال الأعمش، عن إبراهيم قال: جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليُعْجِبُنِي، وإن يدك لتُرَبِّبُنِي! فقال زيد: ما يُرَبِّبُكَ من يدي؟ إنها الشمال. فقال الأعرابي: والله ما أدري، اليمين يقطعون أو الشمال؟! فقال زيد بن صوحان: صدق الله: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾.

[٣٦٣٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن أبي موسى، عن وهب بن مُثَنَّب، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتَنَّ»^(١). ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن سفيان الثوري، به. وقال الترمذي: حسن غريب؛ لا نعرفه إلا من حديث الثوري. ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله تعالى منهم رسولاً، وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩].

[٣٦٣٧] ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فردَّ عليه أضعافها حتى رضي، قال: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَلَّا أَقْبَلَ هَدِيَّةَ إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ، أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ، أَوْ دَوْسِيٍّ»^(٢)؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة، والطائف، والمدينة، واليمن، فهم اللطف أخلاقاً من الأعراب، لما في طباع الأعراب من الجفاء.

[٣٦٣٨] حديث الأعرابي في تقبيل الولد، قال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالوا: حدثنا أبو أسامة وابن ثُمير، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: أَتَقْبَلُونَ صَبِيانَكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالُوا: لَكِنَّا وَاللَّهِ مَا نَقْبَلُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَمَلِكُ أَنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْكَ الرَّحْمَةَ؟ وَقَالَ ابْنُ ثُمَيْرٍ: مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةُ»^(٣). وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق أن

(١) حسن لغيره. وسنده ضعيف لجهالة أبي موسى فإنه لم يرو عنه غير سفيان، ولم يوثقه غير ابن حبان وباقى رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه أحمد رقم ٣٣٦٢، والنسائي ١٩٥/٧ - ١٩٦ من طريق عبد الرحمن بن مهدي بهذا الإسناد. وأخرجه ابن أبي شيبة ٣٣٦/١٢ عن وكيع، والبخاري معلقاً في الكنى ص ٧٠، وأبو داود ٢٨٥٩ من طريق يحيى بن سعيد القطان، والطبراني ١١٠٣٠ عن طريق أبي نعيم، ثلاثتهم عن سفيان الثوري، به. وله شاهد حسن من حديث أبي هريرة عند أحمد ٣٧١/٢ وآخر عن البراء بن عازب مختصراً بلفظ «من بدا جفا» وهو في المسند ٢٩٧/٤. وصححه أحمد شاكر في تعليقه.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد رقم ٢٦٨٧، والبزار (١٩٣٨ - كشف الأستار)، وابن حبان ٦٣٨٤، والطبراني ١٠٨٩٧ من حديث ابن عباس، وقال الهيثمي في المجمع ١٤٨/٤: ورجال أحمد رجال الصحيح، وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند وكذا شعيب الأرنؤوط.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٩٩٨، ومسلم ٢٣١٧، وأحمد ٥٦/٦ و٧٠.

يُعلِّمُهُ الْإِيمَانَ وَالْعِلْمَ، ﴿حَكِيمٌ﴾، فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يُسأل عما يفعل، لعلمه وحكمته. وأخبر تعالى أن منهم ﴿مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾، أي: في سبيل الله ﴿مَقَرَّمًا﴾ أي: غرامة وخسارة، ﴿وَيَرْتَضِ بِكُلِّ الدَّوَابِّ﴾، أي: ينتظر بكم الحوادث والآفات، ﴿عَلَيْهِمْ ذَاكِرَةُ السَّوَاءِ﴾، أي: هي منعكسة عليهم والسوء دائرٌ عليهم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أي: سمع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان. وقوله: ﴿وَرَبِّكَ الْأَعْرَابُ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَانًا﴾ عند الله وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ: هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله، ويتبنون بذلك دعاء الرسول لهم، ﴿أَلَا إِنَّمَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾، أي: ألا إن ذلك حاصل لهم، ﴿سَبَّحَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١٠٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ رِضَاهُ عَنِ السَّابِقِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَرِضَاهُمْ عَنْهُ بِمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَالتَّعِيمِ الْمُقِيمِ. قَالَ الشَّعْبِيُّ: السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مَنْ أَدْرَكَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ عَامَ الْحَدِيثِ. وَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةَ: هُمُ الَّذِينَ صَلَّوْا إِلَى الْقَبْلَتَيْنِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

[٣٦٣٩] ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ الْفَرَزْدِيِّ: مَرَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِرَجُلٍ يَقْرَأُ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾، فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ فَقَالَ: مَنْ أَقْرَأَكَ هَذَا؟ فَقَالَ: أَبِيُّ بْنُ كَعْبٍ. فَقَالَ: لَا تَفَارِقْنِي حَتَّى أَذْهَبَ بِكَ إِلَيْهِ. فَلَمَّا جَاءَهُ قَالَ عُمَرُ: أَنْتَ أَقْرَأْتَ هَذَا هَذِهِ الْآيَةَ هَكَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَسَمِعْتَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: لَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَنَا زُفْعَنَا رَفْعَةً لَا يَلْفِئُهَا أَحَدٌ بَعْدَنَا، فَقَالَ أَبِيُّ: تَصَدِّقُ هَذِهِ الْآيَةَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْجُمُعَةِ: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَنَّا نَلْحَقُهُمْ بِهِنَّ وَهُوَ النَّزِيرُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٣﴾، وَفِي سُورَةِ الْحَشْرِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْفِرْنَا لَنَا وَلَا تَخْزِنَا لِلَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، وَفِي الْأَنْفَالِ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأَوْفَى بِكَ وَعْدُكَ﴾ [الأنفال: ٧٥] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ. قَالَ: «وَذَكَرَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَؤُهَا بِرَفْعٍ ﴿وَالْأَنْصَارِ﴾ عَطْفًا عَلَى ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ الْعَظِيمُ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَيَا وَيْلَ مَنْ أَبْغَضَهُمْ أَوْ سَبَّهُمْ أَوْ أَبْغَضَ أَوْ سَبَّ بَعْضَهُمْ، وَلَا سِيَّمَا سَبَّ الصَّحَابَةَ بَعْدَ الرَّسُولِ وَخَيْرِهِمْ وَأَفْضَلِهِمْ، أَعْنِي الصَّدِيقَ الْأَكْبَرَ وَالْخَلِيفَةَ الْأَعْظَمَ أَبَا بَكْرٍ بِنِ أَبِي قَحْفَاةٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّ الطَّائِفَةَ الْمَخْذُولَةَ مِنَ الرَّافِضَةِ يِعَادُونَ أَفْضَلَ الصَّحَابَةِ وَبُغْضُونَهُمْ وَيَسُبُّونَهُمْ، عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَقُولَهُمْ مَعْكُوسَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ مَنكُوسَةٌ، فَأَيْنَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ إِذْ يَسُبُّونَ مَنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟ وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فَإِنَّهُمْ يَرْضَوْنَ عَمَّنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَيَسُبُّونَ مَنْ سَبَّهَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ، وَيُؤَالُونَ مَنْ يُؤَالِي اللَّهَ، وَيِعَادُونَ مَنْ يِعَادِي اللَّهَ، وَهُمْ مُتَبِعُونَ لَا مُبْتَدَعُونَ، وَيَقْتَدُونَ وَلَا يَبْتَدُونَ، وَلِهَذَا هُمْ حِزْبُ اللَّهِ الْمَفْلُحُونَ وَعِبَادَةُ الْمُؤْمِنُونَ.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَنَفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾
سَعَدَ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى رَسُولَهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - أَنَّ فِي أَحْيَاءِ الْعَرَبِ مِمَّنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مُنَافِقُونَ، وَفِي

أهل المدينة أيضاً منافقون ﴿مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ﴾، أي: مروا واستمروا عليه، ومنه يقال: «شيطان صريد ومارد»، ويقال: «تَمَرَّدَ فلان على الله»، أي: عَتَا وَتَجَبَّرَ. وقوله: ﴿لَا تَقْلَبُوهَا كَمَا قَلَّبْتُمْ﴾، لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ لَدُنَّا كَهَيْئَتِهَا يَخْتَصِمُ﴾ [محمد: ٣٠]... الآية. لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يُعَرَّفُونَ بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين. وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً، وإن كان يراه صباحاً ومساءً.

[٣٦٤٠] وشاهد هذا بالصححة ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم، عن رجل، عن جُبَيْر بن مطعم - رضي الله عنه - قال: قلت يا رسول الله، إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة، فقال: «لنأتينكم أجوركم ولو كنتم في جحر ثعلب». وأصغى إليّ رسول الله ﷺ برأسه فقال: «إن في أصحابي منافقين»^(١). ومعناه أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له، ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذي سمعه جُبَيْر بن مطعم. وتقدم في تفسير قوله: ﴿وَهُمْ يُرِيدُونَ أَن يَتَأَلَّوْا﴾ أنه - عليه السلام - أعلم حُدَيْفَةَ بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم.

[٣٦٤١] وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عَمَرَ البيروتي من طريق هشام بن عمار: حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا ابن جابر، حدثني شيخ بيروت يكنى أبا عَمَرَ، أظنه حدثني عن أبي الدرداء: أن رجلاً يقال له حرملة، أتى النبي ﷺ فقال: الإيمان ما هنا - وأشار بيده إلى لسانه والنفاق هنا وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلا قليلاً، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل له لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وارزقه حُبِّي، وحب من يُحِبُّني، وصبر أمره إلى خير». فقال: يا رسول الله، إنّه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأساً فيهم، أفلا أتيتك بهم؟ قال: «من أتانا استغفرنا له، ومن أصرَّ على دينه فإله أولى به، ولا تُخَرِّقن على أحدٍ ستراً»^(٢). قال: وكذا رواه أبو أحمد الحاكم، عن أبي بكر الباغندي، عن هشام بن عَمَرَ، به.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في هذه الآية أنه قال: ما بال أقوام يتكلمون عِلْمَ الناس؟ فلان في الجنة وفلان في النار. فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري! لَعَمْرِي أنت بنفسك أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلمت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك. قال النبي الله نوح: ﴿وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]، وقال النبي الله شعيب عليه السلام: ﴿يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمَفْظٍ﴾ [هود: ٨٦]، وقال الله لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَقْلَبُوهَا كَمَا قَلَّبْتُمْ﴾.

[٣٦٤٢] وقال السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس في هذه الآية قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: «أخرج يا فلان، فإنك منافق، وأخرج يا فلان فإنك منافق». فأخرج من المسجد ناساً منهم فضحهم. فجاء عَمَرَ وهم يخرجون من المسجد فاحتبأ منهم حياءً أنه لم يشهد الجمعة، وظن أن الناس قد انصرفوا، واحتبؤوا هم من عمر، ظنوا أنه قد علم بأمرهم. فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناس لم يصلوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشرا يا عمر، قد فُضِّحَ الله المنافقين اليوم. قال ابن عباس: فهذا العذاب الأول

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٨٢/٤، ٨٣، ٨٥ وأبو يعلى ٧٤٠٥ من حديث جبير بن مطعم. قال الهيثمي في «المجموع» ٩٢٨٧: فيه رجل لم يسم اهـ، فالإسناد ضعيف.

(٢) ضعيف. ابن جابر هو عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الأموي ثقة، روى له البخاري، وأما شيخه فإنه مجهول لا يُعرف، والتمن غريب والله أعلم.

حين أخرجهم من المسجد، والعذاب الثاني عذاب القبر^(١). وكذا قال الثوري عن السدي عن أبي مالك نحو هذا^(٢).

وقال مجاهد في قوله: ﴿سَعَذِبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾، يعني: القتل والسب، وقال في رواية: بالجوع وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، قال: النار. وقال ابن جريج: عذاب الدنيا، وعذاب القبر، ثم يُردون إلى عذاب النار. وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا، وعذاب في القبر. وقال عبد الرحمن بن زيد: أما عذاب في الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهذه المصائب لهم عذاب، وهي للمؤمنين أجر، وعذاب في الآخرة في النار، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، قال: النار. وقال محمد بن إسحاق: ﴿سَعَذِبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾، قال: هو - فيما بلغني - ما هم فيه من أمر الإسلام، وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها، ثم العذاب العظيم الذي يُردون إليه، عذاب الآخرة والخلد فيه.

[٣٦٤٣] وقال سعيد، عن قتادة في قوله: ﴿سَعَذِبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾: عذاب الدنيا، وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أُسِرَ إلى حذيفة باثني عشر رجلاً من المنافقين، فقال: ستة منهم تكفيهم الذبيلة: سراج من نار جهنم، يأخذ في كتف أحدهم حتى يفضي إلى صدره، وستة يموتون موتاً. وذكر لنا أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان إذا مات رجل ممن يرى أنه منهم، نظر إلى حذيفة، فإن صلى عليه وإلا تركه. وذكر لنا أن عمر بن الخطاب قال لحذيفة: أنشدك بالله، أمنهم أنا؟ قال: لا. ولا أومن منها أحداً بعدك^(٣).

﴿وَأَخْرُونَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ

رَحِيمٌ

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكديباً وشكاً، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿وَأَخْرُونَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾، أي: أقرروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال أخر صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه. وهذه الآية، وإن كانت نزلت في أناس مُعْتَبِينَ، إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلطين المتلوئين. وقد قال مجاهد: إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة: إنه الذبيح، وأشار بيده إلى حلقه. وقال ابن عباس: ﴿وَأَخْرُونَ﴾، نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه، تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل: وسبعة معه، وقيل: وتسعة معه، فلما رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿وَأَخْرُونَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾، أطلقهم النبي ﷺ وعفا عنهم.

[٣٦٤٤] وقال البخاري: حدثنا مؤمل بن هشام، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عوف، حدثنا أبو

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ١٧١٣٧ والطبراني في «الأوسط» ٧٩٦ من حديث ابن عباس. قال الهيثمي في «المجمع» ١١٠٥٣: فيه حسين بن عمرو العنقري، وهو ضعيف اهـ وكذا هو في إسناده الطبري، والسدي عنده مناكير. فالخير وإهـ.

(٢) لكن ليس فيه المرفوع ولا قصة عمر، انظر الطبري ١٧١٣٨.

(٣) أخرجه الطبري ١٧١٤٥ عن قتادة مرسلاً، والمرسل من قسم الضعيف. وتقدم.

رجاء، حدثنا سُمرَةُ بن جُنْدَب قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان فابتعثاني، فانتبهنا بي إلى مدينة مَبِينَةَ بَلْبِن دَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فتلقانا رجال شَطْر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأبج ما أنت راء، قالا لهم: اذهبوا فَقَعُوا في ذلك النهر. فوقعوا فيه، ثم رَجَعُوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جَنَّةٌ عَذْبٌ، وهذا منزلك. قالا: أما القومُ الذين كانوا شَطْرَ منهم حَسَنٌ وشَطْرَ منهم قَبِيحٌ، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتجاوز الله عنهم»^(١). هكذا رواه مختصراً، في تفسير هذه الآية.

﴿حُذِّبْنَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّى عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾
الَّذِينَ يَصَلُّوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

أمر الله تعالى رسول الله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في «أموالهم» إلى «الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً». ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً برسول الله ﷺ ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿حُذِّبْنَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّى عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، وقد رَدَّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة، وقاتلوه حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يؤذونها إلى رسول الله ﷺ حتى قال الصديق: والله لو متعنوني عقلاً - وفي رواية: عناقاً - كانوا يؤذونه إلى رسول الله ﷺ لا قاتلنهم على منعه. وقوله: ﴿وَصَلَّى عَلَيْهِمْ﴾، أي: ادع لهم واستغفر لهم.

[٣٦٤٥] كما رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى»^(٢).

[٣٦٤٦] وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت: يا رسول الله، صل علي وعلى زوجي. فقال: «صلى الله عليك، وعلى زوجك»^(٣). وقوله: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾، قرأ بعضهم: صلواتك على الجمع، وآخرون قرؤوا: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ على الأفراد. قال ابن عباس: رحمة لهم. وقال قتادة: وقار. وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾، أي: لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾، أي: بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له.

[٣٦٤٧] قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا أبو العُميس، عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة، عن ابن لحديفة، عن أبيه: أن النبي ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته، وأصابته ولده وولده وولده^(٤).

[٣٦٤٨] ثم رواه عن أبي نعيم، عن مسعر، عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة، عن ابن لحديفة - قال مسعر -: وقد ذكره مرة عن حديفة -: إن صلاة النبي ﷺ لتدرك الرجل وولده وولده وولده^(٥).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٧٤.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٤٩٧ و ٤١٦٦ و ٦٣٣٢ و ٦٣٥٩ و مسلم ١٠٧٨ و أبو داود ١٥٩٠ والنسائي ٣١/٥ وأحمد ٤/٣٥٣ و ٣٥٥ و ٣٨١ و ٣٨٨ والطيالسي ٨١٩.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ١٥٣٣ وأحمد ١٩٨/٣ والدارمي ٢٤/١ وابن حبان ٩١٦ و ٩١٨ والبيهقي في السنن ١٥٣/٢. وإسناده حسن لأجل تبيح بن عبد الله.

(٤) أخرجه أحمد ٣٨٥/٥ - ٣٨٦، وقال الهيثمي في المجمع ٢٦٨/٨: رواه أحمد عن ابن لحديفة عن حديفة ولم أعرفه.

(٥) أخرجه أحمد ٤٠٠/٥ وابن حديفة لم يسم، وهو موقوف بكل حال.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكَلِّمُوا أَنْ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾: هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ويمحّضها ويمحقها. وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدّق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يَتَقَبَّلُهَا بيمينه فَيُرِيهَا لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أحد. كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ، كما قال الثوري ووكيع، كلاهما عن عباد بن منصور، عن القاسم بن محمد، أنه سمع أبا هريرة يقول:

[٣٦٤٩] قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فَيُرِيهَا لأحدكم، كما يُرِيَّي أَحَدَكُمْ مُهْرَهُ، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد»^(١). وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَكَلِّمُوا أَنْ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾، وقوله ﴿يَمْحُو اللَّهُ الرِّيبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وقال الثوري والأعمش كلاهما، عن عبد الله بن السائب، عن عبد الله بن أبي قتادة قال: قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: إن الصدقة تقع في يد الله - عز وجل - قبل أن تقع في يد السائل. ثم قرأ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَكَلِّمُوا أَنْ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾. وقد روى ابن عساكر في تاريخه، في ترجمة عبد الله بن الشاعر السكسكيّ الدمشقي - وأصله جنصبي، وكان أحد الفقهاء، روى عن معاوية وغيره، وحكى عنه خوْشَبُ بن خالد بن الوليد، فَعَلَّ رجل من المسلمين مئة دينار رومية. فلما قفل الجيش ندم وأتى الأمير، فأبى أن يقبلها منه، وقال: قد تفرق الناس ولن أقبلها منك، حتى تأتي الله بها يوم القيامة. فجعل الرجل يستقريء الصحابة، فيقولون له مثل ذلك، فلما قَدِمَ دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه، فأبى عليه. فخرج من عنده وهو يبكي وَيَسْتَرْجِعُ، فمر بعبد الله بن الشاعر السكسكي، فقال له: ما يُبْكِيكَ؟ فذكر له أمره، فقال له: أمطيعي أنت؟ فقال: نعم، فقال: اذهب إلى معاوية فقل له: اقْبَلْ مني خُمْسَكَ. فادفع إليه عشرين ديناراً، وانظر إلى الثمانين الباقية فتصدّق بها عن ذلك الجيش، فإن الله يقبل التوبة عن عباده، وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم. فَعَلَّ الرجل، فقال معاوية - رضي الله عنه -: لأن أكون أفتيته بها أحب إليّ من كل شيء أمْلِكُهُ، أحسن الرجل.

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسِرُّدُونَ إِلَىٰ عَلِيِّ الْأَمِينِ وَالشَّهَدَةِ فَيُنشِكُمْ بِمَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

قال مجاهد: هذا وعيدٌ - يعني من الله تعالى - للمخالفين وأوامره، بأن أعمالهم ستعرض عليه - تبارك وتعالى - وعلى الرسول، وعلى المؤمنين. وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال: ﴿يَوْمَ يُعْرَضُونَ لِتَحَقُّقٍ مِنْكَ حَافِيَةً ﴿١٠٥﴾﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكَلِّمُ الْوَسِيَّ ﴿١٠٥﴾﴾ [الطارق: ٩]، وقال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠٥﴾﴾ [العاديات: ١٠]، وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا، كما قال الإمام أحمد:

[٣٦٥٠] حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صمّاء ليس لها باب ولا كوة، لأخرج الله عمله للناس

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٤٠١/٢ رقم ٩٢١٧ و٤٦٩ رقم ١٠٠٤٤ والترمذي ٦٦٢ وابن أبي شيبة ١١٢/٣ من حديث أبي هريرة، وقال الترمذي حسن صحيح وهو كما قال. وأصله في الصحيحين.

كائناً ما كان»^(١). وقد ورد أن أعمال الأحياء تُعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ، كما قال أبو داود الطيالسي:

[٣٦٥١] حدثنا الصلت بن دينار، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك»^(٢).

[٣٦٥٢] وقال الإمام أحمد: أخبرنا عبد الرزاق، عن سفيان، عن عمن سمع أنساً يقول: قال النبي ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا»^(٣).

وقال البخاري قالت عائشة - رضي الله عنها -: إذا أعجبك حسن عمل امرئ فقل: ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. وقد ورد في الحديث شبيه بهذا.

[٣٦٥٣] قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حميد، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا: بم يُحْتَم له؟ فإن العامل يعمل زماناً من عمره - أو: بركة من دهره - بعمل صالح لو مات عليه لدخل الجنة، ثم يتحول فيعمل عملاً سيئاً، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيئ لو مات عليه دخل النار، ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته» قالوا: يا رسول الله، وكيف يستعمله؟ قال: «يُوقَّع لعمل صالح ثم يقبضه عليه»^(٤). تفرد به أحمد من هذا الوجه.

﴿وَأَخْرُوجُ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا، أي: عن التوبة، وهم: مُرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، فعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد، كسلاً وميلاً إلى الذعة والحفظ وطيب الثمار والظلال، لا شكاً ونفاقاً، فكانت منهم طائفة رتَّبوا أنفسهم

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٢٨/٣ وأبو يعلى ١٣٧٨ وابن حبان ٥٦٧٨ والحاكم ٤/٣١٤، ومداره على دزاج عن أبي الهيثم، وفي رواية دزاج عن أبي الهيثم ضعف. ومع ذلك صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه الهيثمي في «المجمع» ١٧٦٧٩، وفي ذلك نظر، فإن دزاج روى عن أبي الهيثم منكري كثيرة، راجع الميزان للذهبي.

(٢) ضعيف. أخرجه الطيالسي ١٧٩٤، وفيه الصلت بن دينار متروك الحديث، وقد أنكر أبو حاتم سماع الحسن من جابر انظر المراسيل ص ٣٩. وانظر ما بعده وترجمة الصلت بن دينار.

(٣) ضعيف. أخرجه أحمد ٣/١٦٥ من حديث الثوري عن من سمع أنساً عن أنس. وهذا إسناد ضعيف، وأظن الذي لم يسمه الثوري هو الصلت بن دينار، جاء في التهذيب: قال ابن إدريس: حاب شعبه على الثوري روايته عن الصلت بن دينار أبي شعيب. وقال شعيب: إذا حدثكم الثوري عن رجل لا تعرفونه، فلا تقبلوا منه، فإنما يحدثكم عن مثل أبي شعيب المجنون، وقال ابن حبان: تركه أحمد ويحيى، وقال الفلاس: متروك الحديث اهـ وقال النسائي والدارقطني: ليس بثقة راجع الميزان ٣٩٠٦. وله شاهد من حديث أبي أيوب. أخرجه الطبراني ٣٨٨٧ وابن حبان في «المجروحين» ١/٣٣٦ وقال ابن حبان: مسلمة بن علي الخثني روى عن الثقات الموضوعات. وكذا اتهمه الحاكم بالوضع.

(٤) الصحيح موقوف، أخرجه أحمد ٣/١٢٠ من حديث أنس بن مالك، وأخرجه أحمد أيضاً ٣/٢٢٣ عن أنس موقوفاً، وقال أحمد: وقد رفعه حميد مرة ثم كف عنه اهـ. والراجح وقفه، لأن المعتبر آخر الأمرين من حميد، وصلده بعيد أن يكون مرفوعاً.

بالسوري، كما فعل أبو لبابة وأصحابه. وطائفة لم يفعلوا ذلك، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية، وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾... [التوبة: ١١٧] الآية، ﴿وَمَنْ أَتْلَفَنَّا الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ﴾ [التوبة: ١١٨]... الآية، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك. وقوله: ﴿إِنَّا يَعِدُهُمْ وَإِنَّا نُؤْتِيهِمْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: هم تحت عفو الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذلك، ولكن رحمته تغلب غضبه، وهو ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ حُجَّةً لِمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ قَبْلُ وَلَقَدْ كَفَرَ مِنْ قَبْلِهِ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَئِنْ عُلِّمُوا مِنْ قَبْلِهِمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كَاذِبُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

سَبَبُ نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجلٌ من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهب، وكان قد تنصّر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرفٌ في الخزرج كبير. فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِقَ اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فازاً إلى كفار مكة من مشركي قريش، فألبهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عامٍ أُحُدٍ، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله، وكانت العاقبة للمتقين. وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصّفين، فوقّع في إحداهنّ رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم، فُجِرِحَ في وجهه وكُسِرَت رِجَاعِيَّتُهُ اليمنى السفلى، وشجّ رأسه - صلوات الله وسلامه عليه - وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرّفوا كلامه قالوا: لا ننعّم الله بك عيناً يا فاسقُ يا عدوَّ الله! ونالوا منه وسبّوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شراً. وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً، فنالته هذه الدعوة. وذلك أنه لما فرغ الناس من أُحُدٍ، ورأى أمر الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومثّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يبعدهم ويمنّهم أنه سيقدّم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويردّه عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كُتْبِهِ، ويكونَ مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجدٍ مجاورٍ لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته عليه السلام فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية. فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله». فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء، الذي أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من

مَدَمَه قَبْلَ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ^(١). كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾: وهم أناس من الأنصار، ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فلاني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فأتي بجند من الروم، وأخرج محمداً وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم، أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحِبُ أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة. فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ إلى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢). وكذا روي عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وقتادة، وغير واحد من العلماء.

[٣٦٥٤] وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن الزهري، ويزيد بن زومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عُمَر بن قتادة، وغيرهم، قالوا: أقبل رسول الله ﷺ يعني من تبوك - حتى نزل بذي أوان - بليد بينه وبين المدينة ساعة من نهار - وكان أصحابُ مسجد الضَّرَارِ قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العُلَّة والحاجة والليلية المطيرة والليلية الشتوية، وإنا نُحِبُّ أن تأتينا فتصلي لنا فيه. فقال: «إني على جَنَاحِ سَفَرٍ وحال شغل» أو كما قال رسول الله ﷺ: «ولو قدمنا إن شاء الله تعالى - أتيناكم فصلينا لكم فيه» فلما نزل بذي أوان أتاه خبرُ المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُخْشُم أَخَا بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ، ومعن بن عَدِيٍّ - أو: أخاه عامر بن عَدِيٍّ - أَخَا بَلْعَجَلَانَ، فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه». فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدُخْشُم، فقال مالك لمعن: انظرنني حتى أخرج إليك بنار من أهلي. فدخل أهله فأخذ سَعَفًا من النخل، فاشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشْتَدَانِ حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ إلى آخر القصة، وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً: خَدَامُ بْنُ خَالِدٍ، مِنْ بَنِي عُبَيْدِ بْنِ زَيْدٍ، أَحَدِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَمِنْ دَارِهِ أُخْرِجَ مَسْجِدُ الشَّقَاقِ. وَثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ، مِنْ بَنِي عُبَيْدٍ، وَهُوَ إِلَى بَنِي أُمِيَّةَ بْنِ زَيْدٍ. وَمَعْتَبُ بْنُ قُسَيْرٍ، مِنْ بَنِي ضَبِيْعَةَ بْنِ زَيْدٍ. وَأَبُو حَبِيْبَةَ بْنِ الْأَزْعَرِ، مِنْ بَنِي ضَبِيْعَةَ بْنِ زَيْدٍ، وَعَبَادُ بْنُ حُنَيْفٍ، أَخُو سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ. وَجَارِيَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَابْنَاهُ: مُجْمَعُ بْنُ جَارِيَةَ، وَزَيْدُ بْنُ جَارِيَةَ. وَتُبْتُلُ الْحَارِثِ، وَهُمْ مِنْ بَنِي ضَبِيْعَةَ. وَبِحِزْجٍ وَهُوَ مِنْ بَنِي ضَبِيْعَةَ. وَبِجَادِ بْنِ عُثْمَانَ وَهُوَ مِنْ بَنِي ضَبِيْعَةَ. وَوَدِيْعَةُ بْنُ ثَابِتٍ، وَهُوَ إِلَى بَنِي أُمِيَّةَ رَهْطِ أَبِي لِبَابَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذِرِ^(٣). وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾، أَي: الَّذِينَ بَنَوْهُ ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ﴾، أَي: مَا أَرَدْنَاهُ بِنِيَانِهِ إِلَّا خَيْرًا وَرَفَقًا بِالنَّاسِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، أَي: فِيمَا قَصَدُوا وَفِيمَا نَوَّوْا، وَإِنَّمَا بَنَوْهُ ضِرَارًا لِمَسْجِدِ قُبَاءَ، وَكَفَرًا بِاللَّهِ، وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَهُوَ أَبُو عَامِرِ الْفَاسِقِ، الَّذِي يُقَالُ لَهُ: الرَّاهِبُ، لَعْنَةُ اللَّهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، نَهَى مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَالْأُمَّةَ تَبِعَ لَهُ فِي ذَلِكَ، عَنْ أَنْ يَقُومَ فِيهِ، أَي: يَصَلِّيَ فِيهِ أَبَدًا. ثُمَّ حَثَّهُ عَلَى الصَّلَاةِ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ الَّذِي أُسِّسَ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ بِنَائِهِ عَلَى التَّقْوَى، وَهِيَ طَاعَةُ اللَّهِ، وَطَاعَةُ رَسُولِهِ، وَجَمْعًا لِكَلِمَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَعْقَلًا وَمَوْثَلًا لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، وَالسِّيَاقُ إِنَّمَا هُوَ فِي مَعْرِضِ مَسْجِدِ قُبَاءَ.

(١) ساقه المصنف بالمعنى من غير عزو لقاتل أو راو.

(٢) أخرجه الطبري ١٧٢٠١، وفيه إرسال بين ابن أبي طلحة وابن عباس، لكن له شواهد مرسله.

(٣) أخرجه الطبري ١٧٢٠٠ عن ابن إسحاق به وله شواهد.

[٣٦٥٥] ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجد قباء كعمرة»^(١).
 [٣٦٥٦] وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً وماشيماً^(٢).
 [٣٦٥٧] وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسس أول قدمه ونزوله على بني عمرو بن عوف كان جبريل هو الذي عيّن له جهة القبلة^(٣). فإله أعلم.

[٣٦٥٨] وقال أبو داود: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن يونس بن الحارث، عن إبراهيم بن أبي ميمونة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا﴾ قال: «كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم هذه الآية»^(٤). رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث يونس بن الحارث - وهو ضعيف - وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه.

[٣٦٥٩] وقال الطبراني: حدثنا الحسن بن علي المعمرى، حدثنا محمد بن حُميد الرازي، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا﴾، بعث رسول الله ﷺ إلى عُويم بن ساعدة فقال: «ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم؟» فقال: يا رسول الله، ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه - أو قال: مقعدته - فقال النبي ﷺ: «هو هذا»^(٥).

[٣٦٦٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا حُسَيْن بن محمد، حدثنا أبو أويس، حدثنا شَرْحِبِيل، عن عُويم بن ساعدة الأنصاري: أنه حَدَّثَهُ أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء، فقال: «إن الله تعالى قد أحسن عليكم الشاء في الطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟» فقالوا: والله - يا رسول الله - ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أديبارهم من الغائط، فغسلنا كما غَسَلُوا»^(٦). ورواه ابن خزيمة في صحيحه.

(١) صحيح. أخرجه الترمذي ٣٢٤ وحسنه، وابن ماجه ١٤١١، والحاكم ٤٨٧/١، والطبراني في الكبير ٥٧٠، والبخاري في شرح السنة ٤٥٩ من حديث أسيد بن ظهير، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه إلا أن أبا الأسود مجهول ووافقه الذهبي. قلت: وله شاهد عند أحمد ٤٨٧/٣ وابن ماجه ٣٧/٢ و١٤١٢ من حديث سهل بن حنيف بلفظ: «من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصل في صلاة كان له كأجر عمرة» وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وآخر من حديث كعب بن عجرة، رواه الطبراني بإسناد فيه ضعف. وانظر صحيح ابن ماجه ١١٥٩.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٩١١ و١١٩٣، ومسلم ١٣٩٩، والنسائي ٤٧/٢، وأحمد رقم ٤٨٤٦ عن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

(٣) لم أره مسنداً فليُنظر.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٤ والترمذي ٣٠٩٩ وابن ماجه ٣٥٨، وإسناده ضعيف لضعف يونس بن الحارث، وقد ضعفه ابن كثير واستغربه الترمذي، لكن شواهد الآيات تفضده، والله أعلم، وانظر جامع الأصول ٦٥٠.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ١٠٦٥، وقال الهيثمي في المجمع ٢١٢/١ وإسناده حسن إلا أن ابن إسحاق مدلس وقد عنعنه اه. لكن له شواهد كما ترى.

(٦) إسناده ضعيف لأجل شرحبيل بن سعد ضعفه جماعة وحسن الترمذي له، أخرجه أحمد ٤٢٢/٣، والطبراني في الكبير رقم ٣٤٨، والطبري في التفسير ٣٠/١١، وابن خزيمة رقم ٨٣، الحاكم ١٥٥/١، وسكت عنه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع ٢١٢/١: رواه أحمد والطبراني في الثلاثة وفيه شرحبيل بن سعد ضعفه مالك وابن معين وأبو زرعة ووثقه ابن حبان. اه. ويشهد له ما قبله فهو به حسن، والله أعلم.

[٣٦٦١] وقال مُثَمِّم، عن عبد الحميد المدني، عن إبراهيم بن إسماعيل الأنصاري: أن رسول الله ﷺ قال لثويم بن ساعدة: «ما هذا الذي أثنى الله عليكم: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ مِثْبًا لِيُظَاهَرُوا﴾؟» قالوا: يا رسول الله، إنا نغسل الأدبار بالماء.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عمار الأسدي، حدثنا محمد بن سعد عن إبراهيم بن محمد، عن شَرَحْبِيل بن سعد قال: سمعت خزيمة بن ثابت يقول: نزلت هذه الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ مِثْبًا لِيُظَاهَرُوا﴾، قال: كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط.

[٣٦٦٢] حديث آخر: قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك - يعني ابن مغول - سمعت سياراً أبا الحكم، عن شهر بن حوشب، عن محمد بن عبد الله بن سلام قال: لما قَدِمَ رسول الله ﷺ يعني قباء، فقال: «إن الله عز وجل قد أثنى عليكم في الطهور خيراً، أفلا تحبوني؟» - يعني قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ مِثْبًا لِيُظَاهَرُوا﴾ - فقالوا: يا رسول الله، إنا نجدُه مكتوباً علينا في التوراة الاستنجاة بالماء^(١). وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. ورواه عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عروة بن الزبير. وقاله عطية العوفي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والشعبي، والحسن البصري، ونقله البغوي عن سعيد بن جبيرة، وقادة.

وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي هو في جَوْفِ المدينة، هو المسجد الذي أسس على التقوى. وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى.

[٣٦٦٣] ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمي، عن عمران بن أبي أنس، عن سهل بن سعد، عن أبي بن كعب: أن النبي ﷺ قال: «المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا»^(٢). تفرد به أحمد.

[٣٦٦٤] حديث آخر:، قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا ربيعة بن عثمان التيمي، عن عمران بن أبي أنس، عن سهل بن سعد الساعدي قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ. وقال الآخر: هو مسجد قباء. فأتيا النبي ﷺ فسألاه، فقال: «هو مسجدي هذا»^(٣). تفرد به أحمد أيضاً.

[٣٦٦٥] حديث آخر:، قال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ليث، عن عمران بن أبي أنس، عن سعيد بن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على

(١) أخرجه أحمد ٦/٦ رقم ٢٣٧٢٣ والطبري ١٧٢٤٢ من حديث محمد بن عبد الله بن سلام وأخرجه الطبراني في الكبير كما في المجمع ٢١٣/١، والطبري ١٧٢٤٤ من حديث محمد بن عبد الله بن سلام عن أبيه، وقال الهيثمي: وفيه شهر بن حوشب وقد اختلفوا فيه، ولكن وثقه أحمد وابن معين، وأبو زرعة ويعقوب بن شيبة.

(٢) متن صحيح. أخرجه أحمد ١١٦/٥، وقال الهيثمي في المجمع ١٠/٤: رواه أحمد، وفيه عبد الله بن عامر الأسلمي وهو ضعيف أ.هـ، قلت: ويشهد له حديث سهل بن سعد الذي بعده فهو به حسن، والله أعلم.

(٣) جيد. أخرجه أحمد ٣٣١/٥، وابن أبي شيبة ٣٧٢/٢، والطبري ١٧٢١٨، والطبراني ٦٠٢٥، وابن حبان ١٦٠٤. وقال الهيثمي في المجمع بعد أن نسب لأحمد والطبراني: ورجالهما رجال الصحيح.

التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «هو مسجدني هذا»^(١). تفرد به أحمد.

[٣٦٦٦] طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا ليث، حدثني عمران بن أبي أنس، عن ابن أبي سعيد، عن أبيه أنه قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدني»^(٢). وكذا رواه الترمذي والنسائي عن قتيبة، عن الليث - وصححه الترمذي - ورواه مسلم كما سيأتي.

[٣٦٦٧] طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن أنيس بن أبي يحيى، حدثني أبي قال: سمعت أبا سعيد الخدري قال: اختلف رجلان: رجل من بني خذرة، ورجل من بني عمرو بن عوف، في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ. وقال العمري: هو مسجد قباء. فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك، فقال: «هو هذا المسجد» - لمسجد رسول الله ﷺ وقال: «في ذلك خير كثير». يعني مسجد قباء^(٣).

[٣٦٦٨] طريق أخرى: قال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حُمَيْدُ الخُرَّاطِ المدني، سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد فقلت: كيف سمعت أباك يقول في المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال: قال أبي: أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه في بيت لبعض نسائه، فقلت: يا رسول الله، أين المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفًا من حصباء فَضَرَبَ به الأرض، ثم قال: هو مسجدكم هذا! ثم قال: سمعت أباك يذُكُرُه^(٤). رواه مسلم منفرداً به عن محمد بن حاتم، عن يحيى بن سعيد، به. ورواه عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره، عن حاتم بن إسماعيل، عن حُمَيْدِ الخُرَّاطِ، به. وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مزوِّي عن عُمَرُ بن الخطاب، وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب، واختاره ابن جرير. وقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَبْتَظَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾، دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتزهد عن ملابس القاذورات.

[٣٦٦٩] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عبد الملك بن عمير، سمعت

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٨٩/٣ ح ١١٧٨٥ عن أبي سعيد الخدري، وانظر ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٨/٣ والترمذي ٣٠٩٩، والنسائي ٣٧/٢. وانظر ما بعده.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٢٣/٣ و٩١ وابن أبي شيبة ٣٧٢/٢، والترمذي ٣٢٣، والطبري ١٧٢٢٢ و١٧٢٢٣ و١٧٢٢٤، وابن حبان ١٦٢٦، والبيهقي ٤٥٥، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم ٤٨٧/١ ووافقه الذهبي، وهو كما قالوا.

(٤) صحيح. أخرجه الطبري في جامع البيان ١٧٢٢٠ بهذا الإسناد. وأخرجه ابن أبي شيبة ٣٧٢/٢، و٣٧٣ ومن طريقه مسلم ١٣٩٨ عن حاتم بن إسماعيل عن حميد الخراط، عن أبي سلمة، عن أبي سعيد الخدري، به. وأخرجه مسلم ١٣٩٨ عن محمد بن حاتم، عن يحيى بن سعيد، عن حميد الخراط، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه، به.

شيبياً أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح، فقرأ بهم الروم فأوهم، فلما انصرف قال: «إنه يُليْسُ علينا القرآن، إن أقواماً منكم يصلون معنا لا يُحْسِنُونَ الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليُحْسِنِ الوضوء». ثم رواه من طريقين آخرين، عن عبد الملك بن عمير، عن شبيب أبي روح، من ذي الكَلَّاح: أنه صلى مع النبي ﷺ فذكره^(١). فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة، ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها. وقال أبو العالية في قوله تعالى: «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ»: إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المطهرون من الذنوب. وقال الأعمش: التوبة من الذنب، والتطهير من الشرك.

[٣٦٧٠] وقد ورد في الحديث المروي من طرق، في السنن وغيرها، أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء: «قد أتى الله عليكم في الطهور، فماذا تصنعون؟» فقالوا: نستنجي بالماء^(٢).

[٣٦٧١] وقد قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عبد الله بن شبيب، حدثنا أحمد بن محمد بن عبد العزيز قال: وجدته في كتاب أبي، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء: «فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ». فسألهم رسول الله ﷺ فقالوا: إنا نُتَبِّعُ الحجارة الماء^(٣). ثم قال: تفرد به محمد بن عبد العزيز، عن الزهري، ولم يرو عنه سوى ابنه. (قلت): وإنما ذكرته بهذا اللفظ لأنه مشهور بين الفقهاء، ولم يعرفه كثير من المحدثين المتأخرين، أو كلهم، والله أعلم.

﴿أَقَمْنَ أَسْسَكَ بُنْيَكُنَّهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنَ أَسَّسَ بُنْيَكُنَّهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّخَرَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَتُهُمُ الَّذِينَ بَنَوْا رَبِيَّةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالى: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ومن بنى مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما بنى هؤلاء بنيانهم ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾، أي: طرف خفيضة مثقاله ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، أي: لا يصلح عمل المفسدين. [٣٦٧٢] قال جابر بن عبد الله: رأيت المسجد الذي بنى ضراراً يخرج منه الدخان على عهد

(١) الحديث الأول هو الصواب «عن شبيب عن رجل من أصحاب النبي ﷺ» والإسناد قوي، وجهالة الصحابي لا تضر، وقد صح الإسناد. وأما من رواه عن شبيب، فهو مرسل، جاء في التقريب: شبيب بن نعيم أبو روح، ثقة من الثالثة - أي تابعي - أخطأ من عده في الصحابة اهـ.

(٢) تقدم قبل قليل.

(٣) أخرجه البزار كما في «المجمع» ١٠٥٣ بهذا الإسناد، قال الهيثمي: فيه محمد بن عبد العزيز بن عمر الزهري، ضعفه البخاري والنسائي وغيرهما أهـ. وذكره الذهبي في الميزان ٧٨٧٤ فقال: قال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك. وقال الدارقطني: ضعيف. وكذا ضعفه ابن دقيق العيد، ووافقه الزيلعي في «نصب الراية» ٢١٨/١ لكن أضاف الزيلعي: وذهل حيث قال في «الخلاصة» هذا حديث باطل لا يُعرف أهـ. مراد الزيلعي: أنه معروف برواية البزار له، وإسناده ضعيف فحسب، والله أعلم.

النبي ﷺ^(١). وقال ابن جريج: ذكر لنا أن رجلاً حَفَرُوا فوجدوا الدخان يخرج منه^(٢). وكذا قال قتادة. وقال خلف بن ياسين الكوفي: رأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله تعالى في القرآن، وفيه حجر يخرج منه الدخان، وهو اليوم مزبلة^(٣). رواه ابن جرير، رحمه الله. وقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُعِثُهُمُ الَّذِي بَوَّأَ رِيبَهُ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، أي: شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورتهم نفاقاً في قلوبهم، كما أشرب عابِدو العجل حبه. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: بموتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، وزيد بن أسلم، والسدي، وحبيب بن أبي ثابت، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: بأعمال خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾، في مجازاتهم عنها، من خير وشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ عَاوَضَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ إِذَا بَدَّلُوها فِي سَبِيلِهِ بِالْجَنَّةِ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ، فَإِنَّهُ قَبْلَ الْعَوَاضِ عَمَّا يَمْلِكُهُ بِمَا تَقْضَىٰ بِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ الْمُطِيعِينَ لَهُ. وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ: بَايَعَهُمُ اللَّهُ فَأَغْلَىٰ ثَمَنَهُمْ. وَقَالَ شَمْرُ بْنُ عَطِيَّةَ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ إِلَّا وَلِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، وَفِي بِهَا أَوْ مَاتَ عَلَيْهَا، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ. وَلِهَذَا يُقَالُ: مِنْ حَمَلٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَايَعَ اللَّهُ. أَي: قَبْلَ هَذَا الْعَقْدِ وَوَفَىٰ بِهِ.

[٣٦٧٣] وقال محمد بن كعب القرظي وغيره: قال عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - لرسول الله ﷺ يعني ليلة العقبة: اشتراط لربك ولنفسك ما شئت! فقال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم». قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة». قالوا: ربح البيع لا ثقيل ولا نستقبل، فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ...﴾ الآية^(٤). وقوله: ﴿يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾، أي: سواء قتلوا أو قتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة.

[٣٦٧٤] ولهذا جاء في الصحيحين: «وتكفل الله لمن خرج في سبيله، لا يخرج به إلا جهاد في سبيلي وتصديق برسلي، إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو

(١) أخرجه الطبري ١٧٢٦٢ وإسناده ضعيف جداً، فيه يحيى الحماني، وهو متروك. وأخرجه الحاكم ٥٩٦/٤ والطبري ١٧٣٦٣ من وجه آخر بإسناد على شرط مسلم، دون لفظ «على عهد النبي ﷺ» وهذا هو الصحيح، فيكون جابر إنما أخبر عما رآه أثناء حرق المسجد، لا بعد فترة طويلة.

(٢) وإبى بمره. أخرجه الطبري ١٧٢٦١ وهذا مرسل، ومراسيل ابن جريج واهية جداً. وكرره بنحو ١٧٢٦٥ عن قتادة، ومراسيل قتادة واهية أيضاً.

(٣) باطل. أخرجه الطبري ١٧٢٦٤ ورواية خلف بن ياسين روى موضوعات، وعنه سلام بن سالم، ولم أجد له ترجمة، وانظر أحكام القرآن ١٢١٨ بتخريري.

(٤) منكر. بهذا اللفظ. أخرجه الطبري ١٧٢٨٤ وهذا مرسل: وفيه أبو معشر ضعيف، وبيعة العقبة كانت في مكة، وسورة التوبة مدنية من آخر ما نزل، فكيف يصح هذا!! وأصل الحديث دون ذكر نزول الآية له شواهد.

غنيمة^(١). وقوله: ﴿وَعَدَّا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ﴾ تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ﴾ فإنه لا يُخْلَفُ الميعاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَسَيُجْزَى بِعَهْدِهِ الَّذِي بَاعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، أي: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم المقيم.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّاجِدُونَ الْرَاكِعُونَ أَلَمْ يَرَوْا بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة: ﴿التَّائِبُونَ﴾ من الذنوب كلها، التاركون للفواحش، ﴿السَّاجِدُونَ﴾، أي: القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهي الأقوال والأفعال فمن أخَصَّ الأقوال الحمد، فلهذا قال: ﴿السَّاجِدُونَ﴾، ومن أفضل الأعمال الصيام، وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة ها هنا، ولهذا قال: ﴿السَّاجِدُونَ﴾، كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿سَيَحْتَبِئْنَ﴾ [التحریم: ٥]، أي صائمات، وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾، وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويؤيدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه، علماً وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق، ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

بيان أن المراد بالسياحة الصيام

قال سفيان الثوري، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿السَّاجِدُونَ﴾ الصائمون. وكذا زوي عن سعيد بن جبيرة والوعوفي عن ابن عباس. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كل ما ذكر الله في القرآن السياحة، هم الصائمون. وكذا قال الضحاك رحمه الله.

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إبراهيم بن يزيد، عن الوليد بن عبد الله، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سياحة هذه الأمة الصيام. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعطاء، وأبو عبد الرحمن السلمي، والضحاك بن مزاحم، وسفيان بن عيينة وغيرهم: أن المراد بالسائح الصائمون. وقال الحسن البصري: ﴿السَّاجِدُونَ﴾ الصائمون شهر رمضان. وقال أبو عمرو العبدي: ﴿السَّاجِدُونَ﴾ الذين يديمون الصيام من المؤمنين. وقد ورد في حديث مرفوع نحو هذا.

[٣٦٧٥] فقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا حكيم بن خزام^(٢)، حدثنا سليمان، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «السائحون هم الصائمون»^(٣). ثم رواه

(١) صحيح أخرجه البخاري ٣٦ ومسلم، وقد تقدم.

(٢) وقع في كافة النسخ وكذا في الطبري «خزام»، والتصويب من كتب التراجم الآية.

(٣) ضعيف. أخرجه ابن عدي ٢٢٠/٢ - ٢٢١، والطبري ١٧٣٠١ من حديث أبي هريرة، وفي إسناده حكيم بن خزام أبو

عن بُنْدَارٍ، عن ابن مَهْدِيٍّ، عن إسرائيل، عن سليمان الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «السَّكَّانُونَ» هم الصائمون. وهذا الموقوف أصح.

[٣٦٧٦] وقال أيضاً: حدثني يونس، عن ابن وهب، عن عمرو^(١) بن الحارث، عن عمرو بن دينار، عن عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ قال: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عن السائحين فقال: «هم الصائمون»^(٢). وهذا مرسلٌ جيّدٌ، فهذه أصحُّ الأقوالِ وأشهرها، وجاء ما يدلُّ على أن السياحةَ الجهاد.

[٣٦٧٧] وهو ما روى أبو داود في سنَّته، من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، ائذُنْ لي في السياحة. فقال النبي ﷺ: «إِنَّ سياحةَ أمتي الجهادُ في سبيلِ الله»^(٣).

[٣٦٧٨] وقال ابن المبارك، عن ابن لهيعة: أخبرني عُمارة بن غَزِيَّةَ: أن السياحةَ ذكرت عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أبدلنا الله بذلك الجهاد في سبيلِ الله، والتكبير على كل شرف»^(٤). وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المهاجرون. رواهما ابن أبي حاتم. وليس المراد من السياحة ما قد يفهم بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرد في شواهد الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين.

[٣٦٧٩] كما ثبت في صحيح البخاري، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الرَّجُلِ عَنَّمْ يَتَّبِعْ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ»^(٥). وقال العوفي وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: «وَالْمُتَفَوِّطُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ»، قال: القائمون بطاعة الله. وكذا قال الحسن البصري. وعنه رواية: «وَالْمُتَفَوِّطُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ» قال: لفرائض الله، وفي رواية: القائمون على أمر الله.

﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجُبَيْرِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتْيَاءَهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

[٣٦٨٠] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أمية، فقال: «أبي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا

سمير قال أبو حاتم في «الجرح والتعديل» ٢٠٣/٣: متروك الحديث. وأعله ابن عدي به، وقال الذهبي في «الميزان» ٢٢١٨: قال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال البخاري: منكر الحديث أم وخالفه إسرائيل، وهو أحفظ من مائة منه - فرواه موقوفاً على أبي هريرة أخرجه الطبري ١٧٣٠٢.

(١) وقع في عامة النسخ «عمر» والتصويب عن الطبري ١٧٣٠٠ وكتب الرجال.
(٢) ضعيف. أخرجه الطبري ١٧٣٠٠ هكذا مرسلًا، والمرسل من قسم الضعيف، وقد صح موقوفاً عن جماعة من الصحابة والتابعين. راجع الطبري.

(٣) أخرجه أبو داود ٢٤٨٦ وإسناده غير قوي لأجل القاسم بن عبد الرحمن، لكن في الباب أحاديث تعضده منها ما بعده، وصححه عبد الحق كما في القرطبي ٢٧٠/٨.

(٤) مرسل. فهو ضعيف، لكن يتأيد بما قبله.

(٥) متفق عليه، وتقدم.

طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبد المطلب فقال النبي ﷺ: لأستغفرون لك ما لم أنه عنك. فنزلت: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلشُّرِكِينَ وَلَوْ سَاءُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّتُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْكِبِيرِ﴾، قال: ونزلت فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]^(١). أخرجاه.

[٣٦٨١] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، أخبرنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الخليل، عن علي - رضي الله عنه - قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه، وهما مشركان، فقلت: أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان؟ فقال: أولم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلشُّرِكِينَ﴾، إلى قوله: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾، قال: «لما مات». فلا أدري قاله سفيان أو قاله إسرائيل، أو هو في الحديث «لما مات». قلت: هذا ثابت عن مجاهد أنه قال: لما مات^(٢).

[٣٦٨٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا زهير، حدثنا زبيد بن الحارث الياامي، عن محارب بن دثار، عن ابن بريدة، عن أبيه، قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر فنزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرّفان فقام إليه عمر بن الخطاب وقّدها بالآب والأم، وقال: يا رسول الله، مالك؟ قال: «إني سألت ربي - عز وجل - في الاستغفار لأمتي، فلم يأذن لي، فدمعت عيناها رحمة لها من النار، وإني كنت نهيتكم عن ثلاث: نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فتذكركم زيارتها خيراً. ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث، فكلوا وأمسكوا ما شئتم. ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية، فاشربوا في أي وعاء شئتم ولا تشربوا مسكراً»^(٣).

[٣٦٨٣] وروى ابن جرير، من حديث علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه: أن النبي ﷺ لما قديم مكة أتى رَسَمَ قبر، فجلس إليه، فجعل يخاطب، ثم قام مستعبراً. فقلنا: يا رسول الله، إنا رأينا ما صنعت! قال: «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمتي، فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي». فما رُئيَ باكياً أكثر من يومئذ^(٤).

[٣٦٨٤] وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا خالد بن خدّاش، حدثنا عبد الله بن وهب، عن ابن جريج، عن أيوب بن هانيء، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر، فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها، فناجاه طويلاً، ثم بكى فبكينا لبكائه، ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب، فدعاه ثم دعانا، فقال: «ما أبكاكم؟» فقلنا: بكينا لبكائك. قال: «إن القبر الذي جلست عنده قبر أمتي، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي»^(٥).

[٣٦٨٥] ثم أورده من وجه آخر، ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريباً منه، وفيه: «إني استأذنت ربي

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٦٠ و٤٧٧٢ ومسلم ٢٤ والنسائي في «الفضير» ٢٥٠ وأحمد ٥٣٣/٥.

(٢) أخرجه الترمذي ٣١٠١ والنسائي ٩١/٤ وأحمد ٩٩/١ والحاكم ٣٣٥/٢، وإسناده لين لأجل أبي الخليل فإنه مقبول. وقد حسنه الترمذي، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٩٧٧ و١٥٨٤/٣ وأحمد ٣٥٠ - ٣٥٥ وابن حبان ٥٣٩٠.

(٤) إسناده صحيح. أخرجه الطبري ١٧٣٤٤، وإسناده على شرط مسلم.

(٥) أخرجه الحاكم ٢٣٦/٢ والواحدي في «الأسباب» ٥٢٢، وإسناده ضعيف، فيه عن ابن جريج. وصححه الحاكم واعترضه الذهبي بقوله: أيوب بن هانيء ضعفه ابن معين اهـ. لكن لأصله شواهد.

في الدعاء لها فلم يأذن لي، وأنزل علي: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ بِكُمْ﴾، فأخذني ما يأخذ الولد لوالده، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكر الآخرة»^(١).

[٣٦٨٦] حديث آخر في معناه: قال الطبراني: حدثنا محمد بن علي المزوزي، حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن مئيب، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك واعتمر، فلما هبط من ثبئة عُسفان أمر أصحابه: أن «استندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم»، فذهب فنزل على قبر أمه، فناجى ربّه طويلاً، ثم إنه بكى فاشتد بكاءه، وبكى هؤلاء لبيكاته، وقالوا: ما بكى نبي الله بهذا المكان إلا وقد أحدث الله في أمته شيئاً لا تُطيقه. فلما بكى هؤلاء قام فرجع إليهم، فقال: «ما يبكيكم؟» قالوا: يا نبي الله، بكينا لبيكاته، فقلنا: لعله أحدث في أمّتك شيء لا تُطيقه. قال: «لا، وقد كان بعضه، ولكن نزلت على قبر أمي فدعوت الله أن يأذن لي في شفاعتها يوم القيامة، فأبى الله أن يأذن لي، فَرَحَمْتُهَا وهي أمي، فَبَكَيْتُ، ثم جاءني جبريل فقال: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفِرُ لِإِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، فَتَبَرَّأْتُ مِنْ أُمَّكَ كَمَا تَبَرَّأَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ أَبِيهِ، فَرَحَمْتُهَا وهي أمي، ودعوت ربي أن يرفع عن أمي أربعاً، فرفع عنهم اثنتين، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين: دعوت ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض، وأبى أن يرفع عنهم القتل والهَرَجَ». وإنما عدل إلى قبر أمه لأنها كانت مدفونة تحت كذتي، وكانت عُسفان لهم^(٢). وهذا حديث غريب وسياق عجيب.

[٣٦٨٧] وأغرب منه وأشد نكارة ما رواه الخطيب البغدادي في كتاب السابق واللاحق بسند مجهول، عن عائشة في حديث فيه قصة أن الله أحيا أمه فأمنت ثم عادت^(٣).

(١) إسناده كسابقه.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه الطبراني ١٢٠٤٩، وفي إسناده مجاهيل، وقال الهيثمي في «المجمع» ٤٥٩: من عدا عكرمة لم أعرفهم أه. موضوع. أخرجه ابن شاهين في «الناسخ والمنسوخ» ٦٣٠، وابن الجوزي في «الموضوعات» ٢٨٣/١ - ٢٨٤ من حديث عائشة. قال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع بلا شك. والذي وضعه قليل الفهم، عديم العلم، إذ لو كان له علم لعلم أن من مات كافراً لا ينفعه أن يؤمن بعد الرجعة، لا بل لو آمن عند المعينة لم ينتفع، ويكفي في رد هذا الحديث قوله تعالى: ﴿قَسَمْتُ لَكُمْ وَفَوَّ كَسَارًا﴾ وقوله ﷺ كما في الصحيح «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يؤذن لي». ومحمد بن زياد هو النقاش ليس بثقة، وأحمد بن يحيى، ومحمد بن يحيى مجهولان، وقال شيخنا أبو الفضل بن ناصر: هذا حديث موضوع، وأم رسول الله ﷺ ماتت بالأبواء بين مكة والمدينة، وليست بالحجون أه، واعترضه السيوطي في «اللآلئ» ٢٦٦/١ - ٢٦٨ بما ملخصه: الصواب الحكم عليه بالضعف، ثم ذكر السيوطي عن السهيلي قوله: روي حديث غريب لعله يصح، وجدته بخط جد أبي عمر أحمد بن أبي الحسن القاضي بسند فيه مجهولان، ذكر أنه نقل من كتاب انتقل من كتاب معوذ بن داود بن معوذ الزاهد يرفعه إلى أبي الزناد عن عروة عن عائشة «أنه ﷺ سأل ربه أن يحيي أبويه، فأحياهما، فأمنأ به، ثم أماتهما» قال السهيلي: والله قادر على كل شيء. ثم ذكر كلاماً عن بعض أهل العلم في هذا الشأن، لكن بدون أدلة.

قلت: الحديث الأول مداره على عبد الوهاب بن موسى، قال عنه الذهبي في الميزان ٥٣٢٦ بعد أن ذكر هذا الحديث: لا يدري من ذا الحيوان الكذاب، فإن الحديث كذب، مخالف لما صح عنه ﷺ أنه استأذن ربه في الاستغفار لها فلم يؤذن له، وواقفه ابن حجر في الحكم على هذا الحديث بالوضع، وذلك في «اللسان» لكن خالفه بقوله: تكلم الذهبي هنا بالظن، فسكت عن المتهم بهذا الحديث، وجرح القوي. قال ابن حجر: فهذا الدارقطني ساقه في «غرائب مالك» ثم قال الدارقطني: عبد الوهاب لا بأس به، وهذا كذب على مالك، فالحمل فيه على أبي غزوة، هو المتهم به أه. وجاء في اللسان للحافظ ابن حجر في ترجمة عمر بن الربيع الخشاب: وضعفه الدارقطني في «غرائب مالك» وأورد =

[٣٦٨٨] وكذلك ما رواه السهيلي في الروض بسند فيه جماعة مجهولون: أن الله أحيا له أباه وأمه، فأما به^(١). وقد قال الحافظ ابن دحية: هذا الحديث موضوع يزده القرآن والإجماع، قال الله تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَتُوبُونَ وَهُمْ كَفَّارٌ﴾. وقد مال أبو عبد الله القرطبي إلى مقتضى هذا الحديث، ورد على ابن دحية في هذا الاستدلال بما حاصله أن هذه حياة جديدة، كما رجعت الشمس بعد غيوبتها فصلى عليّ العصر. قال الطحاوي: وهو ثابت، يعني حديث الشمس^(٢). قال القرطبي: فليس إحياءهما يمتنع عقلاً ولا شرعاً، قال: سَمِعْتُ أَنَّ اللَّهَ أَحْيَا عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ، فَأَمِنَ بِهِ^(٣).

(قلت): وهذا كله متوقف على صحة الحديث، فإذا صح فلا مانع منه. والله أعلم.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، فإن رسول الله ﷺ أراد أن يستغفر لأُمَّه، فنهاه الله عز وجل. عن ذلك، فقال: «فإن إبراهيم خليل الله قد استغفر لأبيه»، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ آسْتَفْغَارًا لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءً﴾... الآية. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في هذه الآية: كانوا يستغفرون لهم، حتى نزلت هذه الآية، فلما نزلت أمسكوا

= ابن عساکر هذا الحديث من طريقه، وطريق أبي غزوة، والكعبی، عن عبد الوهاب بن موسى عن مالك، والكعبی مجهول - وحسين بن علي - الحلبي صاحب غرائب، ولا يعرف لأبي الزناد رواية عن هشام. وتعقبه ابن حجر بقوله: لم ينبه على أبي غزوة وعمر الخشاب، وهما أولى أن يلبصق بهما هذا الحديث من الكعبی. وذكره ابن حجر في «اللسان» في ترجمة علي بن أحمد البصري، ونقل عن الدارقطني بعد أن أخرج له حديثاً آخر مع هذا. قال الدارقطني: والإسنادان والمتان باطلان وهذا كذب على مالك، وواقفه ابن حجر اهـ.

وأما ما ذكره السهيلي، فالجواب أنه باطل مفترى، وهو معلول بعلم كثيرة:

الأولى: أن السهيلي ذكره وجادة، والوجادة أضعف أقسام التحمل عند العلماء وهي مردودة لا تقبل.
الثانية: فيه مجاهيل كما أقر بذلك السهيلي.

الثالثة: «ذكر أنه نقله من كتاب، انتقل من كتاب معوذ بن داود بن معوذة»، وهذا نقل من كتاب عن كتاب، وهذا ساقط فليست هذه الكتب معتمدة ومعوذ هذا مجهول لم أعثر له على ترجمة.

الرابعة: أبو الزناد لم يسمع من عروة كما ذكر الدارقطني وغيره، فهذا الذي ركب هذا الإسناد لا علم له بطبقات الرجال. الخلاصة: هو حديث كذب موضوع، وبما يدل على وضعه كونه يحتوي على أمر عظيم، وهو إحياء الموتى، ثم لا يرويه سوى ابن شاهين والخطيب بإسناد مركب مصنوع.

الشي الثاني: هو أن القاضي عياض ذكر معجزات رسول الله ﷺ ومنها إحياء الموتى، فلما لم يجد هذا الحديث وأمثاله، ذكر حديث «الشاة المسومة» وذكر «حنين الجذع» وعد ذلك أنه من إحياء الموتى، بل لم يذكر أحد في معجزاته ﷺ إحياء أبويه، لا بسند ضعيف، ولا غيره، فعلياً أن نطرح الهوى جانباً، وأن ننقل ما صح، وضمن قواعد علماء الحديث والفقهاء.

أخيراً: حكم بوضع هذا الحديث إمام فن العلل الدارقطني، وكذا ابن عساکر، وابن ناصر - شيخ ابن الجوزي -، وابن الجوزي، والحافظ الذهبي، وابن حجر حيث وافق الدارقطني على بطلانه في غير موضع من «اللسان» كما ذكرت، وابن دحية فيما نقل ابن كثير، واستنكره ابن كثير جداً، والصواب أنه خبر موضوع مفترى، لا يجوز روايته «قال رسول الله ﷺ: من حدث عني يحدث عني كذب، واستنكره ابن كثير جداً، والصواب أنه خبر موضوع مفترى، لا يجوز روايته «قال رسول الله ﷺ: من حدث عني يحدث عني كذب، فهو أحد الكذابين»، والله ولي التوفيق.

(١) تقدم مع ما قبله، وأنه باطل موضوع.

(٢) حديث رد الشمس أيضاً غير صحيح، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله.

(٣) كيف ذلك، بدون إسناد ولا نقل، وقد جاء في الصحاح «أنه مات على ملة عبد المطلب»، كما تقدم مع زيادة «فأبى أن يقول لا إله إلا الله»، انظر حديث المسيب بن حزن المتقدم. والله الموفق.

عن الاستغفار لأمواتهم، ولم يُنْهَوْا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا. ثم أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْقَارُ لِإِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ...﴾ الآية.

[٣٦٨٩] وقال قتادة في هذه الآية: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجَالًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنْ مِنْ آبَائِنَا مَنْ كَانَ يُحْسِنُ الْجَوَارِ، وَيَصِلُ الْأَرْحَامَ، وَيَفُكُّ الْعَانِيَّ، وَيُوفِي بِالذَّمِّ، أَفَلَا نَسْتَغْفِرُ لَهُمْ؟ قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بلى، والله إنني أستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه». فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾، حتى بلغ: ﴿الْبَجِيرِ﴾، ثم عَدَرَ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَ: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْقَارُ لِإِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتْيَاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قال: وَذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَوْحَى إِلَيَّ كَلِمَاتٍ، فَدَخَلَن فِي أُذُنِي وَوَقَّرَن فِي قَلْبِي: أَمِزْتُ أَلَّا أَسْتَغْفِرَ لِمَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، وَمَنْ أَعْطَى فَضْلَ مَالِهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَمَنْ أَمَسَكَ فَهُوَ شَرٌّ لَهُ، وَلَا يَلُومُ اللَّهُ عَلَى كِفَافٍ»^(١).

وقال الثَّوْرِيُّ، عن الشيباني، عن سعيد بن جبيرة قال: مات رجل يهودي وله ابن مسلم، فلم يخرج معه، فذكر ذلك لابن عباس فقال: كان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه، ويدعو له بالصلاح ما دام حياً، فإذا مات وكله إلى شأنه. ثم قال: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْقَارُ لِإِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتْيَاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، لم يدع.

[٣٦٩٠] وهذا يشهد له بالصححة ما رواه أبو داود وغيره، عن علي بن أبي طالب قال: لما مات أبو طالب قلت: يا رسول الله، إن عمك الشيخ الضال قد مات. قال: «أذهب قواره ولا تُحدثن شيئاً حتى تأتيني». وذكر تمام الحديث.^(٢)

[٣٦٩١] وَيُزَوَّى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةُ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: «وَصَلَّتْكَ رَجِمَ يَا عَمَّ»^(٣). وقال عطاء بن أبي رباح: ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا، لأنني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾. الآية.

وروي ابن جرير، عن ابن وكيع، عن أبيه، عن عصمة بن زامل، عن أبيه قال: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: رَجِمَ اللَّهُ رَجُلًا اسْتَغْفَرَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ وَلَائِمَّةً. قلت: ولأبيه؟ قال: لا، قال: إن أبي مات مشركاً. وقوله: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. وفي رواية: لما مات تبين له أنه عدو لله. وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقاتدة، وغيرهم رحمهم الله. وقال عبيد بن عمير وسعيد بن جبيرة: إنه تبرأ منه يوم القيامة حين يلقي أباه، وعلى وجه أبيه العُبرة والقُثرة فيقول: يا إبراهيم، إنني كنت أعصيك وإنني اليوم لا أعصيك. فيقول: أي ربي، ألم تعدني أن لا تخزني يوم يبعثون؟ فأبي خزني أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال: انظر إلى ما وراءك، فإذا هو يذبح مُتَلَطِّخٌ، أي: قد مُسِخَ ضِبْعَانَا ثُمَّ يَسْحَبُ بِقَوَائِمِهِ، وَيَلْقَى فِي النَّارِ. وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾، قال سفيان الثوري وغير واحد، عن عاصم بن بهدلة، عن زَرِّ بْنِ حَبِيشٍ، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الأواه الدعاء. وكذا روي من غير وجه، عن ابن مسعود.

(١) أخرجه الطبري ١٧٣٤٧ عن قتادة، وهذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف.

(٢) حسن. أخرجه أبو داود ٣٢١٤ والنسائي ٧٩/٤ وإسناده حسن، وتقدم.

(٣) لم أره مستنداً بهذا اللفظ، وأخرجه ابن سعد ٩٩/١ بمعناه، وإسناده ضعيف لضعف الواقدي.

[٣٦٩٢] وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا الحجاج بن منهال، حدثنا عبد الحميد بن بهرام، حدثنا شهر بن حوشب، عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال: بينما رسول الله ﷺ جالس قال رجل: يا رسول الله، ما الأواه؟ قال: «المتضرع» قال: «إِنَّ إِتْرَهَيْسَ لَأَوْهٌ حَلِيمٌ»^(١). ورواه ابن أبي حاتم من حديث ابن المبارك، عن عبد الحميد بن بهرام، به، قال: الأواه المتضرع الدعاء. وقال الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن مسلم البطين، عن أبي العبيد بن أسد قال: سألت مسعود عن الأواه، فقال: هو الرحيم. ورواه مجاهد، وأبو ميسرة عمرو به شرحبيل، والحسن البصري، وقناة: أنه الرحيم، أي: بعباد الله.

وقال ابن المبارك، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الأواه: الموقن بلسان الحبشة. وكذا قال العوفي، عن ابن عباس أنه الموقن. وكذا قال مجاهد، والضحاك. وقال علي بن أبي طلحة، ومجاهد، عن ابن عباس: الأواه: المؤمن - زاد علي بن أبي طلحة عنه: المؤمن التواب. وقال العوفي عنه: هو المؤمن بلسان الحبشة. وكذا قال ابن جريج: هو المؤمن بلسان الحبشة.

[٣٦٩٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن زباج، عن عقبه بن عامر: أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له: ذو الجهادين: «إنه أواه»، وذلك أنه كان رجلاً كثير الذكر لله في القرآن ويرفع صوته في الدعاء^(٢). ورواه ابن جرير. وقال سعيد بن جبيرة، والشعبي: الأواه المسبوح. وقال ابن وهب، عن معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جبيرة بن نفير، عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: لا يحافظ على سُبْحَةِ الضُّحَى إلا أواه. وقال شُعْبَةَ بن ماتع، عن أبي أيوب: الأواه الذي إذا ذَكَرَ خطاياهُ استغفر منها. وعن مجاهد: الأواه الحفيظُ الوَجَلُ، يُذْنِبُ الذَّنْبَ سِرّاً، ثم يَتُوبُ منه سِرّاً. ذكر ذلك كله ابن أبي حاتم، رحمه الله.

[٣٦٩٤] وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا المحاربي، عن حجاج، عن الحكم، عن الحسن بن مسلم بن يثاق: أن رجلاً كان يكثر ذكر الله ويستبح، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «إنه أواه»^(٣).

[٣٦٩٥] وقال أيضاً: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا ابن يمان، حدثنا المنهال بن خليفة، عن حجاج بن أرطاة، عن عطاء، عن ابن عباس: أن النبي ﷺ دفن ميتاً، فقال: «رَحِمَكَ اللهُ إِنْ كُنْتَ لِأَوَاهِأ!» - يعني ثلاثة للقرآن^(٤).

[٣٦٩٦] وقال شعبة، عن أبي يونس الباهلي، قال: سمعت رجلاً بمكة - وكان أصله رومياً، وكان قاصاً - يحدث عن أبي ذر قال: كان رجل يطوف بالبيت الحرام ويقول في دعائه: أوه! أوه! فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «إنه أواه» قال: فخرجت ذات ليلة، فإذا رسول الله ﷺ يدفن ذلك الرجل ليلاً ومعه

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ١٧٤٣٠، وإسناده ضعيف، شهر بن حوشب وثقه جماعة وضعفه آخرون، وقال ابن عدي: ليس بالقوي، وهو عن لا يحتج به، وقال أبو حاتم: لا يحتج به ثم هو مدلس، وقد عنعن.

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد ١٥٩/٤ والطبراني ١٧/٢٩٥ من حديث عقبه بن عامر، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٥٩٨١: إسناده حسن! مع أن فيه ابن لهيعة، وهو ضعيف، وليس الراوي عنه أحد العبادلة، ولو صح لما اختلف المفسرون في ذلك، لكن لم يصح، لا هو ولا الذي قبله عن ابن شداد، ثم إن رفع الصوت في الدعاء ليس بمحمود. وورد خلفه «أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً».

(٣) ضعيف. أخرجه الطبري ١٧٤٢١ عن الحسن بن مسلم، وهذا مرسل، ابن يثاق تابعي، وفي الإسناد حجاج ابن أرطاة صدوق اختلط بأخزة، وسفيان بن وكيع وإو أيضاً، فالخبر ضعيف.

(٤) أخرجه الطبري ١٧٤٢٣ وفيه حجاج وإو.

المصباح^(١). هذا حديث غريب رواه ابن جرير. وزوي عن كعب الأحبار أنه قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾: قال: كان إذا ذكر النار قال: «أوه من النار». وقال ابن جرير، عن ابن عباس ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾، قال: فقيه. قال الإمام العلم أبو جعفر بن جرير: وأولى الأقوال قول من قال: إنه الدعاء، وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدما إياه، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليماً عن ظلمه وأناله مكروهاً، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه في قوله: ﴿أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِكًا﴾ (١١٥) قَالَ سَلَّمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيظًا ﴿١١٦﴾ (مريم: ٤٦-٤٧)، فحلم عنه مع أذاه له، ودعا له واستغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾
 ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَكُم مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَتَّبِعُكُمْ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يضل قوماً إلا بعد بلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا آلَمِيسَ عَلَىٰ السَّيِّئَاتِ﴾ [فصلت: ١٧] الآية. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾: قال: بيان الله عز وجل للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه لهم في طاعته ومعصيته عامة، فافعلوا أو ذروا. وقال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهيته ذلك بالنهي عنه، ثم تعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَكُم مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَتَّبِعُكُمْ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، قال ابن جرير: هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولا يرهبوا من أعدائه، فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه.

[٣٦٩٧] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن محرز، عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء. فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيظ السماء وما تلام أن تيط، وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملكٌ ساجد أو قائم»^(٢). وقال كعب الأحبار: ما من موضع خزيمة إبرة من الأرض إلا وملك موكل بها، يرفع علم ذلك إلى الله، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى مخه مسيرة مئة عام.

(١) أخرجه الطبري ١٧٤٢٥ وإسناده ضعيف فيه راو لم يسم.

(٢) في إسناده عبد الوهاب بن عطاء الخفاف، جاء في الميزان ٥٣٢٢: صدوق، قال أحمد: ضعيف الحديث مضطرب، وقال يحيى: ليس به بأس، وقال النسائي: ليس بالقوي، ووثقه الدارقطني، فالحديث غير قوي، لكنه فوق الضعيف. وبقية رجاله ثقات.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رَهُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم حَرَجُوا إليها في شدة من الأمر في سنة مُجَدِيَّةٍ، وحر شديد، وعُسْرٍ من الزاد والماء. قال قتادة: حَرَجُوا إلى الشام عام تبوك في لَهَبَانِ الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذُكِرَ لنا أن الرجلين كانا يشقان الثمرة بينهما، وكان النفر يتداولون الثمرة بينهم، يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم.

[٣٦٩٨] وقال ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عُبَيْة بن أبي عُثْبَةَ، عن نافع بن جُبَيْر بن مُطْعِم، عن عبد الله بن عباس: أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً، فأصابنا فيه عَطَشٌ، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلمسُ الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله عز وجل قد عَوَدَكَ في الدعاء خيراً، فادع لنا. قال: «تحب ذلك؟» قال: نعم! فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأظلمت ثم سكبت، فَمَلَأُوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جاوزت العسكر^(١).

وقال ابن جرير في قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، أي: من النفقة والظَّهر والزاد والماء، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾، أي: عن الحق ويشك في دين رسول الله ﷺ ويرتاب، بالذي نالهم من المشقة والشدة في سفره وغزوه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾، يقول: ثم رزقهم الإنباء إلى ربهم، والرجوع إلى الثبات على دينه، ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رَهُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ خَلَقُوا حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَسْتُوْا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

﴿أَتَقُوا اللَّهَ وَكُفُّوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

[٣٦٩٩] قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن أخي الزهري محمد بن عبد الله، عن عمه محمد بن مسلم الزهري، أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بنيهِ حين عمي - قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غيرها قط إلا في غزوة تبوك، غير أنني كنت تخلفت في غزاة بدر، ولم يُعَاتَبَ أحدٌ تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قریش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبه حين توافقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر.

وكان من خَبَرِي حين تَخَلَّفْت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك آتِي لم أَكُنْ قط أَقْوَى ولا أيسَرَ مني حين تَخَلَّفْت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعْتُ قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قُلماً يريد غزوة يَغزوها إلا وَرَى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً، فَجَلَى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وَجْهَهُ الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - فقال كعب: فَقُلْ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت شمار والظلال، وأنا إليها أصغو^(١). فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، وَطِفِقْتُ أَغدو لكي أَتجهزَ معهم، فأرجع ولم أَقْض من جهازي شيئاً، فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى استمر بالناس الجِدْ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أَقْض من جهازي شيئاً، وقلت: أَتجهز بعد يوم أو يومين ثم أَلْحَق. فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أَقْض شيئاً من جهازي، ثم غدوت فرجعت ولم أَقْض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهيمت أن أرتحل فأدرتهم - وليتني آتِي فعلت - ثم لم يُقَدِّر ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فَطَفْتُ فيهم يُحزِنُنِي ألا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذره الله، عز وجل. ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» قال رجل من بني سلمة: حَبَسَهُ يا رسول الله بُزْدَاه، والنظر في عَظْفِيهِ. فقال معاذ بن جبل: بنسما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً! فسكت رسول الله ﷺ قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد تَوَجَّه قافلاً من تبوك حضرني بَنِي، فطفقت أتذكر الكَذِبَ، وأقول: بماذا أخرج من سَخَطِهِ غداً؟ وأستعين على ذلك بكلُّ ذي رأْي من أهلي. فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أَظَلَّ قادمًا، زاح عني الباطل، وعرفت أنني لن أنجو منه بشيء أبداً. فأجمعتُ صدقه.

وصَبَّح رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فَطَفِقُوا يعتذرون إليه ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلاً - فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فلما سلَّمت عليه تبسَّم تبسَّم المغضب، ثم قال لي: «تعال» فجئت أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خَلَّفَكَ؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك؟» قال فقلت: يا رسول الله، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سَخَطِهِ بعذر، لقد أعطيتُ جَدلاً، ولكنه والله لقد علمتُ لئن حَدَّثتَكَ اليوم حديثَ كَذِبٍ تَرْضَى به عَنِّي ليوشِكَنَّ الله أن يُسَخَطَكَ عَلَيَّ، ولئن حدثتكَ بصدق تَجِدُ عَلَيَّ فيه إني لأرجو قربَ عقبى ذلك من الله تعالى، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال: قال فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فَمَّمْ حتى يقضي الله فيك». فممتُ وبادرني رجال من بني سلمة وأتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عَجَزت في ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، قال: فوالله ما زالوا يُؤْتَبُونِي حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي. قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك

رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قلت: فمن هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرألي فيهما أسوة. قال: فمضيت حين ذكروهما لي. قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا - أيها الثلاثة - من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحبنا فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبيكان، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، فلا يكلمني أحد، وأتى رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم، وأقول في نفسي: حرك شفتيه برد السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ فإذا التفت نحوه أعرض عني. حتى إذا طال عليّ ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي، وأحب الناس إليّ - فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، قلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله: هل تعلم أنني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. قال: فعدت فنشده فسكت، فعدت فنشده، فقال: الله ورسوله أعلم. قال: ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار. فيينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا تبطني من أنباط الشام، ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إليّ، حتى جاء فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان، وكنث كتاباً، فإذا فيه: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضية، فالحق بنا نوابك. قال: فقلت حين قرأته: وهذا أيضاً من البلاء. قال: فتيمنت به الثور فسجرته به. حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال فقلت: أطلقتها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها. قال: وأرسل إلي صاحبي بمثل ذلك، قال: فقلت لامراتي: الحق بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، إن هلالاً شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربك. قالت: وإنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب؟

قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليالٍ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا: قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج، قال فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون. وركض إليّ رجل فرساً، وسعى ساع من أسلم وأوفى على جبل، فكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنني، فنزعت ثوبي، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أمليك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ يلقاني الناس فوجاً فوجاً يهتفون بالتوبة، يقولون: ليهنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول، حتى صافحني وهتاني، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمتُ على رسول الله ﷺ قال: وهو يَبْرُقُ وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذُ وَلَدْتِكَ أمك». قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله». قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، حتى يُعرَفَ ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله. قال: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك». قال فقلت: فإني أمسكُ سهمي الذي بخير. وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألا أُحدِّث إلا صدقاً ما بقيت. قال: فوالله ما أعلمُ أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمَّدتُ كذبةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. قال: وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنْجَاةِ مِنْ بَدَا مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ قَوْمٍ مِنْهُمْ إِذْ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ بِهِمْ رِعْدٌ فَجَسَدٌ لَوْ كَانُوا يَشْعُرُونَ﴾ (١١٧) ﴿وَعَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَدْعُونَ إِلَى التَّوْبَةِ وَهُمْ لَا يُخْلَعُونَ مِنْ شَيْءٍ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١١٨) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا فَإِنَّ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١٩) قال كعب: فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذٍ ألا أكون كذبتُهُ، فأهلك كما هلك الذين كذبوه حين كذبوه؛ فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِشَرِّ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٢٠) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا فَإِنَّ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٢١) قال: وكنا خُلفنا - أيها الثلاثة - عن أمر أولئك الذين قَبِلَ منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا، حَتَّى قَضَى اللهُ فِيهِ، فبذلك قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَدْعُونَ إِلَى التَّوْبَةِ وَهُمْ لَا يُخْلَعُونَ مِنْ شَيْءٍ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٢٢) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا فَإِنَّ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٢٣) هذا حديثٌ صحيحٌ ثابتٌ متفقٌ على صحته، رواه صاحبنا الصحيح البخاري ومسلم من حديث الزُّهري، بنحوه. فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها. وكذا زوي عن غير واحد من السلف في تفسيرها، كما رواه الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَدْعُونَ إِلَى التَّوْبَةِ وَهُمْ لَا يُخْلَعُونَ مِنْ شَيْءٍ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، قال: هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُراة بن الربيع وكلهم من الأنصار. وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي وغير واحد، وكلهم قال: مُراة بن ربيعة^(٢٢). وفي رواية عن سعيد بن جبيرة: ربيع بن مرارة. وقال الحسن البصري: ربيع بن مرارة، أو: مرارة بن الربيع. وفي رواية عن الضحاك: مُراة بن الربيع، كما وقع في الصحيحين، وهو الصواب. وقوله: فسَمَرَا رجلين شهدا بدرًا، قيل: إنه خطأ من الزهري، فإنه لا يُعرَفُ شهودُ واحد من هؤلاء الثلاثة بدرًا، والله أعلم.

ولما ذكر تعالى ما فَرَّجَ به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكره، من هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلةً بأيامها، وضاعت عليهم أنفسهم، وضاعت عليهم الأرض بما رَحَّبْتُ، أي: مع سعتها، فسُدَّتْ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٤١٨ ومسلم ٢٧٦٩ والترمذي ٣١٠٢ والنسائي في «التفسير» ٢٥٢ وأحمد ٣٨٧١٦ وابن حبان ٣٣٧٠ والطبري ١٧٤٦١.

(٢) كذا قال المصنف رحمه الله والذي عند الطبري بعض هؤلاء يقول «ربيع» وآخرون «الربيع».

عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فَصَبَرُوا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فَرَجَ الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تَخْلُفِهِمْ، وأنه كان عن غير عذر، فَمُوقِبُوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم، ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٢٠)، أي: اصدقوا والزمو الصدق تكونوا مع أهله، وتنجوا من المهالك، وَيَجْعَلْ لَكُمْ فرجاً من أموركم، ومخرجاً.

[٣٧٠٠] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق؛ عن عبد الله - هو ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكْتَبَ عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يُكْتَبَ عند الله كذاباً»^(١). أخرجاه في الصحيحين. وقال شعبة، عن عمرو بن مَرْة، سمع أبا عبيدة يُحَدِّثُ عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرؤوا إن شئتم: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا من الصادقين»: - هكذا قرأها - ثم قال: فهل تجدون لأحد فيه رخصة. وعن عبد الله بن عمر: «اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ»: مع محمد ﷺ وأصحابه. وقال الضحاك: مع أبي بكر وعمر وأصحابهما. وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا، والكف عن أهل الملة.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَنْفِطُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢١)

يعاتب الله تعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورجبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة، فإنهم نَقَضُوا أنفسهم من الأجر، لأنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو: العطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وهو: التعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وهي: المجاعة ﴿وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَنْفِطُ الْكُفَّارَ﴾ أي: ينزلون منزلاً يُرْهَبُ عدوهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ منه ظفراً وغلبة عليه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم، أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُنِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٢)

يقول تعالى: ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ - أي: قليلاً ولا كثيراً -

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ - أي: في السير إلى الأعداء ﴿إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ﴾ ولم يقل ها هنا «به» لأن هذه أفعال صادرة عنهم، ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَسْعَوْنَ﴾. وقد حصل لأmir المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - من هذه الآية الكريمة حظ وافر، ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة، والأموال الجزيلة.

[٣٧٠١] كما قال عبد الله بن الإمام أحمد: [حدثنا أبي]، حدثنا أبو موسى العنزي، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثني سَكَنُ بن المغيرة، حدثني الوليد بن أبي هشام، عن فرقد أبي طلحة، عن عبد الرحمن بن خَبَابِ السلمي قال: حَظَبَ رسولُ الله ﷺ فحَثَّ على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان - رضي الله عنه -: عليُّ مئةٌ بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم حث، فقال عثمان: عليُّ مئةٌ أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم نزل مِرْقَاةٌ من المنبر ثم حَثَّ، فقال عثمان بن عفان: عليُّ مئةٌ أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا - يحركها. وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب: «ما على عثمان ما عمل بعد هذا»^(١).

[٣٧٠٢] وقال عبد الله أيضاً: [حدثنا أبي]، حدثنا هارون بن معروف، وسمعتُه أنا من هارون بن معروف حدثنا ضمرة، حدثنا عبد الله بن شوذب، عن عبد الله بن القاسم، عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة، عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان، إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة - قال: فَصَبَّهَا فِي جِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْلِبُهَا بِيَدِهِ وَيَقُولُ: مَا ضَرَّ ابْنَ عَفَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ. يُرَدُّهَا مِرَارًا^(٢).

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ﴾... الآية: ما ازداد قومٌ في سبيل الله بُعْدًا من أهلهم إلا ازدادوا من الله قُرْبًا.

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ
وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢)

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفي الأحياء مع الرسول في غزوة تبوك، فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفي على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَن حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾، قالوا: فنسخ ذلك بهذه الآية. وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفي الأحياء كلها، وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول - عليه السلام - بما ينزل من الوحي عليه، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا: النفي المعين، وبعده - صلوات الله وسلامه عليه - تكون الطائفة النافرة من الحيي إما للتفقه وإما للجهاد؛ فإنه فرض على الأحياء. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾، يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾، يعني: غصبة، يعني السرايا، ولا

(١) حسن. أخرجه أحمد ٧٥/٤ والترمذي ٣٧٠٠ وإسناده لا بأس به في الشواهد، وانظر ما بعده.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٦٣/٥ والترمذي ٣٧٠١ والحاكم ١٠٢/٣ وإسناده حسن في الشواهد لأجل كثير مولى ابن سمرة، فإنه مقبول، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وفي الباب أحاديث.

يَتَسَرَّوْا إِلَّا بِإِذْنِهِ، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون مع النبي ﷺ قالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآناً، وقد تعلمناه. فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿لِيَسْتَفْقَهُوا فِي الدِّينِ﴾، يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب محمد ﷺ خَرَجُوا فِي الْبُؤَادِي، فأصابوا من الناس معروفاً، ومن الخُضْب ما يتفغون به، وَدَعَوْا مَنْ وَجَدُوا مِنَ النَّاسِ إِلَى الْهَدْيِ، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجتتمونا. فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجاً، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ فقال الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا﴾، وليستمعوا ما في الناس، وما أنزل الله بعدهم، ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾، الناس كلهم، ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وقال قتادة في هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش، أمرهم الله ألا يعرؤا نبيه ﷺ وتقيم طائفة مع رسول الله تتفقه في الدين، وتنتقل طائفة تدعو قومها، وتحذروهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم.

وقال الضحاك: كان رسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه، إلا أهل العذر. وكان إذا أقام فأسرت السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، فكان الرجل إذا أسرى فنزل بعده قرآن وتلاه رسول الله ﷺ على أصحابه القاعدين معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآناً. فيفترئونهم ويفقهونهم في الدين، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْئِرُوا كَآفَّةً﴾، يقول: إذا أقام رسول الله ﷺ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾، يعني بذلك: أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً ونبي الله ﷺ قاعد، ولكن إذا قعد نبي الله تسرت السرايا، وقعد معه عظم الناس. وقال ابن أبي طلحة أيضاً، عن ابن عباس قوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْئِرُوا كَآفَّةً﴾، فإنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين أجديت بلادهم، وكانت القبيلة منهم تُقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد، ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون. فضيقوا على أصحاب النبي ﷺ وأجهدوهم. فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين، فردهم رسول الله ﷺ عشائرهم، وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

[٣٧٠٣] وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة، فيأتون النبي ﷺ فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم، ويتفقهون في دينهم، ويقولون لنبي الله ﷺ: ما تأمرنا أن نفعله؟ وأخبرنا ما نقول لعشائرننا إذا انطلقنا إليهم قال: فيأمرهم نبي الله بطاعة الله وطاعة رسوله، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة. وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا: إن من أسلم فهو منا، وينذرونهم، حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه، وكان رسول الله ﷺ يخبرهم وينذرهم قومهم، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام، وينذرونهم النار، ويبشرونهم بالجنة^(١). وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِلَّا نَفِرُوا يَغْذِبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩]، و﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا﴾، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه، وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى

(١) أخرجه الطبري ١٧٤٨٩ بسند ضعيف لضعف عطية العوفي، لكن له شواهد مرسله.

البدو إلى قومهم يفقهونهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْتَفْرِزُوا كَأَنَّكَ قَوْلًا تَقْرَءُ مِنْ كَلِمٍ فَرَقَرْتُمْ عَنْهُمْ طَائِفَةً﴾... الآية، ونزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ﴾ [الشورى: ١٦] الآية. وقال الحسن البصري: ﴿قَوْلًا تَقْرَءُ مِنْ كَلِمٍ فَرَقَرْتُمْ عَنْهُمْ طَائِفَةً لِيَسْتَفْقَهُوا فِي الْيَدِينَ﴾، قال: ليتفقّه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

﴿يَتَأَيَّبُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَبْلَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٣﴾

أمر تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فاولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة، والمدينة، والطائف، واليمن واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجذب البلاد وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام. ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حجة الوداع. ثم عاجلته المنية - صلوات الله وسلامه عليه - بعد الحجّة بأحد وثمانين يوماً، فاختره الله لما عنده. وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر - رضي الله عنه - وقد مال الدين ميله كاد أن يتنجس^(١)، فثبته الله تعالى به فوطد القواعد، وثبت الدعائم، ورد شارذ الدين وهو راغم. ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغّام، وبيّن الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمله. ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنفس كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد. وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الإله. وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده، وولي عهده الفاروق الأواب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً. وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بُغداً وقرباً، ففرقتها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي.

ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شهيد الدار. فكسي الإسلام بحالة رياسته حلةً سابقة، وأمدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، وظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه. وبلغت الأمة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، فكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امثالاً لقوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّبُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَبْلَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلظَةً﴾، أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّبُوا النَّبِيَّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنْفِقِينَ وَأَغْلظُ عَلَيْهِمْ﴾ [التحریم: ٩].

[٣٧٠٤] وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «أنا الضحوك القتال»^(١)، يعني: أنه ضحوك في وجهه، وليه، قتال لهامة عدوه. وقوله: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْكٰفِرِينَ»، أي: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه. وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة، الذين هم خير هذه الأمة، في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سفار وخسار. ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، والله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد. فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، ويقدر ما فيه من ولاية الله. والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم.

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذِهِ ۖ إِمَّا الْذُرِّيَّةَ ۖ أَمْ نَزَّلْنَا بِمَأْمُنٍ فَأَرْادَتْهُمْ إِيمَانًا ۚ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الْذُرِّيَّةَ ۖ فَنَزَّلْنَا بِمَأْمُنٍ فَأَرْادَتْهُمْ رِجْسًا لِّكٖ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذِهِ ۖ إِمَّا الْذُرِّيَّةَ﴾ أي: يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيماناً؟ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْذُرِّيَّةَ ۖ أَمْ نَزَّلْنَا بِمَأْمُنٍ فَأَرْادَتْهُمْ إِيمَانًا ۚ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء. بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد، وقد بسط الكلام على هذه المسألة في أول شرح البخاري رحمه الله. ﴿وَأَمَّا الْذُرِّيَّةَ ۖ فَنَزَّلْنَا بِمَأْمُنٍ فَأَرْادَتْهُمْ رِجْسًا لِّكٖ رِجْسِهِمْ﴾، أي: زادتهم شكاً إلى شكهم، وريباً إلى ريبهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً حَمِيمًا ۖ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الْظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَرَحْمَةٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالتهم ودمارهم، كما أن سبب الزواج لو غُذي بما غذي به لا يزيد إلا خبالاً ونقصاً.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَايَةٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرٰبَكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

يقول تعالى: أو لا يرى هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾، أي: يُختبرون، ﴿فِي كُلِّ عَايَةٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾، أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يُستقبل من أحوالهم، قال مجاهد: يُختبرون بالسنة والجوع. وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أو مرتين. وقال

شريك، عن جابر - هو الجعفي - عن أبي الضحى، عن حذيفة: ﴿أَوَّلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾، قال: كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين، فيُضِلُّ بها فئام من الناس كثير. رواه ابن جرير.

[٣٧٠٥] وفي الحديث عن أنس: ﴿لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا يزداد الناس إلا شحاً، وما من عام إلا والذي بعده شرُّ منه﴾. سمعته من نبيكم ﷺ^(١). وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَكَذَا بِرَدِّكُمْ مِنْ أَعْوَابِهِمْ أَنْظَرُوا مِنْكُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾^(٢)، هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾، أي تَلَفَّتُوا، ﴿هَكَذَا بِرَدِّكُمْ مِنْ أَعْوَابِهِمْ أَنْظَرُوا﴾، أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدين لا يشتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُبْرِضِينَ﴾^(٣) كَانَهُمْ حُمُرٌ مَشْتَبِهَةٌ ﴿٥٥﴾ فَزَتْ مِنْ قَسْوَمٍ ﴿٥٦﴾ [المدر: ٤٩ - ٥١]، وقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَهُ لَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مِنَ السَّمَاءِ وَنَحْنُ نَعْتَدُ الْحَرْبَ﴾^(٤) [المعارج: ٣٦ - ٣٧]، أي: ما لهؤلاء القوم يَتَفَلَّلُونَ عنك يميناً وشمالاً، وهروباً من الحق، وذهاباً إلى الباطل. وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا مِنْكُمْ أَنْظَرُوا مِنْكُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم في شغل عنه، ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٥) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٨﴾

يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، أي: منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته... وذكر الحديث. وقال سفيان بن عيينة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية.

[٣٧٠٦] وقال ﷺ: ﴿خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح﴾^(٦). وقد وصل هذا من وجه آخر.

[٣٧٠٧] كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الراهمزمري في كتاب «الفصل بين الراوي والواعي»: حدثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال: أشهد على أبي لحدثني، عن أبيه، عن جده، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿خرجت من نكاح

(١) أخرجه البخاري ٧٠٧٨ والترمذي ٢٢٠٦ عن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك فشكلونا إليه ما يلقون من الحجاج فقال: اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده أشد منه، حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ. هذا لفظهما ولم أره بلفظ المصنف. وانظر «الفتح» ٢٠/١٣ - ٢١.

(٢) هذا مرسل. وانظر ما بعده.

ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، لم يُغشني من سفاح الجاهلية شيء»^(١). وقوله: «عَزِيزٌ عَلَيْكَ مَا عَشَّتْ»، أي: يعز عليه الشيء الذي يُغثُّ أمته ويشق عليها.

[٣٧٠٨] ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة»^(٢).

[٣٧٠٩] وفي الصحيح: «إن هذا الدين يسر»^(٣)، وشريعته كلها سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله - تعالى - عليه. «حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ» أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم.

[٣٧١٠] قال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان بن عيينة، عن فطر، عن أبي الطُّفَيْل، عن أبي ذر قال: تَرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يُذَكِّرُنَا منه علماً - قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما بقي شيء يُقَرَّبُ من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بيَّن لكم»^(٤).

[٣٧١١] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو قَطَن، حدثنا المسعودي، عن الحسن بن سعد، عن عبدة التُّهَيْدِيِّ، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يُحَرِّم حُرْمَةً إلا وقد عَلِمَ أنه سيُطْلَعُها منكم مُطَّلَعٌ، ألا وإني أخذُ بِحُجْرِكُمْ أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش، أو الذباب»^(٥).

[٣٧١٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أتاه مَلَكًا، فيما يرى النائم، فقعده أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته. فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سَفَرُ انتهوا إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة، ولا ما يرجعون به؛ فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حُلَّةٍ جَبْرَةٍ فقال: أرأيتم إن وَرَدَتْ بكم رياضاً مُعْشِبِيَّةً، وحياضاً رَوَاءً تتبعوني؟ فقالوا: نعم. قال: فانطلق بهم، فأوردهم رياضاً معشبية، وحياضاً رَوَاءً، فأكلوا وشربوا وسَمِنُوا، فقال لهم: ألم ألكم على تلك الحال، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً مُعْشِبِيَّةً وحياضاً رَوَاءً أن تتبعوني؟ فقالوا: بلى. قال: فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشب من هذه، وحياضاً هي أروى من هذه، فاتبعوني، فقالت طائفة: صدق، والله لتتبعنه. وقالت طائفة: قد رَضِينَا بهذا نُقِيمَ عليه»^(٦).

[٣٧١٣] وقال البزار: حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قالوا: حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، حدثنا أبي، عن عكرمة، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ يَسْتَعِينُهُ في شيء - قال عكرمة: أراه قال: «في دم» - فأعطاه رسول الله ﷺ شيئاً، ثم قال: «أحسننت إليك؟» قال

(١) متن حسن . إسناده غير قوي لأجل محمد بن جعفر بن محمد، لكن له شواهد وتقدم تخريجه، وانظر «المجمع» ٢١٤/٨ و «الدر» ٥٢٥/٣.

(٢) حديث حسن، وتقدم.

(٣) تقدم تخريجه، وهو في الصحيح.

(٤) صحيح . أخرجه أحمد ١٥٣/٥ - ١٦٢ والطيالسي ٤٧٩ وابن حبان ٦٥ والطبراني ١٦٤٧ وإسناد ابن حبان والطبراني رجاله رجال الصحيح غير محمد المقرئ، وهو ثقة.

(٥) أخرجه أحمد ٣٩٠/١ - ٤٢٤ وأبو يعلى ٥٢٨٨ والطبراني ١٠٥١١ وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/٢١٠: فيه المسعودي، وقد اختلط.

قلت: ولمجزه شاهد من حديث أبي هريرة، أخرجه البخاري ٦٤٨٣ ومسلم ٢٢٨٤.

(٦) أخرجه أحمد ٢٤٠٢ «بتزقيم شاكر» والبزار ٢٤٠٧ والطبراني ١٢٩٤٠ بهذا الإسناد، ومداره على علي بن زيد، وقد ضعفه الحافظ في «التقريب»، ومع ذلك قال الهيثمي في «المجمع» ١٣٩٥٧: إسناده حسن!.

الأعرابي: لا، ولا أجملت. فغضب بعض المسلمين وهَمُّوا أن يقوموا إليه، فأشار رسول الله إليهم أن كُفُوا فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله، دعا الأعرابي إلى البيت، فقال له: «إنك جئتنا فسألنا فأعطيناك، فقلت ما قلت». فزاده رسول الله شيئاً، وقال: «أحسن إليك؟» فقال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. قال النبي ﷺ: «إنك جئتنا فسألنا فأعطيناك، فقلت ما قلت، وفي أنفس أصحابي عليك من ذلك شيء، فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى يُذهب عن صدورهم». قال: نعم. فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم كان جاعاً فسألنا فأعطيناه، فقال ما قال، وإنا قد دعوانه فأعطيناه، فزعم أنه قد رضي، أكذاك؟» قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. فقال النبي ﷺ: «إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشرذت علي، فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً. فقال لهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي، فإنا أرفق بها وأعلم بها. فتوجه إليها وأخذ لها من قنم الأرض، ودعاها حتى جاءت واستجابت، وشد عليها رخلها واستوى عليها، وإني لو أطعتمك حيث قال ما قال لدخل النار»^(١). ثم قال البزار: لا نعلمه يُزوى إلا من هذا الوجه. «قلت»: وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١٥) فَإِنَّ عَصَاكَ قُلَّتْ لِي بُرْهَةً مِمَّا تَعْمَلُونَ^(١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ^(١٧) ﴿الشعراء: ٢١٥-٢١٧﴾ وهكذا أمره تعالى. في هذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿إِن تَوَلَّوْا﴾، أي: تولوا عما جنتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة، ﴿فَنَقُلْ حَسْبَ اللَّهِ﴾ أي: الله كافي، لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿رَبُّكَ الشَّرِيفُ الْكَرِيمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾^(١٨) [المزمل: ٩]. ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، أي: هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات. وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مهجورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

[٣٧١٤] قال الإمام أحمد: حدثني محمد بن أبي بكر، حدثنا بشر بن عمر، حدثنا شعبة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن أبي بن كعب قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة^(٢١).

[٣٧١٥] وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا روح بن عبد المؤمن، حدثنا عمر بن شقيق، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب - رضي الله عنه -: أنهم جمَعُوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، فكان رجال يكتبون ويملي عليهم أبي بن كعب، فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا سَرَفًا صَرْفَ اللَّهِ قُلُوبِهِمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾، فظنوا أن هذا آخر ما أنزل من القرآن. فقال لهم أبي بن كعب: إن رسول الله ﷺ أقراني بعدها آيتين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾

(١) أخرجه البزار كما في «المجمع» ١٢/٩ - ١٦ من حديث أبر هريرة، وإسناده ضعيف كما قال ابن كثير رحمه الله، وعلته إبراهيم بن الحكم بن أبان جاء في «الميزان» ٧٢: تركوه، وقُل من مشاء. قال يحيى: ليس بشيء. وقال النسائي: متروك، وقال البخاري: سكتوا عنه.

(٢) أخرجه أحمد ١١٧/٥ والطبراني كما في «المجمع» ٣٦/٧، وقال الهيثمي: وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو ثقة سيء الحفظ، وبقية رجاله ثقات.

عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ إلى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ قال: هذا آخر ما أنزل من القرآن قال: فحتم بما فُتِحَ به. بالله الذي لا إله إلا هو، وهو قول الله تبارك تعالي: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَنَّ إِلَيْهِ أَنْهَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الانبيا: ٢٥] (١). غريب أيضاً.

[٣٧١٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن بحر، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد، عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير - رضي الله عنه - قال: أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى عمر بن الخطاب، فقال: من معك على هذا؟ قال: لا أدري، والله إني لأشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ووعيتها وحفظتها. فقال عمر: وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ثم قال: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن، فضعوها فيها. فوضعوها في آخر براءة (٢). وقد تقدم أن عمر بن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - بجمع القرآن، فأمر زيد بن ثابت فجمعه. وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك. وفي الصحيح: أن زيداً قال: فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمه بن ثابت، أو أبي خزيمه (٣). وقد قدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عن رسول الله ﷺ كما قال خزيمه بن ثابت حين ابتدأهم بها، والله أعلم.

وقد روى أبو داود، عن يزيد بن محمد، عن عبد الرزاق بن عُمَرَ - وقال: كان من ثقات المسلمين من المتعبدين - عن مُدْرِكِ بْنِ سَعْدٍ - قال يزيد: شيخ ثقة - عن يونس بن ميسرة، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: من قال إذا أضحى وإذا أمسى: حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم. سبح مرات، إلا كفاه الله ما أهمه.

[٣٧١٧] وقد رواه ابن عساكر في ترجمة عبد الرزاق بن عُمَرَ هذا من رواية أبي زُرْعَةَ الدَّمَشَقِيِّ، عنه، عن أبي سعد مدرك بن أبي سعد الفزاري، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس، عن أم الدرداء: سَمِعْتُ أبا الدرداء يقول: ما من عبد يقول: حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم. سبح مَرَّاتٍ صادقاً كان بها أو كاذباً، إلا كفاه الله ما أهمه (٤). وهذه زيادة غريبة، ثم رواه في ترجمة عبد الرزاق أبي محمد، عن أحمد بن عبد الرزاق، عن جده عبد الرزاق بن عُمَرَ، بسنده يرفعه، فذكر مثله بالزيادة. وهذا منكر. والله أعلم.

* * *

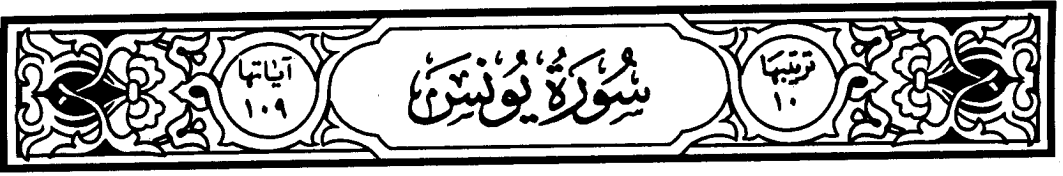
آخر تفسير سورة براءة، والله الحمد والمنة

(١) ضعيف. أخرجه عبد الله بن أحمد في «السند» ١٣٤/٥ ح ٢٠٧٢٠، فيه أبو جعفر الرازي عيسى بن أبي عيسى ضعيفه أحمد وغيره، وقال الفلاس والنسائي: متروك. وأما الهيثمي فأعله في «المجمع» ١١٠٦٣ بمحمد بن جابر الأنصاري، وأنه ضعيف. لكن لم أره في الإسناد. فإله أعلم.

(٢) منكر. أخرجه أحمد ١٧١٥ وإسناده ضعيف، فهو منقطع، وابن إسحاق مدلس، والثمن منكر، راجع تعليق أحمد شاکر على السند.

(٣) انظر صحيح البخاري ٤٦٧٩.

(٤) الصحيح موقوف. أخرجه أبو داود ٥٠٨١ عن أبي الدرداء موقوفاً بهذه الزيادة، وهي زيادة منكرة، لا تصح في الموقف ولا المرفوع، وأخرجه ابن السني في «اليوم والليلة» ٧١ بهذا الإسناد مرفوعاً دون تلك الزيادة، وإسناده لا بأس به، رجاله ثقات، سوى مدرك بن سعد، قال عنه الحافظ في التقریب: لا بأس به لكن الصحيح وقفه.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾

أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة. وقال أبو الضحى، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الرَّ﴾، أي: أنا الله أرى. وكذا قال الضحاك وغيره. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، أي: هذه آيات القرآن المحكم المبين. وقال مجاهد: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ قال: التوراة والإنجيل. وقال الحسن: التوراة والزبور^(١)، وقال قتادة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾، قال: الكتب التي كانت قبل القرآن. وهذا القول لا عرف وجهه ولا معناه، وقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾... الآية، يقول تعالى منكرأ على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: ﴿أَبَشِّرْ بِهَدُونَا﴾ [التغابن: ٦]، وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣]، وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿اجْعَلِ الْآيَةَ إِنهَآ رَجِيمًا إِنَّ هَٰذَا لَنَقْوُ بِجَنَابِ﴾ ﴿٥﴾ [ص: ٥]. وقال الضحاك، عن ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد. قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، اختلفوا فيه، فقال علي بن أبي طلحة. عن ابن عباس في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ﴾ يقول: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، يقول: أجراً حسناً بما قدموا. وكذا قال الضحاك، والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهذا كقوله تعالى: ﴿يُنذِرُ نَاسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ ﴿٢﴾ ﴿٣﴾ [الكهف: ٢-٣]. وقال مجاهد: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، قال: الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقهم وتسيبهم. قال: ومحمد ﷺ شفيع لهم. وكذا قال زيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان. وقال قتادة: سلف صدق عند ربهم. واختار ابن جرير قول مجاهد أنها الأعمال الصالحة التي قدموها، قال: كما يقال: له قدم في الإسلام، ومنه قول حسان - رضي الله عنه -:

لَنَا الْقَدَمُ الْعُلْيَا إِلَيْكَ وَخَلْفُنَا
لَأَوْلِنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِعٌ
وقول ذي الرمة:

(١) هذا قول غريب جداً.

لَكُمْ قَدْ لَمْ لَا يُنْكِرُ النَّاسُ أَنَهَا مَعَ الْحَسْبِ الْعَادِي طَمَّتْ عَلَى الْبَحْرِ
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ شَيْنٌ﴾، أي: مع أنا بعثنا إليهم رسولا منهم، رجلا من
 جنسهم، بشيرا ونذيرا، ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ شَيْنٌ﴾، أي: ظاهر، وهم الكاذبون في ذلك.
 ﴿إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا
 مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِ جَمِيعِهِ، وَأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، قِيلَ: كَهَذِهِ الْأَيَّامِ،
 وَقِيلَ: كُلُّ يَوْمٍ كَالْفِ سَنَةِ مِمَّا تَعْدُونَ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانَهُ. ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾، وَالْعَرْشُ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ
 وَسَقْفُهَا. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ حَمْرَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو اسَامَةَ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ قَالَ:
 سَمِعْتُ سَعْدَ الطَّائِي يَقُولُ: الْعَرْشُ يَاقُوتَةٌ حَمْرَاءُ. وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مَنبِيهٍ: خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ نُورِهِ^(١). وَهَذَا غَرِيبٌ.
 وَقَوْلُهُ: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾، أَي: يُدَبِّرُ أَمْرَ الْخَلْقِ، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، وَلَا
 يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنِ شَأْنٍ، وَلَا تُغْلَطُهُ الْمَسَائِلُ، وَلَا يَتَّبِعُ بِالْحَاحِ الْمُلْحِنِينَ، وَلَا يُلْهِمُهُ تَدْبِيرَ الْكَبِيرِ عَنِ الصَّغِيرِ، فِي
 الْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْعُمُرَانِ وَالْفَقَارِ، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَسَّرَ اللَّهُ لَهَا الْيُسْرَى وَأَسْرَرَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ
 مُبِينٍ ﴿٤﴾﴾ [هود: ٦]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ مِنْ ظَلْمَتٍ إِلَّا يَسْمَعُهَا وَلَا يَابِسُ إِلَّا فِي كِتَابٍ
 مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وَقَالَ الدُّرَّازُ دِي، عَنِ سَعْدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ كَعْبِ بْنِ عَجْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: حِينَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ
 اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ لَقِيَهُمْ رَكْبٌ عَظِيمٌ لَا يَرُونَ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنَ الْعَرَبِ، فَقَالُوا لَهُمْ: مَنْ
 أَنْتُمْ؟ قَالُوا: مِنَ الْجَنِّ، خَرَجْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، أَخْرَجْتَنَا هَذِهِ الْآيَةُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَوْلُهُ ﴿وَمَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ
 بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي
 السَّمَوَاتِ لَا تُفِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضُ﴾ [النجم: ٢٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ
 عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أَي: أَفَرَدُوهُ
 بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أَي: أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ فِي أَمْرِكُمْ، تَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا غَيْرَهُ،
 وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وَقَوْلُهُ:
 ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٥١﴾ سَبِّحُوا لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦]،
 ٨٧]، وَكَذَا الْآيَةُ الَّتِي قَبْلَهَا وَالَّتِي بَعْدَهَا.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ إِلَهَهُ مَرْجِعُ الْخَلْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَبْرُكُ مِنْهُمْ أَحَدٌ حَتَّى يُعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ
 كَمَا بَدَأَ الْخَلْقَ كَذَلِكَ يُعِيدُهُ، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾، أَي: بِالْعَدْلِ وَالْجِزَاءِ الْأَوْفَى، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ
 يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، أَي: بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْوَاعِ الْعِقَابِ، مِنْ ﴿سَمُورٍ وَحَمِيمٍ ﴿٦﴾﴾ وَظُلْمٍ يَنْ

يَعْمُرُ ﴿٤٣﴾ [الواقعة: ٤٢، ٤٣]، ﴿هَذَا قَدِيدُهُمْ حَمِيمٌ وَعَسَاءَ ﴿٤٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَرْجَحُ ﴿٤٨﴾﴾ [ص: ٥٧، ٥٨]، ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿١٣﴾ يَطْرُقُونَ بِهَا لَيْلًا وَبَيِّنَ حَمِيمٍ مَأْوَى ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي آخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

يخبرُ تعالى عما خلق من الآياتِ الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جزم الشمس ضياءً وشعاع القمر نوراً، هذا فنٌ وهذا فنٌ آخرٌ، ففاوت بينهما لثلا يشتهها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً ثم يتزايد نوره وجرمه، حتى يستوسق ويكمل إبدائه، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأول في تمام شهر، كقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٦٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٩، ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٦]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدَرَهُ﴾، أي: القمر ﴿مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾، فبالشمس تُعرَف الأيام، وبسير القمر تُعرف الشهور والأعوام. ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، أي: لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك، وُحُجَّةٌ بالغة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ خُلُقٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ ﴿١٧﴾﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَهِنَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥]، ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْكَلِمَةَ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. وقوله تعالى: ﴿نُفِصِلُ الْآيَاتِ ﴿١﴾﴾، أي: نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي آخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، أي: تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً؛ كقوله تعالى: ﴿يُنشِئُ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿كَالَّذِي إِضْطَجَّ وَحَصَلَ إِلَيْهِ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٦]. وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: من الآيات الدالة على عظمتها تعالى، كما قال: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَاتٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... [يوسف: ١٠٥] الآية. وقوله: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تَقِي الْآيَاتِ وَالَّذِينَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا لَكُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ سَمَاءٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [سبا: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، أي: العقول، وقال ها هنا: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾، أي: عقاب الله وسخطه وعذابه.

﴿إِنَّ الْآيَاتِ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾

أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقاء الله شيئاً،

(١) هذه قراءة نافع وابن عامر وحزرة والكسائي وأبو بكر عن عاصم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بن عاصم ﴿يُفَصِّلُ﴾. انظر زاد المسير.

ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها أنفسهم. قال الحسن: والله ما زئبوا ولا رَقَعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا ياتمرون بها، فإن ما أوامهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يَكْسِبُونَ في دنياهم من الآثام والخطايا والأجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورَسُولِهِ واليوم الآخر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ الْغَيْبِ ﴿١٠﴾ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَتُهُمْ أَنْ لِحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿١١﴾﴾

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أمروا، فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم. يحتمل أن تكون الباء هنا سببية، فتقديره: بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة. ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾، قال: يكون لهم نوراً يمشون به. وقال ابن جريج في الآية: يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره، يُعارض صاحبه ويشيره بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك. فيجعل له نوراً من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾. والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح مُتَيْتَةٍ، فيلازم صاحبه ويلازمه^(١) حتى يقذفه في النار. وزوي نحوه عن قتادة مرسلاً، فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَتُهُمْ أَنْ لِحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿١١﴾﴾، أي: هذا حال أهل الجنة. قال ابن جريج: «أخبرت أن قوله: ﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، قال: إذا مر بهم الطير يشتهوئه، قالوا: سبحانك اللهم، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه، فيسلم عليهم، فيردون عليه، فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فذلك قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَتُهُمْ أَنْ لِحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ﴾. وقال مقاتل بن حيان: إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، قال: فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم، مع كل خادم صحيفة من ذهب، فيها طعام ليس في الأخرى، قال: فيأكل منهن كلهن. وقال سفيان الثوري: إذا أراد أحدهم أن يدعوا بشيء قال: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾. وهذه الآية فيها شبهة من قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۖ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، وقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَبِّهِمْ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَتُهُمْ أَنْ لِحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ﴾، هذا فيه دلالة على أن الله تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿لِحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿لِحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأول والآخر، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في جميع الأحوال، ولهذا جاء في الحديث:

(١) يلازمه: يقارنه ويلازمه ويصتق به.

[٣٧١٨] «إن أهل الجنة يُلَهَّمُونَ التسبيح والتحميد كما يُلَهَّمُونَ النَّفْسَ»^(١). وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تضاعف نِعَمِ الله عليهم، فَتُكْرَزُ وتُعَادُ وتزاد، فليس لها انقضاء ولا أمد، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(١١)

يخبرُ تعالى عن جُلُومِهِ ولطفِهِ بعباده: أنه لا يَسْتَجِيبُ لهم إذا دَعَوْا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم، في حال ضَجْرِهِم و غَضَبِهِم، وأنه يعلم منهم عَدَمَ القصدِ إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيبُ لهم - والحالة هذه - لطفًا ورحمةً، كما يستجيبُ لهم إذا دَعَوْا لأنفسِهِم أو لأموالِهِم أو أولادِهِم بالخير والبركة والنماء، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾، أي: لو استجاب لهم كل ما دَعَوْه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثارُ من ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مُسنده:

[٣٧١٩] حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَعْمَرٍ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ مُجَاهِدٍ أَبُو حَزْرَةَ، عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا جَابِرٌ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ. لَا تَوَافِقُوا مِنْ اللَّهِ سَاعَةً فِيهَا إِجَابَةٌ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ»^(٢). ورواه أبو داود، من حديث حاتم بن إسماعيل، به. وقال البزار: تفرد به عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت الأنصاري. لم يشاركه أحد فيه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾: وهو قول الإنسان لولديه أو ماله إذا غَضِبَ عليه: اللهم لا تُبارِك فيه والعنه. فلو يُعَجِّلُ لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير، لأهلكهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّرْنَا كَذَلِكَ زَيْنًا لِلْمُسْتَرِيحِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١٢)

يخبرُ تعالى عن الإنسان وضَجْرِهِ وَقَلْبِهِ إذا مَسَّهُ الضر، كقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاؤِهِ عَرِيسٌ﴾ [فصلت: ٥١] أي: كثير، وهما في معنى واحد، وذلك لأنه إذا أصابته شِدَّةٌ قَلِقَ لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شِدَّتَهُ وكشَفَ كربته، أعرَضَ ونأى بجانبه، ودَهَبَ كأنه ما كان به من ذاك شيء، ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّرْنَا﴾. ثم دَمَّ تعالى مَنْ هذه صفته وطريقته فقال: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِلْمُسْتَرِيحِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فأما مَنْ رَزَقَهُ الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فإنه مُسْتَتِنٌ من ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١].

(١) أخرجه البخاري ومسلم. وتقدم.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ١٥٣٢ وإسناده على شرط مسلم. قال أبو داود: هذا الحديث متصل الإسناد فإن عبادة بن الوليد بن عبادة لقي جابراً.

[٣٧٢٠] وكقول رسول الله ﷺ: «عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْراً لَهُ: إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ»^(١). وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمنين.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

أخبر تعالى عما أحلّ بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم به من البينات والحجج الواضحات. ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولا لينظر طاعتهم له واتباعهم رسوله.

[٣٧٢١] وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءٌ خَفِيزَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظَرٌ مَاذَا تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»^(٢).

[٣٧٢٢] وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا زيد بن عوف أبو ربيعة فهد، حدثنا حماد، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى: أن عوف بن مالك قال لأبي بكر: رأيت فيما يزى النائم كأن سبيبا ذلي من السماء، فانتشيط رسول الله ﷺ ثم أعيد، فانتشيط أبو بكر ثم ذرع الناس حول المنبر، ففضل عمر بثلاث أذرع إلى المنبر. فقال عمر: دعنا من رؤياك، لا أرب لنا فيها! فلما استخلف عمر قال: يا عوف، رؤياك! فقال: وهل لك في رؤياي من حاجة؟ أولم تنتهري؟ فقال: ويحك! إني كرهت أن تنعى لخليفة رسول الله ﷺ نفسه! فقص عليه الرؤيا، حتى إذا بلغ: ذرع الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع، قال: أما إحداهن فإنه كائن خليفة. وأما الثانية فإنه لا يخاف في الله لومة لائم. وأما الثالثة فإنه شهيد. قال فقال: يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾، فقد استخلفت يا ابن أم عمر فانظر كيف تعمل؟ وأما قوله: «فإني لا أخاف في الله لومة لائم»، فيما شاء الله وأما قوله: «شهيد»، فأني لعمر الشهادة والمسلون مطيفون به؟. ثم قال: إن الله على كل شيء قدير^(٣).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أُمِّيقًا أَوْ بَعْدَ هَذَا أَوْ أَرَادَهُ قُلُوبُهُمْ مَا يَكُونُ لَهُ أَنْ أَسْأَلَهُ مِنْ تِلْقَائِي أَن يُسَمِعَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ وَإِنِ خَافَ أَنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ أَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين الحق المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له: «أنتي بقرآني عير هذا؟» أي: رد هذا وجننا بغيره من تمط آخر، أو بدله إلى وضع آخر - قال الله لنبيه - صلوات الله وسلامه عليه -: «قُلْ مَا يَكُونُ لَهُ أَنْ أَسْأَلَهُ مِنْ قَبْلِهِ»

(١) صحيح. أخرجه الشيخان، وتقدم.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم وغيره، وتقدم.

(٣) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري ١٧٥٩٥ وفيه زيد بن عوف، ولقبه فهد، وهو متروك.

تَلْقَائِي تَقِيحًا ﴿١٧﴾ ، أي : ليس هذا إليّ ، إنما أنا عبدٌ مأمورٌ ، ورسولٌ مُبَلَّغٌ عن الله : ﴿إِنْ أَنْتَجِ إِلَّا مَا بُوْحَى إِلَيْكَ لِإِي لِنَافٍ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابٌ بَرُّهُ عَطِيبٌ﴾ . ثم قال مُحتجاً عليهم في صِحَّة ما جاءهم به : ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُم بِهِ﴾ ، أي : هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته ، والدليل على أنني لست أتقوله من عندي ولا افتريته أنكم عاجزون عن مُعَارَضَتِهِ ، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل ، لا تنتقدون عليّ شيئاً تغمضوني به ، ولهذا قال : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ، أي : أفليس لكم عقولٌ تعرفون بها الحق من الباطل !؟

[٣٧٢٣] ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه ، فيما سأله من صفة النبي ﷺ ، قال : هرقل لأبي سفيان : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان : فقلت : لا . وقد كان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق :
وَالْفَضْلُ مَا شَهِدْتُ بِهِ الْأَعْدَاءُ

فقال له هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله! (١) وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة : بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته . وقد كانت مدة مقامه - عليه السلام - بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة . وعن سعيد بن المسيب : ثلاثاً وأربعين سنة . والصحيح المشهور الأول .

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى : لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً ﴿مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ، وتقول على الله ، وزعم أن الله أرسله ، ولم يكن كذلك ، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا ، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء ، فكيف يشته حال هذا بالأنبياء!؟ فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً ، فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بزه أو فُجوره ما هو أظهر من الشمس ، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في جنيس الظلماء ، فمن سيما كل منهما وكلامه وفعاله يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب ، وسجّاح ، والأسود العنسي .

[٣٧٢٤] قال عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس ، فكنث فيمن انجفل ، فلما رأيته عرفته أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب ، فكان أول ما سمعته يقول : «يا أيها الناس ، أفسوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام» (٢) .

[٣٧٢٥] ولما قدم ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له : من رقع هذه السماء؟ قال : «الله» . قال : ومن نصب هذه الجبال؟ قال : «الله» . قال : ومن سطح هذه الأرض؟ قال : «الله» . قال : فبالذي رقع هذه السماء ، ونصب هذه الجبال ، وسطح هذه الأرض ، الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال : «اللهم نعم» . ثم سأله عن الصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصيام ، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين ، ويحلف رسول الله ﷺ فقال له : صدقت ، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا

(١) هو بعض حديث أخرجه البخاري وغيره ، وتقدم .

(٢) تقدم في سورة النساء وغيرها .

أَنْقَضُ^(١). فاكْتَفَى هذا الرجل بِمَجْرَدِ هذا، وقد أيقن بصدقه - صلوات الله وسلامه عليه - بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه، كما قال حسان بن ثابت:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُّبَيِّنَةٌ كَأَنَّ بَدِيهَتَهُ تَأْتِيكَ بِالْخَبْرِ

وأما مُسَيْلِمَةُ فمن شاهده من ذوي البصائر عَلم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنيه الذي يخلدُ به في النار يوم الحسرة والفضيحة، وكَم من فُرق بين قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيمُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وبين غلاك مُسَيْلِمَةَ - قبحه الله ولعنه -: يا ضِفْدَعُ بنت الضفدعين، نقي كم تُنْقِين، لا الماء تُكْذَرِين، ولا الشارب تمنعين. وقوله - قُبْح ولعِن -: لقد أنعم الله على الحُبلى. إذ أخرج منها نَسَمَةٌ تسمى. من بين صِفَاقٍ وَحْشًا. وقوله - خَلَدَهُ اللهُ في نار جهنم، وقد فَعَلَ -: الفيل وما أدراك ما الفيل؟ له خُرطومٌ طويل. وقوله - أبعده الله من رحمته -: والعاجنات عَجْنًا، والخابزات خَبزًا، واللاقمات لَقْمًا، إهالةٌ وَسَمْنَا، إن قُرَيْشًا قومٌ يعتدون. إلى غير ذلك من الهذيان والخرافات التي يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها، إلا على وجه السخرية والاستهزاء، ولهذا أرغم الله أنفه، وشرب يوم «حديقة الموت» حتفه. ومَزَّق شمله. ولعنه صحبه وأهله. وقدموا على الصديق تائبين، وجاؤوا في دين الله راغبين، فسألهم الصديق خليفة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه، ورَضِي عنه - أن يقرؤوا عليه شيئاً من قرآن مُسَيْلِمَةَ - لعنه الله - فسألوه أن يعيهم من ذلك، فأبى عليهم إلا أن يقرؤوا شيئاً منه لیسعنه من لم يسمعه من الناس، فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم. فقرؤوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه، فلما فرغوا قال لهم الصديق - رضي الله عنه -: ويحكم! أين كان يُدْعَبُ بِعقولكم؟ والله إن هذا لم يخرج من إل.

وذكروا أنه وقد عمرو بن العاص على مُسَيْلِمَةَ، وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعد، فقال له مُسَيْلِمَةُ: ويحك يا عمرو! ماذا أنزل على صاحبكم - يعني رسول الله ﷺ - في هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة، فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَالْمَصْرِيحُ﴾ ١. إن الأنتن لبي خسر ٢. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ٣. ففكر مُسَيْلِمَةَ ساعة، ثم قال: وقد أنزل عليّ مثله، فقال: وما هو؟ فقال: يا ويزر، إنما أنت أذنان وصدْر، وسائرِك حَقْرٌ نَفْر، كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أنني أعلم أنك لتكذب؛ فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه، لم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه، وحال مُسَيْلِمَةَ - لعنه الله - وكذبه، فكيف بأولي البصائر والنهي، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحقى! ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ٤، وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه، كما جاء في الحديث:

[٣٧٢٦] «أعتى الناس على الله رجلٌ قَتَلَ نبياً، أو قَتَلَ نبياً»^(٢).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٣ ومسلم ١٢ وابن حبان ١٥٤ و ١٥٥ من حديث أنس.

(٢) حديث حسن، وتقدم في آل عمران.

﴿وَعَبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِتُ اللَّهُ يَمَّا لَا يَمَلِكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

يُنكِزُ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، ظَانِّينَ أَنَّ تِلْكَ الْأَلَهَةَ تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَتُهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَاخْبِرْ تَعَالَى أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَمْلِكُ شَيْئاً، وَلَا يَقَعُ شَيْءٌ مِمَّا يَزْعُمُونَ فِيهَا، وَلَا يَكُونُ هَذَا أَبَداً، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنْتَبِتُ اللَّهُ يَمَّا لَا يَمَلِكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَاهُ: أَنْخَبِرُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَكُونُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ؟ ثُمَّ نَزَهَ نَفْسَهُ عَنِ شُرْكَهِمْ وَكَفَرَهُمْ، فَقَالَ: ﴿سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الشُّرْكَ حَادِثٌ فِي النَّاسِ، كَانَتْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ كَانُوا عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشْرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ وَقَعَ الْاِخْتِلَافُ بَيْنَ النَّاسِ، وَعُبِدَتِ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ وَالْأَوْثَانُ، فَبَعَثَ اللَّهُ الرَّسُلَ بَيِّنَاتِهِ وَبَيِّنَاتِهِ وَحُجُجِهِ الْبَالِغَةَ وَبِرَاهِينِهِ الدَّامِغَةَ، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أَي: لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَداً إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ؛ وَأَنَّهُ قَدْ أَجَّلَ الْخَلْقَ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ لِقَضِي بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ اِخْتَلَفُوا، فَاسْعَدَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَعْتَبَ الْكَافِرِينَ.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

أَي: وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ الْكُفْرَةُ الْمُكَذِّبُونَ الْمُعَانِدُونَ: لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ آيَةً مِنْ رَبِّهِ، يَعْنُونَ كَمَا أَعْطَى اللَّهُ تَمُودَ النَّاقَةَ، أَوْ أَنْ يُحَوَّلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَباً، أَوْ يُزِيحَ عَنْهُمْ جِبَالَ مَكَّةَ وَيَجْعَلَ مَكَانَهَا بَسَاتِينَ وَأَنْهَاراً، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا اللَّهُ عَلَيْهِ قَادِرٌ، وَلَكِنَّهُ حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُوراً ﴿١٥﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعيراً ﴿١٦﴾﴾ [الفرقان: ١٠، ١١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّا تَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا تُرْسِلُ إِلَّا الْآيَاتِ﴾ [الإسراء: ٥٩]. يَقُولُ تَعَالَى: إِنْ سُنِّتِي فِي خَلْقِي أَنِّي إِذَا آتَيْتَهُمْ مَا سَأَلُوا، فَإِنْ آمَنُوا وَإِلَّا عَاجَلْتَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ. وَلِهَذَا لَمَّا خَيْرَ رَسُولَ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بَيْنَ أَنْ يُعْطَى مَا سَأَلُوا فَإِنْ أَجَابُوا وَإِلَّا عُوْجِلُوا، وَبَيْنَ أَنْ يَتْرَكَهُمْ وَيُنْتَظِرَهُمْ، اخْتَارَ إِنْظَارَهُمْ، كَمَا حَلَّمَ عَنْهُمْ غَيْرَ مَرَّةٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِرْشَاداً لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْجَوَابِ عَمَّا سَأَلُوا: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾، أَي: الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ الْعَوَاقِبَ فِي الْأُمُورِ. ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾، أَي: إِنْ كُنْتُمْ لَا تَوْمِنُونَ حَتَّى تُشَاهِدُوا مَا سَأَلْتُمْ فَانْتَظِرُوا حُكْمَ اللَّهِ فِيَّ وَفِيكُمْ. هَذَا مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ شَاهَدُوا مِنْ مَعْجَزَاتِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -؛ أَعْظَمُ مِمَّا سَأَلُوا، حِينَ أَشَارَ بِحَضْرَتِهِمْ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ إِبْدَارِهِ، فَانْشَقَّتْ ائْتِنِينَ: فَرْقَةٌ مِنْ وِرَاءِ الْجَبَلِ، وَفَرْقَةٌ مِنْ دُونِهِ. وَهَذَا أَعْظَمُ مِنْ سَائِرِ الْآيَاتِ الْأَرْضِيَّةِ مِمَّا سَأَلُوا وَمَا لَمْ يَسْأَلُوا، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ سَأَلُوا ذَلِكَ اسْتِرْشَاداً وَتَشْتِياً لِأَجَابِهِمْ، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَسْأَلُونَ عِنَاداً وَتَعْتِياً، فَتْرَكَهُمْ فِيمَا رَابَهُمْ، وَعَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ مِنْهُمْ أَحَداً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْكَلْبَ الْأَبْيَداً ﴿١٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْكَلْبَكةَ وَكَلَّمَهُمُ النَّوَّارَ وَحَشَرْنَا

عَلَيْهِمْ كُلِّ فَنٍ وَفِيْلًا مَا كَانُوا يَتُوبُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَصْحَابَهُمْ يَتَّبِعُونَ ﴿١١١﴾. ولما فيهم من المكابرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُؤِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْفُسُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿١١١﴾﴾ [الطور: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْآنٍ فَلَسَوْهُ بِأَبْدَانِهِمْ لَقَالُوا أَلَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ شَيْبَانٍ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام: ٧]. فمثل هؤلاء أقل من أن يُجابوا إلى ما سألوا، لأنه لا فائدة في جواب هؤلاء، لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم، لكثرة فُجورهم وقسادهم، ولهذا قال: ﴿فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ السُّعْطِينِ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا أَذْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَكْفُرُونَ ﴿١١١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِرِيمُ رِيحٍ طَبَقَتْكُمْ وَفِرْحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَيْنَ أُنجَيْنَا مِنْ هَذَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١١٢﴾ فَلَمَّا أَجْمَعْتُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَمْرِ الْعَمَى يُخَالِفُهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِفَيْكُمُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يخبرُ تعالى أنه إذا ذاق النَّاسُ رحمةً من بعد ضراءٍ مستهم، كالرِّخاء بعد الشدة، والخضب بعد الجذب، والمطر بعد القحط، ونحو ذلك، ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾. قال مجاهد: استهزاء وتكذيب. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحِطَّةٍ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُصْرَهُ مَرَّ كَأَن لَمْ يَدْعُنَا إِكْرَامًا شَرًّا ﴿١١٢﴾﴾ [يونس: ١٢].

[٣٧٢٧] وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على إثر سماء - مطر - أصابهم من الليل ثم قال: «هل تدرُونَ ماذا قال ربكم الليلة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»^(١). وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾، أي: أشد استدراجاً وإمهالاً، حتى يظن الظالم من المجرمين أنه ليس بمعدب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه، والكتابتون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعل، ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الحقيق والجليل، والتقير والقَطْمِير.

ثم أخبر تعالى أنه ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، أي: يحفظكم ويكلؤكم بحراسته، ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِرِيمُ رِيحٍ طَبَقَتْكُمْ وَفِرْحُوا بِهَا﴾، أي: بسرعة سيرهم رافقين، فبينما هم كذلك إذ ﴿جَاءَتْهَا﴾، أي: تلك السفن ﴿ريحٌ عاصِفٌ﴾، أي: شديدة ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾، أي: اغتلم البحر عليهم، ﴿وظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾، أي: هلكوا ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾، أي: لا يدعون معه صنماً ولا وثناً، بل يقرؤنه بالدعاء والابتهال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُنا قُلْنَا نَحْنُ إِلَهُكُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١١٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال ها هنا: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَيْنَ أُنجَيْنَا مِنْ هَذَا﴾، أي: هذه الحال ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، أي: لا نشركُ بك أحداً، ولنفرِّدك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ها هنا. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَجْمَعْتُمْ﴾، أي: من تلك الورطة ﴿إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَمْرِ الْعَمَى﴾، أي: كان لم يكن من

ذلك شيء، ﴿كَأَن لُّرٍ يَدْعُونَكَ لِيَكُ مَثَرًا مِّنْكُمْ﴾. ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَثْنَاكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾، أي: إنما يدعونك وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث:

[٣٧٢٨] «ما من ذنب أجدد أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرجم»^(١). وقوله: ﴿مَتَّعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا﴾، أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيئة الحقيرة، ﴿ثُمَّ إِنَّمَا مَرَجَعْنَاكُمْ﴾، أي: مصيركم ومآلكم، ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ﴾، أي: فنخبركم بجميع أعمالكم، ونؤتيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَلَمَ أَهْلُهَا أَنْهَمَ فَنَدْرُونَ عَلَيْهَا أَنهَامًا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

ضرب تعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرج الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، مما يأكل الناس من زرع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من آب وقضب وغير ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾، أي: زينتها الفانية، ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾، أي: حسنت بما خرج من رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان، ﴿وَظَلَمَ أَهْلُهَا﴾، الذين زرعوها وغرسوها، ﴿أَنْهَمَ فَنَدْرُونَ عَلَيْهَا﴾، أي: على جذأها وحصادها، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة، أو ريح شديدة باردة، فأبيست أوراقها، وأتلفت ثمارها. ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْهَامًا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾، أي: يبساً بعد الخضرة والنضارة، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾، أي: كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك. وقال قتادة: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ﴾: كان لم تنعم. وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن، ولهذا جاء في الحديث:

[٣٧٢٩] ﴿يُؤْتَىٰ بِأَنْعَامِ أَهْلِ الدُّنْيَا فَيَغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً﴾، ثم يقال له: هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا. ويؤتى بأشد الناس عذاباً في الدنيا، فَيَغْمَسُ فِي النَّعِيمِ غَمْسَةً، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا. وقال تعالى إخباراً عن المهلكين: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جثيوت ﴿٢٧﴾ كَأَن لَّمْ يَمُوتُوا فِيهَا﴾ [هود: ٦٧ - ٦٨]. ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾، أي: نبيِّن الحجج والأدلة، ﴿لِقَوْمٍ يَنْفَكُونَ﴾، فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترابهم بها، وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها وتقلتها منهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها. وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز، فقال في سورة الكهف: ﴿وَاصْرَبْ لِمِثْلِ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَيْبًا تَدْرُؤُ الرِّيحَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥]، وكذا في سورة الزمر والحديد يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا كما.

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا ابن عبيدة، عن عمرو بن دينار، عن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: سمعت مزوان - يعني ابن الحكم - يقرأ

(١) حسن. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ٦٧ والحاكم ٣٥٦/٢ وأحمد ٣٦/٥ وابن حبان ٤٥٥ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وله شواهد.

على المنبر: «وَأُزِيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُهْلِكَهَا إِلَّا بِذُنُوبِ أَهْلِهَا»، قال: قد قرأتها وليست في المصحف. فقال عباس بن عبد الله بن عباس: هكذا يقرأها ابن عباس، فأرسلوا إلى ابن عباس فقال: هكذا قرأني أبي بن كعب^(١). وهذه قراءة غريبة، وكأنها زيادة لل تفسير.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾... الآية، لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها، رغب في الجنة ودعا إليها، وسماها دار السلام، أي: من الآفات والنقائص والنكبات، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).

[٣٧٣٠] قال أيوب، عن أبي قلابة، عن النبي ﷺ قال: «قيل لي: لئنتم عيبتكم، ولعقل قلبك، ولتسمع أذنك، فنامت عيني، وعقل قلبي، وسمعت أذني ثم قيل: سيّد بنى داراً، ثم صنع مأذبة، وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأذبة، ورَضِيَ عنه السيّد. ومن لم يُجِبِ الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأذبة، ولم يرض عنه السيّد: فالله السيّد، والدار الإسلام، والمأذبة الجنة، والداعي محمد ﷺ»^(٣). وهذا حديث مرسل.

[٣٧٣١] وقد جاء متصلاً من حديث اللّيث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً. فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمك كمثل ملك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأذبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها»^(٤) رواه ابن جرير.

[٣٧٣٢] وقال قتادة: حدثني خُليد العَصْرِيُّ، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم طلعت فيه شمسُه إلا وبجَنَّتَيْهَا ملكان يناديان، يسمعهما خلق الله كلُّهم إلا الثقلين: يا أيها الناس، هلُّموا إلى ربكم، إن ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى». قال: وأنزل ذلك في القرآن، في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٥). رواه ابن جرير.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْمُسْتَقِيمَ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّ لِمَن أَحْسَنَ الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلَ الصَّالِحِ الْحُسْنَىٰ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾^(٦) [الرحمن: ٦٠]. وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾، هي تضعيف ثواب

(١) موقوف باطل. أخرجه الطبري ١٧٦١٦ وفيه عبد العزيز، وهو ابن أبان، وهو متروك كذبه غير واحد.

(٢) مرسل، لكن يشهد له ما بعده، والله أعلم.

(٣) أخرجه الطبري ١٧٦٢٤ ورجاله ثقات مشاهير، لكنه منقطع بين سعيد وجابر، ولعله يتأيد بما قبله.

(٤) أخرجه الطبري ١٧٦٢٣ من حديث أبي الدرداء. وفيه عباد بن راشد، مختلف فيه. وثقه أحمد، ولا بن معين فيه قولان، وضعفه أبو داود وقال أبو حاتم: صالح الحديث. وذكره البخاري في الضعفاء واتهمه ابن حبان، وقال ابن عدي: له أحاديث كما لأبيه، وما يروياته لا يتابعان عليه أحد فالاكثر على توهينه، والمتن منكر، فهو إلى الضعف أقرب. والله أعلم.

الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، وزيادة على ذلك أيضاً، وشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والخور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضلِهِ وبِرَحْمَتِهِ. وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم، عن أبي بكر الصديق، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وسعيد بن المسيب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الرحمن بن سابط، ومجاهد، وعكرمة، وعامر بن سعد، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم من السلف والخلف. وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد:

[٣٧٣٣] حدثنا عفان، أخبرنا حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب: أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنْتَقِنٍ وَزِيَادَةٌ﴾، وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه. فيقولون: وما هو؟ ألم يُقَلِّ مَوَازِينَنَا وَيُبَيِّضُ وُجُوهَنَا وَيُدْخِلُنَا الْجَنَّةَ، وَيُزَحِّحُنَا مِنَ النَّارِ؟ قال: فَيُكْشَفُ لَهُمُ الْحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَلَا أَقْرَبَ لَأَعْيُنِهِمْ»^(١) وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة، من حديث حماد بن سلمة، به.

[٣٧٣٤] وقال ابن جرير: أخبرنا يونس، أخبرنا ابن وهب قال أخبرنا شبيب، عن أبان، عن أبي تيممة الهجيمي: أنه سمع أبا موسى الأشعري يحدث عن رسول الله ﷺ: إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي: يا أهل الجنة - بصوت يُسْمَعُ أَوْلَهُمْ وَأَخْرَجَهُمْ -: «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ الْحَسَنَى وَزِيَادَةً»، ﴿لِلْمُنْتَقِنِ﴾: الجنة، و﴿زِيَادَةٌ﴾: النظر إلى وجه الرحمن عز وجل^(٢). ورواه أيضاً ابن أبي حاتم، من حديث أبي بكر الهذلي، عن أبي تيممة الهجيمي، به.

[٣٧٣٥] وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن حميد، حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جريج، عن عطاء، عن كعب بن عجرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنْتَقِنٍ وَزِيَادَةٌ﴾، قال: «النظر إلى وجه الرحمن عز وجل»^(٣).

[٣٧٣٦] وقال أيضاً: حدثنا ابن عبد الرحيم، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، سمعت زهيراً، عن سمع أبي العالية، حدثنا أبي بن كعب: أنه سأل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنْتَقِنٍ وَزِيَادَةٌ﴾، قال: «الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل»^(٤). ورواه ابن أبي حاتم أيضاً من حديث زهير، به. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرَوْنَ وُجُوهَهُمْ قَرًّا﴾، أي: قتام وسواد في عرصات المحشر، كما يغتري وجوه الكفرة الفجرة من القفرة والغبرة، ﴿وَلَا ذُلَّةً﴾، أي: هوان وصغار، أي: لا يحصل لهم إهانة في الباطن، ولا في

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٨١ والترمذي ٢٥٥٢ والنسائي في «التفسير» ٢٥٤ وأحمد ٣٣٣/٤ والطبري ١٧٦٤١ وابن حبان ٧٤٤١.

(٢) أخرجه الطبري ١٧٦٣٣، وفيه أبان، وهو ابن أبي عياش، اسمه شعبة وتركه الجمهور. وتابعه أبو بكر الهذلي ١٧٦٣١ و ١٧٦٣٢ وأبو بكر متروك منهم. فالخير ضعيف، والصحيح في هذا حديث صهيب.

(٣) أخرجه الطبري ١٧٦٤٦ وإسناده ضعيف، فيه عنمنة ابن جريج، فهذه علة، وإبراهيم غير قوي.

(٤) أخرجه الطبري ١٧٦٤٨ وإسناده ضعيف، فيه من لم يسم. لكن لعل هذه الروايات المرفوعة مع الموقوفة والمقطوعة تتأيد بمجموعها، والله أعلم.

الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فَوَقَّعْنَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعْنَاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (١١) [الإنسان: ١١]، أي: نضرة في وجوههم، وسروراً في قلوبهم. جعلنا الله منهم بفضلِهِ ورحمته، أمين.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَزَجَّعْنَاهُمْ ذَلَّةً مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشَيْتُمْ وُجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٧)

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يُضَاعَفُ لهم الحسنات، ويزدادون على ذلك، عَطَفَ بِذِكْرِ حال الأشقياء، فذكر عدله تعالى فيهم، وأنه يُجَازِيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك، ﴿وَزَجَّعْنَاهُمْ﴾، أي: تعتربهم، وتعلوهم ﴿ذَلَّةً﴾ من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال تعالى: ﴿وَزَجَّعْنَاهُمْ يَعْزُبُونَ عَنَّا يَا خَائِبِينَ مَنَ الَّذِي يَنْظُرُونَ مِن طَرْفِ حَيْفٍ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الْفَالِغُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (١٤) مُهْطِيبَاتٍ مَّقْبِلِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (١٥) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٤٤]. وقوله: ﴿مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ﴾، أي: من مانع ولا وافي يقيهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنِّي لَكَنَّا لِلَّهِ غَفِيلاً﴾ (١٦) كَلَّا لَا تَدَّ (١٧) إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ لَّشَنَّ (١٨) [القيامة: ١٠ - ١٢]. وقوله: ﴿كَأَنَّمَا أَغْشَيْتُمْ وُجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾، إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْثَرُهُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَاذْكُرُوا الْمَذَابَ يَمَا كُنتُمْ تُكْفِرُونَ﴾ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِمَا رَحِمَهُ اللَّهُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٠) [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]، وكما قال تعالى: ﴿رُجُوعُهُمْ يُؤْمِدُ مُسْفِرَةٌ (٢٨) حَاجِكُمْ مُسْتَبِيرَةٌ (٢٩) وَرُجُوعُهُمْ يُؤْمِدُ عَلَيْهِمْ صَبْرَةٌ (٣٠) وَرَهْمَهَا فَذَرَةٌ (٣١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجِرَةُ﴾ (٢٢) [عبس: ٣٨ - ٤٢].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَرِيقًا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَعْبُدُونَ (٢٨) فَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفَابِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٣٠)

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾، أي: أهل الأرض كلهم، من إنس وجن، وبر وفاجر كما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾، أي: الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْتَنُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٢٤) [يس: ٥٩]، وقال: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤْمِدُ بِمَقَرَّتِهِمْ (١٤)﴾ [الروم: ١٤]، وفي الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّقُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، أي: يصيرون صِدْعِينَ، وهذا يكون إذا جاء الرب تعالى لفصل القضاء، ولهذا قيل ذلك^(١)... يَسْتَشْفِعُ الْمُؤْمِنُونَ إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا.

[٣٧٣٧] وفي الحديث الآخر: «نحن يوم القيامة على كرم فوق الناس»^(٢).

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَرِيقًا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَعْبُدُونَ﴾، أنكروا عبادتهم وتبرؤوا منهم، كما قال تعالى: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مرسيم: ٨٢] الآية. وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتْبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾

(١) بياض في كافة النسخ، وحديث الشفاعة تقدم في سورة البقرة.

(٢) حديث صحيح، وتقدم مطولاً.

[البقرة: ١٦٦] وقال: ﴿وَمَنْ أَسْلَمُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٦٦﴾ وَإِذَا حُجِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الاحقاف: ٥، ٦] وقال في هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿كَفَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَكَنُفِرَاتٍ ﴿٦٦﴾﴾، أي: ما كنا نشعر بها ولا نعلم، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رَضِينَا منكم بذلك. وفي هذا تبيكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ومَنْ لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ، ولا يُغْنِي عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رَضِينَا به ولا اراده، بل تبرأ منهم في وقت أحوَج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحي القيوم، السميع البصير، القادر على كل شيء، العليم بكل شيء، وقد أرسل رُسُلَهُ وأنزل كُتُبَهُ، أمرأ بعبادته، وحده لا شريك له، ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الانبيا: ٢٥]، وقال: ﴿وَمَثَلٌ مِّنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولِنَا أَجْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ الْهَلْهَةَ يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]. والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكروهم الله في كتابه، وبين أحوالهم وأقوالهم، ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد. وقوله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾، أي: في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من عملها من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلُغُ الْأُنثَىٰ بِهَيْبَةٍ مِّمَّا قَدَّمَتْ وَرَأَتْ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَيُخْرِجُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ لِنَفْسِهِ نَشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الاسراء: ١٣]، وقد قرأ بعضهم: ﴿هُنَالِكَ تَلْوُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾، وفسرها بعضهم بالقراءة، وفسرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمته من خير وشر.

[٣٧٣٨] وفسرها بعضهم بحديث: «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت...»^(١) الحديث. وقوله: ﴿وَرُدُّوهُا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾، أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكيم العدل، ففضلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. ﴿وَصَلِّ عَنْهُمْ﴾، أي: ذهب عن المشركين ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، أي: ما كانوا يفعلون من دون الله افتراء عليه.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا لِنَفْسٍ ﴿٣٦﴾ فذلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَدَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَإِنَّ نَافِرَاتٍ كُفِرُوا كَذَلِكَ حَقَّتْ لِكُلِّ نَفْسٍ عَلَى النَّفْسِ فَسَقُوا أَنفُسَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته ورؤبوبيته على وحدانيته الإله، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقاً يقدرته ومشيئته، فيخرج منها ﴿حَبًّا ﴿٣٧﴾ وَعَبَقًا وَقَعْبًا ﴿٣٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٣٩﴾ وَحَدَائِقَ غَلَبًا ﴿٤٠﴾ وَكَلْهَةً وَأَبًا ﴿٤١﴾﴾ [عبس: ٢٧ - ٣١]، ﴿أَوَلَمْ يَخْلُقْ اللَّهُ ﴿٦٠﴾﴾ [الملك: ٢١]، وكذلك قوله: ﴿أَمَّنْ

يَلِيكُمُ النَّعَمَ وَالْأَبْصَرَ، أَي: الذي وَهَبَكُم هذه القُوَّة السامِعة، والقُوَّة الباصِرة، ولو شاء لذهب بها وسلبكُم إياها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ النَّعَمَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الملك: ٢٣]، وقال: ﴿قُلْ أَنبَشْرُ إِن أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنَ اللَّهُ غَيْرَ اللَّهِ بِأَيْتِكُمْ يَوْمَ﴾ [الأنعام: ٤٦]. وقوله: ﴿وَمَنْ يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجِ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾، أَي: يُقدِّرته العظيمة ومِيتته العجيبة. وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك، وأن الآية عامة في ذلك كله. وقوله: ﴿وَمَنْ يُدِيرِ الْأَمْرَ﴾، أَي: مَنْ يَبْدِئُه ملكوت كل شيء وهو يُجِير ولا يُجَار عليه، وهو المتصرفُ الحاكمُ الذي لا مُعقَّب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، ﴿يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٣٥﴾﴾ [الرحمن: ٢٩]، فالملكُ كُلُّه العلوي والسفلي، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقيرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه، ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، أَي: وهم يعلمون ذلك ويعترفون به، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أَي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجعلكم!

وقوله: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الَّذِي فَمَادَا بَدَّ الْحَقِّ إِلَّا السَّلْطَنَ فَإِنَّ قُضِرْتُمْ ﴿٣٦﴾﴾، أَي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعلُ ذلك كُلُّه هو ربُّكم والهُكُمُ الحقُّ الذي يَسْتَحِقُّ أن يُفَرَّدَ بالعبادة، ﴿فَمَادَا بَدَّ الْحَقِّ إِلَّا السَّلْطَنَ﴾، أَي: فكلُّ معبودٍ سواه باطلٌ، لا إله إلا هو، واحِدٌ لا شريك له. وقوله: ﴿فَأَنَّ قُضِرْتُمْ﴾، أَي: فكيف تُصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الربُّ الذي خَلَقَ كُلَّ شيءٍ، والمتصرفُ في كلِّ شيءٍ! وقوله: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾، أَي: كما كَفَرَ هؤلاء المشركون واستمروا على شريكهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالقُ الرازقُ المتصرفُ في الملك وحده، الذي بَعَثَ رُسُلَهُ بتوحيده، فلماذا حَقَّتْ عليهم كلمةُ الله أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٨﴾﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُنَبِّئَ أَمَّن لَّا يَهْدِي إِلَّا أَن يَهْدِي فَا لَكُمُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَا يُنَبِّئُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾

وهذا إبطالٌ لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد، ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، أَي: من بدأ خَلَقَ هذه السموات والأرض ثم يُنشِئُ ما فيهما من الخلاق، ويُفَرِّقُ أجرام السموات والأرض ويبدلُهما ببناء ما فيهما، ثم يُعيدُ الخَلْقَ خَلْقًا جَدِيدًا؟ ﴿قُلِ اللَّهُ﴾، هو الذي يفعلُ هذا ويستقلُّ به وحده لا شريك له، ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾، أَي: فكيف تُصرفون عن طريق الرُّشيدِ إلى الباطل؟! ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾، أَي: أنتم تعلمون أنَّ شركاءكم لا تقدر على هداية ضالٍّ، وإنما يَهْدِي الحيارى والضلالُ ويُقلِّبُ القلوب من الغيِّ إلى الرُّشيدِ اللُّهُ الذي لا إله إلا هو. ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُنَبِّئَ أَمَّن لَّا يَهْدِي إِلَّا أَن يَهْدِي﴾، أَي: أفيتبعُ العبدُ الذي يهدي إلى الحقِّ ويصُرُّ بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيءٍ إلا أن يهدي، لعماء وبكهم؟ كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿يَنَابِتُ لِمَ تَقْبُدُ مَا لَا يَسْعَ وَلَا يُعِيرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مریم: ٤٢]، وقال لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْمِلُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَحْمِلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]. إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: ﴿فَا لَكُمُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، أَي: فما بالكم يُذهبُ بعقولكم، كيف سويتم بين الله وبين خَلْقِهِ، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟! وهلا أفردتم

الرَّبِّ - جل جلاله - المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة! ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظنٌ منهم، أي: توهم وتخيُّل، وذلك لا يُغني عنهم شيئاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾: تهديدٌ لهم، ووعيدٌ شديد، لأنه تعالى أخبر أنه سيُجازيهم على ذلك أتمَّ الجزاء.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ كَذَّابٌ أَذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٩) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٤٠)

هذا بيانٌ لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سورٍ، ولا بسورة من مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته، واشتماله على المعاني الغزيرة، النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذي لا يُشبهه شيء في ذاته ولا صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يُشبه كلامَ المخلوقين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يُشبه هذا كلامَ البشر، ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: من الكتب المُتقدمة، ومُؤمِّناً عليها، ومُبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل. وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام، بياناً شافياً كافياً حقاً لا مزية فيه من الله رب العالمين.

[٣٧٣٩] كما تقدّم في حديث الحارث الأعور، عن علي بن أبي طالب: «فيه خَبْرٌ ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وفصل ما بينكم»^(١)، أي: خَبْرٌ عما سَلَفَ وعما سيأتي، وحُكْمٌ فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه. وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي: إن ادعيتُمْ وافتريتم وشككتُم في أن هذا من عند الله، وقلتم كذباً وميناً: «إن هذا من عند محمد»، فمحمدٌ بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورةٍ مثله، أي: من جنس القرآن واستعيتوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان.

وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم، إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد، فلتُعَارِضوه بنظير ما جاء به وحده واستعينوا بمن شئتم، وأخبر أنهم لا يقدرُونَ على ذلك، ولا سبيلَ لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قُلْ لِيُنزِلَ الْإِنشَ وَالْحِجْرُ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بِصُحُفٍ يَحْمِلُهَا ظَهِيرٌ أَوْ وَاوْدٌ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سورٍ منه، فقال في أول سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٠)، ثم تنازل إلى سورة، فقال في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨)، وكذا في سورة البقر - وهي مدنيّة - تحداهم بسورةٍ منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً، فقال: ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَكُنْتُمْ لَفَاقِحِينَ فَانظُرُوا﴾ [البقرة: ٢٤]... الآية. هذا وقد كانت الفصاحة من سجايهم وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المُنتهى من هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا يقبل لأحدهم، ولهذا آمن من

(١) تقدم في مقدمة الكتاب، مرفوعاً وموقوفاً، والراجح وقفه.

أمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له وأشدهم له انقياداً، كما عَرَفَ السحرة لِعِلْمِهِم بِقُوَّةِ السحر، أن هذا الذي فَعَلَهُ موسى - عليه السلام - لا يصدر إلا عن مؤيد مُسَدِّدٍ مُرْسَلٍ من الله، وأن هذا لا يَسْتَطَاعُ لبشر إلا بإذن الله. وكذلك عيسى - عليه السلام - بُعِثَ في زمان عُلَمَاءِ الطَّبِّ ومعالجة المرضى، فكان يُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ، ويُحْيِي الموتي بإذن الله، ومِثْلُ هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فَعَرَفَ مَنْ عَرَفَ مِنْهُمْ أَنَّهُ عبد الله ورسوله.

[٣٧٤٠] ولهذا جاء في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً»^(١).

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِبُّوا يُحِبُّوهٖ وَلَكِنَّا بِآيَاتِنَا أَوَّلِبِئِنَّهٗ﴾، يقول: بل كَذَّبَ هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عَرَفُوهُ، ﴿وَلَكِنَّا بِآيَاتِنَا أَوَّلِبِئِنَّهٗ﴾، أي: ولم يُحْصِلُوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: من الأمم السالفة، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾، أي: فانظر كيف أهلكتناهم بتكذيبهم رُسُلَنَا ظُلماً وَعُلُوًّا وكُفْراً وَعِنَاداً وَجَهْلاً، فاحذروا أيها المُكذِّبُونَ أن يُصِيبَكُمْ ما أصابهم. وقوله: ﴿وَمِنهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾^(٢)، أي: ومن هؤلاء الذين بُعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن، ويتبعك وينتفع بما أرسلت به، ﴿وَمِنهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾، بل يموث على ذلك وُيُبْعَثُ عليه، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾، أي: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيُضِلُّه، وهو العادل الذي لا يجور، بل يُعْطِي كُلَّ ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٣) وَمِنهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْتَدِي
الْمُتَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْتَدِي
الْمُتَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الشَّيْءَةَ وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: وإن كَذَّبَكَ هؤلاء المشركون، فَتَبَرَّأْ مِنْهُمْ وَمَنْ عَمِلَهُمْ، ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾^(١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عِبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عِبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُم دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ [الكافرون: ١ - ٦]. وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لِقَوْمِهِمُ الْمُشْرِكِينَ: ﴿إِنَّا بَرَاءَةٌ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَبِّهِ﴾ [المتحنة: ٤]. وقوله: ﴿وَمِنهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، أي: يَسْمَعُونَ كلامك الحَسَنَ، والقرآنَ العَظِيمَ، والأحاديثَ الصَّحِيحَةَ الفَصِيحَةَ النَافِعَةَ في القلوب والأبدان والأديان، وفي هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم - وهو الأطرش - فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء، إلا أن يشاء الله. ﴿وَمِنهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾، أي: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من الثَّوْدَةِ، والسَّمَةِ الحَسَنِ، والخُلُقِ العَظِيمِ، والدلالة الظاهرة على نُبُوَّتِكَ لأولي البصائر والنهَى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء مما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، والكافرون ينظرون بعين الاحتقار، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ تُخَذُّوْكَ إِذَا هُمْ زَاوُوا أَعْدَاكَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رُسُلًا

(١) أخرجه البخاري وغيره، وتقدم.

﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لَيُخْلِفَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴿الفرقان: ٤١ - ٤٢﴾.

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً، وإن كان قد هدى به من هدى وبصر به من العمى، وفتح به أعينا عمياً، وأذانا صمّاً، وقلوباً غلفاً، وأضل به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، يعلمه وحقمته وعذله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٤١﴾ .

[٣٧٤١] وفي الحديث عن أبي ذرٍّ، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»... إلى أن قال في آخره: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»^(١). رواه مسلم بطوله.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة وحشرهم من أجدانهم إلى عرصات القيامة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾... الآية: كأنهم يوم يُؤفونها ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿كأنهم يوم يرونها يُهْرَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ نَّهَارٍ﴾ [الاحقاف: ٣٥] الاحقاف: ٣٥، وقال تعالى: ﴿كأنهم يوم يرونها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عِيشَةً أَوْ ضَحُكًا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُفْعُ فِي السُّورِ وَيَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرًّا﴾ ﴿٤٦﴾ يَخْلَفُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿٤٧﴾ مَن أَعْلَمَ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَشْلَتْنَاهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿٤٨﴾ ﴿طه: ١٠٢ - ١٠٤﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦]... الآيتين. وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة، كما قال: ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّاكَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَيْنِ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَن كُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤]. وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: يعرف الأبناء والآباء والقرابات بعضهم بعضاً، كما كانوا في الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه، ﴿فَإِذَا فُجِعَ فِي السُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ﴾ ﴿٤٩﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلِ حِمِيًّا حِمِيًّا﴾ ﴿٥٠﴾ يَصْرُوهُمْ بُرَّةً أَلْمَجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿٥١﴾ وَصَاحِبِيهِ وَأَجِيهِ ﴿٥٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّدُ ﴿٥٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنَادِي ﴿٥٤﴾ كَلَّا ﴿[المعارج: ١٠ - ١٥]. وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلْيَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]، لأنهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين. فهذه هي الخسارة العظيمة، ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحببته، يوم الحسرة والثدامة.

﴿وَأَمَّا زُرَّتِكَ بِعَظْمِ الَّذِي تُوَدُّهُمْ أَوْ تَوْفِيقِكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ فَصُوبُوا بُيُوتَهُمْ بِأَلْقُسُطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿رَبِّمَا رُبَّتْكَ بَعْضَ الَّذِي نُوَدُّكُمْ﴾، أي: ننتقم منهم في حياتك، لتقر عينك منهم، ﴿أَوْ نُوَفِّقَنَّكَ فَإِنَّا نَرْجِعُهُمْ﴾، أي: مصيرهم ومُنْقَلِبِهِمْ، والله شهيدٌ على أفعالهم بعدك.

[٣٧٤٢] وقد قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عتبة بن مكرم، حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا داود بن الجارود، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد، عن النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أُمَّتِي الْبَارِحَةَ لَدَى هَذِهِ الْحُجْرَةِ، أَوْلَهَا وَأَخْرَهَا»، فقال رجل: يا رسول الله، عُرض عليك من خَلْقٍ، فكيف من لم يُخْلَقْ؟ فقال: «صُورُوا لِي فِي الطَّيْنِ، حَتَّى إِنِّي لَأَعْرِفُ بِالْإِنْسَانِ مِنْهُمْ مَنِ أَحَدِكُمْ بِصَاحِبِهِ»^(١). ورواه عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة، عن عتبة بن مكرم، عن يونس بن بكير، عن زياد بن المنذر، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد، به نحوه^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾، قال مجاهد: يعني يوم القيامة. ﴿فَوَصَّى بِبَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَوُضِعَ الْكَلْبُ وَالنَّبِيُّ وَالشَّهَادَةُ وَوَصَّى بِبَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩]، فكلُّ أمةٍ تُعْرَضُ عَلَى اللَّهِ بِحَضْرَةِ رَسُولِهَا، وَكُتِبَ أَعْمَالُهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ مَوْضُوعٌ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ، وَحَفِظْتَهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ شُهَدَاءُ أَيْضاً، أُمَّةٌ بَعْدَ أُمَّةٍ؛ وَهَذِهِ الْأُمَّةُ الشَّرِيفَةُ وَإِنْ كَانَتْ آخِرَ الْأُمَّةِ فِي الْخَلْقِ إِلَّا أَنَّهَا أَوَّلُ الْأُمَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْضَلُ بَيْنَهُمْ، وَيُقَضَى لَهُمْ.

[٣٧٤٣] كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلْقِ»^(٣). فامتته إنما حازت قَصَبَ السَّبْقِ لِشَرَفِ رَسُولِهَا، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِماً إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُمْ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَادَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٠) أَنَّهُ إِذَا مَا وَقَعَ ءَأَمْنُكُمْ بِهِ ءَأَلْتَنَ بِهِ ءَوَقَدَ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْغُلَّادِ هَلْ يُعْجِرُونَ إِلَّا يَمَّا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٥٢)

يقول تعالى مخبراً عن كُفْرِ هَوْلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتَعْجَالِهِمُ الْعَذَابَ وَسُؤَالِهِمْ عَنْ وَقْتِهِ قَبْلَ التَّعْيِينِ، مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ وَمِنَّا مَن يَعْلَمُونَ أَنَّهُا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، أي: كائنةً لا محالةً وواقعةً، وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، أي: لا أقول إلا ما عَلَّمَنِي، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا اسْتَأْذَرَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُطَّلِعَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ، فَأَنَا عَيْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَيْكُمْ، وَقَدْ أَخْبَرْتُمْكُمْ بِمَجِيءِ السَّاعَةِ وَأَنَّهَا كَائِنَةٌ، وَلَمْ يُطَّلِعَنِي عَلَى وَقْتِهَا، وَلَكِنْ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي لكل قرن مدة من العمر مقدرة فإذا انقضى أجلهم

(١) ضعيف، أخرجه الطبراني ٣٠٥٥، ورجاله ثقات سوى داود بن الجارود، فإن لم أعثر له على ترجمة، وأخشى أن يكون هو زياد بن المنذر الآتي، فإن كنيته: أبو الجارود، وانظر ما بعده.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه الطبراني ٣٠٥٤، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٦٧١٢: فيه زياد بن المنذر كذاب. وجاء في «الميزان» ٢٩٦٥: زياد بن المنذر أبو الجارود الكوفي الأعمى، قال ابن معين: كذاب، وقال النسائي والدارقطني: متروك. وإليه تنسب الجارودية. وورد من وجه آخر أخرجه البزار ١٤٨ و ٣٥٤٠، وقال الهيثمي ١٦٧١٣: فيه زكريا بن يحيى الكسائي: متروك.

(٣) متفق عليه، وتقدم.

﴿فَلَا يَسْتَجِيبُونَ سَأَلَهُ وَلَا يَسْتَفْقِهُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]. ثم أخبرهم أن عذاب الله سيأتيهم بغتة، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَاثُ بَيْتِنَا أَوْ نَهَارًا﴾، أي: ليلاً أو نهاراً، ﴿مَاذَا يَسْتَجِيبُ مِنْهُ الْمُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ أُنْزِلَ إِذَا مَا وَقَعَ مَا سَأَلْتُمْ بِهِ، يعني: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّمْهُ وَأَكْفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٥٧﴾ [غافر: ٨٤ - ٨٥]. ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ، أي: يوم القيامة يُقَالُ لَهُمْ هَذَا تَبَكُّيْتُمْ وَتَقْرِيبًا، كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعْوًا﴾ ﴿٥٨﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿٥٩﴾ أُنْفِصِرْ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ ﴿٦٠﴾ أَصْلَهَا قَاصِرًا أَوْ لَا تَصِيرُوا سَوَاءَ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرَمُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾ [الطور: ١٣ - ١٦].

﴿وَيَسْتَجِيبُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ﴾ ﴿٥٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُيُوعُ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى: ويستجيبونك «أحقُّ هو»؟ أي: المعاد والقيامة من الأجداد بعد صيرورة الأجسام تراباً. ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ﴾، أي: ليس صيرورتكم تراباً بمعجزٍ لله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم فـ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥٧﴾ [يس: ٨٢]. وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد، في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣]، وفي التغابن: ﴿زَمَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ كُنْ يُعْتَرَأُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿٧٧﴾ [التغابن: ٧]. ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً، ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُيُوعُ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾، أي: بالحق، ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾.

﴿آلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ آلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّ وَعْدَهُ حَقٌّ كَائِنٌ لَا مُحَالَءَ، وَأَنَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ، وَأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ، الْعَلِيمُ بِمَا تَفَرَّقَ مِنَ الْأَجْسَامِ وَتَمَزَّقَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَالْبَحَارِ وَالْقَفَارِ.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِدَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِدَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، أي: زاجرٌ عن الفواحش، ﴿وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾، أي: من الشَّيْبِ وَالشُّكُوكِ، وهو إزالة ما فيها من رجسٍ ودنسٍ، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾، أي: مُحَصَّلٌ لَهَا الْهُدَايَةَ وَالرَّحْمَةَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَالْمُصَدِّقِينَ الْمَوْفِقِينَ بِمَا فِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً حَمِيمًا وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٥٧﴾ [الإسراء: ٨٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي هَدَىٰ وَرَحْمَةً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُمْ عَلَىٰ نَعْمٍ أُولَٰئِكَ يَتَذَكَّرُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ

يَفْضِلُ اللَّهُ وَيَرْحَمُهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٩﴾ ، أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ، أي: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة، كما قال ابن أبي حاتم، في تفسير هذه الآية: وذكر عن بقیة - يعني ابن الوليد - عن صفوان بن عمرو: سمعت أیفع بن عبد الله الكلاعي يقول: لما قدم خراج العراق إلى عمر - رضي الله عنه - خرج عمر ومولى له فجعل عمر يعد الإبل، فإذا هي أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله تعالى، ويقول مولاة: هذا والله من فضل الله ورحمته. فقال عمر: كذبت، ليس هذا هو الذي يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَفْضِلُ اللَّهُ وَيَرْحَمُهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ ، وهذا مما يجمعون. وقد أسنده الحافظ أبو القاسم الطبراني، فرواه عن أبي زرعة الدمشقي، عن حيوة بن شريح، عن بقیة، فذكره.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفَرُّوتُ﴾ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحرمون ويحلون من البحائر والسوائب والوصائل. كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِثْلَ ذَرَّةٍ مِنَ الْحَرْبِ وَالْأَنْكَبِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]... الآيات.

[٣٧٤٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، سمعت أبا الأحوص - وهو عوف بن مالك بن نضلة - يحدث عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قشفت^(١) الهيئة، فقال: «هل لك مال؟» قال: قلت: نعم. قال: «من أي المال؟» قال: قلت: من كل المال من الإبل والرقبي والخيل والعنم. فقال: «إذا أتاك الله مالاً فليزر عليك». وقال: «هل تنتج إبل قومك صحاحاً أذائها فتعبد إلى موسى فتقطع أذائها فتقول: هذه بحر، وتشقها، أو تشق جلودها وتقول: هذه صرم، وتخرمها عليك وعلى أهلك؟» قال: نعم. قال: «فإن ما أتاك الله لك حل، وساعد الله أشد من ساعدك، وموسى الله أحد من موساك...» وذكر تمام الحديث^(٢). ثم رواه عن سفيان بن عيينة، عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو، عن عمه أبي الأحوص، وعن بهز بن أسيد، عن حماد بن سلمة، عن عبد الملك بن عمير، عن أبي الأحوص، به. وهذا حديث جيد قوي الإسناد.

وقد أنكر تعالى على من حرم ما أحل الله، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء، التي لا تستند لها ولا دليل عليها. ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ، أي: ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ ، قال ابن جرير: في تزكيتهم معاجلتهم بالمعقوبة في الدنيا. (قلت): ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ، بل يحرمون ما أنعم الله عليهم، ويضيعون على أنفسهم، فيجعلون بعضاً

(١) القشف: رثاء الهيئة، وسوء الحال.

(٢) أخرجه أحمد ٤/٤٧٣، وإسناده جيد كما قال المصنف.

حلالاً وبعضاً حراماً. وهذا ما وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدئوه في دينهم.

وقال ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الخوارزمي، حدثنا رباح، حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا موسى بن الصباح في قول الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾، قال: إذا كان يوم القيامة، يُؤتى بأهل ولاية الله - عز وجل - فيقومون بين يدي الله - عز وجل - ثلاثة أصناف، قال: فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول: عبدي، لماذا عملت؟ فيقول: يا رب، خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها، وحورها ونعيمها، وما أعددت لأهل طاعتك فيها، فأسهرت ليلي وأظلمات نهارى شوقاً إليها. قال: فيقول الله تعالى: عبدي، إنما عملت للجنة، هذه الجنة فادخلها، ومن فضلي عليك أن أعيتك من النار، ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي. قال: فيدخل هو ومن معه الجنة. قال: ثم يؤتى برجل من الصنف الثاني، قال: فيقول: عبدي، لماذا عملت؟ فيقول: يا رب، خلقت ناراً وخلقنا أغلالها وسعيرها وسُمومها ويحُمومها وما أعددت لأعدائك وأهل معصيتك فيها، فأسهرت ليلي وأظلمات نهارى خَوْفاً منها. فيقول: عبدي، إنما عملت ذلك خوفاً من ناري، فإني قد أعقتك من النار، ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي. فيدخل هو ومن معه الجنة. ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث، فيقول: عبدي، لماذا عملت؟ فيقول: رب، حُباً لك، وشوقاً إليك، وعزتك لقد أسهرت ليلي وأظلمات نهارى شوقاً إليك وحُباً لك، فيقول تبارك وتعالى: عبدي، إنما عملت حُباً لي وشوقاً لي، فيتجلى له الرب جل جلاله، ويقول: ها أنا ذا، انظر إلي. ثم يقول: من فضلي عليك أن أعيتك من النار، وأبيحك جنتي، وأزيرك ملائكتي، وأسلم عليك بنفسي. فيدخل هو ومن معه الجنة.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا بِسَمَاءٍ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي

كِتَابٌ مُبِينٌ ﴿٦١﴾

يخبر تعالى نبيه - صلوات الله عليه وسلامه - أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلاق في كل ساعة وأن لحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حفاتها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿وَيَسْأَلُ عَنْهَا الْقَائِمَ سَائِلًا إِذْ يَبْئُتُ السَّائِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة، في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلْمٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أُنزِلَتْ مَّا قَرَّلْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيْكَ رُبُّهُمْ يُخَشِّرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]. وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٦٧﴾ الَّذِي يَرَبُّكَ جِبْنَ تَعْمُرُ ﴿٦٨﴾ وَتَقَلِّبُ فِي السَّجْدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢١٩]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راؤون سامعون، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان:

[٣٧٤٥] «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(١).

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١٧) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^(١٦)
لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١٨)

يخبرُ تعالى أن أولياءه وهم ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ كما فسّره لهم ربهم، فكلُّ من كان تقياً كان لله ولياً - : أنه ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلون من أهوال القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا. وقال عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وغيرُ واحدٍ من السلف، أولياء الله الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله. وقد وُردَ هذا في حديث مرفوع، كما قال البزار:

[٣٧٤٦] حدثنا علي بن حرب الرازي، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري - وهو القمي - عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله، من أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله»^(٢). ثم قال البزار: وقد روي عن سعيد مرسلًا.

[٣٧٤٧] وقال ابن جرير: حدثنا أبو هشام الرفاعي، حدثنا أبو فضيل، حدثنا أبي، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير البجلي، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله عباداً يغيّطهم الأنبياء والشهداء». قيل: من هم يا رسول الله؟ لعلنا نُحبّهم. قال: «هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نورٌ على منابرٍ من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس». ثم قرأ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣).

[٣٧٤٨] ثم رواه أيضاً أبو داود، من حديث جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ بمثله^(٤). وهذا أيضاً إسناد جيد إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب، والله أعلم.

[٣٧٤٩] وفي حديث الإمام أحمد، عن أبي النضر، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن عَنَم، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي من أفناء الناس ونوازع القبائل قومٌ لم تتصل بينهم أرحامٌ متقاربة، تحابوا في الله، وتصافوا في الله، يضع الله لهم يوم القيامة منابرٍ من نور، فيجلسهم عليها، يفزع الناس ولا يفزعون، وهم أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»^(٥). والحديث مطوّل.

(١) متفق عليه، وتقدم.

(٢) ضعيف. أخرجه البزار كما في «المجمع» ١٦٧٧٩ وابن المبارك ٢١٨ والطبراني ١٢٣٢٥ وإسناده ضعيف لضعف جعفر بن روايته عن سعيد خاصة. والمتن غريب. وكرره الطبري ١٧٧٢٦ مرسلًا، وكرره ١٧٧١٨ موقوفًا، وهو أصح من المرفوع. وكرره ١٧٧٢٤ عن ابن مسعود قوله، وهو الصحيح.

(٣) صحيح. أخرجه ابن حبان ٥٧٣ والنسائي في «الكبرى» ١١٢٣٦ والطبري ١٧٧٢٨، وله شواهد منها الآتي.

(٤) أخرجه أبو داود ٣٥٢٧ والطبري ١٧٧٢٩، ورجاله ثقات، لكن فيه إرسال بين عمر وأبي زرعة، ومع ذلك للمتن شواهد يحسن بها، انظر «تفسير الشوكاني» ١٢٠٢ و ١٢٠٦ بتخريري.

(٥) حسن. أخرجه أحمد ٣٤٣/٥ والطبري ١٧٧٣٠ وإسناده حسن في الشواهد لأجل شهرين حوشب.

[٣٧٥٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن ذكوان أبي صالح، عن رجل، عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لَهُمُ الْبَشَرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو تُرى له»^(١).

[٣٧٥١] وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، عن أبي الدرداء في قوله: ﴿لَهُمُ الْبَشَرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، قال: سألت رجل أبا الدرداء عن هذه الآية، فقال: لقد سألت عن شيء ما سمعت أحداً سأله عنه بعد رجل سأله عنه رسول الله، فقال: «هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم، أو تُرى له، بُشراه في الحياة الدنيا، وبُشراه في الآخرة الجنة»^(٢). ثم رواه ابن جرير من حديث سفيان، عن ابن المنكدر، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر: أنه سأل أبا الدرداء عن هذه الآية، فذكر نحو ما تقدم.

[٣٧٥٢] وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا الحجاج بن منهال، حدثنا حماد بن زيد، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي صالح قال: سمعت أبا الدرداء، وسئل عن: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^(٣) لهمُ الْبَشَرَى... فذكر نحوه سواء^(٣).

[٣٧٥٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى، عن أبي سلمة، عن عبادة بن الصامت: أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، رأيت قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبَشَرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾؟ فقال: «لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد من أمتي - أو: أحد قبلك - قال: تلك الرؤيا الصالحة، يراها الرجل الصالح أو تُرى له»^(٤). وكذا رواه أبو داود الطيالسي، عن عمران القطان، عن يحيى بن أبي كثير، به. ورواه الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، فذكره. ورواه علي بن المبارك، عن يحيى، عن أبي سلمة قال: بُئيتنا عن عبادة بن الصامت، سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فذكره.

[٣٧٥٤] وقال ابن جرير: حدثني أبو حميد الجمصي، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عمر بن عمرو بن عبد الأحموسي، عن حميد بن عبد الله المُرزني قال: أتى رجل عبادة بن الصامت فقال: آية في كتاب الله أسألك عنها، قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبَشَرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟ فقال عبادة: ما سألتني عنها أحد قبلك، سألت عنها نبي الله فقال مثل ذلك: «ما سألتني عنها أحد قبلك. الرؤيا الصالحة، يراها العبد المؤمن في المنام أو تُرى له»^(٥).

(١) حسن. أخرجه أحمد ٤٤٥/٦ والطبري ١٧٧٣٢ وإسناده ضعيف، فيه من لم يسم. لكن له ما يقويه، راجع «أحكام ابن العربي» ١٢٤٥ بتخريري. فقد استوفيت الكلام عليه.

(٢) حسن. أخرجه الترمذي ٢٢٧٣ والطبري ١٧٧٣٧ وإسناده ضعيف لجهالة المصري. لكن له طرق وشواهد تعضده، وانظر ما تقدم و«تفسير الشوكاني» ١٢٠٨ بتخريري.

(٣) إسناده ضعيف. لم يسمه أبو صالح من أبي الدرداء، ولفظ «سمعت» وقم من عاصم أو غيره. انظر بيان ذلك في «أحكام ابن العربي» ١٢٤٥ بتخريري.

(٤) أخرجه أحمد ٣١٥/٥ والترمذي ٢٢٧٥ وابن ماجه ٣٨٩٨ والطبري ١٧٧٣٣ ورجاله رجال الصحيح إن كان أبو سلمة سمعه من عبادة، والظاهر أنه لم يسمه، فقد كرهه الطبري ١٧٧٣٦ عنه قال: ثبت أن عبادة.

(٥) أخرجه الطبري ١٧٧٤٠ وإسناده ضعيف لضعف يحيى بن سعيد الحمصي.

[٣٧٥٥] ثم رواه من حديث موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد بن صفوان، عن عبادة بن الصامت: أنه قال لرسول الله ﷺ: «لَهُمُ الْبَشَرِيُّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ»، فقد عرفنا بشرى الآخرة الجنة، فما بشرى الدنيا؟ قال: «الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تَرَى له، وهي جزء من أربعة وأربعين جزءاً - أو سبعين^(١) جزءاً - من النبوة»^(٢).

[٣٧٥٦] وقال الإمام أحمد أيضاً: حَدَّثَنَا بَهْزٌ، حَدَّثَنَا حَمَادٌ، حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرَانَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجُلُ يَعْمَلُ الْعَمَلَ فَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَيَثْوُونَ عَلَيْهِ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تِلْكَ عَاجِلُ بَشْرَى الْمُؤْمِنِ»^(٣). رواه مسلم.

[٣٧٥٧] وقال أحمد أيضاً: حَدَّثَنَا حَسَنٌ - يَعْنِي الْأَشِيبَ - حَدَّثَنَا ابْنُ لَهَيْعَةَ، حَدَّثَنَا دَرَّاجٌ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَهُمُ الْبَشَرِيُّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ» - قَالَ -: «الرؤيا الصالحة يُبَشِّرُهَا الْمُؤْمِنُ هي جزء من تسعة وأربعين جزءاً من النبوة، فَمَنْ رَأَى ذَلِكَ فَلْيُخْبِرْ بِهَا، وَمَنْ رَأَى سِوَى ذَلِكَ فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيُخْزِنَهُ، فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيُكَبِّرْ وَلَا يُخْبِرْ بِهَا أَحَدًا»^(٤). لم يخرجوه.

[٣٧٥٨] وقال ابن جرير: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَنبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ، حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ أَنَّ ذَرَّاجًا أَبَا السَّمْحِ حَدَّثَهُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَهُمُ الْبَشَرِيُّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»، الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يُبَشِّرُهَا الْمُؤْمِنُ، جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبِئَةِ»^(٥).

[٣٧٥٩] وقال أيضاً ابن جرير: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حَاتِمِ الْمُؤَدَّبِ، حَدَّثَنَا عَمَّارُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «لَهُمُ الْبَشَرِيُّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ»، قَالَ: «هي في الدنيا الرؤيا الصالحة، يراها العبد أو تَرَى له، وهي في الآخرة الجنة»^(٦). ثم رَوَاهُ عَنْ أَبِي كُرَيْبٍ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ بِنِ عِيَاشٍ، عَنْ أَبِي حُصَيْنٍ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ بَشْرَى مِنَ اللَّهِ، وَهِيَ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ. هَكَذَا رَوَاهُ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ مَوْقُوفًا.

[٣٧٦٠] وقال أيضاً: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ ابْنِ سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ هي الْبَشْرَى، يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تَرَى له»^(٧).

(١) ورد في ذلك روايات متعددة، بأسانيد صحاح وحسان، وأرجحها «سنة وأربعين» جاء ذلك عند البخاري من حديث أبي سعيد، وعند البخاري ومسلم من حديث عبادة بن الصامت، وعند مسلم من حديث أبي هريرة. راجع «الدر المنثور» ٣/ ٥٦٠ - ٥٦١.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري ١٧٧٤٥ وفيه موسى بن عبيدة الرندي، وهو ضعيف، والصحيح عن عبادة هو الآتي ليس فيه تفسير الآية.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٤٢ وابن ماجه ٤٢٢٥ وأحمد ١٥٦/٥ وابن حبان ٣٦٦.

(٤) أخرجه أحمد ٢١٩/٢ والطبري ١٧٧٤٤ وإسناده ضعيف لضعف دراج، وابن لهيعة، لكن هذا الأخير توبع عند الطبري، لكن في إسناده الطبري رشدين بن سعد، وهو ضعيف.

(٥) أخرجه الطبري ١٧٧٦٩ وإسناده غير قوي لأجل دراج، فقد روى مناكير. والحديث متفق عليه دون ذكر الآية.

(٦) أخرجه الطبري ١٧٧٤٣ وفيه عمار بن محمد غير قوي، والأعمش مدلس وقد عنعن.

(٧) أخرجه الطبري ١٧٧٤١ وإسناده حسن لأجل أبي بكر بن عياش، وللمتن شواهد، وليس فيه ذكر الآية.

[٣٧٦١] وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن حماد الدؤلبي، حدثنا سفيان، عن عبيد الله بن أبي يزيد، عن أبيه، عن سباع بن ثابت، عن أم كُرَيْزِ الكَعْبِيَّةِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «ذَهَبَتِ النَّبُوَّةُ وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّرَاتُ»^(١). وهكذا زُوي عن ابن مسعود، وأبي هُرَيْرَةَ، وابن عباس، ومجاهد، وعروة بن الزبير، ويحيى بن أبي كثير، وإبراهيم التَّخَمِي، وعطاء بن أبي رباح أنهم فُسِّرُوا ذلك بالرؤيا الصالحة. وقيل: المراد بذلك بُشْرَى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنَّةِ والمغفرة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَتَنَّا لَهُمُ الْمَلٰٓئِكَةَ ۖ أَلَّا تَخْفَؤْا وَلَا تَحْزَنُوْا وَأَبۡتَرُوْا بِالۡيَمۡنَةِ ۗ أَلۡيٰ كُنۡتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٥﴾ تَحۡنُ أُولَٓئِكَ لَآئِمَّ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَفِي ۗالْآخِرَةِ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِوْنَ ۖ أَنۡفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا كُنۡتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٦﴾ قُلْ ۗإِنۡ عَفُوۡرٌ رَّحِيۡمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [تصلت: ٣٠ - ٣٢].

[٣٧٦٢] وفي حديث البراء: «إن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه، بيض الشيا، فقالوا: اخْرِجِي أَيْتَا الرُّوحِ الطَّيِّبَةِ إِلَي رُوحِ وَرِيحَانِ، وَرَبُّ غَيْرِ غَضَبَانَ، فَتَخْرُجُ مِنْ فِيهِ، كَمَا تَسِيَلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فَمِ السَّقَاءِ»^(٢). وأما بُشْرَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ، فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَاهُمُ الْمَلٰٓئِكَةَ هُنَا أَيُّوْمُهُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفُسِهِمْ يَشْرِكُونَ يَوْمَ تَجُوزُ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٢﴾﴾ [الحديد: ١١٢]. وقوله: ﴿لَا يَدْبِلُ لِكَلِمَتِ اللَّهِ﴾، أي: هذا الوعد لا يُبدل ولا يُخلف ولا يُغَيَّر، بل هو مُقَرَّرٌ مُثَبَّتٌ كَانَتْ لَا مُحَالَةً: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمْعَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْمَعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾ قول هؤلاء المشركين، واستعن بالله عليهم وتوكل عليه؛ فإن ﴿الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: جميعها له ولرسوله وللمؤمنين، ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم. ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام، وهي لا تملك شيئاً لا ضرراً ولا نفعاً، ولا دليل لهم على عبادتها. بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرفهم وكذبهم وإفكهم. ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه، أي: يستريحون فيه من نصبهم وكلاهم وحركاتهم، ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مُبْصِرًا لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، أي: يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها، ويستدلون على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها.

(١) صحيح. أخرجه الطبري ١٧٧٤٧ بإسناد حسن، وللمتن شواهد في الصحيح.

(٢) صحيح. أخرجه عبد الرزاق ٦٧٣٧ وأحمد ٢٨٧/٤ والحاكم ٣٧/١ في أثناء حديث وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وكذا صححه ابن القيم رحمه الله في «تهذيب السنن» ٣٣٧/٤ وله شواهد

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾
﴿يَكْفُرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى منكرًا على من ادعى أن له ولداً: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾، أي: تقدّس عن ذلك، هو الغني عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: فكيف يكون له ولد مما خلق، وكل شيء مملوك له، عبد له؟! ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾، أي: ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان! ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: إنكار ووعيد أكيد، وتهديد شديد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَتُخَذُ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٦٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٦٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَجَرْنَ مِنَّةً وَتَنشقُّ الْأَرْضُ وَنَحْتُرُ لِبَيْبَالٍ هَذَا ﴿٧٠﴾ أَنْ دَهَوَّا لِلرَّحْمَنِ وَلَئِنَّا لَكَاذِبُونَ ﴿٧١﴾ وَمَا يُبْدِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٧٢﴾ إِنْ كُنْتُمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٧٣﴾ لَقَدْ أَمْسَكْتُمْ وَعَدَّاهُمْ عَدًّا ﴿٧٤﴾ وَكَلَّمَهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرِينًا ﴿٧٥﴾﴾ [سريم: ٨٨ - ٩٥]. ثم نعود تعالى الكاذبين عليه المفترين، ممن زعم أن له ولداً، بأنهم لا يقلحون في الدنيا ولا في الآخرة، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلاً، ﴿ثُمَّ فَضَّلْنَاهُمْ لَكِ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، كما قال تعالى ها هنا: ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا﴾، أي: مدة قريبة، ﴿ثُمَّ إِتْنَا مَرْجِعَهُمْ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾، أي: الموجه المولم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، أي: بسبب كفرهم وافتراءهم وكذبهم على الله، فيما ادعوه من الإلـك والزور.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقِرُونَ إِنْ كَانُ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي إِيَّائِي اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧٦﴾ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا غَلِيظًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى لنبئه - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: أخبرهم واقضض عليهم، أي: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾، أي: خبره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقِرُونَ إِنْ كَانُ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: عظم عليكم، ﴿مَقَامِي﴾، أي: فيكم بين أظهركم، ﴿وَتَذِكْرِي﴾، أي: إياكم ﴿وَأَيَّائِي اللَّهُ﴾، أي: بحججه وبراهينه، ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: فإني لا أبالي ولا أكف عنكم، سواء عظم عليكم أو لا! ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾، أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله، من صنم ووثني، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾، أي: ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً، بل افضلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إلي ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾، أي: ولا تؤخروني ساعة واحدة، أي: مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أبالي بكم ولا أخاف منكم، لأنكم لستم على شيء، كما قال هوذا لقومه: ﴿إِنِّي أَنشُدُ اللَّهَ بِأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٦﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدِي جِيماً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٧٧﴾ إِنْ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبُّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيئِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٨﴾﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَيْتُمْ﴾، أي: كذبتم وأدبرتم عن الطاعة، ﴿فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ آجُرٍ﴾، أي: لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً، ﴿إِنَّ آجُرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُورِثُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، أي: وأنا ممثل ما أوزرت به من الإسلام لله عز وجل؛ والإسلام هو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ بَرزعةً وَمِنْهَا جُأء﴾ [المائدة: ٤٨]، قال ابن عباس: سبيلاً وسنة، فهذا نوح يقول: ﴿وَأُورِثُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لِمُ رَبِّهِ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتَ لِرَبِّ الْمَالِكِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّيْنَا إِبْرَاهِيمَ بِرَبِّهِ وَيَعْقُوبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢]، وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكِينِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيُّ الْدُنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَالْحَقِيقِي بِالْمُغْلِبِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿يَقُولُ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَقَالُوا تَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ تُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقالت السحرة: ﴿رَبَّنَا أفرغ علينا صبراً وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَارِثِيِّنَ أَنْ آمِنُوا بِي وَرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ إِنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١]، وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٧﴾ لَا شَرِيكَ لَمْ يَبْدَأْكَ أَيُّزُوتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] أي: من هذه الأمة.

[٣٧٦٣] ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: «نحن معاشر الأنبياء أولادُ علاتٍ، وديننا واحدٌ»^(١)، أي: وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: أولاد علات، وهم: الإخوة من أمهات شتى والأب واحدٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَتَبَيَّنَتْ وَنَمَّ مَعَهُ﴾، أي: على دينه ﴿فِي الْفُلْكِ﴾، وهي: السفينة، ﴿وَجَمَلَتْهُمْ خَلْقَتُهَا﴾، أي: في الأرض، ﴿وَأَفْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾، أي: يا محمد كيف أنجينا المؤمنين، وأهلكنا المكذبين؟

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُضَلِّينَ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالى: ثم بعثنا من بعد نوح رُسُلًا إلى قومهم، فجاءوهم بالبيِّنات، أي: بالحجج والأدلة والبراهين على صِدْق ما جاءوهم به، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رُسُلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أوَّل ما أُرْسِلُوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُضَلِّينَ﴾ أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتَّى يروا العذاب الاليم. والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المُكذبة للرسل وأنجى من آمن بهم، وذلك من بعد نوح عليه السلام، فإنَّ الناس كانوا من قبله من زمان آدم - عليه السلام - على الإسلام إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فَبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام.

[٣٧٦٤] ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: «أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض»^(١). وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. وقال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَدُو نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧]، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا بسيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العقاب والتكاليف، فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟!

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾، من بعد تلك الرسل ﴿مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، أي: قومه، ﴿بِآيَاتِنَا﴾، أي: حُجَجِنَا وَبَرَاهِينِنَا، ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾، أي: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: كأنهم - قبحهم الله - أقسموا على ذلك، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وَمَعَدُوا بِهَا وَأَسْتَفْتَتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وظُلْمًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [النمل: ١٤]. ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ منكرًا عليهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أي: تثنينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، أي: الدين الذي كانوا عليه، ﴿وَتَكُونَ لَكُمُ﴾، أي: لك ولهارون ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾، أي: العظمة والرياسة ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون في كتابه العزيز، لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر، فَسَخَّرَهُ الْقَدْرُ أَنْ رَبَّىٰ هَذَا الَّذِي يُحَذِّرُ مِنْهُ عَلَىٰ فَرَاثِهِ وَمَائِدَتِهِ بِمَنْزِلَةِ الْوَلَدِ، ثم تَرَعَّرَ وَعَقَدَ اللَّهُ لَهُ سَبَباً أَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، وَرَزَقَهُ الثُّبُوتَ وَالرِّسَالَةَ وَالتَّكْلِيفَ، وَبَعَثَهُ إِلَيْهِ لِيُدْعُوهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ لِيُعْبَدَهُ وَيَرْجِعَ إِلَيْهِ، هَذَا مَعَ مَا كَانَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ مِنْ عَظَمَةِ الْمَمْلُوكَةِ وَالسُّلْطَانِ، فَجَاءَهُ بِرِسَالَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَلَيْسَ لَهُ وَزِيرٌ سِوَىٰ أَخِيهِ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَمَرَّدَ فِرْعَوْنُ وَاسْتَكْبَرَ وَأَخَذَتْهُ الْحَمِيَّةُ وَالنَّفْسُ الْخَبِيثَةُ الْأَبِيَّةُ، وَقَوَّىٰ رَأْسَهُ وَتَوَلَّىٰ بَرَكَنَهُ، وَأَدْعَىٰ مَا لَيْسَ لَهُ، وَتَجَهَّرَ عَلَى اللَّهِ، وَعَتَا وَيَعَىٰ وَأَهَانَ حِزْبَ الْإِيمَانِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَاللَّهُ تَعَالَىٰ يَحْفَظُ رَسُولَهُ مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ، وَيَحُوطُهُمَا بِعِنَايَتِهِ، وَيَحْرُسُهُمَا بِعَيْنِهِ الَّتِي لَا تَنَامُ، وَلَمْ تَزَلْ الْمَحَاجَّةُ وَالْمَجَادَلَةُ وَالْآيَاتُ تَقُومُ عَلَىٰ يَدَيْ مُوسَىٰ شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ، وَمَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، مِمَّا يَبْهَرُ الْعُقُولَ وَيَذْهَبُ الْأَلْبَابَ، مِمَّا لَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ، وَلَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا مَنْ هُوَ مُؤَيَّدٌ مِنَ اللَّهِ، وَمَا تَأْتِيهِمْ ﴿مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا﴾ [الزخرف: ٤٨]، وَصَمَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَّوهُ - قَبَّحَهُمُ اللَّهُ - عَلَى التَّكْذِيبِ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَالجَّحْدَ وَالْعِنَادَ وَالْمَكَابِرَةَ، حَتَّىٰ أَحْضَلَ اللَّهُ بِهِمْ بِأَسْهُ الذِّي لَا يُرَدُّ، وَأَغْرَقَهُمْ فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ أَجْمَعِينَ، ﴿فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقُبُورِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْتَمَدَّ لَّهُ رَبِّ الْمَلَكِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

(١) هو بعض حديث الشفاعة المشهور، وتقدم.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

ذكر الله تعالى قصة السحرة مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف وقد تقدم الكلام عليها هناك. وفي هذه السورة، وفي سورة طه، وفي الشعراء؛ وذلك أن فرعون - لعنه الله - أراد أن يبهرج على الناس، ويُعارض ما جاء به موسى - عليه السلام - من الحق المبين، بزخارف السحرة والمشعبذين، فانعكس عليه النظام، ولم يحصل له من ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المخفيل العام، ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ ﴿٧٩﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْمَلَكِيِّينَ ﴿٨٠﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ١٢٠ - ١٢٢] فظن فرعون أنه يستنصر بالسحار على رسول عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة واستوجب النار. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾﴾؛ وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا - وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعتاء الجزيل - ﴿قَالُوا يَتَّبِعُونَ ءِمَّا أَنْ تَلْقَى وَلِئَمَا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٨١﴾﴾ قَالَ بَلِ الْفَوْأُ ﴿٨٢﴾ [طه: ٦٥، ٦٦]، فأراد موسى أن تكون البداية منهم، ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم. ولهذا لما ﴿أَلْقَوْا سِحْرَهُمْ أَحْرَبَ النَّاسِ وَأَسْتَبْشَرُوهُمْ وَجَاءَهُمْ بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، ﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْآخِرُ ﴿٨٠﴾﴾ وَأَلْقَى مَا فِي بَيْتِكَ لَلْفَقِّ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَى ﴿٨١﴾﴾ [طه: ٦٧ - ٦٩]. فعند ذلك قال موسى لما القوا: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا عبد الرحمن - يعني الدشتكيمي - أخبرنا أبو جعفر الرازي، عن ليث - وهو ابن أبي سليم - قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى، تقرأ في إناء فيه ماء، ثم يُصب على رأس المسحور الآية التي من سورة يونس: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾، والآية الأخرى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١١٨]... إلى آخر أربع آيات. وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَى﴾.

﴿فَمَا ءَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَا لِي فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يخبرُ تعالى أنه لم يؤمن بموسى - عليه السلام - مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون، من الذرية - وهم الشباب - على وجل وخوف منه ومن مَلَيْهِ، أن يزدوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون لعنه الله كان جباراً عبيداً مُسْرِفاً في التمرد والعُتُو، وكانت له سطوة ومهابة، تخاف رعيته منه خوفاً شديداً. قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَمَا ءَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾، قال: فإن الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير، منهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنيه. وروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَا ءَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾، يقول: بني إسرائيل. وعن ابن عباس، والضحاك، وقتادة: الذرية القليل. وقال مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾، قال: هم أولاد

الذين أُرْسِلَ إليهم موسى، من طول الزمان، ومات آباؤهم. واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية: أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون، لعود الضمير على أقرب المذكورين.

وفي هذا نظر؛ لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب، وأنهم من بني إسرائيل، فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى - عليه السلام - واستبشروا به، وقد كانوا يعرفون نعتَه وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة، وأن الله تعالى سَيُبْقِذُهُمْ به من أسرِ فِرْعَوْنَ وَيُظهِرُهُمْ عليه، ولهذا لما بلغ هذا فرعونَ حذرَ كُلَّ الحذر فلم يُجِدْ عنه شيئاً، ولما جاء موسى آذاهم فرعونُ أشد الأذى، و ﴿قَالُوا أَوَدَيْتَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَقْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وإذا تَقَرَّرَ هذا فكيف يكون المرادُ إلا ذرية من قوم موسى، وهم بنو إسرائيل؟ ﴿عَلَى حَرْبٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾، أي: وأشراف قومهم ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾، ولم يكن في بني إسرائيل مَنْ يُخَافُ منه أن يُفْتَنَ عن الإيمان سوى قارون، فإنه كان من قوم موسى، فَبَقِيَ عليهم؛ لكنه كان طاوياً إلى فرعون، متصلاً به، مُتَعَلِّقاً بحباله. ومن قال: إن الضمير في قوله: ﴿وَمَلَئِهِمْ﴾، عائد إلى فرعون، وعُظُمَ المَلِكُ من أجل أتباعه، أو بحذف آل فرعون وإقامة المضاف إليه مقامه فقد أبعده، وإن كان ابن جرير قد حكاه عن بعض النحاة. ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن، قوله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَبِحَسْبِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾، أي: فإن الله كافٍ مَنْ تَوَكَّلَ عليه، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. وكثيراً ما يقرن الله بين العبادة والتوكل، كما في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَبِّ لَشَرِّهِمْ أَقْرَبُ إِلَهُهُ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿١﴾﴾ [المزمل: ٩]، وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مراتٍ مُتَعَدِّدَةً: ﴿إِنَّا نَعْبُدُكَ وَإِنَّا نَكْتُمُكَ ﴿٥﴾﴾ [الفاحة: ٥]. وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، أي: لا تُظْفِرْهُمْ بنا، وتسلطهم علينا، فيظنوا أنهم إنما سُلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل، فيفتنوا بذلك. هكذا روي عن أبي مجلز، وأبي الضحى. وقال ابن أبي نجیح وغير واحد، عن مجاهد: لا تُعَذِّبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعذابٍ من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حقٍّ ما عذبوا، ولا سلطنا عليهم، فيفتنوا بنا.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عُيينة، عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، لا تسلطهم علينا فيفتنونا. ﴿وَبِحَسْبِكَ﴾، أي: خلصنا برحمة منك وإحسان، ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، أي: الذين كفروا بالحق وسرّوه، ونحن قد آمنّا بك وتوكلنا عليك.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ

﴿الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

يذكرُ تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فِرْعَوْنَ وقومه، وكيفية خلاصهم منهم، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون - عليهما السلام - أن يتبوأ، أي: يتخذوا لِقَوْمِهِمَا بمِصْرَ بُيُوتًا. واختلف المفسرون في

معنى قوله تعالى: ﴿وَأَجْمَلُوا يُؤْتِكُمْ قِسْلَةً﴾، فقال الثوري وغيره، عن خُصِيف، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَأَجْمَلُوا يُؤْتِكُمْ قِسْلَةً﴾، قال: أمرُوا أن يتخذوها مساجد. وقال الثوري أيضاً، عن منصور، عن إبراهيم: ﴿وَأَجْمَلُوا يُؤْتِكُمْ قِسْلَةً﴾، قال: كانوا خانفين، فأمرُوا أن يُصَلُّوا في بيوتهم. وكذا قال مجاهد، وأبو مالك، والربيعُ بن أنس، والضحاكُ، وعبد الرحمنُ بن زيد بن أسلم، وأبوهِ زيدُ بن أسلم. وكان هذا - والله أعلم - لما اشتدَّ بهم البلاءُ من قِبَلِ فرعونَ وقومه، وضيَّقوا عليهم، أمرُوا بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَيْسِرُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

[٣٧٦٥] وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صَلَّى^(١). أخرجه أبو داود، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَأَجْمَلُوا يُؤْتِكُمْ قِسْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: بالثوابِ والنصرِ القريب. وقال العوفي، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية قال: قالت بنو إسرائيلَ لموسى - عليه السلام -: لا نستطيعُ أن نُظهِرَ صلاتنا مع الفراعنة. فأذن الله تعالى لهم أن يُصَلُّوا في بيوتهم، وأمرُوا أن يجعلُوا بيوتهم قبل القبلة. وقال مجاهد: ﴿وَأَجْمَلُوا يُؤْتِكُمْ قِسْلَةً﴾، قال: لما خاف بنو إسرائيلَ من فِرْعَوْنَ أن يُقْتَلُوا في الكنائسِ الجامعة، أمرُوا أن يجعلُوا بيوتهم مساجدَ مستقبلَةَ الكعبةِ يُصَلُّونَ فيها سراً. وكذا قال قتادة، والضحاكُ. وقال سعيد بن جبیر: ﴿وَأَجْمَلُوا يُؤْتِكُمْ قِسْلَةً﴾، أي: يقابل بعضها بعضاً.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ فَاَسْتَجِيبُوا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

هذا إخبارٌ من الله تعالى عمَّا دعا به موسى - عليه السلام - على فرعونَ ومَلِيئِهِ، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلماً وعلواً وتكبراً وعُتُوًّا، قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً﴾، أي: من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿وَأَمْوَالًا﴾، أي: جَزِيلَةً كَثِيرَةً، ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾^(٢) - بفتح الياء - أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجاً منك لهم، كما قال تعالى: ﴿لِيَقْتَتِلَ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]. وقرأ آخرون: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ - بضم الياء - أي: ليفتنن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظنن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا ليحبك إياهم، واعتنائك بهم. ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهد: أي أهلكها. وقال الضحاكُ، وأبو العالِيَةِ، والربيعُ بن أنس: جعلها الله حجارةً منقوشةً كهيئة ما كانت. وقال قتادة: بلغنا أن زُرُوعهم تحولت حجارةً. وقال محمد بن كعب القُرظِيُّ: اجعل سكرهم حجارةً.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا يحيى بن أبي بكير، عن أبي معشر، حدثنا مُحَمَّدُ بن قيس: أن محمد بن كعب قرأ سورة يونس على عُمر بن عبد العزيز: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ﴾ إلى قوله: ﴿اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ﴾... إلى آخرها، فقال له عُمر: يا أبا حمزة، أي شيء الطمس؟ قال: عادت أموالهم كلها حجارةً. فقال عُمر بن عبد العزيز لغلام له: اتني بكيس. فجاهه بكيس،

(١) حديث حسن وتقدم في سورة البقرة.

(٢) قرأ أهل الكوفة إلا المفضل، وزيد، وأبو حاتم عن يعقوب بضم الياء، وقرأ الباقون بفتحها.

فإذا فيه جِمْصٌ وبيض، قد حول حجارة^(١). وقوله: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، قال ابن عباس: أي اطبع عليها، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ بَرُوا الْمَوْتِ الْأَلِيمِ﴾. وهذه الدعوة كانت من موسى - عليه السلام - غضباً لله ولدينه على فرعون وملته، الذين تبين له أنه لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح - عليه السلام - فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُبْسِلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلْبَسُوا إِلَّا فَرْجًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٧] ولهذا استجاب الله تعالى لموسى - عليه السلام - فيهم هذه الدعوة، التي آمنَ عليها أخوه هارون، فقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾. قال أبو العالية، وأبو صالح، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، والربيع بن أنس: دعا موسى وأمن هارون، أي: قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون. وقد يحتج بهذه الآية من يقول: إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزل منزلة قراءتها، لأن موسى دعا، وهارون آمن. وقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾. . . . الآية، أي: كما أجبنا دعوتكما فاستقيما على أمري. قال ابن جريج، عن ابن عباس: ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾، فامضيا لأمري، وهي الاستقامة، قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة. وقال محمد بن علي بن الحسين: أربعين يوماً.

﴿وَجَوْرَنَا بِبَيْتِ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكَهُ الْفَرْقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٨﴾ ءَأَلَكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٩﴾ ءَأَلْيَوْمَ تُنْجِيكَ يَدِيكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ ءَأَيَّةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَأَيْتِنَا لَعَافُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده؛ فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى عليه السلام، وهم فيما قيل ستمئة ألف مقاتل سيوى الذرية، وقد كانوا استعازوا من القبط حلياً كثيراً، فخرجوا به معهم، فاشتد حنق فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين، يجمعون له جنوده من أقاليمة، فركب وراءهم في أبهة عظيمة، وجيوش هائلة لما يريد الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته، فلحقهم وقت شروق الشمس، ﴿فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ اصْحَبْتُ مُوسَىٰ إِنَّا لَنَدْرِكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الشعراء: ٦١]، وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر، وأدركهم فرعون، ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان، وألح أصحاب موسى - عليه السلام - عليه في السؤال: كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إني أمرت أن أسلك ها هنا، ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيّيدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، فعندما ضاق الأمر اتسع، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، ففصره فانفلق البحر، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، أي: كالجبل العظيم، وصار اثني عشر طريقاً، لكل سبيط واحد. وأمر الله الرياح فنشفت أرضه، ﴿فَأَضْرَبَ لَهم طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا عُخْفًا﴾ [طه: ٧٧]، وتخرف الماء بين الطرق كهينة الشبايبك، ليرى كل قوم الآخرين لتلا يظنوا أنهم هلكوا. وجازت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافتيه من الناحية الأخرى، وهو في مئة ألف أدهم سوى بقية الألوان، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وقم بالرجوع، وهيئات ولات حين مناص، نفذ القدر، واستجيبت الدعوة. وجاء جبريل - عليه السلام - على فرس وديق

(١) هذا الأثر، لا يصح، فيه محمد بن قيس، وثقه أبو داود والفسوي، وقال ابن معين: ليس بشيء، لا يروى عنه. وفيه أبو معشر نجيب السندي، ضعفه النسائي والدارقطني، وقال البخاري: منكر الحديث أمر فهذا من مناكيره، والله أعلم.

حائل، فَمَرَّ إِلَى جَانِبِ حِصَانِ فِرْعَوْنَ فَحَمَّحَمَ إِلَيْهَا وَتَقَدَّمَ جَبْرِئِيلُ فَاقْتَحَمَ الْبَحْرَ وَدَخَلَهُ، فَاقْتَحَمَ الْحِصَانُ وَرَأَاهُ، وَلَمْ يَبْقَ فِرْعَوْنُ يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئاً، فَتَجَلَّدَ لِأَمْرَائِهِ، وَقَالَ لَهُمْ: لَيْسَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِأَحَقُّ بِالْبَحْرِ مِنَّا، فَاقْتَحَمُوا كُلُّهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ وَمِيكَائِيلُ فِي سَاقَتِهِمْ، لَا يَتْرُكُ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا الْحَقَّةَ بِهِمْ. فَلَمَّا اسْتَوْسَقُوا فِيهِ وَتَكَامَلُوا، وَهَمَّ أَوْلَهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْهُ، أَمَرَ اللَّهُ الْقَدِيرُ الْبَحْرَ أَنْ يَرْتَطِمَ عَلَيْهِمْ، فَارْتَطَمَ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَجَعَلَتِ الْأَمْوَاجُ تَرْفَعُهُمْ وَتَخْفِضُهُمْ، وَتَرَكَتِ الْأَمْوَاجُ فَوْقَ فِرْعَوْنَ، وَعَشِيَتْهُ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: ﴿ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. فَأَمِنْ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ الْإِيمَانُ، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (١٠١) ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكٰفِرُونَ﴾ (١٠٢) ﴿غافر: ٨٤، ٨٥﴾. وهكذا قال الله تعالى في جواب فِرْعَوْنَ حِينَ قَالَ مَا قَالَ: ﴿ءَالْتَنَّى وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾، أَي: أَهَذَا الْوَقْتُ تَقُولُ وَقَدْ عَصَيْتَ اللَّهَ قَبْلَ هَذَا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ؟! ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُنْكَرِينَ﴾، أَي: فِي الْأَرْضِ الَّذِينَ أَضَلُّوا النَّاسَ، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَذْعُرُونَ بِهَا النَّكْرَ وَيَوْمَ أَقْبَسُوا لَا يُصْرُونَ﴾ (١٠٣) ﴿القصص: ٤١﴾. وهذا الذي حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ مِنْ قَوْلِهِ هَذَا فِي حَالِهِ ذَلِكَ مِنْ أَسْرَارِ الْغَيْبِ الَّتِي أَعْلَمَ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ، وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَجَمَهُ اللَّهُ:

[٣٧٦٦] حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ سَلْمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ يَوْسُفَ بْنِ يَهْرَانَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، قَالَ: «قَالَ لِي جَبْرِئِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، لَوْ رَأَيْتَنِي وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْ حَالَ الْبَحْرِ، قَدَسَتْهُ فِيهِ مَخَافَةٌ أَنْ تَنَالَهُ الرَّحْمَةُ»^(١). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ جُرَيْرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفَاسِيرِهِمْ، مِنْ حَدِيثِ حَمَادِ بْنِ سَلْمَةَ، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

[٣٧٦٧] وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ وَعَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿قَالَ لِي جَبْرِئِيلُ: لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَخَذْتُ مِنْ حَالَ^(٢) الْبَحْرِ فَادَسَتْهُ فِي قَمِ فِرْعَوْنَ مَخَافَةٌ أَنْ تُذْرِكَهُ الرَّحْمَةُ»^(٣). وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ أَيْضاً، وَابْنُ جُرَيْرٍ أَيْضاً مِنْ غَيْرِ وَجْهِ، عَنْ شُعْبَةَ، بِهِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ. وَوَقَعَ فِي رِوَايَةٍ عِنْدَ ابْنِ جُرَيْرٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُثَنَّى عَنِ عُنْدَرِ بْنِ شُعْبَةَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ عَدِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَفَعَهُ أَحَدُهُمَا، وَكَانَ الْآخِرُ لَمْ يَرْفَعَهُ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجَعِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالِدٍ الْأَحْمَرِيُّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَعْلَى التَّمَّغِي، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ أَشَارَ بِأَصْبَعِهِ وَرَفَعَ صَوْتَهُ: ﴿ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، قَالَ: فَخَافَ جَبْرِئِيلُ أَنْ تَسْبِقَ رَحْمَةُ اللَّهِ فِيهِ غَضَبَهُ، فَجَعَلَ يَأْخُذُ الْحَالَ

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ ٣١٠٧ وَاحِدٌ ٢٤٥/١ وَالتَّيْبَرِيُّ ١٧٨٧٥ وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ لَضَعْفِ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ. لَكِنْ يَشْهَدُ لَهُ مَا بَعْدَهُ.

(٢) الْحَالُ: الطِّينُ الْأَسْوَدُ، وَالتَّرَابُ الْبَلِينُ.

(٣) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ ٣١٠٨ وَالنَّسَائِيُّ فِي «التَّفْسِيرِ» ٢٥٨ وَاحِدٌ ٢٤٠/١ وَالتَّيْبَرِيُّ ١٨٧٥٨ وَابْنُ حِبَّانَ ٦٢١٥ وَالحَاكِمُ ٥٧/١ وَ ٣٤٠/٢ وَصَحَّحَهُ عَلِيُّ شَرْطُهُمَا وَقَالَ: «إِلَّا أَنْ أَكْثَرَ أَصْحَابُ شُعْبَةَ أَوْفَقُوهُ. وَسَكَتَ الذَّهَبِيُّ، وَحَسَنَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْحَافِظُ فِي «مُتَرَجِّحِ الْكُشَافِ» ٣٦٨/٢ بَعْدَ أَنْ أَطَالَ الْكَلَامَ عَلَيْهِ. وَهُوَ حَدِيثٌ قَوِيٌّ بِمَجْمُوعِ طَرُقِهِ وَشَوَاهِدِهِ، هَذَا بِالنِّسْبَةِ لِلْإِسْنَادِ، لَكِنَّ الْمَتْنَ فِيهِ غُرَابَةٌ وَقَدْ رَوَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مُوقُوفًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَانظُرْ «تَفْسِيرَ الشُّوكَانِيِّ» ١٣٠١.

بجناحه فيضربُ به وجهه فَيَرْمُئُهُ^(١). وكذا رواه ابنُ جرير، عن سفيانَ بن وكيع، عن أبي خالد، به موقوفاً. وقد رُوِيَ من حديث أبي هريرة أيضاً.

[٣٧٦٨] فقال ابنُ جرير: حدثنا ابنُ حُميد، حدثنا حَكَم، عن عثبَةَ - هو ابنُ سعيد - عن كثير بن زاذان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: قال لي جبريلُ: يا محمد، لو رأيتني وأنا أعطه وأدسُ من الحالِ في فيه، مخافةً أن تُدرِكهُ رحمةُ الله فيغفر له. يعني فرعون^(٢). كثير بن زاذان هذا قال ابنُ معين: لا أعرفه، وقال أبو زُرعة وأبو حاتم: مجهول، وباقِي رجاله ثقات. وقد أرسلَ هذا الحديث جماعةً من السلف: قتادة، وإبراهيمُ التيمي، وميمونُ بن مهران. ونُقِلَ عن الضحاكِ بن قيس: أنه خَطَبَ بهذا للناس، فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قَالِيزِمُ نُنَجِّيكَ بِيَدَيْكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾، قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا رُوح، وعليه درعه المعروفة، على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع، ليتحققوا موته وهلاكه، ولهذا قال تعالى: ﴿قَالِيزِمُ نُنَجِّيكَ﴾، أي: نرفُعلُك على نَشز من الأرض، قال مجاهد: بجسدك. وقال الحسن: بجسم لا رُوح فيه. وقال عبد الله بن شداد: سوياً صحيحاً، أي: لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه. وقال أبو صخر: يدرِعُك. وكلُّ هذه الأقوال لا منافاة بينها، كما تقدّم، والله أعلم. وقوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾، أي: لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء، ولهذا قرأ بعض السلف: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾^(٣)، ﴿وَإِنَّ كَبِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَفَعَلُونَ﴾، أي: لا يتعظون بها، ولا يعتبرون. وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء، كما قال البخاري:

[٣٧٦٩] حدثنا محمد بن بشر، حدثنا عُندر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قديم النبي ﷺ المدينة، واليهودُ تصومُ يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يومٌ ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحقُّ بموسى منهم، فصوموه»^(٤).

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقِي وَرَزَقْنَهُمْ مِمَّنْ طَلَبْتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(١٢)

يُخِيرُ تعالى عَمَّا أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية وقوله ﴿مَبُوءًا صِدْقِي﴾، قيل: هو بلاد مصر والشام، مما يلي بيت المقدس ونواحيه؛ فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْزَقْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَعْمَقُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا أَفَى بَنَرِكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحَقُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ

(١) الرسم: الستر والتغفية.

(٢) أخرجه الطبري ١٧٨٧٤ وابن عدي ٧٨٨/٢ وإسناده ضعيف لجهالة كثير بن زاذان، وأخرجه الطبراني من وجه آخر، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٠٧٠: فيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري، وضعفه جماعة.

(٣) وهي قراءة ابن السنيغ وأبي المتوكل وأبي الجوزاء. كما في زاد المسير.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٢٠٠٤ و ٣٣٩٧ ومسلم ١١٣٠ وابن حبان ٣٦٢٥ وأحمد ٢٩١/١.

وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَمْرُسُونَ ﴿١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال في الآية الأخرى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكَرْتُمْ وَوَقَّارٍ كَبِيرٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩]. ولكن استمروا مع موسى - عليه السلام - طالبين إلى بلاد بيت المقدس، وهي بلاد الخليل - عليه السلام - فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس، وكان فيه قومٌ من العمّالقة، فتكل بنو إسرائيل عن قتالهم، فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون، ثم موسى - عليهما السلام - وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون، ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بُخْتَصَرَ حيناً من الدهر، ثم عادت إليهم، ثم أخذها ملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم مُدَّةً طويلةً، وبَثَّ اللهُ عيسى ابن مريم - عليه السلام - في تلك المدة، فاستعانت اليهود - فَبَّحَهُمُ اللهُ - على معادة عيسى - عليه السلام - بملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم، ووشوا عندهم، وأوحوا إليهم أن هذا يُفْسِدُ عليكم الرعايا. فبعثوا من يَقْبِضُ عليه، فرفعه الله إليه، وشبَّه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدره، فأخذه فصلبوه، واعتقدوا أنه هو، ﴿وَمَا قَلَّوهُ يَقِينًا ﴿٥٧﴾﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]. ثم بعد المسيح - عليه السلام - بنحو ثلاثمئة سنة، دخل قُسطنطين أحد ملوك اليونان - في دين النصرانية، وكان فيلسوفاً قبل ذلك. فدخل في دين النصارى قيل: تقية، وقيل: حيلة ليُفْسِدَهُ، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعةً وبدعاً أحدثوها، فبنى لهم الكنائس والبيع الكبار والصغار، والصوامع والهيكل، والمعابد والقلايات^(١). وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان، واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف، ووضَعُ وكذِب، ومخالفةً لدين المسيح. ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان، فاتخذوا لهم الصوامع في البراري والمهامه والقفار.

واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم، وبنى هذا الملك المذكور مدينة قُسطنطينية، والقمامة، وبيت لحم، وكنائس بيت المقدس، ومدن حوران كُبُصرى وغيرها من البلدان بناءات هائلة محكمة، وعبدوا الصليب من حينئذٍ، وصلُّوا إلى الشرق، وصوَّروا الكنائس، وأحلُّوا لحم الخنزير، وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول، ووضعوا له الأمانة الحقيرة التي يسمونها الكبيرة، وصنَّفوا له القوانين، وبسط هذا يطول. والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة - رضي الله عنه - وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمَر بن الخطاب، رضي الله عنه، والله الحمد والمنة. وقوله: ﴿وَرَدَّوْنَهُمْ مِنْ آلِ عِيسَى﴾، أي: الحلال، من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً. وقوله: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْيَوْمُ﴾، أي: ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعدما جاءهم العلم، أي: ولم يكن لهم أن يَخْتَلِفُوا. وقد بيَّن اللهُ لهم وأزال عنهم اللبس.

[٣٧٧٠] وقد ورد في الحديث: «أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقةً، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقةً، وستفترق هذه الأمة على ثلاثٍ وسبعين فرقةً، منها واحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار». قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»^(٢). رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ، وهو في السنن والمسانيد. ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفصل بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

(١) القلايات: جمع قلاية، وهي كالصومعة في الكنيسة.

(٢) حديث صحيح، وتقدم تحريجه.

﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَكَوْنُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

[٣٧٧١] قال قتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشك ولا أسأل^(١). وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، والحسن البصري، وهذا فيه تثبيت للأمة، وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَخْيَرُ الَّذِي يَهْدِيهِمْ كَتُوبًا مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ...﴾ [الاعراف: ١٥٧] الآية. ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلون، ولا يؤمنون به مع قيام الحجية عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾، أي: لا يؤمنون إيماناً ينفعهم، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها، ولهذا لما دعا موسى - عليه السلام - على فرعون وملأه قال: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَاهُنَا وَإِنَّا لِلَّهِ عُودُوتٌ فَلَا نُؤْمِنُ بِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس: ٨٨]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَتَلَكَّةَ لَكَفَّهُمْ التَّوَكُّلَ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا يَلْمِزُونَا إِلَّا أَنْ يَنْشَأَ اللَّهُ لِكْرًا أَصْغَرَ مِمَّا يَكْبُرُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الانعام: ١١١]. ثم قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَازَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٠١﴾﴾

يقول تعالى: فهلاً كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل! بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه، أو أكثرهم، كما قال تعالى: ﴿يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٠]، وكذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا سلماً أو يجرئون ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمر وإننا على آرائهم مقتدون ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

[٣٧٧٢] وفي الحديث الصحيح: «غرض عليّ الأنبياء، فجعل النبي يمرّ ومعه الفئام من الناس، والنبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي ليس معه أحد». ثم ذكر كثرة أتباع موسى - عليه السلام - ثم ذكر كثرة أمته - صلوات الله وسلامه عليه - كثرة سدّت الخافقين الشرقي والغربي^(٢). والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا خوفاً من

(١) ضعيف جداً بهذا اللفظ، أخرجه عبد الرزاق ١٢٦/٦ وفي «تفسيره» ١١٧٣ والطبري ١٧٩٠٧ و ١٧٩٠٨ عن قتادة مرسلًا، والمرسل من قسم الضعيف. ومراسيل قتادة واهية. وقد ورد عن ابن عباس بلفظ «لم يشك رسول الله ﷺ»، ولم يسأل عزاه السيوطي في «الدرر» ٥٧١/٣ لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه والضياء في «المختارة» عن ابن عباس. وورد بهذا اللفظ عن الحسن أخرجه الطبري ١٧٩٠٦، وعن سعيد بن جبيرة ١٧٩٠٤ و ١٧٩٠٥ وهذا أصح من كون لفظه من كلام النبي ﷺ. والله الموفق.

(٢) متفق عليه، وتقدم.

وَصُولِ الْعَذَابِ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ، بَعْدَمَا عَايَنُوا أَسْبَابَهُ، وَخَرَجَ رَسُولُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، فَعِنْدَمَا جَآرُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغَاثُوا بِهِ، وَتَضَرَّعُوا لَدَيْهِ، وَاسْتَكَانُوا وَأَحْضَرُوا أَطْفَالَهُمْ وَدَوَابَّهُمْ وَمَوَاشِيَهُمْ، وَسَأَلُوا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ بِهِ نَبِيِّهِمْ. فَعِنْدَمَا رَجَمَهُمُ اللَّهُ، وَكُشِفَ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَأُخْرُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يَبُوءُونَ لَكُمْ آيَاتِهِمْ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْكُمْ أُمَّمَهُمْ أَنْ يَكُونَ فِي الْأَرْضِ عَدَابٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَنَسُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْحَقَّ كَذَّبُوا بِمَا فِي بُطُونِهِمْ خِزْيًا ذَلِيلًا﴾. وَخُتِلَفَ الْمُفَسِّرُونَ: هَلْ كُشِفَ عَنْهُمْ الْعَذَابُ الْأُخْرِيُّ مَعَ الدُّنْيَوِيِّ؟ أَوْ إِنَّمَا كُشِفَ عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا فَقَطْ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ. أَحَدُهُمَا: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَمَا هُوَ مُقَيَّدٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي فِيهِمَا: لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ الْكُبْرَىٰ وَكَانُوا كَافِرِينَ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ يَوْمَ يَأْتُونَ بِلَاذٍ مُّهِمَّةٍ﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨]، فَأُطْلِقَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانَ، وَالْإِيمَانَ مُنْقِذًا مِنَ الْعَذَابِ الْأُخْرِيِّ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

قَالَ قَتَادَةُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: لَمْ يَنْفَعِ قَرْيَةَ كَفَرَتْ ثُمَّ آمَنَتْ حِينَ حَضَرَهَا الْعَذَابُ فَتُرِكَتْ إِلَّا قَوْمٌ يَبُوءُونَ، لَمَّا فَقَدُوا نَبِيَهُمْ وَظَنُّوا أَنَّ الْعَذَابَ قَدْ دَنَا مِنْهُمْ قَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ التَّوْبَةَ، وَلَبَسُوا الْمُسُوحَ^(١)، وَفَرَّقُوا بَيْنَ كُلِّ بَهِيمَةٍ وَوَلَدِهَا، ثُمَّ عَجَّوْا إِلَى اللَّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً. فَلَمَّا عَرَفَ اللَّهُ مِنْهُمْ الصُّدُقَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَالتَّوْبَةَ وَالنَّدَامَةَ عَلَى مَا مَضَى مِنْهُمْ كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ بَعْدَ أَنْ تَدَلَّى عَلَيْهِمْ، قَالَ قَتَادَةُ: وَذَكَرَ أَنَّ قَوْمَ يَبُوءُونَ كَانُوا بَيْنَ نَوَى أَرْضِ الْمُوصِلِ. وَكَذَا زُوي عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَمَجَاهِدٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ، وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَقْرُوهَا: «فَهَلَّا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ». وَقَالَ أَبُو عَمْرٍاءُ، عَنْ أَبِي الْجَلْدِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ جَعَلَ يَدُورُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ، فَمَشَوْا إِلَى رَجُلٍ مِنْ عِلْمَانِهِمْ فَقَالُوا: عَلَّمْنَا دَعَاءَ نَدَعُو بِهِ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنَّا الْعَذَابَ. فَقَالَ: قَوْلُوا: يَا حَيُّ حِينَ لَا حَيَّ، يَا مَحْيِيَّ الْمَوْتَى، يَا حَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ. قَالَ: فَكُشِفَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ. وَتَمَامُ الْقِصَّةِ سَيَأْتِي مُفْصَلًا فِي سُورَةِ الصَّافَاتِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٠٠)

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ - يَا مُحَمَّدُ - لِأَذِنَ لِأَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ فِي الْإِيمَانِ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ، فَأَمَّنُوا كُلَّهُمْ، وَلَكِنْ لَهُ حِكْمَةٌ فِيمَا يَفْعَلُهُ تَعَالَى، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١٠٨) إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَبِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَنَّ لَكُمْ مِنْ جَهَنَّمَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٩) [هود: ١١٨-١١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ٨]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ﴾، أَي: تُلْزِمُهُمْ وَتُلْجِنُهُمْ ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، أَي: لَيْسَ ذَلِكَ عَلَيْكَ وَلَا إِلَيْكَ، بَلِ اللَّهُ ﴿يُعِضِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا﴾ [الرعد: ٣١]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿لَمَّا بَلَغَ نَبِيُّكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٠) [الشعراء: ٢٣]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصاص: ٥٦]، ﴿فَلَمَّا عَلِمْتَ أَنَّكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْمَسْأَلُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿فَذَكَرْنَا أَنَّكَ مُدَكِّرٌ﴾ (١١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (١١) [الغاشية: ٢١-٢٢] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْفَاعِلُ لَمَّا يَرِيدُ، الْهَادِيَ مِنْ يَشَاءُ، الْمَضِلُّ لِمَنْ يَشَاءُ، لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ﴾

إِلَّا يَذُنُّ اللَّهُ وَيَمْدُلُ الرِّجْلَ»، وهو: الخبال والضلال، «عَلَّ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ»، أي: حُجِّجَ اللهُ وأدلَّته، وهو العادلُ في كل ذلك، في هداية من هدى، وإضلالٍ من ضلَّ.

﴿قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْطَى الْآيَاتِ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

يُرِيدُ تعالى عباده إلى التفكُّر في آيائه وما خَلَقَ في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السموات من كواكبٍ نيرات، ونوابتٍ وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسينها وزينتها، وما أنزل اللهُ من مطرٍ فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وضُوفِ النبات، وما ذرأ فيها من دوابٍ مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبالٍ وسهولٍ وقفارٍ وعمرانٍ وحرابٍ، وما في البحر من المعجائب والأمواج، وهو مع هذا مُدَلِّلٌ للسالكين، يحول سُفْنَهُمْ ويجري بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله تعالى: «وَمَا تُعْطَى الْآيَاتِ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ»، أي: وأي شيء تُجدي الآيات السماوية والأرضية، والرسول بآياتها وحُججها وبزاهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون؟! كما قال: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ لَكُلِّ شَيْءٍ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٠١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْكُتَابَ الْأَيْمَنَ ﴿١٠٢﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وقوله: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ»، أي: فهل يَنْظُرُ هؤلاء المُكذِّبون لك يا محمد من النعمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خَلَوْا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسولهم، «قُلْ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا»، أي: ونهلك المُكذِّبين بالرسول، «كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ أي حَقًّا أوجبه تعالى على نفسه الكريمة، كقوله: «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴿١٠٤﴾ [الأنعام: ٥٤].

[٣٧٧٣] وكما جاء في الصحيحين، عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»^(١).

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا آعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ آعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَخْلُقُكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقْرَبَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الْغَالِبِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّ رَبَّكَ يَخْتَارُ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي مَا جَسَمْتُ بِهِ مِنَ الدِّينِ الْحَنِيفِ الَّذِي أُرْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَهَا أَنَا لَا آعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، «وَلَكِنْ آعْبُدُ اللَّهَ»

وحدّه لا شريك له، وهو ﴿الَّذِي يَتَقَنَّطُكُمْ﴾ كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم، فإن كانت ألهتكم التي تدعون من دون الله حقاً، فإنا لا أعبدُها، فادعوها فلنضربنّ، فإنها لا تضرب ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحدّه لا شريك له، ﴿وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقولُه: ﴿وَأَنْ أَمِدَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٥٥)، أي: أخلص العبادة لله وحدّه (حنيفاً)، أي: منحرفاً عن الشرك. ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وهو معطوف على قوله: ﴿وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بَضْرًا...﴾ إلى آخرها، بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحدّه لا يُشاركه في ذلك أحد، هو الذي يستحقُّ العبادة وحدّه، لا شريك له.

[٣٧٧٤] روى الحافظ ابن عساكر، في ترجمة صفوان بن سُلَيْم، من طريق عبد الله بن وهب: أخبرني يحيى بن أيوب، عن عيسى بن موسى، عن صفوان بن سُلَيْم، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته يُصيب بها من يشاء من عباده وأسألوه أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم» (١). ثم رَوَاهُ من طريق اللَيْث، عن عيسى بن موسى، عن صفوان، عن رجل من أشجع، عن أبي هريرة مرفوعاً، بمثله سواء. وقولُه: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، أي: لمن تاب إليه وتوكل عليه، ولو من أي ذنب كان، حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه.

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٧٨) ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُوكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٧٩) يقول تعالى أمراً لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه - أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مزية فيه ولا شك، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع الاتباع على نفسه، ومن ضلَّ عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾، أي: وما أنا مُوكَّل بكم حتى تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى. وقولُه: ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ﴾، أي: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس، ﴿حَتَّىٰ يَخُوكَ اللَّهُ﴾، أي: يفتح بينك وبينهم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، أي: خير الفاتحين بَعْدَهِ وَجِزَّتِهِ.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» ٢٧، والبيهقي في «الشعب» ١١٢١ و ١١٢٢ و ١١٢٣، وفي إسناده عيسى بن موسى الليثي. وثقه ابن حبان، وضعفه أبو حاتم، وذكره البخاري في تاريخه من دون جرح ولا تعديل. لكن معنى الحديث صحيح، وهو في فضائل الأعمال. والله أعلم.



وهي مَكِّيَّة

[٣٧٧٥] قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا خلف بن هشام البزاز، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن عكرمة قال: قال أبو بكر: سألت رسول الله ﷺ: ما شيبك؟ قال: «شيبني هود، والواقعة، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»^(١).

[٣٧٧٦] وقال أبو عيسى الترمذي: حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شيبت؟ قال: «شيبني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت». وفي رواية: «هود وأخواتها»^(٢).

[٣٧٧٧] وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا حجاج بن الحسن، حدثنا سعيد بن سلام، حدثنا عمر بن محمد، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «شيبني هود وأخواتها: الواقعة، والحاقة، وإذا الشمس كورت»^(٣). وقد روي من حديث ابن مسعود نحوه:

[٣٧٧٨] فقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أحمد بن طارق الراثي، حدثنا عمرو بن ثابت، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، ما شيبك؟ قال: «هود، والواقعة»^(٤). عمرو بن ثابت متروك، وأبو إسحاق لم يدرك ابن مسعود. والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كُنْتُ أُخْرِكْتُ ءَايَاتُهُمْ ثُمَّ فُضِّلَتْ مِن لَدُنِّي حَكِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۗ إِنِّي لَكَرِيمٌ نَذِيرٌ ﴿٢﴾﴾

(١) فيه إرسال بين عكرمة، وأبي بكر، لكن يشهد له ما بعده، فإنه متصل.

(٢) جيد. أخرجه الترمذي ٣٢٩٧ والبزار ١٧٠/١ «البحر الزخار» والحاكم ٣٤٤/٢ - ٤٧٦، وصححه ووافقه الذهبي، وكذا صححه الألباني في «صحيح الترمذي» ١١٣/٣، وهو أصح إسناد لهذا المتن.

(٣) أخرجه الطبراني ٥٨٠٤ وإسناده ساقط، قال الهيثمي في «المجمع» ٣٧/٧: فيه سعيد بن سلام العطار، وهو كذاب اهد. لكن المتن حسن صحيح عن ابن عباس كما في الحديث السابق.

(٤) أخرجه الطبري ١٠٠٩١ وإسناده واه، فيه عمرو بن ثابت، وهو متروك كما قال ابن كثير رحمه الله، وفيه إرسال. لكن المتن محفوظ كما تقدم، وانظر «تفسير الشوكاني» ١٢١٩ حتى ١٢٢٧ بتخريري، والله الموفق.

وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ يَتَّبِعَكُمْ مَنَّا حَسَنًا إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى وَرَبُّتِ كُلِّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ها هنا، وبالله التوفيق. وأما قوله: ﴿أَتَيْكَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ قِيلَتْ﴾، أي: هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى. هذا معنى ما زوي عن مجاهد، وقاتدة، واختاره ابن جرير. وقوله: ﴿مِن لَّدُنَّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، أي: من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه، الخبير بعواقب الأمور. ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿١٢٩﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلٰتِ﴾ [النحل: ٣٦]. وقوله: ﴿إِنِّي لَكُرْبَنَةٌ بَلِيغٌ وَبَشِيرٌ﴾، أي: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالشواب إن أطعتموه.

[٣٧٧٩] كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال: «يا معشر قريش، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً تَصْبِحُكُمْ، ألستم مُصَدِّقِي؟» فقالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»^(١).

وقوله: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ يَتَّبِعَكُمْ مَنَّا حَسَنًا إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى وَرَبُّتِ كُلِّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ﴾ أي: وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله - عز وجل - فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك، ﴿يَتَّبِعَكُمْ مَنَّا حَسَنًا﴾، أي: في الدنيا ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى وَرَبُّتِ كُلِّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ﴾، أي: في الدار الآخرة، قاله قتادة، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٧﴾ [النحل: ٩٧].

[٣٧٨٠] وقد جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لسعد: «وَأَنْتَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجِزْتَ بِهَا حَتَّىٰ مَا تَجْعَلَ فِي فِي أَمْرَاتِكَ»^(٢).

وقال ابن جرير: حَدَّثْتُ عَنْ الْمُسَيَّبِ بْنِ شَرِيكٍ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَرَبُّتِ كُلِّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ﴾، قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات. فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة، وبقيت له تسع حسنات. ثم يقول: هَلْكَ مِنْ غَلَبِ آحَاذِهِ أَعْشَارَهُ. وقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾، هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذب رسله، فإن العذاب يناله يوم معاده لا محالة، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: معاذكم ومرجعكم يوم القيامة، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلاق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَبْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ

عَلَيْهِمْ يَدَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

(١) متفق عليه، وسياق في الصفات.

(٢) صحيح، وتقدم.

قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم، وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية، رواه البخاري من حديث ابن جريج، عن محمد بن عباد بن جعفر: أن ابن عباس قرأ: «ألا إنهم تثنوني صدورهم». الآية. فقلت: يا أبا العباس ما تثنوني صدورهم؟ قال: الرجل كان يجامع امرأته فيستحي أو يتخلن فيستحي فنزلت: «ألا إنهم تثنوني صدورهم». وفي لفظ آخر له قال ابن عباس: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم.

ثم قال: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو قال: قرأ ابن عباس: «ألا إنهم يثنوني صدورهم ليستخفوا منه إلا حين يستغشون ثيابهم». قال البخاري: وقال غيره، عن ابن عباس: «يستغشون»: يُعْطُونَ رؤوسهم^(١). وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية: يعني به الشك في الله، وعمل السيئات. وكذا روي عن مجاهد، والحسن، وغيرهم: أي أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، يظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منابهم في ظلمة الليل، «يَعْلَمُ مَا يُيْرُونَ» من القول: «وَمَا يَعْلَمُونَ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ يَذَاتُ الصُّدُورِ»، أي: يعلم ما تكبّر صدورهم من النيات والضمائر والسرائر. وما أحسن ما قال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

فَلَا تَكْتُمُنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفْسِكُمْ لِيَخْفَى، فَمَهْمَا يُكْتَمِ اللَّهُ يَغْلِمِ
يُؤَخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ لِيَوْمِ حِسَابٍ، أَوْ يُعْجَلُ فَيُنْقَمِ

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع وعلو الجزيئات، وبالمعاد والجزاء، وبكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة.

[٣٧٨١] وقال عبد الله بن شداد: كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ نثى صدره، وغطى رأسه، فأنزل الله ذلك^(٢). وعود الضمير على الله أولى؛ لقوله تعالى: «أَلَا جِنَّةً يَنْتَفِشُونَ يَأْتِيهِمْ بِعَلَمٍ مَا يُيْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ». وقرأ ابن عباس: «ألا إنهم تثنوني صدورهم»، برفع الصدور على الفاعلية، وهو قريب المعنى.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحرّيها وبرّيها، وأنه «وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا»، أي: يعلم أين منتهى سيرها في الأرض، وأين تأوي إليه من وكرها، وهو مُسْتَوْدَعُهَا. وقال علي بن أبي طلحة وغيره، عن ابن عباس: «وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا» أي: حيث تأوي؛ «وَمُسْتَوْدَعُهَا»، حيث تموت. وعن مجاهد: «مُسْتَقَرَّهَا» في الرّحم، «وَمُسْتَوْدَعُهَا» في الصلب، كالتي في الأنعام، وكذا روي عن ابن عباس والضحاك وجماعة. وذكر ابن أبي حاتم أقوال المفسرين ها هنا، كما ذكره عند تلك الآية، فالله أعلم، وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك، كما قال تعالى: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيمٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُنْمِئَتْ أُمَّةً لَنَا لِمَا كُنَّا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقوله: «وَيَعْلَمُ مَقَاتِلَ النَّبِيِّ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ دَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ مِنْ ظَلْمَتٍ إِلَّا هُوَ وَلَا رَيْبَ وَلَا يَأْسَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

(١) أخرجه البخاري ٤٦٨١ و ٤٦٨٢ و ٤٦٨٣.

(٢) أخرجه الطبري ١٧٩٥٣ و ١٧٩٥٤ وهذا مرسل، فهو ضعيف.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِن أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسٌ مَّصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾

يخبرُ تعالى عن قدرته على كُلِّ شيءٍ، وأنه خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وأن عَرْشَهُ كان على الماءِ قبل ذلك، كما قال الإمام أحمد:

[٣٧٨٢] حَدَّثَنَا أَبُو معاويةَ حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عن جامع بن شَدَّادٍ، عن صفوانَ بن مُحَرِّزٍ، عن عمرانَ بن حُصَيْنٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اقبلوا البشري يا بني تميم». قالوا: قد بشرتنا فأعطينا. قال: «اقبلوا البشري يا أهل اليمن»، قالوا: قد قبلنا فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان الله قبل كل شيءٍ، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيءٍ». قال: فأتاني آتٍ فقال: يا عمران، انحلَّت ناقَتُك من عقالها. قال: فخرجت في إثرها، فلا أدري ما كان بعدي. وهذا الحديث مُخَرَّجٌ في صحيحي البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة؛ فمنها: قالوا: جنتك نسألك عن أول هذا الأمر، فقال: «كان الله ولم يكن شيءٌ قبله» وفي رواية: «غيره» وفي رواية: «معَه» - وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيءٍ، ثم خلق السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ^(١).

[٣٧٨٣] وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وكان عرشه على الماء»^(٢).

[٣٧٨٤] وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعَيْبٌ، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: أن رسولَ الله ﷺ قال: «قال الله - عزَّ وجلَّ -: أنفق أنفق عليك». وقال: «يدُ الله ملى لا يغيضها نفقة، سَخَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ». وقال: «أفرايتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يغيض ما في يده، وكان عرشه على الماء، ويده الميزان يخيض ويرفع»^(٣).

[٣٧٨٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن يعلى بن عطاء، عن وكيع بن عُدَسٍ، عن عمه أبي زرين - واسمه لقيط بن عامر بن المُتَنَفِّقِ العُقَيْلي - قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أين كان رَبُّنا قبل أن يخلق خلقَه؟ قال: «كان في عَمَاءٍ، ما تحته هواءٌ وما فوقه هواءٌ، ثم خَلَقَ العرش بعد ذلك»^(٤). وقد رواه الترمذي في التفسير، وابن ماجه في السنة من حديث يزيد بن هارون، به، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وقال مجاهد: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»، قبل أن يخلق شيئاً. وكذا قال وهب بن مُنْبِهٍ، وضمرة بن حبيب، وقالة قتادة، وابن جرير، وغير واحد. وقال قتادة في قوله: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» يُبَيِّنُكُمْ كَيْفَ كَانَ بَدَأَ خَلْقِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ. وقال الربيع بن أنس:

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٩١ و ٤٣٦٥ و ٤٣٨٦ وأحمد ٤٣١/٤ وابن حبان ٦١٤٢.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٥٣ وأحمد ١٦٩/٢ وابن حبان ٦١٣٨.

(٣) متفق عليه، وتقدم في أواخر آل عمران.

(٤) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣١٠٩ وأحمد ١١/٤ - ١٢ وابن ماجه ١٨٢ وابن حبان ٦١٤١ وإسناده ضعيف لجهالة وكيع بن

﴿وَكُنَّا عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، فلما خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَسَمَ ذَلِكَ الْمَاءَ قَسَمِينَ، فجعلَ نِصْفًا تحت العرشِ، وهو البحرُ المسجورُ.

وقال ابنُ عباسٍ: إنما سُمِّيَ العرشُ عرشاً لارتفاعه. وقال إسماعيلُ بنُ أبي خالدٍ: سَمِعْتُ سَعْدَ الطائي يقولُ: العرشُ ياقوتةُ حمراء. وقال محمدُ بنُ إسحاقٍ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، فكانَ كما وَصَفَ نَفْسَهُ تعالى، إذ ليس إلا الماءُ وعليه العرشُ، وعلى العرشِ ذُو الجلالِ والإكرامِ، والعزةِ والسلطانِ، والملكِ والقُدرةِ، والجَلْمِ والعِلْمِ، والرُحْمَةِ والنِّعْمَةِ، الفَعَالِ لما يُريدُ. قال الأعمشُ، عن اليمينهالِ بنِ عمرو، عن سعيدِ بنِ جبَّير قال: سئِلَ ابنُ عباسٍ عن قولِ الله: ﴿وَكُنَّا عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، على أي شيء كان الماءُ؟ قال: على مَتَنِ الرِّيحِ. وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكُمْ أَنْتُمْ لِحَسَبِ عَمَلِكُمْ﴾، أي: خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لنفعِ عبادِهِ الذين خَلَقَهُمْ ليعبُدُوهُ وحده لا شريكَ له، ولم يخلق ذلك عبثاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ لَعَلَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَهْتَدُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ ﴿١٧﴾﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَحْسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ فَعَمِلَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْعَلِيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقوله: ﴿يَسْأَلُكُمْ﴾، أي: ليختبركم ﴿أَنْتُمْ لِحَسَبِ عَمَلِكُمْ﴾، ولم يقل: أكثرَ عملاً، بل أحسنَ عملاً، ولا يكون العملُ حسناً حتى يكون خالصاً لله عزَّ وجلَّ، على شريعةِ رسولِ الله ﷺ فمتى قَدَّ الْعَمَلُ واحدةً من هذين الشرطين بطلَ وخبط.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، يقول تعالى: ولئن أخبرت - يا محمد - هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وهم مع هذا يُنْكِرُونَ البعثَ والمعادَ يومَ القيامةِ، الذي هو بالنسبةِ إلى القدرةِ أهونُ من البدأةِ، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُبْيِئُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِعَيْبِهِمْ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَجِدَّةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]. وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، أي: يقولونُ كفراً وعناداً: ما نُصَدِّقُكَ على وقوعِ البعثِ، وما يُذَكِّرُ ذلكَ إلا مَنْ سَحَرْتَهُ، فهو يتبعك على ما تقولُ. وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَهَ أَتَمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَجْهَشُونَ﴾. يقول تعالى: ولئن أخرنا العذابَ والمؤاخظةَ عن هؤلاء المشركين إلى أجلٍ معدودٍ وأمدٍ محصورٍ، وأوعدناهم به إلى مدةٍ مضروريةٍ، ليقولن تكذيباً واستعجالاً: ﴿مَا يَجْهَشُونَ﴾، أي يؤخر هذا العذابَ عنا؟! فإن سجاياهم قد أَلْفَتِ التَّكْذِيبَ والشُّكَّ، فلم يبقَ لهم محيصٌ عنه ولا محيد. والأمة تستعملُ في القرآن والسنة في معانٍ متعددةٍ، فيرادُ بها الأمدُ، كقوله في هذه الآية: ﴿إِلَهَ أَتَمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾. وقوله في يوسف: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهَا وَمَا يَنْبَغُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [يوسف: ٤٥]، وتستعملُ في الإمامِ المقتدى به، كقوله: ﴿إِنَّ لِزَيْدِ كَاتِ أُمَّةٍ قَاتِيًا يَلُو حَيْفًا وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، وتُستعملُ في الملةِ والدينِ كقوله إخباراً عن المشركين أنهم قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى آثَمَةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُتَّفِقُونَ﴾، وتستعملُ في الجماعةِ كقوله: ﴿وَلَمَّا وَدَّ مَاءَ مَدِينَةٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّكَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْتَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [يونس: ٤٧]. والمرادُ من الأمةِ ها هنا الذين يُبعثُ فيهم الرسولُ مؤمنهم وكافرهم، كما في صحيح مسلم:

[٣٧٨٦] «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»^(١).

وأما أمة الأتباع فهم المصدقون للرسل، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

[٣٧٨٧] وفي الصحيح: «فأقول: أمتي أمتي»^(٢). وتُستعمل الأمة في الفرقة والطائفة، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَبْتَلُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٩]، وكقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۖ وَلَئِن أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأَةٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ۗ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رجم الله من عباده المؤمنين، فإنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال، كأنه لم ير خيراً ولم يزوج بعد ذلك فرجاً. وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿يَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي﴾، أي يقول: ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء، ﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾، أي: فرح بما في يده، بَطَرَ فَخُورٌ على غيره. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾، أي: في الشدائد والمكاره، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: في الرخاء والعافية، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾، أي: بما يصيبهم من الضراء، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث:

[٣٧٨٨] «والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم، ولا نصب ولا وصب، ولا حزن حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله عنه بها من خطاياها»^(٣).

[٣٧٨٩] وفي الصحيحين: «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء فشكره كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبره كان خيراً له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن»^(٤). وهكذا قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُشْرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَوَأَصَوًّا بِالْحَقِّ وَوَأَصَوًّا

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٥٣ وغيره، وتقدم.

(٢) هو بعض حديث الشفاعة المطول، متفق عليه، وتقدم.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٦٤١ و ٥٦٤٢، ومسلم ٢٥٧٣، وأحمد ٣٣٥/٢ و ١٨/٣ - ١٩ والترمذي ٩٦٦، وابن حبان ٢٩٠٥ والبخاري ١٤٢١، والبيهقي ٣/٣٧٣ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري.

(٤) لم أره بهذا التمام: والظاهر أنه منتزع من ثلاثة أحاديث. أما لفظ «والذي نفسي بيده» فلعله سبق قلم من المصنف، أخذه من الحديث المتقدم أو غيره. وأما لفظ «لا يقضي»... له فقد ورد من حديث أنس، أخرجه أحمد ١١٧/٣ - ١٨٤ وابن حبان ٧٢٨ وإسناده جيد، وفيه زيادة في أوله «عجبت للمؤمن» وأما باقي الحديث، فقد ورد من حديث صهيب، أخرجه مسلم ٢٩٩٩ وأحمد ٣٣٢/٤ وابن حبان ٢٨٩٦ وصدده «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير...». ولم أره بلفظ المصنف بشيء من الكتب فضلاً عن الصحيحين!؟

يَا صَبْرًا ﴿١٢﴾ [العصر: ١ - ٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴿١٣﴾ إِذَا سَأَلَكَ الرَّبُّ بِشَيْءٍ ۖ فَاذْكُرْهُ ۖ وَإِنَّمَا تَذْكُرُ لِمَا كُنْتَ تَعْلَمُ ۚ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢]... الآيات.

﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكًا بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَافِقًا بِهِ صَدْرَكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكَ ۖ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُوحًا وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ۚ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ مُفْتَرِيًّا ۖ وَأَدْعُوا مَن أَسْتَطَعُوا مِن دُونِ اللَّهِ ۗ وَإِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى مُسَلِّياً لِرَسُولِهِ ﷺ عما كان يتعنث به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول - كما أخبر تعالى عنهم في قوله -: ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْسِي فِي الْأَكْفَانِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُفِّرُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿١٣﴾ أَوْ يُنزلُ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان: ٧ - ٨]. فامر الله تعالى رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - وأرشدته إلى ألا يضيئ بذلك منهم صدره، ولا يصدنه ذلك ولا يثنيه عن دعائهم إلى الله - عز وجل - آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَمَلَّكَ أَنْتَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٣﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٤﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩]، وقال ها هنا: ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكًا بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَافِقًا بِهِ صَدْرَكَ أَنْ يَقُولُوا﴾، أي: لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كذبوا وأودوا، فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل. ثم بين تعالى إعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، ولا بتعشير سور مثله، ولا بسورة من مثله، لأن كلام الرب لا يشبهه كلام المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات. وذاته لا يشبهها شيء، تعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه. ثم قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾، أي: فإن لم يأتوا بمعاوضة ما دعوتهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله، متضمن علمه وأمره ونهيته، ﴿وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْشَوْنَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قال العوفي، عن ابن عباس، في هذه الآية: إن أهل الرياء يُعطون بحسناتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً، يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا، صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل، لا يعمل إلا التماس الدنيا، يقول الله تعالى: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمل لالتماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين. وهكذا زوي عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد. وقال أنس بن مالك، والحسن: نزلت في اليهود والنصارى. وقال مجاهد وغيره: نزلت في أهل الرياء. وقال قتادة: من كانت الدنيا همّه وسدّمه^(١) وطلبته وزيته، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يُفْضِي إلى الآخرة وليس له حسنة يُعطى بها جزء. وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا، ويُثَاب عليها في الآخرة. وقد ورد في الحديث المرفوع

(١) سِدِّم بالشيء: حرص عليه ولهبج به.

نحو من هذا. وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَوْ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَكُمْ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١١) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٢﴾ كَلَّا نُبَدِّلُهَا هَتَّاءً وَهَتَّاءً مِنْ عَطَاةٍ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاةُ رَبِّكَ مَطْلُورًا ﴿١٣﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَقْضِيلاً ﴿١٤﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرَّتَ الْآخِرَةِ زِدْ لَمْ فِي حَرْوِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرَّتَ الدُّنْيَا نُفِئْهُ وَتَهَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (١٥) [الشورى: ٢٠].

﴿أَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِنَ رَبِّهِ. وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ. كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ. مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ. فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ. وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧)

يخبرُ تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده، من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ﴾ [الروم: ٣٠].

[٣٧٩٠] وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مولودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمةً جَمْعَاءَ^(١)، هل تحسبون فيها من جدعاء؟^(٢)».

[٣٧٩١] وفي صحيح مسلم عن عياض بن جمار، عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحزمت عليهم ما أخلقت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»^(٣).

[٣٧٩٢] وفي المسند والسنن: «كُلُّ مولودٍ يُولَدُ عَلَى هذه الجِلَّةِ حتى يُعَرَّبَ عنه لسانه»^(٤)... الحديث، فالمؤمنُ باقٍ على هذه الفِطْرَةِ. وقوله: ﴿وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾، أي: وجاءه شاهدٌ من الله، وهو ما أوحاهُ إلى الأنبياء من الشرائع المُطَهَّرَةِ المُكَمَّلَةِ المُعْتَمَدَةِ بِشَرِيعةِ مُحَمَّدٍ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين. ولهذا قال ابن عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةٌ، وأبو العالية، والضحاكُ، وإبراهيمُ النخعي، والسديُّ، وغيرُ واحدٍ في قوله تعالى: ﴿وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾: إنه جبريل عليه السلام.

وعن عليٍّ، والحسن، وقتادة: هو محمد ﷺ وكلاهما قريبٌ في المعنى، لأنَّ كلاً من جبريل ومُحمَّدٍ - صلواتُ اللهِ عليهما - بَلَّغَ رسالةَ الله تعالى، فَعَجَّبِرِلُ إِلَى مُحمَّدٍ، ومُحمَّدٌ إِلَى الأُمَّةِ. وقيل: هو عليٌّ. وهو

(١) الجمعاء من البهائم: التي لم يذهب من بدنها شيء.

(٢) صحيح أخرجه مالك في الموطأ ٢٤/١، والبخاري ١٣٥٨ و ١٣٥٩ ومسلم ٢٦٥٨، وأبو داود ٤٧١٤ والترمذي ٢١٣٨ وأحمد ٣٧٥/٢ و ٣٩٣ و ٤١٠ و ٤٨١ والطبراني ٢٣٥٩ و ٢٤٣٣ والبيهقي ٨٤ وابن حبان ١٢٩ و ١٣٠ و ١٣٣، وعبد الرزاق ٢٠٠٨٧ وقامه: ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾.

(٣) صحيح أخرجه مسلم ٢٨٦٥، وأحمد ١٦٢/٤ و ١٦٣ و ٢٦٦، وعبد الرزاق ٢٠٠٨٨، والطبراني في الكبير ٩٨٧/١٧ و ٩٩٢ و ٩٩٣ و ٩٩٤ و ٩٩٥ و ٩٩٦ من حديث عياض بن جمار. ومعنى اجتالتهم: أي استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل.

(٤) صحيح أخرجه أحمد ٣٤٥/٣ و ٢٤/٤، والدارمي ٢٢٣/٢، والبيهقي في سننه ٧٧/٩ و ٧٨ و ١٣٠، والطبراني في الكبير ٨٢٦ و ٨٢٨ - ٨٣٥ وصححه ابن حبان ١٣٢، والحاكم ١٢٣/٢ ووافقه الذهبي.

ضَعِيفٌ لَا يَثْبُتُ لَهُ قَائِلٌ. وَالأول والثاني هو الحق، وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة بما يشهد للشريعة من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تُصَدِّقُهَا وتؤمن بها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَدَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، وهو القرآن، بلغه جبريلُ إلى النبي ﷺ وبلغه النبي مُحَمَّدٌ إلى أمته. ثم قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾، أي: ومن قبل القرآن كتاب موسى، وهو التوراة، ﴿وَإِنَّمَا وَرِثَةً لِّأُولِيهَا﴾، أي: أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم، وقدوة يقتدون بها، ورحمةً من الله بهم. فمن آمن بها حقَّ الإيمانِ قاده ذلك إلى الإيمانِ بالقرآن، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾. ثم قال تعالى مُتَّوَعِّداً لِمَن كَذَّبَ بالقرآنِ أو بشيءٍ منه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾، أي: ومن كَفَرَ بالقرآنِ من سائر أهل الأرضِ مشركيهم، أهل الكتاب وغيرهم، من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم، ممن بَلَّغَهُ القرآنُ، كما قال تعالى: ﴿لَا تُؤذِرْكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾.

[٣٧٩٣] وفي صحيح مسلم، من حديث شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «الذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني، ثم لا يؤمن بي، إلا دَخَلَ النار»^(١). وقال أيوب السخيتاني، عن سعيد بن جبير قال: كنت لا أسمعُ بحديثٍ عن رسول الله ﷺ على وجهٍ إلا وجدتُ بضدِّه - أو قال: تُصَدِّقُه - في القرآن، فَبَلَّغَنِي أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يسمعُ بي أحد من هذه الأمة، ولا يهودي ولا نصراني، فلا يؤمنُ بي إلا دَخَلَ النار». فَجَعَلْتُ أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ قال: وَقَلَّمَا سَمِعْتُ عن رسول الله ﷺ إلا وجدتُ له تصديقاً في القرآن، حَتَّى وجدتُ هذه الآية: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾، قال: من الجملِ كُلِّهَا^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي رَيْبٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية، أي: القرآن حقٌّ من الله، لا مِرْيَةَ فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿الآلَةُ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [السجدة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿الآلَةُ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢]. وقوله: ﴿وَلَكِن كَثُرَ النَّاسُ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَكَلَّ حَرَصَتْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِن طُغِيَ أَكْثَرُ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سبا: ٢٠].

﴿وَمَن أَظْلَعُ مَعَنَ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَءَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِسُونَ ﴿٢٢﴾﴾

(١) لم يروه مسلم من حديث أبي موسى، وإنما أخرجه ١٥٣ من حديث أبي هريرة. وحديث أبي موسى، أخرجه الطبري (١٨٠٩٣) وإسناده على شرط مسلم.

(٢) حديث صحيح. أخرجه الطبري (١٨٠٨٧ و ١٨٠٨٩ و ١٨٠٩٠) وهو مرسل، لكن المتن صحيح بما قبله.

يُبَيِّنُ تَعَالَى حَالَ الْمُفْتَرِينَ عَلَيْهِ وَفُضِيحَتِهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، وَسَائِرِ الْبَشَرِ وَالْجَانِّ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:

[٣٧٩٤] حَدَّثَنَا بِهِزٌ وَعَفَّانُ قَالَا: أَخْبَرَنَا هَمَّامٌ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحَرِّزٍ قَالَ: كُنْتُ آخِذًا بِيَدِ ابْنِ عُمَرَ إِذْ عَرَّضَ لَهُ رَجُلٌ قَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي النُّجُوى يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَتْفَهُ، وَيَسْتَرُهُ مِنَ النَّاسِ، وَيَقْرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَيَقُولُ لَهُ: أَنْتَ عَرَفْتَ ذَنْبَكَ كَذَا؟ أَنْتَ عَرَفْتَ ذَنْبَكَ كَذَا؟ أَنْتَ عَرَفْتَ ذَنْبَكَ كَذَا؟ حَتَّى إِذَا قُرَّه بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ: ﴿الْأَشْهَدُ هَذَا لَكَ الْيَوْمَ كَذِبًا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(١). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ بِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، أَي: يَرُدُّونَ النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَسُلُوكِ طَرِيقِ الْهُدَى الْمَوْصِلَةَ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَيُجَنِّبُونَهُمُ الْجَنَّةَ، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، أَي: وَيُرِيدُونَ أَنْ يَكُونَ طَرِيقُهُمْ عِوَجًا غَيْرَ مُعْتَدِلَةٍ، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾، أَي: جَاحِدُونَ بِهَا مُكَذِّبُونَ بِوُقُوعِهَا وَكُوفُورِهَا. ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُتَعَمِّرِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾، أَي بَلْ كَانُوا تَحْتَ قَهْرِهِ وَعَظْمَتِهِ، وَفِي قَبْضَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، وَلَكِنْ ﴿يُخَشِرُهُمْ لِوَجْهِ تَخَشُّصٍ فِيهِ الْأَبْصُرُ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٤٢].

[٣٧٩٥] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّ اللَّهَ لِيُحْمَلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتِهِ»^(٢). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾، أَي يَضَاعَفُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْتَدَةً، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْتَدَتُهُمْ، بَلْ كَانُوا ضَمًّا عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ، غَمِيًّا عَنْ اتِّبَاعِهِ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ حِينَ دُخِلُوا النَّارَ قَوْلُهُ: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّمِيرِ﴾ [الْمَلِك: ١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا قَوْفًا فَكَثِيرًا يَمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وَلِهَذَا يُعَذَّبُونَ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ تَرَكُوهُ، وَعَلَى كُلِّ نَهْيٍ ارْتَكَبُوهُ. وَلِهَذَا كَانَ أَصْحَابُ الْأَقْوَالِ أَنَّهُمْ مُكَلَّفُونَ بِفُرُوعِ الشَّرَائِعِ أَمْرًا وَنَهْيًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾، أَي: خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ لِأَنَّهُمْ أَدْخَلُوا نَارًا حَامِيَةً، فَهَمُ مُعَذَّبُونَ فِيهَا لَا يُفْتَرُّ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا حَتَّى زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الْإِسْرَاء: ٩٧]. ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾، أَي: ذَهَبَ عَنْهُمْ ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ، فَلَمْ تُجَدِّ عَنْهُمْ شَيْئًا، بَلْ ضَرَّتْهُمْ كُلُّ الضَّرَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا خِيرَ النَّاسُ كَانُوا لَمْ أَعْدَاءَ وَكَانُوا يَبَادِيهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الاحقاف: ٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِيُكْفَرُوا لَمْ عِزًّا﴾ [١٨] كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبَادِيَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مریم: ٨١، ٨٢]، وَقَالَ الْخَلِيلُ لِقَوْمِهِ: «إِنَّمَا أَخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ مَوْدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَسُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ

(١) صحيح . أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ٢٤٤١ وَ ٤٦٨٥ وَ ٦٠٧٠ وَ ٧٥١٤ وَفِي خَلْقِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ ص ٦١، ٦٢ وَمُسْلِمٌ ٢٧٦٨ وَأَحْمَدُ ٧٤/٢ وَ ١٠٥، وَابْنُ مَاجَةَ ١٨٣، وَابْنُ حِبَانَ ٧٣٥٥ وَ ٧٣٥٦.

(٢) صحيح . أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ٤٦٨٦، وَمُسْلِمٌ ٢٥٨٣، وَالتِّرْمِذِيُّ ٣١١٠، وَابْنُ مَاجَةَ ٤٠١٨، وَالتَّطْبِرِيُّ ١٨٥٥٩، وَالبَيْهَقِيُّ فِي السَّنَنِ ٩٤/٦ وَفِي الْأَسْمَاءِ ٨٢/١، وَابْنُ حِبَانَ ٥١٧٥ وَالبُغْوِيُّ فِي شَرْحِ السَّنَةِ ٤١٦٢، وَفِي مَعَالِمِ التَّنْزِيلِ ٤٠١/٢ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ.

تَصِيرُكَ ﴿٢٥﴾ [المنكوبت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ يَوْمَ الْأَسْبَابِ ﴿٢٦﴾ [البقرة: ١٦٦]؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرهم ودمارهم، ولهذا قال: ﴿لَا جَزْمَ لَنَا فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ يخبرُ تعالى عن حالهم أنهم أخسرُ الناس صفقة في الدار الآخرة، لأنهم استبدلوا بالدركات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آي، وعن شرب الرحيق المختوم، بسُموم وحميم، وظلُّ من يحوم، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قُرب الرحمن ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا جزمَ أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾
 مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَبْصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ حَالَ الْأَشْقِيَاءِ ثَنَىٰ بِذِكْرِ السُّعَدَاءِ، وَهُمْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فَأَمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَعَمِلَتْ جَوَارِحُهُمُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ قَوْلًا وَفِعْلًا، مِنَ الْإِتْيَانِ بِالطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ، وَبِهَذَا وَرَثُوا الْجَنَّاتِ، الْمَشْتَمَلَةَ عَلَى الْعُرْفِ الْعَالِيَاتِ، وَالسَّرْرِ الْمَصْفُوفَاتِ، وَالْقُطُوفِ الدَانِيَاتِ، وَالْفُرُشِ الْمَرْتَفَعَاتِ، وَالْجِسَانَ الْخَيْرَاتِ، وَالْفَوَاكِجِ الْمَتْنُوعَاتِ، وَالْمَأْكَلِ الْمَشْتَهِيَاتِ، وَالْمَشَارِبِ الْمُسْتَلْدَاتِ، وَالنَّظَرَ إِلَىٰ خَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ خَالِدُونَ، لَا يَمُوتُونَ وَلَا يَهْرَمُونَ وَلَا يَمْرَضُونَ، وَلَا يَنَامُونَ وَلَا يَتَغَوِّطُونَ، وَلَا يَبْصُقُونَ وَلَا يَتَمَخَّطُونَ، إِنَّهُ هُوَ إِلَّا رَشْحٌ مَسِكَ يَغْرَقُونَ. ثُمَّ ضَرَبَ تَعَالَىٰ مَثَلَ الْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾، أَي: الَّذِينَ وَصَفَهُمْ أَوْلًا بِالشَّقَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ السُّعَدَاءِ، فَأُولَٰئِكَ كَالْأَعْمَى وَالْأَبْصِيرِ، وَهَؤُلَاءِ كَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ. فَالْكَافِرُ أَعْمَىٰ عَنِ وَجْهِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَهْتَدِي إِلَىٰ خَيْرٍ وَلَا يَعْرِفُهُ، أَصَمٌّ عَنِ سَمَاعِ الْحُجُجِ، فَلَا يَسْمَعُ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٣]، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَفَعِلُنْ ذَكِيٌّ لَيِّبٌ، بَصِيرٌ بِالْحَقِّ، يُمَيِّزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَاطِلِ، فَيَتَّبِعُ الْخَيْرَ وَيَتْرِكُ الشَّرَّ، سَمِيعٌ لِلْحُجَّةِ، يَفْرُقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشَّبْهِ، فَلَا يَزُوجُ عَلَيْهِ بَاطِلًا، فَهَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا؟! ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ وَتَفْرُقُونَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الحشر: ٢٥]، وَقَالَ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿٢٦﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٥﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا النُّورُ ﴿٢٦﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَلَا الْأَمْرُثُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِسَمِيعٍ مَّن فِي السَّمَوَاتِ ﴿٢٧﴾ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٦﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٤].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذِي قَوْمِهِ إِذِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْرِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْبُكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْبُكَ إِلَّا أَنْتَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَبْدَةَ الْأَصْنَامِ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿إِذِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، أَي: ظَاهِرُ النَّذَارَةِ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ أَنْتُمْ عَبَدْتُمْ غَيْرَ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْرِ﴾، أَي: إِنْ اسْتَمَرَرْتُمْ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ عَذَّبَكُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا مُّوجِعًا شَاقًّا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. ﴿فَقَالَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وَالْمَلَائِكَةُ

هم: السادة والكبراء من الكافرين منهم: ﴿مَا زُيِّنَ لَكُمْ مِنَ الْكُفْرَانِ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَكُمْ﴾، أي: لست بملك ولكم بشر، فكيف أوجي إليكم من دوننا؟ ثم ما نراك أتبعك إلا أراذلنا كالباعة والحاقة وأشباههم، ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين أتبعوك لم يكن عن تزور منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجاوبك فاتبعوك، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا زُيِّنَ لَكُمْ مِنَ الْكُفْرَانِ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَكُمْ﴾، أي: في أول بادئ الرأي، ﴿وَمَا زُيِّنَ لَكُمْ عَيْنًا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق، ولا رزق ولا حال، لما دخلتم في دينكم هذا، ﴿بَلْ نَقَّضْنَا كُذِّبْتُمْ﴾، أي: فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة، والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها. هذا اعتراض الكافرين على نوح - عليه السلام - وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق زالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يتأبونهم هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالباً إنما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ وَابْنَاهُمْ مُفْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

[٣٧٩٦] ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال: أشراف الناس أتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل^(١). وقولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ليست بمدمة ولا عيب، لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروي ولا للفكر مجال، بل لا بد من أتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء، ولا يفكرها هنا إلا غبي أو عيي. والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - إنما جاؤوا بأمر جللي واضح.

[٣٧٩٧] وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبرة، غير أبي بكر، فإنه لم يتلعثم»^(٢)، أي: ما تردد، ولا تروى، لأنه رأى أمراً جلياً عظيماً واضحاً، فبادر إليه وسارع. وقولهم: ﴿وَمَا زُيِّنَ لَكُمْ مِنَ الْكُفْرَانِ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَكُمْ﴾، هم لا يرون ذلك، لأنهم عمي عن الحق، لا يسمعون ولا يبصرون، بل هم في زيبهم يترددون، وفي ظلمات الجهل يغمهون، وهم الأفاكون الكاذبون، الأقلون الأراذلون، وفي الآخرة هم الأخسرون.

﴿قَالَ يَقْوَرِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّيِّ وَءَالِنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِي فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاهُ فَمَا أَتَتْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عما رد به نوح على قومه في ذلك: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّيِّ﴾، أي: على يقين وأمر جللي، وثبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم، ﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ﴾، أي: خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتهم إلى تكذيبها وزدها، ﴿أَنْزَلْنَاهُ فَمَا أَتَتْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾. كارهون.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧ و ٥١ ومسلم ١٧٧٣ وتقدم مراراً.

(٢) لم أره بهذا اللفظ مستداً، وورد بمعناه من حديث ابن عمر في أثناء حديث وفيه «لا تؤذوني في صاحبي، فإن الله عز وجل - بعثني بالهدى ودين الحق، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدقت...». أخرجه الطبراني ١٣٣٨٣ وقال الهيثمي ٩/١٤٣٢٠: رجاله رجال الصحيح.

﴿وَيَقُولُوا لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِن آجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَىٰ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقُولُونَ مَنِ بَصُرْنَا مِن اللَّهِ إِن طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول لقومه: لا أسألكم على نصحني لكم مالا أجرة أخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله - عز وجل - ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه، احتشاماً ونفاسةً منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدْفَةِ وَالرَّمِيَّةِ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَمِيرٌ نَّفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدْفَةِ وَالرَّمِيَّةِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَمُدُّ مَعِنَا كَفِّهِمْ﴾ [الكهف: ٢٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيُتْلَوْا أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ عَنَّا إِنَّ اللَّهَ بِاعْتِمَادِ النَّاجِثِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢] . . . الآيات .

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خِزْيَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِيٰ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا مِّنَ اللَّهِ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

يخبرهم أنه رسولٌ من الله، يدعو إلى الله وحده لا شريك له، بإذن الله له في ذلك، ولا يسألهم على ذلك أجراً، بل هو يدعو من لقيه من شريفٍ ووضع، فمن استجاب له فقد نجا. ويخبرهم أنه لا يقدر على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل بشرٌ مرسلٌ، مؤيَّدٌ بالمعجزات. ولا أقول عن هؤلاء الذين تحقِّقونهم وتزدرونهم: إنه ليس لهم عند الله ثوابٌ على إيمانهم. الله أعلم بما في أنفسهم، فإن كانوا مؤمنين باطناً كما هو الظاهر من حالهم، فلهم جزاء الحسنى، ولو قطع لهم أحدٌ بشرٌ بعد ما آمنوا لكان ظالماً قابلاً ما لا علم له به.

﴿قَالُوا يَنْشُخُ قَدَّ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَانَا فَأَيْنَا يَمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمُ تَصَدُّقِي إِن آرَدْتُ أَن أَنْصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نعمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكلٌ بالمنطق: ﴿يَنْشُخُ قَدَّ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَانَا﴾، أي: حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك، ﴿قَالُوا يَمَا تَعِدُنَا﴾، أي: من النعمة والعذاب، ادع علينا بما شئت، فليأتنا ما تدعو به ﴿إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾، أي: إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يعجزه شيء، ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ تَصَدُّقِي إِن آرَدْتُ أَن أَنْصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾، أي: أي شيء يجدي عليكم إبلاغي لكم وإنذاري إياكم ونصحني، إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: هو مالك أرومة الأمور، والمتصرف الحاكم العادل الذي لا يجوز، له الخلق وله الأمر، وهو المبدئ المعيد، مالك الدنيا والآخرة.

﴿أَمْرٌ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَّهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

هذا كلامٌ معترضٌ في وسطِ هذه القصة، مؤكِّد لها ومقررٌ بشأنها. يقول تعالى لمحمد ﷺ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افتري هذا وافعله من عنده. ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾، أي: فإثم ذلك

عَلِيٍّ، ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا بُجِّرْتُمْ﴾، أي: ليس ذلك مُفْتَعَلًا ولا مُفْتَرَى، لأنِّي أعلمُ ما عند الله من العقوبة لمن كَذَّبَ عليه.

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا نَبِيَّسَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلَّكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِمٌّ ﴿٣٩﴾﴾

يخبرُ تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجلَ قومه نعمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوحُ دعوته التي قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿٣٦﴾﴾ [القمر: ١٠]، فعند ذلك أوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾، فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم. ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَّكَ﴾، يعني السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: بمراى منا، ﴿وَوَحِّينَا﴾، أي: وتعليمنا لك ماذا تصنعه، ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾. فقال بعض السلف: أمره الله تعالى أن يفرزَ الخشب ويقطعه ويبيسه، فكان ذلك في مئة سنة، وتجرها في مئة سنة أخرى، وقيل: في أربعين سنة، فالله أعلم. وذكر محمد بن إسحاق، عن التوراة: أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً. وأن يطلي باطنها وظهرها بالقار، وأن يجعل لها جُجُؤاً أزور يشق الماء. وقال قتادة: كان طولها ثلاثمئة ذراع في عرض خمسين. وعن الحسن: طولها ستمئة ذراع وعرضها ثلاثمئة ذراع. وعنه مع ابن عباس: طولها ألف ومئتا ذراع، في عرض ستمئة. وقيل: طولها ألفا ذراع، وعرضها مئة ذراع، فالله أعلم. قالوا كلهم: وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً، ثلاث طبقات، كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للإنس، والعليا للطيور. وكان بابها في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثراً غريباً، من حديث علي بن زيد بن جُدعان، عن يوسف بن مهران، عن عبد الله بن عباس أنه قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها. قال: فانطلق بهم حتى أتى إلى كيب من ثراب، فأخذ كفاً من ذلك الثراب بكفه، قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب حام بن نوح. قال: وضرب الكيب بعصاه، قال: ثم بإذن الله. فإذا هو قائم ينفخ الثراب عن رأسه، قد شاب. قال له عيسى - عليه السلام -: هكذا هلكت؟ قال: لا. ولكن مت وأنا شاب ولكنني ظننت أنها الساعة، فمن ثم شبت. قال: حدثنا عن سفينة نوح؟ قال: كان طولها ألف ذراع ومئتي ذراع، وعرضها ستمئة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، طبقة فيها الدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير، فلما كثر أرواث الدواب، أوحى الله - عز وجل - إلى نوح - عليه السلام - أن أعجز ذنب الفيل، فغمزه، فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث، فلما وقع القار بخرز السفينة يقرضه وحبالها، أوحى الله إلى نوح، أن اضرب بين عيني الأسد، فخرج من منخره سنور وسنورة، فأقبلا على القار. فقال له عيسى - عليه السلام -: كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر، فوجد جيفة فوقه عليها، فدعا عليه بالخوف، فلذلك لا يألف البيوت. قال: ثم بعث الحمامة، فجاءت بورق زيتون بمنقارها، وطين برجليها، فعلم أن البلاد قد غرقت. قال: فطوقها الخضرة التي في

عنفها، ودعا لها أن تكون في أنس وأمان، فمن ثم تألف البيوت. قال: فقلنا: يا رسول الله. ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال: فقال له: عد بإذن الله. فعاد ثراباً^(١). وقوله: ﴿وَتَسْنَعُ الْفُلُوكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قُوَيْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾، أي يهزؤون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق، ﴿قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ﴾^(٢) ﴿سَوْفَ تَقْلَمُونَ﴾، وعيد شديد، وتهديد أكيد، ﴿مَنْ يَأْتِ عَذَابَ يَحْزِينٍ﴾، أي: يهينه في الدنيا، ﴿وَيَصِلَ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُؤِيمٌ﴾، أي: دائم مستمر أبداً.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٣)

هذه مُوَاعِدَةٌ من الله تعالى لنوح - عليه السلام - إذا جاء أمر الله من الأمطار المُتَّابِعَةِ، والهَيَّان الذي لا يُقْلَع ولا يُقْتَر، بل هو كما قال تعالى: ﴿فَقَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْتَهَبٍ﴾^(٤) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿٥﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُمِّرَ ﴿٦﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا ﴿٧﴾ [القمر: ١١ - ١٤]. وأما قوله: ﴿وَفَارَ التَّنُورُ﴾، فعن ابن عباس: التَّنُورُ: وجه الأرض. أي: صارت الأرض عيوناً تغور، حتى فار الماء من التناير التي هي مكان النار، صارت تغور ماءً. وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف. وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: «التنور: قَلْبُ الصُّبْحِ وتنوير الفجر»، وهو ضياؤه وإشراقه؛ والأول أظهر. وقال مجاهد والشعبي: كان هذا التنور بالكوفة. وعن ابن عباس: عين بالهند. وعن قتادة: عين بالجزيرة، يقال لها: عين الوردة. وهذه أقوال غريبة. فحينئذ أمر الله نوحاً - عليه السلام - أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين - من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات - اثنين، ذكراً وأنثى، فقيل: كان أول من أدخل من الطيور الدرة وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار، فدخل إبليس متعلقاً بذنبه، فدخل بيده، وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه، فجعل يقول له نوح: مالك؟ ويحك! ادخل. فينهض ولا يقدر، فقال: ادخل وإن كان إبليس معك. فدخل في السفينة. وذكر أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد، حتى ألقيت عليه الحمى.

[٣٧٩٨] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث، حدثني الليث، حدثني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لما حمل نوح في السفينة، من كل زوجين اثنين، قال أصحابه: وكيف يطعن أو: تطمنن - المواشي ومعها الأسد؟ فسَلَطَ اللهُ عليه الحمى، فكانت أول حمى نزلت في الأرض، ثم شكوا الفأرة فقالوا: الفؤيسفة تُفَسِدُ علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله إلى الأسد، فَعَطَسَ، فخرجت الهرة منه، فَتَحَبَّتْ الفأرة منها»^(١).

(١) لا تصح نسبه لابن عباس، أخرجه الطبري ١٨١٥١ و ١٨١٥٢ وفيه علي بن زيد ضعيف، روى مناكير كثيرة، وهذا الأثر من الإسرائيليات المنكرة.

(٢) لا أصل له في المرفوع. له ثلاث علل:

الأولى: عبد الله بن صالح، روى مناكير كثيرة، بسبب جار له، كان يدس في كتبه، لذا ضعفه الجمهور.
الثانية: هشام بن سعد هو أبو عباد المدني. قال أحمد: لم يكن بالحافظ، وضعفه النسائي وابن عدي وغيرهما.
الثالثة: هو مرسل، أسلم والد زيد تابعي، والأشبه أنه من الإسرائيليات، فقد أخرجه الطبري ١٨١٥٤ عن يوسف بن مهران، وهو تابعي فذكره، وكرره ١٨١٥٥ و ١٨١٨٦ عن ابن عباس، ومداره على علي بن زيد وهو وإه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي: واحمل فيها أهلك، وهم أهل بيته وقربته، إلا من سبق عليه القول منهم ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه الذي انعزل وحده، وامرأة نوح، وكانت كافرة بالله ورسوله. وقوله: ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾، أي: من قومك، ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أي نَزَرَ يَسِيرٌ مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفساً. وقيل: كانوا عشرة. وقيل: إنما كانوا نوح وبثوه الثلاثة سام وحام ويافت، وكنايته الأربع نساء هولاء الثلاثة وامرأة يام. وقيل: بل امرأة نوح كانت معهم في السفينة، وهذا فيه نظر، بل الظاهر أنها هلكت، لأنها كانت على دين قومها، فأصابها ما أصابهم، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها، والله أعلم وأحكم.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجِّرِبْنَهَا وَمُرْسَهَهَا إِنْ رَّبِّي لَنَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح - عليه السلام - أنه قال للذين أُمِرَ بحملهم معه في السفينة: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجِّرِبْنَهَا وَمُرْسَهَهَا﴾، أي: باسم الله يكون جزئها على وجه الماء، وباسم الله يكون مُنتَهَى سيرها، وهو رُسُومها. وقرأ أبو رجاء العطاردي: «بسم الله مجريها ومرسيها». وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلْ أَتَدْعُو لِلَّهِ الذِّي بَيْنَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ وَقُلْ رَبِّي أُنزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿١٩﴾﴾ [المؤمنون: ٢٨-٢٩]. ولهذا تُسْتَحَبُّ التسمية في ابتداء الأمور، عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَنْزَجَ كُلَّهَا وَحَصَلَ لَكَ مِنَ الْفَالِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٦﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَمُشْكِرِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّا لَآك رَبَّنَا لَمُغْلِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الزخرف: ١٢-١٤]. وجاءت السنة بالحث على ذلك، والندب إليه، كما سيأتي في سورة الزخرف، إن شاء الله، وبه الثقة.

[٣٧٩٩] وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي، حدثنا محمد بن أبي بكر المَقْدَمي - وحدثنا زكريا بن يحيى الساجي، حدثنا محمد بن موسى الحرشي - قال: حدثنا عبد الحميد بن الحسن الهلالي، عن نهشل بن سعيد، عن الضحاك، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أمان امتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا: بسم الله الملك، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا بِقَيْتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿بِسْمِ اللَّهِ نَجِّرِبْنَهَا وَمُرْسَهَهَا إِنْ رَّبِّي لَنَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ رَّبِّي لَنَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكر أنه

(١) واه بكرة، أخرجه الطبراني ١٢٦٦١ والأوسط كما في «المجمع» ١٧١٠٢ بهذا الإسناد. قال الهيثمي: فيه نهشل بن سعي متروك أهد وكذبه إسحق بن راهويه، وله علة ثانية: الضحاك لم يلق ابن عباس. وله شاهد أخرجه أبو يعلى ٦٧٨١ وابن السني في «اليوم والليلة».. من حديث الحسين بن علي، وأعله الهيثمي بجبارة ابن مغلس، وأنه ضعيف، وله علة ثانية: يحيى بن العلاء البجلي متروك وكذبه أحمد. وله علة ثالثة: فيه مروان ابن سالم متروك، وعله رابعة: فيه طلحة بن عبيد الله العقيلي متروك أيضاً.

غفورٌ رحيمٌ، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الاعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِّئَاتِيكَ عَنْ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات التي يقرون فيها بين انتقامه ورحمته. وقوله: ﴿وَهُوَ يَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾، أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طبقت جميع الأرض، حتى طفت على رؤوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً، وقيل: بثمانين ميلاً، وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كتفه وعنايته، وحراسيته وامتنانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَّا طَقَا الْمَاءَ حَمَلَتْنَا فِي الْبَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكُرَةً وَفِيهَا آدَنٌ وَجِئَةٌ﴾ [الحاقة: ١١ - ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا مَاءَهُ فَهَلْ مِنْ مَذْكَرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ١٣ - ١٥]. وقوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ أُمَّتَهُ وَمَا كَانَتْ فِي مَعْرَظٍ يَبْقَىٰ أَرْكَبٌ مَعْنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾، هذا هو الابن الرابع، واسمه يام، وكان كافراً، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يفرق مثل ما يفرق الكافرون، ﴿قَالَ سَتَأْتِيكَ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُكَ مِنَ الْمَاءِ﴾، وقيل: إنه اتخذ له مركباً من زجاج، وهذا من الإسرائيليات، والله أعلم بصحته. والذي نص عليه القرآن أنه قال: ﴿قَالَ سَتَأْتِيكَ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُكَ مِنَ الْمَاءِ﴾، اعتقد بجعله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح - عليه السلام -: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾، أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله. وقيل: إن عاصماً بمعنى معصوم، كما يقال: طاعم وكاس، بمعنى مطعوم ومكسوف، ﴿وَمَا لَكُمْ لِبُيُوتِكُمْ كِتَابٌ مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْأَلُكَ أَهْلُكَ وَمَنْ سَأَلَ فَلْيَسْأَلْهُ وَمَنْ سَأَلَ فَلْيَسْأَلْهُ﴾ [الأنعام: ١٦٥]

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْأَلُكَ أَهْلُكَ وَمَنْ سَأَلَ فَلْيَسْأَلْهُ وَمَنْ سَأَلَ فَلْيَسْأَلْهُ﴾ [الأنعام: ١٦٥]

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْأَلُكَ أَهْلُكَ وَمَنْ سَأَلَ فَلْيَسْأَلْهُ وَمَنْ سَأَلَ فَلْيَسْأَلْهُ﴾ [الأنعام: ١٦٥]

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر، ﴿وَيَغِيضَ الْمَاءَ﴾، أي: شرع في النقص، ﴿وَقَضَىٰ الْأَمْرَ﴾، أي: فرغ من أهل الأرض قاطبة، ممن كفر بالله، لم يبق منهم دينار، ﴿وَأَسْتَوَتْ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَىٰ الْجُودِيِّ﴾، قال مجاهد: هو جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذ من العرق وتطاوت، وتواضع هو الله عز وجل فلم يعرق، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام. وقال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها. قال قتادة: قد أبقى الله سفينة نوح - عليه السلام - على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت، وصارت رماداً.

وقال الضحاک: الجودي: جبل بالموصل. وقال بعضهم: هو الطور. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا محمد بن عبيد، عن توبة بن سالم قال: رأيت زر بن حبيش يصلي في الزاوية حين يدخل من أبواب كندة، على يمينك، فسألته: إنك لكثير الصلاة ها هنا يوم الجمعة. قال: بلغني أن سفينة نوح أرسيت من ها هنا. وقال علباء بن أحمر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً، معهم أهلهم، وإنهم كانوا في السفينة مئة وخمسين يوماً، وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً، ثم وجهها الله إلى الجودي فاستقرت عليه، فبعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الأرض، فذهب فوق على الجيف، فأبطأ عليه، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون، ولطخت رجليها بالطين، فعرف نوح عليه السلام أن الماء قد نضب، فهبط إلى أسفل الجودي، فابتنى قريةً سماها ثمانين، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداهما اللسان العربي. فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض،

وكان نوح عليه السلام يُعَبَّر عنهم. وقال كعب الأحبار: إن السفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تستقر على الجودي. وقال قتادة وغيره: رَكِبُوا في عاشر شهر رجب فساروا مئة وخمسين يوماً، واستقرت بهم على الجودي شهراً، وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم. وقد ورد نحو هذا في حديث مرفوع رواه ابن جرير. وأنهم صاموا يومهم ذلك^(١)، فإله أعلم.

[٣٨٠٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو جعفر، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي، عن أبيه حبيب بن عبد الله، عن شبيب، عن أبي هريرة قال: مرَّ النبي ﷺ بأَناس من اليهود، وقد صاموا يومَ عاشوراء، فقال: «ما هذا من الصوم؟» قالوا: هذا اليوم الذي نجى الله موسى وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي، فصامه نوح وموسى - عليهما السلام - شكراً لله عز وجل. فقال النبي ﷺ: «أنا أحق بموسى، وأحق بصوم هذا اليوم». فصام، وقال لأصحابه: «من كان أصبَحَ منكم صائماً فَلْيَتِمَّ صَوْمَهُ، ومن كان أصابَ من عَداءِ أهله فَلْيَتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ»^(٢). وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وَلْيَبْصُرْ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِ. وقوله: «وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»: أي: هلاكاً وخساراً لهم، وبعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية.

[٣٨٠١] وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير والحبر أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما، من حديث موسى بن يعقوب الزمعي، عن فائد مولى عبيد الله بن أبي رافع، أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره: أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته: أن النبي ﷺ قال: لو رَجِمَ اللهُ من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي، قال رسول الله ﷺ: «كان نوح - عليه السلام - مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، يعني وغرس مئة سنة الشجر، فعظمت ودقبت كلُّ مذهب، ثم قطعها، ثم جعلها سفينة. ويمرُّون عليه ويسخرُّون منه ويقولون: تعمل سفينة في البر، فكيف تجري؟ قال: سوف تعلمون. فلما قرغ ونبغ الماء، وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها الماء خرَّجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ رقبتهما رفعت يديها ففرقا، فلو رَجِمَ اللهُ منهم أحداً لَرَجِمَ أم الصبي»^(٣). وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد روي عن كعب الأحبار، ومجاهد بن جبر قصة هذا الصبي وأمه. بنحو من هذا.

(١) أخرجه الطبري ١٨٢٠٢ عن عبد العزيز بن عبد الغفور عن أبيه مرفوعاً، وهذا مرسل عبد الغفور تابعي ومع إرساله فيه عثمان بن مطر، قال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن حبان: كان ممن يروي الموضوعات عن الأثبات، راجع الميزان ٥٥٦٤ وهذا خبر منكر جداً والأشبه أنه متلف عن أهل الكتاب، ولا أصل له في المرفوع.

(٢) ضعيف، أخرجه أحمد ٣٥٩/٢ - ٣٦٠ من حديث أبي هريرة، قال الهيثمي في «المجمع» ٥١٠٥: فيه حبيب بن عبد الله الأزدي لم يرو عنه غير ابنه أهد، وقال عنه الذهبي في الميزان: مجهول، وعنه ابنه عبد الصمد، قال البخاري وأحمد: لين الحديث، وقال يحيين: ليس به بأس أهد فالخبر وإو لجهالة حبيب الأزدي، وصدوره، أي ذكر نجاته موسى في الصحيح، وتقدم.

(٣) ضعيف جداً، أخرجه الطبري ١٨١٤٨ من حديث عائشة، وإسناده ضعيف، له علتان: إبراهيم بن عبد الرحمن ابن أبي ربيعة، وثقه ابن حبان، وقال ابن القطان: لا يعرف حاله. وفي الإسناد موسى بن يعقوب، وثقه ابن معين، ولينه النسائي، وقال علي المدني: ضعيف منكر الحديث وصححه الحاكم ٣٤٢/٢ وقال الذهبي: إسناده مظلم. ولعل الأشبه كونه عن كعب الأحبار، والله أعلم.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥) قَالَ يَنْتَوِحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّكُمْ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْشَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْثَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾

هذا سؤال استعمال وكشف من نوح عليه السلام، عن حال ولديه الذي غرق، قال: ﴿رَبِّ إِنَّ أَبِي مِنْ أَهْلِي﴾، أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿قَالَ يَنْتَوِحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، أي: الذين وعدت إنجاءهم، لأنني إنما وعدتكم بنجاة من آمن من أهلك. ولهذا قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾، فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لغيره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام. وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئه من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زنية، ويحكى القول بأنه ليس بابنه، وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد، والحسن، وعبيد بن عمير، وأبي جعفر الباقر، وابن جريج. واحتج بعضهم بقوله: ﴿إِنَّكُمْ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، ويقولون: ﴿فَخَاتَمَكُمَا﴾ [التحریم: ١٠]، فمن قاله الحسن البصري، احتج بهاتين الآيتين. وبعضهم يقول: كان ابن امرأته. وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن، أو أراد أنه نُسب إليه مجازاً، لكونه كان ربيباً عنده، فالله أعلم. وقال ابن عباس، وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط - قال: وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، أي: الذين وعدتكم نجاتهم. وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة، ولهذا غضب الله على الذين رَمَوْا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مَنَّكَ لَا تَجْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْعَادِلَ عَظِيمٌ﴾ (١١)، إلى قوله: ﴿إِذْ تَلَقَوْهُ بِالْبَيْتِ الْكَيْدِ وَقَالُوا بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١ - ١٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة وغيره، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية، قال عكرمة: في بعض الحروف: «إنه عمل عملاً غير صالح»، والخيانة تكون على غير باب. وقد ورد في الحديث أن رسول الله قرأ بذلك، فقال الإمام أحمد:

[٣٨٠٢] حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: «إنه عمل غير صالح»، وسمعت يقول: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً، ولا يبالي، إنه هو الغفور الرحيم»^(١).

[٣٨٠٣] وقال أحمد أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا هارون النحوي، عن ثابت البنانى، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة أن رسول الله قرأها «إنه عمل غير صالح»^(٢). أعاده أحمد أيضاً في مسنده. أم سلمة

(١) أخرجه أحمد ٤٥٩/٦ و إسناده ضعيف، شهر بن حوشب لا يمتحج بما ينفرد به. وسيأتي تحريمه في الزمر، عند الآية ٥٣.

(٢) أخرجه أحمد ٢٩٤/٦ و ٣٢٢، وإسناده كسابقه، وقد وهم أحد الرواة حيث ذكر أم سلمة بدل أسماء.

هي أم المؤمنين، والظاهر - والله أعلم - أنها أسماء بنت يزيد^(١)، فإنها تكنى بذلك أيضاً. وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا الثوري وابن عيينة، عن موسى بن أبي عائشة، عن سليمان بن قُتَيْبَةَ قال: سمعت ابن عباس سُئِلَ وهو إلى جنب الكعبة، عن قول الله: ﴿فَخَاتَمَتَاهُمَا﴾، قال: أما وإنه لم يكن بالزنا، ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، وكانت هذه تدلُّ على الأضياف. ثم قرأ: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٌ﴾، قال ابن عيينة: وأخبرني عمار الدُهْنِي أنه سأل سعيد بن جُبَيْر عن ذلك فقال: كان ابن نوح، إن الله لا يكذب! وقال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾، قال: وقال بعض العلماء: ما فَجَرَت امرأة نبي قط. وكذا زُوي عن مجاهد أيضاً، وعكرمة، والضحاك، وميمون بن مهران، وثابت بن الحجاج، وهو اختياز أبي جعفر بن جرير، وهو الصواب الذي لا شك فيه.

﴿قِيلَ يَنْتُوخُ أَهِيْطُ إِسْلَمِيْ مَتَا وَبَرَكَتِيْ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمِرٍ مِّنْ مَّعَكَ وَأُمُّهُم سَمِعَتْهُمْ لَمَّ يَمْسَهُمْ مَتَا عَذَابِ الْآلِمِ﴾

يخبرُ تعالى عما قيل لنوح - عليه السلام - حين أرسيت السفينة على الجودي، من السلام عليه، وعلى من معه من المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة، كما قال محمد بن كعب: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وكذلك في العذاب والمناجاة كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة. وقال محمد بن إسحاق: ولما أراد أن يكف الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض، فسكن الماء، وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر وأبواب السماء، يقول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْ مَاءَكِ﴾... الآية، فجعل الماء ينقص ويغيض ويُدْبِرُ، وكان استواء الفلک على الجودي، فيما يزعم أهل التوراة، في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه، وفي أول يوم من الشهر العاشر رُئي رؤوس الجبال. فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً، فتح نوح كوة الفلک التي ركب فيها، ثم أرسل العُراب لينظر له ما صنع الماء، فلم يرجع إليه، فأرسل الحمامة فرجعت إليه، لم تجد لرجليها موضعاً، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها. ثم مضى سبعة أيام، ثم أرسلها لتنظر له، فرجعت حين أمست، وفي فيها ورَقُ زيتون، فعلم نوح أن الماء قد قلَّ عن وجه الأرض. ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها، فلم ترجع، فعلم نوح أن الأرض قد بَرَزَتْ. فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة، ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين، بَرَزَ وجه الأرض وظَهَرَ الْيَبَسُ، وكشف نوح غطاء الفلک ورأى وجه الأرض، وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين، في سبع وعشرين ليلة منه ﴿قِيلَ يَنْتُوخُ أَهِيْطُ إِسْلَمِيْ مَتَا﴾... الآية.

﴿تِلْكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيْهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيْبَةَ لِلْمُصْبِرِيْنَ﴾

يقولُ تعالى لنبِيِّهِ ﷺ: هذه القصة وأشباؤها ﴿مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ﴾، يعني من أخبار الغيوب السالفة نُوحِيْهَا إليك على وجهها، كأنك شاهدتها، ﴿نُوحِيْهَا إِلَيْكَ﴾، أي: نُعَلِّمُكَ بها وحياً منا إليك، ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾، أي: لم يكن عندك ولا عند أحدٍ من قَوْمِكَ علمٌ بها، حتى يقول من يُكذِّبُك: إنك تعلمتها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان الأمر عليها الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك،

فاصبر على تكذيب من كذبتك من قومك، وأذاهم لك، فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولاتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٥١]... الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُتُبُنَا لِيَأْتِيَنَّكَ الْفِتْنَةُ﴾ [١٧١ - ١٧٢]... الآية، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾
يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِن أَنجَرِي إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا
مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى ﴿عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجره على هذا التصحح والبلاغ من الله، إنما يبغى ثوابه من الله الذي فطره ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجره، ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالثبوت عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره، وحفظ شأنه، ولهذا قال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح: ١١].

[٣٨٠٤] وفي الحديث: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، وزرّقه من حيث لا يحتسب»^(١).

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا أَعْرَابِكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوْرٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِّن دُونِهِ
فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَّبِّي
عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾

يخبر تعالى أنهم قالوا للنبهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾، أي: بحجة وبرهان على ما تدعيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي: بمجرد قولك: اتركوهم، تتركهم، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، بمصدقين، ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا أَعْرَابِكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوْرٍ﴾، يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابتك بجنون وخبل في عقلك بسبب نفيتك عن عبادتها وعيبتك لها، ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِّن دُونِهِ﴾، يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾، أي: أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، أي: طرفه عين. وقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾، أي: تحت قهره وسلطانيه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجوز في حكمه، فإنه على صراط مستقيم. قال الوليد بن مسلم، عن صفوان بن

(١) ضعيف. أخرجه أحمد رقم ٢٢٣٤، وأبو داود ١٥٠٤، والنسائي في عمل اليوم والليلة ٤٥٦، وابن السني ٣٥٨، وابن نصر في قيام الليل ص ٦٥، والطبراني في الكبير ١٠٦٦٥ والحاكم ٢٦٢/٤ وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: الحكم فيه جهالة، وقال الحافظ في «التقريب»: مجهول.

عَمِرُو، عن أَيْقَعِ بْنِ عَبْدِ الْكَلَابِيِّ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِيَاصِيئَةٍ إِنْ رَفِيَ عَنْ صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾، قَالَ: فَيَأْخُذُ بِنَوَاصِي عِبَادِهِ، فَيَلْقَى الْمُؤْمِنَ حَتَّى يَكُونَ لَهُ أَشْفَقٌ مِنَ الْوَالِدِ لَوْلَدِهِ، وَيَقَالُ لِلْكَافِرِ: ﴿مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ﴾ [الانقطاع: ٦]. وَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الْمَقَامَ حُجَّةً بِالْفِعْلِ، وَدَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ، وَيُطْلَقُ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، بَلْ هِيَ جَمَادٌ لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ، وَلَا تُوَالِي وَلَا تُعَادِي، وَإِنَّمَا يَسْتَحِقُّ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ، وَلَهُ التَّصَرُّفُ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا تَحْتَ مُلْكِهِ وَقَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَاسْتَخْلَفْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ جَدِّدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

يَقُولُ لَهُمْ هُودٌ: فَإِنْ تَوَلَّوْا عَمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ رَبِّكُمْ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةُ بِإِبْلَاجِي إِلَيْكُمْ رَسُولَ اللَّهِ الَّتِي بَعَثَنِي بِهَا، ﴿وَاسْتَخْلَفْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ وَلَا يُبَالِي بِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَضُرُّونَهُ بِكُفْرِكُمْ بَلْ يَعُودُ وَيَأْتِي ذَلِكَ عَلَيْكُمْ، ﴿إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾، أَي: شَاهِدٌ وَحَافِظٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ وَأَفْعَالِهِمْ، وَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ. ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، وَهُوَ الرِّيحُ الْعَقِيمُ، فَاهْلَكَهُمُ اللَّهُ عَنْ آخِرِهِمْ، وَنَجَّى هُودًا وَاتَّبَاعَهُ مِنْ عَذَابِ غَلِيظٍ، بِرَحْمَةِ تَعَالَى وَلُطْفِهِ. ﴿وَتِلْكَ آيَاتُ جَدِّدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾، كَفَرُوا بِهَا، وَعَصَوْا رُسُلَ اللَّهِ، وَذَلِكَ أَنَّ مِنْ كَفَرٍ بَنِيٍّ فَقَدْ كَفَرَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ، لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ فِي وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِهِ، فَعَادَ كَفَرُوا يَهُودِيًّا، فَتَنَزَّلَ كَفَرُهُمْ مِنْزِلَةً مِنْ كُفْرِ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ، ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، تَرَكَوا اتِّبَاعَ رُسُولِهِمُ الرَّشِيدِ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. فَهَذَا أَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ مِنَ اللَّهِ وَمَنْ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ كُلَّمَا ذُكِرُوا، وَيُنَادَى عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾... الآية. قَالَ السُّدِّيُّ: مَا بُعِثَ نَبِيٌّ بَعْدَ عَادٍ إِلَّا لُعِنُوا عَلَى لِسَانِهِ.

﴿وَإِلَى نَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ

وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنْ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ﴿نَمُودَ﴾ وَهَمُ الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ مَدَائِنَ الْحِجْرِ بَيْنَ تَبُوكَ وَالْمَدِينَةِ، وَكَانُوا بَعْدَ عَادٍ، فَبِعَثَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾، أَي: ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ مِنْهَا، خَلَقَ مِنْهَا أَبَائَكُمْ أَدَمَ، ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أَي: جَعَلَكُمْ عُمَّارًا تَعْمُرُونَهَا وَتَسْتَغْلِبُونَهَا، ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ لِسَالِفِ ذُنُوبِكُمْ، ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ، ﴿إِنْ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]... الآية.

﴿قَالُوا يَصْلِحْ فَدَكُنْتُ فِيْنَا مَرْجُوعًا قَبْلَ هَذَا أَنَّهُ لَسْنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي سَكِّ مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ

مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ

عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح - عليه السلام - وبين قومه، وما كان عليه قومه من الجهل والعتاد في قولهم: ﴿فَدَكُنْتُ فِينَا مَرْبِيًّا قَبْلَ هَذَا﴾، أي: كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت! ﴿أَتَهْتَأْنَا أَنْ نَمُوتَ مَا يُبَدُّ مَا بَاتُوا﴾، وما كان عليه أسلافنا، ﴿وَأَنَّا لِنَبْلُغُ مِنَّا دَعْوَانَا إِلَيْهِمْ﴾، أي: شك كثير. ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان، ﴿وَأَن تَكْفُرُوا مِنِّي بِرَحْمَةِ رَبِّي إِنْ كُنْتُمْ تَصْخَرُونَ﴾، وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾، أي: حسارة.

﴿وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فِئَاخُذُكَ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدْ غَيْرَ مَكْدُوبٍ﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ أُمَّرًا نَجِيًّا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيًّا﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿كَانَ لَمْ يَنْتَوُوا فِيهَا إِلَّا إِنْ نَعُودُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِإِثْمُودَ﴾ ﴿٦٨﴾

تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته ها هنا، وبالله التوفيق.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا قَالُوا لِمَ لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿وَأَمْرَانَهُ فَأَقْبَمَ فَضْحِكُهَا فَفَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَأُوهُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ﴿٧١﴾ ﴿قَالَتْ يَتْلُونَ ءَالَكَ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ وهم الملائكة، ﴿إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ قيل: نبشره بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط. ويشهد لالأول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجْدِلُ فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ ﴿٧٠﴾. ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا﴾، أي: عليكم. قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيّوه به، لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام. ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾، أي: ذهب سريعاً فاتاهم بالضيافة، وهو عجل: فتي البقر، حنيذ: مشوي على الرضف، وهي الحجارة المحماة. هذا معنى ما روي عن ابن عباس، وقناة، وغير واحد، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَرَأَىٰ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَمَجَأَ بِعِجْلٍ سَبِينٍ﴾ ﴿٦٦﴾ فقرأه إليهم قال ألا تأكلون ﴿٦٧﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧]. وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة. وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ تنكرهم، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾. وذلك أن الملائكة لا همّة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه، فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية، فعند ذلك تكبرهم، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾. قال السدي: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشي في صور رجال شبان، حتى نزلوا على إبراهيم فتصيفوه، فلما رآهم أجلبهم، ﴿فَرَأَىٰ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَمَجَأَ بِعِجْلٍ سَبِينٍ﴾ ﴿٦٦﴾، فذبحه ثم شواه في الرضف، واتاهم به ففقد معهم، وقامت سارة تخدعهم، فذلك حين يقول: ﴿وامراته قائمة وهو جالس﴾ - في قراءة ابن مسعود - ﴿فلما قرب إليه قال ألا تأكلون﴾، قالوا: يا إبراهيم، إنا لا نأكل طعاماً إلا بشمن، قال: فإن لهذا

ثمناً. قالوا: وما ثمته؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمّدونه على آخره. فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حقّ لهذا أن يتخذّه ربه خليلاً. ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ﴾، يقول: فلما رآهم لا يأكلون فرج منهم وأوجس منهم خيفة، فلما نظرت سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تتخذهم ضحكت وقالت: عجبا لأضيافنا هؤلاء، نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم، وهم لا يأكلون طعامنا؟! ١

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا نصر بن علي، عن نوح بن قيس، عن عثمان بن مخصن في ضيف إبراهيم قال: كانوا أربعة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وزقائيل، قال نوح بن قيس: فرعم نوح بن أبي شداد أنهم لما دخلوا على إبراهيم فقرب إليهم العجل مسح جبريل بجناحه، فقام يدرج حتى لحق بأمه، وأم العجل في الدار. وقوله تعالى إخباراً على الملائكة: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾، أي قالوا: لا تخف منا، إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لئلهلكهم. فضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم، لكثرة فسادهم، وغلظ كفرهم وعنادهم، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس. وقال قتادة: ضحكت وعجبت أن قوما يأتيهم العذاب وهم في غفلة. وقوله: ﴿وَمِنَ ذَكَرِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾، قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَضَحِكْتَ﴾ أي: حاضت. وقول محمد بن قيس: إنها إنما ضحكت من أنها ظنّت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط. وقول الكلبي: إنها إنما ضحكت لما رأت من الزرع بإبراهيم - ضعيفان جداً، وإن كان ابن جرير قد رواهما بسنده إليهما، فلا يلتفت إلى ذلك، والله أعلم. وقال وهب بن منبه: إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق. وهذا مخالف لهذا السياق، فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها. ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنَ ذَكَرِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾، أي: يولد لها يكون له ولد وعقب ونسل؛ فإن يعقوب ولد إسحاق كما قال في آية البقرة: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِيُنِّيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ كَرْمٌ مُّسْلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

ومن ها هنا استدل من استدل بهذه الآية، على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وإنه يمتنع أن يكون هو إسحاق، لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده. ووعد الله حق لا خلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل. وهذا من أحسن الاستدلال وأصح وأبين، والله الحمد. ﴿قَالَتْ يَوَاسِيَ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَطْلَىٰ سَيِّئًا﴾. الآية، حكى قولها في هذه الآية، كما حكى فعلها في الآية الأخرى، فإنها ﴿قَالَتْ يَوَاسِيَ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾، وفي الذاريات: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ أَمْرَاتُهُمْ فَبَصَّغَ فِيهَا نَفْسًا وَهِيَ كَرِيمَةٌ﴾، كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب. ﴿قَالُوا أَنْتَجِدَنَّ مِن أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: قالت الملائكة لها: لا تعجبي من أمر الله فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون. فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً ويعلك شيخاً كبيراً فإن الله على ما يشاء قدير. ﴿رَحِمَتْ اللَّهُ بَرَكَتُهُ عَلَيْكَ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾، أي: هو الحميد في جميع أفعاليه وأقواله، محمودٌ ممجّدٌ في صفاته وذاته، ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا:

[٣٨٠٥] قد علّمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال «قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ»^(١).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٣٥٧، ومسلم ٤٠٦، وأبو داود ٩٧٦، والترمذي ٤٨٣، والنسائي ٤٧/٣ وابن ماجه ٩٠٤، والدارمي ١٣١٦، وأحمد ٢٤١/٤، ٢٤٣، والطحاوي ١٠٦١ كلهم من حديث كعب بن عجرة.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَوْهٗ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾
 ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَبْهُم عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

يخبرُ تعالى عن إبراهيم - عليه السلام - أنه لما ذهب عنه الروع، وهو ما أوجس من الملائكة خيفةً، حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد، وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية، قال: لما جاءه جبريلُ ومن معه، قالوا له: ﴿إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [المنكوت: ٣١]، قال لهم: أَتَهْلِكُونَ قريةً فيها ثلاثمئة مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أَتَهْلِكُونَ قريةً فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أَتَهْلِكُونَ قريةً فيها أربعون مؤمنًا؟ قالوا: لا. قال: ثلاثون؟ قالوا: لا. حتى بلغ خمسة قالوا: لا. قال: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم، أتهلكونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم - عليه السلام - عند ذلك: ﴿إِنَّكَ فِيهَا لَوْطٌ﴾ قالوا: نَحْنُ أَطْعَمُ مِنْ فِيهَا لَسَنَجِينَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ [المنكوت: ٣٢]... الآية، فسكت عنهم واطمأنت نفسه. وقال قتادة وغيره قريباً من هذا. زاد ابن إسحاق: أفريتم إن كان فيها مؤمنٌ واحد؟ قالوا: لا. قال: فإن كان فيها لوطٌ يدفع به عنهم العذاب؟ ﴿قَالُوا نَحْنُ أَطْعَمُ مِنْ فِيهَا﴾... الآية. وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَوْهٗ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾، مدح إبراهيم بهذه الصفات الجميلة، وقد تقدّم تفسيرها. وقوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾... الآية، أي: إنه قد نفذ فيهم القضاء، وحقت عليهم الكلمةُ بالهلاكِ وحلولِ البأسِ الذي لا يُرَدُّ عن القومِ المجرمين.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي صَبِيِّنَا ۖ أَلَيْسَ إِنَّكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾

يخبرُ تعالى عن قدوم رُسُلِهِ من الملائكة بعدما أعلموا إبراهيمَ بهلاكهم، وفارَقوه وأخبروه بإهلاكِ الله قوم لوطِ هذه الليلة. فانطلقوا من عنده فاتوا لوطاً - وهو - على ما قيل - في أرض له، وقيل: في منزله، ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكوّن، على هيئة شبان حسان الوجوه، ابتلاءً من الله، وله الحكمة والحيجة البالغة، فسأه شأنهم وضافت نفسه بسببهم، وخشي إن لم يُصَفِّهم أن يُصَفِّفَهُم أحد من قومه، فينالهم بسوء، ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾. قال ابن عباس، وغير واحد: شديد بلاؤة. وذلك أنه عَلِمَ أنه سيُدافع عنهم، ويشقُّ عليه ذلك. وذكر قتادة أنهم أتوه وهو في أرض له، فتصفيقوه فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم وقال لهم في أثناء الطريق، كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه: إنه - والله يا هؤلاء - ما أعلم على وجوه الأرض أهلَ بلدٍ أخبث من هؤلاء! ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم، حتى كثره أربع مرات، قال قتادة: وقد كانوا أُمِرُوا ألا يُهْلِكُوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك.

وقال السدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط، فبلغوا نهر سدوم نصف النهار، ولقوا بنت لوط تستقي، فقالوا: يا جارية، هل من منزل؟ فقالت: مكانكم حتى آتيكم. وفرقت عليهم من قومها، فأتت أباهما فقالت: يا ابتاه، أدركت فتياناً على باب المدينة، ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحهم، وكان قومه نهوه أن يُصَفِّفَ رجلاً، فقالوا: خل عنا فلنُصَفِّفَ الرجال. فجاء بهم، فلم يعلم بهم أحدٌ إلا أهل بيتيه، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، فجاءوا يهرعون إليه. وقوله: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾، أي

يُسْرِعُونَ وَيُهْزَوْنَ مِنْ فَرَحِهِمْ بِذَلِكَ. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَتَمَلَّكُونَ السَّيِّئَاتِ﴾، أي: لم يزل هذا من سجيبتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال. وقوله: ﴿قَالَ يَتَغَوَّرُ هَؤُلَاءُ بِتَانِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، يرشدكم إلى نساءهم، فإن النبي للامة بمنزلة الوالد، فأرشدكم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، كما قال لهم في الآية الأخرى: ﴿آتَاوُنَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ۗ وَذَكَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦]، وقوله في الآية الأخرى: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ ۗ﴾، أي: ألم ننهك عن ضيافة الرجال؟ ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بِتَانِي إِنْ كُنْتُمْ قَائِلِينَ ۗ﴾ [٧١] ﴿لَعَنَّا لَيْ سَكْرَتِهِمْ يَمْمُونُ ۗ﴾ [الحجر: ٧٠ - ٧٢]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿هَؤُلَاءِ بِتَانِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، قال مجاهد: لم يكن بناتي، ولكن كنن من أمته، وكل نبي أبو أمته. وكذا زوي عن قتادة، وغير واحد. وقال ابن جريج: أمرهم أن يتزوجوا النساء، ولم يعرض عليهم سفاحاً. وقال سعيد بن جبير: يعني نساءهم، من بناته، وهو أب لهم، ويقال في بعض القراءات: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم». وكذا زوي عن الربيع بن أنس، وقاتدة، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي صَبِيحَةٍ﴾، أي: اقبلوا ما أمركم به من الاقتصار على نساءكم، ﴿أَلَيْسَ يَتَكَبَّرُ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾، أي: فيه خير، يقبل ما أمره به، ويترك ما أنهاه عنه؟! ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾، أي: إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نستهيبن، ﴿وَأِنَّكَ لَنفَعُهُنَّ مَا نُرِيدُ﴾، أي: ليس لنا عراض إلا في الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأني حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟! قال السدي: ﴿وَأِنَّكَ لَنفَعُهُنَّ مَا نُرِيدُ﴾: إنما نريد الرجال.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ﴾ [٨٥] ﴿قَالُوا يَلْبُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ الْبَلِّ وَلَا يُلْقِفْ مِنْكُمْ أَحَدًا إِلَّا أَمْرًا نَكْرًا إِنَّهُ مُصِيبُهُمَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [٨١]

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط - عليه السلام -: إن لوطاً توعدهم بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ...﴾ الآية، أي: لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي.

[٣٨٠٦] ولهذا ورد في الحديث، من طريق محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله، عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه»^(١). فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه، وأنهم لا وصول لهم إليه، ﴿قَالُوا يَلْبُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، وأمره أن يسري بأهله من آخر الليل، وأن يتبع أديبارهم، أي: يكون ساقية لأهله، ﴿وَلَا يُلْقِفْ مِنْكُمْ أَحَدًا﴾، أي: إذا سمعت ما نزل بهم، ولا تهولتكم تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين. ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكْرًا﴾، قال الأكترون: هو استثناة من المثبت، وهو قوله: ﴿فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ﴾، تقديره: ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكْرًا﴾، وكذلك قرأها ابن مسعود، ونصب هؤلاء امرأتك، لأنه من مثبت، فوجب نصبه عندهم.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٧٥، والترمذي ٣١١٦، وأحمد ٣٢٢/٢، والطبري ١٨٣٩٧ و ١٨٣٩٨، والطحاوي في مشكل الآثار ٣٣٠، وابن حبان ٦٢٠٦ والبخاري في معالم التنزيل ٣٩٥ - ٣٩٦.

وقال آخرون من القراء والثحاة: هو استثناء من قوله: ﴿وَلَا يَلْفُتُمْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا آتَاكُمْ﴾، فجوزوا الرفع والنصب، وذكر هؤلاء أنها خرجت معهم، وأنها لما سمعت الوجبة التفتت وقالت: واقوماه! فجاءها حجر من السماء فقتلها. ثم قُربوا له هلاك قومه تبشيراً له، لأنه قال لهم: أهلكوهم الساعة. فقالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، هذا وقوم لوط وقوف على الباب وعكوف قد جاؤوا يهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يذافعهم ويذرعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعدونه ويتهددونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل - عليه السلام - فضرب وجوههم بجناحه، فطمس أعينهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَودُوهُ عَنْ صَيْبِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرُ ﴿١٧٧﴾﴾ [الفر: ٢٣٧]... الآية. وقال معمر، عن قتادة، عن حذيفة بن اليمان قال: كان إبراهيم - عليه السلام - يأتي قوم لوط، فيقول: أنهاكم الله أن تعرضوا لعقوبتي. فلم يطيعوه، حتى إذا بلغ الكتاب أجله انتهت الملائكة إلى لوط وهو يعمل في أرض له، فدعاهم إلى الضيافة فقالوا: إنا ضيوفك الليلة. وكان الله قد عهد إلى جبريل ألا يعذبهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث شهادات، فلما توجه بهم لوط إلى الضيافة ذكر ما يعمل قومه من الشر، فمشى معهم ساعة، ثم التفت إليهم فقال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض شراً منهم، أين أذهب بكم؟ إلى قومي وهم أشر خلقي الله. فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوها، هذه واحدة. ثم مشى معهم ساعة، فلما توسط القرية وأشفق عليهم واستحيا منهم، قال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أشراً منهم، إن قومي أشر خلقي الله. فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوا، هاتان اثنتان. فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياءً منهم وشفقةً عليهم فقال: إن قومي أشر من خلق الله؟ أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أهل قرية شراً منهم.

فقال جبريل للملائكة: احفظوا، هذه ثلاث، قد حق العذاب، فلما دخلوا ذهب عجزه عجوز السوء فصعدت فلوحت بثوبها، فاتاها الفساق يهرعون سراعاً، قالوا: ما عندك؟ قالت: ضيف لوطاً الليلة قوم، ما رأيت قط أحسن وجوهاً منهم، ولا أطيب ريحاً منهم. فهرعوا يسارعون إلى الباب، فعاجلهم لوط على الباب، فدأقموه طويلاً، هو داخل وهم خارج، يناشدهم الله تعالى ويقول: ﴿هَذِهِ بَنَاتِي هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ﴾، فقام الملك فتر بالباب - يقول: فسده - واستأذن جبريل في عقوبتهم، فأذن الله له، فقام في الصورة التي يكون فيها في السماء، فنشر جناحه - ولجبريل جناحان، وعليه وشاخ من دُر منظوم، وهو بزاق الناي، أعلى الجبين، ورأسه حُبْك حُبْك مثل المَرْجان، وهو اللؤلؤ، كأنه الثلج، ورجلاه إلى الخضرة - فقال يا لوط: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، أبط يا لوط عن الباب ودعني وإياهم، فتنحى لوط عن الباب، فخرج إليهم، فنشر جناحه، فضرب به وجوههم ضربة شدخ أعينهم، فصاروا غمياً لا يعرفون الطريق، ثم أمر لوط فاحتمل بأهله من ليلته، قال: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾. ورؤي عن محمد بن كعب، وقاتدة، والسدي، نحو هذا.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ مَّنْشُورٍ ﴿٨٧﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ

رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس. ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا﴾ وهي سدوم ﴿سَافِلَهَا﴾، كقوله: ﴿فَنَسْنَاهَا مَا عَشْنُ ﴿٨٨﴾﴾ [النجم: ٥٤]، أي: أمطرنا عليها حجارة من سجيل، وهي بالفارسية: حجارة من طين، قاله ابن عباس وغيره. وقال بعضهم: أي من «سَنِك» وهو الحجر، و«كِل»، وهو

الطين، وقد قال في الآية الأخرى: ﴿حِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]، أي: مستحجرة قوية شديدة. وقال بعضهم: مشوية، وقال البخاري: سجيل: الشديذ الكبير، سجيل وسجين، اللام والثون أختان، وقال تميم بن مقبل:

وَرَجَلَةٌ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً ضَرْبًا تَوَاصَّتْ بِهِ الْأَبْطَالُ سِجِينَا

وقوله تعالى: ﴿تَنْشُورٌ﴾، قال بعضهم: منضودة في السماء، أي: معدة لذلك. وقال آخرون: ﴿تَنْشُورٌ﴾، أي: يتبع بعضها بعضاً في نزلها عليهم. وقوله: ﴿سُوءَةٌ﴾، أي مغلّمة مختومة، عليها أسماء أصحابها، كل حَجَرٍ مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه. وقال قتادة وعكرمة: ﴿سُوءَةٌ﴾: مطوّقة، بها نضج من حُمرة. وذكروا أنها نزلت على أهل البلد، وعلى المتفرقين في القرى مما حولها، فبينما أحدهم يكون عند الناس يتحدث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس، فذمره، فتبعهم الحجارة من سائر البلاد، حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد. وقال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوط من سزحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم أكفاهم - وكان حملهم على حوافي جناح الأيمن - قال: ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها. وقال قتادة: بلغنا أن جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى، ثم ألوى بها إلى جو السماء، حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم، ثم دمر بعضها على بعض، ثم اتبع شذاذ القوم صخراً - قال: وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى، في كل قرية مئة ألف - وفي رواية: ثلاث قرى، الكبرى منها سدوم - قال: وبلغنا أن إبراهيم عليه السلام كان يشرف على سدوم، ويقول: سدوم، يوم هالك. وفي رواية عن قتادة وغيره: بلغنا أن جبريل - عليه السلام - لما أصبح نشر جناحه، فانتسّف به أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها، وجميع ما فيها، فقصمها في جناحه، فقواها وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا، حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرض منكوسة، ودّمدم بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل. وقال محمد بن كعب القرظي: كانت قرى قوم لوط خمس قريات: «سدوم»، وهي العظمى، و«صعبه» و«صعوه» و«عثره»، و«دوما»، احتملها جبريل بجناحه، ثم صعد بها، حتى إن أهل السماء ليسمعون نباحه كلابها، وأصوات دجاجها، ثم كفأها على وجهها، ثم أتبعها الله بالحجارة، يقول الله تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ﴾، فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات. وقال السدي: لَمَّا أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين، فحملها حتى بلغ بها السماء، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، وأصوات ديوكهم، ثم قلبها فقتلهم، فذلك قوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ هَوْنٌ ﴿٥٢﴾﴾ [النجم: ٥٢]، ومن لم يمت حين سقط للأرض، أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كان منهم شاداً في الأرض يتبعهم في القرى، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله، فذلك قوله عز وجل ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾، أي: في القرى ﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ﴾، هكذا قال السدي. وقوله: ﴿وَمَا مِنْ أَلْبَابِكُمْ يَبِيدُ﴾، أي: وما هذه النعمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه.

[٣٨٠٧] وقد ورد في الحديث المروي في السنن، عن ابن عباس مرفوعاً: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»^(١). وذهب الإمام الشافعي - في قول عنه - وجماعة من العلماء إلى أن

(١) أخرجه أحمد ١/٣٠٠، وأبو داود ٤٤٦٢، والترمذي ١٤٨٣، وابن ماجه ٢٥٦١، والحاكم ٤/٢٥٥، وصححه، وأقره الذهبي، وأبو نعيم في الحلية ٣/٣٤٣، والخراطي في مساوي الأخلاق ٤٣٥، والآجري في ذم اللواط (٢٥) والبيهقي ٨/

اللائط يُقْتَلُ، سواء كان مُحْصَنًا أو غير مُحْصَنٍ، عملاً بهذا الحديث. وذهب الإمام أبو حنيفة أنه يلقي من شاهقٍ، وَيَتَّبِعُ بِالْحِجَارَةِ، كما فعل الله بقوم لوط، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين، وهم قبيلة من العرب، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، قريباً من بلاد مَعَانَ، في بلد يعرف بهم، يقال لها: مدين، فأرسل الله إليهم شعيباً، وكان من أشرفهم نسباً. ولهذا قال: ﴿أَخَاهُ شُعَيْبًا﴾ بأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وبنهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان، ﴿إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ﴾، أي: في معيشتكم ورزقكم فأخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاكم محارم الله، ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾، أي: في الدار الآخرة.

﴿وَيَقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَمَنَّوْا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٦﴾ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٧﴾﴾

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط أخذين ومعطين، ونهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق. وقوله: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال ابن عباس: رزق الله خير لكم. وقال الحسن: رزق الله خير من بخسكم الناس. وقال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم. وقال مجاهد: طاعة الله، وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الهلاك في العذاب، والبقيّة في الرحمة. وقال أبو جعفر بن جرير: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: من أخذ أموال الناس، قال: وقد روي هذا عن ابن عباس. (قلت): ونسبه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]. قوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾، أي: برقيب ولا حفيظ، أي: افعلوا ذلك لله عز وجل، لا تفعلوه ليرأكم الناس، بل لله عز وجل.

﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾

يقولون له على سبيل التهمك - قبحهم الله - : ﴿أَصْلُكَ﴾، قال الأعمش: أي: قرأتك، ﴿تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، أي: الأوثان والأصنام، ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا﴾، فنترك التطفيف على قولك، وهي أموالنا فنعمل فيها ما نريد. قال الحسن في قوله: ﴿أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾: إني والله، إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم. وقال الثوري في قوله: ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا﴾، يعنون الزكاة. وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾، قال ابن عباس، وميمون بن مهران، وابن

٢٣٢ وابن الجوزي في ذم الهوى ص ١٦٢ من حديث ابن عباس، وفي الدروردي وفيه كلام. وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه الترمذي ١٤٨١ وفي إسناده مقال، وابن ماجه ٢٥٦٢، والحاكم ٣٥٥٤ وقال الذهبي: فيه عبد الرحمن ساقط اهـ. وهو حديث مختلف فيه وتقدم.

جُرَيْج، وابنُ أسلم، وابنُ جرير: يقولون ذلك - أعداء الله - على سبيل الاستهزاء، فَبِحُهم الله ولَعَنهم من رحمته، وقد فَعَلَ.

﴿قَالَ يَنْفُورُ أَرَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْتَوٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

يقول لهم: ﴿أَرَيْتُمْ﴾ يا قوم ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْتَوٍ مِنْ رَبِّي﴾، أي: على بصيرة فيما أَدْعُو إليه، ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، قيل: أراد النبوة، وقيل: أراد الرزق الحلال. ونِحْتِمْ الأَمْرِينَ. وقال الثوري: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَّا مَا أَنْهَيْتُمْ عَنْهُ﴾، أي: لا أنهاكم عن شيء وأخالف أنا في السرِّ فافعله خفية عنكم، كما قال قتادة في قوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَّا مَا أَنْهَيْتُمْ عَنْهُ﴾، يقول: لم أكن لأنهاكم عن أمر وأركبه، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾، أي: فيما أمركم وانهاكم، إنما مرادِي إصلاحكم جهدي وطاقتي، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾، أي: في إصابة الحق فيما أريدُه ﴿إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، أي: أرجع. قاله مجاهد وغيره.

[٣٨٠٨] قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا أبو قزعة سويد بن حُجَير الباهلي، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه: أن أخاه مالكا قال: يا معاوية، إن مُحَمَّدًا أخذ جبراني، فانطلق إليه، فإنه قد كَلَمَكَ وَعَرَفَكَ فانطلقت معه فقال: دَخ لي جبراني، فقد كانوا أسلموا. فأعرض عنه، فقام مُتَمَعِّطًا، فقال: أما والله لئن فعلت إن الناس يزعمون أنك تأمر بالامر وتُخَالِفُ إلى غيره. وجعلت أجره وهو يتكلم، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما تقول؟» فقال: إنك والله لئن فعلت ذلك إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالامر وتُخَالِفُ إلى غيره. قال: فقال: «أزقد قالوها - أو قائلهم - ولئن فعلت ذلك ما ذاك إلا عَلَيَّ، وما عليهم من ذلك من شيء، أرسلوا له جيرانه»^(١).

[٣٨٠٩] وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: أخذ النبي ﷺ ناساً من قومي في تَهْمَةٍ فحبسهم، فجاء رجل من قومي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقال: يا محمد، علام تحبس جبرتي؟ فصمت رسولُ الله ﷺ عنه فقال: إن ناساً ليقولون: إنك تنهى عن الشيء وتُسْتَخْلِي به، فقال النبي ﷺ: «ما يقول؟» قال: فجعلت أعرض بينهما الكلام مخافة أن يسمعها فيدعوا على قومي دَعْوَةً لا يفلحون بعدها أبداً، فلم يَزَلْ رسولُ الله ﷺ به حتى فهمها، فقال: «أو قد قالوها - أو: قائلها منهم، والله لو فعلت لكان علي وما كان عليهم، خلوا له عن جيرانه»^(٢).

[٣٨١٠] ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا سليمان بن بلال، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصاري قال: سمعت أبا حُمَيد وأبا أسيد يقولان: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم،

(١) حسن. أخرجه أحمد ٤/٤٤٧-٤٤٨، وأبو داود ٣٦٣١، والحاكم ٣/٦٤٢، وصححه، وسكت عنه الذهبي، وهو حسن للاختلاف المعروف في حكيم عن أبيه. والإسناد إليه صحيح.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٢/٥١٠-٥١١، وأبو داود ٣٦٣٠، والترمذي ١٤١٧ والنسائي ٦٦/٨. وقال الترمذي: حديث بهز عن أبيه عن جده حديث حسن. وهو كما قال.

وَتَزُونَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ، فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ. وَإِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُوهُ قُلُوبِكُمْ، وَتَنْفِرُونَ مِنْهُ أَشْعَازِكُمْ وَأَبْشَازِكُمْ، وَتَزُونَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ، فَأَنَا أْبَعْدُكُمْ مِنْهُ»^(١). هذا إسنادٌ صحيح.

[٣٨١١] وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ، افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ. وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ»^(٢). ومعناه - والله أعلم - مهما بلغكم عني من خير فانا أولاكم به، ومهما يكن من مكروه فانا أبعدكم منه، «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلَأَكُمْ إِلَّا مَا أَتَاهُكُمْ عَنْهُ». وقال قتادة، عن عذرة، عن الحسن العُزَينِي، عن يحيى بن الجَزَارِ، عن مسروقِ أَنْ امْرَأَةٌ جَاءَتْ ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَتْ: أَتَنْتَهَى عَنِ الْوَاصِلَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَتْ: فَلَعَلَّهُ فِي بَعْضِ نَسَائِكَ؟ فَقَالَ: مَا حَفِظْتُ إِذَا وَصِيَّ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلَأَكُمْ إِلَّا مَا أَتَاهُكُمْ عَنْهُ». وقال عثمان بن أبي شيبة: حدثنا جرير، عن أبي سليمان العُتَيْبِيِّ قَالَ: كَانَتْ تَجِيئُنَا كُتُبُ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِيهَا الْأَمْرُ وَالنَهْيُ، فَيَكْتُبُ فِي آخِرِهَا، وَمَا كَانَتْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: «وَمَا تَوَفِّيَنِي إِلَّا بِاللَّهِ عَالِيَهُ وَكَوَلَّتْ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ».

﴿وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٩) ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (٩٠)

يقول لهم: «وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي»، أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النعمة والعذاب. قال قتادة: «وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي»، يقول: لا يحملنكم فراقِي. وقال السدي: عداوتي، على أن تتعادوا في الضلال والكفر، فيصيبكم من العذاب ما أصابهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، حدثنا ابن أبي غنية، حدثني عبد الملك بن أبي سليمان، عن أبي ليلي الكندي قال: كنت مع مولاي أميسك دابته، وقد أحاط الناس بعثمان بن عفان، إذ أشرف علينا من داره فقال: «وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ»، يا قوم، لا تقتلوني، إنكم إن تقتلوني كنتم هكذا. وشبك بين أصابعه. وقوله: «وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ» قيل: المراد في الزمان، قال قتادة: إنما أهلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل: في المكان، ويحتمل الأمران، «وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ»، أي: استغفروه من سالف الذنوب، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة، «إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ»، أي: لمن تاب وأناب.

﴿قَالُوا يَسْغَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (٩١) ﴿قَالَ يَنْقُورُ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَانحَدَثُوهُ وَرَأَيْكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٩٢)

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٤٩٧/٣ و ٤٢٥/٥، وابن وهب في المسند (٢/٨/١٦٤)، والبخاري ١٨٧ وابن حبان ٦٣، وابن سعد في الطبقات ٣٨٧/٢. وله شاهد مرسل قوي عند البخاري في التاريخ الكبير ٤٧٤/٣. وقال الهيثمي في المجمع ١٤٩/١، ١٥٠: رواه أحمد والبخاري، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٧١٣، وأبو داود ٤٦٥، والنسائي ٥٣/٣ وفي عمل اليوم والليلة ١٧٧، وابن السني ١٥٦ من حديث أبي حميد وأبي أسيد.

يقولون: ﴿يَسْتَعِيبُ مَا نَفَعَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾، أي: ما نفههم ولا نعقل كثيراً من قولك، وفي آذاننا وقراً، ومن بيننا وبينك حجاب، ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِتْنًا صَوِّفًا﴾. قال سعيد بن جبير، والثوري: كان ضرير البصر. قال الثوري: وكان يقال له: حطيب الأنبياء. قال السدي: ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِتْنًا صَوِّفًا﴾ قال: أنت واحد. وقال أبو روق: يعنون ذليلاً، لأن عشيرتك ليسوا على دينك. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي: قومك وعشيرتك؛ لولا معزة قومك علينا ﴿لَرَحِمْنَاكَ﴾، قيل: بالحجارة، وقيل: لسببناك، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾، أي: ليس لك عندنا معزة. ﴿قَالَ يَنْقَرُونَ أَرْطَعُونَ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾، يقول: أتركوني لأجل قومي، ولا تتركوني إعظماً لحجاب الله أن تتألوا نبيه بمساءة. وقد اتخذتم جانب الله ﴿وَرَأَى كَمَ ظَهْرًا﴾، أي: نبذتموه خلفكم، ولا تطيعونه ولا تعظمونه، ﴿إِن رَّبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، أي: هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم بها.

﴿وَيَنْقَرُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْمَلُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَن هُوَ كَذِيبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٌ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَدَتِ كَمَا بَدَتِ نَمُودٌ ﴿٩٥﴾﴾

لما ينس نبي الله شعيب من استجابة قومه له، قال: يا قوم، ﴿أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ﴾، أي: على طريقكم. وهذا تهديد ووعيد شديد، ﴿إِنِّي عَمِلٌ﴾، على طريقتي ومنهجي فسوف ﴿سَوْفَ تَعْمَلُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، أي: في الدار الآخرة، ﴿وَمَن هُوَ كَذِيبٌ﴾، أي: مني ومنكم، ﴿وَارْتَقِبُوا﴾، أي: انتظروا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وهم قومه، ﴿الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٌ﴾، وقوله: ﴿جِثِيمٌ﴾، أي: هامدين لا جراك بهم، وذكرها هنا أنهم انتهت صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظلوة، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، ففي الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِيَنَّكَ يَسْعِيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، ناسب أن يذكر هناك الرجفة فرُجفت بهم الأرض التي ظلّموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وها هنا لما أساؤوا الأدب في مقالاتهم على نبيهم ناسب ذكر الصيحة التي أسكتهم وأخذتهم، وفي الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِفَاةً مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٨٧﴾، قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٨٨﴾، وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة، والله الحمد والمئة كثيراً دائماً. وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾، أي: يعيشوا في دارهم قبل ذلك، ﴿آلَا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَدَتِ نَمُودٌ﴾، وكانوا جيرانهم، قريباً منهم في الدار، وشبيهاً بهم في الكفر وقطع الطريق، وكانوا عرباً شبيهاً بهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلٰٓئِكَهٖ قٰتَبُوْا اٰمْرًا فِرْعَوْنَ وَمَا اٰمْرٌ فِرْعَوْنَ بِرَشِيْدٍ ﴿٩٧﴾ يَاقُوْمُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ اٰوْرَدْنٰهُمُ النَّارَ وَيَسْ اَلْوَرْدُ الْمَوْرُوْدُ ﴿٩٨﴾ وَاتَّبِعُوْا فِي هٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَسْ اَلْرِفْدُ الْمَرْفُوْدُ ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن إرساله موسى - عليه السلام - بآياته وبيّناته وحججه ودلائله الباهرة الفاطحة إلى فرعون - لعنه الله - وهو ملك ديار مصر على أمة القبط، ﴿قَاتَبُوا أَمْرًا فِرْعَوْنَ﴾، أي: مسلّكه ومنهجه وطريقته

في الغي والضلال، ﴿وَمَا أَمْرُهُمْ فِعْوَةٌ بِرَشِيدٍ﴾، أي: ليس فيه رُشدٌ ولا هُدًى، وإنما هو جهلٌ وضلالٌ، وكفرٌ وعنادٌ، وكما أنهم اتَّبَعُوهُ في الدنيا وكان مُقَدِّمَهُمْ وَرِيسَهُمْ، كذلك هو يُقَدِّمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ، فَأُورِدَهُمْ إِيَّاهَا، وَشَرِبُوا مِنْ حِيَاضِ رِذَاهَا، وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْحِطُّ الْأَوْفَرُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ فِرْعَوْنُ الَّذِي كَفَرَ فَأَخَذْنَاهُ كَأَنزَالِ الْوَقْرِ ﴿١٦٦﴾﴾ [المزمل: ١٦٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَتَغَبَّى ﴿٢٢﴾﴾ [النازعات: ٢١-٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٢٦﴾﴾، وَكَذَلِكَ شَأْنُ الْمَتَّبِعِينَ يَكُونُونَ مَوْفُورِينَ فِي الْعَذَابِ يَوْمَ الْمَعَادِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنَّ لَا فَهْلُونَ﴾ [الأعراف: ٢٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْكُفْرَةِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي النَّارِ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَمَلْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَهُنَا فَاصْتَلَوْا فَاسْتَبَدَّ السَّيِّئَاتُ ﴿٢٧﴾﴾ رَبَّنَا عَاتِبْنَهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَيْبَرًا ﴿٢٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

[٣٨١٢] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الْجَهْمِ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ أَبِي سَلَمَةَ، عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمْرُ الْقَيْسِ حَامِلُ لُؤَاءِ شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى النَّارِ»^(١). وَقَوْلُهُ: «وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَّبِعُونَ الرَّفْدَ الْمَرْفُودَ»، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: زِيدُوا لَعْنَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَتَلَّكَ لَعْنَتَانِ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «يَتَّبِعُونَ الرَّفْدَ الْمَرْفُودَ»، قَالَ: لَعْنَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ، وَهَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَعَلَنَّهُمْ آيَةً يُكَفِّرُونَ إِلَيْكَ الشُّكْرَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ الْمَقْبُورِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٤١-٤٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا تَأْتِيكَ بِرِضْوَانٍ عَالِيًا عُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ نَقَّضَهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٧٠﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ عِزًّا تَنْبِيْءٍ ﴿١٧١﴾﴾

لَمَا ذَكَرَ تَعَالَى خَبَرَ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَا جَزَى لَهُمْ مَعَ أَمَمِهِمْ، وَكَيْفَ أَهْلَكَ الْكَافِرِينَ وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ﴾، أَي: مِنْ أَخْبَارِهَا «نَقَّضَهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ»، أَي: عَامِرٌ، «وَحَصِيدٌ»، أَي: هَالِكٌ دَائِرٌ، «وَمَا ظَلَمْتَهُمْ»، أَي: إِذْ أَهْلَكْتَهُمْ، «وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ»، أَي: بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَنَا وَكُفْرِهِمْ بِهِمْ، «فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ»، أَي: أَصْنَانُهُمْ وَأَوْثَانُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا وَيَدْعُونَهَا، «مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ»، أَي: مَا نَفَعُوهُمْ وَلَا أَنْقَذُوهُمْ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ بِأَهْلَاكِهِمْ، «وَمَا زَادُهُمْ عِزًّا تَنْبِيْءٍ». قَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُهُمَا: أَي: غَيْرَ تَخْسِيرٍ. وَذَلِكَ أَنَّ سَبَبَ هَلَاكِهِمْ وَدَمَارِهِمْ إِنَّمَا كَانَ بِاتِّبَاعِهِمْ تِلْكَ الْأَلْهَةَ وَعِبَادَتِهِمْ إِيَّاهَا، فَبِهَذَا أَصَابَهُمْ، وَخَسِرُوا بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ٧١٢٧ «بِتَرْقِيمِ شَاكِرٍ»، وَابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي «الْعُلَلِ» ٢٠٠ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: لَا يَصِحُّ. قَالَ أَحْمَدُ: أَبُو الْجَهْمِ مَجْهُولٌ، وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ: وَاهِي الْحَدِيثِ، وَقَالَ ابْنُ حِبَانَ: يَرُوي عَنِ الزُّهْرِيِّ مَا لَيْسَ فِي حَدِيثِهِ أَهْلٌ، وَأَمَّا الْهَيْشَمِيُّ، فَقَالَ فِي «الْمَجْمَعِ» ١٣٢٩٩: أَبُو الْجَهْمِ لَا أَعْرِفُهُ، وَبِقِيَّةِ رِجَالِهِ نَفَاتٌ أَهْلٌ قُلْتُ: أَبُو الْجَهْمِ عَرَفَهُ غَيْرَ وَاحِدٍ، وَضَعْفُوهُ كَمَا تَقَدَّمَ. وَوَرَدَ مِنْ وَجْهِ آخَرَ أَخْرَجَهُ الْخَطِيبُ ٣٧٠/٩ وَابْنُ الْجَوْزِيِّ ٢٠١ وَأَعْلَهُ بِأَبِي هِنَانَ، وَقَالَ: لَا يَعْمَلُ عَلَيْهِ أَهْلٌ وَذَكَرَهُ الذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ ١٠٦٩٦ فَقَالَ: حَدَّثَ عَنِ الْأَصْمَعِيِّ بِخَبَرٍ مُنْكَرٍ. وَوَرَدَ مِنْ وَجْهِ آخَرَ أَخْرَجَهُ ابْنُ حِبَانَ فِي «الْمَجْرُوحِينَ» ٣٠٣/٢ وَفِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ ضَوْءِ بْنِ صَلْصَالٍ عَنِ أَبِيهِ عَنِ جَدِّهِ، وَهُوَ يَرُوي مُتَاكِرًا عَنِ أَبِيهِ أَهْلٌ، فَالْخَبَرُ غَيْرُ قَوِيٍّ كَمَا تَرَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَكَذَلِكَ أَخَذُوا لِرَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرؤسنا كذلك نفعل بنظائرهم وأشباههم وأمثالهم، ﴿إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

[٣٨١٣] وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذُوا لِرَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ (١).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾

يقول تعالى: إن في إهلاكنا الكافرين، ونصرة الأنبياء، وإنجائنا المؤمنين، ﴿لَآيَةً﴾، أي: عظة واعتباراً على صدق موعدونا في الدار الآخرة، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿١٠٣﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلَهُمْ لِيَكُنُّنَ الْظَالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾، أي: أولهم وآخرهم، فلا يبقى منهم أحد، كما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]. ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾، أي: يوم عظيم تحضره الملائكة كلهم، ويجتمع فيه الرسل جميعهم، وتُحشَرُ فيه الخلائق بأسرهم، من الإنس والجن والطيور والحوش والدواب، ويحكم فيهم العادل الذي ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً زِدْنَا لَهَا﴾ [النساء: ٤٠]. وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴿١٠٤﴾﴾، أي: ما نؤخر إقامة يوم القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله وقضاه وقدره في وجود أناس معدودين من ذرية آدم، وضرب مدة معينة، إذا انقضت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم من ذرية آدم، أقام الله الساعة، ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾، أي: لمدة مؤقتة لا يزداد عليها ولا ينقص منها، ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، يقول: يوم يأتي هذا اليوم وهو يوم القيامة، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُوذِيَ لَّهُ الرِّجْسُ وَقَالَ سَوَاءًا﴾ [النبا: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُ الْأَمْمَاتَ لِلرِّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

[٣٨١٤] وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ» (٢). وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، أي: فمن أهل الجحيم شقي ومنهم سعيد، كما قال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي النَّعِيمِ﴾ [الشورى: ٧].

[٣٨١٥] وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا موسى بن حيّان، حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا سليمان بن سفيان، حدثنا عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، عن عمر - رضي الله عنه - قال: لما نزلت ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، سألت النبي ﷺ قلت: يا رسول الله، علام تعمل؟ على شيء قد فرغ منه، أم على

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٨٦، ومسلم ٢٥٨٣، والترمذي ٣١٠٩، وابن ماجه ٤٠١٨، وابن حبان ٥١٧٥، والبيهقي ٩٤/٦.

(٢) هو بعض حديث أخرجه البخاري ٧٥١٠، ومسلم ١٩٣ح ٣٢٦، وابن ماجه ٤٣١٢، وأحد ١١٦/٣ و ٢٤٤ و ٢٤٧ و ٢٤٨ من حديث أنس بن مالك في الشفاعة.

شيء لم يُفْرغ منه؟ فقال: «على شيء قد فُرغ منه يا عَمْرُ وَجَزَتْ به الأَقْلَامُ، ولكن كلُّ مُيسَّرٍ لما خُلِقَ له»^(١). ثم بيَّن تعالى حال الأشقياء وحال السعداء، فقال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا سَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿لَمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾، قال ابن عباس: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر. أي: تتنفسهم زفيراً، وأخذهم النفس شهيقاً، لما هم فيه من العذاب، عياداً بالله من ذلك. ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، قال الإمام أبو جعفر بن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: هذا دائم دوام السموات والأرض، وكذلك يقولون: هو باقٍ ما اختلف الليل والنهار، وما سمر ابنا سَمِيرٍ وما لآلات العفر بأذناها. يعنون بذلك كله: «أبداً»، فخطبهم جَلُّ ثناؤه بما يتعارفونه بينهم، فقال: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾. (قلت): ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض الجنس، لأنه لا بُدَّ في عالم الآخرة من سموات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَرْضَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، ولهذا قال الحسن البصري في قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، قال: تبذل سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، قال: لكل جنة سماء وأرض. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما دامت الأرض أرضاً، والسماء سماء. وقوله: ﴿إِلَّا مَا سَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾، كقوله تعالى: ﴿النَّارُ مَثُونٌ لَكُمْ خَلِيلِينَ فِيهَا إِلَّا مَا سَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء، على أقوال كثيرة، حكاها الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه «زاد المسير»، وغيره عن علماء التفسير، ونقل كثيراً منها الإمام أبو جعفر بن جرير - رحمه الله - في كتابه، واختار هو ما نقله عن خالد بن معدان، والضحاك، وقتادة، وأبي سنان، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً: أن الاستثناء عائد على القصة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعته الشافعين، من الملائكة والنبيين والمؤمنين، حين يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيراً قط، وقال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله. كما وزدت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس، وجابر، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وغيرهم من الصحابة، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها. وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسيره هذه الآية الكريمة. وقد روي في تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمرو،

(١) حديث قوي بشواهد. إسناده ضعيف لضعف سليمان بن سفيان، لكن توبع، ولم أجده بهذا الإسناد في المطبوع من مسند أبي يعلى ولعله في مسنده الكبير الذي لم يطبع، ولكن أخرجه أبو يعلى ٥٤٦٣ حدثنا أبو خيثمة، حدثنا حبان بن هلال، حدثنا شعبة قال: عاصم بن عبيد الله أخبرني قال سمعت سألماً يحدث عن ابن عمر أن عمر... الحديث. وهذا إسناد ضعيف لضعف عاصم بن عبيد الله بن عاصم بن عمر بن الخطاب وأخرجه الطيالسي (٦٢) من طريق شعبة بهذا الإسناد. وأخرجه أحمد ٥٢/٢، والترمذي ٢١٣٦ من طريق عبد الرحمن بن مهدي. وأخرجه أحمد ٧٧/٢ من طريق عفان كلاهما عن شعبة به وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. قلت: وله شاهد من حديث علي عند أبي يعلى برقم ٣٧٥ ومن حديث جابر عنده أيضاً ٢٠٥٤ و ٢١١٠، وفي الباب أحاديث.

وجابر، وأبي سعيد، من الصحابة. وعن أبي مجلز، والشعبي، وغيرهما من التابعين، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وإسحاق بن راهويه وغيرهما من الأئمة - أقوال غريبة^(١)، وورد حديث غريب في معجم الطبراني الكبير، عن أبي أمامة صدي بن عجلان الباهلي، ولكن سنده ضعيف، والله أعلم. وقال قتادة: الله أعلم بشيئه. وقال السدي: هي منسوخة بقوله: ﴿خَلِيدٍ فِيهَا أَبَدًا﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ

مَجْدُوزٌ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا﴾، وهم أتباع الرسل، ﴿فِي الْجَنَّةِ﴾، أي: فمأواهم الجنة، ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين مقيمين فيها أبداً، ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، معنى الاستثناء ها هنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم، ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم، ولهذا يلهمون التسيب والتحميد كما يلهمون النفس. وقال الضحاك، والحسن البصري: هي في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار، ثم أخرجوا منها. وعقب ذلك بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾، أي غير مقطوع. قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية وغير واحد، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاعاً، أو لبساً، أو شيئاً، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع، كما بين هنا أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته، وأنه بعدله وحكمته عذبهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ قَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾، كما قال: ﴿لَا يَسْتَلُ عَنَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾^(٢)، وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾.

[٣٨١٦] وقد جاء في الصحيحين: «يؤتى بالموت في صورة كئيب مملح فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت»^(٣).

[٣٨١٧] وفي الصحيحين أيضاً: «يقال: يا أهل الجنة، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهزموا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تباؤوا أبداً»^(٤).

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنُوفٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي سَكِّينَةٍ مِنْهُ مِرْيَبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ كَلَّا لَمَّا يُؤْفِقُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ المشركون إنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزئهم الله على

(١) ذكر السيوطي في «الدر المنثور» ٣/ ٦٣٥ هذه الأقوال عن عمر، وأبي هريرة، وابن عمرو بن العاص وغيرهم «أنه يأتي على جهنم زمان تخفق أبوابها»، لكن في صحة الأسانيد عنهم نظر، وأما المرفوع عن أبي أمامة، فلم يذكره السيوطي في الدر، وهو في تخريج الكشاف ٢/ ٤٣١، والله أعلم، وهذا القول مرجوح، والجمهور على خلود أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٣٠ ومسلم ٢٨٤٩ والترمذي ٣١٥٦ من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) صحيح. أخرجه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري: مسلم ٢٨٣٧ والترمذي ٣٢٤٦ وأحمد ٣١٩/٢ و٣٨/٣ و٩٥ والدارمي ٣٣٤/٢.

ذلك أتم الجزاء فَيُعَذَّبُ كَافِرَهُمْ عَذَابًا لَا يُعَذَّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وإن كان لهم حسنات فقد وَقَّاهم الله إِيَّاهَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ. قال سفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَأِنَّا لَمَوْفُوهُمُ نَصِيبُهُمْ عَذَابَ مَنْقُوصٍ﴾، قال: ما وعدوا فيه من خير أو شر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص. ثم ذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه، فمن مؤمن به ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة، فلا يَغِيظُكَ تَكْذِيبُهُمْ لَكَ، وَلَا يَهْدِيكَ ذَلِكَ. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، قال ابن جرير: لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لَقَضَىٰ اللهُ بَيْنَهُمْ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ بِالْكَلِمَةِ أَنَّهُ لَا يُعَذَّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَإِسَالَةِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ فإنه قد قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزِمَانًا وَاجِلًا مِّنْهُنَّ﴾ [١١٦] ﴿فَأَصْبِرْ عَلَيْهَا مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٢٩ - ١٣٠]. ثم أخبر أن الكافرين في شك مما جاءهم به الرسول قوي، فقال: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ لَئِن شَكَ مِنْهُ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾. ثم أخبرنا تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم، ويجزيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فقال: ﴿وَإِنَّ كَلِمَاتِنَا لَيُؤْتِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَقْسَمًا لَّا يَكْفُرُ بِهَا يَوْمَ يَعْلَمُونَ خَيْرٌ﴾ [١١٧]، أي: عليم بأعمالهم جميعها، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها. وفي هذه الآية قراءات كثيرة، ويرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [١١٧] [يس: ٣٢].

﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْعَمُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [١١٨] ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَنَسِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [١١٩]

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالتباعد والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصير على الأعداء ومخالفة الأضداد. ونهى عن الطغيان، وهو البغي، فإنه مضرعة حتى ولو كان على مشرك، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء.

وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لا تذهبنوا. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو الركوب إلى الشرك. وقال أبو العالية: لا تزصوا أعمالهم. وقال ابن جريج، عن ابن عباس: لا تميلوا إلى الذين ظلموا. وهذا القول حسن، أي: لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا قد رضيتم بباقي ضنيعهم، ﴿فَمَنَسِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، أي: ليس لكم من دونه من ولي يقصدكم، ولا ناصر يخلصكم من عذابه.

﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾ [١٢٠] ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٢١]

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾، قال: يعني الصبح والمغرب؛ وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال الحسن - في رواية - وقاتدة، والضحاك، وغيرهم: هي الصبح والعصر. وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار، والظهر والعصر من آخره. وكذا قال محمد بن كعب القرظي، والضحاك في رواية عنه. وقوله ﴿وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغيرهم: يعني صلاة العشاء.

[٣٨١٨] وقال الحسن - في رواية ابن المبارك، عن مبارك بن فضالة، عنه: ﴿وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ﴾، يعني

المغرب والعشاء، قال رسول الله ﷺ: «هما زُلْفَتَا الليل: المغرب والعشاء»^(١). وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب وقتادة، والضحاك: إنها صلاة المغرب والعشاء. وقد يَحْتَمِلُ أن تكون هذه الآية نزلت قبل فَرَضِ الصَّلَوَاتِ الخمس ليلة الإسراء؛ فإنه إنما كان يَجِبُ من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها. وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نُسخَ في حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نُسخَ عنه أيضاً في قول، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَحْسَنَ يَذْهَبِنَ السَّيِّئَاتِ﴾، يقول: إن فعل الخيرات يُكفِّر الذنوب السالفة.

[٣٨١٩] كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدثني عنه أحد استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يُذنب ذنباً قَتَوْضاً ويصلي ركعتين، إلا عُفِرَ له»^(٢).

[٣٨٢٠] وفي الصحيحين، عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان: أنه تَوَضَّأَ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال: هكذا رأيت رسول الله يتوضأ، وقال: «مَنْ تَوَضَّأَ نحو وضوئي هذا، ثم صَلَّى ركعتين لا يُحدِّثَ فيهما نفسه، عُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبيه»^(٣).

[٣٨٢١] وروى الإمام أحمد، وأبو جعفر بن جرير، من حديث أبي عقيل زُهْرَةَ بن مَعْبِدٍ: أنه سمع الحارث مولى عثمان يقول: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا عثمان بماء في إناء أظنه سيكون فيه قدرٌ مُدُّ فتوضأ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا، ثم قال: «مَنْ تَوَضَّأَ وضوئي هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر، عُفِرَ له ما كان بينه وبين صلاة الصبح، ثم صَلَّى العصر عُفِرَ له ما بينه وبين صلاة الظهر، ثم صَلَّى المغرب عُفِرَ له ما بينه وبين صلاة الصبح، ثم صَلَّى العشاء عُفِرَ له ما بينه وبين صلاة المغرب، ثم لَعَلَّهُ يبيت يَتَمَرَّغُ ليلته، ثم إن قام قَتَوْضاً وصلى الصبح عُفِرَ له ما بينها وبين صلاة العشاء، وهُنَّ الحسنات يذَّهبن السيئات»^(٤).

[٣٨٢٢] وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أرايتم لو أن بباب أحدكم نهراً غَمراً يَغْتَسِلُ فيه كل يوم خمس مرات، هل يُبقي من دَرَنِهِ شيئاً؟» قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «وكذلك الصلوات الخمس، يمحو الله بهنَّ الذنوب والخطايا»^(٥).

(١) ضعيف جداً، أخرجه الطبري ١٨٦٤٨ وهذا مرسل، ومراسيل الحسن واهية، والخبر منكر.

(٢) حسن. أخرجه أحمد رقم (٢) و (٤٧) و (٤٨) و (٥٦)، والحيمدي (٤)، وابن أبي شيبة ٣٨٧/٢، وابن ماجه ١٣٩٥، والنسائي في عمل اليوم والليلة ٤١٥. وإسناده حسن.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ١٥٩ و ١٦٤ و ١٩٣٤، و ٦٤٣٣، ومسلم ٢٢٦ وأبو داود ١٠٦، والنسائي ٦٤/١، ٦٥، والدارمي ٦٩٧، وابن ماجه ٢٨٥، والدارقطني ٨٣/١.

(٤) حسن. أخرجه أحمد رقم ٥١٣، والبخاري (٤٠٥)، والطبري ١٢/١٣٢ من حديث عثمان بن عفان وأورده الهيثمي في المجمع ٢٩٧/١، وقال: في الصحيح بعضه، رواه أحمد، وأبو يعلى، والبخاري ورجاله رجال الصحيح غير الحارث بن عبد الله (كذا قال: وصوابه ابن عبد، ويغلب على الظن أنه خطأ من الناسخ) مولى عثمان بن عفان وهو ثقة. قلت: وصححه العلامة أحمد شاعر في تعليقه على السنن، والصواب أنه حسن لأجل الحارث مولى عثمان والله أعلم.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٨ ومسلم ٦٦٧، والترمذي ٢٨٦٨، والنسائي ٢٣٠/١ - ٢٣١، والدارمي ٢٦٨/١، وأحمد ٣٧٩/٢، وأبو عوانة ٢٠/٢، وابن حبان ١٧٢٦.

[٣٨٢٣] وقال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو الطاهر وهارون بن سعيد قالا: حدثنا ابن وهب، عن أبي صخر: أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حدثه، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر»^(١).

[٣٨٢٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا الحکم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمَضَم بن زُرْعَةَ، عن شريح بن عبيد، أن أبا رُهم السُّعْمِيّ كان يحدث: أن أبا أيوب الأنصاريّ حدثه أن النبي ﷺ كان يقول: «إِنَّ كُلَّ صَلَاةٍ تَحُطُّ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ خَطِيئَةٍ»^(٢).

[٣٨٢٥] وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا مُحَمَّد بن عوف، حدثنا مُحَمَّد بن إسماعيل، حدثنا أبي، عن ضَمَضَم بن زُرْعَةَ، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعريّ قال: قال رسول الله ﷺ: «جُعِلَتِ الصَّلَاةُ كَفَّارَاتٍ لِمَا بَيْنَهُنَّ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿إِنَّ الْمَسْتَنَتِ يَدَهِنَّ السَّيِّئَاتِ﴾»^(٣).

[٣٨٢٦] وقال البخاريّ: حدثنا قُتَيْبَةُ بن سعيد، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، عن سليمان التيميّ، عن أبي عثمان النهديّ، عن ابن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿وَأَقْبِرِ السَّلْوََةَ طَرْفِي النَّهَارِ وَرُكْلًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْمَسْتَنَتِ يَدَهِنَّ السَّيِّئَاتِ﴾، فقال الرجل: ألي هذا يا رسول الله؟ قال: «لجميع أمّتي كلهم»^(٤). هكذا رَوَاهُ في كتاب الصلاة، وأخرجه في التفسير عن مُسَدِّدٍ، عن يزيد بن زُرَيْع، بنحوه. ورواه مُسَلِّمٌ، وأحمد، وأهل السنن إلا أبا داود، من طَرُقٍ، عن أبي عثمان النهديّ، واسمه عبد الرحمن بن مُلٍّ، به.

[٣٨٢٧] ورواه الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود والترمذيّ، والنسائي، وابن جرير - وهذا لفظه - من طَرُقٍ، عن سِمَاك بن حرب: أنه سمع إبراهيم بن يزيد يحدث عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني وجدت امرأة في بستان، ففعلت بها كل شيء، غير أنني لم أجامعها، قبلتها ولزمتها، ولم أفعل غير ذلك، فافعل بي ما شئت. فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً، فذهب الرجل، فقال عمر: لقد ستر الله عليه، لو ستر على نفسه! فأتبعه رسول الله ﷺ بصره ثم قال: «رُدُّوه عليّ». فَرُدُّوه عليه، فقرأ عليه: ﴿وَأَقْبِرِ السَّلْوََةَ طَرْفِي النَّهَارِ وَرُكْلًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْمَسْتَنَتِ يَدَهِنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾. فقال معاذ - وفي رواية عمر -: يا رسول الله، أله وحده، أم للناس كافة؟ فقال: «بل للناس كافة»^(٥).

[٣٨٢٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مَرَّة الهمداني، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٣٣، والترمذي ٢١٤، وابن ماجه ١٠٨٦، وأحد ٢٢٩/٢ و ٣٥٩ و ٤٠٠ و ٤١٤ وأبو عوانة ٢٠/٢، والطبري ٢٤٧٠، وابن حبان ١٧٣٣.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٤١٣/٥ والطبري في الكبير ١٢٦/٤ رقم ٣٨٧٩، وفي مسند الشاميين ١٦٣٨، وقال الهيثمي في المجمع ٢٩٨/١: إسناده حسن، وكذا حسنه المنذري في الترهيب ٣١٤/١.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان ١٨٦٧٨ وإسناده ضعيف لأجل عمد بن إسماعيل، وهو ابن عياش.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٦ و ٤٦٨٧ ومسلم ٢٧٦٣ والترمذي ٣١١٤ والنسائي في «التفسير» ٢٦٧ وابن ماجه ٤٢٥٤.

(٥) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٦٣ ح ٤٢، وأبو داود ٤٤٦٨، والترمذي ٣١١٢، والطبري ٢٨٥، وأحد رقم ٤٢٥٠ و ٤٢٩٠ و ٣٦٥٣، والطبري ١٨٦٨٨ و ١٨٦٨٢ وابن حبان ١٧٢٨ و ١٧٣٠.

بينكم أرزاقكم، وإن الله يُعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يُعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يُسلم عبدٌ حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه». قال: قلنا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: «عِشُّهُ وَطَلَمُهُ، ولا يكسب عبد مالا حراماً فيَنفِقَ منه فيُبَارِكَ له فيه، ولا يتصدَّقَ فيَقْبَلَ منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئة بالسيئة، ولكنه يمحو السيئة بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»^(١).

[٣٨٢٩] وقال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: كان فلان بن مُعْتَب رجلًا من الأنصار، فقال: يا رسول الله دخلت علي امرأة فيلثت منها ما ينال الرجل من أهله، إلا أنني لم أجامعها. فلم يذر رسول الله ﷺ ما يُجيبه، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَأَوْرِ الثَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ إِنْ أَحْسَنْتَ يُدْهِبَنَّ كَسْبَاتِكَ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكْرِيِّتِ﴾. فدعاه رسول الله، فقرأها عليه^(٢). وعن ابن عباس: أنه عمرو بن غزوة الأنصاري الثمار، وقال مقاتل: هو أبو نُفَيْل عامر بن قيس الأنصاري، وذكر الخطيب البغدادي أنه أبو اليسر: كَعْبُ بن عمرو.

[٣٨٣٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس وعفان قالا: حدثنا حماد - يعني ابن سلمة - عن علي بن زيد - قال عفان: أنبأنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس: أن رجلاً أتى عمر قال: امرأة جاءت تباعه، فأدخلتها الدؤلج، فأصبت منها ما دون الجماع، فقال: ويحك! لعلها مُغَيَّبَةٌ في سبيل الله؟ قال: أجل. قال: فأتيت أبا بكر فأسأله. قال: فسأله فقال: لعلها مُغَيَّبَةٌ في سبيل الله؟ فقال مثل قول عمر، ثم أتى النبي ﷺ فقال له مثل ذلك، قال: «فلعلها مُغَيَّبَةٌ في سبيل الله». ونزل القرآن: ﴿وَأَوْرِ الثَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ إِنْ أَحْسَنْتَ يُدْهِبَنَّ كَسْبَاتِكَ﴾... إلى آخر الآية، فقال: يا رسول الله، ألي خاصة أم للناس عامة؟ فضرب - يعني عمر - صدره بيده وقال: لا، ولا نعمة عين، بل للناس عامة. فقال رسول الله ﷺ: «صدَّقَ عمر»^(٣).

[٣٨٣١] ورَوَى الإمام أبو جعفر بن جرير من حديث قيس بن الربيع، عن عثمان بن موهب، عن موسى بن طلحة عن أبي اليسر كعب بن عمرو الأنصاري قال: أتتني امرأة تبتاع مني بديهم تمرًا، فقلت: إن في البيت تمرًا أطيّب وأجود من هذا. فدخلت، فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت عمر فسألته، فقال: أتتني الله واستر على نفسك، ولا تخبرن أحداً. قال: فلم أصبر حتى أتيت أبا بكر فسألته، قال: أتتني الله، واستر على نفسك، ولا تخبرن أحداً. قال: فلم أصبر حتى أتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «أخلفت رجلاً غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟» حتى ظننت أنني من أهل النار، حتى تمنيت أنني أسلمت ساعةً. فأتيت رسول الله ﷺ ساعةً فنزل جبريل، فقال: أين أبو اليسر؟ فجيئت، فقرأ علي رسول الله: ﴿وَأَوْرِ الثَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ﴾ إلى ﴿ذِكْرٌ لِلذَّكْرِيِّتِ﴾، فقال إنسان: يا رسول الله، أله خاصة أم للناس عامة؟ قال: «للناس عامة»^(٤).

(١) ضعيف. أخرجه أحمد رقم ٣٦٧٢ من حديث عبد الله بن مسعود، وقال الهيثمي في المجمع ٥٣/١: رواه أحمد، ورجال إسناده بعضهم مستور وأكثرهم ثقات. قلت: فيه الصباح بن محمد وهو واه.

(٢) مرسل. أخرجه الطبري ١٨٦٨٨ وهذا مرسل، لكن يتأيد بشواهد.

(٣) أخرجه أحمد ٢٢٠٧ والطبراني ٢٩٣١ من حديث ابن عباس، وإسناده ضعيف لأجل علي بن زيد، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٠٧٨: علي بن زيد سمي الحفظ ثقة أهد قلت: جزم الحافظ في «التقريب» بضعف علي بن زيد، ثم إن الحديث منكر بهذا اللفظ، وتقدم بالفاظ محفوظة متقاربة، والله أعلم.

(٤) حسن. أخرجه الترمذي ٣١١٥، والنسائي ٢٦٨ والطبري ١٨٦٩٧ و ١٨٦٩٨. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره هـ. قلت: تابعه شريك عند النسائي فالحديث حسن، ويتأيد بما بعده.

[٣٨٣٢] وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطني: حدثنا الحسين بن إسماعيل المحاملي، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا جرير، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل: أنه كان قاعداً عند النبي ﷺ. فجاءه رجلٌ فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له، فلم يدع شيئاً يُصيبه الرجل من امرأته إلا قد أصاب منها، غير أنه لم يُجامعها؟ فقال له النبي ﷺ: «توضاً وضوءاً حسناً، ثم قم فصل»، قال: فأنزل الله - عز وجل - هذه الآية، يعني قوله: «وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ»، فقال معاذ: أهى له خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: «بل للمسلمين عامة»^(١). ورواه ابن جرير من طرق، عن عبد الملك بن عمير، به.

[٣٨٣٣] وقال عبد الرزاق: أخبرنا محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن يحيى بن جعدة: أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ذكر امرأة وهو جالس مع رسول الله ﷺ فاستأذنه لحاجة، فأذن له، فذهب يطلبها فلم يجدها، فأقبل الرجل يريد أن يبشر النبي ﷺ بالمطر، فوجد المرأة جالسة على غدير، فدفق في صدرها وجلس بين رجليها، فصار ذكره مثل الهذبة، فقام نادماً حتى أتى النبي ﷺ فأخبره بما صنع، فقل له: «استغفر ربك، وصل أربع ركعات». قال: وتلا عليه: «وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ» الآية^(٢).

[٣٨٣٤] وقال ابن جرير: حدثني عبد الله بن أحمد بن شيبويه، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثني عمرو بن الحارث، حدثني عبد الله بن سالم، عن الزبيدي، عن سليم بن عامر: أنه سمع أبا أمامة يقول: إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أقم في حد الله - مرة أو اثنتين - فأعرض عنه رسول الله ﷺ ثم أقيمت الصلاة، فلما فرغ النبي ﷺ من الصلاة قال: «أين هذا الرجل القائل: أقم في حد الله؟» قال: أنا ذا. قال: «هل أتمت الوضوء وصليت معنا آنفاً؟» قال: نعم. قال: «فإنك من خطيتك كما ولدتك أمك، ولا تعد». وأنزل الله على رسول الله ﷺ: «وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْرِكُنَّ السَّيِّئَاتِ»^(٣).

[٣٨٣٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا علي بن زيد، عن أبي عثمان قال: كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرة، فأخذ منها غصناً يابساً فهزه حتى تحاث ورقه، ثم قال: يا أبا عثمان، ألا تسألني: لم أفعل هذا؟ فقلت: لم تفعله؟ قال: هكذا فعل بي رسول الله ﷺ وأنا معه تحت شجرة، فأخذ منها غصناً يابساً فهزه حتى تحاث ورقه، فقال: يا سلمان، ألا تسألني: لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟ فقال: «إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس، تحاثت خطاياها كما يتحاث هذا الورق». وقال: «وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْرِكُنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ»^(٤).

(١) أخرجه الترمذي ٣١١٣، والدارقطني ١٣٤/١، والطبري ١٨٦٩٥ من حديث معاذ بن جبل. قال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بمتصل عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ، ومعاذ بن جبل مات في خلافة عمر، وقتل عمر وعبد الرحمن بن أبي ليلى غلام صغير ابن ست سنين اهـ. لكن يتأيد بما بعده.

(٢) مرسل. أخرجه الطبري ١٨٦٩٦ من طريق عبد الرزاق بهذا الإسناد. وهو مرسل، لكن يتأيد بشواهد.

(٣) أخرجه الطبري ١٨٦٩٤ وإسناده ضعيف لضعف إسحاق بن إبراهيم الحمصي، ولفظ «فإنك من خطيتك كما ولدتك أمك» ضعيف، ولباقي الحديث شواهد.

(٤) أخرجه أحمد ٤٣٧/٥ - ٤٣٨ والطبراني ٦١٥١ من حديث سلمان، قال الهيثمي في «المجمع» ١٦٥١: فيه علي بن زيد يختلف فيه، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ وأصله شواهد، وهو بهذا الإسناد ضعيف.

[٣٨٣٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ - رضي الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال له: «يا معاذ، أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن»^(١).

[٣٨٣٧] وقال الإمام أحمد - رضي الله عنه - : حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن حبيب، عن ميمون بن أبي شبيب، عن أبي ذر: أن رسول الله ﷺ قال: «أتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن»^(٢).

[٣٨٣٨] وقال أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شمر بن عطية، عن أشياخه، عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، أوصني. قال: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها». قال: قلت يا رسول الله، أمِن الحسنات: لا إله إلا الله؟ قال: «هي أفضل الحسنات»^(٣).

[٣٨٣٩] وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا هذيل بن إبراهيم الجُماني، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الزُهري، من ولد سعد بن أبي وقاص، عن الزُهري؛ عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عبدٌ: لا إله إلا الله في ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ، إلا طَلَسَتْ ما في الصُّحُفِ من السيئات، حتى تسكنَ إلى مثْلِها من الحسنات»^(٤). عثمان بن عبد الرحمن يقال له: الواقصي، فيه ضعف.

[٣٨٤٠] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا بشر بن آدم وزيد بن أوزم قالوا: حدثنا الضحاك بن مخلد، حدثنا مسطور بن عباد، عن ثابت، عن أنس: أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما تركت من حاجةٍ ولا داجةٍ فقال رسول الله ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟» قال: بلى. قال: «فإن هذا يأتي على ذلك»^(٥). تفرّد به من هذا الوجه مستور.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

يقول تعالى: فهلاً ووجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير يتهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غيرِهِ، وفجأة بقيهِ، ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من

(١) أخرجه أحمد ٢٢٨/٥ وإسناده ضعيف، ميمون فيه ضعف، ولم يسمع من معاذ.

(٢) أخرجه أحمد ١٥٢/٥ و١٧٧ و الترمذي ١٩٨٧، والدارمي ٢٧٩١ والحاكم ٥٤/١ من حديث أبي ذر، قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، والصواب أنه حسن إن كان ميمون سمعه من أبي ذر. وانظر صحيح الترمذي ١٦١٨.

(٣) أخرجه أحمد ١٦٠/٥ من حديث أبي ذر، قال الهيثمي في «المجمع» ١٦٧٩٧: رجاله ثقات إلا أن شمر بن عطية حدث به عن أشياخه، ولم يسم أحداً منهم، ولشطره الأول شواهد منها المتقدم، والوهن في عجزه فقط، والله أعلم.

(٤) ضعيف أخرجه أبو يعلى ٣٦١١ من حديث أنس، وفي إسناده عثمان بن عبد الرحمن الزُهري أعله الهيثمي في «المجمع» ١٦٨٠٣ به، وقال: متروك.

(٥) إسناده صحيح على شرط مسلم.

يأمرُ بالمعروفِ وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

[٣٨٤١] وفي الحديث: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعْصِمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ»^(١). ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَأَتَّبِعِ الْكُوفِرَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا فِيهِ﴾، أي: استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجاهم العذاب، ﴿وَكَانُوا يُجْرِمُونَ﴾. ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة، ولم يأت قرية مصلحة بأشء وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [١٧٨] ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَوَعَّتْ كَلِمَةَ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [١٧٩]

يخبرُ تعالى أنه قادرٌ على جعله الناس كلهم أمة واحدة، من إيمان أو كفران، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَّنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جِمْعًا﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [١٧٨] ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾، أي: ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات بليلهم وينحلهم ومداهبهم وآرائهم. قال عكرمة: ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ في الهدى. وقال الحسن البصري: ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ في الرزق يسخر بعضهم بعضاً. والمشهور الصحيح الأول. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾، أي: المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين. أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي ﷺ الأمي خاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه، ونصروه ووازره، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية.

[٣٨٤٢] كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسُنن، من طُرُقٍ يُشَدُّ بعضها بعضاً: «إِنَّ الْيَهُودَ افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»^(٢). رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة. وقال عطاء: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، يعني اليهود والنصارى والمجوس، ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾، يعني الحنيفية. وقال قتادة: أهل رحمة الله أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم. وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال الحسن البصري - في رواية عنه -: وللأختلاف خلقهم، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: خلقهم فريقين، كقوليه: ﴿فِيْمَنْهُمْ شِقْوٌ وَسَعِيدٌ﴾. وقيل: للرحمة خلقهم، قال ابن وهب: أخبرني مسلم بن خالد، عن ابن أبي نجيج، عن طاووس: أن رجلين اختصما إليه فأكثر، فقال طاووس: اختلفتما فأكثرتما! فقال أحد الرجلين: لذلك خلقنا. فقال طاووس: كذبت. فقال: أليس الله يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [١٧٨] ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: لم يخلقهم ليختلفوا، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة. كما قال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم، ولم يخلقهم للعذاب. وكذا قال مجاهد

(١) تقدم في سورة المائدة.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٣٣٢/٢، وأبو داود ٤٥٩٦، والترمذي ٢٦٤٠، وابن ماجه ٣٩٩١، وأبو يعلى ٥٩١٠ و ٥٩٧٨ و ٦١١٧ وابن حبان ٦٢٤٧ و ٦٧٣١ والحاكم ١٢٨/١ من حديث أبي هريرة. وله شواهد كثيرة، وتقدمت.

والضحك وقتاده. ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) [الذاريات: ٥٦]. وقيل: بل المراد: وللرحمة والاختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصري - في رواية عنه - في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُخْلِقُونَ﴾ (١٧٧) إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: الناس مختلفون على أديان شتى، ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾، فمن رجم ربك غير مختلف. قيل له: فلذلك خلقهم؟ فقال: خلق هؤلاء لجنته، وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لرحمته، وخلق هؤلاء لعذابه. وكذا قال عطاء بن أبي رباح، والأعمش. وقال ابن وهب: سألت مالكا عن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُخْلِقُونَ﴾ (١٧٧) إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: فريق في الجنة وفريق في السعير. وقد اختار هذا القول ابن جرير، وأبو عبيدة والفراء. وعن مالك فيما روينا عنه في التفسير: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: للرحمة، وقال قوم: للاختلاف. وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَنَّ لَكُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِثْرَ حَبِّ الْعِلْقَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره، لعلمه التام وحكمته النافذة، أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة.

[٣٨٤٣] وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفة الناس وسقطهم؟ وقالت النار: أو ثرت بالمتكبرين والمتجبرين. فقال الله - عز وجل - للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء. وقال للنار: أنت عذابي، أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع عليها رب العزة قدمه، فتقول: قُطِّعَتْ، وعزتك»^(١).

﴿وَكَلَّا قُضِيَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثِيتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى

لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٧)

يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أمهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله جزبه المؤمنين وحذل أعداء الكافرين، كل هذا مما نُثِيتُ به فؤادك - يا محمد - أي: قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة. وقوله: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾، أي: هذه السورة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وجماعة من السلف: وعن الحسن - في رواية عنه - وقتادة: في هذه الدنيا. والصحيح: في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين، جاءك فيها قصص حق، ونبا صادق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٤٩ و ٤٨٥٠ ومسلم ٢٨٤٦ ح ٣٥ و ٣٦، والترمذي ٢٥٦١ وعبد الرزاق ٢٠٨٩٣ و ٢٠٨٩٤ وأحمد ٣١٤/٢ و ٢٧٩ و ٥٠٧ من طرق عن أبي هريرة. قال البيهقي في «شرح السنة» ٢٥٧/١٥: والقدم والرجلان، كما جاء في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما، من صفات الله سبحانه وتعالى، المنزه عن التكيف والتشبيه، وكذلك كل ما جاء من هذا القبيل في الكتاب، أو السنة، كالكبد، والإصبع، والعين، والمجيء، والإتيان، فالإيمان بها فرض، والامتناع عن الخوض فيها واجب، فالهتدي من سلك فيها سبيل التسليم، والخاص فيها زائغ، والمنكر معطل، والكتيف مشبه، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْغَايِبِينَ﴾ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ سبحانه ربنا رب العزة عما يصفون.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

يقول تعالى أمراً رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربّه على وجه التهديد: ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ ، أي: على طريقتمكم ومنهجكم، ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ ، أي: على طريقتنا ومنهجنا، ﴿وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ ، أي: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَنقَبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وقد أنجز الله لرسوله وعده، ونصره وأيده، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.

﴿وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا

تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب وسيوفي كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر. فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه؛ فإنه كافٍ من توكل عليه وأتاب إليه. وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ، أي: ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة، وسينصركم وجزئك عليهم في الدارين. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب، عن جعفر بن سليمان، عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله بن زبّاح، عن كعب قال: خاتمة التوراة خاتمة هود.

* * *

تم تفسير سورة هود عليه السلام، والله الحمد والمنة



[٣٨٤٤] رَوَى الثُّعْلُبِيُّ وَغَيْرُهُ، مِنْ طَرِيقِ سَلَامٍ - وَيُقَالُ: سُلَيْمٌ - الْمَدَائِنِيُّ، وَهُوَ مَتْرُوكٌ، عَنْ هَارُونَ بْنِ كَثِيرٍ - وَقَدْ نَصَّ عَلَى جَهَالَتِهِ أَبُو حَاتِمٍ - عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ، عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلِمُوا أَرْقَاءَ كُمْ سُورَةَ يُوسُفَ، فَإِنَّهُ أَيْمَانُ مُسْلِمٍ تَلَاهَا، أَوْ عَلَّمَهَا أَهْلَهُ، أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ، هَوْنٌ لِلَّهِ عَلَيْهِ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الْقُوَّةِ الْيُحْسُدُ مُسْلِمًا»^(١). وَهَذَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ لَا يَصِحُّ، لِضَعْفِ إِسْنَادِهِ بِالْكَلْبِيِّ. وَقَدْ سَأَقَهُ الْحَافِظُ ابْنَ عَسَاكِرٍ مُتَابِعًا، مِنْ طَرِيقِ الْقَاسِمِ بْنِ الْحَكَمِ، عَنْ هَارُونَ بْنِ كَثِيرٍ، بِهِ، وَمِنْ طَرِيقِ شُبَابَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ النَّضْرِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدِ بْنِ جُدْعَانَ - وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي مَيْمُونَةَ، عَنْ زُرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَ نَحْوَهُ. وَهُوَ مِنْكَرٌ مِنْ سَائِرِ طَرَفِهِ.

[٣٨٤٥] وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ أَنَّ طَائِفَةً مِنَ الْيَهُودِ حِينَ سَمِعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتْلُو هَذِهِ السُّورَةَ اسْلَمُوا، لِمُؤَافَقَتِهَا مَا عِنْدَهُمْ^(٢). وَهُوَ مِنْ رِوَايَةِ الْكَلْبِيِّ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِيَةَ ﴿٣﴾﴾

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾، أَي: هَذِهِ آيَاتُ الْكِتَابِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، ﴿الْمُبِينِ﴾، أَي: الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ، الَّذِي يُفْصِحُ عَنِ الْأَشْيَاءِ الْمُبْهَمَةِ وَيُقَسِّرُهَا وَيُبَيِّنُهَا. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾، وَذَلِكَ لِأَنَّ لُغَةَ الْعَرَبِ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ وَأَبْيَنُهَا وَأَوْسَعُهَا، وَأَكْثَرُهَا تَأْدِيَةً لِلْمَعَانِي الَّتِي تَقُومُ بِالنَّفُوسِ، فَلِهَذَا أُنزِلَ أَشْرَفُ الْكُتُبِ بِأَشْرَفِ اللُّغَاتِ عَلَى أَشْرَفِ الرُّسُلِ، بِسِفَارَةِ أَشْرَفِ الْمَلَائِكَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَشْرَفِ بَقَاعِ الْأَرْضِ، وَابْتَدِءَ أَنْزَالُهُ فِي أَشْرَفِ شَهْرِ السَّنَةِ وَهُوَ رَمَضَانٌ، فَكُمُلْ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾، أَي: بِسَبَبِ إِحْيَائِنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ.

(١) باطل. أخرجه الواحدي ٥٩٩/٢، جاء في الميزان ٩١٦٩: هارون بن كثير عن زيد بن أسلم مجهول، وزيد عن أبيه، نكرة، ثم ذكر له حديثاً آخر، وقال: قال أبو حاتم: هذا باطل. وفيه سلام بن سليم متروك متهم. وراجع تعليق المصنف رحمه الله.

(٢) باطل، أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٢٧٦/٦ مطولاً من حديث ابن عباس، وإسناده ساقط، فيه محمد بن مروان، وهو السدي الصغير متروك. والكلبي محمد بن السائب متروك متهم، وأبو صالح ضعيف.

[٣٨٤٦] وقد وَرَدَ في سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن جرير: حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي، حدثنا حَكَّام الرازي، عن أيوب، عن عمرو - هو ابن قيس المَلَّائِي - عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله، لو قَصَصْتَ علينا؟ فنزلت: ﴿تَحْنُ نَفْسُ عَلِيكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^(١). ورواه من وجه آخر، عن عمرو بن قيس مرسلًا.

[٣٨٤٧] وقال أيضاً: حدثنا محمد بن سعيد العطار، حدثنا عمرو بن محمد، أنبأنا خَلَادُ الصَّفَّار، عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مُرَّة، عن مِصْعَبِ بن سعد، عن سعد قال: أنزل على النبي ﷺ القرآن، قال: فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو قَصَصْتَ علينا، فأنزل الله عز وجل: ﴿الرَّيَّةُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، إلى قوله: ﴿لَمَلَكُمْ تَقْوَلُوكُمْ﴾، ثم تلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو حَدَّثْتَنَا. فأنزل الله عز وجل: ﴿اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ لِحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] ^(٢)... الآية، وذكر الحديث ورواه الحاكم من حديث إسحاق بن زاهويه، عن عمرو بن محمد القُرشي العنقري، به.

[٣٨٤٨] وَرَوَى ابن جرير بسنده، عن المَسْعُودِي، عن عَوْنِ بن عبد الله قال: مَلَّ أصحاب رسول الله ﷺ مَلَّةً، فقالوا: يا رسول الله، حدثنا فأنزل الله: ﴿اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ لِحَدِيثِ﴾، ثم مَلَّوا مَلَّةً أُخْرَى فقالوا: يا رسول الله، حدثنا فوق الحديث ودون القرآن. يعنون القصص، فأنزل الله: ﴿الرَّيَّةُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ يَا عَرَبِيَّاءَ لَمَلَكُمْ تَقْوَلُوكُمْ﴾^(٣) تَحْنُ نَفْسُ عَلِيكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَرْحَمْنَا بِكَ هَذَا الْفَرْءَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَكِنَّ الْغَفْلَةَ^(٤)، فأرادوا الحديث، فدلهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص^(٥). ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن، وأنه كافٍ عن كل ما سواه من الكتب: ما قال الإمام أحمد:

[٣٨٤٩] حدثنا سُرَيْجُ بن النعمان، أخبرنا هُثَيْم، أنبأنا مُجَالِد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله: أن عُمَرَ بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ فَعَضِبَ وقال: «أمتهم وكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جنتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه، أو باطل فتصدقونه. والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً لما وسَّعَه إلا أن يتبعني»^(٤).

[٣٨٥٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن جابر، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عُمَرَ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي من قُرَيْظَةَ، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما يوجب رسول الله ﷺ؟ فقال عُمَرَ: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً. قال: فسُرِّي عن النبي ﷺ وقال: «والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين»^(٥).

(١) أخرجه الطبري ١٨٧٨٦، وهو منقطع، عمرو بن قيس لم يذكر ابن عباس، وكرره الطبري ١٨٧٨٧ مرسلًا، وهو أصح، وانظر ما بعده.

(٢) الحديث أخرجه الطبري ١٥٠/١٢ والواحدي ٥٤٤ والحاكم ٣٤٥/٢ وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه الطبري ١٨٧٨٨ وهذا مرسل، لكن يصلح شاهداً لما قبله، والله أعلم.

(٤) في إسناده مجالد بن سعيد ضعيف الحديث، وتقدم الكلام على هذا الحديث في سورة آل عمران آية ٨٢.

(٥) إسناده ضعيف لضعف جابر، وهو ابن يزيد الجعفي، وتقدم.

[٣٨٥١] قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير، حدثنا علي بن مسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن خليفة بن قيس، عن خالد بن عرفة قال: قال: كنت جالساً عند عمر إذ أتني برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس، فقال له عمر: أنت فلان بن فلان العبدي؟ قال: نعم. قال: وأنت النازل بالسوس، قال: نعم. فضربه بقناة معه، قال: فقال الرجل: مالي يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس. فجلس، فقرأ عليه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ مَن نَّقُصُّ عَلَيْكَ ﴿٣﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَيْنَ الْتِفْلِيزِ﴾، فقرأها ثلاثاً، وضربه ثلاثاً، فقال له الرجل: مالي يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذي نسخت كتاب دانيال! قال: مرني بأمرك أتبعه. قال: انطلق فامحه بالحميم والصفوف الأبيض، ثم لا تقرأه ولا تقرأه أحداً من الناس. فأتين بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأتبهك عُقوبة. ثم قال له: اجلس، فجلس بين يديه، فقال: انطلقت أنا فانسخت كتاباً من أهل الكتاب، ثم جئت به في أديم، فقال لي رسول الله ﷺ: ما هذا في يدك يا عمر؟ قال: قلت يا رسول الله، كتاب نسخته لنزداد به علماً إلى علمنا. فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه، ثم نودي بالصلاة جامعة، فقالت الأنصار: أغضب نبيكم ﷺ؟ السُّلَّاحُ السُّلَّاحُ. فجاؤوا حتى أخذوا بمنبر رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، إنني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لي اختصاراً، ولقد أتيتكم بها ببيضاء نوية فلا تهوكوا ولا يغرزنكم المتهوكون»^(١). قال عمر: فممت فقلت: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبك رسولاً. ثم نزل رسول الله ﷺ^(٢). وقد رواه ابن أبي حاتم في تفسيره مختصراً، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، به. وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وعبد الرحمن بن إسحاق هو أبو شيبَةَ الواسطي، وقد ضعفوه وشيخه. قال البخاري: لا يصح حديثه. (قلت): وقد روي له شاهد من وجه آخر:

[٣٨٥٢] فقال الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: أخبرني الحسن بن سفيان، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي، حدثني عمرو بن الحارث، حدثنا عبد الله بن سالم الأشعري، عن الزبيدي، حدثنا سليم بن عامر: أن جُبَيْرَ بن نَعْرِيرٍ حَدَّثَهُمْ: أَنَّ رَجُلَيْنِ كَانَا بِحَمْصٍ فِي خِلاَفَةِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَأَرْسَلُ إِلَيْهِمَا فِيمَنْ أَرْسَلَ مِنْ أَهْلِ حَمْصٍ، وَكَانَا قَدْ اِكْتَبَا مِنَ الْيَهُودِ مِلَّةً صَغِيَةً فَأَخَذَاهَا مَعَهُمَا يَسْتَفْتِيَانِ فِيهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَقُولُونَ: إِنْ رَضِيَاهَا لَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَزِدُنَا فِيهَا رَغْبَةً. وَإِنْ نَهَانَا عَنْهَا رَفَضْنَاهَا. فَلَمَّا قَدِمَا عَلَيْهِ قَالَا: إِنَّا بَارِضُ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَإِنَّا نَسْمَعُ مِنْهُمْ كَلَاماً تَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُنَا، أَفَنَأْخُذُ مِنْهُ أَوْ نَتْرُكُ؟ فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ كَتَبْتُمَا مِنْهُ شَيْئاً. قَالَا: لَا. قَالَ: سَأَحْذَرُكُمَا، انْطَلَقْتُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَيْتُ حَبِيرَ، فَوَجَدْتُ يَهُودِيًّا يَقُولُ قَوْلًا أَعْجِبَنِي، فَقُلْتُ: هَلْ أَنْتَ مُكْتَبِي مَا تَقُولُ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَأَتَيْتُ بِأَدِيمٍ، فَأَخَذَ يَمْلِي عَلَيَّ، حَتَّى كَتَبْتُ فِي الْأَكْرُجِ. فَلَمَّا رَجَعْتُ قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَأَخْبَرْتُهُ. قَالَ: «إِثْنِي بِهِ». فَانْطَلَقْتُ أَرْغَبُ عَنِ الْمَشِيِّ رَجَاءً أَنْ أَكُونَ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِيَعُضٍ مَا يُحِبُّ؛ فَلَمَّا أَتَيْتُ بِهِ قَالَ: «اجْلِسْ أَقْرَأْ عَلَيَّ». فَقَرَأْتُ سَاعَةً، ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى وَجْهِهِ فَإِذَا هُوَ يَتَلَوَّنُ، فَتَحِيرْتُ مِنَ الْفَرْقِ، فَمَا اسْتَطَعْتُ أَجِيزُ مِنْهُ حَرْفًا، فَلَمَّا رَأَى الَّذِي بِي دَفَعَهُ، ثُمَّ جَعَلَ يَتَّبِعُهُ رَسْمًا رَسْمًا فِيمُخَوِّهِ بَرِيْقَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: «لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ هَوَّكُوا وَتَهَوَّكُوا». حَتَّى مَحَا آخِرَهُ حَرْفًا حَرْفًا. قَالَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ

(١) التهوك: التحير. والتهوك: التهور والوقوع في الشيء بغير مبالاة.

(٢) ضعيف بهذا السياق، فيه عبد الرحمن بن إسحاق، قال الذهبي في «الميزان» ٤٨١٢: ضعفوه. قال أحمد: ليس بشيء، منكر الحديث، وقال يحيى: متروك. وذكر الذهبي هذا الحديث في ترجمة ٢٥٦٢ ونقل عن البخاري قوله: لم يصح حديثه.

كتبنا منه شيئاً جعلتكما نكالا لهذه الأمة! قالوا: والله ما نكتب منه شيئاً أبداً. فخرجنا بصفتيهما فحفرنا لها فلم يألوا أن يُعَمِّقَا، وَدَفَنَاهَا فَكَانَ آخِرَ الْعَهْدِ مِنْهَا^(١). وكذا روى الثوري، عن جابر بن يزيد الجعفي، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت الأنصاري، عن عمر بن الخطاب، بنحوه. وروى أبو داود في المراسيل، من حديث أبي قلابة، عن عمر، بنحوه، والله أعلم.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى: اذكر لقومك - يا محمد - في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، كما قال الإمام أحمد:

[٣٨٥٣] حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم^(٢)». انفرد بإخراجه البخاري، فزواه عن عبد الله بن محمد، عن عبد الصمد، به.

[٣٨٥٤] وقال البخاري أيضاً: حدثنا محمد، أخبرنا عبدة عن عبيد الله، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فمن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»^(٣). ثم قال: تابعه أبو أسامة، عن عبيد الله.

وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي. وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام: أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلاً، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه. زوي هذا عن ابن عباس، والضحاك، وقتادة، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش، وهو سريزه، وإخوته بين يديه «وَحَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا». وقد جاء في حديث تسمية هذه الأحد عشر كوكباً.

[٣٨٥٥] فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني علي بن سعيد الكندي، حدثنا الحكم بن ظهير، عن السدي، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر قال: أتى النبي ﷺ رجل من يهود يقال له: بستانة اليهودي، فقال له: يا محمد، أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له، ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبي ﷺ ساعة فلم يُجِبْه بشيء، ونزل عليه جبريل - عليه السلام - فأخبره بأسمائها. قال: فبعث رسول الله ﷺ إليه فقال: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟» قال: نعم. قال: «جُرْتَان، والطارق، والذئال، وذو الكنفات، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفليق، والمصبح، والضروح، وذو الفرغ، والضياء، والنور»، فقال اليهودي: إني والله، إنها لأسماؤها^(٤). ورواه البيهقي في الدلائل، من حديث سعيد بن

(١) إسناده ضعيف لضعف إسحق بن إبراهيم، لكن لأصله شواهد تقدم بعضها ويتأيد بمرسلي أبي قلابة الآتي.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٩٠ و ٤٦٨٨، وأحمد ٩٦/٢، والبخاري في شرح السنة ٣٥٤٧.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٥٣ و ٣٣٧٤ و ٣٣٨٣ و ٣٣٧٨ و ٢٥٢٦ و أحمد ٢٥٧/٢ والطبرسي ٧١، والحميدي ١٠٤٥، وابن حبان ٩٢ و ٦٣٦.

(٤) موضوع. أخرجه البزار ٢٢٢٠ والطبري ١٨٧٩٢ والبيهقي في «الدلائل» ٢٧٧/٦ والعقيلي ٣١٦/٢٥٩ وابن حبان في

منصور، عن الحكم بن ظهير. وقد رَوَى هذا الحديث الحافظان أبو يعلى الموصلي وأبو بكر البزار في مسنديهما، وابنُ أبي حاتم في تفسيره، أما أبو يعلى فرواه عن أربعة من شيوخه عن الحكم بن ظهير به وزاد: قال رسولُ الله ﷺ: «لما رآها يوسف قَصَّها على أبيه يعقوبَ، فقال له أبوه: هذا أمرٌ مُتَشَتَّتٌ يَجْمَعُه الله من بعدُ»؛ قال: «والشمسُ أبوه، والقمرُ أمه». تفرَّد به الحكم بن ظهير الفزاري، وقد ضعفه الأئمة، وتَرَكَه الآكثرون، وقال الجوزجاني: ساقط، وهو صاحبُ حديثِ حُسنِ يوسف. ثم ذكر الحديث المروي عن جابر أن يهودياً سأل النبي ﷺ عن الكواكب التي رآها يوسف: ما أسماؤها؟. وأنه أجابه ثم قال: تفرد به الحكم بن ظهير، وقد ضعفه الأئمة.

﴿قَالَ يَبْنَؤُ لَا نَقْصَصُ رُءُيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن قول يعقوبَ لابنه يُوسُفَ حين قَصَّ عليه ما رَأَى من هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوعُ إخوته له وتعظيمُهم لِيَّاه تعظيماً زائداً، بحيث يخزون له ساجدين إجلالاً وإكراماً واحتراماً، فَخَشِيَ يعقوبَ - عليه السلام - أن يحدث بهذا المنام أحداً من إِخْوَتِهِ فَيَحْسُدُوهُ على ذلك، فَيَبْنَؤُوا له الغوائل، حَسِداً منهم له، ولهذا قال له: ﴿لَا نَقْصَصُ رُءُيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾، أي: يحتالوا لك حيلة يُزِدُونَكَ فيها. [٣٨٥٦] ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم ما يحب فليُحَدِّثْ به، وإذا رأى ما يكره فليُتَحَوَّلْ إلى جنبه الآخر وليُتَمَلَّ عن يساره ثلاثاً، وليستعِذْ بالله من شرِّها، ولا يُحَدِّثْ بها أحداً، فإنها لا تُضُرُّه»^(١).

[٣٨٥٧] وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعضُ أهل السنن، من رواية معاوية بن حيدة الشَّسِيرِيِّ أنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبَّرْ، فإذا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ»^(٢). ومن هذا يؤخِّد الأمر بكتمان النعمة حتى تُوجَد وتُظَهَّرَ، كما ورد في حديث:

[٣٨٥٨] «استعيتوا على قضاء الحوائج بكتمانها فإن كُلَّ ذِي نعمةٍ محسود»^(٣).

«المجروحين» ٢٥٠/١ - ٢٥١ من حديث جابر، ومداره على الحكم بن ظهير. قال الهيثمي في «المجمع» ١١٠٨٤: متروك أمه وقال ابن حبان: لا أصل له من حديث رسول الله ﷺ، والحكم يروي عن الثقات الموضوعات أمه، وحكم ابن الجوزي رحمه الله بوضع هذا الحديث ١٤٦/١ وقال: واضعه يريد شين الإسلام بمثل هذا أمه والأشبه في هذا التثنية كونه متلقن عن أهل الكتاب، ولا يصح عن رسول الله ﷺ البتة، وضعفه ابن كثير رحمه الله، والصواب أنه موضوع.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٩٩٥ و ٦٩٨٦ و ٧٠٠٥ و ٧٠٤٤ ومسلم ٢٢٦١ ح ١ و ٣ و ٤ والنسائي في عمل اليوم والليلة ٨٩٩ وأحمد ٣٠٣/٥ و ٣٠٥، والدارمي ١٢٤/٢.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ١٠/٤، وأبو داود ٥٠٢٠، والترمذي ٢٢٧٨ وابن ماجه ٣٩١٤ من حديث أبي رزين العقيلي وليس من حديث معاوية بن حيدة كما وقع للمصنف رحمه الله تعالى. وله شواهد كثيرة.

(٣) ضعيف، أخرجه العقيلي ٥٨٠/٢/١٠٩، والطبراني ١٨٣/٢٠ وفي «مسند الشاميين» ٤٠٨ وابن حبان في المجروحين ١/٣٢٢ والبيهقي في «الشعب» ٦٦٥٥ وابن عدي ٣٦٠/٢ و ٤٠٤ والقضاعي ٧٠٧ وابن الجوزي ١٦٤/٢ - ١٦٥ من حديث معاذ، وفي إسناده سعيد بن سلام متهم بالوضع، قال العقيلي: لا يتابع عليه، ولا يعرف إلا به، وقال ابن حبان: ينفرد عن الثقات بما لا أصل له، وذكره الذهبي في الميزان بهذا الحديث، وعده من منكراته، ونقل عن أحمد قوله: كذاب. وقال ابن الجوزي: المتهم به سعيد بن سلام، قال: وتابعه حسين بن علوان، وقال عنه ابن حبان وابن عدي: كان يضع الحديث أمه. وأعله الهيثمي في «المجمع» ١٣٧٢٧ بالانتطاع بين خالد بن معدان ومعاذ.

ورود من حديث ابن عباس، أخرجه ابن حبان ٣٨٥/١ والمخطيب ٥٦/٨ - ٥٧ وابن الجوزي ١٦٥/٢ - ١٦٦ وأعله ابن

﴿وَكَذَلِكَ يَجْجِيكَ رَبُّكَ وَعَلَّمَكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَبَشَّرَ بِمَمَتِهِ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك ربك، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك، ﴿وَكَذَلِكَ يَجْجِيكَ رَبُّكَ﴾، أي: يختارك ويصطفيك لنبوته، ﴿وَعَلَّمَكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، قال مجاهد وغير واحد: يعني تعبير الرؤيا. ﴿وَبَشَّرَ بِمَمَتِهِ عَلَيْكَ﴾، أي: بإرسالك والإيحاء إليك، ولهذا قال: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ﴾، وهو الخليل، ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ ولده، وهو الذبيح في قول، وليس بالرَّجِيح، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي أعلم حيث يجعل رسالته، كما قال في الآية الأخرى.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمَسْأَلِينَ ﴿٧﴾﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غَضَبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾﴾ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبْحَثُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أي: عبرة ومواعظ للمسائلين عن ذلك المُسْتَخْبِرِينَ عنه، فإنه خبر عجيب، يستحق أن يستخبر عنه، ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ﴾، أي: حلفوا فيما يظنون: والله ليوسف وأخوه - يعنون بنيامين، وكان شقيقه لأمه - ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غَضَبَةٌ﴾، أي: جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة؟ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، يعنون في تقديمهما علينا، ومحبة إياهما أكثر منا.

واعلم أنه لم يَمَّ دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوجي إليهم بعد ذلك. وفي هذا نظر. ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِن قَبْلِهِ وَنَعْتَدُ بِمَا نُنزَلُ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وهذا فيه احتمال، لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب؛ يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يَمَّ دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوجي إليهم، والله أعلم. ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبْحَثُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾، يقولون: هذا الذي يُزاحمكم في محبة أبيكم لكم أعدموه من وجه أبيكم

حيان بطاهر بن الفضل الحلبي، وقال: يضع الحديث ضعفاً. وهذا موضوع، وهو عند ابن الجوزي من طريق آخر أعله بالحسن بن عبيد الله الأبرازي، وقال: تقدم أنه كذاب. قال مهنن: سألت أحمد بن حنبل ويحيى بن معين عن قولهم «استمعنا على طلب الحوائج بالكتمان» فقالوا: موضوع، وليس له أصل. وورد من حديث أبي هريرة. أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (٣٧) بترقيمي، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» ص ١٨٢، وفي إسناده الهيثم بن العطار السلمي، لم أجد من ترجمه، وفيه سهل بن عبد الرحمن الجرجاني، لم أجد من ترجمه، ونسبه إلى جرجان. وورد من حديث أبي بردة مرسلأ أخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في «آداب الصحبة» ص ٢٦ ومع إرساله، السلمي اتهمه الذهبي في الميزان.

الخلاصة: نص على بطلانه، وأنه لا أصل له، إماما هذا الفن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وكذا أبو حاتم الرازي كما في «المعلل» ٢٢٥٨ وقال: لا يعرف له أصل، وكذا نص على بطلانه: ابن حبان، وابن عدي، وابن الجوزي، والمعقل، وغيرهم، ولم يصب الألباني، إذ خالف هؤلاء الأئمة جميعاً، وأورده في الصحيحة ١١٤٥٣.

ليخْلُوْا لَكُمْ وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تُلْقُوْهُ فِي أَرْضٍ مِنَ الْأَرْضِ تَسْتَرِيحُوا مِنْهُ، وتختلوا أنتم بأبيكم، وتكونوا من بعد إعدايمو قوماً صالحين. فأضرموا التوبة قبل الذنب. ﴿قَالَ قَاهِلٌ مِنْهُمْ﴾ - قال قتادة، ومحمد بن إسحاق: كان أكبرهم واسمه زُوَيْبِلٌ. وقال السدي: الذي قال ذلك يَهُودًا. وقال مجاهد: هو شمعون - ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾، أي: لا تصلوا في عداوته ويغضبه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله، لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بُدَّ من إفضائه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرّهم الله عنه بمقالة زُوَيْبِلٍ فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجُبِّ، وهو أسفله - قال قتادة: وهي بئر بيت المقدس - ﴿يَلْقَوْنَهُ بَحْثَ الشَّيَاطِينِ﴾، أي: المارة من المسافرين، فتستريحوا منه بهذا، ولا حاجة إلى قتله. ﴿إِنْ كُنْتُمْ عَازِمِينَ﴾، أي: إن كنتم عازمين على ما تقولون. قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمرٍ عظيم، من قطيعة الرّجِمِ، وعُقُوقِ الْوَالِدِ، وَقِلْعَةِ الرَّأْفَةِ بِالصَّغِيرِ الضَّرْعِ الَّذِي لَا ذَنْبَ لَهُ، وبالكبير الفاني ذي الحقِّ والحرمَةِ والفضلِ، وخَطْرُهُ عِنْدَ اللَّهِ، مع حقِّ الوالدِ على وَلَدِهِ، ليفرقوا بينه وبين ابنه وحبّيه على كِبَرِ سِنِّهِ، وِرْقَةِ عَظْمِهِ، مع مكانه من الله، فيمن أحبّه طفلاً صغيراً، وبين أبيه على ضَعْفِ قُوَّتِهِ وِصْرَتِهِ سَنَةً، وحاجته إلى لُطْفِ الْوَالِدِ وَسُكُونِهِ إِلَيْهِ، يغفر الله لهم وهو أرحمُ الرَّاحِمِينَ، فقد احتملوا أمراً عظيماً. رواه ابنُ أبي حاتمٍ من طريقِ سَلْمَةَ بْنِ الْفَضْلِ، عنه.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَمُنْصِرُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَقِ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

لما تواطؤوا على أخذه وطرحه في البئر - كما أشار عليهم أخوهم الكبير زُوَيْبِلٌ - جاؤوا أباهم يعقوب - عليه السلام - فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَمُنْصِرُونَ﴾. وهذه توطئة وسلفٌ ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك، لما له في قلوبهم من الحسد لحبِّ أبيه له، ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾، أي: ابعته معنا، غَدًا نَرْتَقِ وَنَلْعَبُ وقرأ بعضهم بالياء: ﴿يَرْتَقِ وَيَلْعَبُ﴾، قال ابن عباس: يسعى وينشط. وكذا قال قتادة، والضحاك والسدي، وغيرهم. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أهلك.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيّه يعقوب أنه قال لِبَنِيهِ فِي جَوَابِ مَا سَأَلُوا مِنْ إِرْسَالِهِ يُوسُفَ مَعَهُمْ إِلَى الرِّعْيِ فِي الصَّحْرَاءِ: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾، أي: يَشُقُّ عَلَيَّ مَفَارِقَتُهُ مَدَّةَ ذَهَابِكُمْ بِهِ إِلَى أَنْ يَرْجِعَ، وَذَلِكَ لِقَرْبِ مَحَبَّتِهِ لَهُ، لِمَا يَتَوَسَّمُ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ، وَشَمَائِلِ النُّبُوَّةِ وَالْكَمَالِ فِي الْخَلْقِ وَالْخَلْقِ، صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾، يقول: وَأَخْشَى أَنْ تَشْتَدُّوا عَلَيْهِ مِنْ بَرِيئِكُمْ وَرَعِيَّتِكُمْ فَيَأْتِيَهُ ذَنْبٌ فَيَأْكُلُهُ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ، فَأَخَذُوا مِنْ فِيمَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ، وَجَعَلُوا مَا عَذَّرَهُمْ فِيمَا فَعَلُوهُ، وَقَالُوا مُجِيبِينَ عَنْهَا فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَيْرِيرُونَ﴾، يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، ونحن جماعة، إنا إذا لهالكون عاجزون.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُعْجِلُوهُ فِي غَيْبَتِ أَلْحَبِّ وَأَرْحَبَتَا إِلَيْهِ لَتَنِتْنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى: فلما دَعَبَتْ به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك، ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾، هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكراماً له، ويسطاً وشرحاً لصدره، وإدخالاً للسُرورِ عليه، فيقال؛ إن يعقوب - عليه السلام - لما بعثه معهم ضمه إليه، وقبله ودعا له. قال السدي وغيره: إنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه، والفعل من ضرب ونحوه، ثم جاؤوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه فَرَبَطُوهُ بحبل ودلّوه فيه، فجعل إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبّت بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط في الماء فغمره، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه، يقال لها: الراغوفة، فقام فوقها.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتَأْتِيَنَّهُم بِآمْرِهِمْ هَكَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائذته وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطيباً لقلبه، وتثبيتاً له: إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويُعَلِّمُكَ وَيَرْفَعُ دَرَجَتَكَ، وسَتَخَيِّرُهُمْ بما فعلوا معك من هذا الصنيع. وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال قتادة: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإيحاء الله إليه. وقال ابن عباس؛ سَتَبَيْتُهُمْ بصنيعهم هذا في حقل وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك، كما قال ابن جرير: حَدَّثَنِي الْحَارِثُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ، حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ عَبَادَةَ الْأَسَدِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: لما دخل إخوة يوسف فعرفهم وهم له منكرون، قال: جيء بالصواع فوضعه على يده، ثم نقره فطن، قال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له: يوسف، يُدِينُهُ دونكم، وأنكم انطلقتم به فالتقيتموه في غيابة الجب - قال: ثم نقره فطن - فأنتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدم كذب - قال: فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: لا نرى هذه الآية نزلت إلا فيهم: ﴿لَتَأْتِيَنَّهُم بِآمْرِهِمْ هَكَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَجَاءَ وَرِثَانَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَتَرَكْنَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعدما القوه في غيابة الجب: إنهم رَجَعُوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتعمنون لأبيهم، وقالوا مُعْتَذِرِينَ عما وَقَع فيما زَعَمُوا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ﴾، أي: نترامى، ﴿وَتَرَكْنَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾، أي: ثيابنا وامتعتنا، ﴿فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ﴾، وهو الذي كان جزع منه، وحذر عليه. وقولهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾، تَلَطَّفَ عَظِيمٌ في تقرير ما يُحَالُونَ، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تُصَدِّقنا - والحالة هذه - لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك، لأنك خَشِيتَ أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معدور في تكذيبك لنا، لغرابة ما وَقَع، وعَجِيب ما اتَّفَقَ لنا في أمرنا هذا. ﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، أي: مكذوب مُفْتَرَى. وهذا من الأفعال التي يُؤكِّدونها بها ما تمالؤوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عَمَدُوا إلى سَخْلة - فيما ذكره مجاهد، والسدي وغير واحد - فذبحوها، ولَطَّخُوا ثوبَ يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نَسُوا أن يخبروه، فلماذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم

مُعْرِضاً عَنْ كَلَامِهِمْ إِلَى مَا وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ تَمَائُثِهِمْ عَلَيْهِ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، أي: فَنَاصِبٌ صَبِراً جَمِيلاً عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ اتَّفَقْتُمْ عَلَيْهِ، حَتَّى يُفَرِّجَهُ اللَّهُ بِعَوْنِهِ وَلَطْفِهِ، ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾، أي: عَلَى مَا تَذْكُرُونَ مِنَ الْكُذِبِ وَالْمُحَالِ.

وقال الثوري، عن سَمَّاك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَيْصِيهٖ يَدْمِرُ كَذِباً﴾، قال: لو أكله السبع لخرق القميص؛ وكذا قال الشعبي، والحسن، وقتادة، وغير واحد. وقال مجاهد: الصبر الجميل: الذي لا جزع فيه.

[٣٨٥٩] ورَوَى مُشِيْم، عن عبد الرحمن بن يحيى، عن جَبَّان بن أَبِي جَبَلَةَ قال: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، فَقَالَ: «صَبْرٌ لَا شَكْوَى فِيهِ»^(١). وهذا مرسل. وقال عبد الرزاق: قال الثوري عن بعض أصحابه أنه قال: ثلاث من الصبر؛ ألا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكيت نفسك.

[٣٨٦٠] وذكر البخاري ما هنا حديث عائشة - رضي الله عنها - في الإفك حتى ذكر قولها: والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾^(٢).

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَعَّةٍ وَاللَّهُ عَلَيْهِمَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾^(١٩) ﴿وَأَسْرُوهُ بِشَمْرٍ بِخَيْرٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾^(٢٠)

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف - عليه السلام - حين ألقاه إخوته، وتركوه في ذلك الجب فريداً وجيداً، فمكث عليه السلام في البئر ثلاثة أيام، فيما قاله أبو بكر بن عيَّاش. وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك ينظرون ما يصنع وما يصنع به، فساق الله له سيارة، فنزلوا قريباً من تلك البئر، وأرسلوا واردةم - وهو الذي يتطلب لهم الماء - فلما جاء تلك البئر، وأدلى دلوه فيها، تشبث يوسف - عليه السلام - فيها، فأخرجه واستبشربه، وقال: «يَا بُشْرَايَ هَذَا غُلَامٌ». وقرأ بعض القراء: ﴿يَبُشْرَىٰ﴾، فزعم السدي أنه اسم رجل ناداه ذلك الرجل الذي أدلى دلوه، معلماً له أنه أصاب غلاماً. وهذا القول من السدي غريب، لأنه لم يسبق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا في رواية عن ابن عباس، والله أعلم. وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى، ويكون قد أضاف البشري إلى نفسه، وحذف ياء الإضافة وهو يريد بها، كما تقول العرب: يا نفس اصبري، و «يا غلام أقبل، بحذف حرف الإضافة، ويجوز الكسر حيثنذ والرفع، وهذا منه، وتفسرها القراءة الأخرى «يا بشراي»، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَعَّةٍ﴾، أي: وأسره الوردون من بقيّة السيارة، وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره. قاله مجاهد، والسدي، وابن جرير. هذا قول. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَعَّةٍ﴾، يعني إخوة يوسف، أسروا شأنه، وكثموا أن يكون أخاهم، وكثم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيهق. فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه: ﴿يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ﴾ بياع، فباعه إخوته. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، أي: يعلم ما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه، ﴿أَلَا لَهُ الْخِطَابُ الْأَعْلَىٰ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٥] وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ وإعلام له بأني عالم بأدب قومك لك، وأنا

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ١٨٨٨٤ هكذا مرسلأ، والمرسل من قسم الضعيف، والله أعلم.

(٢) صحيح. وهو بعض حديث الإفك الطويل أخرجه البخاري ٢٦٦١ ومسلم ٢٧٧٠ وسيأتي في النور.

قادرٌ على الإنكار عليهم، ولكن سألهم لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

وقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَقْدُونَةٍ﴾، يقول تعالى: وباعه إخوته بثمان قليل، قال مجاهد وعكرمة. والبخس: هو النقص، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣]، أي: اعتراضه عنه إخوته بثمانٍ قليل، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين، أي: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سئلوه بلا شيء لأجابوا. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: إن الضمير في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ عائد على إخوة يوسف. وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة. والأول أقوى، لأن قوله: ﴿وَكَاثُرًا فِيهِ مِنَ الَّذِينَ﴾، إنما أراد إخوته، لا أولئك السيارة، لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فترجح من هذا أن الضمير في ﴿وَشَرَوْهُ﴾ إنما هو لإخوته، وقيل: المراد بقوله: ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ الحرام، وقيل: الظلم. وهذا وإن كان كذلك، لكن ليس هو المراد هنا، لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد أن ثمنه حرام على كل حال، وعلى كل أحد، لأنه نبي ابن نبي، ابن خليل الرحمن، فهو الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم. وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزيوف أو كلاهما، أي: إنهم إخوته، وقد باعوه ومع هذا بانقص الأثمان، ولهذا قال: ﴿دَرَاهِمَ مَقْدُونَةٍ﴾، فمن ابن مسعود: باعوه بعشرين درهماً. وكذا قال ابن عباس، ونوف البكالي، والسدي، وقاتدة، وعطية العوفي وزاد: اقتسموها درهمن درهمن. وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً. وقال محمد بن إسحاق وعكرمة: أربعون درهماً. وقال الضحاك في قوله: ﴿وَكَاثُرًا فِيهِ مِنَ الَّذِينَ﴾، وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله عز وجل. وقال مجاهد: لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم: استوثقوا منه لا يابئ حتى وقفوه بمصر، فقال: من يتأغني ولينشر؟ فاشتره الملك، وكان مسلماً.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ؕ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

يخبرُ تعالى بألطفه بيوسف - عليه السلام - أنه قيض له الذي اشتراه من مصر، حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والفلاح، فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها، وهو الوزير بها. قال العوفي، عن ابن عباس: وكان اسمه قطفير. وقال محمد بن إسحاق: اسمه إطفير بن رحيب، وهو العزيز، وكان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد، رجل من العماليق. قال: واسم امرأته راعيل بنت زعائيل. وقال غيره: اسمها زليخا. وقال محمد بن إسحاق أيضاً، عن محمد بن السائب، عن أبي صالح، عن ابن عباس: كان الذي باعه بمصر مالك بن دُغر بن بؤب بن عيفا بن مذيان بن إبراهيم، فإله أعلم. وقال أبو إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، والمرأة التي قالت لأبيها: ﴿يَتَأْتِي آسَفَجَةٌ لِسَكَّ خَيْرٍ مِّنْ آسَفَجَاتِ الْفَوْقِ الْأَمِينِ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. يقول تعالى: وكما أنقذنا يوسف من إخوته، ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾، يعني بلاد مصر، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، قال مجاهد والسدي: هو تعبير الرؤيا،

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ غَلِيبٌ﴾، أي: إذا أراد شيئاً فلا يَزُدُ ولا يُمَاعُ ولا يُخَالِفُ، بل هو الغالبُ لما سواه.

قال سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ غَلِيبٌ﴾، أي: فَعَالٌ لما يشاء. وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، يقول: لا يدرون حِكْمَتَهُ في خلقه، وتَلَطَّفَهُ لما يريد، وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾، أي: يوسف - عليه السلام - ﴿أَشُدَّهُ﴾، أي: استكمل عقله وتم خلقه، ﴿مَا آتَيْتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يعني النبوة، إنه حباه بها بين أولئك الأقسام، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: إنه كان محسناً في عمله، عاملاً بطاعة ربه تعالى. وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون. وعن ابن عباس: بضع وثلاثون. وقال الضحاك: عشرون. وقال الحسن: أربعون سنة. وقال عكرمة: خمس وعشرون سنة. وقال السدي: ثلاثون سنة. وقال سعيد بن جبيرة: ثماني عشرة سنة. وقال الإمام مالك، وربيعة، وزيد بن أسلم، والشعبي: الأشدُّ الحُلْمُ، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

﴿وَرَوَدَتْهُ آلِي هَارُونَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ. وَعَلَقَتْ عَلَى الْأَبْوَابِ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي

أَحْسَنَ مَثْوًى لِي أَنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢﴾﴾

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وياكرا به: ﴿وَرَوَدَتْهُ آلِي هَارُونَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾، أي: حاولته على نفسه، ودَعَتْه إليها، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجمالته وحُسنه وبهايته، فحَمَلها ذلك على أن تجلست له، وعلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾ وكان يُطْلِفُون «الرب» على السيد والكبير، أي: إن بئلك زبي ﴿أَحْسَنَ مَثْوًى﴾، أي: مثرتي وأحسن إلي، فلا أقبله بالفاحشة في أهله، ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، قال ذلك مجاهد، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم. وقد اختلف القراء في قراءة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فقرأه كثيرون بفتح الهاء، وإسكان الياء، وفتح التاء. قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: معناه أنها تدعوه إلى نفسها. وقال علي بن أبي طلحة، والعمري، عن ابن عباس: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ تقول: هَلِّمْ لك. وكذا قال زب بن حبيش، وعكرمة، والحسن، وقتادة. قال عمرو بن عبَّيد، عن الحسن: وهي كلمة بالسريانية، أي: عليك. وقال السدي: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، أي: هَلِّمْ لك، وهي بالقبطية. وقال مجاهد: هي لغة عَرَبِيَّةٌ تدعوه بها. وقال البخاري: وقال عكرمة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾: هَلِّمْ لك بالحوَزانِيَّة. هكذا ذكره مُعَلِّقاً، وقد أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير.

حدثني أحمد بن سهيل الواسطي، حَدَّثَنَا قُرَّةُ بن عيسى، حَدَّثَنَا النضر بن عَزَبِي الحَزْرِي، عن عكرمة مولى ابن عباس في قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، قال: هَلِّمْ لك، قال: هي بالحوَزانِيَّة. وقال أبو عبَّيد القاسم بن سلام: وكان الكسائي يحكي هذه القراءة - يعني هَيْتَ لك - ويقول: هي لغة لأهل حوزان، وقعت إلى أهل الحجاز، معناها تَمَالٌ. وقال أبو عبَّيد: سألت شيخاً عالماً من أهل حوران، فذكر أنها لغتهم يعرفها. واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول الشاعر لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أَبْلِغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخَا
أَنْ الْمِرَاقِ وَأَمْلَأْهُ
الْمِرَاقِ إِذَا أَتَيْتَا
عُشْتُ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا

يقول: فتعال واقترِب. وقرأ ذلك آخرون: «هنت لك»، بكسر الهاء والهمزة، وضَمَّ التاء، بمعنى تهَيَّأت لك، من قول القائل: هنت للأمر أهيه هَيْتَةً. وممن رُوِيَ عنه هذه القراءة ابن عباس، وأبو عبد الرحمن

السَّلْمِيُّ، وأبو وائل، وعكرمة، وقتادة، وكلُّهم يفسرها بمعنى: تهيأت لك. وقال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هذه القراءة. وقرأ عبد الله بن إسحاق: «هَيْتَ»، بفتح الهاء وكسر التاء، وهي غَرِيْبَةٌ. وقرأ آخرون، منهم عامة أهل المدينة «هَيْتَ» بكسر الهاء، وتسكين الياء، وفتح التاء. وقرأ بعض المَكِّيِّين «هَيْتَ» بفتح الهاء، وضَمَّ التاء. وأنشد قول الشاعر:

لَيْسَ قُومِي بِالْأَبْعَدِيْنَ إِذَا مَا قَالَ دَاعٍ مِنَ الْعَشِيْرَةِ: هَيْتَ

قال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري، عن الأعمش، عن أبي وائل قال: قال ابن مسعود: قد سمعتُ القُرَاءَةَ فَسَمِعْتُهُمْ مُتَّفَارِقِينَ، فاقْرَأُوا كَمَا عَلَّمْتُمْ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَطُّعَ وَالاخْتِلَافَ، فَإِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِ أَحَدِكُمْ: هَلُمَّ وَتَعَالَ. ثم قرأ عبد الله: «هَيْتَ لَكَ»، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن ناساً يقرؤونها: «هَيْتَ»؟ فقال عبد الله: إنني أقرأها كما علمت، أحب إلي. وقال ابن جرير: حدثني ابن وكيع، حدثنا ابن عُيَيْنَةَ، عن منصور، عن أبي وائل قال: قال عبد الله: «هَيْتَ لَكَ»، فقال له مسروق: إن ناساً يقرؤونها «هَيْتَ لَكَ»؟ فقال: دعوني، فإني أقرأ كما أقرئت، أحب إلي. وقال أيضاً: حدثني المشني، حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شعبة، عن شقيق، عن ابن مسعود قال: «هَيْتَ لَكَ» ينصب الهاء والتاء، وبلا همز. وقال آخرون: «هَيْتَ لَكَ»، بكسر الهاء، وإسكان الياء، وضَمَّ التاء. قال أبو عُيَيْنَةَ معمر بن المشني: «هَيْتَ» لا تنني ولا تجمع ولا تؤنث، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد، فيقال: هَيْتَ لَكَ، وهَيْتَ لِكَ، وهَيْتَ لَكُمْ، وهَيْتَ لَكُنْ وهَيْتَ لَهْنٌ.

«وَلَقَدْ هَمَّتْ يَدُوهُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَاهُ بُرْهَانَ رَبِّهِ» كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ

عِبَادِنَا الْمُتَّحِلِّينَ ﴿١٤﴾

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام، وقد روي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير وطائفة من السلف في ذلك ما ذكره ابن جرير وغيره، والله أعلم. وقال بعضهم: المراد بهمه بها هم حَطَرَاتٍ، حديث النفس. حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق.

[٣٨٦١] ثم أورد البغوي ما هنا حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسئلة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جزائي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها»^(١). وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، وله ألفاظ كثيرة هذا منها. وقيل: هم بضربها. وقيل: تمنأها زوجة. وقيل: «وهم بها لولا أن رآه برهان ربه»، أي: فلم بهم بها. وفي هذا القول نظر من حيث العربية، ذكره ابن جرير وغيره. وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال أيضاً. فَعَن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة، وأبي صالح، والضحاك، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم: رأى صورة أبيه يعقوب - عليه السلام - عاضاً على إصبه بقمه. وقيل عنه في رواية: فضرب في صدر يوسف. وقال العوفي، عن ابن عباس: رأى خيال الملك - يعني سيده - وكذا قال محمد بن إسحاق، فيما حكاه عن بعضهم: إنما هو خيال إطفير سيده حين دنا من الباب.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن أبي مودود، سمعت من محمد بن كعب القرظي

قال: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب في حائط البيت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]^(١). وكذا رواه أبو معشر المدني، عن محمد بن كعب. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني نافع بن يزيد، عن أبي صخر قال: سمعت القُرظي يقول في البرهان الذي رأى يوسف: ثلاث آيات من كتاب الله: ﴿وَلَا عَلَى كُمْ حَظُونٌ﴾ [الانفطار: ١٠]... الآية، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ [يونس: ٦١]... الآية، وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِدٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، قال نافع: سمعت أبا هلال يقول مثل قول القُرظي، وزاد آية رابعة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ﴾^(٢). وقال الأوزاعي: رأى آية من كتاب الله في الجدار تنهاه عن ذلك. قال ابن جرير: والصواب أن يُقال: إنه رأى من آيات الله ما زجره عما كان هم به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة المليك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك. ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يُطلق كما قال الله تعالى.

وأما ما ورد من الإسرائيليات من أن يوسف حلَّ سراويله، وأنه قعدَ منها مقعد الرجل من زوجته، وأنه رأى صورة أبيه يعقوب فانزجر، كل هذه الافتراءات لا أصل لها. ومما ينبغي على المسلم أن يحذر الإسرائيليات التي أدخلت في كتب التفسير. والتي دُست على أنبياء الله تعالى؛ فتارة يقولون: إن داود عليه السلام رأى امرأة عارية فاشتهاها، فأرسل زوجها لمقدمة الجيش ليقتل ليتزوجها من بعده؛ وقد قال الإمام ابن الجوزي في تفسيره بعد ذكر هذه القصة المكذوبة عن سيدنا داود: وهذا لا يصح من طريق النقل، ولا يجوز من حيث المعنى، لأن الأنبياء منزهون عنه؛ وأما استغفار داود ربه فهذا لأنه حكم بين الاثنين بسماعه من أحدهما قبل أن يسمع من الآخر. وتارة يقولون: إن أيوب دُود حتى تناثر منه الدود. وتارة يقولون: إن إبراهيم عبد الكواكب من دون الله تعالى؛ وقد قال الله تعالى عن سيدنا إبراهيم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] مع العلم أن الأنبياء معصومون عن كل هذه الأراجيف المغرضة، فالله تعالى عصم أنبياءه عن كل ما لا يليق بمنصب النبوة من كفر وغدر وخيانة وخساسة وبلادة ودناءة وأمراض مُتفَرِّعة وصفات ذميمة ليكون قدوة وأسوة للناس، إلى ما هنالك من الأقوال؛ والصحيح أن الله سبحانه وتعالى قد عصم أنبياءه قبل النبوة وبعدها، ومن ذلك أن الله عصمهم من الهمم بالزنا، لأنه يُزري بمنصب النبوة، ولا يليق بنبي من أنبياء الله تعالى، لأن الهمم بالزنا من الأفعال الخسيسة التي لا يفعلها أنبياء الله، فالهمم من وساوس الشيطان، والشيطان يوم طرده الله ولعنه قال الله تعالى: ﴿فَمِرْيَكُ لأَعْيُنِهِمْ أَجْمِينَ﴾ [٨٢] ﴿لَا عِبَادَ لَكَ مِنْهُمْ الْمُخَلَّوِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، وسيدنا يوسف كان من المخلصين، لأن الله قال فيه: ﴿إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخَلَّوِينَ﴾. ثم إن المرأة لما قالت له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، قال يوسف: ﴿مَعَادَ اللَّهِ﴾، هذا دليل على أنه ما هم مطلقاً بالزنا، ثم إن المرأة فيما بعد اعترفت بقولها: ﴿الْفَنَّ حَبَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥١]. والعصمة ظاهرة في النص: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوَّةَ وَالْفَحِشَاءَ﴾، فلو أنه هم بالزنا لما قال: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوَّةَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوَّةَ وَالْفَحِشَاءَ﴾، أي: كما أريناه بُرْهَانًا صَرَفَهُ عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره. ﴿إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخَلَّوِينَ﴾، أي: المُجْتَبِينَ الْمُطَهَّرِينَ الْمُخْتَارِينَ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارَ، صلوات الله وسلامه عليه.

(١) في الأصول: «... إنه كان فاحشة ومقتاً...».

(٢) هذا الأثر وما قبله متلفن عن أهل الكتاب. وانظر الطبري ١٩٠٩٥.

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَْا سَيْدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْغَاظِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِهِمَا حِينَ خَرَجَا يَسْتَبِقَانِ إِلَى الْبَابِ، يَوْسُفُ هَارِبٌ، وَالْمَرْأَةُ تَطْلُبُهُ لِيَرْجِعَ إِلَى الْبَيْتِ، فَلَجِئَتْهُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ، فَامْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ مِنْ وَرَائِهِ فَقَدَّتْهُ قَدًّا فُظْلِعًا، يُقَالُ: إِنَّهُ سَقَطَ عَنْهُ، وَاسْتَمَرَّ يَوْسُفُ هَارِبًا ذَاهِبًا، وَهِيَ فِي إِثْرِهِ، فَالْفَيْيَا سَيْدَهَا - وَهُوَ زَوْجُهَا - عِنْدَ الْبَابِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجَتْ مِمَّا هِيَ فِيهِ بِمَكْرُهَا وَكَيْدِهَا، وَقَالَتْ لَزَوْجِهَا مُتَنَصِّلَةً وَقَاذِفَةً يَوْسُفَ بِدَانِئِهَا: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾، أَي: فَاحِشَةً، ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ﴾، أَي: يُحْبَسَ، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أَي: يُضْرِبُ ضَرْبًا شَدِيدًا مُوجِعًا. فَعِنْدَ ذَلِكَ انْتَصَرَ يَوْسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِالْحَقِّ، وَتَبَرَّأَ مِمَّا رَمَتْهُ بِهِ مِنَ الْخِيَانَةِ، وَقَالَ: ﴿بَارَأَ صَادِقًا: ﴿هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾، وَذَكَرَ أَنَّهَا اتَّبَعَتْهُ تَجْدِيبُهُ إِلَيْهَا حَتَّى قَدَّتْ قَمِيصَهُ، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾، أَي: مِنْ قُدَامِهِ، ﴿فَصَدَقَتْ﴾، أَي: فِي قَوْلِهَا إِنَّهَا أَرَادَهَا عَلَى نَفْسِهَا، لِأَنَّهُ يَكُونُ لَمَّا دَعَاهَا وَأَبَتْ عَلَيْهِ دَفَعَتْهُ فِي صَدْرِهِ، فَقَدَّتْ قَمِيصَهُ، قَمِيصُهَا مَا قَالَتْ، ﴿وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾، وَذَلِكَ يَكُونُ - كَمَا وَقَعَ - لَمَّا هَرَبَ مِنْهَا وَتَطْلَبُهُ أَمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ مِنْ وَرَائِهِ لَتَرَدِّةً إِلَيْهَا، فَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ وَرَائِهِ. وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي هَذَا الشَّاهِدِ: هَلْ هُوَ صَغِيرٌ أَمْ كَبِيرٌ، عَلَى قَوْلَيْنِ لِعُلَمَاءِ السَّلَفِ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ سِمَاكٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، قَالَ: ذُو لُحْيَةٍ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ مِنْ خَاصَّةِ الْمَلِكِ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرَمَةُ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: إِنَّهُ كَانَ رَجُلًا. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ، وَالسُّدِّيُّ: كَانَ ابْنُ عَمِّهَا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ مِنْ خَاصَّةِ الْمَلِكِ. وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ زَلِيخًا كَانَتْ بِنْتُ أختِ الْمَلِكِ الرَّيَّانِ بْنِ الْوَلِيدِ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، قَالَ: كَانَ صَبِيًّا فِي الْمَهْدِ. وَكَذَا رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَهَلَالِ بْنِ يَسَافٍ، وَالْحَسَنِ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَالضُّحَّاكِ بْنِ مُرَاجِمٍ: أَنَّهُ كَانَ صَبِيًّا فِي الدَّارِ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ حَدِيثُ مَرْفُوعٌ:

[٣٨٦٢] فَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ - هُوَ ابْنُ سَلَمَةَ - أَخْبَرَنِي عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَكَلَّمُ أَرْبَعَةٌ وَهُمْ صَغَارٌ»، فَذَكَرَ فِيهِمْ شَاهِدَ يَوْسُفَ^(١). وَرَوَاهُ غَيْرُهُ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ

(١) المرفوع ضعيف جداً، والصواب موقوف، أخرجه الطبري ١٩١١٨، وإسناده ضعيف، فيه عطاء بن السائب، اختلط بأخزة، وقد اضطرب فيه، حيث أخرجه الطبري ١٩١٠٨ و ١٩١٠٩ عن ابن عباس موقوفاً.

وأخرج أبو يعلى ٢٥١٧ وابن حبان ٢٩٠٤ وأحمد ٣١٠/١ والبزار ٥٤ والطبراني ١٢٢٨٠ والبيهقي في «الدلائل» ٣٨٩/٢ عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جابر عن ابن عباس مرفوعاً حديثاً مطولاً وعجزه «قال ابن عباس: أربعة تكلموا وهم صغار...»، فهو موقوف كما ترى مع أن رواه، هو ابن السائب نفسه، فالصواب موقوف. وقد أخرج البخاري ٣٤٣٦ ومسلم ٢٥٥٠ وأحمد ٣٠٧/٢ وغيرهم من حديث أبي هريرة «لم يتكلم في المهدي إلا ثلاثة، عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، والطفل الرضيع» في سياق قصة طويلة.

فلما رأينه جعلن يقطنن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع، فرجع ليرينه مُقبلاً ومُدبراً، ومن يحزرن في أيديهن، فلما أحسنن بالألم جعلن يولون، فقالت: أثنن من نظرة واحدة فعلتن هكذا. فكيف ألام أنا؟ ﴿وَلَقَدْ حَسَنَّا لِلَّهِ مَا كُنَّا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا. لأنهن لم يرين في البشر شيئه ولا قريباً منه، فإنه - صلوات الله عليه وسلامه - كان قد أعطي شطر الحُسن.

[٣٨٦٣] كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مرَّ بيوسف - عليه السلام - في السماء الثالثة، قال: «فإذا هو قد أعطي شطر الحُسن»^(١).

[٣٨٦٤] وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطي يوسف وأمه شطر الحُسن». وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: أعطي يوسف وأمه ثلث الحُسن. وقال أبو إسحاق أيضاً، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: كان وجه يوسف مثل البرق، وكانت المرأة إذا أتته لحاجة عطى وجهه مخافة أن تفتن به.

[٣٨٦٥] ورواه الحُسن البصري مرسلأ، عن النبي ﷺ أنه قال: «أعطي يوسف وأمه ثلث حُسن أهل الدنيا، وأعطي الناس الثلثين» أو قال: «أعطي يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث»^(٢). وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد، عن ربيعة الجُرشي قال: قُسم الحُسن نصفين، فأعطي يوسف وأمه سارة نصف الحُسن. والنصف الآخر بين سائر الخلق.

وقال الإمام أبو القاسم السهيلي: معناه أن يوسف كان على النصف من حُسن آدم - عليه السلام - فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها، ولم يكن في ذريته من يُوازيه في جماله، وكان يوسف قد أعطي شطر حُسنه. فلماذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته: ﴿حَسَنٌ لِلَّهِ﴾ - قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله، ﴿مَا كُنَّا بَشَرًا﴾ - وقرأ بعضهم: «ما هذا بشري» أي: بِمُشْرَى. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لَمُنْتَنِي فِيهِ، تقول هذا مُعتذرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يُحب لجمالِه وكمالِه. ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِيهِ فَاسْتَمَعْتُمْ﴾، أي: فامتنع. قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال، ثم قالت تنوعده: ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا مَأْمُرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾، فعند ذلك استعاذ يوسف - عليه السلام - من شرهن وكيدهن، و ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي مِمَّا يَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾، أي: من الفاحشة، ﴿وَالْأَنْصَرَفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ﴾ أي: إن وكلتني إلى نفسي فليس لي من نفسي قدرة، ولا أملك لها ضرراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان، عليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي. ﴿أَصْبُ إِلَيْنَ وَكَأَنَّ مِنَ الْبَهَائِنِ﴾ ﴿٣٢﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وذلك أن يوسف - عليه السلام - عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكمالِه تدعوه سيده، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك، خوفاً من الله ورجاء ثوابه.

[٣٨٦٦] ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يُظلمهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا

(١) صحيح. هو بعض حديث الإسراء أخرجه البخاري ٣٢٠٧ و ٣٨٨٧، ومسلم ١٦٤، والنسائي ٢١٧/١، وأحمد ٢٠٨/٤ و ٢١٠، وابن حبان ٤٨ من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة.

(٢) أخرجه الطبري ١٩٢٣٧ عن الحسن مرسلأ، ومراسيل الحسن واهية كما هو مقرر.

ظُلْمَهُ، إمامَ عادِلٍ، وشابٌّ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبه مُعلَقٌ بالمسجد، إذا خرَجَ منه حتَّى يعودَ إليه . ورجلانِ تحابَّبا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شِمَالُهُ ما أنفقت يمينُهُ، ورجلٌ ذكَّرَ الله خالياً ففاضت عيناه، ورجلٌ دعتُه امرأةٌ ذات جمالٍ ومنصبٍ فقال: «إني أخافُ الله»^(١).

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَسْجُنْتَهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

يقولُ تعالى: ثم ظهرَ لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجونونه إلى حين، أي: إلى مُدَّةٍ، وذلك بعدما عرَفوا براءته، وظهرت الآيات - وهي الأدلَّة - على صدقِهِ في عِفِّته ونزاهته. فكانهم - والله أعلم - إنما سجَّنُوهُ لِمَا شاع الحديث إيهاماً أن هذا راوَدَها عن نفسها، وأنهم سجَّنُوهُ على ذلك. ولهذا لما طلبه الملكُ الكبيرُ في آخر المُدَّةِ، امتنَّع من الخروج حتى تتبينَ براءتُهُ مما نُسبَ إليه من الخيانة، فلما تقرَّرَ ذلك خرَجَ وهو نقيُّ العِرضِ، صلواتُ الله عليه وسلامه. وذكر السدِّيُّ: أنهم إنما سجَّنُوهُ لثلاثِ يَبِيعَ ما كان منها في حَقِّه ويبرأ عرضُهُ فيفضَّحها.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ اللَّيْلَ نَفْتَيْنِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ

رَأْسِي خَبْرًا تَأْكُلُ الطَّلَبُ مِنْهُ نَبْتَنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قال قتادة: كان أحدهما ساقِي الملك، والآخر خَبَّازَهُ. قال محمد بن إسحاق: كان اسمُ الذي على الشرابِ نَبوا، والآخرُ مَجْلُثٌ. قال السدِّيُّ: وكان سببُ حبسِ الملكِ إِيَّاهما أنه توهمَ أنهما تَمَّالًا على سَمِّهِ في طَعامِهِ وشَرَابِهِ. وكان يوسفُ - عليه السلام - قد اشتهر في السجنِ بالجودِ والأمانةِ وصدقِ الحديثِ، وحُسنِ السُّننِ، وكثرةِ العبادة - صلواتُ الله عليه وسلامه - ومعرفةِ التَّعبيرِ، والإحسانِ إلى أهلِ السجنِ، وعبادةِ مرضاهم، والقيام بحقوقِهِم. ولما دخلَ هذانِ الفَتَيانِ إلى السجنِ، تألَّفَا به وأحباهُ حبًّا شديدًا، وقالَا له: والله لقد أحببناك حبًّا زايدًا. قال: بارك اللهُ فيكما، إنه ما أحببني أحدٌ إلا دخلَ عليَّ من مَحَبَّتِهِ ضَرَرٌ، أحببتي عَمَّتِي فدخَلَ عليَّ الضَّررُ بسببِها، وأحببني أبي فأوذيت بسببِهِ، وأحببني امرأةُ العزيزِ فكذلك، فقالَا: والله ما نستطيعُ إلا ذلك، ثم إنهما رأيا منامًا، فرأى الساقِي أنه يعصرُ خمرًا - يعني عنبًا - وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود: «إني أرايَ أعصرُ عنبًا». ورواه ابنُ أبي حاتم، عن أحمد بن سنان، عن يزيد بن هارون، عن شريك، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود: أنه قرأها: «أعصرُ عنبًا». وقال الضحَّاك في قوله: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾، يعني عنبًا، قال: وأهلُ عُمَانَ يُسمون العنبَ خمرًا. وقال عكرمة: قال له: إني رأيتُ فيما يَرَى النَّائمُ أني عَرَسْتُ حَبْلَةً من عنب، فنبتت، فخرَجَ فيه عناقيدُ، فعصرتُهُنَّ ثم سقيتُهُنَّ المَلِكُ. قال: تمكثُ في السجنِ ثلاثةَ أيام، ثم تخرُجُ فتسقيه خمرًا. وقال الآخرُ، وهو الخَبَّازُ: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خَبْرًا تَأْكُلُ الطَّلَبُ مِنْهُ نَبْتَنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. والمشهورُ عندَ الأكثرين ما ذكرناه، وأنهما رأيا منامًا وطلَّباَ تعبيرة. وقال ابنُ جرير: حدثنا ابنُ وكيعٍ وابنُ حُميدٍ قالَا: حدثنا جرير، عن عمارَةَ بنِ القَعَمَاقِ، عن إبراهيم، عن عبد الله قال: ما رأى صاجِبًا يوسفَ شيئًا، إنما كان تحالما ليُجرَّبًا عليه.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٦٠ ومسلم ١٠٣١ ح ٩١ والترمذي بعد الحديث ٢٣٩١ والنسائي ٢٢٢/٨ - ٢٢٣، وأحمد ٢/٤٣٩، وابن خزيمة ٣٥٨، وابن حبان ٤٤٨٦ من حديث أبي هريرة.

مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَيْتُم مِّلَّةَ آبَائِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
مَا كَانُوا لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

يُخْبِرُهُمَا يَوْسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُمَا مَهْمَا رَأَيَا فِي نَوْمِهِمَا مِنْ حُلْمٍ فَإِنَّهُ عَارِفٌ بِتَفْسِيرِهِ وَيُخْبِرُهُمَا بِتَأْوِيلِهِ
قَبْلَ وَقُوعِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ. قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ: يَقُولُ: ﴿لَا
يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ﴾ فِي يَوْمِكُمَا، ﴿إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ. قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾، وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي
حَاتِمٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ - شَيْخٌ لَهُ - عَنْ
رَشْدِينَ، عَنْ الْحَسَنِ بْنِ ثَوْبَانَ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا أَدْرِي لَعَلَّ يَوْسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ
يَعْتَأَفُ، وَهُوَ كَذَلِكَ، لِأَنِّي أَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ حِينَ قَالَ لِلرُّجُلَيْنِ: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا
بِتَأْوِيلِهِ﴾، قَالَ: إِذَا جَاءَ الطَّعَامُ حُلُوءًا أَوْ مُرًّا اعْتَابَ عِنْدَ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّمَا عَلَّمَ قَعْلِيمَ. وَهَذَا أَثَرُ
غَرِيبٌ. ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَعْلِيمِ اللَّهِ إِيَّايَ، لِأَنِّي اجْتَنَيْتُ مِلَّةَ الْكَافِرِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يَرْجُونَ
ثَوَابًا وَلَا عِقَابًا فِي الْمَعَادِ، ﴿وَأَتَيْتُم مِّلَّةَ آبَائِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، يَقُولُ: هَجَرْتُ طَرِيقَ الْكُفْرِ
وَالشَّرِكِ، وَسَلَكْتُ طَرِيقَ هُؤُلَاءِ الْمُرْسَلِينَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَهَكَذَا يَكُونُ حَالُ مَنْ سَلَكَ
طَرِيقَ الْهُدَى، وَأَتَّبَعَ طَرِيقَ الْمُرْسَلِينَ، وَأَعْرَضَ عَنِ طَرِيقِ الضَّالِّينَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَهْدِي قَلْبَهُ وَيُعَلِّمُهُ مَا لَمْ يَكُنْ
يَعْلَمُهُ، وَيَجْعَلُهُ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ فِي الْخَيْرِ، وَدَاعِيًا إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ. ﴿مَا كَانُوا لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ
مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾، هَذَا التَّوْحِيدُ - وَهُوَ الْإِقْرَارُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ - ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ
عَلَيْنَا﴾، أَي: أَوْحَاهُ إِلَيْنَا، وَأَمَرَنَا بِهِ ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾، إِذْ جَعَلْنَا دُعَاءَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، ﴿وَلَٰكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ﴾، أَي: لَا يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ، بَلْ ﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ
الْبُورِ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٢٨]. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَنَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو مَعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ، عَنْ
عَطَاءٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ كَانَ يَجْعَلُ الْبَدَأَ أَبَا، وَيَقُولُ: وَاللَّهِ فَمَنْ شَاءَ لِأَعْنَتِهِ عِنْدَ الْحَجَرِ، مَا ذَكَرَ اللَّهُ جَدًّا
وَلَا جَدَّةً، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى - يَعْنِي إِخْبَارًا عَنْ يَوْسُفَ -: ﴿وَأَتَيْتُم مِّلَّةَ آبَائِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

﴿يَصْخَبِي السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقَاتٌ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ
سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ
الَّذِينَ أَلْفَيْتُمْ وَلَٰكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

ثُمَّ إِنَّ يَوْسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَقْبَلَ عَلَى الْفَتَنِينَ بِالْمُخَاطَبَةِ، وَالدَّعَاءِ لِهَمَا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ
لَهُ، وَخَلَعَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ الَّتِي يَعْبُدُهَا قَوْمُهُمَا، فَقَالَ: ﴿أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقَاتٌ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾،
الَّذِي ذَلَّ كُلُّ شَيْءٍ لِعِزِّ جَلَالِهِ، وَعَظَمَةِ سُلْطَانِهِ. ثُمَّ بَيَّنَّ لَهُمَا أَنَّ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا وَيُسَمُّونها أَلْهَةً إِنَّمَا هِيَ جَهْلٌ
مِنْهُمْ، وَتَسْمِيَةٌ مِنْ تَلْفَافِ أَنْفُسِهِمْ، تَلْفَافًا خَلَفَهُمْ عَنْ سَلْفِهِمْ، وَلَيْسَ لِلذَّكَاءِ مُسْتَدٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ:
﴿مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾، أَي: حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ. ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْحُكْمَ وَالتَّصَرُّفَ وَالمَشِيئَةَ وَالمُلْكَ
كُلَّهُ لِلَّهِ، وَقَدْ أَمَرَ عِبَادَهُ قَاطِبَةً أَنْ يَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ أَلْفَيْتُمْ﴾، أَي: هَذَا الَّذِي أَدْعُوكُمْ
إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ، هُوَ الذِّينُ الْمُسْتَقِيمُ، الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ. وَأَنْزَلَ بِهِ الْحُجَّةَ وَالبُرْهَانَ الَّذِي

يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: فلهذا كان أكثرهم مشركين، ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٤١). وقد قال ابن جرير: إنما عدل بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا، لأنه عرّف أنها ضارة لأحدهما، فأحب أن يشغلهما بغير ذلك، لئلا يعاودوه فيها، فعادوه، فأعاد عليهم الموعظة. وفي هذا الذي قاله نظر؛ لأنه قد وعدهما أولاً بتعبيرها، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وفضلة وسبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه، والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما شرع في تعبير رؤياهما، من غير تكرار سؤال فقال:

﴿يَصْنَعِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَا الْآخَرَ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (٤٢)

يقول لهما: ﴿يَصْنَعِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾، وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً، ولكنه لم يُعَيِّنْه لئلا يحزن ذلك، ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وَأَمَا الْآخَرَ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾، وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً. ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة، لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبَّرْ، فإذا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ. وقال الثوري: عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم، عن عبد الله قال: لما قال ما قال وأخبرهما قال: ما رأينا شيئاً. فقال: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾. ورواه محمد بن فضيل عن عمارة عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود، به. وكذا فسره مجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم. وحاصله أن من تحلم بباطل وفسره، فإنه يلزم بتأويله والله تعالى أعلم.

[٣٨٦٧] وقد ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد، عن معاوية بن حيدة، عن النبي ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبَّرْ فإذا عُبِّرَتْ وقعت» (١).

[٣٨٦٨] وفي مسند أبي يعلى، من طريق يزيد الرقاشي، عن أنس مرفوعاً: «الرؤيا لأول عاب» (٢).

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي

السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (٤٣)

ولما ظن يوسف - عليه السلام - نجاة أحدهما، وهو الساقى، قال له يوسف خفية عن الآخر - والله أعلم - لئلا يشعره أنه المصلوب قال له: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾. يقول: اذكر قصتي عند ربك - وهو الملك - فتسبي ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك وكان من جملة مكاييد الشيطان، لئلا يطلع نبي الله من السجن. هذا هو الصواب أن الضمير في قوله: ﴿فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائد على الناجي، كما قاله مجاهد، ومحمد بن إسحاق، وغير واحد. ويقال إن الضمير عائد على يوسف - عليه السلام - رواه ابن جرير، عن ابن عباس، ومجاهد أيضاً، وعكرمة وغيرهم. وأسند ابن جريرها هنا حديثاً، قال:

[٣٨٦٩] حدثنا ابن وكيع، حدثنا عمرو بن محمد، عن إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس مرفوعاً قال: قال النبي ﷺ: «لو لم يقل - يعني يوسف - الكلمة التي قال: ما لبث في

(١) تقدم تخريجه فيما سبق.

(٢) في إسناده يزيد بن أبان الرقاشي وإو، لكن ربما يشهد له ما قبله.

السُّجْن طَوْلاً ما لبث، حيثُ يبتغي الفرج من عند غير الله^(١). وهذا الحديث ضعيفٌ جداً؛ لأن سُفْيَانَ بْنَ وَكَيْعٍ ضعيفٌ، وإبراهيمَ بنَ يزيدٍ - هو الخُوَزي - أضعفُ منه أيضاً. وقد رُوِيَ عن الحسن وقتادة مرسلًا عن كلِّ منهما، وهذه المرسلاتُ ما هنا لا تُقبَلُ لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم.

وأما البِضْعُ، فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع. وقال وهب بن مُنْبَهٍ: مكثَ أيوبُ في البلاء سبعمائة، ويوسفُ في السُّجْن سبعمائة، وعُذِبَ بِخَتْنَصْرٍ سبعمائة. وقال الضَّحَّاكُ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿فَلَيْتَ فِي السُّجْنِ بَضْعَ سِنِينَ﴾، قال: ثلثا عشرة سنة، وقال الضَّحَّاكُ: أربع عشرة سنة.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِيَّاهُ أَرَأَيْتَ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عَجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ حُضْرٍ وَأُخَرَ يَأْسِتُّ يَتَأَيَّأُ الْمَلِكُ أَفَتُورِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ قَالُوا أَضَعَفْتُ أَحَلِّمِ وَأَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحَلِّمِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عَجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ حُضْرٍ وَأُخَرَ يَأْسِتُّ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لهنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْتَصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِصُونَ ﴿٤٩﴾﴾

هذه الرؤيا من مَلِكٍ مِصرٍ مما قدَّر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف - عليه السلام - من السجن معزراً مكرماً، وذلك أن المَلِكَ رَأَى هذه الرؤيا، فهالته وتَعَجَّبَ من أمرها، وما يكونُ تفسيرها، فَجَمَعَ الكَهَنَةَ والحَزْرَةَ وكُتُبَاءَ دولته وأمرأه وقَصَّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأن هذه ﴿أَسْنَتُ أَحَلِّمٍ﴾، أي: أخلاطُ افتضت رؤياك هذه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحَلِّمِ بِعَالِمِينَ﴾، أي: ولو كانت رؤيا صحيحةً من أخلاطٍ لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها. فعند ذلك تَذَكَّرَ ذلك الذي نجا من ذنك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطانُ قد أنساه ما وُصَّاه به يوسفُ من ذكر أمره للمَلِكِ، فعند ذلك تَذَكَّرَ ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، أي: مُدَّةٍ - وقرأ بعضهم: بعد أموه، أي: بعد نسيان - فقال للمَلِكِ والذين جَمَعَهُم لذلك: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾، بتأويل هذا المنام، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾، أي: فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السُّجْن. ومعنى الكلام: فبعثوه. فجاءه فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾، وذكر المنام الذي رآه المَلِكُ، فعند ذلك ذَكَرَ له يوسفُ - عليه السلام - تعبيرها من غير تعنيفٍ لذلك الفتى في نسيانه ما وُصَّاه به، ومن غير اشتراطٍ للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا﴾، أي: يأتاكم الخصبُ والمطرُ سبعَ سنين

(١) منكر، أخرجه الطبري ١٩٣٢٢ والطبراني ١١٦٤٠، وإسناده ضعيفٌ جداً، قال الهيثمي في «المجمع» ١١٠٨٧: فيه إبراهيم بن يزيد القرشي الكفي، وهو متروك، أمه وسفيان بن وكيعٍ ضعيفوه. وورد من حديث أبي هريرة أخرجه ابن حبان ٦٢٠٦ وفي إسناده محمد بن عمرو صدوق يخطيء. ولعل الوهم ممن دون محمد بن عمرو، فقد أخرجه أحمد ٢٣٢/٢ والحاكم ٥٦١/٢ والطحاوي في «المشكّل» ١٣٦/١ من طريق آخر عن محمد بن عمرو به وليس فيه لفظ «لوم لو يقل...» ووردت هذه اللفظة عن عكرمة مرسله عند الطبري ١٩٣١٩ و ١٩٣٢٠ و ١٩٣٢١ عن الحسن، و ١٩٣٢٣ عن قتادة، وهذه مراسيل، قال ابن كثير: لا يحتج بها في مثل هذه المواطن، وذكر ابن كثير ذلك في النهاية ١٩٤/١ وأتكر هذه اللفظة، وانظر الإحسان ٦٢٠٦.

مُتَوَالِيَاتٍ، فَفَسَّرَ الْبَقَرِ بِالسَّنِينِ، لَأَنَّهَا تُثِيرُ الْأَرْضَ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا الشَّمْرَاتُ وَالزَّرْعُ، وَهُنَّ السَّنَبَلَاتُ الْخَضِرُ. ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا يَعْتَمِدُونَهُ فِي تِلْكَ السَّنِينِ فَقَالَ: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلَيْهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾، أَي: مَهْمَا اسْتَغْلَلْتُمْ فِي هَذِهِ السَّنِينِ الْخَضِيبِ فَاخْزَنُوهُ فِي سُنْبُلِهِ، لِيَكُونَ أَبْقَى لَهُ وَأَبْعَدَ عَنِ إِسْرَاعِ الْفَسَادِ إِلَيْهِ، إِلَّا الْمَقْدَارَ الَّذِي تَأْكُلُونَهُ، وَلِيَكُنْ قَلِيلًا قَلِيلًا لَا تُسْرِفُوا فِيهِ، لِتَنْتَفِعُوا فِي السَّبْعِ الشَّدَادِ، وَهُنَّ السَّبْعُ السَّنِينِ الْمُخَلَّالُ الَّتِي تَعْقِبُ هَذِهِ السَّبْعَ مُتَوَالِيَاتٍ، وَهِيَ الْبَقَرَاتُ الْعِجَافُ اللَّاتِي يَأْكُلْنَ السَّمَانَ، لِأَنَّ سِنِي الْجَذْبِ يُؤْكَلُ فِيهَا مَا جَمَعُوهُ فِي سِنِي الْخَضِيبِ، وَهُنَّ السَّنَبَلَاتُ الْيَابِسَاتُ. وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُنَّ لَا يُبَيِّنْنَ شَيْئًا، وَمَا بَدَّرُوهُ فَلَا يَزْجَعُونَ مِنْهُ إِلَى شَيْءٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ﴾. ثُمَّ بَشَّرَهُمْ بَعْدَ الْجَذْبِ الْعَامَ الْمُتَوَالِي بِأَنَّهُ يَعْثُبُهُمْ، بَعْدَ ذَلِكَ ﴿عَامٌ فِيهِ يَأْكُلُ النَّاسُ﴾، أَي: يَأْتِيهِمُ الْغَيْثُ، وَهُوَ الْمَطَرُ، وَتُغْلَى الْبِلَادُ، وَيَعْصِرُ النَّاسُ مَا كَانُوا يَعْصِرُونَ عَلَى عَادَتِهِمْ، مِنْ زَيْتٍ وَنَحْوِهِ، وَسُكَّرَ وَنَحْوِهِ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: يَدْخُلُ فِيهِ حَلَبُ اللَّبَنِ أَيْضًا. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾: يَحْلِيُونَ.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَوْفِي يَوْمٍ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَأَلُ الْمِسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَا أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْغَالِبِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَتَرْتُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَلِكِ لَمَّا رَجَعُوا إِلَيْهِ بِتَعْبِيرِ رُؤْيَا الَّتِي كَانَتْ بِمَا أَعْجَبَهُ وَأَيْنَقَهُ، فَعَرَفَ فَضْلَ يَوْسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَعِلْمَهُ، وَحَسَنَ إِطْلَاعِهِ عَلَى رُؤْيَا، وَحَسَنَ أَخْلَاقِهِ عَلَى مَنْ يَبْلَدُهُ مِنْ رِعَايَاهُ، فَقَالَ: ﴿أَتَوْتَنِي يَوْمًا﴾، أَي: أَخْرَجْتَهُ مِنَ السَّجْنِ وَأَحْضَرْتَهُ. فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ بِذَلِكَ امْتَنَعَ عَنِ الْخُرُوجِ حَتَّى يَتَحَقَّقَ الْمَلِكُ وَرَعِيَّتُهُ بَرَاءَةَ سَاحَتِهِ، وَنَزَاهَةَ عَرْضِهِ، مِمَّا تُسَبِّبُ إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، وَأَنَّ هَذَا السَّجْنَ لَمْ يَكُنْ عَلَى أَمْرِ يَنْتَضِيهِ، بَلْ كَانَتْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، قَالَ: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَأَلُ الْمِسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَا أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾. وَقَدْ وَرَدَتِ السَّنَةُ بِمَدْحِهِ عَلَى ذَلِكَ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِهِ وَشَرَفِهِ، وَعُلُوِّ قَدْرِهِ وَصَبْرِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

[٣٨٧٠] فَفِي الْمَسْنَدِ وَالصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشُّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُنَزِّلُ الْمَوْتَقَالَ أَوْلَمْ تَوْمِنَ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾» [البقرة: ٢٦٠]، وَيَرْحَمُ اللَّهُ لَوْطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السَّجْنِ مَا لَبِثْتُ يَوْسُفَ لِأَجْبَتِ الدَّاعِيَّةُ^(١).

[٣٨٧١] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا: حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَأَلَهُ مَا بَأَلُ الْمِسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَا أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٧٢ و ٤٥٣٧، ومسلم ١٥١ ح ٢٣٨، وابن ماجه ٤٠٢٦ وأحمد ٣٢٦/٢، والطبري في جامع البيان ٥٩٧٤ و ١٩٤٠٠ وابن حبان ٦٢٠٨ والطحاوي في مشكل الآثار ٣٢٦.

عَلَيْهِمْ، فقال رسول الله ﷺ: «لو كنتُ أنا لأسرعتُ الإجابةَ وما ابتغيثُ العُدْرَةَ»^(١).

[٣٨٧٢] وقال عبدُ الرزّاق: أخبرنا ابنُ عُيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لقد عَجِبْتُ من يوسفَ وصَبْرِهِ وَكَرَمِهِ، واللهُ يَغْفِرُ له، حينَ سُئِلَ عن البقراتِ العجافِ والسُّمانِ، ولو كنتُ مكانه ما أجبْتُهُم حتى أشتَرط أن يُخْرِجُونِي. ولقد عَجِبْتُ من يوسفَ وصبره وَكَرَمِهِ، واللهُ يَغْفِرُ له، حينَ أتاه الرسولُ، ولو كنتُ مكانه لبادرْتُهُم البابَ، ولكِنَّه أراد أن يكونَ له العُدْرَةُ»^(٢). هذا حديثٌ مُرسَلٌ. وقوله تعالى: «قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَدَدْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ»، إخبارٌ عن الملكِ حينَ جَمَعَ النسوةَ اللاتي قَطَعْنَ أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهنَّ كُلَّهنَّ، وهو يريدُ امرأةَ وزيره وهو العزيز: «مَا خَطْبُكَ»، أي: شأنُكَ وخبرُكَ «إِذْ رَدَدْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ»، يعني يومَ الضيافة، «قُلْتُ حَسْبَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ»، أي: قالت النسوةُ جواباً للملك: حاشَ اللهُ أن يكونَ يوسفُ مُتَمَهِّماً، والله ما عَلِمْنَا عليه من سُوءٍ. فعند ذلك «قَالَتْ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنِّ حَصَّصَ الْحَقُّ»، قال ابنُ عباس، ومجاهد، وغير واحد: تقول: الآن تَبَيَّنَ الْحَقُّ وظَهَرَ وَبَرَزَ. «أَنَا رَدَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا لِيَنَّ الصَّادِقِينَ»، أي في قوله: «هِيَ رَدَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي»، «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْتَهُ بِالْقَيْبِ»، تقول: إنما اعترفتُ بهذا على نفسي، ذلك ليعلمَ زوجي أنني لَمْ أَخْتَهُ في نفس الأمر، ولا وَقَعَ المحذورُ الأكبرُ، وإنما راودتُ هذا الشابَّ مُرَادَةً مُامْتَنِعَ، فلماذا اعترفتُ ليعلمَ أنني بريئة، «وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ»^(٣) وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي، تقول المرأة: ولستُ أبرئُ نفسي، فإن النفسَ تَتَحَدَّثُ وتَتَمَتَّى، ولهذا راودته لأنها أُمارة بالسوءِ، «إِلَّا مَا رَجَمَ رَبِّي»، أي: إلا من عَصَمَهُ اللهُ تعالى، «إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ». وهذا القولُ هو الأشهرُ والأليقُ والأنسبُ بسياقِ القِصَّةِ ومعاني الكلام. وقد حكاها الماورديُّ في تفسيره، وانتدبَ لنصره الإمامُ العلامةُ أبو العباسِ ابنُ تيميَّةَ - رَحِمَهُ اللهُ - فأفرده بتصنيفٍ على حِدَّةٍ.

وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام، من قوله: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْتَهُ» في زوجته «وَالْقَيْبِ»... الآيتين، أي: إنما رَدَدْتُ الرسولَ ليعلمَ الملكُ بَرَاءَتِي وليعلمَ العزيزُ «أَنِّي لَمْ أَخْتَهُ» في زوجته «وَالْقَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ»^(٤) وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، وهذا القولُ هو الذي لم يحكِ ابنُ جرير ولا ابنُ أبي حاتم سواه. وقال ابنُ جرير: حَدَّثَنَا أَبُو كَرِيبٍ، حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ، عن إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما جمع الملكُ النسوةَ فسألهن: هل راودتُنَّ يوسفَ عن نفسه؟ «قُلْتُ حَسْبَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ» قَالَتْ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنِّ حَصَّصَ الْحَقُّ قال يوسف: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْتَهُ بِالْقَيْبِ». قال: فقال له جبريلُ عليه السلام: ولا يومَ هَمَمْتَ بما هَمَمْتَ به؟ فقال: «وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ». وهكذا قال مجاهدٌ، وسعيد بن جبَّير، وعكرمة، وابنُ أبي الهذيل، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي. والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كُلُّهُ من كلامِ امرأةِ العزيزِ بحضرةِ الملكِ، ولم يكن يوسفُ - عليه السلام - عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملكُ.

«وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوفِّي بِهذهَ اسْتِخْلَاصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ»^(٥) قَالَ أَجْمَلَنِي عَلَيَّ

خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكَ

(١) أخرجه أحمد رقم ٨٥٣٥ و ٢٨٩/٢ رقم ٩٠٣٧. وقال الهيثمي في المجمع ٤٠/٧: رواه أحمد وفيه محمد ابن عمرو وهو حسن الحديث. وانظر تعليق أحمد شاكر: المسند رقم ٨٥٣٥.

(٢) مرسل. لكن يشهد له ما قبله، والله أعلم.

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف - عليه السلام - ونزاهة عرضه مما تُسبب إليه، قال: ﴿أَتُورِي بِهِ اسْتَنْطِغَةً لِيُنْفِي﴾، أي: أجعله من خاصتي وأهل مشورتي. ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾، أي: خاطبه الملك وعرفه ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خلق وحُلق وكَمال قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، أي: إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة، فقال يوسف - عليه السلام -: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره، للحاجة. وذكر أنه ﴿حَفِيظٌ﴾، أي: خازن أمين، ﴿عَلِيمٌ﴾، ذو علم وبصر بما يتولاه. وقال شيبه بن نعام: حَفِيظٌ لما استودعتني، عليم بيسي الجذب. رواه ابن أبي حاتم. وسأل العمل لِعَلِمِهِ بِقُدْرَتِهِ عَلَيْهِ، ولما في ذلك من المصالح للناس، وإنما سأل أن يُنَجَّلَ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ، وهي الامراء التي يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، ليتصرف لهم على الوجه الاحوط والاصلح والأرشيد. فأجيب إلى ذلك رغبة فيه، وتكرمة له، ولهذا قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ

الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا نُجْزِي الْأَخْيَرَ خَيْرَ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَأَنَّهُمْ يَتْلُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: أرض مصر، ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾. قال السدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء. وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء، بعد الضيق والحسب والإسار. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: وما أضعنا صنير يوسف على أذى إخوته، وصنبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلماذا أعقبه الله - عز وجل - السلامة والنصر والتأييد، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا نُجْزِي الْأَخْيَرَ خَيْرَ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَأَنَّهُمْ يَتْلُونَ ﴿٥٧﴾﴾، يخبر تعالى أن ما أذخره الله تعالى لنبيه يوسف - عليه السلام - في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما حوَّله من التصرف والنفوذ في الدنيا، كما قال تعالى في حق سليمان عليه السلام: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْكِرْ بِخَيْرٍ حِسَابٍ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لَكُلِّ شَيْءٍ كِتَابٍ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٣٩ - ٤٠]. والغرض أن يوسف - عليه السلام - ولأه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة في بلاد مصر، مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي زاودته، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام. قاله مجاهد. وقال محمد بن إسحاق: لما قال يوسف للملك: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، قال الملك: قد فعلت. فولاه فيما ذكروا عمل إطفير، وعزل إطفير عما كان عليه، يقول الله - عز وجل -: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾، قال: فذكر لي - والله أعلم - أن إطفير هلك في تلك الليالي، وأن الملك الريان بن الوليد زوج يوسف امرأة إطفير: راعيل، وأنها حين دخلت عليه قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريد؟ قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصديق، لا تلمني، فإني كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة، ناعمة في ملكٍ ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حُسنك وهيتك على ما رأيت. فيزعمون أنه وجدها عذراء، فأصابها فولدت له رجلين: أفرائيم بن يوسف، وميشا بن يوسف. وولد لأفرائيم ثورن، والد يوشع بن ثورن، ورحمة امرأة أيوب عليه السلام. وقال الفُضَيْل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته، والملوك عبيداً بمعصيته.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُورِي بَأْسَ

لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَرْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهٗ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحْلَتِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

ذكر السدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهما من المفسرين: أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف - عليه السلام - لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السبع السنين المخصصة، ثم تلتها سنين الجذب، وعمّ القحط بلاد مصر بكَمَالِها، ووصل إلى بلاد كنعان، وهي التي فيها يعقوب - عليه السلام - وأولاده. وحينئذ احتاط يوسف - عليه السلام - للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وأمرأة متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يُعطى الرجل أكثر من حمل بعير في السنة. وكان عليه السلام لا يُشبع نفسه ولا يأكل هو والمَلِكُ وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفى الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين. وكان رحمة من الله على أهل مصر. وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم في السنة الأولى بالأموال، وفي الثانية بالمتاع، وفي الثالثة بكذا، وفي الرابعة بكذا، حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعدما تملك عليهم جميع ما يملكون، ثم اعتقهم ورد عليهم أموالهم كلها، الله أعلم بصحة ذلك، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب. والغرض أنه كان في جملة من ورد للبيرة إخوة يوسف، عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يُعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعترضون بها طعاماً، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب - عليه السلام - عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف - عليهما السلام - وكان أحب ولده إليه بعد يوسف. فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أبيته ورياسته وسيادته عرفهم حين نظر إليهم، ﴿وَهُمْ لَمْ يُكْرَهُوا﴾، أي: لا يعرفونه، لأنهم فارقوه وهو صغير حدث فباعوه للسيارة، ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم. فذكر السدي وغيره أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمعكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ قالوا: أيها العزيز، إنا قدمنا للميرة. قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله. قال: له أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا، هلك في البرية، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبس أبوه ليتسلى به عنه. فأمر بإنزالهم وإكرامهم. ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾، أي: وقاهم كيلهم، وحمل لهم أعمالهم قال: اتنوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم، ﴿الْآلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَرْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، يُرْغِبُهُمْ فِي الرَّجُوعِ إِلَيْهِ. ثم رغبهم فقال: ﴿إِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ ﴿٦٠﴾، أي: إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ ﴿٦١﴾ قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهٗ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾، أي: سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه. وذكر السدي أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم، وفي هذا نظر؛ لأنه أحسن إليهم ورغبهم كثيراً وهذا لحرصه على رجوعهم. ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ﴾، أي: غلمانه، ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾، أي التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿فِي رِحْلَتِهِمْ﴾ أي: في امتعتهم من حيث لا يشعرون، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بها. قيل: خشي يوسف - عليه السلام - ألا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها. وقيل: تدمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام. وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم تحرجاً وتورعاً لأنه يعلم ذلك منهم. والله أعلم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أٰبِهَيْهِم قَالَوَا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَمُهَلِّفُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ؕ قَالَهٗ خَيْرٌ حَفِظْنَا وَهُوَ أَرْحَمُ

الرَّحِيمِ ﴿٦٤﴾

يخبر تعالى عنهم أنهم لما رجعوا إلى أبيهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾، يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا آخانا بنيامين فأرسله معنا نكتل. وقرأ بعضهم بالياء، أي: يكتل هو، ﴿وَأِنَّا لَمُهَلِّفُونَ﴾، أي: لا نخف عليه فإنه سرجع إليك. وهذا كما قالوا له في يوسف: ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا خَدًا يَرْتَعُ وَيَلْمَبُ وَإِنَّا لَمُهَلِّفُونَ ﴿٦٣﴾﴾، ولهذا قال لهم: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾، أي: هل أنتم صايغون به إلا كما صنعتهم بأخيه من قبل، تُغَيَّبُونَهُ عَنِّي، وتحولون بيني وبينه، ﴿قَالَهٗ خَيْرٌ حَفِظْنَا﴾، وقرأ بعضهم: ﴿حَفِظْنَا﴾، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾، أي: هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده علي، ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبِغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٌ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنُأَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مِن مَّوْفِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ ءِآءَ ٱللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُن مِّن مَّوْفِقًا قَالِ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهي التي كان أمر يوسف فتياها بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متاعهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبِغِي﴾، أي: ماذا نريد؟ ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾، كما قال قتادة: ما نبغي وزاء هذا! إن بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفى لنا الكيل. ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾، أي: إذا أرسلت آخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ﴾. وذلك أن يوسف - عليه السلام - كان يعطي كل رجل جمل بعير. وقال مجاهد: جمل جمار. وقد يُسمى في بعض اللغات بعيراً، كذا قال: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾، هذا من تمام الكلام وتحسينه، أي: إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهما ما يعيدل هذا. ﴿قَالَ لَنُأَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مِن مَّوْفِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: تحلفون باليهود والموائيق، ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ ءِآءَ ٱللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُن مِّن مَّوْفِقًا قَالِ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾. قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك، لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميزة التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم.

﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَجِدٍ وَادْخُلُوا مِن أٰبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ؕ إِنِ ٱلْحُكْمُ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِن حَيْثُ أَمَرَهُمْ ءَابُوهُم مَّا كَانَتْ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ؕ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهٗ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلٰكِنَ أَكْثَرَ ٱلنَّٰسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى إخباراً عن يعقوب - عليه السلام - : إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهما بنيامين إلى مصر ألا يدخلوا كلهم من باب واحد، ولیدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي وغير واحد: إنه خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال

وَهَيْبَةٌ حَسَنَةٌ، وَمَنْظَرٌ وَبِهَاءٍ، فَخَشِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَصِيبَهُمُ النَّاسُ بِعِيُونِهِمْ؛ فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، تَسْتَنْزِلُ الْفَارِسَ عَنْ فَرْسِهِ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ آيَاتِهِ مَنَافِقًا﴾، قَالَ: عَلِمَ أَنَّهُ سِيلِقِي إِخْوَتِهِ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَبْوَابِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ رِزْقَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، أَي: هَذَا الْاِحْتِرَازُ لَا يَرُدُّ قَدْرَ اللَّهِ وَقَضَاءَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ، ﴿إِنَّ الْمَلِكَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَاقُونَ بَقَضْنَاهَا، قَالُوا: هِيَ دَفْعُ إِصَابَةِ الْعَيْنِ لَهُمْ، ﴿وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾، قَالَ قَتَادَةُ وَالثَّوْرِيُّ: لَدُوٌّ عَمَلٌ يَعْلَمُهُ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لَدُوٌّ عَمَلٌ لَتَعْلِيمِنَا إِيَّاهُ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٦٨﴾

يَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾

يَخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ لَمَّا قَدِمُوا عَلَىٰ يُوسُفَ وَمَعَهُمْ أَخُوهُ شَقِيقُهُ بَنِيَامِينَ، فَأَدْخَلَهُمْ دَارَ كِرَامَتِهِ وَمَنْزِلَ ضِيَاغَتِهِ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةَ وَالْإِلْفَانَ وَالْإِحْسَانَ، وَاخْتَلَىٰ بِأَخِيهِ فَأَطْلَعَهُ عَلَىٰ شَأْنِهِ وَمَا جَرَىٰ لَهُ، وَعَرَفَهُ أَنَّهُ أَخُوهُ، وَقَالَ لَهُ: لَا تَبْتَئِسْ، أَي: لَا تَأْسَفْ عَلَىٰ مَا صَنَعْتُمَا بِي، وَأَمْرُهُ بِكُتْمَانِ ذَلِكَ عَنْهُمْ؛ وَالْأُفْ يُطْلِقُهُمْ عَلَىٰ مَا أَطْلَعَهُ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّهُ أَخُوهُ، وَتَوَاطَأَ مَعَهُ أَنَّهُ سَيَحْتَالُ عَلَىٰ أَنْ يُبْقِيَهُ عِنْدَهُ مُعَزَّزًا مُكْرَمًا مُعْظَمًا.

﴿لَمَّا جَهَّزَهُم بِمَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا الْيَهُودُ إِيَّاكُمْ لَسْرِقُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَيْمَنَ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ

زَعِيمٌ ﴿٧١﴾

لَمَّا جَهَّزَهُمْ وَحَمَّلَهُمْ أَبْعَثْتُهُمْ طَعَامًا أَمْرَ بَعْضِ فَتْيَانِهِ أَنْ يَضَعَ السَّقَايَةَ، وَهِيَ: إِنَاءَةٌ مِنْ فِضَّةٍ فِي قَوْلِ الْأَكْثَرِينَ. وَقِيلَ: مِنْ ذَهَبٍ - قَالَ ابْنُ زَيْدٍ - كَانَ يَشْرَبُ فِيهِ، وَيَكِيلُ النَّاسَ بِهِ مِنْ عَزَّةِ الطَّعَامِ إِذْ ذَاكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمَجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالضُّحَّاكُ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ، وَقَالَ شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي بَشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: صُوعَ الْمَلِكِ قَالَ: كَانَ مِنْ فِضَّةٍ يَشْرَبُونَ فِيهِ، كَانَ مِثْلَ الْمَكُوكِ، وَكَانَ لِلْعَبَّاسِ مِثْلُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَوَضَعَهَا فِي مَتَاعِ بَنِيَامِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ أَحَدٌ، ثُمَّ نَادَىٰ مَنَادٌ بَيْنَهُمْ: ﴿أَتَتْهَا الْيَهُودُ إِيَّاكُمْ لَسْرِقُونَ﴾، فَالْتَفَتُوا إِلَى الْمَنَادِ وَقَالُوا: ﴿مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ، أَي: صَاعَهُ الَّذِي يَكِيلُ بِهِ، ﴿وَلَيْمَنَ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْجَعَالَةِ، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾، وَهَذَا مِنْ بَابِ الضَّمَانِ وَالْكَفَالَةِ.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ﴿٧١﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٢﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ وُجْدٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ تَجْرَى الظَّلِيلِينَ ﴿٧٣﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن تَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٤﴾

لَمَّا اتَّهَمَهُمْ أَوْلَتْكَ الْفَتْيَانُ بِالسَّرِقَةِ قَالَ لَهُمْ إِخْوَةُ يُوسُفَ: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾، أَي: لَقَدْ تَحَقَّقْتُمْ وَعَلِمْتُمْ مِنْذُ عَرَفْتُمُونَا - لِأَنَّهُمْ شَاهَدُوا مِنْهُمْ سِيرَةً حَسَنَةً - أَنَا مَا جِئْنَا لِلْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾، أَي: لَيْسَتْ سَجَايَانَا تَقْتَضِي هَذِهِ الصَّفَةَ، فَقَالَ لَهُمُ الْفَتْيَانُ: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾، أَي: السَّارِقِ، إِنْ كَانَ فِيكُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾، أَي: أَي شَيْءٍ يَكُونُ عِقَابُهُ إِنْ وَجَدْنَا فِيكُمْ مِنْ أَخْذِهِ؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ وُجْدٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ تَجْرَى الظَّلِيلِينَ﴾ ﴿٧٣﴾. وَهَكَذَا كَانَتْ شَرِيعَةُ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ السَّارِقَ

يُدْفَعُ إِلَى الْمَسْرُوقِ مِنْهُ. وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَرَادَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَذَا «قَدْ بَأْوَعَيْتَهُمْ قَبْلَ وَطْأِ أَخِيهِ»، أَي: فَتَشَّاهَا قَبْلَهُ تَوْرِيَةً، «ثُمَّ اسْتَفْرَجَ بِهَا مِنْ وَطْأِ أَخِيهِ»، فَأَخَذَهُ مِنْهُمْ بِحُكْمِ اعْتِرَافِهِمْ وَالتَّزَامِهِمْ وَالتَّزَامَ لَهُمْ بِمَا يَعْتَقِدُونَهُ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: «كَذَلِكَ كَذَبْنَا يُوْسُفَ»، وَهَذَا مِنَ الْكَيْدِ الْمَحْبُوبِ الْمُرَادِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ وَبِرِضَاهُ، لَمَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْمَصْلَحَةِ الْمَطْلُوبَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ»، أَي: لَمْ يَكُنْ لَهُ أَخْذُهُ فِي حُكْمِ مَلِكِ مِصْرَ، قَالَ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ. وَإِنَّمَا قَبِضَ اللَّهُ لَهُ أَنْ التَّزَمَ لَهُ إِخْوَتَهُ بِمَا التَّزَمُوهُ، وَهُوَ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ شَرِيعَتِهِمْ، وَهَذَا مَدْحُهُ تَعَالَى فَقَالَ: «تَرَفَعُ دَرَجَتِكَ مَنْ نَشَأَ»، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوفُوا الْوَعْدَ أُولَئِكَ دَرَجَتُهُ» [المجادلة: ١١]، «وَوَفَّقَ كُلِّي ذِي عِلْمٍ عِلْمِي»، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَيْسَ عَالِمٌ إِلَّا فَوْقَهُ عَالِمٌ، حَتَّى يَتَهَيَّأَ إِلَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ. وَكَذَا رَوَى عَبْدِ الرَّزَّاقِ، عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى الثُّعْلَبِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ فَتَحَدَّثَ بِحَدِيثٍ عَجِيبٍ، فَتَعَجَّبَ رَجُلٌ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ «وَوَفَّقَ كُلِّي ذِي عِلْمٍ عِلْمِي»! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَشِّرْ مَا قُلْتَ! اللَّهُ الْعَلِيمُ، وَهُوَ فَوْقَ كُلِّ عَالِمٍ. وَكَذَا رَوَى سِمَّاكُ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «وَوَفَّقَ كُلِّي ذِي عِلْمٍ عِلْمِي»، قَالَ: يَكُونُ هَذَا أَعْلَمَ مِنْ هَذَا، وَهَذَا أَعْلَمَ مِنْ هَذَا، وَاللَّهُ فَوْقَ كُلِّ عَالِمٍ. وَهَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: «وَوَفَّقَ كُلِّي ذِي عِلْمٍ عِلْمِي»، حَتَّى يَنْتَهِيَ الْعِلْمُ إِلَى اللَّهِ، مِنْهُ بُدِئَ وَتَعَلَّمَتِ الْعُلَمَاءُ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: «وَوَفَّقَ كُلِّ عَالِمٍ عِلْمِي».

﴿قَالَ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لِي مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوْسُفُ فِي نَفْسِهِ، وَأَمَّ يُمِدَّهَا لَهُمْ قَالَ﴾

أَنْتُمْ سَرَّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

وَقَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لَمَّا رَأَوْا الصُّوَاعَ قَدْ أُخْرِجَ مِنْ مَتَاعِ بَنِيَامِينَ: «إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لِي مِنْ قَبْلُ»، يَتَنَصَّلُونَ إِلَى الْعَزِيزِ مِنَ التَّشْبِيهِ بِهِ، وَيَذْكُرُونَ أَنَّ هَذَا فَعَلَ كَمَا فَعَلَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ، يَعْنُونَ بِهِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنْ قَتَادَةَ: كَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ سَرَقَ صِنْمًا لَجَدِّهِ، أَبِي أُمِّهِ، فَكَسَرَهُ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: كَانَ أَوَّلُ مَا دَخَلَ عَلَى يُوسُفَ مِنَ الْبَلَاءِ - فِيمَا بَلَغَنِي - أَنَّ عَمَّتَهُ ابْنَةَ إِسْحَاقَ، وَكَانَتْ أَكْبَرَ وَلَدِ إِسْحَاقَ، وَكَانَتْ إِلَيْهَا يَنْطَلِقُ إِسْحَاقُ، وَكَانُوا يَتَوَارَثُونَهَا بِالْكِبَرِ، فَكَانَ مِنْ أُخْتَانِهَا مُنَّ وَلِيهَا كَانَ لَهُ سَلْمًا لَا يَتَّارَعُ فِيهِ، يَصْنَعُ فِيهِ مَا يَشَاءُ. وَكَانَ يَعْقُوبُ حِينَ وُلِدَ لَهُ يُوسُفَ قَدْ حَضَنَتْهُ عَمَّتُهُ، فَكَانَ مِنْهَا وَإِلَيْهَا، فَلَمْ يُحِبَّ أَحَدٌ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ حُبًّا إِيَّاهُ، حَتَّى إِذَا تَرَعَرَ وَبَلَغَ سِنُونَ وَقَعَتْ نَفْسُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ فَاتَاهَا، فَقَالَ: يَا أُخْتِي، سَلِّمِي إِلَيَّ يُوسُفَ، فَوَاللَّهِ مَا أَقْبِرُ عَلَى أَنْ يَغِيبَ عَنِّي سَاعَةً. قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا أَنَا بِتَارِكِيهِ. ثُمَّ قَالَتْ: قَدَعَهُ عِنْدِي أَيَّامًا أَنْظِرَ إِلَيْهِ وَأَسْكُنَ عِنْدَهُ، لَعَلَّ ذَلِكَ يُسَلِّينِي عَنْهُ، أَوْ كَمَا قَالَتْ: فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا يَعْقُوبُ، عَمَدَتْ إِلَى مَنْطِقَةِ إِسْحَاقَ، فَحَزَمَتْهَا عَلَى يُوسُفَ مِنْ تَحْتِ نِيَابِهِ، ثُمَّ قَالَتْ: فَقَدْتُ مَنْطِقَةَ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَانظَرُوا مِنْ أَخْذِهَا وَمِنْ أَصَابِهَا؟ فَالْتَمِسْتِ. ثُمَّ قَالَتْ: اكشِفُوا أَهْلَ الْبَيْتِ. فَكَشَفُوهُمْ، فَوَجَدُوهَا مَعَ يُوسُفَ. فَقَالَتْ: وَاللَّهِ إِنَّهُ لِي لَسَلِّمٌ، أَصْنَعُ فِيهِ مَا شِئْتُ. فَاتَاهَا يَعْقُوبُ فَأَخْبَرْتَهُ الْخَبِيرَ. فَقَالَ لَهَا: أَنْتِ وَذَلِكَ، إِنْ كَانَ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ سَلِّمٌ لَكَ مَا اسْتَطِيعَ غَيْرَ ذَلِكَ. فَامْسَكْتَهُ فَمَا قَدَّرَ عَلَيْهِ يَعْقُوبُ حَتَّى مَاتَتْ. قَالَ: فَهُوَ الَّذِي يَقُولُ إِخْوَةُ يُوسُفَ حِينَ صَنَعَ بِأَخِيهِ مَا صَنَعَ حِينَ أَخَذَهُ: «إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لِي مِنْ قَبْلُ». وَقَوْلُهُ: «فَأَسْرَهَا يُوْسُفُ فِي نَفْسِهِ»، يَعْنِي الْكَلِمَةَ الَّتِي بَعْدَهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ: «أَنْتُمْ سَرَّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ». أَي: تَذْكُرُونَ. قَالَ هَذَا فِي نَفْسِهِ، وَلَمْ يُبَيِّدْ لَهُمْ. وَهَذَا مِنْ بَابِ الْإِضْمَارِ قَبْلَ الذِّكْرِ، وَهُوَ كَثِيرٌ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

جَزَىٰ بِشَوْه أَبِي الْغِيَالِٰنِ عَنِ كَبِيْرٍ وَحُسْنِ فِعْلٍ كَمَا يُجْزَىٰ سِيْمًا
وله شواهد كثيرة من القرآن والحديث واللغة، في مشورها وأخبارها وأشعارها. قال العوفي، عن ابن
عباس: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي تَقْوِيْدٍ﴾، قال: أسر في نفسه: ﴿أَنْشَرُ سَرًّا مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُوْنَ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِيْنَ ﴿٧٨﴾﴾ قَالَ
مَكَادَ اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا نَظَرْنَا لِمُوتٍ ﴿٧٩﴾﴾

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم شرعوا يترقبون له ويغطفونه عليهم
فـ ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا﴾، يعنون: وهو يُحِبُّه حُبًّا شَدِيْدًا وَيَتَسَلَّى بِهِ عَنْ وَلَدِهِ الَّذِي فَقَدَهُ،
﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾، أي: بَدَلِهِ يَكُونُ عِنْدَكَ جَوْضًا عَنْهُ، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِيْنَ﴾، أي: من العادلين
المُنْصِفِيْنَ الْقَابِلِيْنَ لِلخَيْرِ، ﴿قَالَ مَكَادَ اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ﴾، أي: كما قلتم واعترفتم، ﴿إِنَّا
إِذَا نَظَرْنَا لِمُوتٍ﴾، أي إن أخذنا بريئاً بسقيم.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيْرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ
وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِيْنَ
﴿٨٠﴾﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلغَيْبِ
حَافِظِيْنَ ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُوْنَ ﴿٨٢﴾﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يتيسروا من تخلص أخيه بنيامين، الذي قد التزموا لأبيهم برده
إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك، ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾، أي: انفردوا عن الناس ﴿نَجِيًّا﴾ يتناجون فيما
بينهم. ﴿قَالَ كَبِيْرُهُمْ﴾، وهو زوبيل، وقيل: يهوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا
بقتله، قال لهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾، لتزده إليه، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم
ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾، أي: لن أفارق هذه البلدة، ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي
أَبِي﴾ في الرجوع إليه راضياً عني، ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾، قيل: بالسيف. وقيل: بأن يمكنني من أخذ أخي،
﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِيْنَ﴾، ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون عُذْرًا لَهُمْ عِنْدَهُ وَيَتَنَصَّلُوا إِلَيْهِ،
ويبرؤوا مما وقع بقولهم. وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلغَيْبِ حَافِظِيْنَ﴾ قال عكرمة وقتادة: ما نعلم أن ابنك سرق.
وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئاً، إنما سألنا: ما جزاء السارق؟
﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾، قيل: المراد مصر. قاله قتادة، وقيل: غيرها، ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾، أي:
التي رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وجراسيتنا، و ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُوْنَ﴾، فيما أخبرناك به، من أنه سرق
وأخذوه بسرته.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيْلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيْعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيْمُ
الْحَكِيْمُ ﴿٨٣﴾﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسُفِي عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيْمٌ ﴿٨٤﴾﴾
قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرْمًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِيْنَ ﴿٨٥﴾﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا
بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٨٦﴾﴾

قال لهم كما قال لهم حين جاؤوا على قَمِيصِ يوسفَ بدم كَذِبٍ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرًا جَمِيلًا﴾، قال محمد بن إسحاق: لما جاؤوا يعقوبَ وأخبروه بما جرى أَنَّهُمْ وَمَنْ لَهَا كَفَعَلْتَهُمْ بِيُوسُفَ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرًا جَمِيلًا﴾. وقال بعضُ الناس: لما كان صَنِيعُهُمْ هَذَا مُرْتَبًا عَلَى فِعْلِهِمْ الْأَوَّلِ سُحِبَ حُكْمُ الْأَوَّلِ عَلَيْهِ، وَصَحَّ قَوْلُهُ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرًا جَمِيلًا﴾. ثم تَرَجَّى مِنْ اللَّهِ أَنْ سِيرَ عَلَيْهِ أَوْلَادُهُ الثَّلَاثَةُ: يُوْسُفَ، وَأَخَاهُ بَنِيَامِينَ، وَرُوبِيْلَ الَّذِي أَقَامَ بَدْيَارَ مِصْرَ يَنْتَظِرُ أَمْرَ اللَّهِ فِيهِ، إِمَّا أَنْ يَرْضَى عَنْهُ أَبُوهُ فَيَأْمُرُهُ بِالرُّجُوعِ إِلَيْهِ، وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَ أَخَاهُ خَفِيَّةً، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾، أَي: الْعَلِيمُ بِحَالِي، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي أَعْمَالِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِمْ وَقَالَ تَكْسَفُ عَلَى يُوْسُفَ﴾، أَي: أَعْرَضَ عَنْ بَيْنِهِ وَقَالَ مُتَذَكِّرًا حُزْنَ يُوْسُفَ الْقَدِيمِ الْأَوَّلِ: ﴿يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوْسُفَ﴾، جَدُّ لَهُ حُزْنُ الْإِنْسَانِ الْحُزْنَ الدَّفِينِ. قَالَ عَبْدِ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا الثَّوْرِيُّ، عَنْ سَفْيَانَ الثُّعْلُقِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ قَالَ: لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ غَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْأَسْتِرْجَاعَ، أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْلِ يَعْقُوبَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: ﴿يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوْسُفَ وَابْتَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أَي: سَاكَتْ لَا يَشْكُو أَمْرَهُ إِلَى مَخْلُوقٍ. قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ كَتِيبَ حَزِينٍ.

[٣٨٧٣] قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ: يَا رَبِّ، إِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَسْأَلُونَكَ بِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، فَاجْعَلْنِي لَهُمْ رَابِعًا. فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: أَنْ يَا دَاوُدَ، إِنْ إِبْرَاهِيمَ أَلْقَى فِي النَّارِ بِسَبَبِي فَصَبِّرْ، وَتِلْكَ بَلِيَّةٌ لَمْ تَنَلْكَ، وَإِنْ إِسْحَاقَ بِذَلِكَ مَهْجَةً دَمِهِ فِي سَبَبِي فَصَبِّرْ، وَتِلْكَ بَلِيَّةٌ لَمْ تَنَلْكَ. وَإِنْ يَعْقُوبَ أَخَذَتْ مِنْهُ حَبِيْبَةٌ حَتَّى ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ، فَصَبِّرْ، وَتِلْكَ بَلِيَّةٌ لَمْ تَنَلْكَ»^(١). وَهَذَا مَرْسَلٌ، وَفِيهِ نِكَارَةٌ؛ فَإِنَّ الصَّحِيحَ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ هُوَ الدَّبِيحُ، وَلَكِنْ عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ بْنُ جُدْعَانَ لَهُ مَنَاقِبُ وَغَرَائِبُ كَثِيرَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَأَقْرَبُ مَا فِي هَذَا أَنْ يَكُونَ قَدْ حَكَاهُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنْ بَعْضِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَعَبِ وَوَهَبٍ وَنَحْوِهِمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ يَنْقَلِبُونَ أَنَّ يَعْقُوبَ كَتَبَ إِلَى يُوْسُفَ لَمَّا احْتَبَسَ أَخَاهُ بِسَبَبِ السَّرْقَةِ يَتَلَطَّفُ لَهُ فِي رَدِّ ابْنِهِ، وَيَذَكِّرُ لَهُ أَنَّهُمْ أَهْلُ بَيْتِ مِصْرَ وَبِالْبَلَاءِ، فَبِإِبْرَاهِيمَ ابْتُلِيَ بِالنَّارِ، وَإِسْحَاقَ بِالدَّبِيحِ، وَيَعْقُوبَ بِفِرَاقِ يُوْسُفَ، فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ لَا يَصِحُّ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - فَعِنْدَ ذَلِكَ رَقِيَ لَهُ بَنُوهُ، وَقَالُوا لَهُ عَلَى سَبِيلِ الرَّفْقِ بِهِ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْهِ: ﴿تَأَلَّوْا تَقْتَرُوا تَذَكَّرْ يُوْسُفَ﴾، أَي: لَا تَفَارِقْ تَذَكَّرْ يُوْسُفَ، ﴿حَقٌّ تَكُونُ حَرَمًا﴾ أَي ضَعِيفَ الْجِسْمِ، ضَعِيفَ الْقُوَّةِ، ﴿أَوْ تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾، يَقُولُونَ: وَإِنْ اسْتَمَرَّ بِكَ هَذَا الْحَالُ خَشِينَا عَلَيْكَ الْهَلَاكَ وَالتَّلَفَ. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرَيَّةَ إِلَى اللَّهِ﴾، أَي: أَجَابَهُمْ عَمَّا قَالُوا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرَيَّةَ﴾، أَي: غَمِّي وَمَا أَنَا فِيهِ ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وَحَدَّهُ، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أَي: أَرْجُو مِنْهُ كُلَّ خَيْرٍ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أَعْلَمُ أَنْ رُؤْيَا يُوْسُفَ صَادِقَةٌ وَأَنِّي سَوْفَ أَسْجُدُ لَهُ.

[٣٨٧٤] وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَرَفَةَ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي غَنْيَةَ، عَنْ حَفْصِ بْنِ غَمْرٍ، عَنْ أَبِي الزَّبِيرِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَانَ لِيَعْقُوبَ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَخٌ مُؤَاخٍ لَهُ، فَقَالَ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ: مَا الَّذِي أَذْهَبَ بَصْرَكَ وَقَوَسَ ظَهْرَكَ؟ قَالَ: الَّذِي أَذْهَبَ

(١) لَا أَسْلُ لَه فِي الْمَرْفُوعِ. فَهُوَ مَرْسَلٌ، وَفِيهِ عِنْدَ الْحَسَنِ، وَفِي إِسْنَادِهِ عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ ضَعِيفٌ رَوَى مَنَاقِبَ كَثِيرَةً، وَرَجَّحَ ابْنُ كَثِيرٍ كَوْنَهُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ.

بَصْرِي البكاء على يوسف، وأما الذي قَوَسَ ظهري فالحزنُ على بنيامينَ. فاتاه جبريل - عليه السلام - فقال: يا يعقوبُ، إن الله يُقرئك السلام ويقول لك: أما تَسْتَحْيِي أن تشكروني إلى غيري؟ فقال يعقوبُ: إنما أشكركم بَنِي وَحزني إلى الله. فقال جبريل - عليه السلام -: الله أعلم بما تشكرو^(١). وهذا حديث غريب، فيه نكارة.

﴿يَبْقَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكُفْرُومُ﴾ (٨٧) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الْفُرُؤُا وَجِئْنَا بِضِعْمَةٍ مُرْتَدِدَةٍ فَاقْرُبْنَا إِلَيْكَ وَالْكَفَالُ وَالصَّدَقَاتُ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ مَوْلَانَا سَأَلْنَاهُ مِنْ قَبْلِ وَجَدْنَا عَلَيْهِ كِتَابَ الْعَزِيزِ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى الْفُؤَادِ أَن نَبْنِيَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَدِينًا مِثْلَ الْمَدِينَةِ الَّتِي بَنَيْنَا لَلْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِهِ وَأَنَّ إِلَهُنَا لَعَلِيمٌ ذَاتُ الْحُرْمَةِ فَلَقِيَ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ أَجْمَعُونَ وَاللَّيْلِ إِذَا يَخُصُّ فَتَوَالَى نَادُوا وَالصَّوْبُ إِذَا جِئُوا مِنْهَا يَخَسُّونَ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا تِلْكَ الْأُمَّةَ وَجَعَلْنَا فِيهَا قُلُوبًا فَرِحُوا وَيَلْقَوْنَ فِيهَا كُفْرًا كَلْبًا لَئِن كُنَّا فِيهَا لَمُبْسُطِينَ لَقَدْ كَرَّمْنَا تِلْكَ الْأُمَّةَ وَجَعَلْنَا فِيهَا قُلُوبًا فَرِحُوا وَيَلْقَوْنَ فِيهَا كُفْرًا كَلْبًا لَئِن كُنَّا فِيهَا لَمُبْسُطِينَ﴾ (٨٨) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا تِلْكَ الْأُمَّةَ وَجَعَلْنَا فِيهَا قُلُوبًا فَرِحُوا وَيَلْقَوْنَ فِيهَا كُفْرًا كَلْبًا لَئِن كُنَّا فِيهَا لَمُبْسُطِينَ﴾ (٨٩) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا تِلْكَ الْأُمَّةَ وَجَعَلْنَا فِيهَا قُلُوبًا فَرِحُوا وَيَلْقَوْنَ فِيهَا كُفْرًا كَلْبًا لَئِن كُنَّا فِيهَا لَمُبْسُطِينَ﴾ (٩٠)

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب - عليه السلام - أنه نذَّبَ بَيْنَهُ على الذُّعَابِ في الأرض، يَسْتَعْلِمُونَ أَخْبَارَ يوسف وأخيه بنيامين - والتَحَسُّسُ يكون في الخير، والتَجَسُّسُ يستعملُ في الشرِّ - وَنَهَضَهُمْ وَبَشَّرَهُمْ وَأمرهم أَلَّا يَبْأَسُوا ﴿مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾، أي: لا يقطعوا رَجَاءَهُمْ وَأملَهُم من الله فيما يُرْومونه وَيَقْصِدُونَهُ، فإنه لا يقطعُ الرَّجَاءَ وَيقطعُ الإيَّاسِ من الله إلا القَوْمُ الكَافِرُونَ. وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾، تقديرُ الكلام: فَذَهَبُوا فَدَخَلُوا بلد مصر، وَدَخَلُوا على يوسف، ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الْفُرُؤُا﴾، يعنون من الجَدْبِ والقَحْطِ وقلة الطعام، ﴿وَجِئْنَا بِضِعْمَةٍ مُرْتَدِدَةٍ﴾، أي: ومعنا ثمنُ الطعام الذي نمتازه، وهو ثمنٌ قليل. قاله مجاهدٌ، والحسنُ، وغيرُ واحد. وقال ابنُ عباس: الرديءُ لا يَنْفَعُ، مثل خَلْقِ الغرارة، والحَبْلِ، والشيء. وفي رواية عنه: الدراهمُ الرديئة التي لا تحوزُ إلا بنقصان. وكذا قال قتادة، والسدي. وقال سعيد بن جبیر: هي الدراهم الفُسُول. وقال أبو صالح: هو الصُّنْبُورُ وحبُّ الخضراء. وقال الضحاك: كاسدة لا تنفقُ، وقال أبو صالح: جاؤوا بِحَبِّ البَطْمِ الأخضر والصُّنْبُورِ. وأصلُ الإزْجاء: الدفْعُ لضعف الشيء، كما قال حاتم الطائي:

لَيْبِكَ عَلَى مِلْحَانَ ضَيْفٍ مُدْفَعٍ وَأَرْمَلَةٌ تُزْجِي مَعَ اللَّيْلِ أَرْمَلًا
وقال أعشى بني ثعلبة:

السَّوَاهِبُ الْمَائَةِ الْهَجَانِ وَعَبِيدُهَا عُرُودًا تُزْجِي خَلْفَهَا أَطْفَالَهَا

وقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿فَأَقْرِبْزُ رَكَابِنَا وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾، أي: أعطينا بهذا الثمن القليل ما كنت تُعطينا قبل ذلك. وقرأ ابن مسعود: ﴿فَأَقْرِبْزُ رَكَابِنَا وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾. وقال ابن جريج: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بِرَدِّ أَخِينَا إِلَيْنَا. وقال سعيد بن جبیر والسدي: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾، يقولون: تَصَدَّقْ عَلَيْنَا بِبَعْضِ هَذِهِ الْبِضَاعَةِ الْمُرْجَاةِ، وَتَجَوُّزُ فِيهَا. وَسُئِلَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: هَلْ حُرِّمَتِ الصَّدَقَةُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالَ: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ: ﴿فَأَقْرِبْزُ رَكَابِنَا وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾؟. رواه ابن جرير، عن الحارث، عن القاسم، عنه. وقال ابن جرير: حَدَّثَنِي الْحَارِثُ، حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، حَدَّثَنَا مَرْوَانَ بْنِ مَعَاوِيَةَ، عَنْ عَثْمَانَ بْنِ الْأَسَدِ: سَمِعْتُ مَجَاهِدًا وَسُئِلَ: هَلْ يُكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ فِي دَعَاةٍ: اللَّهُمَّ تَصَدَّقْ عَلَيَّ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، إِنَّمَا الصَّدَقَةُ لِمَنْ يَبْتَغِي الثَّوَابَ.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (٨٨) ﴿قَالُوا أَوَلَيْكَ لَأَنَّ يُّوسُفَ قَالَ أَنَا

يُّوسُفَ وَهَذَا أَحْيَى قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ بَنِي وَيَسَّ وَبَصِيرَ فَإِنَّكَ اللَّهُ لَا يُضْمِعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٩)

(١) إسناده ضعيف جداً، فيه حفص بن عمر ضعفه الأزدي كما في الميزان ٢١٥٦ وثقه ابن حبان ١٥٣/٤ على قاعدته في توثيق المجاهيل، والأشبه في هذا الحديث أنه متلفن عن أهل الكتاب، ولا أصل له في المرفوع، والله أعلم.

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ مَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوسف - عليه السلام - : أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الحذب . وتذكر أباه وما هو من الحزن لفقد ولديه ، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة ، فعند ذلك أخذته رقة ورافة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته ، وبدره البكاء ، فتعرف إليهم ، يقال : إنه رفع التاج عن جبهته ، وكان فيها شامة ، وقال : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَؤُسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتَرْتُمْ جَهْلُوتَ ﴾ ، يعني : كيف فرقوا بينه وبينه ﴿ إِذْ أَنْتَرْتُمْ جَهْلُوتَ ﴾ ، أي : إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه ، كما قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ، وقرأ : ﴿ ثُمَّ إِذْ رَمَيْتَ بِرَبِّكَ الْشُّوَّةَ يَجْهَلُونَ ﴾ . . . إلى قوله : ﴿ إِنَّكَ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل : ١١٩] . والظاهر - والله أعلم - أن يوسف - عليه السلام - إنما تعرف إليهم بنفسه ، بل إن الله تعالى له في ذلك ، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك - والله أعلم - ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٩٣﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الشرح : ٥ - ٦] ، فعند ذلك قالوا : ﴿ أَوَلَمْ نَكْ لَأَنْتَ يُؤُسُفُ ؟ ﴾ وقرأ أبي بن كعب : ﴿ أَوَ أَنْتَ يَؤُسُفُ ﴾ ، وقرأ ابن محيصين : ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ يَؤُسُفُ ﴾ ، والقراءة المشهورة هي الأولى ، لأن الاستفهام يدل على الاستعظام ، أي : إنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر ، وهم لا يعرفون ، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه ، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام : ﴿ أَوَلَمْ نَكْ لَأَنْتَ يُؤُسُفُ ؟ ﴾ قَالَ أَنَا يُؤُسُفُ وَهَذَا أَخِي . وقوله : ﴿ قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ ، أي : بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة ، ﴿ إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصِيرَ لَبَّكَ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ مَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩٥﴾ ، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق ، والسعة ، والملك ، والتصرف والنبوة أيضاً - على قول من لم يجعلهم أنبياء - وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطوا في حقه ﴿ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ ﴾ ، يقول : لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم ، ولا أعيد ذنبكم في حقي بعد اليوم . ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال : ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ . قال السدي : اعتذروا إلى يوسف ، فقال : ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ ﴾ ، يقول : لا أذكر لكم ذنبكم . وقال ابن إسحاق والثوري : ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ ﴾ ، أي : لا تأنيب عليكم عندي فيما صنعتم ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي : يستر الله عليكم اليوم فيما فعلتم ، ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقَوَّةَ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٩٦﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُؤُسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٧﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٨﴾

يقول : اذهبوا بهذا القميص ، ﴿ فَالْقَوَّةَ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا ﴾ ، وكان قد عمي من كثرة البكاء ، ﴿ وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، أي : بجمع بني يعقوب . ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ ، أي : خرجت من مصر ، ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ ، يعني يعقوب - عليه السلام - لمن بقي عنده من بنيه : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُؤُسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ ، تنسبونني إلى القند والكبير . قال عبد الرزاق : أنبأنا إسرائيل ، عن أبي سينان ، عن عبد الله بن أبي الهذيل قال : سمعت ابن عباس يقول : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ ، قال : لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح

قَمِيصَ يَوْسُفَ فَقَالَ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُنذِرُونِ﴾، قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام. وكذا رواه سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وشعبة، وغيرهما، عن أَبِي سَيَّانٍ، به. وقال الحسن وابن جُرَيْجٍ: كان بينهما ثمانون فرسخاً، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة. وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَن تُنذِرُونِ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وقناة، وسعيد بن جبيرة: تُسَفِّهُونَ، وقال مجاهد أيضاً، والحسن: تُهَرِّمُونَ. وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَنِي سَكَبِكَ الْكَفِيرِ﴾، قال ابن عباس: لفي خَطِيئِكَ القديم. وقال قناة: أي من حُبِّ يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لو الدهم كَلِمَةٌ غَلِيظَةٌ، لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لو الدهم، ولا لنبي الله ﷺ. وكذا قال السدي، وغيره.

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا بَنَاتَنَا آسَفْنَا لَنَا ذُنُوبًا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

قال ابن عباس والضحاك: ﴿الْبَشِيرُ﴾ البريد، وقال مجاهد، والسدي: كان يهوذا بن يعقوب. قال السدي: إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو مُلَطَّخٌ بدم كَذِبٍ، فأراد أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص فالفاه على وجه أبيه، فرجع بصيراً. وقال لبيبة عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: أعلم أن الله سيرده إلي، وقلت لكم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُنذِرُونِ﴾. فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له: ﴿يَبَاتَانَا آسَفْنَا لَنَا ذُنُوبًا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾، أي: من تاب إليه تاب عليه. قال ابن مسعود، وإبراهيم التيمي، وعمرو بن قيس، وابن جُرَيْجٍ، وغيرهم: أَرْجَاهُمْ إِلَى وَقْتِ السَّحَرِ. وقال ابن جرير: حَدَّثَنِي أَبُو السَّائِبِ، حَدَّثَنَا ابْنُ إِدْرِيسَ، سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ إِسْحَاقَ يَذْكُرُ عَنْ مُحَارِبِ بْنِ دِثَارٍ قَالَ: كَانَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَأْتِي الْمَسْجِدَ فَيَسْمَعُ إِنْسَانًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ دَعَوْتَنِي فَاجِبْتُ، وَأَمَرْتَنِي فَاطَعْتُ، وَهَذَا السَّحَرُ فَاغْفِرْ لِي. قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود. فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أحر بنيه إلى السحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾. وقد وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ لَيْلَةَ جُمُعَةٍ، كَمَا قَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ أَيْضًا:

[٣٨٧٥] حَدَّثَنِي الْمثنى، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبُو أَيُّوبَ الدَّمَشَقِيُّ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ، أَبَانَا ابْنَ جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ وَعِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾، يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة، وهو قول أخي يعقوب لبنيه^(١). وهذا غريب من هذا الوجه، وفي رفعه نظر، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبُويَهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَاْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبُويَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا بَنَاتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ١٩٨٨٠ و ١٩٨٨١ وإسناده ساقط، فيه عننة ابن جريج، ولا يشمل مثل هذا، فإن سليمان بن عبد الرحمن، وقع في حديثه بعض الموضوعات قال أبو حاتم عنه: لو أن رجلاً وضع له حديثاً لم يفهمه أهـ والأشبه كونه من كلام ابن عباس.

يخبرُ تعالى عن زُرُودِ يعقوب - عليه السلام - على يوسف - عليه السلام - وقُدومه بلادَ مصر، لما كان يوسف قد تقدّم إلى إخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فَتَحَمَّلُوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعانَ قاصدين بلاد مصر، فلما أخبر يوسف - عليه السلام - باقترابهم خَرَجَ لِتَلْقِيهِمْ، وأمر الملك أمراهه وأكابرَ الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب - عليه السلام - ويقال: إن الملك خَرَجَ أيضاً لتلقيه، وهو الأشبه. وقد أشكل قوله: ﴿ءَأَوَيْتَ إِلَىٰ أَبِيوَيْوَيْ وَقَالَ أَدْخُلُوا مِصْرَ﴾ على كثير من المفسرين، فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام. وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين. وآوى إليه أبويه، ورفعهما على العرش. وقد رَدَّ ابْنُ جَرِيرٍ هذا وأجادَ في ذلك. ثم اختارَ ما حكاه عن السُدِّيِّ: أن يوسفَ آوى إليه أبويه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا بابَ البلد قال: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾. وفي هذا نظرٌ أيضاً، لأنَّ الإيواء إنما يكونُ في المنزل، كقوله: ﴿ءَأَوَيْتَ إِلَىٰ أَخَاهُ﴾.

[٣٨٧٦] وفي الحديث: «مَنْ آوَى مُحْدِثًا»^(١)، وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآوَاهم إليه: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ﴾، وضمَّته: اسكنوا مصر؟ «إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ»، أي: مما كُتِبَ فيه من الجهدِ والقَخطِ، ويُقالُ - والله أعلم - إن الله تعالى رَفَعَ عن أهل مصر بقيةَ السنينِ المُجَدَّبَةِ ببركةِ قُدومِ يعقوبَ عليهم.

[٣٨٧٧] كما رَفَعَ بَقِيَّةَ السنينِ التي دعا بها رسولُ الله ﷺ على أهل مَكَّةَ حين قال: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعِ كَسْبِجِ يَوْسُفَ»^(٢)، ثم لما تَضَرَّعُوا إليه واستشفَّعُوا لديه وأرسلوا أبا سفيان في ذلك، فدعا لهم، فَرَفَعَ عنهم بَقِيَّةَ ذلك ببركةِ دعائه عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿ءَأَوَيْتَ إِلَىٰ أَبِيوَيْوَيْ﴾، قال السُدِّيُّ، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه وخالته، وكانت أمه قد ماتت قديماً. وقال محمدُ بن إسحاق وابنُ جرير: كان أبوه وأمه يعيشان. قال ابن جرير: ولم يُقَمَّ دليل على موت أمه، وظاهرُ القرآن يدل على حَيَاتِهَا. وهذا الذي نَصَرَهُ هو التصوُّر الذي يدل عليه السياق. وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبِيوَيْوَيْ عَلَى الْمَرْثِ﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وغيرُ واحد: يعني السرير، أي: أجلسهما معه على سريرِهِ. ﴿وَحَرَّوْا لَهُ سُبْدًا﴾، أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحدَ عشر رجلاً، ﴿وَقَالَ يَتَابِعُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: التي كان قصصها على أبيه من قبل ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلّموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لَدُنْ آدمَ إلى شريعةِ عيسى - عليه السلام - فحرِّمَ هذا في هذه الملة، وجعلَ السجودَ مختصاً بجنابِ الرب سبحانه وتعالى. هذا مضمون قول قتادة وغيره.

[٣٨٧٨] وفي الحديث، أن معاذاً قديم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسولِ الله ﷺ فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: «إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحقُّ أن يسجدَ لك يا رسول الله! فقال: «لو كنتُ أمراً أحداً أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ الزوجةَ أن تسجدَ لزوجها من عِظَمِ حَقِّه عليها»^(٣).

[٣٨٧٩] وفي حديث آخر: أن سلمانَ لقي النبي ﷺ في بعض طُرُقِ المدينة، وكان سلمانُ حديثَ عهدٍ

(١) صحيح . هو بعض حديث أخرجه البخاري ١٨٧٠ ومسلم ١٣٧٠ و ١٩٧٨ وتقدم تخريجه .

(٢) صحيح . أخرجه البخاري ١٠٠٧ و ١٠٢٠، ومسلم ٢٧٩٨ ح ٤٠ وأحمد ١/ ٣٨٠ والترمذي ٣٢٥٤ من طرق عن ابن مسعود .

(٣) تقدم تخريجه في أول البقرة باستيفاء .

بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ فقال: «لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحَيِّ الذي لا يَمُوت»^(١). والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم، ولهذا خَرَّوا له سجداً فعندها قال يوسف: «يَكَاذِبُونَ هَذَا تَأْوِيلُ رُبِّيكَ مِنْ قَبْلِ قَدْ جَمَلَهَا رَبِّي حَقًّا»، أي هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ»، أي: يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا من خيرٍ وشرٍ.

وقوله تعالى: «قَدْ جَمَلَهَا رَبِّي حَقًّا»، أي: صحيحة صدقاً. يذكر نعم الله عليه، «وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ»، أي: البادية. قال ابن جرير وغيره: كانوا أهل بادية وماشية، وقال: كانوا يسكنون بالعزبات من أرض فلسطين، من غور الشام، قال: وبعض يقول: كانوا بالأولاج من ناحية شغب أسفل من حنسى، وكانوا أصحاب بادية وشاء وإبل. «مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ»، أي: إذا أراد أمراً قَيَّضَ له أسباباً ويسره وقدره. «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ» بمصالح عباده «الْحَكِيمُ» في أفعاليه وأقواله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده.

قال أبو عثمان النهدي، عن سلمان: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة. قال عبد الله بن شداد: وإليها ينتهي أقصى الرؤيا. رواه ابن جرير. وقال أيضاً: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا عبد الوهاب الثقفي، حدثنا هشام، عن الحسن قال: كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة، لم يفارق في الحزن قلبه، ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب. وقال هشيم، عن يونس، عن الحسن: ثلاث وثمانون سنة. وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: ألقى يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، فغاب عن أبيه ثمانين سنة. وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة، فمات وله عشرون ومئة سنة. وقال قتادة: كان بينهما خمس وثلاثون سنة. وقال محمد بن إسحاق: ذكر - والله أعلم - أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمانين سنة، قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها، وأن يعقوب - عليه السلام - بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قبضه الله إليه. وقال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: دخل بنو إسرائيل مصر، وهم ثلاثة وستون إنساناً، وخرجوا منها وهم ستمئة ألف وسبعون ألفاً. وقال أبو إسحاق، عن مسروق: دخلوا وهم ثلاثمئة وتسعون من بين رجل وامرأة. والله أعلم. وقال موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن شداد: اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنساناً، صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وخرجوا منها وهم ستمئة ألف وثيِّف.

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

هذا دعاء من يوسف دعا به ربه - عز وجل - لما تمت النعمة عليه، باجتماعه بأبويه وإخوته، وما من الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه - عز وجل - كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه. قاله الضحاك، وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وهذا الدعاء يحتل أن يوسف - عليه السلام - قاله عند احتضاره.

(١) مضى في سورة البقرة عند الآية ٣٤. وحديث سلمان بمفرده ضعيف غير معروف، والمشهور في ذلك حديث معاذ، لكن اضطربوا في ألفاظه.

[٣٨٨٠] كما ثبت في الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - : أن رسول الله ﷺ جعل يرفع إصبعه عند الموت، ويقول: «اللهم في الرفيق الأعلى، اللهم في الرفيق الأعلى، اللهم في الرفيق الأعلى»^(١). ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا حان أجله، وانقضى عمره، لا أنه سأل ذلك مُنْجِزاً، كما يقول الداعي لغيره: أمانك الله على الإسلام. ويقول الداعي: اللهم أحيينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقتنا بالصالحين. ويحتمل أنه سأل ذلك مُنْجِزاً، وكان ذلك سائغاً في ملتهم، كما قال قتادة قوله: «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ»، لما جمع الله شمله وأقر عينه، وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها ونصارتها، فاشتاق إلى الصالحين قبله، وكان ابن عباس يقول: ما تمئني نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام.

وكذا ذكر ابن جرير، والسدي عن ابن عباس: أنه أول نبي دعا بذلك. وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام، كما أن نوحاً أول من قال: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا» [نوح: ٢٨]، ويحتمل أنه أول من سأل إنجاز ذلك، وهو ظاهر سياق قتادة، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا.

[٣٨٨١] قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله -: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان لا بد متمنياً الموت فليقل: اللهم أخيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»^(٢).

[٣٨٨٢] وأخرجه في الصحيحين، وعندهما: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً فيزداد، وإما مُسِيئاً فلعله يستعتب، ولكن ليقل: اللهم، أخيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»^(٣).

[٣٨٨٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معان بن رفاعه، حدثني علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ورققنا، فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء، فقال: يا ليتني ميت! فقال النبي -: «يا سعد أعندي تتمتى الموت؟» فرد ذلك ثلاث مرات، ثم قال: «يا سعد، إن كنت خلقت للجنة، فما طال عمرك، أو حسن من عملك، فهو خير لك»^(٤).

[٣٨٨٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس - هو سليم بن جبير - عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدعون به من قبل أن يأتيه، إلا أن يكون قد وثق بعمله، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمله إلا خيراً»^(٥). تفرد به أحمد. وهذا فيما إذا كان الضرراً خاصاً به، أما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهدهم بالقتل، قالوا: «رَبَّنَا آفِقْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ»

(١) متفق عليه، وتقدم.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ١٠١/٣ ح ١١٩١٩، وانظر ما بعده.

(٣) صحيح أخرجه البخاري ٦٣٥١، ومسلم ٢٦٨٢، وأبو داود ٣١٠٩، وأحمد ٥١٤/٢ والنسائي ٣/٤، وابن ماجه ٤٢٦٥ من طرق عن أنس بن مالك.

(٤) ضعيف، أخرجه أحمد ٢٦٧/٥ والطبراني ٧٨٧٠، قال الهيثمي في «المجمع» ١٧٥٤٤: فيه علي بن يزيد الألهماني متروك أمه، وفيه القاسم بن عبد الرحمن ضعفه غير واحد، روى مناكير كثيرة، ومعان بن رفاعه غير قوي.

(٥) أخرجه أحمد ٣٥٠/٢ من حديث أبي هريرة، وفي إسناده ابن لهيعة، ضعفه الجمهور. ولصدره شواهد.

[الأعراف: ١٢٦]، وقالت مريم لما أجهدها المخاض - وهو الطلئ - إلى جذع النخلة: ﴿يَلَيْتَنِي مِثَّ قَبَلْ هَذَا وَكُنْتُ سَيًّا مَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]، لما تعلم من أن الناس يقذفونها بالفاحشة، لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت وولدت، فيقول القائل أتى لها هذا؟ ولهذا واجهوها أولاً بأن قالوا: ﴿يَمْرَهُمْ لَقَدْ جِئْتِ سَيًّا فَرِيًّا﴾ [١٧] يتأخترهن ما كان أبولو أمراً سوو وما كانت أملي بيك [١٨] [مريم: ٢٧ - ٢٨]. فجعل الله لها من ذلك الحال فرجاً ومخرجاً، وأنطق الصبي في المهمل بأنه عبد الله ورسوله، كان آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه.

[٣٨٨٥] وفي حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي، في قصة المنام والدعاء الذي دعا فيه: «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون»^(١).

[٣٨٨٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة، أخبرنا عبد العزيز بن محمد، عن عمرو بن عمرو بن قتادة عن محمود بن لبيد أن النبي ﷺ قال: «اثنان يكرههما ابن آدم: الموت، والموت خير للمؤمن من الفتنة، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب»^(٢). فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت، ولهذا قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في آخر إمارته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له، ولا يزداد الأمر إلا شدة قال: اللهم، خذني إليك فقد سئمتهم وسئمتوني. وقال البخاري - رحمه الله - لما وقعت له تلك الميخنة وجري له ما جرى مع أمير خراسان: اللهم، توفني إليك.

[٣٨٨٧] وفي الحديث: «إن الرجل ليمر بالقبور - أي في زمان الدجال - فيقول: يا ليتني مكانك»^(٣)، لما يري من الفتن والزلازل والبلابل، والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون. قال أبو جعفر بن جرير: وذكر أن بني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا، استغفر لهم أبوهم، فتاب الله عليهم وعفا عنهم، وعفّر لهم ذنوبهم.

ذكر من قال ذلك: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني حجاج، عن صالح المرئي، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال: إن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله، وأقر عينه خلا ولده نجياً، فقال بعضهم لبعض: ألسنم قد علمتم ما صنعتم وما لقي منكم الشيخ، وما لقي منكم يوسف؟ قالوا: بلى. قال: فيغركم عفوها عنكم، فكيف لكم بركم؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه، ويوسف إلى جنب أبيه قاعداً، قالوا: يا أبانا، إنا أتيناك في أمر لم نأتك في مثله قط، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله. حتى حركوه، والأنبياء - عليهم السلام - أرحم البرية، فقال: مالكم يا بني؟ قالوا: ألسنم قد علمت ما كان منا إليك، وما كان منا إلى أخينا يوسف. قال: بلى. قالوا: أو لسنما قد عفوتما؟ قالوا: بلى. قالوا: فإن عفوكما لا يعني عنا شيئاً، إن كان الله لم يعف عنا. قال: فما تريدون يا بني؟ قالوا: نريد أن تدعو الله لنا، فإذا جاءك الوحي من الله بأنه قد عفا عما صنعنا فرت أعيننا، واطمأنت قلوبنا، وإلا فلا قوة عين في الدنيا أبداً لنا. قال: فقام الشيخ فاستقبل القبلة، وقام يوسف خلف أبيه، وقاموا خلفهما أدلة خاشعين، قال: فدعا وأمن يوسف، فلم يجب فيهم عشرين سنة. قال صالح المرئي: يخيفهم. قال: حتى إذا كان رأس العشرين نزل جبريل -

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٣٢٣٥ وأحمد ٢٤٣/٥ ونقل الترمذي عن البخاري قوله: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد ٤٢٧/٥ - ٢٣٥١٥ و ٢٣٥١٦ عن محمود بن لبيد، وأورده الهيثمي في المجمع ٢٠٧/١٠، والمنذري في الترغيب ١٥١/٤ وقالوا: رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٧١١٥ ومسلم ٢٢٣١/٤ من حديث أبي هريرة، وقد ساقه المصنف بمعناه.

عليه السلام - على يعقوب فقال: إن الله بعثني إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك، وأنه قد عفا عما صنعوا، وأنه قد اعتقد موثيقهم من بعدك على النبوة. هذا الأثر موقوف عن أنس. ويزيد الرقاشي وصالح المرزي ضعيقان جداً، وذكر السدي أن يعقوب - عليه السلام - لما حضره الموت أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحاق، فلما مات صبره وأرسله إلى الشام، فدفن عندهما عليهم السلام.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه - لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رزقه الله عليهم، وجعل له العاقبة والملك والحكم، مع ما أرادوا به من الشر والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة، ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة لك والاعتاظ لمن خالفك، ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضرأ عندهم ولا مشاهداً لهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾، أي: على القائيه في الحُب، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، ولكن أعلمناك به وحيأ إليك، وإنزلاً عليك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ آلِ يَسْرَةَ إِذْ قَبَّلْنَا بِكَ أَلْ أَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤] إلى أن قال: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ آلِ يَسْرَةَ إِذْ قَبَّلْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَا كُنْتَ نَارِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٥]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّذِينَ الْأَعْرَابُ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [١١٦] إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذيرٌ مبينٌ ﴿٧٧﴾ [ص: ٦٩ - ٧٠]. يقرر تعالى أنه رسوله، وأنه قد أطلعه على أبناء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم؛ ومع هذا ما آمن أكثر الناس، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾ وقال: ﴿وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] كقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨]، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، أي: وما تسألهم - يا محمد - على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أي: من جعالة ولا أجره على ذلك، بل تفعله ابتغاء وجه الله، ونصحا لخلقه. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾، أي: يتذكرون به ويهتدون، وينجون به في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَاتٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٩﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١١٠﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١١﴾﴾

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده، بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاهرات، وأمواج متلاطمت، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوانات ونباتات، وثمرات متشابهة ومختلفات، في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذي الأسماء والصفات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٦)، قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: مَنْ خلق السموات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مُشْرِكُونَ به. وكذا قال مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والشعبي، وقتادة، والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

[٣٨٨٨] وهكذا وفي الصحيحين: أن المشركين كانوا يقولون في تليبتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شركاً هو لك، تملكه وما ملك (١).

[٣٨٨٩] وفي صحيح مسلم: أنهم كانوا إذا قالوا: لبيك لا شريك لك. يقول رسول الله ﷺ: «قَدْ قَدْ» (٢) أي: حَسْبُ، حَسْبُ، لا تَزِيدُونَا عَلَى هَذَا. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا هو الشرك الأعظم الذي يُعْبَدُ مع الله غيره، كما في الصحيحين، عن ابن مسعود: [٣٨٩٠] قلت: يا رسول الله، أي الذنوب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» (٣).

وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٦)، قال: ذاك المنافق يعمل إذا عمل رياء للناس وهو مُشْرِكٌ بِعَمَلِهِ ذاك، يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْكُفْرَانَ يَخِذُّ عَنَ اللَّهِ وَهُوَ خَدِيدُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]. وثم شرك آخر خفي لا يشعر به غالباً فاعله كما زوى حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبي النجود، عن عروة قال: دخل خديفة على مريض فرأى في عضده سيراً فقطعه - أو انتزعه - ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٦).

[٣٨٩١] وفي الحديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك» (٤). رواه الترمذي، وحسنه من رواية ابن عمر. [٣٨٩٢] وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرُّقَى وَالْتِمَامِ وَالْتَوْلَةَ شُرْكَ». وفي لفظ لهما: «الطيرة شرك وما مثا إلا، ولكن الله يذهب به بالتوكل» (٥). ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا، فقال:

[٣٨٩٣] حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن يحيى الجزار، عن ابن أخي زينب، عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تتحنح ويترق كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتحنح وعندي عجزور ترقيني من

(١) تقدم في بحث الحج، وهو من حديث ابن عمر.

(٢) أخرجه مسلم ١١٨٥ عن ابن عباس.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٤٧٧ ومسلم ٨٦، وقد تقدم.

(٤) صحيح. أخرجه أبو داود ٣٢٥١، والترمذي ١٥٣٥، والطيالسي ١٨٩٦، وعبد الرزاق ١٥٩٢٦، وأحمد ٣٤/٢ - ٨٧ - ١٢٥، وابن حبان ٤٣٥٨، والحاكم ١٨/١ و ٢٩٧/٤ كلهم من حديث ابن عمر، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وهو كما قالوا.

(٥) جيد. أخرجه أبو داود ٣٨٨٣، وابن ماجه ٣٥٣٠، وأحمد ٣٨١/١، وابن حبان ٦٠٩٠ والبيهقي ٣٥٠/٩، والبخاري ٣٢٤٠ كلهم عن يحيى بن الجزار عن ابن مسعود هكذا وقع عند ابن حبان وهو منقطع يحيى هذا لم يدرك ابن مسعود. وهو عند أبي داود وأحمد بالإسناد الآتي. ووقع عند ابن ماجه: عن ابن أخيت زينب. قال الحافظ في التقرت: كأنه صحابي ولم أره مستفي. وتابعه عبد الله بن عتبة بن مسعود عند الحاكم ٤/٤١٧، ٤١٨ فذكره بنحوه وصححه ووافقه الذهبي. وله طريقان آخران عند الحاكم ٤/٢١٦، ٢١٧. وله شاهد من حديث عقبه، فالخير حسن أو صحيح.

المُحْمَرَّةُ فَأَدْخَلْتُهَا تَحْتَ السَّرِيرِ، قَالَتْ: فَدَخَلَ فَجَلَسَ إِلَى جَانِبِي، فَرَأَى فِي عُنُقِي خَيْطًا، قَالَ: مَا هَذَا الْخَيْطُ؟ قَالَتْ: قُلْتُ خَيْطُ رُفْيٍ لِي فِيهِ. قَالَتْ: فَأَخَذَهُ فَقَطَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ آلَ عَبْدِ اللَّهِ لِأَغْنِيَاءُ عَنِ الشُّرْكِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّفْيَ وَالتَّمَانِمَ وَالتَّوَلَةَ شُرْكَ». قَالَتْ: قُلْتُ لَهُ: لِمَ تَقُولُ هَذَا وَقَدْ كَانَتْ عَيْنِي تَقْدِفُ، فَكُنْتُ أَحْتَلِفُ إِلَى فُلَانِ الْيَهُودِيِّ يَرِيقُهَا، فَكَأَنَّ إِذَا رَقَاهَا سَكُنْتُ!؟ قَالَ: إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ. كَانَ يَنْخَسُّهَا بِيَدِهِ، فَإِذَا رَقَيْتَهَا كَفَّ عَنْهَا، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولِي كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَذْهَبِ الْبَاسَ رَبُّ النَّاسِ، أَشْفَى وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءٌ لَا يُغَادِرُ سُقْمًا»^(١).

[٣٨٩٤] وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد، عن وكيع، عن ابن أبي ليلى، عن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلنا على عبد الله بن عكيم، وهو مريض نعوذه، فقيل له: لو تعلقت شيئاً؟ فقال: أتعلق شيئاً؟! وقد قال رسول الله ﷺ: «من تعلق شيئاً وكل إليه»^(٢). ورواه النسائي عن أبي هريرة.

[٣٨٩٥] وفي مُسْنَدِ الإمام أحمد، من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من علق تميمه فقد أشرك». وفي رواية: «من تعلق تميمه فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»^(٣).

[٣٨٩٦] وعن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، ومن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(٤). رواه مسلم.

[٣٨٩٧] وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، يُنادي مُنَادٍ: من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»^(٥). رواه أحمد.

[٣٨٩٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن يزيد - يعني ابن الهاد - عن عمرو، عن محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء»، يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟!^(٦) وقد رواه إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، به.

[٣٨٩٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، أنبأنا ابن لهيعة، أنبأنا ابن هُبيرة، عن أبي عبد الرحمن الحُبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من رذته الطيرة من حاجة فقد أشرك». قالوا: يا

(١) انظر تخريج الحديث السابق.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٠٧٢، وأحمد ٢١١/٤، والحاكم ٢١٦/٤ ومداره على محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليل، وهو صدوق سيء الحفظ. لكن يصلح شاهداً لما تقدم. وله علة ثانية: ابن عكيم تابعي مخضرم.

(٣) جيد. أخرجه أحمد ١٥٤/٤، وأبو يعلى ١٧٥٩، وابن حبان ٦٠٨٦، والحاكم ٤١٧/٤ والطحاوي ٣٢٥/٤، والطبراني ٨٢٠/١٧. قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وقال المنذري في الترغيب: ٣٠٦/٤: إسناده جيد. وقال الهيثمي في المجمع: ١٠٣/٥: رجاله ثقات. وله شواهد.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٨٥، وأحمد رقم ٧٩٨٦ و ٧٩٨٧، وابن ماجه ٤٢٠٢.

(٥) حسن. أخرجه أحمد ٤٦٦/٣، والترمذي ٣١٥٤، وابن ماجه ٤٢٠٣ وإسناده حسن في الشواهد. وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٦) حسن. أخرجه أحمد ٤٢٨/٥ - ٤٢٩، والبيهقي في الشعب ٦٨٣١ ورجاله ثقات، وله شواهد كثيرة.

رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: «أن يقول أحدهم: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»^(١).

[٣٩٠٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نعيم، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان العزمي، عن أبي علي - رجل من بني كاهل - قال: حَظَبْنَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ ذَيْبِ النَّمْلِ. فقام عبد الله بن حزن وقيس بن المضارب فقالا: والله لَتَخْرُجَنَّ مِمَّا قَلْتِ أَوْ لَنَاتِيَنَّ عُمْرَ مَاذُونًا لَنَا أَوْ غَيْرَ مَاذُونٍ. قال: بل أخرج مما قلت، حَظَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذات يوم فقال: «أيها الناس، اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ ذَيْبِ النَّمْلِ». فقال له مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ: فَكَيْفَ تَتَّبِعُهُ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ ذَيْبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُهُ»^(٢). وقد رُوِيَ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، وَفِيهِ أَنَّ السَّائِلَ فِي ذَلِكَ هُوَ الصَّدِيقُ.

[٣٩٠١] كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي، من حديث عبد العزيز بن مسلم، عن ليث بن أبي سليم، عن أبي محمد، عن معقل بن يسار قال: شَهِدْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَوْ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الشِّرْكَ أَخْفَى فَيْكُمْ مِنْ ذَيْبِ النَّمْلِ». فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من دعا مع الله إلهاً آخر؟ فقال رسول الله ﷺ: «الشِّرْكَ فَيْكُمْ أَخْفَى مِنْ ذَيْبِ النَّمْلِ». ثم قال: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَا يُدْهِبُ عَنْكَ صَغِيرَ ذَلِكَ وَكَبِيرَهُ؟ قُلْ: اللَّهُمَّ، أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ»^(٣).

[٣٩٠٢] وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوي، عن شيبان بن فروخ، عن يحيى بن كثير، عن الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ: «الشرك أخفى في أمتي من ذيب النمل على الصفا»^(٤). قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف النجاة والمخرج من ذلك؟ فقال: «ألا أخبرك بشيء إذا قلته برئت من قليله وكثيره وصغيره وكبيره؟» قال: بلى، يا رسول الله. قال: «قل: اللهم، إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرُك لما لا أعلم»^(٥). قال الدارقطني: يحيى بن كثير هذا يقال له: أبو النضر متروك الحديث.

[٣٩٠٣] وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي - وصححه - والنسائي، من حديث يعلى بن عطاء، سمعت عمرو بن عاصم، سمعت أبا هريرة قال: قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -: يا رسول الله، علّمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي. قال: «قل: اللهم، فاطر السموات

(١) حسن. أخرجه أحمد ٢٢٠/٢ رقم ٧٠٤٥، والطبراني كما في المجموع ١٠٥/٥ وقال الهيثمي: فيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات. قلت: للحديث شواهد وقد صححه أحمد شاعر في تعليقه على المسند رقم ٧٠٤٥ والألباني في الصحيحة ١٠٦٥.

(٢) حسن. أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٥٨/٩، وأحمد ٤٠٣/٤ ح ١٩٤٩٦، وابن أبي شيبة ٣٣٨/١٠، وأبو علي الكاهلي، قد رضى البخاري في تاريخه الكبير ٥٨/٩ وقال الهيثمي في المجموع ٢٢٣/١٠ - ٢٢٤: رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي، ووثقه ابن حبان.

(٣) أخرجه أبو يعلى ٥٨ - ٥٩ وإسناده ضعيف لأجل ليث بن أبي سليم. وقال الهيثمي في «المجموع» ١٧٦٧١: رواه أبو يعلى عن شيخه عمرو بن الحصين، وهو متروك. أمه. قلت: تويع عمرو عند أبي يعلى ٦١، وإنما علته ليث بن أبي سليم، فإنه صدوق سيء الحفظ، وفيه أبو محمد مجهول.

(٤) الصفا: الحجر الأملس.

(٥) في إسناده يحيى بن كثير، متروك الحديث كما ذكر ابن كثير عن الدارقطني.

والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه^(١).

[٣٩٠٤] وَرَدَّ أَحْمَدُ فِي رِوَايَةٍ لَهُ مِنْ حَدِيثِ لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: أَمْرِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَقُولَ . . . فَذَكَرَ هَذَا الدُّعَاءَ، وَزَادَ فِي آخِرِهِ: «وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجْزَهُ إِلَى مُسْلِمٍ»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١٥٧)، أي: أفامن هؤلاء المشركون أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخِفَّ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١٥٨) أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٥٩﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَعْرِفِهِمْ إِنَّهُمْ لَرَبَّنَا لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٠﴾ [النحل: ٤٥ - ٤٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١٦١) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا سَهْمًا وَأَهُمْ يَلْمِزُونَ ﴿١٦٢﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يُأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

﴿قُلْ هَلْ يَدْرِيءُ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١٦٣)
يقول تعالى لعبده ورسوله إلى الثقلين والإنس والجن، أمرأ له أن يخبر الناس: أن هذه سبيله، أي؛ طريقه ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك، ويقين وبرهان، وهو وكل من اتبعه، ويدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي. وقوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾، أي: وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه، عن أن يكون له شريك أو نظير، أو عدل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير، تبارك وتقدس وتنزه تعالى عن ذلك كله علواً كبيراً، ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا بِسُحْبِ بَحْرِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(١٦٤) [الإسراء: ٤٤].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١٦٥)
يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِنَّمَا أَرْسَلَ رُسُلَهُ مِنَ الرِّجَالِ لَا مِنَ النِّسَاءِ. وَهَذَا قَوْلُ جَمْهُورِ الْعُلَمَاءِ، كَمَا ذَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُوحِ إِلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنَاتِ بَنِي آدَمَ وَخِي تَشْرِيحَ. وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ: أَنَّ سَارَةَ امْرَأَةَ الْخَلِيلِ، وَأُمَّ مُوسَى، وَمَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ أُمَّ عِيسَى نَبِيَّاتٍ، وَاحْتَجَّوْا بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَشَّرَتْ سَارَةَ بِإِسْحَاقَ، وَمَنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، وَيَقُولُ: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آدَمَ مَوْسَى أَنْزَلْنَاهُ﴾ [القصص: ٧] . . . الْآيَةِ، وَبِأَنَّ الْمَلِكَ جَاءَ إِلَى مَرْيَمَ فَبَشَّرَهَا بِعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُكُمْ إِنَّ اللَّهَ مَا صَاطَفُوكَ وَطَهَّرَكَ وَطَهَّرَكَ وَطَهَّرَكَ عَلَى نِسْوَةٍ الْغَالِيَةِ﴾^(١٦٦) يَمْرُؤُكُمْ أَتَيْتُ لِرَبِّكَ وَأَسْجُدُ وَأَذْكِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿١٦٧﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣]. وَهَذَا الْقَدْرُ حَاصِلٌ لَهُنَّ، وَلَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنْ يَكُنَّ نَبِيَّاتٍ بِذَلِكَ، فَإِنَّ أَرَادَ الْقَائِلُ بَشَّرْتَهُنَّ، هَذَا الْقَدْرُ مِنْ

(١) صحیح . أخرجه أحمد برقم ٥١ و ٥٢ و ٦٣ و ٧٩٤٨ ، و الترمذي ٣٣٩٢ ، و الطيالسي ٢٥٨٢ ، و أبو داود ٥٠٦٧ ، و الحاكم ٥١٣/١ . وقال الترمذي : حسن صحيح . وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد . ووافقه الذهبي و صححه أحمد شاکر في تعليقه على المسند وكذا شعيب الأرنؤوط .

(٢) لیت بن أبي سليم صدوق، سنیء الحفظ، و مجاهد عن أبي بكر منقطع، لكن الحجفة بالإسناد المتقدم قبله .

التشريف فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه في أن هذا: هل يكفي في الانتظام في سبيلك النبوة بمجرد أم لا الذي عليه أهل السنة والجماعة وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري عنهم. أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى مُخْبِرًا عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكْفُلَانِ الْطَعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صديقة بنص القرآن.

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾، أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم. وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]... الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جِدًا وَلَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (٥) ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ فَأَمْنَيْنَهُمْ وَمِنْ لُشَاءٍ وَأَعْلَسْنَا لَهُ السُّرُوفِينَ ﴿٦﴾ [الأنبياء: ٨، ٩]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَايَ الرُّسُلِ﴾ [الحقاف: ٩]... الآية. وقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾، المراد بالقرى المدن لا أنهم من أهل البوادي، الذي هم من أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً: وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدين أرق طباعاً، وأطف من أهل سوادهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي، ولهذا قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبَغَاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٧]. وقال قتادة في قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾، لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمور.

[٣٩٠٥] وفي الحديث الآخر: أن رجلاً من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضي، فقال رسول الله ﷺ: «لقد هممت ألا أتهب هبة إلا من قرشي، أو أنصاري، أو ثقيفي، أو ذؤبي»^(١).

[٣٩٠٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة عن الأعمش، عن يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال الأعمش: هو ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أي: من الأمم المكذبة للرسول، كيف دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها، كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آفَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فإذا استمعوا خبر ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: وكما أنجينا المؤمنين من الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة من الدار الآخرة أيضاً، وهي خير لهم من الدنيا بكثير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَقَادِرُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]. وأضاف الدار إلى الآخرة فقال: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾، كما يقال: صلاة الأولى، ومسجد الجامع، وعام الأول، وبارحة الأولى، ويوم الخميس. قال الشاعر:

أَتَمَدُّحٌ فَفَقَسًا وَتَمَدُّمٌ عَبَسًا أَلَّا لَهُ أَمَكٌ مِنْ هَجِينِ

(١) تقدم في سورة التوبة آية: ٩٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥٨، وأحد ٥٠٢٢، وابن ماجه ٤٠٣٢، وتقدم.

وَلَوْ أَقْبُوْتَ عَلَیْكَ دِیَارَ عَنَسِ عَرَفْتَ الذَّلَّ عِرْفَانًا یَقِیْنِ

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا فَنُجِيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يَرُدُّ بَأْسَنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَن نَصْرَهُ يَنْزِلُ عَلَىٰ رَسَلِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - عِنْدَ ضَيْقِ الْحَالِ وَانْتِظَارِ الْفَرْجِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي أَحْوَجِ الْأَوْقَاتِ إِلَىٰ ذَلِكَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَدُرِّلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلاَّ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وَفِي قَوْلِهِ ﴿كَذَّبُوا﴾ قَرَاءَتَانِ، إِحْدَاهُمَا بِالتَّشْدِيدِ: «قَدْ كَذَّبُوا»، وَكَذَلِكَ كَانَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - تَقْرؤها، قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ لَهُ وَهُوَ يَسْأَلُهَا عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾، قَالَ: قُلْتُ أَكْذَبُوا أَمْ كَذَّبُوا؟ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: «كَذَّبُوا». فَقُلْتُ: فَقَدْ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ فَمَا هُوَ بِالظَّنِّ؟ قَالَتْ: أَجَلٌ، لِعَمْرِي لَقَدْ اسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ. فَقُلْتُ لَهَا: «وَلِظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا؟» قَالَتْ: مَعَاذَ اللَّهِ، لِمَ تَكُنِ الرُّسُلُ تَظُنُّنَ ذَلِكَ بِرَبِّهَا. قُلْتُ: فَمَا هَذِهِ الْآيَةُ؟ قَالَتْ: هِيَ اتِّبَاعُ الرُّسُلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَصَدَّقُوهُمْ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ، وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمْ النَّصْرُ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ يَمُنُّ كَذِبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَظَنَّتِ الرُّسُلُ أَنَّ اتِّبَاعَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ، جَاءَهُمْ نَصْرُ اللَّهِ عِنْدَ ذَلِكَ. حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَبَانًا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنَا عُرْوَةُ فَقُلْتُ لَهَا: لَعَلَّهَا ﴿قَدْ كَذَّبُوا﴾ مُخَفَّفَةً؟ قَالَتْ: مَعَاذَ اللَّهِ. انْتَهَى مَا ذَكَرَهُ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَخْبَرَنِي ابْنُ أَبِي مَلِيكَةَ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَرَأَهَا: ﴿وَلَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾ خَفِيفَةً، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ - هُوَ ابْنُ أَبِي مَلِيكَةَ -: ثُمَّ قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانُوا بَشْرًا، وَتَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلاَّ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ لِي ابْنُ أَبِي مَلِيكَةَ: وَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّهَا خَالَفَتْ ذَلِكَ وَأَبْتَهُ، وَقَالَتْ: مَا وَعَدَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَكُونُ حَتَّىٰ مَاتَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَزَلِ الْبَلَاءُ بِالرُّسُلِ حَتَّىٰ ظَنُّوا أَنَّ مِنْ مَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ كَذَّبُوهُمْ. قَالَ ابْنُ أَبِي مَلِيكَةَ فِي حَدِيثِ عُرْوَةَ: كَانَتْ عَائِشَةُ تَقْرؤها: «وَلَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا» مُثْقَلَةً، لِلتَّكْذِيبِ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: أَخْبَرَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ قَرَاءَةً، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ قَالَ: جَاءَ إِنْسَانٌ إِلَىٰ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ فَقَالَ: إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ يَقُولُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾، فَقَالَ الْقَاسِمُ: أَخْبِرْهُ عَنِي أَنِّي سَمِعْتُ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ: «حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا»، تَقُولُ: كَذَّبْتَهُمْ اتِّبَاعَهُمْ. إِسْنَادٌ صَحِيحٌ أَيْضًا.

وَالْقَرَاءَةُ الثَّانِيَةُ بِالتَّخْفِيفِ. وَاخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِهَا، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَا تَقْدِمُ. وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، فِيمَا رَوَاهُ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَرَأَ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾ مُخَفَّفَةً، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هُوَ الَّذِي تَكْرَهُ. وَهَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَخَالَفَ لِمَا رَوَاهُ آخَرُونَ عَنْهُمَا، أَمَا ابْنُ عَبَّاسٍ فَرَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ مُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾ قَالَ: لِمَا أَيْسَسَ الرُّسُلُ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُمْ قَوْمَهُمْ، وَظَنُّوا قَوْمَهُمْ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ كَذَّبُوهُمْ، جَاءَهُمُ النَّصْرُ عَلَىٰ ذَلِكَ، ﴿فَنُجِيَ مَن نَّشَاءُ﴾. وَكَذَا زُورِيٌّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، وَعَمْرَانَ بْنِ الْحَارِثِ السُّلَمِيِّ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ مَعَاوِيَةَ، وَعَلِيَّ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ، وَالْعَوْفِيَّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، بِمِثْلِهِ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي الْمُنْثَى، حَدَّثَنَا عَارِمُ أَبُو النُّعْمَانَ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا شُعَيْبٌ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي حُرَّةِ الْجَزْرِيِّ قَالَ: سَأَلَ فَتَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ سَعِيدَةَ بِنْتُ جُبَيْرٍ فَقَالَ لَهَا: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، كَيْفَ هَذَا

الحرف، فلإني إذا أتيت عليه تمنيتُ أنني لا أقرأ هذه السورة: ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا؟﴾ قال: نعم، حتى إذا استيأس الرسلُ من قومهم أن يصدّقوهم، وظن المرسل إليهم أن الرسل كُذِّبوا. فقال الضحّاك بن مزاحم: ما رأيت كالיום قط رجلاً يدعى إلى علم قَيْتَلِكَا! لو رحلت في هذه إلى اليمن كان قليلاً. ثم روى ابن جرير أيضاً من وجه آخر: أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبّير عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتقه، وقال: فرج الله عنك كما فرجت عنّي. وهكذا روي من غير وجه عن سعيد بن جبّير أنه فسرها كذلك. وكذا فسرها مجاهد بن جبّير، وغير واحد من السلف، حتى إن مُجاهداً قرأها: «وظنوا أنهم قد كُذِّبوا»، بفتح الذال. رواه ابن جرير، إلا أن بعض من فسرها كذلك يعيد الضمير في قوله: «وظنوا أنهم قد كُذِّبوا» إلى أتباع الرسل من المؤمنين، ومنهم من يُعيده إلى الكافرين منهم، أي: وظن الكفار أن الرسل قد كُذِّبوا - مُخَفَّفَةً - فيما وعدوا به من النصر. وأما ابن مسعود فقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن فضيل، عن جحش بن زياد الضبي، عن تميم بن حذلم قال: سمعتُ عبد الله بن مسعود يقولُ في هذه الآية: ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم، وظنّ قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كُذِّبوا، بالتخفيف. فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك، وانتصر لها ابن جرير، ووجه المشهور عن الجمهور، وزيّف القول الآخر بالكلية ورذّه وأباه، ولم يقبله ولا ارتضاه، والله أعلم.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ

يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين، ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وهي العقول، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾، أي: وما كان لهذا القرآن أن يُفْتَرَى من دون الله، أي: يكذب ويختلق، ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، من تحليل وتحريم، ومحجوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور على الجليّة، وعن الغيوب المستقبلية المجملية والتفصيليّة، والإخبار عن الرّب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مُمَثَّلَةِ المخلوقات، فلهذا كان: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تهتدي به قلوبهم من العي إلى الرشد، ومن الضلالة إلى السداد، وبيتعون به الرحمة من ربّ العباد، في هذه الحياة الدنيا والمعاد. فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالريح المبيضة وجوههم الناصرة، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة.

• • •

آخر تفسير سورة يوسف

وف الحمد والمنّة، وبه المستعان،

وعليه التّكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرَّةَ نَبَأُكَ مَا بَدَأْتُكَ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقدمنا أن كل سورة تبدأ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مزية ولا ريب، ولهذا قال: ﴿نَبَأُكَ مَا بَدَأْتُكَ الْكِتَابِ﴾، أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن. وقيل: التوراة والإنجيل. قاله مجاهد وقتادة. وفيه نظر، بل هو بعيد. ثم عطف على ذلك عطف صفات قوله ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، أي: يا محمد، ﴿مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾، خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة، واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا، واستشهد بقول الشاعر:

إلى الملك القزم وابن الهمام وليت الكتيبة في المزدحم

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ ليوسف: [١٠٣]، أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد النفاقي.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ

مُسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿١﴾﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي يأذنه وأمره رفع السموات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيرها ورفعها عن الأرض بعداً لا ثقال ولا يدرك مداها، فالسماوات الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفع عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمئة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمئة عام. ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينها وبينها من البعد مسيرة خمسمئة عام، وسمكها خمسمئة عام، ثم السماء الثالثة محيطة بالثانية بما فيها، وبينها وبينها خمسمئة عام، وسمكها خمسمئة عام، وكذا الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

[٣٩٠٧] وفي الحديث: «ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة»، وفي رواية: «والعرش لا يقدر قذره إلا الله

عز وجل^(١). وجاء عن بعض السلف: أن بُعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبعد ما بين قُطْرَيْهِ مسيرة خمسين ألف سنة، وهو من ياقوتة حمراء. وقوله: ﴿يَتَّخِذُ عَمْدًا تَرَوْنَهَا﴾، رُوِيَ عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقاتدة أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا تُرَى.

وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القُبة، يعني بلا عمد، وكذا رُوِيَ عن قاتدة، وهذا هو اللائق بالسياق. والظاهر من قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا كَذَبُوا أَن تَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا يُادِنُوكَ﴾ [الحج: ٦٥]، فعلى هذا يكون قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها. وهذا هو الأكمل في القدرة. وفي شعر أمية بن أبي الصلت الذي آمن شِعْرَهُ وكفر قلبه، كما ورد في الحديث^(٢). ويروى لزيد بن عمرو بن نُفَيْل رَجَمَهُ اللهُ وَرَضِيَ عَنْهُ:

وَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْلٍ مَنْ وَرَّخَمَةَ
فَقُلْتَ لَهُ: فَاهْزَبْ وَهَارُونَ فَادْعُوا
وَقُولاً لَهُ: هَلْ أَنْتَ سَوَّيْتَ هَذِهِ
وَقُولاً لَهُ: أَنْتَ رَفَعْتَ هَذِهِ
وَقُولاً لَهُ: هَلْ أَنْتَ سَوَّيْتَ وَسَطَهَا
وَقُولاً لَهُ: مَنْ يُرْسِلُ الشَّمْسَ عُذْوَةً
وَقُولاً لَهُ: مَنْ يُنْبِتُ الحَبَّ فِي الثَّرَى
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي رُؤُوسِهِ

وقوله تعالاة: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾، تقدّم تفسير ذلك في سورة الأعراف، وأنه يُمرَّرُ كما جاء من غير تَكْيِيفٍ ولا تَشْبِيهِ ولا تَعْطِيلٍ ولا تَمَثِيلٍ تعالَى اللهُ عُلُوًّا كَبِيرًا. وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ لِمَجْلَى سَمَوَاتِهِ﴾، قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي

(١) أخرجه ابن جرير ٥٧٩٤ من طريق يونس، قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض» وهذا سند ضعيف جداً، ابن زيد هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي، ضعفه علي بن المديني جداً وقال ابن خزيمة: ليس هو ممن يحتج أهل العلم بحديثه لسوء حفظه، وهو رجل صناعته العبادة والتقشف، ليس من أهل الحديث، وأبو زيد لم يسمع من أبي ذر وقد وهم الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيحته (١٠٩). فظن ابن زيد عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب الفقة.

وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ٤٠٤ - ٤٠٥ من طريق الحسن بن عرفة العبدي، عن يحيى بن سعيد السعدي، عن ابن جريح، عن عطاء، عن عبيد بن عمير الليثي، عن أبي ذر، ويحيى بن سعيد السعدي، قال العقيلي في الضعفاء: ٤ / ٤٠٤: لا يتابع على حديثه، وقال ابن حبان في المجروحين ١٢٩/٣: يروي المقلوبات والملزقات لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد، وابن جريح مدلس وقد عنعن.

ثم أخرجه من طريق الحسن بن سفيان عن عامر، عن إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، حدثنا أبي، عن جدي، عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر... وهذا سند تالف إبراهيم بن هشام بن يحيى كذب أبو حاتم وأبو زرعة كما في الميزان ٧٢ / ٧٣. وأخرجه من طريق آخر عن أبي ذر محمد بن أبي شيبة في كتاب «العرش» ورقة ١ / ١١٤ وفي سنده ضعيف ومجهول.

لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ [يس: ٣٨]. وقيل: المرادُ إلى مُسْتَقَرِّهِمَا وهو تحت العرش ما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد ما يكون عن العرش، لأنه على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة قبة مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك، لأنه له قوائم وحَمَلَةٌ يحملونه. ولا يتصور هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تَدَبَّرَ ما وَرَدَتْ به الآيات والأحاديث الصحيحة، والله الحمد والمنة. وذَكَرَ الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة، التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سَخَّرَ هذه فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأخرى، كما نبه بقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، مع أنه قد صرَّح بذلك بقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ إِنَّ لَآلِهَ الْخَلْقِ وَالْأُمَّتِ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقوله: ﴿يَفْصِلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ يَفْقَهُونَ رَبَّكُمْ تَوْفَئُونَ﴾، أي: يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يُعيد الخلق إذا شاء كما ابتداء خلقه.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ وفي الأرض قطع متجاورات ورجعت من أعنتب ودرع وفصيل صنوان وغير صنوان يستقى بماء واحد ويفصل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤٠﴾

لما ذكر تعالاة العالم العلوي شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾، أي: جعلها ممتددة في الطول العرض، وأرأسها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون لسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، من كل زوجين اثنين، أي: من كل شكل صنفان. ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾، أي: جعل كلا منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيها هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضاً في الزمان كما تصرف أيضاً في المكان والسكان، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: في آلاء الله وحكمته ودلائله.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾: أي: أراضٍ يجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيبة تئب ما ينتفع به الناس، وهذه سبخة مالحة لا تئب شيئاً. هكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وغيرهم. وكذا يدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض. فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه مُخَجَّرَةٌ، وهذه سهلة، وهذه مُرْمَلَةٌ، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات. فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلا هو، ولا رب سواه وقوله: ﴿وَجَعَلَتْ مِنْ أَعْتَابٍ وَدَرَعٍ وَفَيْصِلٌ﴾، يحتجّل أن تكون عاطفة على ﴿وَجَعَلَتْ﴾، فيكون ﴿وَدَرَعٍ وَفَيْصِلٌ﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفاً على ﴿أَعْتَابٍ﴾، فيكون مجروراً. ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة. وقوله: ﴿صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ﴾، الصنوان: هي الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالزمان والتين وبعض النخيل، ونحو ذلك. وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سُمي عم الرجل صنواً أبيه.

[٣٩٠٨] كما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شعرت أن عم الرجل صنو

أبيه؟^(١). وقال سُفيان الثوري، وشعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء - رضي الله عنه -: الصَّنُون هي النخلات في أصل واحد، وغير الصَّنُون المتفرقات. وقاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وغير واحد. وقوله: ﴿يَسْتَقِي بِمَاءٍ وَّجِدٍ وَيَقْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾. [٣٩٠٩] قال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: ﴿وَيَقْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾، قال: «الدَّقْلُ والفارسي»^(٢)، والحُلُو والحامض»^(٣)، رواه الترمذي وقال: حسن غريب. أي: هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع، في أشكالها وألوانها، وطُعمها وروائحها، وأوراقها وأزهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحُموضة، وهذا في غاية المرارة، وهذا عَفِصٌ، وهذا عذب، وهذا جَمَعَ هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى، وهذا أصْفَرٌ، وهذا أَحْمَرٌ، وهذا أبيضٌ، وهذا أسودٌ، وهذا أرزقٌ، وكذلك الزهورات مع أن كُلَّها يَسْتَمِدُّ من طبيعة واحدة، وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضب، ففي ذَلِكَ آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذي يَفْدرته فاورت بين الأشياء، وخلقها على ما يريد، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوَّأْنَا لِنِي خَلْقِي جَدِيدًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَلُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾

يقول تعالى لرسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله - سبحانه - ودلالته في خَلْقِهِ على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به من أنه ابتداء خَلْقِ الأشياء، فَكُونُهَا بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هُم بعد هذا يُكذِّبون خبره في أنه سَيُعِيدُ العالمين خَلْقاً جديداً، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كَذَّبوا به، فالعجب من قولهم: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوَّأْنَا لِنِي خَلْقِي جَدِيدًا﴾، وقد عليم كلُّ عالم وعاقِل أن خَلْقَ السموات والأرض أكبر من خَلْقِ الناس، وأن من بدأ الخَلْقَ فالإعادة سهلةٌ عليه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَئِمْ بِخَلْقِهِنَّ يَقْدِرَ عَلَى أَنْ يُخْزِيَ الْمُؤْمِنِينَ بِكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الأحاف: ٣٣]. ثم نعت المكذِّبين بهذا فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَلُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ﴾، أي يُسحبون بها في النار، ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، أي: ما يكون فيها أبداً، لا يحولون عنها ولا يزولون.

﴿وَيَسْمَعُونَكَ بِالِسْتِغْنَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَعْفَرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَيَسْمَعُونَكَ﴾، أي: هؤلاء المُكذِّبون ﴿بِالِسْتِغْنَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾، أي: بالعقوبة، كما أخبر

(١) متفق عليه. وتقدم.

(٢) الدقل: الرديء من التمر. والفارسي: ضرب جيد من التمر.

(٣) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣١١٨ والطبري ٢٠١٢٦ وإسناده ساقط، فيه سيف بن محمد، قال الحافظ في التقریب: كذبوه ومع ذلك حسنه الترمذي واستغربه! وتابعه سليمان بن عبيدالله عند الطبري ٢٠١٢٧ والمقبلي ١٣١/٢ لكن قال القبلي: إنما يعرف هذا الحديث بسيف بن محمد، وسليمان لا يتابع عليه.

عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (١) ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ (٢) ﴿مَا نَزَّلَ الْمَلَكِئِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا تُنظَرُونَ﴾ (٣) ﴿[الحجر: ٦-٨]. وقال تعالى: ﴿وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ رَوَّادًا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَهَنَّمَ وَالْعَذَابُ بِالْمَعْدَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤) ﴿[المنكبر: ٥٣، ٥٤]، وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (٥) ﴿[المعارج: ٤١]، وقال: ﴿يَسْتَعِجِلُ بِهَا الذِّبَرُ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالذِّبَرُ ءَامِنُوا مُتِفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٦) ﴿[ص: ١٦]، أي: حسابنا وعقابنا، كما قال مخبراً عنهم: ﴿وَرَادُّ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ آسِرٍ﴾ (٧) ﴿[الأنفال: ٣٢]، فكانوا يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله، وذلك من شدة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم. قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتْ﴾، أي: قد أوقعتنا نعمتنا بالأمر الخالية وجعلناهم مثلاً وعبرة وعظة لمن اتعظ بهم.

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنَ الذَّنْبِ﴾ [فاطر: ٤٥]. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾، أي: إنه ذو عفو وصفح وسر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب، ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبَكَ فَقُلِّ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨) ﴿[الأنعام: ١٤٧]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿بِئْسَ عِبَادٌ لَّيَّ أَا الْقَفُورِ الرَّحِيمِ﴾ (٩) ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (١٠) ﴿[الحجر: ٤٩، ٥٠]. إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجتمع الرجاء والخوف.

[٣٩١٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنا أحدًا العيش، ولولا وعيده وعقابه لا تكمل كل أحد». وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن عثمان أبي حسان الزياتي. أنه رأى رب العزة في النوم، ورسول الله ﷺ واقف بين يديه يشفع في رجل من أمته، فقال له: ألم يكفك أني أنزلت عليك في سورة الرعد: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾؟ قال: ثم انتهت.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِذْ أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (٧)

يقول تعالى إخباراً عن المشركين: إنهم يقولون كفراً وعناداً: لولا ياتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعتنوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيل عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وانهاراً. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا نُوحًا الْكَلِمَةَ مُبِينَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَهْوِيًا﴾ [الإسراء: ٥٩]. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾، أي: إنما عليك أن تبلي رسالة الله التي أمرك بها، و﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدًىهُمْ وَالتَّحِيُّنُ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، أي: ولكل قوم داع. وقال العوفي، عن ابن عباس في تفسيرها: يقول الله تعالى: أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك وغير واحد. وعن مجاهد: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، أي نبي. كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:

(١) إسناده ضعيف جداً. فهو مرسل، ومع إرساله فيه علي بن زيد ضعيف الحديث صاحب منكر.

[٢٤]. وبه قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد. وقال أبو صالح، ويحيى بن رافع: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، أي: قائد. وقال أبو العالية: الهادي القائد، والقائد الإمام، والإمام العمل، وعن عكرمة، وأبي الضحى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: هو محمد ﷺ وقال مالك: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، من يدعوهم إلى الله عز وجل.

[٣٩١١] وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن يحيى الصوفي، حدثنا الحسن بن الحسين الأنصاري، حدثنا معاذ بن مسلم الهروي، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال لما نزلت ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قال: وضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال: «أنا المنذر، ولكل قوم هاد». وأوما بيده إلى منكب علي، فقال: «أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي»^(١). وهذا الحديث فيه نكارة شديدة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا المطلب بن زياد، عن السدي، عن عبد خير، عن علي: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قال: الهادي رجل من بني هاشم^(٢). قال الجنيدي: هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال ابن أبي حاتم: وزوي عن ابن عباس - في إحدى الروايات - وعن أبي جعفر محمد بن علي، نحو ذلك.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِيمٌ الْقَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿وَيَسِّرْ مَا يَبْتَغِي فِي الْأَرْحَامِ﴾، أي: ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَظَنُّ بِكُرْبِهِ إِذَا دُنِيَ عَنِ الْأَرْضِ وَإِذَا أُشْرِبَ فِي بَطْنِ أُمِّهِمْ فَلَا تُرْكَوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ أَنْتُمْ﴾ [النجم: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَدَنِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦]، أي: خلقكم طوراً من بعد طور، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٥﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْلُقَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا الطُّفْلَةَ فَلَغَلَةً فَخَلَقْنَا الْمَلَقَةَ مُضْجَةً فَخَلَقْنَا الْمَضْجَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

[٣٩١٢] وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِن خَلَقَ أَحَدَكُمْ يُجَمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ

(١) باطل لا أصل له، أخرجه الطبري ٢٠١٦١، وفيه عطاء بن السائب صدوق اختلط بأخزه، وعنه معاذ بن مسلم ذكره الذهبي في الميزان ٨٦١٣ وقال: مجهول وله عن عطاء بن السائب خبر باطل. وعنه الحسن بن حسين الكوفي. قال ابن عدي: لا يشبه حديثه حديث الثقات، وقال ابن حبان: يأتي عن الثقات بالمرقات اهـ.

(٢) باطل. أخرجه عبد الله بن أحمد ١٠٤٤ والطبراني في الأوسط ١٣٨٣ والصغير ٧٣٩ عن علي مرفوعاً بهذا اللفظ، قال الهيثمي في «المجمع» ١١٠٩٠: رجال المسند - أي عبد الله بن أحمد - ثقات، كذا قال مع أن في إسناده المطلب بن زياد الثقفى، فهو وإن وثقه أحمد ويحيى وابن حبان، فقد قال أبو حاتم: يكتب حديثه، ولا يثبت به. وضعفه عيسى بن شاذان، وقال ابن سعد: كان ضعيفاً جداً. وشيخه السدي وضعفه الجمهور. وورد موقوفاً على علي أخرجه الحاكم ٤٦٤٦/٣/١٢٩٩ وصححه. وقال الذهبي: بل كذب قبيح الله واضعه.

الخلاصة: هذا من بدع التأويل، لا أصل له في المرفوع، ولا الموقوف، والصحيح القول الأول وهو «أن الله عز وجل هو الهادي، ورسول الله ﷺ هو المنذر»، وهذا أسنده الطبري ٢٠١٤٢ عن سعيد بن جبير ويرقم ٢٠١٤٣ و ٢٠١٤٤، ويرقم ٢٠١٤٥ عن مجاهد. و ٢٠١٤٦ عن ابن عباس و ٢٠١٤٧ عن الضحاك، وهذا هو الصحيح، والله أعلم.

أربعين يوماً، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مُضغَةً مثل ذلك، ثم يُبعثُ إليه مَلَكٌ فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكُتْبِ رِزْقِهِ، وَعُمْرِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ^(١).

[٣٩١٣] وفي الحديث الآخر: «فَيَقُولُ الْمَلَكُ: أَيُّ رَبِّ، أَذَكَرَ أَمْ أَنْثَى؟ أَيُّ رَبِّ، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الْأَجَلُ؟ فَيَقُولُ: اللَّهُ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ»^(٢).

وقوله: ﴿وَمَا تَبْيِضُ الْأَرْكَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾، قال البخاري:

[٣٩١٤] حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا معن، حدثنا مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تبغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»^(٣). وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَمَا تَبْيِضُ الْأَرْكَامُ﴾، يعني السقط، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾، يقول: ما زادت الرُّجْمُ في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً. وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمِلُ تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى، وكل ذلك بعلمه تعالى. وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَبْيِضُ الْأَرْكَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾، قال: ما نقصت عن تسعة وما زاد عليها. وقال الضحاك: وَضَعْتَنِي أُمِّي وَقَدْ حَمَلْتَنِي فِي بَطْنِهَا سِتِّينَ، وولدتني وقد تبنت ثنيثي. وقال ابن جريج، عن جميلة بنت سعيد، عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين قَدْرَ ما يتحرك ظلُّ مِغْزَلٍ. وقال مجاهد: ﴿وَمَا تَبْيِضُ الْأَرْكَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾، قال: ما تَزَى من الدم في حملها، وما تزداد على تسعة أشهر. وبه قال عطية العوفي وقتادة، والحسن البصري والضحاك. وقال مجاهد أيضاً: إذا رأت المرأة الدم دُونَ التسعة، زاد على التسعة. مثل أيام الحيض وقاله عكرمة، وسعيد بن جببير، وابن زيد. وقال مجاهد أيضاً: ﴿وَمَا تَبْيِضُ الْأَرْكَامُ﴾: إراقة المرأة حتى يخس الولد، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾: إن لم تهرق المرأة تَمَّ الولد وعظم. وقال مكحول: الجنين في بطن أمه لا يطلب، ولا يحزن ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها، فَمِنْ تَمَّ لا تحيض الحامل. فإذا وَقَعَ إلى الأرض استهل، واستهله استنكاراً لمكانه، فإذا قُطِعَتْ سُرَّتُهُ حَوْلَ اللَّهِ رِزْقَهُ إِلَى تَدْيِيِ أُمِّهِ حَتَّى لَا يَطْلُبَ وَلَا يَحْزَنُ وَلَا يَغْتَمُّ، ثم يصير طفلاً يتناول الشيء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل، أني لي بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويلك! غَدَاكَ وَأَنْتِ فِي بَطْنِ أُمِّكَ وَأَنْتِ طِفْلٌ صَغِيرٌ، حَتَّى إِذَا اشْتَدَّتْ وَعَقَلْتَ قُلْتَ: هو الموت أو القتل، أني لي بالرزق؟! ثم قرأ مكحول: ﴿اللَّهُ يَمَلِكُ مَا يَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَبْيِضُ الْأَرْكَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِإِحْدَادٍ﴾. وقال قتادة: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِإِحْدَادٍ﴾، أي: بأجل، حفظ أرزاق خلقه وأجالهم، وجعل لذلك أجلاً معلوماً.

[٣٩١٥] وفي الحديث الصحيح أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه: أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن يحضره. فبعث إليها يقول: «إن الله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مستقن، فمروها

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٠٨ و ٣٣٣٢ و ٦٥٩٤ و ٧٤٥٤، ومسلم ٢٦٤٣، وأبو داود ٤٧٠٨، والترمذي ٢١٣٨، وابن ماجه ٧٦، وأحمد ١/٣٨٢ والحميدي ١٢٦.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٤٦ وغيره، وتقدم.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٩٧ وأحمد ٢/٢٤ والطبري ٨٨/٢١، والطبراني ١٣٢٤٦ وابن حبان ٧٠ و ٧١.

فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»^(١) . . . الحديث بتمامه . وقوله: ﴿عَلَيْكَ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ﴾، أي: يعلم كل شيء مما يُشَاهِدُهُ العباد ومما يَغِيبُ عنهم، ولا يخفى عليه من شيء، ﴿الْكَبِيرُ﴾، الذي هو أكبر من كل شيء، ﴿الْمُتَمَالِكُ﴾، أي: على كل شيء، ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، وقهر كل شيء، فَخَضَعْتَ لَهُ الرقاب ودان له العباد، طوعاً وكرهاً.

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَمْ تُمَعِّبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَيْهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ﴿١١﴾﴾

يُخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، سواء منهم من أسرَّ قوله أو جهر به، فإنه يسمعه، لا يخفى عليه شيء كما قال: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ٧]، وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥].

[٣٩١٦] وقالت عائشة - رضي الله عنها -: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفى علي بعض كلامها، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِعَ حَمَاتُكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَعِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾، أي: مُخْتَفٍ فِي قَفْرِ بَيْتِهِ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ، ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾، أي: ظاهرٌ ماشٍ فِي بِيضِ النَّهَارِ وَضِيائِهِ، فَإِنَّ كِلَيْهِمَا فِي عِلْمِ اللَّهِ عَلَى السَّوَاءِ، كما قال تعالى: ﴿الْأَجِينَ يَسْتَفْتُونَ يَآبَاهُمْ يَعْزِمُ مَا يُرِيدُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُؤَيِّسُونَهُ فَبِئْسَ مَا يَرْبُؤُا عَنْ رَبِّكَ مِنْ يَتَقَالِ دَرَجَاتٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [يونس: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿لَمْ تُمَعِّبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَيْهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، أي: لِيَلْعَبِدَ مَلَائِكَةُ يَتَأَقِبُونَ عَلَيْهِ، حَرَسَ بِاللَّيْلِ وَحَرَسَ بِالنَّهَارِ، يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْأَسْوَءِ وَالْحَادِثَاتِ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار. فائتان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدمه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل، بدلان حافظان وكتابان، كما جاء في الصحيح:

[٣٩١٧] «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»^(٢).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٢٨٤ ومسلم ٩٢٣، وأحمد ٢٠٤/٥ و٢٠٦ وابن أبي شيبة ٣/٣٩٢ - ٣٩٣، وعبد الرزاق ٦٦٧٠، والنسائي ٢١/٤ - ٢٢، والطبراني ٦٣٦، وابن حبان ٣١٥٨ من طرق عن أسامة بن زيد.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٥ ومسلم ٦٣٢، والنسائي ٢٤٠/١ و٢٤١ ومالك ١/١٧٠ وأحمد ٣١٢ و٤٨٦، وابن خزيمة في صحيحه ٣٢١ و٣٢٢ وابن حبان ١٧٢٨ كلهم من حديث أبي هريرة.

[٣٩١٨] وفي الحديث الآخر: «إِنَّ معكم مَنْ لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع، فاستحيوهم وأكروهم»^(١).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «لَمْ مَعَيْتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ بِحَفَظَتِهِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ»، والمعقبات من أمر الله، وهي الملائكة. وقال عكرمة، عن ابن عباس: «بِحَفَظَتِهِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ»، قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قَدْرُ اللَّهِ خَلُّوا عنه. وقال مجاهد: ما من عبد إلا له مَلَكٌ مُوَكَّلٌ، يحفظه في نومه ويقظته من الجنِّ والإنس والهوامِّ، فما منها شيء يأتيه يريدُه إلا قال الملك: وراءك. إلا شيء يأذن الله فيه فيُصَيِّبه. وقال الثَّورِي، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس في قوله: «لَمْ مَعَيْتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ»، قال: ذلك مَلِكٌ من ملوك الدنيا، له حَرَسٌ من دونه حرس. وقال العوفي، عن ابن عباس: «لَمْ مَعَيْتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ»، يعني وليَّ الشيطان، يكونُ عليه الحرس. وقال عكرمة في تفسيرها: هؤلاء الأمراء، الموابك من بين يديه ومن خلفه. وقال الضحَّاك: «لَمْ مَعَيْتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ بِحَفَظَتِهِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ»، قال: هو السلطان المحترس من أمر الله، وهم أهل الشرك. والظاهر - والله أعلم - أن مُراد ابن عباس وعكرمة والضحَّاك بهذا أن حرس الملائكة للعبيد يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم.

[٣٩١٩] وقد رَوَى الإمام أبو جعفر بن جرير ما هنا حديثاً غريباً جداً فقال: حدثني المشثي، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح القشيري، حدثنا علي بن جرير، عن حماد بن سلمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العدوي قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أخبرني عن العبد كم معه من مَلَكٍ؟ فقال: «مَلَكٌ على يمينك على حسناتك، وهو أمرٌ على الذي على الشمال، فإذا عملت حسنة كُتِبَتْ عشراً، فإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين: أكتب؟ قال: لا، لعله يستغفر الله ويتوب. فإذا قال ثلاثاً قال: نعم، اكتب، أراحنا الله منه، فيبس القرين! ما أقلُّ مُرَاقَبَتِهِ لله وأقلُّ استحياءه منا! يقول الله تعالى: «مَا يَلُفُّ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» ﴿١٨﴾ [ق: ١٨] ومَلَكَانِ من بين يديك ومن خَلْفِكَ، يقول الله: «لَمْ مَعَيْتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ بِحَفَظَتِهِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ»، ومَلَكٌ قابضٌ على ناصيتك، فإذا تواضعت لله رزعتك، وإذا تجبرت على الله قضمك. ومَلَكَانِ على شفتيك، ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ﷺ، ومَلَكٌ قائم على فيك لا يدع الحية أن تدخل في فيك، ومَلَكَانِ على عينيك. فهؤلاء عشرة أملاكٍ على كلِّ بني آدم، ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار، لأن ملائكة الليل يسوى ملائكة النهار، فهؤلاء عشرون ملكاً على كلِّ بني آدم، وإبليس بالنهار وولده بالليل»^(٢).

[٣٩٢٠] وقال الإمام أحمد - رحمه الله - : حدثنا أسود بن عامر، حدثنا سُفيان، حدثني منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن أبيه، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجنِّ وقرينه من الملائكة». قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: «وإياي، ولكن أعاني الله عليه، فلا يأمرني

(١) أخرجه الترمذي ٢٨٠٠ من حديث ابن عمر، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. يعني أنه ضعيف، لأن في سنده ليث بن أبي سليم وهو سبى الحفظ، وباقى رجاله ثقات.

(٢) منكر. أخرجه الطبري ٢٠٢١١، وهو منقطع، كنانة لم يدرك عثمان، وعبد الحميد بن جعفر، وثقه قوم، وضعفه آخرون. وفيه إبراهيم بن عبد السلام بن صالح لم أجد له ترجمة، والظاهر أن الحمل عليه في هذا الحديث فإنه غريب جداً كما قال ابن كثير. أو لعل الحمل فيه على محمد بن عثمان، فقد اتهمه بعضهم.

إلا بخير^(١). انفرد بإخراجه مسلم. وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، قيل: المرادُ جفُظْهُمُ له من أمرِ الله. رواه علي بن أبي طلحة وغيره، عن ابن عباس. وإليه ذهب مجاهد، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، وغيرهم. وقال قتادة: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، قال: وفي بعض القراءات: «يحفظونه بأمر الله». وقال كعب الأحبار: لو تجلّى لابن آدم كلُّ سهلٍ وحَزَنٍ لَرَأَى من ذلك شياطين، لولا أَنَّ الله وَكَّلَ بكم ملائكةً يَذُبُّونَ عنكم في مَطْعَمِكُمْ ومَشْرَبِكُمْ وَعَوْرَاتِكُمْ إِذَا لَشُحْطَفْتُمْ. وقال أبو أمامة: ما مِن آدمي إلا ومعه مَلَكٌ يَذُودُ عنه حتى يُسَلِّمَهُ للذي قُدِّرَ له، وقال أبو يَجْلَز: جاء رجلٌ من مُرَادٍ إلى علي - رضي الله عنه - وهو يصلي، فقال: احترس، فإنَّ ناساً من مُرَادٍ يُريدون قَتْلَكَ. فقال: إنَّ مع كلِّ رَجُلٍ مَلَكَيْنِ يحفظانه مما لم يُقَدَّر، فإذا جاء القَدْرُ خَلِيَا بينه وبينه، وإنَّ الأجلَ جُنَّةٌ حَصِيَّةٌ.

وقال بعضهم: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: بأمر الله، كما جاء في الحديث أنهم قالوا:

[٣٩٢١] يا رسول الله، أرايتَ رُفَى نَسْرَقِي بها، هل تُرَدُّ من قَدْرِ الله شيئاً؟ فقال: «هي من قَدْرِ الله»^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن أشعث، عن جهنم، عن إبراهيم قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل: أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكوئون على طاعة الله فيتحوّلون منها إلى معصية الله إلا حوّل الله لهم مما يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال: إن مصداق ذلك في كتاب الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. وقد ورد هذا في حديث مرفوع.

[٣٩٢٢] فقال الحافظ مُحَمَّد بن عثمان بن أبي شيبة في كتابه صفة العرش: حدثنا الحسن بن علي، حدثنا الهيثم بن الأشعث السلمي، حدثنا أبو حنيفة اليماني الأنصاري، عن عمير بن عبد الملك قال: حطبتنا علي بن أبي طالب على منبر الكوفة قال: كنت إذا سكّيت عن رسول الله ﷺ ابتدأني، وإذا سألته عن الخبر أنبأني، وإنه حدّثني عن ربّه - عز وجل - قال: «قال الرّب: وَعِزَّتِي وَجَلالِي وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتي، ثم تحوّلوا عنها ما أحببت من طاعتي، إلا تحوّل لهم عمّا يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي»^(٣). وهذا غريب، وفي إسناده من لا أعرفه.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ أَلْبَرَكُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٧﴾ وَيَسْجِعُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خَيْفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَدِّدُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ

﴿١٧﴾ الْحَالِ

يخبر تعالى أنه هو الذي يُسخر البرق، وهو: ما يرى من الثور اللامع ساطعاً من خَللِ السحاب. وروى

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨١٤ واحد ٣٨٥/١، والدارمي ٣٠٦/٢ والطحاوي في مشكل الآثار ١٠٩.

(٢) أخرجه الحاكم ٤٠٢/٤، والطبراني في الكبير ٣٠٩٠/٣ من حديث حكيم بن حزام، وقال الهيثمي في المجمع ٨٥/٥: وفيه صالح بن أبي الأخضر وهو ضعيف يعتبر حديثه.

وأخرجه الطبراني في الكبير ٥٤٦٨/٦ عن الحارث بن سعد عن أبيه وقال: هكذا رواه عثمان بن عمر عن يونس، وخالفه الناس فرووه عن يونس كما رواه الناس عن الزهري عن أبي خزيمة، وقال الهيثمي في المجمع ٨٥/٥: والحارث لم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح غير أبي خزيمة.

(٣) في إسناده مجاهيل لا يعرفون كما قال ابن كثير رحمه الله.

ابن جرير أن ابن عباس كتب إلى أبي الجعد يسأله عن البرق فقال: البرق الماء. وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، قال قتادة: خوفًا للمسافر، يخاف أذاه ومسقته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته، ويطمع في رزق الله. ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾، أي: ويخلقها منسأة جديدة، وهي لكثرة ماؤها ثقيلة قريبة إلى الأرض. قال مجاهد: والسحاب الثقال: الذي فيه الماء. قال ﴿وَيَسْجِئُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَنْهَوْنَ عَنْهَا﴾ [الإسراء: ٤٤].

[٣٩٢٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا إبراهيم بن سعد، أخبرني أبي قال: كنت جالساً إلى جنب حميد بن عبد الرحمن في المسجد، فمر شيخ من بني غفار، فأرسل إليه حميد، فلما أقبل قال: يا ابن أخي، وسع فيما بيني وبينك، فإنه قد صحب رسول الله ﷺ. فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه، فقال له حميد: ما الحديث الذي حدثتني عن رسول الله ﷺ؟ فقال الشيخ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ينشئ السحاب فينطق أحسن النطق، ويضحك أحسن الضحك»^(١). والمراد - والله أعلم - أن نطقها الرعد، وضحكها البرق. وقال موسى بن عبيدة^(٢)، عن سعد بن إبراهيم قال: يبعث الله الغيث، فلا أحسن منه مضحكاً، ولا أنس منه منطوقاً، فضحك البرق، ومنطقه الرعد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازي، عن محمد بن مسلم قال: بلغنا أن البرق ملك له أربعة وجوه: وجه إنسان، ووجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد، فإذا مصع بذنبه فذاك البرق^(٣).

[٣٩٢٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحجاج، حدثني أبو مطر، عن سالم، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللهم، لا تقمنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»^(٤). ورَوَاهُ الترمذي، والبخاري في كتاب الأدب، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم في مستدركه، من حديث الحجاج بن أرطاة، عن أبي مطر - ولم يُسم، به.

[٣٩٢٥] وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق: حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبيه، عن رجل، عن أبي هريرة - رَفَعَ الحديث - قال: إنه كان إذا سمع الرعد قال: «سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ

(١) إسناده صحيح على شرط الشيخين، وهو عند أحمد ٤٣٥/٥، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات رقم ٩٨٨، والرامهرمزي في الأمثال ١٢٥، والعقيلي في الضعفاء من طرق عن إبراهيم بن سعد به. وأخرجه العقيلي والرامهرمزي رقم ١٢٤ من طريق عمرو بن الحصين العقيلي عن أمية بن سعيد الأموي عن صفوان بن سليم عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبي هريرة مرفوعاً. وقال العقيلي: «أمية بن سعيد الأموي مجهول وفي حديثه وهم ولعله أتى من عمرو بن الحصين». قلت: وعمرو بن الحصين متروك كما في التقريب.

(٢) موسى بن عبيدة هو الربذي متروك، فما ذكره في تأويل هذا الحديث عن سعد بن إبراهيم لا يصح.

(٣) هذا الأثر من أباطيل الإسرائيليين.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢٧١ والترمذي ٣٤٥٠ والنسائي في «الكبرى» ١٠٧٦٤ وأحمد ١٠٠/٢ والحاكم ٢٨٦/٤ وابن أبي شيبة ٣١/٧ والنسائي في «اليوم والليلة» ٩٢٧ و ٩٢٨ وابن السني ٢٩٨ والخراطي في «مكارم الأخلاق» ٥٦٠، والبيهقي ٣٦٢/٣ كلهم من حديث ابن عمر. وضعفه الترمذي بقوله: غريب. وأما الحاكم، فصححه ووافقه الذهبي! وضعفه النووي في «الأذكار» ٤٦٣ واعترضه بأنه أخرجه أحد الحاكم، وغيرهما من طرق متعددة، وهو متمسك أه والصواب أن مداره على أبي مطر في هذه الروايات جميعاً، وقد قال عنه الحافظ في التقريب: مجهول، وقال الذهبي في الميزان: لا يدرى من هو أه، وأما حجاج بن أرطاة فقد توبع عند النسائي والحاكم. وعلة الحديث أبو مطر وحده. وأخرجه ابن أبي شيبة ٣٠/٧ عن جعفر بن برقان مفضلاً، فالخبر إلى الضعف أقرب، والله أعلم.

بِحَمْدِهِ»^(١). وروى عن علي - رضي الله عنه - أنه كان إذا سَمِعَ صوت الرعد قال: سبحان من سَبَّحَ له. وكذا روي عن ابن عباس، والأسود بن يزيد، وطاووس أنهم كانوا يقولون كذلك. وقال الأوزاعي: كان ابن أبي زكريا يقول: من قال حين يسمعُ الرعد: سبحان الله وبحمده، لم تُصِبْه صاعقة. وعن عبد الله بن الزبير: أنه كان إذا سَمِعَ الرعدَ تركَ الحديثَ وقال: سبحان الذي يُسَبِّحُ الرعدُ بحمده والملائكةُ من خِيفَتِهِ، ويقول: إن هذا لو عِيدَ شديدٌ لأهل الأرض. رواه مالك في الموطأ والبخاري في كتاب الأدب.

[٣٩٢٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود الطيالسي، حدثنا صدقة بن موسى، حدثنا محمد بن واسع، عن شتير بن نهار، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال ربكم - عز وجل: لو أن عبيدي أطاعوني لأسقيتهم المطرَ بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولما أسمعتم صوت الرعد»^(٢).

[٣٩٢٧] وقال الطبراني: حدثنا زكريا بن يحيى الساجي، حدثنا أبو كامل الجحدري، حدثنا يحيى بن كثير أبو النصر، حدثنا عبد الكريم، حدثنا عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله؛ فإنه لا يُصِيبُ ذاكراً»^(٣). وقوله تعالى: «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ»، أي: يُرْسِلُهَا يَقْتَمِ بِهَا مَنْ يَشَاءُ، ولهذا تكثر في آخر الزمان.

[٣٩٢٨] كما قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا عمارة، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -: أن النبي ﷺ قال: «تكثرُ الصواعقُ عند اقتراب الساعة، حتى يأتي الرجلُ القومَ فيقول: من صَبَقَ تلکم الغداة؟ فيقولون: صَبَقَ فلان وفلان وفلان»^(٤).

[٣٩٢٩] وقد روي في سبب نُزُولِهَا ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي سَارَةَ الشيباني، حدثنا ثابت، عن أنس: أن رسول الله ﷺ بَعَثَ رَجُلًا مَرَّةً إِلَى رَجُلٍ مِنْ قَرَاعِنَةِ الْعَرَبِ فَقَالَ: «أَذْهَبْ، فَادْعُهُ لِي». فقال: يا رسول الله، إنه أعتى من ذلك. قال: «أذهب فادعه لي». قال: فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَدْعُوكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. فقال له: من رسول الله؟ وما الله؟ أمِنَ ذَهَبَ هُوَ؟ أم من فضة هو؟ أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: يا رسول الله، قد أَخْبَرْتُكَ أَنَّهُ أَعْتَى مِنْ ذَلِكَ، قَالَ لِي كَذَا وَكَذَا. فقال: «ارجع إليه الثانية» - أراه - فذهب فقال له مثلها، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قد أَخْبَرْتُكَ أَنَّهُ أَعْتَى مِنْ ذَلِكَ. قال: «ارجع إليه فادعه». فرجع إليه الثالثة. قال: فأعاد ذلك الْكَلَامَ. فبينما هُوَ يَكَلِّمُهُ، إِذْ بَعَثَ اللَّهُ - عز وجل - سحابةً جِبالَ رَأْيِهِ، فَزَعَدَتْ، فَوَقَعَتْ مِنْهَا صَاعِقَةٌ، فَذَهَبَ بِقِخْفِ رَأْسِهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجِدُّونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ

(١) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٠٢٦٠ بهذا الإسناد، فيه راوٍ لم يسم. وقد صح موقوفاً على علي وجماعة من التابعين. كما سيذكر ابن كثير رحمه الله.

(٢) ضعيف. أخرجه الحاكم ٣٤٩/٢ ح ٣٣٣١، وأحد ٣٥٩/٢. وفي إسناده صدقة بن موسى ضعيف الحديث، ومع ذلك صححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: صدقة واو. وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٢٧٨: مداره على صدقة الدقيقي، وقد ضعفه ابن معين. وغيره. وقال مسلم بن إبراهيم: كان صدوقاً أه. فالخير إلى الضعف أقرب، وذكره الذهبي في الميزان في ترجمة صدقة. على أنه من غرائبه.

(٣) أخرجه الطبراني ١١٣٧١، قال الهيثمي في «المجمع» ١٧١٢٧: فيه يحيى بن كثير أبو النصر ضعيف.

(٤) أخرجه أحمد ٦٤/٣ - ٦٥ وأعله الهيثمي في «المجمع» ١٢٥٨٤ بمحمد بن مصعب، وقال: ضعيف.

لِلْحَالِ ﴿١﴾. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي سَارَةَ، بِهِ. وَرَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ الْبِزَارُ، عَنْ عَبْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ هَارُونَ، عَنْ ذَيْلَمِ بْنِ غَزْوَانَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، فَذَكَرَ نَحْوَهُ ^(٢).

[٣٩٣٠] وَقَالَ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَفَانٌ، حَدَّثَنَا أَبَانُ بْنُ يَزِيدَ، حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ صُحَّارِ الْعَبْدِيِّ: أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ ^(٣) إِلَى جَبَّارٍ يَدْعُوهُ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ رَبِّكُمْ، أَذَهَبَ هُوَ؟ أَمْ فِضَّةٌ هُوَ؟ أَمْ لَوْلُؤُ هُوَ؟ قَالَ: قَبِينَا هُوَ يَجَادِلُهُمْ، إِذْ بَعَثَ اللَّهُ سَحَابَةَ فَرَعَدَتْ، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِ صَاعِقَةٌ فَذَهَبَتْ بِقُحُفِ رَأْسِهِ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ^(٤).

[٣٩٣١] وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عِيَّاشٍ، عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: جَاءَ يَهُودِيٌّ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنْ رَبِّكَ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ؟ مِنْ نُحَاسٍ هُوَ؟ أَمْ مِنْ لَوْلُؤٍ أَوْ يَاقُوتٍ؟ قَالَ: فَجَاءَتْ صَاعِقَةٌ فَأَخَذَتْهُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَأَنْزَلْنَا السَّحَابَ مَوْبِقًا يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ^(٥).

[٣٩٣٢] وَقَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا أَنْكَرَ الْقُرْآنَ، وَكَذَّبَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَرْسَلَ اللَّهُ صَاعِقَةً فَأَهْلَكَتَهُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَأَنْزَلْنَا السَّحَابَ مَوْبِقًا...﴾ الْآيَةُ ^(٦).

[٣٩٣٣] وَذَكَرُوا فِي سَبَبِ نَزُولِهَا قِصَّةَ عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ وَأَرِيدَ أَخِي لَبِيدِ بْنِ رَبِيعَةَ لَمَّا قَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَسَأَلَاهُ أَنْ يَجْعَلَ لِهَذَا نِصْفَ الْأَمْرِ، فَأَبَى عَلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ - لَعْنَهُ اللَّهُ -: أَمَا وَاللَّهِ لَا مَلَأْنَاهَا عَلَيْكَ خَيْلًا جُرْدًا وَرَجُلًا مُزْدًا. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَأْبَى اللَّهُ عَلَيْكَ ذَلِكَ وَأَبْنَاؤُ قَيْلَةٍ»، يَعْنِي الْأَنْصَارَ، ثُمَّ إِنَّهُمَا هَمَّا بِالْفَتْكِ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَجَعَلَ أَحَدُهُمَا يَخَاطِبُهُ، وَالْآخَرُ يَسْتَلُ سَيْفَهُ لِيَقْتُلَهُ مِنْ وَرَائِهِ، فَحَمَاهُ اللَّهُ مِنْهُمَا وَعَصَمَهُ، فَخَرَجَا مِنَ الْمَدِينَةِ فَاَنْطَلَقَا فِي أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، يَجْمَعَانِ النَّاسَ لِحَرْبِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى أَرِيدَ سَحَابَةً فِيهَا صَاعِقَةٌ فَأَحْرَقَتْهُ. وَأَمَا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ الطَّاعُونَ، فَخَرَجَتْ فِيهِ غُدَّةٌ عَظِيمَةٌ، فَجَعَلَ يَقُولُ: يَا آلَ عَامِرٍ، غُدَّةٌ كَغُدَّةِ الْبَكْرِ وَمَوْتٌ فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ؟ حَتَّى مَاتَا - لَعْنَهُمَا اللَّهُ - وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ: ﴿وَأَنْزَلْنَا السَّحَابَ مَوْبِقًا يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ، أَخُو أَرِيدَ يَرْثِيهِ:

أَخْشَى عَلَى أَرِيدَ الْحُثُوفِ وَلَا
أَزْهَبُ نَوَى السُّمَّاءِ وَالْأَسْدِ
فَجَعَنِي الرُّغْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِالْ
فَارِسِ يَوْمَ الْكَرِيهَةِ النَّجْدِ ^(٧)

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو يَعْلَى بِرَقْمٍ ٣٤٦٨ وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ١٣/١٢٥، وَالوَاحِدِيُّ فِي أَسْبَابِ النَّزُولِ ص ٢٠٤ مِنْ طَرِيقَيْنِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي سَارَةَ الشَّيْبَانِيِّ، حَدَّثَنَا ثَابِتٌ بِهَذَا الْإِسْنَادِ وَهَذَا إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ لضعف ابن أبي سارة.

وَذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي الْمَجْمَعِ ٧/٤٢ وَقَالَ: رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ وَالْبِزَارُ وَرِجَالُ الْبِزَارِ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرِ دَيْلَمِ بْنِ غَزْوَانَ وَهُوَ ثِقَةٌ، وَفِي رِجَالِ أَبِي يَعْلَى وَالتَّبْرَانِيِّ عَلِيُّ بْنُ أَبِي سَارَةَ وَهُوَ ضَعِيفٌ ١٠٥ هـ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبِزَارُ ٢٢٢١ وَأَبُو يَعْلَى ٣٣٤١ وَابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي «السَّنَةِ» ٦٩٢ وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السَّنَةِ».

(٣) وَقَعَ فِي سَائِرِ النُّسخِ «بَعَثَهُ» وَذَكَرَ الضَّمِيرُ خَطَأً مِنَ النَّاسِخِ، وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الطَّبْرِيِّ.

(٤) هَذَا مَرْسَلٌ لَكِنْ يَشْهَدُ لِمَا قَبْلَهُ.

(٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ٢٠٢٦٧ هَكَذَا مَرْسَلًا، وَمَعَ إِسْرَالِهِ، فِيهِ لَيْثٌ ضَعِيفٌ. وَالْغَرِيبُ فِيهِ ذِكْرُ الْيَهُودِيِّ فَقَطْ.

(٦) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ٢٠٢٧١ هَكَذَا مَرْسَلًا، لَكِنْ يَصْلُحُ شَاهِدًا لِحَدِيثِ أَنَسِ الْمُتَقَدِّمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٧) ذَكَرَهُ بِدُونِ إِسْنَادٍ، وَانظُرْ مَا بَعْدَهُ.

[٣٩٣٤] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا مسعدة بن سعد العطار، حدثنا إبراهيم بن المنذر الجزامي، حدثني عبد العزيز بن عمران، حدثني عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم، عن أبيهما، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس: أن أربد بن قيس بن جزة بن خالد بن جعفر بن كلاب، وعامر بن الطفيل بن مالك، قديما المدينة على رسول الله ﷺ فانتهبيا إليه وهو جالس، فجلسا بين يديه، فقال عامر بن الطفيل: يا محمد، ما تجعل لي إن أسلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَكَ ما للمسلمين، وعليكَ ما عليهم». قال عامر بن الطفيل: أتجعل لي الأمر إن أسلمت من بعديك؟ قال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك لك ولا لقومك، ولكن لك أعنة الخيل». قال: أنا الآن في أعنة خيل نجد، اجعل لي الزبر ولك المذر. قال رسول الله: «لا». فلما قفلا من عنده قال عامر: أما والله لأملأها عليك خيلاً ورجالاً. فقال له رسول الله ﷺ: «يمنعك الله». فلما خرج أربد وعامر قال عامر: يا أربد، أنا أشغل عنك محمداً بالحديث، فاضربه بالسيف، فإن الناس إذا قتلت محمداً لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية، ويكرهوا الحرب، فتعطيهم الدية. قال أربد: افعل. فأقبلا راجعين إليه، فقال عامر: يا محمد، ثم معي أكلمك. فقام معه رسول الله ﷺ فجلسا إلى الجدار، ووقف معه رسول الله ﷺ يكلمه، وسأل أربد السيف، فلما وضع يده على السيف يبست يده على قائم السيف، فلم يستطع سل السيف، فأبطأ أربد على عامر بالضرب، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد وما يصنع، فانصرف عنهما. فلما خرج عامر وأربد من عند رسول الله ﷺ حتى إذا كانا بالحرة - حرة واقم - نزلا، فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا: اشخصا يا عدوي الله، لعنكما الله. فقال عامر: من هذا يا سعد؟ قال: هذا أسيد بن حضير الكذاب. فخرجا حتى إذا كانا بالرقيم، أرسل الله على أربد صاعقة فقتلته، وخرج عامر حتى إذا كان بالخيرم أرسل الله قرحة فأخذته، فأدركه الليل في بيت امرأة من بني سلول، فجعل يمس قرحته في حلقه ويقول: غدة كغدة الجمل في بيت سلولية! يرغب أن يموت في بيتها! ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعاً، فأنزل الله فيهما: «اللَّهُ يَتْلُمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَحْمِلُ الْأُنْثَىٰ إِلَّا مَا فِي بَيْتِهَا وَإِن يَدْرَأَ مِنَ الْوَالِدِ إِذَا نَزَلَ بِهَا مِنْ نِسَاءٍ» الآية (١).

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾، أي: يشككون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾. قال ابن جرير: شديدة مماحلته في عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى في كفره. وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ فأنظر كيف كانت عقوبة مكرهم أننا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴿٥١﴾ [النمل: ٥٠ - ٥١]. وعن علي رضي الله عنه: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾، أي شديد الأخذ. وقال مجاهد: شديد القوة.

﴿لَمْ دَعَوْهُ لِقَىٰ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَسِطَ كَفْتَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْتَغِيَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِّغِهِ وَمَا دَعَا الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ ﴿١٤﴾

قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: ﴿لَمْ دَعَوْهُ لِقَىٰ﴾، قال: التوحيد. رواه ابن جرير. وقال ابن

(١) أخرجه الطبراني ١٠٧٦٠ وفي «الطوال» ٣٧ من حديث ابن عباس. قال الهيثمي في «المجمع» ١١٠٩١: في إسنادها عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف، وذكره الواحدي في الأسباب ٥٤٧ بقوله: قال ابن عباس في رواية أبي صالح [وهو وإيا، وابن جريج، وابن زيد، فساقه بلا سند. وأثر ابن جريج أسنده الطبري ٢٠٢٧٢ عنه وهو معضل.

عباس، وقتاده، ومالك عن محمد بن المنكدر: ﴿لَمْ دَعَوْهُ لَمَقِي﴾: لا إله إلا الله. ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ الآية، أي: ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله، ﴿كَبَيْطٍ كَتَبَتْهُ إِلَى الْمَاءِ يُتْلَعُ فَاءُ﴾، قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد: ﴿كَبَيْطٍ كَتَبَتْهُ﴾: يدعوا الماء بلسانه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً. وقيل: المراد كقابض يديه على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء، كما قال الشاعر:

فَأِنِّي وَإِيَّاكُمْ وَشَوْقاً إِلَيْكُمْ كَقَابِضِ مَاءٍ لَمْ تَسْقِهِ أَنَامِلُهُ
وقال الآخر:

فَأَصْبَحْتُ مِمَّا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا مِنْ الْوُدِّ مِثْلَ الْقَابِضِ الْمَاءِ بِالْيَدِ

ومعنى هذا الكلام أن هذا الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضاً وإما متناولاً له من بعد، كما أنه لا يتنفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه، الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره، لا يتنفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة ولهذا قال: ﴿وَمَا دَعَا الْكُفْرَيْنَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظُلْمَةً بِالْعَدْوِ وَالْأَصَالِ ۗ﴾ (١٥)

يُخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء. ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين، وكرهاً من المشركين، ﴿وَيُظَلِّلُهُم بِالْعُدْوِ﴾، أي؛ البُكر، والأصال وهو جمع أصيل وهو آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِنْ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيئاً ظِلِّلَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ ذَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَأَتَّخِذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرراً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۗ﴾ (١٦)

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، لأنهم معترفون أنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربها ومُدبِّرُها، وهم مع هذا قد اتَّخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعبديها بطريق الأولى، ﴿نَفْعاً وَلَا ضَرراً﴾، أي: لا تحصل منفعة ولا تدفع عنهم مضرة. فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله ومن عبد الله وحده لا شريك له وهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: اجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتمثله في الخلق، فخلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟ أي: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا يذله ولا يعدل له، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون في تَلبِيَّتِهِمْ: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿مَا سَعَدْتُمْ إِلَّا لِيقْرُبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]، فأنكر تعالى ذلك عليهم، حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يُشْفَعُ عنده أحداً إلا بإذنه، ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْرَكَهُ لَمْ﴾ [سبا: ٢٣]، ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُفِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]. وقال: ﴿إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا فِي الرَّحْمَنِ عِندَا ۗ﴾ [١٦] ﴿لَقَدْ أَحْضَنُوا وَجْهَهُمْ عِندَا ۗ﴾ [١٦] ﴿وَكَلَّمَهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

فَرَدًّا ﴿١٧﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥]، فإذا كان الجميع عبداً، فلم يعدْ بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رُسُلَهُ من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادة مَنْ سِوَى اللَّهِ، فَكَذَّبُوهُمْ وَخَالَفُوهُمْ، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة، ﴿وَلَا يَطَّلِرُ رَبُّكَ أَمْثَلًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على متلين مَضْرُوبِينَ لِلْحَقِّ فِي ثَبَاتِهِ وَيَقَانَهُ، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، أي: مطراً، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾، أي: أخذ كلُّ واد بحسبه، فهذا كبيرٌ وَسِعَ كثيراً من الماء، وهذا صغيرٌ قُوسِعَ بِقَدَرِهِ. وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يَسْعُ علماً كثيراً، ومنها ما لا يَتَسَعُ لكثير من العلوم بل يضيِّقُ عنها، ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾، أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زَبَدٌ عالٍ عليه، هذا مثل، وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾، هذا هو المثل الثاني، وهو ما يُسَبِّكُ في النار من ذهب أو فضة ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾، أي: ليجعل حلية نحاس أو حديد فيجعل متاعاً، فإنه يعلوه زَبَدٌ منه، كما يعلو ذلك زَبَدٌ منه، ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾، أي: إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دَوَامٌ له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب ونحوه مما يُسَبِّكُ في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾، أي: لا يَنْتَفِعُ به، بل يَنْفَرِقُ ويَمْزُقُ ويذهب في جاني الوادي، ويعلق بالشجر وتُسْفَهُ الرياح. وكذلك حَبَّتِ الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب، ولا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه يَنْتَفِعُ به. ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾، كما قال تعالى: ﴿رَبِّكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المنكوت: ٤٣]. وقال بعضُ السلف: كنتُ إذا قرأتُ مثلاً من القرآن فلم أفهمه بَكَيْتُ على نفسي، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمِمَّا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في: قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾: هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾، وهو الشك، ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾، وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه وتترك حَبَّتُهُ في النار. فكَذَلِكَ يَقْبَلُ اللَّهُ الْيَقِينَ وَيَتْرَكُ الشُّكَّ. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾، يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عُودٍ وِدْمَةٍ، ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾، فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد حَبَّتٌ، فجعل الله مثل حَبَّتِهِ كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبئت. فجعل ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيئ يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، فكذلك الهدى والحق جاء من عند الله، فمن عمل بالحق كان له ويبقى كما يبقى ما ينفع الناس في الأرض. وكذلك الحديد لا يُسْتَطَاعُ أَنْ يَعْمَلَ مِنْهُ سِكِّينٌ وَلَا سِيفٌ حَتَّى يَدْخُلَ فِي النَّارِ فَتَأْكُلُ حَبَّتَهُ، ويخرج جَيِّدٌ فينفع به. كذلك يضمحل الباطل إذا كان يوم

القيامة، وأقيم الناس، وعُرِضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق. وكذلك زوي في تفسيرها عن مجاهد، والحسن البصري، وعطاء، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف.

وقد ضَرَبَ الله - سبحانه وتعالى - في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين نارياً ومائياً، وهما قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة: ١٧]... الآية، ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَةٌ وَّعَدَّةٌ وَرَقٌّ﴾ [البقرة: ١٩]... الآية. وهكذا ضَرَبَ للكافرين في سورة النور مثلين، أحدهما قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَانَهُمْ كَكَرِيمٍ يُصِيبُهُ أَظْمَانٌ مَّاءٌ﴾ [النور: ٣٩]... الآية، والسراب إنما يكون في شدة الحر.

[٣٩٣٥] ولهذا جاء في الصحيحين: «يقال لليهود يوم القيامة: فما تريدون؟ فيقولون: أي ربنا عطشنا فاسقنا. فيقال: ألا تردون؟ فيردون النار فإذا هي كالسراب يحطم بعضها بعضاً»^(١)... ثم قال تعالى في المثل الآخر: ﴿أَوْ كَطُلُبُوتٍ فِي بَحْرِ لَيْلٍ يَبْغِشُهُ مَوْجٌ مِّنْ قَوْوِهِ. مَوْجٌ مِّنْ قَوْوِهِ. سَابُّهُ﴾ [النور: ٤٠]... الآية.

[٣٩٣٦] وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبٌ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَتَفَعَّ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَرَعَوْا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلٌ مِنْ قِبَلِهِ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ اللَّهُ بِمَا بَعَثَنِي وَنَفَعَهُ بِهِ. فَعَلِمَ وَعَلَّمَ. وَمَثَلٌ مِنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»^(٢). فهذا مثل مائي.

[٣٩٣٧] وقال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَامِ بْنِ مَثَبَةَ قَالَ: هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْقَرَائِشُ وَهَذِهِ الدُّوَابُّ الَّتِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَّقِمْنَ فِيهَا، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا أَخَذَ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي، فَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا»^(٣). وأخرجاه في الصحيحين أيضاً، فهذا مثل نارياً.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ أَحْسَنُ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْإِهَادُ﴾

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾، أي: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلمهم ﴿أَحْسَنُ﴾، وهو الجزاء الحسن، كما قال تعالى مخبراً عن ذي القرنين أنه قال: ﴿أَنَا مَنْ ظَلَمْتُ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَيْنَا رَبُّهُ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّكْرًا﴾ (٧٧) وَأَنَا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً لَّحِقًا وَسَتَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (٧٨) [الكهف: ٨٧-٨٨]، وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنِهِمْ﴾

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٨٣ من حديث أبي سعيد في خبر المرور على الصراط المشهور، وتقدم.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٧٩ ومسلم ٢٢٨٢ وأحمد ٣٩٩/٤ وابن حبان ٤.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٢٨٤ ح ١٨ وأحمد ٣١٢/٢ من طريق عبد الرزاق به. وأخرجه البخاري ٣٤٢٦ ومسلم ٢٢٨٤ والترمذي ٢٨٧٤ وابن حبان ٦٤٠٨ من وجه آخر عن الأعرج عن أبي هريرة به.

زِيَادَةً ﴿٢٦﴾ [يونس: ٢٦]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي لم: يُطِيعُوا الله، ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ الْأَرْضِ جِجِيمًا﴾، أي: في الدار الآخرة، لو أن يُمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يُتقبل منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً، ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لِحَاسِبٍ﴾، أي: في الدار الآخرة، أي: يُناقشون على الثَّيْبِ والقَطْمِيرِ، والجَلِيلِ والحَقِيرِ.

[٣٩٣٨] ومن نُوقِشَ الحِسَابَ عُدْبٌ^(١)، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَرْبَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ لِلْمُذَكِّبِ﴾.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذُرُ أُولَئِ الَّذِينَ لَا يَأْتُونَ﴾

يقول تعالى: لا يَسْتَوِي مَنْ يَعْلَمُ مِنَ النَّاسِ أَنْ الَّذِي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ هو ﴿الْحَقُّ﴾، أي: الذي لا شَكَّ فيه ولا مِرْيَةَ ولا لَبْسَ فيه ولا اختلافَ فيه، بل هو كَلِمَةُ حَقٍّ يَصْدُقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، لا يُضَادُ شَيْءٌ مِنْهُ شَيْئًا آخَرَ، فأخبره كُلُّهَا حَقًّا، وأوامرُه ونواهيُه عدلٌ، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الطَّلَبِ، فلا يَسْتَوِي مَنْ تَحَقَّقَ صِدْقَ مَا جِئْتَ بِهِ يا مُحَمَّدُ وَمَنْ هُوَ أَعْمَى لا يَهْتَدِي إلى خَيْرٍ ولا يَفْهَمُهُ، ولو فَهَمَهُ ما انقادَ له ولا صَدَقَهُ ولا اتبعه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَعْمَى النَّارِ وَأَعْمَى الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ [الحشر: ٢٧]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾، أي: أفهدنا كهذا؟ لا استواء. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَنْذُرُ أُولَئِ الَّذِينَ لَا يَأْتُونَ﴾، أي: إنما يعظُ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة، جعلنا الله منهم.

﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدِرُّوهُنَّ بِالْحَسَنَةِ أُولَئِكَ لَمْ يُعْطِ الدَّارِ ﴿٢٩﴾ حَتَّىٰ عَدُوٌّ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٣٠﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فِيمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ﴿٣١﴾

يقول تعالى مخبراً عَمَّنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ، بأنَّ لَهُمْ ﴿عُقِيَ الدَّارِ﴾، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة. ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾، وليسوا كالمناققين الذين إذا عاهد أحدُهم عَدَرَ، وإذا خاضم فَعَجَرَ، وإذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا اتَّخَمَ خَانَ. ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾، من صِلَةِ الأرحام، والإحسانِ إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، أي: فيما يأتون وما يَدْرُونَ من الأعمال، يُزَاقِبُونَ الله في ذلك، ويخافون سُوءَ الحِسَابِ في الدار الآخرة. فلهذا أَمَرَهُمْ على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية. ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، أي: عن المحارم والمعاصم، ففطموا نفوسهم عن ذلك الله - عز وجل - ابتغاءَ مَرْضَاتِهِ وجَزِيلِ ثوابِهِ، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، بِحُدُودِهَا وَمَوَاقِفِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَخُشُوعِهَا على الوجه الشرعي المرضي، ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، أي: على الذين يجبُ عليهم الإنفاقُ لهم من زوجات وقربان وأجانب، من فقراء ومحاويج ومساكين، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، أي: في السِّرِّ والجَهْرِ، لم يمنعهم من ذلك حالٌ من الأحوال، في آناء الليل وأطراف النهار، ﴿يَدِرُّوهُنَّ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾، أي: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحدٌ قابلوه بالجميل

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٣٩ ومسلم ٢٨٧٦ وأحمد ١٢٧/٦ وابن حبان ٧٣٧٠ من حديث عائشة وانظر ما تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٤٣.

صبراً واحتمالاً وصفحاً وعَفْواً، كما قال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْيَدِي مِمَّا آخَسَنُ فَإِذَا الْوَلْدِيَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿١٩﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الْإِنْسَانُ مَا يَقْنَهُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٠﴾﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٥]، ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السُّعَدَاءِ الْمُتَّصِفِينَ بهذه الصفاتِ الحسنة بأن لهم عُقبى الدارِ. ثم فُسر ذلك بقوله: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾، والعدنُ: الإقامة، أي: جناتُ إقامةٍ يخلدون فيها. وعن عبد الله بن عمرو أنه قال: إن في الجنة قصرًا يُقال له: عَدْنٌ، حوله البروجُ والمروجُ، فيه خمسة آلاف بابٍ، على كل باب خمسة آلاف حِجْرَةٍ لا يدخله إلا نبيٌّ أو صديقٌ أو شهيدٌ.

وقال الضحاكُ في قوله تعالى: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾، مدينةُ الجنةِ، فيها الرسلُ والأنبياءُ والشهداءُ وأئمةُ الهدى، والناسُ حولهم بعد، والجناتُ حولها. رواهما ابنُ جرير. وقوله: ﴿وَمَنْ صَالَحْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾، أي: يُجمَعُ بينهم وبين أحبائهم فيها من الآباءِ والأهلينَ والأبناء، ممن هو صالحٌ لدخولِ الجنةِ من المؤمنين، لِيَتَقَرَّ أعينُهُم بهم، حتى إنه تُرْفَعُ درجةُ الأدنى إلى درجةِ الأعلى، من غيرِ تَنْقِيسٍ لذلك الأعلى عن درجته، بل امتناناً من الله وإحساناً، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ قَلْبًا يُحِبُّهُمْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١]. وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٢﴾﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ وَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٣﴾﴾، أي: وتدخلُ عليهم الملائكةُ من ها هنا وها هنا للتهنئةِ بدُخولِ الجنةِ، فعند دُخولهم إليها تَفِدُ عليهم الملائكةُ مُسَلِّمينَ مُهْتَشِّينَ لهم بما حصلَ لهم من الله من التقريبِ والإِنعامِ، والإقامةِ في دارِ السَّلامِ، في جوارِ الصديقينَ والأنبياءِ والرسلِ الكرامِ.

[٣٩٣٩] وقال الإمام أحمد - رحمه الله -: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثني سعيد بن أبي أيوب، حدثنا معروف بن سويده الجُدَامِي، عن أبي عُشَّانَةَ المَعَاوِرِي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلقت الله؟» قالوا: اللّهُ ورسولُهُ أعلم. قال: «أول من يدخل الجنة من خلقت الله الفقراءُ المهاجرونَ الذين تُسَدُّ بهم الثغورُ، وتُنقَى بهم المكارهُ، ويموتُ أحدهم وحاجتهُ في صدره لا يستطيعُ لها قضاءً، فيقول الله تعالى لمن يشاءُ من ملائكته: ائتوهم فحيتوهم. فتقول الملائكةُ: نحن سُكَّانُ سمائِكَ، وخيرُك من خلقتك، أفنامرنا أن نأتي هؤلاء فنُسلِّمَ عليهم؟ قال: إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يُشركون بي شيئاً، وتُسدُّ بهم الثغورُ، وتُنقَى بهم المكارهُ، ويموتُ أحدهم وحاجتهُ في صدره فلا يستطيعُ لها قضاءً». قال: «فتأتيهم الملائكةُ عند ذلك، فيدخلون عليهم من كلِّ باب، سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٣﴾﴾ (١).

[٣٩٤٠] ورواه أبو القاسم الطبراني، عن أحمد بن صالح، عن عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبي عُشَّانَةَ، سَمِعَ عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «أولُ ثَلَاثَةٍ يدخلون الجنةَ فقراءُ المهاجرين، الذين تُنقَى بهم المكارهُ، وإذا أمرُوا سَمِعُوا وأطاعوا، وإن كانت لرجلٍ منهم حاجةٌ إلى سلطانٍ لم تُقَضَّ حتى يموتَ وهي في صدره، وإن الله يدعُو يومَ القيامةِ الجنةَ فتأتي بزخرفها وزينتها، فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، وجاهدوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنةَ بِغَيْرِ عَذَابٍ ولا حسابٍ، وتأتي الملائكةُ فيسجدون ويقولون: رَبَّنَا نحنُ نُسَبِّحُكَ الليلَ والنهارَ، ونُقَدِّسُ لك، مَنْ هؤلاء الذين آتَرْتَهُم علينا؟ فيقول الربُّ - عز وجل - هؤلاء عبادي الذين جاهدوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي. فتدخلُ

(١) حسن. أخرجه أحمد ١٦٨/٢ وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٥٩/١٠: رواه أحمد والبراز والطبراني... ورجالهم كلهم ثقات. وهو كما قال، وإسناده حسن.

عليهم الملائكة من كل باب: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَمِّي الدَّارِ ﴿٢٦﴾﴾ (١).

وقال عبد الله بن المبارك، عن بَقِيَّة بن الوليد، حدثنا أرطاة بن المنذر، سمعت رجلاً من مشيخة الجند، يقال له أبو الحجاج يقول: جلست إلى أبي أمامة فقال: إن المؤمنَ لَيَكُونُ متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة، وعنده سِمَاطَانِ من خَدَمٍ، وعندَ طَرْفِ السَّمَاطِينِ بَابٌ مُتَوَّبٌ، فَيَقْبَلُ المَلَكُ فيستأذنُ، فيقول أقصى الخدم للذي يليه: مَلِكٌ يَسْتَأْذِنُ، ويقول الذي يليه للذي يليه: مَلِكٌ يَسْتَأْذِنُ، حتى يبلغ المؤمن فيقول: ائذنوا. فيقول أقربهم إلى المؤمن: ائذنوا، ويقول الذي يليه للذي يليه: ائذنوا. حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب فيفتح له، فيدخل فيسلم ثم ينصرف، رواه ابن جرير. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث إسماعيل بن عياش، عن أرطاة بن المنذر، عن أبي الحجاج يوسف الألهاني قال: سمعت أبا أمامة... فذكر نحوه.

[٣٩٤١] وقد جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول، فيقول لهم: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَمِّي الدَّارِ ﴿٢٦﴾﴾ (٢). وكذا أبو بكر، وعمر، وعثمان.

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر ما لهم في الدار الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم أتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء «يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ».

[٣٩٤٢] كما ثبت في الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوثق خان» - وفي رواية: «وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» (٣). ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ اللَّعْنَةُ﴾، وهي الإبعاد عن الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، وهي سوء العاقبة والمآل، ومأواهم جهنم وبئس القراش. وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ... الآية، قال: هي ست خصال في المنافقين إذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض. وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا.

﴿اللَّهُ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٢٦﴾﴾

يذكرُ تعالى أنه هو الذي يُوسِعُ الرِّزْقَ على من يشاء، ويُقْتَرُهُ على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل. وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا في الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً، كما قال تعالى: ﴿يَمَسُّونَ آثْمًا يُدْمِرُ بِهِ مِنْ تَالِ وَبَيْنَ ﴿٥٥﴾ شَرَّحُ لَمْ يَلْقَ فِي لَقَائِهِمْ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]. ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما أدخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾، كما

(١) حسن. أخرجه أحمد ١٦٨/٢ وأبو نعيم في «صفة الجنة» ٨١ وابن حبان ٧٤٢١ والبيهقي في «البعث» ٤١٤. وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٥٩/١٠ وقال: رواه أحمد والبخاري، ورجالهم ثقات.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠٣٤٤ عن محمد بن إبراهيم مرسلًا.

(٣) تقدم عند آية ١٧٧ من سورة البقرة.

قال: ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، وقال: ﴿بَلْ تُؤْتِرُونَ الْآخِرَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

[٣٩٤٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالوا: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: ما الدنيا في الآخرة إلا كتمل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع؟ وأشار بالسبابة^(١). ورواه مسلم في صحيحه.

[٣٩٤٤] وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ مر بجذبي أسك مبيت - والأسك: الصغير الأذنين - فقال: «وَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أهُونُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَى أَهْلِهِ حِينَ الْقَوَّةِ»^(٢).

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾ [٢٧] الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [٢٨] الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا تَابَ﴾ [٢٩]

يخبر تعالى عن قبيل المشركين: ﴿لَوْلَا﴾، أي: هلاً ﴿أَنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ كما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بَيِّنَاتٍ كَمَا أَتَى آلَ مُوسَى﴾ [الأنبياء: ٥٥]. وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا.

[٣٩٤٥] وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى رَسُولِهِ لَمَّا سَأَلَهُ أَنْ يُحَوِّلَ لَهُمُ الصِّفَا ذَهَبًا، وَأَنْ يُجَرِّيَ لَهُمْ يُنْبوعًا، وَأَنْ يُزِيحَ الْجِبَالَ مِنْ حَوْلِ مَكَّةَ فَيَصِيرَ مَكَانَهَا مَرُوجًا وَبساتين: إِنْ شِئْتَ - يَا مُحَمَّدَ - أَعْطَيْتَهُمْ ذَلِكَ، فَإِنْ كَفَرُوا فَإِنِّي أَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا لَا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ عَلَيْهِمُ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةَ، فَقَالَ: بَلْ تَفْتَحُ لَهُمُ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةَ»^(٣). ولهذا قال لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾، أي: هو المضلُّ والهادي، سواء بُعث الرسل بأية على وفق ما اقتروا، أو لم يُجنِّبهم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بِذَلِكَ وَلَا عَدَمِهِ، كما قال: ﴿وَمَا تَفْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١١] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَالِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهُ فَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ أَنْابَ﴾، أي: ويهدي من أناب إلى الله، ورجع إليه، واستعان به، وتضرع لديه.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾، أي: تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً، ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، أي: هو حقيق بذلك. وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا تَابَ﴾ [٢٩]، قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: فرح وفره عين. وقال عكرمة: نعم مألهم. وقال الضحاک: غبطة لهم. وقال إبراهيم النخعي: خير لهم. وقال قتادة: هي كلمة عربية، يقول الرجل: طوبى لك، أي: أصبت خيراً. وقال في رواية: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾، حسنى لهم. ﴿وَحَسُنَ مَا تَابَ﴾، أي: مرجع. وهذه الأقوال شيء واحد لا منافاة بينها. وقال سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿طُوبَى

(١) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية ٣٩.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٥٧ من حديث جابر بأتم منه، وفي الباب من حديث ابن عباس عند أحمد ٣٢٩/١ وأبي يعلى ٢٥٩٣.

(٣) يأتي في سورة الإسراء، آية ٩٠.

لَهُمْ، قال: هي أرض الجنة بالحيشية. وقال سعيد بن مسجوح: طوبى اسم الجنة، بالهندية. وكذا روى السدي، عن عكرمة: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾، أي: الجنة. وبه قال مجاهد. وقال العوفي: عن ابن عباس: لما خلق الله الجنة وقرغ منها قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَصَلُوا الصَّالِحِينَ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا فِي جَنَّةِ﴾، وذلك حين أعجبته. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن جعفر، عن شهر بن حوشب قال: ﴿طُوبَى﴾، شجرة في الجنة، كلُّ شجرِ الجَنَّةِ منها، أغصانها من وراء سورِ الجنة. وهكذا روي عن أبي هريرة، وابن عباس، ومغيث بن سمي، وأبي إسحاق السبيعي وغير واحد من السلف: أن طوبى شجرة في الجنة، في كل دار منها غصنٌ منها. وذكر بعضهم أن الرحمن - تبارك وتعالى - غرسها بيده من حَبَّةِ لؤلؤة، وأمرها أن تمتد، فامتدت إلى حيث يشاء الله - تبارك وتعالى - وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجَنَّةِ، من عسلٍ وخرم وماء ولبن.

[٣٩٤٦] وقد قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث، أن دزاجاً أبا السَّمْحِ حَدَّثَهُ، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - مرفوعاً: ﴿طُوبَى﴾: «شجرة في الجنة مسيرة مئة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»^(١).

[٣٩٤٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، سمعت عبد الله بن لهيعة، حدثنا دزاج أبو السَّمْحِ، أن أبا الهيثم حَدَّثَهُ، عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: أن رجلاً قال: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك. قال: «طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى، ثم طوبى لمن آمن بي ولم يزني». قال له رجل: وما طوبى؟ قال: «شجرة في الجنة مسيرة مئة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»^(٢).

[٣٩٤٨] ورَوَى البخاري ومسلم جميعاً، عن إسحاق بن راهويه، عن مُغْبِرَةَ المخزومي، عن وَهْبِ، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها». قال: فَحَدَّثْتُ به النعمان بن أبي عياش الزرقني، فقال: حدثني أبو سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مئة عام لا يقطعها»^(٣).

[٣٩٤٩] وفي صحيح البخاري، من حديث يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿رِطْلٌ مِّمْدُودٌ﴾^(٤)، قال: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها»^(٤).

[٣٩٥٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا سريج، حدثنا فليح، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عَمْرَةَ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة سنة. اقرؤوا إن شئتم ﴿رِطْلٌ مِّمْدُودٌ﴾^(٥). أخرجاه في الصحيحين.

(١) أخرجه أحمد ٧١/٣ وأبو يعلى ١٣٧٤ وابن حبان ٧٤١٣ والخطيب ٩١/٤ والطبري ٢٠٣٩٤ وإسناده ضعيف، لضعف دزاج في روايته عن أبي الهيثم، ولصدره شواهد، والوهن فقط في عجزه «ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»، قوله: «أكمامها» هو غلاف التمر والحب قبل أن يظهر.

(٢) إسناده ضعيف كسابقه، والوهن في عجزه فقط كما تقدم.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٥٢ - ٦٥٥٣ ومسلم ٢٨٢٧ - ٢٨٢٨.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٥١ والترمذي ٣٢٩٣.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٥٢ ومسلم ٢٨٢٦ والترمذي ٢٥٢٣ وأحمد ٤١٨/٢ وابن حبان ٧٤١١.

[٣٩٥١] وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالوا: حدثنا شعبة، سمعت أبا الضحاک يحدث عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين - أو: مئة سنة - هي شجرة الخلد»^(١).

[٣٩٥٢] وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عن عائشة، عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها - قالت: سمعت رسول الله ﷺ وذكر سيدة المنتهى، قال: «يسير في ظل الفتن منها الراكب مئة سنة، أو قال: يستظل في الفتن منها مئة ركب، فيها فراش الذهب، كأن ثمرها القلال»^(٢). رواه الترمذي.

[٣٩٥٣] وقال إسماعيل بن عتاش، عن سعيد بن يوسف، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلام الأسود قال: سمعت أبا أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى، فتفتح له أكمامها، فيأخذ من أي ذلك شاء، إن شاء أبيض، وإن شاء أحمر، وإن شاء أصفر، وإن شاء أسود، مثل شقائقي النعمان وأرق وأحسن»^(٣).

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن أشعث بن عبد الله، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: طوبى شجرة في الجنة، يقول الله لها: تفتحي لعبدي عما شاء؛ فتفتق له عن الخيل يسروجهما ولجمها، وعن الإبل بأزميتها، وعما شاء من الكسوة.

وقد روى ابن جرير، عن وهب بن مثنى ها هنا أثراً غريباً عجيباً، قال وهب - رحمه الله -: إن في الجنة شجرة يقال لها: «طوبى»، يسير الراكب في ظلها مئة عام، لا يقطعها، زهرها رباط، وورقها برود، وقضبانا عتير وبطحاها ياقوت، وأثرها كافور، ووحلها يسك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهي مجلس لأهل الجنة، فيبنا هم في مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم يقدون نجباً مزومةً بسلايل من ذهب، وجوهها كالمصابيح حسناً، ووبرها كخز المزعزي من لينة، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودفوفها من ذهب، وثيابها من سندس وإستبرق، فينبخونها ويقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه. قال: فيركبونها، فهي أسرع من الطائر، وأوطأ من الفرائس، نجباً من غير مهنة، يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب أذن راحلة منها أذن الأخرى، ولا بزك راحلة بزك الأخرى، حتى إن الشجرة لتنتحي عن طريقهم، لثلاً تفرق بين الرجل وأخيه، قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيفسر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه، فإذا رآه قالوا: اللهم، أنت السلام ومنك السلام، وحق لك الجلال والإكرام. قال: فيقول تعالى عند ذلك: أنا السلام ومني السلام، وعليكم حقت رحمتي ومحبتي، مرحباً بعبادي الذين حشونني بغيب وأطاعوا أمري. قال: فيقولون: ربنا، لم نعبدك حق عبادتك، ولم نقدرك حق قدرك، فأذن لنا في السجود قدامك. قال: فيقول الله: إنها ليست بدار نصب ولا عبادة، ولكنها دار ملك وتعميم، وإني قد

(١) أخرجه أحمد ٤٥٥/٢ وفيه أبو الضحاک ذكره الذهبي في الميزان ١٠٣٢٥ فقال: حدث عنه شعبة لا يعرف، لكن شيوخ

شعبة جيد أهر قلت: تفرد بلفظ «جنة الخلد» وهو غريب، وباقى الحديث صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٥٤١ بإسناد ضعيف، فيه عننة ابن إسحق.

(٣) إسناده ضعيف لضعف سعيد بن يوسف الشامي.

رفعتُ عنكم نَصَبَ العبادَةِ، فَسَلُونِي ما شِئْتُمْ، فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ أَمْنِيَّتَهُ. فيسألونه، حتى إن أفضَرهم أَمِينَةً ليقول: رَبِّ، تَنافَسَ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي دَنِيَاهُمْ فَتَضَايَقُوا فِيهَا، رَبِّ فَأَتِنِي مِثْلَ كُلِّ شَيْءٍ كَانُوا فِيهِ مِنْ يَوْمِ خَلَقْتَهَا إِلَى أَنْ انْتَهتِ الدُّنْيَا. فيقول اللهُ تعالى: لَقَدْ قَصَصْتُ بِكَ أَمْنِيَّتِكَ، وَلَقَدْ سَأَلْتُ دُونَ مَنْزِلَتِكَ، هَذَا لَكَ مَنِّي، وَسَأَتِحُفُكَ بِمَنْزِلَتِي، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي عِطَائِي نَكَدٌ وَلَا تَصْرِيدٌ. قال: ثم يقول: اعْرِضُوا عَلَيَّ عِبَادِي مَا لَمْ يَبْلُغْ أَمَانِيَهُمْ، وَلَمْ يَخْطُرْ لَهُمْ عَلَيَّ بِال. قال: فَيَعْرِضُونَ عَلَيْهِمْ حَتَّى تَقْصُرَ بِهِمْ أَمَانِيَهُمُ الَّتِي فِي أَنْفُسِهِمْ، فَيَكُونُ فِيهَا يَعْرِضُونَ عَلَيْهِمْ بَرَادِينَ مُقَرَّنَةً، عَلَيَّ كُلِّ أَرْبَعَةٍ مِنْهَا سَرِيرٌ مِنْ يَاقوتَةٍ وَاحِدَةٍ، عَلَيَّ كُلِّ سَرِيرٍ مِنْهَا قُبَّةٌ مِنْ ذَهَبٍ مُفْرَغَةٍ، فِي كُلِّ قُبَّةٍ مِنْهَا فُرْشٌ مِنْ فُرْشِ الْجَنَّةِ مُتَظَاهِرَةٌ، فِي كُلِّ قُبَّةٍ مِنْهَا جَارِيَتَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، عَلَيَّ كُلِّ جَارِيَةٍ مِنْهُنَّ ثِيَابُ الْجَنَّةِ، وَلَيْسَ فِي الْجَنَّةِ لَوْنٌ إِلَّا وَهُوَ فِيهِمَا، وَلَا رِيحٌ طَيِّبَةٌ إِلَّا قَدْ عَمِقْنَا بِهِ، يَنْفِذُ ضَوْءٌ وَجُوهَهُمَا غَلِظَ الْقُبَّةِ، حَتَّى يَظُنُّ مَنْ يَرَاهُمَا أَنَّهُمَا دُونَ الْقُبَّةِ، يَرَى مُخْهُمَا مِنْ فَوْقِ سَوْقِهِمَا، كَالسَّلَكِ الْأَبْيَضِ فِي يَاقوتَةٍ حَمْرَاءَ، يَرِيَانُ لَهُ مِنَ الْفَضْلِ عَلَيَّ صَاحِبَتَهُ كَفَضْلِ الشَّمْسِ عَلَيَّ الْحِجَارَةِ أَوْ أَفْضَلَ، وَيَرَى هُوَ لَهُمَا مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَدْخُلُ إِلَيْهِمَا فَيُحْيِيَانَهُ وَيُقْبِلَانَهُ وَيَعْتَنِقَانَهُ، وَيَقُولَانِ لَهُ: وَاللَّهِ مَا ظَلَنَّا أَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ مِثْلَكَ. ثم يأمر اللهُ تعالى الملائكةَ فَيَسِيرُونَ بِهِمْ صَفًّا فِي الْجَنَّةِ، حَتَّى يُنْتَهِيَ بِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إِلَى مَنْزِلَتِهِ الَّتِي أُعِدَّتْ لَهُ^(١). وَقَدْ رَوَى هَذَا الْأَثَرُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدِهِ، عَنْ وَهَبِ بْنِ مَثْبُغَةَ، وَزَادَ: فَانظُرُوا إِلَى مَوْهَبِ رَبِّكُمْ الَّذِي وَهَبَ لَكُمْ، فَإِذَا هُوَ بِقَبَابٍ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، وَغُرْفٍ مَبْنِيَّةٍ مِنَ الدَّرِّ وَالْمَرْجَانِ، وَأَبْوَابُهَا مِنْ ذَهَبٍ، وَسُرُّهَا مِنْ يَاقوتِ، وَقُرْشُهَا مِنْ سَنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ، وَمَنَابِرُهَا مِنْ نُورٍ، يَقُورُ مِنْ أَبْوَابِهَا وَعِرَاصُهَا نُورٌ مِثْلُ شِعَاعِ الشَّمْسِ، عِنْدَهُ مِثْلُ الْكوكَبِ الدَّرِّيِّ فِي النَّهَارِ الْمَضِيِّ، وَإِذَا بِقُصُورٍ شَامِخَةٍ فِي أَعْلَى عِلْيَيْنٍ مِنَ الْيَاقوتِ يُزْهِرُ نُورُهَا، فَلَوْلَا أَنَّهُ مُسْخَرٌ إِذَا لَالْتَمَعَ الْأَبْصَارُ، فَمَا كَانَ مِنْ تِلْكَ الْقُصُورِ مِنَ الْيَاقوتِ الْأَبْيَضِ، فَهُوَ مَفْرُوشٌ بِالْحَرِيرِ الْأَبْيَضِ، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْيَاقوتِ الْأَحْمَرِ فَهُوَ مَفْرُوشٌ بِالْعَبْقَرِيِّ الْأَحْمَرِ، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْيَاقوتِ الْأَخْضَرِ، فَهُوَ مَفْرُوشٌ بِالسَّنْدُسِ الْأَخْضَرِ، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْيَاقوتِ الْأَصْفَرِ، فَهُوَ مَفْرُوشٌ بِالْأَرْجَوَانِ الْأَصْفَرِ. مُبَوَّبَةٌ بِالزُّمُرِ الْأَخْضَرِ، وَالذَّهَبِ الْأَحْمَرِ، وَالْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ، قَوَائِمُهَا وَأَرْكَانُهَا مِنَ الْجَوْهَرِ، وَشُرْفُهَا قَبَابٌ مِنْ لَوْلُؤٍ، وَبِرُوحِهَا غُرْفٌ مِنَ الْمَرْجَانِ، فَلَمَّا انصَرَفُوا إِلَى مَا أَعْطَاهُمْ رَبُّهُمْ قُرْبَتْ لَهُمْ بَرَادِينَ مِنَ يَاقوتِ، مَنفُوخٌ فِيهَا الرُّوحُ، تَجَنَّبَهَا الْوِلْدَانُ الْمُخَلَّدُونَ، بِيَدِ كُلِّ وَوَلِيدٍ مِنْهُمْ حَكْمَةٌ بِرَدِّهِمْ مِنْ تِلْكَ الْبَرَادِينَ، وَلُجْمِهَا وَأَعْنَتُهَا مِنْ فِضَّةٍ بَيْضَاءَ، مَنْظُومَةٌ بِالذَّرِّ وَالْيَاقوتِ، سُرُوجُهَا سُرُرٌ مَوْضُونَةٌ، مَفْرُوشَةٌ بِالسَّنْدُسِ وَالْإِسْتَبْرَقِ. فَانطَلقتْ بِهِمْ تِلْكَ الْبَرَادِينَ تَزِفُ بِهِمْ بِيظِنِ رِيَاضِ الْجَنَّةِ. فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى مَنْزِلَتِهِمْ وَجَدُوا الْمَلَائِكَةَ قُعُودًا عَلَيَّ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، يَنْتَظِرُونَهُمْ لِيَزُورُوهُمْ وَيُصَافِحُوهُمْ وَيَهْتَنُوا بِهِمْ كَرَامَةً رَبِّهِمْ. فَلَمَّا دَخَلُوا قُصُورَهُمْ وَجَدُوا فِيهَا جَمِيعَ مَا تَطَاوَلُ بِهِ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ وَمَا سَأَلُوا وَتَمَنَّوْا، وَإِذَا عَلَيَّ بَابٌ كُلِّ قَصْرِ مِنْ تِلْكَ الْقُصُورِ أَرْبَعَةٌ جَنَّانٌ، جَنَّاتَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ، وَجَنَّاتَانِ مَذْهَامَتَانِ، وَفِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَاحَتَانِ، وَفِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ، وَحُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ، فَلَمَّا تَبَوَّأُوا مَنْزِلَتَهُمْ وَاسْتَقَرُّوا قَرَارَهُمْ قَالَ لَهُمْ رَبُّهُمْ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدْتُمْ حَقًّا؟ قَالُوا: نَعَمْ، وَرَبَّنَا. قَالَ: هَلْ رَضَيْتُمْ ثَوَابَ رَبِّكُمْ؟ قَالُوا: رَبَّنَا، رَضِينَا فَارَضَ عَنَا. قَالَ: بِرِضَايَ عَنْكُمْ خَلَلْتُمْ دَارِي، وَنَظَرْتُمْ إِلَى وَجْهِ، وَصَافَحْتُمْ مَلَائِكَتِي، فَهَيِّئَا هَيِّئَا لَكُمْ، «عَطَاءَ غَيْرِ جَعْدُوزٍ» [هود: ١٠٨]، لَيْسَ فِيهِ تَنْغِيصٌ وَلَا تَصْرِيدٌ^(٢). فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا: «لَمَعَدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ»

(١) هذا الأثر والذي بعده من الإسرائيليات.

(٢) التصريد: التقليل.

[فاطر: ٣٤]، و ﴿لَحْنًا دَارَ الْمَقَامِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥]، ﴿إِنَّكَ رَبَّنَا لَقَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]. وهذا سياق غريب، وأثر عجيبٌ ولبعضه شواهدٌ.

[٣٩٥٤] ففي الصحيحين: «أن الله تعالى يقول لذلك الرجل الذي يكون آخر أهل الجنة دخولا للجنة، تَمَنَّ. فَيَتَمَنَّى، حتى إذا انتهت به الأمانى يقول الله تعالى: تَمَنَّ مِنْ كَذَا، وَتَمَنَّ مِنْ كَذَا، يُذَكِّرُهُ، ثم يقول: ذلك لك، وعشرة أمثاله^(١).

[٣٩٥٥] وفي صحيح مسلم، عن أبي ذرٍّ، عن رسول الله ﷺ عن الله - عز وجل - : «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسأله، ما ينقص ذلك من ملكي شيئا إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل في البحر»^(٢)... الحديث بطوله.

وقال خالد بن معدان: إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى، لها ضروعٌ، كلها تُرْضِعُ صبيانَ أهل الجنة، وإن سقطت المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة، يُتَقَلَّبُ فيه حتى تقوم القيامة، فَيُبْعَثُ ابن أربعين سنة. رواه ابن أبي حاتم.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِسِتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِينَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى: وكما أرسلناك - يا محمد - في هذه الأمة ﴿لِسِتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِينَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، أي: تُبَلِّغُهُمْ رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كُذِّبَ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِكَ، فلك فيهم أسوة، وكما أوقفنا بأسنا ونفمنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَرِئِن لَكُمْ لَسِتْلِينُ أَعْتَلْتُمْ فَهُوَ لَيْسَ بِالْيَوْمِ وَلَكِنَّ عَذَابَ آيَةٍ ﴿٣١﴾﴾ [النحل: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَآوَدُوا وَحَتَّىٰ آتَيْنَاهُمْ صَبْرًا وَلَا يَمُودُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَنْبِيَاءِ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٤]، أي: كيف نصرناهم، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، أي: هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرؤون به لأنهم كانوا يأتفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أتفوا يوم الحديبية أن يكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم! قال قتادة. والحديث في صحيح البخاري، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْمُسْتَسْقَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

[٣٩٥٦] وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن»^(٣). ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به مُعْتَرِفٌ مَقْرُولٌ بالربوبية والإلهية هو رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: في جميع أموري، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحدٌ سواه.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٨٤٣٧ - ٨٤٣٨ ومسلم ١٨٢ وأحمد ٢٧٥/٢ - ٢٧٦ وابن حبان ٧٤٢٩ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد مطوّلًا.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٧٧ والبخاري في «الأدب المفرد» ٤٩٠ وأحمد ١٦٠/٥ وابن حبان ٦١٩.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢١٣٢ وأبو داود ٤٩٤٩ والترمذي ٢٨٣٥ وابن ماجه ٣٧٢٨.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلِ اللَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾، أي: لو كان في الكتب الماضية كتابٌ تُسَيَّرُ به الجبال عن أماكنها، أو تُقَطَّع به الأرض وتُنشَقُّ، أو تُكَلَّم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتَّصِفَ بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك، لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجنُّ عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له، ﴿بَلِ اللَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، أي: مرجع الأمور كلها إلى الله - عز وجل - ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يُضليل الله فلا هادي له، ومن يهد الله فلا مضل له. وقد يطلَق اسمُ القرآن على كلِّ من الكتب المتقدمة، لأنه مشتق من الجميع.

[٣٩٥٧] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خفت على داود القراءة فكان يأمرُ بدابته أن تُسْرَجَ، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تُسْرَجَ دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه»^(١). انفرد بإخراجه البخاري. والمراد بالقرآن هنا الزبور. وقول: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أي: من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾، فإنه ليس ثمَّ حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجح في النفوس والعقول من هذا القرآن، الذي لو أنزله الله على جبل لرأته خاشعاً متصدعاً من خشية الله.

[٣٩٥٨] وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبيٍّ إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(٢). معناه أن معجزة كلِّ نبيٍّ انقضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل. من تزك من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

[٣٩٥٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا منجاب بن الحارث، أنبأنا بشر بن عمارة، حدثنا عمر بن حسان، عن عطية العوفي قال: قلت له: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾... الآية، قالوا لمحمد ﷺ: لو سُيِّرَتْ لنا جبال مكة حتى تتسبع فنحترث فيها، أو قُطِعَتْ لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أُحييت لنا الموتى كما كان عيسى يُحيي الموتى لِقَوْمِهِ؟ فأنزل الله هذه الآية. قال: قلت: هل تروون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبي ﷺ؟ قال: نعم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ^(٣). وكذا روى ابن عباس، والشعبي، وقتادة، والثوري، وغير واحد في سبب هذه الآية، فالله أعلم. وقال قتادة: لو فُعل هذا يقرآن غير قرآنكم فُعل بقرآنكم.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤١٧ وأحمد ٣١٤/٢ وابن حبان ٦٢٢٥.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية ٢٤.

(٣) إسناده ضعيف، لضعف عطية بن سعد العوفي، روى مناكير كثيرة. وأسند الطبري ٢٠٣٩٨ عن ابن عباس من قوله، وفيه عطية العوفي أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يَلَهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، قال ابن عباس: أي لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء، ولم يكن ليفعل. رواه ابن إسحاق بسنده عنه، وقاله ابن جرير أيضاً. وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِصِ الْأَذِينَ آمَنُوا﴾، أفلم يعلم الذين آمنوا. وقرأ آخرون: «أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً». وقال أبو العالية: قد تبين الذين آمنوا أن يهدوا، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعاً. وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، أي: بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تُصيبهم في الدنيا، أو تُصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَأَعْتَبُ لَكُمْ لِمَنْ يَرْجُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]. قال قتادة، عن الحسن: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، أي: القارعة. وهذا هو الظاهر من السياق.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعودي، عن قتادة عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾، قال: سريته، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، قال: محمد ﷺ حتى يأتي وعد الله، قال: فتح مكة. وهكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، في رواية. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾، قال: عذاب من السماء ينزل عليهم، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، يعني نزول رسول الله ﷺ بهم، وقتاله إيّاهم. وكذا قال مجاهد، وقاتدة. وقال عكرمة - في رواية عنه - عن ابن عباس: ﴿قَارِعَةٌ﴾، أي: نكبة. وكلهم قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ﴾، يعني فتح مكة، وقال الحسن البصري: يوم القيامة. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ أي: لا ينقض وعده ليريد بالضرورة لهم ولاتباعهم في الدنيا والآخرة، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَخْلِفُ وَعْدَهُ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٧٧﴾﴾ [إبراهيم: ٤٧].

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ رَسُولَ مِن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ رَسُولَ مِن قَبْلِكَ﴾، أي: فلنك فيهم أسوة، ﴿فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: انظرتهم وأجلتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾ أخذة رابية فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم؟ كما قال تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِّن قَرِيْبٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِنَّ الْآمِصْرَ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج: ٤٨].

[٣٩٦٠] وفي الصحيحين: «إن الله ليُنلي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿٣٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].^(١)

﴿أَفَننْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُظَاهِرُونَ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَننْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، أي: حفيظ عليهم رقيب على كل نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العاقلون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَدْرُسُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرَمًا وَنُسُودُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١]، وقال: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكَ مَنَ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَن هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿٦١﴾﴾ [الرعد: ٦١].

١٠، وقال: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْخَفَى﴾ [طه: ٧]، وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]... أفمن هو هكذا كالأصنام التي يَعْبُدونها، لا تسمع ولا تُبْصِرُ ولا تَعْقِل، ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لِعَابِدِيهَا، ولا كَشَفَ سُرِّ عَنْهَا وَلَا عَنْ عَابِدِيهَا؟ وحذف هذا الجواب اكتفاءً بدلالة السياق عليه، وهو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾، أي: عَبَدُوا مَعَهُ، من أصنام وأندادٍ وأوثانٍ. ﴿قُلْ سَتُحْمَمُهُمْ﴾، أي: أَعْلِمُونَا بِهِمْ، واكشِفُوا عَنْهُمْ حَتَّى يُعْرِفُوا، فإنهم لا حقيقة لهم، ولهذا قال: ﴿أَمْ تَتَّبِعُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: لا وجود لها، لأنه لو كان لها وجودٌ في الأرض لعلمها، لأنه لا تخفى عليه خافية. ﴿أَمْ يَظُنُّوْنَ مِنَ الْقَوْلِ﴾، قال مجاهد: يظنُّ من القول. وقال الضحاك وقتادة: يبطل من القول. أي: إنما عبدتم هذه الأصنام يظنُّ منكم أنها تنفع وتضرُّ وسميتموها آلهة، ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَمَا أَوْلَىٰ لَهُ أَنْ يُنزلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَبْتَغُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْفَذَىٰ﴾ [النجم: ٢٣]، ﴿بَلْ زَيْنٌ لِّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾، قال مجاهد: قولهم. أي: ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَرَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَيْبِ وَالْإِنشَاءِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]، ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾، من قرأها بفتح الصاد، معناه أنهم لما زين لهم ما فيه وأنه حقٌ دَعَوْا وَصَدُّوا النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِ طَرِيقِ الرَّسْلِ، ومن قرأها: ﴿وَصُدُّوا﴾، أي: بما زين لهم من صفة ما هم عليه صُدُّوا به عن سبيل الله، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، كما قال: ﴿وَمَنْ يُرِيدِ اللَّهُ شَيْئًا فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ أَلُوهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١] وقال: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدًىٰ مِنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ ﴿٣٥﴾

ذَكَرَ تَعَالَى عِقَابَ الْكُفَّارِ وَثَوَابَ الْأَبْرَارِ، فَقَالَ بَعْدَ إِخْبَارِهِ عَنِ حَالِ الْمُشْرِكِينَ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ قَتْلًا وَأَسْرًا، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾، أي: الْمَذْحَرُ مَعَ هَذَا الْخِزْيِ فِي الدُّنْيَا ﴿أَشَقُّ﴾، أي: مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ.

[٣٩٦١] كما قال رسول الله ﷺ لِلْمَتَلَاعَتَيْنِ: «إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَوْسَرُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ»^(١). وهو كما قال صلواتُ الله وسلامُه عليه - فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا لَهُ انْقِضَاءٌ، وَذَلِكَ دَائِمٌ أَبَدًا فِي نَارِ هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذِهِ سَبْعُونَ ضِعْفًا وَوَنَاقِي لَا يَتَصَوَّرُ كَثافتهِ وَشِدْثَهُ، كما قال تعالى: ﴿فَيُوهَبُ لَأَيِّدِيهِمْ عَذَابُهُمْ أَحَدٌ ۝ ٢٥ وَلَا يُؤْتَىٰ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ۝ ٢٦﴾ [النجف: ٢٥ - ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝ ١١ إِذَا رَأَوْهُم مِّن تَحْتِ بَيْعِهِمْ سَمِعُوا لَهُمْ نَسِيحًا وَذُكْرًا ۝ ١٢ وَإِذَا أَلْفَا بِهَا مَكَانًا صَافِقًا مُّقْرَنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝ ١٣ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝ ١٤ قُلْ أَدْرَاكَ حَيْثُ أَرْجَنَةُ الْخَلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَصِيرًا ۝ ١٥﴾ [الفرقان: ١١ - ١٥]. ولهذا قَرَنَ هَذَا بِهَذَا، فقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾، أي: صِفَتُهَا وَنَعْتُهَا، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: سَارِحَةٌ فِي أَرْجَائِهَا وَجَوَانِبِهَا، وَحَيْثُ شَاءَ أَهْلِهَا، يُتَجَرَّوْنَهَا فَتَجْبِرُ، أي: يُصَرِّفُونَهَا كَيْفَ شَاؤُوا وَأَيْنَ شَاؤُوا كَمَا قَالَ

(١) يأتي في مطلع سورة النور إن شاء الله.

تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَنْفُورَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَنْزٌ هُوَ خَالِدٌ فِي الْأَنْهَارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿أَكْثَلُهَا دَأْبٌ وَظَلْهَأٌ﴾، أي: فيها المطاعيم والفواكه والمشارب، لا انقطاع ولا فناء.

[٣٩٦٢] وفي الصحيحين، من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تكلمت^(١) فقال: «إني رأيت الجنة - أو: أريت الجنة - فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»^(٢).

[٣٩٦٣] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عبيد الله، حدثنا أبو عقيل، عن جابر قال: بينما نحن في صلاة الظهر إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر. فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: يا رسول الله، صنعت اليوم في الصلاة شيئاً ما رأيناك كنت تصنعه. فقال: «إني عرضت علي الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفاً من عنب لاتيكم به، فجعل بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض، لا ينقصونه»^(٣). وروى مسلم من حديث أبي الزبير، عن جابر، شاهداً لبعضيه.

[٣٩٦٤] وعن عتبة بن عبد السلمي: أن أعرابياً سأل النبي ﷺ عن الجنة، فقال: فيها عنب؟ قال: «نعم». قال: فما عظم العنقود؟ قال: «مسيرة شهر للغراب الأبقع لا يشني ولا يفتر»^(٤). رواه الإمام أحمد.

[٣٩٦٥] وقال الطبراني: حدثنا معاذ بن المثني، حدثنا علي بن المدني، حدثنا ربحان بن سعيد، عن عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى»^(٥).

[٣٩٦٦] وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون، طعامهم ذلك جشاء كريح المسك، ويلتهمون التسبيح والتفديس كما يلهمون النفس»^(٦). رواه مسلم.

[٣٩٦٧] وروى الإمام أحمد والنسائي، من حديث الأعمش، عن ثمامة بن عتبة، سمعت زيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: «نعم»، والذي نفس محمد بيده، إن الرجل منهم ليعطى قوة مئة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة». قال:

(١) أي أحجمت وتأخرت إلى الراء.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٠٥٢ و ٥١٩٧ و مسلم ٩٠٧ وأحمد ٢٩٨/١ وابن حبان ٢٨٣٢.

(٣) أخرجه أحمد ٣٥٣/٣ بأتم منه ويشهد له ما قبله.

(٤) أخرجه أحمد ١٨٣/٤ - ١٨٤ والطبراني ٨٢٠٨ مطولاً، قال الهيثمي في «المجموع» ١٨٧٢٧: فيه عامر بن زيد البكالي، ذكره ابن أبي حاتم من غير جرح ولا تعديل، وبقية رجاله ثقات أهد فالحديث غير قوي، عامر شبه مجهول، والله أعلم.

(٥) أخرجه الطبراني ١٤٤٩ والبزار ٣٥٣٠ وذكره الهيثمي في «المجموع» ٤١٤/١٠ وقال: رواه الطبراني والبزار إلا أنه قال: «عيد في مكانها مثلاًها» ورجال الطبراني وأحد إسناده البزار ثقات أهد.

(٦) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٣٥ وأبو داود ٤٧٤١ وأحمد ٣١٦/٣ وابن حبان ٧٤٣٥.

فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذى؟ قال: حاجة أحدهم رشح يفيض من جلودهم كريح المسك، فيضمُرُ بطئه»^(١).

[٣٩٦٨] وقال الحسن بن عرفة: حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إنك لتنظرُ إلى الطير في الجنة، فيجُرُّ بين يديك مشوتاً»^(٢).

[٣٩٦٩] وجاء في بعض الأحاديث: «أنه إذا فرغ منه عاد طائراً كما كان بإذن الله تعالى»^(٣). وقد قال الله تعالى: ﴿وَفِيكَهْوٍ كَثِيرٍ ﴿٣٦﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْرُوعَةٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة: ٣٢ - ٣٣]، وقال: ﴿وَأَيُّةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذَلَّتْ قُلُوبُهُمْ نَدْبِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: ١٤]. وكذلك ظلُّها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَمُوتْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَوُدَّخِلُهُمْ ظِلًّا ظِلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧].

[٣٩٧٠] وقد تقدّم في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسيرُ الراكبُ المجدُّ الجوادُ المُضْمَرُ السريعُ في ظلِّها مئةَ عامٍ لا يقطعُها»، ثم قرأ: ﴿وَقُلُوبٌ تَمُدُّونَ ﴿٣٤﴾﴾^(٤).

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليُرغَبَ في الجنة ويَحذَرُ من النار، ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر قال بعده: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَحْسَبُ النَّارِ وَأَحْسَبُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر: ٢٠]. وقال بلال بن سعد خطيب دمشق في بعض خطبه: عباد الله، هل جاءكم مخبرٌ يُخبركم أن شيئاً من عبادتكم تُقبِلت منكم، أو أن شيئاً من خطاياكم عُفرت لكم؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، والله لو عُجِّلَ لكم الثوابُ في الدنيا لاستقللتم كلُّكم ما افترض عليكم، أو ترغبون في طاعة الله لتعجيل دنياكم، ولا تنافسون في جنة ﴿أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرُحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ قُلٌ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ أَنُوعِدَ اللَّهُ وَلَا أَشْرَكَ بِهِ إِلَهٌ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٣٦﴾﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ﴾، وهم قائلون بمقتضاه، ﴿يَفْرُحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، أي: من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَتْلُوهُ حَقًّا﴾

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» ١١٤٧٨ وأحمد ٣٦٧/٤.

(٢) أخرجه الزبارة ٣٥٣٢ وابن المبارك في «الزهد» ١٤٥٢ والبيهقي في «البعث» ٣١٨ من حديث ابن مسعود، قال الهيثمي في «المجمع» ١٨٧٣٤: فيه حميد بن عطاء الأعرج ضعيف.

وذكره المنذري في «الترغيب» ٥٥٠٨ وعزاه لابن أبي الدنيا عن أبي أمامة موقوفاً، وكرره ٥٥٠٩ عن ميمونة مرفوعاً، وعزاه لابن أبي الدنيا، وكذلك ٥٥١٠ عن أبي سعيد مرفوعاً وقال: قد حسن الترمذي إسناده لغير هذا المتن أهد، فهذا وإن كان فيه ضعف، فلهذه يتقوى بما ذكر المنذري، والله أعلم.

(٣) هو طرف حديث. عزاه المنذري في «ترغيبه» ٥٥٠٩ لابن أبي الدنيا من حديث ميمونة. انظر تخريج الحديث السابق.

(٤) تقدم عند آية: ٢٩ من هذه السورة.

يَلَاؤِيَهُمْ أَذْيَبُكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَخْرُجْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰئِزُونَ ﴿٣٨﴾ [البقرة: ١٢١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ مِنْكُمْ إِنْ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ أَوْتًا أَلِيمٌ مِنْ قِبَلِهِ إِنْ يَسْأَلُ عَلَيْهِمْ خَيْرٌ لَدَافِقَانِ سَجْدًا ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿٣٨﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]، أي: إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقاً وصدقاً مفعولاً لا محالة وكائناً، فسبحانه ما صدق وعده! فله الحمد وحده، ﴿وَيَخْرُجُونَ لِلدَّفَقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٩]. وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَخْرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾، أي: ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك. وقال مجاهد: ﴿وَمِنَ الْأَخْرَابِ﴾: اليهود والنصارى من ينكر بعض ما جاءك من الحق. وكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلِإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعَةً لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ شَيْئًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]. ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنزِلَتْ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾، أي: إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له كما أرسل الأنبياء من قبلي، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾، أي: إلى سبيله أَدْعُوا النَّاسَ، ﴿وَرِيسَ مَنَابِ﴾، أي: مزجعي ومصيري.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ أُنزِلَتْ حِكْمًا عَرَبِيًّا﴾، أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن مُحْكَمًا مُعْرَبًا، شَرَفْنَاكَ بِهِ وَقَضَلْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُبِينِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَهْوَاءٌ مُمْ﴾، أي: آراءهم، ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَالِيَةِ﴾، أي: من الله تعالى، ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾. وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سُبُلَ أَهْلِ الضَّلَالَةِ بعدما صازوا إليه من سُلوِكِ السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، على من جاء بها أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِعَاقِبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنشِئُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى: وكما أرسلناك - يا محمد - رسولا بشريا كذلك بعثنا المرسلين قبلك بشرا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجا وذرية، وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [فصلت: ٦].

[٣٩٧١] وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فاصوم وأفطر، وأقوم وأنا من أكل الدسم، وأنزج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١).

[٣٩٧٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أنبأنا الحجاج بن أرطاة، عن مكحول قال: قال أبو أيوب: قال رسول الله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين: التعطر، والتكاح، والسواك، والجناء»^(٢). وقد رواه أبو

(١) تقدم.

(٢) إسناده ضعيف، أخرجه الترمذي ١٠٨٠ واحد ٤٢١/٥ من حديث أبي أيوب، وإسناده ضعيف، مكحول عن أبي أيوب منقطع، وحجاج بن أرطاة اختلط بأخيه فترك لأجل ذلك، وروي موصولا بذكر أبي الشمال وهو مجهول، وفيه حجاج أيضا، ومع ذلك حسنه الترمذي.

تنبيه: لفظ «الجناء» وقع في «الترغيب» ٣٢٥ «الختان» وعزه للترمذي، ووقع في مسند أحمد ٤٢١/٥ ح ٢٣٠٦٩ «الحياء» وكذا وقع في جامع الأصول ٩٣٢٢ وعزه للترمذي.

عيسى الترميذي، عن سفيان بن وكيع، عن حفص بن غياث، عن الحجاج، عن مكحول، عن أبي الشمال، عن أبي أيوب... فذكره، ثم قال: وهذا أصح من الحديث الذي لم يذكر فيه أبو الشمال.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، أي: لم يكن يأتي قومَه بخارقي إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله - عز وجل - يفعل ما يشاء، وبحكم ما يريد. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، أي: لكل مدة مَضْرُوبَةٌ كتابٌ مكتوبٌ بها، وكل شيء عنده بمقدار، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. وكان الضحاك بن مزاحم يقول في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، أي: لكل كتابٌ أجلٌ، يعني لكل كتاب أنزله من السماء مدة مَضْرُوبَةٌ عند الله ومقدارٌ معين، فلهذا يمحو ما يشاء منها ويثبت. يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله، صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾، اختلف المفسرون في ذلك، فقال الثوري، ووكيع، وهشيم، عن ابن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: يُدَبَّرُ أمر السنَّة، فَيَمْحُو ما يشاء، إلا الشَّقَاءَ والسعادة، والحياة والموت. وفي رواية: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾، قال: كل شيء إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإنهما قد فُرحَ منهما.

وقال مجاهد: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾، إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإنهما لا يَتَغَيَّرَان. وقال منصور: سألت مجاهداً فقلت: رأيت دعاءً أحدينا يقول: اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبتته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحُ عنهم، واجعله في السعداء، فقال: حسن. ثم لقيته بعد ذلك بحولٍ أو أكثر، فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَتٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ ﴿يَا قُرْطُوبُ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيمٌ﴾ [الدخان: ٣-٤]، قال: يقضي في ليلة القدر ما يكون في السنَّة من رزقٍ أو مُصِيبَةٍ، ثم يُقَدِّم ما يشاء ويُؤَخِّر ما يشاء، فأما كتاب الشقاوة والسعادة فهو ثابت لا يَغَيَّرُ. وقال الأعمش، عن أبي وائل شقيق بن سلمة: إنه كان يَكْثُرُ أن يدعو بهذا الدعاء: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامح، وكتبتنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. رواه ابن جرير.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن أبي حكيم عظمة، عن أبي عثمان النهدي: أن عَمَرَ بن الخطاب - رضي الله عنه - قال وهو يطوف بالبيت، وهو يبكي: اللهم، إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنباً فامح، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادةً ومَغْفِرَةً. وقال حماد، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن ابن مسعود: أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضاً. ورواه شريك، عن هلال بن حميد، عن عبد الله بن عكيم، عن ابن مسعود، بمثله. وقال ابن جرير: حَدَّثَنِي المثنى، حدثنا حجاج، حدثنا حماد، عن أبي حمزة، عن إبراهيم: أن كعباً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة^(١). قال: وما هي؟ قال: قال الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء.

[٣٩٧٣] وقد يُسْتَأْنَسُ لهذا القول بما رواه الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان - وهو الثوري - عن

وهذا الاضطراب إما من بعض الرواة أو من حجاج نفسه، فإنه اختلط كما تقدم، والله أعلم. ولفظ «الجناء» هو الأبعد، والأقرب «الجنان» وعلى هذا فللحديث شواهد تعضده، والله أعلم.

(١) قول كعب باطل مردود، فإنه ادعاء بعلم الغيب، ولعله لا يصح عنه، أبو حمزة هو ميمون، متروك.

عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبي الجعدي، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرُّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ، وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعَمْرِ إِلَّا الْبِرُّ»^(١). ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث سفيان الثوري، به.

[٣٩٧٤] وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمْرِ.

[٣٩٧٥] وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «إِنَّ الدُّعَاءَ وَالْقَضَاءَ لَيَعْتَلِجَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(٢).

وقال ابن جرير: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَهْلٍ بْنِ عَسْكَرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ لِلَّهِ لَوْحًا مَحْفُوظًا مَسِيرَةَ خَمْسَمِئَةِ عَامٍ، مِنْ ذُرَّةٍ بِيضَاءَ لَهَا دَفْتَانٌ مِنْ يَاقُوتٍ - وَالِدَفْتَانِ: لَوْحَانِ - لِه - عَزَّ وَجَلَّ - كُلِّ يَوْمٍ ثَلَاثُمِئَةِ وَسِتُونَ لِحْظَةً، «يَمْتَحُرُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَرَبِّتُ أُمَّ الْكَلْبِ».

[٣٩٧٦] وَقَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ زِيَادَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْفَرَزِّيِّ، عَنْ قُضَّالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَفْتَحُ الذُّكْرَ فِي ثَلَاثِ سَاعَاتٍ يَبْقَيْنَ مِنَ اللَّيْلِ، فِي السَّاعَةِ الْأُولَى مِنْهَا يَنْظُرُ فِي الذُّكْرِ الَّذِي لَا يَنْظُرُ فِيهِ أَحَدٌ غَيْرِهِ، فَيَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ»^(٣). وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ. رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ.

[٣٩٧٧] وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: «يَمْتَحُرُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَرَبِّتُ»، قَالَ: يَمْحُو مِنَ الرُّزْقِ وَيَزِيدُ فِيهِ، وَيَمْحُو مِنَ الْأَجْلِ وَيَزِيدُ فِيهِ، فَقِيلَ لَهُ: مِنْ حَدِيثِكَ بِهَذَا؟ فَقَالَ: أَبُو صَالِحٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَبَّابٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. ثُمَّ سُئِلَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ: يُكْتَبُ الْقَوْلُ كُلُّهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمَ الْخَمِيسِ طُرِحَ مِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ، مِثْلُ قَوْلِكَ: أَكَلْتُ وَشَرِبْتُ، دَخَلْتُ خَرَجْتُ وَنَحْوَهُ مِنَ الْكَلَامِ، وَهُوَ صَادِقٌ، وَيُثَبِّتُ مَا كَانَ فِيهِ الثَّوَابُ، وَعَلِيهِ الْعِقَابُ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْكِتَابُ كِتَابَانِ، فَكِتَابُ يَمْحُو اللَّهُ مِنْهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ^(٤).

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: «يَمْتَحُرُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَرَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ»، يقول: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذي يَمْحُو. والذي يُثَبِّتُ الرجل يعمل بمعصية الله، وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله، فهو الذي يُثَبِّتُ. وروى عن سعيد بن جبيرة أنها بمعنى: «فَيَمْحُو لِمَنْ يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» [البقرة: ٢٨٤]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «يَمْتَحُرُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَرَبِّتُ»، يقول: يُبَدِّلُ مَا يَشَاءُ فَيَنْسَخُهُ، وَيُثَبِّتُ مَا يَشَاءُ فَلَا يُبَدِّلُهُ، «وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ»، يقول: وَجُمْلَةُ ذَلِكَ عِنْدَهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ، النَّاسِخُ وَالْمَنْسُوخُ، وَمَا يُبَدِّلُ وَمَا يُثَبِّتُ، كُلُّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: «يَمْتَحُرُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَرَبِّتُ»: كَقَوْلِهِ: «مَا نَسَخَ مِنْ

(١) أخرجه ابن ماجه ٤٠٢٢ وابن أبي شيبة ٤٤١/١٠ - ٤٤٢ والطبراني ١٤٤٢ والحاكم ٤٩٣/١ والقضاعي ١٠٠١ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده حسن اه قلت: ورجاله ثقات كلهم رجال الشيخين سوى عبد الله بن أبي الجعد، وهو مقبول كما في «التقريب»، وفي «الميزان»: فيه جهالة. فالخير غير قوي.

(٢) يأتي في سورة خافر إن شاء الله تعالى.

(٣) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٠٥٠٢ و ٢٥٠٣ من حديث أبي الدرداء. وإسناده ضعيف لضعف زيادة بن محمد، والمتن غريب.

(٤) باطل، الكلبي هو محمد بن السائب متروك كذبه غير واحد. وأبو صالح اسمه باذام ضعيف روى موضوعات، أخرجه الطبري ٢٠٤٨٧.

آيَةً أَوْ تُنِيهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ يُلْهِمُهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد في قوله: ﴿يَتَمَحَّرُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُتَيْتُ﴾، قال: قالت كفار قريش حين أنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ما تَرَكَ يا محمد تُمَلِّكُ من شيء، ولقد فرغ من الأمر. فأنزلت هذه الآية تخويفاً ووَعِيداً لهم: إنا إن شئنا أخذنا له من أمرنا ما شئنا، ونحدث في كل رمضان، فَنَمَحُّوْهُ وَيُتَيْتُ ما نشاء من أرزاق الناس وَمَصَائِبِهِمْ، وما نُعْطِيهِمْ وما نقسم لهم. وقال الحسن البصري: ﴿يَتَمَحَّرُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ﴾، قال: من جاء أجله، فَذَهَبَ، وَيُتَيْتُ الذي هو حَيٌّ الحلال والحرام. وقال قتادة: أي جملة الكتاب وأصله. وقال الضحاك: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، قال: كتاب عند رب العالمين. وقال سنيّد بن داود، حدثني مُعْتَمِرٌ، عن أبيه، عن سيّار، عن ابن عباس: أنه سأل كعباً عن ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فقال: علم الله ما هو خالئٌ وما خلّفه عاملون، ثم قال لعلّيه: كن كتاباً. فكان كتاباً. وقال ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، قال: الذكر.

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى لرسوله: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾، أي: نَعِدُ أعداءك من الجزْي والْتِكَالِ في الدنيا، ﴿أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ﴾ قبل ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾، أي: إنما أرسلناك لِتُبَلِّغَهُمْ رسالة الله، وقد بَلَّغْتَ ما أمِرتَ به، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾، أي: حسابهم وجزاؤهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَأَنْتَ مُدْكِرٌ ﴿٢٦﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٧﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٨﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ لِنَأْتِيَنَّهُمْ بِحِسَابِهِمْ ﴿٣١﴾﴾ [الغاشية: ٢٦-٢٧]. وقوله: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، قال ابن عباس: أو لم يَرَوْا أَنَا نفتح لِمُحَمَّدٍ ﷺ الأرض بعد الأرض؟ وقال في رواية: أو لم يَرَوْا إلى القرية تخزّب حتى يكون العمران في ناحية؟ وقال مجاهدٌ وعكرمةٌ: ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، قال: خزّابها. وقال الحسن والضحاك: هو ظهورُ المسلمين على المشركين. وقال العوفي، عن ابن عباس: نُقصان أهلها ويزكّيها. وقال مجاهد: نقصان الأنفس والشمرات وخزّاب الأرض. وقال الشعبي: لو كانت الأرض تنقص لَصَاقَ عَلَيْكَ حُسُكٌ، ولكن تنقص الأنفس والشمرات. وكذا قال عكرمة: لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكاناً تقع فيه، ولكن هو الموت. وقال ابن عباس في رواية: خزّابها بموت فقهاؤها وعلمائها وأهل الخير منها. وكذا قال مجاهدٌ أيضاً: هو موتُ العُلَمَاءِ. وفي هذا المعنى رَوَى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبي القاسم المِضْرِي الواعظ، سكن أصفهان: حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ طَلْحَةُ بْنُ أَسَدِ الرَّقْمِيِّ بَدْمَشَقْ، أَنَشَدَنَا أَبُو بَكْرٍ الْأَجْرِيُّ بِمَكَّةَ قَالَ: أَنَشَدَنَا أَحْمَدُ بْنُ غَزَالٍ لِنَفْسِهِ:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالِمُها مَسَى يُمُتُ عَالَمٌ مِنْهَا يُمُتُ طَرْفُ
كالأرض تخيا إذا ما الغيث حل بها وإن أبى عادَ في أكنافِها التلّف

والقول الأول أولى، وهو ظهورُ الإسلام على الشرك قرية بعد قرية. كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حولَكُم مِّنَ الْقَرْيَاتِ﴾ [الأحقاف: ٢٧] الآية. وهذا اختيار ابن جرير.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعِلَهُ الْكَفْرُ لِمَن عَقِبَ

يقول تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يرسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمِينَ ﴿٥٦﴾ فَبَلَّغْ يَوْمَهُمْ خَاوِبَةً يَمَّا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٠-٥٢]... الآية. وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ قَلْبٍ﴾، أي: أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضماير، وسيجزي كل عامل بعمله. ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾ - وقرئ: الكفار - ﴿لِمَ عَقَّبَهُ الدَّارُ﴾، أي: لمن تكون الدائرة والعاقبة، لهم أو لاتباع الرسل؟ كلاً، بل هي لاتباع الرسل في الدنيا والآخرة، والله الحمد والمثنة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ

الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى: وَيُكَذِّبُكَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ ويقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾، أي: ما أرسلك الله. ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: حسبي الله، وهو شاهد عليّ وعليكم، شاهد عليّ فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان. وقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، قيل: نزلت في عبد الله بن سلام. قاله مجاهد. وهذا القول غريب؛ لأن هذه الآية مكية وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم رسول الله ﷺ المدينة. والأظهر في هذا ما قاله العوفي، عن ابن عباس قال: هم من اليهود والنصارى. وقال قتادة: منهم ابن سلام، وسلمان، وتميم الداري. وقال مجاهد - في رواية - عنه: هو الله تعالى. وكان سعيد بن جبير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام، ويقول: هي مكية، وكان يقرؤها: «وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ»، ويقول: من عند الله. وكذا قرأها مجاهد والحسن البصري.

[٣٩٧٨] وقد رَوَى ابن جرير من حديث هارون الأعمور، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قرأها: «وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ»^(١). ثم قال: لا أصل له من حديث الزهري عند الثقات. قلت: وقد رَوَاهُ الحافظ أبو يعلى في مُسْنَدِهِ، من طريق هارون^(٢) بن موسى هذا، عن سليمان بن أرقم - وهو ضعيف - عن الزهري، عن سالم، عن أبيه مرفوعاً كذلك^(٣). ولا يثبت، والله أعلم. والصحيح في هذا: أن ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾، اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ وتعتة في كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَلْتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ رَبُّوْتُكَ الرَّزْقَةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِقَائِنَاتٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي النَّوْازِدِ وَالْإِجْلِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]... الآية، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿١٧٧﴾ [الشعراء: ١٩٧]... الآية. وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل: أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة. وقد ورد في حديث الإخبار عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة، قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب «دلائل النبوة» وهو كتاب جليل:

(١) أخرجه الطبري ٢٠٥٥٨، وانظر ما بعده.

(٢) كذا وقع في سائر النسخ، والذي في مسند أبي يعلى «عبد الرحيم بن موسى».

(٣) ضعيف، أخرجه أبو يعلى ٥٥٧٤ من حديث ابن عمر وفيه سليمان بن أرقم متروك قاله في «المجمع» ١٥٥/٧، وكذا ضعف هذا الحديث السيوطي في «الدر» ٦٩/٤ وزاد نسبه لابن مردويه.

[٣٩٧٩] حدثنا سليمان بن أحمد الطبراني، حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا محمد بن مَصْفَى، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام، عن أبيه: أن عبد الله بن سلام أنه قال لأخبار اليهود: إنني أردت أن أجدد بمسجد أبنينا إبراهيم وإسماعيل عهداً. فانطلق إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة، فوافاهم وقد انصرفوا من الحج، فوجد رسول الله بمني، والناس حوله، فقام مع الناس، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال: أنت عبد الله بن سلام؟ قال قلت: نعم. قال: «ادن». فدنوت منه، قال: «أنشدك بالله يا عبد الله بن سلام، أما تجدني في التوراة رسول الله؟» فقلت له: انعت ربنا. قال: فجاء جبريل حتى وقف بين يدي رسول الله ﷺ فقال له: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾... إلى آخرها، فقرأها علينا رسول الله ﷺ. فقال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله. ثم انصرف ابن سلام إلى المدينة فكنتم إسلامه. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأنا فوق نخلة لي أجدها، فألقيت نفسي، فقالت أُمِّي: لَئِله أنت! لو كان موسى بن عمران ما كان لك أن تلقني نفسك من رأس النخلة. فقلت: والله لأبني أسرُّ بقُدوم رسول الله ﷺ من موسى بن عمران إذ بُعِثَ^(١). وهذا حديث غريب جداً.

* * *

آخر تفسير سورة الرعد، والله الحمد والمنة

(١) إسناده ضعيف جداً، والمتن باطل، أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» ٢٤٦ وهو معلول بعلة متعددة، فيه الوليد ابن مسلم مدلس، وقد عنعن، وحمزة بن يوسف مقبول كما في التقريب. أي حيث يتابع، ولم يتابع على هذا بل خولف، ثم هو منقطع بين حمزة وجده عبد الله بن سلام. ويعارضه حديث أنس: «أن عبد الله بن سلام أتى رسول الله ﷺ مقدمه المدينة، فقال: إنني سألتك عن ثلاث خصال لا يعلمهن إلا نبي... فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله...» أخرجه البخاري ٣٣٢٩ و ٣٩٣٨ و ٤٤٨٠ وأبو يعلى ٣٨٥٦ وابن حبان ٧١٦١ وأحمد ١٠٨/٣ والبيهقي في «الدلائل» ٥٢٨/٢ وغيرهم... وفي هذا أنه أسلم في المدينة، ولذا قال ابن كثير رحمه الله؛ غريب جداً.



وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كَتَبْتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾
الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ
بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. ﴿كَتَبْتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾، أي: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم، الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم. ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، أي: إنما بعثناك - يا محمد - بهذا الكتاب، لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، كما قال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]... الآية، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عَبْدِهِ عَابِتًا بِنْتًا لِتُخْرِجَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩]... الآية

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، أي: هو الهادي لمن قدّر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ﴾، أي: العزيز الذي لا يمانع ولا يُعَالَب، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿الْحَمِيدِ﴾، أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق في خبره. وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، قرأه بعضهم مستأنفاً مرفوعاً، وقرأه آخرون على الإتيان صفة للجلالة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِيَّايَ رَسُولًا لَوْ كُنْتُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨]... الآية. وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، أي: ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك - يا محمد - وكذبوك. ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أي: يُقَدِّمُونَهَا ويؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا ونسوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وهي اتباع الرسل، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، أي: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة، وهي مستقيمة في نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجى لهم - والحالة هذه - صلاح!

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾
 وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدوه وما أرسلوا به إليهم، كما قال الإمام أحمد:

[٣٩٨٠] حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ، عَنْ عُمَرَ بْنِ ذَرٍّ قَالَ: قَالَ مُجَاهِدٌ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - نَبِيًّا إِلَّا بِلُغَةِ قَوْمِهِ»^(١). وَقَوْلُهُ: «فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ»، أَي: بَعْدَ الْبَيَانِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ يُضِلُّ تَعَالَى مِنْ يَشَاءُ عَنْ وَجْهِ الْهُدَى، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى الْحَقِّ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾، الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي أَعْمَالِهِ، فَيُضِلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ، وَيَهْدِي مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلذَلِكَ. وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ سُنَّةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ أَنَّهُ مَا بَعَثَ نَبِيًّا فِي أُمَّةٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بَلَّغَتْهُمْ، فَاخْتَصَّ كُلُّ نَبِيٍّ بِإِبْلَاحِ رِسَالَتِهِ إِلَى أُمَّتِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَاخْتَصَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعَمُومِ الرِّسَالَةِ إِلَى سَائِرِ النَّاسِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصُّحُوحِ عَنِ جَابِرٍ قَالَ:

[٣٩٨١] قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعْطَيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَأُجِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيُبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(٢). وَلَهُ شَوَاهِدٌ مِنْ وَجْهِ كَثِيرَةٍ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتْلُوهَا النَّاسُ فِي رِسْوَالِ اللَّهِ لِيُنذِرَ لَكُمْ جِيمًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾
 اللَّهُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَكَلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

يقول تعالى: وكما أرسلناك - يا محمد - وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى في بني إسرائيل بآياتنا - قال مجاهد: وهي التسع الآيات ﴿أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾، أَي: أَمْرَانَهُ قَائِلِينَ لَهُ: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، أَي: ادْعُهُمْ إِلَى الْخَيْرِ، لِيَخْرُجُوا مِنَ ظُلُمَاتِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ إِلَى نُورِ الْهُدَى وَبَصِيرَةِ الْإِيمَانِ. ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾، أَي: بِآيَاتِهِ وَنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ فِي إِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ وَظُلْمِهِ وَغَشْمِهِ وَإِنجَاثِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ وَفَلَقَهُ لَهُمُ الْبَحْرَ وَتَظْلِيلِهِ إِيَّاهُمْ بِالْقَمَامِ، وَأَنْزَالِهِ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ. قَالَ ذَلِكَ مُجَاهِدٌ، وَقِتَادَةٌ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ.

[٣٩٨٢] وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ الْحَدِيثُ الْمَرْفُوعُ الَّذِي رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ^(٣) فِي مُسْنَدِ أَبِيهِ حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبَانَ الْجُعْفِيُّ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ١٥٨/٥ من حديث أبي ذر، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٠٩٥: رجاله رجال الصحيح، إلا أن مجاهدًا لم يسمع من أبي ذر أحد.

(٢) تقدم في سورة آل عمران عن آية: ١٥١.

(٣) كذا وقع في سائر النسخ مع أنه في المسند من رواية أحمد.

اللَّهُ ﴿٦﴾ ، قال: بنعم الله تبارك وتعالى ﴿١﴾. ورواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث محمد بن أبان، به. ورواه عبد الله ابنه أيضاً موقوفاً، وهو أشبه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ، أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعبرة ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ ، أي: في الضراء ﴿شَكُورٍ﴾ ، أي: في السراء، كما قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتلي صبراً، وإذا أعطي شكرًا.

[٣٩٨٣] وكذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ عَجَبٌ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قِضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» ﴿٢﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُمْ لِئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلِئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَعَنُوكُمْ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكّر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حين كانوا يدبّون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم، فأنقذ الله بني إسرائيل من ذلك. وهذه نعمة عظيمة، ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ، أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها. وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بَلَاءٌ﴾ ، أي: اختبار عظيم. ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا. والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسِنَّاتٍ وَالسِّبْيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُمْ﴾ ، أي: آذنتكم وأعلمتكم بوعدكم لكم. ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بجزته وجلاله وكبريائه، كما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُكُمْ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْيَوْمِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]. وقوله: ﴿لِئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ، أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿وَلِئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ ، أي: كفرتم الثعم وسترثموها وجحدثموها، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ، وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إيّاهم على كفرها.

[٣٩٨٤] وقد جاء في الحديث: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ» ﴿٣﴾.

وفي المسند: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِهِ سَائِلٌ فَأَعْطَاهُ تَمْرَةً، فَتَسَخَّطَهَا وَلَمْ يَقْبَلْهَا، ثُمَّ مَرَّ بِهِ آخَرُ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا فَقَبَلَهَا وَقَالَ: تَمْرَةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ! فَأَمَرَ لَهُ بِأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا ﴿٤﴾، أو كما قال.

[٣٩٨٥] قال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا عُمارة الصَّيدلاني، عن ثابت، عن أنس قال: أتى النبي ﷺ سَائِلٌ فَأَمَرَ لَهُ بِتَمْرَةٍ فَلَمْ يَأْخُذْهَا - أَوْ: وَحَشَّ بِهَا - قَالَ: وَأَنَا آخِرُ فَأَمَرَ لَهُ بِتَمْرَةٍ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ!

(١) أخرجه أحمد ١٢٢/٥ ح ٢٠٦٢٥، والطبري ٢٠٥٧٩ وفيه محمد بن أبان الجمعي غير قوي. وكرره عبد الله ابن أحمد ٢٠٦٢٦ من وجه آخر عن أبي موقوفاً، وهو من طريق محمد بن أبان أيضاً، والظاهر أن الوهم في رفعه من قبل يحيى بن عبد الله مولى بني هاشم، والله أعلم.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية ١٥٣.

(٣) تقدم قبل أحاديث، وهو ضعيف.

(٤) هو الآتي.

تمرة من رسول الله ﷺ! فقال للجارية: اذهبي إلى أم سلمة، فأعطيه الأربعين درهماً التي عندها^(١). تَفَرَّدَ به الإمام أحمد. وعُمارة بن زاذان وثقة ابن حبان، وأحمد، ويعقوب بن سفيان. وقال ابن معين: صالح. وقال أبو زرعة: لا بأس به. وقال أبو حاتم: يُكْتَبُ حديثه ولا يُحْتَجُّ به. ليس بالمتين. وقال البخاري: ربما يَضْطَرِبُ في حديثه. وعن أحمد أيضاً أنه قال: رُوِيَ عنه أحاديثٌ منكرة. وقال أبو داود: ليس بذلك. وضعفه الدارقطني، وقال ابن عدي: لا بأس به، ممن يُكْتَبُ حديثه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَعَنَ جَمِيعَهُ﴾ (٨)، أي: هو غَنِيٌّ عن شكر عباده، وهو الحميدُ المحمودُ، وإن كَفَرَهُ من كفره، كما قال: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ فَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. وقال تعالى: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَفْتَىٰ اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

[٣٩٨٦] وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه - عز وجل - أنه قال: يا عبادي، لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته. ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل في البحر^(٢). . . . فسبحانه وتعالى الغني الحميد.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوُّوا نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾

قال ابن جرير: هذا من تمام قبيل موسى لقويوه. يعني: وتذكاره إليهم بأيام الله بانتقايهم من الأمم المكذبة للرسول. وفيما قال ابن جرير تَطَرُّقًا؛ والظاهر أنه خَبَّرَ مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل: إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصه عليهم ذلك فلا شك أن تكون هاتان القِصتان في التوراة، والله أعلم. وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسول، مما لا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إلا الله - عز وجل - أنتهم رسلهم بالبينات، أي بالحجج والذلائل الواضحات الباهرات القاطعات. وقال ابن إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله أنه قال في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾: كَذَّبَ الشَّابِثُونَ. وقال عروة بن الزبير؛ ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان. وقوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾، اختلف المفسرون في معناه فقيل: معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم، لَمَّا دعواهم إلى الله عز وجل. وقيل: بل وَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ تكذيباً لهم. وقيل: بل هو عبارة عن سُكُوتِهِمْ عن جواب الرسل. وقال مجاهد، ومحمد بن كعب، وقاتدة:

(١) أخرجه أحمد ٣/١٥٥ - ٢٦٠ والبزار ٩٣٩. قال الهيثمي في «المجمع» ٤٥٦٥ و ١٣٦٤٩: رواه أحمد والبزار باختصار، وفيه عمارة بن زاذان، وهو ثقة وفيه كلام لا يضر. وقال في الموضع الثاني: وثقه جماعة، وضعفه الدارقطني أم وقال عنه الحافظ في التقریب: صدوق كثير الخطأ أم فالحديث غير قوي.

(٢) تقدم في سورة يونس عند آية ٤٤.

معناه أنهم كذبوهم وَرَدُّوا عليهم قولهم بأفواههم. قال ابن جرير: وتوجيهه أن «في» ها هنا بمعنى الباء، قال: وقد سُمع من العرب: «أدخلك الله بالجنة»، يعنون في الجنة، وقال الشاعر:

وَأَزْعَبُ فِيهَا عَنِ لَقِيْطٍ وَرَهْطِهِ وَلَكُنِّي عَنِ سَيْثِسٍ لَسْتُ أَرْغَبُ

يريد: أَرغَبُ بها. قلتُ: ويؤيد قول مجاهدٍ تفسير ذلك بتمام الكلام: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، فكانَ هذا والله أعلم تفسيرٌ لمعنى رَدُّ أيديهم في أفواههم. وقال سفيان الثوري، وإسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي إسحاق، عن عبد الله في قوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾، قال: عَضُّوا عليها غِيظًا. وقال شعبه، عن أبي إسحاق، عن هُبيرة بن مريم، عن عبد الله أنه قال ذلك أيضاً. وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ووجهه ابن جرير مختاراً له، بقوله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا خَلَا عَصَاكُمْ أَعْيُنُكُمْ فَأَلْقُوا إِلَيْهَا عِينَهُمْ﴾ [آل عمران: ٤١٩]. وقال العوفي، عن ابن عباس: لما سَمِعُوا كتاب الله عَجِبُوا وَرَجَعُوا بأيديهم إلى أفواههم. وقالوا: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، يقولون: لا نُصَدِّقُكم فيما جِئتم به؛ فإن عندنا فيه شكاً قوياً.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِمَنِ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٥﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

﴿الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رُسُلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِ اللَّهِ شَكٌّ﴾. وهذا يحتمل شيئين، أحدهما: أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر إلى الدليل الموصول إلى وجوده، ولهذا قالت لهم الرسل تُرِيدُهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، الذي خلقها وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهرٌ عليها، فلا بد لها من صانع، وهو الله لا إله إلا هو. خالق كل شيء، وإلهه ومليكه. والمعنى الثاني في قولهم: ﴿أَفِ اللَّهِ شَكٌّ﴾، أي: أفي إلهيته وتفرده بوجود العبادة له شك؟ وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو، وحده لا شريك له، فإن غالب الأمم كانت مفرقة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زُلْفَى. وقالت لهم رُسُلهم: الله ﴿يَدْعُوكُمْ لِمَنِ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ﴾، أي: في الدار الآخرة، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَسْتَفْتُوا رَبَّنَا ثُمَّ قُورُوا إِلَيْهِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النحل: ١٧]. وقالوا: ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، أي: خارقٍ نقتريه عليكم. قالت لهم رُسُلهم: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ

يَتْلُكُمْ، أَي: صَاحِبِ أَنَا بِشَرِّ مِثْلِكُمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، أَي: بِالرَّسَالَةِ وَالنَّبُوءَةِ، ﴿وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ﴾، عَلَى وَفْقِ مَا سَأَلْتُمْ، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، أَي: بَعْدَ سُؤَالِنَا إِيَّاهُ، وَإِذْنِهِ لَنَا فِي ذَلِكَ، ﴿وَعَلَّ اللَّهُ فَيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، أَي: فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ. ثُمَّ قَالَتْ الرَّسُلُ: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾، أَي: وَمَا يَمْنَعُنَا مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَقَدْ هَدَانَا لِأَقْوَمِ الطَّرِيقِ وَأَوْضَحَهَا وَأَبْيَنَهَا، ﴿وَلَتَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَهَا﴾، أَي: مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ، وَالْأَفْعَالِ السَّخِيفَةِ، ﴿وَعَلَّ اللَّهُ فَيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَتُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَتَسْكُنَنَّكُمُ الْأَرْضُ مِنْ بَدْيِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ رَبِّهِمْ وَهَمُّهُمْ وَسَقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ رَبِّهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَمَّا تَوَعَّدَتْ بِهِ الْأُمَمَ الْكَافِرَةَ رُسُلَهُمْ مِنَ الْإِخْرَاجِ مِنْ أَرْضِهِمْ، وَالتَّقِي مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، كَمَا قَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ لَهُ وَلِمَنْ آمَنَ بِهِ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَيْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِيْبَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]. وَقَالَ قَوْمُ لُوطَ: ﴿أَفْرِحُوا مَا لَ لُوطٍ مِنْ قَرِيْبِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِغُونَ﴾ [النمل: ٥٦]. وَقَالَ تَعَالَىٰ إِخْبَارًا عَنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُوا مِنْ أَالْأَرْضِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْمُوكُ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيْلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ٧٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْرِكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]. وَكَانَ مِنْ صُنْعِهِ تَعَالَىٰ أَنَّهُ أَظْهَرَ رِسُولَهُ وَنَصَرَهُ، وَجَعَلَ لَهُ بِسَبَبِ خُرُوجِهِ مِنْ مَكَّةَ أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا وَجُنْدًا، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَلَمْ يَزَلْ يُرْقِيهِ تَعَالَىٰ مِنْ شَيْءٍ إِلَىٰ شَيْءٍ، حَتَّىٰ فَتَحَ لَهُ مَكَّةَ الَّتِي أَخْرَجَتْهُ، وَمَكَّنَ لَهُ فِيهَا وَأَرْغَمَ أَنْوْفَ أَعْدَائِهِ مِنْهُمْ وَسَائِرَ أَهْلِ الْأَرْضِ، حَتَّىٰ دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، وَظَهَرَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ وَدَيْتُهُ عَلَىٰ سَائِرِ الْأَدْيَانِ، فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا فِي أَيْسَرِ زَمَانٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَتُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَتَسْكُنَنَّكُمُ الْأَرْضُ مِنْ بَدْيِهِمْ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا لِيَادِي الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾ إِلَيْهِمْ لُحْمَ الْمُضَرَّةِ ﴿٧٧﴾ وَلَئِن جَدَدْنَا لَهُمُ الْقُرْآنَ ﴿٧٨﴾﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَحْمَدَ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيْزٌ ﴿٦١﴾﴾ [المجادلة: ٢١]، وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا رَبُّهَا عِبَادِيَ الصَّالِحِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَا الْقَوْمَ الْأَوَّلِينَ كَانُوا يُسْتَعْمَرُونَ مُسَدِّقِينَ الْأَرْضِ وَمَعْرُوبَهَا أَلَىٰ بَدْرِكَا فِيهَا وَنَحْتَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحَسْبُ عَلَىٰ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ يَمَا صَبْرًا وَدَمْرًا مَا كَانَتْ يَمْسَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا بِرِشْوَةٍ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾، أَي: وَعِيدِي هَذَا لِمَنْ خَافَ مَقَامِي بَيْنَ يَدَيِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَخَشِيَ مِنْ وَعِيدِي، وَهُوَ تَخْوِيفِي وَعَذَابِي، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآتَى الْكِبْرَةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْيَوْمَ مِنَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٥﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١]، وَقَالَ: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾، أَي: اسْتَفْتَحَتْ الرَّسُلُ رَبُّهَا عَلَىٰ قَوْمِهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمَجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: اسْتَفْتَحَتْ الْأُمَّمُ عَلَىٰ أَنْفُسِهَا، كَمَا قَالُوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَانَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابِ الْيَوْمِ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا

مراداً وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إِن تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِن تَنْتَهُوا فَمَا هُوَ حَزْرٌ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٩]... الآية، والله أعلم. ﴿وَحَابٌ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، أي: مُتَجَبِّرٌ فِي نَفْسِهِ مَعَانِدٌ لِلْحَقِّ، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلِّ صَكَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٦﴾ مَتَّعٍ لِلْعَذَابِ مُعْتَدٍ تُرِيبٍ ﴿١٧﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفِيَا فِي الْعَذَابِ النَّعِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ٢٤ - ٢٦].

[٣٩٨٧] وفي الحديث: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادي الخلائق فتقول: إني وكُلْتُ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ... الحديث^(١).» ﴿وَحَابٌ﴾ خسر؛ حين اجتهد الأنبياء في الابتغال إلى رَبِّهِمُ الْعَزِيزِ الْمُتَّقِرِ.

وقوله تعالى: ﴿مِن رَّوَاهِهِمْ جَهَنَّمَ﴾، و «وراء» ها هنا بمعنى أمام، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ رِوَاةً مِّن مَّالِكٍ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، وكان ابن عباس يقرؤها: «وكان أمامهم ملك». أي: من وراء الجبار العنيد جهنم، أي: هي له بالمرصاد، يسكنها مُخَلَّدًا يوم المعاد، ويُعرض عليها عُذْرًا وَعِشْيًا إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ. ﴿وَسَمِعَ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: في النار ليس له شرابٌ إلا من حَمِيمٍ أَوْ عَسَاقٍ، فهذا حار في غاية الحرارة، وهذا بارد في غاية البرد والنتن كما قال: ﴿هَذَا فَلْيَذوقوه حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِمْ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٧ - ٥٨]. وقال مجاهد وعكرمة: الصديد من القيح والدم. وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده. وفي رواية عنه: الصديد ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القيح والدم.

[٣٩٨٨] وفي حديث شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قلت: يا رسول الله ما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار»^(٢).

[٣٩٨٩] وفي رواية: «غصارة أهل النار»^(٣).

[٣٩٩٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنبأنا صفوان بن عمرو، عن عبيد الله بن بسر، عن أبي أمامة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَسَمِعَ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَمَرَّضُهُمْ﴾، قال: يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَتَكْرَهُهُ، فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعائه حتى يخرج من ذبوره. يقول الله تعالى: ﴿وَسَمِعُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول: ﴿وَإِن يَسْتَفِيحُوا بِغَائِثٍ مِّمَّا يَمْأَوُ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الكهف: ٢٩]^(٤). وهكذا رواه ابن جرير، من حديث عبد الله بن المبارك، به. ورواه هو وابن أبي حاتم، من حديث بَقِيَّةِ بْنِ الْوَلِيدِ، عن صفوان بن عمرو، به.

(١) أخرجه الترمذي ٢٥٧٧ من حديث أبي هريرة بأتم منه وقال: حسن صحيح، ويشهد له حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد ٤٠/٣ وأبي يعلى ١١٣٨ وفي الباب أحاديث، وهو صحيح.

(٢) هو عجز حديث أخرجه أحمد ٤٦٠/٦ والطبراني ١٦٨/٢٤ - ١٦٩ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٦٩/٥ وقال: وفيه شهر بن حوشب، وهو ضعيف، وقد حُسن حديثه، وبقيت رجال أحمد ثقات.

(٣) هذه الرواية عند أحمد ١٧٨/٢ من حديث عبد الله بن عمرو، ورجالها ثقات كما في «المجمع» ٦٩/٥.

(٤) الحديث أخرجه الترمذي ٢٥٨٣ والنسائي ١١٢٦٣ «كبرى» والحاكم ٣٥١/٢ والطبري ٢٠٦٣٢ وأحمد ٢٦٥/٥ وإسناده ضعيف لأجل عبيد الله بن بسر. قال عنه الحافظ في التريب: مجهول، وقال الذهبي في الميزان: لا يعرف. ومع ذلك صححه الحاكم ووافقه الذهبي! ولعل السبب في ذلك هو أن عبيد الله بن بسر تحرف عن الحاكم إلى «عبد» وعل هذا هو صحابي وليس كذلك فقد قال الترمذي: عبيد الله بن بسر ليس بصاحب أحد. وله شاهد أخرجه الترمذي ٢٥٨٢ والبيهقي في «البعث» ٥٧٩ من حديث أبي هريرة، وفي إسناده ذراج أبي السمع لا بأس به لأنه ليس من روايته عن أبي الهيثم. وفي الباب من حديث أبي سعيد أخرجه أحمد ٧٠/٣ - ٧١ وابن حبان ٧٤٧٣ والحاكم ٥٠١/٢ لكنه من رواية ذراج عن أبي الهيثم وهي رواية فيها ضعف، لكن لعل الحديث يتأيد بذلك، ويستأنس له بالآية الكريمة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿بَجَرَ عُمْهُ﴾، أي: يتغصصه ويتكزّمه، أي: يشربه قهراً وقسراً، لا يضعه في فيه حتى يضر به الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ مَقْبَعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١]. ﴿وَلَا يَكَادُ يُسَبِّعُهُ﴾، أي: يزدرده لسوء لونه وطعمه وريحه، وحرارته أو برّده الذي لا يستطيع. ﴿وَيَأْتِيهِ أَلْمُوتٌ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾، أي: يالم له جميع بذنه وجوارحه وأعضائه. قال ميمون بن مهران: من كل عظم، وعزق، وعصب. وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره، وقال إبراهيم التيمي: من موضع كل شعرة، أي: من جسده، حتى من أطراف شعره. وقال ابن جرير: ﴿وَيَأْتِيهِ أَلْمُوتٌ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾، أي: من أمامه وورائه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه ومن تحت أرجله، ومن سائر أعضاء جسده.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَيَأْتِيهِ أَلْمُوتٌ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: أنواع العذاب التي يعذبها الله بها يوم القيامة في نار جهنم، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكن لا يموت؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَا يَقْضِي عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. ومعنى كلام ابن عباس - رضي الله عنه - أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِيهِ أَلْمُوتٌ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَيِّئٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾، أي: وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ، أي: مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدمى وأمر. وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَبْرِ ۖ طَلْحُهَا كَأَنَّهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ۗ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ فِيهَا فَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ ۖ فَسَخَّرْنَا لَهُمْ شَجَرَةَ الزَّقُومِ ۖ ثَمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَاقًا مِنْ جَبْرِ ۗ ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ لِأُولَى الْجَبْرِ ۗ﴾ [الصافات: ٦٤ - ٦٨]، فأخبر أنهم تارة يكونون في أصل الزقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى الجحيم، عياداً بالله من ذلك. وهكذا قال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ۗ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ جَبَمَيْنِ ۗ﴾ [الرحمن: ٤٣ - ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ ۖ طَلْحُهَا الْأَيْبُرُ ۖ كَأَلْمُوتِ يَغْلِي فِي الْبَطُونِ ۗ كَعَلِّ الْحَمِيرِ ۗ خُدُّهُ فَاعْتَوُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَبْرِ ۗ ثُمَّ سُبَّحَا فَوْقَ رَأْسِهِ ۖ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۗ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۗ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ۗ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٥٠]، وقال: ﴿وَأَحْسَبُ أَنَّهَا مَاءٌ الْحَمِيمُ ۗ﴾ [الرحمن: ٤٤]، في سورة حميم، ﴿وَالَّذِينَ يَنْبَغُونَ ۗ لَا يَأْرُونَ وَلَا كَرِيمٌ ۗ﴾ [الراعدة: ٤١ - ٤٤]، وقال تعالى: ﴿هَذَا وَرَأْسُ الشَّيْطَانِ لَشَرِّ مَنَابِ ۗ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا بِمِثْلِ الْمَاءِ ۗ هَذَا يَلْقَدُّونَهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۗ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَزْوَاجٌ ۗ﴾ [ص: ٥٥ - ٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصيه إلا الله عز وجل، جزاءً وفاقاً، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلْمٍ لِلْعَمِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا

كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الصَّلْوَالُ الْبَعِيدُ ۗ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره، وكذبوا رسله، وتبوا أعمالهم على غير أساس صحيح؛ فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾، أي: مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شيء، فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلاً إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة، ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾، أي: ذي ربح عاصفة قوية، فلا يقدرُونَ على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرُونَ على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْهَةً

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ ، أي: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببيئاتهم وتضرعهم إلى الله عز وجل، تعالوا نبيك وتضرع إلى الله. فبكوا وتضرعوا فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر. فصبروا صبراً لم يُر مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ . قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ قِيُولُ الضُّعُفَاتُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٥٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٥٨﴾﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أَسْمَىٰ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَأَنَّهُمْ لَأُولَئِهِمْ رِبَاٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ فَطِغَانٌ ﴿٥٩﴾﴾ [الاعراف: ٣٨-٣٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقَلُّبُكُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا نَسِيتُمْ أَبْنَاءَ نَحْنُ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٠﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿٦١﴾ رَبَّنَا إِنَّا إِتَيْنَا مِنْكَ الْغَدَابَ وَمَا كُنَّا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨]. وأما تخاضعهم في المحشر فقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَفَعُوا إِلَى الظَّالِمِينَ مَوْثِقَاتٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٣﴾﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُوا أَنَّهُمْ سَدَدْتُمْ عَنِ الْمَكَّةِ بَعْدَ إِذْ جَاءَتْكُمْ بِلَ كَثُرَ نَجْرِهِمْ ﴿٦٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بِلَ مَكْرُ الْبَيْتِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأْنَا أَتَمَّ مَا رَأَى الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَدَ فِي أَعْيُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [سبا: ٣١-٣٣].

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدْتَكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٦﴾﴾ وَأَدْخَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٦٧﴾﴾

يُخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس - لعنه الله - حيثل خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وغبناً إلى غيبيهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ﴾ ، أي: على السنة رُسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً، وخبراً صدقاً. وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمُنُّهُمْ وَمَا يَعْهَدُ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرْوَةً ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ، أي: ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به، ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ ، بمجرد ذلك. هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤكم به، فخالفتهم فصرتم إلى ما أنتم فيه، ﴿فَلَا تَلُمُونِي﴾ اليوم ﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ﴾ ، فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتهم الحجج واتبعتهم فصرتم إلى ما دعوتكم إليه الباطل، ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ ، أي: بنافعكم ومُنقذكم ومُخلصكم مما أنتم فيه، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ ، أي:

بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَتْرَكْتُمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾، قال قتادة: أي بسبب ما أشركتموني من قبل، وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل. وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِكْبَارُ الْيَوْمِ الْفَيْكَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُيِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِسَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحاف: ٥ - ٦]، وقال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبَادِيَتِهِمْ وَيُكْفُرُونَ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُبِينٌ﴾ [مریم: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾، أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار، كما قدمنا.

[٣٩٩١] ولكن قد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم - وهذا لفظه - وابن جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد: حدثني دُخَيْن الحَجْرِي، عن عقبة بن عامر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ، فَفُزَّحَ مِنَ الْقَضَاءِ، قَالَ الْمُؤْمِنُونَ: قَدْ قَضَىٰ بَيْنَنَا رَبَّنَا، فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا؟ فَيَقُولُونَ: انْطَلَقُوا بِنَا إِلَىٰ آدَمَ - وَذَكَرَ نُوحًا، وَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَىٰ، وَعِيسَىٰ - فَيَقُولُ عِيسَى: أَذَلَّكُمْ عَلَى النَّبِيِّ الْأَمِيِّ. فَيَأْتُونِي، فَيَأْذَنُ اللَّهُ لِي أَنْ أَقُومَ إِلَيْهِ فَيُثَوِّرُ مِنْ مَجْلِسِي مِنْ أَطِيبٍ رِيحَ شَمِّهَا أَحَدٌ قَطُّ، حَتَّىٰ أَتِي رَبِّي فَيُشْفَعُنِي، وَيَجْعَلُ لِي نُورًا مِنْ شَعْرِ رَأْسِي إِلَىٰ ظَهْرِي قَدَمِي، ثُمَّ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا: قَدْ وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ، فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا؟ مَا هُوَ إِلَّا إِبْلِيسُ، هُوَ الَّذِي أَضَلَّنَا، فَيَأْتُونَ إِبْلِيسَ فَيَقُولُونَ: قَدْ وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ، فَمَنْ أَنْتَ فَاشْفَعْ لَنَا، فَإِنَّكَ أَنْتَ أَضَلَلْتَنَا. فَيَقُومُ فَيُثَوِّرُ مِنْ مَجْلِسِهِ مِنْ أَتْنٍ رِيحَ شَمِّهَا أَحَدٌ قَطُّ، ثُمَّ يَعْظُمُ نَجِيهِمْ، ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ لَكُمْ وَيُوعِدُكُمْ فَاعْلَفْتُمْ مِمَّا كَانَتْ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(١). وهذا سياق ابن أبي حاتم. ورواه ابن المبارك عن رشدين بن سعد، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن دُخَيْن، عن عقبة، به مرفوعاً.

وقال محمد بن كعب القُرظِي - رحمه الله -: لما قال أهل النار: ﴿سَوْءًا عَلَيْكَ أَجْرِعْنَا بِمِصْرِنَا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيسٍ﴾، قال لهم إبليس: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ لَكُمْ﴾... الآية، فلما سمعوا مقالته مَقَتُوا أَنْفُسَهُمْ، فَسُودُوا: ﴿لَمَقَتْ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقَاتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠]، وقال عامر الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول الله لعيسى ابن مريم: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيْهِمُ مِنَ دُونِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٩]، قال: ويقوم إبليس - لعنه الله - فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾... الآية. ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال، وأن خطيبهم إبليس، عطف بحال السعداء وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأبين ساروا، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، ماكين أبداً لا يحولون ولا يزولون، ﴿يَأْذِنُ رَبُّهُمْ فَيَعْتَمِدُنَّ فِيهَا سَلَامًا﴾، كما قال تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَهَا وَنُحِيتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّيكَةِ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَفَّيْنَا فِيهَا قَبِيَّةً وَسَلَّمْنَا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال: ﴿دَعَوْتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامًا وَإِخْرُجْتُهُمْ أَنْ لَعْنَتُهُ لَكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٢٤﴾

(١) إسناده ضعيف أخرجه الطبري ٢٠٦٤٦ فيه عبد الرحمن بن زياد الإفريقي ضعيف الحديث، وقد تفرد به.

تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴿

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَبِيبَةً﴾ شهادة أن لا إله إلا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَبِيبَةٍ﴾، وهو المؤمن، ﴿أَصْلُهَا نَائِتٌ﴾، يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿وَوَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ﴾، يقول: يُرْفَعُ بِهَا عَمَلُ الْمُؤْمِنِ إِلَى السَّمَاءِ. وهكذا قال الضحاك، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، وغير واحد: إن ذلك عبارة عن المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كالشجرة من النخل، لا يزال يُرْفَعُ له عمل صالح في كُلِّ حِينٍ ووقْتٍ، وصباح ومساءً. وهكذا رواه السدي، عن مرة، عن ابن مسعود قال: هي النخلة. وشعبة، عن معاوية بن قرة، عن أنس: هي النخلة.

[٣٩٩٢] وَحَمَادٌ^(١) بن سلمة، عن شُعَيْبِ بْنِ الْحَبَابِ، عن أنس: أن رسول الله ﷺ آتَى بِقِنَاقٍ يُسْرِرُ فقرأ: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَبِيبَةً كَشَجَرَةٍ طَبِيبَةٍ﴾، قال: «هي النخلة»، وروي من هذا الوجه ومن غيره، عن أنس موقوفاً. وكذا نص عليه مسروق، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة، وغيرهم.

[٣٩٩٣] وقال البخاري: حدثنا عبيد بن إسماعيل، عن أبي أسامة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني عن شجرة تشبه - أو: كالرجل - المسلم، لا يتحاث ورقها ولا، ولا، ولا، تؤتي أكلها كل حين. قال ابن عمر: فوق في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلن، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ: هي النخلة. فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتا، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. قال: ما منعك أن تتكلم؟ قال: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلن أو أقول شيئاً. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا»^(٢).

[٣٩٩٤] وقال أحمد: حدثنا سفيان: عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: صحب ابن عمر إلى المدينة، فلم أسمعهم يحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحداً، قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتى بجُمَارٍ^(٣). فقال: «من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم. فأردت أن أقول: هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، فسكت، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»^(٤). أخرجه.

[٣٩٩٥] وقال مالك وعبد العزيز، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: «إن من الشجر شجرة لا يُطْرَحُ ورقها، مثل المؤمن. قال: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في قلبي أنها النخلة، فاستحييت، حتى قال رسول الله ﷺ: هي النخلة»^(٥). أخرجه أيضاً.

[٣٩٩٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبان - يعني ابن يزيد العطار - حدثنا قتادة: أن رجلاً قال: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور! فقال: «أرأيت لو عمداً إلى

(١) هو معطوف على «وهكذا رواه» وسيأتي إسناده بتمامه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٩٨ ومسلم ٢٨١١.

(٣) الجُمَار: شحم النخل، ومنه يخرج الشر.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٧٢ و٢٢٠٩ ومسلم ٢٨١١ وأحمد ١٢/٢ وابن حبان ٢٤٤.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ١٣١ وأحمد ٦١/٢ من طريق مالك به، وأخرجه أحمد ١٢٣/٢ وابن حبان ٢٤٣ من طريق عبد العزيز به.

متاع الدنيا، فَرَكَّبَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضِ أَكْثَانِ يَبْلُغُ السَّمَاءَ؟ أَفَلَا أَخْبِرَكَ بِعَمَلِ أَصْلِهِ فِي الْأَرْضِ وَفِرْعُهُ فِي السَّمَاءِ؟ قَالَ: مَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: تَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ»، عَشْرَ مَرَاتٍ فِي ذُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ، فَذَلِكَ أَصْلُهُ فِي الْأَرْضِ، وَفِرْعُهُ فِي السَّمَاءِ»^(١). وعن ابن عباس: «كَشَجَرَةٌ طَيِّبَةٌ»، قَالَ: هِيَ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ. وَقَوْلُهُ: «تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ يَمِينٍ»، قِيلَ: غُدُوَّةٌ وَعَشِيًّا. وَقِيلَ: كُلُّ شَهْرٍ، وَقِيلَ: كُلُّ شَهْرَيْنِ؛ وَقِيلَ: كُلُّ سِتَّةِ أَشْهُرٍ. وَقِيلَ: كُلُّ سَبْعَةِ أَشْهُرٍ. وَقِيلَ: كُلُّ سَنَةٍ. وَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ مِثْلُهُ كَمِثْلِ شَجَرَةٍ، لَا يَزَالُ يَوْجَدُ مِنْهَا ثَمَرٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ صَيْفٍ أَوْ شِتَاءٍ، أَوْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، كَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ لَا يَزَالُ يُرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ. «يَأْذِنُ رَبِّهَا»، أَي: كَامِلًا حَسَنًا كَثِيرًا طَيِّبًا، «وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

وقوله تعالى: «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ»، هذا مثل كفر الكافر، لا أصل له ولا ثبات، وشبهه بشجرة الحنظل. ويقال لها: الشُرَيَان. رواه شعبة عن معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك: أنها شجرة الحنظل.

[٣٩٩٧] وقال أبو بكر البزاز الحافظ: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع، حدثنا شعبة، عن معاوية بن قرة، عن أنس - أحسبه رَفَعَهُ - قَالَ: «مَثَلًا كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ»، قَالَ: هِيَ النَّخْلَةُ، «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ»، قَالَ: هِيَ الشُّرَيَان^(٢). ثم رواه عن محمد بن العثني، عن عُثْدِرٍ، عن شعبة، عن معاوية، عن أنس موقوفاً.

[٣٩٩٨] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد - هو ابن سلمة - عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ قَالَ: «مِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ، هِيَ الْحَنْظَلَةُ». فَأَخْبَرْتُ بِذَلِكَ أَبَا الْعَالِيَةِ فَقَالَ: هَكَذَا كُنَّا نَسْمَعُ^(٣). ورواه ابن جرير، من حديث حماد بن سلمة، به. ورواه أبو يعلى في مسنده بأبسط من هذا، فقال:

[٣٩٩٩] حدثنا غسان، عن حماد، عن شعيب، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أَنْتَى بِقِنَاعٍ عَلَيْهِ بُسْرٌ، فَقَالَ: «مِثْلًا كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفِرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ يَمِينٍ يَأْذِنُ رَبِّهَا»، فَقَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ»، «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ أَيْتَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٥﴾»، قَالَ: «هِيَ الْحَنْظَلُ». قَالَ شُعَيْبٌ: فَأَخْبَرْتُ بِذَلِكَ أَبَا الْعَالِيَةِ فَقَالَ: كَذَلِكَ كُنَّا نَسْمَعُ^(٤). وَقَوْلُهُ: «أَيْتَتْ»، أَي: اسْتَوْصَلَتْ «مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ»، أَي: لَا أَصْلَ وَلَا ثَبَاتَ، كَذَلِكَ الْكُفْرُ لَا أَصْلَ لَهُ وَلَا فِرْعَ، وَلَا يَصْعَدُ لِلْكَافِرِ عَمَلٌ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ شَيْءٌ.

(١) هذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف عند أهل الحديث.

(٢) إسناده على شرط الصحيح. لكن شك الراوي في رفعه. وقد أخرجه الطبري ٢٠٩٢٨ و ٢٠٩٢٩ و ٢٠٩٣١ و ٢٠٩٣٢ من وجوه موقوفاً.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠٧٣٩ ورجاله رجال مسلم. لكن كرهه ٢٠٧٣٢ و ٢٠٧٣٣ و ٢٠٧٣٤ و ٢٠٧٣٥ و ٢٠٧٣٦ من غير وجه عن أنس موقوفاً، وهو أصح من الرفوع.

(٤) أخرجه أبو يعلى ٤١٦٥ بهذا الإسناد وأخرجه الترمذي ٣١١٨ وابن حبان ٤٧٥ من طريق حماد بن سلمة به وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وأخرجه الترمذي ٣١١٨ موقوفاً على أنس وقال: وهذا أصح من حديث حماد بن سلمة. أي المرفوع والراجع وقفه كسابقه.

﴿يَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧)

[٤٠٠٠] قال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أخبرني علقمة بن مرثد قال: سمعت سعد بن عبيدة، عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سُئِلَ في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله، فذلك قوله: ﴿يَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾» (١). ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة كلهم. من حديث شعبة، به.

[٤٠٠١] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن الجنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَانَ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عَوْذٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ». مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ إِلَى الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوَجْهِ كَأَنَّ وَجوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَخُتُوطٌ مِنْ خُتُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ. ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ. قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسْبِيلَ كَمَا تَسْبِيلُ الْقَطْرَةُ مِنَ فِي السَّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْقَةً عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذَهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطِيبٍ نَفْحَةٍ مِنْكَ وَجَدْتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمْرُونَ - يَعْنِي بِهَا - عَلَى مَلَأَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتَحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُ، فَيُشِيعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرَجْتُهُمْ تَارَةً أُخْرَى». قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِيهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مِنْ رَبِّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ. فَيَقُولُونَ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَعَثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عَلِمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيُنَادِي مَنَادٌ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَّقَ عَبْدِي، فَأَفْرَشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَاللَّبْسُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّةِ». قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَطِيْبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيْحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسْرُكُ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهَكَ الْوَجْهِ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ. فَيَقُولُ: رَبُّ، أَيْمُ السَّاعَةِ، رَبُّ أَيْمِ السَّاعَةِ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي». قَالَ: «وَإِنِ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سَوْدُ الْوَجْهِ مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ. قَالَ: فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ؛ فَيَنْتَرِعُهَا كَمَا يُنْتَرِعُ السَّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٦٩ و ٤٦٩٩ و مسلم ٢٨٧١ وأبو داود ٤٧٥٠ و الترمذي ٣١٢٠ و النسائي في «التفسير» ٢٨٤

يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي الْمُسُوحِ. وَيُخْرِجُ مِنْهَا كَانَتْنِ رِيحٌ جَافَةٌ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيُصْعِدُونَ بِهَا فَلَا يَمْرُونَ بِهَا عَلَى مَلَأَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ. بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يَفْتَحُ لَهُ. ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَفْتَحْ لِمَنْ أَوْتَبَ اللَّهُ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَرِّ الْكِبَالِ» [الأعراف: ٤٠]، فَيَقُولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينَ - فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى - فَتَطْرَحُ رُوحَهُ طَرْحًا. ثُمَّ قَرَأَ: «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَلَّفَهُ الطُّبْرُ أَوْ نَهَى يَدَ الرَّيْحِ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ» [الحج: ٣١]. فَتُعَادُ رُوحَهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ وَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي! فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَعَثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي؟ فَيُنَادِي مَنَادٌ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَّبَ، فَأَفْرَشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُومِيهَا، وَيُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرَهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتَنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوَعِّدُ! فَيَقُولُ: وَمَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ! فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ، لَا تُقِمِ السَّاعَةَ^(١). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ، وَالنَّسَائِيِّ وَابْنُ مَاجَةَ، مِنْ حَدِيثِ الْيُنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، بِهِ.

[٤٠٠٢] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ يُونُسَ بْنِ خَبَّابٍ، عَنِ الْمُنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ زَادَانَ، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَنَازَةٍ... فَذَكَرَ نَحْوَهُ. وَفِيهِ: «حَتَّى إِذَا خَرَجَ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَعْجِرَ بِرُوحِهِ مِنْ قَبِيلِهِمْ». وَفِي آخِرِهِ: «ثُمَّ يُقَيِّضُ لَهُ أَعْمَى أَصْمٌ أَبْكَمٌ، وَفِي يَدِهِ بَرَزِيَّةٌ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَكَانَ تَرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً فَيَصِيرُ تَرَابًا: ثُمَّ يُعِيدُهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى فَيَصْبِيحُ صَبِيحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَى الثَّقَلَيْنِ. قَالَ الْبَرَاءُ: ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ وَيَمْهَدُ لَهُ مِنْ فَرَشِ النَّارِ. وَقَالَ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ خَيْشَمَةَ عَنِ الْبَرَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّلَاثِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»، قَالَ: عَذَابُ الْقَبْرِ^(٢).

وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَخَارِقَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ^(٣) قَالَ: إِنْ الْمُؤْمِنُ إِذَا مَاتَ أُجْلِسَ فِي قَبْرِهِ، فَيَقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيِّكَ؟ فَيُنَبِّئُهُ اللَّهُ، فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ. وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: «يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّلَاثِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ».

[٤٠٠٣] وَقَالَ الْإِمَامُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي مَسْنَدِهِ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ قَتَادَةَ، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نَعَالِهِمْ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ قَالَ: فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ. قَالَ: فَيُقَالُ لَهُ: انظُرْ إِلَى مَعْدَنِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهَ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ. قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «فِيرَاهُمَا جَمِيعًا». قَالَ قَتَادَةُ: وَذَكَرَ لَنَا أَنَّهُ يَفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٤٧٥٣ وأحمد ٤٧٨٧/٤ والبيهقي في إنبات عذاب القبر ٢٠ و ٥٥ وصححه الحاكم ٣٧/١ - ٤٠ ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في «المجمع» ٥٠/٣ وقال: رواه أحمد ورجال رجال الصحيح. وهو كما قالوا.

(٢) أخرجه أحمد ٤٧٩٥/٤ - ٢٩٦ وإسناده جيد.

(٣) هو ابن مسعود رضي الله عنه.

ذراعاً، ومُلاً عليه خَظيراً إلى يوم القيامة^(١). رواه مُسليم عن عبد بن حميد، به، وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدّب، به.

[٤٠٠٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن جريج، أخبرني أبو الزبير، أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتّاني القبر فقال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُنْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَإِذَا أَدْخَلَ الْمُؤْمِنُ قَبْرَهُ وَتَوَلَّى عَنْ أَصْحَابِهِ، جَاءَ مَلَكٌ شَدِيدُ الْإِنْتِهَارِ، فَيَقُولُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: أَقُولُ: إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَبْدُهُ. فَيَقُولُ لَهُ الْمَلَكُ: انظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ الَّذِي كَانَ لَكَ فِي النَّارِ، قَدْ أَنْجَاكَ اللَّهُ مِنْهُ، وَأَبْدَلَكَ بِمَقْعَدِكَ الَّذِي تَرَى مِنَ النَّارِ مَقْعَدَكَ الَّذِي تَرَى مِنَ الْجَنَّةِ. فَيَرَاهُمَا كِلَيْهِمَا. فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: دَعُونِي أَبْشُرْ أَهْلِي. فَيَقَالُ لَهُ: اسْكُنْ. وَأَمَّا الْمَنَافِقُ فَيَقْعُدُ إِذَا تَوَلَّى عَنْ أَهْلِهِ، فَيَقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، أَقُولُ كَمَا يَقُولُ النَّاسُ. فَيَقَالُ لَهُ: لَا دَرَيْتَ، هَذَا مَقْعَدُكَ الَّذِي كَانَ لَكَ فِي الْجَنَّةِ، قَدْ أَبْدَلْتُ مَكَانَهُ مَقْعَدَكَ مِنَ النَّارِ». قال جابر: فَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «يُيَعَثُّ كُلُّ عَبْدٍ فِي الْقَبْرِ عَلَى مَا مَاتَ، الْمُؤْمِنُ عَلَى إِيْمَانِهِ، وَالْمَنَافِقُ عَلَى نِفَاقِهِ»^(٢). إسناده صحيح على شرط مُسليم، ولم يخرجاه.

[٤٠٠٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عبّاد بن راشد، عن داود بن أبي هند، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: شَهِدْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَنَازَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُنْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَإِذَا الْإِنْسَانُ ذُفِنَ وَتَفَرَّقَ عَنْ أَصْحَابِهِ جَاءَهُ مَلَكٌ فِي يَدِهِ مِطْرَاقٌ فَأَتَعَدَهُ، قَالَ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ لَهُ: صَدَقْتَ. ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَقُولُ: هَذَا كَانَ مَنْزِلَكَ لَوْ كَفَرْتَ بِرَبِّكَ، فَأَمَّا إِذَا آمَنْتَ فَهَذَا مَنْزِلَكَ. فَيَفْتَحُ لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، فَيُرِيدُ أَنْ يَنْهَضَ إِلَيْهِ، فَيَقُولُ لَهُ: اسْكُنْ. وَيُفْسَخُ لَهُ فِي قَبْرِهِ. وَإِنْ كَانَ كَافِرًا أَوْ مُنَافِقًا يَقُولُ لَهُ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا. فَيَقُولُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ وَلَا اهْتَدَيْتَ. ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ لَهُ: هَذَا مَنْزِلَكَ لَوْ آمَنْتَ بِرَبِّكَ، فَأَمَّا إِذَا كَفَرْتَ بِهِ فَإِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَبْدَلَكَ بِهِ هَذَا. فَيَفْتَحُ لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، ثُمَّ يَقْعَمُهُ قَمْعَةً بِالْمِطْرَاقِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا خَلْقُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - كُلُّهُمْ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ. فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَحَدٌ يَقُومُ عَلَيْهِ مَلَكٌ فِي يَدِهِ مِطْرَاقٌ إِلَّا هَبِلَ عِنْدَ ذَلِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُسَيِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ»^(٣). وهذا أيضاً إسناده لا بأس به، فإنّ عبّاد بن راشد التميمي رَوَى لَهُ الْبُخَارِيُّ مَقْرُونًا، وَلَكِنْ ضَعَفَهُ بَعْضُهُمْ.

[٤٠٠٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا حُسين بن محمد، عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إِنَّ الْعَمِيَّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَالُوا: أَخْرِجِي أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، أَخْرِجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشُرِي بِرُوحِ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٣٨ ومسلم ٣٨٧٠ وأحمد ١٢٦/٣ و٢٣٣ وابن حبان ٣١٢٠ والنسائي في «الكبرى» ٢١٧٦.

(٢) أخرجه أحمد ٣٤٦/٣ عن موسى بن داود عن ابن لهيعة عن أبي الزبير به وذكره الهيثمي في «المجمع» ٤٨/٣ وقال: وفيه ابن لهيعة وفيه كلام وبقية رجاله ثقات اهـ ولم أره من الطريق الذي ذكره المصنف.

(٣) حسن. أخرجه أحمد ٣/٣ والبخاري ٨٧٢ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٤٧/٣ - ٤٨ وقال: رجاله رجال الصحيح اهـ وله شواهد يتقوى بها.

وريحان ورب غير غضبان». قال: «فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السماء، فَيُسْتَفْتَحُ لها فيقال: مَنْ هذا؟ فيقال: فلان. فيقولون: مرحباً بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان». قال: فلا يزال يقال لها ذلك، حتى يُتَهَيَّأ بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل. وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وعساق، وآخر من شكله أزواج. فلا يزال يُقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السماء، فَيُسْتَفْتَحُ لها فيقال: مَنْ هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا تُفْتَحُ لك أبواب السماء. فيُرْسَل من السماء ثم يصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول^(١). ورواه النسائي وابن ماجه، من طريق ابن أبي ذئب، بنحوه.

[٤٠٠٧] وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقأها ملكان يصعدان بها - قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك - قال: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلى الله عليك وعلى جسدك كنت تغمرينه، فينطلق به إلى ربّه عز وجل فيقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن الكافر إذا خرجت روحه؛ قال حماد: وذكر من تنبها وذكر مقتاً - ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض. قال: فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فرّد رسول الله ﷺ ريطةً كانت عليه على أنفه، هكذا^(٢).

[٤٠٠٨] وقال ابن جبان في صحيحه: حدثنا عمر بن محمد الهمداني، حدثنا زيد بن أوزم، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن قدامة بن زهير، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا قبض أته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي إلى روح الله. فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونهم حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون: ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من قبل الأرض؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فلهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان في عمّ! فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ فيقولون: ذهب به إلى أمه الهاوية. وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب يمسح فيقولون: اخرجي إلى غضب الله. فتخرج كأنتن ريح جيفة، فيذهب به إلى باب الأرض»^(٣).

[٤٠٠٩] وقد روى أيضاً من طريق هشام بن يحيى، عن قتادة، عن أبي الجوزاء، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه، قال: «فيقال: ما فعل فلان؟ ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟ قال: وأما الكافر فإذا قبضت نفسه وذهب بها إلى باب الأرض تقول خزنة الأرض: ما وجدنا ريحاً أنتن من هذه! فتبلغ بها الأرض السفلى. قال قتادة: وحدثني رجل، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو قال: أرواح المؤمنين تُجمع بالجائيتين، وأرواح الكفار تجمع ببزّهوت، سبخة بحضرموت»^(٤).

(١) حسن. أخرجه أحمد ١٤٠/٢ و ٣٦٤ والنسائي في الكبرى ١١٤٤٢ وابن ماجه ٤٢٦٨ وإسناده حسن.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٧٢.

(٣) صحيح. أخرجه النسائي ٨/٩ - ٩ والحاكم ٣٥٣/١ وابن جبان ٣٠١٤ وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه ابن جبان ٣٠١٣ ورجاله ثقات، وله شواهد.

[٤٠١٠] وقال الحافظ أبو عيسى الترمذي - رحمه الله - : حدثنا يحيى بن خلف، حدثنا بشر بن المفضل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَبِرَ الْمَيِّتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَنَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرْقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَالْآخَرُ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا. ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ. ثُمَّ يُتَوَرَّ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ. فَيَقُولُ أَرْجِعْ إِلَيَّ أَهْلِي فَأَخْبِرْهُمْ؟ فَيَقُولَانِ: نَمْ نَوْمَةَ الْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجِعِهِ ذَلِكَ. وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُمْ، لَا أَدْرِي! فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيَقَالُ لِلأَرْضِ: التَّيْمِي عَلَيْهِ. فَتَلْتَمِمْ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ أَضْلَاعَهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجِعِهِ ذَلِكَ»^(١). ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

[٤٠١١] وقال حماد بن سلمة، عن مُحَمَّد بن عمرو، عن أَبِي سَلَمَةَ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُنْبِئُ اللَّهُ الرَّبِيعَ مَا تَوَلَّى بِالْقَوْلِ النَّبِيُّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ» - قَالَ: «ذَاكَ إِذَا قَبِلَ لَهُ فِي الْقَبْرِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَقْتُ، فَيَقَالُ لَهُ: صَدَقْتَ، عَلَى هَذَا عِشْتُ، وَعَلَيْهِ مِتُّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ»^(٢).

[٤٠١٢] وقال ابن جرير: حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد قالا: حدثنا يزيد، أنبأنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده إن الميِّتَ لَيَسْمَعُ خَفَقَ نَعَالِهِمْ حِينَ يُؤَلُّونَ عَنْهُ مَدِيرِينَ، فَإِذَا كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتِ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَالزَّكَاةُ عَنْ يَمِينِهِ، وَالصِّيَامُ عَنْ يَسَارِهِ، وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصَّلَاةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَى مِنْ عِنْدِ رَأْسِهِ فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: مَا قَبِلِي مَدْخَلٌ. مَا قَبِلِي مَدْخَلٌ. فَيُؤْتَى مِنْ عَن يَمِينِهِ فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: مَا قَبِلِي مَدْخَلٌ. فَيُؤْتَى مِنْ عِنْدِ رِجْلَيْهِ فَيَقُولُ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ: مَا قَبِلِي مَدْخَلٌ. فَيَقَالُ لَهُ: اجْلِسْ. فَيَجْلِسُ قَدْ مَثَلَتْ لَهُ الشَّمْسُ قَدْ دَنَّتْ لِلْعُرُوبِ، فَيَقَالُ لَهُ: أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسَأَلُكَ. فَيَقُولُ: دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّيَ. فَيَقَالُ: إِنَّكَ سَتَفْعَلُ، فَأَخْبِرْنَا عَمَّا نَسَأَلُكَ. فَيَقُولُ: وَعَمَّ تَسْأَلُونِي؟ فَيَقَالُ: أَرَأَيْتَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ، مَاذَا تَقُولُ فِيهِ، وَمَاذَا تَشْهَدُ بِهِ عَلَيْهِ؟ فَيَقُولُ: أَمَحْمَدًا؟ فَيَقَالُ لَهُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَصَدَّقْنَاهُ. فَيَقَالُ لَهُ: عَلَى ذَلِكَ حَيِّيتَ، وَعَلَى ذَلِكَ مِتُّ، وَعَلَى ذَلِكَ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُتَوَرَّ لَهُ فِيهِ، وَيُقْتَحُّ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَقَالُ لَهُ: انظُرْ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ فِيهَا. فَيَزِدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا ثُمَّ يُفْتَحُّ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ فَيَقَالُ لَهُ: انظُرْ إِلَى مَا صَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ لَوْ عَصَيْتَهُ. فَيَزِدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا. ثُمَّ يُجْعَلُ نَسْمُهُ فِي النَّسْمِ الطَّيِّبِ، وَهِيَ طَيْرٌ خُضْرٌ تَعْلُقُ بِشَجَرِ الْجَنَّةِ، وَيُعَادُ الْجَسَدُ إِلَى مَا بُدِيَ مِنْهُ مِنَ التُّرَابِ»، وَذَلِكَ

(١) جيد. أخرجه الترمذي ١٠٧١ وقال: حسن غريب. وأخرجه ابن حبان ٣١١٧ وابن أبي عاصم ٨٦٤ والبيهقي في إثبات عذاب القبر ٥٦ من وجه آخر عن عبد الرحمن بن إسحاق به وإسناده جيد.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠٧٦٠ وإسناده حسن لأجل محمد بن عمرو.

قَوْلُ اللَّهِ: ﴿يُمِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّالِثِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(١). ورواه ابن حبان من طريق المُعتمر بن سليمان، عن محمد بن عمرو، وذكر جواب الكافر وعذابه.

[٤٠١٣] وقال البزار: حدثنا سعيد بن بحر القراطيسي، حدثنا الوليد بن القاسم، حدثنا يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة - أحسبه رَفَعَه - قال: «إن المؤمن ينزل به الموت، ويُعاین ما يُعاین، فيودُّ لو خرَّجت - يعني نفسه - والله يحب لقاءه، وإن المؤمن يُصعد بروحه إلى السماء، فتأتيه أرواح المؤمنين، فتستخبره عن معارفهم من أهل الأرض، فإذا قال: تركت فلاناً في الأرض، أعجبهم ذلك. وإذا قال: إن فلاناً قد مات، قالوا: ما جيء به إلينا. وإن المؤمن يُجلس في قبره، فيُسال: من ربك؟ فيقول: ربي الله، ويُسال: من نبيك؟ فيقول: محمد نبيي. فيقال: ما دينك؟ قال: ديني الإسلام. فيُفتح له باب في قبره، فيقول - أو: يقال -: انظر إلى مجلسك. ثم يرى القبر فكانما كانت رَقْدَةً، وإذا كان عدو الله نزل به الموت وعاین ما عاین، فإنه لا يُحب أن تخرُج روحه أبداً، والله يُبغض لقاءه، فإذا جلس في قبره - أو: أُجلس - يقال له: من ربك؟ فيقول: لا أدري. فيقال: لا دَرَيْتَ! فيُفتح له باب من جهنم، ثم يُضرب ضربة يسمعها كلُّ دابة إلا الثقلين، ثم يقال له: ثم كما ينام المنهوش. قلت لأبي هريرة: ما المنهوش؟ قال: الذي تنهشهُ الدواب والحیثاء. ثم يُضيق عليه قبره^(٢). ثم قال: لا نعلم رواه إلا الوليد بن القاسم.

[٤٠١٤] وقال الإمام أحمد - رحمه الله - : حدثنا حُجَين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، عن محمد بن المنكدر قال: كانت أسماء - يعني بنت الصديق، رضي الله عنها - تُحدث عن النبي ﷺ قالت: قال: «إذا دخل الإنسان قبره، فإن كان مؤمناً أَحَفَّ به عمله: الصلاة والصيام، قال: فيأتيه المَلَك من نحو الصلاة فتردُّه، ومن نحو الصيام فيردُّه، قال: فيناديه: اجلس. فيجلس. فيقول له: ماذا تقول في هذا الرجل؟ يعني النبي ﷺ. قال: مَنْ؟ قال: محمد. قال: أشهد أنه رسول الله، قال: يقول: وما يُدريك؟ أدركته؟ قال: أشهد أنه رسول الله. قال: يقول: على ذلك عشت، وعليه مت، وعليه تُبعث. وإن كان فاجراً أو كافراً، جاءه المَلَك ليس بينه وبينه شيء يردُّه، فأجلسه يقول: اجلس، ماذا تقول في هذا الرجل؟ قال: أي رجل؟ قال: محمد؟ قال يقول: والله ما أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته. قال له المَلَك: على ذلك عشت، وعليه مت، وعليه تبعث. قال: وتسلط عليه دابة في قبره، معها سوطٌ تمرته بجمرة مثل غزب البعير، تضربه ما شاء الله، صمًا لا تسمع صوته فترحمه^(٣).

وقال العوفي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حصره الموت شهدته الملائكة، فسألوا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مشوا مع جنازته، ثم صلوا عليه مع الناس، فإذا دُفِن أُجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ. فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فيوسع له في قبره مدُّ بصره، وأما

(١) حسن. أخرجه الحاكم ١/٣٧٩ - ٣٨٠ والطبري ٢٠٧٦١ وعبد الرزاق ٦٧٠٣ وابن حبان ٣١١٣، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣/٥١ - ٥٢ وقال: رواه الطبراني وإسناده حسن. وهو كما قال.

(٢) أخرجه البزار ٨٧٤ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣/٥٢ - ٥٣ وقال: ورجاله ثقات خلا سعيد بن بحر القراطيسي، فإني لم أعرفه اهـ. قلت: لأصله شواهد كما ترى.

(٣) أخرجه أحمد ٦/٣٥٢ - ٣٥٣ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣/٥١ وقال: ورجاله رجال الصحيح.

الكافر فتنزل عليه الملائكة، فيبسطون أيديهم - والبسط هو الضرب - يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت. فإذا أدخل قبره أتعبد فقيل له: من ربك؟ فلم يزعج إليهم شيئاً، وأنساه الله ذكر ذلك. وإذا قيل: من الرسول الذي بعث إليك؟ لم يهتد له، ولم يزعج إليه شيئاً، كذلك يفضل الله الظالمين.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الأودي، حدثنا شريح بن مسلمة، حدثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن عامر بن سعد البجلي، عن أبي قتادة الأنصاري في قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الآية، قال: إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ فيقول: الله. فيقال له: من نبئك؟ فيقول: محمد بن عبد الله. فيقال له ذلك مرات. ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك في النار لو زغت. ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك من الجنة إذ ثبتت. وإذا مات الكافر أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ من نبئك؟ فيقول: لا أدري كنت أسمع الناس يقولون. فيقال له: لا ذريت. ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك لو ثبتت ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك إذ زغت، فذلك قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، قال: لا إله إلا الله، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾، المسألة في القبر. وقال قتادة: أما الحياة الدنيا فثبتهم بالخير والعمل الصالح، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾، في القبر. وكذا روي عن غير واحد من السلف.

[٤٠١٥] وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذي في كتابه «توادر الأصول»: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن نافع، عن ابن أبي فديك، عن عبد الرحمن بن عبد الله، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن سمره قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم، ونحن في مسجد المدينة، فقال: «إني رأيت البارحة عجباً، رأيت رجلاً من أمتي جاءه ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه بره بالديه فرد عنه. ورأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر، فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك. ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم. ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشاً، كلما ورد حوضاً منبع منه، فجاءه صياحه فسقاه وأزواه. ورأيت رجلاً من أمتي والنيبون قعوداً جلقاً جلقاً، وكلما دنا لحلقة طردوه، فجاءه اغتساله من الجنابة، فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي. ورأيت رجلاً من أمتي من بين يديه ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن شماله ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، فهو متحير فيها فجاءته حجته وعمرته، فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه الثور. ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه، فجاءته صلة الرحم، فقالت: يا معشر المؤمنين، كلّموه. فكلّموه. ورأيت رجلاً من أمتي يتقي وهج النار أو شررها بيده عن وجهه، فجاءته صدقته فصارت ستراً على وجهه وظلاً على رأسه. ورأيت رجلاً من أمتي قد أخذته الزبانية من كل مكان، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم، وأدخلاه مع ملائكة الرحمة. ورأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه، بينه وبين الله حجاب، فجاءه حسن خلفه، فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل. ورأيت رجلاً من أمتي قد هوت صحيفته من قبل شماله، فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته، فجعلها في يمينه. ورأيت رجلاً من أمتي قد خف ميزانه، فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه. ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على سفير جهنم، فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى. ورأيت رجلاً من أمتي هوى في النار، فجاءته دموعه التي بكى

من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار. ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يُزَعَدُ كما تُرَعَدُ السَّعْفَةُ^(١)، فجاء حسنُ ظنه بالله، فسكنَ رِغَدَتَهُ ومضى. ورأيت رجلاً من أمتي على الصراط يزحفُ أحياناً ويحبو أحياناً، فجاءته صلاته عليّ، فأخذت بيده فأقامته ومضى على الصراط. ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة، فأغلقت الأبوابَ دونه، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبوابَ وأدخلته الجنة^(٢). قال القرطبيُّ بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه: هذا حديثٌ عظيم، ذكر فيه أعمالاً خاصة تُنجي من أهوال خاصة. أوردته هكذا في كتابه التذكرة.

[٤٠١٦] وقد روى الحافظُ أبو يعلى الموصليُّ في هذا حديثاً غريباً مطوّلاً، فقال: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن إبراهيم النُّكْرِي، حدثنا محمد بن بكر البُرْسَانِي أبو عثمان، حدثنا أبو عاصم الحَبْطِيُّ - وكان من خيار أهل البصرة وكان من أصحاب خزم وسلام بن أبي مطيع - حدثنا بكر بن خنيس، عن ضَرَّارِ بن عمرو، عن يزيد الرُّقَاشِي، عن أنس بن مالك، عن تميم الدَّارِي، عن النبي ﷺ قال: يقول الله - عزَّ وجلَّ - لملك الموت: انطلق إلي ولِّي قَاتِي به. فإني قد صرَّبتُه بالسَّراءِ والضَّراءِ، فوجدته حيث أحبُّ. اتَّيَنِي بِهِ فَلَأْرِيحُنَّهُ. فينطلق إليه ملك الموتِ ومعه خمسمئةٌ من الملائكةِ، معهم أكفانٌ وحَنُوطٌ من الجنَّةِ، ومعهم صَبَاثِرُ الرِّيحَانِ، أصلُ الرِّيحَانَةِ واحدٌ وفي رأبِهَا عَشْرُونَ لُونًا، لكلُّ لونٍ منها ريحٌ سيَّوِي رِيحِ صَاحِبِهِ، ومعهم الحَرِيرُ الأَبْيَضُ فيه المسكُ الأَذْفَرُ. فيجلسُ مَلَكُ المَوْتِ عند رَأْيِهِ وتَحْفُ به الملائكةُ، ويَضَعُ كُلُّ مَلَكٍ مِنْهُم يَدَهُ على عضوٍ من أعضائه وَيَسِّطُ ذلك الحَرِيرَ الأَبْيَضَ والمِسْكَ الأَذْفَرَ تَحْتَ ذِقَنِهِ، وَيَفْتَحُ له بَابَ إلى الجنَّةِ، فَإِنَّ نَفْسَهُ لَتَعْلَلُ عند ذلك بِطَرَفِ الجنَّةِ تَارَةً وبِأَزْوَاجِهَا تَارَةً، وَمَرَّةً بِكِسْوَتِهَا، وَمَرَّةً بِشَمَارِهَا، كما يُعْلَلُ الصَّبِيَّ أهْلَهُ إِذَا بَكَى. قال: وإن أزواجه لَيَبْتَهَشْنَ عند ذلك ابْتِهَاشًا. قال: وتنزلُ الرُّوحُ - قال البُرْسَانِي: يريد أن تُخْرَجَ من العَجَلِ إلى ما تُحِبُّ - قال: ويقول مَلَكُ المَوْتِ: اخْرُجِي يَا أَيْتَهُ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ، إلى سِدْرٍ مَخْضُودٍ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ، وَظِلٍّ مَمْدُودٍ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ. قال: وَلَمَلَكُ المَوْتِ أَشَدُّ به لُطْفًا من الوَالِدَةِ بولدها، يَعْرِفُ أن ذلك الرُّوحَ حَبِيبٌ لِرَبِّهِ، فهو يَلْتَمِسُ بِلُطْفِهِ تَحِيُّبًا لِدَيْهِ رِضَاءً لِلرَّبِّ عَنْهُ، فَتَسَلُّ رُوحَهُ كما تَسَلُّ الشَّعْرَةَ من العَجِينِ. قال: وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ تُوَفِّيهِمْ الْمَلَكَةَ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢]. وقال: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَحَنَّتْ نَيْبِ﴾ [الرواعة: ٨٨، ٨٩]، قال: رُوحٌ من جِهَةِ المَوْتِ، وَرِيحَانٌ يُتَلَقَّى به، وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ تُقَابِلُهُ. قال: فإذا قَبِضَ مَلَكُ المَوْتِ رُوحَهُ، قال الرُّوحُ لِلجَسَدِ: جَزَاكَ اللهُ عَنِّي خَيْرًا فقد كُنْتُ سَرِيعًا بِبِي إِلَى طَاعَةِ اللهِ، بَطِينًا بِبِي عن مَعْصِيَةِ اللهِ، فقد نَجَيْتِ وَأَنْجَيْتِ. قال: ويقول الجَسَدُ لِلرُّوحِ مثلَ ذلك. قال: وتبكي عليه بقاعُ الأرض التي كان يُطِيعُ اللهُ فيها، وكلُّ بابٍ من السماء يصعدُ منه عمله. وَيَنْزِلُ مِنْهُ رِزْقُهُ أربعين ليلةً. قال: فإذا قَبِضَ مَلَكُ المَوْتِ رُوحَهُ، أَقَامَتِ الخَمْسَمِئَةُ من الملائكةِ عند جَسَدِهِ، فلا يُقْلِبُهُ بَنُو آدَمَ لَشَقِّ إِلا قَلْبَتَهُ الملائكةُ قَبْلَهُمْ، وَغَسَلَتَهُ وَكَفَّنَتَهُ بِأَكْفَانٍ قَبْلَ أَكْفَانِ بَنِي آدَمَ، وَحَنُوطٍ قَبْلَ حَنُوطِ بَنِي آدَمَ، وَيَقُومُ من بين باب بيته إلى باب قبره صَفَّانٍ من الملائكةِ، يَسْتَقْبِلُونَهُ بِالاسْتِغْفَارِ، فَيَصْبِغُ عند ذلك إِبْلِيسُ صَبِيحَةً تَصْدَعُ مِنْهَا عِظَامَ جَسَدِهِ، قال: ويقولُ لِحُجُودِهِ: الوَيْلُ لَكُمْ! كيف خَلَصَ هذا العبدُ منكم؟ فيقولون: إنَّ هذا كان عبدًا معصومًا. قال: فإذا صعدَ مَلَكُ المَوْتِ بِرُوحِهِ يَسْتَقْبِلُهُ جَبْرِيلُ في سبعين ألفًا من الملائكةِ، كُلُّ يَأْتِيهِ بِبِشَارَةٍ من رَبِّهِ سِوَى بَشَارَةِ صَاحِبِهِ، قال: فإذا انتهى مَلَكُ المَوْتِ بِرُوحِهِ إلى العرشِ، حَزَّ الرُّوحُ سَاجِدًا قال: يقول

(١) السعفة: ورق النخلة.

(٢) ضعيف جداً. فيه عبد الله بن نافع مولى ابن عمر، قال البخاري: منكر الحديث. وقال النسائي: متروك.

الله - عز وجل - لِمَلِكِ الْمَوْتِ: انطلق بروح عبدي فضعه ﴿فِي يَدَيْ تَخْضُورٍ﴾ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنْضُورٍ ﴿٢٧﴾ وَظَلِي مَمْدُودٍ ﴿٢٥﴾ وَمَلَأُوْا مَسْكُوبٍ ﴿٢٦﴾ [الواقعة: ٢٨ - ٣١]، قال: فإذا وُضِعَ في قبره جاءته الصلاة فكانت عن يمينه وجاءه الصيام فكان عن يساره، وجاءه القرآن فكان عند رأسه، وجاءه مَشْيُهُ إلى الصلاة فكان عند رجله، وجاءه الصَّبْرُ فكان ناحية القبر. قال: فبيعتُ الله عز وجل عُقُتًا من العذاب، قال: فبأتيه عن يمينه قال: فتقول الصلاة: وراءك، والله ما زال دأبًا عمره كله، وإنما استراح الآن حين وضع في قبره. قال: فبأتيه عن يساره، فيقول الصيام مثل ذلك، قال: ثم يأتيه من عند رأسه، فيقول القرآن والذكر مثل ذلك، قال: ثم يأتيه من عند رجله، فيقول مشيه إلى الصلاة مثل ذلك. فلا يأتيه العذاب من ناحية يلتمس هل يجد إليه مساعًا إلا وجد وليَّ الله قد أخذ حِجَّتَهُ، قال: فينمق العذاب عند ذلك فيخرج، قال: ويقول الصبر لسائر الأعمال: أما إنَّه لم يمنني أن أباشرَ أنا بنفسي إلا آتني نظرتُ ما عندكم، فإن عجزتُم كنت أنا صاحبه، فأما إذ أجزأتُم عنه فأنا له دُخْرٌ عند الصُّراطِ والميزانِ. قال: ويبعثُ الله مَلَكَينِ أبصارُهُما كالبرقِ الخاطفِ، وأصواتُهُما كالرعدِ القاصفِ، وأنيابُهُما كالصياصي، وأنفاسُهُما كاللَّهبِ، يطانُ في أشعارِهِما، بينَ مَنْكِبِ كُلِّ واحدٍ مسيرةَ كذا وكذا، وقد نُزِعَتَ منهما الرافَةُ والرحمةُ، يقال لهما: مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، في يدِ كُلِّ واحدٍ منهما مطرقةٌ، لو اجتمع عليها ربيعةٌ ومُضْرَبٌ لم يَقْلُوها. قال: فيقولان له: اجلس. قال: فيجلسُ فيستوي جالسًا. قال: وتَقَعُ أكفاهُ في حَقْوِيهِ قال: فيقولون له: من ربُّك؟ وما دينُك؟ ومن نبيُّك؟ قال: قالوا: يا رسول الله، ومن يُطِيقُ الكلامَ عند ذلك، وأنت تصف من المَلَكينِ من تصف؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: ﴿يَبْتِئُ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُغِيْضُ اللهُ الظَّالِمِيْنَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧). قال: فيقول رَبِّي اللهُ وحده لا شريكَ له، وديني الإسلام الذي دانت به الملائكةُ، ونبيِّي محمدٌ خاتمُ النبيِّينَ، قال: فيقولان: صدقت. قال: فَيَدْفَعَانِ القَهْرَ فَيُوسِعَانِ من بين يَدَيْهِ أربعين ذراعًا، وعن يمينه أربعين ذراعًا، وعن شماله أربعين ذراعًا، ومن خلفه أربعين ذراعًا، ومن عند رأسِهِ أربعين ذراعًا، ومن عند رِجْلَيْهِ أربعين ذراعًا. قال: فيوسعان له متني ذراع - قال البرساني: فأحسبه: وأربعين ذراعًا تُحَاطُ به - قال: ثم يقولان له: انظر فوقك، فإذا بابٌ مفتوحٌ إلى الجنةِ، قال: فيقولان له: وليَّ اللهُ، هذا منزلُك إذ أطعتَ اللهُ. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيده إنه يصلُ إلى قلبه عند ذلك فرحةً، ولا ترتدُّ أبدًا»، ثم يقال له: انظر تحتك. قال: فينظر تحتَه فإذا بابٌ مفتوحٌ إلى النار. قال: فيقولان: وليَّ اللهُ، نجوتَ آخِرَ ما عليك. قال: فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتدُّ أبدًا». قال: فقالت عائشةُ: يُفْتَحُ له سبعةٌ وسبعون بابًا إلى الجنةِ، يأتيه ريحُها وبردُها، حتى يَبْتَئَهُ اللهُ عز وجل^(١).

[٤٠١٧] وبالإسناد المتقدم إلى النبي ﷺ قال: ويقولُ اللهُ تعالى لِمَلِكِ الْمَوْتِ: انطلق إلى عَدُوِّي فَأُتِنِي به، فأني قد بسطتُ له رِزْقِي، وَبَسَطْتُ له نِعْمَتِي، فأبى إلا معصيتي، فَأُتِنِي به لَأَنْتَقِمَ منه. قال: فينطلقُ إليه مَلَكُ الْمَوْتِ في أكرهِ صُورَةٍ رآها أحدٌ من الناس قَطُّ، له اثنتا عشرة عينا، ومعه سَفُودٌ^(٢) من النار كثيرُ الشوكِ، ومعه خمسمئةٌ من الملائكةِ، معهم نحاسٌ وجِمرٌ من جمرِ جَهَنَّمَ، ومعهم سياطٌ من نارٍ، ليئنها لينُ السِّبَاطِ وهي نازٌ تَأَجُّجٌ، قال: فيضربه مَلَكُ الْمَوْتِ بذلك السفود ضربةً يَغِيْبُ كُلُّ أصلِ شوكةٍ من ذلك السفود في أصلِ كُلِّ شَعْرَةٍ وَعِزْقٍ وَظَفْرِ. قال: ثم يُلَوِّيه لِيًّا شَدِيدًا. قال: فيتَزَعُ رُوحَه من أظفارِ قَدَمَيْهِ، قال: فيلقِيها

(١) ضعيف جداً، فيه الرقاشي والملطي ويكر بن خنيس ثلاثهم ضعفاء، والخبر شبه موضوع، وانظر ما بعده.

(٢) جديدة يشوي بها.

في عقبيه، ثم يسكر عند ذلك عدو الله سكرةً، فَيُرْفَهُ ملك الموت عنه. قال: وتضرب الملائكة وجهه وذُبره بتلك الشياطين، قال: فَيُسْأَلُهُ مَلَكُ الْمَوْتِ شدةً فَيَنْزِعُ رُوحَهُ من عقبيه، فَيَلْقِيهَا في ركبتيه، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرةً، فَيُرْفَهُ ملك الموت عنه. قال: فتضرب الملائكة وجهه وذُبره بتلك الشياطين قال: ثم ينثره مَلَكُ الْمَوْتِ نثرَةً فَيَنْزِعُ رُوحَهُ من ركبتيه فَيَلْقِيهَا في حقويه، قال: فَيَسْكَرُ عَدُوُّ اللَّهِ عند ذلك سكرةً، فَيُرْفَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ عنه، قال: وتضرب الملائكة وجهه وذُبره بتلك الشياطين، قال: كذلك إلى صدره. ثم كذلك إلى خلفه، قال: ثم تَبْسُطُ الْمَلَائِكَةُ ذَلِكَ النحاسَ وَجَمَرَ جَهَنَّمَ تحت ذقنه، قال: ويقول مَلَكُ الْمَوْتِ: اخْرِجِي أَيُّهَا الرُّوحُ اللَّعِينَةُ الْمَلْعُونَةُ إِلَى ﴿سُورِ وَجِيمِ ﴿٤٤﴾ وَظَلِي مِنَ يَحْيَى ﴿٤٥﴾ لَا بَارِدَ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ [الواقعة: ٤٢ - ٤٤]، قال: فإذا قبض مَلَكُ الْمَوْتِ رُوحَهُ قال الرُّوحُ للجسد: جَزَاكَ اللَّهُ عَنِّي شَرًّا، فقد كنت سَرِيعاً بِي إلى معصية الله، بَطِيئاً بِي عن طاعة الله، فقد هلكت وأهلكت. قال: ويقول الجَسَدُ للروح مثل ذلك، وتلعنه بقاع الأرض التي كان يعصي الله عليها، وتطلق جنود إبليس إليه فَيُشِيرُونَهُ بأنهم قد أوردوا عبداً من ولد آدم النار. قال: فإذا وُضِعَ في قبره ضُمَّتْ عليه قبره حتى تختلف أضلاعُه، حتى تدخل اليمنى في اليسرى، واليسرى في اليمنى قال: ويبعث الله إليه أفاعيَ دُهماً^(١) كأعناق الإبل يأخذن بأزنيته وإبهامي قدميه، فيقرضنه حتى يلتقيان في وسطه. قال: ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الحاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنيابهما كالصياصي، وأنفاسهما كاللهب، يطآن في أشعارهما، بين منكبَي كُلِّ واحدٍ منهما مسيرة كذا وكذا، قد نُزِعَتْ منهما الرأفة والرحمة، يقال لهما: مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، في يد كُلِّ واحدٍ منهما مطرقةٌ، لو اجتمع عليها ربيعةٌ ومضرب لم يَقْلُوهَا. قال: فيقولان له: اجلس. قال: فيستوي جالساً، قال: وتقع أكفأته في حقويه، قال: فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: لا أدري. فيقولان: لا ذريت ولا تليت! فيضربانه ضربةً يتطاير شَرَرُهَا في قبره، ثم يعودان، قال: فيقولان: انظر فوقك. فينظر، فإذا بابٌ مفتوحٌ من الجنة، فيقولان: - عَدُوُّ اللَّهِ - هذا منزلك لو أطعت الله. قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليَصِلُ إلى قلبه عند ذلك حسرةٌ لا ترتدُّ أبداً». قال: ويقولان له: انظر تحتك. فينظر تحته. فإذا بابٌ مفتوحٌ إلى النار، فيقولان: عَدُوُّ اللَّهِ، هذا منزلك إذ عصيت الله. قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليَصِلُ إلى قلبه عند ذلك حسرةٌ لا ترتدُّ أبداً». قال: وقالت عائشة: وَيُفْتَحُ لَهُ سَبْعَةٌ وَسَبْعُونَ بَاباً إِلَى النَّارِ، يَأْتِي حَرُّهَا وَسَمُومُهَا حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا^(٢). هذا حديثٌ غريبٌ جداً، وسياقٌ عجيبٌ، وَيَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ رَاوِيَهُ عَنِ أَنَسِ لَهُ غَرَائِبٌ وَمُنْكَرَاتٌ، وَهُوَ ضَعِيفُ الرَّوَايَةِ عِنْدَ الْأَعْمَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[٤٠١٨] ولهذا قال أبو داود: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى الرَّازِيُّ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ - هُوَ ابْنُ يَوْسُفَ - عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَجِيرٍ، عَنِ هَانِيَةَ مَوْلَى عُمَانَ، عَنِ عُمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَّغَ مِنْ دَفْنِ الرَّجُلِ وَقَفَّ عَلَيْهِ فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ بِالتَّشْيِيبِ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»^(٣). انفرد به أبو داود. وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا

(١) الأدهم: الأسود.

(٢) إسناده ضعيف لضعف يزيد بن أبان الرقاشي، ضعفه الأئمة، روى منكرات كثيرة. وعنه ضرار بن عمرو هو اللطفي. قال الذهبي في الميزان ٣٩٥٣: قال يحيى عنه: لا شيء. وقال الدولابي فيه نظر أه. وعنه بكر بن حنيس، ذكره الذهبي في الميزان ١٢٧٨ وقال: قال ابن معين: ليس بشيء، وقال مرة: لا بأس به، وقال أبو حاتم: صالح، وقال الدارقطني: متروك، وقال ابن حبان: يروي أشياء موضوعة أه فالحديث مسلسل بالضعفاء كما ترى.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٢٢١ وهو حديث حسن، وتقدم.

أَيُّهِمْ ﴿الأنعام: ٩٣﴾... الآية، حديثاً مطولاً جداً، من طريق غريب، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه غرائب أيضاً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَعَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَنسَ الْفَرَارِ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُبَدِّلُوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

قال البخاري: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَعَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾. ألم تعلم، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [الفيل: ٤١]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَرَّجُوا﴾ [البقرة: ٢٤٣]. البوار: الهلاك، بار يَبُورُ بَوْرًا، وقومًا بورًا؛ هالكين. حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطية سبيع ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَعَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾، قال: هم كُفَّار أهل مكة. وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: هو جبلٌ بين الأيهم والذين أتبعوه من العرب، فلدحوا بالزوم. والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار؛ فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمةً للعالمين، ونعمةً للناس، فمن قبلها وقام يشكرها دخل الجنة، ومن ردّها وكفّرها دخل النار. وقد روي عن علي نحو قول ابن عباس الأول، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا شعبة، عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي الطفيل؛ أن ابن الكواء سأل علياً عن: ﴿الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَعَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾، قال: كفار قريش يوم بدر. حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا بسام - هو الصيرفي - عن أبي الطفيل قال: جاء رجل إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين، من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار؟ قال: منافقوا قريش. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيث قال: قرأت على معقل، عن ابن أبي حسين قال: قام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال: ألا أحد يسألني عن القرآن؟ فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم مني به، وإن كان وراء البحار، لأتيته. فقام عبد الله بن الكواء فقال: من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار؟ فقال: مشركو قريش، أنتهم نعمة الله: الإيمان، فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار. وقال السدي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَعَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ الآية! ذكر مسلم المستوفي عن علي أنه قال: هما الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أُحُد. وكان أبو جهل يوم بدر. وأبو سفيان يوم أُحُد. وأما دار البوار فهي جهنم. وقال ابن أبي حاتم - رحمه الله -: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا الحارث بن منصور، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق عن عمرو بن مَرْقَأ قال: سمعتُ علياً قرأ هذه الآية: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾، قال: هما الأفجران من قريش، بنو أمية وبنو المغيرة فأهلِكوا يوم بدر، وأما بنو أمية فمَتَّعُوا إلي حين. ورواه أبو إسحاق، عن عمرو ذي مر، عن علي، نحوه. وروِي من غير وجه عنه. وقال سفيان الثوري، عن علي بن زيد، عن يوسف بن سعد، عن عُمَر بن الخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَعَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾، قال: هما الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفّمتوهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمَتَّعُوا إلى حين. وكذا رواه حمزة الزيات، عن عمرو بن مَرْقَأ قال: قال ابن عباس لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، هذه الآية، ﴿الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَعَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾، قال: هم الأفجران من قريش: أخوالي وأعمامك، فأما أخوالي فاستأصلهم الله يوم بدر، أما أعمامك فأتملى الله لهم إلى حين. وقال مجاهد، وسعيد بن جبّير، والضحاك، وقتادة، وابن زيد: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر. وكذا رواه مالك في تفسيره، عن نافع، عن ابن عمر.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِيهِ أُندَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾، أي: جعلوا له شركاء عبدوهم معه، ودَعَوْا الناس إلى ذلك. ثم قال تعالى: مُهْتَدُوا لَهُمْ وَمَتَّعُوا لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾، أي: مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾، أي: مَرَجِعُكُمْ وموتلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿نَتَّبِعُهُمْ فَيَلْأَمُ نَصْرَهُمْ إِنَّ عَذَابَ غَالِيظٍ﴾ [القمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثَمَرًا إِنَّمَا مَرَجِعُهُمْ ثُمَّ يُدْفِنُهُمُ الْعَذَابَ الَّذِي دَبَّ يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠].

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِمَّا قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمًا لَا بَيْعَ

فِيهِ وَلَا حِجْلًا﴾ [٣٢]

يقول تعالى أمراً العباد بطاعته والقيام بحقه، والإحسان إلى خلقه، بأن يُقِيمُوا الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يُنْفِقُوا مما رَزَقَهُم الله بأداء الزكوات، والنفقة على القربات والإحسان إلى الأجانب. والمراد بإقامتها هو: المحافظة على وقتها وحدودها، وركوعها وخشوعها وسجودها. وأمر تعالى بالإِنْفَاق مما رَزَقَ في السِّرِّ، أي: في الخفية، والعلانية وهي: الجهر، وليبادروا إلي ذلك لخلاص أنفسهم، ﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾، وهو يوم القيامة، وهو يوم ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا حِجْلًا﴾، أي: لا يُقْبَلُ من أحد فدية بأن يُتَبَّع نفسه، كما قال تعالى: ﴿قَالِيَوْمَ لَا يُؤَخُّذُ مِنْكُمْ مِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥]. وقوله: ﴿وَلَا حِجْلًا﴾، قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مُخَالَة خليل فيصْفَحُ عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمُخَالَته، بل هنالك العدل والقسط. فالخِجْلُ مصدر، من قول القائل: خَالَتُ فلاناً فانا أَخَالُهُ مُخَالَةً وخِجْلًا ومنه قول امرئ القيس:

صَرَفْتُ الْهَوَى عَنْهُنَّ مِنْ خَشِيَةِ الرُّدَى
وَلَسْتُ بِمُقْلِي الْخِجْلِ وَلَا قَالِ

وقال قتادة: إن الله قد عَلِمَ أن في الدنيا يُبِوعاً وخِجْلًا يتخَالون بها في الدنيا، فلينظر الرجل من يُخَالِلُ؟ وعلامة يُصَاحِبُ؟ فإن كان الله قَلِيدًا، وإن كان لغير الله فليقطع عنه. قلت: المراد من هذا أنه يُخَبِرُ تعالى أنه لا يَنْفَعُ أحداً بَيْعٌ ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وَجَدَهُ، ولا يَنْفَعُهُ صداقة أحدٍ ولا شفاعَةُ أحدٍ إذا لَبِيَ الله كافرًا، قال الله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى تَنْسُ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِمَّا قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمًا لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا حِجْلًا وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ﴾ [٣٣] ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [٣٤] ﴿وَمَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَطَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [٣٥]

يُعَدُّ تعالى نِعْمَهُ على خلقه، بأن خَلَقَ لهم السموات سقفاً محفوظاً، والأرض فراشاً، وأنزَلَ من السماء ماءً فأخرج به أزواجاً من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع، مختلفة الألوان والأشكال، والطعوم والروائح والمنافع، وسَخَّرَ الفلك بأن جعلها طافيةً على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسَخَّرَ البحر يحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى ها هنا، وسَخَّرَ الأنهار تشق الأرض من قُطْرٍ إلى قُطْرٍ، رزقاً للعباد من شربٍ وسقي، وغير ذلك من أنواع المنافع. ﴿وَسَخَّرَ

لَكُمْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَيْنِ»، أي: يسيران لا يقفزان ليلاً ولا نهاراً، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠]، ﴿يَتَّبِعُنِي أَتَيْتُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالشُّجْرُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتفازضان، فنارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، ﴿يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣]. وقال تعالى: ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَنِيُّ﴾ [الزمر: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَرَاتِبَكُمْ بَيْنَ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، يقول: هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه: بحالكم وقالكم. وقال بعض السلف: من كل ما سألتهم وما لم تسألوه. وقرأ بعضهم: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾. وقوله: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا اللَّهَ لَا تُخْصِمُوهُ﴾، يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب - رحمه الله -: إن حق الله أنقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين.

[٤٠١٩] وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك الحمد غير مكفي ولا مودع، ولا مستغنى عنه، ربنا»^(١).

[٤٠٢٠] وقال الحافظ أبو بكر البرزالي في مسنده: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا داود بن المخبّر، حدثنا صالح المري، عن جعفر بن زيد العبدي، عن أنس، عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان في العمل الصالح، وديوان في ذنوبه، وديوان في النعم من الله تعالى عليه، فيقول الله تعالى لأصغر نعيمه - أحسبه قال: في ديوان النعم -: خذي ثمنك من عمله الصالح، فتستوعب عمله الصالح كله، ثم تنحى وتقول: وعزتك ما استوفيت! وتبقى الذنوب والنعم فإذا أراد الله أن يرحم قال: يا عبدي، قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك، أحسبه قال: ووهبت لك نيمي»^(٢). غريب، وسنده ضعيف. وقد روي في الأثر: أن داود - عليه السلام - قال: يا رب: كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك علي؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود. أي: حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم. وقال الشافعي - رحمه الله -: الحمد لله الذي لا يؤدي شكر نعمة من نعيمه، إلا بنعمة منه توجب على مؤدي ماضي نعمة بأدائها نعمة حادثة توجب عليه شكره بها. وقال القائل في ذلك:

لو كل جارحة مني لها لغة تُثنِي عَلَيْكَ بِمَا أُولِيَتْ مِنْ حَسَنِ
لَكَانَ مَا زَادَ شُكْرِي إِذْ شُكِرْتَ بِهِ إِلَيْكَ أَبْلَغَ فِي الْإِحْسَانِ وَالْمِنَّةِ

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٦٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٦﴾﴾

يذكرُ تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٤٥٨ و ٥٤٥٩ من حديث أبي أمامة.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه البرزالي ٣٤٤٤، وأعله الهيثمي في «المجمع» ١٨٤٣٤ بصالح المري، وأنه ضعيفاً مع أن فيه داود بن المحبر متروك منهم بالوضع، فالحمل عليه في هذا الحديث أولى. والله أعلم.

على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه أهلة تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آيَاتًا﴾. وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّأِينًا وَمُتَخَفًا لِّلنَّاسِ مِن حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آيَاتًا﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧]، وقال في هذه القصة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آيَاتًا﴾ فعرفه كأنه دعا به بعد بنائها، ولهذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضاً فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آيَاتًا﴾ [البقرة: ١٢٦] كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطلقاً.

وقال تعالى: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته. ثم ذكر أنه افْتَنِيَ بالآصنام خلأئق من الناس وأنه بريء ممن عبدها، ورد أمرهم إلى الله، إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم، كما قال عيسى - عليه السلام -: ﴿إِن تَعْبُدُونَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فَمَا تُكِبُّهُمُ﴾ [المائدة: ١١٨]. وليس في هذا أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى، لا تجوز وقوع ذلك.

[٤٠٢١] قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث، أن بكر بن سوادة حدثه، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنِّي نَسِيتُ كَثِيرًا مِّنَ الْتَّائِبِينَ فَمَنْ يَبْعَثْ فَإِنَّهُ مِنِّي وَرَمَّنْ عَصَابِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [١٢٦]، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تَعْبُدُونَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فَمَا تُكِبُّهُمُ﴾ [١٢٧]، ورُفِعَ يديه، قال: «اللهم أمتي، اللهم أمتي». وبكى، فقال الله: اذهب يا جبريل إلى محمد - وربك أعلم - وسله ما يبكيك؟ فاتاه جبريل - عليه السلام - فسأله - فأخبره رسول الله ﷺ ما قال: فقال الله: اذهب إلى محمد، فقل له، إنا سترضيك في أمتك ولا نسوؤك^(١).

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِ بَيْتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [١٢٧]

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثانٍ بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيداً ورغبة إلى الله عز وجل، ولهذا قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾، وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، قال ابن جرير، هو متعلق بقوله: ﴿الْمُحَرَّمِ﴾، أي: إنما جعلته محرماً لئتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده. ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، لو قال: أفئدة الناس، لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾. فاختص به المسلمون. وقوله: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾، أي: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ فاجعل لهم ثماراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أَوَلَمْ تَسْأَلْنَاهُمْ حَرَمًا مَّأِينًا يُبَيِّنُ إِلَيْهِ مَحْرَمَاتِكُمْ كُلِّ شَيْءٍ وَرِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته: أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مشمرة، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها، استجابةً لخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا تُخْفِي وَمَا تَعْلَمُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٣٨) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٩) ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي﴾ (٤٠) ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤١)

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا تُخْفِي وَمَا تَعْلَمُ﴾، أي: أنت تعلم قصدي في دعائي وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، ولا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء. ثم حمد ربه - عز وجل - على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٩)، أي: إنه ليستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد. ثم قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾، أي: محافظاً عليها مقيماً لحدودها، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، أي: واجعلهم كذلك مقيمين الصلاة، ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي﴾، أي: فيما سألتك فيه كله. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾، وقرأ بعضهم: «ولوالدي، على الأفراد. وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه، لما تبيين له عداوته لله عز وجل، ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: كلهم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾، أي: يوم تحاسب عبادك فتجزئهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢)

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِبِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتَهُمْ هَوَاءً﴾ (٤٣)

يقول: ولا تحسبن الله - يا محمد - غافلاً عما يعمل الظالمون، أي: لا تحسبه إذ أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم، ولا يعاقبهم على صنعم، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعدّه عدّاً، أي: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾، أي: من شدة الأهوال يوم القيامة. ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم ومجيئهم إلى قيام المحشر فقال: ﴿مُهْطِعِينَ﴾، أي: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: ٨]... الآية، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِي بُيُوتُهُمْ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّعْمَانِ فَلَا تُسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (٤٣)، إلى قوله: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (٤٤) [ط: ١٠٨ - ١١١]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَادِ يَرَاءُ كَانْتَهُمْ لِيَنْفُخُوا بُيُوتَهُمْ﴾ (٤٤) [المعارج: ٤٣]. وقوله: ﴿مُقْنِبِي رُءُوسِهِمْ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: رافعي رؤوسهم. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾، أي: أبصارهم طائرة شاخصة، يديمون النظر لا يطفئون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم. عياداً بالله العظيم من ذلك، ولهذا قال: ﴿وَأَفْنَدْتَهُمْ هَوَاءً﴾، أي: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الزجل والخوف. ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنه أفندتهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: ﴿هَوَاءً﴾، خراب لا تعي شيئاً لشدة ما أخبر به الله عنهم، ثم قال تعالى لرسوله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم:

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ قَرِيبٍ يُجِيبُ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعُ الرُّسُلَ أُولَٰئِكَ نَكُودُونَ فَأَسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنَ زَوَالٍ﴾ (٤٤) ﴿وَسَكَتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيْنَكُمْ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ (٤٥) ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٤٦)

الْأَرْضَ وَكَانَ بَلَدٌ لِيَالٍ طَوِيلًا ﴿٤٧﴾ [الإسراء: ٣٧]. والقول الثاني في تفسيرها ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «وإن كانت مَكْرُمٌ لَيَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ»، يقول: شركهم، كقوله: «تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِرُنَّ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَحْرِثُ الْجِبَالُ هَذَا ﴿٤٨﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَكَا ﴿٤٩﴾ [مریم: ٩٠، ٩١]. وهكذا قال الضحاك، وقناة.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعَدِيهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكدًا: «فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعَدِيهِ رُسُلُهُ»، أي: من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أَرَادَهُ وَلَا يُغَالَبُ، وذو انتقام ممن كفر به وجحد، «فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٨﴾» ولهذا قال: «يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ»، أي: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة،

[٤٠٢٢] كما جاء في الصحيحين، من حديث أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بِيضَاءَ عَفْرَاءٍ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ»^(١).

[٤٠٢٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: «يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾»، قالت: قلت أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط»^(٢). رواه مسلم منفردًا به دون البخاري، والترمذي، وابن ماجه، من حديث داود بن أبي هند، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه أحمد أيضًا، عن عفان، عن وهيب، عن داود، عن الشعبي، عنها. ولم يذكر مسروقًا.

[٤٠٢٤] وقال قتادة، عن حسان بن بلال المزني، عن عائشة - رضي الله عنهما - أنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: «يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ»، قال: قالت يا رسول الله، فأين الناس يومئذ؟ قال: «لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد من أمتي، ذاك أن الناس على جسر جهنم»^(٣).

[٤٠٢٥] وروى الإمام أحمد، من حديث حبيب بن أبي عمرة، عن مجاهد، عن ابن عباس: حدثتني عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: «وَالْأَرْضُ جَمِيعًا بَقِيعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» [الزمر: ٦٧]، فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «هم على متن جهنم»^(٤).

[٤٠٢٦] وقال ابن جرير: حدثنا الحسن: حدثنا علي بن الجعد، أخبرني القاسم، سمعت الحسن قال: قالت عائشة: يا رسول الله، «يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ»، فأين الناس يومئذ؟ قال: «إن هذا شيء ما سألتني عنه أحد!» قال: «على الصراط يا عائشة»^(٥). ورواه أحمد، عن عفان، عن القاسم بن الفضل، عن الحسن، به.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٢١ ومسلم ٢٧٩٠ وابن حبان ٧٣٢٠.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٩١ والترمذي ٣١٢١ وابن ماجه ٤٢٧٩ وأحمد ٣٥/٦ وابن حبان ٧٣٨٠.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠٩٧٢ وإسناده ضعيف، حسان عن عائشة فيه إرسال.

(٤) أخرجه أحمد ١١٦/٦ - ١١٧، ولغظه «على جسر جهنم» بدل «على متن جهنم». وإسناده حسن، رجاله ثقات.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠٩٧١ وأحمد ١٠١/٦ وإسناده منقطع الحسن البصري لم يسمع من عائشة، لكن توبع فيما تقدم.

[٤٠٢٧] وقال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثني الحسن بن علي الخلواني، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد - يعني أخاه - أنه سَمِعَ أبا سَلام، حدثني أبو أسماء الرّحبي: أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ حَدَّثَهُ قَالَ: كُنْتُ قَائِماً عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَهُ خَبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ. فَدَفَعْتَهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا، فَقَالَ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟ فَقُلْتُ: أَلَا تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ!؟ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّمَا نَدَعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي». فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» فَقَالَ: أَسْمَعُ بِأَذْنِي. فَكُنْتُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعَوْدٍ مَعَهُ، فَقَالَ: «سَلْ». فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ حِينَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَمَّ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ». قَالَ: فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَارَةٌ؟ قَالَ: «فَقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ». قَالَ الْيَهُودِيُّ: فَمَا تُخَفِّئُهُمْ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «زِيَادَةُ كَيْدِ الْحَوْتِ». قَالَ: فَمَا غِذَاؤُهُمْ فِي آثَرِهَا؟ قَالَ: «يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا». قَالَ: فَمَا شَرَابُهُمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «مَنْ عَيْنٌ فِيهَا تَسْمَى سَلْسِيبِيلاً». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: وَجِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ؟ قَالَ: «يَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» قَالَ: أَسْمَعُ بِأَذْنِي. قَالَ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنِ الْوَلَدِ. قَالَ: «مَاءُ الرَّجُلِ أَيْضُ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ. فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مِنْهُ الرَّجُلُ مِنْهُ الْمَرْأَةُ أَذْكَرَا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِذَا عَلَا مِنْهُ الْمَرْأَةُ مِنْهُ الرَّجُلُ أَتْنَا بِإِذْنِ اللَّهِ. قَالَ الْيَهُودِيُّ: لَقَدْ صَدَقْتَ، وَإِنَّكَ لَنَبِيٌّ. ثُمَّ انصرفت، فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنِ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ، وَمَا لِي عَلِمْتُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى أَتَانِي اللَّهُ بِهِ»^(١).

[٤٠٢٨] قال أبو جعفر بن جرير الطبري: حدثني ابن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا سعيد بن ثوبان الكلاعي، عن أبي أيوب الأنصاري: قال: أتى النبي ﷺ خبير من اليهود فقال: رأيت إذ يقول الله تعالى في كتابه: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ»، فأين الخلق عند ذلك؟ فقال: «أضياف الله، فلن يُعجزهم ما لديهم»^(٢). ورواه ابن أبي حاتم، من حديث أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، به. وقال شعبة: أخبرنا أبو إسحاق، سمعت عمرو بن ميمون - وربما قال: قال عبد الله، وربما لم يقل - فقلت له: عن عبد الله؟ فقال: سمعت عمرو بن ميمون يقول: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ»، قال: أرض كالفضة البيضاء نقيّة، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي، حفاة عراة كما خلقوا، قال: أراه قال: قياماً حتى يُلجِمَهُمُ الْعَرَقُ. ورؤي من وجه آخر عن شعبة، وعن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن ابن مسعود، بنحوه. وكذا رواه عاصم، عن زر، عن ابن مسعود، به. وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون. لم يُخبر به. أورد ذلك كله ابن جرير.

[٤٠٢٩] وقد قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عقيل، حدثنا سهل بن حماد أبو عتاب، حدثنا جرير بن أيوب، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله، عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ» - رضي الله عنه -، قال: «أرض بيضاء لم يسقط عليها

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٣١٥ وابن حبان ٧٤٢٢ والبيهقي في «البعث» ٣١٥.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠٩٧٦ بهذا الإسناد، وهو ضعيف جداً، فيه أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم ضعيف، وسعيد بن ثوبان مجهول لم يذكره إلا ابن أبي حاتم حيث قال: روى عن أبي بكر بن أبي مريم سمعت أبي يقول ذلك أه. وعلى هذا إما أن يكون الإسناد قد قلب عند الطبري أو أن هناك تحريفاً في «الجرح والتعديل» ٩/٤ فيكون الصواب «روى عنه أبو بكر...»، وأياً كان فهو مجهول لم يوثقه حتى ابن حبان، وخبره يدل على سقوطه. والصواب الحديث المتقدم.

دَمْ، ولم يُعْمَل عليها خطيئة»^(١). ثم قال: لا نعلم رفعه إلا جريز بن أيوب، وليس بالقوي.

[٤٠٣٠] ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سنان، عن جابر الجعفي، عن أبي جُبيرة، عن زيد قال: أرسل رسول الله ﷺ إلى اليهود فقال: «هل تدرون لم أرسلت إليهم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإني أرسلت إليهم أسألهم عن قول الله: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ﴾، إنها تكون يومئذ بيضاء مثل الفضة». فلما جاؤوا سألتهم فقالوا: تكون بيضاء مثل النقي^(٢). وهكذا زوي عن علي، وابن عباس، وأنس بن مالك، ومجاهد بن جَبْرِ: أنها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة. وعن علي - رضي الله عنه - أنه قال: تصير الأرض فضةً، والسموات ذهباً. وقال الربيع، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: تصير السموات جناناً. وقال أبو معشر، عن محمد بن كعب القُرظي، أو عن محمد بن قيس في قوله: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ﴾، قال: خبزة يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم. وكذا زوى وكيع، عن عمر بن بشير الهمداني، عن سعيد بن جُبَيْر في قوله: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ﴾، قال: تبدل خبزة بيضاء، يأكل المؤمن من تحت قدميه.

وقال الأعمش، عن خَيْثَمَةَ قال: قال عبد الله - هو ابن مسعود -: الأرض كلها يوم القيامة نار، والجنة من ورائها ترى كواعبها وأكوابها، ويلجئ الناس العرق - أو يبلغ منهم العرق - ولم يبلغوا الحساب. وقال الأعمش أيضاً، عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السكَن قال: قال عبد الله: الأرض كلها نار يوم القيامة، والجنة من ورائها، ترى أكوابها وكواعبها، والذي نفس عبد الله بيده إن الرجل ليفيض عرقاً حتى ترسخ في الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه، وما مسه الحساب. قالوا: مِمَّ ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يرى الناس ويلقون. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن كعب في قوله: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾، قال: تصير السموات جناناً، ويصير مكان البحر ناراً، وتبدل الأرض غيرها.

[٤٠٣١] وفي الحديث الذي رواه أبو داود: «لا يركب البحر إلا غازٍ أو حاجٍ أو مُعْتَمِر، فإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً»^(٣).

[٤٠٣٢] وفي حديث الصور المشهور المروي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: تُبْدَلُ الْأَرْضُ غير الأرض والسموات، فيبسؤها ويمدّها مدّ الأديم المُكَاطِي، لا ترى فيها عوجاً ولا أمّتا، ثم يزجر الله الخلق زجرة، فإذا هم في هذه المبدلة^(٤). وقوله: ﴿وَيَرْزُقُوا لِلَّهِ﴾، أي: خَرَجَتِ الْخَلَائِقُ جَمِيعُهَا مِنْ قُبُورِهِمْ لِلَّهِ ﴿الْوَيْدِ الْقَهَّارِ﴾، أي: الذي قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَعَلَبَهُ، ودانت له الرقاب، وخضعت له الألباب.

(١) الصواب موقوف، أخرجه البزار ١٥٦/٦ في «سننه» والطبراني ١٠٣٢٢٣ من حديث ابن مسعود، قال الهيثمي في «المجمع» ١١١٠٣: فيه جرير بن أيوب البجلي، متروك. ورواه الطبراني ٩٠٠١ موقوفاً على ابن مسعود بإسناد جيد كما قال الهيثمي، وكذا أسنده الطبري ٢٠٩٤١ و ٢٠٩٤٢ و ٢٠٩٤٣ موقوفاً، وهو أصح من المرفوع.

(٢) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٠٩٤٧، وفيه جابر بن يزيد الجعفي، ضعفه الجمهور، واتهمه أبو حنيفة.

(٣) ضعيف، أخرجه أبو داود ٢٤٨٩ والبيهقي ٣٣٤/٤ من حديث بشير أبي عبد الله عن بشير بن مسلم عن ابن عمرو مرفوعاً. وإسناده ضعيف بشير عن بشير كلاهما مجهول كما في التقريب.

وأخرجه البخاري في «تاريخه» ١٠٤/٢/١ من وجه آخر عن بشير بن مسلم بهذا الإسناد، وقال البخاري في ترجمة بشير: لم يصح حديثه، وكذا ضعفه المنذري في «مختصر السنن» ٣٥٩/٣.

(٤) تقدم الكلام على حديث الصور باستيفاء.

﴿وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَعَشَىٰ جُجُوهُهُم نَارًا ﴿٥٠﴾
لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَدُّ الْأَرْضُ عِزَّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾، وتبرز الخلائق لذيابها، ترى - يا محمد - يومئذ المجرمين، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم، ﴿مُّقْرَّنِينَ﴾، أي: بعضهم إلى بعض، قد جُمِعَ بين النظراء أو الأشكال منهم، كلٌ صنّف إلى صنّف، كما قال تعالى: ﴿لَخَشْرُوا الَّذِينَ عَلِمُوا بِأَنزِيلِهِمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ [التكوير: ٧]، وقال: ﴿وَإِذَا أَلْفَاؤُا مِّنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرَّنِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُوكَ ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاسٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٧-٣٨]. والأصفاذ: هي القيود، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبّير، والأعمش، وعبد الرحمن بن زيد. وهو مشهور في اللغة، قال عمرو بن كلثوم:

فَأَبَاوُا بِالنُّهَابِ وَيَالسَّبَايَا وَأَبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصْفَدِينَ

وقوله: ﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ﴾، أي: ثيابهم التي يلبسونها عليهم من قِطْرَانٍ، وهو الذي تُثَنَّا به الإبل، أي: تُطَلَّى، قاله قتادة: وهو الصُّقُّ شيءٌ بالنار. ويُقال فيه: قِطْرَانٌ بفتح القاف وكسر الطاء، وفتح القاف وتسكين الطاء. وبكسر القاف وتسكين الطاء. ومنه قول أبي النجم.

كَأَنَّ قِطْرَانًا إِذَا تَلَاَهَا تَزْمِي بِهِ الرِّيحُ إِلَى مَجْرَاهَا

وكان ابن عباس يقول: القِطْرَانُ هو النحاس المذاب، وربما قرأها: سرابيلهم من قِطْرِ أَنْ، أي: من نحاس حارٍ قد انتهى حره. وكذا زوي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبّير، والحسن، وقتادة. وقوله تعالى: ﴿وَتَعَشَىٰ جُجُوهُهُم نَارًا﴾ كقوله: ﴿تَلْفَحُ جُجُوهُهُم نَارًا وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٥٤].

[٤٠٣٣] وقال الإمام أحمد - رحمه الله -: حدثنا يحيى بن إسحاق، أنبأنا أبان بن يزيد، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد، عن أبي سلام، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعٌ من أمر الجاهلية لا يُتْرَكُن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة. والنائحة إذا لم تُتَّب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربالٌ من قِطْرَانٍ، وِدْرَعٌ من جَرَبٍ»^(١). انفرد بإخراجه مسلم.

[٤٠٣٤] وفي حديث القاسم، عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «النائحة إذا لم تُتَّب توقف في طريق بين الجنة والنار، سرابيلها من قِطْرَانٍ، وتَعَشَىٰ وجهها النار»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ أي: يوم القيامة، كما قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عملُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْمُنْتَقَى﴾ [النجم: ٣١]. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، يَحْتَمِلُ أن يكون كقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١]، وَيَحْتَمِلُ أنه في حال محاسبته لعبده سريع التجاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم. كقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْنِيكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إحصاء. ويحتمل أن يكون المعنيان مُرَادَيْنِ، والله أعلم.

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٩٣٤ وأحمد ٣٤٢/٥ و٣٤٣ و٣٤٤ وابن حبان ٣١٤٣ والبيهقي ٦٣/٤.

(٢) فيه القاسم بن عبد الرحمن غير قوي، لكن يشهد له ما قبله، والله أعلم.

﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَلْعَلُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَيَذَكِّرُوا أُولَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ (٥٢)

يقول تعالى: ﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾، كقوله: ﴿لِيُذَكِّرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَّغٌ﴾، أي: هو بلاغٌ لجميع الخلق من إنس وجان، كما قال في أول السورة: ﴿الرَّكَعَاتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾. ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾، أي: ليتعظوا به، ﴿وَيَلْعَلُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾، أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو، ﴿وَيَذَكِّرُوا أُولَ الْأَنْبِيَاءِ﴾، أي: ذوو العقول.

آخر تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام،
والحمد لله رب العالمين

فهرس المحتويات

٥ سورة الأنعام
١١٨ سورة الأعراف
٢٣٦ سورة الأنفال
٣١١ سورة التوبة
٤٢٥ سورة يونس
٤٦٦ سورة هود
٥١١ سورة يوسف
٥٥٥ سورة الرعد
٥٩١ سورة إبراهيم